

الدَّوْلَةُ الأُمَوِيَّةُ

عَوَامِلُ الازْدِهَارِ وَتَدَاعِيَاتُ الانْهِيَارِ

الدكتور علي محمد الصلابي

المجلد الأول

دار المعرفة
بيروت - لبنان

الدَّوْلَةُ الأُمَوِيَّة

عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار

١

الدَّوْلَةُ الأُمَوِيَّة

عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار

الدكتور علي محمد الصلابي

المجلد الأول

دار المعرفة
بيروت - لبنان

ISBN 9953-85-003-8

الطبعة الثانية
1429 هـ - 2008 م



جسر المطار شارع البرجاوي • هاتف: ٨٣٤٣٠١-٨٣٤٣٣٢
فاكس: ٨٣٥٦١٤ • ص.ب: ٧٨٧٦ - بيروت - لبنان
Airport Bridge Birjawi Str. • Tel: 834301-834332
Fax: 835614 • P.O.Box: 7876 Beirut - Lebanon
Email: info@marefah.com • www.marefah.com

الإهداء

الى كل مسلم حريص على اعزاز دين الله تعالى أهدي هذا الكتاب سائلاً المولى عَزَّوَجَلَّ بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يكون خالصاً لوجهه الكريم.

قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾

[الكهف: 110].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: 102].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: 1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: 70-71].

يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، ولك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضى، أما بعد:

هذا الكتاب امتداد لما سبقه من كتب درست عهد النبوة وعهد الخلافة الراشدة، وقد صدر منها السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، والحسن بن علي، ﷺ جميعاً، وقد سميت هذا الكتاب: الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، ويتحدث هذا الكتاب عن الجذور التاريخية للأسرة الأموية، وشهادة التاريخ بين الهاشميين والأمويين، وموقف بني أمية من الدعوة الإسلامية، وعن الأمويين الذين أسلموا منذ بداية الدعوة الإسلامية وعن المصاهرات بين بني هاشم وبني أمية، وعن شخصية معاوية بن أبي سفيان وعصره رضي الله عنه، فيتطرق لاسمه ونسبه وكنيته وأسرته، وعن إسلام أبي سفيان والد معاوية رضي الله عنه، وعن هند بنت عتبة بن ربيعة أم معاوية رضي الله عنها، وعن إخوان وأخوات معاوية، ويتحدث عن زوجات معاوية وأولاده وعن إسلام معاوية رضي الله عنه وشيء من فضائله، وعن رواية معاوية لحديث رسول الله ﷺ، وعن الأحاديث الباطلة التي لا تصح في شأن معاوية مدحاً وذماً، ويتكلم الكتاب عن دور بني أمية في عهد رسول الله ﷺ، وعهد الخلافة الراشدة، ويشير إلى متى بدأ نجم معاوية في الظهور، وعن ولايته على دمشق وبعلبك والبلقان في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وعلاقته بعمر رضي الله عنهما، ويبين الكتاب جهود معاوية رضي الله عنه على جبهة الشام، وعن سنّ نظام

الصوائف والشواتي في عهد عمر، وعن تكوين أسطول إسلامي في البحر، وعن أعمال معاوية في عهد عثمان بن عفان ﵁، فيوضح فتوحاته في عهده، وإصراره في الطلب من عثمان السماح له بالغزو البحري، وعن غزوه لقبرص واستسلام أهلها وطلب الصلح، ثم نقض القبارصة للصلح ثم فتحها، ويتعرض الكتاب لحقيقة الخلاف بين أبي ذر ومعاوية وموقف عثمان ﵄ منه ويرد الكتاب عن الشبهات التي ألصقت بعثمان ﵁ كاتهامه بإعطاء أقاربه من بيت المال، وتعيينه لأقاربه في مناصب الدولة على حساب المسلمين، ويتطرق الكتاب لأسباب فتنة مقتل عثمان ﵁ كالرخاء وأثره في المجتمع وطبيعة التحول الاجتماعي في عهده وظهور جيل جديد، واستعداد المجتمع لقبول الشائعات، ومجيء عثمان بعد عمر ﵄، وخروج كبار الصحابة من المدينة، والعصبية الجاهلية، وتوقف الفتوحات بسبب موانع طبيعية أو بشرية، والمفهوم الخاطىء للورع، وظهور جيل جديد من الطامحين، ووجود طائفة موتورة من الحاقدين، والتدبير المحكم لإثارة المآخذ ضد عثمان ﵁ واستخدام الأساليب والوسائل المهيِّجة للنَّاس، ودور عبد الله بن سبأ في تحريك الفتنة، وموقف معاوية بن أبي سفيان في الفتنة، ويتحدث عن مشورة عثمان لولاة الأمصار ورأي معاوية في ذلك، وعن مقتل عثمان وموقف الصحابة منه، وعن معاوية في عهد علي بن أبي طالب ﵄، ويتطرق الكتاب إلى اختلاف الصحابة في الطريقة التي يأخذ بها القصاص من قتلة عثمان، وإلى معركة صفين وإلى تسلسل الأحداث، ابتداءً من إرسال أم حبيبة أم المؤمنين بنت أبي سفيان للنعمان بن بشير بقميص عثمان إلى معاوية وأهل الشام، ودوافع معاوية ﵁ في عدم بيعة علي ﵁ ورده على أمير المؤمنين علي، وعن تجهيز أمير المؤمنين علي لغزو الشام، وإرساله جرير بن عبد الله إلى معاوية بعد معركة الجمل لدعوته للبيعة، ومسيرة أمير المؤمنين علي إلى الشام، وخروج معاوية إلى صفين، وبداية المناوشات بين الطرفين، والموادعة بينهما ومحاولات الصلح ثم نشوب القتال ثم الدعوة إلى التحكيم، ويتكلم الكتاب عن مقتل عمّار بن ياسر ﵁ وأثره على المسلمين، وعن المعاملة الكريمة أثناء الحرب المواجهة، ومعاملة الأسرى عند أمير المؤمنين علي ﵁، وعن عدد القتلى، وعن تفقد أمير المؤمنين علي للقتلى وترحمه عليهم، وعن موقف لمعاوية مع ملك الروم في تلك الأحداث، وعن قصة باطلة في حق عمرو بن العاص بصفين، وعن إصرار قتلة عثمان ﵁ أن تستمر المعركة وعن نهي أمير المؤمنين علي شتم معاوية ولعن أهل الشام، وعن التحكيم، وعن نص وثيقة التحكيم، وعن قصة التحكيم المشهورة وبيان بطلانها، وعن حقيقة قرار التحكيم، ومكان انعقاد المؤتمر، وأشار الكتاب إلى إمكانية الاستفادة من حادثة التحكيم في فض المنازعات بين الدول الإسلامية، هذا وقد بينت موقف أهل السنة والجماعة من تلك الحروب، وتكلمت عن تغيير الموازين لصالح معاوية بعد معركة صفين، وعن المهادنة بين أمير المؤمنين علي ومعاوية ﵄، وعن استشهاد

أمير المؤمنين علي واستقبال معاوية خبر مقتله، ثم تحدثت عن المشروع الإصلاحي الكبير في عهد الحسن بن علي والذي توّج بوحدة الأمة وذلك بتنازل الحسن بالخلافة لمعاوية ﵄ وأشرت إلى مراحل الصلح وشروطه وأسبابه ومعوقاته ونتائجه، كما وضحت الفقه الكبير في مقاصد الشريعة وفقه المصالح والمفاسد وفقه الخلاف الذي تميز به الحسن بن علي والذي بنى عليه مشروعه الإصلاحي العظيم والذي ترتب عليه دخول الأمة الإسلامية في مراحل جديدة تمّ فيها بيعة معاوية ﵁ من كافة الصحابة الأحياء وأبناء الأمة، ووضحت صفات معاوية ﵁ والتي من أهمها: العلم والفقه، والحلم والعفو، والدهاء والحيلة، وعقليته الفذة وقدرته على الاستيعاب، وتواضعه وورعه، وبكاؤه من خشية الله، ونقلت ثناء العلماء على معاوية، وأشرت إلى دخول دولة بني أمية في خير القرون والتي قال فيها رسول الله ﷺ: «خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»[1]، وتحدثت عن عاصمة الدولة الأموية وأحاديث الرسول ﷺ في فضائل أهل الشام، وعن أهل الحل والعقد في عهد معاوية ﵁، وعن الشورى، وحرية التعبير وعن سياسته الداخلية، من الإحسان إلى كبار الشخصيات من شيوخ الصحابة، وأبنائهم، وحسن علاقته مع الحسن والحسين وابن الزبير وابن عباس وغيرهم ﵃، وبينت بيان بطلان تعميم معاوية سب أمير المؤمنين علي على منابر الدولة الأموية، وزعم بعض المؤرخين بأن معاوية سمّ الحسن بن علي، فأثبتت بالحجج العلمية والبراهين الساطعة بطلان ذلك أيضاً، وتعرضت لموقف معاوية من قتلة عثمان بعدما أصبح أمير المؤمنين، وكذلك مقتل حجر بن عدي ﵁، وموقف عائشة أم المؤمنين من مقتله، كما أوضحت حرص معاوية على مباشرة الأمور بنفسه وتوطين الأمن في خلافته، فتحدثت عن مجلسه في يومه، وعن الدواوين المركزية التابعة له، كديوان الرسائل، وديوان الخاتم، وديوان البريد، وعن نظام الحجابة، والحرس، والشرطة، وعن حسن اختياره للرجال والأعوان، وعن استخدامه للمال في تأكيد ولاء الأعوان وتأليف القلوب، واتباعه سياسة الشدة واللين، وسياسة المنفعة المتبادلة بين بني أمية ورعيتهم، واتخاذه سياسة إعلامية للإشادة به وبخلافته، وجعل الناس يميلون إليهم، وعن اهتمامه بجهاز الاستخبارات، وبناء الجيش الإسلامي وتطويره، وعن فقهه الكبير في سياسة الموازنات بين القبائل، والعشائر، وأعيان المجتمع، وعن سياسته مع الأسرة الأموية، وتكلمت عن حياته في المجتمع وعن اهتماماته العلمية والتاريخية والشعرية واللغوية والعلوم التجريبية، وأفردت مباحث في علاقته بالخوارج، ووسائله في تحجيم دورهم وإضعافهم، وبينت النظام المالي في عهده، ومصادر دخل الدولة، كالزكاة، والجزية، والخراج، والعشور، والصوافي، والغنائم، وعن النفقات

---

(1) البخاري رقم 6695.

العامة، كالنفقات العسكرية، والإدارية، والاجتماعية واهتمامه بالزراعة والتجارة الداخلية والخارجية، والحرف والصناعات، وأثرت قضية الشبهات حول مصارف الأموال في عهد معاوية وناقشتها بعلم وإنصاف، كالتفرقة في العطاء وكذبة إعطاء مصر طعمة لعمرو بن العاص، وكالتوسع في إنفاق الأموال لتأليف القلوب واكتساب الأنصار، ومظاهر الترف عند الأمويين، وأفردت مبحثاً عن القضاء في عهد معاوية، والدولة الأموية، وصلته بالعهد الراشدي وتخلي الخلفاء عن ممارسة القضاء وفصل السلطات، ومرتبات القضاة وتسجيل الأحكام والإشهاد عليها، وأعوان القضاة، كالمنادي والحاجب، والترجمان أو المترجم، والمراقبة والمتابعة وعن مصادر الأحكام القضائية في العهد الأموي وعن اختصاص القضاة، وذكرت أسماء أشهر القضاة في عهد معاوية كما أشرت إلى ميزات القضاء في عهد معاوية والأمويين عموماً، وإلى خطاب عمر بن الخطاب إلى معاوية ﷺ في القضاء، وتكلمت عن مؤسسة الشرطة في عهد معاوية وواجباتها، كحماية الخليفة وولاة الأمصار ضد مناوئيهم في الداخل، ومعاقبة المذنبين والخارجين عن القانون، وتنفيذ العقوبات الشرعية، وعن قوات ومؤسسات أخرى وعلاقتها بالشرطة كالحرس والعرفاء، وصاحب الاستخراج أو العذاب، وجهاز الحسبة، ونظام المراقبة، ومؤسسة الدرك، وتحدثت عن مؤسسة الولاة والإدارة في عهد معاوية رضي الله عنه وأهم الأقاليم التابعة لدولته وأسماء أشهر ولاته وأهم أعمالهم في تلك الأقاليم، وعندما تحدثت عن المدينة النبوية ترجمت لشخصية أبي هريرة رضي الله عنه حيث توفي بها عام 58 هـ أو 59 هـ وقد عاش في عهد معاوية ما يقرب من ثمانية عشر سنة، وقد تعرض هذا الصحابي الجليل لهجمة ظالمة من قبل أعداء الصحابة في القديم والحديث وتلقف تلك الاتهامات الباطلة مجموعة من المستشرقين فرأيت لازماً عليّ أن أدافع عن هذا الصحابي الجليل الذي يعتبر من أكبر رواة السنة النبوية الشريفة، فعرفت به وبشيء من حياته، كعبادته وعفافه وحلمه وعفوه، واهتمامه بالعلم ورددت على الشبهات التي أثيرت حوله والتي هدفها التشكيك في ما وصل إلينا من سنة رسول الله ﷺ وذلك بالطعن في هذا الصحابي الجليل رضي الله عنه وكان لسان حالي في مجادلة أولئك الكذابين قول الشاعر:

وإذا اضطررت على الجدال ولم تجد	لك مهرباً وتلاقت الصفان
فاجعل كتاب الله درعاً سابغاً	والشرع سيفك وابد في الميدان
والسُّنةُ البيضاء دونك جنة	واركب جواد العزم في الجولان
واثبت بصبرك تحت ألوية الهدى	فالصبر أوثق عدة الإنسان
واطعن برمح الحق كل معاند	لله درُّ الفارس الطعان
واحمل بسيف الصِّدق حملة مخلص	متجرّداً للّه غير جبان

هذا وقد وصفت حركة الفتوحات في عهد معاوية رضي الله عنه ،وقدمت بين يدي حركة الفتوحات

مقدمة تناقش الشبهات التي ألصقت بها كذباً وزوراً وبهتاناً، إن معاوية ﷺ حمى وعزّز منجزات الموجة الأولى في حركة الفتح التي قادها وخطط لها الخلفاء الراشدون، فالموجة الثانية لحركة الفتوح هي التي بدأت في عهد معاوية نفسه واستمرت فيما بعد لكي تبلغ أقصى اتساعها في عهد الوليد بن عبد الملك، لقد وصفت ما قام به معاوية من حركة الجهاد ضد الدولة البيزنطية واهتمامه بفتح القسطنطينية، وتخطيطه الاستراتيجي للاستيلاء عليها، كاهتمامه بدور صناعة السفن في مصر والشام وتقوية الثغور البحرية بهما، واستيلاؤه على الجزر الواقعة شرقي البحر المتوسط، وتحصينه أطراف الشام الشمالية، وقد قام بحصار القسطنطينية، وقد توفي أبو أيوب الأنصاري أثناء هذا الحصار، وقد ترك أبو أيوب ﷺ في وصيته بأن يدفن في أقصى ما يمكن من أرض العدو ، وهذه صورة رائعة تدل على تعلقه بالجهاد، فيكون بين صفوفهم حتى وهو في نعشه على أعناقهم وأراد أن يتوغل في أرض العدو حياً وميتاً، وكأنما لم يكفه ما حقق في حياته فتمنى مزيداً عليه بعد مماته، وهذا ما لا غاية بعده في مفهوم المجاهد الحق بالمعنى الأصح الأدق.

هذا وقد استطاع معاوية ﷺ أن يضيق الخناق على الدولة البيزنطية بالحملات المستمرة براً وبحراً، وقد أرهق البيزنطيين وأذاقهم ألوان الضنك والخوف وأنزل بهم خسائر فادحة، بالرغم من كل ذلك لم يستطع اقتحام القسطنطينية بسبب عوامل عديدة سيراها القارىء في الكتاب بإذن الله تعالى، وقد دخل معاوية في علاقات سلمية مع الدولة البيزنطية، وتم تبادل المراسلات والخبرات والسفراء فيما بين الدولتين الأموية والبيزنطية، وواصل معاوية فتوحاته في الشمال الإفريقي، وانطلقت حملة معاوية بن حديج ﷺ في عهده، وبرز اسم عقبة بن نافع في تلك الفتوحات وقام ببناء مدينة القيروان بتونس اليوم وكان ذلك في عهد معاوية، وقد أصبحت القيروان مركز الإشعاع الحضاري الإسلامي بالمغرب وعاصمتها العلمية، وسيمضي القارىء مع الفتوحات في الشمال الإفريقي حتى استشهاد عقبة رحمه الله تعالى. وتحدثت في فتوحات معاوية في الجناح الشرقي للدولة الأموية في خراسان وسجستان وما وراء النهر، وعن فتوحات السند في عهده ولخصت أهم الدروس والعبر والفوائد من الفتوحات والتي من أهمها: أثر الآيات والأحاديث النبوية في نفوس المجاهدين، وسنن الله في الفتوحات، كسنة الله في الاتحاد والاجتماع، وسنة الأخذ بالأسباب، وسنة التدافع، وسنة الله في الظلم والظالمين، وسنة الله في المترفين، وسنة الله في الطغيان والطغاة، وسنة التدرج، وسنة تغيير النفوس، والتخطيط الاستراتيجي للفتوحات عند معاوية، وسياسته تجاه الروم، وجبهة الشمال الإفريقي، وجبهة سجستان وخراسان وما وراء النهر، وإدارته للشورى في حركة الفتوحات، ومركزية القيادة والإمداد في إدارته، ونظام الألوية والرايات واهتمامه بالعيون والبريد، والحدود البرية للدولة، واهتمامه بالأسطول والحدود البحرية، وبديوان الجند

والعطاء، والأثر العلمي والاقتصادي والاجتماعي في عهده، وتحدثت عن بعض كرامات المجاهدين في عهده.

إن من فضائل الدولة الأموية في عهد معاوية وعبد الملك وبنيه الوليد وسليمان الفتوحات الواسعة التي تمت على أيديهم، والتي امتدت ديار الإسلام نتيجة ذلك بين الصين في الشرق وبلاد الأندلس وجنوبي فرنسا في الغرب، وكان الخلفاء يرسلون أبناءهم إلى الجهاد ويشهدون القتال وكان الصحابة وكبار التابعين من ضمن تلك الجيوش، فحركة الفتوحات أشرفت عليها الدولة وتفاعل معها المجتمع الإسلامي بكافة ألوانه من العلماء والفقهاء والتجار والزهاد والعباد، وتحركت تلك الجيوش في المشارق والمغارب، كان الفاتحون لتلك الشعوب المترامية الأطراف قد جاؤوها بالعدل والإحسان ومطالب الروح ومطالب البدن، وجاءوا إليهم بدين الإسلام الذي يقرّر الإنسانية بمعناها الصحيح في هذه الأرض، لذلك كان الإسلام سريع المدخل إلى نفوسهم، لطيف التخلل في الأفكار، قوي التأثير على الألباب والعقول وجاء الفاتحون لتلك الشعوب بالحقائق التي سعد بها أصحاب محمد وأسعدوا بها تلك الأمم قال الشاعر:

الله أكبر إن دين محمد	وكتابه أقوى وأقوم قيلا
طلعت به شمس الهداية للورى	وأبى لها وصف الكمال أفولا
والحق أبلج في شريعته التي	جمعت فروعاً للهدى وأصولا
لا تذكروا الكتب السوالف عنده	طلع الصباح فأطفئوا القنديلا

لقد كانت الفتوحات الكبرى في عهد معاوية والدولة الأموية دليلاً ملموساً على حيوية الأمة وتفاعلها مع دين الله وحرصها على هداية الشعوب.

هذا وقد تكلمت عن فكرة ولاية العهد والخطوات التي اتبعها معاوية لبيعة يزيد، من مشاورات، وحملات إعلامية وقبول أهل الشام لبيعة يزيد، وبيعة الوفود، وطلب البيعة من أهل المدينة، واعتراض عبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن الزبير والحسين ابن علي ﷺ عن تلك البيعة، وعن أسباب ترشيح معاوية لابنه يزيد، كالحفاظ على وحدة الأمة، وقوة العصبية القبلية، ومحبة معاوية لابنه وقناعته به، وعن الانتقادات التي وجهت لمعاوية بشأن البيعة ليزيد، وعن المآخذ على فكرة ولاية العهد في عهد معاوية، وعن الأيام الأخيرة من حياته، وعن دعائه وهو في سكرات الموات وقوله: «اللهم أقل العثرة، واعف عن الزلة وتجاوز بحلمك عن جهل ما لم يَرْجُ غيرك فإنك واسع المغفرة ليس لذي خطيئة مهرب إلا إليك»، ثم مات، وتحدث الكتاب عن عهد يزيد بن معاوية بن أبي سفيان وأهم صفاته وبيعته وموقف الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير منها، والأسباب التي أدت إلى خروج الحسين والفتوى التي بنى عليها خروجه، وعزم الحسين على الذهاب إلى الكوفة ونصائح الصحابة

والتابعين ورأيهم في ذهابه إليها، وعن موقف يزيد من أحداث الكوفة ودور عبيد الله بن زياد في القضاء على مسلم بن عقيل وأنصاره، وعن أحداث معركة كربلاء واستشهاد الحسين بن علي رضي الله عنه ،وعن المواقف الرائعة التي كانت بجانب الحسين رضي الله عنه وموقف يزيد بن معاوية من قتله ومن أبناء الحسين وذريته وبينت من المسؤول عن قتل الحسين وذكرت أقوال الناس في يزيد بن معاوية وهل يجوز لعنه؟ وحذرت من الأساطير التي نسجت حول مقتل الحسين رضي الله عنه ووضعت أهم الدروس والعبر والفوائد من سيرته في نقاط والتي كان من أهمها: هدي رسول الله ﷺ في يوم عاشوراء، وآداب التعامل مع المصائب في الإسلام، والتحقيق في مكان رأس الحسين، وحكم الإسلام من تقديس أضرحة الأئمة وزيارة قبر الحسين وقدسية كربلاء، وهدي الإسلام في زيارة القبور، والبناء عليها واتخاذها مساجد، وخروج الحسين رضي الله عنه ، واستغلال القوى المضادة للإسلام لمقتله وحادثة كربلاء، ثم تحدثت عن وقعة الحرّة، وما قيل حول انتهاك الأعراض في تلك الوقعة ودواعي فشل أهل المدينة في تلك المعركة، وتكلمت عن حركة ابن الزبير في عهد يزيد، وأسباب اختيار ابن الزبير لمكة في مقاومته للحكم الأموي، وأسباب خروجه عليهم والجهود السليمة التي بذلها يزيد لاحتواء ابن الزبير، والجهود الحربية أيضاً، وحصار الكعبة وضربها بالمنجنيق واحتراقها ووفاة يزيد بن معاوية المفاجىء، ثم تحدثت عن خلافة معاوية بن يزيد ومدة حكمه وتنازله عن الخلافة وتركه للأمر شورى، ثم ذكرت خلافة عبد الله بن الزبير وشيء من سيرته وصفاته وبيعة الناس له بالخلافة وكون بيعته كانت شرعية، فقد بايعه معظم المسلمين إلا إقليم الأردن، وبعض الشخصيات المهمة بالحجاز كعبد الله بن عمر وابن عباس ومحمد ابن الحنفية، ثم تعرضت لخروج مروان بن عبد الحكم على ابن الزبير وأهمية مؤتمر الجابية ومعركة مرج راهط في حسم الصراع لصالح البيت الأموي، وتحدثت عن ضم مصر للدولة الأموية ومحاولتها لإعادة العراق والحجاز لهيمنتها، وعن تولي عبد الملك الزعامة الأموية بعد وفاة أبيه مروان، وبينت سياسته الداخلية وترتيبه للأولويات في الصراع حتى استطاع القضاء على الخليفة الشرعي عبد الله بن الزبير رضي الله عنه وأشرت إلى أهم أسباب سقوط خلافة ابن الزبير رضي الله عنه ثم دخلت في عهد عبد الملك بن مروان، وصراعه مع الخوارج، ودور المهلب بن أبي صفرة في القضاء على الخوارج الأزارقة واهتمام الدولة الأموية بمحاربة الخوارج الصفرية، وترجمت لشخصيات من الخوارج كقطري بن الفجاءة وعمران بن حطان وذكرت شيئاً من أشعارهم وأشرت إلى أسباب فشل الخوارج في عهد عبد الملك، وقمت بدراسة لثورة عبد الرحمٰن بن الأشعث وأسباب خروجه وموقف العلماء منها وأسباب فشلها، وتكلمت عن جهود عبد الملك في توحيد الدولة والقضاء على الثورات الداخلية وعن النظام الإداري وأهم الدواوين التي كانت في عهده كديوان الرسائل والعطاء والخراج والخاتم والبريد، وعن دوره في تعريب الدواوين

وأسباب ذلك والنتائج التي ترتبت عليه، وعن إدارته للإقليم، وألمحت للخطوط العامة لسياسته في إدارة شؤون الدولة، كالمشاورة واعتماده على أهل الشام، ووضع الشخص المناسب في المكان المناسب ومتابعة أخبار الولاة، وتقديم الأقرباء في المناصب وحفظ التوازن القبلي، وتسامحه مع أهل الكتاب واحترام وتقدير الشخصيات البارزة في المجتمع، وتحجيم الولاة إذا أرادوا تجاوز الخطوط الحمراء، . .الخ وترجمت لأهم ولاته كالحجّاج بن يوسف الثقفي، وذكرت النظام المالي في عهده وأشرت إلى القطاع الزراعي والصناعي، ودور عبد الملك في إحداث دور ضرب العملة، وتعريب النقد وتطرقت للعمارة والبناء والنظام القضائي والشرطة في عهده، واهتمامه بالعلماء والشعراء، وأفردت فصلاً كاملاً عن الفتوحات في عهده وعهد ولديه الوليد وسليمان لكي نعطي صورة متكاملة عنها بسبب ترابطها ببعضها، ولخصت أهم الدروس والعبر والفوائد من الفتوحات، كأسباب دخول الإسلام في البلاد المفتوحة، كعالمية الدعوة، والمعاملة السمحة الكريمة من المسلمين، وكتفسير حركة التعريب بين الشعوب من هجرة القبائل العربية إلى البلاد المفتوحة، وتعريب الدواوين وتفوق الحضارة الإسلامية. .الخ، وتحدثت عن عقد عبد الملك لولاية العهد لابنه الوليد ثم سليمان وموقف العالم الجليل سعيد بن المسيب من ذلك وما تعرض له من الابتلاء بسبب ذلك، وذكرت وصية عبد الملك لابنه الوليد عند موته ووصيته لبنيه، ثم دخلت في عهد الوليد بن عبد الملك وتحدثت عن أهم أعماله الحضارية والإنسانية، من توسيع المسجد النبوي، وبناء المسجد الأموي، والمستشفيات في عهده، وكفالة الدولة للمحتاجين وتطوير الطرق، وغير ذلك من الأعمال. وترجمت لزوجته أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان، فذكرت خشيتها لله وجودها وكرمها، وبينت بطلان ما ينسب إليها في كتب الأدب في قصتها المكذوبة مع وضاح اليمن وحذرت من الأكاذيب والأباطيل التي تذكر أحياناً في كتب التاريخ والأدب في حق مثل هذه التابعية الجليلة، ثم دخلت في عهد سليمان بن عبد الملك وتحدثت عن سياسته العامة، ومفهوم الشورى عنده وسياسته في اختيار الولاة وسياسته تجاه الحركات المعارضة وعلاقته بالعلماء وتقريبه لعمر بن عبد العزيز ورجاء بن حيوة، ونسفت بعض الشبهات الملصقة بسيرته كوصف بعض المؤرخين له بأنه المصيبة العظمى في الأكل فبيّنت بطلان ذلك ثم ذكرت جهود رجاء بن حيوة في تولية عمر بن عبد العزيز، ثم دخلت في عهد الإصلاحي الكبير والمجدد الشهير عمر بن عبد العزيز، فتحدثت عن حياته وسيرته وطلبه للعلم وعن أهم أعماله في عهد الوليد وسليمان، وعن خلافته وبيعته ومنهجه في إدارة الدولة، واهتمامه بالشورى والعدل وسياسته في رد المظالم وعزله لجميع الولاة الظالمين، ورفع المظالم عن الموالي وأهل الذمة وإقامة العدل لأهل سمرقند وعن الحريات في دولته، كالحرية الفكرية والعقدية والسياسية والشخصية، وحرية التجارة والكسب، وذكرت أهم صفاته، كشدة خوفه من الله تعالى،

وزهده، وتواضعه وورعه، وحلمه وصفحه وعفوه، وصبره، وحزمه، وعدله وتضرعه ودعاؤه واستجابة الله له، وتحدثت عن معالم التجديد عند عمر بن عبد العزيز، كالشورى، والأمانة في الحكم وتوكيل الأمناء، وإحياؤه مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومبدأ العدل، وعن شروط المجدد، كأن يكون معروفاً بصفاء العقيدة وسلامة المنهج وأن يكون عالماً مجتهداً، وأن يشمل تجديده ميدان الفكر والسلوك وأن يعم نفعه أهل زمانه، وتكلمت عن اهتمام عمر بن عبد العزيز بعقائد أهل السنة والجماعة، في توحيد الألوهية وفي باب أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، وفي مفهوم الإيمان والإيمان باليوم الآخر والمعتقدات الغيبية، كعذاب القبر ونعيمه والمعاد، والميزان والحوض والصراط والجنة والنار ورؤية المؤمنين ربهم في الجنة والدعوة للاعتصام بالكتاب والسنة وسنة الخلفاء الراشدين، وموقفه من الصحابة والخلاف بينهم وموقفه من أهل البيت وتحدثت عن معاملته للخوارج والشيعة والقدرية، وعن حياته الاجتماعية، واهتمامه بأولاده وأسرته ومنهجه في تربيته لأولاده كاختيار المعلم والمؤدب الصالح، وتحديد المنهج العلمي وتحديد طريقة التأديب والتعليم، وتحديد أوقات وأولويات التعليم، ومراعاة المؤثرات التعليمية وعن نتائج ذلك المنهج وتأثر ابنه عبد الملك به، وتكلمت عن حياته مع الناس، واهتمامه بإصلاح المجتمع، وتذكيره الناس بالآخرة، وتصحيح المفاهيم الخاطئة، وإنكاره العصبية القبلية، وتقديره لأهل الفضل وقضاؤه ديون الغارمين، وفك أسرى المسلمين، وإغناؤه المحتاجين عن المسألة، ودفع المهور من بيت المال، وجهوده في التقريب بين طبقات المجتمع، ومعاملته للشعراء، واهتمامه الكبير بالعلماء، ومشاركتهم الفعّالة معه لإنجاح مشروعه الإصلاحي، فتقرًبوا منه وشدوا أزره للسير في منهجه التجديدي، وتعهدوه بالنصح والتذكير بالمسؤولية، واستعدادهم لتولي مختلف مناصب الدولة وأعمالها، وتحدثت عن المدارس العلمية في عهده وعهد الدولة الأموية، كمدرسة الشام والحجاز، والعراق ومصر. الخ، وعن منهج التابعين في تفسير القرآن الكريم، وجهودهم في خدمة السنة ودور عمر بن عبد العزيز في تدوينها، وأشرت إلى منهج التزكية والسلوك عند التابعين، وأخذت مدرسة الحسن البصري مثالاً على ذلك فتحدثت عنها وعن تلاميذها كأيوب السختياني، ومالك بن دينار، ومحمد بن واسع، وبينت براءة الحسن البصري من الاعتزال وتحدثت عن علاقة الحسن البصري بعمر بن عبد العزيز ورسائله إليه، التي يبين فيها صفات الإمام العادل في نظره، وذكرت موقف عمر بن عبد العزيز وأسباب رفعه لحصار القسطنطينية واهتمامه بالدعوة الشاملة، ووضعه لقانون التفرغ للدعاة والعلماء وحضه على نشر العلم وتعليمه وتوجيه الأمة إلى أهميته، وإرسال العلماء الربانيين في شمال أفريقيا وغيرها لتعليم الناس وتربيتهم على الكتاب والسنة، وإرساله الرسائل الدعوية إلى الملوك بالهند وغيرها، وتشجيعه غير المسلمين على الدخول في الإسلام، وأفردت مبحثاً

لإصلاحاته المالية وسياسته الحكيمة في ذلك وحرصه على ترسيخ قيم الحق والعدل ورفع الظلم، فبينت أهداف السياسة الاقتصادية عنده، من إعادة توزيع الدخل والثروة بشكل عادل وتحقيق التنمية الاقتصادية والرفاه الاجتماعي، وأشرت إلى العوامل المساعدة لتحقيق تلك الأهداف كتوفير المناخ المناسب للتنمية ورد الحقوق لأصحابها وفتح الحرية الاقتصادية بقيود، وأتباع سياسة زراعية جديدة تمنع بيع الأرض الخراجية، وتعتني بالمزارعين وتخفف الضرائب عنهم، وحث الناس على الإصلاح والإعمار وإحياء أرض الموات، وتوفير مشاريع البنية التحتية، وتحدثت عن سياسته في الإنفاق العام، كإنفاق عمر على الرعاية الاجتماعية وترشيد الإنفاق في مصالح الدولة، كقطع الامتيازات الخاصة بالخليفة وبأمراء الأمويين، وترشيد الإنفاق الإداري والحربي، وتكلمت عن المؤسسة القضائية في عهده وبعض اجتهاداته الفقهية كرأيه في الهدية لولاة الأمر ونقض الأحكام إذا خالفت النصوص الشرعية وغير ذلك من الاجتهادات الفقهية والقضائية، وتحدثت عن سياسته الإدارية وأشهر ولاته وحرصه على انتقاء عماله من أهل الخير والصلاح، وإشرافه المباشر على إدارة شئون الدولة وعن قدراته في التخطيط والتنظيم، وعن أسلوبه في الوقاية من الفساد الإداري، كالتوسعة على العمال في الأرزاق وحرصه على الوقاية من الكذب، والامتناع عن أخذ الهدايا والهبات والنهي عن الإسراف والتبذير، ومنع الولاة والعمال من ممارسة التجارة، وفتح قنوات الاتصال بين الوالي والرعية، ومحاسبته للولاة من قبله عن أموال بيت المال، وتطرقت إلى مفهوم المركزية واللامركزية في إدارة، عمر بن عبد العزيز واهتمامه بمبدأ المرونة، وتوظيفه للوقت في خدمة الدولة والرعية، وممارسته لمبدأ تقسيم العمل في الإدارة وحرصت على بيان بواعث عمر بن عبد العزيز في إصلاحه وتجديداته، المالية والسياسية والإدارية، . . الخ، وأشرت إلى حرصه على تنفيذ أحكام الشريعة على الدولة والأمة والمجتمعات والأفراد، وأشرت إلى آثار التمسك بأحكام القرآن الكريم والسنة النبوية وهدي الخلافة الراشدة على دولته، من التمكين والأمن والاستقرار، والنصر والفتح، والعز والشرف وبركة العيش ورغده وعشت مع الأيام الأخيرة من حياة هذا المصلح الكبير حتى وفاته.

إن ظهور عمر بن عبد العزيز في تلك المرحلة التاريخية الحرجة من تاريخ الأمة ومحاولته العظيمة للعودة بالحياة إلى تحكيم الشريعة وآفاق الخلافة الراشدة الملتزمة بمعطيات القرآن والسنة، ظاهرة فذة تحمل في دلالتها ليس على بطولة القائد فحسب، وإنما على قدرة الإسلام نفسه على العودة باستمرار لقيادة الحياة السياسية والتشريعية والحضارية في نهاية الأمر وصياغتها بما ينسجم ومبادئه الأساسية[1].

---

(1) في التأصيل الإسلامي للتاريخ، د. عماد الدين خليل ص: 62.

إن خلافة عمر بن عبد العزيز حجة تاريخية على من لا يزال يردد الكلمات والأصوات القائلة: إن الدولة التي تقوم على الأحكام الإسلامية والشريعة عرضة للمشاكل والأزمات وعرضة للانهيار في كل ساعة، وإنها ليست إلا حُلماً من الأحلام ولا يزال التاريخ يتحدى هؤلاء ويقول لهم: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة: 111].

ولقد سار نور الدين زنكي المتوفى عام 568 على منهج عمر بن عبد العزيز وأخذه نموذجاً ومثالاً له في القدوة والتأسي، فآتت محاولته الإصلاحية ثمارها للأمة وساهمت في نهوضها وعودة الوعي لها وتغلبت على أعدائها الصليبيين وطهرت بيت المقدس على يدي تلميذه، القائد الأشم، البطل المغوار صلاح الدين الأيوبي، كثر الله من أمثاله في جيلنا.

إن الإصلاح ـ كما يفهمه المسلمون الصادقون لا كما يروّج أعداء الإسلام ـ هو الغاية من إرسال الله تعالى الرسل إلى الناس قال شعيب عليه السلام لقومه الغارقين في الضلال والفساد في العقيدة والسلوك: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود: 88].

وقد اضطلع بمهمة الإصلاح لشؤون البشر ـ بعد مصلح الإنسانية الأعظم محمد ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ وسار على منهاج النبوة خلفاؤه الراشدون، وعلماء الأمة الأبرار كعمر بن عبد العزيز، والأمة الآن في أشد الحاجة لمعرفة هدي المصلحين ابتداء من النبي الكريم ﷺ، فقد أصابها التخلف والتيه والتفرق والضعف والاستكانة.

إن فقه حركة التاريخ الإسلامي يرشدنا إلى أن عوامل النهوض وأسباب النصر كثيرة منها: صفاء العقيدة، ووضوح المنهج، وتحكيم شرع الله في الدولة، ووجود القيادة الربانية التي تنظر بنور الله وقدرتها في التعامل مع سنن الله في تربية الأمم وبناء الدول وسقوطها، ومعرفة علل المجتمعات وأطوار الأمم، وأسرار التاريخ، ومخططات الأعداء من الصليبيين واليهود والملاحدة والفرق الباطنية والمبتدعة، وإعطاء كل عامل حقه الطبيعي في التعامل معه، فقضايا فقه النهوض، والمشاريع النهضوية البعيدة المدى متداخلة متشابكة لا يستطيع استيعابها إلا من فهم كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ، وارتبط بالفقه الراشدي المحفوظ عن سلفنا العظيم، فعلم معالمه وخصائصه وأسباب وجوده وعوامل زواله واستفاد من التاريخ الإسلامي وتجارب النهوض، فأيقن بأن هذه الأمة ما فقدت الصدارة قط وهي وفية لربها ونبيها ﷺ، وعلم بأن الهزائم العسكرية عرض يزول، أما الهزائم الثقافية فجرح مميت، والثقافة الصحيحة تبني الإنسان المسلم، والأسرة المسلمة، والمجتمع المسلم، والدولة المسلمة، على قواعدها المتينة من كتاب الله وسنة رسوله، وهدي الخلفاء الراشدين، ومن

سار على نهجهم، وعبقرية البناء الحضاري الصحيح هي التي أبقت صرح الإسلام إلى يومنا هذا بعد توفيق الله وحفظه.

إن سيرة عمر بن عبد العزيز تمدنا بالمفهوم الصحيح لكلمة الإصلاح، للمفهوم القرآني الأصيل الذي فهمه علماؤنا المصلحون فهماً صحيحاً وطبّقوه تطبيقاً سليماً، لا المفهوم الغربي الحديث الذي تسرَّب إلى أذهان بعض المفكرين السياسيين المقلدين للغرب في حقّه وباطله حتى أصبح من المسلم به عند كثير من أبنائنا اليوم أن الثورة أعمّ وأشمل وأعمق من الإصلاح الذي يرادف في الغرب معنى التغيير الخفيف الذي يحدث بتدرج ومن دون عنف، بينما الثورة هي عندهم انقلاب جذري دون تدرّج، عنيف ومفاجىء، وما دروا أن الإصلاح بالمفهوم القرآني الصحيح له معنى أشمل وأعمّ وأكبر من الثورة، فهو دائماً نحو الأحسن والأكمل، بينما الثورة قد تكون من الصالح إلى الفاسد أصلاً، ويتم ذلك بتغيير سلطة بسلطة وحاكم بحاكم[1].

إن عمر بن عبد العزيز نموذج إصلاحي لمن يريد السير على منهاج النبوة وعهد الخلافة الراشدة، ولقد أخلص لله تعالى في مشروعه الإصلاحي فتولى الله توفيقه وأطلق ألسنة الناس بمدحه والثناء عليه، قال الشاعر أحمد رفيق المهدوي الليبي:

فإذا أحب الله باطن عبده ... ظهرت عليه مواهب الفتاح
وإذا صفت لله نية مصلح ... مال العباد عليه بالأرواح

هذا وقد تحدثت عن عهد يزيد بن عبد الملك وهشام، وعهد الوليد بن يزيد، ويزيد بن الوليد، وإبراهيم بن الوليد، وأشرت إلى أهم أعمال يزيد وهشام، واعتبرت وفاة هشام بداية الانحدار والضعف للدولة الأموية، وتعرضت للدعوة العباسية وجذورها التاريخية ومشروعها الذي قدمته لأتباعها في المرحلة السرية والعلنية وتكلمت عن قيادتها، وهيكلها التنظيمي والبعد التخطيطي وقراءة الواقع عند زعمائها، وفقهها الحركي المستمد من ابن عباس ومتى أعلنت الثورة العباسية؟ وتحدثت عن الخليفة الأموي الأخير مروان بن محمد وجهوده في القضاء على الثورات التي اندلعت في عهده، وعن انتصار العباسيين على الأمويين في معركة الزاب، وأفردت مبحثاً لأسباب سقوط الدولة الأموية وناقشتها من خلال سنن الله في حركة المجتمعات وبناء الدول وسقوطها، ومن الأسباب التي ذكرتها: الثورة المضادة على حركة عمر بن عبد العزيز الإصلاحية، والظلم والترف والانغماس في الشهوات، ونظام ولاية العهد، وتعطيل الخيار الشوري، والثورات ضد النظام الأموي كثورة الحسين بن علي رضي الله عنهما،

---

(1) آثار الإمام محمد بشير الإبراهيمي (2/ 6).

وثورة زيد بن علي بن الحسين، وثورات الخوارج المستمرة، ومن الأسباب التي ذكرتها: العصبية، والموالي، وفشل الأمويين في إيجاد تيار حضاري، والنزاع الداخلي بين الأسرة الحاكمة، وفشلهم في آخر عهدهم في تكوين جيش نظامي مرتبط بالدولة وموالٍ لها ومدافع عن شرعيتها، وأشرت إلى أسباب فشل مروان في إنقاذ الخلافة الأموية، فذكرت عدم شرعيته ونقله لعاصمة الدولة إلى حرّان، وعدم قدرته على تنظيم حكومة مركزية قوية، واحتقاره للخصوم في خراسان، والاستبداد بالرأي، وإبعاد الأولياء وتقريب الأعداء، ولم يلجأ إلى المال والسياسة في تفتيت الخصوم، وشؤم بدعة الجهمية على الدولة، وانحلال الضبط، وتجاوز الاحتياط وضعف الثقة بينه وبين رجاله وبغض الناس له، وخذلان أهل الشام له في معركة الزاب، وتكلمت عن الدعوة العباسية وكيف استفادت من تلك الأسباب؟ وفي نهاية الكتاب قمت بدراسة علمية لبعض الكتب التي ساهمت في تشويه تاريخ صدر الإسلام كالإمامية والسياسة المنسوب زوراً لابن قتيبة، وكتاب الأغاني للأصفهاني وتاريخ اليعقوبي، ومروج الذهب للمسعودي، وحذرت من بعض المستشرقين الذين عملوا على تشويه التاريخ الإسلامي وطمس حقائقه الناصعة، ثم خاتمة الكتاب.

إن تاريخ الدولة الأموية تعرض لهجمة شرسة من قبل خصومه وأعدائه، وحاولوا طمس كل ما لهم من فضائل وإيجابيات وتوسعوا في ذكر السلبيات وافتُري عليهم الكذب فنُسب لهم ما لم يكن منهم، ويعود ذلك إلى أن كتابة التاريخ إنما كانت في عهد خصومهم السياسيين من بني العباس هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن هذه الكتابة كانت بأيد شيعية حاقدة لا تعرف الإنصاف ولا العدل ولا تتكلم بعلم ولا معرفة، وقد تحدث الدكتور حمدي شاهين في كتابه عن الدولة الأموية المفترى عليها عن أسباب تزوير التاريخ الأموي، ومناهج المؤرخين في كتابتها فمن أراد التوسع فليرجع إليه، وأما عن منهجي في كتابة الدولة الأموية فقد التزمت بمنهج أهل السنة والجماعة في النقد والحكم على الآخرين والذي من قواعده: الخوف من الله عز وجل عند الكلام في الآخرين، وتقديم حسن الظن بالمسلم، والكلام في الناس يجب أن يكون بعلم وإنصاف لا بجهل وظلم، كحال أهل البدع، والعدل في وصف الآخرين والعبرة بكثرة الفضائل، والنظر في حال الجارح، والتثبت من الأخبار، وغير ذلك من القواعد المعروفة عند أهل السنة، وقد تركت الحديث عن الدولة الأموية بالمغرب لقناعتي بأن دولة عبد الرحمٰن الداخل لها علاقة أصيلة بتاريخ الأندلس وتعتبر جزءاً من تاريخها لا يمكن فصله.

هذا وقد انتهيت من هذا الكتاب يوم الثلاثاء الساعة الخامسة وثمان دقائق بعد صلاة العصر بتاريخ 2/ ربيع الآخر/ 1426، الموافق 10/ 5/ 2005م/ .

والفضل لله من قبل ومن بعد، وأسأله سبحانه وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعل عملي لوجهه خالصاً ولعباده نافعاً، وأن يثيبني على كل حرف كتبته ويجعله في ميزان

حسناتي، وأن يثيب إخواني الذين ساهموا في إتمام هذا الجهد المتواضع، ونرجو من كل مسلم يطلع على هذا الكتاب أن لا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه من دعائه ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٩﴾ [النمل: 19]. قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾ [فاطر: 2]. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه

علي محمد محمد الصّلاّبيّ

الأخوة القرّاء الكرام، يسر المؤلف أن تصله ملاحظاتكم حول هذا الكتاب وغيره من كتبه من خلال دار النشر، ويطلب من إخوانه الدعاء في ظهر الغيب بالإخلاص والصواب ومواصلة المسيرة في خدمة تاريخ أمتنا.

عنوان المؤلف:

E_mail: abumohamed2@maktoob.com



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الجذور التاريخية للأسرة الأموية

ينتسب الأمويون إلى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وفي عبد مناف يلتقي بنو أمية مع بني هاشم، وكان بنو عبد مناف يتمتعون بمركز الزعامة في مكة، لا يناهضهم فيه أحد من بطون قريش. . وجميع قريش تعرف ذلك وتسلم لهم الرياسة عليها[1].

أولاً: شهادة التاريخ بين الهاشميين والأمويين:

كان بنو عبد مناف بن قصي وحدة واحدة في محاولتهم اقتسام السلطة في مكة مع بني عمهم عبد الدار بن قصي، الذي فضله والده على سائر أبنائه، رغم شرفهم عليه، وجعل له الحجابة واللواء والسقاية والرفادة، وكان زعيمهم في هذه المحاولة هو عبد شمس، أبو أمية، إذ كان أسن بني عبد مناف، وتفرقت قريش على ذلك بين فريقين، عبد مناف وعبد الدار، ثم تداعوا إلى الصلح على أن يعطوا بني عبد مناف السقاية والرفادة، وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبني عبد الدار، فولي الرفادة والسقاية هاشم بن عبد مناف، وذلك أن عبد شمس كان رجلاً سفاراً، قلما يقيم بمكة، وكان مقلاً ذا ولد، وكان هاشم موسراً[2]. . وهكذا كانت السلطة في مكة عبارة عن مراكز نفوذ تقررها الأهمية الاقتصادية، دون أن يكون لأسرة ما أو زعيم ما السيادة الكاملة على غرار ما كان لقصي زعيم قريش الأول[3]. . وكذلك اشترك بنو عبد مناف معاً في جهودهم لتنظيم التجارة بين مكة وما حولها[4]، وهكذا كانوا يداً واحدة تتحرك في تفاهم وتآلف، فلما ماتوا رثاهم الشعراء معاً، دون تفريق بينهم تماماً كما كانوا يمتدحونهم معاً[5]، وهكذا تقتضي طبيعة الحياة العربية في الجاهلية أن يتناصر أبناء الأب الواحد، وأن تجتمع كلمتهم ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً[6]، وأما الروايات التي تزعم وجود عداء مستحكم بين بني هاشم وبني عبد شمس وأمية قبل الإسلام، فهي واهية الأسانيد، لا تثبت، فهي تروي

---

(1) النجوم العوالي للعصامي (3/ 2).
(2) السيرة النبوية لابن هشام (1/ 137 - 138، 141).
(3) الحجاز والدولة الإسلامية ص: 87.
(4) تاريخ الطبري (2/ 252).
(5) السيرة النبوية لابن هشام (1/ 144 - 148).
(6) الدولة الأموية المفترى عليها ص: 122.

أن هاشماً وعبد شمس ولدا ملتصقين ففصل بينهما بالسيف، فكان بين أبنائهما الدماء لأجل ذلك[1]، فهذه رواية لقيطة ليس لها راوي، تفوح منها رائحة الأسطورة والخيال، ويكذبها ما رواه ابن اسحاق من أن عبد شمس كان أسن بني عبد مناف[2] والروايات التي تروي أن منافرات حدثت بين هاشم وأمية بن عبد شمس، وبين عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية[3]، وكلتا الروايتين ترويان عن هشام الكلبي وهو راوية شيعي كذاب يرويهما كلتاهما عن رجال مجهولين لا يعرف أسماءهم[4]، إذ إن هذه الروايات كما يبدو واضحاً من سندها المعتل ومتنها المصطنع كانت صدى لما حدث فيما بعد من صراع بين بني أمية وبني هاشم حاول الرواة أن يجعلوا له سنداً تاريخياً ثابتاً، وتظل حقيقة العلاقة الطيبة بين الفريقين لا شك فيها[5] ولذلك يقول ابن خلدون: كان لبني عبد مناف في قريش جمل من العدة والشرف لا يناهضهم فيها أحد من سائر بطون قريش: وكان فخذاهم بنو أمية وبنو هاشم هما جميعاً ينتمون لعبد مناف، وينتسبون إليه، وقريش تعرف ذلك وتسأل لهم الرياسة عليهم، إلا أن بني أمية كانوا أكثر عدداً من بني هاشم وأوفر رجالاً والعزة إنما هي بالكثرة، قال الشاعر: وإنما العزة للكاثر[6].. ولعل ما يشير إليه ابن خلدون من تفوق بني أمية قد اتضح قبيل مبعث الرسول ﷺ لما مات عبد المطلب بن هاشم الذي ورث شرف أبيه وبرز نجم أبي سفيان بن حرب فذلك ما يبدو من هذا الوصف الدقيق لطبيعة العلاقة بين بني أمية وبني هاشم على لسان معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه لما سئل: أيكم كان أشرف أنتم أو بنو هاشم؟ فأجاب: كنا أكثر أشرافاً وكانوا هم أشرف، وكان فيهم عبد المطلب ولم يكن فينا مثله، فلما صرنا أكثر عدداً وأكثر أشرافاً، ولم يكن فيهم واحد كواحدنا، فلم يكن إلا كقرار العين حتى قالوا: منا نبي، فجاء نبي لم يسمع الأولون والآخرون بمثله، محمد ﷺ، فمن يدرك هذه الفضيلة وهذا الشرف[7]؟.

إن كل ذلك لا ينفي احتمال وجود نوع من التنافس بين الجانبين قبل الإسلام، في ضوء ما نعرف من طبيعة الحياة العربية في مكة قبل الإسلام، ولكنه تنافس يحدث بين الإخوة أحياناً، وبين أبناء الأب الواحد، غير أنه لم يتطور ليصبح تربصاً وعداء كما يزعم المتزيدون[8]، ولدينا من شواهد التاريخ ما يدل على قوة العلاقة بين بني هاشم وبني أمية، فقد كان عبد المطلب بن هاشم ـ زعيم الهاشميين في عصره ـ صديقاً لحرب بن أمية ـ زعيم الأمويين ـ كما كان العباس بن عبد المطلب بن هاشم صديقاً حميماً لأبي سفيان بن حرب بن أمية، وفي قصة

(1) النزاع والتخاصم للمقريزي ص: 181.
(2) السيرة النبوية لابن هشام (1/ 137).
(3) النزاع والتخاصم ص: 181، الدولة الأموية، شاهين ص: 122.
(4) الدولة الأموية المفترى عليها ص: 122.
(5) المصدر نفسه ص: 123.
(6) تاريخ ابن خلدون (3/ 2).
(7) البداية والنهاية (8/ 138).
(8) الدولة الأموية المفترى عليها ص: 123.

إسلام أبي سفيان عند فتح مكة، ودور العباس فيها أكبر دليل على ذلك، كما سنبينها في الصفحات القادمة بإذن الله، والغريب أن المقريزي الذي ألف كتاباً خاصاً عن علاقات الهاشميين والأمويين وجعل محوره النزاع والتخاصم ، يعترف بالصداقة الوطيدة التي كانت بين العباس وأبي سفيان[1]، فإذا كانت الصداقة الوطيدة قائمة ووطيدة بين زعماء البيتين ـ الأموي والهاشمي ـ وهما أبناء أب واحد، وهو عبد مناف بن قصي، فإن الحدس بتأصيل النزاع بينهما بعد الإسلام والرجوع به إلى ما قبل الإسلام لا سند له من تاريخ[2].

إن الكتاب المنسوب للمقريزي «النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم»، لا يمكن أن يتصور عاقل أن يد المقريزي قد خطت حرفاً واحداً من هذا الكتاب. لأن المقريزي لا يمكن أن ينزل إلى هذا الدرك من إلغاء العقل، والجهل بالأحكام، فمؤلف هذا الكتاب ألفه صاحبه في عصر الانحدار الطائفي، والتهافت العاطفي، وتخلى فيه عن صفة المؤرخ، وبعد عن سجية العلماء، حيث جعل هذا الكتاب متنفساً عن بغضاء مكتومة، وحقد دفين، جعلها أساساً لحكمه وشعاراً لكتابه[3]، ويرى الدكتور إبراهيم شعوط أن الكتاب منسوب للمقريزي[4]، والذي يهمنا أن ما قرّره صاحب الكتاب من أن العداوة مستحكمة بين بني أمية وهاشم وأنها قديمة لا يثبت هذا الادعاء أمام البحث العلمي النزيه، إن الذين ينظرون إلى تاريخ بني أمية من خلال موقف أبي سفيان من الإسلام في مكة ومن خلال ما دار بين علي ومعاوية ﵄ من حروب يبنون على ذلك - كما فعل العقاد - أوهاماً من صراع تاريخي قبل الإسلام وبعده بين بني هاشم وبني أمية وتلك أوهام ليس لها من التاريخ إلا رواية ملفقة أو أحداثاً عارضة لا تمثل قط صراعاً بين هذين الفرعين الكريمين من بني عبد مناف، هما ذروة الشرف في قريش[5]، والذي يظهره البحث العلمي النزيه وبعد ترك الروايات والأساطير الساقطة يتضح أن العلاقة بين البطنين كانت طبيعية مثلها مثل العلاقة بين باقي بطون قريش.

ثانياً: موقف بني أمية من الدعوة الإسلامية:

لقد كان تعامل الأمويين مع الدعوة الناشئة هو نفس تعامل بقية بطون قريش للدعوة الجديدة من أمثال بني مخزوم وبني هاشم وغيرهم، ولنأخذ على ذلك مثالاً وهو كيفية تعامل بني هاشم رهط النبي ﷺ وأقرب بطون قريش إليه مع الدعوة، فإن منطق العصبية السائد في الجاهلية يقتضي أن يتلقف بنو هاشم الدعوة الجديدة التي تحقق لهم العزة والشرف بالإيمان والنصرة وأن يقفوا خلف النبي الهاشمي بالتأييد والبذل، وقد وقفوا إلى جواره فعلاً في بعض المواقف

---

(1) العالم الإسلامي في العصر الأموي ص: 2.
(2) المصدر نفسه ص: 5.
(3) أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ ص: 209.
(4) المصدر نفسه ص: 213.
(5) المناهج الإسلامية لدراسة التاريخ، د. محمد رشاد خليل ص: 24.

ولعل أشهرها حصار الكافرين لهم في شعب بني هاشم، ولكنهم في النظرة الشاملة انقسموا عليه بين مؤيد ومعارض ومؤمن وكافر، شأنهم في ذلك شأن غيرهم من قبائل مكة، والمثال المشهور لكفار بني هاشم هو أبو لهب عم النبي ﷺ الذي كان أول من جهر بعداوة الإسلام لما جهر الرسول بدعوته، ولم يكتف بالمعارضة الصريحة بل عضدها بالعمل والكيد، فقد مارس صوراً شتى في تعذيب الرسول ﷺ وصد الناس[1] عنه، وكانت معه زوجته أم جميل بنت حرب الأموية، وابنيه عتبة وعتيبة اللذين طلقا بنتي النبي رقية وأم كلثوم ليشغلا محمداً[2] ببنتيه، وكان ابنه عتبة يشارك في إيذاء النبي ﷺ حتى دعا عليه فنهشه أسد في بعض أسفاره[3]، بل إن أبا لهب لم يدخل مع قومه شعب بني هاشم لما حاصرتهم قريش[4] فيه، ولما لم يستطع الخروج مع قريش لقتال الرسول يوم بدر استأجر بدلاً منه العاص بن هشام بن المغيرة بأربعة آلاف درهم[5]، وقد كان أبو لهب في كفره وعناده مثالاً مشهوراً ولكنه لم يكن الهاشمي الوحيد الذي كفر بالنبي ﷺ وجهد في إيذائه وحربه، فقد كان في أسرى المشركين يوم بدر من بني هاشم: العباس بن عبد المطلب وعقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث، وحليفهم عتبة ابن عمرو بن جحدم، وقد قبل الرسول ﷺ فداءهم فيمن افتدى من أسرى قريش[6]، وكان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ممن شهد قتال يوم بدر مع المشركين ونجا من القتل والأسر[7] وهو ابن عم النبي ﷺ وأخوه من الرضاعة ـ أرضعتهما حليمة السعدية أياماً ـ وكان يألف رسول الله وكان له ترباً، فلما بعث رسول الله عاداه عداوة لم يعادها أحد قط، ولم يدخل الشعب مع بني هاشم وهجا رسول الله وأصحابه، وكان من المجاهرين بالظلم له ﷺ ولكل من آمن به قبل الهجرة[8].

إن أعظم النصرة والتأييد لقيهما النبي ﷺ من عمه أبي طالب الذي تحمل في سبيل ذلك ضغوطاً هائلة من قريش، ولكنه ظل حتى اللحظات الأخيرة من حياته وفياً لدين آبائه، فمات على ملة الأشياخ من قومه[9]، وظل العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ الآخر في مكة،

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام (2/ 64 - 65)، والسيرة للصّلابي (1/ 404).
(2) السيرة النبوية لابن هشام (2/ 219)، الدولة الأموية شاهين ص: 125.
(3) أنساب الأشراف (1/ 130 - 131).
(4) السيرة النبوية لابن هشام (1/ 339).
(5) السيرة النبوية لابن هشام (2/ 183).
(6) تاريخ الطبري (2/ 465 - 466).
(7) المصدر السابق (2/ 462).
(8) في اختصار المغازي والسير، لابن عبد البر ص: 44.
(9) زاد المعاد (2/ 46) السيرة النبوية لابن هشام (1/ 256).

واشترك مكرهاً ضده في غزوة بدر وأسر بها، ولكنه لم يهاجر إلى المدينة ويعلن إسلامه إلا والرسول ﷺ في طريقه لفتح مكة[1]، وقد أسلم في مكة نفر من بني هاشم وبذلوا في سبيل الدعوة الكثير مثل علي بن أبي طالب وحمزة بن عبد المطلب، وجعفر بن أبي طالب وغيرهم ولكنهم كانوا يشاركون غيرهم من غير بني هاشم في ذلك كأبي بكر وعمر وعثمان، ولم يكن بذلهم لأنهم هاشميون بل لأنهم مسلمون، ويظل إيمانهم دليلاً على صدق القول باختلاف استجابة الأفراد للدعوة الإسلامية بغض النظر عن انتماءاتهم القبلية[2]، وبالنسبة لبني أمية وموقفهم من الإسلام فإن مؤرخينا لا يتحدثون عنهم كبطن مستقل من بطون قريش وإنما يتحدثون عنهم مع غيرهم من بني عبد شمس والد أمية، فيعدونهم وحدة واحدة[3]، وقد كانوا أبناء أب واحد وتربطهم علاقات التصاهر والترابط الاجتماعي ولذلك فإنهم عند حديثهم عن عداء بني أمية للرسول يذكرون اسمي عتبة وشيبة ابني ربيعة بن عبد شمس، ورغم أنهما ليسا من بني أمية. . ويذكرون معهما أيضاً أبا سفيان بن حرب وعقبة بن أبي معيط، فأما عقبة بن أبي معيط هذا فقد كان من مردة قريش، فقد تفل في وجه رسول الله، ورمى عليه سلى جزور وهو يصلي، وخنقه بثوب في عنقه حتى دفعه أبو بكر الصديق[4]، وقد نال جزاءه لما أمر النبي ﷺ بقتله بعد أسره يوم بدر، والغريب أنه كان يذكره بما بينهما من رحم[5]، ومثل هذه النماذج الطائشة لم ينفرد بها بنو أمية أو عبد شمس في مكة آنذاك[6]، وأما معارضة عتبة وشيبة ابني ربيعة فمعلومة ومشهورة ومع هذا لما هاجر الرسول ﷺ إلى الطائف وصده عنها أهلها وتبعه الصبيان والغلمان يرمونه ويصيحون به لجأ إلى حائط ابني ربيعة عتبة وشيبة، فلما رأياه على هذا الحال تحركت له رحمهما، فدعوا غلاماً نصرانياً يقال له عداس، فقالا له: خذ قطفاً من هذا العنب فضعه في هذا الطبق ثم اذهب إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه[7].

ثالثاً: أمويون مسلمون منذ بداية الدعوة الإسلامية:

وإذا جارينا نهج المؤرخين في الحديث عن بني أمية وبني عبد شمس معاً، فإننا نرى منهم جماعة كانوا من السابقين إلى الإسلام، فمنذ المرحلة السرية للدعوة وقبل الجهر بها كان قد أسلم كل من عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية، وكان إسلامه على يد أبي بكر الصديق في أيام الإسلام الأولى[8]، وكذلك كان إسلام خالد بن سعيد بن العاص بن أمية، وقد أسلم في هذه المرحلة السرية التي دامت حوالي ثلاث سنين[9]: أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام (4/ 12).
(2) الدولة الأموية المفترى عليها ص: 127.
(3) السيرة النبوية لابن هشام (3/ 70 - 71).
(4) البخاري، رقم (3687، 3856).
(5) السيرة النبوية لابن هشام (2/ 212).
(6) الدولة الأموية المفترى عليها ص: 127.
(7) السيرة النبوية (1/ 292 - 293).
(8) السيرة النبوية لابن هشام (1/ 260).
(9) تاريخ الطبري (2/ 318).

شمس[1]، كما أسلم في مرحلة مبكرة حليفان لبني أمية وهما عبد الله بن جحش بن رئاب وأخوه أبو أحمد بن جحش، وهما ابنا عمة النبي ﷺ فأمهما أميمة بنت عبد المطلب[2]، وفي الهجرة الأولى إلى الحبشة شارك نفر من مسلمي بني أمية مثل عثمان بن عفان ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وزوجته سهلة بنت سهيل بن عمرو[3]، كما كان لبني أمية مشاركة في الهجرة الثانية ومعهم بعض حلفائهم، وقد ذكر الدكتور حمدي شاهين قائمة طويلة بأسمائهم، مما يؤكد استجابة بعض بني أمية للإسلام منذ بداية الدعوة[4]، وقد ساهمت نساء بني أمية وعبد شمس في صنع مسيرة الإسلام وفي إعطاء الأسوة وضرب المثل في نبل التضحية وعزيز العطاء، فقد أسلمت رملة بنت شيبة بن ربيعة زوجة عثمان بن عفان وهاجرت معه إلى المدينة وثبتت معه على دينه رغم مقتل أبيها وعمها وابنه في بدر، مما أهاج عليها غضب هند بنت عتبة فقالت تعيبها:

لحى الرحمٰن صابئة بوج ومكة أو بأطراف الحجون
تدين لمعشر قتلوا أباها أقتل أبيك جاءك باليقين[5]

وهاجرت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط إلى المدينة في الهدنة التي كانت بين النبي والمشركين في الحديبية، على أن الصورة الأزهى والنموذج الأرقى في ذلك المجال هو إسلام أم المؤمنين أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان، فقد أسلمت مبكراً[6]، وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة وسيأتي الحديث عنها بإذن الله تعالى.

رابعاً: المصاهرات بين بني هاشم وبني أمية:

لم يكن بين بني هاشم وبني أمية من المباغضة والعداوة والمنافرة التي اخترعها وابتكرها أعداء الإسلام والمسلمين ونسجوا الأساطير والقصص حولها، فالحقيقة التاريخية تقول: بأن علاقتهم كانت علاقة أبناء العمومة والإخوان والخلان، فهم من أقرب الناس فيما بينهم، يتبادلون الحب والتقدير والاحترام، ويتقاسمون الهموم والآلام والأحزان، فبنو أمية وبنو هاشم كلهم أبناء أب واحد، وأحفاد جد واحد، وأغصان شجرة واحدة قبل الإسلام وبعد الإسلام وكلهم استقوا من عين واحدة ومنبع صاف واحد، وأخذوا الثمار من دين الله الحنيف الذي جاء به رسول الله الصادق الأمين، المعلم، المربي، خاتم الأنبياء والمرسلين، ولقد كان بين أبي سفيان وبين العباس صداقة يضرب بها الأمثال[7]، كما كانت بينهم المصاهرات

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام(1/ 263).
(2) المصدر نفسه (1/ 262).
(3) المصدر نفسه (1/ 315).
(4) الدولة الأموية المفترى عليها ص: 131.
(5) نسب قريش ص: 104 - 105.
(6) التبيين في أنساب القرشيين ص: 209.
(7) الشيعة وأهل البيت ص: 141.

قبل الإسلام وبعده، وكان على رأسهم رسول الله ﷺ الذي زوج بناته الثلاثة من الأربعة من بني أمية، وهذه نماذج من المصاهرات بينهم:

أ ـ عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية، فقد تزوج رقية بنت رسول الله ﷺ ثم بعد وفاتها تزوج أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ.

ب ـ أبو العاص بن الربيع وهو من بني أمية، فقد تزوج زينب بنت رسول الله ﷺ وولدت زينب له ابنة وهي أمامة، وتزوجها علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعد وفاة فاطمة الزهراء[1].

ت ـ خديجة بنت علي بن أبي طالب، تزوجها عبد الرحمٰن بن عامر بن كريز الأموي[2].

ث ـ رملة بنت علي بن أبي طالب، تزوجها معاوية بن مروان بن الحكم[3].

ج ـ زينب بنت الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب تزوجها الوليد بن عبد الملك بن مروان[4].

ح ـ فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب، تزوجها عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان[5]، وقد اكتفيت ببيان بعض منها، وفيها كفاية لمن أراد الحق والتبصر[6].



(1) الأسماء والمصاهرات بين أهل البيت والصحابة، أبي معاذ السيد بن أحمد الإسماعيلي ص: 22.
(2) المصدر نفسه ص: 23.
(3) نسب قريش ص: 45، جمهرة أنساب العرب، ص: 87.
(4) نسب قريش ص: 52، الأسماء والمصاهرات بين أهل البيت والصحابة ص: 22.
(5) الأسماء والمصاهرات بين أهل البيت والصحابة ص: 25.
(6) الشيعة وأهل البيت ص: 224.

الفصل الأول
معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه من مولده حتى نهاية عهد الخلافة الراشدة

المبحث الأول
اسمه ونسبه وكنيته وأسرته

أولاً: اسمه ونسبه وكنيته ومولده:

هو معاوية بن أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصيّ بن كلاب أمير المؤمنين ملك الإسلام، أبو عبد الرحمٰن، القرشي الأمويّ المكي[1]، ولد قبل البعثة بخمس سنين، وقيل بسبع، وقيل: بثلاث عشرة، والأول أشهر[2]، وكان رجلاً طويلاً، أبيض، جميلاً، مهيباً، وقد تفرس فيه والده ووالدته منذ الطفولة بمستقبل كبير، فهذا أبو سفيان ينظر إليه وهو يحبو فيقول لوالدته: إن ابني هذا لعظيم الرأس، وإنه لخليق أن يسود قومه، فقالت هند: قومه فقط، ثكلته إن لم يسد العرب قاطبة[3]، وعن أبان بن عثمان قال: كان معاوية يمشي مع أمه هند، فعثر، فقالت: قم لا رفعك الله، وأعرابي ينظر، فقال: لمَ تقولين له ذلك؟ فوالله إني لأظنه سيسود قومه، قالت: لا رفعه الله إن لم يسد إلا قومه[4].

ثانياً: إسلام أبي سفيان والد معاوية رضي الله عنه:

كان أبو سفيان من عتاة الجاهلية الذين حاربوا الإسلام.. وكتب السيرة النبوية وصفت أعماله ضد الدعوة الإسلامية، إلا أن الله تعالى أراد الهداية له، فأسلم قبل فتح مكة بقليل، وقد أكرمه رسول الله ﷺ في فتح مكة وأعلن: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»[5]، وفي هذا الإكرام النبوي الشريف لأبي سفيان لفتة تربوية، ففي تخصيصه ﷺ بيت أبي سفيان شيء يشبع ما تتطلع إليه نفس أبي سفيان، وفي هذا تثبيت له على الإسلام وتقوية لإيمانه[6]، وكان هذا

---

(1) سير أعلام النبلاء (3/ 120).
(2) الإصابة (6/ 151).
(3) البداية والنهاية (11/ 398).
(4) سير أعلام النبلاء (3/ 121).
(5) البخاري رقم (4280).
(6) المستفاد من قصص القرآن (2/ 403).

الأسلوب النبوي الكريم عاملاً على امتصاص الحقد من قلب أبي سفيان، وبرهن له بأنّ المكانة التي كانت له عند قريش لن تنقص شيئاً في الإسلام إن هو أخلص له، وبذل في سبيله[1]، وهذا منهج نبوي كريم، على العلماء والدّعاة إلى الله أن يستوعبوه، ويعملوا به في تعاملهم مع الناس[2]، وقد حسن إسلام أبي سفيان وشاهد المواقع وقدم خدمات جليلة للإسلام، فقد كان مع رسول الله ﷺ في حنين، وشارك في حصار الطائف وفقد إحدى عينيه فيها، وفي اليرموك فقد الثانية[3]، وبعد ثقيف أرسله رسول الله مع المغيرة بن شعبة لهدم اللات[4] ـ صنم ثقيف، وقد كانت اللات معظمة عند قريش كذلك، وكانوا يحلفون بها، وهذا دليل على تغلغل الإيمان في قلب أبي سفيان رضي الله عنه ، لقد أسلم أبو سفيان إذن بعد أن ظل حبه للرياسة وممارسته لها حائلاً بينه وبين الإسلام، وقد راعى رسول الله ﷺ هذه العوامل النفسية المؤثرة على نفس أبي سفيان ونفوس علية القوم من قريش بعد الفتح، فقد جعل من دخل دار أبي سفيان آمناً، كما أعطاه من غنائم حنين مع غيره ممن سموا آنذاك بالمؤلفة قلوبهم[5].

ولم ينس أبو سفيان ما فعله ضد الإسلام أيام الجاهلية، وحرص على مضاعفة جهده في خدمة الإسلام، وقال عنه ابن كثير: من سادات قريش في الجاهلية، وتفرّد فيهم بالسؤدد بعد يوم بدر، ثم لما أسلم حسن بعد ذلك إسلامه، وكانت له مواقف شريفة، وآثار محمودة في اليرموك وما قبله وما بعده[6].

وروي عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: فقدت الأصوات يوم اليرموك إلا صوت رجل واحد يقول: يا نصر الله اقترب، والمسلمون يقتتلون هم والروم، فذهبت أنظر فإذا هو أبو سفيان تحت راية ابنه يزيد[7]، وروي أنه كان يوم اليرموك يقف على الكراديس: فيقول للنّاس: الله الله إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك، اللهمّ هذا يوم من أيامك، اللهمّ أنزل نصرك على عبادك[8]، وقيل مات سنة إحدى أو اثنتين أو ثلاث أو أربع وثلاثين[9]، وصلى عليه ابنه معاوية، وقيل: بل صلى عليه عثمان، وله ثلاث وثمانون، وقيل: كان له بضع وتسعون سنة[10].

---

(1) قراءة سياسية للسيرة النبوية، لمحمّد رواس ص: 245.
(2) السيرة النبوية للصّلّابي (2/ 497).
(3) التبيين في أنساب القرشيين ص: 203.
(4) السيرة النبوية لابن هشام (4/ 195).
(5) الدولة الأموية المفترى عليها ص: 142.
(6) البداية والنهاية (11/ 397).
(7) التبيين في أنساب القرشيين ص: 203.
(8) المصدر نفسه ص: 203.
(9) المصدر نفسه ص: 203.
(10) المصدر نفسه ص: 204.

ثالثاً: هند بنت عتبة بن ربيعة أم معاوية ﷺ:

هي أم معاوية، أسلمت يوم الفتح، بعد إسلام زوجها أبي سفيان، فأقاما على نكاحهما، ولما فرغ رسول الله ﷺ من بيعة الرِّجال، بايع النساء - وفيهنَّ هند بنت عتبة وكانت متنكرة، خوفاً من رسول الله ﷺ أن يعرفها، لما صنعت بحمزة ـ: على ألّا يشركن بالله شيئاً، ولا يسرقن، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن، ولا يعصين في معروف، ولما قال النبيُّ ﷺ: «ولا يسرقن» قالت هند: يا رسول الله، إن أبي سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني، ويكفي بنيَّ، فهل عليَّ من حرج إذا أخذت من ماله بغير علمه؟ فقال لها ﷺ: «خذي من ماله ما يكفيك وبنيك بالمعروف»، ولما قال: «ولا يزنين» قالت هند: وهل تزني الحرّة؟ ولمّا عرفها رسول الله ﷺ قال لها: «وإنك لهند بنت عتبة؟» قالت: نعم، فاعف عمّا سلف عفا الله عنك، وقد بايعن رسول الله ﷺ من غير مصافحة، فقد كان لا يصافح النساء، ولا يمس يد امرأة إلا امرأة أحلّها الله له، أو ذات محرم منه، وفي الصحيحين عن عائشة ﷺ أنها قالت: لا والله! ما مست يد رسول الله يد امرأة قط[1]. وروى ابن سعد بسنده عن عبد الله بن الزبير أنه لما بايعت هند تكلمت فقالت: يا رسول الله، الحمد لله الذي أظهر الدين الذي اختاره لنفسه، لتنفعني رحمك يا محمد، إنني امرأة مؤمنة بالله، مصدقة برسوله، ثم كشفت عن نقابها وقالت: أنا هند بنت عتبة، فقال رسول الله ﷺ: «مرحباً بك»، فقالت: والله ما كان على الأرض أهل خباء أحب إلي أن يذلوا من أهل خبائك، ثم ما أصبح اليوم على ظهر الأرض من أهل خباءٍ أحب إليَّ أن يعزّوا من أهل خِبائك، قال: «وأيضاً والذي نفسي بيده». قالت: يا رسول الله، إنَّ أبا سفيان رجل مِسِّيك، فهل عليَّ حرج أن أطعم من الذي له عِيالنا؟ قال: «لا أراه إلا بالمعروف»[2]. ولما أسلمت هند وبايعت عادت إلى بيتها فجعلت تكسر صنماً كان عندها حتى فلذته فلذة وهي تقول: كنت منك في غرور[3]، ولما رأت المسلمين ببيت الله الحرام قالت: والله ما رأيت الله عُبد حق عبادته في هذا المسجد قبل الليلة، والله إن باتوا إلا مصلين قياماً وركوعاً وسجوداً[4]. وكان لهند في جاهليتها موقف مع زينب بنت المصطفى ﷺ، فقد كانت بمكة مع زوجها أبي العاص ابن الربيع وأرسل النبي ﷺ من يأتيه بها إلى المدينة، وكان ذلك بعد «بدر» ولم تجف دماء قريش بعد، وكانت «هند» قد أصيبت بأبيها وأخيها وعمها، وكانت تطوف على مجالس قريش وأنديتها تُذكي نار الثأر، وتؤجج أوار الحرب، وفي الطريق لقيت زينب بنت رسول الله ﷺ، وكان قد تسرَّب خبر استعدادها للخروج لأبيها فقالت هند: أي بنت محمد، بلغني أنك تريدين اللحوق بأبيك!!.. أي ابنة عمي، إن كانت لك حاجة بمتاع مما يعينك في سفرك، أو بمال تبلغين به إلى أبيك، فعندي حاجتك فلا تستحي مني، فإنه لا يدخل بين النساء ما يكون بين

---

(1) البخاري رقم (5288). مسلم رقم (1866).
(2) الطبقات الكبرى (8/ 172)، البخاري رقم (3825).
(3) الطبقات (8/ 172).
(4) نحو رؤية جديدة للتاريخ ص: 200.

الرجال، تروي زينب رضي الله عنها ذلك، وتقول: ووالله ما أراها قالت إلا لتفعل[1]. ثم يوم خروج زينب يتعرض لها رجال من قريش، يريدون إرجاعها، فتسقط من على ناقتها وكانت حاملاً، فتنزف، وتسمع هند، فتخرج مسرعة وترفع عقيرتها في وجه قومها: معركة مع أنثى عزلاء؟؟ أين كانت شجاعتكم يوم بدر؟ وتحول بينهم وبين زينب وتضمها إليها وتمسح عنها ما بها، وتصلح شأنها، حتى استأنفت الخروج إلى أبيها في أمن وأمان[2]. وكانت هند امرأة حازمة شاعرة ذات نفس وأنفة. ويروى أنها كانت قبل أبي سفيان عند الفاكه بن المغيرة، وكان من فتيان قريش، له مجلس يأتيه ندماؤه فيدخلون بغير استئذان، فدخلته هند يوماً وليس فيه أحد، فنامت فيه، وجاء بعض ندماء الفاكه فدخل البيت، ورأى هند نائمة فخرج، فلقيه الفاكه خارجاً، ثم دخل فوجد هند في المجلس نائمة فقذفها بالرجل، فشرى[3] الأمر إلى أن اتفقوا على أن يتحاكموا إلى كاهن في بعض النواحي، فحملها أبوها عتبة وخرج معهم الفاكه حتى إذا دنوا من الكاهن رآها أبوها متغيرة مصفراً لونها، فخلا بها وقال: يا بُنية مالي أراك قد اصفرّ لونك وتغيّر جسمك، فإن كنت قد ألممت بذنب فأخبريني حتى أفلّ[4] هذا الأمر قبل أن نفتضح على رؤوس الناس. فقالت: يا أبتِ إني لبريئة، ولكني أعلم أنا نأتي بشراً يخطئ ويصيب، فأخشى أن يخطئ فيّ بقول يكون عاراً علينا إلى آخر الدهر. قال عتبة: فإني سأختبره، فخبأ له حبة بُرّ في إحليل مهر[5]، ثم ربط عليها، فلما أتى الكاهن قال: قد خبأت لك خبيئاً فما هو؟ قال: ثمرة في كَمَرةٍ، قال: بيِّن، قال: حبة بُر في إحليل مهر. فأجلسوا هنداً بين نساء ثم سألوا الكاهن، فقام فضرب بيده بين كتفي هند وقال: قومي حصاناً غير زانية وَلَتَلِدَنَّ ملكاً يقال له معاوية، فوثب الفاكه فأخذ بيدها وقال: امرأتي، فنزعت يدها من يده وقالت: والله لأحرصنَّ أن يكون من غيرك، فتزوجها أبو سفيان، وولدت له معاوية[6]. وهذا وقد توفيت في ولاية عمر بن الخطاب رضي الله عنه [7].

رابعاً: من إخوان وأخوات معاوية رضي الله عنه :

1 - يزيد بن أبي سفيان:

وكان يقال له يزيد الخير، وهو أفضل بني أبي سفيان، أسلم يوم الفتح وشهد حنيناً،

---

(1) نحو رؤية جديدة للتاريخ ص: 208، فرسان من عصر النبوة ص: 853.

(2) المصدر نفسه ص: 208.

(3) فشرى : بمعنى عظم وتفاقم.

(4) أي : حتى أفك.

(5) من اختبار الكاهن، فإن عرف سألوه وإلا تركوه.

(6) التبيين في أنساب القرشيين ص: 219.

(7) المصدر نفسه ص: 219.

وأعطاه النبي ﷺ من غنائمها مائة بعير وأربعين أوقيّة[1]، واستعمله أبو بكر على أول الجيوش التي أرسلها إلى الشام وكانت مهمته الوصول إلى دمشق وفتحها ومساعدة الجيوش الإسلامية الأخرى عند الضرورة، وكان جيش يزيد أول الأمر ثلاثة آلاف رجل، وقبل رحيل جيش يزيد أوصاه الخليفة أبو بكر وصية بليغة عالية المستوى تشتمل على حكم باهرة في مجالي الحرب والسلم، وشيعه ماشياً وأوصاه بما يأتي: إني قد وليتك لأبلوك وأجرّبك وأخَرِّجك، فإن أحسنت رددتك إلى عملك وزدتك، وإن أسأت عزلتك، فعليك بتقوى الله فإنه يرى من باطنك مثل الذي من ظاهرك، وإن أولى الناس بالله أشدهم تولياً له، وأقرب الناس من الله أشدُّهم تقرباً بعمله، وقد وليتك عمل خالد[2]، فإياك وعبِّيّة الجاهلية[3] فإن الله يبغضها ويبغض أهلها، وإذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم وابدأهم بالخير وعدهم إياه، وإذا وعظتهم فأوجز فإن كثير الكلام ينسي بعضه بعضاً، وأصلح نفسك يصلح لك الناس، وصلِّ الصلوات لأوقاتها بإتمام ركوعها وسجودها، والتخشع فيها، وإذا قدم عليكم رسل عدوك فأكرمهم وأقْلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به، ولا ترينّهم فيروا خَلَلَكَ[4]، ويعلموا علمك، وأنزلهم في ثروة عسكرك[5]، وامنع من قبلك من محادثتهم وكن أنت المتولي لكلامهم، ولا تجعل سرك كعلانيتك فيخلط أمرك، وإذا استشرت فاصدق الحديث تُصدق المشورة، ولا تخزُ عن المشير خبرك فتُؤتى من قبل نفسك، واسمر بالليل في أصحابك تأتك الأخبار وتنكشف عنك الأستار وأكثر حرسك، وبدِّدهم في عسكرك، وأكثر مفاجأتهم في محارسهم بغير علم منهم بك، فمن وجدته غفل عن محرسه فأحسن أدبه، وعاقبه في غير إفراط، وأعقب بينهم بالليل، واجعل النَّوبة الأولى أطول من الأخيرة، فإنها أيسرهما لقربها من النهار، ولا تَخَفْ من عقوبة المستحق ولا تلجَّنَّ فيها، ولا تسرع إليها، ولا تتخذ لها مدفعاً، ولا تغفل عن أهل عسكرك فتفسدهم، ولا تجسّس عليهم فتفضحهم، ولا تكشف الناس عن أسرارهم، واكتف بعلانيتهم ولا تجالس العبّاثين، وجالس أهل الصدق والوفاء واصدق اللقاء ولا تجبن فيجبن الناس، واجتنب الغلول فإنه يقرب الفقر، ويدفع النصر، وستجدون أقواماً حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعهم وما حبسوا أنفسهم له★ قال ابن الأثير: وهذه من أحسن الوصايا وأكثرها نفعاً لولاة الأمر[6]. ومن فوائد هذه الوصية:

---

(1) التبيين في أنساب القرشيين ص: 204.

(2) يعني خالد بن سعيد بن العاص وكان قد استعفى أبا بكر فأعفاه.

(3) يعني التعصب لما كان عليه أهل الجاهلية.

(4) يعني لا تطلعهم على دخيلة أمرك فيطلعوا على عيوبك.

(5) ليروا قوة المسلمين.

(6) الكامل، لابن الأثير (2/ 64 - 65).

★ أحسن وصية في التاريخ قاطبة " من القائد العام لأحد قواده طبعاً
بعد وصايا رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

- أن الولايات والمناصب ليست حقاً ثابتاً لأصحابها وإنما بقاؤهم فيها مرهون بالإحسان والنجاح في العمل، ومن واجب المسئول الأعلى أن يَعْزلهم إذا أساؤوا، وإن هذا الشعور يدفع صاحب العمل إلى مضاعفة الجهد في بذل الطاقة ليصل إلى مستوى أعلى من النجاح في العمل، أما إذا ضمن البقاء فإنه قد يميل إلى الكسل والاشتغال بمتاع الدنيا، فيخل بمسؤوليته ويعرّض من تحت ولايته إلى أنواع من الفساد والفوضى والنزاع.

- إن تقوى الله ﷻ هي أهم عوامل النجاح في العمل، لأن الله تعالى مطلع على ظاهر أعمال الناس وباطنهم، فإذا اتقوه في باطنهم فَحَرِيٌّ بهم أن يتقوه في ظاهرهم، وبذلك يتجنب الوالي كل مظاهر الفساد والإفساد، التي تكون عادة من الاستجابة للعواطف الجامحة التي لا تلتزم بتقوى الله تعالى.

- التحذير من التعصب للآباء والأجداد والأقوام، فإن التعصب لذلك قد يحمل الإنسان على الانحراف عن الطريق المستقيم، إذا كان ما عليه الآباء والأجداد مخالفاً للاستقامة، إضافة إلى أنه يضعف من الانتماء للرابطة الإسلامية الوحيدة وهي الأخوة في الله.

- الإيجاز في الموعظة فإن كثير الكلام ينسي بعضه بعضاً، فيضيع المقصود، ويغلب على السامع الإعجاب ببلاغة المتكلم إن كان بليغاً عن استيعاب ما يقول والاستفادة من مواعظه، وإن لم يكن بليغاً فإن الملل يأخذ بالسامع فلا يعي ما يقول المتكلم.

- إذا أصلح المسئول نفسه وتفقد عيوبه وجعل من نفسه نموذجاً صالحاً للقدوة الحسنة فإن ذلك يكون سبباً في صلاح من هم تحت رعايته.

- الاهتمام بإقامة الصلاة كاملة مظهراً ومخْبراً: مَظْهَراً من ناحية إكمال أقوالها وأفعالها، ومَخْبَراً من ناحية الخشوع فيها وحضور القلب مع الله تعالى، فإن هذه الصلاة الكاملة يقام بها ذكر الله في الأرض، وتهذّب السلوك، وتقوّي القلوب، وتبعث على ارتياح النفوس، وتعتبر ملاذاً للمسلم عند الشدائد.

- إكرام رسل العدو إذا قدموا مع الاحتراس منهم، وعدم تمكينهم من معرفة واقع الجيش الإسلامي، فإكرامهم نوع من الدعوة إلى الإسلام فيما إذا عرف العالم ما يتحلى به المسلمون من مكارم الأخلاق، ولكن لا يصل هذا الإكرام إلى حد اطّلاعهم على بطانة أمور المسلمين، بل ينبغي اطّلاعهم على قوة جيش المسلمين ليُرهبوا بذلك أقوامهم[1].

- الاحتفاظ بالأسرار، وعدم التهاون بإفشائها، خاصة فيما يتعلق بأمور المسلمين العامة، فإن الحكيم يستطيع التعرف في الأمور وإن تغيرت وجوهها ما دام سرُّه حبيساً في ضميره، فإذا أفشاه اختلطت عليه الأمور ولم يستطع التحكم فيها.

---

(1) التاريخ الإسلامي (9/ 194).

- إتقان المشورة أهم من النظر في نتائجها فإن المستشار وإن كان حصيف الرأي ثاقب الفكر، لا يستطيع أن يفيد من استشاره حتى ينكشف له أمره بغاية الوضوح، فإذا أخفى المستشير بعض تفاصيل القضية فإنه يكون قد جنى على نفسه، حيث قد يتضرر بهذه المشورة.

- أن على القائد وكل مسئول أن يكون مخالطاً لمن ولي أمرهم على مختلف طبقاتهم ليكون دقيق الخبرة بأمورهم، وفي هذا أكبر العون له على تصور مشكلاتهم والمبادرة بإيجاد الحلول لها، أما المسئول الذي يعيش في عزلة ولا يختلط إلا بأفراد من كبار رعيته، فإنه لا يصل إليه من المعلومات إلا ما كان من طريق هؤلاء، وقد لا يكشفون له الأمور بكل تفصيلاتها، فقد يحللون له الأمور على غير وجهها الصحيح.

- الاهتمام بأمر حراسة المسلمين خاصة من مكامن الخطر، واختيار الحرّاس الأمناء من ذوي النباهة وعدم وضع الثقة الكاملة بهم، بل لا بدَّ من الرقابة عليهم حتى لا يؤتى المسلمون من قبلهم.

- أن يسلك المسئول في عقاب المخالف مسلكاً وسطاً، فلا يتهاون فيترك عقوبة المستحق، فإن ذلك يجرِّئه على مزيد من المخالفة، ويجرىء غيره على ارتكاب المخالفات، فتسود الفوضى وينفلت الأمر، ولا يشتد في العقوبة فينفِّر الرعية، ويدفعهم إلى التسخط والتحزب، بل تكون عقوبته بحكمة واتزان وبعد النظر والتروي بحيث تؤدي غرضها التربوي بدون إثارة ضجة، ولا دفع إلى النقد والتسخط[1].

- أن يكون لدى المسئول يقظة وانتباه لكل ما يجري في حدود المسئولية المناطة به حتى يشعر أفراد الرعية بأن هناك اهتماماً بأمورهم فيزيد المحسن إحساناً ويقتصر المسيء عن الإساءة، ولكن بدون تجسس عليهم، فإن ذلك يعتبر فضيحة لهم، وقد ينقطع بذلك خيط العلاقة الذي يربط المسئول بأفراد رعيته من المودة والإعجاب والشكر على الجميل، وهذا الخيط ما دام قائماً فإنه يمنع أصحاب الجنوح من ارتكاب المخالفات التي تفسد المجتمع وتحدث الفوضى، فإذا انقطع ولم يكن هناك عاصم من تقوى الله تعالى فإن أهم الحواجز التي تحول دون الانطلاق وراء الشهوات تكون قد تحطمت، ويصعب بعد ذلك علاج الأمور لأنها تحتاج إلى قوة رادعة وهذه لها سلبياتها المعروفة.

- أن يحرص المسئول على مجالسة أهل الصدق والوفاء والعقول الراجحة وإن سمع منهم ما يكره أحياناً من النقد والتوجيه، فإن ذلك يعود عليه وعلى من استرعاه الله أمرهم بالنفع،

(1) التاريخ الإسلامي (9/ 195).

وأن لا يجالس أصحاب اللهو والأهداف الدنيوية فإن هؤلاء وإن أنس بكلامهم وثنائهم فإنهم يحولون بينه وبين التفكير في الأمور الجادة، فلا يستفيق بعد ذلك إلا والنكبات قد حلت به وبمن ولي أمورهم.

- أن يصدق القائد في لقاء الأعداء وأن لا يجبن، فإن جُبنه يسري على جنده فيقع بذلك الفشل والهزيمة، وفي غير الحرب أن يكون المسئول شجاعاً في مواجهة المواقف، وأن لا يضعف فيسري ضعفه على من هم تحت إدارته من العاملين ، فيقل بذلك مستوى الأداء ويضعف الإنتاج.

- أن يتجنب القائد الغلول، وهو الأخذ من الغنيمة قبل قسمتها هذا في مجال الحرب، وفي مجالات السلم أن يتجنب المسئول أية استفادة دنيوية من علمه لا تحل له شرعاً، مثل أخذ الهدايا التي يقصد بها الاستفادة من المسئول في مجانبة الحق، فإن ذلك من الغلول، والغلول كما جاء في هذه الوصية يقرب إلى الفقر، ويدفع النصر.

- وهذه الفوائد تبين لنا عظمة الوصية التي أوصى بها أبو بكر ﷺ أحد قواده، وهي تبين لنا أنه كان يعيش بفكره مع قضايا المسلمين وأنه كان يتصور ما قد يواجهه قواده فيحاول تزويدهم بما ينفعهم في تلافي الوقوع في المشكلات، وحلها إذا وقعت، وهذه الوصية وأمثالها تسجِّل إضافة جديدة لمواقف أبي بكر المتعددة[1]، وجاء في رواية أن أبا بكر ﷺ لم ينس اللمسات الإنسانية في وصيته لجيش يزيد حيث وصاه بدستور المسلمين للحرب المكون من عشرة نقاط تجسد إنسانية الحضارة الإسلامية وروحها المفعمة بالرحمة، والشفقة، وقد جاءت هذه الوصية على شكل مقتبس من رسول الله ﷺ فقد قال: أيها الناس: قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني: لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تفسدوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة، ولا بعيراً إلا لأكله، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له.. اندفعوا باسم الله[2]. وقد استفاد منها يزيد بن أبي سفيان غاية الاستفادة، ولما فتح الشام، في عهد عمر ولّى الفاروق يزيد فلسطين وناحيتها، ثم لما مات أبو عبيدة استخلف معاذ بن جبل، فلما مات معاذ بن جبل استخلف يزيد بن أبي سفيان، ثم مات يزيد فاستخلف أخاه معاوية، وكان موت هؤلاء كلهم في طاعون عمواس سنة ثمان عشرة: وقيل: مات يزيد

(1) التاريخ الإسلامي (9/ 196).

(2) صور من تسامح الحضارة الإسلامية مع غير المسلمين، سلامه الهرفي ص: 62، نقلاً عن تاريخ الطبري (3/ 227).

سنة تسع عشرة بعد فتح قيسارية، وقيل: بل مات قبل فتح قيسارية وإنما افتتحها معاوية[1]. وقال أبو إسماعيل محمد بن عبد الله البصري: جزع عمر على يزيد جزعاً شديداً، وكتب إلى معاوية بولايته على الشام[2].

2 - عتبة بن أبي سفيان:

يكنى أبا الوليد، ولد على عهد رسول الله ﷺ ولاه عمر بن الخطاب الطائف وصدقاتهم، ثم ولاه معاوية مصر حين مات عمرو بن العاص، وحكى عنه أنه اعترضه أعرابي وهو على مكة فقال: أيها الخليفة. قال: لست به ولم تبعد. قال: فيا أخاه. قال: أسْمَعْتَ فقل، قال: شيخ من بني عامر يتقرب إليك بالعمومة، ويختص بالخؤولة[3]، ويشكو إليك كثرة العيال، ووطأة الزمان، وشدة فقر، وترادف ضُرّ، وعندك ما يسعه ويصرف عنه بؤسه، أستغفر الله منك، وأستعينه عليك. قال: قد أمرنا لك بغناك، فليت إسراعنا إليك يقوم بإبطائنا عنك[4]، وكان خطيباً فصيحاً، يقال: إنه لم يكن في بني أمية أخطب منه[5]، وأقام بمصر والياً سنة ثم توفي بها، ودفن في مقبرتها سنة أربع وأربعين وقيل سنة ثلاث وأربعين[6].

3 - عنبسة بن أبي سفيان:

يكنّى أبا عثمان، روي عن أبي أمامة قال: لما حضر عنبسة بن أبي سفيان الموت اشتد جزعه وجاءه الناس يعودونه فجعل عنبسة يبكي ويجزع، فقال له القوم: يا أبا عثمان ما يبكيك وما يحزنك وقد كنت على سمت من الإسلام حسن وطريقة إن شاء الله حسنة!؟ فازداد حزناً وشدة بكاء وقال: ما يمنعني ألّا أبكي وأن لا يشتد حزني من هول المطلع، وما يدريني ما أشرفُ عليه غداً، وما قدمت من كبير عمل تثق به نفسي[7].

4 - أم حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنها:

هي رملة بنت أبي سفيان زوج النبي ﷺ تكنى أم حبيبة وهي بها أشهر من اسمها، وأمها صفية بنت أبي العاص بن أمية ولدت رضي الله عنها قبل البعثة بسبعة عشر عاماً وكانت قبل النبي ﷺ عند عبيد الله بن جحش بن رياب بن يعمر الأسدي من بني أسد بن خزيمة، فأسلما ثم هاجرا إلى الحبشة فولدت حبيبة وبها كانت تكنى، وقد ارتد زوجها عبيد الله بن جحش عن الإسلام ودخل في النصرانية فهلك وهو على تلك الحالة وتمسكت بدينها وذلك من فضل الله عليها ليتم لها الإسلام والهجرة فأبدلها الله عز وجل به خير البشر وأفضلهم سيدنا محمد ﷺ، وهي أقرب

---

(1) التبيين في أنساب القرشيين ص: 205.
(2) المصدر نفسه ص: 205.
(3) المصدر نفسه ص: 207، قادة فتح الشام ومصر ص: 99.
(4) التبيين في أنساب القرشيين ص: 208.
(5) المصدر نفسه ص: 208.
(6) المصدر نفسه ص: 208.
(7) التبيين في أنساب القرشيين ص: 208.

أزواجه نسباً إليه وأكثرهن صداقاً رضي الله عنها وأرضاها[1]. قال الذهبي عنها: وهي من بنات عم الرسول ﷺ وليس في أزواجه من هي أكرم نسباً إليه منها، ولا في نسائه من هي أكثر صداقاً منها، ولا من تزوج بها وهي نائية الدار أبعد منها، عقد له ﷺ عليها بالحبشة وأصدقها عنه صاحب الحبشة أربع مائة دينار، وجهزها بأشياء[2]. وقد ورد لها بعض المناقب التي تدل على علو مكانتها وعظيم رضي الله عنها وأرضاها ومن تلك المناقب:

أ ـ أنها كانت ممن هاجر في الله الهجرة الثانية إلى الحبشة فارة بدينها رضي الله عنها، فقد روى الحاكم بإسناده إلى إسماعيل بن عمرو بن سعيد بن العاص قال: قالت أم حبيبة: رأيت في النوم عبيد الله ابن جحش زوجي بأسوأ صورة وأشوهه ففزعت فقلت: تغيرت والله حاله، فإذا هو يقول حيث أصبح: يا أم حبيبة إني نظرت في الدين فلم أر ديناً خيراً من النصرانية وكنت قد دنت بها، ثم دخلت في دين محمد، ثم قد رجعت إلى النصرانية، فقلت: والله ما خير لك وأخبرته بالرؤيا التي رأيت له فلم يحفل بها وأكب على الخمر حتى مات. فأرى في النوم كأن آتياً يقول لي: يا أم المؤمنين ففزعت وأولتها أن رسول الله ﷺ يتزوجني. قالت: فما هو إلا أن انقضت عدتي فما شعرت إلا برسول النجاشي على بابي يستأذن فإذا جارية له يقال لها: أبرهة كانت تقوم على ثيابه ودهنه، فدخلت عليّ فقالت: إن الملك يقول لك إن رسول الله ﷺ كتب إليّ أن أزوجكه فقالت: بشرك الله بخير. قالت: يقول لك الملك وكِّلي من يزوجك، فأرسلت إلى خالد بن سعيد بن العاص فوكلته[3]. . ففي هذا الحديث فضيلة ظاهرة ومنقبة عالية لأم المؤمنين أم حبيبة رضي الله عنها وهي أنها كانت ممن شرف بالهجرة إلى أرض الحبشة وثبتت على إسلامها وهجرتها[4].

ب ـ ومن منا قبها أنها أكرمت فراش رسول الله من أن يجلس عليه أبوها، لما قدم المدينة لعقد الهدنة بين الرسول ﷺ وبين قريش ومنعته من الجلوس عليه لأنه كان يومئذ على الشرك ولم يكن قد أسلم[5]، فقد روى ابن سعد بإسناده إلى محمد بن مسلم الزهري قال: لما قدم أبو سفيان بن حرب المدينة جاء إلى رسول الله وهو يريد غزو مكة، فكلمه أن يزيد في هدنة الحديبية فلم يقبل عليه رسول الله ﷺ، فقام فدخل على ابنته أم حبيبة، فلما ذهب ليجلس على فراش النبي ﷺ طوته دونه فقال: يا بنية أرغبت بهذا الفراش عني أم بي عنه؟ فقالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت امرؤ نجس مشرك، فقال: يا بنية أصابك بعدي شر[6].

---

(1) الطبقات لابن سعد (8/ 96 - 100) مجمع الزوائد (9/ 249).

(2) سير أعلام النبلاء (2/ 219).

(3) المستدرك، كتاب معرفة الصحابة (4/ 20 - 21).

(4) العقيدة في أهل البيت ص: 113.

(5) المصدر نفسه ص: 113.

(6) سير أعلام النبلاء (2/ 223)، الطبقات الكبرى (8/ 99 - 100).

ج ـ ومن مناقبها ما رواه ابن سعد والحاكم عن عوف بن الحارث قال: سمعت عائشة تقول: دعتني أم حبيبة زوج النبي ﷺ عند موتها فقالت: قد كان يكون بيننا ما يكون بين الضرائر فغفر الله لي ولك ما كان من ذلك، فقلت: غفر الله لك ذلك كله وحللك من ذلك، فقالت: سررتيني سرك الله، وأرسلت إلى أم سلمة فقالت لها مثل ذلك، وتوفيت سنة أربع وأربعين في خلافة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما [1].

5 - أم الحكم بنت أبي سفيان رضي الله عنها :

هي أم عبد الرحمٰن بن أم الحكم، من مسلمة الفتح ، كانت حين نزول قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: 10] تحت عياض بن غنم الفهري، ففارقها حينئذٍ، فتزوجها عبد الله بن عثمان الثقفي[2].

6 - عزة بنت أبي سفيان رضي الله عنها :

ذكرها ابن شهاب في حديث أم حبيبة في الرضاع، أخرج مسلم حديثها وهو ما يروي عن أم حبيبة أنها قالت: يا رسول الله هل لك في أختي؟ قال: «ما أصنع بها؟» قالت: تنكحها، قال: «أتحبين ذلك؟» قالت: نعم لست بمخلية لك وأحبّ من شركني في خير أختي[3]، وبين لها رسول الله ﷺ أن ذلك لا يحل له[4] إذ لا يجوز في الإسلام الجمع بين الأختين[5]. هذا وقد عقد رسول الله ﷺ على أم حبيبة بنت أبي سفيان سنة ست للهجرة[6] وكان عمرها 33 سنة يوم عقد عليها رسول الله، وقال الذهبي: فكان لها يوم قدم بها خالد بن سعيد بن العاص بن أمية إلى المدينة بضع وثلاثون سنة[7]، وقد توفيت سنة 44 هـ[8].

7 - أميمة بنت أبي سفيان:

ولدت أبا سفيان بن حويطب بن عبد العُزّى وجويرية وذكرها ابن قدامة في التبيين في أنساب القرشيين باقتضاب[9].

خامساً: زوجات معاوية رضي الله عنه وأولاده:

1 - من نساء معاوية رضي الله عنه ميسون بنت بحدل الكلبي ، وولدت له يزيد بن معاوية، وأمة رب المشارق فماتت صغيرة[10]، وكان معاوية رضي الله عنه يجل ميسون بنت بحدل ويحترمها إلا أنها

---

(1) سير أعلام النبلاء (2/ 223).
(2) التبيين في أنساب القرشيين ص: 209.
(3) مسلم رقم 1449.
(4) مسلم رقم 1449.
(5) الدولة الأموية المفترى عليها ص: 142.
(6) سير أعلام النبلاء (2/ 220).
(7) المصدر نفسه (2/ 222).
(8) المصدر نفسه (2/ 222).
(9) التبيين في أنساب القرشيين ص: 209.
(10) تاريخ الطبري (6/ 246 - 247).

كانت تحن إلى مرتع طفولتها في البادية، وتكثر ذكر أهلها وحياتهم البسيطة وصوف عيشتهم، وبعدهم عما يكدرهم، وتزهد في حياة القصور، بما فيها من الخدم والوصيفات، وذات يوم تذكرت باديتها وحنت إلى أترابها وأناسها، وتذكرت مسقط رأسها فبكت وتنهّدت فقالت لها بعض حظاياها: ما يبكيك وأنت في مُلْكٍ يضاهي ملك بلقيس؟ فتنفست الصعداء ثم أنشدت:

لبيت تخفق الأرواح فيه ... أحبّ إليَّ من قصر منيف
وبكر[1] يتبع الأظعان سبقاً ... أحبّ إليَّ من بَغْلٍ زفوف[2]
وكلب ينبح الطّراق عني ... أحبّ إليَّ من قطٍ أليف
ولبسُ عباءةٍ وتقرّ عيني ... أحبّ إليَّ من لبس الشفوف[3]
وأكل كُسيرة في كِسْر بيتي ... أحبّ إليَّ من أكل الرّغيف[4]
وأصوات الرّياح بكلّ فجٍّ ... أحبّ إليَّ من نقر الدفوف
وخِرْق من بني عمي نحيف ... أحبّ إليَّ من عِلْج كليف[5]
خشونة عيشي في البدو أشهى ... إلى نفسي من العيش الطّريفِ
فما أبغي سوى وطني بديلاً ... فحسبي ذاك من وطن شريف

فلما دخل معاوية عرَّفَته الحظيّة بما قالت: وقيل: إنه سمعها وهي تنشد ذلك فقال: ما رضيت ابنة بحدل حتى جعلتني عِلجاً علوفاً، هي طالق، مُرُوها فلتأخذ جميع ما في القصر فهو لها، ثمَّ سيرها إلى أهلها بالبادية فأخذت معها ابنها يزيد فنشأ في البريّة فصيحاً[6].

ونقل البغدادي ـ رحمه الله ـ في خزانة الأدب، إن معاوية لما طلقها قال لها كنت فبِنْت، فأجابته: ما سُررنا إذْ كُنّا، ولا أسفنا إذْ بِنّا[7]. ولله درَّ القائل حيث أشار إلى هذا في قوله:

وحبّبَ أوطان الرّجال إليهم ... مآرب قضاها الشباب هنالك
إذا ذكروا الأوطان ذكّرتهم ... عهود الصّبا فيها فحنّوا لذلكا[8]

2 - ومن زوجاته: فاختة ابنة قَرَظَة بن عبد عمرو بن نوفل بن عبد مناف، وولدت له عبد

(1) البكر: الفتى من الإبل.
(2) زفوف: مسرع.
(3) الشفوف: جمع شف: وهو الثوب الرقيق الذي يشفُّ ما وراءه.
(4) الكسيرة: القطعة من الخبز، الكِسْر: طرف الخباء من الأرض.
(5) الخِرق: الفتى السّمح الكريم، العلج: الشديد.
(6) شاعرات العرب ص: (396 - 397) نساء من عصر التابعين أحمد خليل ص: 43.
(7) خزانة الأدب (3/ 593) نساء من عصر التابعين ص: 43.
(8) نساء من عصر التابعين ص: 44.

الرحمٰن وعبد الله ابني معاوية، وكان عبد الله محمّقاً ضعيفاً وكان يكنى أبا الخير، وأما عبد الرحمٰن[1]، فمات صغيراً.

3 - ومن زوجاته: كنود بنت قَرَظة وهي أخت فاختة تزوجها منفردة عنها بعدها، وهي التي كانت معه حيث افتتح قبرص[2].

4 - وتزوج نائلة بنت عمارة الكلبية ثم طلقها[3]، ومن بناته: رملة تزوجها عمرو بن عثمان ابن عفان[4]، وهند بنت معاوية تزوجها عبد الله بن عامر[5] وعائشة وعاتكة وصفية[6].

سادساً: إسلام معاوية رضي الله عنه وشيء من فضائله:

أسلم معاوية مع أبيه وأخيه يزيد رضي الله عنهم يوم الفتح[7] هذا على المشهور، ولكن يروى عنه أنه قال: أسلمت يوم القضية ـ أي عمرة القضاء سنة 7 هـ ـ ولكن كتمت إسلامي من أبي، ثم علم بذلك، فقال لي: هذا أخوك يزيد وهو خير منك على دين قومه فقلت له: لم آل نفسي جهد، ولقد دخل رسول الله ﷺ مكة في عمرة القضاء وإني لمصدق به، ثم لما دخل عام الفتح أظهرت إسلامي، فجئته فرحب بي وكتبت بين يديه[8]، وشهد معاوية ـ رضي الله عنه ـ مع رسول الله ﷺ حنيناً وأعطاه مائة من الإبل وأربعين أوقية من الذهب[9] وقد ذكر العلماء لمعاوية رضي الله عنه فضائل كثيرة من هذه الفضائل:

1 - من القرآن الكريم:

فقد اشترك معاوية رضي الله عنه في غزوة حنين قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [التوبة: 26]. ومعاوية رضي الله عنه من الذين شهدوا غزوة حنين وكان من المؤمنين الذين أنزل الله سكينته عليهم مع النبي ﷺ[10]، كما أنه ممن وعدهم الله الحسنى: قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: 10]. ومعاوية رضي الله عنه ممن وعدهم الله الحسنى، فإنه أنفق في حنين والطائف وقاتل فيهما[11].

---

(1) تاريخ الطبري (6/ 147).
(2) البداية والنهاية (11/ 462).
(3) المصدر نفسه (11/ 463).
(4) المصدر نفسه (11/ 463).
(5) المصدر نفسه (11/ 464).
(6) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين ص: 129.
(7) الإصابة (3/ 433)، التبيين في أنساب القرشيين ص: 105.
(8) البداية والنهاية (11/ 396).
(9) المصدر نفسه (11/ 396).
(10) الفتاوى (4/ 458).
(11) المصدر نفسه (4/ 495).

2 - من السنة:

أ - دعاء الرسول ﷺ لمعاوية رضي الله عنه، ومن ذلك قوله ﷺ: «اللهم اجعله هادياً[1]، مهدياً[2]، واهد به»[3].

وقال ﷺ: «اللهم علم معاوية الكتاب والحساب وقه العذاب»[4].

ب - ما أخرجه مسلم من طريق عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كنت ألعب مع الصبيان فجاء رسول الله ﷺ، فتواريت خلف الباب، قال: فجاء فحطأني حطأةً وقال: «اذهب وادع لي معاوية»، قال: فجئت فقلت: هو يأكل، قال: ثم قال لي: «اذهب فادع لي معاوية»، قال: فجئت فقلت: هو يأكل، فقال: «لا أشبع الله بطنه»[5].

قال النووي معلقاً على هذا الحديث. وقد فهم مسلم رحمه الله من هذا الحديث أن معاوية لم يكن مستحقاً للدعاء عليه، فلهذا أدخله في هذا الباب[6]، وجعله غيره من مناقب معاوية لأنه في الحقيقة دعاء له[7]، ولذلك قال ابن عساكر عن حديث «لا أشبع الله بطنه»: أصح ما روي في فضل معاوية.. وبعده حديث.. «اللهم علمه الكتاب»، وبعده حديث.. «اللهم اجعله هادياً مهدياً»[8]. وعن الحديث نفسه قال الذهبي: قلت: لعل أن يقال، هذه منقبة لمعاوية لقوله ﷺ: «اللهم من لعنته أو سببته، فاجعل ذلك له زكاة ورحمة»[9]. وقال الألباني: قد يستغل بعض الفرق هذا الحديث ليتخذوا منه مطعناً في معاوية رضي الله عنه، وليس فيه ما يساعدهم على ذلك، كيف وفيه أنه كان كاتب النبي ﷺ[10]، وقيل في «لا أشبع الله بطنه»: أنها كلمة جرت على عادة العرب نحو: قاتله الله ما أكرمه، ويل أمه وأبيه ما أجوده، مما لا يراد معناه[11].

ج - ما أخرجه البخاري من طريق أنس بن مالك، عن خالته أم حرام بنت ملحان قالت: نام النبي ﷺ يوماً قريباً مني، ثم استيقظ يبتسم، فقلت: ما أضحكك؟ قال: «أناس من أمتي

---

(1) هادياً: أي للناس أو دالاً على الخير.
(2) مهدياً: مهتدياً في نفسه.
(3) الشريعة (5/ 2437) إسناده صحيح.
(4) موارد الظمآن للهيثمي، تحقيق حسين الداراني (7/ 249) إسناده حسن.
(5) مسلم رقم 2604.
(6) اسم الباب: من لعنه النبي ﷺ أو سبه أو دعا عليه وليس هو أهلاً.
(7) شرح صحيح مسلم للنووي (16/ 165).
(8) تاريخ دمشق (62/ 24).
(9) سير أعلام النبلاء (14/ 130).
(10) السلسلة الصحيحة (1/ 165).
(11) الناهية عن طعن أمير المؤمنين معاوية ص: 69.

عرضوا علي، يركبون هذا البحر الأخضر، كالملوك على الأسرة»، قالت: فادع الله أن يجعلني منهم، فدعا لها، ثم نام الثانية، ففعل مثلها، فقالت قولها، فأجابها مثلها، فقالت: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «أنت من الأولين»، فخرجت مع زوجها عبادة بن الصامت غازياً، أول ما ركب المسلمون البحر مع معاوية[1]، فلما انصرفوا من غزوتهم قافلين، فقُرِّبت إليها دابة لتركبها فصرعتها فماتت[2]. قال ابن حجر معلقاً على رؤيا رسول الله ﷺ: قوله: ناس من أمتي عرضوا عليّ غُزاة.. يشعر بأنه ضحكه كان إعجاباً بهم، وفرحاً لما رأى لهم من المنزلة الرفيعة[3].

د ـ ما أخرجه البخاري من طريق أم حرام بنت ملحان رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أول جيش من أمتي يغزون البحر قد أوجبوا»[4]، قالت: يا رسول الله أنا فيهم؟ قال: «أنت فيهم». ثم قال النبي ﷺ: «أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر[5] مغفور لهم» فقلت: أنا فيهم يا رسول الله؟ قال: «لا»[6].

قال المهلب[7] معلقاً على هذا الحديث: في هذا الحديث منقبة لمعاوية لأنه أول من غزا البحر[8]. وكان معاوية رضي الله عنه يكتب الوحي لرسول الله ﷺ[9]، وكذلك رسائل النبي ﷺ إلى زعماء القبائل[10]، وكتابة معاوية للوحي لرسول الله ﷺ أتاح له لون من القرب الطبيعي من رسول الله ﷺ في تلك الفترة التي أعقبت فتح مكة حتى وفاة رسول الله ﷺ، مما يستتبع بالضرورة التأثر بشخص الرسول الكريم ﷺ، والأخذ المباشر منه[11].

سابعاً: رواية معاوية لحديث رسول الله ﷺ:

يعد معاوية رضي الله عنه من الذين نالوا شرف الرواية عن رسول الله ﷺ، ومردّ ذلك إلى ملازمته

---

(1) وذلك في إمارة معاوية على الشام في خلافة عثمان سنة 27 هـ.

(2) فتح الباري على صحيح البخاري (6/ 22).

(3) المصدر نفسه (11/ 76).

(4) أوجبوا: أي فعلوا فعلاً وجبت لهم الجنة.

(5) مدينة قيصر: يعني القسطنطينية فتح الباري (6/ 120).

(6) فتح الباري على صحيح البخاري (6/ 22).

(7) المهلب بن أحمد بن أبي صفرة الأسدي الأندلسي، مصنف شرح صحيح البخاري، توفي سنة 435، انظر: سير أعلام النبلاء (17/ 589) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري ص: 27.

(8) فتح الباري (6/ 120).

(9) البداية والنهاية (11/ 396).

(10) الإصابة في تمييز الصحابة (3/ 434).

(11) الدولة الأموية المفترى عليها ص: 145.

لرسول الله ﷺ بعد فتح مكة وكان عمره في فتح مكة حوالي ثماني عشرة سنة[1]، ولكونه صهر رسول الله ﷺ وكاتبه فقد أتيحت له فرصة عظيمة مكنته من الاستفادة من رسول الله ﷺ، هذا وقد روى معاوية رضي الله عنه مائة وثلاثة وستين حديثاً[2] عن رسول الله ﷺ، واتفق له البخاري ومسلم على أربعة أحاديث، وانفرد البخاري بأربعة ومسلم بخمسة[3]، ومن هذه الأحاديث التي رواها معاوية رضي الله عنه :

1 - دخل معاوية على عبد الله بن الزبير وابن عامر، فقام ابن عامر، ولم يقم ابن الزبير فقال معاوية: مَهْ، قال رسول الله ﷺ: «**من أحب أن يمثل له عباد الله قياماً، فليتبوَّأ مقعده من النار**»[4].

2 - عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إذا أراد الله بعبد خيراً فقهه في الدين**»[5].

3 - عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خرج معاوية على حلقة في المسجد، فقال: ما أجلسكم[6]؟ قالوا: جلسنا نذكر الله عز وجل قال: آلله ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: آلله ما أجلسنا إلا ذاك، قال: أما إنِّي لم أستحلفكم تهمة لكم، وما كان أحد بمنزلتي من رسول الله ﷺ أقلَّ عنه حديثاً مني، وإن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه، فقال: «**ما أجلسكم؟**» قالوا: جلسنا نذكر الله عز وجل، ونحمده على ما هدانا للإسلام ومنّ علينا بك، قال: «**آللهِ ما أجلسكم إلا ذلك**»؟ قالوا: آلله ما أجلسنا إلا ذلك. قال: «**أما إنِّي لم أستحلفكم تهمة لكم، وإنَّه أتاني جبريل عليه السلام فأخبرني أنَّ الله عز وجل يباهي بكم الملائكة**»[7].

4 - عن معبد الجهني، قال: كان معاوية قلّما يُحدِّثُ عن رسول الله ﷺ شيئاً، ويقول هؤلاء الكلمات قلَّما يدعهنَّ أو يحدِّثُ بهنَّ في الجمع، عن النبي ﷺ قال: «**من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإن هذا المال حُلوٌ خضرٌ فمن يأخذه بحقه يبارك له فيه، وإياكم والتمادح، فإنَّه الذبح**»[8].

---

(1) الطبقات الكبرى (7/ 406)، خلافة معاوية، د. عمر العقيلي ص: 14.

(2) أسماء الصحابة الرواة لابن حزم ص: 55، مرويات خلافة معاوية ص: 23.

(3) سير أعلام النبلاء (3/ 162).

(4) الموسوعة الحديثية مسند الإمام أحمد (28/ 40) إسناده صحيح.

(5) المصدر نفسه (28/ 48) إسناده صحيح.

(6) أي: في المسجد.

(7) الموسوعة الحديثية مسند الإمام أحمد (28/ 50) إسناده صحيح.

(8) المصدر نفسه (28/ 52) إسناده صحيح.

5 - عن عبد الرحمٰن بن عبد عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من شَرِب الخمر، فاجلدوه، فإن عاد، فاجلدوه، فإن عاد فاجلدوه فإن عاد الرّابعة، فاقتلوه»**[1].

6 - عن عيسى بن طلحة قال: سمعت معاوية يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن المؤذِّنين أطول الناس أعناقاً يوم القيامة»**[2].

7 - عن مجاهد وعطاء عن ابن عباس أن معاوية أخبره: أنه رأى رسول الله ﷺ قصَّر من شعره بمقص فقلنا لابن عباس: ما بلغنا هذا إلا عن معاوية، فقال: ما كان معاوية على رسول الله متهماً.

8 - عن الزهري قال: حدثني حميد بن عبد الرحمٰن بن عوف أنَّه سمع معاوية يخطب بالمدينة يقول: يا أهل المدينة، أين علماؤكم؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«هذا يوم عاشوراء ولم يفرض علينا صيامه، فمن شاء منكم أن يصوم فليصم فإني صائم»**، فصام النَّاس[3] بداية.

9 - عن الحَكَم بنِ ميناء أن يزيد بن جارية الأنصاري أخبره أنه كان جالساً في نفر من الأنصار، فخرج عليهم معاوية، فسألهم عن حديثهم، فقالوا: كُنّا في حديث من حديث الأنصار، فقال معاوية: ألا أَزِيدكم حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ؟ قالوا: بلى يا أمير المؤمنين، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من أحبَّ الأنصار أحبَّهُ الله ﷻ، ومن أبغض الأنصار، أبغضه الله ﷻ»**[4].

10 - عن أبي صالح عن معاوية قال: قال رسول الله ﷺ: **«من مات بغير إمام مات ميتة جاهلية»**[5].

11 - قال محمد بن كعب القُرَظي، سمعت معاوية يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول إذا انصرف من الصَّلاة: **«اللَّهم لا مانع لما أعطيت ولا مُعطي لما منعت ولا ينفع ذا الجدِّ منك الجَدُّ»**[6].

12 - عن أبي بردة عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ما من شيء يصيب المؤمن في جسده يؤذيه إلا كفَّر الله عنه به من سيِّئاته»**[7].

---

(1) الموسوعة الحديثية مسند الإمام أحمد (28/ 61) إسناده صحيح.
(2) المصدر نفسه (28/ 75) إسناده صحيح على شرط مسلم.
(3) المصدر نفسه (28/ 81) إسناده صحيح.
(4) المصدر نفسه (28/ 85) إسناده صحيح.
(5) المصدر نفسه (28/ 89) صحيح لغيره.
(6) المصدر نفسه (28/ 100) إسناده صحيح.
(7) المصدر نفسه (28/ 107) إسناده صحيح.

13 - وعن معاوية رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحقّ لا يضرّهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس»[1].

14 - وعن معاوية بن أبي سفيان أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من نسي شيئاً من صلاته فليسجد سجدتين وهو جالس»[2].

15 - وعن معاوية بن أبي سفيان، عن النبي ﷺ قال: «من كذب عليَّ متعمِّداً فليتبوأ مقعده من النار»[3].

16 - وعن عمير بن هانيء قال: سمعت معاوية بن أبي سفيان على هذا المنبر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله عز وجل وهم ظاهرون على الناس». فقام مالك بن يخامر السكسكيُّ فقال: يا أمير المؤمنين سمعت معاذ بن جبل يقول: وهم أهل الشام، فقال معاوية ورفع صوته: هذا مالك يزعم أنه سمع معاذاً يقول: وهم أهل الشام[4].

17 - حدّثنا روح، قال: حدّثنا أبو أميّة عمرو بن يحيى بن سعيد قال: سمعت جدِّي يُحَدِّث أن معاوية أخذ الإِداوة بعد أبي هريرة يتبع رسول الله ﷺ بها، واشتكى أبو هريرة فبينما هو يوضيء رسول الله ﷺ رفع رأسه إليه مرة أو مرتين وهو يتوضأ، فقال: «يا معاوية إن وليت أمراً فاتق الله عز وجل واعدل»، قال: فما زلت أرى أني مُبتلىً بعملٍ لقول النبيّ ﷺ حتى ابتُليتُ[5].

18 - وعن أبي عامر عبد الله بن لُحَيٍّ، قال: حججنا مع معاوية بن أبي سفيان، فلمَّا قدمنا مكة قام حين صَلَّى صلاة الظهر، فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمَّة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة، - يعني الأهواء - كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة، وإنه سيخرج في أمتي أقوام تَجَارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه، لا يبقي منه عرق ولا مفصل إلا دخله. والله يا معشر العرب لئن لم تقوموا بما جاء به نبيكم، لغيركم من الناس أحرى أن لا يقوم به»[6].

(1) الموسوعة الحديثية مسند الإمام أحمد (28/ 116) إسناده صحيح على شرط مسلم.
(2) المصدر نفسه (28/ 118) صحيح لغيره.
(3) المصدر نفسه (28/ 118) صحيح لغيره.
(4) المصدر نفسه (28/ 129) إسناده صحيح.
(5) المصدر نفسه (28/ 130) رجاله ثقات رجال الصحيح غير أن جد عمرو بن يحيى - وهو سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص لم يتبين لنا سماعه من معاوية، فقد ذكر البخاري في تاريخه الكبير(3/ 331) فقال: ويُروى في فضائل معاوية أشياء ضعيفة تحتمل وذكر منها هذا الحديث.
(6) الموسوعة الحديثية مسند الإمام أحمد (28/ 135) إسناده حسن.

ثامناً: من الأحاديث الباطلة التي لا تصح في شأن معاوية مدحاً وذماً:

1 - من الأحاديث الباطلة التي لا تصح في مدح معاوية:

وقد ساق ابن عساكر في ترجمته لمعاوية أحاديث واهية وباطلة طوّل بها جداً ، فمن الأباطيل المختلفة[1]:

أ - عن واثلة مرفوعاً: كاد معاوية أن يبعث نبياً من حلمه وائتمانه على كلام ربي[2].

ب - وعن أبي موسى: نزل عليه الوحي، فلما سُرِّي عنه، طلب معاوية، فلما كتبها ـ يعني آية الكرسي. قال: غفر الله لك يا معاوية ما تقدم إلى يوم القيامة[3].

ت - وعن أنس: هبط جبريل بقلم من ذهب، فقال يا محمد: إن العليَّ الأعلى يقول: قد أهديت هذا القلم من فوق عرشي إلى معاوية، فمره أن يكتب آية الكرسي به ويشكله ويعجمه، فذكر خبراً طويلاً[4].

ث - وعن ابن عباس، قال: لما أنزلت آية الكرسي، دعا معاوية فلم يجد قلماً، وذلك أن الله أمر جبريل أن يأخذ الأقلام من دواته، فقام ليجيء بقلم، فقال النبي ﷺ: خذ القلم من أذنك، فإذا قلم ذهب مكتوب عليه لا إله إلا الله، هدية من الله إلى أمينه معاوية.

ج - وعن حذيفة مرفوعاً: يبعث معاوية وعليه رداء من نور الإيمان[5].

ح - وعن أنس مرفوعاً: لا أفتقد أحداً غير معاوية، لا أراه سبعين عاماً، فإذا كان بعد أقبل على ناقة من المسك، فأقول: أين كنت؟ فيقول في روضة تحت العرش.

خ - وعن ابن عمر مرفوعاً: يا معاوية، أنت مني وأنا منك، لتزاحمنّي على باب الجنة[6]

قال الذهبي بعد ذكر هذه الأحاديث وغيرها: فهذه الأحاديث ظاهرة الوضع والله أعلم[7]. وقد ذكر أكثر هذه الأحاديث الشوكاني في الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة[8]، وقال ابن كثير بعد أن ذكر حديثاً منها: وقد أورد ابن عساكر بعد هذا أحاديث كثيرة موضوعة[9]، والعجب منه مع حفظه واطلاعه كيف لا ينبُهُ عليها وعلى نكارتها وضعف حالها[10].

---

(1) سير أعلام النبلاء (3/ 127، 128).
(2) المصدر نفسه (3/ 128) موضوع.
(3) المصدر نفسه (3/ 129) موضوع.
(4) المصدر نفسه (3/ 129) موضوع.
(5) المصدر نفسه (3/ 130) موضوع.
(6) المصدر نفسه (3/ 131) موضوع.
(7) المصدر نفسه (3/ 131).
(8) الفوائد المجموعة ص: 403 - 407.
(9) البداية والنهاية (11/ 409).
(10) سير أعلام النبلاء (3/ 131).

2 - من الأحاديث الباطلة في ذم معاوية:

قال ابن الجوزي: قد تعصب قوم ممن يدعون السنة فوضعوا في فضله أحاديث ليغضبوا الرافضة، وتعصب قوم من الرافضة فوضعوا في ذمه أحاديث، وكلا الفريقين على الخطأ القبيح[1] ومن الأحاديث الواهية في ذمه:

أ ـ الحديث المنسوب إلى رسول الله ﷺ: يطلع عليكم رجل يموت على غير سنتي فطلع معاوية. وقام النبي ﷺ خطيباً، فأخذ معاوية بيد ابنه يزيد وخرج ولم يسمع الخطبة، فقال النبي ﷺ: لعن الله القائد والمقود، أي يوم يكون للأمة مع معاوية ذي الإساءة، وهذا الحديث لا يصح وهو كذب على رسول الله، وهو من الكذب الموضوع باتفاق أهل المعرفة بالحديث، ولا يوجد في شيء من دواوين الحديث التي يرجع إليها في معرفة الحديث، وليس له إسناد معروف[2]، ثم من المعلوم من سيرة معاوية أنه كان من أحلم الناس، وأصبرهم على من يؤذيه، وأعظم الناس تأليفاً لمن يعاديه، فكيف ينفر عن رسول الله ﷺ، مع أنه أعظم الناس مرتبة في الدين والدنيا، وهو محتاج إليه في كل أموره؟ فكيف لا يصبر على سماع كلامه وهو بعد المُلك يسمع كلام من يسبّه في وجهه، فلماذا لا يسمع كلام النبي ﷺ؟ وكيف يتخذه النبي ﷺ كاتباً من هذه حالة[3].

3 - دور بني أمية في عهد رسول الله ﷺ:

رغم إسلام الكثير من رجال بني أمية منذ بداية الدعوة، وتضحياتهم وهجرتهم إلى الحبشة، ورغم إسلام جميع بني أمية عند فتح مكة، وترحيب الرسول بهم وفرحه بإسلامهم والاعتماد عليهم في جلائل الأعمال، وقد أفسح لهم مكاناً في دولته لتستفيد بجهودهم ومقدرتهم، فقد أعطى الرسول ﷺ لأبي سفيان ميزة لم يعطَها أحد من أهل مكة، حين قال: **«من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»**[4]، وهذا شرف كبير حازه أبو سفيان يدل على تقدير الرسول للزعماء وأصحاب الكلمة في قومهم، واستعمل الرسول ﷺ أبا سفيان على نجران، واتخذ ابنه معاوية كاتباً له[5]. روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس، أن أبا سفيان طلب من النبي ﷺ أن يؤمره حتى يقاتل الكفار كما كان يقاتل المسلمين، وأن يجعل معاوية كاتباً بين يديه، فاستجاب له النبي ﷺ[6]، وكان أول وال على مكة ـ وهي أشرف بلاد الله ـ بعد فتحها رجلاً من بني أمية، هو عتاب بن أسيد بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، يروي ابن إسحاق عن زيد بن أسلم

(1) الموضوعات (2/ 15).
(2) البداية والنهاية (11/ 438).
(3) أمير المؤمنين معاوية لابن تيمية، جمع وتقديم محمد مال الله ص: 88.
(4) البخاري رقم (4280).
(5) العالم الإسلامي في العصر الأموي ص: 11.
(6) صحيح مسلم بشرح النووي (16/ 62).

أنه قال: لما استعمل النبي ﷺ عتاب بن أسيد على مكة رزقه كل يوم درهماً، فقال: أيها الناس، أجاع الله كبد من جاع على درهم، فقد رزقني رسول الله ﷺ كل يوم درهماً فليست بي حاجة إلى أحد[1]، كما استعمل رسول الله ﷺ عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية على قرى خيبر ووادي القرى وتيماء وتبوك، وقبض رسول الله ﷺ وعمرو عليها[2]، كما استعمل الحكم ابن سعيد بن العاص على سوق مكة[3]، واستعمل خالد بن سعيد بن العاص على صنعاء[4]، واستعمل أبان بن سعيد بن العاص على البحرين، وقبض رسول الله ﷺ وهو عليها[5]، كما كان أبان وخالد ابنا سعيد بن العاص، ومعاوية بن أبي سفيان إضافة إلى عثمان بن عفان ﷺ من كتاب الرسول ﷺ[6].

وخلاصة القول: فقد قبض رسول الله ﷺ ومُعظم رجالات بني أمية على مختلف الأعمال، من الولاية والكتابة، وجباية الأموال، ولا نعرف قبيلة من قبائل قريش فيها عمال الرسول ﷺ أكثر منهم[7]، واستعمال النبي ﷺ لأكثر رجال بني أمية، أكبر دليل على كفاءتهم وأمانتهم[8]. وأما قوله ﷺ: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»[9]، فهذه الكلمات، جعل بعض الناس منها سبة في جبين بني أمية وحدهم، وجعلوا يعيرونهم بأنهم الطلقاء وأبناء الطلقاء، ولم يفهموا أن هؤلاء الطلقاء وأبناءهم قد أسلموا وحسن إسلامهم، وكانت لهم مواقف مشهودة في نصرة الإسلام في حياة الرسول ﷺ وبعده في الفتوحات في عهد خلفائه الراشدين[10]، ونحب أن نشير إلى عدة نقاط متعلقة بوصف الطلقاء منها:

1 - إن هذا الاتهام وليد عصر الخصومة الحزبية الحادة، لما تفجرت الأحقاد ضد بني أمية في أواخر عهد عثمان ﷺ وبعد بروز نجم معاوية بن أبي سفيان وخلافه مع علي بن أبي طالب ﷺ، حيث أصبح ذلك الوصف يعني عندهم أنهم قوم ضعاف الإيمان، دخلوا الإسلام رغبة في غنائمه، أو رهبة من القتل، ليكيدوا لأهله ويفيدوا أنفسهم.

2 - إن أبا سفيان بن حرب وابنه معاوية ليسا من الطلقاء بالمعنى الدقيق السابق لهذه الكلمة، فقد أسلم أبو سفيان قبيل فتح مكة والرسول وجيشه بمر الظهران خارجها، وقد جاء فور إسلامه يدعو قومه إلى المسالمة والفتح، أما معاوية ابنه فقد أكدت بعض الروايات أنه أسلم قبل الفتح أيضاً، غير أنه كان يخفي إسلامه ـ شأن بعض الناس آنذاك ـ لمكانته من أبيه

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام (4/ 69 - 149)، تاريخ خليفة بن خياط ص: 97.
(2) منهاج السنة (3/ 175 - 176).
(3) المصدر نفسه(3/ 175/ 176).
(4) خليفة بن خياط ص: 97.
(5) منهاج السنة (3/ 175/ 176).
(6) تخريج الدلالات السمعية ص: 159 - 162.
(7) منهاج السنة (3/ 175)، العالم الإسلامي في العصر الأموي ص: 12.
(8) العالم الإسلامي في العصر الأموي ص: 12.
(9) الطبقات (2/ 141 - 142).
(10) العالم الإسلامي في العصر الأموي ص: 8.

الذي كان يقود القتال ضد المسلمين، فقد روى أنه أسلم سراً يوم عمرة القضاء، أو عام الحديبية[1]، وإنما وضعهم المؤرخون في زمرة هؤلاء الطلقاء لقرب وقت إسلام أبي سفيان من الفتح، ولأنه كان زعيم مكة الذي ارتبط إسلامه بإسلامها، كما أن معاوية كان إسلامه سراً لم يشع، ولم يعرف إسلامه إلا مع الطلقاء بعد فتح مكة.

3 - إن وصف الطلقاء لا يقتضي الذم، فإن الطلقاء هم مسلمة الفتح الذين أسلموا عام فتح مكة وأطلقهم النبي ﷺ ، وكانوا نحو ألفي رجل، ومنهم من صار من خيار المسلمين كالحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل، ويزيد بن أبي سفيان وحكيم بن حزام، وأبي سفيان بن الحارث، ابن عم النبي ﷺ الذي كان يهجوه ثم حسن إسلامه، وعتاب بن أسيد الذي ولاه النبي مكة لما فتحها، وغير هؤلاء ممن حسن إسلامهم.

4 - إن النظرة الإسلامية في هذا الشأن أن الإسلام يَجِبُّ ما قبله، ويفسح المجال للإفادة من جميع الطاقات والقدرات ويدفع بها نحو تحقيق غاياته الكبرى، وينزل الناس منازلهم، وأن خيار الناس في الإسلام خيارهم في الجاهلية إذا فقهوا، ولم يمنع تأخر إسلام خالد وعمرو بن العاص من تبوئهما المكانة العالية عند النبي ﷺ، فأرسل عمراً أميراً على ذات السلاسل، وسمّى خالداً سيف الله.. هذا مع حفظ المكانة الأسمى والمنزلة العظمى للسابقين الصادقين في الإسلام، ومن هؤلاء السابقين كان جماعة من بني أمية وغيرهم، كما كان من الطلقاء بني أمية وغيرهم[2].

المبحث الثاني

الأمويون ومعاوية في عهد أبي بكر وعمر وعثمان

أولاً: في خلافة أبي بكر ﷺ:

واجه المسلمون بعد موت نبيهم ﷺ ظروفاً عصيبةً، وأجمعوا على بيعة أبي بكر خليفة لرسول الله ﷺ، وقام بجهود عظيمة في مواجهة الأخطار، فحارب المرتدين حتى ردهم إلى الإسلام والجماعة وبدأ حركة الفتوح في بلاد الفرس والروم، وكان أول كتاب كتبه أبو بكر بشأن حروب الردة إلى عامله الأموي على مكة عتاب بن أسيد، حيث كتب إليه بركوب من ارتد من أهل عمله بمن ثبت على الإسلام، فواجههم عتاب في تهامة حتى ظفر بهم[3]، ثم جهز من أهل مكة وأعمالها خمسمائة رجل وأمّر عليهم أخاه خالد بن أسيد، فاشتركوا في قتال

---

(1) البداية والنهاية (11/ 396).

(2) الدولة الأموية المفترى عليها ص: 144.

(3) تاريخ الطبري (3/ 319) الدولة الأموية المفترى عليها ص: 148.

المرتدين باليمن[1]، وإعادة أهل حضرموت وكندة إلى حظيرة الإسلام[2]، وفي حروب المسلمين ضد مسيلمة الكذاب كان قائد الجيش خالد بن الوليد، الذي جعل على قيادة المهاجرين في جيشه أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ومعه زيد بن الخطاب[3]، فقاتل أبو حذيفة قتالاً مجيداً، ولما انكشف المسلمون في أول القتال كان أبو حذيفة يهتف فيهم: يا أهل القرآن، زينوا القرآن بالفعال، وقاتل حتى قتل رضي الله عنه [4]، وحمل راية المهاجرين يومذاك مولاه سالم وقاتل بها حتى قتل أيضاً[5]، وشهد حروب اليمامة ضد مسيلمة معاوية رضي الله عنه [6]، كما استشهد من حلفاء بني أمية عكاشة بن محصن الأسدي في قتال طليحة الأسدي[7]، وساهم العلاء الحضرمي حليفهم أيضاً في إخماد الردة في البحرين، ففعل وظفر بهم بعد بلاء حسن وآيات عجيبة[8]، وكان من الطبيعي بعد انتهاء حروب الردة وعودة المرتدين إلى حظيرة الدين وانصياعهم للحكومة الراشدة، أن تطمح الأبصار إلى تخليص الشعوب المستعبدة من حكوماتها الظالمة ودعوتها إلى الإسلام، وبدأ ما عرف في التاريخ بحركة الفتوح الكبرى على جبهتي فارس والروم.. وقد كان لبني أمية دور بارز في هذه الحروب مما يؤكد عمق التزامهم الإسلامي وحيوية دورهم التاريخي في هذه الفترة، غير أننا نشير في البداية إلى وضوح سمتين ظاهرتين صاحبتا حركة الفتوح[9]:

الأولى: هي تعاظم دور مسلمة الفتح وطلقاء مكة في الفتوح ـ ومنهم بعض بني أمية ـ وقد كان ذلك متوقعاً لسببين: الأول هو ما قرره أبو بكر من ضرورة عدم الاستعانة بمن ارتد عن الإسلام ثم عاد إليه في الفتح[10]. وقد كان هذا يعود إلى حرص أبي بكر الصديق رضي الله عنه على نقاء هذه الفتوحات من آثار رقة الدين أو شهوات هذه النفوس التي لم تخلص بعد للإسلام، أو لم تبرهن على إخلاصها له.

والثاني: يعود إلى حرص هؤلاء السادة والأشراف على تعويض ما فاتهم من خدمة قضية الإسلام وأن يلحقوا بإخوانهم الذين سبقوهم إلى الإسلام فسادوا بذلك وعلت أقدارهم[11].

والسمة الظاهرة الثانية: هي تركز نشاط الأمويين في الفتوح على جبهة الشام يشاركهم في

---

(1) تاريخ الطبري (3/ 322، 329، 330).
(2) المصدر نفسه (3/ 330 - 342)..
(3) المصدر نفسه (3/ 381).
(4) المصدر نفسه (3/ 291).
(5) المصدر نفسه (3/ 291 - 292) الدولة الأموية المفترى عليها ص: 148.
(6) البداية والنهاية (11/ 396).
(7) ديوان الردة، للعتوم ص: 86.
(8) تاريخ الطبري (3/ 301 - 313) سيرة أبي بكر الصديق الصّلابي ص: 225.
(9) الدولة الأموية المفترى عليها ص: 148.
(10) تاريخ الطبري (3/ 319/ 347).
(11) الدولة الأموية، حمدي شاهين ص: 149.

ذلك كثير من الفاتحين من أهل مكة عموماً، ويبدو أن ذلك كان أمراً مقصوداً من الخليفة الصديق الذي أدرك وجود صلات عميقة الجذور بين بني أمية والمكيين والقبائل العربية المقيمة ببلاد الشام تحت الحكم البيزنطي، تلك الصلات التي تعمقت من خلال النشاط التجاري المتواصل بين مكة والشام في الجاهلية والذي كان بنو أمية أبرز قواده ورواده[1].

وأما عن مشاركة الأمويين في حروب الفتح، فقد جاءت مبكرة، حيث شارك الوليد بن عقبة بن أبي معيط مع خالد بن الوليد في فتوح العراق الأولى، وشهد معه قتل هرمز، وأرسله خالد إلى أبي بكر بالغنائم وبشارة الفتح وأخباره عن جمع جديد من الفرس[2]، ثم وجهه الخليفة مدداً إلى عياض بن غنم الذي كان قد أمره بفتح العراق من جهة الشمال، وكان يحاصر دومة الجدل فيجد العنت والمشقة في فتحها، فأشار عليه الوليد باستمداد خالد بن الوليد، فاستمده، فأنجده، وفتحوا معاً دومة الجندل[3]، ثم ولاه أبو بكر على النصف من صدقات قضاعة مما يلي دومة الجندل[4]، ولكن الخليفة ما لبث أن كتب إليه يعرض عليه الجهاد في سبيل الله، ويخيره بينه وبين أن يظل على عمله الذي ولاه إياه فأجابه بإيثار الجهاد، فوجه به إلى الشام[5]، وكان أول لواء عقده أبو بكر في حروب الشام لخالد بن سعيد بن العاص الأموي ثم عزله وولى بدله يزيد بن أبي سفيان بن حرب الأموي أيضاً[6]، وأما جيش يزيد بن أبي سفيان، فكان أول جيش كبير يوجهه أبو بكر إلى الشام ويودعه ماشياً[7]، ثم أتبعه بثلاثة جيوش أخرى يقودها عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة وأبو عبيدة بن الجراح[8]، يقول الذهبي عن يزيد ابن أبي سفيان: وهو أحد الأمراء الأربعة الذين ندبهم أبو بكر لغزو الروم، عقد له أبو بكر، ومشى تحت ركابه يسايره ويودعه ويوصيه، وما ذلك إلا لشرفه، وكمال دينه[9]. ثم أتبع الصديق بأناس آخرين يرغبون في الجهاد وألحقهم بجيش يزيد وجعل معاوية بن أبي سفيان أميراً عليهم[10].. وخرج أبو سفيان بن حرب ـ وهو يومئذ شيخ كبير[11]، كما اشترك في

---

(1) الدولة الأموية، حمدي شاهين، ص: 149.

(2) البداية والنهاية (6/ 354).

(3) تاريخ الطبري (3/ 390) الدولة الأموية، حمدي شاهين، ص: 149.

(4) المصدر نفسه (3/ 390).

(5) المصدر نفسه (3/ 389 - 390).

(6) المصدر نفسه (3/ 387).

(7) فتوح الشام للواقدي (1/ 3 - 4).

(8) تاريخ الطبري (3/ 394).

(9) سير أعلام النبلاء (1/ 328).

(10) تاريخ الطبري (3/ 391).

(11) لما توفي كان عمره ثمان وثمانون سنة، ولما حضر اليرموك كان عمره أكثر من سبعين سنة.

الجهاد في الشام أيضاً خالد بن سعيد، وأبان بن سعيد، وعمرو بن سعيد، وقاتلوا جميعاً هناك وقتلوا، حتى قيل: ما فتحت بالشام كورة من كورها إلا وجد عندها رجل من بني سعيد بن العاص شهيداً[1]، وقبل معركة اليرموك عقد قادة الجيوش مؤتمراً للحرب في الجولان.. ومر بهم أبو سفيان بن حرب فقال: ما كنت أظن أن أبقى حتى أرى أغلمة من قريش يذكرون أمر حربهم ويتذاكرون ما يكيدون به عدوهم - في منزلي - ولا يحضروني فأشترك معهم في مشورتهم، فأفسحوا له، فأسهم معهم في رسم خطة القتال[2].

ولما أزفت ساعة الحرب في اليرموك عمد قادة الفريقين إلى إذكاء حماس الجنود، فبينما كان الروم يحضهم القسيسون والرهبان، وينعون لهم النصرانية، حتى تشجعوا وخرجوا للقتال الذي لم يكن بعده قتال مثله[3]، كان المسلمون يتبادرون إلى إلقاء الخطب البليغة والأرجاز المثيرة[4]، بل إنهم عينوا أحد كبار شيوخهم والمخضرمين من رجالهم في مهمة «القاص» وكان ذلك الرجل هو أبو سفيان بن حرب نفسه[5]، ولا شك أن توليه ذلك العمل المهم هو أكبر دليل على صدقه وإخلاصه في دينه وإسلامه، إذ إن قادة الجيش لو علموا فيه آنذاك غير هذا الإخلاص ما جعلوه أميناً على تعبئة حماس الجند وإثارة حميتهم الإسلامية، ولو علم الجنود منه غير ذلك الصدق ما كان لعمله فيه ذلك الأثر العظيم، وقد كان اختياراً موفقاً فعلاً يتّسق مع طبيعة تكوين ذلك الجيش الذي يضم الكثير من أهل مكة وقبائل العرب الذين تأخر إسلامهم، والذين احتفظوا بثقتهم القديمة في أبي سفيان، زعيمهم الذي خبروه[6]، وكان أبو سفيان ﷺ يقف على الكراديس[7]، فيقول: الله الله، إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك، اللهم إن هذا يوم من أيامك، اللهم أنزل النصر على عبادك[8].

ثانياً: في عهد عمر بن الخطاب ﷺ:

عندما توفي الصديق عام 13هـ بويع الفاروق بالخلافة، فسار على نهج صاحبيه في استعمال بني أمية والثقة بهم، فلم يعزل أحد منهم من عمل، ولم يجد على أحد منهم مأخذاً والكل يعرف صرامة عمر، وتحريه أمر ولاته وعماله وتقصيه أعمالهم وأخبارهم، ومحاسبتهم بكل

(1) النزاع والتخاصم ص: 46، الدولة الأموية حمدي شاهين ص: 150.
(2) فتوح الشام للواقدي (1/ 99).
(3) تاريخ الطبري (3/ 395).
(4) المصدر نفسه (3/ 395، 397، 398، 401).
(5) تاريخ الطبري (3/ 397).
(6) الدولة الأموية، حمدي شاهين ص: 151.
(7) الكراديس: جمع كردوس، القطعة العظيمة من الخيل أو الكتيبة من الجند.
(8) التبيين في أنساب القرشيين ص: 203.

دقة وحزم، فاستمرارهم في عهده يدل على أمانتهم وكفايتهم، فقد بقي يزيد بن أبي سفيان والياً على دمشق، كما زاد عمر في عمل معاوية بالشام[1].

1 - بدأ نجم معاوية في الظهور:

بدأ نجم معاوية ﷺ في الظهور في ميدان العمل السياسي والإداري في عهد الخليفة عمر ﷺ فقد ولاه فتح قيسارية[2]سنة خمس عشرة للهجرة[3]، وجاء في كتاب توليته له: أما بعد، فقد وليتك قيسارية فسر إليها واستنصر الله عليهم، وأكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، الله ربنا وثقتنا ومولانا فنعم المولى ونعم النصير[4].

كانت هذه المهمة الجسيمة اختبار كبير من عمر لمعاوية في ميدان الواقع، فقد استطاع تجاوز هذا الاختبار بكل نجاح، فقد سار إلى قيسارية بجنوده الذين أعدهم له أخوه يزيد بن أبي سفيان ـ أحد ولاة الشام لعمر ﷺ وكانت تلك المدينة محصنة وبأس أهلها شديد، فحاصرها معاوية طويلاً وزاحف أهلها مرات عديدة، فلم ييأس معاوية، فصمم على فتحها، واجتهد في القتال حتى فتح الله على يديه، وكان فتحه كبيراً فقد قتل من أهلها ما يقرب من مائة ألف[5] وبعث بالفتح والأخماس على أمير المؤمنين عمر ﷺ [6]، وقد أثبت معاوية بعد توفيق الله ـ بهذا الفتح جدارته وحسن قيادته، فأكسبه ذلك ثقة الجميع، فأسند له أخوه يزيد ـ أمير دمشق ـ مهمة فتح سواحل الشام، وقد أبلى في ذلك بلاءً حسناً[7]، فكان يقيم على الحصن اليومين والأيام اليسيرة فربما قوتل قتالاً شديد، وربما رمى ففتحها، وكان المسلمون كلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل رتبوا فيها قدر ما يحتاج لها إليه من المسلمين، فإن حدث في شيء منها حدث من قبل العدو سربوا إليها الإمداد[8]، ويرى الدكتور عبد الرحمٰن الشجاع أن مدن الشام تساقطت تحت ضربات المجاهدين الواحدة تلو الأخرى، لأن الروم كانوا من الهزيمة بمكان لا تجعلهم يفكرون في المقاومة، فتساقطت مدن بيروت، وصيدا، ونابلس، واللد، وحلب، وأنطاكية، وكانت قيسارية آخر مدن الشام فتحاً على يد معاوية بن أبي سفيان، وكان ذلك بعد القدس[9].

---

(1) العالم الإسلامي في العصر الأموي ص: 15.
(2) قيسارية : على ساحل الشام، تعد في أعمال فلسطين، ياقوت (4/ 421).
(3) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية ص: 59.
(4) تاريخ الطبري (4/ 431).
(5) ترتيب وتهذيب البداية والنهاية ص: 63، 64.
(6) البداية والنهاية (7/ 54).
(7) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية ص: 59.
(8) فتوح البلدان للبلاذري ص: 134.
(9) دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة ص: 355.

وكان عبادة بن الصامت على ميمنة جيش المسلمين في حصار قيسارية، فقام ﷺ بوعظ جنده ودعاهم إلى تفقد أنفسهم والحيطة من المعاصي، ثم قاد هجوماً قتل فيه كثيراً من الروم، لكنه لم يتمكن من تحقيق هدفه، فعاد إلى موقعه الذي انطلق منه، فحرّض أصحابه على القتال، وأبدى لهم استغرابه الشديد لعدم تحقيق أهداف ذلك الهجوم فقال: يا أهل الإسلام، إني كنت من أحدث النقباء سنّاً وأبعدهم أجلاً، وقد قضى الله أن أبقاني حتى قاتلت هذا العدو معكم. . والذي نفسي بيده ما حملت قط في جماعة من المؤمنين على جماعة من المشركين، إلا خلوا لنا الساحة وأعطانا الله عليهم الظفر فما بالكم حملتم على هؤلاء فلم تزيلوهم[1]؟ ثم بين لهم ما يخشاه منهم، فقال: إني والله لخائف عليكم خصلتين: أن تكونوا قد غللتم، أو لم تناصحوا الله في حملتكم[2]، وحض أصحابه على طلب الشهادة بصدق، وأعلمهم أنه سيكون في مقدمتهم وأنه لن يعود إلى مكانه، إلا أن يفتح الله عليه أو يرزقه الشهادة[3]، فلما التحم المسلمون والروم، ترجل عبادة عن جواده وأخذ يقاتل راجلاً، فلما رآه عمير بن سعد الأنصاري نادى المسلمون يعلمهم بما فعل أميرهم ويدعوهم إلى الاقتداء به، فقاتلوا الروم حتى هزموهم وأحجروهم في حصنهم[4] وبعد فتح قيسارية ونجاح معاوية في فتح سواحل دمشق ولاه عمر بن الخطاب ولاية الأردن، وكان ذلك عام 17هـ[5].

2 - ولايته على دمشق وبعلبك والبلقاء:

في سنة ثمان عشرة للهجرة توفي يزيد بن أبي سفيان ﷺ في طاعون عمواس، فولى عمر معاوية عمل أخيه: دمشق وبعلبك والبلقاء[6]، وقد كان لعمل عمر هذا أكبر الأثر على نفسية والد معاوية ووالدته، فحين عزَّى عمر أبا سفيان في وفاة ابنه يزيد قال: يا أمير المؤمنين من وليت مكانه؟ قال: أخوه معاوية. قال: وصلت رحماً يا أمير المؤمنين.

وكتب أبو سفيان لمعاوية ينصحه في بداية عمله هذا فمما قال: يا بني إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا، فرفعهم سبقهم وقدمهم عند الله وعند رسوله ﷺ وقصر بنا تأخيرنا، فصاروا قادة وسادة، وصرنا أتباعاً، وقد ولوك جسيماً من أمورهم فلا تخالفهم، فإنك تجري إلى أمد فنافس فإن بلغته أورثته عقبك[7]، وكذلك كتبت له والدته هند بنت عتبة

(1) الأنصار في العصر الراشدي ص: 207.
(2) المصدر نفسه ص: 209.
(3) المصدر نفسه ص: 209
(4) المصدر نفسه ص: 209.
(5) تاريخ الطبري (4/ 67) خلافة معاوية للعقيلي ص: 17، 18.
(6) الطبقات الكبرى (7/ 406) أثر العلماء في الحياة السياسية ص: 61.
(7) البداية والنهاية (11/ 399) المقصود أورثته عقبك أي: الحمد.

تقول: والله يا بني إنه قل أن تلد مثلك وإن هذا الرجل قد استنهضك في هذا الأمر، فاعمل بطاعته فيما أحببت وكرهت[1].

وكان بعض الناس ـ لا سيما شيوخهم ـ استغربوا تولية عمر ﷺ لمعاوية ﷺ مع حداثة سنه ووجود من هو أكبر منه وأفضل، لذا سوغ عمر ﷺ عمله هذا ـ حيث قالوا: ولى حدث السن ـ بقوله: تلومنني في ولايته، وأنا سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللهم اجعله هادياً مهدياً واهد به»[2].

3 - معاوية في موكب عظيم وإنكار عمر عليه:

كان عمر ﷺ ـ وهو الخبير بمعادن الرجال ـ يدرك أكثر من غيره ما يتمتع به معاوية من صفات تؤهله للقيادة، فحين قدم عمر الشام وافاه معاوية بموكب عظيم أنكره عليه عمر فقال: أنت صاحب الموكب العظيم؟ قال: نعم. قال: مع ما بلغني عنك من طول وقوف ذوي الحاجات ببابك. قال: هو ما بلغك من ذلك. قال: ولم تفعل هذا؟ لقد هممت أن آمرك بالمشي حافياً إلى بلاد الحجاز. قال: يا أمير المؤمنين إنا بأرض جواسيس العدو فيها كثيرة، فيجب أن تظهر من عز السلطان ما يكون فيه عز للإسلام وأهله ويرهبهم فإن أمرتني فعلت، وإن نهيتني انتهيت، فقال له عمر: ما سألتك عن شيء إلا تركتني في مثل رواجب[3] الضرس، لئن كان ما قلت حقاً، إنه لرأي أريب، ولئن كان باطلاً إنه لخديعة أديب[4]. قال: فمرني يا أمير المؤمنين، قال: لا آمرك ولا أنهاك. فقال رجل: يا أمير المؤمنين، ما أحسن ما صدر الفتى عما أوردته فيه، فقال عمر: لحسن مصادره وموارده جَشَّمناه ما جَشَّمناه[5]، وفي رواية أن الرجل الذي قال لعمر: ما أحسن ما صدر الفتى عما أوردته فيه، هو عبد الرحمن بن عوف، وكان مع عمر حين استقبلهما معاوية بهذا الموكب العظيم[6]. وهذا الجواب من معاوية ـ ﷺ ـ يدل على خبرة سياسية عالية، ومعرفة واعية بأحوال الأمم، ودراية كاملة بسياسة الرعية والمحافظة على الوضع الأمني للدولة التي يحكمها، ومن أجل هذا رضي عمر سياسته على الرغم من أنها تخالف سياسة عمر في اهتمامه بأحوال رعيته وبحث شكواهم،

---

(1) البداية والنهاية (11/ 399).

(2) السلسلة الصحيحة (4/ 615) رقم 1969 وقال الألباني: حديث صحيح.

(3) الرواجب: جمع راجبة: وهي ما بين عقد الأصابع من داخل أي: أضيق ما يكون.

(4) البداية والنهاية (11/ 416).

(5) البداية والنهاية (11/ 416).

(6) المصدر نفسه (11/ 416).

ولعل كلمة عمر ـ رضي الله عنه ـ من أجل ذلك جشمناه، ما جشمناه تدل على رضاه عن سياسة معاوية[1].

وكان عمر رضي الله عنه يتعهد معاوية بالتربية والوعظ والنصح، وأحياناً يشتد ويغلظ عليه، فعن أسلم مولى عمر رضي الله عنه قال: قدم علينا معاوية وهو أبيض أو أبيض أو أبضُّ الناس وأجملهم، فخرج إلى الحج مع عمر، فكان عمر ينظر إليه، فيعجب له، ثم يضع أُصبُعَه على متنه ثم يرفعها عن مثل الشِّراك، فيقول: بخ بخ، نحن إذاً خير الناس، أن جمع لنا خير الدنيا والآخرة، فقال معاوية: يا أمير المؤمنين، سأحدثك، إنّا بأرض الحمّامات والريف، فقال عمر: سأحدثك ما بك إلطافك نفسك بأطيب الطعام وتصبحك حتى تضرب الشمس متنيك وذوو الحاجات وراء الباب. قال: فلما جئنا ذا طوى أخرج معاوية حُلة فلبسها، فوجد عمر منها ريحاً كأنه ريح طيب، فقال: يعمد أحدكم فيخرج حاجّاً تَفِلاً، حتى إذا جاء أعظم بُلدان الله حرمة أخرج ثوبيه كأنهما كانا في الطيب فلبسهما، فقال معاوية: إنما لبستهما لأدخل فيهما على عشيرتي أو قومي، والله لقد بلغني أذاك ههنا وبالشام، والله يعلم إني لقد عرفتُ الحياء فيه ثم نزع معاوية ثوبيه، ولبس ثوبيه اللذين أحرم فيهما[2]، وقال عمرو بن يحيى بن سعيد الأموي، عن جَدِّه قال: دخل معاوية على عمر وعليه حُلَّةٌ خضراء فنظر إليها الصّحابة، فلما رأى ذلك عمر وثب إليه بالدِّرَّة، فجعل يضربه بها، وجعل معاوية يقول: يا أمير المؤمنين، الله الله فيَّ، فرجع عمر إلى مجلسه، فقال له القوم: لم ضربته يا أمير المؤمنين وما في قومِك مثله؟، فقال: والله ما رأيت إلا خيراً وما بلغني إلا خير، ولكنِّي رأيته - وأشار بيده[3] ـ فأحببت أن أضع منه[4]، وكان عمر بن الخطاب إذا رأى معاوية قال: هذا كسرى العرب[5].

وكان معاوية رضي الله عنه في إمارته بالشام في أبهة الملك وزيه من العديد والعدة، وكان يرى أنه في ثغر تجاه العدو ويحتاج إلى مباهاتهم بزينة الحرب والجهاد[6] وإظهار الملك والسلطان، وكان يرى أن الملك لما ذمه الشارع لم يذم منه الغلب بالحق وقهر الكافة على الدين، ومراعاة المصالح وإنما ذمه لما فيه التغلب بالباطل وتصريف الآدميين طوع الأغراض والشهوات، فلو كان الملك مخلصاً في غلبه للناس أنه لله ولحمله على عبادة الله وجهاد عدوه لم يكن ذلك مذموماً[7]، وقد قال الله تعالى: عن نبيّه سليمان أنه دعاه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص: 35] لمّا علم من نفسه أنه بمعزل عن الباطل في النبوة والملك وكانت أبهة معاوية في الملك، لها أغراض ومقاصد شرعية ولذلك سكت عنه عمر رضي الله عنه، وذات يوم ذكر معاوية عند عمر فقال: دعوا فتى قريش وابن سيدها إنه لمن يضحك في الغضب

---

(1) الأمويون بين الشرق والغرب، لمحمد الوكيل (1/ 30).
(2) البداية والنهاية (11/ 417).
(3) يعني: أشار بيده إلى فوق.
(4) البداية والنهاية (11/ 418).
(5) المصدر نفسه (11/ 417) الاستيعاب ص: 668.
(6) ابن خلدون إسلامياً، عماد الله خليل ص: 78.
(7) المصدر نفسه ص: 78.

ولا يُنال منه إلا على الرِّضا، ومن لا يأخذ من فوق رأسه إلا من تحت قدميه[1]، ومهما يكن في هذه الرواية وغيرها من مبالغة، فإن ثقة عمر في معاوية تظل فوق مستوى الشبهة والشك[2]، فقد برهن معاوية لعمر عمق فهمه لضرورات السياسة وتغير البيئة والمجتمع، وأثر ذلك كله على التطوير السياسي لأدوات الحكم، ومهما يكن من أمر فقد عظمت مكانة معاوية عند عمر رضي الله عنه، فولاه أهم أقاليم دولته، وزاد في ولايته، ولم يعزله، على كثرة من كان يعزل من عماله وأمرائه، وكان معجباً بذكائه وإدارته ولا يكتم ذلك الإعجاب[3] حتى قال يوماً لجلسائه: تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاوية!![4].

4 - جهود معاوية رضي الله عنه على جبهة الشام:

لما تولى معاوية أمر الشام، وانطلق عمرو بن العاص لفتح مصر، أصبحت مهمة حماية الحدود الشامية للدولة الإسلامية والتوسع منها منوطة به، وتتلخص أهم إنجازاته العسكرية في أمرين هما: سن نظام الصوائف والشواتي[5]، وتكوين أسطول بحري إسلامي لأول مرة في تاريخ الإسلام[6].

أ ـ سن نظام الصوائف والشواتي في عهد عمر: أصيب الروم على يد جنود الإسلام بهزائم مريرة متتالية فقدوا على أثرها الشام ومصر، بكل ما تمثلانه من أهمية اقتصادية وسياسية وعسكرية، غير أنهم لم يسلموا بهذه الهزائم، بل استمرت هجماتهم على الشام من خلال الدروب الجبلية التي تفصلهم عن باقي أجزاء إمبراطورية الروم، مما جعل عمر بن الخطاب يقول في جولته بالشام سنة 16هـ: والله لوددت أن الدرب جمرة بيننا وبينهم لنا ما دونه، وللروم ما وراءه[7]، وفي رحلته هذه إلى الشام سمى عمر الصوائف والشواتي، وسد فروج الشام ومسالكها[8]، ومن المحتمل أن يكون هدف الروم من هجماتهم على المدن الإسلامية الحدودية منذ البداية هو اعتماد ذلك كتدبير وقائي لحماية بلاد الروم وردع المسلمين، لكن استجابة معاوية كانت فوق التحدي، فقد نقل المعركة إلى بلاد العدو، وابتعد بالحرب عن بلاد المسلمين، وكان لا بد لمعاوية ـ من أجل تحقيق ذلك الهدف ـ من تطوير وسائط الدفاع، واعتبار العواصم والثغور مجرد قواعد متقدمة واجبها تلقي الصدمة والإنذار، مع استخدام هذه القواعد مركز انطلاق للهجمات المضادة، وقد قاد معاوية بنفسه بعض هذه الصوائف منها صائفة سنة 22هـ حيث دخل بها بلاد الروم في عشرة آلاف، وصائفة 23 هـ[9]، حيث أوغل

---

(1) البداية والنهاية (11/ 415).
(2) الدولة الأموية، حمدي شاهين ص: 154.
(3) الدولة الأموية، حمدي ص: 157.
(4) تاريخ الطبري (5/ 330).
(5) الصوائف: غزو بلاد الروم في الصيف، والشواتي في الشتاء.
(6) الدولة الأموية، ص: 154.
(7) تاريخ اليعقوبي (2/ 133).
(8) تاريخ الطبري (4/ 62).
(9) تاريخ الأمم والملوك (4/ 144، 160).

حتى بلغ عمورية، ومعه من أصحاب رسول الله ﷺ، عبادة بن الصامت، وأبو أيوب الأنصاري، وأبو ذر الغفاري، وشداد بن أوس ﷺ [1].

ب ـ تكوين أسطول إسلامي في البحر: ويعود الفضل إلى الله ثم إلى معاوية في هذه المرحلة المبكرة إلى فتح باب الجهاد في البحر الذي أصبح ضرورياً لحماية الشام ومصر ومواجهة النشاط المتزايد للأسطول البيزنطي، وغاراته المتكررة على سواحل الإقليمين، وإمداداته للثائرين بهما. وقد استطاعت عمليات الصوائف والشواتي أن تضع حداً للتهديدات البرية، لكن المدن الساحلية، بداية من إنطاكية ونهاية بالإسكندرية، بقيت تحت رحمة البحرية البيزنطية، وأدرك معاوية أيضاً أنه من المحال تطوير عمليات الفتوح في إفريقيا ما لم يتم انتزاع السيطرة البحرية من البيزنطيين[2]، ولم يبدأ معاوية في غزو البحر فعلياً إلا في عهد عثمان وسيأتي بيان ذلك بإذن الله تعالى.

ثالثاً: معاوية ﷺ في عهد عثمان بن عفان ﷺ:

حينما جاء عثمان إلى الخلافة كان معاوية ﷺ والياً على معظم الشّام، فأقرّه عثمان عليها[3]، كما أقرَّ بعض الولاة الآخرين على ولاياتهم، كاليمن، والبحرين، ومصر وغيرها من الولايات، وقد تطورت الأحداث، وضُمَّت إلى معاوية بعض المناطق الأخرى حتى أصبح معاوية هو الوالي المطلق لبلاد الشام، بل أصبح أقوى ولاة عثمان، وأشدّهم نفوذاً وقد كان في بداية خلافة عثمان ولاة آخرون، منهم: عمير بن سعد الأنصاري، وكان على حمص، وينافس معاوية بن أبي سفيان في المكانة لدى عثمان ﷺ إلا أن عميراً مرض مرضاً أعياه عن القيام بأعباء الولاية، فطلب من الخليفة عثمان أن يعفيه، فأعفاه، وضم ولايته إلى معاوية بن أبي سفيان، وبذلك زاد نفوذ معاوية، فامتد إلى حمص التي ولي عليها من قبله عبد الرحمٰن بن خالد بن الوليد[4]، كما توفي علقمة بن محرز، وكان على فلسطين، فضمّ عثمان ولايته إلى ولاية معاوية بن أبي سفيان ﷺ، فاجتمعت الشّام لمعاوية بعد سنتين من خلافة عثمان ﷺ، وأصبح الوالي المطلق فيها طيلة السنوات الباقية من خلافة عثمان ﷺ، حتّى توفي عثمان وهو عليها كما هو معروف[5]، وقد كانت فترة معاوية على الشّام مليئة بالأحداث، فقد كانت من أهم مناطق الجهاد، ورغم أن الشّام قد استقرت أوضاعها الداخلية، وسادها الإسلام، وقلّت محاولات الرُّوم إثارة القلاقل فيها، إلا أنّها كانت متاخمة لأرض الروم، وبالتالي كان المجال مفتوحاً أمام معاوية للجهاد في تلك النواحي وسيأتي الحديث عنها بإذن الله، وقد كان لمعاوية

---

(1) تاريخ الأمم والملوك (4/ 241) الدولة الأموية ص: 155.
(2) معاوية بن أبي سفيان، بسام العسلي ص: 40.
(3) تاريخ خليفة بن خياط ص: 155.
(4) تاريخ الطبري (5/ 442).
(5) المصدر السابق (5/ 443).

ثقله السياسي في الدولة الإسلامية أواخر خلافة عثمان رضي الله عنه، إذ كان ضمن الولاة الذين جمعهم عثمان ليستشيرهم، حين بدأت ملامح الفتنة تلوح في الأفق، كما ظهرت له آراء خاصة في هذا الاجتماع، وجّهها إلى عثمان[1] رضي الله عنه وسيأتي الحديث عنها بإذن الله تعالى.

1 - فتوحات حبيب بن مسلمة الفهري رضي الله عنه:

كان حبيب بن مسلمة الفهري من أبرز أمراء الجهاد في زمن ولاية معاوية على بلاد الشّام، فعندما أجلبت الرُّوم على المسلمين بالشام بجموع عظيمة أوّل خلافة عثمان، كتب معاوية إلى عثمان يستمده، فكتب عثمان إلى الوليد بن عقبة والي الكوفة عندما انتهى من مهمته في أذربيجان وعاد إلى الموصل جاء في خطاب الخليفة إلى الوليد بن عقبة: أمّا بعد: فإن معاوية ابن أبي سفيان كتب إليّ يخبرني: أن الرُّوم قد أجلبت[2] على المسلمين بجموع عظيمة، وقد رأيت أن يمدّهم إخوانهم من أهل الكوفة، فإذا أتاك كتابي هذا، فابعث رجلاً ممَّن ترضى نجدته، وبأسه، وشجاعته، وإسلامه في ثمانية آلاف، أو تسعة آلاف، أو عشرة آلاف إليهم من المكان الذي يأتيك فيه رسولي[3] والسَّلام. فقام الوليد في الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أمّا بعد أيها الناس، فإن الله قد أبلى المسلمين في هذا الوجه بلاءً حسناً، وردَّ عليهم بلادهم التي كفرت، وفتح بلاداً لم تكن افتتحت، وردَّهم سالمين غانمين مأجورين، فالحمد لله رب العالمين، وقد كتب إليَّ أمير المؤمنين يأمرني أن أندب منكم ما بين العشر آلاف إلى الثمانية آلاف، تمدُّون إخوانكم من أهل الشام، فإنَّهم قد جاشت عليهم الروم، وفي ذلك الأجر العظيم، والفضل المبين، فانتدبوا ـ رحمكم الله - مع سليمان بن ربيعة، فانتدب النّاس، فلم يمض ثالثة حتى خرج ثمانية آلاف رجل من أهل الكوفة، فمضوا حتى دخلوا الشام إلى أرض الروم، وعلى جند أهل الشام حبيب بن مسلمة بن خالد الفهريُّ، وعلى جند أهل الكوفة سليمان بن ربيعة الباهليُّ، فشنُّوا الغارات على أرض الروم، فأصاب الناس ما شاؤوا من سبي، وملؤوا أيديهم من المغنم، وافتتحوا بها حصوناً كثيرة[4]، وكان على المسلمين حبيب بن مسلمة، وكان صاحب كيد لعدوه، فأجمع أن يبيت قائدهم الموريان ـ أي: يباغته ليلاً ـ فسمعته امرأته أمُّ عبد الله بنت يزيد الكلبية يذكر ذلك، فقالت: فأين موعدك؟ قال: سرادق الموريان أو الجنة.. ثم بيتهم، فغلبهم. وأتى سرادق الموريان فوجد امرأته قد سبقته إليه[5]، وواصل حبيب جهاده وانتصاراته المتوالية في أراضي أرمينية، وأذربيجان،

(1) الولاية على البلدان (1/ 176).
(2) أجلبت: تجمّعت للحرب.
(3) تاريخ الطبري (5/ 247).
(4) تاريخ الطبري (5/ 247) عثمان بن عفان، للصَّلاَّبيّ ص: 181.
(5) تاريخ الطبري (5/ 248).

ففتحها إمّا صلحاً أو عنوة[1]، وقد كان حبيب بن مسلمة الفهري من أبرز القادة الذين حاربوا في أرمينية البيزنطية، فقد أباد جيوشاً بأكملها للعدوّ، وفتح حصوناً، ومدناً كثيرة[2]، كما غزا ما يلي ثغور الجزيرة العراقية من أرض الروم فافتتح عدة حصون هناك، مثل شمشاط، وملطية، وغيرها[3].

2 - غزوات معاوية في عهد عثمان في البر:

أدرك معاوية ﷺ بأن إزالة خطر الروم وتهديدهم للمسلمين لا يتم إلا بمواصلة غزو الروم وتنشيط حركة الجهاد بشكل مستمر في الثغور الشامية والجزرية[4] وشحنهما بالمرابطين وتعهدها على الدوام، وقد أخذ منه ذلك وقتاً طويلاً وبذل فيه جهداً كبير خلال ولايته تلك في عهد عثمان، ففي سنة خمس وعشرين للهجرة قام معاوية بجولة عسكرية على الثغور الشامية، فوجد الحصون فيما بين أنطاكية وطرسوس خالية فوقف عندها جماعة من أهل الشام والجزيرة وقنسرين حتى انصرف من غزاته، ثم أغزى بعد ذلك بسنة أو ستتين يزيد بن الحر العبسي الصائفة وأمره ففعل مثل ذلك. وكانت الولاة تفعله[5]، وفي سنة إحدى وثلاثين غزا من ناحية المصيصة فبلغ درولية[6]، فلما خرج جعل لا يمر بحصن فيما بينه وبين أنطاكية إلا هدمه[7]، وكذلك الشأن في الثغور الجذرية التي أولاها عنايته، فقد وجه في الأيام الأولى لولايته تلك كلاً من حبيب بن مسلمة الفهري وصفوان بن المعطل السلمي إلى شمشاط ففتحها. كما وجه حبيب بن مسلمة إلى إعادة فتح ملطية بعد أن انتقضت، ففتحها عنوة، ورتب فيها رابطة من المسلمين مع عاملها، كما قام معاوية بنفسه بعد ذلك بحملة أخرى يريد التوغل في أرض الروم فقد مرَّ على ملطية فشحنها بجماعة من أهل الشام والجزيرة وغيرهما وذلك لكي تكون طريقاً

---

(1) الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين، لحمدي شاهين، ص: 252.

(2) حروب الإسلام في الشّام في عهود الخلفاء الراشدين ص: 577.

(3) عثمان بن عفان للصَّلاّبي ص: 205.

(4) الثغور الشامية والجزرية هي شريط طويل من القلاع والحصون يمتد على الحدود الشمالية للدولة الإسلامية مع الدولة البيزنطية، ويبدأ هذا الشريط من ملطية إلى الفرات الأعلى إلى طرسوس بالقرب من ساحل البحر المتوسط. وينقسم خط هذه القلاع إلى مجموعتين: إحداهما تسمى بـ(الثغور الجزرية) وهي تمثل الجزء الشمالي الشرعي من هذا الخط، ومن أهم ثغور هذا القسم: ملطية، وزبطرة، وحصن منصور، والحدث ومرعش وشمشاط، والمجموعة الثانية، تسمى بالثغور الشامية وهي تمثل الجزء الجنوبي الغربي من ذلك الخط وأهم ثغور ذلك القسم: عين زربة، وأذنة، وطرطوس، وهرقلة ويفصل بين المجموعتين فاصل طبيعي وهو جبل اللكام. انظر: أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية ص: 67.

(5) فتوح البلدان، ص: 69.

(6) المصيصة ودرولية من الثغور الشامية.

(7) فتوح البلدان ص: 169

آمناً لحملات الصوائف. كما غزا حصن المرأة من الثغور الجزرية في السنة نفسها[1]، وكان يتعهد حصن الحدث، وبنى مدينة مرعش وأسكنها الجند، وكل هذه المدن والحصون من الثغور الجزرية[2]، ولما اطمأن معاوية إلى قوة جانبه بعد تلك الإجراءات أخذ يغزو في عمق الأراضي الرومية، فقد قاد بنفسه غزوة سنة اثنين وثلاثين للهجرة توغل فيها بجيشه حتى وصل مضيق القسطنطينية[3].

3 - معاوية يلتمس من عثمان رضي الله عنه السماح له بالغزو البحري:

كان معاوية رضي الله عنه يلح على عمر في غزو البحر، ويصف له قرب الرُّوم من حمص، ويقول: إن قرية من قرى حمص يسمع أهلها نباح كلابهم، وصياح دجاجهم حتى كان ذلك يأخذ بقلب عمر، فكتب عمر إلى عمرو بن العاص: صف لي البحر وراكبه، فإن نفسي تنازعني إليه، فكتب إليه عمرو: إني رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير، إن ركن خرَّق القلب، وإن تحرك أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلة، والشك كثرة هم كدود على عود، إن مال غرق، وإن نجا برق. فلما قرأ عمر بن الخطاب كتاب عمرو بن العاص كتب إلى معاوية: أن لا ، والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً، وتالله لمسلم أحبُّ إليَّ مما حوت الروم، فإياك أن تعرض لي، وقد تقدمت إليك، وقد علمت ما لقي العلاء مني، ولم أتقدم إليه في ذلك[4].

ولكن الفكرة لم تبرح نفس معاوية، وقد رأى في الرُّوم ما رأى، فطمع في بلادهم وفتحها، فلمَّا تولَّى الخلافة عثمان عاود معاوية الحديث، وألحَّ به على عثمان، فردّ عليه عثمان رضي الله عنه قائلاً: أن قد شهدت ما ردَّ عليك عمر ـ رحمه الله ـ حين استأذنته في غزو البحر. ثم كتب إليه معاوية مرَّة أخرى يهوِّن عليه ركوب البحر إلى قبرص فكتب إليه: فإن ركبت معك امرأتك فاركبه مأذوناً وإلا فلا[5]. كما اشترط عليه الخليفة عثمان رضي الله عنه أيضاً بقوله: لا تنتخب الناس، ولا تقرع بينهم، خيِّرهم، فمن اختار الغزو طائعاً، فاحمله وأعنه[6]، فلما قرأ معاوية كتاب عثمان نشط لركوب البحر إلى قبرص، فكتب لأهل السواحل يأمرهم بإصلاح المراكب، وتقريبها إلى ساحل عكَّا، فقد رمَّه ليكون ركوب المسلمين منه إلى قبرص[7].

---

(1) تاريخ خليفة بن خياط ص: 167، فتوح البلدان ص: 189.
(2) فتوح البلدان ص: 187 - 196.
(3) تاريخ خليفة ص: 167، تاريخ الطبري (4/ 304) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية ص: 69.
(4) تاريخ الطبري (5/ 258).
(5) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (2/ 538).
(6) تاريخ الطبري (5/ 260).
(7) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (2/ 538).

4 - غزو قبرص:

أعدَّ معاوية المراكب اللازمة لحمل الجيش الغازي، واتَّخذ ميناء عكَّا مكاناً للإقلاع، وكانت المراكب كثيرة، وحمل معه زوجه فاخته بنت قرظة، كما حمل عبادة بن الصَّامت امرأته أمَّ حرام بنت ملحان معه في تلك الغزوة[1]، وأمُّ حرام هذه صاحبة القصَّة المشهورة: عن أنس بن مالك ﷺ : أنَّ رسول الله ﷺ كان يدخل على أمِّ حرام بنت ملحان، فتطعمه، وكانت أمُّ حرام تحت عبادة بن الصَّامت، فدخل عليها رسول الله ﷺ يوماً، فأطعمته، ثم جلست تفلي من رأسه، فنام رسول الله ﷺ، ثم استيقظ وهو يضحك. فقالت: ما يضحكك يا رسول الله؟ قال: «ناس من أمتي عُرِضوا عليَّ غزاة في سبيل الله، يركبون ثبج هذا البحر ملوكاً على الأسرَّة، أو مثل الملوك على الأسرَّة». وقالت: فقلت: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم! فدعا لها ثم وضع رأسه فنام، ثم استيقظ، وهو يضحك، قالت: فقلت: ما يضحكك يا رسول الله؟!. قال: «ناس من أمتي عرضوا عليَّ في سبيل الله...» ـ كما قال في الرواية الأولى .. قال: «أنت من الأوّلين». فركبت أمّ حرام بنت ملحان في البحر في زمن معاوية، فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر، فهلكت[2]. ورغم أن معاوية ﷺ لم يجبر الناس على الخروج، فقد خرج معه جيش عظيم من المسلمين[3]، مما يدل أن المسلمين قد هانت في أعينهم الدُنيا بما فيها، فأصبحوا لا يعبؤون بها بالرَّغم من أنها قد فتحت عليهم أبوابها، فصاروا يرفلون في نعيمها. إن المسلمين قد تربّوا على أنّ ما عند الله خير وأبقى، وأن الله اصطفاهم لنصرة دينه، وإقامة العدل، ونشر الفضيلة، والعمل على إظهار دين الله على كلِّ ما عداه، وهم يعتقدون: أنّ هذه المهمَّة هي رسالتهم الحقيقية، وأن الجهاد في سبيل الله هو سبيل الحصول على مرضاة الله، فإن هم قصَّروا في مهمَّتهم، وقعدوا عن أداء واجبهم، فسيمسك الله عنهم نصره في الدُّنيا، ويحرمهم مرضاته في الآخرة، وذلك هو الخسران المبين، من أجل هذا هُرعوا مع معاوية، وتسابقوا إلى السفن يركبونها، ولعلَّ حديث أمِّ حرام قد ألمَّ بخواطرهم، فدفعهم إلى الخروج للغزو في سبيل الله تصديقاً لحديث رسول الله ﷺ، وكان ذلك بعد انتهاء فصل الشتاء في سنة ثمان وعشرين من الهجرة 649م[4]، وسار المسلمون من الشام وركبوا من ميناء عكّا، وهمَّت أم حرام لتركب دابَّتها، فنفرت الدّابة،

(1) البداية والنهاية (7/ 159).

(2) البخاري رقم 2877.

(3) جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين ص: 356.

(4) المصدر نفسه ص356.

وألقت أمَّ حرام على الأرض، فاندقت عنقها، فماتت[1]، وترك المسلمون أمَّ حرام بعد دفنها في أرض الجزيرة عنواناً على مدى التضحيات التي قدَّمها المسلمون في سبيل نشر دينهم، وعرف قبرها هناك بقبر المرأة الصالحة[2]. واجتمع معاوية بأصحابه، وكان فيهم: أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاريُّ، وأبو الدَّرداء، وأبو ذر الغفاريُّ، وعبادة بن الصَّامت، وواثلة بن الأسقع، وعبد الله بن بشر المازنيُّ، وشدّاد بن أوس بن ثابت، والمقداد بن الأسود، وكعب الحبر بن ماتع، وجبير بن نضير الحضرمي. وتشاوروا فيما بينهم، وأرسلوا إلى أهل قبرص يخبرونهم: أنهم لم يغزوهم للاستيلاء على جزيرتهم[3]، ولكن أرادوا دعوتهم لدين الله، ثمَّ تأمين حدود الدولة الإسلامية بالشام، وذلك لأنَّ البيزنطيِّين كانوا يتخذون من قبرص محطَّة يستريحون فيها إذا غزوا، ويتموَّنون منها، إذا قلَّ زادهم، وهي بهذه المثابة تهدِّد بلاد الشام الواقعة تحت رحمتها، فإذا لم يطمئن المسلمون على مسالمة هذه الجزيرة لهم وخضوعها لإرادتهم، فإن وجودها كذلك سيظلُّ شوكة في ظهورهم، وسهماً مسدَّداً في صدورهم، ولكنّ سكّان الجزيرة لم يستسلموا للغزاة، ولم يفتحوا لهم بلادهم، بل تحصّنوا في العاصمة، ولم يخرجوا لمواجهة المسلمين، وكان أهل الجزيرة ينتظرون تقدّم الروم للدّفاع عنهم، وصدّ هجوم المسلمين عليها[4].

5 - الاستسلام وطلب الصلح:

تقدّم المسلمون إلى عاصمة قبرص «قسطنطينا» وحاصروها وما هي إلا ساعات حتى طلب الناس الصلح، وقدّموا للمسلمين شروطاً، واشترط عليهم المسلمين شروطاً، وأما شرط أهل قبرص، فكان طلبهم ألا يشترط عليهم المسلمون شروطاً تورّطهم مع الروم، لأنهم لا قبل لهم بهم، ولا قدرة لهم على قتالهم، وأمّا شروط المسلمين، فهي:

أ ـ ألا يدافع المسلمون عن الجزيرة، إذا هاجم سكانها محاربون.

ب ـ أن يدلّ سكان الجزيرة المسلمين على تحركات عدوّهم من الروم.

ج ـ أن يدفع سكان الجزيرة للمسلمين سبعة آلاف ومئتي دينار في كل عام.

د ـ أن يكون طريق المسلمين إلى عدوّهم عليهم.

هـ ـ ألا يساعدوا الروم إذا حاولوا غزو بلاد المسلمين، ولا يُطلعوهم على أسرارهم[5].

---

(1) البداية والنهاية (7/ 159).

(2) جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين ص: 357.

(3) جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين ص: 357.

(4) المصدر نفسه ص: 357.

(5) تاريخ الطبري (5/ 261).

وعاد المسلمون إلى بلاد الشام، وأثبتت هذه الحملة قدرة المسلمين على خوض غمار المعارك البحرية بجدارة. وأعطتهم فرصة المران على الدخول في معارك من هذا النوع مع العدوّ المتربص بهم سواء بالهجوم على بلاد الشام، أو على الإسكندرية[1].

6 - عبد الله بن قيس قائد الأسطول الإسلامي في الشام:

استعمل معاوية بن أبي سفيان على البحر عبد الله بن قيس الجاسيّ حليف بني فزارة فغزا خمسين غزاة ما بين شاتية وصائفة في البحر، ولم يغرق فيه أحد، ولم ينكب، وكان يدعو الله أن يرزقه الله العافية في جنده، وألا يبتليه بمصاب أحد منهم ففعل، حتّى إذا أراد أن يصيبه وحده، خرج في قاربه طليعة، فانتهى إلى المرفأ من أرض الروم وعليه سُؤَّال يعترّون [2] بذلك المكان، فتصدق عليهم، فرجعت امرأة من السُّوَّال إلى قريتها، فقالت للرجال: هل لكم في عبد الله بن قيس ؟ قالوا: وأين هو ؟ قالت: في المرفأ، قالوا: أي عدوّة الله، ومن أين تعرفين عبد الله بن قيس ؟ فوبّختهم، وقالت: أنتم أعجز من أن يخفى عبد الله على أحد فساروا إليه، فهجموا عليه، فقاتلوه، وقاتلهم، فأصيب وحده، وأفلت الملاح حتى أتى أصحابه، فجاؤوا حتى أرقوا، والخليفة منهم سفيان بن عوف الأزدي، فخرج فقاتلهم، فضجر وجعل يعبث بأصحابه، ويشتمهم، فقالت جارية عبد الله: وا عبد الله ما هكذا كان يقول حين يقاتل! فقال سفيان: وكيف كان يقول؟ قالت: الغمرات ثم ينجلينا وأصيب في المسلمين يومئذ، وذلك آخر زمان عبد الله بن قيس الجاسيّ[3]، وقيل لتلك المرأة التي استثارت الروم على عبد الله بن قيس: كيف عرفته؟ قالت: كان كالتَّاجر، فلمّا سألته، أعطاني كالملك، فعرفت أنه عبد الله بن قيس[4]. وهكذا حينما أراد الله تعالى أن يمنّ بالشهادة على هذا القائد العظيم أتيحت له وهو في وضع لا يضرُّ بسمعة المسلمين البحرية، حيث كان وحده يتطلع ويراقب الأعداء فكانت تلك الكائنة الغريبة التي أبصرت غورها تلك المرأة الذكية من نساء تلك البلاد، حيث رأت ذلك الرَّجل يظهر بمظهر التُّجار العاديين، ولكنَّه يعطي عطاء الملوك، فلقد رأت فيه أمارات السِّيادة مع بساطة مظهره فعرفت: أنه قائد المسلمين، الذي دوّخ المحاربين في تلك البلاد، وهكذا كانت نسمات ذلك القائد وسخاؤه البارز حتى مع غير المسلمين سبباً في كشف أمره، ومعرفة مركزه، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، فيتمَّ بذلك الهجوم عليه، وظفره بالشهادة، وهكذا يضرب قادة المسلمين المُثُل العليا بأنفسهم، لتتمَّ الإنجازات الكبرى على أيديهم، وليكونوا قدوة صالحة لمن يخلفهم، فقد قام هذا القائد الملهم بمهمَّة الاستطلاع بنفسه، ولم

---

(1) جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين ص: 358، 359.
(2) يعترّون: يتعرضون للناس دون أن يسألهم.
(3) تاريخ الطبري (5/ 260).
(4) تاريخ الطبري (5/ 260).

يكل الأمر إلى جنوده، وفي انفراده بهذه المهمة مظنة للتورط مع الأعداء، والهلاك على أيديهم، ولكنه مع ذلك يغامر بنفسه، فيتولّى هذه المهمة، ثمّ نجده يتخلقّ بأخلاق الإسلام العليا حتى مع نساء الأعداء وضعفتهم، فيمدُّ لهم يد الحنان والعطف، ويسخو لهم بالمال الذي هو من أعزّ ما يملك الناس، ونجده قبل ذلك مع جنده رفيقاً صبوراً، لا معنّفاً، ولا مستكبراً، وإذا ادلهمَّت الخطوب، تفانى بانكشاف الغمة، ولم يلجأ إلى لوم أصحابه وتعنيفهم، ولم يهيمن عليه الارتباك الذي يفسد العمل، ويعجّل بالخلل والفوضى، وأمَّا خليفته سفيان الأزديّ، فلعلَّه وقع فيما وقع فيه من الارتباك والاشتغال بطرح اللائمة على جنده لكونه حديث العهد بأمور القيادة، ولكن ممَّا يُحفظ له: أنَّه لما نبَّهته جارية عبد الله بن قيس إلى ذلك الأسلوب الحكيم الذي كان أميره يتهبه في القيادة سارع في التأسي به في ذلك، ولم يحمله التكبُّر على عدم سماع كلمة الحقِّ، وإن صدرت من جارية مغمورة. وهذا مثل من أمثلة التجرد من هوى النفس، هذا الخلق العظيم الذي كان غالباً في الجيل الأوَّل، وبه تمّ إنجاز الفتوحات العظيمة، ونجاح الولاة والقادة في إدارة أمور الأمة، فلله درُّ أبناء ذلك الجيل: ما أبلغ ذكرهم وما أبعد نحورهم! وما أعظم وطأتهم في الأرض على الجبارين، أو ما أعذب لمساتهم في الأرض على المستضعفين والمساكين[1].

7 - القبارصة ينقضون الصلح:

في سنة اثنتين وثلاثين هجريَّة، وقع سكان قبرص تحت ضغط رومي عنيف أجبرهم على إمداد جيش الرُّوم بالسُّفن ليغزوا بها بلاد المسلمين، وبذلك يكون القبرصيون قد أخلُّوا بشروط الصلح، وعلم معاوية بخيانة أهل قبرص، فعزم على الاستيلاء على الجزيرة، ووضعها تحت سلطان المسلمين، وهاجم المسلمون الجزيرة هجوماً عنيفاً، فقتلوا، وأسروا وسلبوا، وهجم عليها جيش معاوية من جهة، وعبد الله بن سعد من الجانب الآخر، فقتلوا خلقاً كثيراً، وسبوا سبياً كثيراً، وغنموا مالاً جزيلاً[2]، وتحت ضغط القوات الإسلاميَّة اضطر حاكم قبرص أن يستسلم للفاتحين ويلتمس منهم الصلح، فأقرهم معاوية على صلحهم الأول[3]، وخشي معاوية أن يتركهم هذه المرة بغير جيش يرابط في الجزيرة، فيحميها من غارات الأعداء، ويضبط الأمن فيها حتى لا تتمرد على المسلمين، فبعث إليهم اثني عشر ألفاً من الجنود، ونقل إليهم جماعة من بعلبك، وبنى هناك مدينة، وأقام فيها مسجداً، وأجرى معاوية على الجنود أرزاقهم، وظلّ الحال على ذلك، الجزيرة هادئة والمسلمون آمنون من

---

(1) التاريخ الإسلامي (12/ 402).

(2) جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين ص: 359 - 360.

(3) البلاذري ص: 158.

هجمات الروم المفاجئة، ولاحظ المسلمون أنّ أهل قبرص ليس فيهم قدرات عسكرية، وهم مستضعفون أمام من يغزوهم، وأحس المسلمون أن الروم يغلبونهم على أمرهم، ويسخّرونهم لمصالحهم فرأوا أن من حقهم عليهم أن يحموهم من ظلم الروم، وأن يمنعوهم من تسلّط البيزنطيين، وقال إسماعيل بن عيّاش: أهل قبرص أذلاء مقهورون ويغلبهم الروم على أنفسهم ونسائهم، فقد يحق علينا أن نمنعهم ونحميهم[1].

8 - ما أهون الخلق على الله إذا هم عصوه:

وقد جاء في سياق هذه الغزوة المذكورة خبر أبي الدرداء رضي الله عنه حينما نظر إلى سبي الأعداء فبكى، ثمّ قال: ما أهون الخلق على الله إذا هم عصوه، فانظر إلى هؤلاء القوم بينما هم ظاهرون قاهرون لمن ناوأهم، فلما تركوا أمر الله عز وجل وعصوه، صاروا إلى ما ترى[2].

وجاء في روايةٍ: فقال له جبير بن نفير: أتبكي وهذا يوم أعزّ الله فيه الإسلام وأهله، فقال: ويحك، إن هذه كانت أمّة قاهرة لهم ملك، فلما ضيّعوا أمر الله، صيّرهم إلى ما ترى، سلط الله عليهم السبي، وإذا سلط على قوم السّبي، فليس لله فيهم حاجة، وقال: ما أهون العباد على الله تعالى، إذا تركوا أمره[3]. إن ما تفوّه به أبو الدرداء، يعتبر مثلاً للبصيرة النافذة، والفقه في أمر الله تعالى، فهذا الصحابي الجليل يبكي حسرة على هؤلاء الذين أعمى الله بصائرهم، فلم ينقادوا لدعوة الحق، فباؤوا بهذا المصير المؤلم، حيث تحولوا من الملك، والعزة إلى الاستسلام والذّلة، لإصرارهم على لزوم الباطل، والتكبر على الخضوع لدعوة الحق، ولو أنهم عقلوا، وتدبّروا لكان في دخولهم في الإسلام بقاء ملكهم، وعمران ديارهم، والظفر بحماية دولة الإسلام، وإن هذا التفكير العميق من أبي الدرداء مظهرٌ من مظاهر الرّحمة والعطف، تفتحت عنه نفسه الزكية، فتشكل ذلك في الظاهر على هيئة دموع تتحدّر من عيني هذا الرجل العظيم، ليعبّر عمّا يجول في نفسه من نظرات الحنان، والرّحمة، والأسى على مصير تلك الأمة التي اجتمع البقاء على الضلال، والمآل السيىء بزوال الملك، والوقوع في الذل والهوان، وإنّه بقدر ما يفرح المسلم بدخول الناس في الإسلام، فإنه يحزن من رؤية الكافرين وهم يعيشون في ضلال مع إدراكه ما ينتظرهم من العذاب الأليم المؤبد في الآخرة، فكيف إذا أضيف إلى ذلك وقوعهم في الأسر والتشرّد، وتعرضهم للقتل في الحياة الدنيا[4]؟

9 - معاوية يولّي عبادة بن الصامت رضي الله عنه قسمة غنائم قبرص:

قال عبادة بن الصامت لمعاوية رضي الله عنه: شهدت رسول الله ﷺ في غزوة حنين الناس يكلمونه في الغنائم، فأخذ وبرة من بعير، وقال: «ما لي مما أفاء الله عليكم من هذه الغنائم إلا

---

(1) جولة تاريخية ص: 361.

(2) التاريخ الإسلامي (12/ 396).

(3) البداية والنهاية (7/ 159).

(4) التاريخ الإسلامي (12/ 397).

الخمس، والخمس مردود فيكم»[1]. فاتق الله يا معاوية! واقسم الغنائم على وجهها، ولا تعطي منها أحداً أكثر من حقه! فقال له معاوية: قد وليتك قسمة الغنائم، ليس أحد بالشّام أفضل منك، ولا أعلم، فاقسمها بين أهلها، واتق الله فيها، فقسَّمها عبادة بين أهلها، وأعانه أبو الدرداء، وأبو أمامة[2].

وعبادة بن الصامت رضي الله عنه من مؤسسي المدرسة الشامية فقد وجهه عمر إلى الشام قاضياً ومعلماً، فأقام بحمص ثم انتقل إلى فلسطين فولي قضاءها، واستقر به المقام فيها، فكان أول من تولى قضاء فلسطين، وكان أيضا يعلم أهلها القرآن، وظل على هذا النحو إلى أن مات بها[3]، وقد أسهم عبادة رضي الله عنه بنصيب كبير في تنفيذ سياسة الخلافة الراشدة العلمية والتربوية والجهادية، وكان رضي الله عنه من أهل الزهد والخشونة، فعندما وصل إلى حمص قال لأهلها: ألا إن الدنيا عرض حاضر، وإن الآخرة وعد صادق، ألا إن للدنيا بنين وإن للآخرة بنين، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن كل أم يتبعها بنوها[4].

10 ـ حقيقة الخلاف بين أبي ذر ومعاوية وموقف عثمان ﷺ منه:

إن مبغضي عثمان بن عفان رضي الله عنه كانوا يشنّعون عليه أنه نفى أبا ذر رضي الله عنه إلى الربذة، وزعم بعض المؤرخين: أن ابن السوداء عبد الله بن سبأ لقي أبا ذر في الشام، وأوحى إليه بمذهب القناعة، والزهد، ومواساة الفقراء، ووجوب إنفاق المال الزائد عن الحاجة، وجعله يعيب معاوية، فأخذه عبادة بن الصامت إلى معاوية، وقال له: هذا والله الذي بعث إليك أبا ذر. فأخرج معاوية أبا ذر من الشام[5]، وقد حاول أحمد أمين أن يوجد شبهاً بين رأي أبي ذر، ورأي مزدك الفارسي، وقال بأن وجه الشبه جاء من أن ابن سبأ كان في اليمن وطوّف في العراق، وكان الفرس في اليمن، والعراق قبل الإسلام، فمن المحتمل القريب أن يكون قد تلقّى هذه الفكرة من مزدكية العراق، واعتنقها أبو ذرّ على حسن النية في اعتقادها[6]. وكلٌ ما قيل في قصَّة أبي ذرّ، ممّا يُشَنَّع به على عثمان باطل لا يُبنى على رواية صحيحة، وكلُّ ما قيل حول اتصال أبي ذر رضي الله عنه بابن السَّوداء باطل لا محالة[7]. والصحيح: أن أبي ذرّ رضي الله عنه نزل في الربذة باختياره، وأنَّ ذلك كان بسبب اجتهاد أبي ذرّ في فهم آية خالف فيها الصَّحابة، وأصرَّ على رأيه، فلم يوافقه أحد عليه، فطلب أن ينزل بالربذة[8]، التي كان يغدو إليها زمن

(1) البداية والنهاية (4/ 353).
(2) الرياض النضرة ص: 561.
(3) عبادة بن الصامت، صحابي كبير وفاتح مجاهد ص: 84.
(4) الاكتفاء، الكلاعي (3/ 310).
(5) المدينة المنوّرة فجر الإسلام (2/ 216، 217).
(6) فجر الإسلام ص: 110.
(7) المدينة المنورة فجر الإسلام (2/ 217).
(8) كانت منزلاً في الطريق بين العراق ومكة.

النبي ﷺ، ولم يكن نزوله بها نفياً قصرياً، أو إقامة جبرية، ولم يأمره الخليفة بالرّجوع عن رأيه، لأن له وجهاً مقبولاً، لكنَّه لا يجب على المسلمين الأخذ به[1]. وأصحُّ ما روي في قصة أبي ذرّ رضي الله عنه ما رواه البخاري في صحيحه عن زيد بن وهب، قال: مررت بالرَّبذة، فإذا أنا بأبي ذرٍّ رضي الله عنه فقلت له: ما أنزلك منزلك هذا؟ قال: كنت بالشَّام، فاختلفت أنا ومعاوية في ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾﴾ [التوبة: 34] قال معاوية: نزلت في أهل الكتاب، فقلت: نزلت فينا، وفيهم، فكان بيني وبينه في ذاك، وكتب إلى عثمان يشكوني، فكتب إليَّ عثمان أن اقدم المدينة، فقدمتها، فكثر عليَّ الناس حتَّى كأنهم لم يروني قبل ذلك، فذكرت ذلك لعثمان، فقال لي: إن شئتَ تنحَّيْتَ فكنت قريباً، فذاك الذي أنزلني هذا المنزل، ولو أمّروا عليَّ حبشيّاً، لسمعت وأطعت[2]. وقد أشار هذا الأثر إلى أمور مهمة منها:

أ - سأله زيد بن وهب، ليتحقَّق ممَّا أشاعه مبغضو عثمان: هل نفاه عثمان أو اختار أبو ذرّ المكان؟ فجاء سياق الكلام: أنه خرج بعد أن كثر النّاس عليه يسألونه عن سبب خروجه من الشَّام، وليس في نص الحديث: أنَّ عثمان أمره بالذهاب إلى الربذة، بل اختارها بنفسه، ويؤيد هذا ما ذكره ابن حجر عن عبد الله بن الصَّامت قال: دخلت على أبي ذرٍّ عند عثمان، فحسر رأسه، فقال: والله ما أنا منهم ـ يعني: الخوارج ـ فقال: إنَّما أرسلنا إليك لتجاورنا بالمدينة، فقال: لا حاجة لي في ذلك، ائذن لي بالرَّبذة. قال: نعم[3].

ب - قوله: كنت بالشَّام: بيَّن السَّبب في سكناه الشَّام، ما أخرجه أبو يعلى عن طريق زيد ابن وهب: حدَّثني أبو ذرٍّ، قال: قال لي رسول الله ﷺ: **«إذا بلغ البناء ـ أي المدينة ـ سَلْعاً، فارتحل إلى الشَّام»**. فلمَّا بلغ البناء سلعاً، قدمت الشام فسكنت فيها[4].

جـ - إنَّ قصة أبي ذرٍّ في المال جاء من اجتهاده في فهم الآية الكريمة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة: 34-35]. وروى البخاري عن أبي ذرٍّ ما يدل على أنَّه فسر الوعيد ﴿يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا﴾، وكان يخوِّف النَّاس به، فعن الأحنف بن قيس، قال: جلستُ إلى ملأ من قريش في مسجد المدينة، فجاء رجل خَشِن الشَّعر، والثّياب، والهيئة، حتى قام عليهم، فسلَّم، ثم

(1) المدينة المنورة، فجر الإسلام (2/ 217).
(2) البخاري، كتاب الزكاة رقم 1406.
(3) فتح الباري (3/ 274).
(4) المدينة المنورة فجر الإسلام (2/ 219).

قال: بشِّر الكانزين بَرضفٍ[1] يُحمى عليهم في نار جهنَّم ثم يوضع على حلمة ثَدْي أحدهم، حتَّى يخرج من نُغْضِ كتفه، ويُوضع على نُغْضِ كَتِفِه حتى يخرج من حلمة ثديه، يتزلزل[2]. ثمَّ ولّى فجلس في سارية، وتبعته، وجلست إليه، وأنا لا أدري من هو، فقلت له: لا أرى القوم إلا قد كرهوا الذي قلت، قال: إنَّهم لا يعقلون شيئاً. واستدلَّ أبو ذرّ ﷺ بقول رسول الله ﷺ: «ما أحبُّ أنَّ لي مثل أحد ذهباً، أنفقه كُله إلا ثلاثة دنانير»[3].

د - وقد خالف جمهور الصحابة أبا ذرّ، وحملوا الوعيد على مانعي الزّكاة واستدلوا على ذلك بالحديث، الذي رواه أبو سعيد الخدريُّ، قال: قال النَّبي ﷺ: «ليس فيما دون خمس أواق صدقة، وليس دون خمس ذَوْدٍ صدقة وليس فيما دون خمس أوسق صدقة»[4]. وقال الحافظ ابن حجر: ومفهوم الحديث: أنَّ ما زاد على الخمس ففيه صدقة، ومقتضاه: أنَّ كلَّ ما أخرجت منه الصَّدقة، فلا وعيد على صاحبه، فلا سمِّي ما يفضل بعد إخراجه الصدقة كنزاً[5]، هذا وقد فصلت في موضوع خلاف أبي ذرّ مع معاوية ﷺ في كتابي عثمان بن عفان ﷺ، وأثبت بالحجج والأدلة والبراهين بأن عثمان ﷺ لم ينف أبا ذرٍّ ﷺ، إنما استأذنه، فأذن له، ولكنَّ أعداء عثمان ﷺ كانوا يشيعون عليه بأنَّه نفاه، ولذلك لمّا سأل غالب القطان الحسن البصري: عثمان أخرج أبا ذرٍّ؟ قال الحسن: لا، معاذ الله[6]، وكل ما روي أنَّ عثمان نفاه إلى الرَّبذة فإنه ضعيف الإسناد، لا يخلو من علة قادحة، مع ما في متنه من نكارة لمخالفته للمرويَّات الصحيحة والحسنة، التي تبيِّن أن أبا ذرٍّ استأذن للخروج إلى الرّبذة، وأنَّ عثمان أذن له[7]، بل إن عثمان أرسل يطلبه من الشام، ليحاوره بالمدينة، فقد قال له عندما قدم من الشام: إنا أرسلنا إليك لخير، لتجاورنا بالمدينة[8]. وقال له أيضا: كن عندي، تغدو عليك، وتروح اللقاح[9]. أفمن يقول ذلك ينفيه[10]. ولم تنصّ على نفيه إلا رواية رواها ابن سعد، وفيها بريدة بن سفيان الأسلمي الذي قال عنه الحافظ ابن حجر: ليس بالقوي، وفيه رفض. فهل تقبل رواية رافضي تتعارض مع الروايات الصحيحة والحسنة[11]؟ واستغل الرّافضة هذه الحادثة أبشع استغلال، فأشاعوا: أن عثمان ﷺ نفى أبا ذر إلى الربذة، وأن ذلك مما عيب عليه من قبل الخارجين عليه،، أو أنّهم سوّغوا الخروج عليه[12]، وعاب عثمان ﷺ بذلك

---

(1) الرَّضف: الحجارة المحمَّاة، واحدها، رضفة.

(2) نغص: العظم الدقيق الذي على طرف الكتف، يتزلزل: يضطرب.

(3) البخاري: كتاب الزكاة رقم 1407.

(4) البخاري رقم 1405.

(5) فتح الباري (3/ 272).

(6) تاريخ المدينة، ابن شبَّة، ص: 1037، إسناده صحيح.

(7) فتنة مقتل عثمان ﷺ (1/ 110).

(8) تاريخ المدينة ص: 1036 - 1037، إسناده حسن.

(9) الطبقات، لابن سعد (4/ 226 - 227)

(10) فتنة مقتل عثمان (1/ 111).

(11) المصدر السابق نفسه.

(12) فتنة مقتل عثمان (1/ 111).

ابن المطهّر الحلّي الشيعي المتوفي سنة 726هـ، بل زاد: أن عثمان ﵁ ضرب أبا ذرٍّ ضرباً وجيعاً، وردَّ عليه شيخ الإسلام ابن تيمية رداً جامعاً قوياً[1]، وكان سلف هذه الأمَّة يعلمون هذه الحقيقة، فإنَّه لما قيل للحسن البصريِّ: عثمان أخرج أبا ذرٍّ؟ قال: لا، معاذ الله[2].
وكان ابن سيرين إذا ذُكر له: أنَّ عثمان ﵁ سيَّر أبا ذرّ، أخذه أمرٌ عظيم، ويقول: هو خرج من نفسه، ولم يسيِّره عثمان[3]، وكما تقدم في الرِّواية الصحيحة الإسناد: أنَّ أبا ذرّ ﵁ لمَّا رأى كثرة النَّاس عليه خشي الفتنة، فذكر ذلك لعثمان كأنه يستأذنه في الخروج، فقال له عثمان ﵁ : إن شئت تنحيت، فكنت قريباً[4]. كما أن أبا ذرّ ﵁ لم يتأثر لا من قريب ولا من بعيد بآراء عبد الله بن سبأ اليهوديِّ، وقد أقام بالرَّبذة حتى توفيِّ، ولم يحضر شيئاً مما وقع في الفتن[5]، ثمَّ قد روى حديثاً من أحاديث النَّهي عن الدخول في الفتنة[6]، وبعد وفاة أبي ذرٍّ ﵁ ضمّ أمير المؤمنين عثمان ﵁ عياله إلى عياله[7]، فرضي الله على جميع الصحابة الأبرار، الطيبين الأطهار.

11 - اتهام عثمان ﵁ بإعطاء أقاربه من بيت المال:

اتُّهم عثمان ﵁ من قبل الغوغاء والخوارج بإسرافه في بيت المال، وإعطائه أكثره لأقاربه، وقد ساند هذا الاتِّهام حملة دعائية باطلة قادها أعداء الإسلام ضدَّه، وتسرَّبت في كتب التاريخ، وتعامل معها بعض المفكِّرين والمؤرخين على كونها حقائق، وهي باطلة لم تثبت لأنها مختلقة، والذي ثبت من إعطائه أقاربه أمور تعد مناقبه، لا من المثالب[8]فيه. إن عثمان ﵁ كان ذا ثروة عظيمة، وكان وصولا للرحم[9]يصلهم بصلات كثيرة وفيرة، فنقم عليه أولئك الأشرار، وقالوا بأنَّه إنما كان يصلهم من بيت المال، وعثمان قد أجاب عن موقفه هذا بقوله: وقالوا: إني أحبُّ أهل بيتي، وأعطيهم. . فأمّا حبِّي لهم؛ فإنَّه لم يمل معهم إلى جور، بل أحمل الحقوق عليهم. . وأما إعطاؤهم، فإني إنّما أعطيهم من مالي، ولا أستحلُّ أموال المسلمين لنفسي ولا لأحد من الناس،وقد كنت أعطي العطية الكبيرة الرَّعية من صلب مالي أزمان رسول الله ﷺ، وأبي بكر،وعمر،وأنا يومئذ شحيح حريص، أفحين أتيت على أسنان أهل بيتي[10]، وفني عمري، وودَّعت الذي لي في أهلي،قال الملحدون ما قالوا[11]؟ وكان عثمان قد قسم ماله، وأرضه في بني أميه، وجعل ولده كبعض مَنْ يعطي، فبدأ ببني أبي

---

(1) منهاج السنة لابن تيمية (6/ 183).
(2) تاريخ المدينة (1037) إسناده صحيح.
(3) المصدر السابق.
(4) البخاري، كتاب : الزكاة رقم 1406.
(5) أحداث الفتنة الأولى بين الصحابة في ضوء قواعد الجرح والتعديل، ص: 174.
(6) المصدر نفسه ص: 174.
(7) تاريخ الطبري (5/ 314).
(8) عثمان بن عفان، للصَّلاَّبي ص: 148.
(9) فصل الخطاب في مواقف الأصحاب ص: 82.
(10) جاوزت أعمارهم.
(11) تاريخ الطبري (5/ 356).

العاص، فأعطى آل الحكم رجالهم عشرة الآف، فأخذوا مئة ألف، وأعطى بني عثمان مثل ذلك، وقسم في بني العاص، وفي بني العيص، وفي بني حرب[1]، فهذه النصوص وغيرها وممَّا اشتهر عنه، وما صحَّ من الأحاديث في فضائله الجمّة تدل على ما قيل فيه من إسرافه في بيت المال، وإنفاق أكثره على أقاربه، وقصوره حكايات بدون زمام، ولا خطام[2].

إن سيرة عثمان رضي الله عنه في أقاربه تمثِّل جانباً من جوانب الإسلام الكريمة الرحيمة،لقوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الإسراء: 26]. كما أنَّها تمثِّل جانباً عملياً من سيرة المصطفى ﷺ، فقد رأى عثمان رضي الله عنه من رسول الله وعلم من حاله ما لم ير أو يعلم غيره من منتقديه، وعقل من الفقه ما لم يعقله مثله من جمهرة النَّاس، وكان ممَّا رأى شدَّة حبِّ رسول الله ﷺ لأقاربه وبرِّه لهم وإحسانه إليهم،وقد أعطى عمَّه العبَّاس ما لم يعط أحداً عندما ورد عليه مال البحرين[3]، ولعثمان وسائر المؤمنين في رسول الله أعظم القدوة[4]، وقد ردَّ ابن تيمية رحمه الله على من اتَّهم عثمان بتفضيله أهله بالأموال الكثيرة من بيت المال فقال: وكان يؤثر أهله بالأموال الكثيرة من بيت المال حتَّى إنَّه دفع إلى أربعمائة نفر من قريش أربعمائة ألف دينار، ودفع إلى مروان ألف وألف دينار.مليون دينار.فالجواب يقال: أين النقل الثابت بهذا؟. نعم كان يعطي أقاربه، ويعطي غير أقاربه أيضاً، وكان يحسن إلى جميع المسلمين، وأمَّا هذا القدر الكثير فيحتاج إلى نقل ثابت، ثم يقال ثانياً: هذا من الكذب البيِّن، فإنه لا عثمان ولا غيره من الخلفاء الراشدين أعطوا أحداً ما يقارب هذا المبلغ[5].

12 - هل عيَّن عثمان رضي الله عنه أحداً من أقربائه على حساب المسلمين؟

لم يكن عثمان رضي الله عنه ليعيِّن أحداً من أقاربه على حساب المسلمين، ولو أراد أن يجامل أحداً من أقاربه على حساب المسلمين لكان ربيبه محمد بن أبي حذيفة أولى النَّاس بهذه المجاملة، ولكنَّ الخليفة أبى أن يوليه شيئاً ليس كفؤاً له بقوله: يابنيَّ لو كنت رضاً ثمّ سألتني العمل، لاستعملتك، ولكن لست[6]هناك. ولم يكن ذلك كراهية له، ولا نفوراً منه، وإلا لما جهَّزه من عنده وحمله وأعطاه حين استأذن في الخروج إلى مصر[7]، وأمّا استعمال الأحداث فكان لعثمان رضي الله عنه في رسول الله أسوة حسنة فقد جهَّز جيشاً لغزو الرُّوم في آخر حياته واستعمل عليه أسامة بن زيد، رضي الله عنهما [8]، وعندما توفيَّ الرَّسول ﷺ تمسَّك الصديق رضي الله عنه بإنفاذ هذا الجيش،

(1) تاريخ الطبري (5/ 356).
(2) فصل الخطاب في مواقف الأصحاب ص: 83.
(3) البخاري، كتاب الجزية.
(4) البداية والنهاية (7/ 201).
(5) منهاج السنة (3/ 190).
(6) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (1/ 247).
(7) المصدر السابق (1/ 247) تاريخ الطبري (5/ 416).
(8) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (1/ 247) تاريخ الطبري (5/ 416).

لكنَّ بعض الصحابة رغبوا في تغيير أسامة بقائد أحسن منه، فكلَّموا عمر في ذلك ليكلمَ أبا بكر، فغضب أبو بكر لمَّا سمع هذه المقالة، وقال لعمر: يا عمر استعمله رسول الله ﷺ، وتأمرني أن أعزله[1]. ويجيب عثمان بنفسه على هذه المآخذ أمام الملأ من الصحابة بقوله: لم أستعمل إلا مجتمعاً، محتلماً، مرضياً، وهؤلاء أهل عملهم، فسلوهم عنهم، وهؤلاء أهل بلدهم وقد ولَّى من قبلي أحدث منهم، وقيل لرسول الله ﷺ ممَّا قيل لي في استعماله لأسامة، أكذلك؟ قالوا: نعم يعيبون للنَّاس ما لا يفسرون[2]. ويقول عليّ ﷺ: ولا يولِّ أي: عثمان ـ إلا رجلاً سوياً، عدلاً، وقد ولى رسول الله ﷺ عتّاب بن أسيد على مكّة وهو ابن عشرين سنة[3]، ولم يكن ولاة الأمصار في عهد عثمان ﷺ جاهلين بأمور الشَّرع، ولم يكونوا من المفرِّطين في الدِّين، وإذا كانت لهم ذنوب، فلهم حسنات كثيرة، ومع ذلك فإن سيئات وذنوب هؤلاء تعود عليهم ولم يكن لها تأثير في المجتمع المسلم، وقد تتبعنا آثار هؤلاء الولاة أيَّام ولايتهم، ووجدناها عظيمة الفائدة للإسلام والمسلمين، وقد اهتدى على يدي ولاة عثمان مئات الألوف إلى الإسلام، وبسبب فتوحاتهم انضمّ إلى ديار الإسلام أقاليم واسعة، ولو لم يكن عند هؤلاء من الشجاعة، والدِّين ما يحثهم على الجهاد، ما قادوا الجيوش إلى الجهاد، وفيه مظنة الهلاك، وفيه ترك الراحة ومتاع الدنيا، وقد تتبعت سيرة هؤلاء الولاة، فوجدت لكل واحد منهم فتحاً، أو فتوحاً في الجهات التي تجاور ولايته، مع مناقب وصفات حسنة تؤهله للقيادة وقد فصلت في كتابي عن عثمان ﷺ في مبحث مستقل حقيقة ولاة عثمان[4] ﷺ.

إن الذي يرجع إلى الصحيح الممحّص من وقائع التاريخ، ويتتبع سيرة الرجال الذين استعان بهم أمير المؤمنين ذو النورين ـ رضوان الله عليهم ـ وما كان لجهادهم من جميل الأثر في تاريخ الدعوة الإسلامية، بل ما كان لحسن إدارتهم من عظيم النتائج في هناء الأمّة وسعادتها، فإنه لا يستطيع أن يمنع نفسه عن الجهر بالإعجاب، والفخر كلما أمعن في دراسة ذلك من أدوار التاريخ الإسلامي[5].

إن عثمان ﷺ وولاته انشغلوا بمدافعة الأعداء وجهادهم وردّهم، ولم يمنعهم ذلك من توسيع رقعة الدولة الإسلامية، ومدّ نفوذها في مناطق جديدة، وقد كان للولاة تأثير مباشر في أحداث الفتنة حيث كانت التهمة موجهة إليهم، وأنّهم اعتدوا على الناس، ولكنّنا لم نلمس حوادث معينة يتّضح فيها هذا الاعتداء المزعوم والمشاع، كما اتُّهم عثمان بتولية أقاربه، وقد

---

(1) تاريخ الطبري (5/ 416).
(2) المصدر السابق (5/ 355).
(3) البداية والنهاية(7/ 178).
(4) عثمان بن عفان، للصّلاّبي ص: 294.
(5) حاشية المنتقى من منهاج الاعتدال ص: 390.

دحضنا تلك الفرية، وهكذا نرى أنّ عثمان لم يألُ جهداً في نصح الأمة، وفي تولية من يراه أهلاً للولاية، ومع هذا لم يسلم عثمان وولاته من اتهامات وجهت إليهم من قبل أصحاب الفتنة في حينها، كما أن عثمان ﷺ لم يسلم من كثير من الباحثين في كتاباتهم غير المحقّقة عن عهد عثمان وخصوصاً الباحثين المحدثين الذين يطلقون أحكاماً لا تعتمد على التحقيق، أو على وقائع محددة، يعتمدون فيها على مصادر موثوقة، فقد تورّط الكثير منهم في الرّوايات الضّعيفة، والرافضّية، وبنوا أحكاماً باطلة وجائرة في حق الخليفة الرّاشد عثمان بن عفان، مثل طه حسين في كتابه: الفتنة الكبرى، وراضي عبد الرحيم في كتابه: النظام الإداري والحربي، وصبحيّ الصالح في كتابه: النُّظم الإسلامية، ومولوي حسين في كتابه: الإدارة العربية، وصبحي محمصاني في كتابه: تراث الخلفاء الراشدين في الفقه والقضاء، وتوفيق اليوزبكي في كتابه: دراسات في النظم العربية والإسلامية، ومحمد الملحم في كتابه: تاريخ البحرين في القرن الأول الهجري، وبدوي عبد اللطيف في كتابه: الأحزاب السياسية في فجر الإسلام، وأنور الرّفاعي في كتابه: النظم الإسلامية، ومحمد الرّيِّس في كتابه: النظريات السياسية، وعلي حسني الخربوطلي في كتابه: الإسلام والخلافة، وأبي الأعلى المودودي في كتابه الملك والخلافة، وسيد قطب في كتابه: العدالة الاجتماعية، وغيرهم[1].

ولقد أكثر المؤرخون من الحديث عن محاباة عثمان أقاربه، وسيطرتهم على أزمة الحكم في عهده، حتّى أثاروا عليه نقمة كثير من الناس، فثاروا ناقمين عليه إطلاقه يد ذوي قرباه في شئون الدولة[2]، وأقارب عثمان الذي ولاهم ﷺ أوّلهم معاوية بن أبي سفيان، والثاني عبد الله بن أبي السرح، والثالث الوليد بن عقبة، والرّابع سعيد بن العاص، والخامس عبد الله بن عامر، هؤلاء خمسة ولاهم عثمان، وهم من أقاربه، وهذا في زعمهم مطعن عليه، فلو أخذنا إحصائية لوجدنا: أن عدد الولاة في عهد عثمان ستة وعشرون والياً، ألا يصح أن يكون خمسة من بني أمية يستحقون الولاية وبخاصة إذا علمنا: أن النبي ﷺ كان يوليّ بني أمية أكثر من غيرهم؟ علماً بأن هؤلاء الولاة لم يكونوا كلّهم في وقت واحد، بل كان عثمان ﷺ قد ولى الوليد بن عقبة، ثمّ عزله، فولى مكانه سعيد بن العاص، فلم يكونوا خمسة في وقت واحد، ولم يتوفّ عثمان إلا وقد عزل أيضا سعيد بن العاص، فعندما توفي عثمان لم يكن من بني أمية من الولاة إلا ثلاثة وهم: معاوية، وعبد الله بن سعد بن أبي السرح، وعبد الله بن عامر ابن كريز فقط، عزل عثمان الوليد بن عقبة، وسعيد بن العاص، ولكنّه عزلهما من أين؟ من الكوفة التي عزل منها عمر ﷺ سعد بن أبي وقاص، الكوفة التي لم ترض بوالٍ أبداً، إن عزل

---

(1) الولاية على البلدان (1/ 222 إلى 232).
(2) الدولة الأموية المفترى عليها ص: 159.

عثمان رضي الله عنه لأولئك الولاة لا يعتبر مطعناً فيهم، بل مطعن في أهل الشغب في المدينة التي وُلُّوا عليها[1]. إن بني أمية كان رسول الله ﷺ يستعملهم في حياته، واستعملهم بعده من لا يُتهم بقرابة منهم: أبو بكر، وعمر رضي الله عنهما، ولا نعرف قبيلة من قبائل قريش فيها عمّال لرسول الله ﷺ أكثر من بني عبد شمس! لأنهم كانوا كثيرين وكان فيهم شرف وسؤدد، فاستعمل النبي ﷺ عتّاب بن أسيد بن أبي العاص على مكة، وأبا سفيان بن حرب على نجران، وخالد بن سعيد على صدقات بني مدحج، وأبان بن سعيد على بعض السّرايا ثمّ على البحرين، فعثمان رضي الله عنه لم يستعمل إلا من استعمله النبي ﷺ، ومن جنسهم وقبيلتهم، وكذلك أبو بكر وعمر بعده، فقد ولى أبو بكر يزيد بن أبي سفيان في فتوح الشام، وأقرّه عمر، ثمّ ولى عمر بعده أخاه معاوية[2]. والسؤال الذي يطرح نفسه: أأثبت هؤلاء كفاءتهم أم لا؟ والحقيقة العلمية التي أثبتّها في كتابي عن عثمان رضي الله عنه بأن ولاته أثبتوا كفاءتهم، فالولاة الذين ولاهم عثمان رضي الله عنه من أقاربه قد أثبتوا الكفاءة والمقدرة في إدارة شؤون ولاياتهم، وفتح الله على أيديهم الكثير من البلدان وساروا في الرعية سيرة العدل والإحسان[3]، فمثلاً معاوية رضي الله عنه كانت سيرته مع الرعية في ولايته من خير سير الولاة ممّا جعل النّاس يحبونه، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ قال: «خيار أئمتكم ـ حكامكم ـ الذين تحبونهم، ويحبونكم، وتصلون عليهم ـ تدعون لهم ـ ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم، ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم»[4]، وقد بيَّن القاضي ابن العربي وأثبت أن رسول الله استكتبه، وأن سند ولايته الأعمال في الدولة الإسلامية لم يكن لأحد قبله، ولم يكن لأحد بعده، حيث اجتمع على توليته: رسول الله ﷺ، ومن بعده خلفاؤه الثلاثة، ثم صالحه وأقرّ له بالخلافة الحسن بن علي بن أبي طالب[5].

13 - أسباب فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه:

قال الزهري: ولي عثمان اثنتي عشرة سنة أميراً للمؤمنين، أوّل ستّ سنين منها لم ينقم الناس عليه شيئاً، وإنّه لأحبُّ إلى قريش من عمر بن الخطاب، لأنّ عمر كان شديداً عليهم، أمّا عثمان، فقد لان لهم وَوَصَلَهم، ثمّ حدثت الفتنة بعد ذلك، وقد سمّى المؤرّخون المسلمون الأحداث في النِّصف الثاني من ولاية عثمان 30 ـ 35هـ (الفتنة)، التي أدَّت إلى استشهاد عثمان رضي الله عنه[6]، وكان المسلمون في خلافة أبي بكر، وعمر، وصدراً من خلافة عثمان، متَّفقين لا تنازع بينهم، ثم حدثت في أواخر خلافة عثمان أمور أوجبت نوعاً من التفرق، وقام قوم من أهل الفتنة والظلم فقتلوا عثمان، فتفرق المسلمون بعد مقتله[7]، وكان

(1) حقبة من التاريخ ص: 75.
(2) منهاج السنة (3/ 175، 176).
(3) تحقيق مواقف الصحابة من الفتنة (1/ 417).
(4) مسلم، كتاب الإمارة رقم 65.
(5) العواصم من القواصم ص: 82.
(6) طبقات ابن سعد (1/ 39 - 47) الخلفاء الرّاشدون، للخالدي ص: 112.
(7) مجموع الفتاوى (13/ 20).

المجتمع الإسلامي في خلافة الصديق، والفاروق، والنِّصف الأوَّل من خلافة عثمان يتَّصف بالسِّمات الآتية:

ـ أنه في عمومه ـ مجتمع مسلم بكل معنى الإسلام، عميق الإيمان بالله واليوم الآخر، مطبِّق للإسلام بجدية واضحة والتزام ظاهر، وبأقلّ قدر من المعاصي وقع في أي مجتمع في التَّاريخ.

- أنه المجتمع الذي تحقَّق فيه أعلى مستوى للمعنى الحقيقيّ للأمَّة بمعناها الرَّباني، فهي الأمة التي تربط بينها رابطة العقيدة، بصرف النظر عن اللغة، والجنس، واللَّون، ومصالح الأرض القريبة، وهذه لم تتحقَّق في التاريخ كما تحقّقت في الأمة الإسلامية.

- أنه مجتمع أخلاقيّ يقوم على قاعدة أخلاقية واضحة مستمدة من أوامر الدين، وتوجيهاته.

- أنه مجتمع جادٌّ، مشغول بمعالي الأمور لا بسفاسفها، وليس الجدُّ بالضرورة عبوساً وصرامة، ولكنه روح تبعث الهمّة في الناس، وتحثُّ على النشاط، والعمل، والحركة.

- أنه مجتمع مجنَّد للعمل، في كلِّ اتجاه، تلمس فيه روح الجنديَّة واضحة لا في القتال في سبيل الله فحسب، ولكن في جميع الاتجاهات، فهو معبَّأ من تلقاء نفسه بدافع العقيدة وبتأثير شحنتها الدّافعة لبذل النشاط في كلِّ اتجاه[1]

- أنه مجتمع متعبِّد نلمس فيه روح العبادة واضحة في تصرفاته، ليس فقط في أداء الفرائض والتطوّع بالنَّوافل ابتغاء مرضات الله، ولكن في أداء الأعمال جميعاً والعمل في حسّه عبادةٌ، يؤديه بروح العبادة[2].

هذه من أهم صفات عهد الخلفاء الراشدين ـ بصفة عامة ـ إلا أن تلك السِّمات كانت أقوى كلمّا اقتربنا من عهد النبوة وتضعف كلّما ابتعدنا عن عصر النُّبوة، وقد بدأ التغير على عهد الخلافة الراشدة مع ظهور فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه، وكان لظهور هذه المحنة العظيمة التي مرت بها الأمة أسباب منها:

أ ـ الرخاء وأثره في المجتمع: وغنيٌّ عن الإشارة أنَّ النِّعم، والخيرات، وتلك الواردات من الفتوح سيكون لها أثرها على المجتمع، إذ تجلب الرَّخاء وما يترتَّب عليه من انشغال النَّاس بالدُّنيا، والافتتان بها، كما أنَّها مادة للتنافس، والبغضاء خاصة بين أولئك الذين لم يصقل الإيمان نفوسهم، ولم تهذبهم التَّقوى من أعراب البادية وجفاتها، ومن مسلمة الفتوحات،

(1) كيف نكتب التاريخ الإسلامي، ص: 102.
(2) المصدر نفسه ص: 102.

وأبناء الأمم المترفة، وقد أدرك عثمان ﷺ هذه الظاهرة وأنذر بما سيؤول إليه أمر الأمّة من التَّبدُّل والتغيُّر في كتابه الموجه إلى الرّعية: فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاثةٍ فيكم: تكامل النِّعم، وبلوغ أولادكم من السبايا، وقراءة الأعراب والأعاجم للقرآن[1]، وحدث ما توقعه عثمان ﷺ وبدأ يظهر أثر التغيّر أولاً على أطراف الدّولة الإسلامية، ثم أخذ يزحف إلى عاصمة الخلافة، ممّا دفع عثمان ﷺ إلى تذكير المسلمين في خُطَبِهِ بضرورة الحذر من التهالك على الدنيا وحطامها، فكان مما قاله في إحدى خطبه: إنَّ الله إنَّما أعطاكم الدُّنيا، لتطلبوا بها الآخرة، ولم يعطكموها، لتركنوا إليها، إن الدنيا تفنى، وإن الآخرة تبقى، ولا تبطرنَّكم الفانية، ولا تشغلنكم عن الباقية، . . . واحذروا ومن الله الغير، والزموا جماعتكم، لا تصيروا أحزاباً[2]، ثم قرأ: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ۝١٠٣ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝١٠٤﴾ [آل عمران: 103-104].

وفي مثل هذه الظروف والخيرات، فاضت الدُّنيا على المسلمين وتفرّغ الناس بعد أن فتحوا الأقاليم، واطمأنُّوا فأخذوا ينقمون على خليفتهم[3]. ومن هنا يُعلم أثر الرخاء في تحريك الفتنة، ومن هنا أيضاً يمكن فهم مقالة عثمان ﷺ لعبد الرَّحمٰن بن ربيعة ـ له صحبة ـ وهو على الباب[4]: إن الرَّعية قد أبطر كثيراً منهم البطنة، فقصِّر بهم، ولا تقتحم بالمسلمين، فإنّي خاشٍ أن يبتلوا[5].

ب ـ طبيعة التحول الإجتماعيّ في عهد عثمان ﷺ : حدثت تغيُّرات اجتماعية عميقة، ظلَّت تعمل في صمت وقوة لا يلحظها كثير من الناس، حتى ظهرت على ذلك الشكل العنيف المتفجِّر بدءاً من النِّصف الثاني من خلافة عثمان، وبلغت قمّة فورانها في التمرُّد الذي أدَّى إلى استشهاده ﷺ [6]، ولما توسَّعت الدولة الإسلامية عبر حركة الفتوح، حصل تغيُّر في تركيبة المجتمع واختلالات في نسيجه، لأنَّ هذه الدَّولة بتوسُّعها المكانيّ، والبشريّ، ورثت ما على هذه الرقعة الواسعة من أجناس، وألوان ولغات، وثقافات، وعادات، ونظم، وأفكار،

(1) تاريخ الطبري (5/ 245).
(2) أحداث وأحاديث الهرج، ص: 567
(3) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (1/ 362).
(4) المقصود بالباب : منطقة في جهة أذربيجان، معجم البلدان (1/ 303).
(5) تحقيق مواقف الصحابة (1/ 362).
(6) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 166.

ومعتقدات، وفنون أدبية، وعمرانية، ومظاهر، وظهرت على سطح هذا النسيج ألوان مضطربة، وخروقات غير منتظمة، كما صيَّرت المجتمع غير متجانس في نسيجه التَّركيبيِّ، وبالذات في الأمصار الكبرى المؤثِّرة: البصرة، الكوفة، والشّام، ومصر، والمدينة ومكة، فقد كانت الأمصار الكبيرة بموقعها وأهميتها تدفع لجيش الفتوح، وتستقبلها وهي عائدة، وقد نقص عددها بالموت والقتل، وتستقبل بدلاً عنهم أو أكثر منهم أعداداً وفيرة من أبناء المناطق المفتوحة، فرس، وترك، وروم، وقبط، وكرد، وبربر، وكان أكثرهم من الفرس، أو النَّصارى العرب، أو غيرهم، أو من اليهود[1]، وكان أغلب سكّان هذه الأمصار من القبائل العربيَّة من جنوبها، وشمالها، وشرقها، والذين لم يكونوا ـ عادة ـ من الصَّحابة، وبمعنى أدق: ليسوا ممَّن تلقَّوا التَّربية الكافية على يد رسول الله ﷺ أو على أيدي الجيل الأوَّل من الصحابة، إمَّا لانشغالهم بالفتوح، أو لقلة الصحابة، وقد حصلت تغيراتٌ في نسيج المجتمع البشريِّ المكوَّن من جيل السَّابقين، وسكّان البلاد المفتوحة والأعراب، ومن سبقت لهم ردَّة، واليهود، والنَّصارى وفي تكوين نسيج المجتمع الثَّقافي، وفي بسطة عيش المجتمع، وفي ظهور لون جديد من الانحرافات، وفي قبول الشائعات[2].

ج ـ **ظهور جيل جديد:** فقد حدث في المجتمع تغيُّر أكبر، ذلك: أن جيلا جديداً من الناس ظهر، وأخذ يحتل مكانه في المجتمع وهو غير جيل الصحابة، جيل يعيش في العصر غير الذي كانوا يعيشون فيه، ويتَّصف بما لا يتَّصفون به، فهو جيل[3] يعتبر في مجموعه أقلَّ من الجيل الأوَّل الذي حمل على كتفه عبء بناء الدّولة وإقامتها، فقد تميز الجيل الأوَّل من المسلمين بقوَّة الإيمان، والفهم السَّليم لجوهر العقيدة الإسلاميَّة، والاستعداد التّام لإخضاع النَّفس لنظام الإسلام المتمثل في القرآن والسُّنَّة، وكانت هذه الميِّزات أقل ظهوراً في الجيل الجديد الذي وُجد نتيجة للفتوحات الواسعة، وظهرت فيه المطامع الفرديَّة، وبُعثت فيه العصبية للأجناس والأقوام، وبعضهم يحملون رواسب كثيرة من رواسب الجاهليَّة التي كانوا عليها ولم ينالوا من التربية الإسلامية على العقيدة الصحيحة السَّليمة مثل ما نال الرَّعيل الأوَّل من الصَّحابة رضي الله عنهم على يد رسول الله ﷺ، وذلك لكثرتهم، وانشغال الفاتحين بالحروب والفتوحات الجديدة[4]، فالصَّحابة كانوا أقلَّ فتناً من سائر من بعدهم، فإنَّه كلما تأخَّر العصر عن النبوة كثر التفرق والخلاف[5]، ووجد دعاة الفتنة في المنحرفين من الجيل الجديد بغيتهم.

د ـ **استعداد المجتمع لقبول الشائعات:** ندرك من خلال هذا الخليط غير المتجانس في

(1) دراسات في عهد النبوة، ص: 379

(2) المصدر السابق نفسه، ص: 380

(3) الدولة الأموية، يوسف العش، ص: 132

(4) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (1/ 356)

(5) ذو النورين عثمان بن عفان، مال الله ص: 99.

نسيج المجتمع: أنه صار مهيَّئاً للهزَّات، مستعدَّاً للاضطراب، قابلاً لتلقِّي الإذاعات والأقاويل والشائعات[1] ، ولهذا لما كان الناس في خلافة أبي بكر وعمر أقرب عهداً بالرِّسالة وأعظم إيماناً صلاحاً، وأئمتهم أقوم بالواجب، وأثبت في الطمأنينة، لم تقع فتنة إذ كانوا في حكم القسط، أي: النفوس المطمئنة[2]، ولما كان آخر خلافة عثمان، وخلافة عليٍّ، كثر: أهل النفس اللَّوَّامة التي تخلط عملاً صالحاً، وآخر سيئاً، فصار فيهم شهوة، وشبهة مع الإيمان والدِّين، وصار ذلك في بعض الولاة، وبعض الرِّعايا، ثمَّ كثر هذا القسم، الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فنشأت الفتنة التي سببها ما تقدَّم من عدم تمحيص التَّقوى، والطَّاعة في الطَّرفين، واختلاطهما بنوع من الهوى، والمعصية في الطَّرفين، وكل منهم متأوِّلٌ وأنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وأنَّه مع الحقِّ والعدل، ومع هذا التأويل نوع من الهوى، ففيه من الظنِّ وما تهوى الأنفس، وإن كانت إحدى الطائفتين أولى بالحقِّ من الأخرى[3]، ويوضِّح هذا الواقع بدقة أكثر ذلك الحوار الذي دار بين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأحد أتباعه، قال الرَّجل: ما بال المسلمين اختلفوا عليك، ولم يختلفوا على أبي بكر، وعمر؟ قال علي: لأنَّ أبا بكر وعمر كانا واليين على مثلي، وأنا اليوم والٍ على مثلك[4]، وكان أمير المؤمنين عثمان بن عفان مدركاً لما يدور في وسط المجتمع حيث قال في رسالته إلى الأمراء: أمّا بعد، فإن الرَّعِّية قد طعنت في الانتشار، ونزعت إلى الشَّره، وأعْدّاها على ذلك ثلاث: دنيا مؤثرة، وأهواء مسرعة، وضغائن محمولة، يوشك أن تنفر، فَتُغيِّر[5].

هـ ـ مجيء عثمان بعد عمر ﷺ: كان مجيء عثمان ﷺ مباشرة بعد عمر بن الخطاب ﷺ واختلاف الطبع بينهما مؤدِّياً إلى تغيُّر أسلوبهما في معاملة الرَّعية، فبينما كان عمر قوي الشكيمة، شديد المحاسبة لنفسه، ولمن تحت يديه، كان عثمان ألين طبعاً وأرقَّ في المعاملة، ولم يكن يأخذ نفسه، أو يأخذ النّاس بما يأخذ به عمر، حتّى يقول عثمان لنفسه: يرحم الله عمر، ومن يطيق ما كان عمر يطيق[6]؟! لكن النَّاس، وإن رغبوا به في الشَّوط الأوَّل من خلافته، لأنَّه لان معهم، حتَّى أصبحت محبَّته مضرب المثل، فقد أنكروا عليه بعد ذلك، ويرجع هذا إلى نشأة عثمان في لطفه، ولين عريكته، ورقة طبعه ودماثة خلقه، ممّا كان له بعض الأثر في مظاهر الفرق عند الأحداث بين عهده وعهد سلفه عمر بن الخطَّاب، وقد أدرك عثمان ذلك حين قال لأقوام سجنهم: أتدرون ما جرّأكم عليَّ؟ ما جرَّأكم عليَّ إلا

(1) دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة ص: 382.
(2) مجموع الفتاوى (28/ 148).
(3) المصدر نفسه (28/ 149).
(4) مقدمة ابن خلدون ص: 189.
(5) التمهيد والبيان ص: 64.
(6) تاريخ الطبري (5/ 418).

حلمي[1]، وحين بدت نوايا الخارجين وقد ألزمهم عثمان الحجَّة في ردّه على المآخذ التي أخذوها عليه أمام الملأ من الصَّحابة والنّاس، أبى المسلمون إلا قتلهم، وأبى عثمان إلا تركهم لحلمه، ووداعته قائلاً: بل نعفو، ونقبل، ولنصبرهم بجهدها، ولا نحادّ أحداً حتى يركب حدّاً، أو يبدي كفراً[2].

و ـ **خروج كبار الصَّحابة من المدينة**: كان عمر رضي الله عنه قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج في البلدان إلا بإذن وأجل، فشكوه، فبلغه، فقام فقال: ألا أنّي قد سننت الإسلام سَنَّ البعير، يبدأ فيكون جذعاً، ثم ثَنِيّاً، ثمّ رباعياً، ثم سدسياً، ثمّ بازلاً[3]، فهل ينتظر بالبازل إلا النقصان، ألا فإنَّ الإسلام قد نَزَل، ألا وإنَّ قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معوناتٍ دون عباده، ألا فأمّا وابن الخطاب حيٌّ فلا، إني قائم دون شِعب الحرَّة، آخذ بحلاقيم[4] قريش وَحُجَزِها أن يتهافتوا في النّار[5]، لقد كان عمر يخاف على هؤلاء الصَّحابة من انتشارهم في البلاد المفتوحة، وتوسُّعهم في القطاع والضِّياع فكان يأتيه الرَّجل، من المهاجرين، وهو ممَّن حبس في المدينة، فيستأذنه في الخروج، فيجيبه عمر: لقد كان لك في غزوك مع رسول الله ما يبلغك، وخير لك من الغزو اليوم ألا ترى الدُّنيا ولا تراك[6]، وأمَّا عثمان فقد سمح لهم بالخروج ولان معهم.

ز ـ **العصبية الجاهلية**: يقول ابن خلدون: لما استكمل الفتح، واستكمل للملَّة الملك ونزل العرب بالأمصار في حدود ما بينهم وبين الأمم من البصرة، والكوفة، والشّام ومصر، وكان المختصُّون بصحبة الرَّسول ﷺ والاقتداء بهديه وآدابه: المهاجرين والأنصار، وقريش، وأهل الحجاز، ومن ظفر بمثل ذلك من غيرهم، وأمَّا سائر العرب من بني بكر بن وائل، وعبد القيس، وسائر ربيعة، والأزد، وكندة، وتميم، وقضاعة، وغيرهم فلم يكونوا في تلك الصحبة بمكان إلا قليل منهم. وكانت لهم في الفتوحات قدم، فكانوا يرون ذلك لأنفسهم مع ما يدين به فضلاؤهم من تفضيل أهل السَّابقة، ومعرفة حقِّهم، وما كانوا فيه من الذهول، والدَّهش لأمر النُّبوّة، وتردُّد الوحي، وتنزل الملائكة، فلمَّا انحصر ذلك العباب، وتنوسي الحال بعض الشَّيء، وذل العدوُّ، واستفحل الملك، كانت عروق الجاهليَّة تنبض، ووجدوا الرِّياسة عليهم من المهاجرين، والأنصار، وقريش، وسواهم، فأنِفَتْ نفوسهم منه، ووافق ذلك في أيَّام عثمان، فكانوا يظهرون الطعن في ولاته بالأمصار، والمؤاخذة لهم باللَّحظات والخطوات، والاستبطاء عليهم بالطاعات، والتَّجنِّي بسؤال الاستبداد منهم، والعزل ويفيضون في النَّكير

---

(1) تاريخ الطبري (5/ 250).
(2) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (1/ 364).
(3) البازل: الذي انشق نابه بدخوله في التّاسعة.
(4) الحلاقيم: جمع حلقوم.
(5) تاريخ الطبري (5/ 413).
(6) المصدر نفسه (5/ 414).

على عثمان، وفشت المقالة في ذلك في أتباعهم، وتناولوا بالظُّلم في جهاتهم، وانتهت الأخبار بذلك إلى الصَّحابة بالمدينة، فارتابوا، وأفاضوا في عزل عثمان، وحمله على عزل أمرائه، وبعث إلى الأمصار من يأتيه بالخبر.. فرجعوا إليه فقالوا: ما أنكرنا شيئاً، ولا أنكره أعيان المسلمين ولا عوامُّهم[1].

ح ـ توقُّف الفتوحات بسبب حواجز طبيعية أو بشرية: توقَّفت الفتوح في أواخر عهد عثمان أمام حواجز طبيعية أو بشرية لم تتجاوزها، سواء في جهات فارس، وشمالي بلاد الشَّام، أو في جهة إفريقية، توقفت الغنائم على أثرها، فتساءل الأعراب أين ذهبت الغنائم القديمة؟ أين ذهبت الأراضي المفتوحة التي يعدونها حقاً من حقوقهم[2]؟ وانتشرت الشائعات الباطلة التي اتهمت عثمان رضي الله عنه بأنه تصرف في الأراضي الموقوفة على المسلمين وفق هواه، وأنه أقطع منها لمن شاء من النَّاس، وقد كان لها أثر وواقع على الأعراب، وخاصة وأنَّ معظمهم بقي بدون عمل يقضون شطراً من وقتهم في الطعام والنَّوم، والشطر الآخر بالخوض في سياسة الدّولة، والحديث عن تصرُّفات عثمان التي كانت تهوّلها السبئيَّة، وقد أدرك أحد عمّال عثمان هذا الأمر، وهو عبد الله بن عامر، فأشار على الخليفة حيث طلب من عماله ـ وهم وزراؤه، ونصحاؤه ـ أن يجتهدوا في آرائهم، ويشيروا عليه، فأشار عليه أن يأمر النَّاس بالجهاد ويجمرهم في المغازي حتَّى لا يتعدَّى همُّ أحدهم قمل فروة رأسه ودبر دابته[3]، وفي ذلك الجو من الحديث والفكر عند أفراد تعوَّدوا الغزو، ولم يفقهوا من الدِّين شيئاً كثيراً يمكن أن يتوقع كلُّ سوء ويكفي أن يحرّك هؤلاء الأعراب، وأن يُوجَّهوا توجيهاً، فإذا هم يثورون، ويحدثون القلاقل والفتن، وهذا ما حدث بالفعل، فإنَّ الأعراب ـ بسبب توقف الفتوحات ـ ساهموا في بوادر الفتنة الأولى، وكانوا سبباً من أسباب اندلاعها[4].

ط ـ المفهوم الخاطئ للورع بتحريم الحلال: الورع في الشريعة طيِّبٌ، وهو أن يُترك ما لا بأس به، ومخافة ممَّا فيه بأس، وهو في الأصل ترفع عن المباحات في الله ولله، والورع شيء شخصي يصحُّ للإنسان أن يطالب به نفسه، ولكن لا يصح أن يطالب به الآخرين، ومن أخطر أنواع الورع: الورع الجاهل الذي يجعل المباح حراماً أو مفروضاً، وهذا الذي وقع فيه أصحاب الفتنة[5]، فقد استغلَّ أعداء الإسلام يومها مشاعرهم هذه ونفخوا فيها، فرأوا فيما فعله عثمان من المباحات أو المصالح خروجاً على الإسلام، وتغييراً لسنَّة من سبقه، وعظمت هذه المسائل في أعين الجهلة، فاستباحوا أو أعانوا من استباح دم الخليفة الراشد عثمان بن عفّان رضي الله عنه وفتحوا على المسلمين باب الفتنة إلى اليوم[6].

---

(1) تاريخ ابن خلدون (2/ 477).
(2) تحقيق مواقف الصحابة (1/ 344).
(3) تاريخ الطبري (2/ 340).
(4) تحقيق موقف الصّحابة في الفتنة (1/ 353).
(5) الأساس في السنة (4/ 1676).
(6) أحداث وأحاديث فتنة الهرج ص: 517.

ي ـ ظهور جيل جديد من الطامحين: وجد في الجيل الثاني من أبناء الصحابة ﷺ من يعتبر نفسه جديراً بالحكم والإدارة، ووجد أمثال هؤلاء أنَّ الطريق أمامهم مغلق، وفي العادة أنه متى وجد الطَّامحون الذين لا يجدون لطموحهم متنفساً، فإنَّهم يدخلون في كل عملية تغيير، ومعالجة أمر هؤلاء في غاية الأهمية[1].

ك ـ وجود طائفة موتورة من الحاقدين: لقد دخل في الإسلام منافقون موتورون اجتمع لهم من الحقد والذكاء والدَّهاء، ما استطاعوا به أن يدركوا نقاط الضَّعف التي يستطيعون من خلالها أن يوجدوا الفتنة، ووجدوا من يستمع إليهم بآذان صاغية، فكان من آثار ذلك ما كان[2]، فقد عرفنا سابقاً وجود يهود ونصارى وفرس، وهؤلاء جميعاً معروف باعث غيظهم وحقدهم على الإسلام والدولة الإسلاميّة، ولكنَّنا هنا نضيف من وقع عليه حدٌّ أو تعزير لأمر ارتكبه في وسط الدولة، وعاقبه الخليفة، أو ولاته في بعض الأمصار وبالذّات البصرة، والكوفة، ومصر، والمدينة، فاستغلَّ أولئك الحاقدون من يهود ونصارى وفرس، وأصحاب الجرائم مجموعات من الناس كان معظمهم من الأعراب، ممّن لا يفقهون هذا الدِّين على حقيقته، فتكوَّنت لهؤلاء جميعاً طائفة وُصفت من جميع من قابلهم بأنَّهم أصحاب شرٍ، فقد وُصفُوا: بالغوغاء من أهل الأمصار، ونزَّاع القبائل، وأهل المياه، وعبيد المدينة[3]، وبأنهم ذؤبان العرب[4]، وأنَّهم حثالة النَّاس ومتَّفقون على الشَّرِّ[5]، وسفهاء عديمو الفقه[6]، وأرذال من أوباش القبائل[7]، فهم أهل جفاء، وهمج، ورعاع من غوغاء القبائل، وسفلة الأطراف الأراذل[8]، وأنَّهم آلة الشيطان[9]، وقد تردَّد في المصادر اسم عبد الله بن سبأ الصَّنعاني اليهوديُّ ضمن هؤلاء الموتورين الحاقدين، وأنه كان من اليهود، ثمّ أسلم، ولم ينقِّب أحد عن نواياه، فتنقَّل بين البلدان الإسلاميَّة باعتباره أحد أفراد المسلمين[10]، وسيأتي الحديث عنه بإذن الله.

ل ـ التّدبير المحكم لإثارة المآخذ ضدّ عثمان ﷺ: كان المجتمع مهيَّئاً لقبول الأقاويل، والشائعات نتيجة عوامل وأسباب متداخلة، وكانت الأرض مهيَّأةً ونسيج المجتمع قابلاً لتلقي الخروقات، وأصحاب الفتنة أجمعوا على الطّعن في الأمراء بحجَّة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، حتى استمالوا النَّاس إلى صفوفهم، ووصل الطَّعن إلى عثمان بن عفان ﷺ نفسه

---

(1) الأساس في السنة (4/ 1676).
(2) المصدر نفسه (4/ 1676).
(3) دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة ص: 392.
(4) المصدر السابق ص: 392.
(5) الطبقات (3/ 71) هذا وصف ابن سعد.
(6) دراسات في عهد النبوة ص: 392.
(7) شذرات الذهب (1/ 40) هذا وصف ابن العماد.
(8) شرح صحيح مسلم (15/ 148، 149).
(9) تاريخ الطبري (5/ 327).
(10) دراسة في عهد النبوة ص: 394.

باعتباره قائد الدَّولة، وإذا ما حصرنا الدّعاوي التي رُوِّجت ضد الخليفة، وطعنوه بها، فيمكننا تصنيفها إلى مجموعات خمس:

- مواقف شخصِّية له قبل توليه الخلافة (تغيبه عن بعض الغزوات، والمواقع).

- سياسته الإدارية النَّافذة: توليه أقاربائه، طريقته في التَّولية.

- اجتهادات خاصة به، أو بمصلحة الأمَّة (إتمام الصَّلاة بمنى، جمع القرآن، الزِّيادة في المسجد).

- معاملته لبعض الصَّحابة: عمَّار، أبي ذرّ، ابن مسعود.

وقد بينت موقف عثمان ﷺ في كلّ ما وجه إليه في كتابي تيسير الكريم المنان في سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان شخصيته وعصره. وقد حدث تزيُّد في إبراز المطاعن على عثمان ﷺ في عهده، وما واجهوه بها، وردُّه عليها في حينه، أو ما تُقوِّل عليه فيما بعد عند الرُّواة والكتَّاب، فإنهّا لم تصح، ولم تصل إلى حدٍّ أن تكون سبباً في قتله[1].

إن المآخذ السَّابق ذكرها والمدوَّنة في تاريخ الطَّبري، وغيره من كتب التاريخ والمرويّة عن طريق المجاهيل، والإخباريين الضُعفاء ـ خاصَّة الشيعة ـ كانت وما تزال بليَّة عظمى على الحقائق في سير الخلفاء والأئمَّة، خاصة في مراحل الاضطرابات والفتن، وقد كان مع الأسف لسيرة عثمان أمير المؤمنين ﷺ من ذلك الحظّ الوافر، فرواية الحوادث ووضع الأباطيل على النَّهج الملتوي بعض ما نال تلك السيرة النيرة من تحريف المنحرفين، وتشويه الغالين، بغية التأليب عليه، أو التشهير به وقد أدرك عثمان ﷺ بنفسه ذلك عندما كتب إلى أمرائه: أمّا بعد، فإن الرَّعية طعنت في الانتشار ونزعت إلى الشرِّ، أعداها على ذلك ثلاث: دنيا مؤثرة، وأهواء متسرّعة، وضغائن محمولة[2]، وقال ابن العربي على تلك المآخذ: قالوا متعدِّين متعلِّقين برواية كذَّابين: جاء عثمان في ولايته بمظالم، ومناكير، . . . هذا كله باطل سنداً ومتناً[3].

م ـ **استخدام الأساليب والوسائل المهيِّجة للنَّاس**: وأهم هذه الأساليب: إشاعة الأراجيف، حيث تردّدت كلمة الإشاعة والإذاعة كثيراً، والتَّحريض والمناظرة، والمجادلة للخليفة أمام النَّاس، والطَّعن على الولاة، واستخدام تزوير الكتب، واختلاقها على لسان الصَّحابة ﷺ، كعائشة، وعليٍّ، وطلحة، والزبير، والإشاعة بأن علي بن أبي

(1) دراسات في عهد النبوة، والخلافة الراشدة ص: 400.

(2) التمهيد والبيان ص: 64.

(3) العواصم من القواصم ص: 61 - 63.

طالب رضي الله عنه الأحق بالخلافة، وأنَّه الوصي بعد رسول الله ﷺ وتنظيم فرق في كل من البصرة، والكوفة، ومصر، أربع فرق من كلِّ مصر ممّا يدل على التَّدبير المسبق، وأوهموا أهل المدينة: أنهم ما جاؤوا إلا بدعوة الصَّحابة، وصعَّدوا الأحداث، حتى وصل الأمر إلى القتل[1]، وإلى جوار هذه الوسائل استخدموا مجموعة من الشعارات منها: التّكبير، ومنها: أنَّ جهادهم هذا ضدَّ المظالم، ومنها: أنَّهم لا يقومون إلا بالأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، ومنها: المطالبة باستبدال الولاة وعزلهم، ثمَّ تطورت المطالبة إلى خلع عثمان، إلى أن تمادوا في جرأتهم وطالبوا، بل سارعوا إلى قتل الخليفة، وخاصَّة حينما وصلهم الخبر بأنَّ أهل الأمصار قادمون لنصرة الخليفة، فزادهم حماسهم المحموم لتضييق الخناق على الخليفة، والشوق إلى قتله بأيِّ وسيلة[2].

ن ـ دور عبد الله بن سبأ في تحريك الفتنة: في السَّنوات الأخيرة من خلافة عثمان رضي الله عنه بدت في الأفق سمات الاضطراب في المجتمع الإسلامِّي نتيجة عوامل التَّغيير التي ذكرتها، وأخذ بعض اليهود يتحيَّنون فرصة الظهور مستغلِّين عوامل الفتنة، ومتظاهرين بالإسلام، واستعمال التَّقيَّة، ومن هؤلاء: عبد الله بن سبأ الملقَّب بابن السَّوداء، وإذا كان ابن سبأ لا يجوز التَّهويل في شأنه كما فعل بعض المغالين في تضخيم دوره في الفتنة[3]، فإنه كذلك لا يجوز التَّشكيك فيه، أو الاستهانة بالدَّور الذي لعبه في أحداث الفتنة، كعامل من عواملها، على أنَّه أبرزها وأخطرها، إذ أنَّ هناك أجواء للفتنة مهَّدت له، وعوامل أخرى ساعدته، وغاية ما جاء به ابن سبأ آراء ومعتقدات ادّعاها واخترعها من قبل نفسه، وافتعلها من يهوديَّته الحاقدة، وجعل يروِّجها لغاية ينشدها، وغرض يستهدفه، وهو الدس في المجتمع الإسلامي بغية النَّيل من وحدته، وإذكاء نار الفتنة، وغرس بذور الشِّقاق بين أفراده، فكان ذلك من جملة العوامل التي أدَّت إلى قتل أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه وتفرُّق الأمة شيعاً وأحزاباً[4]. وخلاصة ما جاء به أن أتى بمقدِّمات صادقة، وبنى عليها مبادئ فاسدة راجت لدى السُّذَّج والغلاة، وأصحاب الأهواء من النَّاس، وقد سلك في ذلك مسالك ملتوية لبَّس فيها على من حوله، حتى اجتمعوا عليه، فطرق باب القرآن بتأوّله على زعمه الفاسد، حيث قال: لَعَجبٌ ممَّن يزعم أنَّ عيسى يرجع، ويكذِب بأن محمَّداً يرجع، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ فمحمد أحق بالرجوع من عيسى[5]، كما سلك طريق القياس الفاسد من ادِّعاء إثبات الوصيَّة لعليٍّ رضي الله عنه بقوله: إنَّه كان ألف نبيٍّ، ولكل نبيٍّ وصيٌّ، وكان عليٌّ وصيَّ محمد، ثمّ

(1) دراسات في عهد النبوة ص: 401.
(2) المصدر نفسه ص: 402.
(3) مثال سعيد الأفغاني في كتابه: عائشة والسياسة.
(4) تحقيق مواقف الصحابة (1/ 327).
(5) تاريخ الطبري (5/ 247).

قال: محمد خاتم الأنبياء، وعلي خاتم الأوصياء، وحينما استقر الأمر في نفوس أتباعه انتقل إلى هدفه المرسوم، وهو خروج النَّاس على الخليفة عثمان بن عفان ﷺ فصادف ذلك هوىً في نفوس بعض القوم، حيث قال لهم: من أظلم ممَّن لم يُجِزْ وصيّة رسول الله ﷺ ووثب على وصيِّ رسول الله ﷺ وتناول أمر الأمّة، ثمَّ قال لهم بعد ذلك: إن عثمان أخذها بغير حقٍّ، وهذا وصيُّ رسول الله ﷺ فانهضوا في هذا الأمر فحرِّكوه، وابدؤوا بالطَّعن على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، تستميلوا النَّاس، وادعوهم إلى هذا الأمر[1]، وبثَّ دعاته، وكاتب من كان استفسد في الأمصار وكاتبوه، ودعوا في السِّر إلى ما عليه رأيهم، وأظهروا الأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيوب ولاتهم، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك، ويكتب أهل كلِّ مصر منهم إلى مصر آخر بما يضعون، فيقرأه أولئك في أمصارهم، وهؤلاء في أمصارهم حتَّى تناولوا بذلك المدينة، وأوسعوا الأرض إذاعة، وهم يريدون غير ما يظهرون ويسِّرون غير ما يبدون، فيقول أهل كل مصر: إنّا لفي عافية ممَّا ابتلي به هؤلاء، إلا أهل المدينة فإنَّهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار، فقالوا: إنَّا لفي عافية ممّا فيه النَّاس[2]، ويظهر من هذا النَّصِّ الأسلوب الذي تبعه ابن سبأ، فهو أراد أن يوقع في أعين الناس بين اثنين من الصَّحابة حيث جعل أحدهما مهضوم الحقِّ وهو عليٌّ، وجعل الثاني مغتصباً وهو عثمان، ثمّ حاول بعد ذلك أن يحرِّك النَّاس ـ خاصَّة في الكوفة ـ على أمرائهم باسم الأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر فجعل هؤلاء يثورون لأصغر الحوادث على ولاتهم، علماً بأنَّه ركَّز في جملته هذه على الأعراب الذين وجد فيهم مادّة ملائمة لتنفيذ خطّته، فالقرّاء منهم استهواهم عن طريق الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وأصحاب المطامع منهم هيّج أنفسهم، بالإشاعات المغرضة المفتراة على عثمان، مثل تحيزه لأقاربه، وإغداق الأموال من بيت مال المسلمين عليهم، وأنّه حمى الحمى لنفسه، إلى غير ذلك من التُّهم، والمطاعن التي حرك بها نفوس الغوغاء ضدّ عثمان ﷺ ، ثمّ إنه أخذ يحض أتباعه على إرسال الكتب بأخبار سيئة عن مصرهم إلى بقية الأمصار، وهكذا يتخيل النّاس في جميع الأمصار: - إنّ الحال بلغ من السوء ما لا مزيد عليه، والمستفيد من هذه الحال هم السبئية، لأن تصديق ذلك من الناس يفيدهم في إشعال شرارة الفتنة داخل المجتمع الإسلامي[3]، هذا وقد شعر عثمان ﷺ بأن شيئاً ما يحاك في الأمصار، وأنّ الأمّة تمخض

(1) تاريخ الطبري (5/ 348).
(2) المصدر نفسه (5/ 348).
(3) الدولة الأموية يوسف العش ص: 68، تحقيق مواقف الصحابة (1/ 330).

بشرٌ، فقال: والله إن رحى الفتنة لدائرة، فطوبى لعثمان إن مات، ولم يحرّكها[1]، على أن المكان الذي رتع فيه ابن سبأ هو مصر، وهناك أخذ ينظّم حملته ضدّ عثمان رضي الله عنه، ويحثُّ على التوجّه إلى المدينة لإثارة الفتنة بدعوى: أنّ عثمان أخذ الخلافة بغير حقٍّ، ووثب على وصيِّ رسول الله، يقصد عليًا[2]، وقد غشهم بكتب ادَّعى أنها وردت من كبار الصحابة حتى إذا أتى هؤلاء الأعراب المدينة المنورة واجتمعوا بالصحابة لم يجدوا منهم تشجيعاً، تبرّؤوا ممّا نسب إليهم من رسائل تؤلّب النّاس على عثمان[3]، ووجدوا عثمان مقدّراً للحقوق، بل وناظرهم فيما نسبوا إليه، وردّ عليهم افتراءهم وفسر لهم صدق أعماله حتى قال أحد هؤلاء الأعراب وهو مالك بن الأشتر النّخعي: لعله مُكر به وبكم[4]، ويعتبر الذهبي: أنّ عبد الله بن سبأ المهيِّج للفتنة بمصر، وباذر بذور الشّقاق والنّقمة على الولاية ثمّ الإمام ـ عثمان ـ فيها[5]، ولم يكن ابن سبأ وحده وإنّما كان عمله ضمن شبكة من المتآمرين، وأخطبوطاً من أساليب الخداع، والاحتيال، والمكر، وتجنيد الأعراب، والقرّاء وغيرهم، ويروي ابن كثير: أنّ من أسباب تألُّب الأحزاب على عثمان ظهور ابن سبأ، وذهابه إلى مصر، وإذاعته بين النّاس كلاماً اخترعه من عند نفسه، فافتتن به بشر كثير من أهل مصر[6].

إنَّ المشاهير من المؤرِّخين والعلماء من سلف الأمَّة وخلفها يتَّفقون على أنَّ ابن سبأ ظهر بين المسلمين بعقائد وأفكار وخطط سبئيَّة، ليلفت المسلمين عن دينهم وطاعة إمامهم، ويوقع بينهم الفرقة، والخلاف، فاجتمع إليه من غوغاء الناس ما تكوَّنت به الطائفة السَّبئيَّة المعروفة التي كانت عاملاً من عوامل الفتنة المنتهية بمقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفّان رضي الله عنه والذي يظهر من خطط السَّبئيَّة أنّها كانت أكثر تنظيماً، إذ كانت بارعة في توجيه دعايتها، ونشر أفكارها، لامتلاكها ناصية الدّعاية، والتَّأثير بين الغوغاء والرُّعاع من النَّاس، كما كانت نشيطة في تكوين فروع لها سواء في البصرة، أم الكوفة، أم مصر، مستغلة العصبية القبليَّة ومتمكّنة من إثارة مكامن التّذمُّر عند الأعراب، والعبيد، والموالي، عارفة بالمواضع الحسَّاسة في حياتهم، وبما يريدون[7].

---

(1) تاريخ الطبري (5/ 350).
(2) تحقيق مواقف الصحابة (1/ 330) تاريخ الطبري (5/ 348).
(3) تحقيق مواقف الصحابة (1/ 330) تاريخ الطبري (5/ 365).
(4) المصدر نفسه (1/ 331).
(5) تحقيق مواقف الصحابة (1/ 338).
(6) البداية والنهاية (7/ 167، 168).
(7) تحقيق مواقف الصحابة (1/ 339).

موقف معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه في الفتنة:

في يوم من أيام سنة ثلاث وثلاثين جلس والي الكوفة سعيد بن العاص في مجلسه العام وحوله عامَّة النَّاس، وكانوا يتحدَّثون ويتناقشون فيما بينهم، فتسلَّلَ الخوارج من السَّبئيين إلى المجلس، وعملوا على إفساده، وعلى إشعال نار الفتنة وجرى كلام وحوار في المجلس بين سعيد بن العاص، وبين أحد الحضور، وهو خنيس بن حُبيش الأسدي، واختلفا على أمر، وكان سبعة من الخوارج، أصحاب الفتنة جالسين، منهم: جندب الأزديُّ، الذي قتل ابنه السَّارق بسبب تورطه في قضية قتل، ومنهم الأشتر النَّخعيُ، وابن الكوَّاء، وصعصعة بن صحوان، فاستغل أصحاب الفتنة الفرصة المناسبة، وقاموا بضرب خُنيس الأسدي في المجلس، ولمَّا قام أبوه يساعده وينقذه ضربوه، وحاول سعيد منعهم من الضَّرب فلم يمتنعوا، وأُغمي على الرَّجل وابنه من شدَّة الضَّرب، وجاء بنو أسد للأخذ بثأر أبنائهم، وكادت الحرب تقع بين الفريقين، ولكنَّ سعيداً تمكَّن من إصلاح الأمر[1]، ولمّا علم عثمان بالحادثة، طلب من سعيد بن العاص أن يعالج الموضوع بحكمة، وأن يضيق على الفتنة ما استطاع، وذهب الخوارج المفتونون إلى بيوتهم، وصاروا ينشرون الإشاعات، ويُذيعون الافتراءات والأكاذيب ضدّ سعيد والي الكوفة، وضدَّ عثمان، وضدَّ أهل الكوفة ووجوهها، فاستاء أهل الكوفة منهم، وطلبوا من سعيد أن يعاقبهم، فقال لهم سعيد: إنَّ عثمان قد نهاني عن ذلك، فإذا أردتم ذلك، فأخبروه، وكتب أشراف أهل الكوفة وصلحاؤهم إلى عثمان بشأن هؤلاء النَّفر، وطلبوا منه إخراجهم من الكوفة، ونفيهم عنها، فهم مفسدون مخرِّبون فيها، فأمر عثمان واليه سعيد بن العاص بإخراجهم من الكوفة وكانوا بضعة عشر رجلاً، وأرسلهم سعيد إلى معاوية في الشام بأمر عثمان، وكتب عثمان إلى معاوية بشأن هؤلاء، فقال له: إنَّ أهل الكوفة قد أخرجوا إليك نفراً خلقوا للفتنة. فَرُعْهُم، وأخِفْهم، وأدِّبهم، وأقم عليهم، فإن آنست منهم رشداً، فاقبل منهم[2]. ومن الذين تمَّ نفيهم إلى الشام: الأشتر النَّخعيُّ، وجندب الأزديُّ، وصعصعة بن صوحان، وكميل بن زياد، وعمير بن ضابئ، وابن الكوَّاء[3]، ولمّا قدموا على معاوية رحب بهم، وأحسن ضيافتهم، وأجرى عليهم بأمر عثمان ما كان يُجرى عليهم بالعراق، وجعل لا يزال يتغدَّى، ويتعشَّى معهم فقال لهم يوماً: إنكم قوم من العرب لكم أسنان وألسنة، وقد أدركتم بالإسلام شرفاً، وغلبتم الأمم، وحويتم مراتبهم ومواريثهم، وقد بلغني أنكم نقمتم قريشاً وإنّ قريشاً لو لم تكن لعدتم أذلة كما كنتم[4]. كان عثمان رضي الله عنه يدرك: أنَّ معاوية للمعضلة، فله من فصاحته وبلاغته، وله من حلمه وصبره، وله

(1) تاريخ الطبري (5/ 323).
(2) المصدر السابق (5/ 324).
(3) الخلفاء الرّاشدون ص: 131.
(4) تاريخ الطبري (5/ 324).

من ذكائه ودهائه ما يواجه به الفتن، ومن أجل ذلك ما إن تقع المعضلة حتَّى يرسلها لابن أبي سفيان كي يحلَّها، وفعلاً بذل معاوية رضي الله عنه ما بوسعه من أجل إقناع هؤلاء النَّفر: أكرمهم أوّلاً، وخالطهم، وجالسهم، وعرف سرائرهم من خلال هذه المجالسة قبل أن يحكم عليهم بما نُقل عنهم، وبعد أن أزال الوحشة عنهم، وأزال الكلفة بينه وبينهم، لاحظ أنَّ النَّعرة القبلية هي التي تحرِّكهم، وأنَّ شهوة الحكم والسُّلطة هي التي تثيرهم، فكان لا بدَّ أن يلج عليهم من زاويتين اثنين:

الأولى: أثر الإسلام في عزَّة العرب.

الثانية: دور قريش في نشر الإسلام وتحمُّل أعبائه فإن كان للإسلام أثرٌ في تكوينهم، فلا بدَّ أن يرعَوا لهذا الحديث، بعد هذا وضع أمامهم صورة لوضع العرب، وقد انقلبوا بالإسلام أمَّة واحدة تخضع لإمام واحد وودعوا حياة الفوضى، وسفك الدِّماء، والقبليَّة المنتنة[1]، ويتابع معاوية حديثه معهم، فيقول: إن أئمَّتكم لكم إلى اليوم جُنَّة[2]، فلا تشذوا عن جنَّتكم، وإنَّ أئمتكم اليوم يصبرون لكم على الجور، ويحتملون منكم المؤونة، والله لتنتهنَّ أو ليبتلينَّكم الله بمن يسومكم، ثمَّ لا يحمدكم على الصَّبر، ثم تكونون شركاءهم فيما جررتم على الرَّعيَّة في حياتكم، وبعد موتكم، فقال رجل من القوم: أمَّا ما ذكرت من قريش، فإنها لم تكن أكثر العرب، ولا أمنعها في الجاهلية، فتخوفنا، وأما ما ذكرت من الجُنَّة، فإن الجُنَّة إذا اخترقت خلص إلينا. فقال معاوية: عرفتكم الآن، علمت أن الذي أغراكم على هذا قلة العقول، وأنت خطيب القوم، ولا أرى لك عقلاً. أُعْظِم عليك أمر الإسلام، وأذكِّرك به، وتذكِّرني الجاهليَّة؟ وقد وعظتك وتزعم لما يُجنُّك: أنه يخترق، ولا ينسب ما يخترق إلى الجُنَّة، أخزى الله أقواماً أعظموا أمركم، ورفعوا إلى خليفتكم[3].

وعرف معاوية أنَّ الإشارة العابرة لن تقنعهم، ولا بد من شرح مسهب لواقع قريش أوَّلاً، فقال: افقهوا ـ ولا أظنكم تفقهون ـ أنَّ قريش لم تعزَّ في جاهليةٍ ولا في إسلام إلا بالله عز وجل، لم تكن أكثر العرب، ولا أشدَّهم، ولكنَّهم كانوا أكرمهم أحساباً، وأمحضهم أنساباً، وأعظمهم أخطاراً، وأكملهم مروءةً، ولم يمتنعوا في الجاهلية والناس يأكل بعضهم بعضاً، إلا بالله الذي لا يُستَذَل من أعزَّ، ولا يوضع من رفع، هل تعرفون عرباً، أو عجماً، أو سوداً، أو حمراً إلا قد أصابه الدّهر في بلده، وحرمته بدولةٍ، إلا ما كان من قريش، فإنَّه لم يردهم أحد بكيد إلا جعل الله خدَّه الأسفل، حتى أراد الله أن ينقذ من أكرم، واتَّبع دينه من هوان الدُّنيا، وسوء مردِّ الآخرة، فارتضى لذلك خير خلقه، ثمَّ ارتضى له أصحاباً، فكان خيارهم قريشاً، ثمَّ بنى هذا الملك عليهم، وجعل هذه الخلافة فيهم، ولا يصلح ذلك إلا عليهم، فكان الله

---

(1) معاوية بن أبي سفيان، لمنير الغضبان ص: 101.

(2) جنة: وقاية.

(3) تاريخ الطبري (5/ 324).

يحوطهم وهم على دينه، وقد حاطهم الله في الجاهليَّة من الملوك الذين كانوا يدينونكم، أفٍّ لك ولأصحابك ولو أن متكلماً غيرك تكلَّم، ولكنَّك ابتدأت، فأمَّا أنت يا صعصعة فإنَّ قريتك شرُّ قرىً عربية، أنتنها نبتاً، وأعمقها وادياً، وأعرفها بالشَّرِّ، وألأمها جيراناً، لم يسكنها شريف قط ولا وضيع إلا سُبَّ بها، وكانت عليه هُجنة. ثمَّ كانوا أقبح العرب ألقاباً، وألأمها أصهاراً نزّاع[1] الأمم، وأنتم جيران الخطِّ وفعلة فارس، حتَّى أصابتكم دعوة النَّبيِّ ﷺ، ونكبتك دعوته، وأنت نزيع شطير[2] في عمان، لم تسكن البحرين، فتشركهم في دعوة النَّبي ﷺ، فأنت شرُّ قومك، حتى إذا أبرزك الإسلام، وخلطك بالنَّاس، وحملك على الأمم التي كانت عليك، أقبلت تبغي دين الله عوجاً وتنزع إلى اللآمة، والذِّلة، ولا يصنع ذلك قريش، ولن يضرَّهم ولن يمنعهم من تأدية ما عليهم، إنَّ الشَّيطان عنكم غير غافل، قد عرفكم بالشَّر من بين أمَّتكم، فأغرى النَّاس، وهو صارعكم، لقد علم: أنَّه لا يستطيع أن يردَّ بكم قضاء الله، ولا أمراً أراد الله، ولا تدركون بالشَّر أمراً إلا فتح الله عليكم شراً منه وأخزى، ثم قام وتركهم فتذامروا، فتقاصرت إليهم أنفسهم[3] وبذلك بذل معاوية كلَّ طاقاته الفكريَّة والثقافية والسياسية لإقناعهم:

- عرض لهم أولاً أمر قريش في الجاهلية والإسلام.

- تناول قبائل هؤلاء النّفر، ووضعها في الجاهلية، حيث كانت تعاني سوء المناخ، ونتن المنبت من الناحية الطبيعية، ثمّ الذلة والتبعية لفارس من الناحية السياسية، إلى أن أكرمها الله بالإسلام فعزت بعد ذلٍّ، وارتقت بعد هوانٍ.

- تناول معاوية رضي الله عنه صعصعة بن صوحان خطيب القوم، وكيف تلكَّأ عن تلبية نداء الرسالة، وقد دخل قومه بها، ثمّ عاد وانضم إلى الإسلام، ورفعه الإسلام ثانية بعد انحدار.

- كشف معاوية رضي الله عنه مخطّطات صعصعة وأصحابه، وكيف يبغون الفتنة، ويبغون دين الله عوجاً.

- وإن الشيطان هو وكر هذه الفتنة، ومحرّك هذا الشّر، وبذلك ربط تاريخ الأمة بالله، ثمّ الإسلام، والعقيدة ثمّ كشف عن زيف هؤلاء النّفر، وفضحهم عن آخرهم، وأبان عن مخطّطاتهم، وصلتها بدعوى الجاهلية[4].

٥ - جلسة أخرى:

ثمّ أتاهم القابلة فتحدَّث عنهم طويلاً، ثم قال: أيُّها القوم! ردُّوا عليَّ خيراً، أو اسكتوا، وتفكَّروا وانظروا فيما ينفعكم، وينفع أهليكم، وينفع عشائركم، وينفع جماعة المسلمين،

---

(1) النزاع : جمع نزيع وهو الغريب.
(2) الشطير : الغريب.
(3) تاريخ الطبري (5/ 326).
(4) معاوية بن أبي سفيان، للغضبان ص: 111.

فاطلبوه تعيشوا ونعش بكم، قال صعصعة: لست بأهل لذلك، ولاكرامه لك أن تطاع في معصية الله. فقال معاوية: أوليس ما ابتدأتكم به أن أمرتكم بتقوى الله وطاعته وطاعة نبيه ﷺ، وأن تعتصموا بحبله جميعاً ولا تفرقوا، قالوا: بل أمرت بالفرقة، وخلاف ما جاء به النَّبي ﷺ! قال: إنِّي آمركم الآن، إن كنت فعلت، فأتوب إلى الله، وآمركم بتقواه وطاعته، وطاعة نبيِّه ﷺ، ولزوم الجماعة، وكراهة الفرقة، وأن توقِّروا أئمتكم، وتدلُّوهم على كلِّ حسن ما قدرتم، وتعظوهم في لينٍ ولطف في شيءٍ إن كان معهم، قال صعصعة: فإنا نأمرك أن تعتزل عملك فإنَّ من المسلمين من هو أحقُّ به منك. قال معاوية: من هو؟ قالوا: من كان أبوه أحسن قِدَماً من أبيك، وهو بنفسه أحسن قِدَماً منك في الإسلام، قال معاوية: والله إن لي في الإسلام قِدَماً، ولغيري كان أحسن قِدماً منِّي، ولكنَّه ليس في زماني أحدٌ أقوى على ما أنا فيه منّي، ولقد رأى ذلك عمر بن الخطَّاب، فلو كان غيري أقوى منِّي، لم يكن لي عند عمر هوادة، ولا لغيري، ولم أحدث من الحدث ما ينبغي لي أن أعتزل عملي، ولو رأى ذلك أمير المؤمنين، وجماعة المسلمين، لكتب بخطِّ يده، فاعتزلت عمله، ولو قضي الله أن يفعل ذلك، لرجوت أن يعزم له على ذلك إلا هو خير. فمهلاً فإنَّ في ذلك وأشباهه ما يتمنَّى الشيطان ويأمر، ولعمري لو كانت الأمور تُقضى على رأيكم وأمانيِّكم ما استقامت الأمور لأهل الإسلام يوماً ولا ليلة، ولكنَّ الله يقضيها، ويدبِّرها وهو بالغ أمره، فعاوِدوا الخير، وقولوه. قالوا: لست لذلك أهلاً. قال معاوية: أما والله إنَّ لله سطوات ونقمات، وإنِّي لخائف عليكم أن تتابعوا في مطاوعة الشَّيطان حتَّى تُحِلكم مطاوعة الشَّيطان، ومعصية الرّحمٰن دار الهوان من نقم الله في عاجل الأمر، والخزي الدّائم في الأجل فوثبوا عليه، فأخذوا بلحيته، ورأسه، فقال: مه! إن هذه ليست بأرض الكوفة، والله لو رأى أهل الشّام ما صنعتم بي وأنا إمامهم ما ملكت أن أنهاهم عنكم حتى يقتلوكم، فلعمري إنَّ صنيعكم ليشبه بعضه بعضاً، ثم قام من عندهم: فقال: والله لا أدخل عليكم مدخلاً ما بقيت[1].

هذه المحاولة الأخيرة التي بذل فيها معاوية أمير الشَّام كلَّ جهده واستعمل حلمه وثقافته وأعصابه كي يثنيهم عن الفتنة، إنَّه يدعوهم إلى تقوى الله، وطاعته، والاستمساك بالجماعة، والابتعاد عن الفرقة، وإذ بهم يرفعون عقيرتهم قائلين: ليس لك أن تطاع في معصية الله[2]. وبحلمه الكبير وصدره الواسع عاد، فذكَّرهم بأنَّه لا يأمرهم إلا بطاعة الله، وعلى حدِّ زعمهم، فهو يتوب من المعصية إن وقعت، ثمَّ يعود لدعوتهم إلى الطَّاعة والجماعة، والابتعاد عن تفريق كلمة الأمَّة، ولو كان الوعظ يجدي معهم لأمكن أن تتأثَّر قلوبهم لهذه المعاملة وهذا اللُّطف، وهذا يوجِّههم إلى أن يستعملوا الأسلوب الهادئ في العظة، واللين في النُّصح،

(1) تاريخ الطبري (5/ 330، 331). (2) المصدر السابق نفسه (5/ 330).

فوجدنا المال رحباً أن يكشفوا في مكنون قلوبهم. فقالوا: فإنَّا نأمرك أن تعتزل عملك، فإنَّ في المسلمين من هو أحقُّ به منك، وانتبه معاوية انتباهاً مفاجئاً إلى ما يكنُّون، فأحبَّ أنَّ يتعرف جانباً غامضاً عليه لعلَّ في هذا التعرُّف ما يوصله إلى من يحرِّكهم، ويبثّ في ذهنهم الأراجيف المغرضة، ولكنَّهم أخفوا ما يكنُّون واكتفوا بالإشارة إلى أنَّهم يحبون أن يدع العمل لمن هو أفضل منه، ولمن أبوه أفضل من أبيه، ثم تحلَّم عليهم أكثر فأكثر رغم الأسلوب الفجِّ الذي سلكوه معه، وهم يأمرونه بأن يعتزل العمل. وهنا نجد لمعاوية جواباً مستفيضاً عن وجهة نظره في الحكم والإمارة والقيادة، وقد لخَّص معاوية إجابته في ستِّ نقاط أساسيَّة ومهمة:

- هي أنَّ له قِدْماً وسابقة في الإسلام، فهو حامي ثغر الشَّام منذ وفاة أخيه يزيد بن أبي سفيان ﷺ.

- أنَّ هناك في المسلمين من هو أفضل منه وأكرم وأحسن سابقة وأكثر بلاءً، وهو يرى أنَّه أقوى من يحمي هذا الثَّغر الإسلاميَّ العظيم ـ الشّام ـ فمنذ أن تولاه تمكن من ضبطه وسياسته، وفهم نفسيَّات أهله حتَّى أحبُّوه.

- إنَّ الميزان الحساس، والمعيار الدَّقيق الذي يقيِّم الولاة هو عمر بن الخطاب ﷺ، الذي لا تأخذه في الله لومة لائم، فلو وجد من معاوية شططاً أو انحرافاً عمل له طيلة خلافته، كما ولاه من قبل رسول الله ﷺ على بعض عمله، واستخدمه كاتباً بين يديه، وولاه أبو بكر الصِّدِّيق من بعده، ولم يطعن في كفاءته أحد.

- إنَّ اعتزال العمل يجب أن يستند لأسباب موجبة للاعتزال، فما هي الحجَّة التي يقدِّمها دعاة الفتنة ليتمَّ الاعتزال على أساسها؟

- إنَّ الذي يقرِّر العزل عن العمل، أو البقاء في الإمارة ليس هؤلاء الأدعياء، إنَّ ذلك من حقِّ أمير المؤمنين عثمان ﷺ وهو الذي له الحقُّ في تعيين الولاة وعزلهم.

- إنَّ أمير المؤمنين عثمان يوم يقرِّر عزل معاوية، فهو واثق أنَّ أمره خير كلُّه، ولا غضاضه في ذلك فهو أمير مأمور، وهو أمر خليفة المسلمين.[1] كان ختام الجلسة مؤسفاً أشدَّ الأسف، مؤلماً أشدَّ الألم، لقد حذَّرهم نقمة الله وغضبه، وحذَّرهم الانقياد إلى أهوائهم وغرورهم، فماذا كان منهم مقابل ذلك؟ وثبوا عليه وأخذوا برأسه ولحيته، وعندئذ زجرهم وقمعهم، ووجَّه لهم كلاماً قاسياً مبطَّناً بالتهديد، وعرف: أنَّ هؤلاء يستحيل أن ينصاعوا للحقِّ، فلا بدَّ من إبلاغ أمرهم لأمير المؤمنين عثمان ﷺ وكشف هويَّاتهم وخطرهم، ليرى فيهم أمير المؤمنين رأياً آخر[2].

---

(1) معاوية بن أبي سفيان، صحابي كبير، وملك مجاهد ص: 114 إلى 117.

(2) معاوية بن أبي سفيان، للغضبان ص: 117، 118.

كتاب معاوية إلى عثمان ﷺ بشأن أهل الفتنة من الكوفة:

كتب معاوية إلى عثمان ﷺ قائلاً: بسم الله الرحمٰن الرحيم لعبد الله عثمان أمير المؤمنين من معاوية بن أبي سفيان، أما بعد يا أمير المؤمنين، فإنك بعثت إليَّ أقواماً يتكلمون بألسنة الشياطين وما يُملون عليهم، ويأتون النَّاس ـ زعموا ـ من قِبَل القرآن فيشبهون على الناس، ، وليس كل النَّاس يعلم ما يريدون، وإنما يريدون فرقة ويقربون فتنة، قد أثقلهم الإسلام وأضجرهم، وتمكنت رُقَي الشيطان من قلوبهم، فقد أفسدوا كثيراً من النَّاس ممن كانوا بين ظهرانيهم من أهل الكوفة، ولست آمن إن أقاموا وسط أهل الشام أن يغروهم بسحرهم وفجورهم فارددهم إلى مصرهم، فلتكن دارهم في مصرهم الذي نجا فيه نفاقهم[1]، فكتب عثمان إلى سعيد بن العاص بالكوفة، فردّهم إليه، فلم يكونوا إلا أطلق ألسنة منهم حين رجعوا، وكتب سعيد إلى عثمان يضجّ منهم، فكتب عثمان إلى سعيد أن سيِّرهم إلى عبد الرحمٰن بن خالد بن الوليد، وكان أميراً على حمص[2]، فلما وصلوا إلى عبد الرحمٰن بن خالد ابن الوليد، استدعاهم، وكلَّمهم كلاماً شديداً، وكان ممَّا قاله لهم: يا آلة الشيطان ألا مرحباً بكم، ولا أهلاً، لقد رجع الشيطان محسوراً خائباً، وأنتم مازلتم نشيطون في الباطل، خَسَّرَ الله عبد الرحمٰن إن لم يؤدِّبكم ويخزِكم! يا معشر من لا أدري من أنتم أعرب، أم عجمٌ؟ لن تقولوا لي كما كنتم تقولون لسعيد ومعاوية، أنا ابن خالد بن الوليد، أنا ابن من قد عَجمته العاجمات، أنا ابن فاقىء الرِّدَّة، والله لأذلنَّكم! وأقامهم عبد الرحمٰن بن خالد عنده شهراً كاملاً، وعاملهم بمنتهى الحزم والشِّدَّة، ولم يَلِن معهم كما لان سعيد ومعاوية، وكان إذا مشى مشوا معه، وإذا ركب ركبوا معه، وإذا غزا غزوا معه، وكان لا يدع مناسبة إلا ويذلهم فيها، وكان إذا قابل زعيمهم صعصعة بن صوحان يقول له: يا بن الخطيئة! هل تعلم أنَّ من لم يصلحه الخير أصلحه الشَّرُّ، وأن من لم يصلحه اللِّين أصلحته الشدَّة؟ وكان يقول لهم: لماذا لا تردُّون عليَّ، كما كنتم تردُّون على سعيد في الكوفة، وعلى معاوية بالشام؟ لماذا لا تخاطبوني، كما كنتم تخاطبوهما؟ ونفع معهم أسلوب عبد الرَّحمٰن بن خالد، وأخرسهم حزمه، وشدَّته، وقسوته، وأظهروا له التَّوبة والنَّدم، وقالوا له: نتوب إلى الله، ونستغفره أقِلْنَا أقالك الله وسامحنا سامحك الله. بقي القوم في الجزيرة عند عبد الرَّحمٰن بن خالد، وأرسل عبد الرّحمٰن أحد زعمائهم وهو الأشتر النَّخعي إلى عثمان ليخبره بتوبتهم وصلاحهم، وتراجعهم عمَّا كانوا عليه من الفتنة، فقال عثمان للأشتر: احللُ أنت ومن معك حيث شئتم، فقد عفوت عنكم. قال الأشتر: نريد أن نبقى عند عبد الرَّحمٰن في الجزيرة مدّةً، أظهروا فيها

---

(1) تاريخ الطبري (5/ 331).

(2) تاريخ الطبري (5/ 331).

التّوبة، والاستقامة والصَّلاح[1]، وسكت أصحاب الفتنة في الكوفة إلى حين، وكان هذا في شهور سنة ثلاثة وثلاثين، بعدما تمَّ نفي رؤوس الفتنة إلى معاوية في الشَّام، ثمَّ إلى عبد الرّحمٰن ابن خالد، فرأى أصحاب الفتنة في الكوفة أنَّ المصلحة تقتضي أن يسكتوا إلى حين[2]. إلا أن بقية دعاة الفتنة كانوا يشتغلون في البصرة، ومصر، وغيرها وفي سنة أربع وثلاثين ـ السنة الحادية عشرة من خلافة عثمان ـ أحكم عبد الله بن سبأ خطته، ورسم مؤامرته، ورتب مع جماعته السَّبئيِّين الخروج على الخليفة وولاته، فقد اتَّصل ابن سبأ اليهودي من وكر مؤامراته في مصر بالشَّياطين من حربه في البصرة، والكوفة، والمدينة، واتفق معهم على تفاصيل الخروج، وكاتبهم وكاتبوه، وراسلهم وراسلوه وكان ممَّن كاتبهم وراسلهم السَّبئيُّون في الكوفة، وقد كانوا بضعة عشر رجلاً منهم منفيين في الشَّام، ثمَّ في الجزيرة عند عبد الرَّحمن ابن خالد بن الوليد، وبعد نفي أولئك الخارجين، كان زعيم السَّبئيِّين الحاقدين في الكوفة يزيد ابن قيس[3]. وقد خلت الكوفة في سنة أربع وثلاثين من وجوهها وأشرافها، لأنَّهم توجَّهوا للجهاد في سبيل الله، ولم يبق إلا الرُّعاع، والغوغاء الذين أثر فيهم السَّبئيُون والمنحرفون، وشحنوهم بأفكارهم الخبيثة، وهيَّجوهم ضدَّ والي عثمان إلى الكوفة سعيد بن العاص رضي الله عنه [4] واستطاع القعقاع بن عمرو التميميُّ أمير الحرب بالكوفة أن يقضي على التحرك الأوّل بقيادة يزيد بن قيس، ولما رأى يزيد شدة القعقاع ويقظته وبصيرته، لم يجاهره بهدفهم وخطتهم في الخروج على الخليفة عثمان وخلعه، وأظهر له كل ما يريده هو وجماعته عزل الوالي سعيد بن العاص، والمطالبة بوالٍ آخر مكانه، فاستُجيب لطلبهم، ولذلك أطلق القعقاع سراح الجماعة، لما سمع كلام يزيد، قال يزيد: لا تجلس لهذا الهدف في المسجد، ولا يجتمع عليك أحد، واجلس في بيتك واطلب ما تريد من الخليفة، وسيحقِّق لك ذلك بإذن[5] الله، واستمر يزيد بن قيس في إشعال الفتنة، واضطر إلى تعديل خطّته في الخروج وبعد كيد ومكر وتدبير من أتباع السبئيِّن، قرّر الغوغاء والرُّعاع بقيادة يزيد بن قيس منع سعيد بن العاص من دخول الكوفة وكان سعيد بالمدينة[6].

ولمّا خرج السبئُون، والغوغاء طلباً للفتنة، والتمُّرد، وإحداث القلاقل بقي في المسجد وجوه المسلمين، وأشرافهم، وحلماؤهم، فصعد المنبر نائب الوالي عمرو بن حُريث وطالب المسلمين بالأخوَّة والوحدة، ونهاهم عن التفرُّق والاختلاف والفتنة والخروج، ودعاهم إلى عدم الاستجابة للخارجين والمتمرِّدين[7]، قال القعقاع بن عمرو التميمي: أتردُّ السَّيل عن

---

(1) تاريخ الطبري (5/ 327).
(2) الخلفاء الراشدون، للخالدي ص: 134.
(3) الخلفاء الراشدون، للخالدي ص: 135.
(4) الخلفاء الراشدون، ص: 135.
(5) تاريخ الطَّبري (5/ 337).
(6) المصدر نفسه (5/ 338).
(7) الخلفاء الرَّاشدون، للخالدي ص: 139.

عبابه، فاردد الفرات عن أدراجه، هيهات لا والله لا تُسكِّن الغوغاء إلا المشرفيَّة[1]، ويوشك أن تُنتضى، ثمَّ يعجُّون عجيج العتدان[2]، ويتمنون ما هم فيه، فلا يردهم عليهم أبداً، فاصبر، فقال: أصبر، وتحوَّل إلى منزله[3]. واستطاع أهل الفتنة أن يمنعوا سعيد بن العاص من دخول الكوفة ورجع إلى المدينة، وكان من رأيه: أن من الحكمة عدم مواجهتهم، وعدم تأجيج نار الفتنة، بل محاولة إخمادها، أو تأجيل اشتعالها على الأقل، وبعد رجوعه إلى المدينة أخبر سعيد عثمان بما حصل. قال له عثمان: ماذا يريدون؟ هل خلعوا يداً من طاعة؟ وهل خرجوا على الخليفة وأعلنوا عدم طاعتهم له؟ قال له سعيد: لا لقد أظهروا أنَّهم لا يريدونني والياً عليهم، ويريدون والياً آخر مكاني. قال له عثمان: من يريدون والياً؟ قال سعيد بن العاص: يريدون أبا موسى الأشعريَّ، قال عثمان: قد عيَّنا، وأثبتنا أبا موسى والياً عليهم، ووالله لن نجعل لأحد عُذراً ولن نترك لأحدٍ حجة، ولنصبرنَّ عليهم كما هو مطلوب منَّا، حتى نعرف حقيقة ما يريدون، وكتب عثمان إلى أبي موسى بتعيينه والياً على الكوفة[4]، وكان أبو موسى رضي الله عنه يقوم بتهدئة الأمور، وينهي النَّاس عن العصيان. وقال لهم: أيها الناس لا تخرجوا في هذه المخالفة، ولا تعودوا لمثل هذا العصيان، والزموا جماعتكم والطاعة، وإياكم والعجلة، اصبروا، فكأنَّكم بأمير[5]. فقالوا: فصلِّ بنا، قال: لا، إلا على السمع والطاعة لعثمان بن عفان، قالوا: على السَّمع والطاعة لعثمان[6]. وما كانوا صادقين في ذلك، لكنَّهم كانوا يخفون أهدافهم الحقيقيَّة عن الآخرين وكان أبو موسى يصليّ بالنَّاس إلى أن جاءه كتاب عثمان بتعيينه والياً على الكوفة، وكتب عثمان بن عفان إلى الخارجين من أهل الكوفة: أما بعد فقد أمَّرت عليكم من اخترتم، وأعفيتكم من سعيد، والله لأفرشنَّ لكم عِرضي، ولأبذُلنَّ لكم صبري، ولأستصلحنَّكم بجهدي، واسألوني كلَّ ما أحببتم، ممَّا لا يعصي الله فيه، فسأعطيه لكم، ولا شيئاً كرهتموه لا يُعصى الله فيه إلا استعفيتم منه، أنزل فيه عندما أحببتم، حتَّى لا يكون لكم عليّ حجّة، وكتب بمثل ذلك إلى الأمصار[7]، رضي الله عن أمير المؤمنين عثمان، ما كان أصلحه وأوسع صدره وكم ظلمه السَّبئيُّون والخارجون الحاقدون، واختلفوا عليه.

مشورة عثمان لولاة الأمصار وراي معاوية في ذلك:

واجه عثمان بن عفان الفتنة بوسائل وأساليب متنوعة منها: إرسال لجان تفتيش وتحقيق إلى الولايات، ومحاولة معرفة أغراض أهل الفتنة واستطاع أن يخترق صفوفهم، وأقام الحجة

(1) نوع من السيوف.
(2) تنتضى: أخرج السيف من غمده. العتدان: قيل الحولي من أولاد الماعز.
(3) تاريخ الطبري (5/ 338).
(4) تاريخ الطبري (5/ 339).
(5) أي: يأتيكم من قبل أمير المؤمنين عثمان.
(6) تاريخ الطبري (5/ 339).
(7) المصدر نفسه (5/ 343).

على الغوغاء والمتمردين بالحوار والنقاش، والاستجابة لبعض مطالبهم، وقد فصلت الحديث عن سياسة عثمان في التعامل مع الفتنة في كتابي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه ومن الأساليب التي اتخذها عثمان رضي الله عنه مشورته لولاة الأمصار حيث بعث إلى هؤلاة الولاة واستدعاهم على عجلٍ وكانوا: عبد الله بن عامر، ومعاوية بن أبي سفيان، وعبد الله بن سعد، وأدخل معهم في المشورة سعيد بن العاص، وعمرو بن العاص ـ وهم من الولاة السابقين - وكانت جلسة مغلقة وخطيرة، وقال فيه كل المشاركين برأيه وكان رأي معاوية: أشير عليك أن تأمر أمراء الأجناد فيكفيك كل رجل منهم ما قبله، وأكفيك أنا أهل الشام[1].

وبعد أن سمع عثمان من المشاركين اقتراحاتهم قام فحمد الله، وأثنى عليه، وقال: كل ما أشرتم به عليَّ قد سمعت، ولكلِّ أمر باب يؤتى منه، إنَّ هذا الأمر الذي يخاف على هذه الأمَّة كائن وإن بابه الذي يغلق عليه، فيُكفكف به اللِّين، والمؤاتاة والمتابعة، إلا في حدود الله تعالى ذكره، التي لا يستطيع أحد أن يبادي بعيب أحدها، فإن سدَّه شيء فرفق، فذاك والله ليُفتحنَّ، وليست لأحد عليَّ حجة حقٍّ، وقد علم الله إنِّي لم آل الناس خيراً، ولا نفسي. والله إنَّ رحا الفتنة لدائرة فطوبى لعثمان إن مات ولم يحرِّكها، كفكفوا النَّاس، وهبوا لهم حقوقهم، واغفروا لهم، وإذا تعوطيت حقوق الله، فلا تُدهنوا فيها[2]، منع عثمان رضي الله عنه الولاة من التَّنكيل بمثيري الشَّغب، وحبسهم، أو قتلهم، وقرَّر أن يعاملهم بالحسنى واللِّين[3]، وطالب من عماله أن يعودوا إلى أعمالهم، وفق ما أعلنه لهم من أسلوب مواجهة الفتنة التي كان كلُّ بصير يرى أنَّها قادمة[4]، وقبل أن يتوجه معاوية بن أبي سفيان إلى الشَّام أتى عثمان وقال له: يا أمير المؤمنين انطلق معي إلى الشَّام، قبل أن يهجم عليك من الأمور والأحداث ما لا قِبَل لك بها. قال عثمان: أنا لا أبيع جوار رسول الله ﷺ بشيء، ولو كان فيه قطع خيط عنقي. قال له معاوية: إذاً أبعث لك جيشاً من الشَّام، يقيم في المدينة، لمواجهة الأخطار المتوقعة، ليدافع عنك، وعن أهل المدينة، قال عثمان: لا حتى لا أقتِّر على جيران رسول الله ﷺ الأرزاق بجند تساكنهم، ولا أضيِّق على أهل الهجرة والنُّصرة. قال له معاوية: يا أمير المؤمنين، والله لتُغتلنَّ، أو لتُغزينَّ. قال عثمان: حسبي الله ونعم الوكيل[5]. ولقد حدث كل ما توقعه معاوية، فجاءت جموع أهل الفتنة لتحاصر عثمان رضي الله عنه وتغتاله في النهاية. وحين جاء هؤلاء الثوار من مختلف الأقاليم لا نجد من بينهم جماعة من أهل الشام[6]، من كل ما سبق نجد أننا أمام والٍ كبير يشق طريقه بجدارة من بين الولاة إلى ما هو أبعد من الولاية فقد استطاع أن يجعل من

(1) الكامل (2/ 278) تاريخ الطبري (5/ 351).
(2) تاريخ الطبري (5/ 351).
(3) خلافة عثمان، د. السلمي ص: 77.
(4) الخلفاء الراشدون، للخالدي ص: 151.
(5) تاريخ الطبري (5/ 353).
(6) عبد الله بن سبأ، للعودة ص: 152، أثر العلماء في الحياة.

إقليم الشام الإقليم المهيأ لقيادة بقية الأقاليم في الدولة الإسلامية بما عمق فيه من حسن الطاعة للقيادة، وبما ثبت فيه من دعائم الاستقرار، وقطعه لأسباب الفتنة وعوامل الفرقة فيه، وهذا ما لا نجده في غيره من الأقاليم[1].

مقتل عثمان رضي الله عنه وموقف الصحابة من ذلك:

اشتد الحصار على عثمان رضي الله عنه، حتى منع من أن يحضر للصَّلاة في المسجد، وكان صابراً على هذه البلوى التي أصابته كما أمره رسول الله ﷺ بذلك، وكان مع إيمانه القوي بالقضاء والقدر، يحاول أن يجد حلاً لهذه المصيبة، فنراه تارة يخطب الناس عن حرمة دم المسلم وإنه لا يحل سفكه إلا بحقه، وتارة يتحدث في الناس ويظهر فضائله وخدماته الجليلة في الإسلام ويستشهد على ذلك ببقية العشرة رضوان الله عليهم[2]، وكأنه يقول من هذا: هل من الممكن أن يطمع بالدنيا ويقدمها على الآخرة؟ وهل يعقل يخون الأمانة ويعبث بأموال الأمة ودمائها وهو يعرف عاقبة ذلك عند الله، وهو الذي تربى على عين النبي ﷺ والذي شهد له وزكاه وكذلك أفاضل الصحابة، ومتى؟ بعد ما تجاوز السبعين وقارب الثمانين من عمره أهكذا تكون معاملته؟ واشتدت سيطرة المتمردون على المدينة حتى أنهم ليصلون بالناس في أغلب الأوقات[3]، وحينها أدرك الصحابة أن الأمر ليس كما حسبوا، وخشوا من حدوث ما لا يحمد عقباه، وقد بلغهم أن القوم يريدون قتله، فعرضوا عليه أن يدافعوا عنه، ويخرجوا الغوغاء عن المدينة إلا أنه رفض أن يراق دم بسببه[4]، وأرسل كبار الصحابة أبناءهم دون استشارة عثمان رضي الله عنه، ومن هؤلاء الحسن بن علي رضي الله عنهما، وعبد الله بن الزبير، فقد كان عثمان يحب الحسن ويكرمه، فعندما وقعت الفتنة وحوصر عثمان رضي الله عنه أقسم على الحسن رضي الله عنه بالرجوع إلى منزله وذلك خشية عليه أن يصاب بمكروه[5]، وقد قال عثمان للحسن رضي الله عنهما: ارجع ابن أخي حتى يأتي الله بأمره[6]، وقد صحت روايات أن الحسن حمل جريحاً من الدار يوم الدار[7]، كما جرح غير الحسن، عبد الله بن الزبير، ومحمد بن حاطب، ومروان بن الحكم، كما كان معهم الحسين بن علي، وابن عمر رضي الله عنهم[8]، وقد كان

---

(1) أثر العلماء في الحياة السياسية ص: 76.
(2) خلافة علي بن أبي طالب، عبد الحميد علي ص: 85.
(3) سير أعلام النبلاء (3/ 515).
(4) فتنة مقتل عثمان (1/ 167) صحيح الإسناد.
(5) تاريخ المدينة لابن شبه (4/ 1208).
(6) الرياض النضرة، نقلاً عن الحسن بن علي ودوره السياسي ص: 46.
(7) الطبقات لابن سعد (8/ 128) بسند صحيح.
(8) تاريخ خليفة ص: 174.

علي ﷺ من أدفع الناس عن عثمان ﷺ ، وشهد له بذلك مروان بن الحكم[1]، كما أخرج ابن عساكر عن جابر بن عبد الله ﷺ ، إن علياً أرسل إلى عثمان فقال: إن معي خمسمائة دارع، فاذن لي فأمنعك من القوم، فإنك لم تحدث شيئاً يستحل به دمك، فقال: جزيت خيراً، ما أحب أن يهراق دم في سببي[2]، وقد وردت روايات عديدة تفيد وقوفه بجانب عثمان ﷺ أثناء الحصار فمن ذلك: أن الثائرين منعوا عن عثمان الماء حتى كاد أهله أن يموتوا عطشاً، فأرسل علي ﷺ إليه بثلاث قرب مملوءة ماء فما كادت تصل إليه، وجرح بسببها عدة من موالي بني هاشم وبني أمية حتى وصلت، ولقد تسارعت الأحداث فوثب الغوغاء على عثمان فقتلوه ﷺ ، ووصل الخبر إلى الصحابة وأكثرهم في المسجد، فذهبت عقولهم، وقال علي لأبنائه وأبناء أخيه: كيف قتل عثمان وأنتم على الباب؟ ولطم الحسن، وكان قد جرح[3]، وضرب صدر الحسين وشتم ابن الزبير وابن طلحة، وخرج غضبان إلى منزله وهو يقول: تباً لكم سائر الدهر، اللهم أني أبرأ إليكم من دمه أن يكون قتلت أو مالأت على قتله[4]، وهكذا كان موقف علي ﷺ ، نصح وشورى سمع وطاعة، ووقفة قوية بجانبه أثناء الفتنة، ومن أدفع الناس عنه، ولم يذكره بسوء قط، يحاول الإصلاح وسد الخرق بين الخليفة والخارجين عليه لكن الأمر فوق طاقته وخارج إرادته، إنها إرادة الله ﷻ أن يفوز أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ بالشهادة[5]. . . . ويبوء المفسدين بالإثم. إن أمير المؤمنين علي ﷺ أنكر قتل عثمان، وتبرأ من دمه، وكان يقسم على ذلك في خطبه، وغيرها: إنه لم يقتله ولم يأمر بقتله ولا مالأ عليه ولا رضي، وقد ثبت ذلك عنه بطرق تفيد القطع[6]، خلافاً لما تزعمه الشيعة الرافضة من أنه كان راضياً بقتل عثمان ﷺ [7]، وقال الحاكم بعد ذكر بعض الأخبار الواردة في مقتله ﷺ : فأما الذي ادعته المبتدعة من معونة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ ، فإنه كذب وزور، فقد تواترت الأخبار بخلافه[8]. وقال ابن تيمية: وهذا كله كذب على علي ﷺ وافتراء عليه، فعلي ﷺ لم يشارك في دم عثمان ﷺ ، ولا أمر ولا رضي، وقد

---

(1) تاريخ الإسلام ص: 460 - 461 إسناده قوي.
(2) تاريخ دمشق ص: 403.
(3) ابن أبي عاصم الآحاد والثماني (1/ 125) نقلاً عن خلافة علي ص: 87.
(4) مصنف ابن أبي شيبة (15/ 209) إسناده صحيح.
(5) مصنف ابن أبي شيبة (15/ 209) إسناده صحيح.
(6) البداية والنهاية (7/ 202).
(7) العقيدة في أهل البيت بين الإفراط والتفريط ص: 129.
(8) المستدرك (3/ 103).

روي عنه ذلك وهو الصادق البار[1]، وقد قال علي ﷺ : اللهم أني أبرأ إليك من دم عثمان[2]. وقد شوّهت بعض كتب التاريخ مواقف الصحابة من فتنة مقتل عثمان، وذلك بسبب الروايات الضعيفة والموضوعة التي ذكرها كثير من المؤرخين، والمتتبع لأحداث الفتنة في تاريخ الإمام الطبري، وكتب التاريخ الأخرى من خلال روايات أبي مخنف، والواقدي، وابن أعثم، وغيرها من الأخبار حبكت بطريقة ذات ميول عدائية للتاريخ الصحيح، ويشعر أن الصحابة هم الذين كانوا يحركون المؤامرة ويثيرون الفتنة، فأبي مخنف ذو الميول الشيعية لا يتورع في اتهام عثمان بأنه الخليفة الذي كثرت سقطاته، فاستحق ما استحق، ويظهر طلحة في مروياته كواحد من الثائرين على عثمان، والمؤلبين ضده، ولا تختلف روايات الواقدي عن روايات أبي مخنف، وقد كثرت الروايات الشيعية التي تتهم الصحابة بالتآمر ضد عثمان ﷺ وأنهم هم الذين حركوا الفتنة وأثاروا الناس، وهذا كله كذب وزور[3]، وخلافاً للروايات الموضوعة والضعيفة فقد حفظت لنا كتب المحدثين بحمد الله، الروايات الصحيحة التي يظهر فيها الصحابة من المؤازرين لعثمان والمنافحين عنه والمتبرأين من قتله[4]، والمطالبين بدمه بعد مقتله، وبذلك يستبعد أي اشتراك لهم في تحريك الفتنة أو إثارتها[5].

إن الصحابة جميعاً ﷺ أبرياء من دم عثمان ﷺ . ومن قال خلاف ذلك فكلامه باطل ولا يستطيع أن يقيم عليه أي دليل ينهض إلى مرتبة الصحة، ولذلك أخرج خليفة في تاريخه عن عبد الأعلى بن الهيثم عن أبيه، قال: قلت للحسن: أكان فيمن قتل عثمان أحد من المهاجرين والأنصار؟ قال: لا ، كانوا أعلاجاً[6] من أهل مصر. وقال الإمام النَّووي: ولم يشارك في قتله أحد من الصحابة، وإنما قتله همج، ورعاع من غوغاء القبائل سفلة الأطراف والأراذل، تحزّبوا، وقصدوه من مصر، فعجز الصحابة الحاضرون عن دفعهم، فحضروه حتّى قتل ﷺ [7]، وقد وصفهم الزبير ﷺ بأنهم غوغاء من الأمصار، ووصفتهم السيدة عائشة بأنّهم نزّاع القبائل[8]، ووصفهم ابن تيمية بأنهم خوارج مفسدون ضالون، باغون

---

(1) منهاج السنة (4/ 406).
(2) العقيدة في أهل البيت بين الإفراط والتفريط ص: 229، الطبقات (3/ 3) إسناده حسن.
(3) تحقيق مواقف الصحابة (20/ 14 إلى 18).
(4) خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن علي للصَّلَّابيّ ص: 122.
(5) تحقيق مواقف الصحابة (20/ 14 إلى 18).
(6) العلج : كل جاف شديد من الرِّجال، عثمان بن عفان للصَّلاَّبيّ، ص: 450.
(7) شهيد الدار عثمان بن عفان ص: 148.
(8) شرح النووي على صحيح مسلم (15/ 148).

معتدون[1]، ووصفهم الذهبيُّ بأنهم رؤوس شرٍّ وجفاء[2]، ووصفهم ابن العماد الحنبلي في الشذرات بأنَّهم أراذل من أوباش القبائل[3]، ويشهد على هذا الوصف تصرُّف هؤلاء الرُّعاع منذ الحصار إلى قتل الخليفة ﷺ ظلماً وعدواناً، فكيف يمنع الماء عنه والطعام وهو الذي طالما دفع من ماله الخاص ما يروي ظمأ المسلمين بالمجّان[4]، والذي يساهم بأموال كثيرة عندما يلمُّ النَّاس مجاعة، أو مكروه وهو الدائم العطاء عندما يصيب النَّاس ضائقة، أو شدَّة من الشدائد[5]، حتى أن علياً ﷺ يصف هذا الحال، وهو يؤنب المحاصرين بقوله: يا أيها الناس، إن الذي تفعلونه لا يشبه أمر المؤمنين، ولا أمر الكافرين، فلا تمنعوا عن هذا الرّجل الماء، ولا المادة ـ الطعام ـ فإنّ الروم وفارس لتأسر وتطعم وتسقي[6]، لقد صحَّت الأخبار وأكّدت حوادث التاريخ على براءة الصَّحابة من التَّحريض على عثمان أو المشاركة في الفتنة ضدّه[7]، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى كتابي سيرة عثمان بن عفان[8].

المبحث الثالث

معاوية بن أبي سفيان في عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ

كان معاوية ﷺ والياً على الشام في عهدي عمر وعثمان ﷺ، ولما تولى علي ﷺ الخلافة أراد عزله ـ ويبدو أن هناك ضغوط على علي ﷺ من قبل الغوغاء لكي يعزل معاوية، وخصوصاً أن الغوغاء يعرفون معاوية جيداً، والذي جعلني أقول ذلك أن العلاقة بين علي ومعاوية قبل خلافة علي، لا يوجد ما يشوبها، بل كانت جيدة، كما أن الغوغاء فيما بعد ضغطوا على أمير المؤمنين علي في عزل قيس بن سعد من مصر ونجحوا في ذلك وترتب على ذلك ضياع مصر، وقد فصلت ذلك في كتابي سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، هذا وقد اختار أمير المؤمنين علي بدلاً من معاوية عبد الله بن عمر فأبى عليه عبد الله قبول ولاية الشام

(1) منهاج السنة (2/ 189 - 206).
(2) دول الإسلام، للذهبي (1/ 12).
(3) تحقيق مواقف الصحابة (1/ 482) شذرات الذهب (1/ 40).
(4) تيسير الكريم المنان في سيرة عثمان بن عفان ص: 450.
(5) التمهيد والبيان ص: 424.
(6) تاريخ الطبري (5/ 400).
(7) تحقيق مواقف الصحابة (2/ 8).
(8) عثمان بن عفان، للصَّلاَّبيّ ص: 451 إلى 466.

واعتذر في ذلك، وذكر له القرابة والمصاهرة التي بينهما[1]، ولم يلزمه أمير المؤمنين علي وقبل منه طلبه بعدم الذهاب إلى الشام، وأما الروايات التي تزعم أن علياً قام بالتهجم على عبد الله بن عمر رضي الله عنه، لاعتزاله وعدم وقوفه إلى جانبه، ففي ذلك الخبر تحريف وكذب[2]، وأقصى ما وصل إليه الأمر في قضية عبد الله بن عمر وولاية الشام ما رواه الذهبي من طريق سفيان بن عيينة: عن ابن نافع عن أبيه عن ابن عمر قال: بعث إليَّ علي فقال: يا أبا عبد الرحمن إنك رجل مطاع في أهل الشام، فسر فقد أمرتك عليهم، فقلت: أذكرك الله وقرابتي من رسول الله ﷺ، وصحبتي إياه، إلا ما أعفيتني، فأبى علي، فاستعنت بحفصة فأبى، فخرجت ليلاً إلى مكة[3]، وهذا دليل قاطع على مبايعة ابن عمر، ودخوله في الطاعة، إذ كيف يوليه علي وهو لم يبايع، وفي الاستيعاب لابن عبد البر من طريق أبي بكر بن أبي الجهم عن ابن عمر أنه قال حين احتضر: ما آسى على شيء إلا تركي قتال الفئة الباغية مع علي رضي الله عنه [4]، وهذا مما يدل أيضاً على مبايعته لعلي، وإنه إنما ندم على عدم خروجه مع علي للقتال، فإنه كان ممن اعتزل الفتنة، فلم يقاتل مع أحد، ولو كان قد ترك البيعة، لكان ندمه على ذلك أكبر وأعظم ولصرح به، فإن لزوم البيعة والدخول فيما داخل الناس فيه واجب، والتخلف عنه متوعد عليه برواية ابن عمر نفسه أن النبي ﷺ قال: **«من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة الجاهلية»**[5]. وهذا بخلاف الخروج للقتال مع علي، فإنه مختلف فيه بين الصحابة، وقد اعتزله بعض الصحابة، فكيف يتصور أن يندم ابن عمر على ترك هذا القتال، ولا يندم على ترك البيعة لو كان تاركاً لها، مع ما فيه من الوعيد الشديد، وبهذا يظهر بطلان قول بعض المؤرخين في زعمهم من ترك ابن عمر البيعة لعلي رضي الله عنه، حيث ثبت أنه كان من المبايعين له بل من المقربين منه، الذين كان يحرص على توليتهم، والاستعانة بهم، لما رأى فيه من صدق الولاء والنصح له[6]، وبعد اعتذار ابن عمر من قبول ولاية الشام، أرسل أمير المؤمنين علي سهيل بن حنيف بدلاً منه، إلا أنه ما كاد يصل مشارف الشام حتى أخذته خيل معاوية وقالوا له: إن كان بعثك عثمان فحي هلا بك، وإن كان بعثك غيره فارجع[7]، وكانت بلاد الشام تغلي غضباً على مقتل عثمان ظلماً وعدواناً.

أولاً: اختلاف الصحابة في الطريقة التي يؤخذ بها القصاص من قتلة عثمان:

إن الخلاف الذي نشأ بين أمير المؤمنين علي من جهة، وبين طلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهم

(1) المصنف لابن أبي شيبة (7/ 472) إسناده صحيح.
(2) استشهاد عثمان ووقعة الجمل ص: 160.
(3) سير أعلام النبلاء (3/ 224) رجاله ثقات.
(4) الاستيعاب (6/ 326) بحاشية كتاب الإصابة.
(5) مسلم، كتاب الإمارة رقم 1851.
(6) الانتصار للصحب والآل ص: 507.
(7) تهذيب تاريخ دمشق (4/ 39) خلافة علي، لعبد الحميد ص: 110.

من جهة أخرى، ثم بعد ذلك بين علي ومعاوية ﷺ لم يكن سببه ومنشؤه أن هؤلاء كانوا يقدحون في خلافة أمير المؤمنين علي وإمامته، وأحقيته بالخلافة والولاية على المسلمين، فقد كان هذا محل إجماع بينهم، قال ابن حزم: ولم ينكر معاوية قط فضل عليّ واستحقاقه الخلافة، ولكنَّ اجتهاده أدّاه إلى أن رأى تقديم أخذ القود من قتلة عثمان ﷺ على البيعة، ورأى نفسه أحق بطلب دم عثمان[1].

وقال ابن تيمية: ومعاوية لم يدّع الخلافة، ولم يبايع له بها حين قاتل علياً، ولم يقاتل على أنه خليفة، ولا أنه يستحق الخلافة، ويقرون له بذلك، وقد كان معاوية يقر بذلك لمن سأله عنه، ولم يكن معاوية وأصحابه يرون أن يبتدئوا علياً وأصحابه بالقتال، ولا فعلوا[2]، وقال أيضاً: وكل فرقة من المتشيعين مقرّة مع ذلك بأنه ليس معاوية كفؤاً لعلي بالخلافة، ولا يكون خليفة مع إمكان استخلاف علي، فإن فضل علي وسابقته وعلمه ودينه وشجاعته، وسائر فضائله كانت عندهم ظاهرة معلومة، كفضل إخوانه أبي بكر وعمر وعثمان ﷺ [3].

إن منشأ الخلاف لم يكن قدحاً في خلافة أمير المؤمنين علي ﷺ وإنما اختلافهم في قضية الاقتصاص من قتلة عثمان، ولم يكن خلافهم في أصل المسألة، وإنما في الطريقة التي تعالج بها هذه القضية، إذ كان أمير المؤمنين علي ﷺ موافقاً من حيث المبدأ على وجوب الاقتصاص من قتلة عثمان، وإنما كان رأيه أن يرجيء الاقتصاص من هؤلاء إلى حين استقرار الأوضاع وهدوء الأمور واجتماع الكلمة وهذا هو الصواب[4]، قال النووي: واعلم أن سبب تلك الحروب أن القضايا كانت مشتبهة، فلشدة اشتباهها اختلف اجتهادهم وصاروا ثلاثة أقسام: قسم ظهر لهم بالاجتهاد أن الحق في هذا الطرف، وأن مخالفه باغ، فوجب عليهم نصرته، وقتال الباغي عليه فيما اعتقدوه ففعلوا ذلك، ولم يكن يحل لمن هذه صفته التأخر عن مساعدة إمام العدل في قتال البغاة في اعتقاده، وقسم عكس هؤلاء: ظهر لهم بالاجتهاد أن الحق في الطرف الآخر، فوجب عليهم مساعدتهم وقتال الباغي عليه، وقسم ثالث: اشتبهت عليهم القضية، وتحيروا فيها، ولم يظهر لهم ترجيح أحد الطرفين فاعتزلوا الفريقين، وكان هذا الاعتزال هو الواجب في حقهم، لأنه لا يحل الإقدام على قتال مسلم حتى يظهر أنه مستحق لذلك، ولو ظهر لهؤلاء رجحان أحد الطرفين، وأن الحق معه، لما جاز لهم التأخر عن نصرته في قتال البغاة عليه[5].

---

(1) الفصل في الملل والأهواء والنحل (4/ 160).

(2) مجموع الفتاوى (35/ 72).

(3) المصدر نفسه.

(4) أحداث وأحاديث فتنة الهرج ص: 158.

(5) شرح النووي على صحيح مسلم (15/ 149).

ثانياً معركة صفين: ٣٧هـ

تسلسل الأحداث التي قبل المعركة:

1 - أم حبيبة بنت أبي سفيان، ترسل النعمان بن بشير بقميص عثمان إلى معاوية وأهل الشام:

لما قُتل عثمان ﷺ : أرسلت أم المؤمنين، أم حبيبة بنت أبي سفيان إلى أهل عثمان: أرسلوا إليّ بثياب عثمان التي قُتل فيها، فبعثوا إليها بقميصه مضرّجاً بالدم، وبخصلة الشعر التي نتفت من لحيته، ثم دعت النعمان بن بشير، فبعثته إلى معاوية، فمضى بذلك وبكتابها[1]، وجاء في رواية: خرج النعمان بن بشير ومعه قميص عثمان مضمخ بالدماء، ومعه أصابع نائلة التي أصيبت حين دافعت عنه بيدها[2]، وكانت نائلة بنت الفرافصة الكلبية زوج عثمان كلبية شامية[3]، فورد النعمان على معاوية بالشام فوضعه معاوية على المنبر ليراه الناس وعلق الأصابع في كم القميص يرفع تارة ويوضع تارة، والناس يتباكون حوله، وحث بعضهم بعضاً على الأخذ بثأره[4]، وجاء شرحبيل بن السمط الكندي وقال لمعاوية: كان عثمان خليفتنا، فإن قويت على الطلب بدمه وإلا فاعتزلنا[5] وآلى رجال الشام ألّا يمسوا النساء ولا يناموا على الفرش، حتى يقتلوا قتلة عثمان ومن عرض دونهم بشيء أو تفنى أرواحهم[6]، وكان ذلك ما يريده معاوية، فقد كانت الصورة التي نقلها النعمان بن بشير إلى أهل الشام بشعة: مقتل الخليفة، سيوفاً مصلته من الغوغاء على رقاب الناس بالمدينة، بيت المال منتهكاً مسلوباً، وأصابع نائلة مقطوعة، فهاجت النفوس والعواطف، واهتزت المشاعر، وتأثرت بها القلوب، وذرفت منها العيون. ولذلك كان إصرار معاوية ومن معه من أهل الشام على المطالبة بدم عثمان، وتسليم القتلة للقصاص قبل البيعة. وهل تتصور أن يتم مقتل أمير المؤمنين وسيد المسلمين من حاقدين محتالين متآمرين، ولا يتماوج العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه للقصاص من أصحاب هذه الجريمة البشعة[7]؟

2 - دوافع معاوية ﷺ في عدم البيعة:

كان معاوية ﷺ والياً على الشام في عهد عمر وعثمان ﷺ، ولما تولى الخلافة

---

(1) تاريخ الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين ص: 539.

(2) البداية والنهاية (7/ 539).

(3) تاريخ الدعوة الإسلامية لمحمد جميل ص: 398.

(4) البداية والنهاية (7/ 539) سندها ضعيف.

(5) الأنساب (4/ 418)، تاريخ الدعوة الإسلامية ص: 398.

(6) تاريخ الطبري (5/ 600).

(7) معاوية بن أبي سفيان، للغضبان ص: 178، 183.

عليّ ﷺ أراد عزله وتولية عبد الله بن عمر ﷺ، فاعتذر ابن عمر، فأرسل عليّ سهل بن حنيف بدلاً منه، إلا أنه ما كان يصل مشارف الشام ـ وادي القرى ـ حتى عاد من حيث جاء، إذ لقيته خيل لمعاوية عليها حبيب بن مسلمة الفهري، فقالوا له: إن كان بعثك عثمان فحي هلا بك وإن كان بعثك غيره فارجع[1]، لقد امتنع معاوية وأهل الشام عن البيعة ورأوا أن يقتصّ علي ﷺ من قتلة عثمان ﷺ ثم يدخلون البيعة[2]، وقالوا: لا نبايع من يأوي القتلة[3]. وتخوّفوا على أنفسهم من قتلة عثمان ﷺ الذين كانوا في جيش علي، فرأوا أن البيعة لعلي لا تجب عليهم قبل القصاص، وأنهم إذا قوتلوا على ذلك كانوا مظلومين، قالوا: لأن عثمان قتل مظلوماً باتفاق المسلمين، وقتلته في عسكر علي، وهم غالبون لهم شوكة، فإذا بايعنا ظلمونا واعتدوا علينا وضاع دم عثمان، وكان معاوية ﷺ يرى أن عليه مسئولية الانتصار لعثمان والقود من قاتليه، فهو ولي دمه والله يقول: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء: 33]. لذلك جمع معاوية الناس، وخطبهم بشأن عثمان، وأنه قتل مظلوماً على يد سفهاء منافقين لم يقدروا الدم الحرام، إذ سفكوه في الشهر الحرام في البلد الحرام، فثار الناس واستنكروا وعلت الأصوات وكان منهم عدد من أصحاب رسول الله ﷺ، فقام أحدهم واسمه مرة بن كعب فقال: لولا حديث سمعته من رسول الله ﷺ ما تكلمت: .. وذكر الفتن وقربها، فمر رجل متقنع في ثوب، فقال: «هذا يومئذ على الهدى»، فقمت إليه، فإذا هو عثمان بن عفان، فأقبلت عليه بوجهه فقلت: هذا؟ قال: «نعم»[4]. وهناك حديث آخر له تأثيره في طلب معاوية القود من قتلة عثمان، ومنشطاً ودافعاً قوياً للتصميم على تحقيق الهدف، وهو: عن النعمان بن بشير عن عائشة ﷺ قالت: أرسل رسول الله ﷺ. فكان من آخر كلمة أن ضرب منكبه، فقال: «يا عثمان إن الله عسى أن يلبسك قميصاً، فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقاني» ثلاثاً، فقلت لها: يا أم المؤمنين فأين كان هذا عنك؟ قالت: نسيته والله ما ذكرته، قال: فأخبرته معاوية بن أبي سفيان فلم يرض بالذي أخبرته، حتى كتب إلى أم المؤمنين أن اكتبي إلي به، فكتبت إليه كتاباً[5]. لقد كان الحرص الشديد في تنفيذ حكم الله في القتلة السبب الرئيسي في رفض أهل الشام بزعامة معاوية بن أبي سفيان بيعة علي بن أبي طالب ﷺ، ورأوا أن تقديم حكم القصاص مقدم على البيعة، وليست لأطماع معاوية في ولاية الشام فضلاً عن طلبه للخلافة، إذ كان يدرك إدراكاً تاماً أن هذا الأمر في بقية الستة من أهل الشورى، وأن علياً أفضل منه وأولى بالأمر منه[6]، فعن أبي مسلم

(1) تاريخ الطبري (5/ 466).
(2) البداية والنهاية (7/ 129).
(3) العواصم من القواصم ص: 162.
(4) صحيح سنن ابن ماجه (1/ 240).
(5) مسند أحمد رقم 24045 حديث صحيح.
(6) خلافة علي بن أبي طالب، لعبد الحميد ص: 112.

الخولاني أنه قال لمعاوية: أنت تنازع علياً أم أنت مثله؟ فقال: لا والله إني لأعلم أنه أفضل مني وأحق بالأمر مني، ولكن ألستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوماً، وأنا ابن عمه والطالب بدمه، فائتُوه فقولوا له، فليدفع إليَّ قتلة عثمان وأسلم له، فأتوا علياً فكلموه، فلم يدفعهم إليه[1]، وأما ما شاع بين الناس قديماً وحديثاً أن الخلاف بين علي ومعاوية كان سببه طمع معاوية في الخلافة، وأن خروج هذا الأخير على عليّ وامتناعه عن بيعته كان بسبب عزله عن ولاية الشام، فهذه روايات لا تصح ولا تثبت، فقد جاء في كتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة الدينوري، وهو لا يثبت له وإنما صاحبه ذو أنفاس شيعية رافضية، فقد ذكر أنَّ معاوية ادّعى الخلافة، وذلك من خلال الرواية التي ورد فيها ما قاله ابن الكواء لأبي موسى الأشعري : اعلم أن معاوية طليق الإسلام، وأن أباه رأس الأحزاب، وأنه ادعى الخلافة من غير مشورة فإن صدقك فقد حلّ خلعه، وإن كذبك فقد حرم عليك كلامه[2]. وهذا كلام لا يثبت عن أمير المؤمنين علي وإنما من كلام الشيعة الروافض، وسيأتي الحديث عن كتاب الإمامة والسياسة وبيان كذبه وزوره ودوره في تشويه حقائق التاريخ في موضعه بإذن الله، وقد امتلأت كتب التاريخ والأدب بالروايات الموضوعة والضعيفة التي تزعم أن معاوية اختلف مع علي من أجل الملك والزعامة والإمارة[3]. والصحيح أن الخلاف بين علي ومعاوية كان حول مدى وجوب بيعة معاوية وأصحابه لعلي قبل توقيع القصاص على قتلة عثمان أو بعده، وليس هذا في أمر الخلافة في شيء فقد كان رأي معاوية ومن حوله من أهل الشام أن يقتص عليّ من قتلة عثمان، ثم يدخلون بعد ذلك في البيعة[4]، يقول القاضي ابن العربي أن سبب القتال بين أهل الشام وأهل العراق يرجع إلى تباين المواقف بينهما: فهؤلاء ـ أي أهل العراق ـ يدعون إلى عليّ بالبيعة وتأليف الكلمة على الإمام، وهؤلاء ـ أي أهل الشام ـ يدعون إلى التمكين من قتلة عثمان ويقولون: لا نبايع من يأوي القتلة[5]، ويقول إمام الحرمين في «لمع الأدلة»: إن معاوية وإن قاتل علياً، فإنه لا ينكر إمامته ولا يدّعيها لنفسه، وإنما كان يطلب قتلة عثمان ظانًّا منه أنه مصيب، وكان مخطئاً[6]. ويقول الهيثمي: ومن اعتقاد أهل السنة والجماعة أنَّ ما جرى بين معاوية وعلي من الحروب، لم يكن لمنازعة معاوية لعلي في الخلافة للإجماع على أحقيتها لعليّ، فلم تهج الفتنة بسببها، وإنما

(1) سير أعلام النبلاء (3/ 140). رجاله ثقات وإسناده جيد.
(2) الإمامة والسياسة (1/ 113).
(3) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (2/ 145).
(4) البداية والنهاية (8/ 129) فتح الباري (13/ 92).
(5) العواصم من القواصم ص: 162.
(6) لمع الأدلة في عقائد أهل السنة والجماعة ص: 115.

هاجت بسبب أن معاوية ابن عمّه فامتنع علي[1]، لقد تضافرت الروايات وأشارت إلى أنّ معاوية رضي الله عنه اتخذ موقفه للمطالبة بدم عثمان، وأنه صرح بدخوله في طاعة علي رضي الله عنه إذا أقيم الحد على قتلة عثمان ولو افترض أنه اتخذ قضية القصاص والثأر لعثمان ذريعة لقتال علي وطمعاً في السلطة، فماذا سيحدث لو تمكن علي من إقامة الحد على من قتل عثمان؟ حتماً ستكون النتيجة خضوع معاوية لعلي ومبايعته له، لأنه التزم بذلك في موقفه من تلك الفتنة، كما أن كل من حارب معه كانوا يقاتلون على أساس إقامة الحد على قتلة عثمان، على أن معاوية إذا كان يخفي في نفسه شيئاً آخر لم يعلن عنه، سيكون هذا الموقف بالتالي مغامرة، ولا يمكن أن يقدم عليها إذا كان ذا أطماع[2].

إن معاوية رضي الله عنه كان من كتّاب الوحي، ومن قادة الصحابة، وأكثرهم حلماً، فكيف يعتقد أن يقاتل الخليفة الشرعي ويهرق دماء المسلمين من أجل مُلك زائل؟ وهو القائل: والله لا أخيّر بين الله وبين غيره إلا اخترت الله على ما سواه[3]، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال فيه: «اللهم اجعله هادياً مهدياً واهد به»[4]، وقال: «اللهم علمه الكتاب وقه العذاب»[5]. وأما وجه الخطأ في موقفه من مقتل عثمان رضي الله عنه، فيظهر في رفضه أن يبايع لعلي رضي الله عنه قبل مبادرته إلى الاقتصاص من قتلة عثمان، ويضاف إلى ذلك خوف معاوية على نفسه لمواقفه السابقة من هؤلاء الغوغاء، وحرصهم على قتله بل ويلتمس منه أن يمكنه منهم، أن الطالب للدم لا يصح أن يحكم، بل يدخل في الطاعة ويرفع دعواه إلى الحاكم، ويطلب الحق عنده[6]، وقد اتفق أئمة الفتوى على أنه لا يجوز لأحد أن يقتصّ من أحد ويأخذ حقه دون السلطان، أو من نصبه السلطان لهذا الأمر، لأن ذلك يفضي إلى الفتنة وإشاعة الفوضى[7]. ويمكن القول: إن معاوية رضي الله عنه كان مجتهداً، متأولاً يغلب ظنه أن الحق معه، فقد قام خطيباً في أهل الشام بعد أن جمعهم وذكّرهم أنه ولي عثمان ـ ابن عمه ـ وقد قتل مظلوماً، وقرأ عليهم الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء: 33]. ثم قال: أنا أحب أن تعلموني ذات أنفسكم في قتل عثمان، فقام

(1) الصواعق المحرقة (2/ 622) هذا هو اجتهاد معاوية وإن كان الصواب هو أن يسلم معاوية ويطالب بالدعوة للقصاص.
(2) تحقيق مواقف الصحابة (2/ 150).
(3) سير أعلام النبلاء (3/ 151).
(4) صحيح سنن الترمذي للألباني، رقم 3018 (3/ 236).
(5) فضائل الصحابة (2/ 319) إسناده حسن.
(6) تحقيق مواقف الصحابة (2/ 151).
(7) تفسير القرطبي (2/ 256).

أهل الشام جميعهم وأجابوا إلى الطلب بدم عثمان، وبايعوه على ذلك، وأعطوه العهود والمواثيق على أن يبذلوا أنفسهم وأموالهم حتى يدركوا ثأرهم أو يفني الله أرواحهم[1]. وإذا قارنّا بين طلحة والزبير ﷺ، ومعاوية لاحظنا أنهما أقرب إلى الصواب من معاوية ﷺ ومن معه من أربعة أوجه كان أولها: مبايعتهما لعليّ ﷺ طائعين مع اعترافهما بفضله، ومعاوية لم يبايعه وإن كان معترفاً بفضله[2]. والثاني: منزلتهما في الإسلام وعند المسلمين وسابقتهما على معاوية ولاشك أن معاوية دونهما فيها[3]. الثالث: أنهما أرادا قتل الخوارج على عثمان فقط ولم يتعمدا محاربة علي ومن معه في وقعة الجمل[4]، بينما أصر معاوية على حرب عليّ ومن معه في صفين[5]، والرابع: لم يتهما عليًّا بالهوادة في أخذ القصاص من قتلة عثمان، ومعاوية ومن معه اتهموه بذلك[6]. ونضيف نقطة خامسة: أن طلحة والزبير اقتنعا بصواب موقف علي ودخلا في الطاعة عندما اتفقا مع القعقاع بن عمر وإنما الحرب بإثارة الغوغاء والسبائية لها.

3 - معاوية يرد على أمير المؤمنين علي ﷺ:

بعث علي ﷺ كتباً كثيرة إلى معاوية فلم يرد عليه جوابها وتكرر ذلك مراراً إلى الشهر الثالث من مقتل عثمان ﷺ في صفر، ثم بعث معاوية طُوماراً[7] مع رجل، فدخل به على عليّ ﷺ فقال له علي: ما وراءك؟ قال: جئتك من عند قوم لا يريدون إلا القَوَدَ[8]، كلهم موتور[9]، تركت ستين ألف شيخ يبكون تحت قميص عثمان، وهو على منبر دمشق، فقال علي: اللَّهم إني أبرأ إليك من دم عثمان. ثم خرج رسول معاوية من بين يدي عليٍّ، فهمَّ به أولئك الخوارج الذين قتلوا عثمان يريدون قتله، فما أفلت إلا بعد جهد[10].

4 - تجهيز أمير المؤمنين علي لغزو الشام:

بعد وصول رد معاوية لأمير المؤمنين علي ﷺ عزم الخليفة على قتال أهل الشام، وكتب إلى قيس بن سعد بمصر يستنفر الناس لقتالهم، وإلى أبي موسى الأشعري بالكوفة، وبعث إلى

---

(1) صفين لابن مزاحم، ص: 32، تحقيق مواقف الصحابة (2/ 152).
(2) البداية والنهاية (8/ 129) وفتح الباري (13/ 92).
(3) كان طلحة والزبير من العشرة المبشرين بالجنة.
(4) تحقيق مواقف الصحابة (2/ 113) تاريخ الطبري (5/ 475).
(5) تاريخ الطبري (5/ 612 - 615).
(6) تحقيق مواقف الصحابة (2/ 139)، البداية والنهاية (7/ 259).
(7) الطومار : الصحيفة.
(8) القود : القتل بالقتيل.
(9) الموتور : صاحب الثأر.
(10) البداية والنهاية (7/ 240).

عثمان بن حنيف بالبصرة بذلك، وخطب الناس فحثهم على ذلك، وعزم على التَجَهّزُ وخرج من المدينة، واستخلف عليها قثم بن العباس، وهو عازم أن يقاتل بمن أطاعه من عصاه وخرج عن أمره ولم يبايعه مع الناس، وجاء إليه ابنه الحسين ﵁ فقال: يا أبتِ دع هذا فإن فيه سفك دماء المسلمين، ووقع الاختلاف بينهم، فلم يقبل منه ذلك، بل صمم على القتال، ورتّب الجيش، فدفع اللواء إلى محمد بن الحنفية، وجعل ابن عباس على الميمنة، وعمر بن أبي سلمة على الميسرة وقيل جعل على الميسرة عمرو بن سفيان بن عبد الأسد، وجعل على مقدمته أبا ليلى بن عمرو بن الجراح ابن أخ أبي عبيدة، واستخلف على المدينة قثم بن العباس، ولم يبق شيء إلا أن يخرج من المدينة قاصداً الشام، فجاءه ما يشغله عن ذلك[1]، وقد تمَّ تفصيل ذلك من خروج عائشة وطلحة والزبير ﵃ إلى البصرة إلى معركة الجمل، فليرجع إليه في كتاب سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب[2].

5 - إرسال أمير المؤمنين علي ﵁ جرير بن عبد الله إلى معاوية بعد معركة الجمل:

ذُكر أن المدة بين خلافة أمير المؤمنين عليّ إلى فتنة السبئية الثانية أو ما يسمى البصرة، أو معركة الجمل، خمسة أشهر وواحد عشرين يوماً، وبين دخوله الكوفة شهر، وبين ذلك وخروجه إلى صفين ستة أشهر[3]، وروي شهران أو ثلاثة[4]، وقد كان دخول أمير المؤمنين الكوفة يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من رجب سنة ست وثلاثين، فقيل له: أنزل بالقصر الأبيض، فقال: لا إن عمر بن الخطاب كان يكره نزوله، فأنا أكره لذلك. فنزل في الرحبة وصلّى بالجامع الأعظم ركعتين ثم خطب الناس فحثهم على الخير، ونهاهم عن الشر ومدح أهل الكوفة في خطبته هذه، ثم بعث إلى جرير بن عبد الله، وكان على همدان من زمان عثمان، وإلى الأشعث بن قيس وهو على نيابة أذربيجان من أيام عثمان يأمرهما أن يأخذا البيعة له على من هنالك ثم يُقبلا إليه، ففعلا ذلك، فلما أراد علي أن يبعث إلى معاوية يدعو إلى بيعته، قال جرير بن عبد الله البجلي: أنا ذاهب إليه يا أمير المؤمنين، فإنَّ بيني وبينه وُدًّا، فآخذ لك البيعة منه، فقال الأشتر: لا تبعثه يا أمير المؤمنين، فإني أخشى أن يكون هواه معه. فقال علي: دعه، فبعثه وكتب معه كتاباً إلى معاوية يعلمه باجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته ويخبره بما كان في وقعة الجمل، ويدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه الناس، فلمَّا انتهى إليه جرير بن عبد الله، أعطاه الكتاب، وطلب معاوية ﵁ عمرو بن العاص ورؤوس أهل الشام، فاستشارهم، فأبوا أن يبايعوا حتى يقتل قتلة عثمان، أو يسلم إليهم قتلة عثمان، وإن لم يفعل قاتلوه ولم يبايعوه حتى يقتلهم عن آخرهم. فرجع جرير إلى علي فأخبره بما قالوا، فقال

---

(1) البداية والنهاية (7/ 240، 241).
(2) علي بن أبي طالب، للصّلاّبيّ (1/ 498 إلى 624).
(3) مروج الذهب (2/ 360).
(4) التاريخ الصغير للبخاري (1/ 102).

الأشتر: ألم أنهك يا أمير المؤمنين أن تبعث جريراً؟ فلو كنت بعثتني لما فتح معاوية باباً إلا أغلقته. فقال له جرير: لو كنت لقتلوك بدم عثمان. فقال الأشتر: والله لو بعثتني لم يعنني جواب معاوية ولأعجلنّه عن الفكرة ولو أطاعني فيك أمير المؤمنين، لحبسك وأمثالك حتى يستقيم أمر هذه الأمّة. فقام جرير مغضباً فأقام بقرقيسياء وكتب إلى معاوية يخبره بما قال وقيل له، فكتب إليه معاوية يأمره بالقدوم عليه[1]. وهكذا كان الأشتر سبباً في إبعاد الصحابي جرير ابن عبد الله، الذي كان والياً على قرقيسياء وعلى غيرها ورأساً في قبيلته بجيلة، ويضطره إلى مفارقة أمير المؤمنين علي، وهذا الصحابي جرير بن عبد الله البجلي قال: ما رآني رسول الله ﷺ إلا تبسم في وجهي، وقال ﷺ: «يطلع عليكم من هذا الباب رجل من خير ذي يمن، على وجهه مسحة مَلَكَ»[2].

6 - مسيرة أمير المؤمنين علي إلى الشام:

استعد أمير المؤمنين علي لغزو الشام، فبعث يستنفر الناس، وجهز جيشاً ضخماً اختلفت الروايات في تقديره، وكلها روايات ضعيفة[3]، إلا رواية واحدة حسنة الإسناد ذكرت أنه سار في خمسين ألفاً[4]، وكان مكان تجمع جند أمير المؤمنين بالنخلة[5]، وهو على ميلين من الكوفة آنذاك فتوافدت عليه القبائل من شتى أقاليم العراق[6]، واستعمل أمير المؤمنين علي رضي الله عنه أبا مسعود الأنصاري، وبعث من النخيلة زياد بن النضر الحارثي طليعة في ثمانية آلاف مقاتل، وبعث شريح بن هاني في أربعة آلاف، ثم خرج علي رضي الله عنه بجيشه إلى المدائن (بغداد) فانضم إليه من فيها من المقاتلة، وولى عليها سعد بن مسعود الثقفي، ووجه منها طليعة في ثلاثة آلاف إلى الموصل[7]، وسلك علي رضي الله عنه طريق الجزيرة الرئيسي على شط الفرات الشرقي حتى بلغ قرب قرقيسياء[8]، فأتته الأخبار بأن معاوية قد خرج لملاقاته وعسكر بصفين، فتقدم علي رضي الله عنه إلى الرقة[9]، وعبر منها الفرات غرباً ونزل على صفين[10].

---

(1) البداية والنهاية (7/ 265).

(2) مسلم، رقم: 2475.

(3) سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (2/ 630).

(4) تاريخ خليفة، ص: 193 بسند حسن.

(5) النخلة: موقع قرب الكوفة من جهة الشام، معجم البلدان (5/ 278).

(6) خلافة علي بن أبي طالب، لعبد الحميد ص: 188.

(7) تاريخ الطبري (5/ 603) بسند منقطع.

(8) قرقيسياء: بلد يقع على نهر الخابور عند مصبه في الفرات، معجم البلدان (4/ 328).

(9) الرقة: مدينة مشهورة - في سوريا اليوم - على نهر الفرات الشرقي معجم البلدان (3/ 153).

(10) تاريخ الطبري (5/ 604).

7 - خروج معاوية إلى صفين:

كان معاوية جادًا في مطاردة قتلة عثمان ﷺ فقد استطاع أن يترصد بجماعة ممن غزا المدينة من المصريين أثناء عودتهم وقتلهم، ومنهم: أبو عمرو بن بديل الخزاعي[1]، ثم كانت له أيد في مصر، وشيعة في أهل «خربتا» تطالب بدم عثمان ﷺ ، وقد استطاعت هذه الفرقة من إيقاع الهزيمة بمحمد بن أبي حذيفة في عدة مواجهات عام 36هـ، كما استطاع أيضاً أن يوقع برؤوس مدبري ومخططي غزو المدينة من المصريين مثل عبد الرحمٰن بن عديس، وكنانة ابن بشر، ومحمد بن حذيفة فحبسهم في فلسطين، وذلك في الفترة التي سبقت خروجه إلى صفين، ثم قتلهم في شهر ذي الحجة عام 36هـ[2]، وعندما علم معاوية بتحرك جيش العراق نحو صفين جمع مستشاريه من أعيان أهل الشام، وخطب فيهم وقال: إن عليًا نهد إليكم في أهل العراق، . . فقال ذو الكلاع الحميري: عليك أم رأي وعلينا أم فعال[3]. وكان أهل الشام قد بايعوا معاوية على الطلب بدم عثمان ﷺ والقتال[4]، وقد قام عمرو بن العاص ﷺ بتجهيز الجيش وقاد الألوية، وقام في الجيش خطيباً يحرضهم، فقال: إن أهل العراق قد فرقوا جمعهم وأوهنوا شوكتهم، وفلوا حدهم، ثم إن أهل البصرة المخالفين لعلي قد وترهم وقتلهم، وقد تفانت صناديدهم وصناديد أهل الكوفة يوم الجمل، وإنما سار في شرذمة قليلة ومنهم من قد قتل خليفتكم، فالله الله في حقكم أن تضيعوه، وفي دمكم أن تبطلوه[5]. وسار معاوية في جيش ضخم، اختلفت الروايات في تقديره وكلها روايات منقطعة أسانيدها، وهي عين الروايات التي قدرت جيش علي ﷺ ، فقدر بمائة ألف وعشرين ألفاً[6]، وقدر بسبعين ألف مقاتل، وقدر بأكثر من ذلك بكثير إلا أن الأقرب للصواب أنهم ستون ألف مقاتل، فهي وإن كانت منقطعة الإسناد لا أن راويها صفوان بن عمرو السكسي، حمصي من أهل الشام ولد عام «72هـ» وهو ثبت ثقة، وقد أدرك خلق ممن شهد صفين، كما تبين من دراسة ترجمته[7]، والإسناد إليه صحيح[8]، وكان قادة جيش معاوية على النحو التالي: عمرو بن العاص، على خيول أهل الشام كلها، والضحاك بن قيس على رجالة الناس

(1) المحن لأبي العرب التيمي، ص: 124، خلافة علي لعبد الحميد، ص: 191.
(2) خلافة علي، لعبد الحميد، ص: 191.
(3) الإصابة (1/ 480) خلافة علي بن أبي طالب، عبد الحميد، ص: 192.
(4) أنساب الأشراف (2/ 52) بسند منقطع، وخلافة علي، ص: 192.
(5) تاريخ الطبري (5/ 601) بسند منقطع.
(6) خلافة علي بن أبي طالب، عبد الحميد، ص: 194، المعرفة والتاريخ (3/ 313).
(7) سير أعلام النبلاء (6/ 380).
(8) خلافة علي بن أبي طالب، عبد الحميد، ص: 194.

كلهم، وذو الكلاع الحميري على ميمنة الجيش، وحبيب بن مسلمة على ميسرة الجيش، وأبو الأعور السلمي على المقدمة، هؤلاء هم القادة الكبار وتحت كل قائد من هؤلاء قادة وزعوا على حسب القبائل، وكان هذا الترتيب عند مسيرهم إلى صفين، ولكن أثناء الحرب تغير بعض القادة وظهر قادة آخرين مما اقتضته الظروف، ولعل هذا يكون السبب في اختلاف أسماء القادة في بعض المصادر[1]. وبعث معاوية أبا الأعور السلمي مقدمة للجيش، وكان خط سيرهم إلى الشمال الشرقي من دمشق، ولما بلغ صفين أسفل الفرات، عسكر في مكان سهل فسيح، إلى جانب شريعة ماء في الفرات، ليس في ذلك المكان شريعة غيرها وجعلها في حيزه[2].

8 - القتال على الماء:

وصل جيش علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى صفين، حيث عسكر معاوية، ولم يجد موضعاً فسيحاً سهلاً يكفي الجيش، فعسكر في موضع وعر نوعاً ما إذ أغلب الأرض صخور ذات كدى وأكمات[3]، ففوجىء جيش العراق بمنع معاوية عنهم الماء، فهرع البعض إلى علي رضي الله عنه يشكون إليه هذا الأمر، فأرسل علي إلى الأشعث بن قيس فخرج في ألفين ودارت أول معركة بين الفريقين، انتصر فيها الأشعث واستولى على الماء[4]. إلا أنه قد وردت رواية تنفي وقوع القتال من أصله مفادها: أن الأشعث بن قيس جاء إلى معاوية فقال: الله الله يا معاوية في أمة محمد ﷺ! هبوا إنكم قتلتم أهل العراق، فمن للبعوث والذراري؟ إن الله يقول: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ﴾ [الحجرات: 9] قال معاوية: فما تريد؟ قالوا خلوا بيننا وبين الماء، فقال لأبي الأعور: خلِّ بين إخواننا وبين الماء[5]، وقد كان القتال على الماء في أول يوم تواجها فيه في بداية شهر ذي الحجة فاتحة شر على الطرفين من المسلمين، إذا استمر القتال بينهما متواصلاً طوال هذا الشهر، وكان القتال على شكل كتائب صغيرة، فكان علي رضي الله عنه يخرج من جيشه كتيبة صغيرة يؤمر عليها أميراً، فيقتتلان مرة واحدة في اليوم في الغداة أو العشي، وفي بعض الأحيان يقتتلان مرتين في اليوم، وكان أغلب من يخرج من أمراء الكتائب في جيش علي: الأشتر، وحجر بن عدي وشبث بن ربعي، وخالد بن المعتمر، ومعقل بن يسار الرياحي، ومن جيش معاوية أغلب من يخرج: حبيب بن مسلمة، وعبد الرحمٰن بن خالد بن الوليد، وعبيد الله بن عمر بن الخطاب، وأبو الأعور السلمي، وشرحبيل

(1) امتداد العرب في صدر الإسلام، صالح العلي، خلافة علي، ص: 194.
(2) صفين لنصر بن مزاحم، ص: 160 - 161.
(3) خلافة علي بن أبي طالب، لعبد الحميد، ص: 196.
(4) مصنف ابن أبي شيبة (15/ 294) بسند حسن.
(5) سير أعلام النبلاء (2/ 41) مرويات أبي مخنف، ص: 296.

بن السمط وقد تجنبوا القتال بكامل الجيش خشية الهلاك والاستئصال، وأملاً في وقوع صلح بين الطرفين تصان به الأرواح والدماء[1].

9 - الموادعة بينهما ومحاولات الصلح:

ما إن دخل شهر المحرم، حتى بادر الفريقان إلى الموادعة والهدنة، طمعاً في صلح يحفظ دماء المسلمين، فاستغلوا هذا الشهر في المراسلات بينهم ولكن المعلومات عن مراسلات هذه الفترة ـ شهر المحرم ـ وردت من طرق ضعيفة[2] مشهورة، إلا أن ضعفها لا ينفي وجودها. كان البادىء بالمراسلة، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ، فأرسل بشير بن عمرو الأنصاري، وسعيد بن قيس الهمداني وشبث بن ربعي التميمي إلى معاوية ﷺ يدعوه كما دعاه من قبل إلى الدخول في الجماعة والمبايعة فرد معاوية عليه برده السابق المعروف، بتسليم قتلة عثمان أو القود منهم أولاً، ثم يدخل في البيعة، وقد تبين لنا موقف علي من هذه القضية[3]، كما أن قُرَّاء الفريقين قد عسكروا في ناحية من صفين، وهم عدد كبير، قد قاموا بمحاولات للصلح بينهما، فلم تنج تلك المحاولات لالتزام كل فريق منهما برأيه وموقفه[4]، وقد حاول اثنان من الصحابة وهما أبو الدرداء وأبو أمامة ﷺ الصلح بين الفريقين، فلم تنجح مهمتهما، فتركا الفريقين ولم يشهدا معهما أمرهما[5]، وكذلك حضر مسروق بن الأجدع أحد كبار التابعين وخطب الناس في محاولة منه لرأب الصدع بينهم فقال: أيها الناس أنصتوا ثم قال: أرأيتم لو أن منادياً ناداكم من السماء فسمعتم كلامه ورأيتموه فقال: إن الله ينهاكم عما أنتم فيه، أكنتم مطيعيه، قالوا: نعم قال: فوالله لقد نزل بذلك جبرائيل على محمد.. فما زال يأتي من هذا. ثم تلا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: 29]. ثم انساب في الناس فذهب[6]. وقد انتقد ابن كثير التفصيلات الطويلة التي جاءت في روايات أبي مخنف ونصر بن مزاحم، بخصوص المراسلات بين الطرفين فقال:... ثم ذكر أهل السير كلاماً طويلاً جرى بينهم وبين علي، وفي صحة ذلك عنهم وعنه نظر، فإن في مطاوي ذلك الكلام من علي ما ينتقص فيه معاوية وأباه، وأنهم إنما دخلوا في الإسلام ولم يزالا في تردد فيه، وغير ذلك وأنه قال في غضون ذلك: لا أقول إن عثمان قُتل مظلوماً ولا ظالماً،

---

(1) خلافة علي بن أبي طالب، لعبد الحميد، ص: 197، 198، تاريخ الطبري (5/ 614)، البداية والنهاية (7/ 266).
(2) تاريخ الطبري (5/ 612، 613) خلافة علي بن أبي طالب، ص: 119.
(3) تاريخ الطبري (5/ 613) خلافة علي بن أبي طالب، ص: 199.
(4) المصدر نفسه (5/ 614).
(5) البداية والنهاية (7/ 270).
(6) الطبقات (6/ 78)، القرّاء دورهم في الحياة العامة في صدر الإسلام والخلافة الأموية، هادي حسين حمود.

وهذا عندي لا يصح من علي رضي الله عنه [1]. وموقف علي رضي الله عنه من قتل عثمان رضي الله عنه واضح، وقد بينته في كتابي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه وفي هذا الكتاب.

ثالثاً: نشوب القتال:

عادت الحرب على ما كانت عليه في شهر ذي الحجة من قتال الكتائب والفرق والمبارزات الفردية، خشية الالتحام الكلي إلى أن مضى الأسبوع الأول منه، وكان عدد الوقعات الحربية بين الفريقين إلى هذا التاريخ أكثر من سبعين وقعة وذكر أنها تسعون[2]، إلا أن علياً أعلن في جيشه أن غداً الأربعاء سيكون الالتحام الكلي لجميع الجيش، ثم نبذ إلى معاوية يخبره بذلك[3]، فثار الناس في تلك الليلة إلى أسلحتهم يصلحونها ويحدونها وقام عمرو بن العاص بإخراج الأسلحة من المخازن لمن يحتاج من الرجال ممن فل سلاحه، وهو يحرض الناس على الاستبسال في القتال[4]، وبات جميع الجيش في مشاورات وتنظيم للقيادات والألوية[5].

1 - اليوم الأول:

أصبح الجيشان في يوم الأربعاء قد نظمت صفوفهم ووزعوا حسب التوزيع المتبع في المعارك الكبرى، قلب، وميمنة، وميسرة، فكان جيش علي رضي الله عنه على النحو التالي[6]: علي ابن أبي طالب على القلب، وعبد الله بن عباس على الميسرة، وعمّار بن ياسر على الرجالة، ومحمد بن الحنفية حامل الراية وهشام بن عتبة (المرقال) حامل اللواء، والأشعث بن قيس على الميمنة. وأما جيش الشام، فمعاوية في كتيبة الشهباء أصحاب البيض والدروع على تل مرتفع وهو أمير الجيش، وعمرو بن العاص قائد خيل الشام كلها، وذو الكلاع الحميري على الميمنة على أهل اليمن، وحبيب بن مسلمة الفهري على الميسرة على مضر والمخارق بن الصباح الكلاعي حامل اللواء[7]، وتقابلت الجيوش الإسلامية ومن كثرتها قد سدت الأفق، ويقول كعب بن جعيل التغلبي أحد شعراء العرب[8] وذلك عندما رأى الناس في ليلة الأربعاء وقد ثبتوا إلى نبالهم وسيوفهم يصلحونها استعداداً لهذا اليوم:

---

(1) البداية والنهاية (7/ 269).
(2) الأنباء بتواريخ الخلفاء ص: 59، شذرات الذهب (1/ 45).
(3) البداية والنهاية (7/ 273).
(4) سنن سعيد بن منصور (2/ 240) ضعيف.
(5) علي بن أبي طالب للصّلّابي (2/ 635).
(6) تاريخ خليفة بن خياط ص: 193 بسند حسن إلى شاهد عيان.
(7) المصدر نفسه، ص: 193.
(8) الأعلام للزركلي (6/ 180).

أصبحت الأمة في أمر عجب والملك مجموع غداً لمن غلب
فقلت قولاً صادقاً غير كذب إن غداً تهلك أعلام العرب[1]

وتذكر بعض الروايات الضعيفة أن علياً خطب في جيشه، وحرضهم على الصبر والإقدام والإكثار من ذكر الله[2]، وتذكر أيضاً أن عمرو بن العاص قد استعرض جيشه، وأمرهم بتسوية الصفوف وإقامتها[3]، وهذه الروايات لا يوجد مانع من الأخذ بها، لأن كل قائد يحرض جيشه ويحمسه، ويهتم بكل ما يؤدي به إلى النصر، والتحم الجيشان في قتال عنيف استمر محتدماً إلى غروب الشمس لا يتوقف إلاّ لأداء الصلاة، يصلّي كل فريق في معسكره وبينهما جثث القتلى في الميدان تفصل بينهما، وسأل أحد أفراد جيش عليّ ﷺ حين انصرافه من الصلاة، فقال: ما تقول في قتلانا وقتلاهم يا أمير المؤمنين؟ فقال: من قتل منا ومنهم يريد وجه الله والدار الآخرة دخل الجنة[4] وقد صبر بعضهم على بعض فلم يغلب أحد أحداً، ولم ير مولياً حتى انتهى ذلك اليوم. وفي المساء خرج علي ﷺ إلى ساحة القتال فنظر إلى أهل الشام، فدعا ربه قائلاً: اللّهم اغفر لي ولهم[5].

2 - اليوم الثاني:

في يوم الخميس تذكر الروايات أن علياً ﷺ قد غلس بصلاة الفجر واستعد للهجوم، وغيّر بعض القيادات، فوضع عبد الله بن بديل الخزاعي على الميمنة بدلاً من الأشعث بن قيس الكندي الذي تحول إلى الميسرة[6]، وزحف الفريقان نحو بعضهما واشتبكوا في قتال عنيف أشد من سابقه، وبدأ أهل العراق في التقدم وأظهروا تفوقاً على أهل الشام واستطاع عبد الله ابن بديل أن يكسر ميسرة معاوية وعليها حبيب بن مسلمة ويتقدم باتجاه كتيبة معاوية (الشهباء) وأظهر شجاعة وحماساً منقطع النظير، وصاحب هذا التقدم الجزئي، تقدم عام لجيش العراق، حتى أن معاوية، قد حدثته نفسه بترك ميدان القتال، إلا أنه صبر وتمثل بقول الشاعر:

أبت لي عفتي وأبى بلائي وأخذي الحمد بالثمن الربيح
وإكراهي على المكروه نفسي وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي[7]

---

(1) البداية والنهاية (7/ 273)، تاريخ الطبري (5/ 626).
(2) تاريخ الطبري (5/ 622) من طريق أبي محنف.
(3) الطبقات (4/ 255) من طريق الواقدي.
(4) سنن سعيد بن منصور (2/ 344 - 345) بسند ضعيف.
(5) مصنف ابن أبي شيبة (15/ 297) بسند صحيح.
(6) تاريخ الطبري (5/ 630).
(7) تاريخ الطبري (5/ 636).

واستحث كتيبته الشهباء واستطاعوا قتل عبد الله بن بديل، فأخذ مكانه في قيادة الميمنة الأشتر وتماسك أهل الشام وبايع بعضهم على الموت، وكروا مرة أخرى بشدة وعزيمة وقتل عدد من أبرزهم ذو الكلاع، وحوشب وعبيد الله بن عمر بن الخطاب ﷺ وانقلب الأمر لجيش الشام، وأظهر تقدماً، وبدأ جيش العراق في التراجع، واستحر القتل في أهل العراق وكثرت الجراحات ولما رأى علي جيشه في تراجع، أخذ يناديهم ويحمسهم، وقاتل قتالاً شديداً واتجه إلى القلب حيث ربيعة، فثارت فيهم الحمية وبايعوا أميرهم خالد بن المعمر على الموت وكانوا أهل قتال[1].

وكان عمّار بن ياسر ﷺ قد جاوز الرابعة والتسعين عاماً، وكان يحارب بحماس، يحرض الناس، ويستنهض الهمم ولكنه بعيد كل البعد عن الغلو، فقد سمع رجلاً بجواره يقول: كفر أهل الشام، فنهاه عمار عن ذلك وقال: إنما بغوا علينا، فنحن نقاتلهم لبغيهم، فإلٰهنا واحد ونبينا واحد وقبلتنا واحدة[2].

ولما رأى عمار ﷺ تقهقر أصحابه، وتقدم خصومه، أخذ يستحثهم ويبين لهم أنهم على الحق ولا يغرنهم ضربات الشاميين الشديدة، فيقول ﷺ: من سره أن تكتنفه الحور العين فليقدم بين الصفين محتسباً، فإني لأرى صفاً يضربكم ضرباً يرتاب منه المبطلون والذي نفسي بيده، لو ضربونا حتى يبلغوا منا سعفات هجر، لعلمنا أنا على الحق وأنهم على الباطل لعلمنا أن مصلحينا على الحق وأنهم على الباطل[3]، ثم أخذ في التقدم، وفي يده الحربة ترعد ـ لكبر سنه ـ ويشتد على حامل الراية هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ويستحثه في التقدم ويرغبه ويطمعه فيما عند الله من النعيم، ويطمع أصحابه أيضاً فيقول: أزفت الجنة وازينت الحور العين، من سره أن تكتنفه الحور العين، فليتقدم بين الصفين محتسباً وكان منظر مؤثر فهو صحابي جليل مهاجري بدري جاوز الرابعة والتسعين يمتلك كل هذا الحماس وهذا العزم والروح المعنوية العالية واليقين الثابت، فكان عاملاً هاماً من عوامل حماس جيش العراق ورفع روحهم المعنوية مما زادهم عنفاً وضراوة وتضحية في القتال حتى استطاعوا أن يحولوا المعركة لصالحهم وتقدم هاشم بن عتبة بن أبي وقاص وهو يرتجز بقوله:

أعور يبغي أهله مَحَلاً ... قد عالج الحياة حتى ملاً
لا بد أن يَفُلَّ أو يُفَلاَّ[4]

---

(1) الإصابة (1/ 454)، أنساب الأشراف (2/ 56) بسند حسن إلى قتادة.

(2) مصنف ابن أبي شيبة (15/ 290) الإسناد حسن لغيره.

(3) مجمع الزوائد (7/ 243)، خلافة علي بن أبي طالب، عبد الحميد ص: 219 إسناده حسن.

(4) تاريخ الطبري (5/ 652).

وعمار يقول: تقدم يا هاشم، الجنة تحت ظلال السيوف، والموت في أطراف الأسل[1]، وقد فتحت أبواب السماء وتزينت الحور العين:

اليوم ألقى الأحبة محمّداً وحزبه[2]

وعند غروب الشمس ذلك اليوم الخميس، طلب عمار شربة من لبن ثم قال: إن رسول الله ﷺ قال لي: «إن آخر شربة تشربها من الدنيا شربة لبن»[3]. ثمّ تقدم واستحث معه حامل الراية هاشم بن عتبة بن أبي وقاص الزهري فلم يرجعا وقتلا[4] رحمهما الله ورضي الله عنهما.

3 - ليلة الهرير ويوم الجمعة:

عادت الحرب في نفس الليلة بشدة واندفاع لم تشهدها الأيام السابقة وكان اندفاع أهل العراق بحماس وروح عالية حتى أزالوا أهل الشام عن أماكنهم، وقاتل أمير المؤمنين علي قتالاً شديداً وبايع على الموت[5]، وذكر أن علياً رضي الله عنه صلى بجيشه المغرب صلاة الخوف[6]، وقال الشافعي: وحفظ عن علي أنه صلى صلاة الخوف ليلة الهرير[7]، يقول شاهد عيان: اقتتلنا ثلاثة أيام وثلاثة ليالي حتى تكسرت الرماح ونفدت السهام، ثم صرنا إلى المسايفة فاجتلدنا بها إلى نصف الليل حتى صرنا نعانق بعضنا بعضاً، ولما صارت السيوف كالمناجل تضاربنا بعمد الحديد فلا تسمع إلا غمغمة وهمهمة القوم ثم ترامينا بالحجارة وتحاثينا بالتراب وتعاضينا بالأسنان وتكادمنا بالأفواه، إلى أن أصبحوا في يوم الجمعة وارتفعت الشمس وإن كانت لا ترى من غبار المعركة وسقطت الألوية والرايات وأنهك الجيش التعب وكلت الأيدي وجفت الحلوق[8].

ويقول ابن كثير في وصف ليلة الهرير ويوم الجمعة: وتعاضوا بالأسنان يقتتل الرجلان حتى يثخنا ثم يجلسان يستريحان وكل واحد منهما ليهمر على الآخر، ويهمر عليه ثم يقومان فيقتتلان كما كانا فإنا لله وإنا إليه لراجعون ولم يزل ذلك دأبهم حتى أصبح الناس من يوم الجمعة وهم كذلك وصلى الناس الصبح إيماؤهم في القتال حتى تضاحا النهار وتوجه النصر لأهل العراق على أهل الشام[9].

---

(1) الأسل: الرماح.
(2) تاريخ الطبري (5/ 652).
(3) مصنف ابن أبي شيبة (15/ 302، 303). بسند منقطع.
(4) تاريخ الطبري (5/ 652).
(5) المستدرك (3/ 402) قال الذهبي ضعيف، خلافه علي، ص: 226.
(6) سنن الكبرى للبيهقي (3/ 252) قال الألباني رواه البيهقي بصيغة التمريض إرواء الغليل (3/ 42).
(7) تلخيص الحبير (2/ 78)، خلافة علي بن أبي طالب، ص: 227.
(8) شذرات الذهب (1/ 45)، وقعة صفين، ص: 369.
(9) البداية والنهاية (7/ 283).

4 - الدعوة إلى التحكيم:

إن ما وصل إليه حال الجيشين بعد ليلة الهرير لم يكن يحتمل مزيد قتال، وجاءت خطبة الأشعث بن قيس زعيم كندة أصحابه ليلة الهرير فقال: قد رأيتم يا معشر المسلمين ما قد كان في يومكم هذا الماضي، وما قد فني فيه من العرب، فوالله لقد بلغت من السن ما شاء الله أن أبلغ، فما رأيت مثل هذا قط، ألا فليبلغ الشاهد الغائب، إن نحن توافقنا غداً إنه لفناء العرب، وضيعة الحرمان، أما والله ما أقول هذه المقالة جزعاً من الحرب، ولكنّي رجل مسن، وأخاف على النساء والذراري غداً إذا نحن فنينا، اللّهم إنك تعلم أني قد نظرت لقومي ولأهل ديني فلم آلُ[1].

وجاء خبر ذلك إلى معاوية فقال: أصاب ورب الكعبة، لئن نحن التقينا غداً لتميلين الروم على ذرارينا ونسائنا ولتميلين أهل فارس على أهل العراق وذراريهم إنما يبصر هذا ذوو الأحلام والنهى، ثم قال لأصحابه: اربطوا المصاحف على أطراف القنا[2]، وهذه رواية عراقية لا ذكر فيها لعمرو بن العاص ولا للمخادعة والاحتيال وإنما كانت رغبة كلا الفريقين، ولن يضير معاوية أو عمرو بشيء أن تأتي أحدهم الشجاعة فيبادر بذلك وينقذ ما تبقّى من قوى الأمة المتصارعة، إنما يزعج ذلك أعداء الأمة الذين أشعلوا نيران هذه الفتنة، وتركوا لنا ركاماً من الروايات المضللة بشأنها، تحيل الحق باطلاً، وتجعل الفضل ـ كالمناداة بتحكيم القرآن لصون الدماء المسلمة ـ جريمة ومؤامرة[3]وحيلة، ونسبوا لأمير المؤمنين علي أقوالاً مكذوبة تعارض ما في الصحيح على أنه قال: (إنهم ما رفعوها، ثم لا يرفعونها، ولا يعملون بما فيها، وما رفعوها لكم إلا خديعة ودهناً ومكيدة)[4]، ومن الشتائم قولهم عن رفع المصاحف: إنها مشورة ابن العاهرة[5]، ووسّعوا دائرة الدعاية المضادة على عمرو بن العاص رضي الله عنه حتى لم تعد تجد كتاباً من كتب التاريخ إلا فيه انتقاص لعمرو بن العاص وأنه مخادع وماكر بسبب الروايات الموضوعة التي لفقها أعداء الصحابة الكرام، ونقلها الطبري، وابن الأثير وغيرهم، فوقع فيها كثير من المؤرخين المعاصرين مثل حسن إبراهيم حسن في تاريخ الإسلام، ومحمد الخضري بك في تاريخ الدولة الأموية، وعبد الوهاب النجار في تاريخ الخلفاء الراشدون وغيرهم كثير، مما ساهم في تشويه الحقائق التاريخية الناصعة.

إن رواية أبي مخنف تفترض أن علياً رفض تحكيم القرآن لما اقترحه أهل الشام، ثم

---

(1) وقعه صفين للمتقري، ص: 479.
(2) المصدر نفسه، ص: (481 - 884).
(3) الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين، ص: 316.
(4) الكامل (2/ 386).
(5) المصدر نفسه (5/ 662، 663).

استجاب بعد ذلك له تحت ضغط القراء الذين عرفوا بالخوارج فيما بعد[1]، وهذه الرواية تحمل سباً من علي لمعاوية وصحبه، يتنزه عنه أهل ذاك الجيل المبارك فكيف بساداتهم وعلى رأسهم أمير المؤمنين علي، ويكفي للرواية سقوطاً أن فيها أبا مخنف الرافضي المحترق، فهي رواية لا تصمد للبحث النزيه ولا ما يرويه الإمام أحمد بن حنبل عن طريق حبيب بن أبي ثابت قال: أتيت أبا وائل ـ أحد رجال علي بن أبي طالب ـ فقال: كنا بصفين، فلما استحر القتل بأهل الشام قال عمرو لمعاوية: أرسل إلى علي المصحف، فادعه إلى كتاب الله، فإنه لا يأبى عليك، فجاء به رجل فقال: بيننا وبينكم كتاب الله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [آل عمران: 23]. فقال علي: نعم، أنا أولى بذلك، فقام القُراء الذين صاروا بعد ذلك خوارج، بأسيافهم على عواتقهم فقالوا: يا أمير المؤمنين ألا نمشي إلى هؤلاء حتى يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقام سهل بن حنيف الأنصاري رضي الله عنه فقال: أيها الناس اتهموا أنفسكم، لقد كنا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية، ولو نرى قتالاً لقاتلنا، وذلك في الصلح الذي كان بين رسول الله ﷺ وبين المشركين، ثم حدثهم عن معارضة عمر رضي الله عنه للصلح يوم الحديبية ونزول سورة الفتح على رسول الله ﷺ فقال علي: أيها الناس إن هذا فتح، فقبل القضية ورجع، ورجع الناس[2]. وأظهر سهل بن حنيف رضي الله عنه اشمئزازاً ممن يدعون إلى استمرار الحرب بين الإخوة وقال: أيها الناس اتهموا رأيكم على دينكم[3]، وبيّن لهم بأنه لا خيار عن الحوار والصلح لأن ما سواه فتنة لا تعرف عواقبها، فقد قال: ما وضعنا سيوفنا على عواتقنا إلى أمر إلا أسهلن بنا إلى ما نعرفه قبل هذا الأمر، ما سد منها خُصماً إلا تفجر علينا خُصم ما ندري كيف نأتي له[4]، وفي هذه الروايات الصحيحة رد على دعاة الفتنة ومبغضي الصحابة، الذين يضعون الأخبار المكذوبة، ويضعون الأشعار وينسبونها إلى أعلام الصحابة والتابعين الذين شاركوا في صفين، ليظهروهم بمظهر المتحمس لتلك الحرب ليزرعوا البغضاء في النفوس ويعملوا ما في وسعهم على استمرار الفتنة[5]، إن الدعوة إلى تحكيم كتاب الله دون التأكيد على تسليم قتلة عثمان إلى معاوية وقبول التحكيم دون التأكيد على دخول معاوية في طاعة علي والبيعة له، تطور فرضته أحداث حرب صفين، إذ أن الحرب التي أودت بحياة الكثير من المسلمين، أبرزت اتجاهاً جماعياً رأى أن وقف القتال وحقن الدماء ضرورة تقتضيها حماية شوكة الأمة وصيانة قوتها أمام عدوها، وهو دليل على حيوية الأمة ووعيها وأثرها في اتخاذ القرارات[6].

---

(1) المصدر نفسه (5/ 662، 663).
(2) مصنف أبي شيبة (8/ 336)، مسند أحمد مع الفتح الرباني (8/ 483).
(3) البخاري، رقم 4189.
(4) البخاري، رقم 4189.
(5) الأنصاف فيما وقع في تاريخ العصر الراشدي من الخلاف، ص: 530.
(6) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص: 38.

إن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه قبل وقف القتال في صفين ورضي التحكيم وعدَّ ذلك فتحاً ورجع[1] إلى الكوفة، وعلق على التحكيم آمالاً في إزالة الخلاف وجمع الكلمة، ووحدة الصف، وتقوية الدولة، وإعادة حركة الفتوح من جديد.

إن وصول الطرفين إلى فكرة التحكيم ساهمت عدة عوامل به للتحكيم منها:

أ - أنه كان آخر محاولة من المحاولات التي بذلت لإيقاف الصدام وحقن الدماء سواء تلك المحاولات الجماعية، أم المحاولات الفردية التي بدأت بعد موقعة الجمل ولم تفلح، أما الرسائل التي تبودلت بين الطرفين لتنفيذ وجهات نظر كل منهما، ولم تُجْدِ ـ هي الأخرى ـ شيئاً، وكان آخر تلك المحاولات ما قام به معاوية في أيام اشتداد القتال حيث كتب إلى علي رضي الله عنه يطالبه بتوقف القتال فقال: فإني أحسبك أن لو علمت وعلمنا أن الحرب تبلغ بك ما بلغت، لم نجنها على أنفسنا، فإنا إن كنا قد غُلبنا على عقولنا فقد بقي لنا منا ما ينبغي أن نندم على ما مضى ونصلح ما بقي[2].

ب - تساقط القتلى وإراقة الدماء الغزيرة ومخافة الفناء، فصارت الدعوة إلى إيقاف الحرب مطلباً يرنو إليه الجميع.

جـ - الملل الذي أصاب الناس من طول القتال، حتى وكأنهم على موعد لهذا الصوت الذي نادى بالهدنة والصلح، وكانت أغلبية جيش علي في اتجاه الموادعة وكانوا يرددون: قد أكلتنا الحرب، ولا نرى البقاء إلا في الموادعة[3]. وهذا ينقض ذلك الرأي المتهافت الذي رُوِّج بأن رفع المصاحف كان خدعة من عمرو بن العاص. والحق أن فكرة رفع المصاحف لم تكن جديدة وليست من ابتكار عمرو بن العاص، بل رفع المصحف في الجمل ورشق حامله ـ كعب بن سور قاضي البصرة ـ بسهم وقتل.

د - الاستجابة لصوت الوحي الداعي للإصلاح قال تعالى ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: 59] ويؤيد هذا ما قاله علي بن أبي طالب حينما عرض عليه الاحتكام إلى كتاب الله قال: نعم أنا أولى بذلك بيننا وبينكم كتاب الله[4].

5 - مقتل عمّار بن ياسر رضي الله عنه وأثره على المسلمين:

يعد حديث رسول الله ﷺ لعمّار رضي الله عنه: «تقتلك الفئة الباغية»[5] من الأحاديث الصحيحة

(1) المصدر نفسه رقم 2916.
(2) الأخبار الطوال للدينوري، ص: 187، دراسات في عهد النبوة، ص: 432.
(3) صفين، ص: 482 - 485، دراسات في عهد النبوة، ص: 433.
(4) مصنف ابن أبي شيبة (8/ 336).
(5) مسلم رقم 2916.

والثابتة عن النبي ﷺ. وقد كان لمقتل عمّار رضي الله عنه أثر في معركة صفين، فقد كان علماً لأصحاب رسول الله يتبعونه حيث سار وكان خزيمة بن ثابت حضر صفين وكان كافاً سلاحه، فلما رأى مقتل عمّار سل سيفه وقاتل أهل الشام، وذلك لأنه سمع حديث رسول الله ﷺ في عمّار: «تقتله الفئة الباغية»[1]، واستمر في القتال حتى قتل[2]، وكان لمقتل عمّار أثر في معسكر معاوية، فهذا أبو عبد الرحمٰن السلمي دخل في معسكر أهل الشام، فرأى معاوية وعمرو بن العاص وابنه عبد الله بن عمرو، وأبو الأعور السلمي، عند شرعة الماء يسقون وكانت هي شربة الماء الوحيدة التي يستقي منها الفريقان، وكان حديثهم عن مقتل عمّار بن ياسر، إذ قال عبد الله بن عمرو لوالده: لقد قتلنا هذا الرجل وقد قال فيه رسول الله ﷺ ما قال، قال: وأي رجل؟ قال: عمّار بن ياسر. . قال فيه رسول الله ﷺ: «تقتله الفئة الباغية». فقال عمرو لمعاوية لقد قتلنا الرجل وقد قال فيه رسول الله ﷺ ما قال! فقال معاوية: اسكت فوالله ما تزال تدحض[3] في بولك أنحن قتلناه؟ إنما قتله من جاء به[4]، فانتشر تأويل معاوية بين أهل الشام انتشار النار في الهشيم، وجاء في رواية صحيحة أن عمرو بن حزم دخل على عمرو بن العاص فقال: قتل عمار وقد قال فيه رسول الله ﷺ: «تقتله الفئة الباغية». فقام عمرو بن العاص فزعاً يرجع حتى دخل على معاوية، فقال له معاوية: ما شأنك؟ فقال: قتل عمار، فقال معاوية: قتل عمار فماذا؟ قال عمرو: سمعت رسول الله ﷺ يقول له: «تقتلك الفئة الباغية» فقال له معاوية: دحضت في بولك، أو نحن قتلناه؟ إنما قتله علي وأصحابه، جاءوا به حتى ألقوه بين رماحنا، أو قال بين سيوفنا[5]. وفي رواية صحيحة أيضاً: جاء رجلان عند معاوية يختصمان في رأس عمار يقول كل واحد منهما: أنه قتله، فقال عبد الله بن عمرو بن العاص: ليطلب به أحدكما نفساً لصاحبه، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تقتله الفئة الباغية». قال معاوية: فما بالك معنا؟ قال: إن أبي شكاني إلى رسول الله ﷺ فقال: «أطع أباك ما دام حياً ولا تعصه». فأنا معكم ولست أقاتل[6].

من الروايات السابقة نلاحظ أن الصحابي الفقيه عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما حريص على قول الحق، والنصح، فقد رأى أن معاوية وجنده، هم الفرقة الباغية لقتلهم عماراً، فقد تكرر منه هذا الاستنكار في مناسبات مختلفة، ولا شك أن مقتل عمار رضي الله عنه قد أثر في أهل الشام بسبب

---

(1) مسلم 2916.
(2) خلافة علي، ص: 211.
(3) الدحض الزلق، والداحض لمن لا ثبات له ولا عزيمة في الأمور.
(4) مسند أحمد (2/ 206) إسناده حسن.
(5) مصنف عبد الرزاق (11/ 240) بسند صحيح.
(6) مسند أحمد (11/ 138 - 139) قال أحمد شاكر: سنده صحيح.

هذا الحديث، إلا أن معاوية رضي الله عنه أوَّل الحديث تأويلاً غير مستساغ ولا يصح في أن الذين قتلوا عمار، هم الذين جاءوا به إلى القتال[1]، وقد أثر مقتل عمار كذلك على عمرو بن العاص، بل كان استشهاد عمار دافعاً لعمرو بن العاص للسعي لإنهاء الحرب[2]، وقد قال رضي الله عنه : وددت أني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة[3]، وقد جاء في البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كنا نحمل لبنة لبنة وعمّار لبنتين لبنتين، فرآه النبي ﷺ، فينفض التراب عنه ويقول: **«ويح عمّار تقتله الفئة الباغية يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار»**. قال عمّار: أعوذ بالله من الفتن[4]، وقال ابن عبد البر: تواترت الآثار عن النبي ﷺ أنه قال: **«تقتل عمار الفئة الباغية»**، وهذا من إخباره بالغيب وأعلام نبوته ﷺ، وهو من أصح الأحاديث[5]، وقال الذهبي بعد ما ذكر الحديث: وفي الباب عن عدة من الصحابة، فهو متواتر[6].

* - فهم العلماء للحديث:

أ ـ قال ابن حجر: وفي هذا الحديث علم من أعلام النبوة، وفضيلة ظاهرة لعلي وعمار، وردٌّ على النواصب الزاعمين أن علياً لم يكن مصيباً في حروبه[7]، وقال أيضاً: دل الحديث: **«تقتل عماراً الفئة الباغية»**، على أن علياً كان المصيب في تلك الحروب، لأن أصحاب معاوية قتلوه[8].

ب ـ يقول النووي: وكانت الصحابة يوم صفين يتبعونه حيث توجه لعلمهم بأنه مع الفئة العادلة، لهذا الحديث[9].

ج ـ قال ابن كثير: كان علي وأصحابه أدنى الطائفتين إلى الحق من أصحاب معاوية، وأصحاب معاوية كانوا باغين عليهم، كما ثبت في صحيح مسلم من حديث شعبة عن أبي سلمة عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري، قال: حدثني من هو خير مني ـ يعني أبا قتادة ـ أن رسول الله ﷺ قال لعمار: **«تقتلك الفئة الباغية»**[10]. وقال أيضاً: وهذا مقتل عمار بن

---

(1) خلافة علي بن أبي طالب، عبد الحميد، ص: 325.
(2) معاوية بن أبي سفيان، الغضبان، ص: 215.
(3) أنساب الأشراف (1/ 170)، عمرو بن العاص للغضبان، ص: 603.
(4) البخاري رقم 447.
(5) الاستيعاب (3/ 1140).
(6) سير أعلام النبلاء (1/ 421).
(7) فتح الباري (1/ 646).
(8) فتح الباري (13/ 92).
(9) تهذيب الأسماء واللغات (2/ 38).
(10) البداية والنهاية (6/ 220).

ياسر ﷺ مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، قتله أهل الشام، وبان وظهر بذلك سرُّ ما أخبر به الرسول ﷺ من أن تقتله الفئة الباغية، وبان بذلك أن علياً محق، وأن معاوية باغ، وما في ذلك من دلائل النبوة[1].

د ـ **وقال الذهبي**: هم طائفة من المؤمنين، بغت على الإمام علي، وذلك بنص قول المصطفى صلوات الله عليه لعمار: «**تقتلك الفئة الباغية**»[2].

هـ ـ **قال القاضي أبو بكر بن العربي**: في قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ﴾ [الحجرات: 9]، هذه الآية أصل في قتال المسلمين، والعمدة في حرب المتأولين، وعليها عوّل الصحابة، وإليها لجأ الأعيان من هذه الملة، وإياها عنى النبي ﷺ بقوله: «**تقتل عمار الفئة الباغية**»[3].

و ـ **وقال ابن تيمية**: وهذا يدل على صحة إمامة علي ووجوب طاعته، وأن الداعي إلى طاعته داع إلى الجنة، والداعي إلى مقاتلته داعٍ إلى النار ـ وإن كان متأولاً ـ وهو دليل على أنه لم يكن يجوز قتال علي، وعلي هذا فمقاتله مُخطئ ـ وإن كان متأولاً ـ أو باغ ـ بلا تأويل ـ وهو أصح القولين لأصحابنا، وهو الحكم بتخطئة من قاتل علياً، وهو مذهب الأئمة الفقهاء الذين فرعوا على ذلك قتال البغاة المتأولين[4]. وقال أيضاً: مع أن علياً أولى بالحق ممن فارقه، ومع أن عمار قتلته الفئة الباغية ـ كما جاءت به النصوص ـ فعلينا أن نؤمن بكل ما جاء من عند الله ونقر بالحق كله، ولا يكون لنا هوى، ولا نتكلم بغير علم، بل نسلك سبل العلم والعدل، وذلك هو اتباع الكتاب والسنة، فأما من تمسك ببعض الحق دون بعض، فهذا منشأ الفرقة والاختلاف[5].

ز ـ **وقال عبد العزيز بن باز**: وقال ﷺ في حديث عمار: «**تقتل عمار الفئة الباغية**»: فقتله معاوية وأصحابه في وقعة صفين، فمعاوية وأصحابه بغاة، لكن مجتهدون ظنوا أنهم مصيبون في المطالبة بدم عثمان[6].

ح ـ **وقال سعيد حوّا**: بعد أن قتل عمار الذي وردت النصوص مبينة أنه تقتله الفئة الباغية، تبين للمترددين أن علياً كان على حق وأن القتال معه كان واجباً ولذا عبّر ابن عمر عن تخلّفه بأنه يأس بسبب هذا التخلف، وما ذلك إلا أنه ترك واجباً وهو نصرة الإمام الحق على الخارجين عليه بغير حق كما أفتى بذلك الفقهاء[7].

---

(1) البداية والنهاية (7/ 277).
(2) سير أعلام النبلاء (8/ 209).
(3) أحكام القرآن (4/ 1717).
(4) مجموع الفتاوي (4/ 437).
(5) المصدر نفسه (4/ 449 - 450).
(6) فتاوى ومقالات متنوعة (6/ 87).
(7) الأساس في السنة (4/ 1710).

★ ــ الرد على قول معاوية ﷺ: إنما قتله من جاء به[1]:

إن جل الصحابة والتابعين قد فهموا من قول رسول الله ﷺ لعمار: «**تقتلك الفئة الباغية**»[2]، إن المقصود جيش معاوية ﷺ، مع أنهم معذورون في اجتهادهم فهم يقصدون الحق ويريدونه، ولكنهم لم يصيبوه، وفئة علي أولى بالحق منهم كما قال ﷺ[3]، ومع أن الأئمة لم يعجبهم تأويل معاوية ـ كما سأنقل ـ إلا أنهم عذروه في اجتهاده، فها هو ابن حجر يقول في قوله ﷺ: «**يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار**»[4]. فإن قيل: كان قتله بصفين وهو مع علي، والذين قتلوه مع معاوية، وكان معه جماعة من الصحابة، فكيف يجوز عليهم الدعاء إلى النار؟ فالجواب: أنهم كانوا ظانين أنهم يدعون إلى الجنة، وهم مجتهدون لا لوم عليهم في اتباع ظنونهم، فالمراد بالدعاء إلى الجنة الدعاء إلى سببها، وهو طاعة الإمام وكذلك معذورون للتأويل الذي ظهر لهم[5].

وقال القرطبي: وقال الإمام أبو المعالي في كتاب الإرشاد، فصل: علي ﷺ، كان إماماً حقاً في توليته، ومقاتلوه بغاة، وحسن الظن بهم يقتضي أن يظن بهم قصد الخير وإن أخطأوه[6]، وقال أيضاً: وقد أجاب علي ﷺ عن قول معاوية بأن قال: فرسول الله ﷺ إذن قتل حمزة حين أخرجه، وهذا من علي ﷺ إلزام، لا جواب عنه، وحجة لا اعتراض عليها، قاله الإمام الحافظ أبو الخطاب ابن دحية[7]، وقال ابن كثير: فقول معاوية: إنما قتله من قدمه إلى سيوفنا، تأويل بعيد جداً، إذ لو كان كذلك لكان أمير الجيش هو القاتل للذين يقتلون في سبيل الله، حيث قدمهم إلى سيوف الأعداء[8]، وقال ابن تيمية: وهذا القول لا أعلم له قائلاً من أصحاب الأئمة الأربعة ونحوهم من أهل السنة، ولكن هو قول كثير من المروانية ومن وافقهم[9]، وقال ابن القيم معلقاً على هذا التأويل: نعم التأويل الباطل تأويل أهل الشام قوله ﷺ لعمار: «**تقتلك الفئة الباغية**»[10]، فقالوا: نحن لم نقتله إنما قتله من جاء به حتى أوقعه بين رماحنا، فهذا هو التأويل الباطل المخالف لحقيقة اللفظ وظاهره، فإن الذي قتله هو الذي قتله، لا من استنصر به[11].

6 - من هو قاتل عمّار بن ياسر؟

قال أبو الغادية الجهني وهو يحدث عن قتله لعمار: فلما كان يوم صفين، أقبل يستن أول

(1) مسند أحمد (2/ 206) إسناده حسن.
(2) مسلم رقم 2916.
(3) معاوية بن أبي سفيان، ص: 210 - 214.
(4) البخاري رقم 447.
(5) فتح الباري (1/ 645).
(6) التذكرة (2/ 222).
(7) التذكرة (2/ 223).
(8) البداية والنهاية (6/ 221).
(9) منهاج السنة (4/ 406).
(10) مسلم رقم 2916.
(11) الصواعق المرسلة (1/ 184، 185).

الكتيبة رَجِلاً، حتى إذا كان بين الصفين فأبصر رجلٌ عورة، فطعنه في ركبته بالرمح فعثر، فانكشف المغفر عنه، فضربته فإذا هو رأس عمار. ثم قتل عماراً، واستسقى أبو غادية/ فأتي بماء في زجاج، فأبى أن يشرب فيها، فأتى بماء في قدح فشرب، فقال رجل: . . . يتورع عن الشرب في الزجاج ولم يتورع عن قتل عمار[1]، ويخبر عمرو بن العاص رضي الله عنه الخبر فيقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«قاتل عمار وسالبه في النار»**[2]. قال ابن كثير ومعلوم أن عماراً كان في جيش علي يوم صفين، وقتله أصحاب معاوية من أهل الشام، وكان الذي تولى قتله يقال له «أبو الغادية»، رجل من أفناد الناس، وقيل إنه صحابي[3]، وقال ابن حجر: والظن بالصحابة في تلك الحروب أنهم كانوا متأولين للمجتهد المخطىء أجر، وإذا ثبت هذا في حق آحاد الناس فثبوته للصحابة بالطريق الأولى[4]، وقال الذهبي: وابن ملجم عند الروافض أشقى الخلق في الآخرة، وهو عندنا أهل السنة ممن نرجو له النار، ونجوّز أن الله يتجاوز عنه، لا كما يقول الخوارج والروافض، وحكمه حكم قاتل عثمان، وقاتل الزبير، وقاتل طلحة، وقاتل سعيد بن جبير، وقاتل عمار وقاتل خارجة، وقاتل الحسين، فكل هؤلاء نبرأ منهم ونبغضهم في الله، ونكل أمورهم إلى الله عز وجل [5]، وقد وفق الألباني في تعليقه على قول ابن حجر: هذا حق، لكن تطبيقه على كل فرد من أفرادهم مشكل، لأنه يلزم تناقض القاعدة المذكورة بمثل حديث الترجمة، أي (قاتل عمار وسالبه في النار) [6]، إذ لا يمكن القول بأن أبا غادية القاتل لعمار مأجور، لأنه قتله مجتهداً، ورسول الله ﷺ يقول: **«قاتل عمار في النار»**[7]، فالصواب أن يقال: إن القاعدة صحيحة، إلا ما دل الدليل القاطع على خلافها، فيستثنى ذلك منها كما هو الشأن هنا، وهذا خير من ضرب الحديث الصحيح بها[8]. وقد ترجم لأبي الغادية الجهني ابن عبد البر فقال: اختلف في اسمه، فقيل: يسار بن سَبُع وقيل يسار بن أزهر، وقيل إن اسمه مسلم. سكن الشام ونزل في واسط، يعدُّ في الشاميين أدرك النبي ﷺ وهو غلام، رُوي عنه أنّه قال: أدركت النبي ﷺ وأنا أيفع، أرد على أهلي الغنم، وله سماع من النبي ﷺ قوله ﷺ: **«لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»**[9]، وكان محباً لعثمان، وهو قاتل عمار بن ياسر، وكان يصف قتله إذا سئل عنه لا يباليه وفي قصته عجبٌ عند أهل العلم[10].

---

(1) الطبقات الكبرى (3/ 260، 261).
(2) السلسلة الصحيحة (5/ 18 - 19).
(3) البداية والنهاية (6/ 220).
(4) الإصابة (7/ 260).
(5) تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين، ص: 654.
(6) السلسلة الصحيحة (5/ 18 - 19).
(7) المصدر نفسه (5/ 18 - 19).
(8) المصدر نفسه (5/ 19).
(9) مسند أحمد (4/ 76) وسنده حسن.
(10) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، رقم3089.

7 - المعاملة الكريمة أثناء الحرب والمواجهة:

إن وقعة صفين كانت من أعجب الوقائع بين المسلمين. . كانت هذه الوقعات من الغرابة إلى حد أن القارئ لا يصدق ما يقرأ ويقف مشدوهاً أمام طبيعة النفوس عند الطرفين، فكل منهم كان يقف وسط المعركة شاهراً سيفه وهو يؤمن بقضيته إيماناً كاملاً، فليست معركة مدفوعة من قبل القيادة يدفعون الجنود إلى معركة غير مقتنعين بها، بل كانت معركة مدفوعة من قبل القيادة، معركة فريدة في بواعثها وفي طريقة أدائها وفيما خلفتها من آثار فبواعثها في نفوس المشاركين يعبر عنها بعض المواقف التي وصلت إلينا في المصادر التاريخية، فهم إخوة يذهبون معاً إلى مكان الماء فيستقون جميعاً ويزدحمون وهم يغرفون الماء وما يؤذي إنسان إنساناً[1]، وهم إخوة يعيشون معاً عندما يتوقف القتال. فهذا أحد المشاركين يقول: كنا إذا تواعدنا من القتال دخل هؤلاء في عسكر هؤلاء وهؤلاء في معسكر هؤلاء. . وتحدثوا إلينا وتحدثنا إليهم[2]، وهم أبناء قبيلة واحدة ولكل منهما اجتهاده، فيقاتل أبناء القبيلة الواحدة كل في طرف[3]، قتالاً مريراً، وكل منهما يرى نفسه على الحق وعنده الاستعداد لأن يُقْتَل من أجله، فكان الرجلان يقتتلان حتى يُثْخِنا (وهناً وضعفاً) ثم يجلسان يستريحان، ويدور بينهما الكلام الكثير، ثم يقومان فيقتتلان كما كانا[4]، وهما أبناء دين واحد يجمعهما، وهو أحب إليهما من أنفسهما، فإذا حان وقت الصلاة توقفوا لأدائها[5]، ويوم قتل عمار بن ياسر صلى عليه الطرفان[6]، ويذكر شاهد عيان اشترك في صفين: تنازلنا بصفين، فاقتتلنا أياماً فكثر القتلى بيننا حتى عقرت الخيل، فبعث علي إلى عمرو بن العاص أن القتلى قد كثروا فأمسك حتى يدفن الجميع قتلاهم فأجابهم، فاختلط بعض القوم ببعض حتى كانوا هكذا ـ وشبك بين أصابعه ـ، وكان الرجل من أصحاب علي يشد فيقتل في عسكر معاوية، فيستخرج منه، وقد مر أصحاب علي بقتيل لهم أمام عمرو، فلما رآه بكى وقال: لقد كان مجتهداً أخشن في أمر الله[7]. وكانوا يسارعون إلى التناهي عن المنكر حتى في مثل هذه المواقع، فكانت هناك مجموعة عرفوا بالقراء، وكانوا من تلامذة عبد الله بن مسعود من أهل العراق ومن أهل الشام معاً، فلم ينضموا إلى أمير المؤمنين علي، ولا إلى معاوية بن أبي سفيان وقالوا لأمير

---

(1) تاريخ الطبري (5/ 610)، سير أعلام النبلاء (2/ 41)، مرويات أبي مخنف، ص: 296.
(2) البداية والنهاية (7/ 270)، دراسات في عهد النبوة، ص: 423.
(3) تاريخ الطبري، نقلاً عن دراسات في عهد النبوة، ص: 424.
(4) البداية والنهاية (10/ 272).
(5) تاريخ الطبري، نقلاً عن دراسات في عهد النبوة، ص: 424.
(6) تاريخ دمشق (8/ 233) دراسات في عهد النبوة ص: 424.
(7) أنساب الأشراف (6/ 56) بسند حسن.

المؤمنين: إنا نخرج معكم ولا ننزل عسكركم، ونعسكر على حدة حتى ننظر في أمركم وأمر أهل الشام، فمن رأيناه أراد ما لا يحل له، أو بدا منه بغي كنا عليه فقال علي: مرحباً وأهلاً، هذا هو الفقه في الدين، والعلم بالسنة من لم يرضَ بهذا فهو جائر خائن[1]. والحقيقة أن هذه المواقف منبعثة من قناعات واجتهادات استوثقوا منها في قرارة أنفسهم وقاتلوا عليها[2].

٨ - معاملة الأسرى عند أمير المؤمنين علي ﷺ :

إن المعاملة الحسنة للأسير وإكرامه في صفين من الأمور البدهية بعد ما استعرضنا المعاملة الكريمة أثناء القتال، وقد بين الإسلام معاملة الأسرى، فقد حث رسول الله ﷺ على إكرام الأسرى، وإطعامه أفضل الأطعمة الموجودة، هذا مع غير المسلمين فكيف إذا كان الأسير مسلماً، لا شك أن إكرامه والإحسان إليه أولى، ولكن الأسير في هذه المعركة يعتبر فئة وقوة لفرقته[3]، لذلك كان علي ﷺ يأمر بحبسه، فإن بايع أخلى سبيله وإن أبى أخذ سلاحه ودابته أو يهبها لمن أسره ويحلفه إلا يقاتل وفي رواية يعطيه أربعة دراهم[4]وغرض الخليفة الراشد من ذلك واضح، وهو إضعاف جانب البغاة وقد أتى بأسير يوم صفين فقال الأسير: لا تقتلني صبراً، فقال علي ﷺ : لا أقتلك صبراً إني أخاف الله رب العالمين، فخلى سبيله ثمّ قال: أفيك خير تبايع[5].

ويبدو من هذه الروايات أن معاملته للأسرى كما يلي:

- إكرام الأسير والإحسان إليه.
- يعرض عليه البيعة والدخول في الطاعة، فإن بايع أخلى سبيله.
- إن أبى البيعة أخذ سلاحه ويحلفه أن لا يعود للقتال ويطلقه.
- إن أبى إلا القتال تحفظّ عليه في الأسر ولا يقتله صبراً[6]. وقد أتى ﷺ مرة بخمسة عشرا أسيراً ويبدو أنهم جرحى، فكان من مات منهم غسله وكفنه وصلى عليه[7]. ويقول محب الدين الخطيب معلقاً على هذه الحرب: ومع ذلك، فإن هذه الحرب المثالية هي الحرب الإنسانية الأولى في التاريخ الذي جرى فيها المتحاربان معاً على مبادئ الفضائل التي يتمنى حكماء الغرب لو يعمل بها في حروبهم ولو في القرن الحادي والعشرين، وإن كثيراً من قواعد

---

(1) صفين، ص: 115، دراسات في عهد النبوة، ص: 424.
(2) دراسات في عهد النبوة، ص: 424.
(3) كتاب: قتال أهل البغي من الحاوي الكبير، ص: 133، 134.
(4) خلافة علي بن أبي طالب، عبد الحميد، ص: 243.
(5) الأم للشافعي (4/ 224) (8/ 256).
(6) خلافة علي بن أبي طالب، عبد الحميد، ص: 243.
(7) تاريخ دمشق، تحقيق المنجد (1/ 331)، خلافة علي بن أبي طالب، ص: 243.

الحرب في الإسلام لم تكن لتعلم وتدون لولا وقوع هذه الحرب، ولله في كل أمر حكمة[1]، قال ابن العديم: قلت: وهذا كله حكم أهل البغي، ولهذا قال أبو حنيفة: لولا ما سار علي فيهم، ما علم أحد كيف السيرة في المسلمين[2].

9 - عدد القتلى:

تضاربت أقوال العلماء في عدد القتلى فذكر ابن أبي خيثمة أن القتلى في صفين بلغ عددهم سبعين ألفاً، من أهل العراق خمسة وعشرين ألفاً، ومن أهل الشام خمسة وأربعين ألف مقاتل[3]، كما ذكر ابن القيم أن عدد القتلى في صفين بلغ سبعين ألفاً أو أكثر[4]، ولا شك أن هذه الأرقام غير دقيقة، بل أرقام خيالية، فالقتال الحقيقي والصدام الجماعي استمر ثلاثة أيام مع وقف القتال بالليل إلا مساء الجمعة فيكون مجموع القتال حوالي ثلاثين ساعة[5]، ومهما كان القتال عنيفاً، فلن يفوق شدة القادسية التي كان عدد الشهداء فيها ثمانية آلاف وخمسمائة[6]، وبالتالي يصعب عقلاً أن نقبل تلك الروايات التي ذكرت الأرقام الكبيرة.

10 ـ تفقد أمير المؤمنين عليّ القتلى وترحمه عليهم:

كان أمير المؤمنين علي رضي الله عنه بعد نهاية الجولات الحربية يقوم بتفقد القتلى، فيقول شاهد عيان: رأيت علياً على بغلة النبي ﷺ الشهباء، يطوف بين القتلى[7]، وأثناء تفقده القتلى ومعه الأشتر، مر برجل مقتول ـ وهو أحد القضاة والعباد المشهورين بالشام ـ فقال الأشتر ـ وفي رواية أخرى عدي بن حاتم ـ: يا أمير المؤمنين أحابس[8] معهم؟ عهدي والله به مؤمن، فقال علي: فهو اليوم مؤمن، ولعل هذا الرجل المقتول هو القاضي الذي أتى عمر بن الخطاب وقال: ياأمير المؤمنين، رأيت رؤيا أفظعتني، قال: ما هي؟ قال: رأيت الشمس والقمر يقتتلان والنجوم معهما نصفين قال: فمع أيهما كنت؟ قال: مع القمر على الشمس، فقال عمر: قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: 12] فانطلق فوالله لا تعمل لي عملاً أبداً، قال الرواي: فبلغني أنه قتل مع معاوية

---

(1) العواصم من القواصم، ص: 168 - 169 من تعليق الخطيب في الحاشية.

(2) بغية الطالب في تاريخ حلب (1/ 309)، خلافة علي، ص: 245.

(3) الأنباء للقضاعي، ص: 59 نقلا عن خلافة علي، ص: 245.

(4) الصواعق المرسلة (1/ 377) بدون سند تحقيق محمد دخيل الله.

(5) الدولة الأموية، ص: 360 - 362.

(6) تاريخ الطبري (4/ 388).

(7) مصنف ابن أبي شية.

(8) حابس ابن سعد الطائي مخضرم، قتل بصفين.

بصفين[1]، وقد وقف علي على قتلاه وقتلى معاوية فقال: غفر الله لكم، غفر الله لكم، للفريقين جميعاً[2]. وعن يزيد بن الأصم قال: لما وقع الصلح بين علي ومعاوية، خرج علي فمشى في قتلاه فقال: هؤلاء في الجنة ثم خرج إلى قتلى معاوية فقال: هؤلاء في الجنة، ويصير الأمر إليّ وإلى معاوية[3]، وكان يقول عنهم: هم المؤمنون[4]، وقوله ﷺ في صفين لا يكاد يختلف عن قوله في أهل الجمل[5].

11 - موقف لمعاوية مع ملك الروم:

استغل ملك الروم الخلاف الذي وقع بين أمير المؤمنين علي ومعاوية ﷺ وطمع في ضم بعض الأراضي التي تحت هيمنة معاوية إليه، قال ابن كثير: .. وطمع في معاوية ملك الروم بعد أن كان أخشاه وأذله، وقهر جندهم ودحاهم، فلم رأى ملك الروم اشتغال معاوية بحرب علي، تدانى إلى بعض البلاد في جنود عظيمة وطمع فيه، فكتب معاوية إليه: والله لئن لم تنته وترجع إلى بلادك يا لعين لأصطلحن أنا وابن عمي عليك ولأخرجنك من جميع بلادك ولأضيقنَّ عليك الأرض بما رحبت. فعند ذلك خاف ملك الروم وانكف، وبعث يطلب الهدنة[6]. وهذا الأثر يدل على أن الخلاف الذي بينه وبين علي ﷺ لن يبقى لحظة واحدة فيما لو تعرض أمن الدولة الإسلامية في الشام للخطر، ولولا أن الروم يعلمون أن هذه الخلافات قابلة للنسيان المطلق، ما أخذوا تحذير معاوية مأخذ الجد وكفوا أيديهم[7].

12 - قصة باطلة في حق عمرو بن العاص بصفين:

قال نصر بن مزاحم الكوفي: وحمل أهل العراق وتلقَّاهم أهل الشام فاجتلدوا وحمل عمرو بن العاص.... فاعترضه علي وهو يقول:

قـد عـلـمـت ذات الـقـرون الـمـيـل والـخـضـر والأنـامـل الـطـفـول[8]

إلى أن يقول: ثم طعنه فصرعه واتقاه عمرو برجله، فبدت عورته، فصرف علي وجهه عنه وارتُثَّ. فقال القوم: أفلتَ الرجل يا أمير المؤمنين. قال: وهل تدرون من هو؟ قالوا: لا.

---

(1) مصنف ابن أبي شيبة (11/ 74) بسند منقطع.
(2) خلافة علي بن أبي طالب، عبد الحميد، ص: 250، تنزيه لخال المؤمنين.
(3) مصنف بن أبي شيبة (15/ 303) بسند حسن.
(4) تاريخ دمشق (1/ 331، 329)، خلافة علي، ص: 251.
(5) خلافة علي بن أبي طالب، عبد الحميد، ص: 251، تنزيه لخال المؤمنين، ص: 169.
(6) البداية والنهاية (8/ 122).
(7) الدور السياسي للصفوة في صدر الإسلام، ص: 211.
(8) الطفول: جمع طفل، بالفتح، وهو الرخص الناعم.

قال فإنه عمرو بن العاص تلقاني بعورته فصرفت وجهي[1]، وذكر القصة ـ أيضاً ـ ابن الكلبي كما ذكر ذلك السهيلي في الروض الأنف: وقول علي: إنه التقاني بعورته فأذكرني الرَحِمَ إلى أن قال: . . ويروى مثل ذلك عن عمرو بن العاص مع علي ﷺ ـ يوم صفين، وفي ذلك يقول الحارث بن النضر الشهمي رواه ابن الكلبي وغيره:

أفي كل يوم فارس غير منته وعورته وسط العجاجة بادية
يكف لها عنه علي سنانه ويضحك منه في الخلاء معاوية[2]

والرد على هذا الافتراء والأفك المبين كالآتي، فراوي الرواية الأولى، نصر بن مزاحم الكوفي صاحب وقعة صفين شيعي جلد لا يستغرب عنه كذبه وافتراؤه على الصحابة، قال عنه الذهبي في الميزان: نصر بن مزاحم الكوفي: رافضي جَلد، تركوه وقال عنه العقيلي: شيعي في حديثه اضطراب وخطأ كثير، وقال أبو خيثمة: كان كذاباً[3]، وقال عنه ابن حجر: قال العجلي: كان رافضياً غالياً. . . ليس بثقة ولا مأمون[4]، وأما الكلبي: هشام بن محمد بن السائب الكلبي، اتفقوا على غلوه في التشيع، قال الإمام أحمد: من يحدث عنه؟ ما ظننت أن أحداً يحدث عنه وقال الدارقطني: متروك[5]، وعن طريق هذين الرافضين سارت هذه القصة في الآفاق وتلقفها من جاء بعدهم من مؤرخي الشيعة، وبعض أهل السنة ممن راجت عليهم أكاذيب الرافضة[6]. وتعد هذه القصة أنموذجاً لأكاذيب الشيعة الروافض وافتراءاتهم على صحابة رسول الله، فقد اختلق أعداء الصحابة من مؤرخي الرافضة مثالب لأصحاب رسول الله ﷺ وصاغوها على هيئة حكايات وأشعار لكي يسهل انتشارها بين المسلمين، هادفين إلى الغض من جناب الصحابة الأبرار ـ ﷺ في غفلة من أهل السنة الذين وصلوا متأخرين إلى ساحة التحقيق في روايات التاريخ الإسلامي، بعد أن طارت تلكم الأشعار والحكايات بين القصَّاص وأصبح كثير منها من المسَلَّمات، حتى عند مؤرخي أهل السنة للأسف[7].

13 - مرور أمير المؤمنين علي بالمقابر بعد رجوعه من صفين:

لما انصرف علي أمير المؤمنين ﷺ من صفين مرّ بمقابر، فقال: السلام عليكم أهل الديار

(1) وقعة صفين، ص: (406 - 408)، قصص لا تثبت، سليمان الخراشي (6/ 16).
(2) الروض الأنف (5/ 462)، قصص لا تثبت (6/ 19).
(3) ميزان الاعتدال (4/ 253 - 254).
(4) لسان الميزان (6/ 157).
(5) المجروحين لابن حبان (3/ 91)، تذكرة الحفاظ (1/ 343) معجم الأدباء (19/ 287)، قصص لا تثبت، ص: (1/ 18).
(6) قصص لا تثبت (1/ 20).
(7) المصدر نفسه (1/ 10).

الموحشة، والمحال المقفرة من المؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، أنتم لنا سلف فارط، ونحن لكم تبعٌ، وبكم عمّا قليل لاحقون، اللّهم اغفر لنا ولهم، وتجاوز بعفوك عنا وعنهم، الحمد لله الذي جعل الأرض كفاتاً، أحياءً وأمواتاً، الحمد لله الذي خلقكم وعليها يحشركم، ومنها يبعثكم، وطوبى لمن ذكر المعاد وأعدّ للحساب، وقنع بالكفاف[1].

14 - إصرار قتلة عثمان رضي الله عنه على أن تستمر المعركة:

إن قتلة عثمان كانوا حريصين على أن تستمر المعركة بين الطرفين، حتى يتفانى الناس، وتضعف قوة الطرفين، فيكونوا بمنأى عن القصاص والعقاب، ولذلك فإنهم فزعوا وهم يرون أهل الشام يرفعون المصاحف، وعلي رضي الله عنه يجيبهم إلى طلبهم فيأمر بوقف القتال وحقن الدماء فسعوا إلى ثني أمير المؤمنين في عزمه لكن القتال توقف، فسقط في أيديهم، فلم يجدوا بداً من الخروج على علي رضي الله عنه فاخترعوا مقولة (الحكم لله) وتحصنوا بعيداً عن الطرفين، والغريب أن المؤرخين لم يركزوا على ما فعله هؤلاء في هذه المرحلة، كما فعلوا في معركة الجمل، رغم أنهم كانوا موجودين في جيش علي، وعن سر إخفاق تلك المفاوضات التي دامت أشهر عديدة، وعن الدور الذي يمكن أن يكون قتلة عثمان قد قاموا به في معركة صفين لإفشال كل محاولة صلح بين الطرفين، لأن اصطلاح علي مع معاوية هو أيضاً اصطلاح عل دمائهم، فلا يعقل أن يجتهدوا في الفتنة في وقعة الجمل، ويتركوا ذلك في صفين[2].

15 - نهي أمير المؤمنين علي عن شتم معاوية ولعن أهل الشام:

روي أن علياً رضي الله عنه لمّا بلغه أن اثنين من أصحابه يظهران شتم معاوية ولعن أهل الشام أرسل إليهما أن كفّا عمّا يبلغني عنكما، فأتيا فقالا: يا أمير المؤمنين: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قال: بلى وربِّ الكعبة المسدّنة، قالا: فلم تمنعنا من شتمهم ولعنهم؟ قال: كرهت لكم أن تكونوا لعّانين، ولكن قولوا: اللّهم أحقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، وأبعدهم عن ضلالتهم حتى يعرف الحق من جهله ويرعوي عن الغي من لجج به[3]، وأما ما قيل من أن علياً كان يلعن في قنوته معاوية وأصحابه، وأن معاوية إذا قنت لعن عليًّا وابن عباس والحسن والحسين، فهو غير صحيح، لأنَّ الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ كانوا أكثر حرصاً من غيرهم على التقيد بأوامر الشارع الذي نهى عن سباب المسلم ولعنه[4]، فقد

(1) البيان والتبيان للجاحظ (3/ 148)، فرائد الكلام للخلفاء الكرام، ص: 327.
(2) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص: 147.
(3) الأخبار الطوال، ص: 165 نقلاً عن تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (2/ 232).
(4) تحقيق مواقف الصحابة (2/ 232).

روي عن رسول الله ﷺ قوله: «من لعن مؤمناً فهو كقتله»[1]، وقوله ﷺ: «ليس المؤمن بطعان ولا بلعّان»[2]، وقوله ﷺ: «لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة»[3]، كما أن الرواية التي جاء فيها لعن أمير المؤمنين في قنوته لمعاوية وأصحابه ولعن معاوية لأمير المؤمنين وابن عباس والحسن والحسين لا تثبت من ناحية السند، حيث فيها أبي مخنف لوط بن يحيى الرافضي المحترق الذي لا يوثق في رواياته. كما أن في أصح كتب الشيعة عندهم النهي عن سب الصحابة، فقد أنكر علي من يسب معاوية ومن معه فقال: إني أكره لكم أن تكونوا سبابين ولكنكم لو وصفتم أعمالهم، وذكرتم حالهم، كان أصوب في القول، وأبلغ في العذر، وقلتم مكان سبكم إياهم: اللّهم أحقن دماءنا ودماءهم وأصلح ذات بيننا وبينهم[4]، فهذا السب والتكفير لم يكن من هدي علي باعتراف أصح كتاب في نظر الشيعة[5].

رابعاً: التحكيم:

تم الاتفاق بين الفريقين على التحكيم بعد انتهاء موقعة صفين، وهو أن يحكّم كل واحد منهما رجلاً من جهته ثم يتّفق الحكمان على ما فيه مصلحة المسلمين، فوكّل معاوية عمرو بن العاص ووكل علي أبا موسى الأشعري رضي الله عنهم جميعاً، وكتب بين الفريقين وثيقة في ذلك، وكان مقر اجتماع الحكمين في دومة الجندل في شهر رمضان سنة 37هـ، وقد رأى قسم من جيش علي رضي الله عنه أن عمله هذا ذنب يوجب الكفر فعليه أن يتوب إلى الله تعالى وخرجوا عليه فسموا الخوارج، فأرسل علي رضي الله عنه إليهم ابن عباس رضي الله عنهما فناظرهم وجادلهم ثم ناظرهم علي رضي الله عنه بنفسه فرجعت طائفة منهم وأبت طائفة أخرى، فجرت بينهم وبين علي رضي الله عنه حروب أضعفت من جيشه وأنهكت أصحابه، وما زالوا به حتى قتلوه غيلة.

تعتبر قضية التحكيم من أخطر الموضوعات في تاريخ الخلافة الراشدة وقد تاه فيها كثير من الكتّاب، وتخبط فيها آخرون وسطروها في كتبهم ومؤلفاتهم، وقد اعتمدوا على الروايات الضعيفة والموضوعة التي شوهت الصحابة الكرام وخصوصاً: أبو موسى الأشعري الذي وصفوه بأنه كان أبله ضعيف الرأي مخدوع في القول، وبأنه كان على جانب كبير من الغفلة ولذلك خدعه عمرو بن العاص في قضيّة التحكيم، ووصفوا عمرو بن العاص رضي الله عنه بأنه كان صاحب مكر وخداع، فكل هذه الصفات الذميمة حاول المغرضون والحاقدون على الإسلام

---

(1) البخاري، كتاب: الأدب (7/ 84).
(2) السلسلة الصحيحة للألباني رقم 320، صحيح سنن الترمذي (2/ 189) رقم 1110.
(3) مسلم (4/ 2006) رقم 2598.
(4) نهج البلاغة، ص: 323.
(5) أصول مذهب الشيعة (2/ 934).

إلصاقها بهذين الرجلين العظيمين الذين اختارهما المسلمون ليفصلا في خلاف كبير أدّى إلى قتل الكثير من المسلمين، وقد تعامل الكثير من المؤرخين والأدباء والباحثين مع الروايات التي وضعها خصوم الصحابة الكرام على أنها حقائق تاريخية، وقد تلقاها الناس منهم بالقبول دون تمحيص لها وكأنها صحيحة لا مرية فيها، وقد يكون لصياغتها القصصية المثيرة وما زعم فيها من خداع ومكر أثر في اهتمام الناس بها وعناية المؤرخين بتدوينها، وليعلم أن كلامنا هذا ينصب على التفصيلات لا على أصل التحكيم حيث أن أصله حق لا شك فيه[1].

خامساً: نص وثيقة التحكيم:

بسم الله الرحمن الرحيم.

1 - هذا ما تقاضى عليه عليُّ بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان وشيعتهما، فيما تراضيا فيه من الحكم بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

2 - قضية علي على أهل العراق شاهدهم وغائبهم، قضية معاوية على أهل الشام شاهدهم وغائبهم.

3 - إنّا تراضينا أن نقف عند حُكم القرآن فيما يحكم من فاتحته إلى خاتمته، نحيي ما أحْيى ونُميت ما أمات. على ذلك تقاضينا وبه تراضينا.

4 - وإن علياً وشيعته رضوا بعبد الله بن قيس ناظراً وحاكماً، ورضي معاوية بعمرو بن العاص ناظراً وحاكماً.

5 - على أن علياً ومعاوية أخذا على عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه وذِمّته وذِمّة رسوله، أن يتخذا القرآن إماماً ولا يعدوا به إلى غيره في الحكم بما وجداه فيه مسطوراً وما لم يجدا في الكتاب ردّاه إلى سنة رسول الله الجامعة، لا يتعمّدان لها خلافاً، ولا يبقيان فيها بشبهة.

6 - وأخذ عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص على علي ومعاوية عهد الله وميثاقه بالرضا بما حكما به مما في كتاب الله وسنة نبيه وليس لهما أن ينقُصا ذلك ولا يخالفاه إلى غيره.

7 - وهما آمنان في حكومتهما على دمائهما وأموالهما وأشعارهما وأبشارهما وأهاليهما وأولادهما، لم يعدوا الحق، رضي به راض أو سخط ساخط، وإن الأمة أنصارهما على ما قضيا به من الحق مما في كتاب الله.

8 - فإن توفي أحد الحكمين قبل انقضاء الحكومة، فلشيعته وأنصاره أن يختاروا مكانه رجلاً من أهل المعدلة والصلاح، على ما كان عليه صاحبه من العهد والميثاق.

---

(1) مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري، ص: 378، تنزيه لخال أمير المؤمنين معاوية، ص: 38.

9 - وإن مات أحد الأميرين قبل انقضاء الأجل المحدود في هذه القضية، فلشيعته أن يُولّوا مكانه رجلاً يرضون عدله.

وقد وقعت القضية بين الفريقين والمفاوضة ورفع السلاح:

10 ـ وقد وقعت القضية بين الفريقين والمفاوضة ورفع السلاح.

11 - وقد وجبت القضية على ما سمّيناه في هذا الكتاب، من موقع الشرط على الأميرين والحَكمين والفريقين والله أقرب شهيد وكفى به شهيداً، فإن خالفا وتعدّيا، فالأمّة بريئة من حُكمهما، ولا عهد لهما ولا ذِمّة.

12 - والناس آمنون على أنفسهم وأهليهم وأولادهم وأموالهم إلى انقضاء الأجل، والسلاح موضوعة، والسبل آمنة، والغائب من الفريقين مثل الشاهد في الأمر.

13 - وللحَكمين أن ينزلا منزلاً متوسطاً عدلاً بين أهل العراق والشام.

14 - ولا يحضرهما فيه إلا من أحبَّا عن تراضٍ بينهما.

15 - والأجل إلى انقضاء شهر رمضان، فإن رأى الحَكمان تعجيل الحكومة عجّلاها، وإن رأى تأخيرها إلى آخر الأجل أخّراها.

16 - فإن هما لم يحكُما بما في كتاب الله وسنة نبيه إلى انقضاء الأجل، فالفريقان على أمرهم الأول في الحرب.

17 - وعلى الأمّة عهد الله وميثاقه في هذا الأمر، وهم جميعاً يد واحدة على من أراد في هذا الأمر إلحاداً أو ظلماً أو خلافاً، وشهد على ما في هذا الكتاب: الحسن والحسين ابنا علي، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب، والأشعث بن قيس الكندي، والأشتر بن الحارث، وسعيد بن القيس الهمداني، والحصين والطفيل ابنا الحارث بن عبد المطلب، وأبو سعيد بن ربيعة الأنصاري، وعبد الله بن خباب بن الأرت، وسهل بن حنيف، وأبو بشر بن عمر الأنصاري، وعوف بن الحارث بن عبد المطلب، ويزيد بن عبد الله الأسلمي، وعقبة بن عامر الجهني، ورافع بن خديج الأنصاري، وعمر بن الحمق الخزاعي، والنعمان بن عجلان الأنصاري، وحجر بن عدي الكندي، ويزيد بن حجية النكري، ومالك ابن كعب الهمداني، وربيعة بن شرحبيل، والحارث بن مالك، وحجر بن يزيد، وعلبة بن حجية، ومن أهل الشام،حبيب بن مسلمة الفهري، وأبو الأعور السلمي، وبشر بن أرطأة القرشي، ومعاوية بن خديج الكندي، والمخارق بن الحارث الذبيدي، ومسلم بن عمرو السكسي، وعبد الله بن خالد بن الوليد، وحمزة بن مالك، وسبيع بن يزيد الحضرمي، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعلقمة بن يزيد الحضرمي، ويزيد بن أبجر العبسي، ومسروق ابن حبلة العكي، وبسر بن يزيد الحميري، وعبد الله بن عامر القرشي، وعتبة بن أبي سفيان،

ومحمد بن أبي سفيان، ومحمد بن عمرو بن العاص، وعمّار بن الأحوص الكلبي، ومسعدة ابن عمرو العتبي، والصباح بن جلهمة الحميري، وعبد الرحمن بن ذي الكلاع، وتمامة بن حوشب، وعلقمة بن حكم.

وكتب يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من صفر سنة سبع وثلاثين[1].

سادساً: قصة التحكيم المشهورة وبطلانها من وجوه:

لقد كثر الكلام حول قصة التحكيم، وتداولها المؤرخون والكتاب على أنها حقيقة ثابتة لا مرية فيها، فهم بين مطيل في سياقها ومختصر وشارح ومستنبط للدروس وبان للأحكام على مضامينها وقلما تجد أحداً وقف عندها فاحصاً محققاً، وقد أحسن ابن العربي في ردها إجمالاً وإن كان غير مفصل وفي هذا دلالة على قوة حاسته النقدية للنصوص، وإذ أن جميع متون قصة التحكيم لا يمكن أن تقوم أمام معيار النقد العلمي، بل هي باطلة من عدة وجوه[2].

1 - **أن جميع طرقها ضعيفة**، وأقوى طريق وردت فيه هو ما أخرجه عبد الرزاق والطبري بسند رجاله ثقات عن الزهري مرسلاً قال: قال الزهري: فأصبح أهل الشام قد نشروا مصاحفهم، ودعوا إلى ما فيها، فهاب أهل العراق، فعند ذلك حكموا الحكمين، فاختار أهل العراق أبا موسى الأشعري، واختار أهل الشام عمرو بن العاص فتعرق أهل صفين حين حكم الحكمان، فاشترطا أن يرفعا من رفع القرآن ويخفضا من خفض القرآن، وأن يختار لأمّة محمد ﷺ، وأنهما يجتمعان بدومة الجندل، فإن لم يجتمعا لذلك اجتمعا من العام المقبل بأذرح، فلما انصرف عليّ خالفت الحرورية وخرجت ـ وكان ذلك أول ما ظهرت ـ فآذنوه بالحرب، وردوا عليه: أن حكم بن آدم في حكم الله عز وجل، وقالوا: لا حكم إلا لله سبحانه، وقالوا، فما اجتمع الحكمان بأذرح، ووافاهم المغيرة بن شعبة فيمن حضر من الناس، فأرسل الحكمان إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن الزبير في إقبالهم في رجال كثير، ووافى معاوية بأهل الشّام، وأبى علي وأهل العراق أن يوافوا، فقال المغيرة بن شعبة لرجال من ذوي الرأي من قريش: أترون أحداً من الناس برأي يبتدعه يستطيع أن يعلم أيجتمع الحكمان أم يفترقان؟ قالوا: لا نرى أحداً يعلم ذلك، قال: فوالله إني لا أظن أني سأعلمه منهما حين أخلو بهما وأرجعهما، فدخل عمرو بن العاص وبدأ به فقال: يا أبا عبد الله، أخبرني عما أسألك عنه، كيف ترانا معشر المعتزلة، فإنا قد شككنا في الأمر الذي تبين لكم من هذا القتال، ورأينا

---

(1) انظر: الوثائق السياسية، ص: 538، 537، الأخبار الطوال للدينوري، ص: 196 - 199، أنساب الأشراف (1/ 382)، تاريخ الطبري (5/ 665، 666)، البداية والنهاية (7/ 276، 277).

(2) مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري، ص: 4042.

أن نستأني ونتثبت حتى تجتمع الأمّة، قال: أراكم معشر المعتزلة خلف الأبرار، وأمام الفجار، فانصرف المغيرة ولم يسأله عن غير ذلك، حتى دخل على أبي موسى فقال له مثل ما قال لعمرو وقال أبو موسى: أراكم أثبت الناس رأياً، فيكم بقية المسلمين، فانصرف المغيرة ولم يسأله عن غير ذلك، فلقي الذين قال لهم ما قال من ذوي الرأي من قريش، فقال: لا يجتمع هذان على أمر واحد، فلما اجتمع الحكمان وتكلما قال عمرو بن العاص: يا أبا موسى، رأيت أول ما تقضي به من الحق أن تقضي لأهل الوفاء بوفائهم، وعلى أهل الغدر بغدرهم، قال أبو موسى: وما ذاك؟ قال: ألست تعلم أن معاوية وأهل الشّام قد وفوا، وقدموا للموعد الذي واعدناهم إياه؟ قال: بلى، قال عمرو: اكتبها فكتبها أبو موسى، قال عمرو: يا أبا موسى، أأنت على أن تسمي رجلاً يلي أمر هذه الأمّة؟ فسمه لي، فإن أقدر على أن أتابعك فلك عليّ أن أتابعك وإلا فلي عليك أن تتابعني، قال أبو موسى أسمي لك معاوية بن أبي سفيان فلم يبرحا مجلسهما حتى استبا، ثم خرجا إلى الناس، فقال أبو موسى: إني وجد مثل عمرو كمثل الذي قال الله ﷻ: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ [الأعراف: 175]. فلما سكت أبو موسى تكلم عمرو فقال: أيها الناس وجدت مثل أبي موسى كمثل الذي قال الله ﷻ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا﴾ [الجمعة: 5]. وكتب كل واحد منهما مثله الذي ضرب لصاحبه إلى الأمصار[1]. والزهري لم يدرك الحادثة فهي مرسلة، ومراسيله كأدراج الرياح لا تقوم بها حجة[2]، كما قرّر العلماء، وهناك طريق أخرى أخرجها ابن عساكر بسنده إلى الزهري وهي مرسلة وفيها أبو بكر بن أبي سبرة قال عنه الإمام أحمد: كان يضع الحديث[3]. وفي سنده أيضاً الواقدي، وهو متروك[4]، وهذا نصها: . . . رفع أهل الشّام المصاحف وقالوا: ندعوكم إلى كتاب الله والحكم بما فيه وكان ذلك مكيدة من عمرو بن العاص، فاصطلحوا وكتبوا بينهم كتاباً على أن يوافوا رأس الحول بأذرح، وحكّموا حكمين ينظرون في أمور الناس فيرضوا بحكمهما، فحكّم علي أبا موسى الأشعري، وحكم معاوية عمرو بن العاص، وتفرق الناس فرجع علي إلى الكوفة بالاختلاف والدغل، واختلف عليه أصحابه فخرج عليه الخوارج من أصحابه ممن كان معه، وأنكروا تحكيمه وقالوا: لا حكم إلا لله ورجع معاوية إلى الشام بالإلفة واجتماع الكلمة عليه ووافى الحكمان بعد الحول بأذرح في شعبان سنة ثمان وثلاثين، واجتمع الناس إليهما وكان بينهما كلام اجتمعا عليه في السر خالفه عمرو بن العاص في العلانية، فقدم أبا موسى فتكلم

(1) المصنف (5/ 463)، مرويات تاريخ الطبري، ص: 406.
(2) المراسيل لأبي حاتم، ص: 3، الجرح والتعديل (1/ 246).
(3) تهذيب التهذيب (12/ 27)، مرويات تاريخ الطبري، ص: 406.
(4) مرويات تاريخ الطبري، ص: 406.

وخلع علياً ومعاوية، ثم تكلم عمرو بن العاص فخلع علياً وأقر معاوية، فتفرق الحكمان ومن كان اجتمع إليهما وبايع أهل الشام ومعاوية في ذي القعدة سنة ثمان وثلاثين[1]، وأما طرق أبي مخنف فهي معلولة به، وبأبي جناب الكلبي فالأول: وهو أبو مخنف لوط بن يحيى، ضعيف ليس بثقة[2]، وأخباري تالف غالي من الرفض وأما الثاني قال فيه ابن سعد: كان ضعيفاً[3]، وقال البخاري وأبو حاتم: كان يحيى القطان يضعفه[4]وقال عثمان الدارمي: ضعيف[5]، وقال النسائي: ضعيف[6].

هذه طرق قصة التحكيم المشهور، والمناظرة بين أبي موسى وعمرو بن العاص المزعومة، أفبمثل هذا تقوم حجة، أو يعول على مثل ذلك في تاريخ الصحابة الكرام وعهد الخلفاء الراشدين، عصر القدوة والأسوة؟ ولو لم يكن في هذه الروايات إلا الاضطراب في متونها لكفاها ضعفاً فكيف إذا أضيف إلى ذلك ضعف أسانيدها[7]؟

2 - أهمية هذه القضية في جانب الاعتقاد والتشريع، ومع ذلك لم تنقل لنا بسند صحيح، ومن المحال أن يطبق العلماء على إهمالها مع أهميتها وشدة الحاجة إليها[8].

3 - وردت رواية تناقض تلك الروايات تماماً، وذلك فيما أخرجه البخاري في تاريخه مختصراً بسند رجاله ثقات، وأخرجه ابن عساكر مطولاً، عن الحصين بن المنذر أن معاوية أرسله إلى عمرو بن العاص فقال له: إنه بلغني عن عمرو وأبو موسى فيه كيف صنعتما فيه؟ قال: قد قال الناس وقالوا: ولا والله ما كان ما قالوا: ولكن لما اجتمعت أنا وأبو موسى قلت له: ما ترى في هذا الأمر؟ قال: أرى أنه في النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، قال: فقلت: أين تجعلني من هذا الأمر أنا ومعاوية؟ قال: إن يستعن بكما ففيكما معونة، وإن يستغنى عنكما فطالما استغنى أمر الله عنكما[9]. وقد روى أبو موسى عن تورّع عمرو ومحاسبته لنفسه، وتذكُّره سيرة أبي بكر وعمر، وخوفه من الإحداث بعدهما، قال أبو موسى: قال لي عمرو بن العاص: والله لئن كان أبو بكر وعمر تركا هذا المال وهو يحلُّ لهما، غُبِنا

---

(1) تاريخ دمشق (16/ 53).
(2) تحقيق مواقف الصحابة (2/ 223).
(3) مرويات أبي مخنف، ص: 407.
(4) التاريخ الكبير (4/ 2/ 267)، الجرح والتعديل (9/ 138).
(5) التاريخ للدارمي، ص: 238، تحقيق مواقف الصحابة (2/ 223).
(6) الضعفاء والمتركون، ص: 253.
(7) مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري، ص: 408.
(8) المصدر نفسه، ص: 408.
(9) التاريخ الكبير (5/ 398).

وأخطأ أو نقص رأيهما، ووالله ما كانا مغبونين ولا مخطئين ولا ناقصي الرأي. ووالله ما جاءنا الوهم والضعف إلا من قِبلنا[1].

4 - إن معاوية كان يقر بفضل علي عليه وأنه أحق بالخلافة منه فلم ينازعه الخلافة ولا طلبها لنفسه في حياة علي، فقد أخرج يحيى بن سليمان الجعفي بسند جيد[2]، عن أبي مسلم الخولاني أنه قال لمعاوية: أنت تنازع علياً في الخلافة أو أنت مثله؟ قال: لا وإني لأعلم أنه أفضل مني وأحق بالأمر، ولكن ألستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوماً وأنا ابن عمه ووليه أطالب بدمه؟ فأتوا علياً فقولوا له أن يدفع لنا قتلة عثمان وأسلم له، فأتوا عليًّا فكلموه فلم يدفعهم إليه[3]، فهذا هو أصل النزاع بين علي ومعاوية ﷺ، فالتحكيم من أجل حل هذه القضية المتنازع عليها لا لاختيار خليفة أو عزله[4]. ويقول ابن حزم في هذا الصدد: بأن علياً قاتل معاوية لامتناعه من تنفيذ أوامره في جميع أرض الشام، وهو الإمام الواجب طاعته، ولم ينكر معاوية قط فضل عليّ واستحقاقه الخلافة، لكن اجتهاده أدَّاه إلى أن رأى تقديم أخذ القود من قتلة عثمان على البيعة، ورأى نفسه أحق بطلب دم عثمان والكلام فيه من أولاد عثمان وأولاد الحكم بن أبي العاص لسنّه وقوته على الطلب بذلك، وأصاب في هذا وإنما أخطأ في تقديمه ذلك على البيعة فقط[5]، وفهم الخلاف على هذه الصورة ـ وهي صورته الحقيقية ـ يبين إلى أيّ مدى تخطئ الروايات السابقة عن التحكيم في تصوير قرار الحكمين، إن الحكمين كانا مفوضين للحكم في الخلاف بين علي ومعاوية، ولم يكن الخلاف بينهما حول الخلافة ومن أحق بها منهما، وإنما كان حول توقيع القصاص على قتلة عثمان، وليس هذا من أمر الخلافة في شيء، فإذا ترك الحكمان هذه القضية الأساسية، وهي ما طلب إليهما الحكم فيه، واتخذا قراراً في شأن الخلافة كما تزعم الرواية الشائعة، فمعنى ذلك أنهما لم يفقها موضوع النزاع، ولم يحيطا بموضوع الدعوى، وهو مستبعد جدّاً[6].

5 - أن الشروط التي يجب توفرها في الخليفة هي العدالة والعلم، والرأي المفضي إلى سياسة الرعية وتدبير المصالح، وأن يكون[7] قرشياً وقد توفرت هذه الشروط في

---

(1) العواصم من القواصم، ص: 178 - 180.
(2) فتح الباري (13/ 86).
(3) سير أعلام النبلاء (3/ 140).
(4) مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري، ص: 409.
(5) الفصل في الملل والأهواء والنحل (4/ 160).
(6) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (2/ 225).
(7) الأحكام السلطانية، الماوردي، ص: 6، الأحكام السلطانية لأبي يعلي، ص: 20، غياث الأمم، ص: 79 وما بعدها.

علي ﷺ فهل بيعته منعقدة أم لا؟ فإن كانت منعقدة ـ ولا شك وقد بايعه المهاجرون والأنصار أهل الحل والعقد، وخصومه يقرون له بذلك ـ فقول معاوية السابق يدل عليه بأن الإمام إذا لم يَخْل عن صفات الأئمة، فرام العاقدون له عقد الإمامة أن يخلعوه، لم يجدوا إلى ذلك سبيلاً باتفاق الأئمة، فإن عقد الإمام لازم، لا اختيار في حله من غير سبب يقتضيه، ولا تنتظم الإمامة ولا تفيد الغرض المقصود منها إلا مع القطع بلزومها، ولو تخير الرعايا في خلع إمام الخلق على حكم الإيثار والاختبار لما استتب للإمام طاعة ولما استمرت له قدرة واستطاعة ولما صح لمنصب الإمام معنى[1]. وإذاً فليس الأمر بهذه الصورة التي تحكيها الروايات كل من لم يرضَ بإمامه خلعه، فعقد الإمامة لا يحله إلا من عقده، وهم أهل الحل والعقد وبشرط إخلال الإمام بشروط الإمامة، وهل علي ﷺ فعل ذلك؟! واتفق أهل الحل والعقد على عزله عن الخلافة وهو الخليفة الراشد حتى يقال إن الحكمين اتفقا على ذلك؟! فما ظهر منه قط إلى أن مات ﷺ شيء يوجب نقض بيعته، وما ظهر منه قط إلا العدل والجد والبر والتقوى والخير[2].

6 - أن الزمان الذي قام فيه التحكيم زمان فتنة، وحالة المسلمين مضطربة مع وجود خليفة له، فكيف تنتظم حالتهم مع عزل الخليفة! لا شك أن الأحوال ستزداد سوءاً، والصحابة الكرام أحذق وأعقل من أن يقدموا على هذا وبهذا يتضح بطلان هذا الرأي عقلاً ونقلاً.

7 - إن عمر بن الخطاب ﷺ حصر الخلافة في أهل الشورى وهم الستة وقد رضي المهاجرون والأنصار بذلك، فكان ذلك إذناً في أن الخلافة لا تعدوا هؤلاء إلى غيرهم ما بقي منهم واحد ولم يبق منهم في زمان التحكيم إلا سعد بن أبي وقاص وقد اعتزل الأمر ورغب عن الولاية والإمارة، وعلي بن أبي طالب القائم بأمر الخلافة وهو أفضل الستة بعد عثمان فكيف يتخطى بالأمر إلى غيره[3].

8 - أوضحت الروايات أن أهل الشام بايعوا معاوية بعد التحكيم. والسؤال ما المسوغ الذي جعل أهل الشام يبايعون معاوية؟ إن كان من أجل التحكيم فالحكمان لم يتفقا ولم يكن ثمة مبرر آخر حتى ينسب عنهم ذلك، مع أن ابن عساكر نقل بسند رجال ثقات عن سعيد بن عبد العزيز التنوخي[4]، أعلم الناس بأمر الشام[5] أنه قال: كان علي بالعراق يدعى أمير المؤمنين،

(1) غياث الأمم، ص: 128، مرويات أبي مخنف، ص: 410
(2) الفصل في الملل والأهواء والنحل (4/ 238).
(3) مرويات تاريخ أبي مخنف، ص: 411.
(4) سعيد بن عبد العزيز التنوخي ثقة إمام (التقريب).
(5) تهذيب التهذيب (4/ 60).

وكان معاوية بالشام يدعى الأمير فلما مات علي دعي معاوية بالشام أمير المؤمنين[1]. فهذا النص يبين أن معاوية لم يبايع بالخلافة إلا بعد وفاة علي، وإلى هذا ذهب الطبري، فقد قال في آخر حوادث سنة أربعين: وفي هذه السنة بويع لمعاوية بالخلافة بإيلياء[2]، وعلق على هذا ابن كثير بقوله: يعني لما مات علي قام أهل الشام فبايعوا معاوية على إمرة المؤمنين لأنه لم يبق له عندهم منازع[3]، وكان أهل الشام يعلمون بأن معاوية ليس كفئاً لعلي بالخلافة ولا يجوز أن يكون خليفة مع إمكان استخلاف علي ﷺ، فإن فضل علي وسابقته وعلمه، ودينه، وشجاعته، وسائر فضائله: كانت عندهم ظاهرة معروفة، كفضل إخوانه، أبي بكر، وعمر، وعثمان وغيرهم ﷺ [4]، وإضافة إلى ذلك فإن النصوص تمنع من مبايعة خليفة مع وجود الأول، فقد أخرج مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: **إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما»**[5]، والنصوص في هذا المعنى كثيرة[6] ومن المحال أن يطبق الصحابة على مخالفة ذلك[7].

9 - **أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عمر قال: دخلت على حفصة ونسوتها تنطف،** قلت: قد كان من أمر الناس ما ترين فلم يجعل لي من الأمر شيء، فقالت: الحق فإنهم ينتظرونك وأخشى أن يكون في احتباسك عنهم فرقة، فلم تدعه حتى ذهب، فلما تفرق الناس خطب معاوية قال: من كان يريد أن يتكلم في هذا الأمر فليطلع لنا قرنه فلنحن أحق به منه ومن أبيه، قال حبيب بن مسلمة: فهلا أجبته؟ قال عبد الله: فحللت حبوتي وهممت أن أقول أحق بهذا الأمر منك من قاتلك وأباك على الإسلام، فخشيت أن أقول كلمة تفرق بين الجمع وتسفك الدم ويحمل عني غير ذلك، فذكرت ما أعد الله في الجنان. قال حبيب حفظت وعصمت[8]، هذا الحديث قد يفهم منه مبايعة معاوية بالخلافة، وليس فيه تصريح بذلك، وقد قال بعض العلماء إن هذا الحديث كان في الاجتماع الذي صالح فيه الحسن بن علي ﷺ معاوية ﷺ، وقال ابن الجوزي إن هذه الخطبة كانت في زمن معاوية لما أراد أن يجعل ابنه يزيد ولي عهده، ويرى ابن حجر في التحكيم[9]، ودلالة النص على القولين الأولين أقوى. فقوله: فخشيت أن أقول كلمة تفرق بين الجمع وتسفك الدم. دليل على اجتماع الكلمة على معاوية، وأيام التحكيم أيام فرقة واختلاف لا أيام جمع وإئتلاف[10].

10 ـ **حقيقة قرار التحكيم:** ليس من شك في أن أمر الخلاف الذي رأى الحكمان رده إلى

---

(1) تاريخ الطبري (6/ 76).
(2) المصدر نفسه (6/ 76).
(3) البداية والنهاية (8/ 16).
(4) الفتاوى (35/ 73).
(5) صحيح مسلم (3/ 1480).
(6) سنن البيهقي (8/ 144).
(7) مرويات أبي مخنف، ص: 412.
(8) البخاري (5/ 48).
(9) فتح الباري (7/ 466).
(10) مرويات أبي مخنف.

الأمة أو إلى أهل الشورى ليس إلا أمر الخلاف بين علي ومعاوية حول قتلة عثمان، ولم يكن معاوية مدعياً للخلافة ولا منكراً حق عليّ فيها كما تقرر سابقاً، وإنما كان ممتنعاً عن بيعته وعن تنفيذ أوامره في الشام حيث كان متغلباً عليها بحكم الواقع لا بحكم القانون، مستفيداً من طاعة الناس له بعد أن بقي والياً فيها زهاء عشرين سنة[1]، وقد قال ابن دحية الكلبي في كتابه «أعلام النصر المبين في المفاضلة بين أهل صفين»: قال أبو بكر محمد بن الطيب الأشعري ـ الباقلاني ـ في مناقب الأئمة: فما اتفق الحكمان قط على خلعه ـ علي بن أبي طالب. . . . . وعلى أنهما لو اتفقا على خلعه لم ينخلع أو أحد منهما على ما شرطا في الموافقة بينهما أو إلى أن يبيّنا ما يوجب خلعه من الكتاب والسنة، ونصّ كتاب عليّ عليه السلام اشتراط على الحكمين أن يحكما بما في كتاب الله عز وجل من فاتحته إلى خاتمته لا يجاوزان ذلك ولا يحدان عنه، ولا يميلان إلى هوى ولا إدهان، وأخذ عليهما أغلظ العهود والمواثيق، وإن هما جاوزا بالحكم كتاب الله فلا حكم لهما . . . والكتاب والسنة يثبتان إمامته، ويعظمانه ويثنيان عليه، يشهدان بصدقه وعدالته، وإمامته، وسابقته في الدين، وعظيم جهاده في جهاد المشركين، وقرابته من سيد المرسلين، وما خص به من القدم في الحلم والمعرفة بالحكم، ووفور الحلم، وأنه حقيق بالإمامة، وأهل لحمل أعباء الخلافة[2].

11 - مكان انعقاد المؤتمر: كان الموعد المحدد لاجتماع الحكمين ـ كما جاء في الوثيقة ـ في رمضان في عام 37 هـ، إذا لم تحدث عوائق، في موضع وسط بين العراق والشام وهذا الموضع المختار هو دومة الجندل[3]، في روايات موثقة، وأذرح[4] في روايات أخرى دونها في الإتقان، ولعل لقرب المكانين من بعضهما أثر في اختلاف الروايات، إذ يقول خليفة ابن خياط[5]. . . ويقال بأذرح وهي من دومة الجندل قريب، وقد تم الاجتماع في الموعد المحدد بدون عوائق[6].

إن المكان الذي اجتمع فيه الحكمان هو دومة الجندل، وهذا بخلاف ما جزم به ياقوت الحموي من أن التحكيم حدث في أذرح واستدل على ذلك ببعض روايات لم يبينها وبالأشعار وبخاصة بشعرى ذي الرمة[7]، في مدح بلال بن أبي بردة[8] وهو قوله:

---

(1) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (2/ 234).

(2) أعلام النصر المبين في المفاضلة بين أهل صفين، ص: 177.

(3) دومة الجندل : غرب مدينة الجوف في شمال الجزيرة العربية.

(4) أذرح: اسم بلد في أطراف الشام من أعمال الشراة من نواحي البلقاء.

(5) تاريخ خليفة، ص: 191 - 192.

(6) خلافة علي بن أبي طالب، عبد الحميد، ص: 267.

(7) ذي الرمة، غيلان بن عقبة توفي 117هـ، سير أعلام النبلاء (5/ 267).

(8) بلال بن أبي بردة عامر بن أبي موسى الأشعري، تهذيب تاريخ دمشق (3/ 321).

أبوك تلافى الدين والناس بعدما تشاءوا وبيت الدين منقلع الكسر
فشد إصار الدين أيام أذرح ورد حروباً قد لقحن إلى عقر[1]

12 - هل حضر سعد بن أبي وقاص اجتماع الحكمين؟: اجتمع الحكمان في موعدهما المحدد، ومع كل واحد منهما بضع مئات يمثلون وفدين، وفد عن أهل العراق، وآخر يمثل أهل الشام، وطلب الحكمان من عدد من أعيان قريش وفضلائهم الحضور لمشاورتهم والاستئناس برأيهم، ولم يحضر الاجتماع عدد من كبار الصحابة [لأنهم] كانوا قد اعتزلوا القتال منذ بدايته، وأفضل هؤلاء: سعد بن أبي وقاص ﷺ فإنه لم يحضر التحكيم ولا أراد ذلك ولا همَّ به[2]، فعن عامر بن سعد أن أخاه عُمرَ انطلق إلى سعد في غنم له خارجاً من المدينة فلمّا أتاه رآه سعد قال: أعوذ بالله من شرِّ هذا الركب، فلمَّا أتاه قال: يا أبتِ، أرضيت أن تكون أعرابياً في غنمك والناس يتنازعون في الملك بالمدينة؟ فضرب سعد صدر عمر وقال: اسكت فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي**»[3].

سابعاً: هل يمكن الاستفادة من حادثة التحكيم في فض النزاعات بين الدول الإسلامية؟

يمكن الاستفادة من حادثة التحكيم في فض النزاعات بين الدول الإسلامية وذلك بتحمل قادة البلاد الإسلامية جميعاً مسؤولياتهم ومن ورائهم الأمّة الإسلامية التي يحكمونها في الضغط الجادّ الصادق، على الطرفين المتنازعين، لكي يوقفا ما بينهما من قتال، ويلجأ إلى التحكيم الشرعي في الإسلام فيرسل هذا الطرف حكماً من قبله، وذلك حكماً آخر من قبله أيضاً، للفصل في النزاع القائم وذلك على ضوء ما يلي:

1 - تحديد صلاحيات الحكمين في إصدار الأحكام التي لا بُدّ منها لحل المشكلات التي هي سبب النزاع.

2 - جعل مصادر التشريع الإسلامي هي المرجع الوحيد لإصدار تلك الأحكام والحلول، التي تفصل في مسائل النزاع.

3 - أخذ العهد على كل طرف من طرفي النزاع، وأخذ العهد على جميع قادة البلاد الإسلامية بقبول ما يصدره الحكمان من أحكام، وحلول مشروعة لإنهاء النزاع الرّاهن، على أنها واجبة التنفيذ بحكم الإسلام، وأن الخروج عليها، أو الرضى بذلك الخروج يترتب عليه الإثم شرعاً.

---

(1) ديوان ذي الرمّة، ص: 361 - 362، نقلاً عن خلافة علي، ص: 272.

(2) خلافة علي بن أبي طالب، عبد الحميد، ص: 272.

(3) المسند (1/ 168) وقال أحمد شاكر إسناده صحيح (3/ 26)، خلافة علي بن أبي طالب، للسُّلمي، ص: 107.

4 - إذا أصدر الحكمان ما اتَّفقَا عليه من أحكام، وحلول، وانقاد لها الطرفان المتنازعان قُضي الأمر، وكفى الله المؤمنين القتال.

5 - إذا رفض أحد الطَّرفين، أو كلاهما الانقياد لقضاء الحكمين اعتبر الطرف الرافض هو الطرف الباغي، سواء صدر الرفض من أحدهما، أو من كليهما، ووجب شرْعاً على القوات الإسلامية في الأقطار الأخرى أن تضع نفسها تحت تصرُّف ما يصدره الحكمان من قرارات عسكرية، من أجل التدخل لحسم النزاع بالقوة على وجه لا تترتب عليه أضرار ومخاطر هي أكبر من ضرر النزاع القائم.

6 - ويكون من صلاحيّات الحكمين بالاتِّفاق: إصدار القرارات التي تخص كيفية تحريك القوات المسلحة في الأقطار الإسلامية الأخرى، من أجل حل النزاع القائم على ضوء ما سلف بيانه[1]، ولعلّ اللجوء إلى مثل هذه الطريقة في حل المنازعات بين الأقطار الإسلامية، كفيل بسد الطريق على أيّة قوة خارجية تتدخل في نزاعات المسلمين بحجة أنَّ بعض أطراف النِّزاع دعاها إلى هذا التدخل.. ومن ثم تستغل هذه الفرصة، لكي تتآمر على المسلمين، فتعمل على تصعيد تلك النزاعات، وفرض الحلِّ الذي يَحْلو لها، ويكون فيه مصلحتها فقط وليعانِ المسلمون، بعدئذٍ، من آثار ذلك الحلِّ أسوأ ممّا كانوا يُعَانُون من فتنة النِّزَاع نفسها، فهذه المعاناة لا تهمها في شيء، لا بل إنَّ هذه المعاناة هي من جملة الاهتمامات التي فرضت من أجل تفجيرها ذلك الحلَّ المشؤوم، قلنا: لعل اللُّجُوء إلى التحكيم، على نحو ما سلف بيانه، يسد الطريق في وجه تلك القوى الخارجيّة التي تبغي في صفوف المسلمين الفساد، هذا، وإن الصفة الإلزاميَّة شرعاً للحل عن طريق التحكيم الذي عرضانه، تستند إلى إجماع الصحابة، فقد أجمع الصحابة كلهم في عهد النِّزاع الذي نشب بين علي ومعاوية على اللجُوء إلى التحكيم، والقبول به.. سواء في ذلك الصحابة الذين كانوا مع علي، والصحابة الذين كانوا مع معاوية، والصحابة الذين اعتزلوا الطريقين، كسعد بن أبي وقاص، وابن عمر، وغيرهما ﷺ أجمعين[2].

ثامناً: موقف أهل السنة من تلك الحروب:

إن موقف أهل السنة والجماعة من الحرب التي وقعت بين الصحابة الكرام ﷺ هو الإمساك عما شجر بينهم إلا فيما يليق بهم ﷺ لما يسببه الخوض في ذلك من توليد العداوة والحقد والبغض لأحد الطرفين، وقالوا: إنه يجب على كل مسلم أن يحب الجميع ويترضى عنهم ويترحم عليهم ويحفظ لهم فضائلهم، ويعترف لهم بسوابقهم، وينشر مناقبهم وأن الذي

(1) الجهاد والقتال في السياسة الشرعية (3/ 1665).

(2) المصدر نفسه.

حصل بينهم إنما كان عن اجتهاد والجميع مثابون في حالتي الصواب والخطأ، غير أن ثواب المصيب ضعف ثواب المخطىء في اجتهاده وأن القاتل والمقتول من الصحابة في الجنة، ولم يجوز أهل السنة والجماعة الخوض فيما شجر بينهم، وقبل أن أذكر طائفة من أقوال أهل السنة التي تبين موقفهم فيما شجر بين الصحابة أذكر بعض النصوص التي فيها الإشارة إلى ما وقع بين الصحابة من الاقتتال وبما وصفوا به فيها وتلك النصوص هي[1].

1 - قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾ [الحجرات: 9].

ففي هذه الآية أمر الله تعالى بالإصلاح بين المؤمنين إذا ما جرى بينهم قتال لأنهم إخوة وهذا الاقتتال لا يخرجهم عن وصف الإيمان حيث سماهم الله ﷻ مؤمنين وأمر بالإصلاح بينهم، وإذا كان حصل اقتتال بين عموم المؤمنين ولم يخرجهم ذلك من الإيمان فأصحاب رسول الله ﷺ الذين اقتتلوا في موقعة الجمل وبعدها أول من يدخل في اسم الإيمان الذي ذكر في هذه الآية، فهم لا يزالون عند ربهم مؤمنين إيماناً حقيقياً ولم يؤثر ما حصل بينهم من شجار في إيمانهم بحال لأنه كان عن اجتهاد[2].

2 - عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**تمرق مارقة عند فرقة من المسلمين تقتلهم أولى الطائفتين بالحق**»[3]. والفرقة المشار إليها في الحديث هي ما كان من الاختلاف بين علي ومعاوية ﷺ وقد وصف ﷺ الطائفتين معاً بأنهما مسلمتان وأنهما متعلقتان بالحق، والحديث علم من أعلام النبوة: إذ وقع الأمر طبق ما أخبر به عليه الصلاة والسلام، وفيه الحكم بإسلام الطائفتين: أهل الشام وأهل العراق، لا كما يزعمه فرقة الرافضة والجهلة من تكفيرهم أهل الشام، وفيه أن أصحاب علي أدنى الطائفتين إلى الحق وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة، أن علياً هو المصيب وإن كان معاوية مجتهداً وهو مأجور إن شاء الله ولكن علي هو الإمام فله أجران كما ثبت في صحيح البخاري: «**إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر**»[4].

3 - وعن أبي بكرة قال: بينما النبي ﷺ يخطب جاء الحسن فقال النبي: «ابني هذا سيد

---

(1) عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام (2/ 727) تنزيه خال أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان من الظلم والفسق في مطالبته بدم أمير المؤمنين عثمان، ص: 41.

(2) العواصم من القواصم، ص: 169 - 170، أحكام القرآن (4/ 1717).

(3) مسلم (2/ 745).

(4) البخاري مع شرحه في فتح الباري (13/ 318).

ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين»[1]، ففي هذا الحديث شهادة من النبي ﷺ بإسلام الطائفتين أهل العراق وأهل الشام، والحديث فيه رد واضح على الخوارج الذين كفّروا علياً ومن معه ومعاوية ومن معه بما تضمنه الحديث من الشهادة للجميع بالإسلام، ولذا كان يقول سفيان بن عيينة: قوله فئتين من المسلمين يعجبنا جداً. قال البيهقي: وإنما أعجبهم لأن النبي ﷺ سماهم جميعاً مسلمين وهذا خبر من رسول الله ﷺ بما كان من الحسن بن علي بعد وفاة علي في تسليمه الأمر إلى معاوية بن أبي سفيان[2].

فهذه الأحاديث المتقدم ذكرها فيها الإشارة إلى أهل العراق الذين كانوا مع علي وإلى أهل الشام الذين كانوا مع معاوية بن أبي سفيان وقد وصفهم النبي ﷺ بأنهم من أمته[3]. كما وصفهم بأنهم جميعاً متعلقون بالحق لم يخرجوا عنه كما شهد لهم ﷺ بأنهم مستمرون على الإيمان ولم يخرجوا عنه بسبب القتال الذي حصل بينهم وقد دخلوا تحت عموم قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: 9]. وقد قدمنا أن مدلول الآية ينتظمهم ﷺ أجمعين فلم يكفروا ولم يفسقوا بقتالهم بل هم مجتهدون متأولون وقد بين الحكم في قتالهم ذلك علي بن أبى طالب ﵁ كما مر معنا. فالواجب على المسلم أن يسلك في اعتقاده فيما حصل بين الصحابة الكرام ﵃ مسلك الفرقة الناجية من أهل السنة والجماعة وهو الإمساك عما حصل بينهم ﵃ ولا يخوض فيه إلا بما هو لائق بمقامهم وكتب أهل السنة مملوءة ببيان عقيدتهم الصافية النقية في حق أولئك الصفوة المختارة وقد حددوا موقفهم من تلك الحرب التي وقعت بينهم في أقوالهم الحسنة التي منها[4].

1 - سئل عمر بن عبد العزيز ﵀ عن القتال الذي حصل بين الصحابة فقال: تلك دماء طهر الله يدي منها أفلا أطهر بها لساني، مثل أصحاب رسول الله ﷺ مثل العيون، ودواء العيون ترك مسها[5]. قال البيهقي معلقاً على قول عمر بن عبد العزيز ﵀: هذا حسن جميل لأن سكوت الرجل عما لا يعنيه هو الصواب[6].

2 - سئل الحسن البصري ﵀ عن قتال الصحابة فيما بينهم فقال: قتال شهده أصحاب محمد ﷺ وغبنا، وعلموا وجهلنا، واجتمعوا فاتبعنا، واختلفوا فوقفنا [7]. ومعنى قول الحسن هذا: أن الصحابة كانوا أعلم بما دخلوا فيه منا وما علينا إلا أن نتبعهم فيما

(1) البخاري، كتاب: الفتن رقم: 7109.
(2) الاعتقاد للبيهقي، ص: 198، فتح الباري (13/ 66).
(3) في صحيح مسلم (2/ 746) تكون في أمتي فرقتان.
(4) عقيدة أهل السنة في الصحابة (2/ 732).
(5) الإنصاف للباقلاني، ص: 16 , الطبقات (5/ 394).
(6) مناقب الشافعي، ص: 136.
(7) الجامع لأحكام القرآن (16/ 332).

اجتمعوا عليه، ونقف عندما اختلفوا فيه ولا نبتدع رأياً منا، ونعلم أنهم اجتهدوا وأرادوا الله عَزَّوَجَلَّ إذ كانوا غير متهمين في الدين[1].

3 - سئل جعفر بن محمد الصادق عما وقع بين الصحابة فأجاب بقول: أقول ما قال الله تعالى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾[2] [طه: 52].

4 - قال الإمام أحمد رحمه الله بعد أن قيل له: ما تقول فيما كان بين علي ومعاوية قال: ما أقول فيهم إلا الحسنى[3]، وعن إبراهيم بن آرز الفقيه قال: حضرت أحمد بن حنبل وسأله رجل عما جرى بين علي ومعاوية ؟ فأعرض عنه فقيل له: يا أبا عبد الله هو رجل من بني هاشم فأقبل عليه فقال: اقرأ ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 141].

5 - وقال ابن أبي زيد القيرواني في صدد عرضه لما يجب أن يعتقده المسلم في أصحاب رسول الله ﷺ وما ينبغي أن يذكروا به فقال: وأن لا يذكر أحد من صحابة الرسول إلا بأحسن ذكر، والإمساك عما شجر بينهم وأنهم أحق الناس أن يلتمس لهم أحسن المخارج ويظن بهم أحسن المذاهب[4].

6 - وقال أبو عبد الله بن بطة أثناء عرضه لعقيدة أهل السنة والجماعة: ومن بعد ذلك نكف عما شجر بين أصحاب رسول الله ﷺ فقد شهدوا المشاهد معه وسبقوا الناس بالفضل، فقد غفر الله لهم وأمرك بالاستغفار لهم والتقرب إليه بمحبتهم، وفرض ذلك على لسان نبيه وهو يعلم ما سيكون منهم وأنهم سيقتتلون، وإنما فضلوا على سائر الخلق لأن الخطأ والعمد قد وضع عنهم وكل ما شجر بينهم مغفور لهم[5].

7 - قال أبو بكر بن الطيب الباقلاني: ويجب أن يعلم: أن ماجرى بين أصحاب النبي ﷺ ورضي عنهم من المشاجرة نكف عنه ونترحم على الجميع ونثني عليهم، ونسأل الله تعالى لهم الرضوان والأمان والفوز والجنان ونعتقد أن علياً عَلَيْهِ السَّلَامُ أصاب فيما فعل وله أجران، وأن الصحابة رضي الله عنهم إن ما صدر منهم كان باجتهاد، فلهم الأجر ولا يفسقون ولايبدعون والدليل عليه قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: 18] وقوله ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران

---

(1) المصدر نفسه (16/ 332).

(2) الإنصاف للباقلاني، ص: 164.

(3) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي، ص: 164.

(4) رسالته المشهورة مع شرحها الثمر الداني (152)، ص: (23).

(5) الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة، ص: 268

وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر» فإذا كان الحاكم في وقتنا له أجران على اجتهاده فما ظنك باجتهاد من رضي الله عنهم ورضوا عنه، ويدل على صحة هذا القول: قوله ﷺ للحسن ﷺ: «إن ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»[1]، فأثبت العظمة لكل واحدة من الطائفتين وحكم لهما بصحة الإسلام وقد وعد الله هؤلاء القوم بنزع الغل من صدورهم بقوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: 47]. . . إلى أن قال: ويجب الكف عمّا شجر بينهم والسكوت عنه[2].

8 - وقال ابن تيمية في صدد عرضه لعقيدة أهل السنة والجماعة فيما شجر بين الصحابة: ويمسكون عما شجر بين الصحابة ويقولون: إن هذه الآثار المروية في مساويهم منها ما هو كذب ومنها ما هو زيد فيه ونقص وغيرّ عن وجهه، والصحيح منه هم فيه معذورون إما مجتهدون مصيبون، وإما مجتهدون مخطئون[3].

9 - وقال ابن كثير: أما ما شجر بينهم بعده عليه الصلاة والسلام فمنه ما وقع من غير قصد كيوم الجمل ومنه ما كان عن اجتهاد كيوم صفين، والاجتهاد يخطئ ويصيب ولكن صاحبه معذور وإن أخطأ ومأجور أيضاً: وأما المصيب فله أجران[4].

10 - وقال ابن حجر: واتفق أهل السنة على وجوب منع الطعن على أحد من الصحابة بسبب ما وقع لهم من ذلك ولو عرف المحق منهم، لأنهم لم يقاتلوا في تلك الحروب إلا عن اجتهاد بل ثبت أنه يؤجر أجراً واحداً، وأن المصيب يؤجر أجرين[5].

فأهل السنة مجمعون على وجوب السكوت عن الخوض في الفتن التي جرت بين الصحابة ﷺ بعد قتل عثمان والترحم عليهم، وحفظ فضائل الصحابة والاعتراف لهم بسوابقهم ونشر محاسنهم رضي الله عنهم وأرضاهم[6].

تاسعاً: تغير الموازين لصالح معاوية بعد معركة صفين

بعد معركة صفين بدأت الموازين تتبدل لصالح معاوية ﷺ فقد خرج الخوارج من جيش علي ﷺ، وانشغل بقتالهم، بينما ازداد أمر معاوية قوة لا سيما بعد انتهاء أمر التحكيم، وعدم الوصول إلى حل جزري، وكان معاوية ﷺ يعمل بشتى الوسائل سرًّا وعلانية على

(1) البخاري. كتاب: الفتن رقم: 7109.
(2) الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولايجوز الجهل به، ص: 67- 69.
(3) العقيدة الواسطية مع شرحها لمحمد خليل هراس، ص: 173.
(4) الباعث الحثيث، ص: 182.
(5) فتح الباري (13/ 634) عقيدة أهل السنة (2/ 740).
(6) عقيدة أهل السنة (2/ 740).

إضعاف جانب أمير المؤمنين علي ، واستغل ما أصاب جيشه من تفكك وخلاف، فأرسل جيشاً إلى مصر بقيادة عمرو بن العاص سيطر عليها وضمها إليه وقد ساعده على ذلك عدة أمور منها:

1 - انشغال أمير المؤمنين علي بالخوارج.

2 - عامل أمير المؤمنين علي على مصر - محمد بن أبي بكر - لم يكن على قدر من الدهاء كسلفه قيس بن سعد الساعدي الأنصاري، فدخل في حرب مع المطالبين بدم عثمان ولم يسايسهم كما كان يضع الوالي السابق، فهزموه.

3 - اتفاق معاوية مع المطالبين بدم عثمان في مصر في الرأي، فساعده في السيطرة عليها[1].

4 - بعد مصر عن مركز أمير المؤمنين علي وقربها من الشام.

5 - طبيعتها الجغرافية، فهي متصلة بأرض الشام عن طريق سيناء وتمثل امتداداً طبيعياً، وقد أضافت مصر قوة كبيرة لمعاوية ، قوة بشرية واقتصادية كبيرة، وكذلك أرسل معاوية بعوثه إلى شمال الجزيرة العربية، ومكة والمدينة وإلى اليمن ولكن لم تلبث هذه البعوث أن ردت على أعقابها عندما أرسل أمير المؤمنين عليٌّ من يصدها[2]، وعمل معاوية على استمالة كبار أعيان القبائل وعمال علي ، فقد حاول سحب قيس بن سعد عامل علي على مصر إليه فلم يستطيع، ولكنه استطاع أن يثير شك حاشية علي ومستشاريه فيه فعزله[3]، وكان عزل سعد عن ولاية مصر مكسباً كبيراً لمعاوية، كما حاول سحب زياد بن أبيه عامل علي على فارس ففشل في ذلك[4]، وقد استطاع معاوية أن يؤثر على بعض الأعيان والولاة بسبب ما يمنيهم ويعدهم به، ولما يرونه من علو أمر معاوية وتفرق أمر علي ؛ إذ يقول في إحدى خطبه: ألا إن بسراً قد أطلع من قبل معاوية، ولا أرى هؤلاء القوم إلا سيظهرون عليكم باجتماعهم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم وبطاعتهم أميرهم ومعصيتكم أميركم، وبأدائهم الأمانة وبخيانتكم، استعملت فلاناً فغلَّ وغدر وحمل المال إلى معاوية، واستعملت فلاناً فخان وغدر وحمل المال إلى معاوية، حتى لو ائتمنت أحدهم على قدح خشيت على عِلاَقَتِهِ، اللّهم إني أبغضتهم، وأبغضوني فأرحهم مني وأرحني منهم[5]. ولم يستسلم أمير المؤمنين علي لهذه المصائب، وهذا التقاعس، والتخاذل فقد بذل جهده في

---

(1) الطبقات (3/ 83) خلافة علي، لعبد الحميد، ص: 351 سند صحيح.

(2) تاريخ خليفة، ص: 198 بدون سند

(3) ولاة مصر، ص: 45, 46.

(4) الاستيعاب (2/ 526, 5,5).

(5) التاريخ الصغير (1/ 125) بسند منقطع وله شواهد.

استنهاض همة جيشه بكل ما أوتي من علم وفصاحة وبيان، فخطبه الحماسية المشهورة التي اشتهرت عنه، والتي تعتبر من عيون التراث لم يقلها من فراغ أوخيال، بل مرٌّ تجرّعه، وواقع أليم عاصره، ولقد ذكرت منها في كتابي عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه [1].

عاشراً: المهادنة بين أمير المؤمنين علي ومعاوية رضي الله عنهما:

بالرغم من كل هذه المحاولات والجهود المضنية لم يستطع أمير المؤمنين علي رضي الله عنه أن يحقق مايريد؛ إذ لم يستطع أن يغزو الشام بسبب التفكك والتصدع الذي حدث في داخل جيشه وتفرق كلمتهم وظهور الأهواء، فاضطر أمير المؤمنين علي رضي الله عنه في سنة أربعين للهجرة أن يوافق لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه على أن يكون العراق له، والشام لمعاوية ولا يدخل أحدهما على صاحبه في عمله بجيش ولا غارة ولا غزو[2]، قال الطبري في تاريخه: وفي هذه السنة - 40هـ - جرت بين علي وبين معاوية رضي الله عنهما المهادنة بعد مكاتبات جرت بينهما يطول بذكرها الكتاب على وضع الحرب بينهما، ويكون لعلي العراق، ولمعاوية الشام، فلا يدخل أحدهما على صاحبه في عمله بجيش ولا غارة ولا غزو[3]، ويبدو أن هذه المهدنة لم تستمر، فمعاوية أرسل بسر بن أرطأة إلى الحجاز واليمن في العام الذي استشهد فيه علي رضي الله عنه [4].

الحادي عشر: استشهاد أمير المؤمنين علي واستقبال معاوية خبر مقتله:

ولما لم يتمكن علي رضي الله عنه من تجهيز الجيش بما يصبو ويريد ورأى خذلانهم كره الحياة وتمنى الموت وكان يتوجه إلى الله بالدعاء ويطلب منه عز وجل أن يعجل منيته، فمما روي عنه أنه خطب يوماً فقال: اللّهم إني قد سئمتهم وسئموني ومللتهم وملوني، فأرحني منهم وأرحهم مني، فما يمنع أشقاكم أن يخضبها بدم، ووضع يده على لحيته[5]، وقد ألح عليٌّ رضي الله عنه في الدعاء في أيامه الأخيرة، فعن جندب قال: ازدحموا على علي رضي الله عنه حتى وطئوا على رحاله فقال: اللّهم إني قد مللتهم وملوني وأبغضتهم وأبغضوني، فأرحني منهم وأرحهم مني[6]، وفي رواية أخرى عن أبي صالح قال: شهدت علياً وضع المصحف على رأسه حتى سمعت تقعقع الورق، فقال: اللّهم إني سألتهم ما فيه فمنعوني، اللّهم إني قد مللتهم وملوني، وأبغضتهم وأبغضوني، وحملوني على غير أخلاقي، فأبدلهم بي شراً مني، وأبدلني بهم خيراً منهم ومث

---

(1) سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (2/ 1020).
(2) تاريخ الطبري (6/ 56)، خلافة علي، عبد الحميد، ص: 356.
(3) المصدر نفسه (6/ 56).
(4) التاريخ الصغير للبخاري (1/ 41)، وخلافة علي أبي طالب، ص 431.
(5) مصنف عبد الرزاق (10/ 154) بإسناد صحيح، الطبقات (3/ 4).
(6) الآحاد والمثاني لابن أبي عاصم (1/ 37) بإسناد حسن خلافة علي، ص: 432.

قلوبهم ميثة الملح في الماء[1]، وفي رواية فلم يلبث إلا ثلاثاً أو نحو ذلك، حتى قتل رحمه الله [2]، وقال الحسن بن علي: قال لي علي رضي الله عنه : إن رسول الله ﷺ سنح لي الليلة في منامي، فقلت: يارسول الله ماذا لقيت من أمتك من الأود واللدد[3]؟ قال: «ادع عليهم» قلت: اللهم أبدلني بهم من هو خير منهم ، وأبدلهم بي من هو شر مني لهم. قال الحسن رضي الله عنه : فخرج فضربه الرجل[4]. ولما جاء خبر قتل علي إلى معاوية رضي الله عنه جعل يبكي، فقالت له امرأته: أتبكيه وقد قاتلته؟ فقال: ويحك إنك لا تدرين ما فقد الناس من الفضل والفقه والعلم[5]، وكان معاوية يكتب فيما ينزل به يسأل له علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن ذلك، فلما بلغه قتله قال: ذهب الفقه والعلم بموت ابن أبي طالب، فقال له أخوه عتبة: لا يسمع هذا منك أهل الشام، فقال له: دعني عنك[6]، وقد طلب معاوية رضي الله عنه في خلافته من ضرار الصُّدائي أن يصف له علياً رضي الله عنه فقال: أعفني يا أمير المؤمنين، قال: لتصفنَّه، قال: أما إذا لابد من وصفه فكان والله بعيد المدى، شديد القُوى، يقول فصلاً[7]، ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، ويستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل ووحشته وكان غزير العبرة، طويل الفكرة، يعجبه من اللباس ما قصر ومن الطعام ما خشن، وكان فينا كأحَدِنا، يجيبنا إذا سألناه وينبئنا إذا استنبأناه، ونحن والله - مع تقريبه إيانا وقربه منا - لانكاد نكلمه هيبة له، يعظمُ أهل الدين ويُقرِّب المساكين، لا يطمع القويُّ في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله وأشهد أنه لقد رأيته في بعض مواقفه - وقد أرخى الليل سُدولَه[8]، وغارت نجومه - قابضاً على لحيته، يتململ تململ السقيم، ويبكي بكاء الحزين، ويقول: يادنيا غُرِّي غيري إلي تعرضْت أم إليَّ تشوَّفتِ: هيهات هيهات، قد باينتك ثلاثاً لا رجعة فيها، فعمرك قصير، وخطرك كثير، آه من قلة الزاد، وبُعد السفر، ووحشة الطريق.

فبكى معاوية وقال: رحم الله أبا الحسن، كان والله كذلك، فكيف حزنك عليه ياضرار؟ قال حزن من ذبح ولدها وهو في حجرها[9]، وعن عمر بن عبد العزيز رحمه الله : قال: رأيت رسول الله ﷺ في المنام وأبو بكر وعمر جالسان عنده فسلمت عليه وجلست فبينما أنا جالس إذ أتي بعلي ومعاوية فأدخلا بيتاً وأجيف[10] الباب وأنا أنظر، فما كان بأسرع من أن خرج علي وهو يقول: قضي لي ورب الكعبة، ثم ما كان بأسرع من أن خرج معاوية وهو يقول: غفر لي ورب الكعبة[11].

---

(1) سير أعلام النبلاء (3/ 144).
(2) المحن، ص: 99 لأبي العرب وخلافة علي لعبد الحميد، ص: 432.
(3) الأود : العوج, اللدد : الخصومة.
(4) تاريخ الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين، ص: 649.
(5) البداية والنهاية (8/ 133).
(6) الاستيعاب (3/ 1108).
(7) الاستيعاب (3/ 1107).
(8) سدوله : سدلته.
(9) الاستيعاب (3/ 1108).
(10) أجيف الباب : رُدَّ وأغلق.
(11) البداية والنهاية (8/ 133).

المبحث الرابع

معاوية رضي الله عنه في عهد الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما

كانت بيعة الحسن بن علي رضي الله عنهما في شهر رمضان من سنة 40 هـ وذلك بعد استشهاد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه على يد الخارجي عبد الرحمن بن ملجم المرادي[1]، وقد اختار الناس الحسن بعد والده ولم يعين أمير المؤمنين أحد من بعده، فعن عبد الله بن سبع قال: سمعت علياً يقول: لتُخضبن هذه من هذا[2] فما ينتظر بي الأشقى[3]. قالوا يا أمير المؤمنين، فأخبرنا به نبير[4]عترته قال: إذن والله تقتلون بي غير قاتلي. قالوا: فاستخلف علينا قال: لا، ولكن أترككم إلى ما ترككم إليه رسول الله ﷺ قالوا: فما تقول لربك إذا أتيته، قال وكيع[5] مرة: إذا لقيته قال: أقول: اللهم تركتني فيهم ما بدا لك، ثم قبضتني إليك وأنت فيهم، فإن شئت أصلحتهم وإن شئت أفسدتهم[6]، وفي رواية: أقول: اللهم استخلفتني فيهم ما بدا لك ثم قبضتني وتركتك فيهم[7]. وبعد مقتل علي صلى عليه الحسن بن علي وكبر عليه أربع تكبيرات، ودفن بالكوفة. وكان أول من بايعه قيس بن سعد، قال له: ابسط يدك أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه وقتال المُحلِّين، فقال له الحسن رضي الله عنه: على كتاب الله وسنة نبيه فإن ذلك يأتي من وراء كل شرط: فبايعه وسكت، وبايعه الناس[8]، وقد اشترط الحسن بن علي على أهل العراق عندما أرادوا بيعته فقال لهم: إنكم سامعون مطيعون، تسالمون من سالمت، وتحاربون من حاربت[9]، وفي رواية قال لهم: والله لا أبايعكم إلا على ما أقول لكم قالوا: ما هو؟ قال: تسالمون من سالمت وتحاربون من حاربت[10]، وفي رواية ابن سعد: إن الحسن ابن علي بن أبي طالب بايع أهل العراق بعد علي على بيعتين، بايعهم على الأمرة، وبايعهم على أن يدخلوا فيما دخل فيه، ويرضوا بما رضي به[11]، ويستفاد من الروايات السابقة ابتداء

(1) الطبقات (3/ 35- 38) تحقيق د. إحسان عباس.
(2) أي : لتخضبن لحيته من دم رأسه.
(3) مجمع الزوائد (9/ 139) مسند أحمد (2/ 325) حسن لغيره.
(4) نبير عترته : نهلك أقرباءه، لسان العرب (4/ 5) (4/ 538).
(5) وكيع بن الجراح، ثقة حافظ عابد، التقريب، ص: 581.
(6) مسند أحمد (2/ 325) حسن لغيره الموسوعة الحديثية.
(7) كشف الأستار عن زوائد البزار (3/ 204).
(8) تاريخ الطبري (6/ 77).
(9) المصدر نفسه (6/ 77).
(10) الطبقات تحقيق د. محمد السلمي (1/ 287,286).
(11) المصدر نفسه (1/ 316، 317).

الحسن رضي الله عنه في التمهيد للصلح فور استخلافه وقد باشر الحسن بن علي سلطته كخليفة، فرتب العمال وأمّر الأمراء وجند الجنود وفرق العطايا، وزاد المقاتلة في العطاء مائة مائة فاكتسب بذلك رضاءهم[1]، وكان في وسعه أن يخوض حرباً لاهوادة فيها ضد معاوية، وكانت شخصيته الفذة من الناحية العسكرية والأخلاقية، والسياسية، والدينية تساعده على ذلك مع وجود عوامل أخرى، كوجود قيس بن سعد بن عبادة، وحاتم بن عدي الطائي وغيرهم في صفه، من الذين لهم من القدرات القيادية الشيء الكثير، إلا أن الحسن بن علي مال إلى السلم والصلح لحقن الدماء، وتوحيد الأمة، والرغبة فيما عند الله وزهده في الملك وغير ذلك من الأسباب، وقد قاد الحسن بن علي مشروع الإصلاح الذي توّج بوحدة الأمة، وقد تنازل الحسن بن علي من موقف قوة وهناك دلائل تشيرُ إلى ذلك منها:

1 - الشرعية التي كان يملكها الحسن:

لقد اختير الحسن بن علي بعد والده اختياراً شورياً وأصبح الخليفة الشرعي على الحجاز واليمن والعراق، وكل الأماكن التي كانت خاضعة لوالده، وقد استمر في خلافته ستة أشهر وتلك المدة تدخل ضمن الخلافة الراشدة التي أخبر عنها رسول الله ﷺ بأن مدتها ثلاثون سنة ثم تكون ملكاً، فقد روى الترمذي بإسناده إلى رسول الله ﷺ حيث قال: «**الخلافة في أمتي ثلاثون سنة ثم ملك بعد ذلك**»[2]، وقد علق ابن كثير على هذا الحديث فقال: إنما كملت الثلاثون بخلافة الحسن بن علي، فإنه نزل عن الخلافة لمعاوية في ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين سنة، وذلك كمال ثلاثين سنة من موت رسول الله ﷺ فإنه توفي في ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة وهذا من دلائل النبوة صلوات الله وسلامه عليه وسلم تسليماً[3]، وبذلك يكون الحسن بن علي خامس الخلفاء الراشدين[4]، وقد تحدث عن شرعية الحسن بن علي بالخلافة كثير من علماء أهل السنة منهم أبو بكر بن العربي[5]، والقاضي عياض[6]، وابن كثير[7]، وشارح الطحاوية[8]، والمناوي[9]، وابن الحجر الهيثمي[10]، ولو أراد الحسن أن

(1) تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي، ص: 67، مقاتل الطالبيين، ص: 55.
(2) سنن الترمذي مع شرحها تحفة الأحوذي (6/ 397-395) حديث حسن.
(3) البداية والنهاية (11/ 134).
(4) مآثر الانافة (1/ 105) مرويات خلافة معاوية، ص: 155.
(5) أحكام القران لابن العربي (4/ 1720).
(6) شرح النووي على صحيح مسلم (12/ 201).
(7) البداية والنهاية (11/ 134).
(8) شرح الطحاوية، ص: 545.
(9) فيض القدير (2/ 409).
(10) الصواعق المحرقة (2/ 397).

يتعب معاوية بحكم أن الشرعية معه لأمكن ذلك، ولقام بترتيب حملة إعلامية منظمة في أوساط أهل الشام، لكسب ثقتهم أو على الأقل زعزعة موقف معاوية بينهم، فقد كان يملك قوة معنوية ونفوذ روحي لا يستهان به بحكم الشرعية التي يستند إليها، ولكونه حفيد الرسول ﷺ.

2 - تقييم الحسن بن علي للموقف وقدراته القيادية:

فعندما قال له نفير بن الحضرمي: إن الناس يزعمون إنك تريد الخلافة، فقال: كانت جماجم العرب بيدي يسالمون من سالمت، ويحاربون من حاربت، فتركتها ابتغاء وجه الله[1]. فهذه شهادة الحسن ﷺ، بأنه كان في وضع قوي، وبأن اتباعه على استعداد لمحاربة من يريد أو مسالمتهم، كما كان ﷺ يملك من الملكات الخطابية والفصاحة البيانية، وصدق العاطفة وقوة التأثير والقرب من رسول الله ﷺ ما يجعله أكثر قوة وتماسكاً ودليلنا على ذلك، ما قام به من استنفار أهل الكوفة للخروج مع والده، وكان أبو موسى الأشعري ﷺ قد ثبط الناس ونهاهم عن الخروج والقتال والفتنة وأسمعهم ما سمعه من رسول الله من التحذير من الاشتراك في الفتنة[2]، فقد أرسل علي ﷺ قبل الحسن محمد بن أبي بكر، ومحمد بن جعفر، ولكنهما لم ينجحا في مهمتهما، وأرسل علي بعد ذلك هشام بن عقبة بن أبي وقاص، ففشل في مهمته لتأثير أبي موسى عليهم[3]، وأتبعه علي بعبد الله بن عباس، فأبطؤوا عليه، فأتبعه بعمار بن ياسر والحسن[4] وكان للحسن أثر واضح، فقد قام في الناس خطيباً وقال: أيها الناس، أجيبوا دعوة أميركم، وسيروا إلى إخوانكم، فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه، والله لأن يليه ألوا النهى[5]، أمثل في العاجلة وخير في العاقبة، فأجيبوا دعوتنا وأعينونا على ما ابتلينا به[6] وابتليتم. ولبّى كثير من أهل الكوفة وخرجوا مع عمار والحسن إلى علي ما بين الستة إلى سبعة آلاف رجل[7]، ولا ننسى أن أبا موسى الأشعري كان والياً على الكوفة ومن قيادات العراق المحبوبين من عهد عمر، وهو من هو في علمه وزهده ومكانته عند الناس ومع ذلك فقد استطاع الحسن أن يكسب أهل الكوفة لصفه وخرجوا معه.

---

(1) البداية والنهاية (11/ 206).

(2) تاريخ الطبري (5/ 514) مصنف ابن أبي شيبة (15/ 12) إسناده حسن.

(3) خلافة علي بي أبي طالب، ص: 144، لعبد الحميد، سير أعلام (3/ 486).

(4) فتح الباري (13/ 53) علي بن أبي طالب، للصّلاّبي (2/ 60).

(5) تاريخ الطبري (5/ 516) أولوا النهى: أصحاب العقول.

(6) تاريخ الطبري (5/ 516).

(7) مصنف عبد الرزاق (5/ 456 - 457) بسند صحيح للزهري.

3 - وجود بعض القيادات الكبيرة في صفه:

كان معسكر الحسن بن علي فيه من القيادة الكبيرة: كأخيه الحسين، وابن عمه عبد الله بن جعفر، وقيس بن سعد بن عبادة وهو من دهاة العرب ـ، وعدي بن حاتم وغيرهم فلو أراد الخلافة لأعطي المجال لقياداته للتحرك نحو تعبئة الناس والدخول في الحرب مع معاوية وعلى الأقل يكون خليفة على دولته إلى حين.

4 - معرفته لنفسية أهل العراق:

كان له قدرات خاصة في التعامل مع أهل العراق ومعرفة نفوسهم ولذلك زاد لهم في العطاء منذ بداية خلافته، كما أن مهمته التي قادها في نجاح مشروعه الإصلاحي كانت أصعب من حربه لمعاوية، ومع ذلك تغلب على الكثير من العوائق التي واجهته، فقد حاولوا قتله، ورفض بعض الناس الصلح، وغير ذلك من العوائق إلا أنه تغلب عليها كلها وحقق الأهداف التي رسمها من حقن الدماء، ووحدة الأمة، وأمن السبيل، وعودة حركة الفتوح. . إلخ، مما يدل على قدراته القيادية الفذّة.

5 - تقييم عمرو بن العاص ومعاوية لقوات الحسن رضي الله عنه:

فقد جاء في البخاري: استقبل والله الحسن بن علي معاوية بكتائب أمثال الجبال، فقال عمرو بن العاص: إني أرى أن لا تُولي حتى تقتل أقرانها. فقال معاوية ـ وكان خير الرجلين ـ أي عمرو: إن قتل هؤلاء من لي بأمور الناس من لي بنسائهم من لي بضيعتهم؟ فبعث إليه رجلين من قريش من بني عبد شمس ـ عبد الرحمن بن سمرة، وعبد الله بن عامر بن كريز ـ فقال: اذهبا إلى هذا الرجل فاعرضا عليه وقولا له، واطلبا إليه[1].

أ ـ فعمرو بن العاص رضي الله عنه، القائد العسكري الشهير والسياسي المحنك والذي عركته الحروب يقول: إني أرى كتائب لا تولي حتى تقتل أقرانها.

ب ـ وأما معاوية رضي الله عنه، فتقييمه للموقف العسكري بأنه لا يستطيع أحد أن ينتصر ويحقق حسماً عسكرياً إلا بعد خسائر فادحة للطرفين، ولا يستطيع معاوية حتى لو كان هو المنتصر، أن يتحمل ما تركت الحرب من أرامل وأيتام وقتل خير المسلمين، وما يترتب على ذلك من مفاسد كبرى اجتماعية وسياسية واقتصادية، وأخلاقية للأمة الإسلامية، ولذلك اختار معاوية شخصيتين كبيرتين من أصحاب رسول الله ﷺ ومن أصحاب النفوذ في المجتمع الإسلامي ولهما حضور واحترام عند الحسن وهما من قريش، فالشخصيتان اللتان أرسلهما معاوية رضي الله عنه تدل على حرصه على نجاح الصلح مع الحسن بأي ثمن ممكن، وقد ظل زمام

(1) البخاري، كتاب: الصلح، رقم: 2704.

الموقف بيد الحسن ابن علي رضي الله عنه ويد أنصاره، ولو لم يكن الحسن مرهوب الجانب لما احتاج معاوية إلى أن يفاوضه ويوافق على ما طلب من الشروط والضمانات، ولكان عرف ضعف جانب الحسن، وانحلال قوته عن طريق عيونه، ولدخل الكوفة من غير أن يكلف نفسه مفاوضة أحد أو ينزل على شروطه ومطالبه[1]. كان الحسن بن علي رضي الله عنه ذا خلق يجنح إلى السلم، وكان رضي الله عنه يملك رؤية إصلاحية واضحة المعالم، خضعت لمراحل وبواعث وتغلب على العوائق، وكتب شروطه، وترتب على صلحه نتائج، وأصبح هذا الصلح من مفاخر الحسن على مر العصور وتوالي الأزمان، فكان في صلحه مع معاوية وحقنه لدماء المسلمين، كعثمان في جمعه للقرآن، وكأبي بكر في حربه للمرتدين[2]، ولا أدل على ذلك في كون هذا الفعل من الحسن يعد علماً من أعلام النبوة، والحجة في ذلك ما أخرجه البخاري من طريق أبي بكرة رضي الله عنه قال: رأيت النبي ﷺ على المنبر، والحسن بن علي على جنبه وهو يقبل على الناس مرة وعليه أخرى ويقول: «**إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين**»[3].

أولاً: أهم مراحل الصلح: مر الصلح بمراحل من أهمها:

المرحلة الأولى:

1 - دعوة رسول الله ﷺ للحسن بأن يصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين، فتلك الدعوة المباركة دفعت الحسن رضي الله عنه إلى الإقدام على الصلح بكل ثقة وتصميم[4].

المرحلة الثانية:

شرط البيعة الذي وضعه الحسن رضي الله عنه أساساً لقبول مبايعة أهل العراق له، ذلك الشرط الذي نص على أنهم يسالمون من يسالم ويحاربون من يحارب[5].

المرحلة الثالثة:

وقوع المحاولة الأولى لاغتيال الحسن رضي الله عنه بعد أن كشف عن نيته في الصلح مع معاوية رضي الله عنه وهذه المحاولة يبدو أنها قد جرت بعد استخلافه بقليل[6].

المرحلة الرابعة:

خروج الحسن بجيش العراق من الكوفة إلى المدائن، وإرساله للقوة الضاربة من الجيش وهي الخميس إلى مسكن بقيادة قيس بن سعد بن عبادة[7].

---

(1) دراسة في تاريخ خلفاء الدولة الأموية، ص: 61.
(2) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 134.
(3) البخاري، رقم 7109.
(4) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 317.
(5) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 156.
(6) المصدر نفسه، ص: 126.
(7) المصدر نفسه، ص: 128.

المرحلة الخامسة:

خروج معاوية رضي الله عنه من الشام وتوجهه إلى العراق بعد أن وصل خبر خروج الحسن من الكوفة إلى المدائن بجيوشه.

المرحلة السادسة:

تبادل الرسل بين الحسن و معاوية ، ووقوع الصلح بينهما رضوان الله عليهما.

المرحلة السابعة:

محاولة اغتيال الحسن رضي الله عنه ، فبعد نجاح مفاوضات الصلح بين الحسن ومعاوية رضي الله عنهما ، شرع الحسن رضي الله عنه في تهيئة نفوس أتباعه على تقبل الصلح الذي تم، فقام فيهم خطيباً ليبين لهم ما تم بينه وبين معاوية، وفيما هو يخطب هجم عليه بعض رجال معسكره محاولين قتله، لكن الله عز وجل أنجاه كما أنجاه من قبل[1].

المرحلة الثامنة:

تنازل الحسن بن علي عن الخلافة وتسليمه الأمر إلى معاوية رضوان الله عليهم أجمعين، بعد أن أنجى الله عز وجل الحسن بن علي من الفتنة التي وقعت في معسكره، ترك المدائن وسار إلى الكوفة وخطب في أهلها فقال: أما بعد فإن أكيس الكيس[2] التُّقى، وإن أحمق الحمق الفجور، وإن هذا الأمر الذي اختلفت فيه أنا ومعاوية إما كان حقاً لي تركته لمعاوية إرادة إصلاح هذه الأمة وحقن دمائهم، أو يكون حقاً كان لامرئ كان أحق به مني ففعلت ذلك ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[3] [الأنبياء: 111].

ثانياً: أهم أسباب ودوافع الصلح:

وأما أهم الأسباب والدوافع للصلح الذي تمَّ بين الحسن ومعاوية فهي:

1 - الرغبة فيما عند الله وإرادة صلاح هذه الأمة:

قال الحسن بن علي رضي الله عنه رداً على نفير الحضرمي عندما قال له: إن الناس يزعمون أنك تريد الخلافة. فقال: كانت جماجم العرب بيدي، يسالمون من سالمت ويحاربون من حاربت فتركتها ابتغاء وجه الله[4].

---

(1) المصدر نفسه، ص: 139.

(2) أكيس: أعقل، والكيس العقل: لسان العرب (16/ 201) ومن أراد التوسع فليراجع خلافة مرويات معاوية في تاريخ الطبري، ص: 126 إلى 149.

(3) المعجم الكبير (3/ 26) إسناده حسن.

(4) البداية والنهاية (11/ 206).

2 - دعوة الرسول ﷺ له:

إن دعوة الرسول ﷺ بأن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين[1]، دفعت الحسن إلى التخطيط والاستعداد النفسي للصلح والتغلب على العوائق التي في الطريق، فقد كان هذا الحديث الكلمة الموجهة الرائدة للحسن في اتجاهاته وتصرفاته ومنهج حياته، فقد حلت في قرارة نفسه واستولت على مشاعره وأحاسيسه واختلطت بلحمه ودمه، ومن خلال هذا التوجيه واستيعابه وفهمه له بنى مشروعه الإصلاحي وقسم مراحله، وكان متيقناً من نتائجه، فالحديث النبوي كان دافعاً أساسياً وسبباً مركزياً في اندفاع الحسن للإصلاح.

3 - حقن دماء المسلمين:

قال الحسن رضي الله عنه: ... خشيت أن يجيء يوم القيامة سبعون ألفاً، أو أكثر أو أقلُّ كلهم تنضح أوداجهم دماً، كلهم يستعدي الله فيما اهُرِيقَ دمه[2]؟ وقال رضي الله عنه: ألا إن أمر الله واقع إذ لا له دافع وإن كره الناس، إني ما أحببت أن لي من أمة محمد مثقال حبة من خردل يهراق فيه محجمة من دم، قد علمت ما ينفعني ممَّا يضرني ألحقوا بطيتكم[3].

4 - الحرص على وحدة الأمة:

قام الحسن بن علي خطيباً رضي الله عنه في إحدى مراحل الصلح فقال: أيها الناس، إني قد أصبحت غير محتمل على مسلم ضغينة[4]، وإني نظار لكم كنظري لنفسي، وأرى رأياً فلا تردوا عليَّ رأيي، إن الذي تكرهون من الجماعة أفضل مما تحبون من الفرقة[5]، وقد تحقق بفضل الله. ثم حرص الحسن على وحدة الأمة ذلك المقصد العظيم، فقد ارتأى رضي الله عنه أن يتنازل عن الخلافة حقناً لدماء المسلمين، وتجنباً للمفاسد العظيمة التي ستلحق الأمة كلها في المآل إذا بقي مصراً على موقفه، من استمرار الفتنة، وسفك الدماء، وقطع الأرحام واضطراب السبل، وتعطيل الثغور وغيرها ـ وقد تحققت بحمد الله ـ وحدة الأمة بتنازله عن عرض زائل من أعراض الدنيا حتى سمّي ذلك العام عام الجماعة[6]، وهذا يدل على فقه الحسن في معرفته لاعتبار المآلات ومراعاته التصرفات.

5 - مقتل أمير المؤمنين علي رضي الله عنه:

ومن الأسباب التي دعت أمير المؤمنين الحسن بن علي إلى الصلح ما روّع به من مقتل أبيه، فقد ترك ذلك فراغاً كبيراً في جبهة العراق وأثر اغتياله على نفسية الحسن رضي الله عنه، فترك فيها

---

(1) البخاري، رقم: 7109.

(2) البداية والنهاية (11/ 206).

(3) تاريخ دمشق (14/ 89) بطيتكم: جهتكم ونواد.

(4) الضغينة: الحقد.

(5) الأخبار الطوال، ص: 200.

(6) اعتبارات المآلات ومراعاة نتائج التصرفات، ص: 167.

حزناً وأسىً شديداً، فقد قتل هذا الإمام العظيم بدون وجه حق ولم يرع الخوارج سابقته في الإسلام ولأفضاله العظيمة، ولخدماته الجليلة التي قدمها للإسلام فقد كانت حياته حافلة بالقيم والمثل والعمل على تكريس أحكام الشريعة على مستوى الدولة والشعب، لقد كان علياً رضي الله عنه معلماً من معالم الهدى وفارقاً بين الحق والباطل فكان من الطبيعي أن يتأثر المسلمين لفقده ويشعروا بالفراغ الكبير الذي تركه، فقد كان وقع مصيبة مقتله على المسلمين عظيماً، فجللهم الحزن، وفاضت مآقيهم بالدموع ولهجت ألسنتهم بالثناء والترحم عليه، وكان مقتله سبباً في تزهيد الحسن في أهل العراق أولئك الذين غمرتهم مكارم أخلاق أمير المؤمنين وشرف صحبته فأضلتهم الفتن والأطماع، وانحرفوا عن الصراط المستقيم، ونستثنى من أولئك الصادقين المخلصين لدينهم وخليفتهم الرّاحل العظيم رضي الله عنه وأرضاه، فقد كان مقتله ضربة قوية وجهت لعهد الخلافة الراشدة وكانت من أسباب زوالها فيما بعد.

6 - شخصية معاوية:

إن تسليم الحسن بن علي الخلافة إلى معاوية مع أنه كان معه أكثر من أربعين ألفاً بايعوه على الموت، فلو لم يكن أهلاً لها لما سلمها السبط الطيب إليه ولحاربه[1]، فقد ذكر المترجمون والمؤرخون لسيرته فضائل كثيرة وأعمال جليلة يأتي ذكرها بإذن الله تعالى في هذا الكتاب.

7 - اضطراب جيش العراق وأهل الكوفة:

كان لخروج الخوارج أثر في إضعاف أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ، كما أن الحروب في الجمل وصفين والنهروان، تسببت في ملل أهل العراق للحرب ونفورهم منها، وخاصة أهل الشام في صفين، فإن حربهم ليس كحرب غيرهم، فمعركة صفين الطاحنة لم تفارق مخيلتهم فكم يتمت من الأطفال ورملت من النساء، بدون أن يتحقق مقصودهم ولولا الصلح أو التحكيم الذي رحب به أمير المؤمنين علي وكثير من أصحابه لكانت مصيبة على العالم الإسلامي لا يتخيل آثارها السيئة، فكان هذا التخاذل عن المسير مع علي رضي الله عنه إلى الشام مرة أخرى إلى فريق منهم وتميل إليه نفوسهم وإن كانوا يعلمون أن علياً على حق[2]، فقد استلم الحسن رضي الله عنه الخلافة، وجيش العراق مضطرب وأهل الكوفة مترددون في أمرهم[3] وهذا ليس على إطلاقه فجيش الحسن يمكن تقويته كما أن هناك فصائل منه على استعداد للقتال على رأسهم قيس بن سعد الخزرجي وغيره من القادة[4].

---

(1) الناهية عن طعن أمير المؤمنين معاوية، ص: 57.

(2) خلافة علي بن أبي طالب، عبد الحميد علي، ص: 345.

(3) الشيعة وأهل البيت، ص: 379 نقلاً عن الاحتجاج للطبرسي، ص: 148.

(4) خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن علي، ص: 358 للصَّلاَّبيّ.

8 - قوة جيش معاوية:

وفي الجانب الآخر كان معاوية ﷺ يعمل بشتى الوسائل سراً أو علانية على إضعاف جانب أهل العراق منذ عهد علي ﷺ فاستغل ما أصاب جيشه من تفكك وخلاف، واجتمعت لمعاوية ﷺ عوامل ساعدت على قوة جبهته منها: طاعة الجيش له، اتفاق الكلمة عليه من أهل الشام، خبرته الإدارية في ولاية الشام، وثبات مصادره المالية، وعدم تحرجه من دفع الأموال من أجل تحقيق أهدافه التي يراها مصلحة للأمة.

ثالثاً: شروط الصلح:

تحدثت الكتب التاريخية والمصادر الحديثة وأشارت إلى حصول الصلح وفق شروط وضعها الطرفان، وقد تناثرت تلك الشروط بين كتّاب التاريخ وحاول بعض العلماء جمعها وترتيبها واستئناساً إلى ما وصلوا إليه نذكر أهم شروط الصلح منها:

1 - العمل بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة الخلفاء:

وقد ذكر هذا الشرط مجموعة من العلماء منهم ابن الحجر الهيثمي حيث ذكر صورة الصلح بين الحسن ومعاوية وجاء فيها: صالحه على أن يُسلم إليه ولاية المسلمين وأن يعمل فيهم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وسيرة الخلفاء الراشدين المهديين[1]، وحتى بعض كتب الشيعة ذكرت هٰذا الشرط وهذا دليل على توقير الحسن بن علي لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي إلى حد جعل من إحدى الشروط على معاوية بن أبي سفيان ﷺ: إنه يعمل ويحكم في الناس بكتاب الله وسنة رسوله، وسيرة الخلفاء الراشدين[2]، وفي النسخة الأخرى ـ الخلفاء الصالحين[3] ـ ففي هذا الشرط ضبط لدولة معاوية مرجعيتها ومنهجها في الحياة.

2 - الأموال:

ذكر البخاري في صحيحه أن الحسن قال لوفد معاوية عبد الرحمٰن بن سمرة، وعبد الله بن عامر بن كريز: إنا بنو عبد المطلب قد أصبنا من هذا المال.. فمن لي بهذا؟ قالا: نحن لك[4] به.

فالحسن يتحدث عن أموال سبق أن أصابها هو وغيره من بني عبد المطلب يريد الحسن أن لا يطالبهم معاوية، ولا ذكر لأموال يطلب من معاوية أن يدفعها إليه من قادم[5]، وأما

---

(1) الصواعق المراسلة (2/ 399).
(2) الشيعة وأهل البيت، ص: 54.
(3) منتهى الآمال (2/ 212) نقلاً عن الشيعة وأهل البيت، ص: 54.
(4) البخاري، كتاب: الصلح رقم: 2704.
(5) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص: 64.

الروايات التي تشير بأن يجري معاوية للحسن كل عام مليون درهم وأن يحمل إلى أخيه الحسين مليوني درهم في كل عام ويفضل بني هاشم في العطاء والصلات على بني عبد شمس، وكأن الحسن باع الخلافة لمعاوية، فهذه الروايات، وما قيل حولها من تحليل وتفسير لا تقبل ولا يعتمد عليها، لأنها تصور إحساس الحسن بمصالح الأمة يبدو ضعيفاً أمام مصالحه الخاصة[1]. أما حقه من العطاء فليس الحسن فيه بواحد من دون المسلمين، ولا يمنع أن يكون حظه منه أكثر من غيره، ولكنه لا يصل إلى عشرة معشار ما ذكرته الروايات[2].

3 - الدماء:

ويتضمن اتفاق الصلح بين الجانبين أن الناس كلهم آمنون لا يؤخذ منهم أحد منهم بهفوة أو أحنة، ومما جاء في رواية البخاري أن الحسن قال لوفد معاوية.. وأن هذه الأمة عاثت في دمائها، فكفل الوفد للحسن العفو للجميع فيما أصابوا من الدماء[3]، وقد تمّ الاتفاق على عدم مطالبة أحد بشيء كان في أيام علي، وهي قاعدة بالغة الأهمية تحاول دون الالتفاف إلى الماضي وتركز على فتح صفحة جديدة تركز على الحاضر والمستقبل[4]، وقد تمّ التوافق المبني على الالتزام والشرعية حيث تمّ الصلح على أساس العفو المطلق من كل ما كان بين الفريقين، قبل إبرام الصلح، وبالفعل لم يعاقب معاوية بذنب أحداً بذنب سابق وتأسس بذلك صلح الحسن على الإحسان والعفو، وتأليف القلوب.

4 - ولاية العهد، أم ترك الأمر شورى بين المسلمين:

قيل ومما اتفق الجانبان عليه من الشروط أن يكون الأمر من بعد معاوية للحسن[5]، وإن معاوية وعد أن ما حدّث به حدث والحسن حي يُسميَّه وليجعلن الأمر إليه[6]، ولكن ابن أكثم روى في هذا الخصوص عن الحسن أنه قال: أما ولاية الأمر من بعده، فما أنا بالراغب في ذلك ولو أردت هذا الأمر لم أسلمه[7]، وجاء في نص الصلح الذي ذكره ابن الحجر الهيثمي: .. بل يكون الأمر من بعده شورى بين المسلمين[8]، وعند التدقيق في روايات طلب الحسن الخلافة بعد معاوية، نجد أنها تتنافى مع أنفة وقوة وكرم الحسن، فكيف يتنازل عن الخلافة حقناً لدماء المسلمين وابتغاء مرضاة الله ثم يوافق على أن يكون تابعاً يتطلب أسباب الدنيا، وتشرأب عنقه للخلافة مرة أخرى، والدليل على أن هذا غير صحيح ما ذكر جبير بن

---

(1) المصدر نفسه، ص: 63.
(2) المصدر نفسه.
(3) البخاري، كتاب: الصلح (2/ 963).
(4) الدور السياسي للصفوة في صدر الإسلام، ص: 341.
(5) فتح الباري (13/ 70).
(6) سير أعلام النبلاء (3/ 264).
(7) الفتوح (3، 4/ 493).
(8) الصواعق المرسلة (2/ 299).

نفير قال: قلت للحسن بن علي أن الناس يزعمون أنك تريد الخلافة، فقال: كانت جماجم العرب بيدي يسالمون من سالمت ويحاربون من حاربت، فتركتها ابتغاء مرضاة الله[1]، ومن الملاحظ أن أحداً من أبناء الصحابة أو الصحابة لم يذكروا خلال بيعة يزيد شيئاً من ذلك، فلو كان الأمر كما تذكر الروايات عن ولاية عهد الحسن بن معاوية، لاتخذها الحسين بن علي ﷺ حجة، ولكن لم نسمع شيئاً من ذلك على الإطلاق مما يؤكد على أن مسألة خلافة الحسن لمعاوية لا أساس لها من الصحة، ولو كان الحسن ﷺ أسند إليه منصب ولاية العهد في الشروط لكان قريباً في عهد معاوية من إدارة الدولة أو تولي إحدى الأقاليم الكبرى، لا أن يذهب إلى المدينة وينعزل عن إدارة شئون الحكم، كما أن روح ذلك العصر يشير إلى مبدأ اختيار الأمة للحاكم عن طريق الشورى هو الأصل.

رابعاً نتائج الصلح:

إن أهم نتائج الصلح هي:

1 - توحد الأمة تحت قيادة واحدة.

2 - عودة الفتوحات إلى ما كانت عليه.

3 - تفرغ الدولة للخوارج.

4 - انتقال العاصمة الإسلامية إلى بلاد الشام.



(1) البداية والنهاية (11/ 206).

الفصل الثاني
بيعة معاوية وأهم صفاته ونظام حكمه

المبحث الأول
بيعة معاوية وأهم صفاته وثناء العلماء عليه

أولاً: بيعة معاوية ﵁:

بتنازل الحسن بن علي ﵄ اكتملت عوامل تولي معاوية الخلافة، وتهيأت له جميع أسبابها، فبويع أميراً للمؤمنين عام واحد وأربعين للهجرة وسمي هذا العام بعام الجماعة[1]، وسجل في ذاكرة الأمه عام الجماعة وأصبح هذا الحدث من مفاخرها التي تزهو به على مر العصور، وتوالي الدهور، فقد التقت الأمة على زعامة معاوية، ورضيت به أميراً عليها، وابتهج خيار المسلمين بهذه الوحدة الجامعة، بعد الفرقة المشتتة، وكان الفضل في ذلك لله ثم للسيد الكبير مهندس المشروع الإصلاحي العظيم الحسن بن علي بن أبي طالب، ويعد عام الجماعة من علامة نبوة المصطفى ﷺ وفضيلة باهرة من فضائل الحسن، ولا يلتفت إلى ما قال العقاد من فهم غير صحيح عن عام الجماعة في هجومه الخاطىء على المؤرخين الذين سموا سنة إحدى وأربعين هجرية بعام الجماعة، فقد قال: فليس أضل ضلال، ولا أجهل جهلاً من المؤرخين الذين سموا سنة إحدى وأربعين هجرية بعام الجماعة لأنها السنة التي استأثر فيها معاوية بالخلافة فلم يشاركه أحد فيها، لأن صدر الإسلام لم يعرف سنة تفرقت فيها الأمة كما تفرقت في تلك السنة، ووقع فيها الشتات بين كل فئة من فئاتها كما وقع فيها[2]، والعقاد ﵀ لم يأت بجديد في حكمه الخاطىء بل سبقه إليه كثير من مؤرخي الشيعة، ويكفي معاوية فخراً أن كل الصحابة الأحياء في عهده بايعوه، فقد أجمعت الأمة على معاوية وبايعه علماء الصحابة والتابعين وعدّوا خلافته شرعية ورضوا إمامته، ورأوا أنه خير من يلي أمر المسلمين ويقوم به خير قيام في تلك المرحلة، فروي عن الأوزاعي أنه قال: أدركت خلافة معاوية عدة

---

(1) سير أعلام النبلاء (3/ 137)، تاريخ خليفة: ص: 203.

(2) معاوية بن أبي سفيان للعقاد، ص: 25.

من أصحاب رسول الله ﷺ منهم: سعد، وأسامة، وجابر، وابن عمر، وزيد بن ثابت، ومسلمة بن مخلد، وأبوسعيد الخدري، ورافع بن خديج، وأبو أمامة، وأنس بن مالك، ورجال أكثر مما سميت بأضعاف مضاعفة، كانوا مصابيح الهدى، وأوعية العلم. حضروا من الكتاب تنزيله، وأخذوا عن رسول الله ﷺ تأويله، ومن التابعين لهم بإحسان إن شاء الله، منهم: المسور بن مخرمة، وعبد الرحمٰن بن الأسود بن عبد يغوث، وسعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وعبد الله بن محيريز في أشباه له، لم ينزعوا يده عن مجامعة في أمة محمد ﷺ [1]. وقال ابن حزم: فبويع الحسن ثم سلّم الأمر إلى معاوية، وفي بقايا الصحابة من هو أفضل منهما بلا خلاف ممن أنفق قبل الفتح وقاتل، وكلهم أولهم عن آخرهم بايع معاوية، ورأى إمامته[2]. فالصحابة لم يبايعوا معاوية رضي الله عنه إلا وقد رأوا فيه شروط الإمامة متوفرة، ومنها العدالة، فمن يطعن في عدالة معاوية وإمامته فقد طعن في عدالة هؤلاء الصحابة جميعهم وخونّهم وتنقصهم. فمن رضيه هؤلاء لدينهم ودنياهم ألا نقبله ونرضى به نحن؟ ومن قال لعلهم بايعوا خوفاً فقد اتهمهم بالجبن وعدم الصدع بالحق، وهم القوم المعلوم من سيرتهم الشجاعة والشهامة وعدم الخوف في الله لومة لائم[3].

وفي مبايعة سبط رسول الله ﷺ الحسن بن علي لمعاوية درس بليغ وفهم عميق لآيات النهي عن الاختلاف قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 153]. فالصراط المستقيم هو: القرآن والإسلام والفطرة التي فطر الناس عليها، والسبل هي: الأهواء، والفرق، والبدع، والمحدثات، قال مجاهد: ولا تتبعوا السبل: يعني! البدع، والشبهات والضلالات[4]، ونهى الله ﷻ هذه الأمة عما وقعت فيه الأمم السابقة من الاختلاف والتفرق من بعد ما جاءتهم البيانات، وأنزل الله إليهم الكتب، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: 105]. وقد أمر الله تعالى بالاعتصام بحبله، قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: 103] لقد تحقق بفضل الله تعالى ثم بنجاح الحسن بن علي في صلحه مع معاوية مقصد عظيم من مقاصد الشريعة من وحدة المسلمين واجتماعهم وهذا المقصد من أهم أسباب التمكين لدين الله تعالى ونحن مأمورون بالتواصي بالحقّ والتواصي بالصبر، فلا بدّ من تضافر الجهود بين الدعاة، وقادة الحركات الإسلامية،

(1) البداية والنهاية (11/ 434، 435).
(2) الفصل في الملل والنحل (5/ 6).
(3) من سب الصحابة ومعاوية فأمه هاوية، ص: 120.
(4) تفسير مجاهد، ص: 227، دراسات في الأهواء والفرق والبدع، ص: 49.

وبين علماء المسلمين، وطلبة العلم لإصلاح ذات البين إصلاحاً حقيقياً لا تلفيقياً، لأن أنصاف الحلول تفسد أكثر ممّا تصلح، وقد تحدث الشيخ السعدي على الجهاد المتعلّق بالمسلمين بقيام الألفة، واتفاق الكلمة وبعد أن ذكر الآيات، والأحاديث الدآلة على وجوب تعاون المسلمين ووحدتهم قال: فإن من أعظم الجهاد السَّعي في تأليف قلوب المسلمين، واجتماعهم على دينهم، ومصالحهم الدينية والدنيوية[1]. ولا ينظر للحديث الضعيف الذي رواه ابن عدي من طريق عليّ بن زيد، وهو ضعيف، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد ومن حديث مجالد[2]، وهو ضعيف أيضاً، عن أبي الودَّاك عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه»**[3]. أسنده أيضاً من طريق الحكم بن ظهيره[4]، وهو متروك. وهذا الحديث كذب بلا شك، ولو كان صحيحاً لبادر الصحابة إلى فعل ذلك، لأنَّهم كانوا لا تأخذهم في الله لومة لائم[5].

1 - انتهاء عهد الخلافة الراشدة:

انتهى عهد الخلافة الراشدة على منهاج النبوة بتنازل الحسن بن علي لمعاوية رضي الله عنهم، فقد قال رسول الله ﷺ: **«تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكاً عارضاً فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكاً جبرياً، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء ثم تكون خلافة على منهاج النبوة»**، ثم سكت[6]. وقد بين رسول الله ﷺ: **«خلافة النبوة ثلاثون سنة، ثم يؤتي الله الملك، أو ملكه من يشاء»**[7]، وقوله ﷺ: **«الخلافة في أمتي ثلاثون سنة، ثم ملك بعد ذلك»**[8]. وإنما كملت الثلاثون بخلافة الحسن، فإنه نزل عن الخلافة لمعاوية في ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين، وذلك كمال ثلاثين سنة من موت رسول الله ﷺ، فإنه توفي في ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة، وهذا من دلائل النبوة صلوات الله وسلامه عليه وسلم تسليماً[9]، وبذلك تكون

---

(1) وجوب التعاون بين المسلمين، ص: 5.
(2) الكامل في الضعفاء (6/ 2416).
(3) البداية والنهاية (11/ 434) الكامل في الضعفاء (2/ 626).
(4) الكامل (2/ 626/ 627).
(5) البداية والنهاية (11/ 434).
(6) مسند أحمد (4/ 371 - 372) سلسلة الأحاديث الصحيحة.
(7) سنن أبي داود شرح عون المعبود (12/ 259) صحيح سنن الألباني (3/ 879).
(8) سنن الترمذي شرح تحفة الأحوذي (6/ 395 - 397) حديث حسن.
(9) البداية والنهاية (8/ 16).

مرحلة خلافة النبوة قد انتهت بتنازل الحسن رضي الله عنه عن الخلافة لمعاوية في شهر ربيع الأول من سنة 41 هـ[1]، فالحديث النبوي الكريم أشار إلى مراحل تاريخية وهي:

أ ـ عهد النبوة.

ب ـ عهد الخلافة الراشدة.

جـ ـ عهد الملك العضوض[2].

هـ ـ عهد الملك الجبري.

و ـ ثم تكون خلافة على منهاج النبوة.

وقد بين رسول الله ﷺ بأنه ستكون خلافة نبوة ورحمة ثم يكون ملك ورحمة[3] ويجوز تسمية من بعد الخلفاء الراشدين خلفاء وإن كانوا ملوكاً، ولم يكونوا خلفاء الأنبياء بدليل ما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: **«كانت بنو إسرائيل يسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي وإنه لا نبي بعدي، وستكون خلفاء فتكثر، قالوا: فما تأمرنا؟ قال: «وفوا بيعة الأول، فالأول، ثم أعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم»**[4]. فقوله: **«فتكثر»** دليل على من سوى الراشدين فإنهم لم يكونوا كثيراً وأيضاً قوله: **«وفوا بيعة الأول فالأول»** دل على أنهم يختلفون، والراشدين لم يختلفوا، وقوله: **«فأعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم»** دليل على مذهب أهل السنة، في إعطاء الأمراء حقهم من المال والمغنم[5]، فمعاوية رضي الله عنه أفضل ملوك هذه الأمة، والذين كانوا قبله خلفاء نبوة، وأما هو فكانت خلافته ملك، وكان ملكه ملكاً ورحمة وكان في ملكه من الرحمة والحلم ونفع المسلمين، ما يعلم أنه كان خيراً من ملك غيره[6]، ومعاوية رضي الله عنه كان عالماً ورعاً عدلاً دون الخلفاء الراشدين في العلم والورع والعدل، كما ترى من التفاوت بين الأولياء، بل الملائكة والأنبياء، فإمارته وإن كانت صحيحة بإجماع الصحابة وتسليم الحسن رضي الله عنه إلا أنها ليست على منهاج خلافة من قبله، فإنه توسع في المباحات، وتحرز عنها الخلفاء الأربعة، وأما رجحان الخلفاء الأربعة في العبادات والمعاملات فظاهر مما لا سترة فيه[7]، وقد حدد

---

(1) مرويات خلافة معاوية، ص: 165.

(2) العضوض: الشديد فيه عسف وعنف وظلم.

(3) سنن الدارمي (2/ 114) الأشربة، الفتاوى (35/ 14).

(4) البخاري، رقم 3455.

(5) الفتاوى، (35/ 15).

(6) الفتاوى، (4/ 292).

(7) الناهية عن طعن أمير المؤمنين معاوية، ص: 78.

ابن خلدون مدى التغير الذي حدث، فقدر أن الخلافة وإن كانت تحولت إلى ملك، فإن معاني الخلافة بقيت - بعضها - وإنما كان التغير في الوازع، فبعد أن كان ديناً انقلب عصبية وسيفاً: يقصد بذلك أنه بعد أن كان الناس يتصرفون بوازع الدين، والخلافة شورى، صار الحكم مستنداً إلى العصبية والقوة، ولكن معاني الخلافة أي مقاصدها وأهدافها بقيت، أي أن غايات هذا الملك كان لاتزال تحقيق مقاصد الدين والحكم وفق الشريعة الإسلامية بالعدل وتنفيذ الواجبات التي يأمر بها الإسلام: أي أن الحكم أو الملك استمر إسلامياً وشرعياً[1] ولخص الأدوار التي مرت بها الخلافة، فقال: فقد بين أن الخلافة قد وجدت بدون الملك أولاً، ثم التبست معانيها واختلطت بالملك، ثم انفرد الملك حيث افترقت عصبية الخلافة والله مقدر الليل والنهار[2]. فالدور الأول الذي يشير إليه هو عصر الخلفاء الراشدين وهو عصر الخلافة الخالصة أو الكاملة، والدور الثاني هو عصر الخلفاء الأمويين والعباسيين - ولا يمنع كذلك العثمانيين - وهذا عصر الخلافة المختلطة بالملك أو الملك المختلط بالخلافة: أي الذي يحقق في الوقت مقاصد الخلافة، أما الدور الثالث فهو عصر الملك المحض الذي صار بقصد لذات الملك والأغراض الدنيوية، وانفصل عن حقيقة الخلافة أو معانيها الدينية، فهذا وصف أو تفسير ابن خلدون المؤرخ الفقيه للتطور الذي حدث والأدوار التي مرت بها الخلافة[3].

إن الخلافة الحقيقة أو الكاملة أو خلافة النبوة استمرت ثلاثين عاماً وهو عصر الخلفاء الراشدين ثم تحولت إلى ملك، ولكن لكي نعبر عن الحقيقة يجب أن يراعى هذا التحديد، وهو أن الخلافة لم تنته أو تذهب كلية، وإنما بقيت معانيها أو مقاصدها، وأن التغيير حصل في الأساس التي قامت عليه، أما حقيقتها فقد بقيت، فالتغير إذن لم يكن كلياً ولكن جزئياً: أي أن الخلافة في العصر الأول كانت هي الخلافة الكاملة المثالية، ثم نقصت عن المثال من وجه أو بعض الوجوه، لكن معظم عناصره بقيت، فهي خلافة أقل في الرتبة أو خلافة مختلطة بالملك[4]، والرأي العام في الإسلام يتمسك بالمثال، أو خلافة النبوة، أو الخلافة الكاملة، وهي تلك التي تقوم على الشورى والاختيار التام من الأمة وأنه إذا كانت الظروف الواقعية والعوامل الاجتماعية قد حتّمت أو أدت إلى هذا التطور، فإن تحمل ذلك أو قوله لا يكون إلا مؤقتاً أو من باب الضرورة، ولكن لايلزم أن يكون المثل الكامل حاضراً دائماً في فكر الرأي العام، وبمجرد أن تزول تلك العوامل والظروف تجب العودة إلى تحقيق المثل الكامل، ولذا

---

(1) النظريات السياسية للريس، ص: 194، نقلاً عن المقدمة لابن خلدون.
(2) النظريات السياسية، ص: 195.
(3) المصدر نفسه، ص: 195.
(4) المصدر نفسه، ص: 196.

فإن الكتابات الإسلامية الأصيلة ظلت ملتزمة ومتشبثة بالمثال الكامل ولا تستخلص مباديها إلا منه وتفرق بين الخلافة وهي الخلافة الحقيقية الشرعية، والخلافة الواقعية التي بعدت قليلاً أو كثيراً عن الحقيقة[1]، وقد ذكر ابن تيمية: أن مصير الأمر - أي الخلافة - إلى الملوك ونوابهم من الولاة والقضاة الأمراء ليس لنقص فيهم فقط، بل لنقص في الراعي والرعية جميعاً، فإنه كما تكونوا يولّ عليكم وقد قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: 129]. لقد ذهبت دولة الخلفاء الراشدين، وصار ملكاً ظهر النقص في الأمراء، وكذلك في أهل العلم والدين وجمهور الصحابة انقرضوا بانقراض خلافة الخلفاء الأربعة، حتى إنه لم يبق من أهل بدر إلا نفر قليل، وجمهور التابعين بإحسان انقرضوا في أواخر عصر أصاغر الصحابة في إمارة ابن الزبير وعبد الملك، وجمهور تابعي التابعين انقرضوا في أواخر الدولة الأموية، وأوائل الدولة العباسية[2].

2 - هل يعتبر معاوية رضي الله عنه أحد الخلفاء الاثني عشر؟

عن جابر بن سمرة رضي الله عنه : دخلت مع أبي على النبي ﷺ، فسمعته يقول: «**إن هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة**»، قال: ثم تكلم بكلام خفي عليَّ، قال: فقلت لأبي: ما قال، قال: «**كلهم من قريش**»[3]، وفي رواية أخرى عن جابر: «**لا يزال الإسلام عزيزاً إلى اثني عشرة خليفة.. كلهم من قريش**»[4] وفي رواية أخرى عنه: «**لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً إلى اثني عشر خليفة.. كلهم من قريش**»[5]، زاد أبو داود في سننه، بإسناده عن جابر رضي الله عنه قال: فلما رجع إلى منزله أتته قريش فقالوا: ثم يكون الهرج[6]. وقد شرح ابن كثير هذا الحديث فقال: ومعنى هذا الحديث البشارة بوجود اثني عشر خليفة صالحاً يقيم الحق ويعدل فيهم، ولا يلزم من هذا تواليهم وتتابع أيامهم، بل قد وجد منهم أربعة على نسق وهم الخلفاء الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ، ومنهم عمر بن عبدالعزيز بلا شك عند الأئمة، وبعض بني العباس، ولا تقوم الساعة حتى تكون ولايتهم لا محالة، والظاهر أن منهم المهدي المُبشّر به في الأحاديث الواردة بذكره.... وليس هذا بالمنتظر الذي تتوهم الرافضة وجوده ثم ظهوره من سرداب سامراء[7]، فإن ذلك ليس له حقيقة ولا وجود بالكلية، بل هو من

---

(1) النظريات السياسية، ص: 197.

(2) الفتاوى (10/ 207).

(3) صحيح مسلم على شرح النووي (12/ 502).

(4) صحيح مسلم على شرح النووي (12/ 503).

(5) المصدر نفسه (12/ 203).

(6) صحيح سنن الألباني (3/ 807)، هرج الناس: وقعوا في فتنة واختلاط وقتل.

(7) سامراء : مدينة بين بغداد وتكريت على شرقي دجلة.

هوس العقول السخيفة وتوهم الخيالات الضعيفة، وليس المراد بهؤلاء الخلفاء الاثني عشر الأئمة الاثني عشرة الذين يعتقد فيهم الاثنا عشرية[1]. وبالتأمل في النص بكل حيدة وموضعية نجد أن هؤلاء الاثني عشر وصفوا بأنهم يتولون الخلافة، وأن الإسلام في عهدهم يكون في عزة ومنعة وأن الناس تجتمع عليهم ولا يزال أمر الناس ماضياً وصالحاً في عهدهم وكل هذا الأوصاف لا تنطبق على من تدعي الاثنا عشرية فيهم الإمامة فلم يتول الخلافة منهم إلا أمير المؤمنين علي والحسن[2]. . . ثم أنه ليس في الحديث حصر لأئمة بهذا العدد، بل نبوة منه، بأن الإسلام لا يزال عزيزاً في عصور هؤلاء، وكان عصر الخلفاء الراشدين وبني أمية عصر عزة ومنعة[3]، ولهذا قال ابن تيمية: إن الإسلام وشرائعه في بني أمية أظهر وأوسع مما كان بعدهم[4]، وعدّ معاوية من الأئمة المقصودين بالحديث[5].

ثانياً: أهم صفات معاوية ﷺ :

اشتهر معاوية ﷺ بصفات كثيرة من أهمها:

1 - العلم والفقه:

استفاد معاوية ﷺ من ملازمته لرسول الله ﷺ علماً وتربية، وقد روى عن رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة قد ذكرت بعضها، وقد روى له البخاري ومسلم مع شرطهما أن لا يرويان إلا عن ثقة ضابط صدوق[6] وشهد له ابن عباس بالفقه، فعن ابن أبي مليكة قال: قيل لابن عباس ﷺ : هل لك في أمير المؤمنين معاوية فإنّه ما أوتر إلا بواحدة؟ قال: أصاب إنه فقيه، رواه البخاري[7]. قال الشرّاح: أي مجتهد، وفي رواية أُخرى للبخاري عن أبي مليكة قال: أوتر معاوية ﷺ بعد العشاء بركعة وعنده مولى لابن عباس ﷺ فأتى ابن عباس ﷺ قال: دَعْهُ فإنه صحب رسول الله ﷺ، وكان ابن عباس ﷺ من فضلاء الصحابة، ويُلقّب: البحر لسعة علمه، وحبر الأمة، وترجمان القرآن، وقد دعا له الرسول ﷺ بالعلم والحكمة والتأويل، فاستجيب وكان من خواص أصحاب علي ﷺ وشديد الإنكار على أعدائه، وأرسله علي ﷺ ليحاج الخوارج فحاجهم حتى لم يبق لهم حجة، فإذا شهد مثله لمعاوية بأنه مجتهد وكف مولاه عن الإنكار مستدلاً بأنه من الصحابة[8]. كما أنه كان كاتب رسول الله ﷺ وذكره مفتي الحرمين أحمد بن عبد الله بن محمد الطبري في خلاصة السير، إن كتَّابه ﷺ ثلاثة

(1) تفسير ابن كثير (2/ 34).
(2) منهاج السنة (4/ 210) المنتقى، ص: 533.
(3) أصول الشيعة (2/ 816).
(4) منهاج السنة (4/ 206).
(5) المصدر نفسه(4/ 206).
(6) الناهية عن طعن أمير المؤمنين معاوية، ص: 41.
(7) البخاري، رقم: 3764، رقم 3765.
(8) الناهية عن طعن أمير المؤمنين معاوية، ص: 41.

عشر: الخلفاء الأربعة وعامر بن فهيرة، وعبد الله بن أرقم، وأبيّ بن كعب، وثابت بن قيس بن شماس، وخالد بن سعيد بن العاص، وحنظلة بن الربيع الأسلمي، وزيد بن ثابت، ومعاوية ابن أبي سفيان، وشرحبيل ابن حسنة، وكان معاوية وزيد ألزمهم لذلك وأخصهم به[1]، كما أن الفقهاء يعتمدون على اجتهاده ويذكرون مذهبه كسائر الصحابة، كقولهم: ذهب معاذ بن جبل، ومعاوية وسعيد بن المسيب إلى أن المسلم يرث الكافر، وقولهم: روى[2] استلام الركنين اليمانيين عن الحسن أو الحسين وصح عن معاوية. وقال أبو الدرداء الصحابي لأهل الشام: ما رأيت أحد أشبه صلاة بصلاة رسول الله ﷺ من إمامكم هذا ـ يعني معاوية[3]ـ وكان ﷺ حريصاً على تعليم الناس العلم، فعن أبي أمامة سهل بن حنيف قال: سمعت معاوية ابن أبي سفيان وهو جالس على المنبر أذن المؤذن قال: الله أكبر الله أكبر، قال معاوية: الله أكبر الله أكبر. قال: أشهد أن لا إله إلا الله، فقال معاوية: وأنا، فقال: أشهد أن محمداً رسول الله، فقال معاوية: وأنا. فلما قضي التأذين قال: يا أيها الناس، إني سمعت رسول الله ﷺ على هذا المجلس ـ حين أذن المؤذن ـ يقول ما سمعتم مني من مقالتي[4]، وكان ﷺ يحث الناس على الفقه في الدين ويروي لهم الأحاديث الدالة على أهمية التفقه في الدين، فعن الزهري قال: أخبرني حميد قال: سمعت معاوية بن أبي سفيان يخطب قال: سمعت النبي ﷺ يقول: **«من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم، ويعطي الله، ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيماً حتى تقوم الساعة أو حتى يأتي أمر الله»**[5]، وكان ﷺ يكاتب أصحاب الرسول ﷺ ليتعلم منهم ما سمعوه من رسول الله ﷺ، فعن وراد مولى المغيرة بن شعبة قال: كتب معاوية إلى المغيرة: اكتب إلي ما سمعت النبي ﷺ يقول خلف الصلاة، فأملى علي المغيرة، قال: سمعت النبي ﷺ يقول خلف الصلاة: **«لا إله إلا الله وحده لا شريك له، اللّهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»**. وقال ابن جريج: أخبرني عدة أن وراداً أخبره بهذا. ثم وفدت بعد إلى معاوية فسمعته يأمر الناس بذلك القول[6]. وكان ﷺ حريصاً على اتباع السنة النبوية، فعن سعيد بن المسيب، وعن حمد بن عبد الرحمٰن بن عوف: أن معاوية لما قدم المدينة في آخر مقدمة قدمها، قال على منبر رسول الله ﷺ: أين علماؤكم يا أهل المدينة؟ سمعت رسول الله ﷺ في هذا اليوم ـ يوم عاشوراء ـ يقول: **«من شاء منكم أن يصومه فليصمه»** وفي رواية: **«وإني صائم»**، فصام الناس[7]، قال: وسمعت رسول الله ﷺ: ينهى عن مثل هذا، وأخرج قصة من شعر من كمه،

---

(1) المصدر نفسه، ص: 41.
(2) المصدر نفسه، ص: 57.
(3) منهاج السنة (3/ 185).
(4) فتح الباري (2/ 462).
(5) فتح الباري (13/ 306).
(6) فتح الباري (11/ 521).
(7) فتح الباري (4/ 287).

فقال: إنما هلكت بنو إسرائيل حين اتخذها نساؤهم[1]، يعني وصل المرأة شعرها بشعر آخر، وقد صح في عدد من الأحاديث لعن الواصلة والمستوصلة. وفي رواية أخرى أنه قال لهم: إنكم أحدثتم أي حدث سوء نهى رسول الله ﷺ عن (الزور)[2]. سماه الرسول زوراً لما فيه من التزوير والتغيير. فهنا نراه حريصاً على إحياء سنة كصوم عاشوراء الذي رأى أن الناس أهملوه، كما نراه حريصاً على إماتة بدعة ظهرت في الناس، وهي تقليد اليهوديات بوصل الشعر[3]. وروى عبد الرحمن بن هرمز الأعرج: أن العباس بن عبد الله بن عباس أنكح عبد الرحمن بن الحكم ابنته، وأنكحه عبد الرحمٰن ابنته، وقد جعلا ـ أي العقدين ـ صداقاً (أي كل منهما صداق الأخرى)، فكتب معاوية بن أبي سفيان ـ وهو خليفة ـ إلى مروان، يأمره بالتفريق بينهما، وقال في كتابه: هذا الشِّغار الذي نهى عنه رسول الله ﷺ[4]، فهو يراعي إقامة السنة في حياة الناس في الأمور كلها، أمور الفرد، وأمور الأسرة، وأمور الجماعة[5]، وكان رضي الله عنه لا يروي الحديث عن رسول الله إلا بمناسبة اقتضته، فقد ورد أنه دخل على عبد الله ابن الزبير وابن عامر، فقام ابن عامر له، ولم يقم ابن الزبير، فقال معاوية: مَهْ. قال رسول الله ﷺ: «من أحب أن يَمثُل له عباد الله قياماً، فليتبوّأ مقعده من النار»[6]. وعن مجاهد وعطاء عن ابن عباس: أن معاوية أخبره أن رسول الله قصر من شعره ـ أي في العمرة ـ بمِقَص، فقلنا لابن عباس: ما بلغنا هذا إلا عن معاوية. فقال: ما كان معاوية على رسول الله متّهماً[7].

وكان رضي الله عنه يهتم بمذاكرة العلم ويحرص عليه، فعن عبد الله بن الحارث قال: دخلت مع ابن عباس على معاوية فأجلسه على السرير، وفي تلك القصة سأله معاوية عن مسألة فقهية، وكان رضي الله عنه يعلم الناس ويحثهم على سؤاله والاستفادة من علمه، فقد خطب يوم جمعة وقال: أيها الناس اعقلوا قولي، فلن تجدوا أعلم بأمور الدنيا والآخرة مني، أقيموا وجوهكم وصفوفكم في الصلاة فلتقيمن وجوهكم وصفوفكم أو ليخالفن الله بين قلوبكم، خذوا على أيدي سفهائكم أو ليسلطنهم الله عليكم، فليسومنكم سوء العذاب، تصدقوا لا يقولنَّ الرجل: إني مقلٌّ. فإن صدقة المقلِّ أفضل من صدقة الغني، إياكم وقذف المحصنات، وأن يقول الرجل: سمعت ويلغني فلو قذف أحدكم امرأة على عهد نوح لسُئل عنها يوم القيامة[8]. وكان رضي الله عنه حريصاً على متابعة رسول الله ﷺ، فعندما دخل مكة سأل ابن عمر: أين صلى رسول الله؟ فقال: اجعل بينك وبين الجدار ذراعين أو ثلاثة[9]. وله اجتهاد في تعيين ليلة

(1) الفتح (6/ 591).
(2) الفتح (6/ 595).
(3) تاريخنا المفترى عليه للقرضاوي، ص: 71.
(4) مسند أحمد، رقم: 16856، إسناده حسن.
(5) تاريخنا المفترى عليه للقرضاوي، ص: 71.
(6) البخاري، رقم: 3488.
(7) مسند أحمد، رقم: 16813، إسناده صحيح.
(8) البداية والنهاية (11/ 437).
(9) الفتح (3/ 544).

القدر، فقد روى ابن أبي شيبة بإسناد صحيح عن معاوية قال: ليلة القدر ليلة ثلاث وعشرين[1]، وكان يعترف بالحجة والبرهان لغيره، فعن ابن عباس أنه طاف مع معاوية وكان معاوية يستلم الأركان بالبيت، فقال له ابن عباس ﷺ: إنه لا يستلم هذان الركنان. فقال: ليس شيء من البيت مهجوراً[2]. وجاء في رواية: فقال له ابن عباس ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: 21] فقال معاوية: صدقت[3]، ومن الأحكام التي قضاها معاوية ﵁ ما أخرجه ابن أبي شيبة من طريق عبد الله بن معقل قال: ما رأيت قضاء أحسن من قضاء قضى به معاوية: نرث أهل الكتاب ولا يرثونا، كما يحل النكاح فيهم ولا يحل لهم[4].

ومن المسائل الفقهية التي أثرت عن معاوية ﵁:

أ - أثر عنه ﵁ أنه أوتر بركعة[5].

ب - أثر عنه ﵁ الاستسقاء بمن ظهر صلاحه[6].

جـ - أنه يجزىء إخراج نصف صاع من البر في زكاة الفطر[7].

د - استحباب تطيب البدن لمن أراد الإحرام[8].

هـ - جواز بيع وشراء دور مكة[9].

و - التفريق بين الزوجين بسبب العُنَّة[10].

ز - وقوع طلاق السكران[11].

ح - عدم قتل المسلم بالكافر قصاصاً[12].

ط - حبس القاتل حتى يبلغ ابن القتيل[13].

وأما علومه في الفقه السياسي والسياسة الشرعية، ومقاصد الشريعة، وفقه الجهاد، فالكاتب سوف يحدثنا عن الكثير من فقهه في إدارة الدولة وتحقيق أهدافها.

---

(1) الفتح (4/ 311).

(2) الخلافة الراشدة والدولة الأموية من فتح الباري، ص: 585.

(3) المصدر نفسه، ص: 586.

(4) مصنف ابن أبي شيبة (11/ 374) سنن سعيد (1/ 45).

(5) فتح الباري (7/ 130).

(6) المغني (3/ 346).

(7) زاد المعاد (2/ 19).

(8) المغني (5/ 77).

(9) المصدر السابق (6/ 366).

(10) العُنَّة: هي عجز الرجل عن إتيان زوجته، القاموس المحيط، ص: 1570، زاد المعاد (5/ 181)

(11) المصدر السابق (5/ 211).

(12) المغني (11/ 466).

(13) المصدر السابق (11/ 577)، مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 28 , 29.

2 - الحلم والعفو:

اشتهر أمير المؤمنين معاوية بصفة الحلم وكان يضرب به المثل في حلمه ﵁، وكظم غيظه وعفوه عن الناس، وقد ذكر ابن كثير ما كان يتصف به أمير المؤمنين معاوية من الحلم حيث قال: وقال بعضهم: أسمع رجل معاوية كلاماً سيئاً شديداً، فقيل له: لو سطوت عليه، فقال: إني لأستحي من الله أن يضيق حلمي عن ذنب أحد من رعيتي. وفي رواية قال له رجل: يا أمير المؤمنين ما أحلمك!! فقال: إني لأستحي أن يكون جرم أحد أعظم من حلمي. وقال الأصمعي عن الثوري قال: قال معاوية: إني لأستحي أن يكون ذنب أعظم من عفوي، أو جهل أكبر من حلمي، أو تكون عورة لا أواريها بستري. وقال معاوية: يابني أمية فارقوا قريشاً بالحلم، فوالله لقد كنت ألقى الرجل في الجاهلية فيوسعني شتماً وأوسعه حلماً، وأرجع وهو لي صديق، إن استنجدته أنجدني، وأثور به فيثور معي، وما وضع الحلم عن شريف شرفه، ولا زاده إلا كرماً، وقال: لا يبلغ الرجل مبلغ الرأي حتى يغلب حلمه جهله، وصبره شهوته، ولا يبلغ الرجل ذلك إلا بقوة الحلم[1]، وسئل معاوية: من أسود الناس؟ فقال: أسخاهم نفساً حين يسأل، وأحسنهم في المجالس خلقاً، وأحلمهم حين يستجهل[2]، وقال أبو عبيدة معمر ابن المثنى: كان معاوية يتمثل بهذه الأبيات كثيراً:

فما قتل السفاهة مثل حلم ... يعود به على الجهل الحليم
فلا تسفَه وإن ملِّئتَ غيظاً ... على أحد فإن الفحش لُؤمُ
ولا تقطع أخاً لك عند ذنب ... فإن الذنب يغفره الكريم[3]

وكتب معاوية إلى نائبه زياد: إنه لا ينبغي أن يُساسَ الناس سياسة واحدة باللين فيمرحوا، ولا بالشدة فيُحْمَلَ الناس على المهالك، ولكن كن أنت للشدة والفظاظة والغلظة، وأنا للّين والألفة والرحمة، حتى إذا خاف خائف وجد باباً يدخل منه[4].

فهذه الأقوال المروية عن أمير المؤمنين معاوية ﵁ تبين لنا شيئاً مما اشتهر عنه من الاتصاف بخلق الحلم، وقد كان هذا الخلق همزة وصل بينه وبين من يعاملونه بشيء من الجفاء من أفراد رعيته، أو يصارحونه بقوة بما يرونه حقاً وهو يخالفهم في ذلك، وكان لتخلقه بخلق الحلم الذي لم يخالطه ضعف أثر في نجاحه في تثبيت أركان دولته، وذلك بمقدرته الفائقة على امتصاص غضب المخالفين، وتحويلهم إلى الرضى والقناعة بسياسته، وهكذا تأتي مكارم الأخلاق التي من أهمها الحلم والعفو والصبر والكرم لتكون من أهم عناصر السيادة، وقد أبان في هذه الأقوال بأن الحلم يخالطه شيء من الذل كما أن النصر يخالطه شيء

(1) البداية والنهاية (11/ 441).
(2) المصدر نفسه (11/ 442).
(3) المصدر نفسه (11/ 442).
(4) المصدر نفسه (11/ 443).

من العز، ولكن أبدى سروره بذلك الذل لما يترتب عليه من النتائج الحميدة التي منها اكتساب الأصدقاء والأنصار[1]. وفي كتابه إلى زياد أمير العراق بيان لسياسته الجيدة التي تخيف المتهورين الميالين إلى إحداث الفوضى والإخلال بالأمن، ولكنها في الوقت نفسه تبعث الأمل لدى من يراجعون أنفسهم ويريدون سلوك طريق الاستقامة والسلامة[2]، ولقد أثنى على أمير المؤمنين معاوية حكماء عصره وذكروا اتصافه بمكارم الأخلاق وخاصة الحلم، وفي ذلك يقول الحافظ ابن كثير: وقال عبد الملك بن مروان - يوماً وذكر معاوية فقال -: ما رأيت مثله في حلمه واحتماله وكرمه[3]، وقال قبيصة بن جابر: مارأيت أحداً أعظم حلماً، ولا أكثر سؤدداً، ولا أبعد أناة، ولا ألين مخرجاً، ولا أرحب بالمعروف من معاوية[4]. وقال عبد الله ابن الزبير ﷺ: لله در ابن هند، إن كنا لنُفْرقه[5]، وما الليث على براثنه بأجرأ منه فيتفارق لنا، وإن كنا لنخدعه وما ابن ليلةٍ من أهل الأرض بأدهى منه فيتخادع لنا، والله لوددت أنا مُتِّعنا به مادام في هذا الجبل حجر، وأشار إلى أبي قبيس[6]. وفي قول ابن الزبير هذا وصف دقيق لمعاملة معاوية لقادة المسلمين وسادتهم، فهو جريء شجاع ولكن يظهر عمداً ليصل من ذلك إلى عدم إثارة المخالفين، لأن إظهار الشجاعة يثير عنصر التحدي لديهم، وهو أدهى أهل الأرض في زمانه، ولكنه يظهر الانخداع أمام محدثيه ليصل إلى تجفيف منابع نقمتهم عليه، وهو في ذلك كله يخدم هدفاً سامياً وهو تحقيق حياة الرخاء والأمن للأمة الإسلامية، ولقد تمنى ابن الزبير أن يطول عمر معاوية لأنه يخشى من تغير الأحوال من بعده[7]، ويصف حبر الأمة عبد الله بن عباس ﷺ سياسة معاوية بكلام موجز، لكنه يعني خلاصة تفكير عميق حيث يقول: قد علمت بِمَ غلب معاوية الناس، كانوا إذا طاروا وقع، وإذا وقع طاروا[8]. وهذا يعني أنه إذا رأى السيول الجارفة قد أقبلت لم يقاومها، وإنما يفسح لها حتى تمر، ثم يحتوي الميدان وقد زال إقبال الناس الشديد فيتمكن مما يريد، وقد عبر معاوية عن هذه السياسة بقوله المشهور: لو كان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت، إذا جذبوها أرخيتها، وإذا أرخوها جذبتها، ومن مواقفه في الحلم أنه: جرى بين رجل يقال له أبو جهم وبين معاوية كلام، فتكلم أبو جهم بكلام فيه غَمْزٌ لمعاوية، فأطرق معاوية ثم رفع رأسه فقال: يا أبا الجهم إياك والسلطان فإنه يغضب غضب الصبيان ويأخذ أخذ الأسد، وإن قليله يغلب كثير الناس، ثم أمر معاوية لأبي الجهم بمال، فقال أبو الجهم في ذلك يمدح معاوية:

---

(1) التاريخ الإسلامي (17/ 26).
(2) التاريخ الإسلامي (17/ 26).
(3) البداية والنهاية (11/ 439).
(4) المصدر نفسه (11/ 439).
(5) نفرقه: نخوّفه.
(6) البداية والنهاية (11/ 442).
(7) التاريخ الإسلامي (17/ 27).
(8) البداية والنهاية (11/ 443).

نميل على جوانبه كأنا نميل إذا نميل على أبينا
نقلّبه لنخبر حالتيه فنخبر منهما كرماً ولينا[1]

وهكذا كان لحلم معاوية رضي الله عنه وحسن خلقه ومبادلته الإساءة بالإحسان الأثر الكبير في نفس أبي الجهم فقال هذين البيتين في الثناء على معاوية، ولقد كان سلوك أمير المؤمنين معاوية تطبيقاً لقوله الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: 34-35].

ونظراً لحلم معاوية الكبير وما يتصف به من الشجاعة والعزة فإن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أثنى عليه[2] بقوله: دعوا فتى قريش وابن سيدها، إنه لمن يضحك في الغضب ولا يُنال منه إلا على الرضا، ومن لا يؤخذ ما فوق رأسه إلا من تحت قدميه[3]. فهذا قول دقيق من عمر في وصف معاوية، فقد وصفه بالدرجة العالية من الحلم والعزة التي تجعله منيعاً لا ينال ما عنده على قهر منه، وهذه الصفة من صفاته التي جعلت أمير المؤمنين عمر يبقيه أميراً على الشام لخطورة ذلك الثغر[4].

وقال معاوية رضي الله عنه: العقل والحلم أفضل ما أعطي العبد، فإذا ذُكِّر ذكر وإذا أُعطي شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذا غضب كظم، وإذا قدر غفر، وإذا أساء استغفر، وإذا وعد أنجز[5]. ففي هذا الخبر جمع أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه درراً من الحكم، وهي الشكر عند الرخاء، والصبر عند الابتلاء والتحكم في السلوك عند الغضب، والعفو عند المقدرة، والوفاء بالوعد، والاستغفار عند الإساءة، فهذا الخبر على قصره قد جمع ستة موضوعات، كل موضوع يحتاج إلى أن يكتب عنه في صفحات، وهذا من جوامع الكلم، وهو يعتبر من أعلى أنواع البلاغة، وذلك في جمع المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة، وقد اشتهر في هذا البيان عدد من الصحابة رضي الله عنهم تتلمذوا في ذلك على رسول الله ﷺ الذي أوتي جوامع الكلم[6].

3 - الدهاء والحيلة:

ومن الصفات التي تميز بها معاوية رضي الله عنه صفة الدهاء والحيلة ومما يروى من دهائه وحسن إدارته وتدبيره، أن المسلمين غزوا في أيامه فأسر جماعة منهم، فوقفوا بين يدي ملك الروم

---

(1) التاريخ الإسلامي (17/ 28) البداية والنهاية (11/ 440).
(2) التاريخ الإسلامي (17/ 29,30).
(3) البداية والنهاية (11/ 415).
(4) التاريخ الإسلامي (11/ 30).
(5) أنساب الأشراف (5/ 336).
(6) التاريخ الإسلامي (19/ 20,355).

بقسطنطينية، فتكلم بعض أسارى المسلمين، فدنا منه بعض البطارقة[1] ممن كان واقفاً بين يدي الملك فلطم حرّ وجهه[2]، وكان رجلاً من قريش فصاح: واإسلاماه أين أنت عنا يا معاوية إذ أهملتنا وأضعت ثغورنا وحكّمت العدو في دمائنا وأعراضنا. فنمى ذلك الخبر إلى معاوية، فآلمه وامتنع من لذيذ الطعام والشراب، فخلا بنفسه، وامتنع عن الناس ولم يظهر ذلك لأحد من المخلوقين، ثم أعمل الحيلة في إقامة الفداء بين المسلمين والروم، إلى أن فدى ذلك الرجل، ومن أسر معه من المسلمين، فلما صار الرجل إلى دار الإسلام، دعاه معاوية فبره وأحسن إليه ثم قال له: لم نهملك، ولم نضيعك، ولا أبحنا دمك وعرضك. ومعاوية أثناء ذلك يدبر الرأي ويعمل الحيلة ثم بعث إلى رجل من ساحل دمشق من مدينة صور، وكان عارفاً كثير الغزوات في البحر صُمكّ[3] من الرجال مرطان بالرومية، فأحضره وخلا به، وأخبره بما قد عزم عليه وسأله إعمال الحيلة فيه والتأني له، فتوافقا على أن يدفع للرجل مالاً عظيماً، ليبتاع به أنواعاً من الطرف والملح والجهاز من الطيب والجوهر وغير ذلك، وأنشأ له مركباً لا يلحق في جريه سرعة، ولا يدرك في سيره، إنشاءً عجيباً، فسار الرجل حتى أتى مدينة قبرص فاتصل برئيسها وأخبره أن معه حاجة للملك، وأنه يريد التجارة إلى القسطنطينية، قاصداً إلى الملك وخواصه بذلك، فروسل[4] الملك بشأنه، فأذن له، فدخل خليج القسطنطينية، فلما وصلها أهدى للملك وجميع بطارقته، وبايعهم وشاراهم، وقصدهم، إلا ذلك البطريق الذي لطم القرشي، وتأنى الصوري من الأمور على حسب ما رسمها له معاوية، وأقبل الرجل من القسطنطينية إلى الشام، وقد أمره أكثر البطارقة أن يبتاع حوائج ذكروها، وأنواعاً من الأمتعة وصفوها، فلما صار إلى الشام سار إلى معاوية سراً، وذكر له من الأمر ما جرى، فابتيع له ما طلب منه وما علم أن رغبتهم فيه وتقدم إليه معاوية فقال: إن ذلك البطريق إذا عدت في كرتك هذه سيعذلك عن تخلفك عن بره، واستعانتك به، فاعتذر إليه ولاطفه بالقول والهدايا، واجعله القيم بأمرك والتفقد لأحوالك، تزداد عندهم، فإذا أتقنت جميع ما أمرتك به، وعلمت ما غرض البطريق وإيش الذي يأمرك بابتياعه فعد به إلينا لتكون الحيلة على حسبه. فلما رجع الصوري إلى القسطنطينية ومعه جميع ما طلب منه والزيادة مما لم يطلب زادت منزلته، وارتفعت أحواله عند الملك والبطارقة وسائر الحاشية، فلما كان في بعض الأيام وهو يريد الدخول إلى الملك، قبض عليه ذلك البطريق في دار الملك، وقال له: ما ذنبي إليك؟ وبم استحق غيري أن تقصده وتقضي حوائجه وتعرض عني، قال الصوري:

---

(1) البطارقة : جمع بطريق وهو رئيس الأساقفة، والأسقف رجل الكنيسة.

(2) لطم حرّ وجه : ما ظهر منه.

(3) الصمك والصموك : القوي الشديد، والغليظ الجافي.

(4) الشهب اللامعة، ص: 487.

أكثر من ذكرت ابتدأني وأنا رجل غريب، وأرحل إلى هذا البلد كالمتنكر من أسارى المسلمين وجواسيسهم لئلا يَنِمُّوا خبري ويوشوا بأمري إلى المسلمين فيكون في ذلك بواري، والآن فإذا قد علمت ميلك إليّ فلست أحب أن يعتني بأمري سواك، ولا يقوم بحالي عند الملك وغيره غيرك، فمرني بحوائجك وجميع ما يعرض من أمورك بأرض الإسلام. وأهدى إلى ذلك البطريق هدية حسنة من الزجاج المخروط والطيب والجوهر والطرف والثياب. ولم يزل هذا فعله، يتردد من الروم إلى معاوية ومن معاوية إلى الروم ويسأله الملك والبطريق وغيره من البطارقة الحوائج الجليلة والحيلة لا تتوجه إلى معاوية، حتى مضى على ذلك سنين فلما كان في بعضها قال البطريق للصوري، وقد أراد الخروج إلى دار الإسلام: قد اشتهيت أن تعمدني بقاء حاجة، وتمن بها عليّ، وهي أن تبتاع لي بساط سوسنجرد بمخاده ووسائده، ويكون فيه من أنواع الألوان الحمرة والزرقة وغيرها، ويكون من صفة كذا وكذا، ولو بما بلغ ثمنه كل مبلغ، فأنعم له بذلك، وكان من شأن الصوري أن يكون مركبه إذا ورد القسطنطينية بالقرب من موضع ذلك البطريق وكان للبطريق ضيعة سرية، وفيها قصر مشيد، ومنتزه حسن على أميال من القسطنطينية راكبه على الخليج، وكان البطريق أكثر أوقاته في ذلك المنتزه وكانت الضيعة فيما بين قسم الخليج من يلي بحر الروم والقسطنطينية، فانصرف الصوري إلى معاوية سراً، فأخبره بالحال فأحضر معاوية بساطاً بوسائد ومخاد ومجلس حسن[1]، فانصرف به مع جميع ما طلب منه من أرض الإسلام، وقد تقدم إليه معاوية بالحيلة، وكيفية إيقاعها. وكان الصوري فيما وصفنا من هذه المدة قد صار كأحدهم في المؤانسة والعشرة، وفي الروم طمع وشره فلما دخل من البحر إلى خليج القسطنطينية وقد طابت له الريح وقرب من ضيعة البطريق، أخذ الصوري أخبار البطريق من أصحاب القوارب والمراكب، فأخبر أن البطريق في ضيعته، وذلك أن الخليج طوله نحو من ثلاثمائة وخمسين ميلاً، والضياع والعمائر على حافتيه، والمراكب تختلف، والقوارب بأنواع المتاع والأقوات إلى القسطنطينية من هذه العمائر لا تحصى كثرة، فلما علم الصوري أن البطريق في ضيعته فرش البساط ونضد ذلك الصدر والمجلس بالوسائد والمخاد في صحن المركب ومجلسه، والرجال تحت المجلس بأيديهم المقاذيف مشكلة قائمة غير قاذفين بها، ولا يعلم بهم أنهم في بطن المركب إلا من ظهر منهم في عمله والريح في القلع، والمركب مار في الخليج كأنه سهم خرج عن كبد قوس لا يستطيع القائم على الشط أن يملأ بصره منه لسرعة سيره واستقامته في جريه، فأشرفه على قصر البطريق وهو جالس في مستشرفه مع حرمه، وقد أخذت منه الخمر، وعلاه الطرب، وذهب به الفرح والسرور كل مذهب، فلما رأى البطريق مركب الصوري زعق طرباً، وصاح فرحاً وسروراً وابتهاجاً

---

(1) الشهب اللامعة في السياسة النافعة، ص: 489.

بقدومه، فدنا من أسفل القصر فحط القلع، وأشرف البطريق على المركب فنظر إلى ما فيه من حسن ذلك البساط ونظم تلك الفرش، كأنه رياض يزهر، فلم يستطيع اللبث في موضعه، حتى نزل قبل أن يخرج الصوري من مركبه إليه فطلع إلى المركب، فلما استقر قدمه على المركب ودنا من المجلس، ضرب الصوري بعقبه على من تحت البساط وكانت علامة بينه وبين الرجال الذين في بطن المركب، فما استقر دقه في المركب بقدمه، حتى اختطف المركب بالمقاذيف، وإذا هو وسط الخليج يطلب البحر لا يلوي على شيء وارتفع الصوت ولم يدر ما الخبر لمعالجة الأمر، فلم يكن الليل حتى خرج عن الخليج وتوسط البحر، وقد أوثق البطريق كتافاً، وطابت له الريح، وأسعده الجد، وحمله المقدار في ذلك اللج، فتعلق في اليوم السابع بساحل الشام، ورأى البر وحمل الرجل فكان في اليوم الثالث عشر مأسوراً بين يدي معاوية فسر بذلك معاوية[1]. وقال: عليّ بالرجل القرشي، فأتي به وقد حضره خواص الناس، فأخذوا مجالسهم، وغص المجلس بأهله، فقال معاوية للقرشي: قم فاقتص من هذا البطريق الذي لطم وجهك على بساط معظّم الروم، فإنّا لم نضيعك ولا أبحنا دمك ولا عرضك، فقام القرشي فدنا من البطريق، فقال معاوية: انظر لا تتعدى ما جرى عليك، واقتص منه على حسب ما صنع بك ولا تعتد، وارع ما أوجب الله عليك من المماثلة، فلطمه القرشي لطمات ووكزه في حلقه، ثم أكب القرشي على يدي معاوية وأطرافه يقبلها، وقال: ما ضاع من سوَّدك، ولا خاب فيك من رأسك، أنت ملك لا يستضام[2] تمنع حماك وتصون رعيتك، وأرق في وصفه ودعائه. وأحسن معاوية إلى البطريق، وخلع عليه وبرّه، وحمل معه البساط، وأضاف إلى ذلك أشياء كثيرة وهدايا إلى الملك، وقال له: ارجع إلى ملكك، وقل له: تركت ملك المسلمين[3] يقيم الحدود على بساطك، ويقتص لرعيته في دار مملكتك وسلطانك وعزك، وقال للصوري: سر معه حتى تأتي الخليج فتطرحه فيه ومن أسر معه، ممن كان بادر فصعد إلى المركب من غلمان البطريق وخاصته، فحملوا إلى صور مكرمين، وحمل الجميع في المركب، وطابت لهم الريح، فكانوا في اليوم الحادي عشر متعلقين بأرض الروم فقربوا من الخليج فإذا قد أحكم فمه بالسلاسل والمنعة من الموكولين به، فطرح البطريق، وحمل من وقته إلى الملك ومعه الهدايا والأمتعة وتباشرت الروم بقدومه، وتلقوه مهنئين له بخلاصه من الأسر، فكافأ الملك معاوية على ما كان من فعله في أمر البطريق والهدايا، فلم يكن يستضام أسير من المسلمين في أيامه، وقال الملك: هذا أدهى العرب وأمكر الملوك، ولهذا قدمته

---

(1) الشهب اللامعة في السياسة النافعة، ص: 490.

(2) الضيم: الإذلال والقهر، أي ملك لا يقهر ولا يزل.

(3) أصل الكلمة في الأصل: العرب.

العرب عليها، فأساس أمورها، ولو هَمَّ بأخذي لتمت له الحيلة علي[1]. وهذه القصة دليل على دهاء معاوية رضي الله عنه وحسن سياسته واهتمامه بأمور رعيته والمحافظه على حقوق كل فرد فيها وصيانة[2] كرامته.

4 - عقليته الفذة وقدرته على الاستيعاب:

امتاز معاوية رضي الله عنه بالعقلية الفذة، فإنه كان يتمتع بالقدرة الفائقة على الاستيعاب، فكان يستفيد من كل ما يمر به من الأحداث، ويعرف كيف يتوقاها، وكيف يخرج منها إذا تورط فيها، وكانت خبراته الواسعة وممارسته لأعباء الحكم على مدى أربعين سنة، منذ ولاه عمر رضي الله عنه الشام، فكانت ولايته على الشام عشرين سنة أميراً، وعشرين سنة خليفة[3]، هذه الفترة الطويلة التي تقلب فيها بين المناصب العسكرية والولاية المدنية أكسبته خبرة في سياسة البلاد، والاستفادة من كل الظروف والأوضاع التي تمر بها، حتى استطاع أن يسير بالدولة عشرين سنة دون أن ينازعه منازع[4]، يقول الشيخ الخضري: أما معاوية نفسه، فلم يكن أحد أوفر منه يداً في السياسة، صانع رؤوس العرب، وكانت غايته في الحلم لا تدرك، وعصابته فيه لا تنزع ومرقاته فيه تزل عنها الأقدام[5]، ومن المعلوم أن السياسة الناجحة تتوقف على القدرة على ضبط النفس عند الغضب، واحتواء الشدائد حتى تنجلي، ولمعاوية في ذلك نصيب وافر رضي الله عنه وكانت تلك سياسته مع العامة والخاصة، وهذه طريقه مع الملوك والسوقة، وهذه أمثلة من سياسته في معاملة الناس.

أ - المسور بن مخرمة رضي الله عنه واعتراضه على معاوية: عن عروة بن الزبير: أن المسور بن مخرمة أخبره أنه قدم وافداً على معاوية بن أبي سفيان فقضى حاجته، ثم دعاه فأخلاه فقال: يامسور ما فعل طعنك على الأئمة؟ فقال المسور: دعنا من هذا وأحسن فيما قدمنا له. قال: معاوية لا والله لتكلمنَّ بذات نفسك، والذي تعيب عليّ. قال المسور: فلم أترك شياً أعيبه عليه إلا بينته له. قال معاوية: لا بريء من الذنب، فهل تعد يامسور ما لي من الإصلاح في أمر العامة، فإن الحسنة بعشر أمثالها؟ أم تعد الذنوب وتترك الحسنات. قال المسور: لا والله ما نذكر إلا ما ترى من هذه الذنوب. قال معاوية: فإنا نعترف لله بكل ذنب أذنبناه فهل لك يامسور ذنب في خاصتك تخشى أن تهلكك إن لم يغفرها الله؟ قال مسور: نعم! قال معاوية: فما يجعلك أحق أن ترجو المغفرة مني؟ فوالله لما ألي من الإصلاح أكثر مما تَلِي ولكن والله لا

(1) الشهب اللامعة في السياسة النافعة، ص: 491.
(2) المصدر نفسه، ص: 491 تعليق محقق الكتاب السيد سليمان معتوق الرفاعي رحمه الله.
(3) الطبقات الكبرى (7/ 406).
(4) الأمويون بين الشرق والغرب (1/ 82).
(5) الدولة الأموية للخضري، ص: 377.

أُخير بين أمرين وبين الله وغيره إلا اخترت الله تعالى على ما سواه، وأنا على دين يقبل الله فيه العمل، ويجزي فيه بالحسنات، ويجزي فيه بالذنوب إلا أن يعفو عمن يشاء، فأنا أحتسب كل حسنة عملتها بأضعافها، وأوازي أموراً عظاماً لا أحصيها ولا تحصيها من عمل لله في إقامة صلوات المسلمين، والجهاد في سبيل الله ﷿ ، والحكم بما أنزل الله تعالى، والأمور التي ليست تحصيها وإن عددتها لك. قال المسور: فعرفت أن معاوية قد خصمني حين ذكر لي ما ذكر. قال عروة: فلم يُسمع المسور بعد ذلك يذكرمعاوية إلا استغفر له[1] وفي هذا الخبر مثل جيد في فن الإقناع ومحاولة امتصاص غضب المخالفين وتحويل قناعاتهم، فقد استطاع أمير المؤمنين معاوية ﷺ أن يقنع المسور بن مخرمة ﷺ بتقبل سياسته التي يسير عليها، وعاد مادحاً داعياً له بعدما كان منتقداً مهاجماً له، وفي هذا الخبر لفتة تربوية من معاوية حيث أبان من العدل في الحكم على المسلم أن ينظر الحاكم عليه إلى حسناته وصوابه مع أن ينظر إلى سيئاته وخطئه، ثم يوازن بين الجانبين، فلعل هذا المسلم الذي برزت أخطاؤه في ذهن من تصدى لنقده تكون له حسنات كثيرة جليلة قد لا تعد أخطاؤه إلى جانبها شيئاً مذكوراً[2].

ب - **ثابت بن قيس بن الخطيم الأنصاري ﷺ** : كان ثابت بن قيس بن الخطيم شديد النفس، وكان له بلاء مع علي بن أبي طالب، واستعمله علي بن أبي طالب على المدائن، فلم يزل عليها حتى قدم المغيرة بن شعبة الكوفة، وكان معاوية يتقي مكانه. فانصرف ثابت بن قيس إلى منزله فوجد الأنصار مجتمعة في مسجد بني ظفر يريدون أن يكتبوا إلى معاوية في حقوقهم أول ما استخلف... فقال: ما هذا، فقالوا: نريد أن نكتب إلى معاوية. فقال: ما تصنعون أن يكتب إليه جماعة؟! يكتب إليه رجل منا فإن كانت كائنة برجل منكم فهو خير من أن تقع بكم جميعاً وتقع أسماؤكم عنده فقالوا: فمن ذلك الذي يبذل نفسه لنا؟ قال: أنا. قالوا: فشأنك، فكتب إليه وبدأ بنفسه فذكر أشياء منها: نصرة النبي ﷺ وغير ذلك. وقال: حبست حقوقنا واعتديت علينا وظلمتنا، وما لنا إليك ذنب إلا نصرتنا للنبي ﷺ، فلما قدم كتابه إلى معاوية دفعه إلى يزيد فقرأه ثم قال له: ما الرأي، فقال: تبعث فتصلبه على بابه، فدعا كبراء أهل الشام فاستشارهم، فقالوا: تبعث إليه حتى تقدم به هٰهنا وتقفه لشيعتك ولأشراف الناس حتى يروه، ثم تصلبه. فقال: هل عندكم غير هذا؟ قالوا: لا، فكتب إليه: قد فهمت كتابك، وما ذكرت النبي ﷺ وقد علمت أنها كانت ضجرة لشغلي وما كنت فيه من الفتنة التي شهرت فيها نفسك فأنظرني ثلاثاً، فقدم كتابه على ثابت فقرأه على قومه، وصبَّحهم العطاء في اليوم الرابع[3].

---

(1) تاريخ بغداد (1/ 20، 209) سير أعلام النبلاء (3/ 151).

(2) التاريخ الإسلامي (17، 18/ 539).

(3) تاريخ بغداد (1/ 176).

فهذا الخبر فيه موقف كبير لأمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه في الحكمة والسياسة، فهو بعد أن استشار ابنه يزيد وبعض وجهاء الشام لم يعجبه رأيهم ولم يوافقهم على أخذ الناس بالشدة والعنف والجبروت، بل سارع إلى إرسال عطاء الأنصار رضي الله عنهم، ولم يؤاخذ ثابت بن قيس رضي الله عنه على شدة اللهجة في كتابه إليه، وبهذا التصرف الحكيم والسياسة الرشيدة لم يخسر شيئاً بل كسب رضى الأنصار عنه ورضى غيرهم ممن يطلع على خبره معهم، ولو أنه أخذ بمشورة السذج المتجبرين فبطش بصاحب ذلك الكتاب لثار عليه الأنصار، ولناصرهم طوائف من المسلمين لشهرتهم ومكانتهم في الإسلام[1].

جـ - **الأحنف بن قيس** رحمه الله: ذكر ابن خلكان في ترجمته: ثم إن عبيد الله - يعني ابن زياد أمير العراق - جمع أعيان العراق وفيهم الأحنف وتوجه بهم إلى الشام للسلام على معاوية، فلما وصلوا دخل عبيد الله على معاوية وأعلمه بوصول رؤساء العراق، فقال: أدخلهم عليَّ أوّلاً فأوّل على قدر مراتبهم عندك، فخرج إليهم وأدخلهم على الترتيب كما قال معاوية، وآخر من دخل الأحنف، فلما رآه معاوية - وكان يعرف منزلته ويبالغ في إكرامه لتقدمه وسيادته - قال: إليَّ يا أبا بحر، فتقدم إليه فأجلسه معه على مرتبته، وأقبل عليه يسأله عن حاله ويحادثه، وأعرض عن بقية الجماعة. قال: ثم إن أهل العراق أخذوا في الشكر في عبيد الله والثناء عليه، والأحنف ساكت، فقال له معاوية: لم لا تتكلم يا أبا بحر؟ فقال: إن تكلمت خالفتهم، فقال له معاوية: اشهدوا علي أنني قد عزلت عبيد الله عنكم، قوموا انظروا في أمير أوليه عليكم وترجعون إليَّ بعد ثلاثة أيام. قال: فلما خرجوا من عنده كان فيهم جماعة يطلبون الإمارة لأنفسهم، وفيهم من عيَّن غيره، وسعوا في السِّر مع خواص معاوية أن يفعل لهم ذلك، ثم اجتمعوا بعد انقضاء الثلاثة كما قال معاوية، والأحنف معهم، ودخلوا عليه فأجلسهم على ترتيبهم في المجلس الأول، وأخذ الأحنف إليه كما فعل أوّلاً وحادثه ساعة، ثم قال: ما فعلتم فيما انفصلتم عليه؟ فجعل كل واحد يذكر شخصاً وطال حديثهم في ذلك وأفضى إلى منازعة وجدال، والأحنف ساكت، ولم يكن في الأيام الثلاثة تحدث مع أحد في شيء، فقال له معاوية: لم لا تتكلم يا أبا بحر؟ فقال الأحنف: إن ولَّيت أحداً من أهل بيتك لمن تجد من يعدل عبيد الله ولا يسد مسدَّه، وإن وليت من غيرهم فذلك إلى رأيك، ولم يكن في الحاضرين الذين بالغوا في المجالس الأول في الثناء على عبيد الله، من ذكره في هذا المجلس ولا سأل عوده إليهم. قال: فلما سمع معاوية مقالة الأحنف قال للجماعة: اشهدوا علي أني قد أعدت عبيد الله إلى ولايته، فكل منهم ندم على عدم تعيينه، وعلم معاوية أن شكرهم لعبيد الله لم يكن لرغبتهم فيه، بل كما جرت العادة في حق المتولي. قال: فلما فصل الجماعة من مجلس

(1) التاريخ الإسلامي (17/ 537).

معاوية خلا بعبيد الله وقال له: كيف ضيعت مثل هذا الرجل - يعني الأحنف - فإنه عزلك وأعادك إلى الولاية وهو ساكت، وهؤلاء الذين قدمتهم عليه واعتمدت عليهم لم ينفعوك ولا عرجوا عليك لما فوضت الأمر إليهم، فمثل الأحنف من يتخذه الإنسان عوناً وذخراً. قال: فلما عادوا إلى العراق أقبل عليه عبيد الله وجعله بطانته وصاحب سره[1] وفي هذا الخبر موقف لمعاوية رضي الله عنه حينما علم قدر الأحنف بن قيس رحمه الله وأدرك رفعة منزلته، فرفعه وأدناه منه وأظهر له كثيراً من الاهتمام والاحترام وهذا كما أنه يعتبر من تقدير أهل الفضل فهو يعتبر من السياسة الجيدة في احتواء أهل القوة والتأثير على الناس[2] واستيعابهم. ومن القصص التي حدثت بين معاوية والأحنف والتي تدل على سعة صدر معاوية ومعرفته بعواقب الأمور، فعندما استقر الأمر لمعاوية دخل عليه يوماً، فقال له معاوية: والله يا أحنف ما أذكر يوم صفين إلا كانت حزازة في قلبي إلى يوم القيامة؟ فقال له الأحنف: والله يا معاوية إن القلوب التي أبغضناك بها لفي صدورنا، وإن السيوف التي قاتلناك بها لفي أغمادها، وإن تدن من الحرب فتراً ندن منها شبراً، وإن تمشي إليها نهرول إليها، ثم قام وخرج وكانت أخت معاوية من وراء حجاب تسمع كلامه فقالت: يا أمير المؤمنين من هذا الذي يتهدد ويتوعد؟ قال: هذا الذي إذا غضب، غضب لغضبه مائة ألف من تميم لا يدرون فيم غضب[3].

د - **أبو قتادة الأنصاري رضي الله عنه**: ذكر ابن عبد البر في الاستيعاب وجاء بالسند فقال: من جامع معمر رواية عبد الرزاق [4]، قال: حدّثنا معمر، عن عبد الله بن محمد بن عقيل: أن معاوية لما قدم المدينة لقيه أبو قتادة الأنصاري، فقال له معاوية: يا أبا قتادة، تلقاني الناس كلّهم غيركم يا معشر الأنصار! ما منعكم؟ قال: لم يكن معنا دواب، قال معاوية: فأين النّواضح؟ قال أبو قتادة: عقرناها في طلبك، وطلب أبيك يوم بدر، قال: نعم يا أبا قتاده: قال أبو قتادة: إن رسول الله ﷺ قال لنا: إنَّا سنرى بعده أثرة، قال معاوية: فما أمركم به عند ذلك؟ قال: أمرنا بالصبر، قال: فاصبروا حتّى تلقوه[5].

5 - تواضعه وورعه:

ومن صفات معاوية رضي الله عنه التي اشتهر بها صفة التواضع فقد كان في خطبه العامة يعترف بأن

---

(1) وفيات الأعيان (2 / 503,504).

(2) التاريخ الإسلامي (17/ 24).

(3) وفيات الأعيان (2/ 186).

(4) مصنف عبد الرزاق، رقم: 19909، وهو مرسل فإن عبد الله بن محمد بن عقيل لم يدرك معاوية وأبا قتادة، وابن عقيل ليس بذاك: وأما إخبار النبي ﷺ للأنصار بأنهم سيرون بعده أثرةً وأمره لهم بالصبر حتى يأتوه فثابت من حديث أسيد بن حضير عند البخاري رقم 3792، ومسلم رقم 1845، الاستيعاب، ص: 670.

(5) الاستيعاب، ص: 670، رقم الترجمة 2346.

في الناس من هو خير منه وأفضل، وكان ذلك بعد أن تولى أمر المسلمين، واجتمع عليه الناس، فأصبح الأمير الذي لا ينازع. خطب مرة فقال: أيها الناس ما أنا بخيركم، وإن منكم لمن هو خير مني، عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو، وغيرهما من الأفاضل، ولكن عسى أن أكون أنفعكم ولاية، وأنكاكم في عدوكم، وأدركم حلباً[1]. وروى الإمام أحمد بسنده إلى علي بن أبي حملة عن أبيه قال: رأيت معاوية على المنبر بدمشق يخطب الناس وعليه قميص مرقوع[2]، وعن يونس بن ميسر الحميري قال: رأيت معاوية في سوق دمشق، وهو مردف وراءه وصيفاً، وعليه قميص الجيب، يسير في أسواق دمشق[3]، وبلغ من ورعه أنه لما رأى إحدى جواريه، ونظر إليها بشهوة، ولكنه شعر بعجزه عن وطئها، قال لمن أحضرها إليه: اذهب بها إلى يزيد بن معاوية، ثم قال: لا، ادع لي ربيعة بن عمرو الجرشي ـ وكان ربيعة فقيهاً ـ فلما دخل عليه قال: إن هذه أتيت بها مجردة، وقد رأيت منها ذلك وذلك، وإني أردت أن أبعث بها إلى يزيد. فقال ربيعة: لا تفعل يا أمير المؤمنين: فإنها لا تصلح له، فقال معاوية: نعم ما رأيت، ثم وهب معاوية الجارية لعبد الله بن مسعدة الفزاري، مولى فاطمة بنت رسول الله ﷺ وكان أسود، فقال له: بيض بها ولدك[4]، ويعلق ابن كثير على ذلك بقوله: وهذا من فقه معاوية وتحريه، حيث كان نظر إليها بشهوة، ولكن استعفف نفسه عنها، فتحرج أن يهبها لولده يزيد لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: 22] وقد وافقه على ذلك ربيعة بن عمرو الجرشي الدمشقي[5].

6 - بكاؤه من خشية الله:

روي في مجلس معاوية رضي الله عنه حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ، في أن أول من تسعر بهم النار يوم القيامة من أمة محمد: القارىء المرائي، والمنفق المرائي، والمجاهد المرائي، وبين رسول الله ﷺ ذلك حيث قال: **«أن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم وكل أمة جاثية، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن ورجل يقتل في سبيل الله، ورجل كثير المال، فيقول الله للقارىء: ألم أعلمك ما أنزلت على رسلي؟ قال: بلى يا رب، قال: فماذا عملتَ فيما علمت؟ قال: كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت. ويقول الله: بل أردت أن يقال إن فلاناً قارىء فقد قيل ذلك، ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له: ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال:**

---

(1) البداية والنهاية (11/ 436).

(2) سير أعلام النبلاء (3/ 152) الزهد، ص: 172.

(3) سير أعلام النبلاء (3/ 152) من سب الصحابة ومعاوية فأمه هاويه، ص: 129.

(4) البداية والنهاية (11/ 396).

(5) المصدر نفسه

بلى يا رب. قال: فماذا عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم وأتصدق، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله تعالى: بل أردت أن يقال فلان جواد فقد قيل ذلك، ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله، فيقول الله له: فبماذا قتلت؟ فيقول: أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قتلت. فيقول الله تعالى له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال فلان جريء فقد قيل ذلك، ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي فقال: يا أبا هريرة، أولئك الثلاثة أول خلق الله تُسعَّر بهم النار يوم القيامة. فعندما سمع معاوية هذا الحديث قال: قد فعل بهؤلاء هذا فكيف بمن بقي من الناس؟ ثم بكى معاوية بكاءً شديداً حتى ظن من حوله أنه هالك، ثم أفاق معاوية ومسح عن وجهه وقال: صدق الله ورسوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾[1] [هود: 15-16] هذه أهم صفات معاوية التي خرجت لي عند البحث في سيرته.

ثالثاً: ثناء العلماء على معاوية ودخول دولة بني أمية في خير القرون:

1 - عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

قال عمر بن الخطاب: تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاوية[2]، وقال أبو محمد الأموي: خرج عمر بن الخطاب إلى الشام فرأى معاوية في موكب يتلقاه، وراح إليه في موكب، فقال له عمر: يا معاوية، تروح في موكب وتغدو في مثله، ويلغني أنك تصبح في منزلك وذوو الحاجات ببابك، قال: يا أمير المؤمنين إن العدو بها قريب منا، ولهم عيون وجواسيس، فأردت يا أمير المؤمنين أن يروا للإسلام عزاً، فقال له عمر: إن هذا لكيد رجل لبيب، أوخدعة رجل أريب؛ فقال معاوية: يا أمير المؤمنين، مرني بما شئت أصر إليه؛ قال: ويحك، ما ناظرتك في أمر أعيب عليك فيه إلا تركتني ما أدري آمرك أم أنهاك[3].

2 - علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه : لا تكرهوا إمارة معاوية فوالله لئن فقدتموه لترون رؤوساً تندر عن كواهلها كأنها الحنظل[4]. فهذا توجيه من أمير المؤمنين علي لأصحابه لعدم كراهيتهم إمارة معاوية.

3 - عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال:

ما رأيت أحداً أسود من معاوية قال: قلت: ولا عمر؟ قال: كان عمر خيراً منه وكان معاوية

---

(1) رواه الترمذي والحاكم عن أبي هريره وصححه الألباني 1713.

(2) المعجم الكبير (5/ 330) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 83.

(3) أنساب الأشراف (4/ 147)، الاستيعاب رقم الترجمة 2346 مروياً خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 84.

(4) البداية والنهاية (11/ 430).

أسود[1] منه، وفي رواية: مارأيت أحداً بعد رسول الله ﷺ أسود من معاوية. قيل: ولا أبا بكر؟ قال: كان أبو بكر وعمر وعثمان خيراً منه، وهو أسود منهم[2].

4 - عبد الله بن عباس رضي الله عنه :

قال رضي الله عنه : ما رأيت رجلاً كان أخلق بالملك من معاوية[3]، وفي صحيح البخاري أنه قيل لابن عباس: هل لك في أمير المؤمنين معاوية فإنه ما أوتر إلا بواحدة قال: إنه فقيه[4]، وذكر ابن عباس معاوية فقال: لله درَّ ابن هند ما أكرم حسبه وأكرم مقدرته، والله ما شتمنا على منبر قط، ولا بالأرض ضنًّا منه بأحسابنا وحسبه[5] وحين عزى معاوية عبد الله بن عباس في الحسن ابن علي بقوله: لا يخزيك الله ولا يسوؤك في الحسن فقال له ابن عباس: أما ما أبقى الله لي أمير المؤمنين، فلن يسوؤني الله ولن يخزيني[6].

5 - سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه :

قال رضي الله عنه : ما رأيت أحداً بعد عثمان أقضى بحقٍّ من صاحب هذا الباب، يعني: معاوية[7].

6 - أبو هريرة رضي الله عنه :

كان يمشي في سوق المدينة وهو يقول: ويحكم تمسكوا بصدغي معاوية، اللّهم لا تدركني إمارة الصبيان[8].

7 - أبو الدرداء رضي الله عنه :

ما رأيت أحداً بعد رسول الله ﷺ أشبه صلاة برسول الله من أميركم هذا - يعني معاوية[9] - قال ابن تيمية: بعد أن أورد أثر ابن عباس السابق، وأثر أبي الدرداء هذا: فهذه شهادة الصحابة بفقهه ودينه والشهادة بالفقه ابن عباس ويحسن الصلاة أبو الدرداء وهما هما والآثار الموافقة لهذا كثيرة[10].

---

(1) المصدر السابق (11/ 438).
(2) المصدر السابق (11/ 438).
(3) المصدر السابق (11/ 439).
(4) البخاري، رقم: 3765.
(5) تاريخ دمشق (62/ 128,129).
(6) مختصر تاريخ دمشق (25/ 67,68).
(7) سير أعلام البنلاء (3/ 150).
(8) مختصر تاريخ دمشق (25/ 79)، أثر العلماء، ص: 84.
(9) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (9/ 357) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير قيس بن الحرث المدحجي.
(10) منهاج السنة (6/ 235).

8 - سعيد بن المسيب رحمه الله:

قال ابن وهب عن مالك عن الزهري قال: سألت سعيد بن المسيِّب عن أصحاب رسول الله ﷺ فقال لي: اسمع يا زهري، من مات محباً لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وشهد للعشرة بالجنة، وترحم على معاوية كان حقيقاً على الله أن لا يناقشه الحساب[1].

9 - عبد الله بن المبارك رحمه الله:

قال: معاوية عندنا محنة، فمن رأيناه ينظر إليه شزراً، اتهمناه على القوم، يعني الصحابة[2] وسئل ابن المبارك عن معاوية فقال: ما أقول في رجل قال رسول الله ﷺ: «سمع الله لمن حمده». فقال خلفه: ربَّنا ولك الحمد؟ فقيل: أيُّما أفضل: هو أم عمر بن عبد العزيز؟ فقال: لتراب في منخري معاوية مع رسول الله ﷺ خير وأفضل من عمر بن عبدالعزيز[3].

10 - عمر بن عبد العزيز رحمه الله:

وقال ابن المبارك عن محمد بن مسلم عن إبراهيم بن ميسرة قال: ما رأيت عمر بن عبد العزيز ضرب إنساناً قط إلا إنساناً شتم معاوية، فإنه ضرب أسواطاً[4].

11 - وقال محمد بن عبد الله بن عمار الموصلي وغيره:

سئل المعافى بن عمران: أيهما أفضل معاوية أو عمر بن عبد العزيز؟ فغضب وقال للسائل: أتجعل رجلاً من الصحابة مثل رجل من التابعين، معاوية صاحبه وصهره، وكاتبه، وأمينه على وحي الله[5].

12 - أحمد بن حنبل رحمه الله:

سئل الإمام أحمد: ما تقول رحمك الله فيمن قال: لا أقول إن معاوية كاتب الوحي، ولا أقول إنه خال المؤمنين فإنه أخذها بالسيف غصباً؟ قال أبو عبد الله: هذا قول سوءٍ رديء، يجانبون هؤلاء القوم، ولا يجالسون، ونبين أمرهم للناس.

13 - الربيع بن نافع الحلبي رحمه الله:

قال: معاوية ستر لأصحاب محمد ﷺ، فإذا كشف الرجل الستر، اجترأ على ما وراءه[6].

14 - قال ابن أبي العز الحنفي:

وأول ملوك المسلمين معاوية وهو خير ملوك المسلمين[7].

---

(1) البداية والنهاية (11/ 449).
(2) المصدر نفسه (11/ 449).
(3) المصدر نفسه (11/ 449).
(4) المصدر نفسه (11/ 451).
(5) المصدر نفسه (11/ 450).
(6) البداية والنهاية (11/ 450).
(7) شرح العقيدة الطحاوية، ص: 722.

15 - القاضي ابن العربي المالكي رحمه الله:

تحدث ابن العربيّ عن الخصال التي اجتمعت في معاوية رضي الله عنه، فذكر منها: ... قيامه بحماية البيضة، وسدِّ الثغور، وإصلاح الجند، والظهور على العدوّ، وسياسة الخلق[1]، وقال في موضع آخر من كتابه العواصم من القواصم: فعمر ولاه، وجمع له الشَّامات كلّها، وأقرّه عثمان، بل إنَّما ولاّه أبو بكر الصِّديق، لأنَّه ولي أخاه يزيد، واستخلفه يزيد، فأقرّه عمر، فتعلَّق عثمان بعمر وأقرَّه فانظر إلى هذه السِّلسلة ما أوثق عُراها[2]. وثبت أن رسول الله ﷺ استكتبه... ، ثمَّ صالحه وأقرَّ له بالخلافة الحسن بن عليٍّ سبط رسول الله ﷺ[3].

16 - يقول ابن تيمية رحمه الله:

واتفق العلماء على أن معاوية أفضل ملوك هذه الأمة، فإن الأربعة قبله كانوا خلفاء نبوة وهو أول الملوك، كان ملكه ملكاً ورحمة[4] وقال: فلم يكن من ملوك المسلمين خيراً منهم في زمان معاوية[5] إذا نسبت أيامه إلى أيام من بعده، أما إذا نسبت إلى أيام أبي بكر وعمر ظهر التفاضل، وذكر ابن تيمية قول الأعمش عندما ذكر عنده عمر بن عبد العزيز فقال: فكيف لو أدركتم معاوية؟ قالوا: في حلمه، قال: لا والله في عدله.

17 - وقال الذهبي رحمه الله:

أمير المؤمنين، ملك الإسلام[6] وقال: ومعاوية من خيار الملوك الذين غلب عدلهم على ظلمهم وما هو ببريء من الهَنَات، والله يعفو عنه[7] وحسبك بمن يؤمره عمر ثم عثمان على إقليم - هو ثغر - فيضبطه ويقوم به أتم قيام ويرضى الناس بسخائه وحلمه... فهذا الرجل ساد وساس العالم بكمال عقله وفرط حلمه وسعة نفسه وقوة دهائه ورأيه[8].

18 - وقال ابن كثير رحمه الله:

وأجمعت الرعايا على بيعته في سنة إحدى وأربعين... فلم يزل مستقلاً بالأمر في هذه السنة التي كانت فيها وفاته، والجهاد في بلاد العدو قائم، وكلمة الله عالية، والغنائم تَرِد إليه

---

(1) العواصم من القواصم، ص: 210, 211.
(2) المصدر نفسه، ص: 82.
(3) سيرة عثمان بن عفان للصَّلاّبي، ص: 300، المدينة المنورة فجر الإسلام (2/ 216).
(4) الفتاوى (4/ 478).
(5) منهاج السنة (6/ 232) (3/ 185).
(6) سير أعلام النبلاء (3/ 120).
(7) المصدر نفسه (3/ 159).
(8) المصدر نفسه، (3/ 132-133).

من أطراف الأرض، والمسلمون معه في راحة وعدل، وصفح وعفو[1] وقال: كان حليماً وقوراً، رئيساً، سيداً في الناس، كريماً، عادلاً، شهماً[2]. وقال عنه أيضاً: كان جيد السيرة، حسن التجاوز جميل العفو، كثير الستر رحمه الله تعالى[3].

19 - قال ابن خلدون رحمه الله:

وقد كان ينبغي أن تلحق دولة معاوية وأخباره بدول الخلفاء وأخبارهم فهو تاليهم في الفضل والعدالة والصحبة.... والحق إن معاوية في عداد الخلفاء وإنَّما أخَّره المؤرخون في التأليف عنهم لأمرين:

الأول: إن الخلافة لعهده كانت مغالبة لأجل ما قدّمناه من العصبية التي حدثت لعصره، وأما قبل ذلك فكانت اختياراً واجتماعاً، فيميِّزوا بين الحالتين. فكان معاوية أوّل خلفاء المغالبة والعصبيَّة الذين يعبرّ عنهم أهل الأهواء بالملوك، ويشبِّهون بعضهم ببعض، وحاش لله أن يشبَّه معاوية بأحد ممَّن بعده. فهو من الخلفاء الراشدين ومن كان تلوه في الدين والفضل من الخلفاء المروانيَّة ممن تلاه في المرتبة كذلك وكذلك من بعدهم من خلفاء بني العباس، ولا يقال: إن الملك أدون رتبة من الخلافة، فكيف يكون خليفة ملكاً، واعلم أن الملك الذي يخالف بل ينافي الخلافة هي الجبروتيّة المعبَّر عنها بالكسروية التي أنكرها عمر على معاوية حين رأى ظواهرها، وأما الملك الذي هو الغلبة والقهر بالعصبية والشوكة فلا ينافي الخلافة ولا النبوَّة، فقد كان سليمان بن داود وأبوه صلوات الله عليهما نبيِّين ومَلِكيْن كانا على غاية الاستقامة في دنياهما وعلى طاعة ربِّهما عز وجل. ومعاوية لم يطالب ولا أبَّهته للاستكثار في الدنيا، وإنما ساقه أمر العصبية بطابعها لمّا استولى المسلمون على الدولة كلّها، وكان هو خليفتهم فدعاهم بما يدعو الملوك إليه قومهم عندما تستفحل العصبية وتدعو لطبيعة الملك وكذلك شأن الخلفاء أهل الدين من بعده، إذا دعتهم ضرورة الملك إلى استفحال أحكامه ودواعيه والقانون في ذلك عرض أفعالهم على الصحيح من الأخبار، لا بالواهي، فمن جرت أفعاله عليها فهو خليفة النبي ﷺ في المسلمين، ومن خرجت أفعاله من ذلك فهو من ملوك الدنيا، وإن سمّي خليفة بالمجاز.

الأمر الثاني: في ذكر معاوية مع خلفاء بني أمية دون الخلفاء الأربعة إنهم كانوا أهل نسب واحد، وعظيمهم معاوية فجعل مع أهل نسبه والخلفاء الأولون مختلفون الأنساب، فجعلوا في نمط واحد، وألحق بهم عثمان وإن كان من أهل هذا النسب للحوقه بهم قريباً في الفضل[4]. وكلام ابن خلدون ليس على إطلاقه وفيه نوع من المبالغة.

---

(1) البداية والنهاية (11/ 400).
(2) البداية والنهاية (11/ 397).
(3) المصدر نفسه (11/ 419).
(4) تاريخ ابن خلدون، ص: 528 , 529.

فهذه بعض أقوال علماء الأمة من الصحابة والتابعين ومن تلاهم على الثناء على معاوية رضي الله عنه أنه أول ملوك المسلمين ومن خيارهم الذين غلب عدلهم على وظلمهم وما هو بريء من الهنات والله يعفو عنه، وهو على دين كما قال عن نفسه: يقبل الله فيه العمل ويجزي فيه بالحسنات، ويجزي فيه بالذنوب إلا أن يعفو عمن يشاء، ولقد تعرّض معاوية رضي الله عنه ودولته ودولة بني أمية عموماً لسهام بعض الكتّاب، وزعم بعضهم أنها دولة مدينة، وقال بعضهم: أنها كانت دولة عربية ولم تكن دولة إسلامية؛ بل قال بعضهم: إنها دولة علمانية لاصلة لها بالدين، ولا بالأخلاق، وهذه فرية تكذبها حقائق الدين وشواهد التاريخ، أما حقائق الدين، فقد بدأت دولة بني أمية 40 هـ من الهجرة، واستمرت إلى سنة 132 هـ. فقد شملت القرون الثلاثة التي هي خير قرون الأمة: قرن الصحابة، وقرن التابعين، وقرن أتباع التابعين[1] وهي التي جاءت بها الأحاديث الصحاح المستفيضة عن رسول الله ﷺ مثل حديث ابن مسعود: **«خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»**[2]، ومثله حديث عمران بن حصين: **«خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»** قال عمران: لا أدري: أذكر النبي بعد قرنين أو ثلاثة[3]، وكذلك حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً: قال: **«يأتي زمان يغزو فئام من الناس فيقال: فيكم من صحب أصحاب النبي ﷺ؟ فيقال: نعم، فيفتح. ثم يأتي زمان، فيقال: فيكم من صحب من صحب أصحاب النبي ﷺ؟ فيقال: نعم فيفتح»**[4].

ومعنى قول **«قرْني»** أي أهل عصري. وهم الصحابة ثم قرن التابعين، ثم قرن الأتباع، وبعض الشرّاح حددوا القرن بزمن، فقال بعضهم: القرن أربعون سنة، وبعضهم قال: ثمانون سنة. وبعضهم جعله مائة سنة، وهو الذي اشتهر في الاستعمال الآن، وأمسى حقيقة عرفية. وتكون القرون المفضلة والموصوفة بالخيرية على هذا: ثلاثمائة سنة. وهذا غير منسجم مع منطق الواقع التاريخي، فالراجح تفسيره بِما ذكرنا، من عصر الصحابة، وعصر التابعين، وعصر الأتباع[5] ومن الأحاديث الصحيحة التي يستدل بها على منزلة الدولة الأموية من الإسلام: ما رواه البخاري في صحيحه عن خالد بن مهران: أن عمير بن الأسود العنْسي حدثه أنه أتى عبادة بن الصامت، وهو نازل في ساحة حمص، وهو في بناء له، ومعه أم حَرام (زوجه) قال عمر: حدثتنا أم حرام: أنها سمعت النبي ﷺ يقول: **«أول جيش من أمتي يغزون البحر قد أوجبوا»**. (أي فعلوا فعلاً وجبت لهم به الجنة) قالت أم حرام قلت: يا رسول الله،

---

(1) تاريخنا المفترى عليه، يوسف القرضاوي، ص: 62.
(2) متفق عليه، اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، رقم 1645.
(3) المصدر نفسه رقم 1646.
(4) المصدر نفسه رقم 1647.
(5) تاريخنا المفترى عليه، يوسف القرضاوي، ص: 63.

أنا فيهم؟ قال: «أنت فيهم». ثم قال النبي ﷺ: «أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم»، فقلت: أنا فيهم يا رسول الله؟ قال: «لا»[1]، ومدينة قيصر هي القسطنطينية، عاصمة الدولة البيزنطينية[2]. قال الشراح: في هذا الحديث منقبة لمعاوية؛ لأنه أول من غزا البحر، وذلك في خلافة عثمان، مازال معاوية يغريه بالغزو في البحر، حتى استجاب له، وبدأ الأسطول الإسلامي منذ عهد عثمان، ثم اتسع وازداد في عهد معاوية[3]، وفي هذه الغزوة مات أبو أيوب الأنصاري وكان في هذا الجيش رضي الله عنه، فأوصى أن يدفن عند باب القسطنطينية، والذي يهمنا هو أن هذا الجيش المغفور له بالجملة، كان في عهد بني أمية. إذ كانت هذه الغزوة سنة اثنين وخمسين من الهجرة النبوية، أي في عهد معاوية ومن نظر في سيرة معاوية بعد أن آلت إليه الخلافة، وبعد تنازل الحسن السبط رضي الله عنه له. وتأمل هذه السيرة بإنصاف: وجد الرجل حريصاً على إقامة الإسلام في شعائره وشرائعه، وعلى اتباع السنة النبوية في مجالات الحياة المختلفة.

المبحث الثاني

العلاقة بين الأمة ومعاوية كرئيس الدولة الإسلامية

للخليفة كما للأمة حقوق، كما أن على كل منها واجبات مطالب بها محاسب عليها وإليك شيء من الإيضاح:

أولاً: واجبات الخليفة:

بين الفقهاء الواجبات الملقاة على عاتق رئيس الدولة، حدّدوها التحديد الذي يوضح مدى ما هو موكول إليه من المهام ومهما اختلفت أساليب العلماء في التعبير عن هذه الواجبات وتعدادها، فإنه يمكن القول بأن هذه الواجبات في حقيقتها لاتتعدى المحافظة التامة على المصالح الدينية والدنيوية وإليك هذه الواجبات:

1 - العمل بشتى الوسائل على أن يكون الدين مصون عن كل ما يسيء إليه، سواء في هذا ما يتعلق بالعقيدة الإسلامية، أو ما يتعلق بغيرها، وهذا الواجب ما عبر عنه الماوردي قائلاً: حفظ الدين على أصوله المستقرة، وما أجمع عليه سلف الأمة فإن نجم مبتدع أو زاغ ذو شبهة عنه أوضح له الحجة، وبين له الصواب، وأخذه بما يلزمه من الحقوق والحدود، ليكون الدين محروساً من خلل والأمة ممنوعة من زلل[4].

---

(1) البخاري، رقم: 2924.
(2) تاريخنا المفترى عليه، يوسف القرضاوي، ص: 63.
(3) المصدر نفسه، ص: 63.
(4) الأحكام السلطانية، ص: 15.

2 - نصب القضاة ليحكموا بين الناس بشريعة الله، حتى لا يكون هناك معتدٍ لا يخاف جزاء، ولا مظلوم لا يستطيع وصولاً إلى حق كفله الشارع له[1]، وسوف نتعرف على مؤسسة القضاء في عهد الدولة الأموية في هذا الكتاب.

3 - توفير الأمن لكل آحاد الأمة، حتى يستطيع كل فرد أن ينصرف إلى سبيل عيشه آمناً على نفسه وأهله وماله.

4 - إقامة الحدود التي بينها الله سبحانه على مقترفي كل جريمة تستأهل حداً، لا يفرق في ذلك بين شريف وحقير حتى تصان محارم الله من الانتهاك، وتحفظ حقوق عباده عن إتلاف واستهلاك كما هو تعبير الماوردي[2].

5 - إحاطة ثغور البلاد بسياج منيع من القوة، حتى لا يجد أعداء الإسلام ثغرة يتسللون منها إلى ضرب الأمة على حين غفلة، فيجب على رئيس الدولة أن يعمل على استكمال كل الوسائل التي تكلف الأمة الحماية التامة من شرور الأعداء.

6 - جهاد أعداء الإسلام الذين عاندوا دعوتهم إليه، حتى يدخلوا في الإسلام أو يدخلوا في الذمة.

7 - جباية الأموال المستحقة، سواء أكانت هذه الأموال صدقات أم فيئاً وإخضاع ذلك إلى القواعد التي أوجبها الشارع نصاً واجتهاداً من غير زيادة أو نقصان في الجباية، إذ أن الزيادة تقضي إلى خسران من تجب عليهم الزكوات، والنقصان مفضٍ إلى تضييق مجال الصرف على الفقراء والمساكين والعاملين ونحوهم.

8 - تقدير الحقوق والرواتب المستحقة في بيت مال المسلمين، كالإعانات الاجتماعية للأسر المحتاجة، ورواتب الجند والموظفين، والعمل على إرساء قواعد تكون ضابطة لكل ما يتصل بهذا الواجب.

9 - اختيار الأكفاء الذين يثق في مقدرتهم ودينهم وصلاحهم للمناصب القيادية التي توكل إليهم، حتى يسير دولاب الأعمال بيد الأمناء الذين يخافون الله ولا يثبون على حقوق الناس.

10 - الإشراف بنفسه على ما هو متصل بما يجب عليه نحو الأمة، ولا يترك الأمور تسير بدون إشراف مباشر منه، إذ أن كل تقصير من أيٍّ من عماله الذين وكل إليهم بعض الأمور، منسوب إليه متحمل خطئه، محاسب عليه أمام الله إن قصر في المتابعة، فإن الإمام راعٍ وهو مسؤول عن رعيته كما بين ذلك رسول الله ﷺ.

---

(1) رئاسة الدولة في الفقه الإسلامي، ص: 356.

(2) الأحكام السلطانية، ص: 16، رئاسة الدولة في الفقه الإسلامي، ص: 357.

11 - الشورى، لأنها من سمات الحكم الإسلامي[1]. وسوف نرى بإذن الله تعالى كيف تعامل معاوية رضي الله عنه والخلفاء الأمويين من بعده مع هذه الواجبات، ولا نريد أن نستعجل الأحداث، وسنقف مع كل واجب من هذه الواجبات في موقفه ونرى قرب الخلفاء الأمويين وبعدهم من تطبيق هذه الواجبات.

ثانياً: حقوق الخليفة:

إن الخليفة له حقوق على الأمة من شأنها أن تعينه على القيام بما هو موكول إليه من المهام وقد بين علماء الإسلام هذه الحقوق وأهمها:

1 - طاعته والانقياد له في كل ما أمر به ونهى عنه ما دامت هذه الأوامر والنواهي في المعروف ولم تتعارض مع الأحكام التي بينتها شريعة الإسلام، فما دام الخليفة أو رئيس الدولة قد التزم في أوامره ونواهيه جانب الشرع فلم يحد في ذلك عن الحدود التي رسمتها له الشريعة، فله حق ولاء المواطنين جميعاً، سواء في ذلك أهل الحل والعقد الذين بايعوه رئيساً للأمة، وسائر المواطنين الذين يلزمهم الانقياد له بمجرد تمام هذه البيعة.

2 - القيام بنصرته إذا احتاج الأمر إلى ذلك، فما دام يسير في حكمه على طريق الحق فقد وجب على سائر الأمة نصرته على البغاة وكل من رفع عليه السلاح، . . . لأن نصرة الإمام الحق في الواقع ما هي إلا نصرة للمسلمين وتأييد له في العمل على أن يكون الدين قائماً وكف للمعتدين عن كل ما يمكن أن يصدر عنهم من جرائم.

3 - جعل راتب له مع مخصصات له، تكفيه ومن يعوله، فإن رئيس الدولة سيشغل نفسه بواجبات الرياسة التي ستستحوذ على وقته، مما لا يترك له فرصة السعي في اكتساب رزقه، فيجب أن يجعل له راتب يغنيه ويليق بهذا المنصب بحيث لا يكون فيه تقتير ولا إسراف لأن رواتب الولاة والقضاة من أموال المسلمين التي يحتاط في وجوه صرفها.

4 - إخباره بأحوال من ولاهم المناصب العامة كالولاة والقضاة إذا انحرفوا عن الطريق الذين كلفوا بسلوكه، وذلك لأن الإمام مكلف شرعاً بمتابعة أعمال هؤلاء لإصلاح ما اعوج من أفعالهم وتنبيههم إلى ما غفلوا عنه من وجوه المصلحة، وهو محاسب أمام الله على ما ارتكبه هؤلاء من أخطاء في حق الله، والأمة إذا هو قصر في منع ذلك، ولا طاقة له على متابعة أعمالهم ومراقبة سيرهم إلا إذا عاونته الأمة في ذلك.

5 - تقديم كافة المساعدات إليه إن احتاج إلى ذلك في أداء ما تحمله من أعباء مصالح

(1) رياسة الدولة في الفقه الإسلامي، ص: 358.

الأمة لقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: 2] وولاة الأمور أحق من أعين على ذلك[1]. والأمة في عمومها لم تبخل على أمير المؤمنين معاوية بحقوقه وعلى الخلفاء الذين جاءوا من بعده ولم يخل الأمر من ثورات ضد الخلفاء سنبينها في موضعها بإذن الله تعالى.

ثالثاً: عاصمة الدولة الأموية وأحاديث الرسول في فضائل الشام:

كانت الشام إحدى الولايات الهامة في الإمبراطورية الرومانية الشرقية «البيزنطية»، بل كانت لقربها من بيت المقدس، وتاريخها القديم، إحدى المراكز الحضارية في هذه الإمبراطورية، وكان العرب قبل الإسلام ينظرون إليها نظرة كبيرة، لما تحتويه من حضارة، فضلاً عما بها من خيرات وخضرة وأسواق، وتعتبر مدينة دمشق المدينة الأولى في بلاد الشام، فهي قاعدتها ومدينتها العظمى، ولعبت دوراً كبيراً في تاريخ المنطقة، لذلك اتخذها الحاكم الروماني قاعدة حكمه، ولما دخل الإسلام الشام ودمشق خاصة، حافظ عليها، واحتفظ الولاة لها بميزاتها وظل معاوية الوالي يعتني بها طوال فترة ولايته عليها، وأقام علاقات وطيدة مع سكانها[2]، وعرف أهمية القبائل اليمنية في دمشق والشام، فتزوج من إحداها وهي بني كلب وأنجب من زوجته الكلبية ابنه يزيد، فضمن ولاءهم له ولأبنائه من بعده، لأن الخؤولة من أبرز ما تتحزب له القبائل العربية، هذا فضلاً عن أن التصاهر عند العرب بمثابة التحالف السياسي[3]، وقد كان معاوية ذكياً في اعتماده على القبائل اليمنية بدمشق والشام[4]، ولما قامت الدولة الأموية، رأى معاوية أن الدولة الإسلامية توسعت وامتدت شرقاً وغرباً فلم يجد أفضل من دمشق عاصمة للخلافة الأموية وذلك لأنها تقع بين جزئي العالم الإسلامي؛ الجزء الشرقي الذي يشمل العراق وفارس، والجزء الغربي الذي يشمل مصر والمغرب، فضلاً عن أن القبائل التي ارتبطت به أيدته ودعمت موقفه وصارت يده الطولى في تدعيم حكمه، أي أنها كانت القوة العسكرية والسياسية التي استند عليها الحكم والدولة الأموية، كما قدم له سكان البلد ما يمكن أن يقدموه من خبرة وعمل إداري[5]، فقد وجد معاوية في دمشق تقاليد عريقة في الحكم والإدارة، كما وجد جهازاً إدارياً متمرساً ساعده على تأسيس مهمته في فترة التأسيس هذه التي لا تحتاج الإدارة الطيبة فحسب، بل الخبرة والمران اللذين وفرهما له جهاز الموظفين الذين كانوا يعملون في ظل الإدارة البيزنطية في الميدانين الإداري والمالي، كما أنه لابد لنا أن

(1) رياسة الدولة في الفقه الإسلامي، ص: 370 إلى 374.
(2) رجال الإدارة في الدولة الإسلامية العربية، ص: 135، 136.
(3) الدولة الإسلامية في العصر العباسي، ص: 42.
(4) المصدر نفسه، ص: 42.
(5) رجال الإدارة في الدولة الإسلامية العربية، ص: 136.

نلاحظ أن حظ الشام من الحضارة كان أوفر من حظ الأمصار الأخرى، فالقبائل العربية التي هاجرت إليها واستقرت فيها قبل الفتح كانت قد اعتادت فكرة الحكم المركزي وفكرة الدولة عموماً، على عكس عرب العراق مثلاً الذين لم يتقبلوا هذه الفكرة بسهولة، وينطبق هذا على من سكن العراق منهم قبل الفتح وبعده، فالذين سكنوا العراق قبل الفتح كانوا في خصومة وصراع دائمين مع الحكم الفارسي[1]، وسكان بلاد الشام كانوا قد اعتادوا الخضوع والتعايش مع البيزنطيين، كما أن العرب الذين هاجروا إلى الشام بعد الفتح لم يعيشوا في معسكرات مستقلة، كما كانت الحال في العراق (البصرة والكوفة)، بل عاشوا جنباً إلى جنب مع السكان المحليين والقبائل التي كانت تقطن الشام قبلاً، وقد ساعد هذا الاختلاط على كسر حدة التمرد القبلي[2] وقد ساعد على تحقيق انتصارات معاوية في الخارج الجيش الشامي الذي جمعه ونظمه ودربه منذ أن كان والياً، والذي أغدق عليه العطاء، ولم يبخل عليه بكل ما يوفر له سبل الرضا والإخلاص بعد أن غدا خليفة وتعددت لقاءاته في البر والبحر مع الإمبراطورية البيزنطية، وقد ساعدت هذه اللقاءات المستمرة على إعطاء جيش الشام فرصاً كثيرة للتدريب العملي وقدمت له الخبرة اللازمة[3]، كما كان لأحاديث رسول الله ﷺ أثرها في هجرة الناس للشام، واعتزاز أهلها بالإسلام وحرصهم على زعامة العالم الإسلامي، فالنبي ﷺ ميز أهل الشام بالقيام بأمر الله دائماً إلى آخر الدهر، وبأن الطائفة المنصورة فيهم إلى آخر الدهر، فهو إخبار عن أمر دائم مستمر فيهم مع الكثرة والقوة[4]، وقد كان معاوية يحتج لأهل الشام بحديث رسول الله ﷺ حيث قال: **«لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم، حتى تقوم الساعة»**[5]، فقام مالك بن يخامر يذكر أنه سمع معاذاً يقول: وهم بالشام، فقال معاوية: وهذا مالك بن يخامر يذكر أنه سمع معاذاً يقول: وهم[6] بالشام، وما رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: **«لا يزال أهل الغرب ظاهرين»**[7]، قال الإمام أحمد: وأهل الغرب هم أهل الشام[8]. وذلك أن

(1) تاريخ خلافة بني أمية، نبيه عاقل، ص: 62.
(2) المصدر نفسه، ص: 62 الجذور التاريخية للأسرة الأموية د. إحسان صدقي العمد، ص: 94.
(3) رجال الإدارة في الدولة الإسلامية العربية، ص: 136.
(4) الفتاوى (4/ 275).
(5) البخاري، رقم: 7311، مسلم، رقم: 1920، 1921.
(6) الفتاوى (4/ 273) مالك بن يخامر ذكره ابن حبان في الثقات، تهذيب التهذيب (1/ 23,25).
(7) مسلم في الإمارة.
(8) الفتاوى (4/ 273).

النبي ﷺ كان مقيماً بالمدينة فما يغرب عنها فهو غربه، وما يشرق عنها فهو شرقه[1]. . . فقد أخبر أن الطائفة المنصورة القائمة على الحق من أمته بالمغرب وهي الشام وما يغرب عنها . . . وكان أهل المدينة يسمّون أهل الشام، أهل المغرب، ويقولون عن الأوزاعي: إنه إمام أهل المغرب[2]، فإذا دلت النصوص على أن الطائفة القائمة بالحق من أمته التي لا يضرها خلاف المخالف، ولا خذلان الخاذل هي بالشام، فهذا لا يعارض قوله ﷺ: **«تقتل عماراً الفئة الباغية»**[3]، وقوله في الخوارج ﷺ: **«تقتلهم أولى الطائفتين بالحق»**[4]، ولا ريب أن هذه النصوص لابد من الجمع بينها، فيقال، أما قول ﷺ: **«لا يزال أهل الغرب ظاهرين»**[5]. ونحو ذلك مما يدل على ظهور أهل الشام وانتصارهم، فهذا واقع وهذا هو الأمر فإنهم ما زالوا ظاهرين متصرين[6]، وأما قوله ﷺ: **«لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله»**[7]، والذي هو ظاهر، فلا يقتضي ألا يكون فيهم من فيه بغي ومن غيره أولى بالحق منهم، بل فيهم هذا وهذا[8] وأما قوله: تقتلهم أولى الطائفتين بالحق فهذا دليل على أن علياً ومن معه كان أولى بالحق إذ ذاك من الطائفة الأخرى، وإذا كان الشخص أو الطائفة مرجوحاً في بعض الأحوال لم يمنع أن يكون قائماً بأمر الله، وأن يكون ظاهراً بالقيام بأمر الله عن طاعة الله ورسوله، وقد يكون الفعل طاعة وغيره أطوع منه وأما كون بعضهم باغياً في بعض الأوقات، مع كون بغيه خطأ مغفوراً له، أو ذنباً مغفوراً، فهذا أيضاً لا يمنع ما شهدت به النصوص؛ وذلك أن النبي ﷺ أخبر عن جملة أهل الشام وعظمتهم، ولا ريب أن جملتهم كانوا أرجح في عموم الأحوال[9]، وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يفضلهم في مدة خلافته على أهل العراق، حتى قدم الشام غير مرة وامتنع من الذهاب إلى العراق، واستشار فأشار عليه أنه لا يذهب إليها، وكذلك حين وفاته لما طغى أدخل عليه أهل المدينة أولاً وهم كانوا إذ ذاك أفضل الأمة، ثم أدخل عليه أهل الشام، ثم أدخل عليه أهل العراق، وكانوا آخر من دخل عليه[10]. وكذلك الصّديق كانت عنايته بفتح الشام أكثر من عنايته بفتح العراق حتى قال: لَكَفْرُ الشام أحب إليّ من فتح مدينة العراق [11]، والنصوص التي في كتاب الله وسنة رسوله وأصحابه في فضل الشام وأهل الغرب على نجد والعراق وسائر أهل المشرق، أكثر من أن تذكر هنا، بل عن النبي ﷺ من النصوص الصحيحة في ذم المشرق وإخباره بأن الفتنة ورأس الكفر منه ماليس

(1) المصدر نفسه (4/ 273).
(2) المصدر نفسه (4/ 273).
(3) البخاري، رقم: 447.
(4) مسلم في الزكاة.
(5) مسلم في الإمارة.
(6) الفتاوى (4/ 274).
(7) البخاري، رقم: 7311.
(8) الفتاوى (4/ 274).
(9) الفتاوى (4/ 274).
(10) المصدر نفسه (4/ 275).
(11) المصدر نفسه (4/ 275).

هذا موضعه، وإنما كان فضل المشرق عليهم بوجود أمير المؤمنين علي، وذلك كان أمراً عارضاً ولهذا لما مات علي رضي الله عنه أظهر منهم من الفتن، والنفاق، والردة، والبدع، مايعلم به أن أولئك كان أرجح[1]. وكذلك - أيضاً - لاريب أن في أعيانهم من العلماء والصالحين من هو أفضل بكثير من أهل الشام، كما كان علي وابن مسعود، وعمار وحذيفة ونحوهم، أفضل من أكثر من بالشام من الصحابة، لكن مقابلة الجملة وترجيحها لا يمنع اختصاص الطائفة الأخرى بأمر راجح وهذا يبين رجحان الطائفة الشامية من بعض الوجوه مع أن علياً رضي الله عنه كان أولى بالحق ممن فارقه، ومع أن عماراً قتلته الفئه الباغية - كما جاءت به النصوص - فعلينا أن نؤمن بكل ما جاء من عند الله، ونقر بالحق كله، ولا يكون لنا هوى، ولانتكلم بغير علم، بل نسلك سبل العلم والعدل، وذلك هو اتباع الكتاب والسنة، فأما من تمسك ببعض الحق دون بعض، فهذا منشأ الفرقة والاختلاف[2].

رابعاً: أهل الحل والعقد في عهد معاوية رضي الله عنه :

كان المجتمع الإسلامي في عصر الراشدين يتطور تطوراً سريعاً وخطيراً بشكل يهدد المحافظة على السمات الأساسية لحكمهم والتي تظهر في ذلك الحب والانسجام والحرص المتبادل بين الخليفة والرعية وخوف الله في معاملة بعضهم للبعض، وقد تمثل ذلك التطور في تقلص دور أهل الحل والعقد المقيمين في المدينة بوفاة معظمهم أو بتفرقهم في الأمصار، وباكتساب تلك الأمصار مكانة ضخمة تفوق مكانة الحجاز مقر الخلافة نتيجة نمو دور القبائل العربية التي أسلمت متأخراً ولكنها حملت على أكتافها عبء الفتوحات الإسلامية الكبرى، التي أدت إلى إثراء المجتمع الإسلامي بصورة لم يعرفها من قبل، تغيرت معها بعض النفوس والأخلاق[3]، وبدأت تدريجياً تتغير بعض المفاهيم، كمفهوم أهل الحل والعقد، فلم يعودوا هم أهل بدر، أو جماعة السابقين إلى الإسلام في المدينة، التي تقلصت أعدادها بمضي الزمن، وبرز إلى ساحة التأثير والفاعلية زعماء الأمصار، وزعماء الشام من بينهم، فحين نحتكم إلى أحداث التاريخ نجدها تؤكد قدرة أهل الأمصار آنذاك على الحسم السياسي، وعجز أهل المدينة عن ذلك، ثم تؤكد بعد ذلك تميز أهل الشام بقدر هائل من الطاعة والتوحد الاجتماعي والتعود على الخضوع لنظم الدولة، وأساليب الإدارة وأنماط الحضارة، وقد مكنتها هذه المؤهلات من فرض اختيارها على العراق وسائر الأمصار الإسلامية حتى بايعت معاوية، ثم استطاعت الاحتفاظ بهذه القدرات أكثر من تسعين عاماً هي عمر الدولة الأموية. . مما يؤكد أن قادتها أصبحوا هم بحكم الواقع السياسي جل أهل الحل والعقد في المجتمع

---

(1) الفتاوى (4/ 275).
(2) المصدر نفسه (4/ 275).
(3) الدولة والمجتمع في العصر الأموي، ص: 127.

الإسلامي والقادرين على اختيار الخليفة، وإقناع بقية الأمصار بذلك الاختيار ـ إن سلماً أو عنفاً ـ في ذلك المجتمع الذي أصبحت تحكمه عصبيات مختلفة الرغبات والأهواء والمطامع[1].

1 - رأي الفقهاء في معنى أهل الحل والعقد:

وحين نحتكم إلى أقوال علمائنا في معنى أهل الحل والعقد نجدهم يختلفون إلى عدة أقوال[2]، ويذكرون مصطلحات متعددة منها:

أ ـ **أولو الأمر**: وهو مصطلح شرعي جاء بنص القرآن الكريم وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: 59] وقد اختلف في المراد بهم على أقوال من أشهرها:

- أنهم الأمراء، ورجحه الإمام الطبري[3]، وقال النووي: هو قول جمهور السلف والخلف[4].

- أنهم العلماء وبه قال بعض السلف منهم: جابر بن عبد الله والحسن البصري، والنخعي وغيرهم.

- أنهم أصحاب محمد ﷺ.

- أنهم أبو بكر وعمر.

- أنها عامة في كل أولي الأمر والعلماء، ومال إليه الإمام ابن كثير[5]، وابن القيم[6]، والشوكاني[7] وغيرهم.

- أنهم العلماء والأمراء والزعماء وكل من كان متبوعاً وهو رأي ابن تيمية[8]، ومحمد عبده[9]، وقال: إنهم هم أهل الحل والعقد[10]، ولعل القولين الخامس والسادس هما الأقرب إلى الصواب، وليس بينهما فرق كبير[11].

ب ـ **العلماء**: والمراد بهم علماء الشريعة: وهو لفظ قرآني: قال سبحانه ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ

---

(1) الدولة والمجتمع في العصر الأموي، ص: 128.
(2) المصدر نفسه، ص: 128.
(3) تفسير الطبري (8/ 502) تحقيق محمود شاكر.
(4) شرح النووي على صحيح مسلم (12/ 223).
(5) تفسير ابن كثير (1/ 530).
(6) الرسالة التبوكية، ص: 41.
(7) فتح القدير للشوكاني (1/ 481).
(8) الحسبة، ص: 185.
(9) تفسير المنار (5/ 181).
(10) أهل العقد والحل، عبد الله الطريقي، ص: 12.
(11) المصدر نفسه.

مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: 28] وربما جاء بلفظ ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: 18]. وفي السنة النبوية جاء هذا المصطلح في أحاديث لا تكاد تحصر ومن ذلك الحديث المشهور: **«إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ولكن بموت العلماء»**[1].

ج ـ **أهل الاختيار**: وهم الذين يوكل إليهم اختيار الإمام ومبايعته، وهم أهل الحل والعقد[2]، وهو مصطلح اجتهادي اصطلح عليه بعض أهل العلم[3].

د ـ **أهل الاجتهاد وهم**: العلماء الذين بلغوا درجة الاجتهاد في الشريعة الإسلامية، ويكونون مؤهلين للأعمال المهمة: كالإمامة الكبرى، والقضاء، والفتوى ونحو ذلك، وممن أطلق هذا المصطلح: البغدادي[4]، والقرطبي[5].

هـ ـ **أهل الشورى وهم**: الذين يستشارون في أمر المسلمين وفق الآية الكريمة، ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: 159] وقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: 38].

و ـ **أهل الشوكة وهم**: أصحاب القدرة والسلطان، لتوافر القدرة والبأس لديهم، وممن استعمل هذا المصطلح ابن تيمية[6].

ز ـ **أهل الرأي والتدبير وهم**: من يتّسمون بالعقل والفكر الناضج مع القدرة على تصريف الأمور وتسييرها، وممن استعمل هذا المصطلح ابن عابدين[7].

فأهل الحل والعقد هم الذين لهم القدرة على عقد نظام جماعة المسلمين في شؤونهم العامة، والسياسية، والإدارية، والتشريعية، والقضائية، ونحوها ثم حل هذا النظام لأسباب معينة ليعاد ترتيب هذا النظام وعقده من جديد[8].

والذي تحقق في عهد معاوية رضي الله عنه أن أهل الحل والعقد في دولته كانوا هم الولاة، وزعماء القبائل، وقادة الجيوش ونحوهم، وتركزت الشوكة والقوة الفعلية في أهل الشام، حيث كانوا قادرين على الاختيار وتحقيق إرادتهم، وإمضاء رغبتهم على مخالفيهم، وهذا ما تحقق في

(1) مسلم، رقم: 13.
(2) الموسوعة الفقهية، إصدار وزارة الأوقاف بالكويت (7/ 115).
(3) أهل الحل والعقد، عبد الله الطريقي، ص: 13 وهذا الكتاب فريد في بابه.
(4) أهل الحل والعقد، ص: 13، أصول الدين 279.
(5) تفسير القرطبي (1/ 265).
(6) منهاج السنة (1/ 550).
(7) حاشية ابن عابدين (4/ 263).
(8) أهل الحل والعقد، ص: 15.

ذلك الظرف التاريخي في أهل الشام، وإذا أردنا أن نكون أكثر إنصافاً، قلنا إنه كان يجب أن تتسع دائرة أهل الحل والعقد هذه لتشمل بجانب زعماء الشام بقية زعماء الأمصار الإسلامية في العراق والحجاز ومصر وغيرهم، وأن تضم بجوار أصحاب العصبيات القوية، أصحاب الرأي من علماء الأمة وأهل الديانة فيهم، وأن يوكل إلى هذه الطائفة منهم اختيارالخليفة أو عزله، علاوة على الفصل في المسائل المهمة في حياة الأمة.. ولو حدث ذلك في مسيرة الدولة الأموية لتجنبت الأمة كثيراً من الاختلاف وإراقة الدماء.. ولكن الذي حدث فعلاً هو انفراد أهل الشام باختيار الخلفاء في العصر الأموي من الأسرة الأموية ذاتها، وكانت بداية ذلك هي البيعة ليزيد بن معاوية بولاية العهد من أبيه، وبعد خطوب شتى أصبح تسلسل الخلفاء من البيت الأموي أمراً واقعاً، رضيت بذلك بقية الأمصار أم عارضت[1]. وسيأتي الحديث عن ولاية العهد في حينه بإذن الله تعالى.

خامساً: الشورى في عهد معاوية ﷺ:

عندما آلت الخلافة إلى بني أمية، لم يكن معاوية بن أبي سفيان ممن يجهل فوائد الشورى ويهمل الأخذ بها ، وما كان يصدر في المهمات إلا عن مشورة، فقد كان يشاور ذوي الرأي من الولاة ووجوه الناس وأشراف القوم وأهل العلم وكان ذلك سنة من جاء بعده من الخلفاء من بني أمية، وكان من كبار مستشاري معاوية ﷺ عمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وكان يستشير الوفود التي كانت تأتيه[2]، وكان الناس يتكلمون بحرية فيعرضون آراءهم ، ويهتم الخليفة بها كل الاهتمام، ويناقشهم فيها ويحقق ما يمكن تحقيقه منها والحكم يعتمد على مستشارين أكفاء وكتّاب قادرين أطلقت يدهم في العمل، ومنحهم الخليفة ثقته، وشدّهم بسلطانه، والحكم لم يكن متمركزاً في شخص الخليفة ، فمملكته واسعة ولا يستطيع أن يضطلع بكل أمر، وهو يرسل ولاته على الأقطار ويطلق لهم اليد في شؤونها، وهو لا يولي إلا من يثق به، ولا يعطي السلطان إلا لمن لا يخشاه[3]، وولاته يستشيرهم في حدود معينة. وأما أمر الخلافة فحصر في بني أمية، وأصبح أمرها خاصاً بالبيت الأموي، يفتي فيها بالمجامع الأموية خاصة من دون الناس، وكان الخلفاء من بني أمية يرجعون في شورى استخلاف السلطان ورد الطامعين به إلى الجماعة الأموية غالباً[4].

ومن هنا يمكن القول بوجود نوعين من الشورى في عهد بني أمية: أولهما شورى تتعلق بالأمور والمصالح العامة، وكان الخلفاء من بني أمية يرجعون فيها إلى ذوي الرأي من أشراف

(1) الدولة والمجتمع في العصر الأموي، ص: 128.
(2) في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ص: 55.
(3) الدولة الأموية، يوسف العشي، ص: 139.
(4) في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ص: 56.

القوم والولاة وغيرهم، وثانيها شورى تتعلق بالسلطان خاصة، وكان الخلفاء من بني أمية يفزعون فيها إلى آل بيتهم ويقضون فيها بينهم[1]. وقيادة معاوية للدولة لم تكن فردية خالصة، فاللامركزية في الحكم والإدارة في الأغلب، ومشاركة الرجال من أهل الرأي والخبرة في حمل المسئولية والقيام بأعباء الدولة في السلم والحرب وفي المركز والولايات، ووجود الإسلام في حياة الفرد والمجتمع والدولة سلوكاً ونظام حكم منذ عصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، تقلل من مظهر القيادة الفردية ومساوئها، وتعزز مظهر الشورى وغلبة الاتجاه العام الثابت في السياسة والقيادة والإدارة وتصريف الأمور ورعاية المصالح[2]، كما أن تحول الخلافة الراشدة إلى ملك وراثي لم يكن يعني تحولاً كاملاً عن شورى الراشدين أو ارتداداً عن أوامر الإسلام ومنهجه في الحكم، وقد كان لذلك ما يبرره من تطور اجتماعي وسياسي ولقد بقيت ـ في عهد معاوية ـ والعصر الأموي ـ كما يقرر ابن خلدون ـ معاني الخلافة من تحري الدين ومذاهبه، والجري على مذاهب الحق، ولم يظهر التغير إلا في الوازع الذي كان ديناً ثم انقلب عصبية وسيفاً، وهكذا كان الأمر لعهد معاوية ومروان وابنه عبد الملك والصدر الأول من خلفاء بني العباس إلى الرشيد وبعض ولده، ثم ذهبت معاني الخلافة ولم يبق إلا اسمها[3]. وما ذهب إليه ابن خلدون ليس على إطلاقه ففي عهد الدولة العثمانية في زمن محمد الفاتح انتعشت بعض معاني ومقاصد الخلافة، من الفتوحات، والدعوة، وإعزاز الإسلام، والعدل، ولم يذم الشرع العصبية أو الملك لما كان القصد منها إقامة الدين، وإظهار الحق، وقد سأل سليمان عليه السلام ربه فقال: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ [ص: 35]، لما علم من نفسه أنه بمعزل عن الباطل في النبوة والملك[4]، وعلى ذلك فإن «الملك الذي يخالف بل ينافي الخلافة هو الجبروتية»[5]، التي يقصد بها قهر الناس بغير حق، ولم يكن ذلك شأن معاوية في خلافته، وقد استرعى انتباه بعض فقهائنا ومؤرخينا ذلك القرب الشديد بين مقاصد خلافة معاوية ومقاصد خلافة الراشدين، لذلك فقد رأى ابن تيمية: .. فهذا يقتضي أن شوب الخلافة بالملك جائز في شريعتنا، وأن ذلك لا ينافي العادل، وإن كانت الخلافة المحضة أفضل[6]، ولن نبتعد عن الحقيقة إذا قلنا إن معاوية وبعض خلفاء بني أمية كان يود لو سار سيرة الراشدين كاملة، ولكنهم كانوا غير قادرين على ذلك في تفاعلهم مع

(1) في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ص: 57.
(2) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص: 102.
(3) مقدمة ابن خلدون، نقلاً عن الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 275.
(4) مقدمة ابن خلدون، نقلاً عن الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 275.
(5) المصدر نفسه.
(6) الفتاوى (35/ 18).

أحوال رعيتهم وظروف عصرهم، وإن ذلك الأفق العالي والمثل الرفيع الذي قدمه الخلفاء الراشدون للسياسة الإسلامية والإنسانية كان يعمل تأثيره الجذاب عند بعض الخلفاء والرعية على السواء، ولكنه كان أيضاً يستعلي على قدراتهم، فيجهدون أنفسهم لتحقيقه، ثم يعودون إلى جذبة الواقع مقرين بصعوبة المحاولة والتجربة[1]، ولقد سأل معاوية يوماً ولده وولي عهده يزيد: كيف سيعمل بعد استخلافه؟ فقال: أعمل فيهم عمل عمر بن الخطاب، فتبسم معاوية وقال: والله لقد جهدت أن أعمل فيها عمل عثمان فلم أقدر، أتعمل أنت فيهم بعمل عمر بن الخطاب[2]؟، ولا يعني ذلك أن العودة إلى صفاء الحياة في عصر الخلفاء الراشدين أمر مستحيل، ولكن لا يأتي به الحاكم وحده وإن صلحت نيته، وعظمت عزيمته، بل لا بد من تحقيق ذلك القدر من التوافق والانسجام بين الراعي والرعية حيث يتعاون الجميع على تحقيق ذلك المجتمع الطيب، وطريق ذلك طويل وشاق ويحتاج إلى أجيال من الدعاة والحكام الذين يبذلون جهدهم لتربية الرعية على كمال الإيمان، ويعطون القدوة في ذلك والمثل، ويستفرغون في ذلك وذاك وقتهم وجهدهم[3]، وقد كان ابن تيمية يعبر عن هذه الحقيقة حين يرى أنه إن ساء الحكم في مجتمع ما كان ذلك لنقص في الراعي والرعية[4] معاً. إن الشورى في عهد معاوية والدولة الأموية تقلصت عمّا كانت عليه في عهد الخلافة الراشدة وبقيت في عهد معاوية بعض جوانبها ولم تتقدم كلياً كما يطرح البعض.

سادساً: حرية التعبير في عهد معاوية رضي الله عنه:

المعارضة السلمية: كان معاوية رضي الله عنه يفرق بين المعارضة السلمية والمسلحة فهو يطلق حرية الكلام والتعبير عن الرأي ما دام ذلك في حدود التعبير عن الرأي، أما إذا انقلب الأمر إلى حمل السلاح وسلِّ السيوف، فإنه لا يجد مفراً من مواجهة هذه الثورات كما فعل مع الخوارج ـ وسيأتي بيان ذلك بإذن الله تعالى ـ فقد روي عن معاوية أنه قال: إني لا أحول بين الناس وألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا[5]. وقال عامله على العراق زياد بن أبيه في خطبته لأهل البصرة: إني لو علمت أن أحدكم قد قتله السلُّ من بغضي لم أكشف له قناعاً ولم

---

(1) الدولة الأموية المفترى عليه، ص: 276.

(2) البداية والنهاية نقلاً عن الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 276.

(3) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 277.

(4) مجموع الفتاوى (35/ 20) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 277.

(5) ذكر الدكتور خالد الغيث في كتابه القيم «مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري»، ص: 281، 282 : أن في إسناده هذه الرواية اجتمعت فيه علتان، الأولى : أن عبد الله بن صالح الجهني لم يدرك عبد الملك بن عمير، وذلك أن مولد عبد الله بن صالح كان بعد وفاة عبد الملك بن عمير بسنة، والعلة الثانية : تشيع هشام بن سعد، وكراهية الشيعة لبني أمية أمر معلوم، لذا لا يؤخذ منه في هذا المقام لأنه يروي ما يوافق هواه.

أهتك له ستراً، حتى يبدي لي صفحته، فإذا فعل لم أناظره[1]، ويقول عن أحد معارضيه: لو علمت أن مخ ساقه قد سال من بغضي ما هجته حتى يخرج علي[2]. وإليك الكثير من المواقف التي تدل على حرية التعبير، وحق المعارضة السلمية، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لمعاوية وكيف كان يستقبل تلك الانتقادات.

1 - أبو مسلم الخولاني:

فقد كان ﷺ من العلماء الربانيين وكان ممن لا يجامل ولا يداهن، فقد قام أمام معاوية فوعظه وقال: إياك أن تميل على قبيلة من العرب فيذهب حيفك بعدلك[3]. وكان يذكر معاوية بمسئولياته تجاه رعيته ويحثه على أداء حقوقه، فقد دخل ذات يوم على معاوية فقال: السلام عليك أيها الأجير. فقال الناس: الأمير. فقال معاوية: دعوا أبا مسلم فهو أعلم بما يقول. قال أبو مسلم: إنما مثلك مثل رجل استأجر أجيراً فولاه ماشيته، وجعل له الأجر على أن يحسن الرعية، ويوفر جزازها وألبانها، فإن أحسن رعيتها ووفر جزازها حتى تلحق الصغيرة، وتسمن العجفاء، أعطاه أجره وزاده من قبله زيادة، وإن هو لم يحسن رعيتها وأضاعها حتى تهلك العجفاء وتعجف السمينة ولم يوفر جزازها وألبانها غضب عليه صاحب الأجر. فقال معاوية: ماشاء الله[4]، فانظر كيف حث أبو مسلم الخولاني معاوية ﷺ على الاهتمام بأمر الرعية وحذره من التهاون أو التفريط في إصلاح شؤونهم وذلك عن طريق ضرب المثل تقريباً للصورة وتشبيهاً للحال[5]، وهناك موقف عملي آخر لأبي مسلم الخولاني مع معاوية أيضاً، وذلك عندما صعد معاوية المنبر ـ وكان قد حبس العطاء ـ فقام أبو مسلم وقال له: لم حبست العطاء يا معاوية؟ إنه ليس من كدك ولا من كد أبيك، ولا كد أمك حتى تحبس العطاء. فغضب معاوية غضباً شديداً، ونزل عن المنبر، وقال للناس: مكانكم، وغاب عن أعينهم ساعة ثم عاد إليهم فقال: إن أبا مسلم كلمني بكلام أغضبني، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الغضب من الشيطان، والشيطان خلق من نار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليغتسل**[6]» وإني دخلت فاغتسلت، وصدق أبو مسلم: إنه ليس من كدي ولا كد أبي، فهلمّوا إلى أعطياتكم[7].

---

(1) تاريخ الطبري نقلاً عن الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 303.
(2) المصدر نفسه، ص: 303.
(3) سير أعلام النبلاء (4/ 13) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص: 274.
(4) فضيلة العادلين من الولاة للأصفهاني، ص: 306.
(5) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص: 306.
(6) سنن أبي داود (4/ 249).
(7) مقامات العلماء بين يدي الخلفاء والأمراء، ص: 307، أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص: 307.

2 - الفرزدق يهجو معاوية:

هجا الفرزدق معاوية وافتخر عليه بنسبه وآبائه وذلك لغرض شخصي، حيث أعطى معاوية عم الفرزدق الحتات بن يزيد المجاشعي ـ وكان ضمن وفد أتي معاوية ـ جائزة أقل من الآخرين، ولما مات الحتات بن يزيد المجاشعي في الطريق، أخذ معاوية تلك الجائزة وردها إلى بيت المال، فقال الفرزدق يخاطب معاوية:

فلو كان هذا الأمر في جاهلية ... علمت من المرء قليل جلائبه
ولو كان هذا الأمر في غير ملككم ... لأبديته أو غص بالماء شاربه
وكم من أب لي يا معاوي لم يكن ... أبوك الذي من عبد شمس يقاربه

فما زاد معاوية على أن بعث إلى أهل الحتات بجائزته[1].

وقد ظفر معاوية بتقدير زعماء المسلمين من أبناء الصحابة رغم نقد بعضهم المرير له، وكان كثيراً ما يقول: إني لأرفع نفسي أن يكون ذنب أعظم من عفوي، وجهل أكثر من حلمي، أو عورة لا أواريها بستري، أو إساءة أكثر من إحساني[2]، وكان أحياناً يتمثل بهذه الأبيات:

تعفو الملوك عن الجليل من الأمور بفضلها
ولقد تعاقب في اليسير وليس ذاك لجهلها
إلا ليعرف فضلها ويخاف شدة نكلها[3]

3 - أم سنان بنت خيثمة في مجلس معاوية:

كانت أم سنان بنت خيثمة المذحجية من أنصار أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، وفي عهد معاوية قدمت على دمشق واستأذنت عليه فأذن لها، فانتسبت له فعرفها، وأمرها بالجلوس، فلما جلست قال لها: مرحباً يا ابنة خيثمة، ما أقدمك أرضنا وقد عهدتك تبغضين قومي، وتحضّين عليَّ عدوي؟ قالت: يا أمير المؤمنين، إنّ لبني عبد مناف أخلاقاً طاهرة، وأعلاماً ظاهرة، وأحلاماً وافرة، لا يجهلون بعد علم، ولا يسفهون بعد حلم، ولا يتعقبون بعد عفو، وإنَّ أولى النَّاس باتباع سنن آبائه لأنْتَ. قال معاوية رضي الله عنه: صدقتِ يا أم سنان، نحن كذلك ثم سادت فترة صَمْتٍ، قطعها بسؤال لأمّ سنان يذكرها فيها بشعرها وتحريضها عليه، فقال لها: كيف قولك:

عَزبَ الرقاد فمقلتي ما ترقد ... والليل يُصدر بالهموم ويورد

---

(1) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 304 تاريخ الطبري (6/ 159).

(2) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 304 تاريخ الطبري.

(3) تاريخ الطبري (6/ 253).

يا آل مذحج لا مُقام فشمّروا إن العدوّ لا أحمد يقصد
هذا عليٌّ كالهلال تحفُّهُ وسْطَ السماء من الكواكب أسعد
ما زال مُذْ شهد الحروب مظفراً والنّصرُ فوق لوائه ما يُفقد

وكانت أمّ سنان ـ رحمها الله ـ تصغي لما ينشده معاوية من شعرها، ولما انتهى قالت له: قد كان ذلك يا أمير المؤمنين، وإنَّا لنطمع أن تكون لنا خلفاً بعده، فمثلك جدير بذلك وقبل أن يتكلم معاوية بكلمة، قال رجل من جلسائه: كيف يا أمير المؤمنين، وأنا أحفظ من شعرها خلاف ما تقول لك الآن فهي القائلة:

إما هلكت أبا الحُسين فلم تزل بالحق تُعرف هادياً مهديا
فاذهب عليك صلاة ربك ما دعت فوق الغُصون حمامة قمريا
فاليوم لا خلف يؤمّل بعده هيهات نمدح بعده إنْسِيا[1]

عندئذ قالت أمُّ سنان وعلائم الحزم والصِّدقِ ترتسم على وجهها وهي تعرّضُ بجلسائه: يا أمير المؤمنين، لسان نطق، وقول صدق، ولئن تحقّق فيك ما ظننّا فحظّك الأوفر، والله ما ورّثك الشّناءة ـ البغض ـ في قلوب المسلمين إلا هؤلاء ـ وأشارت إلى بعض جلسائه ـ فادحض مقالتهم، وأبعد منزلتهم، فإنك إن فعلت ذلك ازددت من الله ﷻ قرباً ومن المسلمين حباً. وتعجب معاوية مما تقول، فقطع عليها مقالتها قائلاً: وإنّك لتقولين ذلك يا أم سنان؟

قالت: سبحان الله يا أمير المؤمنين، والله ما مثلك مدح بباطل، ولا اعتذر إليه بكذب، وإنك لتعلم ذلك من رأينا وضمير قلوبنا، كان والله عليٌّ رضي الله عنه أحب إلينا منك إذ كان حياً، وأنت أحبّ إلينا من غيره إذ أنت باق. فسألها معاوية: وممن أنا أحب إليكم ما دمت باقياً؟ فقالت: يا أمير المؤمنين، أنت أحبّ إلينا من مروان بن الحكم وسعيد بن العاص. قال: وبم استحققت بذلك عليهما؟. قالت: بحسن حلمك، وكرم عفوك[2]. وبعد حديث انتهى الحوار، سألها: ما حاجتك الآن يا أم سنان؟ فسألته حاجتها في حفيدها بالمدينة أن يفك أسره، فلبى معاوية طلبها، وأكرمها ووصلها وردّها إلى المدينة، وقد قضيت حاجتها، وكان لسانها يلهج بالدعاء لمعاوية[3]. هذه أمُّ سنان المذحجيّة، إحدى نساء عصر التابعين وممن فُطرت نفسها على الصَّفاء والصَّراحة، وأوتيت شطراً من البلاغة والحكمة ما جعلها في سجل

---

(1) العقد الفريد (2/ 108)، نساء من عصر التابعين، ص: 275، 278.
(2) العقد الفريد (2/ 108)، تاريخ دمشق نقلاً عن نساء من عصر التابعين، أحمد جمعة، ص: 278، شاعرات العرب، ص: 176، 177.
(3) نساء من عصر التابعين، ص: 280، شاعرات العرب، ص: 176، 177.

ناصع يحكي خلودها وخلود أمثالها[1] ولم تكن أم سنان المذحجية وحدها التي كانت تعبر عن رأيها، وتتكلّم بوضوح عن معتقداتها، بل كانت مثيلاتها كثير مثل: الزرقاء بنت عدي[2]، وأم الخير بنت الحريش[3]، لقد كان معاوية رضي الله عنه، يجرّىء الناس على الصدع بمعتقداتهم وآرائهم، ويشجعهم على حرية الرأي والتعبير وحق النقد والمعارضة السلمية.



(1) نساء من عصر التابعين، ص: 280.
(2) المصدر نفسه، ص: 296.
(3) المصدر نفسه، ص: 148.

الفصل الثالث

السياسة الداخلية لمعاوية رضي الله عنه

انعقد إجماع الأمة الإسلامية على خلافة معاوية سنة 41هـ فأخذ يعمل بكل ما أوتي من ذكاء وفطنة ودهاء على توطيد دعائم الأمن والاستقرار في ربوع العالم الإسلامي ، فانتهج سياسة داخلية، تقوم على عدة أمور:

المبحث الأول

الإحسان إلى كبار الشخصيات من شيوخ الصحابة وأبنائهم وبخاصة بنو هاشم

فقد خطب مرة في أهل الحجاز بعد توليه الخلافة فاعتذر عن عدم سلوكه طريقة الخلفاء الراشدين قبله، فقال: وأين مثل هؤلاء؟ ومن يقدر على أعمالهم؟ هيهات أن يدرك فضلهم أحد من بعدهم، رحمة الله ورضوان الله عليهم، غير أني سلكت بها طريقاً لي فيه منفعة، ولكم فيه مثل ذلك، ولكم فيه مؤاكلة حسنة، ومشاربة جميلة، ما استقامت السيرة وحسنت الطاعة. فإن لم تجدوني خيركم فأنا خير لكم، والله لا أحمل السيف على من لا سيف معه، ومهما تقدم مما قد علمتموه فقد جعلته دبر أذني، وإن لم تجدوني أقوم بحقكم كله فارضوا مني ببعضه. . وإياكم والفتنة فلا تهموا بها فإنها تفسد المعيشة وتكدر النعمة، وتورث الاستئصال، أستغفر الله لي ولكم[1].

وبمثل هذه السيرة صار خليفة المسلمين وانقاد له أبناء المهاجرين والأنصار، وكل من يعتقد أنه أولى منه بالخلافة، كان رضي الله عنه يهتم بغزو القلوب والإحسان إليها، مع الوعي والحذر الشديدين أن لا تنتقض الأمة عليه، لقد كان يبذل المال بلا حساب لكبار الشخصيات القيادية في المجتمع ويعتبر أن عليها مسؤوليات ضخمة تجاه رعاياها من أبناء الأمة، فلا بد أن تكون مليئة لسد الخلّة وتلبي الحاجة، وتحلّ المعضلة، ولعل أشراف بني هاشم كانوا في هذا الصدد أكثر قيادات الأمة إغداقاً عليهم بالمال، ولا بدع فهم لايزالون في عرف الناس القيادات الشعبية التي تمثل جماهير الأمة، وتلجأ الأمة إليهم أكثر مما تلجأ إلى الولاة والأمراء، وهذه القيادات لم تشارك في الحكم ولم تكن لها رغبة في ذلك[2].

---

(1) البداية والنهاية (11/ 432).

(2) معاوية بن أبي سفيان للغضبان، ص: 314.

أولاً: العلاقة بين الحسن ومعاوية رضي الله عنهما بعد الصلح:

كان الحسن بن علي يقدم على معاوية في خلافته، فقدم عليه ذات مرة فقال له معاوية: لأجيزنك بجائزة ما أجزت بها أحداً قبلك ولا أجيز بها أحداً بعدك، فأعطاه أربع مائة ألف فقبلها[1]، وجاء في رواية: . . . أن الحسن بن علي كان يفد كل سنة إلى معاوية فيصله بمائة ألف درهم، فقعد سنة عنه ولم يبعث إليه معاوية بشيء فدعا بدواة ليكتب إليه فأغفى قبل أن يكتب فرأى النبي ﷺ في منامه كأنه يقول: «يا حسن أتكتب لمخلوق تسأله حاجتك وتدع أن تسأل ربك؟» قال: فما أصنع يا رسول الله وقد كثر ديني؟ قال: «قل اللّهم إني أسألك من كل أمر ضعفت عنه قوتي وحيلتي ولم تنته إليه رغبتي، ولم يخطر ببالي ولم يبلغه أملي، ولم يجر على لساني من اليقين الذي أعطيته أحداً من المخلوقين الأولين والمهاجرين والآخرين إلا أخصصتني يا أرحم الراحمين». قال الحسن: فانتبهت وقد حفظت الدعاء، فكنت أدعو به فلم يلبث معاوية أن ذكرني فقيل له: لم يقدم السنة، فأمر له بمائتين ألف درهم[2]. وجاء في رواية: بأن الدعاء الذي علمه رسول الله للحسن في المنام هو: «اللهم اقذف في قلبي رجاك، واقطع رجائي عمّن سواك لا أرجو أحداً غيرك، اللّهم وما ضعفت عنه قوتي وقصر عنه عملي ولم تنته إليه رغبتي، ولم تبلغه مسألتي ولم يجر على لساني مما أعطيت أحداً من الأولين والآخرين من اليقين فخصّني به يا رب العالمين» قال: فوالله ما ألححت به أسبوعاً حتى بعث إليّ معاوية بألف ألف وخمس مائة ألف، فقلت: الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره، ولا يخيّب من دعاه، فرأيت النبي ﷺ في المنام فقال: «يا حسن كيف أنت»؟ فقلت: بخير يا رسول الله، وحدثته حديثي، فقال: «يا بُني هكذا من رجا الخالق ولم يرج المخلوق»[3]. وروى الزهري: . . . لما قتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه وجاء الحسن بن علي رضي الله عنهما إلى معاوية فقال له معاوية: لو لم يكن لك فضل على يزيد إلا أن أمك امرأة من قريش وأمه امرأة من كلب لكان لك عليه فضل، فكيف وأمك فاطمة بنت رسول الله ﷺ[4].

ثانياً: صلات معاوية للحسن وابن الزبير رضي الله عنهم:

عن جعفر بن محمد عن أبيه أن الحسن والحسين رضي الله عنهما كانا يقبلان جوائز معاوية رضي الله عنه[5]، وكان يرسل للحسن والحسين، فقد أمر معاوية مرّة للحسن بن علي بمائة ألف فذهب بها إليه فقال لمن حوله: من أخذ شيئاً فهو له، وأمر للحسين بن علي بمائة ألف فذهب بها إليه وعنده عشرة فقسمها عليهم عشرة آلاف، عشرة آلاف، وأمر لعبد الله بمائة ألف[6]، وكان

(1) سير أعلام النبلاء (3/ 269).
(2) تاريخ دمشق (14/ 8).
(3) المصدر نفسه (14/ 8).
(4) الشريعة للآجري (5/ 2470) إسناده حسن.
(5) الشريعة، ص: 2470 إسناده حسن.
(6) تاريخ دمشق (62/ 133).

معاوية ﷺ إذا لقي الحسن بن علي ﷺ قال: مرحباً بابن رسول الله وأهلاً، ويأمر له بثلاثمائة ألف، ويلقى ابن الزبير ﷺ فيقول: مرحباً بابن عمة رسول الله وابن حواريه، ويأمر له بمائة ألف[1]، وقد أشاد ابن الزبير بذكر معاوية بعد وفاته، فقد حدث هشام بن عروة بن الزبير قال: صلى يوماً عبد الله بن الزبير، فوجم بعد الصلاة ساعة، فقال الناس: لقد حدث نفسه ثم التفت إلينا فقال: لا يبعدن ابن هند، إن كانت فيه لمخارج لا نجدها في أحد بعده أبداً، والله إن كنا لنفرقه ـ أي نخوفه ـ وما الليث الحرب على براثنه بأجرأ منه فيتفارق لنا، وإنا كنا لنخدعه وما ابن ليلة من أهل الأرض بأدهى منه فيتخادع لنا، والله لوددت أنا متعنا به ما دام في هذا حجر ـ وأشار إلى أبي قبيس[2]ـ وقول ابن الزبير هذا قاله عندما حصر في عهد عبد الملك بن مروان[3].

ثالثاً: عبد الله بن عباس ﷺ مع معاوية:

وكان معاوية يحترمه ويقدره وكان يفد على معاوية، فأكرمه وقرّبه واحترمه وعظّمه، وكان يلقي عليه المسائل المعضلة فيجيب عنها سريعاً، فكان معاوية يقول: ما رأيت أحداً أحضر جواباً منه. ولما جاء الكتاب بموت الحسن بن علي اتفق كون ابن عباس عند معاوية فعزّاه فيه بأحسن تعزية، وردّ عليه ابن عباس ردًّا حسناً[4]، وبعث معاوية ابنه يزيد فجلس بين يدي ابن عباس وعزّاه بعبارة فصيحة وجيزة شكره عليها ابن عباس[5]، أما تعزية معاوية ﷺ وإجازته لابن عباس. فكما رواها قتادة: ثم قال لابن عباس: لا يسوؤك الله ولا يحزنك في الحسن بن علي فقال ابن عباس لمعاوية: لا يحزنني الله ولا يسوءني ما أبقى الله أمير المؤمنين. قال: فأعطاه ألف ألف درهم وعروضاً وأشياء وقال: خذها فاقسمها في أهلك[6]. وكان ابن عباس ﷺ من سادات المجتمع الإسلامي وقائد من قاداتها الكبار وكان معاوية ﷺ يعرف مكانته الاجتماعية والعلمية، فابن عباس كان بمثابة المستشار للشئون العلمية للخليفة، وقد كان معاوية ﷺ يعترف بفضل بني هاشم على بني أمية، فقد قيل له: أيكم كان أشرف، أنتم أو بنو هاشم؟ قال: كنا أكثر أشرافاً، وكانوا أشرف واحداً، لم يكن في عبد مناف مثل هاشم، فلمّا هلك كنا أكثر عدداً، وأكثر أشرافاً وكان فيهم عبد المطلب، ولم يكن فينا مثلهم، فصرنا أكثر عدداً وأكثر أشرافاً ولم يكن فينا واحد كواحدنا، فلم يكن إلا كقرار العين حتى جاء شيء لم يسمع الأوّلون بمثله، ولا يسمع الآخرون بمثله، محمد ﷺ[7]، وكان معاوية ﷺ يحذر

(1) تاريخ دمشق (62/ 133).
(2) عيون الأخبار (1/ 11، 12).
(3) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 115.
(4) البداية والنهاية (11/ 642).
(5) المصدر نفسه (11/ 642).
(6) البداية والنهاية (11/ 446).
(7) البداية والنهاية (11/ 446).

بني أمية من الإساءة إلى آل علي بن أبي طالب قائلاً: إن الحرب أولها نجوى، وأوسطها شكوى، وآخرها بلوى. وكان يطلب من خلصاء علي رضي الله عنه، وصفه وسرد روائع خصاله وأعماله[1].

رابعاً: هل عمم معاوية سب أمير المؤمنين علي على منابر الدولة الأموية؟

تذكر كتب التاريخ أن الولاة من بني أمية قبل عمر بن عبد العزيز كانوا يشتمون علياً، وهذا الأثر الذي ذكره ابن سعد لا يصح، قال ابن سعد: أخبرنا علي بن محمد، عن لوط بن يحيى، قال: كان الولاة من بني أمية قبل عمر بن عبد العزيز يشتمون علياً رضي الله عنه، فلما ولي هو ـ عمر ابن عبد العزيز ـ أمسك عن ذلك، فقال كثير عزة الخزاعي:

وليت فلم تشتم علياً ولم تخف بريأً ولم تتبع مقالة مجرم
تكلمت بالحق المبين وإنما تبين آيات الهدى بالتكلم
فصدَّقت معروف الذي قلت بالذي فعلت فأضحى راضياً كل مسلم[2]

فهذا الأثر واهٍ، فعلي بن محمد هو المدائني فيه ضعف وشيخه لوط بن يحيى، واهٍ بمرة، قال عنه يحيى بن معين: ليس بثقة، وقال أبو حاتم: متروك الحديث، وقال الدارقطني: إخباري ضعيف، ووصفه في الميزان: إخباري تالف لا يوثق به[3]، وعامة روايته عن الضعفاء والهلكى والمجاهيل[4]، وقد اتهم الشيعة معاوية رضي الله عنه بحمل الناس على سب علي ولعنه فوق منابر المساجد، فهذه الدعوة لا أساس لها من الصحة، والذي يقصم الظهر أن الباحثين قد التقطوا هذه الفرية على هوانها دون إخضاعها للنقد والتحليل، حتى صارت عند المتأخرين من المُسلَّمات التي لا مجال لمناقشتها، ولم يثبت قط في رواية صحيحة، ولا يعول على ما جاء في كتب الدميري، واليعقوبي وأبي الفرج الأصفهاني، علماً بأن التاريخ الصحيح يؤكد خلاف ما ذكره هؤلاء[5]، من احترام وتقدير معاوية لأمير المؤمنين علي وأهل بيته الأطهار، فحكاية لعن علي على منابر بني أمية لا تتفق مع منطق الحوادث، ولا طبيعة المتخاصمين، فإذا رجعنا إلى الكتب التاريخية المعاصرة لبني أمية، فإننا لا نجد فيها ذكراً لشيء من ذلك أبداً، وإنما نجده في كتب المتأخرين الذين كتبوا تاريخهم في عصر بني العباس بقصد أن يسيئوا إلى سمعة بني أمية في نظر الجمهور الإسلامي، وقد كتب ذلك المسعودي في مروج الذهب وغيره من كتَّاب الشيعة، وقد تسربت تلك الأكذوبة إلى كتب تاريخ أهل السنة ولا يوجد فيها رواية

---

(1) الدور السياسي للصفوة، ص: 172.
(2) سير أعلام النبلاء (5/ 147).
(3) الميزان (3/ 419).
(4) دفاعاً عن السلفية، ص: 187.
(5) الحسن، والحسين، محمد رضا، ص: 18، كلام المحقق د. أحمد أبو الشباب.

صحيحة صريحة، فهذه دعوة مفتقرة إلى صحة النقل، وسلامة السند من الجرح، والمتن من الاعتراض، ومعلوم وزن هذه الدعوة عند المحققين والباحثين، ومعاوية رضي الله عنه بعيد عن مثل هذه التهم بما ثبت من فضله في الدين، وكان محمود السيرة في الأمة، أثنى عليه بعض الصحابة ومدحه خيار التابعين، وشهدوا له بالدين والعلم، والعدل والحلم، وسائر خصال الخير[1]. وقد ثبت هذا في حق معاوية ـ رضي الله عنه ـ. كما أنه من أبعد المحال على من كانت هذه سيرته، أن يحمل الناس على لعن علي رضي الله عنه على المنابر وهو من هو في الفضل، ومن علم سيرة معاوية رضي الله عنه في الملك، وما اشتهر به من الحلم والصفح، وحسن السياسة للرعية ظهر له أن ذلك من أكبر الكذب عليه، فقد بلغ معاوية رضي الله عنه في الحلم مضرب الأمثال، وقدوة الأجيال[2]، وقد فصلّنا في صفة الحلم في شخصية معاوية فيما مضى.

وأما ما استدل به الشيعة على تلك الفرية من صحيح مسلم فليس ما يدل على زعمهم، فعن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: أمر معاوية بن أبي سفيان سعداً فقال: ما منعك أن تسب أبا تراب؟ فقال: أما ذكرت ثلاثاً قالهن له رسول الله ﷺ فلن أسبه، لأن تكون لي واحدة منهنّ أحب إليّ من حمر النعم[3]. قال النووي: قول معاوية هذا ليس فيه تصريح بأنه أمر سعداً بسبه، وإنما سأله عن السبب المانع له من السب. كأنه يقول: هل امتنعت تورعاً أو خوفاً، أو غير ذلك، فإن كان تورعاً وإجلالاً له عن السب، فأنت مصيب محسن، ولعل سعد رضي الله عنه وقد كان في طائفة يسبون فلم يسب معهم، وعجز عن الإنكار أن أنكر عليهم، فسأله هذا السؤال: قالوا: ويحتمل تأويلاً آخر، أن معناه: ما منعك أن تخطئه في رأيه واجتهاده وتظهر للناس حسن رأينا واجتهادنا وأنه أخطأ[4]، وقال أبو العباس القرطبي صاحب المفهم معلقاً على وصف ضرار الصُّدائي لعلي رضي الله عنه وثنائه عليه بحضور معاوية، وبكاء معاوية من ذلك وتصديقه لضرار فيما قال: وهذا الحديث يدل على معرفة معاوية بفضل علي رضي الله عنه ومنزلته، وعظيم حقه ومكانته، وعند ذلك يبعد عن معاوية أن يصرح بلعنه وسبّه، لما كان معاوية موصوفاً به من العقل والدين، والحلم وكرم الأخلاق وما يروى عنه من ذلك فأكثره كذب لا يصح، وأصح ما فيها قوله لسعد بن أبي وقاص: ما يمنعك أن تسب أبا تراب؟ وهذا ليس بالتصريح بالسب، وإنما هو سؤال عن سبب امتناعه ليستخرج من عنده من ذلك، أو من نقيضه، كما قد ظهر من جوابه، ولما سمع ذلك معاوية، سكن وأذعن، وعرف الحق لمستحقه[5]، قال الدكتور الرحيلي في كتابه «الصحب والآل»: والذي يظهر لي في هذا والله أعلم: أن معاوية إنما قال

---

(1) الانتصار للصحب والآل، ص: 367 للرحيلي.

(2) خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن علي بن أبي طالب، ص: 353.

(3) مسلم، كتاب: فضائل الصحابة (4/ 1871).

(4) شرح صحيح مسلم (15/ 175).

(5) المفهم للقرطبي (6/ 278).

ذلك على سبيل المداعبة لسعد، وأراد من ذلك استظهار بعض فضائل علي رضي الله عنه فإن معاوية رضي الله عنه كان رجلاً فطناً ذكياً، يحب مطارحة الرجال واستخراج ما عندهم، فأراد أن يعرف ما عند سعد في علي رضي الله عنه فألقى سؤاله بهذا الأسلوب المثير. وهذا مثل قوله رضي الله عنه لابن عباس: أنت على ملة علي؟ فقال له ابن عباس: ولا على ملة عثمان، أنا على ملة رسول الله ﷺ [1]. فظاهر أن قول معاوية هنا لابن عباس جاء على سبيل المداعبة، فكذلك قوله لسعد هو من هذا الباب، وأما ما ادّعى الشيعة من لأمر السب فحاشا معاوية رضي الله عنه أن يصدر منه مثل ذلك[2]، والمانع من هذا عدة أمور:

1 - أن معاوية رضي الله عنه ما كان يسب علياً رضي الله عنه كما تقدم حتى يأمر غيره بسبه، بل كان معظماً له، معترفاً له بالفضل والسبق إلى الإسلام، كما دلت على ذلك أقواله الثابتة عنه، فقد قال ابن كثير: وقد ورد من غير وجه: أن أبا مسلم الخولاني وجماعة معه دخلوا على معاوية فقالوا له: هل تنازع علياً أم أنت مثله؟ فقال: والله إني لأعلم أنه خير مني وأفضل، وأحق بالأمر مني[3]. وعن جرير بن عبد الحميد عن المغيرة قال: لما جاء خبر قتل علي إلى معاوية جعل يبكي، فقالت له امرأته: أتبكيه وقد قاتلته؟ فقال: «ويحك إنك لا تدرين ما فقد الناس من الفضل والفقه والعلم»[4]، فهل يسوغ في عقل ودين أن يسب معاوية علياً بل ويحمل الناس على سبه وهو يعتقد فيه هذا[5].

2 - أنه لا يعرف بنقل صحيح عن معاوية رضي الله عنه تعرض لعلي رضي الله عنه بسب أو شتم أثناء حربه له في حياته، فهل من المعقول أن يسبه بعد انتهاء حربه معه ووفاته، فهذا من أبعد ما يكون عند أهل العقول، وأبعد منه أن يحمل الناس على سبه وشتمه.

3 - أن معاوية رضي الله عنه كان رجلاً ذكياً مشهوراً بالعقل والدهاء، فلو أراد حمل الناس على سب علي ـ حاشاه ذلك ـ أفكان يطلب ذلك من مثل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وهو من هو في الشجاعة والفضل والورع، مع عدم دخوله في الفتنة أصلاً، فهذا لا يفعله أقل الناس عقلاً وتدبيراً، فكيف بمعاوية.

4 - أن معاوية رضي الله عنه انفرد بالخلافة بعد تنازل الحسن بن علي رضي الله عنهما له واجتمعت عليه الكلمة ودانت له الأمصار بالملك، فأي نفع له في سب علي؟ بل الحكمة وحسن السياسة تقتضي عدم ذلك، لما فيه من تهدئة النفوس، وتسكين الأمور، ومثل هذا لا يخفى على معاوية.

---

(1) الإبانة (1/ 355) شرح أصول اعتقاد اللالكائي (1/ 94).
(2) الانتصار للصحب والآل، ص: 375.
(3) البداية والنهاية (8/ 133).
(4) المصد نفسه (8/ 133).
(5) الانتصار للصحب والآل، ص: 376.

5 - إنه كان بين معاوية رضي الله عنه بعد استقلاله بالخلافة وأبناء علي من الألفة والتقارب، ما هو مشهور في كتب السير والتاريخ[1]، ومن ذلك أن الحسن والحسين وفدا على معاوية فأجازهما بمائتي ألف. وقال لهما: ما أجاز بهما أحد قبلي فقال له الحسين رضي الله عنه: ولم تعط أحد أفضل منا[2]، ودخل مرة الحسن على معاوية فقال له: مرحباً وأهلاً بابن بنت رسول الله ﷺ، وأمر له بثلاثمائة ألف[3]. وهذا مما يقطع الكذب مما يدَّعى في حق معاوية من حمله الناس على سب علي، إذ كيف يحصل هذا مع ما بينه وبين أولاده من هذه الألفة والمودة والاحتفاء والتكريم، وبهذا يظهر الحق في هذه المسألة، وتتجلى الحقيقة[4]، كما أن المجتمع في عمومه مقيد بأحكام الشرع حريصاً على تنفيذها، ولذلك كانوا أبعد الناس عن الطعن واللعن والقول الفاحش والبذيء[5]، وقد نهى رسول الله ﷺ عن سب الأموات المشركين فكيف بمن يسب أولياء الله المصلحين، فعن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: «لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا»[6].

خامساً: معاوية وسم الحسن بن علي:

ذكرت بعض الروايات أن الحسن بن علي توفي متأثراً بالسم الذي وضع له، وقد اتجهت أصابع الاتهام نحو زوجة الحسن جعدة بنت الأشعث بن قيس أمير كندة فهذه أم موسى سرية علي تتهم جعدة بأنها دست السم للحسن، فاشتكى منه شكاة: فكان يوضع تحته طست[7]، وترفع أخرى نحواً من أربعين يوماً[8]، وهذه رواية إسنادها لا يصح وهي ضعيفة[9]، وحاول البعض من الإخباريين والرواة أن يوجد علاقة بين البيعة ليزيد ووفاة الحسن، وزعموا أن يزيد ابن معاوية أرسل إلى جعدة بنت قيس أن سُمي حسناً فإني سأتزوجك، ففعلت، فلما مات الحسن بعثت جعدة إلى يزيد تسأله الوفاء: فقال: إنا والله لم نرضك له أفنرضاك لأنفسنا[10]؟، وفي سندها يزيد بن عياض بن جعدبة، كذّبه مالك وغيره[11]، وقد وردت هذه الروايات في كتب أهل السنة بدون تمحيص، مع العلم أن أسانيد تلك الروايات أسانيدها ضعيفة[12].

---

(1) الانتصار للصحب والآل، ص: 376.

(2) البداية والنهاية (8/ 139).

(3) البداية والنهاية (8/ 140).

(4) الانتصار للصحب والآل، ص: 377.

(5) صحيح ابن حبان، رقم: 47، صححه الألباني في الصحيحة، رقم: 320.

(6) البخاري، رقم: 6516.

(7) طست: إناء معلوم.

(8) الطبقات، تحقيق السُلمي (1/ 338) إسناده ضعيف.

(9) المصدر نفسه (1/ 338).

(10) تهذيب الكمال (6/ 453).

(11) تقريب التهذيب، ص: 604.

(12) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 393.

1 - قال ابن العربي: فإن قيل: دس على الحسن من تسمَّه، قلنا هذا محال من وجهين: أحدهما: أنه ما كان ليتقي من الحسن بأساً وقد سلَّم الأمر، الثاني: أنه أمر مغيب لا يعلمه إلا الله، فكيف تحملونه بغير بيِّنة على أحد من خلقه في زمن متباعد ولم نثق فيه بنقل ناقل، بين أيدي قوم ذوي أهواء، وفي حال فتنة وعصبية، ينسب كل واحد إلى صاحبه ما لا ينبغي، فلا يقبل منها إلا الصافي، ولا يسمع فيها إلا من العدل الصميم[1].

2 - وقال ابن تيمية: وأما قوله: معاوية سمّ الحسن، فهذا ممن ذكره بعض الناس، ولم يثبت ذلك ببينة شرعية، أو إقرار معتبر، ولا نقل يجزم به، وهذا مما لا يمكن العلم به، فالقول به قول بلا علم[2]. وقد جاء عن ابن تيمية في رده عن اتهام معاوية بسمّ الحسن وأنه أمر الأشعث بن قيس بتنفيذ هذه الجريمة وكانت ابنته تحت الحسن، حيث قال: وإذا قيل أن معاوية أمر أباها كان هذا ظناً محضاً، والنبي ﷺ قال: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث». ثم أن الأشعث بن قيس مات سنة أربعين وقيل سنة إحدى وأربعين ولهذا لم يذكر في الصلح الذي كان بين معاوية والحسن بن علي، فلو كان شاهداً لكان يكون له ذكر في ذلك، وإذا كان قد مات قبل الحسن بنحو عشر سنين فكيف يكون هو الذي أمر ابنته[3]. وهذا يدل على قدرة ابن تيمية للنقد العلمي القوي للروايات التاريخية.

3 - وقال الذهبي: قلت هذا شيء لا يصح فمن الذي اطلع عليه[4].

4 - وقال ابن كثير: روى بعضهم أن يزيد بن معاوية بعث إلى جعدة بنت الأشعث أن سُمِّي الحسن وأنا أتزوجك بعده ففعلت، فلما مات الحسن بعثت إليه فقال: إنا والله لم نرضك للحسن، أفنرضاك لأنفسنا؟ وعندي أن هذا ليس بصحيح، وعدم صحته عن أبيه معاوية بطريق الأولى والأحرى[5].

5 - وقال ابن خلدون: وما نقل من أن معاوية دس إليه السم مع زوجته جعدة بنت الأشعث، فهو من أحاديث الشيعة، حاشا لمعاوية من ذلك[6].

6 - د. جميل المصري: وقد علق على هذه القضية بقوله: . . . ثم حدث افتعال قضية سم الحسن من قبل معاوية أو يزيد. . ويبدو أن افتعال هذه القضية لم يكن شائعاً آنذاك، لأننا لا

(1) العواصم من القواصم، ص: 220 - 221.
(2) منهاج السنة النبوية (4/ 469).
(3) المنتقى من منهاج الاعتدال، ص: 266.
(4) تاريخ الإسلام، عهد معاوية، ص: 40، اتهامات لا تثبت، سليمان بن صالح الخراشي، ص: 174.
(5) البداية والنهاية (8/ 43).
(6) تاريخ ابن خلدون (2/ 527).

نلمس[1] لها أثراً في قضية قيام الحسن، أو حتى عتاباً من الحسين لمعاوية. وبالنسبة لسم الحسن ﷺ، فنحن لا ننكر هذا، فإذا ثبت أنه مات مسموماً فهذه شهادة له وكرامة في حقه[2]، وأما اتهام معاوية وابنه فهذا لا يثبت من حيث السند، كما مر معنا، ومن حيث المتن وهل جعدة بنت الأشعث بن قيس بحاجة إلى شرف أو مال ـ كما تذكر الروايات ـ حتى تسارع لتنفيذ هذه الرغبة من يزيد، وبالتالي تكون زوجة له؟ أليست جعدة ابنة أمير قبيلة كندة كافة وهو الأشعث بن قيس، ثم أليس زوجها وهو الحسن بن علي أفضل الناس شرفاً ورفعة بلا منازعة، إن أمه فاطمة ﷺ، وجده رسول الله ﷺ وكفى به فخراً، وأبوه علي بن أبي طالب أحد العشرة المبشرين بالجنة ورابع الخلفاء الراشدين، إذاً ما هو الشيء الذي تسعى إليه جعدة وتحصل عليه حتى تنفذ هذا العمل الخطير[3]، إن هناك الكثير الذين هم أعداء للوحدة الإسلامية، وزادهم غيظاً وحنقاً ما قام به الحسن بن علي، كما أن قناعتهم قوية بأن وجوده حياً صمام أمان للأمة الإسلامية، فهو إمام ألفتها وزعيم وحدتها بدون منافس، وبالتالي حتى تضطرب الأحداث وتعود الفتن إلى ما كانت عليه فلا بد من تصفيته وإزالته، فالمتهم الأول في نظري هم السبئية أتباع عبد الله بن سبأ الذين وجه لهم الحسن صفعة قوية عندما تنازل لمعاوية وجعل حداً للصراع، ثم الخوارج الذين قتلوا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وهم الذين طعنوه في فخذه، فربما أرادوا الانتقام من قتلاهم في النهروان وغيرها[4].

سادساً: موقف معاوية من قتلة عثمان ﷺ:

كان من ضمن شروط الحسن في صلحه مع معاوية ألا يطلب أحداً من أهل المدينة والحجاز والعراق بشيء[5]، والذي يلاحظه المؤرخ أنه من ذلك الوقت ترك الطلب بدم عثمان[6]، وقد تمّ الاتفاق على عدم مطالبة أحد بشيء كان في أيام علي وهي قاعدة بالغة الأهمية تحول دون الالتفاف إلى الماضي وتركز على فتح صفحة جديدة تركز على الحاضر والمستقبل[7]، وقد تمّ التوافق المبني على الالتزام والشرعية حيث تمّ الصلح على أساس العفو المطلق عن كل ما كان بين الفريقين، قبل إبرام الصلح، وبالفعل لم يعاقب معاوية أحداً

(1) أثر أهل الكتاب في الفتن والحروب الأهلية، ص: 482، مرويات خلافة معاوية، ص: 395.
(2) منهاج السنة (4/ 42).
(3) مواقف المعارضة في خلافة يزيد بن معاوية، ص: 123.
(4) المصدر نفسه، ص: 124.
(5) التبيين في أنساب القرشيين، ص: 127.
(6) الخلفاء الراشدين للنجار، ص: 482.
(7) الدور السياسي للصفوة في صدر الإسلام، ص: 341.

بذنب سابق، وتأس بذلك صلح الحسن على الإحسان والعفو، وقد تمّ بسط الأمن وحفظ الدماء في عهد معاوية إلى حد كبير[1] وجاء في عيون الأخبار لابن قتيبة: إن معاوية بن أبي سفيان لما قدم بعد عام الجماعة ـ المدينة ـ دخل دار عثمان بن عفان، فصاحت عائشة بنت عثمان بن عفان وبكت ونادت أباها، فقال معاوية: يا ابنة أخي، إن الناس أعطونا طاعة، وأعطيناهم أماناً، وأظهرنا لهم حلماً تحته غضب، وأظهروا لنا ذلاً تحته حقد، ومع كل إنسان سيفه ويرى موضع أصحابه، فإن نكثناهم نكثوا بنا، ولا ندري أعلينا تكون أم لنا، لأن تكوني ابنة عم أمير المؤمنين خير من أن تكوني امرأة من عرض الناس[2]. والذي يعتد به من كلام ابن قتيبة ما جاء عن العهود والمواثيق التي أبرمت بين معاوية والحسن وقضت بالصلح بين الناس، ووضع الحرب وحقن الدماء، وعدم تهييج النفوس، وإضافة إلى ذلك فإن السنوات الخمس التي احتضنت المعارك في الجمل وصفين والنهروان ومصر وغيرها ذهبت بأولئك الذين ترددت أسماؤهم بتهمة قتل عثمان، ومع ذلك فإن مسألة قتل عثمان ظلت حاضرة في ذهن الخلفاء من بني أمية ونوابهم في الأغلب، وأما انتصار بني أمية لعثمان كان حقيقة لا شبهة فيها[3].

سابعاً: مقتل حجر بن عدي رضي الله عنه:

تحدثت معظم المصادر في مقتل حجر بن عدي رضي الله عنه ومن هذه المصادر: ابن سعد[4]، وخليفة بن خياط[5] باختصار شديد، والبلاذري[6]، واليعقوبي[7]، والمسعودي[8]، وأبو الفرج الأصفهاني[9] مطولاً، وابن الجوزي[10]، وابن الأثير[11] مطولاً، والذهبي[12]، وابن كثير[13]، وقد اعتمد الطبري في خبر حجر بن عدي وأصحابه على أبي مخنف المؤرخ الشيعي المشهور والذي ليس بثقة ولا يعتمد عليه عند علماء المسلمين من أهل السنة، فقد نقل الطبري عنه ست عشرة رواية، وعموماً فإن خبر مقتل حجر بن عدي ورد في مصادر متعددة، ولم تنفرد الروايات الشيعية بسوق خبره، ولكن رواية أبي مخنف الساقط الاعتبار عند علماء أهل الجرح والتعديل أشارت إلى أن معاوية أوصى المغيرة بن شعبة بشتم علي وذمه، لذلك كان المغيرة لا

---

(1) خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن علي، ص: 349.
(2) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص: 69، السلطان لابن قتيبة، ص: 58.
(3) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص: 70.
(4) الطبقات (6/ 217) تحقيق إحسان عباس.
(5) التاريخ، ص: 213.
(6) أنساب الأشراف (4/ 242).
(7) تاريخ اليعقوبي (2/ 230).
(8) مروج الذهب (3/ 12).
(9) الأغاني (17/ 133).
(10) المنتظم (5/ 241).
(11) الكامل في التاريخ (2/ 488).
(12) سير أعلام النبلاء (3/ 462).
(13) البداية والنهاية (11/ 227).

يترك ذمّ علي في خطبته طوال فترة ولايته على الكوفة، ونص خطبته التي أغضبت حجر بن عدي كما أوردها أبو مخنف: اللّهم ارحم عثمان بن عفان وتجاوز عنه، واجزه بأحسن عمله، فإنه عمل بكتابك، واتبع سنة نبيك ﷺ، وجمع كلمتنا وحقن دماءنا، وقُتل مظلوماً، اللّهم فارحم أنصاره وأولياءه ومحبيه والطالبين بدمه. ويدعو على قتلته[1]، وكما نلاحظ من نص الخطبة أنه لم يرد فيها ذمُّ علي ومع ذلك فإن الرواية تشير أنّ هذه الخطبة تضمنت ذلك إلا إذا تأولت لعنه لقتلة عثمان بأنه ذم لعلي[2]، وبراءة علي من دم عثمان يعرفها القاصي والداني وقد أثبتّها في كتبي عن عثمان وعلي والحسن رضي الله عنهم جميعاً. ومهما يكن من أمر فإن الباحث في مقتل حجر بن عدي رحمه الله، يلاحظ أن موقف حجر من أمير المؤمنين معاوية قد مرّ بمرحلتين:

- المرحلة الأولى: مرحلة المعارضة القولية: (41هـ ـ 50هـ):

كان حجر بن عدي الكندي، أبو عبد الرحمٰن الشهيد، له صحبة ووفادة، وفد مع أخيه هانئ بن الأدبر، ولا رواية له عن النبي ﷺ وسمع من علي وعمار[3]، وكان شريفاً، أميراً مطاعاً، أمَّاراً بالمعروف، مقداماً على الإنكار من شيعة علي رضي الله عنه، شهد صفين أميراً، وكان ذا صلاح وتعبد[4]، وكان رحمه الله من المعارضين للصلح الذي قام بين الحسن ومعاوية رضي الله عنهما، غير أن هذه المعارضة لم يترتب عليها في هذه المرحلة أي فعل، بل اقتصرت على الأقوال فقط[5]، وفي ذلك يقول البلاذري: . . . لم يزل حجر بن عدي منكراً على الحسن بن علي بن أبي طالب صلحه لمعاوية، فكان يعذله على ذلك ويقول: تركت القتال ومعك أربعون ألفاً ذوو نيات وبصائر في قتال عدوك، ثم كان بعد ذلك يذكر معاوية فيعيبه، ويُظلِّمه[6]، فكان هذا هجيراه، وعادته[7].

- المرحلة الثانية: مرحلة المعارضة الفعلية:

هذه المرحلة بدأت في سنة 51هـ حيث حصل في هذه السنة تدهور مفاجئ في علاقة حجر ابن عدي مع زياد بن أبيه والي العراق، وقد ذكرت المصادر سببين في سبب تدهور هذه العلاقة:

أ - ما ذكر من إقدام المغيرة بن شعبة على الثناء على عثمان والترحم عليه، وذم علي بن أبي طالب، وإقدام حجر بن عدي على مدح علي بن أبي طالب، وذم عثمان بن عفان، وسكوت المغيرة عن حجر بن عدي، فلما مات المغيرة بن شعبة وتولى زياد بن أبيه، قال زياد في عثمان

---

(1) تاريخ الطبري (6/ 168 إلى 169).
(2) أثر التشيع على الروايات، ص: 368 إلى 370.
(3) سير أعلام النبلاء (3/ 462).
(4) المصدر نفسه (3/ 463).
(5) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 422.
(6) أي: ينسبه للظلم.
(7) هجيراه: دأبه وشأنه، القاموس المحيط، ص: 637.

ابن عفان وعلي بن أبي طالب مثلما كان يقول المغيرة، فقام حجر بن عدي وقال فيهما مثلما كان يقول المغيرة، فكان ذلك سبب ابتداء المواجهة بين حجر وزياد[1].

ب ـ ما ذُكر من إطالة زياد الخطبة، وتأخير الصلاة، وقيام حجر بإنكار ذلك على زياد، فكان هذا سبب ابتداء المواجهة بينهما[2] وهذان السببان يكدرهما ما يلي:

● - أن سياسة المغيرة رضي الله عنه مع أهل الكوفة اتسمت بالعفو والصفح، وليس بإثارة الأحقاد والإحن، والحجة في ذلك ما أخرجه البخاري من طريق زياد بن علاقة قال: سمعت جرير بن عبد الله يقول يوم مات المغيرة بن شعبة، قام فحمد الله وأثنى عليه وقال: عليكم باتقاء الله وحده لا شريك له، والوقار والسكينة حتى يأتيكم أمير، فإنما يأتيكم الآن ثم قال: استغفروا لأميركم، فإنه كان يحب العفو[3]. ثم قال: أما بعد فإني أتيت النبي ﷺ قلت: أبايعك على الإسلام، فشرط عليّ: «النصح لكل مسلم». فبايعته على هذا، ورب هذا المسجد إني لناصح لكم[4]، ثم استغفر ونزل[5].

● - أن ضم الكوفة إلى زياد كان في سنة 49هـ، وهو ما صرح به فيل مولى زياد حيث قال: ملك زياد العراق خمس سنين، ثم مات سنة ثلاث وخمسين وهذه الرواية التي تحدد تاريخ ضم الكوفة إلى زياد بن أبيه تعد أصح ما في الباب وحيث إن ولاية زياد على الكوفة كانت سنة 49هـ، ولم يحدث الصدام بين حجر وأنصاره وزياد والي الكوفة لأن الحسن بن علي رضي الله عنه لازال حياً ووجوده كان كفيلاً بردع تحركات المعارضين للصلح من أنصاره لأنه رضي الله عنه اشترط عليهم أن يحاربوا؟ من حارب؟ ويسالموا؟ من؟ سالم؟ ولكن؟ بعد؟ وفاة الحسن رضي الله عنه عام 51هـ[6] - تغير موقف بعض قيادات أهل العراق ومنهم حجر بن عدي من المعارضة القولية إلى الفعلية، فقد روى البلاذري بإسناده إلى الشعبي، وغيره، قالوا: لما قدم زياد الكوفة ـ عام 49هـ ـ بعث إلى حجر فقال: يا هذا، كنا على ما علمت، وقد جاء أمر غير ذلك، أمسك عليك لسانك، وليسعك منزلك، وهذا سريري فهو مجلسك، فإياك أن تستنزلك السفلة أو تستفزك، إني لو استخففت بحقك هان علي أمرك، ولم أكلمك من كلامي هذا بحرف، فلما صار إلى منزله اجتمعت إليه الشيعة فقالوا: أنت شيخنا وأحق الناس بإنكار هذا

---

(1) تاريخ الطبري (6/ 169).
(2) تاريخ الطبري (5/ 169).
(3) مرويات خلافة معاوية، ص: 424.
(4) إشارة إلى أنه وفى بما بايع عليه رسول الله ﷺ، وكان صدق في نصحه.
(5) البخاري، صحيح البخاري مع الفتح (1/ 168).
(6) مرويات خلافة معاوية، ص: 425.

الأمر[1]، فلمّا شخص زياد إلى البصرة استخلف عمرو بن حريث على الصلاة والحرب، ومهران مولاه على الخراج، وأمر العمال بمكاتبة عمرو. . فكتب عمرو إلى زياد: إن كانت لك بالكوفة حاجة فالعجل، فإني كتبت إليك وليس في يدي منها مع حجر إلا القصر، فأخذ السير حتى قدم الكوفة، فبعث إلى عدي بن حاتم الطائي، وجرير بن عبد الله البجلي. . . فقال: ائتوا هذا الشيخ المفتون، فإني خائف أن يحملنا من أمره على ما ليس من شأننا فأتوه. . . وكلمه القوم، فلم يكلم منهم أحداً، فأتوا زياداً فقال: مهيم[2]؟ فقال عدي: أيها الأمير، استذمه[3]، فإن له سناً فقال: لست لأبي سفيان إذاً، ثم أرسل إليه الشُّرَط فقوتلوا[4]، وجاء في رواية أخرى: لما قدم زياد الكوفة أميراً[5] أكرم حجر بن الأدبر[6]، وأدناه، وشفَّعَه، فلما أراد الانحدار إلى البصرة[7] دعاه فقال له: يا حجر إنك قد رأيت ما صنعت بك، وإني أريد البصرة، فأحب أن تشخص معي، فإني أكره أن تتخلف بعدي، فعسى أن أبلَّغ عنك شيئاً فيقع في نفسي، وإذا كنت معي لم يقع في نفسي منك شيء، فقد علمت رأيك في علي بن أبي طالب، وقد كان رأيي فيه قبلك على مثل ذلك، فلما رأيت الله صرف الأمر إلى معاوية، لم أتّهم قضاء الله ورضيت به، وقد رأيت إلى ما صار أمر علي وأصحابه، وإني أحذرك أن تركب أعجاز أمور هلك من ركب صدورها[8]، والمقصود من كلام زياد أنه كان من خواص علي ﷺ ولما رأى تنازل الحسن لمعاوية وإجماع الأمة عليه دخل في الجماعة وحرص على وحدة الصف وحذر من الفتن، فقال له حجر: إني مريض ولا أستطيع الشخوص. قال: صدقت، والله إنك لمريض الدين والقلب، مريض العقل، وأيم الله لئن بلغني عنك شيء أكرهه لأحرص على قتلك فانظر أو دع، فخرج زياد فلحق بالبصرة، واجتمع إلى حجر قُرّاء أهل الكوفة، فجعل لا ينفذ لعامل زياد معهم أمر، ولا يريد شيئاً إلا منعوه إياه، فكتب إلى زياد: إني والله ما أنا في شيء مع حجر وأصحابه، وأنت أعلم، فركب زياد بغاله حتى اقتحم الكوفة، فلما قدمها تغيب حجر، فجعل يطلبه فلا يقدر عليه[9]. أما تفاصيل

---

(1) مرويات خلافة معاوية ص: 428، أنساب الأشراف (4/ 246).

(2) مهيم : كلمة استفهام، أي ما وراءك.

(3) استذمه : لا تخفر ذمته.

(4) أنساب الأشراف (4/ 246، 247).

(5) وذلك سنة 49هـ.

(6) الأدبر : لقب عدي والد حجر.

(7) وذلك سنة 51هـ.

(8) هذا تحذير من زياد لحجر يدل على رغبته على حسم مادة الفتنة ولذلك حرص على أصطحابه معه إلى البصرة.

(9) أنساب الأشراف (4/ 270، 271).

المواجهة بين شرطة زياد وحجر بن عدي وأنصاره، فقد انفرد أبو مخنف من بين المصادر التي وقفت عليها بإيراد تفاصيلها[1]، كذلك انفرد أبو مخنف بإيراد تفاصيل مهمة عن شهادة أهل الكوفة على حجر وأصحابه[2].

1 - قضاء معاوية رضي الله عنه في حجر رضي الله عنه وأصحابه:

نظراً لخطورة قضية حجر بن عدي وحساسيتها، فقد وافق زياد بن أبيه على شرط حجر بن عدي عند استسلامه، وهذا الشرط هو إحالة قضية حجر ومن معه إلى معاوية ليحكم فيها[3]، وقبل الحديث عن حكم معاوية في حجر وأصحابه، ينبغي التذكير بالتّهم الموجهة إليهم، وهذه التهم كما وردت عن أبي مخنف هي: . . . إن حجراً جمع إليه الجموع، وأظهر شتم الخليفة، ودعا إلى حرب أمير المؤمنين وزعم أن هذا الأمر لا يصلح إلا في آل أبي طالب، ووثب بالمصر، وأخرج عامل أمير المؤمنين، وأظهر عذر أبي تراب[4]، والترحم عليه، والبراءة من عدوه وأهل حربه، وأن هؤلاء النفر الذين معه هم رؤوس أصحابه، وعلى مثل رأيه وأمره[5]، أما قضاء معاوية رضي الله عنه في حجر رضي الله عنه وأصحابه فإنه لم يقتلهم على الفور، ولم يطلب منهم البراءة من علي رضي الله عنه كما تزعم بعض الروايات[6]، بل استخار الله ﷻ فيهم، واستشار أهل مشورته، ثم كان حكمه فيهم أن قتل بعضهم، واستحيَ بعضهم، والحجة في ذلك ما يرويه صالح بن أحمد بن حنبل[7]، بإسناد حسن قال: حدثني أبي[8] قال: حدثنا أبو المغيرة[9]، قال: حدثنا ابن عياش[10]، قال: حدثني شرحبيل بن مسلم[11]، قال: لما بُعث بحجر عدي بن الأدبر وأصحابه من العراق إلى معاوية بن أبي سفيان، استشار الناس في قتلهم، فمنهم المشير، ومنهم الساكت، فدخل معاوية منزله، فلما صلى الظهر قام في الناس خطيباً، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم جلس على منبره، فقام المنادي فنادى: أين عمرو بن الأسود العنسي[12]، فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم

---

(1) تاريخ الطبري (6/ 177، 183).

(2) المصدر نفسه (6/ 184، 186).

(3) تاريخ الطبري (6/ 187، 188).

(4) المقصود به علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهي كنيته.

(5) تاريخ الطبري (6/ 188).

(6) مرويات خلافة معاوية، ص: 430.

(7) قال عنه الذهبي صدوق ثقة السير (12/ 529).

(8) أحمد بن محمد بن حنبل، ثقة حافظ فقيه حجة.

(9) عبد القدوس بن الحجاج الخولاني، أمير المغيرة.

(10) إسماعيل بن عياش العنسي، الحمصي، صدوق.

(11) شرحبيل بن مسلم الخولاني، الشامي، من شيوخ الشام.

(12) مخضرم، ثقة عابد، من كبار التابعين مات في خلافة معاوية.

قال: ألا إنا بحصن من الله حصين لم نؤمر بتركه، وقولك يا أمير المؤمنين في أهل العراق ألا وأنت الراعي ونحن الرعية ألا وأنت أعلمنا بدائهم وأقدرنا على دوائهم وإنما علينا أن نقول ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: 285] فقال معاوية: أما عمرو بن الأسود فقد تبرأ إلينا من دمائهم ورمى بها ما بين عيني معاوية. ثم قام المنادي فنادى: أين أبو المسلم الخولاني؟ فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فلا والله ما أبغضناك منذ أحببناك، ولا عصيناك منذ أطعناك، ولا فارقناك منذ جامعناك، ولا نكثنا منذ بايعناك، على عواتقنا إن أمرتنا أطعناك، وإن دعوتنا أجبناك، وإن سبقناك نظرناك، ثم جلس. ثم قام المنادي فقال: أين عبد الله ابن مِخْمَر الشرعبي[1]؟ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: وقولك يا أمير المؤمنين في هذه العصابة من أهل العراق، إن تعاقبهم فقد أصبت، وإن تعفو فقد أحسنت، فقام المنادي فنادى: أين عبد الله بن أسد القسري؟ فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أمير المؤمنين، رعيتك، ووليتك، وأهل طاعتك، إن تعاقبهم فقد جنوا أنفسهم العقوبة، وإن تعفو فإن العفو أقرب للتقوى يا أمير المؤمنين ولا تطع فينا من كان غشوماً ظلوماً، بالليل نؤوماً، عن عمل الآخرة سؤوماً[2]. يا أمير المؤمنين، إن الدنيا قد انقشعت أوتادها، ومالت بها عمادها، وأحبها أصحابها، واقترب منها ميعادها، ثم جلس. فقلت[3] لشرحبيل: فكيف صنع؟ قال: قتل بعضاً واستحيَ بعضاً وكان فيمن قتل حجر بن عدي الأدبر[4]، وكان حجر ﷺ قبل قتله قال: يا قوم دعوني أصلي ركعتين، فتركوه فتوضأ، وصلَّى ركعتين، فطوَّل، فقيل له: طوَّلت، أجزعت؟ فقال: ما صليت صلاة أخفّ منها، ولئن جزعت لقد رأيت سيفاً مشهوراً، وكفناً منشوراً، وقبراً محفوراً، وكانت عشائرهم قد جاؤوهم بالأكفان، وحفروا لهم القبور.

ويقال: بل معاوية الذي فعل ذلك. وقال حجر: اللّهم إنا نستعديك على أمتنا، فإن أهل العراق شهدوا علينا وإن أهل الشام قتلونا. فقيل له: مُدَّ عنقك. فقال: إنَّ ذاك لدم ما كنت لأُعين عليه[5]، وجاء في رواية: لما أتي معاوية بحجر، قال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، قال: أو أمير المؤمنين أنا؟ اضربوا عنقه، فصلَّى ركعتين وقال لأهله: لا تطلقوا عني حديداً، ولا تغسلوا عني دماً، فإني ملاقٍ معاوية على الجادَّة[6]. وقد علق ابن العربي على مقتل حجر ابن عدي ﷺ فقال: .. وأراد أن يقيم الخلق للفتنة، فجعله معاوية ممن سعى في الأرض

---

(1) شامي مخضرم، يروي عن أبي الدرداء ﷺ.
(2) مرويات خلافة معاوية، ص: 434، نقلاً عن تاريخ دمشق (4/ 271).
(3) القائل هو إسماعيل بن عياش.
(4) أحمد بن حنبل: المسائل رواية ابنه صالح (2/ 328، 331).
(5) سير أعلام النبلاء (3/ 465).
(6) المصدر نفسه (3/ 466).

فساداً[1]، وقد اعتمد معاوية رضي الله عنه في قضائه على قوله ﷺ: «من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يَشُقَّ عصاكم[2]، أو يفرق جماعتكم فاقتلوه»[3]، وقوله ﷺ: «إنه ستكون هنات[4]، وهنات، فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة، وهي جميع، فاضربوه بالسيف كائناً من كان»[5]. ومما يجدر التذكير به في هذا المقام أن معاوية رضي الله عنه لم يكن ليقضي بقتل حجر بن عدي رضي الله عنه لو أن حجراً اقتصر في معارضته إلى الأقوال فقط ولم ينتقل على الأفعال ولنا في خبر المسور بن مخرمة وغيره مما مرّ معنا دلالة على ذلك[6].

2 - موقف عائشة رضي الله عنها من مقتل حجر بن عدي رضي الله عنه :

بالغت الروايات في ذكر موقف عائشة رضي الله عنها من مقتل حجر بن عدي، حيث ذهبت بعض الروايات إلى زعم بتهديد عائشة لمعاوية بالقتل حين زارها سنة 51هـ، وكذلك التهديد بمحاربة معاوية[7]. وهذه الروايات لم يصح منها شيء في حق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وأما حقيقة موقفها فعن ابن أبي مليكة: إن معاوية جاء يستأذن على عائشة، فأبت أن تأذن له، فخرج غلام لها يقال له: ذكوان[8]، قال: ويحك أدخلني على عائشة فإنها قد غضبت علي، فلم يزل بها غلامها حتى أذنت له، وكان أطوع مني عندها، فلما دخل عليها قال: أمتاه فيما وجدت عليَّ يرحمك الله؟ قالت: . . . وجدت عليك في شأن حجر وأصحابه أنك قتلتهم فقال لها: . . . وأما حجر وأصحابه فإني تخوفت أمراً، وخشيت فتنة تكون، تهراق فيها الدماء، تستحل فيها المحارم، وأنت تخافيني، دعيني والله يفعل ما يشاء قالت: تركتك والله، تركتك والله، تركتك والله[9]، وجاء في رواية أخرى: لما قدم معاوية دخل على عائشة، فقالت: أقتلت حجراً؟ قال: يا أم المؤمنين، إني وجدت قتل رجلٍ في صلاح الناس، خير من استحيائه في فسادهم[10].

---

(1) العواصم من القواصم، ص: 220.

(2) يشق عصاكم : يفرق جماعتكم.

(3) مسلم صحيح مسلم بشرح النووي (12/ 242).

(4) هنات : جمع هَنَّة، والمراد بها هنا الفتن والأمور الحادثة، شرح صحيح مسلم (12/ 241).

(5) مسلم، صحيح شرح النووي (12/ 241).

(6) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 435.

(7) المصدر نفسه، ص: 438، مثل ما ورد في تاريخ الطبري.

(8) أبو عمرو مولى عائشة ثقة توفي في المدينة سنة 63هـ.

(9) تاريخ دمشق (4/ 273، 274)، نقلا عن مرويات معاوية، ص: 440.

(10) المصدر نفسه (4/ 273) نقلاً عن مرويات معاوية، ص: 440.

3 - ندم معاوية على قتل حجر بن عدي:

جاء في رواية: . . أن عائشة أرسلت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام إلى معاوية في حجر وأصحابه فقدم عليه وقد قتلهم، فقال له عبد الرحمن: أين غاب عنك حلم أبي سفيان؟ قال: غاب حين غاب عني مثلك من حلماء[1] قومي، قال الذهبي: يعني أنه ندم[2]. ومع أن قتل حجر ﷺ وإن ذكر له من الأعذار والمبررات ما ذكر، ففي الحقيقة كانت غلطة من معاوية، وكان ينبغي أن يتسع حلمه لصحابي من صحابة رسول الله ﷺ وقد ندم معاوية ندماً كبيراً على قتل حجر، وظل يذكر هذه الحادثة طوال حياته[3]، وقد روي أنه قال عند موته: يوم لي من ابن الأدبر طويل: ثلاث مرات ـ يعني حجراً[4] ـ.

4 - موقف لمالك بن هبيرة السكوني ﷺ :

لم يقبل معاوية ﷺ شفاعة مالك بن هبيرة السكوني في حجر بن عدي، فجمع مالك قومه وسار ليخلصه وأصحابه، فلقي القتلة وسألهم، فقالوا: مات القوم. وسار إلى عَدِيّ فتيقن قتلهم فأرسل في أثر القتلة فلم يدركهم، وأخبروا معاوية فقال: تلك حرارة يجدها في نفسه وكأني بها قد طفئت. ثم أرسل إليه بمائة ألف وقال: خفت أن يعيد القوم حرباً فيكون على المسلمين أعظم من قتل حجر فطابت نفسه[5]، وكان مالك بن هبيرة السكوني صحابي جليل وكان معاوية ﷺ ولاّه حمص وكان يقول فيه: ما أصبح عندي من العرب أوثق في نفسي نصحاً بجماعة المسلمين وعامتهم من مالك بن هبيرة[6]. وقد كان يسعى معاوية غير القتل من العقوبات، كالسجن، أو تفريق حجر وجماعته، أويمن بهم على عشائرهم[7].

5 - ما قيل في حجر بن عدي من رثاء:

قالت هند ابنة زيد بن مخرمة الأنصارية في رثاء حجر:

تــرفــع أيــهــا الــقــمــر الــمــنــيــر ... تَــبَــصَّــرْ هــل تــرى حــجــراً يــســيــر

يــســيــر إلــى مــعــاويــة بــن حــرب ... لــيــقــتــلــه كــم زعــم الأمــيــر

تــجــبــرت الــجــبــابــر بــعــد حــجــر ... وطــاب لــهــا الــخــورنــق والــســديــر

---

(1) تاريخ الطبري (6/ 195).
(2) سير أعلام النبلاء (3/ 465).
(3) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 116.
(4) تاريخ الطبري (6/ 196).
(5) تاريخ بن خلدون (3/ 17).
(6) أثر الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص: 671، الطبقات الكبرى (7/ 420).
(7) القرّاء ودورهم في الحياة العامة، ص: 195.

وأصبحت البلاد بها محولا ... كأن لم يحيها مزن مطير
ألا يا حجر حجر بن عدي ... تلقاك السلامة والسرور
أخاف عليك ما أدري عديا ... وشيخاً في دمشق له زئير

إلى أن قالت:

ألا ياليت حجراً مات موتاً ... ولم ينحر كما نحر البعير
فإن تهلك فكل زعيم قوم ... من الدنيا إلى هُلكٍ يصير[1]

وفيما عدا قضية حجر وأصحابه فقد حافظ معاوية على سياسته السلمية القائمة على الحلم وسعة الصدر مع رعيته والتي لخصها هو نفسه في جمل يسيرة حين قال: لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني، ولو كان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت كانوا إذا شدوها أرخيتها وإذا أرخوها شددتها[2] وهي سياسة حكيمة تفسح المجال أمام القول إذا ما ظل في حدود لا يتعداها، فحيث يكفي المال عن اللسان يعتمده، ولا يضع السوط حيث يكفي اللسان، ولا يضع السيف حيث يكفي السوط[3]، وقد قيل: بأن سليم مولى زياد فخر بزياد عند معاوية فقال معاوية: اسكت ما أدرك صاحبك شيئاً قط بسيفه إلا وقد أدركت أكثر منه بلساني[4].

المبحث الثاني

مباشرة معاوية للأمور بنفسه وحرصه على توطين الأمن في خلافته

أولاً: مباشرة معاوية للأمور بنفسه:

ومن القواعد التي قامت عليها سياسة معاوية الداخلية مباشرة الأمور بنفسه، وكان ﷺ يحرص على معرفة كل صغيرة وكبيرة في الدولة، فرغم أنه استعان بأمهر رجال عصره، إلا أنه لم يكن يكتفي بذلك بل كرّس كل وقته وجهده للدولة ورعاية مصالح المسلمين[5].

1 - مجلس معاوية في يومه:

كان معاوية ﷺ يظهر في اليوم والليلة خمس مرات، فكان إذا صلى الصبح جلس

(1) تاريخ الطبري (6/ 196).
(2) السلطان لابن قتيبه، ص: 51.
(3) السلطة والمعارضة في الإسلام، زهير هوّاري، ص: 262.
(4) السلطان لابن قتيبة، ص: 53.
(5) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 117.

للقصاص حتى يفرغ من قصصه ثم يدخل فيؤتى بمصحفه، فيقرأ جزأه ثم يدخل إلى منزله فيأمر وينهى ثم يصلي أربع ركعات، ويخرج إلى مجلسه، فينادي بخاصته، فيحدثهم ويحدثونه، ويدخل عليه وزراءه، فيكلمونه فيما يريدون من يومهم، ثم يؤتى بالغداء الأصغر، وهو فضل عشاء الليل، . . . ثم يتحدث طويلاً، ثم يدخل منزله لما أراد ثم يخرج فيقول يا غلام أخرج الكرسي، ويسند ظهره إلى المقصورة، ويقوم الحراس، فيقدم إليه الضعيف والأعرابي والصبي والمرأة فيقول: ظلمت، فيقول: أعزّوه، ويقول: عدي عليّ فيقول: ابعثوا معه، ويقول صنع بي فيقول: انظروا له، حتى لم يبق أحد دخل فجلس على السرير، ثم يقول: ائذنوا للناس على قدر منازلهم ولا يشغلني أحد عن رد السلام، فيقال: كيف أصبح أمير المؤمنين أطال الله عمره؟ فيقول: بنعمة من الله، فإذا استووا جلوساً قال: يا هؤلاء إنما سُميتم أشرافاً، لأنكم شرفتم من دونكم بهذا المجلس، ارفعوا حاجة من لا يصل إلينا فيقوم الرجل فيقول: استشهد فلان، فيقول: افرضوا لولده، ويقول: غاب فلان عن أهله فيقول: تعاهدوهم وأعطوهم، واقضوا حوائجهم واخدموهم. ويؤتى بالغداء ويحضر الكاتب، فيقوم عند رأسه ويقدم الرجل فيقال له: اجلس على المائدة فيجلس فيمد يده، فيأكل لقمتين أو ثلاثاً، والكاتب يقرأ كتابه، فيأمر فيه بأمره، فيقال: يا عبد الله أعقب، فيقوم ويتقدم آخر حتى يأتي على أصحاب الحوائج كلهم، وربما قدم عليه من أصحاب الحوائج أربعون أو نحوهم على قدر الغداء، ثم يرفع الغداء، وينصرف الناس، ويدخل منزله، فلا يطمع فيه طامع حتى ينادى بالظهر، فيخرج فيصليَ[1] ثم يجلس فيأذن لخاصة الخاصة، فإن كان الوقت شتاء أتاهم بزاد الحاج، من الأخبصة اليابسة والخشكبالج[2]، والأقراص المعجونة بالسكر واللّين من دقيق السميد، والكعك المسمن والفواكه اليابسة وإن كان الصيف أتاهم بالفواكه الرطبة ويدخل عليه وزراءه فيؤامرونه فيما احتاجوا إليه بقية يومهم، ويجلس إلى العصر، ثم يخرج فيصلي العصر ثم يدخل منزله، فلا يطمع فيه طامع حتى إذا كان في آخر وقت العصر، خرج فجلس على سريره، ويؤذن للناس على منازلهم، فيؤتى بالعشاء فيفرغ منها مقدار ما ينادي بالمغرب فيصليها، ثم يصلي أربع ركعات، يقرأ في كل ركعة خمسين آية، يجهر تارة ويخافت أخرى. ثم يدخل منزله فلا يطمع فيه طامع حتى ينادي بالعشاء الآخرة، فيخرج فيصلي ثم يؤذن للخاصة، وخاصة الخاصة، والوزراء والحاشية، فيؤامره الوزراء فيما أرادوا صدراً من ليلتهم، ويسمر ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها، والعجم وملوكها وسياساتها وسير الأمم وحروبها، ومكائدها وسياساتها لرعيتها، وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة، ثم تأتيه الطرف الغريبة من عند نسائه: من الحلواء وغيرها من المآكل اللطيفة، ثم يدخل فينام ثلث الليل، ثم

(1) الشهب اللامعة في السياسة النافعة، ص: 309. (2) الخشكبالج: نوع من الحلوى.

يقوم: فيحضر الدفاتر، فيها سير الملوك وأخبارها، والحروب والمكائد فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون، وقد وكّلوا بحفظها وقراءتها، فيمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار، فيخرج ثم يصلي الصبح، ثم يعود فيفعل ما وصفنا كل يوم وليلة وفد تبعه في ذلك، عبد الملك بن مروان وغيره، فلم يدركوا حلمه، ولا إتقانه السياسة ولا التأني للأمور ولا مدارات الناس على منازلهم، ورفقه بهم على طبقاتهم[1].

2 - الدواوين المركزية التابعة لمعاوية:

أ ـ ديوان الرسائل: هو الهيئة المشرفة على تحرير رسائل الخليفة وأوامره وعهوده، ووصاياه، ومواثيقه إلى موظفيه في الأقاليم الإسلامية إلى البلدان الخارجية التي لها علاقة بالدولة الإسلامية[2]ومن أشهر من أشرف على ديوان الرسائل وقام بمهمة الكتابة في هذا الديوان في عهد معاوية عبد الله بن أوس الغساني، وزمل بن عمرو العذري، واستمر هذان الكاتبان في خلافة يزيد الأول[3]، وكانت وسيلة الرسائل في الاتصال بالولاة وقادة الجند، والقضاة، وزعماء القبائل تابعة لمعاوية وتحت إشرافه المباشر.

ب ـ ديوان الخاتم: أنشأ معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ديوان الخاتم لتحقيق السرية والأمان لمراسلات الدولة فلا تطلع عليها عين جاسوس ولا تصل إليها يد خائن[4]، وكان من أغراض هذا الديوان تحاشي التزوير، ومنع حدوث التلاعب في الكتب التي يصدرها الخليفة، ثم أصبح الديوان بمثابة سجل للكتب الصادرة، وصارت الدولة تعتمد عليه في تدقيق الأوامر والمراسلات التي تتعلق بالصرف والحسابات بين مقر الخلافة والأقاليم الإسلامية الأخرى[5]، كما أنه كان يقوم بالإشراف على تدقيق الدواوين الأخرى، وبيان الأخطاء التي تقع فيها، وهذا الديوان يختلف عن ختم الرسول ﷺ، وختم الخلفاء الراشدين، فختم الرسول ﷺ يعني التوقيع بالختم، بينما نراه في عهد معاوية، وعصر الدولة الأموية ـ بمثابة ـ جهاز للفحص والتدقيق في الأعمال الصادرة عن الدواوين الأخرى، وقد تقلد الخاتم الكبير لمعاوية: عبد الله بن محصن الحميري، وكان سبب ذلك أن معاوية أمر لعمرو بن الزبير في معونته وقضاء دينه بمائة ألف درهم، وكتب بذلك إلى زياد بن أبيه وهو على العراق، ففض عمرو الكتاب وصير المائة مائتين، فلما رفع زياد حسابه أنكرها معاوية، فأخذ عمراً بردها

---

(1) الشهب اللامعة، ص: 310، 311، مروج الذهب (3/ 220، 222).

(2) إدارة بلاد الشام في العهدين الراشدي والأموي، ص: 124.

(3) المصدر نفسه، ص: 156.

(4) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 433.

(5) إدارة بلاد الشام في العهدين الراشدي والأموي، ص: 170.

وحبسه، فأدّاها عنه أخوه عبد الله بن الزبير، فأحدث معاوية عند ذلك ديوان الخاتم وخزم الكتب[1]، ولم تكن تخزم[2]، وفي الحقيقة فإن تأسيس ديوان الخاتم أملته ظروف اتساع الدولة الإسلامية في عهد معاوية رضي الله عنه، وحاجة الخليفة إلى نظام اتصال آمن وسري لمتابعة عماله وقواده ورجال دولته[3].

ج ـ ديوان البريد: يذكر المؤرخون: أن معاوية بن أبي سفيان أول من أدخل نظام البريد في الدولة الإسلامية، وأصدر أوامره بوضع الخيول في عدة أماكن، وقام بتنظيمه[4]، وتشير بعض المصادر إلى أنه اقتبس من الروم[5]، وكانت أعماله في العصر الأموي واسعة ومتشعبة، نظراً لسعة رقعة الدولة الإسلامية، وقد قام الخلفاء الأمويون بتحسين طرق المواصلات التي سير عليها صاحب البريد، وكانت تلك الطرق واضحة ومعلومة، والدليل على تحسين هذه الطرق هو سرعة وصول الأخبار إلى مقر الخلافة بالشام[6]، ولم تكن خدمات البريد قاصرة على ما يتعلق بالدولة، بل كان في بعض الأوقات يحمل رسائل الناس من بلد إلى آخر[7]، وكانت الدولة في عهد معاوية لا تستغني عن البريد في حالات السلم، وحالات الحرب، وكان موظف البريد من أهم أعوان الخليفة، وقد ذكرت بعض المصادر أسماء بعض من اشتغل مع معاوية في ديوان البريد وهما: نصر بن ذبيان، والكميت، كانا على البريد في أيام معاوية واستخدمهما في نقل الأخبار بين الشام والحجاز[8]، وكانت أهم وسائل النقل: البغال[9]، والخيل[10]، ويعتبر معاوية مؤسس نظام البريد في الإسلام، حيث كانت الرسائل ترسل قبل ذلك من قبل الخليفة إلى الجهة التي يراد إرسالها إليها، عن طريق رسول يحملها وينطلق بها وحده، حتى يوصلها إلى الجهة المقصودة، فكانت بذلك الرسائل تستغرق مدة طويلة حتى تصل إلى محلها، وأمّا نظام البريد الذي استخدمه معاوية اقتباساً من البيزنطيين فقد كان يقتضي أن تقسم الطرق إلى مسافات، يوضع في نهاية كل مسافة دواب (خيل) مهيأة لحمل رسائل الخليفة إلى الجهات المختلفة، تسلم الكتب والرسائل إلى صاحب البريد، وينطلق بها مسرعاً

---

(1) تطوى ويلصق طرفها بالشمع والطين الأحمر ثم يوضع خاتم الخلافة.

(2) الإدارة في العصر الأموي، ص: 287، مرويات خلافة معاوية، ص: 75.

(3) مرويات خلافة معاوية، ص: 76.

(4) إدارة بلاد الشام في العهدين الراشدي والأموي، ص: 174.

(5) المصدر نفسه، ص: 174.

(6) المصدر نفسه، ص: 175.

(7) المصدر نفسه، ص: 175.

(8) المصدر نفسه، ص: 176.

(9) المصدر نفسه، ص: 176.

(10) العيون والحدائق (3/ 82)، إدارة بلاد الشام في العهدين، ص: 176.

حتى إذا بلغ نهاية المسافة سلمها لمن بعده، وتظل الرسالة تنطلق من مسافة إلى مسافة حتى تصل إلى الجهات المرسلة إليها في أقصر مدة، وأما مقدار المسافة الواحدة، فكان أربعة فراسخ، والفرسخ ثلاثة أميال، وبذلك يكون طول المسافة اثني عشر ميلاً، أي عشرين كيلو متراً تقريباً، وهذه المسافة تسمى بريداً، وبهذه الطريقة تصل الرسالة بأكبر سرعة، دون إجهاد لصاحب البريد، حيث أن المسافة يمكن قطعها بسهولة، وتناوب أصحاب البريد إذا كان سيقطع المسافة وحده، وهكذا يوفر هذا النظام الراحة لأصحاب البريد واختصار الوقت[1]، يقول أبو هلال العسكري: أول من وضع البريد في توصيلها يوفر الزمن الذي يستريحه صاحب البريد في الإسلام معاوية بن أبي سفيان، وأحكم أمره عبد الملك[2].

س ـ نظام الكتبة: كان هناك كاتب لديوان الرسائل، وآخر لديوان الخراج، وثالث لديوان الجند، ورابع لديوان الشرطة وخامس لديوان القضاء، وكان في عهد الأمويين أكبر دواوين الدولة، ويقوم الموظفون فيه بنسخ أوامر الخليفة، وإيداعها ديوان الخاتم، بعد أن تحزم وتختم بالشمع، ثم تختم بخاتم صاحب الديوان[3]، وظل ديوان الخاتم من أكبر دواوين الدولة، منذ أنشأه معاوية وحتى أواسط العهد العباسي[4]، وكانت هذه الدواوين تقوم بأعمال وزارة المالية(ديوان الخراج) ووزارة الدفاع (ديوان الجند) ووزارة الداخلية (ديوان الشرطة) ووزارة العدل (ديوان القضاء) كما كان ديوان الرسائل يقوم بأعمال السكرتيرية، وديوان الخاتم يقوم بأعمال السجلات والأرشيف وكان لكل ديوان موظفوه من الكتبة المتخصصين، وكان ديوان الخراج يكتب في العراق باللغة الفارسية، وفي الشام ومصر باللغة الرومية وظل كذلك حتى عرّبه عبد الملك بن مروان[5].

ثانياً: حرصه على توطين الأمن في خلافته:

ومن القواعد التي بنى عليها معاوية سياسته الداخلية توطيد الأمن في ربوع العالم الإسلامي وقد اتخذ معاوية عدة وسائل لتحقيق هذا الهدف.

1 - الحاجب: كان معاوية بن أبي سفيان أول من اتخذ الحاجب في الإسلام، لكي يتجنب محاولات الاعتداء عليه[6]، وكان بعض المظاهر الملكية له ما يبرره في هذه الحقبة التاريخية. فقد عبر ابن خلدون على احتجاب الخلفاء عن الناس على النحو التالي: كان أول شيء بدأ به في الدولة شأن الباب وستره دون الجمهور، لما كان يخشون على أنفسهم من

(1) الأمويون بين الشرق والغرب (1/ 100).
(2) الأوائل، ص: 237.
(3) تاريخ الإسلام (1/ 458).
(4) المصدر نفسه (1/ 459).
(5) الأمويون بين الشرق والغرب (1/ 102).
(6) إدارة بلاد الشام في العهدين الراشدي والأموي، ص: 102.

اغتيال الخوارج وغيرهم كما وقع بعمر وعلي ومعاوية وعمرو بن العاص وغيرهم، مع ما في فتحه من ازدحام الناس عليهم وشغلهم بهم عن المهمات، فاتخذوا من يقوم لهم بذلك وسموه الحاجب[1]، ومما يعزز آراء ابن خلدون عن وجود العامل الأمني وراء اتخاذ معاوية من محاولة اغتياله التي دبرها الخوارج: أمر عند ذلك بالمقصورات وحرس الليل، وقيام الشرطة على رأسه إذا سجد[2]، وقد كان معاوية وبنو أمية يعيشون في الشام قريباً من أعدائهم الموتورين من الروم، فضلاً عن أعدائهم الموتورين من الشيعة والخوارج المتفرقين في البلاد، وكانوا يرون لابد لهم لاستقرار الدولة الإسلامية التي قتل ثلاثة من خلفائها من اتخاذ نمط من أنماط الحراسة والاحتراز[3]، وقد ذكر المؤرخون أسماء أربعة من مواليه شغلوا له وظيفة الحاجب، وهم سعد، وأبو أيوب، وصفوان[4]، وكان يشترط في الحاجب أن يعرف منازل الناس وأنسابهم وطبقاتهم، لكي يتمكن أن يعرف من يأذن لهم، ومن لا يأذن لهم، فقد رويت أخبار كثيرة تؤكد ذلك، فمعاوية بن أبي سفيان قال لحصين بن المنذر، وكان يدخل عليه في أخريات الناس:

يا أبا ساسان كأنه لا يحسن أذنك؟ فأنشأ يقول:

وكل خفيف الساق يسعى مشمراً إذا فتح البواب بابك أصبعا
ونحن الجلوس الماكثون رزانة وحلما إلى أن يفتح الباب أجمعا[5]

وعندما دخل شريك الحارثي على معاوية قال له: من أنت؟ فقال: يا أمير المؤمنين مارأيت لك هفوة قبل هذه، مثلك ينكر مثلي من رعيته، فقال له معاوية: إن معرفتك متفرقة أعرف وجهك إذا حضرت الوجوه، وأعرف اسمك في الأسماء إذا ذكرت، ولا أعلم أن ذلك الاسم هو هذا الوجه ما ذكر لي اسمك تجتمع معرفتك[6]. فالحاجب يخبر الخليفة والخليفة هو الذي يأذن أو لا يأذن. وذات يوم وقف الأحنف بن قيس، ومحمد بن الأشعث بباب معاوية الأول، فإذن للأحنف، ثم أذن لابن الأشعث، فأسرع في مشيته حتى تقدم الأحنف ودخل قبله، فلما رآه معاوية غمه ذلك وأحنقه فالتفت إليه فقال: والله إني ما أذنت له قبلك وأنا أريد أن تدخل قبله، وإنا كما نلي أموركم كذلك نلي آدابكم ولا يزيد متزيد في خطوة إلا لنقص يجده في نفسه[7].

---

(1) تاريخ ابن خلدون (2/ 49 - 150).
(2) تاريخ الطبري (6/ 65).
(3) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 271.
(4) إدارة بلاد الشام في العهدين، ص: 103، البداية والنهاية (11/ 465).
(5) البيان والتبيين (2/ 90) إدارة بلادة الشام، ص: 107.
(6) عيون الأخبار (1/ 90).
(7) العقد الفريد (1/ 68) إدارة بلاد الشام، ص: 108.

2 - الحرس: كان معاوية بن أبي سفيان أول من اتخذ الحرس في الدولة الإسلامية، خوفاً من الخوارج الذين كانوا يريدون قتله، فقد أمر بالمقصورات في الجوامع وكان لا يدخلها إلا ثقاة وحراسه[1]، وكما يبدو أن معاوية لم يكتف باتخاذ الحرس، بل اتخذ المقاصير زيادة في التشدد وذلك لحماية نفسه من أي اعتداء قد يقع عليه[2] وقد ذكرت كتب التاريخ أسماء رؤساء الحرس في عهد معاوية وهم: المحتار: أبو المخارق[3]، ويزيد بن الحارث العبسي[4].

3 - الشرطة: وظيفتها المحافظة على الأمن والنظام، والقبض على اللصوص والجناة والمفسدين، والدفاع عن الخليفة، وهي غير مسؤولة عن صد أي هجوم خارجي عن الدولة[5]، وقد قام معاوية بتنظيمها وتطويرها في الشام وقد ذكر المؤرخون أربعة أسماء من الذين عينهم على رئاسة الشرطة وهم: قيس بن حمزة الهمذاني، زمل بن عمرو العذري، الضحاك بن قيس الفهري ويزيد بن الحر العنسي[6]. والشرطة لا يقتصر وجودها على عاصمة الخلافة فقط بل في الولايات الإسلامية الأخرى وهم يتبعون الولاة فهم الذين يختارونهم ويعينونهم وكان وجودها مهم للدولة والمجتمع، فالدولة تعتمد عليها في قمع المتمردين، وفي القضاء على الثورات والاضطرابات، وربما كانت تحل محل الجند في حالة عنايتهم واشتراكهم في الغزوات، وهي للمجتمع، لأنها تعمل على تحقيق الأمن والاستقرار، فهي الجهة الوحيدة المسؤولة عن حماية أرواح الناس، وحفظ حقوقهم وأموالهم من اعتداء بعضهم على بعض، وقد كلف الخلفاء الأمويون رؤساء الشرطة بأعمال شتى خارج بلاد الشام وداخلها: فالضحاك بن قيس كلفه معاوية بإبلاغ وصيته لابنه يزيد، وأخذ البيعة له[7].

4 - حسن اختيار الرجال والأعوان: فقد وفق معاوية رضي الله عنه في اختيار أعوانه من الرجال الموثوق بولايتهم وخبرتهم الإدارية، مع حكمتهم ودهائهم. ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر: عمرو بن العاص السهمي، والمغيرة بن شعبة الثقفي، وزياد بن أبيه الثقفي، ويزيد بن الحر العبسي، والضحاك بن قيس الفهري، وعبد الله بن عامر بن كريز، وغيرهم من القادة المقاتلين أمثال المهلب بن أبي صفرة، وعقبة بن نافع الفهري، ومالك بن هبيرة، وجنادة بن أمية الأزدي وآخرين، وكان عمرو بن العاص يقول: أنا للبديهة، ومعاوية للأناة، والمغيرة

---

(1) إدارة بلاد الشام في العهدين، ص: 111.
(2) المصدر نفسه، ص: 111.
(3) البداية والنهاية (11/ 465).
(4) إدارة بلاد الشام في العهدين، ص: 117، العقد الفريد (4/ 362).
(5) المصدر نفسه، ص: 115.
(6) المصدر نفسه، ص: 117.
(7) المصدر نفسه، ص: 123، الأخبار الطوال، ص: 205، 206.

للمعضلات، وزياد لصغار الأمور وكبارها[1]. وقد ساهم هؤلاء في إدارة الدولة وفتوحها والتصدي لأعدائها، فكان لهم دور كبير ومتميز في ترسيخ وتوطين وتثبيت الأمن ودعائم الخلافة الأموية[2].

5 - استخدام المال في تأكيد ولاء الأعوان وتأليف القلوب: فقد اعتبر معاوية من أجواد العرب لأنه استمال القلوب بالبذل والعطاء وجاد بالمال مع المداراة وكان إذا بلغه عن رجل ما يكره أسكته بالمال[3].

6 - اتباع سياسة الشدة واللين: في الوقت نفسه حسب الظروف والأحوال: وظهرت هذه السياسة بشكل واضح بعد توطيد دعائم الخلافة الأموية، وكتب معاوية إلى زياد بن أبيه في ذلك وقال: إنه لا يصلح أن أسوس وتسوس الناس بسياسة واحدة إنا إن نشتد جميعاً نهلك الناس ونحرجهم، وإن نلن جميعاً نبطرهم، ولكن تلين وأشتد وتشتد وألين[4]، ويمثل هذه السياسة وما نسب إلى معاوية ﷺ من أقوال مثل: لا أضع سوطي حيث يكفيني لساني، ولا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، فإذا لم أجد من السيف بداً ركبته، أي استعملته[5]، وقوله المشهور: لو كان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت، إن جبذوها أرسلتها، وإن خلوها جبذتها[6].

7 - اتباع سياسة المنفعة المتبادلة بين بني أمية ورعيتهم: لم يستطع معاوية ﷺ اتباع سياسة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ الراشدة، ولا شك في أن كثرة الأموال بعد اتساع الدولة الإسلامية جعلت كثيراً من المسلمين يتطلعون إلى التمتع بالخيرات التي أخذت تتدفق عليهم وقد أعرب معاوية عن ذلك بشكل واضح وقال للمسلمين: . . غير أني سلكت طريقاً لي فيه منفعة، ولكم فيه مثل ذلك، ولكل فيه مؤاكلة حسنة ومشاربة جميلة ما استقامت السيرة، وحسنت الطاعة، فإن لم تجدوني خيركم فأنا خير لكم[7].

8 - اتخاذ سياسة إعلامية للإشادة به وبخلافته وجعل الناس يميلون إليهم: وكان معاوية بن أبي سفيان يقول: أحب الناس إلي أشدهم تحبيباً لي إلى الناس[8]، وأتبعه بعد ذلك الخلفاء الأمويون باستمالة عشرات الشعراء وأغدقوا عليهم الأموال، فأشادوا بهم وبحقهم في الخلافة وصلاحهم لها ووجوب طاعتهم ونصرتهم نظراً لأن الشعر كان أهم وسيلة إعلامية في ذلك العصر[9]، ومن الأشعار التي قيلت في هذا الاتجاه ما قاله الأخطل:

---

(1) أنساب الأشراف (4/ 1/ 131).
(2) الجذور التاريخية للأسرة الأموية، ص: 100.
(3) المصدر نفسه، ص: 100.
(4) أنساب الأشراف (4/ 1/ 84).
(5) الجذور التاريخية للأسرة الأموية، ص: 101.
(6) أنساب الأشراف (4/ 1/ 21)
(7) سير أعلام النبلاء (3/ 148).
(8) الجذور التاريخية للأسرة الأموية، ص: 102.
(9) المصدر نفسه، ص: 102، تاريخ الطبري (6/ 255).

تَـمَّـت جـدودهـم والله فـضـلـهـم ... وجـدُّ قـوم سـواهـم خـامـل نـكـد
وأنـتـم أهـل بـيـت لا يُـوازنُـهـم ... بيت إذا عُـدّتِ الأحساب والعدد[1]

وقد اهتمّ معاوية بفن الدعاية والإعلام، وأوكله إلى عدد من الرجال يهمهم أمره ويؤيدونه، فكان يكثر أعطيات الشعراء وكذلك شيوخ القبائل، لكسبهم في صفه، ويعطي مجالاً واسعاً لولاته لكي يحققوا بعض المكاسب السياسية والإعلامية والأمنية، فقد كتب زياد والي البصرة في عهد معاوية خمسمائة من مشايخها، وأعيانها في صحابته، ورزقهم ما بين الثلاثمائة إلى الخمسمائة[2]، فقال فيه حارثة بن بدر الغُداني:

ألا مـن مـبـلـغ عـنـي زيـاداً ... فـنـعـم أخـو الـخـلـيـفـة والأمـيـر
فـأنـت إمـام مـعـدلـةٍ وقـصـد ... وحـزم حـيـن تـحـضـرك الأمـور
أخـوك خـلـيـفـة الله بـن حـرب ... وأنـت وزيـره نـعـم الـوزيـر[3]

وكان معاوية رضي الله عنه يحرص على امتصاص غضب الشعراء بحلمه وعفوه، فعندما هجا يزيد ابن مفرِّغ الحميري بني زياد، عندها كان مع عباد بن زياد بسجستان، فاشتغل عنه بحرب الترك، فاستبطأه، فأصاب الجند مع عباد ضيق في أعلاف دوابهم فقال ابن مفرغ:

ألا لـيـت الـلـحـى عـادت حـشـيـشـاً ... فـنـعـلـفـهـا خـيـول الـمـسـلـمـيـن

وكان عبّاد بن زياد عظيم اللحية، فأنهِيَ شعره إلى عبّاد وقيل: ما أراد غيرك، فطلبه عباد، فهرب منه، وهجاه بقصائد كثيرة، فكان مما هجاه به قوله:

إذا أودى مـعـاويـة بـن حـرب ... فـبـشِّـر شـعْـبَ قـعـبـك بـانـصـداع
فـأشـهـد أن أمـك لـم تـبـاشـر ... أبـا سـفـيـان واضـعـة الـقـنـاع
ولـكـن أمـراً فـيـه لـبـس ... عـلـى وجـل شـديـد وارتـيـاعِ

وقوله:

ألا أبـلـغ مـعـاويـة بـن حـرب ... مـغـلـغـلـة مـن الـرجـل الـيـمـانـي
أتـغـضـب أن يـقـال أبـوك عَـفٌّ ... وتـرضـى أن يـقـال أبـوك زان
فـاشـهـد أن رحـمـك مـن زيـاد ... كـرحـم الـفـيـل مـن ولـد الأتـان[4]

ولما هجا ابن المفرِّغ عبَّاداً فارقه مقبلاً إلى البصرة، وعبيد الله يومئذ وافد على معاوية،

---

(1) التطور والتجديد في الشعر الأموي، شوقي ضيف، ص: 134.
(2) تاريخ الطبري (6/ 139).
(3) المصدر نفسه (6/ 139).
(4) تاريخ الطبري (6/ 236).

فكتب عباد إلى عبيد الله ببعض ما هجاه به، فلما قرأ عبيد الله الشعر دخل على معاوية، فأنشده إياه، واستأذنه في قتل ابن مفرغ، فأبى عليه أن يقتله، وقال: أدِّبه ولا تبلغ به القتل[1]. . . ووقع ابن مفرِّغ بين يدي عبيد الله. . فأمر به فسقي دواء، ثم حمل على حمار عليه إكاف فجعل يطاف به وهو يسلح في ثيابه[2].

وقال ابن مفرِّغ لعبيد الله:

يُغسِل الماء ما صنعت وقولي   راسخ منك في العظام البوالي

ثم حمله عبيد الله إلى عباد بسجستان، فكلمت اليمانية فيه بالشام معاوية، فأرسل رسولاً إلى عباد، فحمل ابن مفرغ من عنده حتى قدم على معاوية فقال في طريقه:

عَدَس ما لعبّاد عليك إمارة   نجوتِ وهذا تحملين طليق

لعمري لقد نجاك من هوّة الرّدى   إمام وحبل للأنام وَثِيق

سأشكر ما أوتيت من حسن نعمة   ومثلي بشكر المنعمين حقيق

فلما دخل على معاوية بكى، وقال: ركب مني ما لم يركب من مسلم على غير حدث ولا جريرة. . . وبعد حوار مع معاوية قال له معاوية: اذهب فقد عفونا لك عن جرمك، أما لو إيانا تعامل لم يكن مما كان شيء، فانطلق وفي أي أرض شئت فانزل. فأنزل الموصل، ثم إنه ارتاح إلى البصرة، فقدمها، ودخل على عبيد الله فآمنه[3]. فقد كان معاوية رضي الله عنه يحرص على كسب الشعراء لصفه، والتحبب إليهم وإكرامهم وعدم محاولة الإساءة إليهم، فقد كانوا أقرب الشبه بالفضائيات في الوقت الحاضر.

9 - **جهاز المخابرات**: كانت الأجهزة الأمنية الداخلية والخارجية في عهد معاوية قوية جداً، وكانت قدرتها على جمع المعلومات فائقة، وكان معاوية رضي الله عنه يشرف على جهاز المخابرات بنفسه وكان له جهاز سري مربوط به لمراقبة الولاة والرعية، فلم يكن في قطر من الأقطار ولا ناحية من النواحي عامل أو أمير جيش إلا وعليه عين لا يفارقه، بل وصلت عيونه حتى في البلاط البيزنطي وإليك ما يدل على ذلك:

أ ـ اطلاعه على المراسلات التي بين الحسين وأهل العراق: لما توفي الحسن بن علي اجتمعت الشيعة في دار سليمان بن صرد وكتبوا إلى الحسين كتاباً بالتعزية في وفاة الحسن: وقالوا في كتابهم: إن الله قد جعل فيك أعظم الخلق ممن مضى ونحن شيعتك المصابة بمصيبتك، المحزونة بحزنك، والمسرورة بسرورك، المنتظرة لأمرك، فرد الحسين على

---

(1) تاريخ الطبري (6/ 236).
(2) المصدر نفسه (6/ 236).
(3) المصدر نفسه، (6/ 238).

كتابهم: إني لأرجو أن يكون رأي أخي في الموادعة، ورأي في جهاد الظلمة رشداً أو سداداً، فالصقوا بالأرض وأخفوا الشخص، اكتموا الهوى، واحترسوا في الإضناء ما دام ابن هند حياً، فإن يحدث به حدث وأنا حي يأتكم رأيي إن شاء الله[1]، ولقد أشارت تلك الرسائل المتبادلة بين الحسين وأهل الكوفة مخاوف بني أمية في المدينة، فكتبوا إلى معاوية يستشيرونه بشأن الحسين: فكتب إليهم بأن لا يتعرضوا له مطلقاً[2]، وكان معاوية على معرفة بتلك الرسائل والعلاقات الوثيقة التي تربط بين الحسين وبين الكوفيين، ولهذا فقد طلب معاوية من الحسين: أن يتق الله عَزَّوَجَلَّ وأن لا يشق عصا المسلمين ويذكره بالله في أمر المسلمين[3]، ولقد كان موقف الحسين واضحاً وإعلانه صراحة بقوله: إنا قد بايعنا وعاهدنا، ولا سبيل إلى نقض بيعتنا[4]، وظل الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ملتزماً ببيعته وطاعته طوال عهد معاوية[5] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ب ـ قصة معاوية مع المسور بن مخرّمة فقد صارح معاوية المسور وقال له: يا مسور ما فعل طعنك على الأئمة[6]، ففيه، معرفة معاوية لما يقول كبار الشخصيات في المجتمع الإسلامي فيه.

جـ ـ قصة الأسير المسلم عند البيزنطيين، الذي لطم وجهه بين يدي ملك الروم وقول الأسير: وا إسلاماه أين أنت يا معاوية، فوصل ذلك الخبر إلى معاوية[7]، هذه بعض الشواهد التي تدل على قوة جهاز المخابرات التابع للدولة الأموية.

س ـ وضع بعض أتباع علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالكوفة تحت المراقبة: لم يدخل زياد في طاعة معاوية بسهولة وامتنع في بداية أمره على طاعته وتحصن ببلاد فارس، واستطاع معاوية بعد أخذ ورد، إقناع زياد في دخوله طاعته وسيأتي تفصيل ذلك بإذن الله، وسأل زياد معاوية أن يسمح له في نزول الكوفة، فأذن له، فشخص إلى الكوفة، فكان المغيرة يكرمه ويعظمه، فكتب معاوية إلى المغيرة: خذ زياداً وسليمان بن صرد، وحجر بن عدي، وشَبَت بن ربعي، وابن الكواء، وعمر ابن الحمق بالصلاة في الجماعة، فكانوا يحضرون معه في الصلاة[8]، فقد كان هذا إجراءً احتياطياً من معاوية حتى يكون هؤلاء القوم تحت ناظري والي الكوفة باستمرار، وذلك أن

---

(1) أنساب الأشراف (3/ 152) مواقف المعارضة، ص: 179.
(2) 1المصدر نفسه(3/ 152) المصدر نفسه، ص: 179.
(3) المصدر نفسه(3/ 152) المصدر نفسه، ص: 180.
(4) الأخبار الطوال، ص: 220.
(5) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص: 469.
(6) سير أعلام النبلاء (3/ 151) إسنادها صحيح.
(7) الشهب اللامعة في السياسة النافعة، ص: 489.
(8) الكامل في التاريخ (2/ 458).

صلح الحسن ومعاوية يوجد له معارضون، ولا يستبعد التفافهم حول بعض رجالات علي رضي الله عنه حسماً منه لمادة الفتنة[1].

10 ـ الاهتمام ببناء الجيش الإسلامي: كان لمعاوية بعد نظر سياسي تمثل في بناء جيش قوي منذ أن كان والياً على الشام، وتمحور دور هذا الجيش في استتباب الأمن داخل الولاية ومن ثم القيام بعمليات توسع خارجية قبل وبعد نيله الخلافة[2]. تمثلت في حركة الفتوحات في عصره، وهذا سيأتي تفصيلها في محله بإذن الله تعالى.

11 - سياسة الموازنات: على الرغم من نفوذ الكلبيين في الدولة الأموية، فإن المعادلة لم تكن قائمة على التحالف الأموي ـ الكلبي، ولكنها اتخذت في عهد معاوية رضي الله عنه منحىً توازنياً ما بين كلب وفهر بصورة خاصة، وقحطان وقيس بصورة عامة، فإذا كان الكلبيون قد حملوا عبء الدفاع المسلح عن الدولة، مؤثرين الإقامة في جنوب الشام (جند الأردن)، فإن الفهريين كان لهم الدور السياسي والإداري البارز فضلاً عن الدور العسكري، حيث شارك زعيمهم الضحاك بن قيس في صفين، وكان بالإضافة إلى ذلك في طليعة الذين اعتمد عليهم معاوية في حضِّ الناس على البيعة ليزيد[3]، وقد ارتفع الضحاك في السياسة الأموية، وفي أعقاب الدور الأمني الذي شغله في عهد معاوية كقائد على شرطته[4]، والدور السياسي في عهد يزيد، كعامل له على دمشق، مما هيأه من خلال هذا الموقع الهام، لدور أكثر خطورة بعد وفاة معاوية الثاني الذي أوصى بأن: يصلي الضحاك بالناس بدمشق[5]، وهكذا نجح مؤسس الدولة الأموية في الإمساك بزمام الأمور من خلال الموازنة بين القبائل الشامية الكبرى، دون أن يدع لأي منها مجالاً بأن تتجاوز حدودها المرسومة لها في الدولة، بما في ذلك القبيلة الكلبية الأثيرة. وقد اتسعت دائرة هذه السياسة، لتصبح ظاهرة من ظواهر عهد معاوية رضي الله عنه، حيث نجح معاوية في تحقيق التوازن المنشود داخل قريش (المهاجرة، وغير المهاجرة) فضلاً عن التوازن داخل الأسرة الأموية (بنو حرب ، وبنو العاص) واحتواء الثقفيين بعد منحهم إدارة العراق الذي ارتبط تاريخه أو كاد بهذه الأسرة، إلى آخر هذه التوازنات المتقنة التي ضبطها معاوية رضي الله عنه [6].

---

(1) مرويات خلافة معاوية، ص: 175.
(2) الدولة الأموية، د. فرست مرعي الدهوكي، ص: 64.
(3) الطبقات (6/ 22).
(4) مؤتمر الجابية، إبراهيم بيضون، جمهرة النسب، ابن الكلبي (1/ 471).
(5) الطبقات (6/ 39) مؤتمر الجابية، ص: 35.
(6) مؤتمر الجابية، ص: 36.

12 - سياسته مع الأسرة الأموية: لم يأت معاوية ﷺ للخلافة بدعم مادي أو معنوي من الأسرة الأموية، وإنما أتاه من جبهة شامية قبلية متماسكة وقفت وراءه، لذلك لم يكن لهذه الأسرة دور بارز في إدارة الدولة في عهده من الناحية الإدارية أو من الناحية العسكرية، نلاحظ ذلك من خلال استعراض أسماء ولاة وقادة معاوية الذين استعان بهم[1]، إلا أن معاوية لم يجاف أسرته جفاءً تاماً، بل استعان بأفراد منها واضعاً نصب عينيه هدفين:

أ - الاستعانة بالأكفاء منهم.

ب - الحيلولة دون ازدياد سلطانهم ونفوذهم بشكل يهدد مخططاته السياسية[2]، وقد استطاع معاوية تحقيق وحدة الصف الأموي بما كان يملك من صفات ومؤهلات قيادية فذة[3].

هذه هي أهم الوسائل التي اتخذها معاوية لتوطيد الأمن في دولته ﷺ .

المبحث الثالث

حياة معاوية في المجتمع واهتماماته العلمية

أولاً: حياة معاوية في المجتمع:

1 - بين معاوية وعمرو بن العاص ﷺ :

قال عمرو بن العاص لمعاوية: يا أمير المؤمنين ألست أنصح الناس لك؟ قال: بذلك نلتَ ما نلت[4].

2 - مشاجرة في مجلس معاوية:

عن جويرية بن أسماء، أن بسر بن أبي أرطاة نال من علي عند معاوية وزيد بن عمر بن الخطاب جالس، فعلاه بعصا فشجه، فقال معاوية لزيد: عمدت إلى شيخ من قريش سيد أهل الشام فضربته، وأقبل على بسر فقال: تشتم علياً وهو جده وابن الفاروق على رؤوس الناس، أو كنت ترى أنه يصبر على ذلك، ثم أرضاهما جميعاً[5].

3 - أنا أحق بهذا منك:

قال معاوية: ما من شيء أحب إلي من عين خرارة في أرض خوّارة، فقال عمرو بن

---

(1) سيأتي الحديث عن أسمائهم بإذن الله عند التحدث عن الولاة.
(2) الدولة الأموية، فرست مرعي، ص: 179.
(3) المصدر نفسه، ص: 180.
(4) تاريخ الطبري (6/ 253).
(5) المصدر نفسه (6/ 253).

العاص: ما من شيء أحب إلي من أن أبيت عروساً بعقيلة من عقائل العرب، فقال وردان مولى عمرو بن العاص: ما من شيء أحب إليّ من الإفضال على الأخوان فقال معاوية: أنا أحق بهذا منك، قال: ما تحب فافعل[1].

4 - نعى إليّ نفسي:

كان عامل معاوية على المدينة إذا أراد أن يبرد بريداً إلى معاوية أمر مناديه فنادى: من له حاجة يكتب إلى أمير المؤمنين، فكتب زِرّ بن حبيش ـ أو أيمن بن خُريَم ـ كتاباً لطيفاً ورمى به إلى الكتب وفيه:

إذا الـــرجـــال ولـــدت أولادهـــا   واضـطـربـت مـن كـبـر أعـضـادُهـا
وجـعـلـت أسـقـامـهـا تـعـتـادهـا   فـهـي زروع قـد دنـا حـصـادهـا

فلما وردت الكتب عليه فقرأ هذا الكتاب، قال: نعى إلي نفسي[2].

5 - نصيحة معاوية لشاعر من بني أمية:

قال معاوية ﷺ، لعبد الرحمٰن بن الحكم بن أبي العاص: يا ابن أخي، إنك قد لهجت بالشعر، فإياك والتشبيب بالنساء فتعُرّ الشريفة[3]، والهجاء فتعر كريماً، وتستثير لئيماً، والمدح، فإنه طعمة الوقّاح، ولكن افخر بمفاخر قومك، وقل من الأمثال ما تزين به نفسك، وتؤدب به غيرك[4].

6 - لا تقل داري في البصرة، ولكن قل: البصرة في داري:

ذكر أن رجلاً سأل معاوية أن يساعده في بناء دار باثني عشر ألف جذع من الخشب. فقال له معاوية: أين دارك؟ قال: بالبصرة. قال: وكم اتساعها؟ قال: فرسخان في فرسخين، قال: لا تقل داري بالبصرة، ولكن قل: البصرة في داري[5].

7 - علمت أن أكله سيُورِثه داءً:

ذكر أن رجلاً دخل بابن معه، فجلسا على سماط معاوية فجعل ولده يأكل أكلاً ذريعاً، فجعل معاوية يلاحظه، وجعل أبوه يريد أن ينهاه عن ذلك فلا يفطن، فلما خرجا لامه أبوه وقطعه عن الدُّخول، فقال له معاوية: أين ابنك التِّلقامة[6]؟ قال: اشتكى. قال: قد علمت أن أكله سيورثه داء[7].

---

(1) تاريخ الطبري (6/ 254).
(2) المصدر نفسه (6/ 254).
(3) عرّه: أساء إليه وساءه.
(4) تاريخ الطبري (6/ 254).
(5) البداية والنهاية (11/ 453).
(6) التلقام، والتلقامة: كبير اللُّقم.
(7) البداية والنهاية (11/ 453).

8 - وإنك لتلحظ الشعرة في لقمتي:

روي أن معاوية قال للأعرابي: ارفع الشعرة من لقمتك، فقال: وإنك لتلحظ الشعرة في لقمتي، والله لا أكلت معك طعاماً[1].

9 - إنك لا تخاطب العباءة ، إنما يخاطبك من فيها:

نظر معاوية إلى رجل وقف بين يديه يخاطبه وعليه عباءة، فجعل يزدريه، فقال: يا أمير المؤمنين، إنك لا تخاطب العباءة، إنما يخاطبك من فيها[2].

10 ـ يا بنية إنه زوجك الذي أحله الله لك:

تزوج عبد الله بن عامر هند بنت معاوية، فلمّا أدخلت عليه بالخضراء، أرادها عن نفسه فتمنَّعت عليه وأبت أشد الإباء فضربها فصرخت، فلمّا سمع الجواري صوتها صرخن وعلت أصواتهنّ، فسمع معاوية فنهض إليهنّ، فاستعلمهن ما الخبر، فقلن: سمعنا صوت سيدتنا فصِحنا. فدخل فإذا هي تبكي من ضربه، فقال لابن عامر: ويحك مثل هذه تضرب في مثل هذه الليلة؟ ثم قال له: اخرج من ههنا، فخرج وخلا بها معاوية فقال لها: يا بُنَيَّةُ، إنه زوجك الذي أحله الله لك، أو ما سمعتِ قول الشاعر:

من الخَضِرات[3] البيض أمّا حرامها فصعب وأمّا حِلُّها فذلول

ثم خرج معاوية من عندها، وقال لزوجها: أدخل فقد مهدت لك خُلُقها ووطّأته، فدخل ابن عامر، فوجدها قد طابت أخلاقها فقضى حاجته منها[4] رحمهم الله تعالى.

11 - هل يصح قول معاوية: إن الكريم طروب:

عن محمد بن عامر، قال: لام معاوية عبد الله بن جعفر على الغناء، فدخل يوماً على معاوية ومعه بُديح[5]، ومعاوية واضع رجلاً على رجل، فقال: عبد الله لبديح: إيها[6] يا بديح، فتغنى، فحرك معاوية رجله، فقال عبد الله: مه يا أمير المؤمنين. فقال معاوية: إن الكريم طروب[7] ، هذا الخبر أورده البلاذري[8] بنحوه، وأورده ابن عبد ربه[9]، مع بعض

---

(1) المنتخب والمختار، ص: 559.
(2) المصدر نفسه (11/ 453).
(3) الخضرات : جمع خَضِرة من الخضر وهو شدة الحياء.
(4) البداية والنهاية (11/ 464).
(5) بديح المليح، من موالي عبد الله بن جعفر.
(6) إيه : كلمة استزادة واستنطاف، الفيروز أبادي القاموس 1604.
(7) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 82.
(8) أنساب الأشراف (4/ 27) مرويات خلافة معاوية، ص: 83.
(9) العقد الفريد (6/ 21، 22) مرويات خلافة معاوية، ص: 83.

الزيادات المنكرة[1] وهذه الرواية الضعيفة يردها ما أخرجه الطبراني بإسناد حسن، من طريق كيسان مولى معاوية قال: خطب معاوية الناس فقال: يا أيها الناس، إن رسول الله ﷺ نهى عن تسع، وأنا أنهاكم عنهن، النوح، والشِّعر، والتبرُّج، والتصاوير، وجلود السباع، والغناء، والذهب، والخِزُّ والحرير[2]، وكان ﷺ ينهى عن الاستماع إلى الغناء وينكر ذلك على من يعرف به، وكان عامله على المدينة ابن الحكم شديداً على أهل الدعارة والفسوق، فكانوا يهربون من المدينة أثناء ولايته[3].

12 - قضاء ديون السيدة عائشة ﷺ:

كان معاوية ﷺ يهتم بالسيدة عائشة ويقضي عنها ديونها، فعن سعيد بن عبد العزيز، قال: قضى معاوية عن عائشة ثمانية عشرة ألف دينار[4]. وقال عروة: بعث معاوية مرةً إلى عائشة بمائة ألف، فوالله ما أمست حتى فرَّقتها[5].

13 - الاهتمام بحوائج الناس:

كان معاوية ﷺ يشفق على نفسه أن يكون احتجابه أحياناً عن المسلمين ذنباً يحاسب عليه، فلما سمع حديث النبي ﷺ: **«من ولاه الله شيئاً من أمر المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره»**، جعل معاوية على حوائج الناس رجلاً يبلغه بها، كي لا يغيب عنه شيء منها[6]، وكان عامله على المدينة إذا أراد أن يبرد بريداً إلى معاوية أمر مناديه فنادى: من له حاجة، يكتب إلى أمير المؤمنين[7].

14 - تأثر معاوية ﷺ بموت الصالحين:

حين توفي ابن لعتبة بن أبي سفيان، جاء ناس إلى معاوية يعزونه فيه قال: إن موت غلام من آل أبي سفيان قبضه الله، ليس بمصيبة، إنما المصيبة كل المصيبة لموت أبي مسلم الخولاني وكريب بن سيف الأنصاري[8].

---

(1) مرويات خلافة معاوية، ص: 83.
(2) المعجم الكبير (19/ 373) إسناده حسن.
(3) الدولة والمجتمع في العصر الأموي، ص: 94.
(4) سير أعلام النبلاء (3/ 154).
(5) سير أعلام النبلاء (3/ 154).
(6) الدولة الأموية، حمدي شاهين، ص: 273، نقلاً عن البداية والنهاية.
(7) تاريخ الطبري (6/ 254).
(8) تاريخ دمشق (1/ 227) نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص: 53.

15 - اهتمام معاوية بالمساجد والعيون:

اهتم معاوية بن أبي سفيان بالمسجد الحرام وأمر بتوسعته وأجرى له القناديل والزيت من بيت المال وأضاء المصابيح فيه لأهل الطواف، واهتم بالمسجد الأقصى، وقام مسلمة بن مخلد أمير مصر من قبل معاوية بالزيادة في المسجد الجامع بالفُسطاط عام 53هـ وطلا جدرانه بالجص، وزخرف بنيانه وبنى له أربع منارات شامخة وفرشه بالحصير. وأخذ أهل مصر ببيان المنارات للمساجد، وأمر المؤذنين أن يكون أذانهم في الليل في وقت واحد[1]، ووسع المغيرة بن شعبة المسجد الجامع بالكوفة، ثم قام زياد بن أبيه فبناه وزاد فيه وأحكمه وفرشه بالحصى، وكان يقول: أنفقت على كل أسطوانة من أساطين مسجد الكوفة ثماني عشرة مئة درهم واتخذ فيه مقصورة جدّدها خالد بن عبد الله القسري في أثناء ولايته على العراق، ثم قام عبيد الله بن زياد وزاد في المسجد الجامع وفرشه بالحصى[2]، وزاد زياد بن أبيه في المسجد بالبصرة زيادة كبيرة، وبناه بالآجر والجص واستعمل الأساطين في البناء، وسقفه بالساج وبنى منارته بالحجارة، وبنى في البصرة المساجد الكثيرة، ثم قام عبيد الله بن زياد فزاد في المسجد الجامع[3]، واهتم معاوية بالمرافق العامة في الدولة الإسلامية، وحرص على توفير مياه الشرب في المدينة، وأجرى في الحرم المكي عيوناً[4] وأنشأ آبار المياه على الطرقات، فربط بين أجزاء مملكته ربطاً محكماً[5].

16 - سباق الخيل في عهد معاوية رضي الله عنه :

ويعد معاوية رضي الله عنه من أوائل الخلفاء الذين أرسوا تقاليد سباقات الخيل في تاريخنا الإسلامي فقد كان يقيم سباق الخيل في دمشق، حيث يشترك فيه فرسان من جميع أطراف الدولة، وكان هؤلاء يدخلون الحلبة وهم يقولون الشعر في الفخر بأنفسهم وخيلهم، وعند انتهاء السابق كان الخليفة يقدم جوائز ثمينة للفائزين[6].

17 - إطعام الحجاج والصائمين:

أنشأ أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه دار المراجل بمكة، والتي كان يطبخ فيها طعام الحجاج وطعام الصائمين من الفقراء في شهر رمضان المبارك[7] وقفاً في سبيل الله.

---

(1) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص: 347.

(2) المصدر نفسه، ص: 347، فتوح البلدان، ص: 399 - 340.

(3) فتوح البلدان، ص: 426، 427، دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص: 348.

(4) أخبار مكة (2/ 227) الأزرقي، دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص: 341.

(5) الخلافة الأموية، عبد المنعم الهاشمي، ص: 25.

(6) التربية والثقافة العربية الإسلامية في الشام والجزيرة خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة بالاستناد إلى مخطوط تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر، ص: 94، الرفق بالحيوان، د. سلامة الهرفي، ص: 49.

(7) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 26.

18 - الله أقدر عليك منك عليه:

رأى معاوية ابنه يزيد يضرب غلاماً له فقال له: اعلم أن الله أقدر عليك منك عليه، سوأة لك!! أتضرب من لا يستطيع أن يمتنع منك؟ والله لقد منعتني القدرة من الانتقام من ذوي الإحن، وإن أحسن من عفا لمن قدر[1]. فهذا توجيه سديد من أمير المؤمنين معاوية ﷺ لابنه يزيد نحو التخلق بهذا الخلق الكريم. العفو عند المقدرة، هذا الخلق الذي يعتبر من أهم عناصر السيادة وسياسة الأمة، ولقد ذكَّره بقدرة الله جل وعلا عليه ليحطَّ من تعاظمه بنفسه وليخشى الله سبحانه فيمن هم تحت يده[2].

ثانياً: اهتماماته العلمية:

كان معاوية ﷺ يشجع الولاة والعلماء وأبناء الأمة على إيجاد نهضة ثقافية حضارية، وشهد عصره نهضة في التفسير وعلوم القرآن والفقه والعقيدة، وتألق فيه نجم عديد من العلماء الذين ظل المسلمون بعد ذلك يأخذون من علومهم ويستشهدون بأقوالهم واجتهاداتهم، كابن عباس وأبي هريرة، وابن عمر وغيرهم، وكانت العلوم الرئيسية هي القرآن الكريم والسنة النبوية والفقه واللغة العربية، واهتم معاوية ﷺ بغيرها من العلوم أيضاً منها:

1 - اهتمام معاوية بالتاريخ:

كان معاوية ﷺ الراعي الذي عمل على أول تدوين باللغة العربية للتاريخ بمعناه العام لا على أنه المغازي النبوية وقصص الأنبياء، ولا على أنه الأنساب ، وأيام العرب، ولكن على أنه تاريخ الأمم السالفة، وسير الملوك والحروب وأنواع السياسات مما هو جدير بالقراءة على الملوك[3]، فقد كان ينام ثلث الليل، ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكائد، فيقرأ ذلك غلمان له مرتبون، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها، فتمر بسمعه كل ليلة جملة من الأخبار والآثار وأنواع السياسات[4]، وقد استدعى معاوية عبيدة بن شرية وهو أحد علماء التاريخ البارزين في بلاد اليمن إلى دمشق وسأله عن أخبار القدماء وملوك العرب والعجم، وأمر معاوية كتّابه أن يدونوا ما يتحدث به عبيد الله بن شرية كتاب الأمثال وكتاب الملوك وأخبار الماضين[5]، ولم يكن عبيدة هذا هو العالم الوحيد الذي استقدمه معاوية إلى دمشق فكتب عنه روايات وصيرها كتباً، بل إن كثيراً من الأخباريين أهل الدراية

---

(1) البداية والنهاية، نقلاً عن التاريخ الإسلامي (17/ 23).

(2) التاريخ الإسلامي (17/ 24).

(3) الدولة الأموية، حمدي شاهين، ص: 454، التاريخ العربي (1/ 95).

(4) مروج الذهب (2/ 41)، الدولة الأموية، حمدي شاهين، ص: 455.

(5) المصدر نفسه (2/ 85)، المصدر نفسه، ص: 455، التعليم في العصر الأموي، ص: 117 انتصار السبتي.

بأخبار الماضين وسير الغابرين من العرب وغيرهم من المتقدمين وفدوا على معاوية أيضاً[1]، والدرس البالغ الأهمية يظهر في أهمية التاريخ للساسة والحكام والملوك والزعماء، فالسياسي المستوعب لحركة التاريخ وسننه ينجح في ميدان عمله أكثر من غيره، فهناك علاقة متينة بين التاريخ والسياسة.

2 - اهتمام معاوية بالشعر واللغة:

كان معاوية رضي الله عنه يدرك أهمية الشعر تواقاً له ولم يغب عن حسه أهميته في الدعاية السياسية للدولة، وكان يهتم بتربية أبنائه وأبناء أخيه على تعلم ومعرفة وتذوق الشعر، فقد كتب إلى زياد أن أوفد إلي ابنك، فلما قدم عليه لم يسأله معاوية عن شيء إلا نفذ منه، حتى سأله عن الشعر فلم يعرف منه شيئاً، فقال له: ما منعك من تعلم الشعر، فقال: يا أمير المؤمنين إني كرهت أن أجمع في صدري مع كلام الرحمٰن كلام الشيطان، فقال معاوية: اغرب، فوالله ما منعني في الفرار يوم صفين إلا ابن الأطنابة حيث قال:

أبت لي عفتي وأبى بلائي ... وأخذي الحمد بالثمن الربيح
وإعطائي على الإعدام مالي ... وإقدامي على البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت ... مكانك تحمدي أو تستريحي[2]

ثم كتب إلى أبيه أن روّه الشعر، فرواه حتى كان لا يسقط عنه شيء منه[3]، وكان معاوية رضي الله عنه يتمثل بهذه الأبيات كثيراً:

فما قتل السفاهة مثل حلم ... يعود به على الجهل الحليم
فلا تسفه وإن مُلِّئت غيظاً ... على أحد فإن الفحش لوم
ولا تقطع أخاً لك عند ذنب ... فإن الذنب يغفره الكريم[4]

ومن اهتمام معاوية بالشعر حفظه له، فقد دخل ذات يوم على معاوية في مجلسه ابن أبي محجن الثقفي فقال له معاوية: أبوك الذي يقول:

إذا مت فادفني إلى جنب كَرْمة ... تُرَوِّي عظامي بعد موتي عُرُوقُها
ولا تدفنَنِّي بالفلاة فإنَّني ... أخاف إذا ما متُّ أن لا أذُوقها

فقال ابن أبي محجن: لو شئت ذكرتُ أحسن من هذا من شعره قال: وما ذاك؟ قال: قوله:

---

(1) التاريخ العربي والمؤرخون (1/ 95)، الدولة الأموية، حمدي شاهين، ص: 455.
(2) البداية والنهاية (11/ 426).
(3) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 457.
(4) البداية والنهاية (11/ 442).

لا تسأل الناسَ: مالي وكثرته وسائل القوم ما حزمي وما خلقي
القوم أعلم أني من سراتهم إذا تَطِيش يد الرِّعديدة الفَرِق
قد أركب الهوْل مسدولاً عساكره وأكتُم السرَّ فيه ضربةُ العُنُقِ

وهو القائل:

إن يكن ولّى الأمير فقد طاب منه النَّجْلُ والأثرُ
فيكم مستيقظ فَهِمٌ قُلْقُلانٌ حَيَّةٌ ذكرُ
أحمد الله إليك فما وصلة إلا ستنبتر[1]

وكان الشاعر مسكين الدارمي من المقربين من معاوية وابنه، فقد سأل معاوية عنه عطارد بن حاجب، وقال له: ما فعل الدارمي الصبيح الوجه الفصيح اللسان ـ يعني مسكيناً؟ - فقال: صالح يا أمير المؤمنين، قال: أعلمه أني قد فرضت له فله شرف بالعطاء وهو في بلاده، فإن شاء أن يقيم بها أو عندنا فليفعل، فإنّ عطاءه سيأتيه، وبشّره بأن قد فرضت لأربعة آلاف من قومه من خِنْدِف[2]، وهذا الشاعر هو القائل في معاوية ﷺ:

إليك أمير المؤمنين رحلتها تُثير القطا ليلاً وهن هُجُود
على الطائر الميمون والجدّ صاعد لكل أناس طائر وجدود
إذا المنبر الغربي خلّى مكانه فإن أمير المؤمنين يزيد[3]

ويقال أن معاوية أمر مسكين الدارمي أن ينظم قصيدة في البيعة ليزيد وبعد أن أنشد قصيدته وكان بنو أمية وأشراف الناس حاضرين لم يتكلم أحد من بني أمية في ذلك إلا بالإقرار والموافقة... ثم وصله يزيد ووصله معاوية فأجزلا صلته[4]، ويعتبر مسكين الدارمي من شعراء عهد معاوية وممن ترك أبياتاً جميلة منها قوله:

وإذا الفاحش لاقى فاحشاً فهناكم وافق الشن الطبق
إنما الفُحْش ومن يعتاده كغراب السَّوءِ ما شاء نعق
أو حمار السوءِ إن أشبعته رمح الناس وإن جاع نهق
أو غلام السوءِ إن جوعته سرق الجار وإن يُشبع فسق
أو كَغَيْرى رَفَعَتْ من ذَيْلِها ثم أرخته ضِراراً فامَّزَق

(1) الشعر والشعراء لابن قتيبة (1/ 424).
(2) تاريخ دمشق (20/ 39، 40).
(3) الشعر والشعراء لابن قتيبة (1/ 544).
(4) الأغاني للأصفهاني نقلاً عن الحياة العلمية في العراق، ص: 110.

أيـهـا الـسـائـلُ عـن مـنَّ قـد مـضـى ... هـل جـديـد مـثـل مـلـبـوس خَـلَـق[1]

وهو القائل:

نـاري ونـارُ الـجـار واحـدة ... وإلـيـه قـبـلـي تُـنْـزَل الـقِـدْرُ

مـا ضـرَّ جـاراً لـي أجـاورُهُ ... ألَّا يـكـون لـبـابـه سـتـرُ

أعـمـى إذا مـا جـارتـي بـرزت ... حـتـى يـغـيـب جـارتـي الـخـدر[2]

وكان معاوية ﷺ يستنكر اللحن، فحين أرسل زياد بن أبيه والي العراق ابنه عبيد الله إلى معاوية بن أبي سفيان لحن في كلامه، فكتب إليه معاوية: إن ابنك كما وصفت ولكن قوّم من لسانه[3]، ولما ارتفع إلى زياد رجل وأخوه في ميراث، فقال: إنّ أبونا لما مات وإن أخينا وثب على مال أبانا فأكله. فأفأ زياد فقال: الذي أضعت من لسانك أضرُّ عليك مما أضعت من مالك[4]، وقد برز في البصرة في عهد معاوية كثير من النحويين فكان أبو الأسود الدؤلي أول من وضع أساس النحو في البصرة وكان أول من استَنَّ العربية، وفتح بابها، وأنهج سبيلها، ووضع قياسها، فكان سراة الناس يلحنون ووجوه الناس، فوضع باب الفاعل، والمفعول به، والمضاف، وحرف الجر والرفع والنصب والجزم[5]، وألف كتاباً في النحو[6]وكان شاعراً، ومن أشهر أبياته قوله:

يـا أيـهـا الـرجـل الـمـعـلـم غـيـره ... هـلا لـنـفـسـك كـان ذا الـتـعـلـيـم؟

تصف الدواء لذي السقام وذي الضنا ... كـيـمـا يـصـحّ بـه وأنـت سـقـيـم

ونـراك تـصـلـح بـالـرشـاد عـقـولـنـا ... أبـداً وأنـت مـن الـرشـاد عـديـم

ابدأ بـنـفـسـك فـانـهَـهـا عـن غـيّـهـا ... فـإذا انـتـهـت عـنـه، فـأنـت حـكـيـم

فـهـنـاك يـسـمـع مـا تـقـول ويـهـتـدي ... بـالـقـول مـنـك ويـنـفـع الـتـعـلـيـم

لا تـنـه عـن خـلـق وتـأتـيَ مـثـلـه ... عـارٌ عـلـيـك إذا فـعـلـت عـظـيـم[7]

وله في الزهد المبرأ من الكسل كقوله:

وإذا طـلـبـت مـن الـحـوائـج حـاجـة ... فـادع الإلـه وأحـسـن الأعـمـالا

فـلـيـعـطـيـنـك مـا أراد بـقـدرة ... فـهـو الـلـطـيـف لـمـا أراد فـعـالا

---

(1) الشعر والشعراء (1/ 544).

(2) المصدر نفسه (1/ 545).

(3) البيان والتبيين (2/ 210) الحياة العلمية في العراق.

(4) البيان والتبيين (2/ 222).

(5) طبقات النحويين، ص: 21 الزبيدي، الحياة العلمية في العراق، ص: 104.

(6) الشعر والشعراء (2/ 729).

(7) الأدب الإسلامي وتاريخه (2/ 17) عابد الهاشمي.

ودع العباد وشأنهم وأمورهم   بيد الإله يقلّب الأحوالا[1]

3 - اهتمام معاوية بالعلوم التجريبية:

ورثت الدولة الأموية علوم الأعاجم من الفرس والروم بعد انهيار دولتهم، وكان لا بد ـ للإفادة من ذلك التراث ـ من ترجمته ونقله إلى العربية بعد أن غدا: تراثاً تقليدياً تداولته أيدي الشارحين والمحترفين ممن أجادوا اليونانية أو السريانية[2]، وقد كان بعض هذه الترجمات حافزاً على الاهتمام بالعلوم التجريبية وربما العكس صحيحاً أحياناً.. ومعلوم أن كل ذلك يحتاج إلى جهد كبير تعجز عنه إمكانات الأفراد العاديين، ولذا فقد وقف الأمويون يشجعون على ذلك حتى تحققت أعمال جيدة على نحو ما سنرى بإذن الله. كانت بداياتها من عهد معاوية فقد كان سباقاً إلى رعاية العلوم وأهلها فأنشأ بيتاً للحكمة: أي مركزاً للبحث ومكتبة، واستمر المروانيون يعنون بهذا البيت حتى في أسفارهم وحروبهم يسألون عنه ويهتمون به[3].

ويشير بعض المؤرخين إلى دور ابن أثال النصراني طبيب معاوية في نقل بعض معارف الطب إلى العربية[4]، على أن بداية الجهود الحقيقية في الترجمة بدأت مع خالد بن يزيد أول من عني بنقل الطب والكيمياء إلى العربية، فقد أمر بإحضار جماعة من اليونانيين ممن درسوا بمدرسة الإسكندرية في مصر وتفصحوا بالعربية كذلك، فطلب منهم نقل كثير من الكتب من اللسان اليوناني والقبطي إلى اللسان العربي، وكان هذا أول نقل في الإسلام[5]، كما طلب منهم أن يترجموا كتب جالينوس في الطب، فوضع بذلك أساس العلوم الطبية وهو أول من أعطى التراجمة والفلاسفة وقرب أهل الحكمة ورؤساء كل صنعة، وترجمت له كتب النجوم والطب والكيمياء، والحروب والآلات والصناعات، وهو أول من جمعت له الكتب وجعلها في خزانة الإسلام، ففي دمشق إذن أنشئت أول دار للكتب في العالم الإسلامي[6]. وقد ظهرت دلائل كثيرة تدل على تزايد عدد المشتغلين في الطب في عهد معاوية بحيث أصبحت النسبة طبيب لكل 534 خمسمائة وأربع وثلاثين فرداً وهذه النسبة تمّ أخذها مما أورده ابن كثير من أن زياد بن أبيه والي البصرة حينما طعن في يده جمع مائة وخمسين طبيباً ليداووه[7]، وكان عدد سكان البصرة ثمانين ألفاً تقريباً[8].

---

(1) الأدب الإسلامي وتاريخه (2/ 17)، ديوان أبي الأسود الدؤلي.
(2) تاريخ سوريا، فيليب حتي، (1/ 132) الدولة الأموية، شاهين، ص: 459.
(3) الدولة الأموية، يوسف العش، ص: 348.
(4) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص: 1717، ابن أبي أصيبعة.
(5) الدولة الأموية، حمدي شاهين، ص: 460.
(6) خطط الشام (4/ 23 - 24)، الدولة الأموية، حمدي شاهين، ص: 460.
(7) البداية والنهاية (11/ 261).
(8) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 255.

المبحث الرابع

الخوارج في عهد معاوية

عرف الخوارج بهذا الاسم بعد التحكيم في معركة صفين، وكانوا قبلها من أشد أنصار علي ابن أبي طالب رضي الله عنه وحضروا مع موقعة الجمل وصفين، ولكنهم انشقوا عليه بعدها، ورفضوا التحكيم، وحاول علي إقناعهم وردهم إلى الجماعة ولكنهم تشبثوا بموقفهم، وبالغوا في شقاقهم وتطرفوا، حتى عاثوا في الأرض فساداً، مما جعل علياً يقاتلهم ويقضي على معظمهم في معركة النهروان، وهم لا يرضون عن تسميتهم خوارج، لأن هذه التسمية أطلقها عليهم خصومهم لخروجهم على الإمام، وعلى جماعة المسلمين، أما هم فيسمون أنفسهم الشراة، لأنهم باعوا أنفسهم لله تعالى، على أن لهم الجنة يشيرون بذلك إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: 111]. ويسمون المحكمة، لأنهم قالوا: لا حكم إلا لله، وكان يطلق عليهم أيضاً الحرورية، نسبة إلى قرية حروراء التي انحازوا إليها بظاهر الكوفة لأول خروجهم على علي[1]، ولما كان سبب خروجهم هو قبول علي التحكيم بينه وبين معاوية رضي الله عنهما، فقد صاغوا لأنفسهم نظرية في الخلافة تقوم على مبدأين عامين يجمعان بين فرقهم المتباينة[2]، المبدأ الأول أن الخلافة ليست وقفاً على قريش كما يذهب أهل السنة[3]، بل تجوز لكل مسلم يكون أهلاً لها حتى ولو كان عبداً حبشياً، ويجب أن يكون الخليفة باختيار حر من المسلمين، وأنه إذا تم اختياره لا يصح له أن يتنازل عنها، أو يقبل التحكيم، وفي ضوء هذا المبدأ اعترفوا بخلافة أبي بكر وعمر، أما عثمان فقد اعترفوا بخلافته في شطرها الأول، ثم تبرؤوا منه وكفروه في بقية عهده، وأما علي فقد اعترفوا بخلافته من بدايتها إلى أن قبل التحكيم، وبعد قبوله التحكيم لم يعترفوا بخلافته بل كفروه[4]، وكذلك لم يعترفوا بخلافة معاوية وبني أمية[5]، وكفروهم، كما كفروا عائشة وطلحة والزبير وعمرو بن العاص وأبا موسى الأشعري. وعلى الجملة كفروا كل من لم ير رأيهم ويذهب مذهبهم من المسلمين، واعتبروا دارهم دار كفر، وأباحوا أموالهم ودماءهم، حتى قتل أطفالهم[6].

(1) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 454.
(2) النظريات السياسية الإسلامية، محمد ضياء، ص: 57.
(3) الدولة الأموية في المشرق، محمد النجار، ص: 87.
(4) مقالات الإسلاميين (1/ 156، 89).
(5) الدولة الأموية في المشرق، ص: 87.
(6) مقالات الإسلاميين (1/ 159، 189).

المبدأ الثاني الذي قامت عليه نظرية الخوارج، هو وجوب الخروج على الإمام الجائر[1]، وهنا وجوه الخطورة في حركتهم كلها، فلو اقتصروا على الخلاف النظري في الرأي، أو الجدال بالحجة والبرهان، لكان الأمر أهون، ولكنهم شهروا السلاح في وجه مخالفيهم، بدءاً من علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وحاولوا فرض آرائهم ومذهبهم بالقوة، وكما تطرفوا إلى أبعد حد في الرأي والمذهب، فقد تطرفوا في اللجوء إلى القوة والعنف، وكبدوا الأمة وأنفسهم خسائر فادحة، وعكروا صفو الدولة الأموية، وكانوا من أشد مناوئيها[2]، وقد تحدثت عن الخوارج بنوع من التفصيل في كتابي سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب شخصيته وعصره[3].

ذكرنا قبل قليل أن خطورة حركة الخوارج تكمن في لجوئهم إلى الثورة والعنف، ولشدة إيمانهم بمبادئهم فقد ضحوا في سبيلها بأرواحهم وأبدوا كثيراً من ضروب الشجاعة والإقدام في حروبهم مع الدولة الأموية، وكانوا أشبه بالفرق الانتحارية، فكثيراً ما كانت أعداد قليلة منهم تهزم جيوشاً جرارة للدولة، ولو أن هذه الشجاعة والإقدام والتضحية اتجهت اتجاهاً سليماً، ووحد الخوارج جهودهم مع جهود الدولة في محاربة أعداء الإسلام لربما تغير وجه التاريخ الإنساني كله بشكل جذري، والحقيقة أنهم لم يكونوا طلاب دنيا، ولم يجروا وراء المادة، وإنما أخلصوا للفكرة التي آمنوا بها وملكت عليهم جوانب حياتهم[4]، وأفنوا أنفسهم، وكلفوا الأمة الكثير من الجهد والوقت والمال والأرواح، وإذا كان الخوارج قد خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وكفروه وحاربوه، فسيكون موقفهم من الدولة الأموية أعنف وبغضهم لها أشد، فقد شهروا السلاح في وجهها من أول لحظة فثاروا على معاوية رضي الله عنه قبل أن يغادر الكوفة عام 41هـ[5].

أولاً: حركات الخوارج في الكوفة:

1 - حركة فروة بن نوفل الأشجعي:

قال الطبري في حادث عام 41هـ: وفيها خرجت الخوارج التي اعتزلت أيام علي عليه السلام بشهرزور[6] على معاوية[7]، وقال: حدثت عن زياد، عن عوانه، قال: قدم معاوية قبل أن

(1) النظريات السياسية الإسلامية، ص: 57.
(2) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 455.
(3) سيرة أمير المؤمنين علي، ص: 633.
(4) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 458.
(5) المصدر نفسه، ص: 458، تاريخ خليفة، ص: 203 - 204.
(6) شهرزور: كورة واسعة تقع بين إربل وهمذان، أهلها أكراد، وهي في العراق اليوم معجم أماكن الفتوح، ص: 741.
(7) تاريخ الطبري (6/ 81).

يبرح الحسن من الكوفة حتى نزل النخيلة، فقالت الحرورية[1]، الخمسمائة التي كانت اعتزلت بشهرزور مع فروة ابن نوفل الأشجعي: قد جاء الآن ما لا شك فيه، فسيروا إلى معاوية فجاهدوه، فأقبلوا وعليهم فروة بن نوفل حتى دخلوا الكوفة، فأرسل إليهم معاوية خيلاً من خيل أهل الشام، فكشفوا أهل الشام، فقال معاوية لأهل الكوفة: لا أمان لكم والله عندي حتى تكفوا بوائقكم، فخرج أهل الكوفة إلى الخوارج فقاتلوهم، فقالت لهم الخوارج: ويلكم ما تبغون منا، أليس معاوية عدونا وعدوكم، دعونا حتى نقاتله، وإن أصبناه كنا قد كفيناكم عدوكم، وإن أصابنا كنتم كفيتمونا، قالوا: لا والله حتى نقاتلكم، فقالوا: رحم الله إخواننا من أهل النهر[2]، هم كانوا أعلم بكم يا أهل الكوفة، وأخذت أشجع صاحبهم فروة بن نوفل ـ وكان سيد القوم ـ واستعملوا عليهم عبد الله بن أبي الحر[3] ـ رجلاً من طيء ـ فقاتلوهم فقتلوا[4]. وفروة بن نوفل الأشجعي هو القائل قبيل معركة النهروان: والله ما أدري على أي شيء نقاتل علياً، لا أرى إلا أن أنصرف حتى تنفذ لي بصيرتي في قتاله أو اتباعه، وانصرف في خمسمائة فارس[5]. وذكر ابن حجر رواية هامة تبين موقف معاوية رضي الله عنه من الخوارج بعد توليه الخلافة، وفيما يلي نص رواية ابن حجر: . . . فرجع الناس فبايعوا معاوية ولم يكن لمعاوية هَمٌّ إلا الذين بالنهروان[6]، فجعلوا يتساقطون عليه فيبايعونه، حتى بقي منهم ثلاثمائة أو نيف[7]، وهم أصحاب النخيلة[8].

2 - حركة المستورد بن عُلَّفة التميمي[9]:

تحدث الطبري في تاريخه عن حركة المستورد بن عُلَّفة التميمي بإسهاب وتفصيل بعكس أكثر المصادر التي تناولت هذا الحدث، حيث تحدث خليفة[10] بن خياط عن هذه الحركة باختصار شديد، وقد أطال الطبري الحديث عن حركة المستورد بن عُلَّفة التميمي، ولعل ذلك

---

(1) الحرورية : هم الخوارج، وحروراء قرية بظاهر الكوفة نزل فيها الخوارج الذين خالفوا علياً رضي الله عنه، فنسبوا إليها، معجم البلدان (2/ 245).

(2) تاريخ الطبري : (6/ 81).

(3) كان ممن اعتزل قتل علي يوم النهروان، أنساب الأشراف (4/ 164).

(4) تاريخ الطبري (4/ 164).

(5) مرويات خلافة معاوية، ص: 182، نقلاً عن تاريخ الطبري.

(6) أي الخوارج.

(7) النيف : من واحد إلى ثلاثة، القاموس المحيط، ص: 111.

(8) سمو بذلك لأنهم قتلوا في النخيلة، معجم البلدان (2/ 185)

(9) تاريخ الطبري (6/ 87 إلى 92).

(10) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 189.

إشارة منه لأهميتها وأهمية هذه الحركة تعود إلى كون أصحابها يمثلون الامتداد الطبيعي لفكر خوارج النهروان الذين قاتلهم علي ﷺ ، إذ أن معظم المنتسبين إلى هذه الحركة كانوا في خندق واحد في معركة النهروان، وهذا الأمر هو الذي دفع المغيرة بن شعبة والي الكوفة إلى اللجوء إلى أنصار علي ﷺ ، وخاصة الذين شاركوا في معركة النهروان من أمثال معقل بن قيس الرياحي الذي كان أحد قادة علي يوم النهروان[1]، وتكليفه قيادة الحملة المتوجهة لقتال الخوارج، لأن أنصار علي ﷺ هم أخبر الناس بالخوارج وأشدهم عليهم وما جاء من مرويات في تاريخ الطبري قدمت لنا تفاصيل هامة عن الحدث: منها:

أ ـ موقف الخوارج من استشهاد علي ﷺ ، ويستفاد هذا من قول الخوارج: . . لا يقطع الله يميناً علت قذاله[2] بالسيف، قال: فأخذ القوم يحمدون الله على قتله[3].

ب ـ أسباب خروجهم على جماعة المسلمين: ويستفاد هذا من قول الخوارج: فلنأت إخواننا فلندعهم إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإلى جهاد الأحزاب، فإنه لا عذر لنا في القعود، وولاتنا ظلمة، وسُنَّة الهدى متروكة، وثأرنا والذين قتلوا إخواننا في المجالس آمنون، فإن يظفرنا الله بهم نعمد بعد إلى التي هي أهدى وأرضى وأقوم، ويشفي الله بذلك صدور قوم مؤمنين، وإن نقتل فإن في مفارقة الظالمين راحة لنا، ولنا بأسلافنا أسوة[4].

جـ ـ سياسة المغيرة بن شعبة ﷺ مع الخوارج: ويستفاد هذا مما يلي: وأحسن في الناس السيرة، ولم يفتش أهل الأهواء عن أهوائهم، وكان يؤتى ويقال له: إن فلاناً يرى رأي الشيعة، وإن فلاناً يرى رأي الخوارج، وكان يقول: قضى الله ألا تزالون مختلفين، وسيحكم الله بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون[5]. وقال المغيرة لقبيصة بن الدمون: الصق لي بشيعة علي، فأخرجهم مع معقل بن قيس، فإنه كان من رؤوس أصحابه، فإذا بعثت بشيعته الذي كانوا يعرفون فاجتمعوا جميعاً، استأنس بعضهم ببعض وتناصحوا، وهم أشد استحلالاً لدماء هذه المارقة، وأجرأ عليهم من غيرهم، وقد قاتلوا قبل هذه المرة[6]. قال المغيرة: يا معقل بن قيس، إني قد بعثت معك فرسان أهل مصر، أمرت بهم فانتخبوا انتخاباً، فسر إلى هذه العصابة المارقة الذين فارقوا جماعتنا، وشهدوا عليها بالكفر، فادعهم إلى التوبة، وإلى الدخول في

(1) المصدر نفسه، ص: 190.
(2) القذال: مؤخرة الرأس، القاموس المحيط 774.
(3) تاريخ الطبري (6/ 88).
(4) تاريخ الطبري (6/ 89).
(5) المصدر نفسه (6/ 89).
(6) تاريخ الطبري، نقلاً عن مرويات خلافات معاوية في تاريخ الطبري، ص: 192 (تاريخ الطبري (6/ 105).

الجماعة، فإن فعلوا فاقبل منهم، واكفف عنهم، وإن هم لم يفعلوا فناجزهم، واستعن بالله عليهم[1].

س ـ حركة حيان بن ظبيان السلمي: كانت هذه الحركة عام 58هـ وكانت في ولاية عبد الرحمٰن بن عبد الله بن عثمان بن ربيعة الثقفي، وهو ابن أم الحكم أخت معاوية بن أبي سفيان، ففي أثناء ولايته خرجت الطائفة الذين كان المغيرة بن شعبة حبسهم في السجن من الخوارج الذين كانوا بايعوا المستورد بن علفة، فظفر بهم فاستودعهم السجن، فلما مات خرجوا من السجن[2]، وقام بحركة مضادة للخلافة وكان رئيسهم حيان بن ظبيان السُّلَمي، فبعث إليهم والي الكوفة جيشاً فقتلوا الخوارج جميعاً[3].

ثانياً: حركات الخوارج في البصرة:

1 - حركة يزيد الباهلي وسهم الهجيمي:

في عام 41هـ خرج في ولاية عبد الله بن عامر لمعاوية، يزيد بن مالك الباهلي، وخرج معه سهم بن غالب الهجيمي، فأصبحوا عند الجسر، فوجدوا عبادة بن قرص الليثي أحد بني بجر ـ وكانت له صحبة ـ يصلي عند الجسر، فأنكروه فقتلوه ثم سألوا ابن عامر الأمن فآمنهم وكتب إلى معاوية: قد جعلت لهم ذمتك، فكتب إليه معاوية: تلك ذمة لو أخفرتها لا سُئلت عنها، فلم يزالوا آمنين حتى عزل ابن عامر[4]. وفي عام 46هـ خرج سهم الهجيمي والخطيم وهو يزيد بن مالك الباهلي لما تولى زياد، فأما سهم فخرج إلى الأهوار فأحدث وحكّم ثم رجع فاختفى وطلب الأمان، فلم يؤمنه زياد حتى أخذه وقتله وصلبه على بابه وأما الخطيم فإن زياداً سيره إلى البحرين، ثم أذن له فتقدم، فقال له: الزم مصرك، وقال لمسلم بن عمرو الباهلي[5]: اضمنه، فأبى وقال: إن بات عن بيته أعلمتك، ثم أتاه مسلم فقال: لم يبت الخطيم الليلة في بيته فأمر به فقتل، وألقي في باهلة[6].

2 - حركة قريب الأزدي وزحاف الطائي:

في عام 50هـ خرج قريب الأزدي وزحّاف الطائي بالبصرة وهما ابنا خالة، وزياد بالكوفة وسمرة[7] على البصرة، فأتيا بني ضُبيعة، وهم سبعون رجلاً، وقتلوا منهم شيخاً، وخرج على قريب وزحّاف شباب من بني علي وبني راسب فرموهم بالنَّبل، وقتل عبد الله بن أوس الطاحيّ قريباً وجاء برأسه واشتد زياد على المنبر فقال: يا أهل البصرة والله لتكفُنّي هؤلاء أو لأبدأنّ

(1) تاريخ الطبري (6/ 106).
(2) تاريخ الطبري (6/ 326).
(3) البداية والنهاية (11/ 313).
(4) الكامل (2/ 454).
(5) عمرو الباهلي والد قتيبة الفاتح الكبير.
(6) الكامل (2/ 477).
(7) سمرة بن جندب الفزاري صحابي مات بالبصرة سنة 58هـ، الاستيعاب (2/ 653).

بكم، والله لئن أفلت منهم رجل لا تأخذون العام من عطائكم درهماً، فثار الناس بهم فقتلوهم[1].

3 - خبر عروة بن أدية الخارجي:

في سنة 58هـ اشتد عبيد الله بن زياد على الخوارج، فقتل منهم صبراً جماعة كثيرة، وفي الحرب جماعة أخرى، وممن قتل منهم صبراً عروة بن أديَّة أبي بلال مرداس بن أدية[2]، وكان سبب قتله أن ابن زياد قد خرج في رهان له، فلما جلس ينتظر الخيل اجتمع إليه الناس وفيهم عروة، فأقبل على ابن زياد يعظه، وكان مما قال له: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الشعراء: 128-130]. فلمّا قال ذلك ظن ابن زياد أنه لم يقل ذلك إلا ومعه جماعة، فقام وركب وترك رهانه. فقيل لعروة: ليقتلنّك، فاختفى، فطلبه ابن زياد فهرب وأتى الكوفة فأخذ وقدم به على ابن زياد فقطع يديه ورجليه[3].. ثم دعا به فقال: كيف ترى؟ قال أرى أنك أفسدت دنياي وأفسدت آخرتك، فقتله وأرسل إلى ابنته فقتلها[4]، بسبب اعتناقها مذهب والدها[5]. وذكر المبرد في كتابه الكامل في اللغة سببين هامين كان لهما أثر كبير في مقتل عروة بن أدية، الأول: تكفير هذا الخارجي لعثمان وعلي ﷺ، والثاني: إقدامه على مساعدة أخيه مرداس بن أدية على الخروج[6].

4 - حركة مرداس بن أدية:

وفي عام 58هـ خرج مرداس بن أُديَّة، بالأهواز وكان ابن زياد قبل ذلك حبسه فيمن حبس من الخوارج، فكان السجان يرى عبادته، واجتهاده، وكان يأذن له في الليل فينصرف، فإذا طلع الفجر أتاه حتى يدخل السجن، وكان صديق لمرداس يسامر ابن زياد، فذكر ابن زياد الخوارج فعزم على قتلهم إذا أصبح، فانطلق صديق مرداس إلى منزل مرداس فأخبرهم، وقال: أرسلوا إلى أبي بلال في السجن فليعهد فإنه مقتول، فسمع ذلك مرداس، وبلغ الخبر صاحب السجن، فبات بليلة سوء إشفاقاً من أن يعلم الخبر مرداس فلا يرجع، فلما كان الوقت الذي كان يرجع فيه إذا به قد طلع، فقال له السجان: هل بلغك ما عزم عليه الأمير؟ قال:

(1) الكامل في التاريخ (2/ 482).
(2) تاريخ الطبري (6/ 230).
(3) الكامل في التاريخ (2/ 517).
(4) أنساب الأشراف (4/ 387، 388) تاريخ الطبري (6/ 230).
(5) مرويات خلافة معاوية ص: 204.
(6) الكامل في اللغة (3/ 1098) نقلاً عن مرويات خلافة معاوية، في تاريخ الطبري، ص: 205.

نعم، قال: ثم غدوت! قال: نعم، ولم يكن جزاؤك مع إحسانك أن تعاقب بسببي، وأصبح عبيد الله فجعل يقتل الخوارج، ثم دعا مرداس، فلما حضر وثب السجان ـ وكان ظئراً[1] لعبيد الله - فأخذ بقدمه ثم قال: هب هذا، وقص عليه قصته، فوهبه له وأطلقه[2]. وقد أشار البلاذري إلى أن عزم عبيد الله بن زياد على قتل من في السجن من الخوارج كان بسبب إقدام بعضهم على قتل أحد الحرّاس[3]. ثم أن مرداس خاف ابن زياد فخرج في أربعين رجلاً إلى الأهواز، فكان إذا اجتاز به مال لبيت المال أخذ منه عطاءه وعطاء أصحابه ثم يرد الباقي، فلما سمع ابن زياد خبرهم بعث إليهم جيشاً عليهم «أسلم بن زرعة الكلابي» سنة ستين، وقيل أبو حصين التميمي، وكان الجيش ألفيْ رجل، فلمّا وصلوا إلى أبي بلال ناشدهم الله أن يقاتلوه فلم يفعلوا، ودعاهم أسلم إلى معاودة الجماعة، فقالوا: أتردُّوننا إلى ابن زياد الفاسق؟ فرمى أصحاب أسلم رجلاًمن أصحاب أبي بلال فقتلوه، فقال أبو بلال: قد بدؤوكم بالقتال. فشدّ الخوارج على أسلم وأصحابه شدّة رجل واحد فهزموهم فقدموا البصرة، فلام ابن زياد أسلم وقال: هزمك أربعون وأنت في ألفين، لا خيرَ فيك. فقال: لأن تلومني وأنا حي خير من تثني عليّ وأنا ميت، فكان الصبيان إذا رأوا أسلم صاحوا به: أما أبو بلال وراءك! فشكا ذلك إلى ابن زياد، فنهاهم فانتهوا[4]. فهذه أهم حركات الخوارج في عهد معاوية.

ثالثاً: أهم الدروس والعبر والفوائد:

أهم الدروس والعبر والفوائد في محاربة معاوية للخوارج:

1 - إن الناظر في سلوك الخوارج زمن معاوية يجد أن خروجهم في ذلك العهد كان يستهدف إزعاج نظام حكم بني أمية وإضعافه، دون أن يكون لهم أمل في القضاء عليه[5].

2 - كانت بعض هذه الحركات مقتصرة على المجموعات المنسحبة من النّهروان والتي ظلت مشتتة في الأرياف وعدم وجود ما يشير إلى مشاركة الخوارج المقيمين في الكوفة فيها، وهو ما يؤكد عدم حصول تحوّل في موقف هؤلاء رغم التغيير الذي طرأ على السلطة[6].

3 - ومن الملاحظات، ما يخصّ الكوفيين الذين أبدى العديد منهم حماساً في محاربة الخوارج، وإذا كنا نعتقد أن تهديدات معاوية وعداء بعض الكوفيين للخوارج بسبب موقفهم من علي قد لعبت دوراً في دفع هؤلاء إلى المشاركة في قمع الثائرين، فإننا لا نستبعد أن تكون الرغبة الملحّة في إنهاء الحروب والانقسامات والعودة إلى الوحدة قد ساهمت بدورها في دفع

---

(1) أي زوج مرضعته، لسان العرب (4/ 515).
(2) تاريخ الطبري (6/ 231).
(3) أنساب الأشراف (4/ 181).
(4) الكامل في التاريخ (2/ 518).
(5) الخوارج في العصر الأموي، نايف معروف، ص: 130.
(6) حركة الخوارج، لطيفة البكّائي، ص: 60.

الكوفيين إلى مساعدة معاوية في القضاء على هؤلاء المعارضين، رغم يقينهم أنَّهم سيفقدون مع الحكم الجديد امتيازاتهم و سيفقد مصرهم المكانة التي كان يتمتع بها في خلافة علي[1].

4 - كان معاوية رضي الله عنه على وعي تام بحقيقة المعارضة الخارجيّة و موقفها من السلطة ومن شخصه بالذّات، ولذلك لم يعمل على جلب الخوارج إلى صفّه وقرّر منذ اللحظة الأولى التصدي لهم بالقوة[2].

5 - لم يتردد المغيرة بن شعبة في محاربة الخارجين على السلطة بالشرطة والجيش، ولم يقتصر استعمال القوة على الثائرين بل شمل حتى الذين بلغه أنهم ينوون الخروج مثل معين بن عبد الرحمٰن المحاربي وحيان بن ظبيان السّلمي وغيرهما وهو ما يدل على أن المغيرة كان يقوم بمراقبة تحركات الخوارج داخل المصر، ويتجسس عليهم وينزل عقوباته بهم تبعاً لما يصله عنهم من أخبار[3].

6 - أهم وأخطر ما قام به المغيرة رضي الله عنه هواستعماله أنصار علي رضي الله عنه ضد الخوارج مستفيداً من العداوة التي كانت بينهم وهو عمل استفادت منه الدولة الأموية على المدى القريب والبعيد، فعلى المدى القريب، حاصر المغيرة بأعماله الفكر الخارجي في الكوفة، وأسكت المعارضين الموجودين فيها دون أن يكلف الدولة خسارة تُذكر، . . فضلاً عن أنه شغل الكوفيين عن معارضة الدولة الأموية وأعطاها بذلك الفرصة لتدعيم نفوذها[4]. أما عن المدى البعيد فقد عمَّق المغيرة الهوّة بين الخوارج والشيعة وأبعد إمكانية التقارب بين هاتين الحركتين لفترة طويلة، مجنباً بذلك الدولة الأموية خطر مواجهة معارضة موحدة وقوية، غير أن ما قام به المغيرة تجاه المعارضة في الكوفة لم يكن سوى تطبيق لأوامر الخليفة نفسه مع بعض الاجتهادات التي رأى أنّها تخدم الدولة أكثر[5]. . . وأما أنصار أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وخاصة الزعماء منهم، فقد عملت الدولة الأموية على تقريبهم وكسبهم ولذلك سلك المغيرة سياسة اللين معهم وهو ما ضمن الهدوء في الكوفة طيلة ولايته عليها[6].

7 - مع تولي زياد البصرة: تصاعدت عمليات القمع ضد الخوارج فبالإضافة إلى القتل كان زياد يمثل بالمقتولين فيصلبهم في الأماكن العامة، أو في دُورهم، وقد شمل التمثيل الخارجين من الرجال والنساء، ورغم أن التمثيل يعد من الأعمال البشعة التى نهى رسول الله ﷺ عن القيام بها حتى مع الكفّار، فإن زياداً استعمله مع المسلمين رجالاً ونساءً ليروِّع بقية السكان ويلزمهم الهدوء، ولم تكن العقوبات المسلطة على الخوارج مقتصرة على القتل والتمثيل

(1) حركة الخوارج، لطيفة البكّائي، ص: 60.
(2) المصدر نفسه، ص: 66.
(3) المصدر نفسه، ص: 65.
(4) حركة الخوارج : لطيفة البكّائي، ص: 65.
(5) المصدر نفسه، ص: 66.
(6) المصدر نفسه، ص: 66.

والتسيير والإقامة الجبرية، بل شملت كذلك العطاء، وقد تجاوز زياد في هذا المجال من سبقه من الحكّام، إذ قام بشطب أسماء الخوارج من سجلات الديوان[1].

8 - أقحم زياد بأعماله العنف في سياسة الدولة وجعله إحدى ركائزها، واعتبر أن مصلحتها تقتضي استعماله ضدّ كل الذين يرفضون الخضوع لسلطتها[2].

9 - أدّت سياسة زياد ـ العنيفة ـ إلى إخماد تحرّكات الخوارج، وفرضت هيبة الدولة على الجميع، وحوّلت القبائل إلى طرف له دور في سياستها ومنحتها مهمة توفير الأمن داخل المصر بعد أن كانت مهامها تقتصر على دفع الدّية والتأطير العسكري، إلا أنّها أضعفت التضامن القبلي وأفقدت القبيلة القدرة على حماية أبنائها الخارجين على السُّلطة وأجبرتها على القبض عليهم ومعاقبتهم أحياناً، ولئن نجح زياد في إخماد تحرّكات المعارضين وزرع الرّعب في نفوس بقية سكان العراق وتحويلهم من مقاتلة يتمتعون بقدر كبير من الحرية إلى رعية خاضعة كلياً لأجهزة الدّولة، فقد فشل في خنق إرادة الخروج لدى قسم كبير من الخوارج، وهو ما يفسر عودة الانتفاضات في ولاية ابنه عبيد الله[3].

10 - تجاوز عبيد الله بن زياد والده في قمع الخوارج بفرضه العقوبات على الجميع المعلن والمسر على حدّ السواء، وإذا كان القتل هو عقوبته المفضلة فقد كان يعمد أحياناً إلى سجن البعض منهم، كما كان يسمح أحياناً أخرى وتحت تأثير رجال القبائل بإطلاق سراح البعض الآخر مع فرض الإقامة الجبرية عليهم وتكليف من يقوم بعملية المراقبة التي كانت غالباً ما تنتهي بقتلهم لمخالفتهم الأوامر. . . ولم يكن ابن زياد ينتظر خروج الحروريّة عليه بل كان يبحث عنهم مستعملاً كل الوسائل بما في ذلك تشجيع السّكان بالمال لتتبّع تحرّكات أبناء قبائلهم ونقلها إليه أو إلى أعوانه، وقد أدّت هذه الطريقة إلى إلقاء القبض على العديد ممّن يحمل هذا الفكر أو يتعاطف معه أو يُشتبه فيه ذلك، ولكنها فسحت في الوقت نفسه المجال أمام الوشاية وتلفيق التّهم بالباطل[4]، فأججت بذلك الحزازات القبلية القديمة، وخلقت خلافات جديدة بين القبائل[5].

11 ـ السمات العامة لحركات الخوارج في خلافة معاوية رضي الله عنه كالتالي:

أ - اتسمت بالعشوائية والارتجال وقلة التنظيم.

(1) صدر الإسلام والدولة الأموية، محمد عبد الحي شعبان، ص: 99، الخوارج، لطيفة البكّائي، ص: 70.
(2) حركة الخوارج لطيفة البكّائي، ص: 71.
(3) حركة الخوارج، ص: 71، لطيفة البكائي.
(4) المصدر نفسه، ص: 74.
(5) المصدر نفسه، ص: 74.

ب - كانت أشبه ما تكون بعمليات انتحار جماعي، لأنهم يخرجون بفئات قليلة لا تلبث أن تستأصل.

ج - افتقارهم إلى قيادة واعية ومحنكة تستطيع استثمار شجاعتهم وفروسيتهم لتحقيق أهدافهم.

د - تكرارهم لأخطاء بعضهم وعدم استفادة كل حركة من تجربة سابقتها.

هـ - استبعادهم لأسلوب الحوار والمناظرة في عودتهم، ومحاولة فرض فكرهم على المجتمع المسلم بالقوة.

و - اختلاط الدوافع الدينية التي دعتهم للخروج ـ بزعمهم ـ مع دوافع العصبية الجاهلية في حركاتهم، والمتمثلة بخروج بعضهم ثأراً لمن قتل من أصحابهم.

ز - شعورهم بالغربة داخل المجتمع المسلم، ونفورهم منه، واقتناعهم أن قتال أهل القبلة أولى من جهاد الكفار.

ح - عدم بحثهم عن أرض جديدة لنشر دعوتهم، واقتصارهم على بعض مدن العراق، وخاصة الكوفة والبصرة.

ط - سلوكهم طريقة منكرة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهي طريقة الاستعراض، ومرد ذلك إلى الجهل بالدين وقلة العلم، لأن كثرة العبادة ليست دليلاً على فقه الرجل، وإلا لكان الخوارج أفقه أهل زمانهم[1]، ولكنهم كما قال رسول الله ﷺ: **«يحقر أحدكم صلاته مع صلاته وصيامه مع صيامه، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»**[2].

ي - افتقارهم لطول النفس والصبر في مشروعهم التغييري.

12 - شفاعة أبي بكرة الثقفي لبعض الخوارج عند معاوية ونصيحته له:

في عام 41هـ وثب حمران بن أبان على البصرة، فأخذها وتغلب عليها، فبعث معاوية إليه جيشاً ليقتلوه ومن معه، فجاء أبو بكرة الثقفي إلى معاوية، فسأله في الصفح عنهم والعفو، فعفا عنهم وأطلقهم وولّى على البصرة بسر بن أبي أرطأة[3].. وقد قال معاوية لأبي بكرة: هل من عهد تعهده إلينا؟ قال: نعم، أعهد إليك يا أمير المؤمنين أن تنظر لنفسك ورعيّتك وتعمل صالحاً، فإنك قد تقلَّدت عظيماً، خلافة الله في خلقه، فاتق الله، فإن لك غاية لا تعدوها، ومن ورائك طالب حثيث، وأوشك أن تبلغ المدى، فيلحق الطالب، فتصير إلى من يسألك عمّا كنت فيه، وهو أعلم به منك، وإنما هي محاسبة وتوقيف، فلا تُؤثرن على رضا الله شيئاً[4].

(1) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 210.
(2) البخاري مع الفتح (12/ 203).
(3) البداية والنهاية (11/ 149).
(4) البداية والنهاية (11/ 150).

13 ـ استخدام العواطف في حرب الخوارج:

خرج حوثرة بن وداع بن مسعود الأسدي على الدولة الأموية، فدعا معاوية أبا حوثرة فقال له: اخرج إلى ابنك فلعله يرق إذا رآك فخرج إليه وكلمه وناشده وقال: ألا أجيئك بابنك فلعلّك إذا رأيته كرهت فراقه؟ فقال: أنا إلى طعنة بيد كافر برمح أتقلّب فيه ساعة أشوق مني إلى ابني. فرجع أبوه فأخبر معاوية بقوله، فسير معاوية إليهم عبد الله بن عوف الأحمر في ألفين، وخرج أبو حوثرة فيمن خرج فدعا ابنه إلى البراز، فقال: يا أبة لك في غيري سعة. وقاتلهم ابن عوف وصبروا، وبارز حوثرة عبد الله بن عوف فطعنه ابن عوف فقتله وقتل أصحابه إلا خمسين رجلاً دخلوا الكوفة، وذلك في جمادى الأخرة سنة إحدى وأربعين، ورأى ابن عوف بوجه حوثرة أثر السجود، وكان صاحب عبادة، فندم على قتله، وقال:

قتلت أخا بني أسدٍ سفاهاً ... لعمرُ أبي فما لُقيتُ رُشدي
قتلت مصلياً مِخياءَ لَيْلٍ ... طويل الحزن ذا برٍ وقصد
قتلت أخا تُقىً لأنال دنيا ... وذاك لشِقوَتي وعِثارِ جَدّي
فهب لي توبة يا رب واغفر ... لما قارفت من خطاءٍ وعمد[1]

رابعاً: من قصائد الخوارج في عهد معاوية ﷺ:

1 - ما قاله معاذ بن جوين بن الحصين في سجن المغيرة بن شعبة:

ألا أيها الشارون قد حان لامرئٍ ... شرى نفسه لله أن يترحلا
أقمتم بدار الخاطئين جهالة ... وكل امرئٍ منكم يُصادُ لُيقْدَلاً
فشدوا على القوم العُداة فإنما ... أقامتكم للذبح رأياً مضَلَّلا
ألا فاقصدوا يا قوم للغاية التي ... إذا ذكرت كانت أبرّ وأعدلا
فيا ليتني فيكم على ظهر سابح ... شديد القصيرى دارعاً غير أعزلا
ويا ليتني فيكم أعادي عدوّكم ... فيسقيني كأس المنية أوّلا
يعزّ عليّ أن تخافوا وتُطردوا ... ولما أجرّد في المُحِلِّين مُنصّلا
ولما يفرق جمعهم كلُّ ماجد ... إذا قلت ولّى وأدبر أقبَلا
مُشيحاً بنصل السيف في حمس الوغى ... يرى العبر في بعض المواطن أمثلا
وعزّ عليّ أن تصابوا وتُنقصوا ... وأصبح ذا بثٍّ أسيراً مكبلا
ولو أنني فيكم وقصدوا لكم ... أثرت إذا بين الفريقين قَسْطَلا
فيا رُبّ جمعٍ قد فَلَلتُ وغارة ... شهدت وقِرْنٍ قد تركت مُجدَّلا[2]

---

(1) الكامل في التاريخ (3/ 450).

(2) الكامل في التاريخ (2/ 450).

2 - ماقال رجل من بني تيم الله بن ثعلبة:

عندما انتصر مرداس أبو بلال بن أدية من بني ربيعة وكان في أربعين رجلاً على جيش لعبيد الله بن زياد حيث قال:

أألفا مؤمن منكم زعمتم ويقتلهم بآسك[1] أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ولكنّ الخوارج مؤمنونا
هي الفئة القليلة قد علمتم على الفئة الكثيرة ينصرونا[2]

وفي رواية أخرى نسبت قصيدة إلى عيس بن فاتك قال فيها:

فلما أصبحوا صلوا وقاموا إلى الجُرْد العِتاق مسوَّمينا[3]
فلما استجمعوا حملوا عليهم فظل ذوو الجعائل يقتلونا[4]
بقية يومهم حتى أتاهم سوادُ الليل فيه يراوغونا
يقول بصيرهم لما أتاهم بأن القوم ولوا هاربينا
أألفا مؤمن فيما زعمتم ويهزمهم بآسك أربعونا[5]

المبحث الخامس

النظام المالي في عهد معاوية رضي الله عنه

أولاً: مصادر دخل الدولة:

1 - الزكاة:

وهي أهم مكونات النظام المالي الإسلامي وذلك لكونها ثابتة بالكتاب والسنة، إذ يقول عنها سبحانه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥﴾ [البينة: 5]، كما أجمع المسلمون على وجوبها باعتبارها أحد أركان الإسلام الخمسة، ومن ذلك اتفاق صحابة رسول الله ﷺ على قتال مانعيها في عهد أبي بكر الصديق[6]، وقد أسند إلى السلطان مهمة تحصيلها وإنفاقها، فقد كان رسول الله يجمعها

---

(1) آسك: بلد في نواحي الأهواز: معجم البلدان (1/ 53).
(2) تاريخ الطبري (6/ 232، 231).
(3) الجرد العتاق: الخيل الجياد الكريمة، مسومين: معلمين.
(4) ذوو الجعائل: جنود بني أمية المأجورون.
(5) أدب السياسة في العصر الأموي، ص 220 نقلاً عن تهذيب الكمال (1/ 105).
(6) المغني والشرح الكبير (2/ 434)، التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص 64.

ويقوم على تفريقها، وكذلك فعل أبو بكر وعمر أما في عهد عثمان لما كثرت الأموال فقد رأى أن يفوض الممولين فيما يتعلق بالأموال الباطنة كالوكلاء عن الإمام[1]، أما الأموال الظاهرة كالزروع والمواشي ونحوها، فقد استمرت الدولة في جبايتها وإنفاقها، وقد ورد عن أبي بكر وعثمان بن عفان أنهما كانا يأخذان زكاة المال من عطاء الرجل[2]. ثم اختلف بعد مقتل عثمان هل تدفع الزكاة إلى الولاة أم لا[3]، وهذا الخلاف بشأن الأموال الباطنة أما الأموال الظاهرة ظلت تحصلها الدولة، وهذا يدل على سبب نقص حصيلة الزكاة بشكل عام في العصر الأموي، لامتناع جماعة من الناس عن دفعها للولاة، وتفريقها بمعرفتهم، عدا عهد عمر بن عبد العزيز الذي ما إن سمع الناس بولايته حتى سارعوا إلى دفعها للدولة[4]. كما أعاد كذلك أخذ الزكاة من العطاء[5]، أي بالخصم عند المنبع، وهكذا يعكس تعاظم دور الزكاة كأحد مكونات الإيرادات العامة إبان عهد عمر بن عبد العزيز، ولا يعني هذا إغفال دورها الهام طيلة العصر الأموي، فبالرغم من عدم توافر أرقام عنه إلا أن الدلائل تشير إلى كبر أهميتها وذلك لأنها كانت تحصل من قطاعين رئيسيين من قطاعات الاقتصاد الأموي، هما قطاع الزراعة وقطاع التجارة خاصة في ظل نظام العشور[6]، ومنها أيضاً وجود ديوان خاص يسمى ديوان الصدقات[7]، وهو الديوان الذي يتولى النظر في أمور الزكاة والصدقات التي تجبى من القادرين والمتمكنين مالياً ليتم توزيعها على مستحقيها في الوجوه الشرعية التي ذكرها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة[8]، وأشار إليه الجهشياري أول مرة في خلافة هشام بن عبد الملك، ويذكر أن: إسحاق بن قبيصة بن ذؤيب كان يتقلد ديوان الصدقة للخليفة هشام بن عبد الملك، وقد يعود عدم وجود أرقام عن حصيلة الزكاة لعدم تسجيل مقادير تلك الصدقات، إذ كانت تدفع جميعها أو معظمها في الحال إلى مستحقيها[9]، وبصفة عامة يمكن القول إن نظام الزكاة كان مطبقاً في العهد الأموي وفقاً للأسس الشرعية الخاصة به، وأن قمة التطور بالنسبة لحصيلة الزكاة كان في عهد عمر بن عبد العزيز حيث وثق الشعب في الدولة نتيجة حرصها على

---

(1) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع للكساني، كتاب: الزكاة (2/ 820).

(2) الأموال، لأبي عبيد القاسم بن سلام، ص: 372، 373.

(3) المصدر نفسه، ص: 504 إلى 511.

(4) عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص: 104، التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 65، عصام الجفري.

(5) الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموي، ص: 426.

(6) الخراج، ص: 271، 272.

(7) النظم الإسلامية، أنور الرفاعي، ص: 82، 83.

(8) الدواوين في العصر الأموي، نجم المسعودي، ص: 61.

(9) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 66.

تطبيق الإسلام كواقع عملي، فسارع إلى دفع الزكاة إليها، وكذلك أخذ الزكاة من العطاء فيه تخفيف لتكاليف جباية الزكاة، فزيادة الموارد مع قلة التكاليف أحدثت نمواً ملحوظاً في حصيلة الزكاة[1].

2 - الجزية:

ما يؤخذ من أهل الذمة، وهي ضريبة على الذمي المستوفي لشروطها مقابل الدفاع عنه، وكانت تمثل أحد الموارد الثابتة للدولة الأموية، عملاً بقوله تعالى: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: 29]. وهي ثابتة في السنة لما قاله المغيرة بن شعبة لترجمان عامل كسرى: . . فأمرنا نبينا رسول ربنا ﷺ أن نقاتلكم حتى تعبدوا الله وحده، أو تؤدوا الجزية[2]. وهي ثابتة أيضاً بالإجماع[3]، ولم يضف الأمويون شيئاً يذكر بالنسبة لتنظيم الجزية، ويمكن القول بأن جبايتها خضعت لما استقر عليه تنظيمها في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه فمن حيث ضوابطها تمثلت في أربعة هي: تحديد الشريحة التي تؤخذ منها الجزية متمثلة في الذكور العقلاء البالغين[4]، ثم تحديد الفئات المعفاة منها: وهم: الصبيان والنساء، المرضى المزمنون، العبيد، المجانين، العميان، الشيوخ، الرهبان الذين لا مورد لهم[5]، وكذلك مراعاة مستوى دخل الممول يساراً وإعساراً، حيث كانت تفرض على الفرد الغني (48) درهماً سنوياً، وعلى المتوسط (24) درهماً سنوياً وعلى ما دون ذلك (12) درهماً سنوياً بشرط أن يكون ذا حرفة[6]، وأما عن تصنيفها فيمكن تقسيم الجزية وفق المعيارين التاليين:

أ ـ معيار المسؤولية: وطبقاً له تنقسم الجزية إلى فردية وجماعية، فالجزية الفردية هي التي تفرض على كل ذمي مستوف لشروطها في صورة مبلغ محدد يسقط عنه حالة إسلامه، أما الجماعية أو المشتركة فكانت تتم بوضع مبلغ إجمالي معين على أهل القرية أو المدينة، ثم يتولون هم توزيعه بين أفرادهم، ومثالها من عهد النبي ﷺ صلحه ﷺ لأهل أذرح على مائة دينار في كل رجب[7]، وكان غالب الجزية في العصر الأموي من هذا النوع[8].

ب ـ معيار النقدية والعينية: وطبقاً له انقسمت الجزية إلى ثلاثة أقسام: جزية نقدية، جزية عينية، جزية مشتركة. وكانت جميع أصناف الجزية معمولاً بها في العصر الأموي، ولم يوجد

---

(1) المصدر نفسه، ص: 66.
(2) فتح الباري (6/ 317).
(3) المغني، كتاب الجزية (10/ 567).
(4) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 66.
(5) الأحكام السلطانية، ص: 144.
(6) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 67.
(7) فتوح البلدان للبلاذري، ص: 71.
(8) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 67.

ما يشير إلى الخروج عن ذلك، وخاصة وأن الشريعة الإسلامية تقتضي بالالتزام بعقود الصلح، والوفاء بها، لكن هذا لم يمنع من خروج بعض الولاة أحياناً عن الضوابط الشرعية[1]، وبالنسبة لحجم غلة الجزية ونسبتها إلى إجمالي الإيراد الكلي للدولة فهذا مما يصعب تحديده، لكن هناك مؤثرات تدل على عظم حجم إيراد الجزية وما يتضح من الدور الكبير الذي قامت به الدولة الأموية في نشر الإسلام في بلدان كثيرة تم فتحها وفرض الجزية على من لم يسلم من أهلها[2].

3 - الخراج:

كبقية المصادر المالية للدولة التي كان لعمر بن الخطاب الريادة في تنظيمها، فقد استفادت الدولة الأموية من تنظيم عمر له، إذ سارت في أغلب أقاليمها عليه، إلا ما طرأ من تعديلات سوف يتم التعرض لها[3]، وللخراج معنى خاص: وهو إيراد الأراضي التي افتتحها المسلمون عنوة وأوقفها الإمام لمصالح المسلمين على الدوام كما فعل عمر بأرض السواد من العراق والشام[4]، والخراج كما قال ابن رجب الحنبلي: لا يقاس بإجارة ولا ثمن، بل هو أصل ثابت بنفسه لا يقاس بغيره[5]، وكان للخراج أهمية كبرى بالنسبة للدولة الأموية وكانت غلة الخراج في منطقة السواد على سبيل المثال في عهد ابنه عبيد الله سنة 54هـ ـ 66هـ بلغ 135 مليون درهماً[6]، وأما منطقة الجزيرة والشام: فقد استمر الخراج في هذه المنطقة وفقاً لما وضعه معاوية بن أبي سفيان، الذي فرض ضرائب على أهل المدن ذات شقين، شق منه جزية والآخر خراج وهو كما يلي:

أ - على أهل قنسرين حوالي مليون وخمسمائة ألف درهماً.

ب - على الأردن ستمائة ألف درهماً.

جـ - على فلسطين حوالي ستمائة ألف درهماً[7].

وقد حدثت بعض الانحرافات في تحصيل الخراج في عدة صور أهمها:

(1) المصدر نفسه، ص: 68، ومن أراد التوسع فلينظر: تاريخ بلاد الشام الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 294.
(2) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 71.
(3) المصدر نفسه، ص: 73.
(4) الخراج لأبي يوسف ص: 24، 25 اقتصاديات الحرب، ص: 215.
(5) الاستخراج لأحكام الخراج ص: 40، اقتصاديات الحرب، ص: 215.
(6) الأحكام السلطانية ص: 175، التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 74.
(7) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 76.

- فرض الخراج على أرض مستثناة منه بنص عقود الصلح[1]، فقد حدث ذلك في عهد يزيد ابن معاوية (60 ـ 64) حيث فرض الخراج على أرض السامرة[2]، بالأردن وفلسطين.

- استخدام العنف في تحصيل الخراج، في بعض الأقاليم ـ باستثناء عهد عمر بن عبد العزيز ، حيث استخدمت الشدة في تحصيل الإيرادات بأنواعها ـ[3].

- تحميل نفقات جباية الخراج على الممول، ومن تلك النفقات قيمة الورق الذي يكتب عليه مقادير الخراج، قيمة إيجار المستودعات التي يتم تخزين حصيلة الخراج العينية فيها، أجرة الجابي الذي يقوم بالجباية وبقية نفقات تحصيل الخراج[4]، وقد حدث ذلك خاصة في إقليم العراق وكان قبل عهد عمر بن عبد العزيز، فلما ولي الخلافة أبطلها ثم عادت بعد موته[5]، وكان للخراج في عهد الدولة الأموية ديوان خاص به، يسمى ديوان الخراج: وهو الذي يتولى النظر في جباية ضريبة الخراج، ويقوم بجمعها وتسجيلها، ووضع تقديرات لها، لأنها أعظم واردات الدولة[6]، وكان الأمويون قد فصلوا بين الولاية والجباية وعينوا مسؤولين عنها لكي يحصروا المسؤولية، وقد ذكرت المصادر قائمة بأسماء الذين أسندت إليهم مهمة الجباية والإشراف على أعمال الديوان، فمعاوية ﵁ عين على خراج دمشق ـ سرجون بن منصور[7]، وعلى خراج فلسطين: سليمان المشجعي[8]، وعلى خراج حمص ابن أثال النصراني[9]، وفي خلافة يزيد بن معاوية استمر على الديوان: سرجون بن منصور، كما بقي عليه طوال حكم معاوية الثاني، ومروان بن الحكم، وعبد الملك، حتى عزله[10]، وقد أولى معاوية ﵁ ولاته في الأقاليم الأرض ومن عليها عناية متزايدة فاستصلح البطائح وهي أرض واسعة مغمورة بالمياه، بقطع القصب وعلب الماء بالمسنيات مما أدّى إلى عمارة البلاد وزيادة الوارد العام بمقدار خمسة آلاف ألف درهم وراعى معاوية حالة السكان وسعى لتطمينهم والتخفيف عن كاهلهم بمجموعة من الإجراءات يتعلق بعضها بضريبة الخراج ذاتها، وبعضها

---

(1) فتوح البلدان، ص: 162، 163.
(2) السامرة : قوم من اليهود وهم صنفان : الدستان والكوشان، التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 78.
(3) الخراج لأبي يوسف، ص: 269، 270.
(4) المصدر نفسه، ص: 186، 187، التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 78.
(5) الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموي، ص: 456.
(6) إدارة بلاد الشام في العهدين الراشدي والأموي، ص: 177.
(7) الجهشياري، ص: 24.
(8) الجهشياري، ص: 26، إدارة بلاد الشام، ص: 178.
(9) تاريخ اليعقوبي (2/ 223).
(10) إدارة بلاد الشام في العهد الراشدي والأموي، ص: 178.

الآخر يتعلق بالقائمين على الضريبة [1]. ومن ناحية أخرى، فقد عمل معاوية على إنصاف دافعي الضريبة باختيار عماله ومتابعته لهم، وإن كانوا من المقربين، فقد عزل ابن أم الحكم وهو عبد الرحمٰن بن عبد الله الثقفي ـ وهو ابن اخته ـ لأنه اشتد في أمر الخراج ولم يقبل من عامل خراجه جباية الخراج قبل موعده الموجود[2]. وفي الفترة الأموية تكثر الإشارة إلى استعمال الأعاجم في الخراج، وصلاحهم لذلك لأسباب عبر عنها زياد بن أبيه بوضوح منها معرفتهم بأمور الخراج ودورهم في إعمار الأرض[3]، حيث يقول: وينبغي أن يكون كتاب الخراج من رؤساء الأعاجم العالمين بأمور الخراج[4]، ودعا زياد إلى مراعاة الدهاقين والإحسان إليهم: أحسنوا إلى الدهاقين[5]، فإنكم لن تزالوا سماناً ما سمنوا[6].

4 - العشور:

هي الأموال التي يتم تحصيلها على التجارة التي تمر عبر حدود الدولة الإسلامية سواء داخلة أو خارجة من أرض الدولة وهي أشبه ما تكون بالرسوم الجمركية في العصر الحاضر، ويقوم بتحصيلها موظف يقال له العاشر أي الذي يأخذ العشور[7]، وأول من وضعها في الإسلام هو عمر بن الخطاب ﷺ، وقد فرضها على الحربي بنسبة العشر، وعلى الذمي نصف العشر، وعلى المسلم ربع العشر[8]، وقد استمر هذا النظام في العهد الأموي وفق القواعد التالية:

أ - إعفاء الحد الأدنى لرأس المال، والذي قدر بالنسبة للمسلم بمائتي درهماً[9]، أما بالنسبة للحربي والذمي فقد اختلف فيه[10].

ب - لا تحصل العشور إلا مرة واحدة في السنة.

جـ - يشترط لتحصيل العشر من النعم التي للمسلم أن تكون سائمة.

(1) الخراج د. غيداء خزانة كاتبي، ص: 239.
(2) المصدر نفسه، ص: 239.
(3) المصدر نفسه، ص: 262.
(4) المصدر نفسه، ص: 262.
(5) الدهقان: شيخ القرية العالم بالزراعة، وما يصلح للأرض من شجر.
(6) الضرائب في السواد في العصر الأموي للدوري، ص: 48، الخراج، ص: 263.
(7) الخراج لأبي يوسف، ص: 271، اقتصاديات الحرب، ص: 223.
(8) الأموال لأبي عبيد، ص: 475، 476.
(9) الخراج لأبي يوسف، ص: 276.
(10) الأموال لأبي عبيد، ص: 477.

د - لا تؤخذ العشور من عبد ولا مكاتب ولا مضارب ولا بضاعة، وإنما من رب المال نفسه[1].

هـ - أن يكتب للتاجر سند بالمبلغ الذي دفعه، وبمقتضاه لا تأخذ منه العشور إلا في السنة التالية[2].

و - أن لا يتم تفتيش التاجر ولا تعنيفه[3].

ز - أن من ادعى ديناً يستغرق ما معه من التجارة، صدق إن كان مسلماً، وإن ارتاب في أمره استحلفه (على خلاف ذلك)[4]، وأما الذمي فأقرب الأقوال فيه أن يشهد له شاهدان من المسلمين حتى يعفى[5].

ح - أن العشور التي تأخذ من المسلمين هي الزكاة فلا يجمع على المال زكاة وعشور[6].

ط - أن غير المسلم إذا مر بما يوصف بالمالية عندهم وليس بمال عند المسلمين كالخمر والخنزير ونحوها، يقومه أناس من غير المسلمين، ويضاف إلى قيمة ما معه من تجارة ويؤخذ منه العشور[7]. وهناك من الدلائل ما يشير إلى أن العشور كانت تشكل جزءاً مهماً في إيرادات الدولة، من ذلك ما لمسه ابن الزبير من نقص في مواد الدولة حينما منع تحصيل العشور لمدة عام واحد مما حمله على التراجع على ذلك القرار[8].

5 - الصوافي:

هو ما اصطفاه الإمام لبيت المال من أرض الفيء كما فعل رسول الله ﷺ أو من البلاد المفتوحة عنوة بحق الخمس أو باستطابة نفوس الغانمين، كما فعل عمر بن الخطاب ﷺ[9].. ثم أقطعت أجزاء منها إلى بعض من كان يتولى استثمارها، على أن يؤدي لبيت المال ما عليها، وأول من أقطع عثمان بن عفان ﷺ[10]، وذلك بدافع زيادة

(1) الخراج لأبي يوسف، ص: 274.
(2) الأموال لأبي عبيد، ص: 475، التطور الاقتصادي ص: 80.
(3) الخراج لأبي يوسف، ص: 275، التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 80.
(4) الأموال لأبي عبيد، ص: 480، 481.
(5) المرجع السابق، ص: 479، التطور الاقتصادي، ص: 80.
(6) الخراج لأبي يوسف ص: 273.
(7) المصدر نفسه، ص: 273.
(8) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 80.
(9) الأحكام السلطانية، ص: 192.
(10) فتوح البلدان، ص: 273.

غلتها، وقد اشترط على من يقطعه إياها حق الفيء[1]، فبلغت غلتها آنذاك خمسين مليون درهماً[2]، وانتبه معاوية بن أبي سفيان للصوافي في وقت مبكر، وكتب إلى الخليفة عثمان سأله أن يقطعه إياها، ليقوى بها على ما وصف في كتابه يقول ابن عساكر: حتى كتب معاوية في إمرته على الشام إلى عثمان أن الذي أجراه عليه من الرزق في عمله ليس يقوم بمؤن من يقدم عليه من وفود الأجناد ورسل أمرائهم، ومن يقدم عليه من رسل الروم ووفودها. ووصف في كتابه هذه المزارع الصافية وسماها له، وسأله أن يقطعه إياها ليقوى بها على ما وصف له وأنها ليست من قرى أهل الذمة ولا الخراج، فكتب إليه عثمان بذلك كتاباً[3]، يضاف إلى تلك المزارع، مزارع وأراضي بني فوقا الذين لا وراث لهم، فأخذ معاوية ما يليهم[4]. ولما أفضى الأمر إليه، جعل هذه الأراضي حبساً[5] على فقراء أهل بيته والمسلمين[6]، وأشار المؤرخ الشيعي اليعقوبي إلى أن معاوية جعل هذه الأراضي، وضياع الملوك في الشام والجزيرة واليمن والعراق خالصة لنفسه عندما أفضى الأمر إليه[7].

فأقطع منها فقراء أهل بيته وخاصته، واعتبر بذلك: أول من كانت له الصوافي في جميع أرجاء الدنيا[8]، وهذه الإشارة من اليعقوبي تلفت الانتباه إلى الالتباس الواضح في لغتها، فقد ذكرت صوافي في الجزيرة واليمن علماً بأن عمر بن الخطاب كان قد أصفى مجموعات خاصة في أراضي السواد وأراضي الشام لم يدخل فيها صوافي الجزيرة واليمن[9]. كما أشار اليعقوبي إلى أن معاوية جعل هذه الأراضي خالصة لنفسه، فأقطع منها فقراء أهل بيته وخاصته، وبمقارنة هذا النص، بنص ابن عساكر عن الموضوع نفسه، يظهر مدى المبالغة في تلك الرواية، يقول ابن عساكر عن تلك الأراضي: فلم تزل بيد معاوية حتى قتل عثمان وأفضى إلى معاوية الأمر، فأقرّها على حالها ثم جعل من بعده حبساً على فقراء أهل بيته والمسلمين، أي أن معاوية لم يتصرف فيها ابتداء بل تركها على حالها[10] ولكن يبدو أن هناك ضرورات سياسية نشأت في الشام دفعت الدولة إلى اتخاذ ضرب جديد من التنظيم والسعي لخدمة

---

(1) الأحكام السلطانية، ص: 193.
(2) المصدر نفسه، ص: 193.
(3) تهذيب تاريخ دمشق (1/ 184) الخراج د. غيداء، ص: 307.
(4) الخراج، د. غيداء، ص: 307.
(5) الحبس: الوقف.
(6) تهذيب تاريخ دمشق (1/ 84) الخراج، غيداء، ص: 307.
(7) تاريخ اليعقوبي (2/ 232 - 234).
(8) تاريخ اليعقوبي (2/ 234).
(9) المعرفة والتاريخ (1/ 434) الخراج، غيداء، ص: 307.
(10) الخراج، غيداء، ص: 308.

مصالح الدولة، ومن هذه الضرورات محاولة إقامة توازن قبلي في بلاد الشام بين اليمانية وبين القيسية ولذلك أقطع معاوية إقطاعات واسعة في هذا المجال[1]، ولقد أسيء فهم هذا الإجراء وفسر بعض المؤرخين كاليعقوبي، موضوع مصالح الدولة بأنه يعني مصالح الأسرة الأموية وبالتحديد معاوية[2]، ولا شك أن معاوية استخدم هذه الأموال في تثبيت دعائم الدولة، وحفظ وحدة الأمة، فكان يتصرف وفق ما يراه مناسباً للصالح العام[3]، ولا يمنع ذلك الإحسان إلى أسرته والمقربين إليه بالمعروف، وقد أمر معاوية بإعادة مسح للصوافي في أمصار الدولة الأموية وأضاف أراضي واسعة بعد العثور على سجل الضياع الساسانية[4] أصبحت تحت تصرف معاوية المباشر فكان يسد منها بعض حالات العجز في النفقات العامة، فقد بلغ غلة صوافيه بالعراق وما يتبعه مائة مليون درهماً[5] وكذلك فعل بصوافي أرض الشام والجزيرة واليمن حتى فدك اصطفاها لنفسه ثم أقطعها لمروان بن الحكم[6]، وظلت كذلك طيلة العهد الأموي، باستثناء عصر عمر بن عبد العزيز الذي أعادها للملكية العامة وشجع القطاع الخاص على استثمارها[7]، كما رد فدك لبيت المال ووضع ما يأتي منها في أبناء السبيل، كما فعل رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده[8]، كما أمر باستثمار أراضي الصوافي حين كتب إلى واليه على العراق: انظر ما قبلكم من أرض الصافية، فأعطوه حتى تبلغ العشر فإن لم يزرعها أحد فامنحها فإن لم تزرع فأنفق عليها من بيت مال المسلمين، ولا تبتزن قبلك أرضاً[9]، ونلاحظ من هذا النص اهتمام عمر بن عبد العزيز بأمر الصوافي مما يدل على أهميته في موارد الدولة.. لكن أمر الصوافي عاد إلى ما كان عليه الأمر بعد عهد عمر بن عبد العزيز[10].

6 - خمس الغنائم:

تعرّف الغنيمة: ما غلب عليه المسلمون بالقتال حتى يأخذوه عنوة[11]، وقد نص عليها القرآن الكريم، وفي العصر الأموي ازدادت حركة الفتوحات وبالتالي زادت الغنائم كأحد موارد بيت المال، وقد اتبع الأمويون نفس النهج العمري بالنسبة للغنائم والأراضي المفتوحة، فكان تخميس الغنائم وتقسيمها بين الفاتحين وترك الأرض فيئاً لمجموع المسلمين

---

(1) المصدر نفسه، ص: 308.
(2) المصدر نفسه، ص: 309، دراسات في حضارات الإسلام، ص: 46.
(3) الخراج، ص: 311 غيداء خزنة كاتبي.
(4) الخراج، ص: 311 غيداء خزنة كاتبي.
(5) الإدارة في العصر الأموي، نجدة خماش، ص: 197.
(6) فتوح البلدان، ص: 46.
(7) المصدر نفسه، ص: 46، التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 82.
(8) فتوح البلدان، ص: 24 - 48.
(9) واسط في العصر الأموي، ص: 406.
(10) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 82.
(11) الخراج، يحيى القرشي، ص: 58.

مع ضرب الخراج عليها[1]، هذه أهم المصادر المالية للدولة مع وجود مصادر أخرى كنظام خمس الركاز، ومال من لا ورث له إذ ظل في العصر الأموي على ما كان عليه عهد رسول الله والخلفاء الراشدين إضافة إلى أن نسبة هذين العنصرين بسيطة جداً بالنسبة لغيرها من المصادر[2].

ثانياً: النفقات العامة:

1 - النفقات العسكرية:

حملت الدولة الأموية على عاتقها مهمة مواصلة نشر الإسلام في أرجاء المعمورة، ولذلك اتسعت الدولة الإسلامية في العصر الأموي اتساعاً كبيراً، وقد تم لها ذلك على الرغم مما كانت تعانيه من فتن وقلاقل داخلية تتطلب أموالاً طائلة لإخمادها، وتتضح معالم النفقات العسكرية في العصر الأموي من خلال نفقات الجند والصناعات الحربية[3].

أ ـ رواتب الجند: ويشرف عليها ديوان الجند، وتجمع المصادر على أن أول من وضعه ورتبه هو الخليفة عمر بن الخطاب سنة 20هـ[4]، وقد بقي هذا الديوان على الأساس نفسه من حيث تحفظ سجلات بأسماء المقاتلين وأوصافهم، وأنسابهم ومقدار أعطياتهم[5]، وقد عمل معاوية بن أبي سفيان على تحسين حالة الجند المعاشية فزاد في أعطياتهم، بسبب الظروف المستجدة وتحسن الأحوال الاقتصادية في الدولة، وكان أمير المؤمنين معاوية: يتفقد أحوال القبائل، كجزء من سياسته في حفظ التوازن بين قبائل اليمن والقبائل القيسية، وكان قد جعل على كل قبيلة من قبائل العرب بمصر رجلاً يصبح كل يوم فيدور على المجالس فيقول: هل ولد الليلة فيكم مولود وهل نزل بكم نازل، فيقال: ولد لفلان غلام ولفلان جارية، فيقال: سموهم فيكتب، ويقال: نزل بنا رجل من أهل اليمن بعياله فيسمونه وعياله فإذا فرغ من القبائل كلها أتى الديوان[6]، وكان للجند ديوان مركزي في دمشق في حين وجدت دواوين فرعية في مراكز الولايات: كالكوفة والبصرة والفسطاط[7]، وكان سلم رواتب الجند في عهد معاوية كالآتي: على درجات: شرف العطاء والمرتب 2000 درهم، عطاء العرب فئة (أ) 300 درهم، فئة

---

(1) الإدارة في العصر الأموي، ص: 21.
(2) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 86.
(3) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 97.
(4) طبقات ابن سعد (1/ 213) تاريخ اليعقوبي (2/ 143).
(5) التراتيب الإدارية للكتاني (1/ 225) الدواوين في العصر الأموي، ص: 37.
(6) حسن المحاضرة للسيوطي (1/ 65) الدواوين في العصر الأموي، ص: 37.
(7) الجيش والأسطول الإسلامي في العصر الأموي، ص: 535.

(ب) 1000 درهم، فئة (جـ) 1500 درهم، وأدخل الموالي في العطاء[1]، وكانت نفقات رواتب الجند في عهد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه كالآتي:

- في منطقة مصر: كان عدد المسجلين في الديوان 40000 جندي منهم أربعة آلاف مسجلين بشرف العطاء[2]، وبالتالي يكون مجمل عطاؤهم 8000000 درهماً، أما بقية المسجلين في الديوان فكان عددهم 36000 جندياً وعلى فرض أن عطاء الجندي سنوياً هو 300 درهماً يصبح إجمالي عطاؤهم 10800000 درهماً[3].

- في منطقة الشام: كان عدد الجند المسجلين في ديوان الشام ستون ألف جندي، كان الدخل السنوي لكل جندي ألف درهماً، أما إجمالي نفقات جند الشام فبلغ ستين مليون درهم[4].

- في العراق نأخذ مثالاً ديوان البصرة: حيث بلغ عدد المسجلين به ثمانين ألف مقاتل[5]، وبلغت مرتباتهم في عهد زياد 36000000 درهماً ، فإذا أخرجنا منهم نسبة 10% مسجلين في شرف العطاء، (قياساً على ديوان مصر) يكون المتبقي20000000 درهماً، وعليه يكون متوسط الدخل للجندي في ديوان البصرة حوالي 278 درهماً ويمكن قياس بقية منطقة العراق على هذا[6].

وقامت الدولة الأموية بتطوير ديوان الجند، وهو الجهة المسؤولة عن نفقات ورواتب الجند وكان من أبرز صور هذا التطوير ما يلي:

● - فقد قام مندوب معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه المكلف بتوزيع عطاء المدينة بدفع عطاء كل رجل في يده مباشرة وكان النظام السابق هو أن يدفع العطاء إلى العرفاء. لكن هؤلاء العرفاء لم يكونوا يغيبون غائباً ولا يميتون ميتاً[7].

● - وفي عهد معاوية قام واليه على العراق زياد بن أبيه، بتخفيض النفقات الإدارية لديوان الجند، حيث اختصر عدد العرفاء المسئولين عن توزيع العطاء ليصبح لكل قبيلة عريف واحد[8].

---

(1) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 98.
(2) ديوان الجند للسلومي، ص: 149 التطور الاقتصادي، ص: 99.
(3) الخطط للمقريزي (1/ 128).
(4) الخراج والنظم المالية للريس، ص: 94.
(5) الحياة الاقتصادية في صدر الإسلام، بطاينة نقلاً عن التطور الاقتصادي، ص: 99.
(6) المصدر نفسه، ص: 100.
(7) ديوان الجند للسلومي، ص: 169 التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 102.
(8) الإدارة في العصر الأموي، ص: 320.

ب ـ نفقات الصناعات الحربية: على الرغم من عدم وجود أرقام محددة في نفقات الدولة على الصناعات الحربية، إلا أن هناك ما يدل على اتجاه هذه النفقة نحو التزايد، فقد كان اهتمام الدولة الأموية منصباً على تطوير سلاح البحرية، وقد بلغ عدد قطع الأسطول البحري الإسلامي في بداية تكوينه مائتي مركب[1]، ثم تطور على يد الدولة الأموية ليبلغ في عهد سليمان بن عبد الملك ألف وثمانمئة سفينة كبيرة[2].

2 - النفقات الإدارية:

تقسم هذه النفقات إلى قسمين، رواتب الموظفين ونفقات المستلزمات الإدارية، وكانت هذه الأخيرة ضئيلة للغاية، ومتمثلة في الشموع وأوراق الكتابة، وغيرها من الأدوات البسيطة التي لا تشكل شيئاً يذكر بالنسبة لما هو عليه الأمر اليوم ومع ذلك فقد تميز عهد عمر بن عبد العزيز بالحساسية للمال العام، فكانت هذه النفقات في عهده أقل من غيره من العهود[3]، وسنركز الحديث عن رواتب الموظفين، ويبدو أن رواتب الموظفين كان متروكاً إلى والي الإقليم، يحدد لنفسه ولعماله رواتبهم حسب ما يرى، وقد ساعدت هذه اللامركزية على ظهور مرتبات كبيرة نسبياً ـ إذا ما قورنت بالمرتبات في عهد عمر بن الخطاب وبمتوسط مستوى المعيشة المتواضع نسبياً في الدولة الأموية ـ حيث بلغ مرتب والي العراق زياد بن أبيه خمسة وعشرين ألف درهماً شهرياً[4]، وظهرت أيضاً إلى جانب المرتبات الكبيرة مخصصات إضافية، فهذا زياد بن أبيه يجعل لأحد الولاة التابعين لإدارته مائة ألف درهم سنوياً عدا مرتبه[5] وهذه بعض النماذج من رواتب الموظفين خلال فترات من العصر الأموي، يمكن اعتبارها مؤشراً على مستوى رواتب ومكافآت موظفي الدولة، وذلك لعدم العثور على معلومات تفصيلية عنها.

أ - كان الحد الأقصى لرواتب الكتاب طوال العصر الأموي وطرفاً من العباسي حتى عهد المأمون هو 3600 درهماً سنوياً، وكان حدها الأدني 720 درهماً سنوياً[6].

ب ـ يرجح أن أكبر مرتب لصاحب الشرطة في العصر الأموي بلغت مائة ألف درهماً سنوياً[7].

جـ - مرتبات القضاة كانت عبارة عن رزق يجري عليهم من بيت المال ليتفرغوا للقضاء[8]،

---

(1) تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، ص: 115، 116.
(2) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 106.
(3) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 106.
(4) الإدارة في العصر الأموي، ص: 310.
(5) المصدر نفسه، ص: 310.
(6) الإدارة في العصر الأموي، ص: 310.
(7) المصدر نفسه، ص: 318.
(8) المصدر نفسه، ص: 331.

وكان حده الأدنى ألف ومائتي درهماً سنوياً[1]، وأما الحد الأقصى فقد بلغ ثلاثة آلاف درهماً سنوياً[2].

3 - مصارف الزكاة:

حيث يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦٠﴾ [التوبة: 60].

4 - مصارف الفيء:

قال ﷻ: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ...﴾ [الحشر: 7].

5 - معظم مصارف العشور:

التي تأخذ من المسلمين هي نفقات تحويلية لأنها تعتبر في حقهم زكاة فتصرف في مصارف الزكاة.

6 - نفقات الضمان الاجتماعي:

تطورت نفقات الضمان الاجتماعي في الدولة الأموية كانت في صورة عينية، وكمثال على ذلك ما ورد من أن الفقراء في إقليمي الحجاز والعراق خلال الفترة (45هـ ـ 53هـ) كانوا يحملون بطاقات محدد لهم فيها الكمية المخصصة لكل فرد منهم من المعونة العينية[3] ثم أصبحت في عهد عمر بن عبد العزيز (99هـ ـ 101هـ) مزيجاً من النفقات النقدية والعينية، وكمثال على المعونات النقدية قضاء دين من أدان في غير سفه، ولا سرف، وتزويج الرجل الذي ليس له مال وله رغبة في الزواج[4]، ومثال النفقات العينية، أنه أمر لكل أعمى بقائد، ولكل خمسة من اليتامى بخادم[5]، وشملت في عهده نفقات الضمان الاجتماعي إلى غير المسلمين[6]، ثم تطور الأمر حتى مثلت نفقات الضمان الاجتماعي بنداً محدداً من بنود النفقات العامة للدولة، ومثال ذلك يوجد ضمن بنود النفقات العامة السنوية في إقليم العراق

---

(1) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 107.
(2) فتوح مصر وأخبارها، ص: 236.
(3) الإدارة في العصر الأموي، ص: 335.
(4) الأموال لأبي عبيد، ص: 234، 235.
(5) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص: 183.
(6) الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموي، ص: 433.

خلال الفترة (120 ـ 126هـ) مبلغ عشرة آلاف درهم[1]، مخصصاً لبيوت رعاية الأحداث[2]، والعواتق[3].

ثالثاً: اهتمام الدولة بالزراعة:

مع بداية الدولة الأموية ظهرت الملكيات الزراعية الكبيرة وذلك نتيجة لدخول الولاة والخلفاء في هذا الميدان، ولذلك اهتموا بإحياء الأرض الموات من أراضي الصوافي وغيرها من الأراضي المفتوحة الخصبة، وبالذات إقليم العراق وما شابهه، وقد ساعدهم في ذلك حجم السيولة التي يملكونها، فقد أحيا والي معاوية ﷺ على خراج العراق أرضين من البطائح لمعاوية، حيث قام بقطع الماء عنها وتجفيفها وزراعتها، وقد بلغت غلتها خمسة ملايين درهم[4]، وهذا مما يدل على عظم مساحتها، ولم يكن معاوية ﷺ يجعل ريعها كله داخلاً في نفقاته الخاصة، وإنما كان يتدارك منها شيء من النقص في النفقات العامة[5]، ولم يدخل تلك الأرضين في ملكه يتوارثها من بعده، بدلالة أن الأرض التي أحياها الحجاج فيما بعد لعبد الملك هي نفس الأرض التي أحياها معاوية ﷺ ، إلا أنها عادت مواتاً لغلبة الماء عليها[6]. ومن الناحية الشرعية فإن أحياء الأرض بصفة عامة مباح، بل هو سبب من أسباب الملك لها وذلك استناداً على الأحاديث الواردة في ذلك، وهي إباحة عامة يستوي فيها الحاكم، والمحكوم، إلا أنه في حق الحاكم ينبغي أن تكون هناك قيود إضافية لعل من أبرزها :

- عدم استغلال الحاكم لسلطته ومكانته، وإنما يدخل في عملية الإحياء كأي فرد من أفراد الشعب.

- عدم استخدام أموال المسلمين في عملية الإحياء، بل يقوم بإحيائها من ماله الخاص.

- ألا يترتب على تملكه للأرض بطريق الإحياء ضرر على المسلمين، الأفراد أو جماعة المسلمين، وكذا من له ذمة[7]، وقد ساهم الإقطاع ـ الإقطاع أي يقصد الإحياء والإعمار ـ في تكوين الملكيات الزراعية الكبيرة، فقد أقطع معاوية ﷺ بعض إخوته الجزيرة التي بين النهرين، فأرسل زياد بن أبيه الماء، فلما نظر إليها المقطوعة له ظن أنها بطيحة، فاشتراها منه

---

(1) الأحكام السلطانية للماوردي، ص: 175 - 176.

(2) حداثة السن : كناية عن الشباب وأول العمر، لسان العرب مادة حدث (2/ 796).

(3) العواتق : جمع عاتق وقيل هي البكر التي لم تبن عن أهلها وقيل هي التي بين التي أدركت وبين التي عنست.

(4) فتوح البلدان، ص: 291، الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، ص: 187.

(5) الحياة الاقتصادية والاجتماعية بطاينة، ص: 135.

(6) الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية للريس، ص: 214.

(7) التطور الاقتصادي في العصر الأموي.

زياد بمائتي درهم، وقد أقطع زياد بعد ذلك من تلك الأرض غيره، مما يدل على عظم حجمها، حتى أنه أيضاً حفر لها أنهاراً وليس نهراً واحداً[1]، وأقطع زياد بن أبيه مرّة مائة جيب[2] على نهر الأبلة فحفر لها نهراً فسمي باسمه، كما أقطع أيضاً كل بنت من بناته ـ أي بنات زياد ـ ستين جريباً[3] واستمرت الملكيات الزراعية بالتوسع مع مجيء الخلفاء الأمويين بعد معاوية ﷺ ، ولم ينحصر الإقطاع للأراضي على الأسرة الأموية وبعض وجهاء قريش، وإن كان هو الغالب[4]، إذ كانت هناك إقطاعات لعامة الشعب، ومثال ذلك أن زياداً كان يقطع الرجل القطعية ويتركه سنتين فإن لم يعمرها أخذها منه[5]، وقد كانت تقدر مساحات تلك الإقطاعات بين (60 ـ 100) جريب[6]، وقد كانت إقطاعات الدولة الأموية من الصوافي أو من الأراضي الموات ولكن بصفة عامة يؤخذ على القطاع في العصر الأموي عنصر المحاباة، إذ أن أصحاب الملكيات الكبيرة كانوا إما من الأسرة الأموية أو من أشراف قريش، وبحثت الدولة عن أصحاب السيولة النقدية القادرين على استثمار تلك الأراضي، لكن ترتب على ذلك السلوك تركز الثروة الكبيرة في أيدي قلة من أفراد المجتمع[7]، كانت الزراعة في العصر الأموي تعتمد بصفة رئيسية على مياه الأنهار، ولذا نجد أن مراكز الإنتاج الزراعي الرئيسية كانت هي العراق ومصر والشام، وبالذات حول الأنهار[8]، وكان للقطاع الخاص دوره في تطوير الزراعة في العهد الأموي، وقد قام القطاع الخاص باستصلاح أراضي زراعية جديدة بمساحات واسعة ومثال ذلك أراضي البطائح التي كانت منذ عهد الفرس وحتى عهد الدولة الأموية أراضي مغمورة بالمياه، فبدأت من بداية الدولة الأموية حركة استصلاحها بحجز المياه عنها وتجفيفها، وقد خرجت منها أراضي واسعة وخصبة وفيرة الإنتاج[9]، وقد توسعت الملكيات الزراعية الخاصة، وترتب عليها زيادة في الإنتاج الزراعي، مما أدى إلى وجود أراضي بعيدة عن مصدر الري وهو النهر الأساسي، فحدث تطور في تقنية الري حيث ظهرت حركة حفر الأنهار والقنوات الفرعية وفق طرق هندسية تسمح لتلك الأراضي بالاستفادة من

---

(1) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 178.
(2) المقصود به هنا : وحدة المساحة.
(3) معجم البلدان (1/ 435) التطور الاقتصادي، ص: 180.
(4) أرض الصوافي للمصري، ص: 122.
(5) تطوير نظام ملكية الأراضي، محمد علي، ص: 190، 191.
(6) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 188.
(7) تطوير نظام ملكية الأراضي، محمد علي، ص: 190 - 191.
(8) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 188.
(9) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 190.

ماء النهر دون أن يؤدي ذلك إلى إغراقها، وقد توسع القطاع الخاص في حفر هذه الأنهار والقنوات، فحدثت تنمية زراعية نتيجة استفادة الأراضي التي كانت تمر بجوارها تلك الأنهار والقنوات الفرعية[1]، وقد تمّ نقل التقنية الزراعية من البلاد المفتوحة حديثة إلى مراكز الإنتاج الزراعي الرئيسية في الدولة الأموية[2] إلا أن القطاع الزراعي تعرض للتدهور في المنطقة الشرقية من الدولة الأموية بسبب عوامل متعددة منها:

1 - الاضطراب السياسي، وفقدان الأمن بالمنطقة، فانعكس ذلك على مستوى الإنتاجية الزراعية، ويبدأ هذا الاضطراب مع مجيء يزيد بن معاوية، ومعاوية الثاني، ومروان بن الحكم.. الخ.

2 - تركز الثروة في يد قلة من سكان المنطقة، حيث كانت معظم التركيبة السكانية من الموالي[3]، مما ترتب عليه ضعف حركة النقود داخل المنطقة، فضعفت حركة تبادل السلع، أي حدوث كساد اقتصادي بالمنطقة.

3 - إعادة ضريبة النيروز والمهرجان التي روي أنها بدأت مع عهد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه [4]، وكان السبب في إعادتها أن الناس اعتادوا دفعها على الرغم من منع الإسلام لها[5]، فأراد معاوية رضي الله عنه سحب مبالغها من غير المسلمين من الدهاقنة المسئولين عن الجباية، حتى لا يكونوا مراكز ثروة يتقوون بها ضد الدولة الإسلامية، وكان ينفقها رضي الله عنه في مصالح الأمة الإسلامية، لكن الدهاقنة والأمراء المحليين أخذوا فيما بعد في ابتكار ضرائب إضافية عديدة[6]، أرهقت كاهل المزارعين، بالإضافة إلى ما صاحب تلك الضرائب من عنف في الجباية[7].

4 - إخضاع المشاريع الزراعية للضغوط السياسية، فقد أدت محاربة الدولة لخصومها السياسيين إلى تخرب أو تحجيم مشاريعهم الزراعية، فانعكس ذلك بنتائج سلبية على اقتصاد الدولة ككل، ومن صور ذلك ما حدث في عهد الحجاج من أن بثوق انبثقت على الأرض المحيا من أرض البطائح فلم يعمل الحجاج ـ بوصفه والي المنطقة ـ على سد تلك البثوق مضارة لأهلها (لاتهامهم بمساعدة ابن الأشعث في الخروج عليه). فغرقت أراضيهم الزراعية وتحولت إلى موات[8].

5 - معاناة الدولة الأموية في بداية نشأتها من مجموعة من المهاجرين الذين قدموا إلى

---

(1) الإدارة في العصر الأموي، ص: 151.
(2) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 191.
(3) المصدر نفسه، ص: 196.
(4) تاريخ اليعقوبي (2/ 218).
(5) مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، ص: 31.
(6) الخراج لأبي يوسف، ص: 186، 187.
(7) الأحكام السلطانية للماوردي، ص: 175.
(8) إدارة العراق في صدر الإسلام، رمزية خيرو، ص: 86.

إقليم العراق، وكانوا يعانون من البطالة، حيث لم يكونوا مسجلين بالعطاء، وليس لديهم أراضي يقومون بزراعتها، فبدلاً من أن يقوموا بالعمل في مجال من المجالات الأخرى قامت فئة منهم بإحداث بثوق في نظام الري، فأدى ذلك إلى تخريب المزارع وإغراقها، فلما ولي زياد العراق قام بالقضاء على مثل تلك الأعمال[1].

6 - حدوث مواجهة عسكرية بين المزارعين المهاجرين من الأرياف إلى المدن من الموالي والدولة الأموية، وذلك حينما حاول والي العراق ـ الحجاج بن يوسف ـ إعادتهم إلى أراضيهم بالقوة وإعادة فرض الجزية عليهم، وقد وافق ذلك خروج ابن الأشعث على الدولة الأموية، فانضموا تحت لوائه[2]. ونتيجة لتلك العوامل وغيرها، فقد بدت علامات تدهور القطاع الزراعي العام في المنطقة الشرقية من الدولة الأموية[3]. ومع ذلك فقد كانت خلال تلك الفترة مجموعة من الإجراءات والمشاريع التي خففت من حدة التدهور الزراعي بالمنطقة خلال هذه الفترة، وكان من أبرزها ما يلي:

أ ـ إنشاء زياد بن أبيه جسراً يمنع طغيان الماء على الكوفة[4] مما وفر الفرصة لاستغلال أراضٍ كانت تعطل فترة من السنة نتيجة فيضان الماء عليها، وينتظر حتى تنتهي فترة الفيضان، وتجف الأرض حتى يمكن إعادة زراعتها مرة أخرى، كما أعطى هذا المشروع فرصة إدخال زراعة النباتات المعمرة إلى تلك الأراضي بدلاً من افتقار الزراعة فيها على المحاصيل الموسمية، وبلغ من أهمية هذا الجسر أن الولاة ظلوا يتعاهدونه طيلة فترة العصر الأموي[5].

ب ـ عملية نقل الأيدي العاملة الزراعية من منطقة إلى منطقة أخرى، بهدف إحداث تنمية زراعية في الجهة المنقول إليها ومن أمثلة ذلك ما يلي:

- نقل زياد خمسين ألف أسرة من البصرة والكوفة من ذوي الخبرة الزراعية المشهورة إلى خراسان لتعميرها[6].

هذا وقد كانت الدولة الأموية تتولى مسؤولية إقامة منشآت الري الكبرى والعمل على صيانتها وتطهيرها، كحفر الآبار ومجاري الأنهار، وسد البثوق (التصدع)، وفتح البريدات (مفاتيح الماء)، وإقامة المسنيات (السدود)، أما أصحاب الأراضي فكانوا يشاركون أحياناً

---

(1) إدارة العراق في صدر الإسلام، رمزية خيرو، ص: 86.
(2) الخراج والنظم للريس، ص: 219، الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية في الدولة الأموية، ص: 71.
(3) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 198.
(4) الإدارة في العصر الأموي، ص: 247.
(5) المصدر نفسه، ص: 247.
(6) مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي للدوري، ص: 27.

في نقطة تطهير الأقنية الكبيرة، وكذلك الأمر فإنه كان يقع على عاتقهم، بطبيعة الحال مسؤولية إقامة الأقنية ووسائل الري داخل ممتلكاتهم الخاصة[1]، وقد حاول الحكام الأمويون استغلال ما أمكنهم من الأراضي، فعملوا على توسيع نطاق الأراضي الزراعية، وبخاصة تجاه بداية الشام، عن طريق استصلاحها وتأمين المياه، ووسائل الري لها[2]، حتى أن قصور الأمويين في الصحراء كانت مراكز مهمة للاستثمار الزراعي حيث أقيمت حولها منشآت الري، من قنوات وصهاريج، ومجاري وتوسعوا بذلك في استصلاح الأراضي بواسطة توفير الري لها[3]، وكان الخليفة معاوية بن أبي سفيان يبدي اهتماماً كبيراً بتنمية الزراعة ورفع مستوى إنتاجها، فكان يولي عنايته لتطوير وسائل الري، وإخصاب الأراضي عن طريق الاستعانة بأصحاب الخبرة والاختصاص من السكان المحليين[4]، كما أن يزيد بن معاوية كان يلقب بالمهندس نظراً لخبرته الهامة في الشؤون الزراعية، وإبداء اهتمامه بإصلاح أنظمة الري والعناية بها، فقد أمر بحفر قناة سميت باسمه نهر يزيد، وكانت هذه القناة في الأساس رافداً صغيراً بالكاد يروي ضيعتين بالغوطة، فقام يزيد بتوسيعها وتعميقها حتى أصبحت بعرض ستة أشبار، وبعمق ستة أشبار كذلك، الأمر الذي أدى إلى زيادة تدفق المياه وغزارتها، بحيث أصبحت تكفي لري أراضٍ واسعة في الغوطة[5] ، وبذلك أتيح المجال أمام المزارعين للقيام باستصلاح بعض أراضيهم المتروكة والعمل على استغلالها[6]، وكانت غالبية الأراضي في بلاد الشام تعتمد في ريها على مياه الأمطار التي تتساقط عليها خلال الفترة الممتدة بين تشرين الأول ونيسان، إلا أن أراضٍ واسعة[7] كانت تروى سيحاً، أي من المياه الجارية على سطح الأرض حيث تأتي من مياه بعض الأنهار ومن مياه العيون في الجداول والقنوات وكذلك فإن قسماً آخر من الأراضي كانت تروى بواسطة الآلات التي ترفع المياه من منخفضات بعض الأنهر إلى سواقي أعلى لري الأراضي التي يعلو مستواها عن مجاري الأنهر، أو التي ترفع المياه من الآبار والخزانات[8]، وتعتبر مياه العيون مهمة في ري المزروعات، حيث كانت

---

(1) تاريخ بلاد الشام الاقتصادي، عاطف رجال، ص: 135.
(2) التنظيم الاقتصادي في صدر الإسلام، ص: 82.
(3) تاريخ بلاد الشام الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 136.
(4) النزعات المادية، حسين مروة (1/ 476) تاريخ بلاد الشام الاقتصادي.
(5) تهذيب تاريخ دمشق (1/ 245 - 246).
(6) تاريخ بلاد الشام الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 141.
(7) مفاتيح العلوم للخوارزمي، ص: 46 تاريخ بلاد الشام الاقتصادي، ص: 141.
(8) تاريخ بلاد الشام في العصر الأموي، ص: 141.

تروي قسماً كبيراً من الأراضي في أنحاء الشام[1] وكانت الغلات والمزروعات المتوفرة، القمح والشعير والرز والزيتون، والنخيل والعنب والتين والفواكه والقطن، وقصب السكر، والبقول، والسمسم، والرياحين، وغير ذلك[2].

رابعاً: اهتمام الدولة بالتجارة الداخلية والخارجية:

يتوسط موقع الدولة الأموية بين دول الشرق الأقصى من ناحية مثل الصين والهند ونحوهما وبين الدولة البيزنطية من ناحية أخرى، ومعنى ذلك بالضرورة وطبقاً لمعايير ذلك العصر، أن أهم علاقاتها التجارية ارتبطت بهاتين الدولتين[3]، وبعد تولي معاوية الخلافة استقرت الأمور وبدأت حركة التجارة الداخلية تزدهر كما كانت عليه قبل ذلك، واهتم معاوية بمصالح التجار وعمل على توسيع نطاق التجارة، وتميز أهل الشام في حرفة التجارة وفتحوا علاقات تجارية مع غربي أوروبا واستفادوا من الأسطول الإسلامي ومن بين العوامل التي ساعدت على نشاط حركة التجارة الثراء العريض الذي نعمت به طبقة الحكم وحاشيتهم، حيث نمّا في نفوسهم حب البذخ والرفاهية، وبالتالي توفر عندهم الميل والحاجة إلى اقتناء المتوجات الكمالية، فأقبلوا على شراء السلع التجارية الباهظة الثمن، مما زاد في فعالية التجار وازدهار التجارة[4]، وكان الأمويون يقومون بدور كبير في عالم التجارة وخصوصاً أن الخليفة معاوية ﷺ والده كان من كبار تجار قريش، كما أن معاوية نفسه لما كان والياً في عهد عثمان ابن عفان على بلاد الشام كان يرسل بقوافله التجارية من الشام إلى حاضرة الجزيرة العربية[5]، وكان التجار يحتلون مكانة اجتماعية عالية في العصر الأموي وكانوا يقومون بتأسيس الشركات في سبيل زيادة فعالية التجارة، حيث كانوا يساهمون في الشركة بتقديم المال وممارسة العمل كذلك، أو بواحد منهما، فإذا أقدم صاحب المال على تقديم ماله لآخر ليتاجر به لقاء حصة من الربح يتفق عليها، فيسمى ذلك الاتفاق بالمضاربة[6]. وقد ازدهرت شركات المضاربة وأصبحت وسيلة مهمة في مجال العمل التجاري[7]، وكانت تجارة الأسواق المحلية مليئة بالحركة والنشاط، وقد أصبحت عاصمة الدولة دمشق مركزاً تجارياً مهماً يعود إلى الظروف السياسية الجديدة التي نشأت، فغيرت من سبل واتجاهات حركة التجارة عما كانت عليه سابقاً

---

(1) المصدر نفسه، ص: 143.
(2) تاريخ بلاد الشام في العصر الأموي، ص: 147 إلى 156.
(3) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 205.
(4) تاريخ بلاد الشام الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 168.
(5) المصدر نفسه، ص: 172.
(6) المصدر نفسه، ص: 174.
(7) المصدر نفسه، ص: 174.

في العصر البيزنطي، حيث أصبحت دمشق عاصمة للخلافة الأموية، ومحط للتجارة الشرقية[1]، وبالتالي مركزاً لتوزيع البضائع إلى الجهات المختلفة، بعد أن كانت القوافل المحملة بالبضائع الشرقية تتجه مباشرة إلى إنطاكية على ساحل الشام الشمالي، وهكذا كان لأهمية تجارة دمشق التي تتكدّس في أسواقها البضائع المتنوعة، المنتجة محلياً والمستوردة إلى أن قال ياقوت بأنه يستحيل أن يطلب شيء في أسواق دمشق غير موجود، حتى إن السلع الغالية الثمن التي تستورد من جميع أنحاء العالم المتمدن موجودة فيها[2]. ثم إن دمشق كانت بحكم موقعها الجغرافي المتاخم للبادية المركز التجاري الهام الذي يقصده البدو والمقيمين في الصحراء[3]، وقد اشتهرت مدن الشام كحلب والرصافة، وحمص، والرملة والقدس وإنطاكية بأهميتها التجارية، ونشاط أسواقها[4] وكانت عاصمة الشام، محط رحال القوافل التجارية الآتية من الشرق، ولا شك أن الكوفة والبصرة والموصل، ومدن الحجاز ونجد وغيرها قد ازدهرت حركة التجارة فيها أيضاً إلا أن مدن الشام كانت تزدهر فيها التجارة أكثر من غيرها، حيث أنها تعتبر مراكز تجارية كبرى وأسواقاً هامة، كما أن الأسواق الموسمية التي كانت تقام في بعض المدن، تعرض فيها البضائع المتنوعة بكثرة، كانت توفر مجالاً أوسع لتأمين كافة متطلبات واحتياجات سكان المدن والقرى كذلك، بالإضافة إلى أن هذه الأسواق كانت مناسبة هامة للتجار الذين يأتون إليها من أماكن مختلفة تستفيد من كل ذلك. وقد كان من هذه الأسواق التي كانت قائمة في العصر البيزنطي واستمر قيامها في العصر الأموي سوق بصري الذي كانت تطول مدة إقامته، حيث كان يستمر من ثلاثين إلى أربعين يوماً وكذلك فقد كان هناك سوق أذرعات الذي استمر قيامه حتى ما بعد العصر الأموي[5].

وأما بالنسبة للتجارة الخارجية في عهد معاوية ﷺ وابنه، فقد ازدهرت التجارة مع الدولة البيزنطية، وازدادت نمواً وقوة، وقد ساهمت عدة عوامل في هذا الازدهار منها:

1 - كثرة الاضطرابات والحروب في المنطقة الشرقية من الدولة الأموية، مما خفض من حجم المبادلات التجارية بينها وبين دول المشرق ولو بشكل جزئي، وبالتالي زيادة حجم المبادلات التجارية مع دولة بيزنطة بالغرب.

2 - الاستقرار الأمني من الدولة الأموية، دفع بكثير من رؤوس الأموال للهجرة من مناطق التوتر في الشرق إلى إقليم الشام، بحثاً عن فرص استثمار تجارية آمنة.

3 - الاعتماد الكلي لكل من الدولتين على الأخرى في مجال هام وحيوي بالنسبة لها،

---

(1) تاريخ بلاد الشام الاقتصادي، ص: 183.
(2) معجم البلدان (2/ 465).
(3) تاريخ بلاد الشام الاقتصادي، ص: 183.
(4) تاريخ بلاد الشام الاقتصادي، ص: 183.
(5) تاريخ بلاد الشام الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 187.

فكما كانت الدولة البيزنطية تعتمد كلياً على أوراق البردى، كانت الدولة الأموية تعتمد كلياً في حجم النقد الذهبي داخلها على ما يردها من الدولة البيزنطية. ومن العلامات التي تدل على ازدهار التجارة بين الطرفين في عهد معاوية ومن بعده ما يلي:

أ ـ كمية الدنانير الذهبية البيزنطية التي كانت موجودة في داخل الدولة الأموية تتم بها عمليات التداول الداخلية.

ب ـ استمرار مصانع إنتاج البردى في مصر في إنتاجه على النهج البيزنطي للتصدير حتى عهد عبد الملك بن مروان[1].

خامساً: الحرف والصناعات:

تأثرت الحرف والصناعات في العصر الأموي بالبيئة الاقتصادية المحيطة بها، كما تأثرت الصناعات والحرف بطبيعة الاقتصاد الأموي، حيث كان النشاط الزراعي هو النشاط الرئيسي فيه، فظهرت وتطورت صناعات تعتمد في موادها الخام على القطاع الزراعي، مثل صناعة النسيج وصناعة المعاصر والمطاحن، كما واكبت الصناعة حركة التطور العمراني بالدولة الأموية، فظهرت وتطورت صناعة مستلزمات البناء، إضافة إلى تأثر الصناعة بالجو العسكري السائد في معظم فترات العصر الأموي، حيث تطورت صناعة السفن التجارية[2]، وقد اهتمت الدولة الأموية ببناء أسطول حربي، ليقف في وجه الأسطول الحربي البحري البيزنطي، والذي كان يهدد سلامة الشواطئ الغربية للدولة الإسلامية، فتطورت صناعة السفن الحربية في العصر الأموي بشكل كبير ومتلاحق، فقد كان الإنتاج في بداية العصر الأموي مقتصراً على السفن، التي كانت تنفرد مصر بصنعها حتى عام 49هـ، حيث أمر معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، بإنشاء دار لصناعة السفن بالشام بمدينة عكا، وقد استقدم من مصر الخبراء للاستفادة منهم في دار الصناعة الجديدة، والتي تميزت بسهولة حصولها على الأخشاب من جبال لبنان[3]. ثم تطورت هذه الصناعة، فأنشأت في مصر منطقة صناعية جديدة، خاصة بصناعة السفن الحربية، وذلك عام (54هـ)[4] واستمرت الدولة الأموية في تطوير صناعة السفن فيما بعد عهد معاوية رضي الله عنه وقد أصبحت مناطق دور صناعة السفن الحربية مناطق جذب سكاني، كما أصبحت مناطق جذب وتوطن صناعي، فأصبحت أماكن استثمار خصبة، حيث أنشأت فيها

(1) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 209.
(2) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 235.
(3) خطط الشام (5/ 37)، النظم الإسلامية، إبراهيم العدوي، ص: 355، التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 239.
(4) تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي، ص: 166.

الفنادق، والمطاحن، ونحوها من الأنشطة الأخرى وساعد على نمو وتطور هذه الصناعة، ما اتسمت به منذ بداية نشأتها، من دقة التنظيم، ومن صورة هذه الدقة ابتكار وظيفة المشرف العام على دار الصناعة ويسمى متولي الصناعة، ومن أبرز مهامه جمع الطاقات البشرية الفنية العاملة في هذا المجال من نجارين وحدادين وعمال ونحوهما، سواء من الأقاليم المجاورة للصناعة، أو من مختلف أقاليم الدولة، ومن مهامه أيضاً توفير الأدوات الخام، مثل الأخشاب والمسامير وغيره من مستلزمات دار الصناعة، وعليه يمكن القول أن التنظيم كعنصر من عناصر الإنتاج في العصر الحديث ترجع جذوره إلى القطاع العام الصناعي في العصر الأموي، أو «متولي الصناعة»، ومن صور دقة تنظيم هذه الصناعة، الاهتمام بتحديد أجور العمال، وتوفير الكميات الغذائية اللازمة لهم، كما حرصت الدولة على توفير سبل الراحة للعاملين في هذه الصناعة، وكان من بين ذلك رفعها كل ظلم يقع على العامل، وتوفير وحدات سكنية للعمال، والمشرفين على هذه الصناعة بداخل دور الصناعة، وكذا وحدات لتموين السفن الحربية بالسرعة والدقة المطلوبة[1]، ونتج عن ذلك كله تطور هائل في حجم الأسطول البحري إبان العهد الأموي[2]:

لقد كانت الدولة البيزنطية متفوقة على الدولة الإسلامية الأموية في ميادين البحر، فاتخذ معاوية الوسائل المناسبة لإضعافها ثم القضاء عليها فيما بعد وفي هذا الفقه درس عظيم لقادة الأمة في معرفة عوامل قوة العدو، وجوانب تفوقه ثم السعي للوصول لنقطة تساوي ثم تفوق على الخصوم، سواء في الميادين العسكرية، أو السياسية، أو الاقتصادية أو الإعلامية، ومما نلاحظه الآن القوى العسكرية الهائلة التي تميز بها عدونا سواء على مستوى السلاح الجوي أو النووي والذري، فواجب على الأمة أن تسعى لإيجاد حلول حتى تستطيع أن تقاوم أعداءها وعلى علماء الأمة ومفكريها ألا يخضعوا للضغوط النفسية والسياسية والإعلامية التي يمارسها الأعداء علينا، وعليهم أن يبينوا أحكام الله في امتلاك لما يسمى بأسلحة الدمار الشامل. إن استمرار الأعداء في امتلاك الأسلحة الرادعة والتي لها قدرة بإذن الله على حسم المعارك العسكرية، جعلهم يتجبرون ويتغطرسون ويعملون على إفساد عقائدنا وثقافتنا وديننا، ويستولون على خيراتنا وثرواتنا وديننا يوجب علينا أن نعد لأعدائنا ما استطعنا من قوة، فلذلك وجب علينا أن نسعى لامتلاك الأسلحة الرادعة لكي نحمي بها أمننا وديننا ونقيم العدل وندفع الظلم عن البشرية.

ومن الصناعات التي اشتهرت في العهد الأموي، صناعة السفن التجارية، ولم تكن السفن الحربية تختلف كثيراً عن السفن التجارية، ومع ذلك كانت مناطق تصنيعها مختلفة، فقد

---

(1) النظم الإسلامية للعدوي، ص: 354، 355. (2) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 241.

اختصت منطقة البحرين أكثر من غيرها بإنتاج السفن التجارية، في حين كانت مصر، وعكا، وتونس مواطن تصنيع السفن الحربية، وساعد البحرين على ذلك وقوعها على الخليج العربي، والذي كان يعد من أهم طرق المواصلات التجارية البحرية بين الشرق والغرب وكذا ما اكتسبه أهلها من خبرة ملاحية نتيجة احتكاكهم بشعوب لديها خبرات ملاحية كشعوب الهند، والصين[1]. ولم تقتصر صناعة السفن على البحرين، بل امتدت إلى مدينة واسط بالعراق وقد تطورت هذه الصناعة في عهد ولاية الحجاج بصفة خاصة[2]، فقد أدخل تحسينات على صناعة السفن التجارية لتستطيع السير في عرض البحر، فأمر بتكبير حجمها، واستخدام المسامير لتقويتها، والاهتمام بهيكلها العظمي[3]، وكانت السفن التي تصنع في واسط تسمى الواسطية، وكانت تنتج مدينة واسط القوارب الصغيرة، والتي كانت تستخدم للنزهة والسفر ونقل السلع التجارية بين واسط والبصرة لضحالة الطريق النهري بينهما وعدم قدرة السفن على السير فيه[4]، ولم تكن مراكز إنتاج السفن الشرقية بالدولة الأموية متخصصة في إنتاج السفن التجارية فقط وإن كان هو الغالب عليها، بل كان لديها القدرة المزدوجة، فقد قام الحجاج أيضاً ببناء قوة عسكرية بحرية بالخليج العربي وبحر الهند[5].

سادساً: شبهات حول مصارف الأموال في عهد معاوية:

أثار بعض المؤرخين شبهات حول مصارف الأموال في عهد معاوية رضي الله عنه، وذكروا عدة مصارف وسموها بأنها جائرة وغير شرعية منها:

1 - التفريط في خراج بعض الأقاليم والتفرقة في العطاء:

أ ـ إعطاء مصر طعمة لعمرو بن العاص: تتعدد الروايات التي تنص على أن معاوية أعطى مصر طعمة لعمرو بن العاص لقاء تأييد الأخير له في حربه ضد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وجل هذه الأخبار تحوي روحاً عدائية لعمرو ومعاوية وتصور اتفاقهما على حرب علي كما لو كانت مؤامرة دَنيئة أو صفقة مريبة، خان فيها الرجلان ربهما ودينهما وتاريخهما مقابل عرض زائل أو نصر سريع، وكأنه من المستحيل أن يبذل ابن العاص نصره لقضية اجتمع حولها آلاف الرجال في الشام وغيرها ـ وهي الطلب بدم عثمان ـ إلا إذا نال ولاية مصر وخراجها لنفسه، وبعض هذه الروايات تحوي سباباً لهذين الصحابيين، كأن تزعم أن عمرو فضل ولاية مصر على

(1) البحرين في صدر الإسلام، عبد الرحمٰن نجم، ص: 84.
(2) العلاقات التجارية بين دول الخليج وبلدان الشرق الأقصى، ص: 101.
(3) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 242.
(4) الحجاج بن يوسف الثقفي، ص: 59 هزاع الشمري.
(5) واسط في العصر الأموي، ص: 243.

حسنى الآخرة وصرح بذلك فقال: إنما أردنا هذه الدنيا[1]، أو أنه قال لمعاوية: لا أعطيك من ديني حتى آخذ من دنياك[2]، أو قوله: إنما أبايعك بها ديني «أي بمصر»[3]، أو قوله لمعاوية: ولولا مصر وولايتها لركبت المنجاة منها، فإني أعلم أن علي بن أبي طالب على الحق وأنت على ضده[4]، إلى غير ذلك من الروايات[5]، وهكذا روايات باطلة وموضوعة عند المسعودي وكتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة وغيرها تجعل عمرو بن العاص رجل مصالح، وصاحب مطامع وراغب دنيا، وقد تأثر بالروايات الضعيفة والموضوعة والسقيمة مجموعة من الكتّاب والمؤرِّخين، فأهووا بعمرو إلى الحضيض، كالذي كتبه محمود شيت خطاب[6]وعبد الخالق سيِّد أبو رابية[7]، وعباس محمود العقَّاد الذي يتعالى عن النَّظر في الإسناد، ويستخفُّ بقارئه، ويظهر له صورة معاوية وعمرو رضي الله عنهما بأنَّهما: انتهازيَّان، صاحبا مصالح، ولو أجمع النَّاقدون التاريخيون على بطلان الرِّوايات التي استند إليها في تحليله فهذا لا يعني للعقَّاد شيئاً، فقد قال بعد أن ذكر روايات ضعيفة، واهية، لا تقوم بها حجة: . . . وليقل الناقدون التاريخيون ما بدا لهم أن يقولوا في صدق هذا الحوار، وصحَّة هذه الكلمات، وما ثبت نقله، ولم يثبت منه سنده، ولا نصُّه فالذي لا ريب فيه، ولو أجمعت التواريخ قاطبة على نقضه: أن الاتفاق بين الرجلين، كان اتفاق مساومة، ومعاونة على الملك، والولاية، وأن المساومة بينهما كانت على النَّصيب الذي آل على كلٍّ منهما، ولولاه لما كان بينهما اتفاق[8].

وهناك عدة دلائل ترد على الروايات الضعيفة والموضوعة والسقيمة التي لاقت رواجاً واستقراراً في تشويه عمرو بن العاص ومعاوية بالظلم والبهتان منها ما عرف من صحة إسلام وتقوى معاوية وعمرو، وتاريخهما المضيء في خدمة دين الله منذ أسلما[9]، ففي معاوية يكفي دعاء رسول الله ﷺ عندما قال: «اللهم اجعله هادياً مهدياً، واهد به»[10]، وقوله ﷺ «اللَّهمّ

(1) الدولة الأموية المفترى عليها نقلاً عن الكامل في التاريخ.
(2) الإمامة والسياسة (1/ 98).
(3) العقد الفريد (4/ 345).
(4) مروج الذهب (3/ 29).
(5) وقعة صفين، ص: 237 سلسلة هذه الروايات كلهم من الشيعة الروافض.
(6) سفراء النبي ﷺ، ص: 508.
(7) عمرو بن العاص، لعبد الخالق سيد أبو رابية، ص: 316.
(8) عمرو بن العاص للعقاد، ص: 231 - 232.
(9) ا لدولة الأموية حمدي شاهين، ص: 416.
(10) صحيح سنن الترمذي للألباني (3/ 236).

علِّم معاوية الكتاب والحساب، وقه العذاب»[1]، وأما عمرو بن العاص ﷺ فقد شهد له رسول الله ﷺ بالإيمان حيث قال: «أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص»[2] وفي حديث آخر قال: «ابنا العاص مؤمنان عمرو وهشام»[3]، وقول رسول الله ﷺ: . . «وصدق عمرو، إن لعمرو عند الله لخيراً كثيراً»[4].

- كانت بيعة عمرو لمعاوية في عهد علي على الطلب بدم عثمان، فقد كان تأثر عمرو بمقتل عثمان عظيماً، فعندما سمع خبر مقتل عثمان. . . ارتحل راجلاً يبكي، ويقول: يا عثماناه: أنعي الحياء والدين. . . حتَّى قدم دمشق[5]، فقد كان من أقرب أصحابه، وخلانه، ومستشاريه، وكان يدخل في الشُّورى ـ في عهد عثمان ـ من غير ولاية، ومضى إلى معاوية ﷺ ليتعاونا معاً على الاقتصاص من قتلة عثمان والثأر للخليفة الشهيد[6]، لقد كان مقتل عثمان كافياً لأن يحرِّك كلَّ غضبه على أولئك المجرمين السَّفَّاكين، وكان لابدَّ من اختيار مكان غير المدينة للثأر من هؤلاء الذين تجرَّؤوا على حرم رسول الله، وقتلوا خليفته على أعين النَّاس، وأيُّ غرابة أن يغضب عمرو لعثمان؟ وإن كان هناك من يشك في هذا الموضوع، فمداره على الرِّوايات المكذوبة التي تصوِّر عمراً: كلُّ همه السُّلطة والحكم[7].

- **ومن الدلائل على بطلان فرية إعطاء مصر طعمة لعمرو بن العاص**، ما ذكره أبو مخنف أحد رواة الفرية السابقة، أن دفع معاوية جيشه إلى فتح مصر وأخذها من يد أنصار علي بن أبي طالب سنة 38هـ ـ وكان عمرو قائده في هذه الحملة ـ أنه كان: يرجو أن يكون إذا ظهر عليها ظهر على حرب علي لعظم خراجها[8] . . . فكيف يهب معاوية ذلك الخراج كله لعمرو وهو في مسيس الحاجة إليه؟

- **ومن الدلائل أيضاً**: أن معاوية كتب بعد استخلافه إلى عامله على خراج مصر ـ وردان ـ أن زد على كل امرئ من القبط قيراطاً، فرد عليه: كيف وفي عهدهم أن لا يزاد عليهم[9]؟ ولم يل وردان خراج مصر لمعاوية إلا في ولاية عمرو بن العاص لأن من ولوا مصر بعد موت عمرو

(1) موارد الظمآن (7/ 249) إسناده حسن.
(2) سلسلة الأحاديث الصحيحة (1/ 238) رقم 155.
(3) الطبقات (4/ 191)، السلسلة الصحيحة (1/ 240) رقم 156.
(4) المستدرك (3/ 455) صححه الحاكم وقال الذهبي: صحيح إسناده حسن.
(5) تاريخ الطبري، نقلاً عن عمرو بن العاص، للغضبان، ص: 481.
(6) عمرو بن العاص، للغضبان، ص: (489، 490).
(7) المصدر السابق، ص: 492.
(8) تاريخ الطبري (6/ 9).
(9) فتوح البلدان، ص: 219.

هم: عتبة بن أبي سفيان وعقبة بن عامر ومسلمة بن خالد: كانوا يتولون صلاتها وخراجها. وهذه الرواية صريحة قاطعة في الدلالة على اهتمام معاوية بزيادة حصيلة الخراج في مصر، وفي ولاية عمرو بن العاص عليها، وهذا الاهتمام لا معنى له إلا إذا كان فائض الخراج في مصر يحمل إلى معاوية في دمشق ليواجه به وجوه الإنفاق المتنوعة[1]. كما أن معاوية لم يكن يستحل أن يتنازل عن خراج مصر ـ وهي من أغنى أقاليم الدولة الإسلامية آنذاك ـ لفرد واحد وهو يعلم أنه حق الأمة كلها، وأنه لا يملك التنازل عنه، وقد روى ابن تيمية عن عطية بن قيس قال: سمعت معاوية بن أبي سفيان يخطبنا يقول: إن في بيت مالكم فضلاً بعد أعطياتكم وإني قاسمه بينكم، فإن كان يأتينا فضل عاماً قابلاً قسمناه عليكم، وإلا فلا عتبة علي، فإنه ليس بمالي وإنما هو مال الله الذي أفاءه عليكم[2]، وإذا أضفنا إلى ذلك ما نعرفه من تنافس الأمصار الإسلامية مع بعضها، ووجود معارضة للأمويين في مصر كانت حديثة العهد منذ تبعية مصر لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه حتى ـ دخلها ـ عمرو بن العاص سنة 38هـ، لازددنا يقيناً أن أهلها لم يكونوا يقبلون ما يزعمه الرواة حول إعطائها طعمة لابن العاص وعلى ذات السبيل نذكر أن من رجال مصر من بذل في سبيل نصرة معاوية مثلما بذل عمرو بن العاص، إن لم يفقه، كمعاوية بن حديج وأصحابه من العثمانية، وهؤلاء لا يقبلون بحال أن يمتاز عمرو عليهم كل هذا الامتياز، قد مر بنا فيما مضى أن معاوية بن حديج هذا قد أرجع ابن أخت معاوية ـ عبد الرحمٰن بن أم الحكم ـ الذي ولاه معاوية مصر، من قبل أن يدخلها، ورفض أن يتولى إمارتهم ورده إلى الشام على نحو غير كريم، فما استطاع معاوية أن يغضب بن حديج[3].

ب ـ التنازل عن خراج «دارابجرد» للحسن بن علي: زعم بعض المؤرخون أن معاوية تنازل للحسن بن علي رضي الله عنهما عن خراج «دارابجرد» وأن يعطيه مما في بيت مال الكوفة مبلغ خمسة آلاف ألف درهم مقابل تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية، وأن الحسن قد أخذ ما في بيت مال الكوفة ولكنه لم يستطع الحصول على خراج «دارابجرد» إذ إن أهل البصرة قد منعوه منه، ويزعمون أن ذلك كان بتحريض معاوية أو بمبادرة من البصريين على أن هذه الرواية تغض من شأن الحسن ومعاوية معاً وتجعلهما في موقف التواطؤ على أكل أموال المسلمين بالباطل[4] وهذا باطل ولا يصح والصحيح مثبت في البخاري بأن الحسن قال لوفد معاوية عبد الرحمٰن بن سمرة، وعبد الله بن عامر بن كريز: إنا بنو عبد المطلب قد أصبنا من هذا المال.. فمن لي بهذا؟ قالا: نحن لك به[5]، فالحسن يتحدث عن أموال سبق أن أصابها هو وغيره من بني عبد

(1) الأمويون والفيء، ص: 67، 68، فهمي عبد الجليل.
(2) منهاج السنة النبوية (3/ 185).
(3) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 417.
(4) المصدر نفسه، ص: 417، تاريخ الطبري (6/ 165).
(5) البخاري، كتاب: الصلح رقم 2704.

المطلب، يريد الحسن أن لا يطالبهم معاوية، ولا ذكر لأموال يطلب من معاوية أن يدفعها إليه قادم[1]، وذكر ابن أعثم أن الحسن قال: أما المال فليس لمعاوية أن يشترط لي فيء المسلمين[2]، والمعلوم أن جباية الخراج من مهام الدولة، ولا علاقة مباشرة بين الحسن وأهل البصرة في هذا الجانب، ولكن الرواية أشارت إلى أن خراج «دارابجرد» لم يكن في الأموال التي صيرت إلى الحسن[3]، ورُوي أن الحسن قال لمعاوية: إن عليّ عِدَّات ودُيوناً، فأطلق له من بيت المال نحو أربعمائة ألف أو أكثر[4]، وذكر ابن عساكر: يُسلِّم له بيت المال فيقضي منه ديونه ومواعيده التي عليه، ويتحمل منه هو ومن معه عيال أهل أبيه وولده وأهل بيته[5]، وذهب بعض المؤرخين إلى أن إبقاءه ما في بيت المال معه (خمسة ملايين درهم)، استبقاه لأولئك المحاربين الذين كانوا معه، يوزِّعه بينهم، ويبقى لمعيشته له ولأهل بيته ولأصحابه[6]. ولا شك أن توزيع الأموال على بعض الجنود يساعد في تخفيف شدة التوتر.

إن الذي جاء في رواية البخاري هو الذي أميل إليه فالأمر لا يكون تجاوز طلب العفو عن الأموال التي أصابها الحسن وآله في الأيام الخالية. وأما الروايات التي تشير بأن يجري معاوية للحسن كل عام مليون درهم وأن يحمل إلى أخيه الحسين مليوني درهم في كل عام ويفضل بني هاشم في العطاء والصلات على بني عبد شمس[7]، وكأن الحسن باع الخلافة لمعاوية، فهذه الروايات وما قيل حولها من تحليل وتفسير لا تقبل ولا يعتمد عليها، لأنها تصور إحساس الحسن بمصالح الأمة يبدو ضعيفاً أمام مصالحه الخاصة[8]. وأما حقه في العطاء فليس الحسن فيه بواحد من دون المسلمين، ولا يمنع أن يكون حظه منه أكثر من غيره، ولكنه لا يصل إلى عشرة معشار ما ذكرته الروايات[9].

جـ ـ التفرقة في العطاء: أول من سن ديوان العطاء في الإسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه أما قبل ذلك في عهد رسول الله ﷺ، فكانت غنائم الحرب توزع على المسلمين فور انتهاء المعارك[10]، وقد أعطى رسول الله ﷺ المؤلفة قلوبهم من غنائم حنين، وكان شيئاً كثيراً[11]، فتقرر بذلك أن تفضيل بعض الناس في توزيع الغنائم أمر مباح وقد يكون مستحباً إذا اقتضت مصلحة المسلمين ذلك[12]، وإن كان ذلك يزيد في غنائمهم عن بقية المسلمين، ثم كثرت بعد

(1) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص: 64.
(2) الفتوح (3/ 293).
(3) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص: 64.
(4) تاريخ الإسلام، عهد معاوية، ص: 7.
(5) تاريخ دمشق (14/ 90).
(6) في التاريخ الإسلامي، شوقي أبو خليل، ص: 268.
(7) الأخبار الطوال، ص: 218.
(8) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص: 63.
(9) المصدر نفسه.
(10) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 418.
(11) الاستخراج لأحكام الخراج، ص: 26 ابن رجب الحنبلي.
(12) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 418.

ذلك الغنائم المجلوبة إلى حاضرة المسلمين نتيجة اتساع نطاق الغزو زمن عمر بن الخطاب فاستشار أصحابه وانتهى أمره إلى تدوين ديوان العطاء ليكفل توزيعه على نحو معروف، وفضل أصحاب السابقة والقرابة من النبي ﷺ على من عداهم[1]، . . ولما جاء الأمويون فضلوا أهل الشام على من عداهم، فقد كانوا أنصارهم المخلصين، وهم عماد الجيوش المجاهدة سواء في الشمال في جهاد الروم أو في الغرب في فتوح إفريقية والأندلس، وهم المحافظون على سلامة الدولة وقمع مخالفيها، وكم استنجد بهم ولاة الأمصار حين خرج عليهم خارجون وعجز جند المصر في الدفاع عن أنفسهم ونظامهم كما حدث في قتال ابن الأشعث[2]، ومواجهة ثورة يزيد بن المهلب زمن يزيد بن عبد الملك[3]، وكما حدث في انتقاض البربر الخوارج بإفريقية في عهد هشام[4].

2 - التوسع في إنفاق الأموال لتأليف القلوب واكتساب الأنصار:

أنفق معاوية رضي الله عنه أموالاً كثيرة ليتألف بها قلوب الزعماء والأشراف ويوطد أركان الدولة الإسلامية التي قامت بعد فترات من الصراع والتطاحن، فقد رأى معاوية رضي الله عنه أن إراقة بعض المال خير من إراقة كثير من دماء المسلمين. . فأعطى هؤلاء الرجال المال يستميل به قلوبهم، وقلوب أتباعهم وأنصارهم، ويعلي به مكانتهم ويسد خلة من وراءهم، ولعله قد فهم من إعطاء الرسول ﷺ المؤلفة قلوبهم بعد فتح مكة ليستميلهم نحو الدين ويسلّ سخائم نفوسهم، أنه يجوز أن يعطي أمثال هؤلاء الرجال ليتألف قلوبهم ويضمن ولاءهم، والولاء للدين والدولة يختلطان في فهم معاوية وبني أمية حيث قامت دولتهم فيما اعتقدوا لنصرة الدين وجمع شمل أهله[5]، وأخيراً فإن كان معاوية مخطئاً في ذلك فما القول في هؤلاء السادة الذين قبلوا عطاياه وجوائزه وفيهم من اشتهر بالتقوى والورع والخوف من الله تعالى؟ إن من الحق أن نقول إن المجتمع الإسلامي في ذلك العهد كان يشهد تغيراً كبيراً عن زمن النبي ﷺ وخلفائه الراشدين حتى صارت بعض فعالياته السياسية ترى أن من حقها التميز في العطاء[6].

3 - مظاهر الترف عند الأمويين:

هذا ويحتل الحديث عن ترف الأمويين وبذخهم مكانة واسعة عند مؤرخينا، والحق أنه كان

---

(1) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 418.
(2) تاريخ الطبري، نقلاً عن الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 420.
(3) المصدر السابق، ص: 420.
(4) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 420.
(5) الأمويون والفيء، ص: 72 - 73، نقلاً عن الدولة الأموية شاهين، ص: 422.
(6) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 422.

عندهم لون من ألوان البذخ في سكناهم وفي لباسهم وفي عطائهم ونفقاتهم، وقد لفت معاوية نظر عمر بن الخطاب ﷺ إليه وهو بعد أحد ولاة الشام، يغدو في موكب ويروح في آخر، ولكن من الحق أيضاً ألا ننظر إلى حياة الأمويين بمعزل عن حياة المجتمع العربي والإسلامي آنذاك، فهي جزء منه تتأثر به كما تؤثر فيه، وفي ذلك العصر كان التطور الاجتماعي يتلاحق، ومظاهر الغنى وانثيال الأموال والرغبة في التمتع الحلال به تصبح أمراً ظاهراً يدفع الذوق العام والقيم الاجتماعية الحاكمة آنذاك إلى مزيد من التفتح والاتساع.. وأن هذه السمة الظاهرة لا تنفيها ورود أخبار مؤكدة في زهد معاوية ورقة ثيابه[1]، أو زهد عامله زياد ولباسه المرقوع[2]، فلا تناقض بين هذه الروايات وما عرف من التلبس بمظاهر الملك، بل هي دليل على نفوس عالية لا ترى الزهادة نقصاً ولا ترى التنعم حراماً[3]، وهكذا إذا نظرنا نظرة شاملة في وجوه الإنفاق المالي في ذلك العصر لا نجد مظاهر الترف والبذخ قصراً على بني أمية، خلفائهم وولاتهم، فبعض بني هاشم وبني الزبير وغيرهم من معارضي الأمويين لم يكونوا أقل سماحة بالمال من بني أمية ولا أكثر حرصاً عليه[4]، وإذا كان بنو أمية قد ابتنوا القصور فقد بنى رجال من أشراف العرب قصوراً كان لها ذكر وبهاء وكان العرب يعدون ذلك كرماً، ويتفاخرون به ويتوقعون مثله من كل شريف من أشرافهم وإن لم يكن حاكماً[5]، والترف في المجتمعات الإسلامية ظاهرة سلبية لها ما بعدها، إن بحبحة الأمويين في الإنفاقات المالية أدت إلى ظهور الترف ثم تعمق وتجذر في الأمة حتى أصبح ترفاً مدمراً، ظهرت معالمه وآثاره في سقوط بلاد الشام في الصليبيين ثم سقوط بغداد في يد المغول وزوال الدولة العباسية، لذلك يكره الإسلام الترف ويحذر منه أشد التحذير: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: 16]. إنه كالحمض الأكال الذي ينخر في جسم المادة فيذهب بصلابتها، فتصبح هشة سهلة القصف، أو تصبح لينة لا قوام لها في الصدام، وقد كانت وفرة المال في أيدي الناس هي الباب المؤدي إلى الترف بطبيعة الحال ـ ولكن هذا يفسر ولا يبرر ـ، فإنه لا يوجد تبرير لمعصية الله، وقد جاء المال بوفرة نسبية على أيام عمر ﷺ ولكنه تصرف بشأنه بمنع الفساد، فمنع الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ من الخروج من المدينة ـ للضياع والتجارة ـ حتى لا تتكون منهم طبقة تملك المال في أيديها وتملك السلطان «الأدبي» على الناس، فيحدث التميز وتفسد الأحوال، فضلاً عن احتمال إصابتهم

---

(1) العواصم من القواصم، ص: 217، تعليق محب الدين الخطيب.
(2) تاريخ الطبري، نقلاً عن الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 424.
(3) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 424.
(4) المصدر نفسه، ص: 424.
(5) المصدر نفسه، ص: 425.

هم أنفسهم بالترف وهم هيئة المشورة إلى جانب الخليفة، فتفسد مشورتهم حين تترهل نفوسهم ـ وإلى جانب ذلك ـ وقبل ذلك، أخذ عمر ﷺ نفسه وأهل بيته بالشدة الحازمة، حتى لا يكونوا قدوة سيئة أمام الناس، فيفسد الناس، أما حين يترك المال بدون تصرف معين من ولي الأمر، يسمح بالنفع ويمنع الضرر، فإنه لا بد أن يؤدي إلى نتائجه المحتومة حسب السنة الإلهية، لا لأن المال في ذاته هكذا يضع، ولكن لأن الجهد البشري المطلوب لإصلاح الآفة لم يبذل فتنفرد الآفة وحدها بالسلطان، وآفة المال الترف، وعلاجها في يد ولي الأمر. . . بنشر روح الجد في المجتمع وبإعطاء القدوة من نفسه لبقية الناس. أما حين يترك في أيدي الناس بلا ضابط ـ مع وجود فئة تعمل جاهدة في إفساد أخلاق المجتمع وروحه كما فعل الفرس، فالنتيجة هي ما قررته السنة الربانية التي جاء بيانها في كتاب الله: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: 41]. والترف مُعْدٍ ككل آفة. . فحين لا يعالج، ولا يوقف فإنه ينتشر ولا بد. . وحين يكون مبتدؤه في قصور الخلافة فهو أسوأ، لأن الحكام دائماً قدوة، وقد كان الأمويون ـ برغم وجود الترف بينهم ـ أقل فساداً بالمال من العباسيين، لأنهم كانوا أكثر انشغالاً بتثبيت دولتهم من ناحية، وبالجهاد في سبيل الله من ناحية أخرى، فأما العباسيون فبعد أن استتب لهم الملك أخذ الترف يسري بينهم سريعاً، خاصة بفعل الحاشية الفارسية المفسدة المتعمدة للفساد ومن قصور الخلافة انتقل الترف بالعدوى إلى قصور الأمراء والوزراء، ثم قصور التجار الذين وصل دخلهم في التجارة العالمية إلى ملايين الدنانير، وشيئاً فشيئاً غلب الفساد على عاصمة الخلافة بغداد ثم العواصم الإسلامية الأخرى[1].

المبحث السادس

القضاء في عهد معاوية ﷺ والدولة الأموية

يعتبر القضاء في العهد الأموي من الدرجة الثالثة بعد القضاء في العهد النبوي والقضاء في العهد الراشدي، لأن العصر الأموي كان زاهياً وفيه كثير من آثار العهد الراشدي، وكانت كثير من الأعمال امتداداً للعهد الراشدي، وخاصة في جانب الفتوحات الإسلامية، وانتشار الدعوة في المشارق والمغارب ودخول الناس في دين الله أفواجاً، وازدهار الحضارة الإسلامية[2].

أولاً: صلة العهد الأموي بالعهد الراشدي:

كان العهد الأموي وخصوصاً عهد معاوية امتداداً للعهد الراشدي في عدة جوانب، فبقي

(1) كيف نكتب التاريخ الإسلامي، محمد قطب، ص: 126، 127.

(2) تاريخ القضاء في الإسلام، ص: 165.

كثير من الصحابة إلى العهد الأموي، وشاركهم في العلم والفقه والقضاء وغيرها كبار التابعين، ثم صغار التابعين، كما بقي بعض قضاة العهد الراشدي يمارسون القضاء في العهد الأموي، وبعدهم طال قضاؤهم كشريح بن الحارث ﷺ، وبقيت في العهد الأموي آثار التربية الدينية وسمو العقيدة، وآثار الإيمان والالتزام بأهداب الدين، والتقيد بالأحكام الشرعية، وظهر في العهد الأموي عدد كبير من المجتهدين الذين كانوا صلة الوصل بين الصحابة والمذاهب الفقهية، وكان العلماء والمجتهدون في العهد الأموي أساتذة لأئمة المذاهب التي ظهرت في العهد العباسي، وكان لهذه الصورة الفقهية الزاهية أثرها الكبير والمحمود على حسن سير القضاء والعدالة في العهد الأموي، وزهر التوسع بالاجتهاد، كما بدأت حركة تدوين العلوم الإسلامية، والانفتاح على الحضارات الأخرى، وترجمة الثقافات والعلوم من الأمم المجاورة[1].

ثانياً: تخلي الخلفاء عن ممارسة القضاء، وفصل السلطات:

كان الخلفاء الراشدون يتولون القضاء بأنفسهم، ويفصلون في القضايا والدعاوى والمنازعات، وصدرت عنهم أقضية كثيرة، وكان الولاة في الأمصار يتمتعون بنفس السلطات والصلاحيات الممنوحة للخليفة لأنهم نواب عنه، إلا إذا قيدت سلطتهم ومنعوا من القضاء، وعين معهم القضاة للفصل بين الناس، ومن هؤلاء الولاة معاوية بن أبي سفيان الذي بقي والياً على الشام عشرين سنة، وكان يتولى القضاء والحكم بنفسه[2]، ولما تولى معاوية الخلافة تخلى عن ممارسة القضاء، وعين القضاة في حاضرة الدولة الإسلامية بدمشق وفوّض إليهم السلطة القضائية، وخولهم الصلاحيات الكاملة في الدعاوى، وسار ولاته في الأمصار على هذا النهج، وابتعد الولاة عن أعمال القضاء، وسار خلفاء بني أمية على هذه الخطة طوال العهد الأموي، سواء في عاصمة الدولة الأموية، أم في سائر الأمصار والمدن والولايات وانقطعت صلة خلفاء بني أمية عن القضاء الإسلامي إلا في ثلاثة أمور:

1 - تعيين القضاة مباشرة بالعاصمة دمشق.

2 - الإشراف على أعمال القضاة وأحكامهم، ومتابعة شؤونهم الخاصة في التعيين والعزل، والرزق، وحسن السيرة، ومراقبة الأحكام القضائية التي تصدر عنهم، للتأكد من مطابقتها للحق والعدل، والشرع والدين، والالتزام بالسلوك القضائي القويم.

3 - ممارسة قضاء المظالم، وقضاء الحسبة. وقد أولى خلفاء بني أمية أهمية خاصة ورعاية كاملة لقضاء المظالم حتى وقف على قدميه، وأصبح له جهاز كامل مستقل. ومن ذلك

(1) تاريخ القضاء في الإسلام، ص: 165. (2) المصدر نفسه، ص: 166.

نرى أن القضاء في العهد الأموي كان مستقلاً عن أي سلطة أخرى حتى سلطة الخليفة أو الوالي الذي كانت سلطته تنتهي عند تولية القاضي أو عزله، دون أن يكون لهم تدخل في أعمال القاضي واجتهاده وحكمه، وما على الخلفاء والولاة إلا تنفيذ الأحكام التي يصدرها القضاة[1]. قال النُباهي: ولما أفضى الأمر إلى معاوية بن صخر جرى بجهده على سنن من تقدّمه من ملاحظة القضاة، وبقي الرسم على حذو ترتُّبه زماناً[2]. فقد كان معاوية رضي الله عنه أول خليفة امتنع من القضاء تماماً، ودفعه إلى غيره، فكان له قضاة في قاعدة ملكه، فضلاً عن قضاته في الأمصار[3].

ثالثاً: رزق القضاة:

من المعلوم أن عمر بن الخطاب هو الذي فصل القضاء عن الولاية، وهو أول من رتب أرزاق القضاة، وأمّا أمير المؤمنين علي وهو المعروف بالزهد والقناعة فقد قال لعامله على مصر في شأن القضاة: . . . وافسح له في البذل ما يزيل علته وتقل معه حاجته إلى الناس[4]. واستمر الحال على ذلك في العهد الأموي، فكانت تجري على القضاة أرزاقهم من بيت المال[5]، مع التوسع عليهم، واختلاف المقدار بحسب البلدان والظروف[6]، وروى الشعبي عن شريح أنه كان يأخذ على القضاء خمسمائة درهم كل شهر ويقول: أستوفي لهم، وأوفيهم ويقول أيضاً: أجلس لهم على القضاء وأحبس نفسي ولا أرزق؟؟ ولما قدم عبد الملك بن مروان النخيلة سنة 72هـ، وسأل عن شريح، فعلم أنه امتنع عن القضاء في عهد ابن الزبير، فاستدعاه وقال له: وفقك الله، عُدْ إلى قضائك، فقد أمرنا لك بعشرة آلاف درهم، وثلاثمائة جريب، فأخذهما وقضى إلى سنة ثمان وسبعين[7]، وكان بعض القضاة لا يأخذون على القضاء أجراً ويحتسبون أجرهم عند الله تعالى في إقامة شرعه، منهم مسروق بن الأجدع القاضي والمفتي (ت 63هـ) وكان أعلم بالفتيا من شريح، وشريح أبصر منه في القضاء، وقالت امرأة مسروق: كان مسروق لا يأخذ على القضاء رزقاً، وقال القاسم: كان مسروق يقول: لأن أقضي يوماً فأقول فيه الحق أحب إلي من أن أرابط سنة في سبيل الله[8].

رابعاً: تسجيل الأحكام والإشهاد عليها:

ظهر في العهد الأموي لأول مرة تسجيل الأحكام القضائية التي يصدرها القاضي في

---

(1) تاريخ القضاء في الإسلام، ص: 167.
(2) تاريخ قضاة الأندلس، ص: 24.
(3) عبقرية الإسلام في أصول الحكم، ص: 342.
(4) القضاء ونظامه في الكتاب والسنة، ص: 267.
(5) تاريخ القضاء في الإسلام، ص: 167.
(6) المصدر نفسه، 176، 177.
(7) أخبار القضاة (2/ 227، 397).
(8) طبقات ابن سعد (6/ 82) تاريخ القضاء في الإسلام، ص: 178.

سجله، وديوان المحكمة ليرجع إليه القاضي عند الحاجة، وأول من سجل الأحكام سُليم بن عنز التجيبي قاضي مصر في عهد معاوية، لما تخاصم إليه أشخاص في توزيع ميراث، فحكم بينهم، فغابوا مدة، واختلفوا وتناكروا وتجاحدوا الحكم، وعادوا يطلبون فصل الخلاف ثانية، فتذكر القاضي قصتهم، وكاشفهم بها، فاعترفوا، فأعادوا الحكم بينهم، وطلب من كاتبه أن يُسجل الأحكام القضائية وكتب لهم كتاباً بقضائه، وأشهد عليه[1]. وقال الكندي: فكان سليم أول القضاة بمصر سجّل سجلاً بقضائه[2] وكان سُليم ـ فيما وصل إلينا ـ أول من أشهد على الأحكام القضائية لتوثيقها، ومنع جحودها أو إنكارها، ثم توسع الأمر في العهد العباسي[3].

خامساً: أعوان القضاة:

يحتاج القضاة عادة إلى أعوان يساعدونهم في حسن التقاضي وسير القضاء، منهم كاتب القاضي أو كاتب المحكمة، أو كاتب الضبط، وأول ما ظهر في العهد الراشدي[4] ثم شاع استعماله فيما بعد، وظهر أعوان جدد في العهد الأموي بحسب الحاجة وتطور الحياة، واتساع أعمال القاضي، وكثرة الدعاوي، ونذكر أهمهم:

1 - المنادي: وهو الذي يجلس عند القاضي، لبيان مكانة القاضي، ومعرفته، والمناداة على الخصوم، وكان يطلق عليه «الذي على رأس القاضي» أو «صاحب المجلس» وأول ما ظهر ذلك في عهد شريح، قال وكيع: عن عمرو بن قيس الماضي، قال: رأيت رجلاً كان يقوم على رأس شريح، وكان إذا تقدم إليه خصمان، فيقول: أيكما المدعي فليتكلم، وروى وكيع أيضاً «كان شريح إذا جلس للقضاء لم يقم حتى: يُنادي: هل من خصم أو مستثبت؟ أو مستفت»[5]؟

2 - الحاجب: وهو الذي يقف على باب القاضي، ليحجب عنه الناس أثناء النظر في الدعاوي، ويرتب دخول المتداعين عليه عند تزاحمهم وتعددهم، وقد يكون الحاجب هو المنادي الذي يقف على رأس القاضي، ويقوم بالعملين معاً، وقد يكون هو نفسه الجلواز «التابع للشرطي ، أو أحد الشرطة القضائية»، وقد يكلفه القاضي القيام ببعض الأعمال في

---

(1) تاريخ القضاء في الإسلام، ص: 180.
(2) تاريخ القضاء في الإسلام، ص: 180.
(3) المصدر نفسه، ص: 180.
(4) نظام الحكم في الشريعة، ص: 259، تاريخ القضاء، ص: 180
(5) تاريخ القضاء عرنوس، ص: 128، تاريخ القضاء، ص: 181.

المحكمة، أو أداء بعض المهمات خارجها[1]، وذكر وكيع أن إبراهيم النخعي كان جلواذاً للقاضي شريح[2]، وكان على رأس شريح شرطي بيده سوط[3].

3 – الترجمان أو المترجم: اتخذ القضاة الترجمان لكثرة الشعوب غير العربية التي دخلت في الإسلام، وتعارفت هذه الشعوب واختلطت مع بعضها، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: 13] فإذا حصل نزاع أو اختلاف، أو دعوى، استعان القاضي بالترجمان الثقة المقبول لينقل أقوال الخصوم له[4].

سادساً: المراقبة والمتابعة:

إن تخلي الخلفاء والولاة عن ممارسة القضاء، والاقتصار على التعيين والعزل لم يمنع الخلفاء من مراقبة أعمال القضاة ومراجعة أحكامهم ومتابعة الدعاوة والأقضية التي تصدر عنهم، لأن الخليفة هو المسؤول عن القضاء، وجميع ما يخص الأمة والأفراد في سياسة الدين والدنيا، وتفويض القضاء للقضاة لا ينجي الخليفة من المسؤولية في الدنيا والآخرة، لذلك كان الخلفاء يراقبون أعمال القضاة، ويتابعون ما يصدر عنهم، فإن وجدوا فيه خللاً أو انحرافاً، أو تقصيراً، تصدوا للتقويم والتصحيح[5]، وهذا ما نقلناه سابقاً عن النباهي قال: «ولما أفضى الأمر إلى معاوية بن صخر جرى بجهده على سنن من تقدَّمه من ملاحظة القضاة، وبقي الرسم حذو تربه زماناً»[6].

سابعاً: مصادر الأحكام القضائية في العهد الأموي:

اعتمد القضاة على المصادر نفسها التي جرى عليها القضاة في العهد الراشدي، وذلك بالالتزام بالكتاب والسنة، والإجماع، والسوابق القضائية والاجتهاد مع الاستشارة، وكان الالتزام بالقرآن والسنة هو الأساس، وهو ما تلتزم به الخلافة، وتتم عليه البيعة، وتطور الأمر في السوابق القضائية على الإشادة بقول الصحابة رضوان الله عليهم والتقيد غالباً بما صدر عنهم، لأنهم أقرب عهداً وصلة بمدرسة النبوة، ونزول الوحي، وخصوصاً أقضية الخلفاء الراشدين، كما بدأ يظهر في هذا العهد أثر العرف والعادة على أقضية الحكام، نظراً لاختلاف الأعراف والعادات في أصقاع الخلافة الأموية المترامية الأطراف، فكان القضاة ينظرون في الأقوال والدعاوى والأيمان والتهم بحسب الأعراق التي تظلهم وتحدد المراد من الألفاظ والمصطلحات[7]، وكان الفقهاء والقضاة والخلفاء يحرصون على التثبت من نقل النصوص،

---

(1) تاريخ القضاء في الإسلام، ص: 181.
(2) المصدر نفسه، ص: 181، أخبار القضاة (2/ 215).
(3) تاريخ القضاء في الإسلام، ص: 181.
(4) تاريخ القضاء في الإسلام، ص: 423.
(5) المصدر نفسه، ص: 186.
(6) المصدر نفسه، ص: 186.
(7) المدخل الفقهي (1/ 150).

وصحة الأحاديث للاعتماد عليها، وحذر معاوية رضي الله عنه من الاعتماد على الأحاديث المكذوبة، فخطب في وفد من قريش، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: أما بعد، فإنه قد بلغني أن رجالاً فيكم يتحدثون بأحاديث ليست في كتاب الله، ولا تُؤْثر عن رسول الله ﷺ فأولئكم جهالكم[1]، وكان القضاة يعينون من الخلفاء والولاة، وتطلق يد القضاة يتقيدون برأي اجتهادي معين من أحكامهم، إلا ما ورد في النصوص والإجماع، وإلى حد ما إلى السوابق القضائية وقول الصحابة، ولم تكن المذاهب الفقهية قد ظهرت، ولم تدن الأحكام، فكان الأمر راجعاً إلى القضاة أنفسهم، وبما يصلون إليه مع استشارة الفقهاء والعلماء والمجتهدين في كل مصر على حدة[2].

ثامناً: اختصاص القضاة، وتخصيص القضاء:

كان لاتساع الدولة الإسلامية في العهد الأموي، وكثرة الناس، وانشغال الخلفاء بالفتوحات، وإدارة الدولة، وإخماد الفتن الداخلية أن انصرفوا عن القضاء، وفوضوا جميع اختصاصاته إلى القضاة، وتنازلوا عن النظر في الجنايات والحدود، وكلفوا القضاة النظر فيها، وكان معاوية بن أبي سفيان أول من تنازل عن النظر في الجراح والقتل والقصاص إلى القضاة، فكتب إلى القاضي سُلَيم بن عِتر «قاضيه على مصر» يأمره بالنظر في الجراح، وأن يرفع ذلك إلى صاحب الديوان، وكان سُليم أول قاض نظر في الجراح، وحكم بها، فكان الرجل إذا أصيب فجرح أتى إلى القاضي، وأحضر بينته على الذي جرحه، فيكتب القاضي بذلك الجُرح قصته على عاقلة الجارح ويرفعها إلى صاحب الديوان، فإذا حضر العطاء اقتص من أعطيات عشيرة الجارح ما وجب للمجروح، وينجِّم «يقسِّط» ذلك في ثلاث سنين، فكان الأمر على ذلك[3]، وكان القاضي في العهد الأموي عام النظر في الحقوق والأموال، وأحكام الأسرة، والمواريث والقصاص والحدود، ويظهر ذلك جلياً في سيرة القضاة وأقضيتهم التي ذكرها وكيع في كتابه: «أخبار القضاة»، والكندي في كتابه «الولاة والقضاة»[4] وفي العهد الأموي ضُم إلى القاضي أعمال أخرى بعضها شبه قضائية، وبعضها إدارية، فمن أهم هذه الأعمال في ذلك العصر، النظر في أموال الأيتام، الإشراف على الأوقاف، الإفتاء[5].

(1) أعلام الموقعين(1/ 63).
(2) تاريخ القضاء في الإسلام، ص: 190.
(3) نظام الحكم في الشريعة، ص: 256، تاريخ القضاء في الإسلام، ص: 192.
(4) تاريخ القضاء في الإسلام، ص: 193.
(5) المصدر نفسه، ص: 193، 194، 195.

تاسعاً: القضاة والأعمال المختلفة:

نظراً لما يتمتع به القضاة من الثقة، وما يتصفون به من العدل والنزاهة، والورع والتقوى، فقد أسند لهم الخلفاء في العهد الأموي عدة أعمال هي:

1 - الشرطة: تولى القضاة رئاسة الشرطة بالإضافة إلى أعمالهم القضائية، فجمعوا بين ولاية القضاء وولاية الشرطة وذلك في عدة مدن إسلامية، فقد روى وكيع أن معاوية عزل سعيد ابن العاص عن المدينة سنة ثلاث وخمسين، ويقال سنة أربع وخمسين في شهر ربيع، وأعاده مروان بن الحكم، فعزل مروان أبا سلمة، واستقضى أخاه مصعب بن عبد الرحمن بن عوف، وضم إليه الشُرَط مع القضاء أخذ الناس بالشدة[1]، وقال الكندي عن مسلمة بن الحكم، فعزل مروان أبا سلمة، واستقضى أخاه مصعب بن عبد الرحمن بن عوف، وضم إليه الشُرَط مع القضاء، وكان شديداً صلباً في ولايته، ولما ولي الشُرَط أخذ الناس بالشدة[2]، قال الكندي عن مسلمة بن مخلَّدَ أنه: قدم مسلمة الفُسطاط، فعزل السائب بن هشام بن كنانة العامري عن شُرطَه، وولّى عليها عابس بن سعيد، وعزل سُليمان بن عتز عن القضاء وجعله إلى عابس، فجمع له القضاء والشّرط، وهو أول من جمع له سنة ستين[3]، ولما تولى مسلمة سنة 62هـ، بعد أن مكث والياً على مصر أكثر من 15 سنة وليها سعيد بن يزيد الأزدي في رمضان سنة 62هـ، فأقر عابس بن سعيد على القضاء والشُرط جميعاً، ولما جاء عبد الرحمن بن عتبة بن جَحْدم الفهري أميراً على مصر أقر عابساً على الشُرط والقضاء وذكر الكندي أن مسلمة بن مخلّد والي مصر عين عابس بن سعيد على شُرطته، ثم جمع له الشُرط والقضاء[4]، وذلك في أول سنة إحدى وستين[5].

2 - الإمارة: استعمل بعض القضاة ولاة في بعض الأحيان، كما كان الخليفة أحياناً ينيب القاضي مكانه في الإمارة إذا خرج عن دمشق، وكان كثير من الولاة يستخلفون القاضي على إدارة الأمور، وتصريف شؤون المصر أثناء غيابهم، أو خروجهم لمهمة، قال أبو زرعة: لما خرج معاوية إلى صفين استخلف القاضي فضالة بن عُبيد على دمشق[6].

عاشراً: أسماء القضاة في عهد معاوية:

1 - أشهر قضاة دمشق:

أ ـ فضالة بن عُبيد الذي ولاه معاوية القضاء في الشام بترشيح أبي الدرداء ﵁، وبقي

---

(1) أخبار القضاة (1/ 118).
(2) أخبار القضاة (1/ 118).
(3) تاريخ القضاء عرنوس، ص: 26، الولاء والقضاء، ص: 311 - 313.
(4) تاريخ القضاء في الإسلام، ص: 196.
(5) تاريخ القضاء في الإسلام، ص: 196.
(6) قضاة دمشق لابن طولون، ص: 413.

فضالة على القضاء حتى مات في خلافة معاوية سنة 53هـ وحضر معاوية جنازته وحمل بجانب السرير، وكان معاوية يستخلفه على دمشق عندما يخرج منها[1]، وقضى فضالة بدر الحد عندما أتاه رجل بسارق يحمل سرقته، فقال له فضالة: لعلك وجدتها، لعلك التقطتها، فقال له الرجل: إنّا لله وإنا إليه راجعون، إنه ليلقنه، قال: إي والله، أصلحك الله، وجدتها، فخلا سبيله، وأجاز الفقهاء تلقين المتهم في الحدود، كما فعل رسول الله ﷺ مع ماعز[2].

ب ـ النعمان بن بشير بن سعد، أبو إدريس الأنصاري الخزرجي، الصحابي الذي ولي القضاء بالشام بعد فضالة وتوفي سنة 64هـ قتلاً بقرب حمص[3].

2 - قضاة المدينة:

أ ـ أبو هريرة الصحابي المشهور رضي الله عنه: قضى بالمدينة، لما رواه وكيع عن نعيم قال: شهدت أبا هريرة يقضي.. وأمر بالتسوية بين الخصوم، ورفض حبس مدين معسر، وحكم على قاذف بثمانين جلدة، وكان أبو هريرة يسكن المدينة حتى توفي فيها سنة 59هـ[4]، ولعله استقضى قبل عبد الله بن الحارث.

ب ـ عبد الله بن الحارث بن نوفل، أبو عبد الله بن نوفل بن الحارث: وهو أول قاض في المدينة لواليها مروان بن الحكم في خلافة معاوية، وكان أول ما قضى حقاً على آل مروان، فزاده ذلك عند مروان بن الحكم خيراً، وكان يقضي باليمين مع الشاهد، وتوفي سنة 84هـ، وكان من صلحاء المسلمين وفقهائهم[5].

جـ ـ أبو سلمة بن عبد الرحمٰن بن عوف (94هـ ت) وهو من كبار التابعين، وكان يزعم عن نفسه أنه أفقه الناس، واستعمله سعيد بن العاص والي معاوية على قضاء المدينة، وكان يستحلف صاحب الحق مع الشاهد الواحد[6].

د ـ مصعب بن عبد الرحمٰن بن عوف (64هـ ت) استقضاه مروان بن الحكم سنة 53هـ أو 54هـ وضمَّ إليه الشُرط مع القضاء، وكان شديداً صلباً في ولايته، ولما ولي الشُرط أخذ الناس بالشدة في جرائم القتل التي انتشرت في المدينة[7]، ولما مات معاوية واستخلف يزيد استعمل

(1) أخبار القضاة (3/ 199، 201) تاريخ القضاء في الإسلام، ص: 198.
(2) تاريخ القضاء في الإسلام، ص: 199.
(3) المصدر نفسه، ص: 199.
(4) المصدر نفسه، ص: 200، أخبار القضاة (1/ 110) (1/ 114).
(5) تاريخ القضاء في الإسلام، ص: 201.
(6) أخبار القضاء (1/ 116)، تاريخ القضاء في الإسلام، ص: 201.
(7) أخبار القضاء (1/ 118)، تاريخ القضاء في الإسلام، ص: 201.

على المدينة عثمان بن محمد بن أبي سفيان، فاستقضى طلحة بن عبد الله بن عوف، وهو أحد الأجواد، ويقال له طلحة الجواد[1].

3 - قضاة البصرة:

تولى القضاة في البصرة كثيرون، نذكر منهم: عُميرة بن يثربي الضّبي الذي استقضاه عبد الله ابن عامر بن كُريز عامل معاوية على البصرة، وكان عميرة يحكم بضمان العارية، وبقي في القضاء حتى سنة 45هـ، فعزله زياد الذي ولي إمارة البصرة، وولي القضاء عمران بن حصين فاستعفاه بطلبه، وولي عبد الله بن فضالة ثم أخاه عاصم بن فضالة، ثم زرارة بن أوفى[2].

4 - قضاة الكوفة:

كانت الكوفة من أنشط المدن العلمية وكانت مركز النشاط والحركة والعلم منذ أسست في عهد عمر رضي الله عنه واتخذها علي رضي الله عنه عاصمة وكان من أشهر قضاة الكوفة شريح القاضي فقد كان من عهد عمر واستمر في القضاء طوال العهد الراشدي، ومدة طويلة في العهد الأموي تزيد عن خمس وثلاثين سنة وتوقف (في عهد بن الزبير) ثم عاد إلى القضاء حتى استعفى من الحجاج فأعفاه سنة 78هـ[3]، ومن قضاة الكوفة في عهد معاوية رضي الله عنه، مسروق بن الأجدع الهمداني، ولي لمعاوية في إمرة زياد القضاء، وكان من الفضلاء[4].

5 - قضاة مصر:

ومن أشهر قضاة مصر في عهد معاوية سُلَيم بن عنز التجيبي وهو أول من ولي القضاء بمصر في أيام معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه سنة أربعين هـ[5]، وعابس بن سعيد المرادي الذي عينه مسلمة بن مخلد على الشرطة، ثم عزل سُليم بن عنز عن القضاء، وجعله إلى عابس فجمع له القضاء والشُّرط[6]، هؤلاء هم أشهر القضاة في عهد معاوية رضي الله عنه.

الحادي عشر: ميزات القضاء في عهد معاوية والأموي عموماً:

من أهم ميزات وخصائص القضاء في العهد الأموي الآتي:

1 - بقي القضاء في العهد الأموي، كما كان في العهد النبوي والعهد الراشدي، في معالمه

---

(1) تاريخ القضاء في الإسلام، ص: 201.

(2) أخبار القضاة (2/ 3) تاريخ القضاء في الإسلام، ص: 204.

(3) أخبار القضاة (2/ 184)، تاريخ القضاء في الإسلام، ص: 207.

(4) تاريخ القضاء في الإسلام، ص: 207.

(5) المصدر نفسه، ص: 209.

(6) المصدر نفسه، ص: 209.

الأساسية، وتنظيمه الجوهري، ووسائله وأهدافه، وكان استمراراً لما سبق في إقامة الحق والعدل، والنزاهة والموضوعية، مع مراعاة التطور والتوسع في الخلافة الأموية.

2 - استعمل القضاة في العهد الأموي وسائل الإثبات الشرعية نفسها المعمول بها في العهد الراشدي، مع التوسع في الفراسة، واستعمال الحيل على المتهم، لكشف الحق، والوصول إلى الصواب والعدل[1].

3 - ظهرت في العهد الأموي مصادر جديدة للأحكام القضائية وهي العرف، وقول الصحابي، وإجماع أهل المدينة أحياناً، بالإضافة إلى المصادر الأصلية في العهد النبوي وهي القرآن الكريم والسنة الشريفة، والمصادر الاجتهادية في العهد الراشدي وهي: الإجماع، والقياس، والسوابق القضائية، والرأي[2].

4 - كان الخلفاء يعينون القضاة في الشام، وقد يرشحون بعض القضاة للأقاليم، وكان الولاة في الأمصار يعينون القضاة، ويعزلونهم.

5 - حرص الخلفاء والولاة على اختيار أحسن الناس لولاية القضاء، من العلماء والفقهاء والشرفاء وخيرة القوم، الذين تتوفر فيهم صفات القاضي الشرعية ، ويخشون الله تعالى، ويلتزمون بالحق والشرع، ويقيمون العدل بين الناس.

6 - طرأت تغييرات بارزة على القضاء في العهد الأموي، وأضيفت لأول مرة، وهي:

أ ـ تسجيل الأحكام خوفاً من النسيان، ومنعاً للتجاحد، ووضعها في ديوان خاص.

ب ـ الإشراف على الأوقاف من أجل حسن تطبيقها.

جـ ـ النظر في أموال اليتامى ومراقبة الأوصياء.

د ـ ترتيب الدعاوي، واستعمال الرقعة لإدخال الخصوم والمناداة على الناس بالترتيب.

هـ ـ وجود المساعدين للقضاة، وهم الأعوان، والحاجب والشرطي في مجلس القضاة.

و ـ الاستعانة بالشرطة لتنفيذ الأحكام القضائية، وإجراءات الخصومة.

7 - كان القضاة مجتهدين في إصدار الأحكام القضائية، ولهم الحرية المطلقة في استنباط الأحكام من القرآن والسنة ومقاصد الشريعة، وبقية المصادر، ولم يتقيدوا برأي الخلفاء، ولم يلتزموا بمذهب فقهي، ولكن هذا لم يمنعهم من مشاورة العلماء والفقهاء، ومشاركتهم في المجالس القضائية[3].

---

(1) تاريخ القضاء في الإسلام، ص: 213.

(2) المصدر نفسه، ص: 214.

(3) تاريخ القضاء في الإسلام، ص: 213 إلى 215.

8 - لم يتأثر القضاة بسياسة الحكام والخلفاء، وكان القضاة مستقلين في عملهم، ولم تؤثر عليهم الميول السياسية، والحركات الثورية، والخلافات الفكرية، والفتن الداخلية[1]. هذه هي أهم ميزات القضاء في العهد الأموي.

الثاني عشر: خطاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى معاوية في القضاء:

كتب عمر إلى معاوية رضي الله عنهما : أما بعد فإنني كتبت في القضاء كتاباً لم آلك - ونفسي - فيه خيراً، . . ثم إن عمر قال:

1 - الزم خمس خصال يسلم لك دينك، وتأخذ فيه بأفضل حظك: إذا تقدم إليك الخصمان، فعليك بالبينة العادلة، واليمين القاطعة فهو الطريق للقاضي الذي لا يعلم الغيب. فمن تمسك به سلم له دينه، ونال أفضل الحظ والثواب في الآخرة[2]. فمعنى اليمين القاطعة: للخصومة والمنازعة[3].

2 - وأدنِ الضعيف حتى يشتد قلبه، وينبسط لسانه[4]، ولم يرد بهذا الأمر تقديم الضعيف على القوي، وإنما أراد الأمر بالمساواة، لأن القوي يدنو بنفسه لقوته، والضعيف لا يتجاسر على ذلك، والقوي يتكلم بحجته، وربما يعجز الضعيف عن ذلك. فعلى القاضي أن يدني الضعيف ليساويه بخصمه حتى يقوى قلبه، وينبسط لسانه، فيتكلم بحجته[5].

3 - وتعاهد الغريب، فإنك إن لم تعاهده ترك حقه، ورجع إلى أهله، فربما ضيع حقه من لم يرفع به رأسه[6]. قيل هذا أمر بتقديم الغرباء عند الازدحام في مجلس القضاء، فإن الغريب قلبه مع أهله، فينبغي للقاضي أن يقدمه في سماع الخصومة، ليرجع إلى أهله، وكان رسول الله ﷺ يتعاهد الغرباء. وقيل: مراده أن الغريب منكسر القلب، فإذا لم يخصه القاضي بالتعاهد عجز عن إظهار حجته، فيترك حقه، ويرجع إلى أهله، والقاضي هو السبب، لتضييع حقه، حين لم يرفع به رأسه ثم قال:

4 - وعليك بالصلح بين الناس، ما لم يستبن لك فصل القضاء[7]. وفيه دليل أن القاضي مندوب إليه أن يدعو الخصم إلى الصلح، خصوصاً في موضع اشتباه الأمر[8].

---

(1) تاريخ القضاء في الإسلام، ص: 215.

(2) المبسوط للسرخسي (16/ 66) : تهذيب ابن عساكر (6/ 306).

(3) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي (2/ 465).

(4) المبسوط للسرخسي (16/ 66).

(5) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي (2/ 465).

(6) المصدر نفسه (2/ 465).

(7) المصدر نفسه (2/ 465).

(8) المصدر نفسه (2/ 465).

المبحث السابع
الشرطة في عهد معاوية

شهد عهد معاوية بن أبي سفيان ﷺ تطوراً كبيراً في نظام الشرطة من جهة نموها وترسخها كمؤسسة رسمية على مستوى الدولة وبصورة لم تُعرف من قبل، لقد أصبحت مؤسسة الشرطة مسئولة مسئولية كاملة ومباشرة عن توفير الأمن وإقرار النظام في جميع الأمصار الإسلامية، لقد أصبحت أهم قوة أمن يعتمد عليها معاوية وولاته لتحقيق الأمن الشخصي من جهة، وحفظ الأمن والنظام في الداخل من جهة أخرى، يضاف إلى هذا كله، أن أصبحت الشرطة المدافع الأول عن نظام الأمن الأموي وحمايته من اعتداءات الفرق الأخرى المعارضة له كالخوارج والشيعة وغيرهما التي كانت تعمل على إسقاطه بشتى السبل، وقد استعمل معاوية ﷺ الشرطة كحرس خاص لحمايته شخصياً ودونما شك أن المحاولة الفاشلة التي قام بها الخوارج لاغتيال معاوية كان لها دور كبير في دفع معاوية لاتخاذ قراره بالاعتماد على الشرطة كحرس خاص لضمان عدم تكرار المحاولة، وخصوصاً أن علياً وعمرو بن العاص قد تعرضا للمحاولة نفسها، قُتل على أثرها أمير المؤمنين عليّ، وكان ذلك عام 40هـ، ومنذ ذلك ومعاوية لا يخرج بدون حماية خاصة، وحتى أوقات الصلوات، كان يأمر حراسه بالوقوف عند رأسه حماية له من الاعتداءات المحتملة من مناوئيه[1].

أولاً: الشرطة في العراق:

يعتبر المغيرة أول والٍ يعينه معاوية في الكوفة وقد استعان برجال الشرطة لغرض بسط الأمن، وعين صاحب الشرطة عُرف بشراسته وقسوته وكان يُدعى قبيصة بن دمّون[2]، ومن الحوادث التي تبين مدى فعالية الشرطة في حفظ الأمن والنظام ما أورده الطبري حول صراع المغيرة مع الخوارج، وذلك حين أخبره صاحب الشرطة باجتماعهم في الكوفة لإثارة القلاقل والاضطرابات، فأصدر المغيرة أوامره إلى صاحب الشرطة لمحاصرة مكان الاجتماع، وبعد أن ألقى القبض عليهم أودعهم السجن. وفي البصرة، عين معاوية عبد الله بن عامر والياً عليها ثم عزله في عام 45هـ وعين زياد بن أبيه والياً على البصرة. وقد تبين لزياد عند وصوله البصرة مدى التدهور الحاصل في الأمن، فذكره وشدّد عليه في خطبه التي افتتح بها ولايته، جرياً على العادة في ذلك الوقت فألقى خطبة طويلة سيأتي الحديث عنها بإذن الله، بين فيها أسلوبه الذي سوف يتبعه في معالجة التدهور الأمني، ومن قراءة تلك الخطبة تبين أن زياد كان مصمماً على

(1) تاريخ الطبري (6/ 65)، الشرطة في العصر الأموي، ص: 36.
(2) تاريخ الطبري نقلاً عن الشرطة في العصر الأموي، ص: 37.

إقامة الأمن والنظام بغض النظر عن الوسيلة التي تحقق ذلك الهدف[1]، ولو كانت بالعسف وخصوصاً حين يقول: وإني أقسم بالله لآخذنّ الولي بالولي، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والصحيح منكم بالسقيم، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول: أنج يا سعد فقد هلك سعيد، أو تستقيم لي قناتكم[2].

ويروي البلاذري كيف استتب الأمن في البصرة في عهد زياد، وذلك في حادثة مفادها أن زياداً سمع جلباً وأصواتاً بين العامة، فسأل عن السبب فقيل له أنّ أحداً قد استأجر من يحمي له بيته، وذلك نظراً لعدم وجود الشرطة، وانتشار السرّاق[3]، وفي اليوم التالي أمر زياد صاحب الشرطة بأن تقوم الشرطة بحراسة الطرقات بعد صلاة العشاء[4]، ويضيف البلاذري أنّ الشرطة قد قتلت ما يقارب الخمسمائة نفر من لص ومنتهب للبيوت[5]، ويعتبر زياد أول من منع التجول وذلك بمنع العامة من الخروج من منزلهم ليلاً[6]، وكان يأمر صاحب شرطته بالخروج فيخرج ولا يرى إنساناً إلا قتله. فأخذ ليلة أعرابياً، فأتى به زياداً فقال: هل سمعت النداء؟ ـ يقصد نداء منع التجاول ليلاً ـ قال: لا والله، قدمت بحلوبة[7] لي وغشيني الليل فاضطررتها إلى موضع، فأقمت لأصبح، ولا علم لي بما كان من الأمير قال: أظنك والله صادقاً، ولكن في قتلك صلاح هذه الأمة، ثم أمر به فضربت عنقه[8]. ومثل هذا الفعل الظالم لا تقرّه الشريعة مهما كانت التبريرات[9]. وعلى ما يبدو أن قتل البدو لم يكن لمجرد الرغبة في القتل ذاته، بل تمّ لإقناع أهل البصرة بجدية الوالي في تنفيذ أوامره، وأن لا أحد منجي من العقوبة إذا خرق القانون، حتى لو كان بريئاً لا ذنب له، كما سبق وهدّد في خطبته البتراء، لقد كان الهدف النهائي عند زياد، إقرار هيبة الدولة والحصول على طاعة العامة، ولو عن طريق الإرهاب، وبذلك تستقيم الأمور في البصرة حيث ترى العامة أن الأمر لا هزل فيه ولا هوان في تطبيق العقاب[10]، ولم يكن خافياً على زياد بن أبيه ضرورة إعادة تنظيم جهاز الشرطة حتى يتمكن من تحقيق سيطرة فعالة على الأوضاع الأمنية، لذلك عمل زياد على اتخاذ بعض الإجراءات التي تسمح له بفرض هيمنته، منها زيادة عدد الأفراد العاملين في الشرطة فصعّد عددهم[11] حتى وصل أربعة آلاف فرد، وعين اثنين في منصب صاحب الشرطة بدلاً من واحد[12]. إن ارتفاع

---

(1) الشرطة في العصر الأموي، ص: 38.
(2) تاريخ الطبري (6/ 135).
(3) أنساب الأشراف (4/ 171).
(4) المصدر نفسه (4/ 171).
(5) المصدر نفسه (4/ 171).
(6) الشرطة في العصر الأموي، ص: 39.
(7) الحلوب: ذات الحليب.
(8) تاريخ الطبري (6/ 138).
(9) ولاية الشرطة في الإسلام، ص: 123 نمر بن محمد الحميداني.
(10) الشرطة في العصر الأموي، ص: 40.
(11) المصدر نفسه، ص: 40.
(12) تاريخ الطبري (6/ 138).

عدد رجال الشرطة إلى أربعة آلاف يدل على أمرين: أولهما: ـ شدة الاضطراب الداخلي. الثاني: ـ أن الشرطة كانت ترفد الجيش في كثير من الأحيان[1]. وبلغ من دقته في عهده أنه قال: لو ضاع حبل بيني وبين خراسان علمت من أخذه[2]، وترتب على ذلك ما قاله الطبري: . . . وكان زياد أول من شد أمر السلطان، وأكد الملك لمعاوية، وألزم الناس الطاعة، وتقدم في العقوبة، وجرد السيف، وأخذ بالظنَّة، وعاقب على الشبهة وخافه الناس في سلطانه، خوفاً شديداً، حتى أمن الناس بعضهم بعضاً، حتى كان الشيء يسقط من الرجل أو المرأة فلا يعرض له أحد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه، وتبيت المرأة فلا تغلق عليها بابها، وساس الناس سياسة لم ير مثلها، وهابه الناس هيبة لم يهابوها أحداً قبله، وأدرّ العطاء، وبنى مدينة الرزق[3]، وعندها ضمّ معاوية الكوفة إلى ولاية زياد واستطاع أن يفرض النظام الأمني حيث حقق للأمويين رغبتهم في استقرار النظام والأمن في كل من البصرة والكوفة، وحيث أصبحت الشرطة أهم قوة داخلية وأكثرها فاعلية[4].

ثانياً: الشرطة في الأقاليم الأخرى:

عند مقارنة مثلاً مصر بغيرها من الأمصار الإسلامية كالبصرة مثلاً، نجد أن الشرطة لم تلعب الدور نفسه وذلك لبعد مصر عن الاضطرابات التي يحدثها عادة الخوارج وكذلك تذكر المصادر في العادة حرص الولاة عند اختيار صاحب الشرطة، وقد عين مروان بن الحكم والي المدينة مصعب بن عبد الرحمٰن بن عوف في منصبي صاحب الشرطة والقضاء في آن واحد؛ كما مرّ معنا وكان ذلك في عهد معاوية[5]. ويروي ابن سعد أن مصعباً كان شديداً على المذنبين والخارجين على القانون[6]، وقد طلب مصعب من الوالي مروان بن الحكم أن يزوده بعدد كبير من أفراد الشرطة، إذا كان يريد الحفاظ على الأمن في المدينة، حيث لم يكن عدد الشرطة المتوفر كافياً لهذه المهمة[7]، وأجابه مروان إلى طلبه وأرسل إليه مائتي شرطي، وظل مصعب في منصب صاحب الشرطة حتى وفاة معاوية[8].

---

(1) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ والإسلام (2/ 636).
(2) المصدر نفسه (6/ 139).
(3) المصدر نفسه (6/ 138).
(4) الشرطة في العصر الأموي، ص: 41.
(5) الشرطة في العصر الأموي، ص: 43، الطبقات (5/ 158).
(6) الطبقات لابن سعد (5/ 158).
(7) الشرطة في العصر الأموي، ص: 43، الأغاني (5/ 74).
(8) المصدر نفسه، ص: 43.

ثالثاً: واجبات الشرطة:

كان للشرطة في الدولة الأموية مكانة مميزة بسبب الواجبات المهمة التي كانت تقوم بها هذه المؤسسة تجاه السلطة والمجتمع ومن هذه الواجبات:

1 - حماية الخليفة وولاة الأمصار ضد مناوئيهم في الداخل:

أول من استخدم الشرطة لحمايته الشخصية من الاغتيال، الخليفة معاوية مؤسس الدولة الأموية، الذي خاض صراعاً سياسياً ـ عسكرياً عنيفاً مع معارضيه من الخوارج وغيرهم، وكان الشرطة يحرسون معاوية بشكل دائم في حله وترحاله، بل حتى وقت الصلاة كان هناك حارس يقف عند رأسه وهو يصلي في المحراب، وعلى ما يبدو أن الخليفة كان يسير بين يديه صاحب الشرطة متقلداً كامل سلاحه، وكذلك تقوم الشرطة بتوفير الحماة للولاة في الأمصار المختلفة، بالطريقة السابقة نفسها، وكما ذُكر سابقاً أن زياد بن أبيه كان يستخدم الشرطة لأمنه الشخصي وكان صاحب الشرطة هو المسئول الأول عن سلامة الوالي[1]. إن ظهور صاحب الشرطة في مقدمة موكب الخليفة أو الوالي في الأماكن العامة ليس دليلاً فقط على الحماية، بل لإشعار العامة أيضاً بالهيمنة والسلطة، إلى جانب ذلك كانت الشرطة أداة بيد الخليفة والولاة لفرض سلطة الدولة على الذين يحاولون التمرد عليها أو معارضتها[2]، وكانت تعين الخليفة على جمع المعلومات، فقد كان معاوية ﷺ قد بلغ من اهتمامه في الحصول على أخبار عماله ورعيته أن بثَّ عيونه في كل قطر وكل ناحية، فكانت تصله الأخبار أولاً بأول فانتظم له أمره، وطالت في الملك مدته[3]، وحذا زياد بن أبيه حذو معاوية، ومما يحكي عنه: أن رجلاً كلمه في حاجه له فتعرف عليه وهو يظنّ أنّه لا يعرفه فقال: أصلح الله الأمير أنا فلان ابن فلان. فتبسم زياد وقال: أتتعرّف إليّ وأنا أعرف منك بنفسك، والله إني لأعرفك وأعرف أباك وأمك وجدك وجدتك، وأعرف هذا البُرد[4] الذي عليك وهو لفلان.. فبُهَت الرجل وأرعد حتى كاد يغشى عليه[5].

2 - معاقبة المذنبين والخارجين عن القانون:

الشرطة بحكم كونها القوة الرئيسية المسئولة عن حفظ الأمن، والنظام داخل المدن، إضافة إلى واجبها فرض القانون ولكن الأحوال الاجتماعية في المدن الكبرى كانت تدفع الشرطة إلى اتخاذ إجراءات مشددة تجاه العامة وقد بين زياد بن أبيه في خطبته البتراء خطورة التجاوزات التي حدثت من الناس فقال: . . . من بُيّت منكم فأنا ضامن لما ذهب له، إياي ودلج الليل،

---

(1) تاريخ الطبري (6/ 138) الدولة الأموية في العصر الأموي، ص: 79.

(2) الشرطة في العصر الأموي، ص: 79.

(3) المحاسن والمساوئ، ص: 143 - 144 للبيهقي.

(4) البرد : كساء مخطط يلتحف به.

(5) المحاسن والمساوئ، ص: 144.

فإني لا أوتي بمدلج إلا سفكت دمه، . . . وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة، فمن غرّق قوماً، غرقناه، ومن حرّق على قوم حرقناه، ومن نقب بيتاً نقبت عن قلبه، ومن نبش قبراً دفنته فيه حياً[1]. . . من هذه الخطبة يتبين مدى التدهور الحاصل في البصرة، من خلال طبيعة الجرائم التي كان يرتكبها بعض المنحرفين من أهلها قبل قدوم زياد، وحين انتهى من خطبته أمر صاحب الشرطة بحراسة الطرقات وقتل كل من يوجد خارج منزله ليلاً[2] ويروي البلاذري أن زياداً لم يتردد في تنفيذ ما توعّد به[3]حرفياً.

3 - تنفيذ العقوبات الشرعية:

من الواجبات التي كانت الشرطة تقوم بها، تنفيذ الحدود الشرعية التي يأمر بها القضاة، ضد كل من يظهر منه فساد في المجتمع الإسلامي، والحدود الشرعية كما هو معروف، مذكورة في القرآن الكريم والسنة النبوية بينت ذلك وكان الصحابة والتابعين ﷺ لديهم غيرة وحرص على أوامر الدين وتنفيذها، ومن ذلك ما رواه الإمام مالك أنّ عبداً سرق وديّا[4]فوجدوه، فاستعدى على العبد مروان بن الحكم[5]، فسجن مروان العبد، وأراد قطع يده، فانطلق سيد العبد إلى رافع بن خديج ﷺ، فسأله عن ذلك، فأخبره: أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**لا قطع في ثمر ولا كثر**»[6]، فقال الرجل: فإنَّ مروان بن الحكم أخذ غلاماً لي وهو يريد قطع يده، وأنا أحبّ أن تمشي معي إليه فتخبره بالذي سمعت من رسول الله، فمشى معه رافع إلى مروان بن الحكم، فقال: أخذت غلاماً لهذا، فقال: نعم، فقال: ماأنت صانع به؟ قال: أردت قطع يده، فقال له رافع: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا قطع في ثمر ولا كثر**»، فأمر مروان بالعبد فأرسل، ويستفاد من هذه اللمحة كذلك، احترام الولاة والعمال للصحابة الكرام، وعدم التعرّض لتصرّفاتهم ما دامت منبثقة من الحرص على تنفيذ أمر الله ورسوله حتى وإن كانت داخلة ضمن مهام الوالي[7]، ومن مظاهر الغيرة على أوامر الدين وتغليب أمر الله على ما سواه، امتناع والي شرطة المدينة مصعب بن عبد الرحمٰن بن عوف ﷺ من هدم دور بني هاشم، ومن كان في حيّزهم، ودور بني أسد بن العزّى، والشدّة

(1) تاريخ الطبري (6/ 136).
(2) الشرطة في العصر الأموي، ص: 83، أنساب الأشراف (4/ 172).
(3) الشرطة في العصر الأموي، ص: 83.
(4) الودي: الواحدة وديّة، وهي صغار النخل، الفائق في غريب الحديث (4/ 51).
(5) ولاية الشرطة في الإسلام 120.
(6) الكثر: بفتح الكاف والمثلثة هو جمّار النخل أي وعاء الطلع.
(7) ولاية الشرطة تي الإسلام، ص: 121.

عليهم، وذلك لموالاتهم الحسين بن علي وابن الزبير، وامتناعهم عن بيعة يزيد، إذ قال مصعب لأمير المدينة عمرو سعيد[1]: أيها الأمير إنّه لا ذنب لهؤلاء ولست أفعل، فقال له الأمير: انتفخ سحرك يا ابن أم حريث، إليّ سيفنا، فرمى إليه بالسيف وخرج عنه[2]. وهذا الفعل يدل على قوة إيمان مصعب ، وأنّه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق[3]، ومن واجبات الشرطة، مساعدة الجيش ضد أعداء الدولة[4]، وتنفيذ أحكام الإعدام والتعذيب للمناوئين السياسيين وكل ما يتصل بالسجناء عند صاحب السجن[5]، وإن كانت الواجبات الأخيرة تتضح ملامحها في عهد الخلفاء الذين بعد معاوية أكثر.

رابعاً: قوات ومؤسسات أخرى وعلاقتها بالشرطة:

تعتبر الشرطة العمود الفقري للجهاز الأمني في الدولة الأموية، وكانت المهمة الرئيسية لهم حفظ الأمن الداخلي بالدرجة الأولى، ومع ذلك عرف العصر الأموي مؤسسات أخرى لعبت دوراً مشابهاً ومكملاً نفسه للشرطة وهذه المؤسسات هي:

1 - الحرس:

استخدمت كلمة حرس في بدايات العصر الأموي لوصف كل من يقوم بمهمة الحراسة بغض النظر عن المكان أو الشخص الذي يحرسه، وفي العصر الأموي كان الحرس يمثلون تلك الفئة التي تقوم بمهمة حماية الخلفاء والولاة، وعلى ما يظهر أن معاوية كان أول خلفاء بني أمية يتخذ الحرس لحمايته الشخصية من احتمال الاعتداء عليه من قبل الخوارج وغيرهم، وفي خلافة معاوية استخدم الولاة الحرس، كقوة أمنية داخلية إلى جانب الشرطة، وقد استخدم زياد بن أبيه، خمسمائة رجل في قوات الحرس الخاصة به، وعين عليهم رجلاً من بني سعد أطلق عليه صاحب الحرس[6]، ومنذ ذلك الحين وخلفاء بني أمية يعينون من يثقون به[7]، وخلاصة القول: أن مفهوم الشرطة يتسع إلى الدرجة التي يضم فيها نشاط الحرس تحت سلطته، في حين أن الحرس لا يدخلون ضمن الشرطة[8]، ويورد الجاحظ شطر بيت من الشعر: «كأنه شرطي بات في حرس». للدلالة على التفرقة بين المؤسستين[9].

---

(1) نسب قريش، ص: 268، ولاية الشرطة في الإسلام، ص: 122.
(2) نسب قريش، ص: 268، ولاية الشرطة في الإسلام، ص: 122.
(3) الشرطة في العصر الأموي، ص: 122.
(4) المصدر نفسه، ص: 97.
(5) المصدر نفسه، ص: 97 إلى 109.
(6) تاريخ الطبري نقلاً عن الشرطة في العصر الأموي، ص: 128.
(7) الشرطة في العصر الأموي، ص: 128.
(8) المصدر نفسه، ص: 130.
(9) الحيوان (3/ 158) الشرطة في العصر الأموي، ص: 130.

2 - الحرس من غير العرب:

عرف العرب، قبل قيام الدولة الأموية، بعض الألفاظ الأجنبية التي تطلق على الحرس الذين كانوا يحرسون بيت المال في البصرة[1]. وهذه الألفاظ هي الأساورة والسيابجة والزطّ، ويشرح البلاذري هذه الألفاظ فيقول إنّ الأساورة من الفرس، أما السيابجة والزطّ فينحدرون على ما يظهر من الهند[2]، ويتضح من تاريخ الخلافة الأموية أن الولاة كانوا يستخدمون لضرب الثورات التي تقوم بها المعارضة، بين حين وآخر، وكان يُطلق على هذه العناصر لفظ البخارية تبعاً لرواية البلاذري أيضاً، أن والي خراسان عبيد الله بن زياد، أسر في إحدى المعارك عدداً كبيراً من أهل بخارى وجعل من البصرة مستقراً لهم، وأجرى لهم من الأعطيات ما كان يدفعه نفسه للقبائل العربية، وذلك حين أصبح والياً على العراق[3]، وقد استخدم عبيد الله هذه القوة الجديدة لمساندة قوة الشرطة للقضاء على ثورة الخوارج في العراق[4]، وأما ابن سعد، فيذكر أن البخارية قد استعملوا أول الأمر كقوة أمنية، على يد والد عبيد الله حين كان والياً على العراق، ويضيف ابن سعد أن زياداً استخدم البخارية لمساعدة الشرطة في محاولتهم للقبض على حجر بن عدي[5] ﷺ. ويشيد البلاذري بمهارة البخارية في الرمي بالقوس[6]، ويظهر من مراجعة المصادر التاريخية أن استعمال هذه الفرقة كقوة بشرية لم يكن مقتصراً على الولاة، بل وجد أنهم كانوا يقومون بخدمة الأشراف، ففي مدينة البصرة مثلاً، كان أبناء عبد الله بن عامر والي العراق في السابق، يستخدمون البخارية كحرس خاص لحمايتهم الشخصية[7].

3 - العرفاء:

ونظراً لما يتمتع به العرفاء من مكانة لدى الولاة فإن بعضهم يستطيع من الأمور ما لا يقدر عليه غيره، ونظراً لكون العريف مسئولاً عن مراقبة العامة وتبليغ السلطات عن الحركات المشبوهة أو عن الأفراد الذين يُشك في ولائهم للسلطة... ولذلك لم يكن لهذا المنصب شعبية، إلّا أن ذلك لم يمنع كبار القوم من توليه، إذ يورد ابن سعد في طبقاته أسماء كثيرة تولت مهام هذا المنصب[8].

---

(1) الشرطة في العصر الأموي، ص: 130.
(2) المصدر نفسه، ص: 130.
(3) المصدر نفسه، ص: 130.
(4) طبقات ابن سعد (6/ 219) الشرطة في العصر الأموي، ص: 131.
(5) طبقات ابن سعد نقلاً عن الشرطة في العصر الأموي، ص: 131.
(6) البلاذري، الأنساب نقلاً عن الشرطة في العصر الأموي، ص: 131.
(7) المصدر نفسه، ص: 131.
(8) المصدر نفسه، ص: 133.

4 - صاحب الاستخراج أو العذاب:

شهد العهد الأموي قيام جهة خاصة مهمتها استخراج الأموال من الذين يختلسونها بحكم مناصبهم الرسمية، وكان يطلق على الشخص المكلف بمهمة تعذيب المختلسين لكي يقروا بمكان وجودها، لقب «صاحب الاستخراج» ويروي ابن قتيبة أن هذه المهنة ظهرت في عهد زياد بن أبيه، الذي كان دائم التحذير لمن يعينهم لمساعدته في الإدارة، وكان لا يتردد في إعفائهم من مناصبهم إذا ظهرت منهم خيانة، ويكون العزل بعد إيقاع العقوبة بهم[1]، ويورد كثير من المؤرخين حوادث تتصل بالولاة الذين استخدموا صاحب الاستخراج لاسترداد الأموال المختلسة من المختلسين أو ممن ظهرت عليهم إمارات الخيانة أو ما شابه ذلك من أمور. من ذلك أن والي العراق عبيد الله بن زياد عزل من مساعديه رجلاً يدعى عبد الرحمٰن واستخلص منه مائتي ألف درهم[2]، كما استخلص مبلغ مئة ألف درهم اختلسها أحد العاملين في إدارته[3].

5 - جهاز الحسبة:

والمقصود هنا بالحسبة: المعنى الضيق، أي عملية الإشراف على تنظيم الأسواق والعمليات التجارية فيها، وقد كان من مهام المحتسب في الدولة الأموية جباية ضرائب المبيعات وتحصيل أجرة الدكاكين التابعة للدولة[4]، إضافة إلى مسؤوليات السوق والتي من أبرزها[5]:

أ ـ التأكد من دقة الأوزان، والمكاييل، والمقاييس المستعملة في عمليات السوق، منعاً لحدوث غبن في التعامل.

ب ـ التفقد المفاجئ لعيار الحبات والمثاقيل لضمان عدم الإخلال بها.

جـ ـ منع الارتفاع الفاحش لأسعار السلع الأساسية.

د ـ منع حالات الاحتكار إن وجدت، وإجبار المحتكر على بيع ما احتكره. ووفق هذا المفهوم نجد أن الحياة الاقتصادية في بداية الدولة الأموية كانت بسيطة، وعليه فقد سار ولاة الأقاليم على نهج الخلافة الراشدة فكان الولاة ـ كل في إقليمه ـ يباشر الحسبة بنفسه[6]. لكن

---

(1) عيون الأخبار (1/ 55) الشرطة في العصر الأموي، ص: 134.
(2) الشرطة في العصر الأموي، ص: 134.
(3) المصدر نفسه، ص: 134، نقلاً عن الأنساب للبلاذري.
(4) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 223.
(5) الإدارة في العصر الأموي، ص: 223.
(6) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 223.

هذا لم يمنع من ظهور وظيفة العامل على السوق في مدينة البصرة في عهد ولاية زياد بن أبيه (45 - 53هـ)[1] ويمكن القول ـ من خلال التتبع ـ بأن نظام الحسبة كان موجوداً منذ بداية العصر الأموي، وإن لم يكن يحمل لفظ الحسبة، إنما دور المحتسب في تنظيم السوق كان متواجداً طوال العصر الأموي، وقد نما النظام وتطور بما يوافق تطور قطاع التجارة، والأسواق، فيلاحظ أنه في بداية الأمر كان الوالي يتولى بنفسه أعمال الحسبة ثم تطور الأمر لأن يكون هناك شخص معين وظيفته الإشراف على السوق، ثم تطور الأمر ليكون لهذا المعين أعوان يعينونه في عمله[2].

6 - نظام المراقبة:

ظهر هذا النظام في دمشق في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان ﷺ، في عدة صور:

أ ـ إلزام بعض مناوئيه السياسيين بأداء الصلاة في الجماعة في مساجد معينة[3]. ويشبه هذا الإجراء ما هو معمول به في بعض الدول المعاصرة من إلزام المشبوهين بالتردد على مراكز الشرطة في أوقات محددة[4].

ب ـ إسكان بعض مناوئيه في مساكن خاصة أعدّها لهم في دمشق ـ وغيرها - لتسهل عليه مراقبتهم.

جـ ـ إحكام المراقبة الشخصية على الأجانب الذين يدخلون دار الإسلام[5].

7 - مؤسسة الدرك:

والدرك في الاصطلاح: مؤسسة تضم قوى الدولة العاملة في سبيل الأمن خارج حدود المدن الكبير[6]، وفي الطبري نص يفيد اهتمام زياد عام 45، أي أيام معاوية بالسُّبلُ ـ أي الطرق ـ جاء فيه: قيل لزياد: إن السبل مخوفة. فقال: لا أعاني شيئاً سوى المصر، حتى أغلب على المصر وأصلحه، فإن غلبني المصر، فغيره أشد غلبة، فلما ضبط المصر تكفل ما سوى ذلك، فأحكمه[7]. وكان يقول: لو ضاع حبل بيني وبين خراسان علمت من أخذه[8]. وهذا لا يكون إلا إذا كان رجاله متمكنين من الطرق والسبل[9]. وقد طرح زياد نظرية أمنية مفادها التمكن أولاً من داخل الأمصار ثم التوسع لما حولها من طرق وسبل.

هذه بعض الملامح والمعالم الكبيرة عن نظام الشرطة في عهد معاوية ﷺ.

---

(1) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 224.
(2) المصدر نفسه، ص: 224.
(3) ولاية الشرطة في الإسلام، ص: 125.
(4) المصدر نفسه، ص: 125.
(5) المصدر نفسه، ص: 125.
(6) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي (2/ 643).
(7) تاريخ الطبري (6/ 139).
(8) المصدر نفسه (6/ 139).
(9) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ (2/ 644).

المبحث الثامن

الولاة والإدارة في عهد معاوية ﷺ

حاول معاوية ﷺ طيلة فترة خلافته أن يجعل أسلوب حكمه في وضع بين المركزية واللامركزية. فقد اتخذ من دمشق عاصمة للدولة، وغدت المركز الرئيسي الذي تصدر منه الأوامر السياسية والاقتصادية والإدارية للدولة، أما ترتيب أمور الولايات داخلياً فقد ترك معاوية ﷺ للولاة ليقوموا به كل حسب خبرته وجدارته، على أن يكونوا جميعاً مسئولين أمام معاوية ﷺ مسئولية مباشرة ومحاسبين على كل عمل يقومون به، ولعل من ضمن الأسباب التي حدت بمعاوية لأن يتخذ من دمشق عاصمة للدولة الأموية هو معرفته الجيدة بأهل الشام وثقته التامة فيهم وفي ولائهم له، فقد أمضى معاوية ﷺ هناك قرابة عشرين عاماً أميراً على بلاد الشام، كان خلالها يتمتع خلالها بشعبية كبيرة بينهم، ولعلّ معاوية ﷺ كذلك كان يشعر أن استمرار دولة الأمويين يعتمد في درجة كبيرة على مدى المساعدة التي يقدمها إليه أهل الشام خاصة، كان معاوية ﷺ يعي هذه المسائل جيداً ويعيرها جلّ انتباهه، لذلك حاول جهده منذ البداية أن يعمل على حفظ التوازن بين رجالات القبائل العربية المختلفة في بلاد الشام وعلى درجة الخصوص القبائل اليمانية والقبائل القيسية[1]، وقد عمل معاوية ﷺ كل ما في استطاعته لإيجاد التوازن بين مصالح الطرفين في بلاد الشام، فقد كان في خدمة معاوية ﷺ رجالات من القيسية أمثال الضحاك بين قيس الفهري وحبيب بن مسلمة الفهري، مثلما كان هناك رجالات من اليمانية أمثال مالك بن هبيرة السكوني، وشرحبيل بن سمط الكندي وحسان بن بحدل الكلبي وغيرهم، كما أن معاوية ﷺ حصل على مساعدات من كلا الطرفين إبان فترتي ولايته وخلافته، وكانوا يحاربون إلى جانبه في جيش واحد وتحت إمرة واحدة[2]، وكانت سياسة معاوية تقوم على الاستعانة بأفراد من أقاربه أبناء البيت الأموي مثل: عنبسة بن أبي سفيان، وعتبة بن أبي سفيان، والوليد بن عتبة بن أبي سفيان وسعيد بن العاص بن أمية، ومروان بن الحكم وابنه عبد الملك[3]، وعمرو بن سعيد بن العاص[4]، وغيرهم. كما حرص معاوية ﷺ على اختيار أعوانه وولاته من ذوي التجارب الواسعة من المسلمين، كعبد الله بن عامر بن كريز، والمغيرة بن شعبة، والنعمان بن بشير الأنصاري،

---

(1) خلافة معاوية بن أبي سفيان، العقيلي، ص: 70.

(2) المصدر نفسه، ص: 73.

(3) البلاذري، أنساب الأشراف نقلاً عن خلافة معاوية للعقيلي، ص: 73.

(4) خلافة معاوية، ص: 73، نقلاً عن أنساب الأشراف (4/ 160).

ومسلمة بن مخلد الأنصاري[1]، وغيرهم. ولم تكن المحاباة هي الأساس الأهم والأوحد في انتقاء معاوية لهؤلاء الرجال دون غيرهم، وإنما كان كثير منهم ممن خدم أبا بكر وعمر ﷺ ورأى أن يستفيد بجهودهم ومواهبهم، ولاسيما أولئك الذين أظهرتهم أحداث الفتوحات الإسلامية بالشام[2].

ونلاحظ أن معاوية استعان بأهل الصحبة والكفاية والولاء ولاة على الأمصار، ومع أن معاوية ﷺ اختار بعض أعوانه من أهل بيته، يولّيهم الولايات إلّا أنه كان يعاملهم بحذر شديد إلى أن يطمئن لهم، ويقتنع بمقدرتهم الإدارية، فقد كان يختارهم أول الأمر لولاية مدن صغيرة كالطائف[3] مثلاً، فإذا ما أظهر أحدهم مقدرة إدارية، فإن معاوية ﷺ يضم إليه مكة لتكون تحت إشرافه ثم يتبعها بالمدينة وعند ذلك يقال: هو قد حذق[4]. وغني عن البيان أن الطائف كانت مدينة مهمة في ذلك الوقت حيث تتمركز فيها قبيلة ثقيف[5]، القوية وأن من يستطيع من الولاة أن يسيطر على الطائف ـ سياسياً واقتصادياً ـ فإن بقية المدن تسهل السيطرة عليها بعد ذلك.

وتشير نجدة خمّاش إلى أن معاوية ﷺ جعل من مدن الحجاز مدرسة يدرّب فيها أبناء البيت الأموي على إدارة تلك الولاية والسماح لهم بالتدرّج في تلك الإدارة وفق خطوات مقررة[6]. وقد اتبع معاوية ﷺ أسلوباً مميزاً في معاملته لبني أهله ممن يستعين بهم. فقد كان يحاول أن يجعلهم متفرقين عن بعضهم البعض وذلك كي يتجنب أي تحالف ضده[7].

وفي خلافة معاوية بن أبي سفيان ﷺ تمتع رعايا الدولة من غير المسلمين بمنتهى التسامح والرفق، وحصلوا على امتيازاتهم بسهولة ويسر. فقد كانوا يعملون في مختلف الوظائف الحكومية، ذلك أن معاوية ﷺ أبقى على النظم البيزنطية والقبطية التي كان معمولاً بها في الشام ومصر والمغرب. كما أبقى على النظم الفارسية في العراق وخراسان. وكان ترك معاوية ﷺ هذه النظم على حالتها بسبب نقص من كانوا يعرفون لغات ونظم إدارة البلاد المفتوحة من المسلمين في أوائل العهد الأموي، وعلاوة على ذلك فقد كان طبيب معاوية ﷺ الخاص، ويدعى ابن أُثال[8]، غير مسلم، وكذلك سريج (سرجون) بن منصور الرومي مستشاره المالي[9]، وابن مينا[10]، وابن النضير[11]، مولاه من عماله على الصوافي، كانوا أيضاً من سلالة غير المسلمين وأسلم بعضهم فيما بعد. وفضلاً عن ذلك ترك معاوية

---

(1) خلافة معاوية، العقيلي، ص: 74.
(2) الأمويون والبيزنطيون، إبراهيم العدوي، ص: 74.
(3) خلافة معاوية للعقيلي، ص: 74.
(4) تاريخ الطبري، خلافة معاوية للعقيلي، ص: 75.
(5) خلافة معاوية للعقيلي، ص: 75.
(6) الإدارة في العصر الأموي، ص: 108 - 109.
(7) أنساب الأشراف (4/ 65، 67)، خلافة معاوية، ص: 75.
(8) تاريخ اليعقوبي (2/ 223).
(9) تاريخ خليفة، ص: 228.
(10) تاريخ اليعقوبي (2/ 297) المحن، ص: 171 لأبي العرب.
(11) أنساب الأشراف (4 / 123).

لرعايا الدولة من غير المسلمين أيضاً حرية تامة في ممارسة طقوسهم الدينية: فاستجاب لطلب نصارى دمشق بعدم زيادة كنيسة يوحنا في مسجد دمشق[1]. كما رمّم لهم كنيسة الرُّها (أديسًا) والتي كانت قد تهدمت من جراء الزلازل[2]. كما بنيت أول كنيسة بالفسطاط في حارة الروم في ولاية مسلمة بن مخلد الأنصاري على مصر ما بين عامي47هـ، 68هـ[3]. كما استعان معاوية ﵁ بمهندسين وفنّيين من غير المسلمين في بناء قصر الخضراء بدمشق الذي اتخذه معاوية مقراً لإقامته في فترة إمارته على بلاد الشام، ثم في فترة خلافته بعد ذلك، ويروي البلاذري أنهم بنوه لمعاوية ﵁، من الحجارة بعد أن كان قبل مبنياً باللَّبن والطين[4]. وكما كانت سياسة التسامح مع الرعايا غير المسلمين هي الطابع المميز لفترة خلافة معاوية ﵁ كذلك نرى سياسة التعاطف والاهتمام المتزايد وحسن المعاملة تجاه الموالي من المميزات الأخرى في عصر معاوية. فنجد معاوية ﵁ استعان بكثير من الموالي في إدارة بعض شؤون الدولة: فعين مولاه عبد الله بن درّاج على خراج الكوفة ومعونتها في ولاية المغيرة بن شعبة[5]. وكان وردان مولاه على خراج مصر في ولاية عتبة بن أبي سفيان[6]، وكان على حرسه رجل من الموالي يقال له المختار، وقيل: رجل يقال له مالك ويكنى أبا المخارق مولى لحمير، وكان على حجابه سعد مولاه[7]. وكان يلي أمواله بالحجاز أيضاً. وهو الذي قال فيه: معاوية: أغبط الناس عيشاً مولاي سعد، كان يتربع جدَّة، ويتقيَّظ الطائف، ويشتو بمكة[8]. واتخذ زياد بن أبي سفيان من مهران مولاه، حاجباً له وكاتبه على الخراج في العراق[9]. وكان أبو المهاجر دينار مولى لمسلمة بن مخلد الأنصاري، فتولى له إدارة شؤون المغرب[10] في سنة 55هـ وبالرغم من هذه الأمثلة نجد أن عباس محمود العقاد يشير إلى أن معاوية كان لا يلتفت إلى الموالي، وردّد ما سبقه إليه المستشرقون في طعنهم في تسامح معاوية ﵁ مع الموالي، رغم ما تزخر به المؤلفات العربية القديمة من أمثلة على هذا التسامح[11]، ومن ناحية

---

(1) خلافة معاوية للعقيلي، ص: 80.
(2) الأمويون والبيزنطيون، ص: 291.
(3) فتوح مصر، ص: 132، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي للقرضاوي، ص: 20-21.
(4) أنساب الأشراف (4/ 147).
(5) خلافة معاوية للعقيلي، ص: 81.
(6) الإدارة في العصر الأموي، خماش، ص: 347.
(7) أنساب الأشراف (4/ 54، 63) خلافة معاوية، ص: 82.
(8) معجم البلدان (4/ 12) خلافة معاوية، ص: 82.
(9) تاريخ خليفة، ص: 212.
(10) خلافة معاوية للعقيلي، ص: 82.
(11) خلافة معاوية، ص: 82.

أخرى، فقد ترك معاوية ﷺ الإصلاحات الضرورية لعماله على الأقاليم ليقوم كل واحد منهم بواجبه تجاه الإقليم الذي يرى شؤونه[1]، وقد أصبح التقسيم الإداري للدولة في عهده كالآتي: دمشق عاصمة للدولة، وقسم البلاد إلى ولايات يحكم كل ولاية منها وال من قبل الخليفة، وكان لكلٍّ سلطة غير محدودة في الولاية التي يحكمها، وفي بعض الأحيان أطلقت الدولة للوالي سلطة التصرف كما يشاء، حتى كان بعضهم يقتل وينفي، ويسجن، ويشرد، . . . وقد لاحظنا أن هذا الحكم المطلق لم يتكرر، بل كان دائماً محصوراً في ولاية العراق، وذلك لما كان يحدث فيها من اضطرابات وفتن أكثر من غيرها، وكان الخليفة يختار لهذه الولاية ولاة مشهورين بالحزم والشدة، فكان زياد بن أبيه من أشهر ولاة معاوية، أما بقية الولايات فكانت تحكم بطابع الدولة المألوف، فالوالي مقيد بأوامر الخليفة، لا يقضي إلا بعد رأيه، ولا يفصل إلا بعد مشاورته، وكان الوالي يرجع إلى الخليفة في كل ما يتصل بالمصالح العامة، فإذا كان الأمر خاصاً بولايته له أن يتصرف فيه بحسب ما يحقق المصلحة العامة، وإلا فهو مسؤول أمام الخليفة عن كل تصرفاته. وكانت ولايات الدولة الكبرى في عهد معاوية[2]، دمشق العاصمة، والبصرة، والكوفة، والمدينة ومكة، ومصر وغيرها، وأما ولاة الأمصار في عهد معاوية فسوف نتحدث عنهم في حديثنا عن كل إقليم بإذن الله تعالى:

أولاً: البصرة: ومن اشهر ولاتها في عهد معاوية فهم:

1 - بسر بن أرطأة ﷺ :

تولى الولاية عام 41هـ وجاءت روايات لم تصل إلى درجة الصحة تشير إلى تعرض بسر لأبنا زياد بن أبيه[3] ثم عزل وعين بدله عبد الله بن عامر:

2 - عبد الله بن عامر ﷺ : 41 - 44هـ:

ففي هذه السنة أي 41هـ ولى معاوية عبد الله بن عامر البصرة، وحرب سجستان[4]، وخراسان[5]. ولم يكن تعيين عبد الله بن عامر على البصرة لأسباب شخصية، لأنه لم ترد رواية صحيحة تؤكد ذلك، ولكن اختيار معاوية ﷺ له كان نتيجة خبرته السابقة في ولاية البصرة وحرب سجستان وخراسان أيام عثمان، فما كان من معاوية إلا أن أسند الأمن إلى أهله، ووضع الرجل المناسب في المكان المناسب[6]، وبعد أن مضى ابن عامر ثلاث سنوات

---

(1) المصدر نفسه، ص: 83.
(2) الدولة الأموية (1/ 97) محمد سيد الوكيل.
(3) تاريخ الطبري (6/ 82).
(4) سجستان : تقع حالياً جنوب غرب أفغانستان.
(5) تشمل حالياً : شمال شرق إيران، وشمال غرب أفغانستان.
(6) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 234.

تمكن فيها من تثبيت الفتح في سجستان وخراسان واستفاد المسلمون من خبرته العسكرية، ثم دعت الحاجة إلى تغييره، فعزله معاوية وولى الحارث بن عبد الله الأزدي البصرة في أول سنة خمس وأربعين، فأقام بالبصرة أربعة أشهر، ثم عزله وولاها زياداً[1].

3 - زياد بن أبيه 45هـ إلى 53هـ:

أ ـ نسبه: يعتبر نسب زياد المكنى بأبي المغيرة، من أكثر القضايا غموضاً في حياته، فقد كانت أمه أمة اسمها سمية[2]، ولم يتفق المؤرخون من هو أبوه وبالتالي هم مختلفون في ذكر نسبه، فقد ذُكر اسمه في المصادر تارة زياد بن سمية[3]، وتارة زياد بن عبيد[4]، ومرة زياد الأمير[5]، وأخرى زياد بن أبي سفيان[6]، وفي أغلب الأحيان عرف بابن أبيه[7]، وذلك لما وقع فيه أبيه من الشك[8].

ب ـ صلح زياد مع معاوية: كان زياد بن أبيه والياً على خراسان لأمير المؤمنين علي رضي الله عنه وكان مخلصاً له غاية الإخلاص، وحاول معاوية أن يكسب زياد ويضمه إلى صفه في عهد علي رضي الله عنه إلا أنه فشل في ذلك، وبعد مقتل أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وجد معاوية فرصة طيبة لإعادة النظر في مساعيه الهادفة إلى استمالة زياد بأقل التكاليف، واستخدم معاوية لغة التهديد والترغيب مع زياد بقلعة عرفت باسمه، فخافه معاوية وهو من أكثر الناس معرفة بصلابته، ولا شك أن اعتصام زياد بفارس مع علمه بأنه الوحيد الذي لم ينزل على حكم معاوية، ويدخل فيما دخل فيه الناس، إنما يدل على ثقته بنفسه أولاً وبإمكانيات إقليم فارس الاقتصادية والبشرية ثانياً، إلا أن هذه الأمور وحدها ليس كافية لمواجهة معاوية إذا ما لجأ إلى استخدام القوة، الأمر الذي دفع زياد في المرحلة التالية في علاقته بمعاوية إلى تبديل موقفه الرافض بموقف أكثر إيجابية، وبعد صلح الحسن حاول معاوية الاتصال بزياد وسمح للمغيرة ابن شعبة أن يتدخل لحل هذا المشكل، واستطاع المغيرة بن شعبة أن ينجح في إقناع زياد ببيعة معاوية والدخول في طاعته، وكان هذا النجاح من المغيرة من أعظم ما قدمه لمعاوية من خدمات، فقد كان من الصعب على معاوية أن يصل إلى زياد أو يوفق في إخضاعه إلا بعد قتال

(1) تاريخ الطبري (6/ 133).
(2) زياد بن أبيه ودوره في الحياة العامة للرواضية، ص: 31.
(3) تاريخ الطبري (6/ 131).
(4) العواصم من القواصم، ص: 31.
(5) الطبقات (7/ 99)، زياد بن أبيه ودوره في الحياة العامة، ص: 31.
(6) طبقات خليفة بن خياط، ص: 191.
(7) زياد بن أبيه ودوره في الحياة العامة، ص: 32.
(8) المصدر نفسه، ص: 32، الوافي بالوفيات (15/ 32).

عنيف، لا يدري أحد من سيكون الرابح في مثل ذلك الموقف الخطير[1]، وقد تمّ لمعاوية احتواء حركة اعتصام زياد بفارس، ولم يستعجل في الأمر، وابتعد عن استخدام القوة، وأعطى للزمن فرصته، واستعان بداهية من دهاة العرب في إقناع زياد وهذا من حكمته[2] رضي الله عنه .

جـ- حول استلحاق معاوية زياد بن أبيه: قال الطبري في عام 44هـ: في هذه السنة استلحق معاوية نسب زياد بن سمية بأبيه أبي سفيان فيما قيل[3]، وقال الطبري: . . . زعموا أن رجلاً من عبد القيس كان مع زياد لما وفد على معاوية فقال لزياد: إن لابن عامر عندي يداً، فإن أذنت لي أتيته، قال: على أن تحدثني ما يجري بينك وبينه، قال: نعم، فأذن له فأتاه، فقال له ابن عامر: هيه هيه أو ابن سمية يقبح آثاري، ويعرض بعمالي، لقد هممت أن آتي بقسامه[4] من قريش يحلفون أن أبا سفيان لم ير سمية، قال: فلما رجع سأله زياد، فأبى أن يخبره، فلم يدعه حتى أخبره فأخبر ذلك زياد معاوية، فقال معاوية لحاجبه: إذا جاء ابن عامر فاضرب وجه دابته عن أقصى الأبواب، ففعل ذلك به، فأتى ابن عامر يزيداً، فشكا إليه ذلك، فقال له: هل ذكرت زياداً؟ قال: نعم، فركب معه يزيد حتى أدخله، فلما نظر إليه معاوية قام فدخل، فقال يزيد لابن عامر: اجلس فكم عسى أن تقعد في البيت عن مجلسه، فلما أطال خرج معاوية، وفي يده قضيب يضرب به الأبواب، ويتمثل:

لنا سياق[5] ولكم سياق قد علمت ذلكم الرفاق[6]

ثم قعد فقال: يا ابن عامر، أنت القائل في زياد ما قلت، أما والله لقد علمت العرب أني كنت أعزها في الجاهلية، وإن الإسلام لم يزدني إلا عزاً، وإني لم أتكثر بزياد من قلة، ولم أتعزز به من ذلة، ولكن عرفت حقاً له فوضعته موضعه[7]، وقد اتهم معاوية رضي الله عنه عندما استلحق زياد بن أبيه إلى أبيه بأنه خالف أحكام الإسلام لأن الرسول ﷺ قال: «لا دعوة في الإسلام، ذهب أمر الجاهلية، الولد للفراش[8]، وللعاهر الحجر»[9]. وقد ردّ على هذا

---

(1) زياد بن أبيه ودوره في الحياة العامة، ص: 75 إلى 81.
(2) مرويات خلافة معاوية، ص: 173، تاريخ الطبري (6/ 94، 95).
(3) تاريخ الطبري (6/ 131).
(4) تاريخ الطبري (6/ 131) القسامة : هم القوم الذين يحلفون.
(5) السياق : المهر، القاموس المحيط (1156).
(6) تاريخ الطبري (6/ 132).
(7) المصدر نفسه (6/ 132).
(8) الفراش : لفظة يعبر بها عن المرأة غالباً، وقد يعبر بها عن حالة الافتراش، والمراد لحوق حالة نسب الولد بمن له الاختصاص بالوطء كالزوج والسيد، فتح الباري (12/ 36).
(9) صحيح سنن أبي داود (2/ 430) للعاهر الحجر : أي للزاني الخيبة وحرمان الولد الذي يدعيه، وقد جرت عادة العرب أن تقول لمن خاب : له الحجر وبقية الحجر والتراب، فتح الباري (12/ 37).

الاتهام الدكتور خالد الغيث في رسالته «مرويات خلافة معاوية» بقوله: . . أما اتهام معاوية رضي الله عنه باستلحاق نسب زياد، فإني لم أقف على رواية صحيحة صريحة العبارة تؤكد ذلك، هذا فضلاً عن أن صحبة معاوية رضي الله عنه، وعدالته ودينه وفقهه تمنعه من أن يرد قضاء رسول الله ﷺ، لاسيما وأن معاوية أحد رواة حديث: «**الولد للفراش وللعاهر الحجر**»[1].
ووجه التهمة إلى زياد بن أبيه بأنه هو الذي ألحق نسبه بنسب أبي سفيان، واستدل برواية أخرجها مسلم في صحيحه من طريق أبي عثمان[2] قال: لما ادعى زياد لقيت أبا بكرة فقلت له: ما هذا الذي صنعتم؟ إني سمعت سعد بن أبي وقاص يقول: سمعت أذناي من رسول الله ﷺ وهو يقول: «**من ادعى أباً في الإسلام غير أبيه، يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام**». فقال أبو بكرة: وأنا سمعته من رسول الله ﷺ[3]. قال النووي رحمه الله معلقاً على هذا الخبر: . . . فمعنى هذا الكلام الإنكار على أبي بكرة، وذلك أن زياداً هذا المذكور هو المعروف بزياد بن أبي سفيان، ويقال فيه: زياد بن أبيه، ويقال: زياد بن أمه، وهو أخو أبي بكرة لأمه. . . فلهذا قال أبو عثمان لأبي بكرة: ما هذا الذي صنعتم؟ وكان أبو بكرة رضي الله عنه ممن أنكر ذلك وهجر بسببه زياداً وحلف أن لا يكلمه أبداً، ولعل أبا عثمان لم يبلغه إنكار أبي بكرة حيث قال هذا الكلام، أو يكون مراده بقوله: ما هذا الذي صنعتم؟ أي هذا الذي جرى من أخيك ما أقبحه وأعظم عقوبته، فإن النبي ﷺ حرّم على فاعله الجنة[4]. وبذلك يكون زياداً هو المدّعي، وفي حقيقة الأمر فإن مسألة استلحاق معاوية زياداً هي مسألة اجتهادية، ويذهب الكثير من المؤرخين بأن هناك دلائل عديدة تثبت أن أبا سفيان قد باشر سمية ـ جارية الحارث ابن كلدة الثقفي ـ وكانت من البغايا ذوات الرايات ـ في الجاهلية، فعلقت منه بزياد، وذكروا بأن أبا سفيان اعترف بنفسه بذلك أمام علي بن طالب رضي الله عنه وآخرين بعدما شب ونبغ في عهد عمر بن الخطاب[5]، وقال ابن تيمية بأن أبا سفيان كان يقول: زياد من نطفته[6]، فلما كانت خلافة معاوية شهد لزياد بذلك النسب أبو مريم السلولي، وهو صحابي كان يعمل في الجاهلية خماراً بالطائف، وهو الذي جمع بين أبي سفيان وسمية، وكان ذلك أمراً مألوفاً آنذاك[7]، ويبدو أن هذا النسب قد

(1) فتح الباري (12/ 39).
(2) أبو عثمان النهدي، معروف بكنيته، مخضرم من كبار الطبقة الثانية ت 95 هـ.
(3) صحيح مسلم بشرح النووي (2/ 51، 52).
(4) شرح صحيح مسلم (2/ 52، 53).
(5) مروج الذهب (3/ 14 - 15) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 195.
(6) الفتاوى (20/ 148).
(7) الكامل في التاريخ (2 / 470).

شاع أمره حتى لقد شهد بذلك أحد رجال البصرة لزياد قبل استلحاق معاوية إياه[1]، فهي دعوة قديمة إذن ولم تكن كما يزعم الرواة نتيجة مشورة المغيرة بن شعبة على معاوية كجزء من صفقة متبادلة بين معاوية وزياد، أو غير ذلك من التفاصيل التي اخترعها الرواة[2]. وبعد عقود من السنين نجد الإمام مالك بن أنس ـ إمام أهل المدينة ـ يذكر زياداً في كتابه الموطأ بأنه زياد بن أبي سفيان، ولم يقل زياد بن أبيه، وذلك في عصر بني العباس[3]، والدولة لهم والحكم بأيديهم فما غيروا عليه، ولا أنكروا ذلك منه، لفضل علومهم ومعرفتهم بأن مسألة زياد قد اختلف الناس فيها، فمنهم من جوزها، ومنهم من منعها، فلم يكن لاعتراضهم عليها سبيل[4]، وفي نسبة الإمام مالك لزياد إلى أبي سفيان فقه بديع لم يفطن له أحد، وهو أنها لما كانت مسألة خلاف ونقد الحكم فيها بأحد الوجهين لم يكن لها رجوع، فإن حكم القاضي في مسائل الخلاف بأحد القولين يمضيها ويرفع الخلاف فيها والله أعلم[5]. وأما تعارض هذا الاستلحاق مع نص الحديث الشريف، فمن اعتذر لمعاوية قال: إنما استلحق معاوية زياداً لأن أنكحة الجاهلية كانت أنواعاً، وكان منها أن الجماعة يجامعون البغي، فإذا حملت وولدت ألحقت الولد لمن شاءت منهم فيلحقه، فلمّا جاء الإسلام حرّم هذا النكاح، إلا أنّه أقر كل ولد كان يُنسب إلى أب من أي نكاح كان من أنكحتهم على نسبه، ولم يفرّق بين شيء منها، فتوهم معاوية أنّ ذلك جائز له ولم يفرّق بين استلحاق في الجاهلية، والإسلام[6] وأجاز الإمام مالك أن يستلحق الأخ أخاً له ويقول: هو ابن أبي، ما دام ليس له منازع في ذلك النسب. فالحارث بن كلدة (الذي كانت سمية جارية له) لم ينازع زياداً، ولا كان إليه منسوباً، وإنما كان ابن أمة بغي ولد على فراشه ـ أي في داره ـ فكل من ادعاه فهو له، إلا أن يعارضه من هو أولى به منه، فلم يكن على معاوية في ذلك مغمز، بل فعل الحق على مذهب مالك، فإن قيل: فلم أنكر عليه الصحابة؟ قلنا: لأنها مسألة اجتهاد[7] والحوادث تثبت أن معاوية كان مقتنعاً بحق زياد في ذلك، ولابد أنه كان قد سمع من أبيه، ولهذا فإن معاوية كان مؤمناً بأن عمله لم يكن عملاً موضوعياً وواجباً ضرورياً من باب وضع الشيء في محله، ولا ريب أن هذا كان معروفاً عند الناس غير أن معاوية أراد أن يثبته[8].

(1) تاريخ الطبري (6/ 131، 132).
(2) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 196.
(3) المصدر نفسه، ص: 196.
(4) العواصم من القواصم، ص: 254.
(5) فصل الخطاب في مواقف الأصحاب، ص: 141، نقلاً عن العواصم، ص: 242.
(6) الكامل في التاريخ (2/ 471).
(7) العواصم من القواصم، ص: 253.
(8) إدارة العراق في صدر الإسلام رمزية عبد الوهاب، ص: 61.

د ـ خطبة زياد المعروفة بالبتراء بالبصرة: لما تولى زياد ولاية البصرة، عام 45هـ، خطب خطبة بتراء[1]، لم يحمد الله فيها وقيل: بل حمد الله فقال: الحمد لله على أفضاله وإحسانه، ونسأله المزيد من نعمه، اللهم كما رزقتنا نعماً، فألهمنا شكراً على نعمتك علينا. أما بعد، فإن الجهالة الجهلاء، والضلالة العمياء، والفَجر[2] الموقد لأهله النار، الباقي عليهم سعيرها، ما يأتي سفهاؤكم، ويشتمل عليه حلماؤكم، من الأمور العظام، ينبت فيها الصغير، ولا ينحاش منها الكبير، كأن لم تسمعوا بآي الله، ولم تقرؤوا كتاب الله، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته، في الزمن السرمد[3]الذي لا يزول. أتكونون كمن طرفت[4] عينه الدنيا وسدت مسامعه الشهوات، واختار الفانية على الباقية، ولا تذكروا أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا به، من ترككم هذه المواخير المنصوبة، والضعيفة المسلوبة، في النهار المبصر، والعدد غير قليل: ألم تكن منكم نهاة تمنع الغواة عن دلج[5] الليل وغارة النهار، أقربتم القرابة، وباعدتم الدين، تعتذرون بغير العذر، وتغطون على المختلس[6] كل امرئ منكم يذب عن سفيهه، صنيع من لا يخاف عقاباً، ولا يرجو معاداً، ما أنتم بالحلماء، ولقد اتبعتم السفهاء، ولم يزل بهم ما ترون من قيامكم دونهم، حتى انتهكوا حرم الإسلام، ثم أطرقوا وراءكم كنوساً في مكانس الريب[7]، حُرِّم عليّ الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماً وإحراقاً، إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح أوله، لين في غير ضعف، وشدة في غير جبرية وعنف، وإني أقسم بالله لآخذن الولي بالولي[8]، والمقيم بالظاعن[9]، والمقبل بالمدبر، والصحيح منكم بالسقيم حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول: انج سعد فقد هلك سعيد[10]، أو تستقيم لي قناتكم، إن كذبة المنبر تبقى مشهورة، فإذا تعلقتم عليّ بكذبة فقد حلت لكم معصيتي[11]، من بُيِّت[12] منكم، فأنا

(1) تاريخ الطبري (6/ 134).
(2) الفَجر : الانبعاث في المعاصي والزنى، القاموس المحيط، ص: 584.
(3) السرمد : الدائم. القاموس المحيط، ص: 367.
(4) الطَّرفة : نقطة حمراء من الدم تحدث في العين من ضربة وغيرها.
(5) الدَّلج : السير من أول الليل، القاموس المحيط، ص: 342.
(6) الخلس : الأخذ في تُهزةٍ ومخاتلة، لسان العرب (6/ 65).
(7) كنوساً في مكانس الريب : استتروا في موضع الريبة، لسان العرب (6/ 198).
(8) بمعنى واحد وهو : الصاحب والقريب والجار والحليف والشريك.
(9) الظاعن : المسافر لسان العرب (13/ 270، 271).
(10) لمثل يضرب في الاستخبار عن الأمرين الخير والشر أيهما وقع.
(11) مرويات خلافة معاوية، ص: 240.
(12) بُيِّت : أوقع به ليلاً : لسان العرب (2/ 16).

ضامن لما ذهب له، إياي ودلج الليل، فإني لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه، وقد أجلتكم في ذلك بقدر ما يأتي الخبر الكوفة ويرجع إلي، وإياي ودعوى الجاهلية[1]، فإني لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه، وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة، فمن غرَّق قوماً غرقته، ومن حرَّق على قوم حرقناه، ومن نقب بيتاً نقبت عن قلبه، ومن نبش قبراً دفنته[2]، حياً، فكفوا عني أيديكم وألسنتكم اكفف يدي وأذاي، لا يظهر من أحد منكم خلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه. وقد كانت بيني وبين أقوام إحن[3]، فجعلت ذلك دبر أذني وتحت قدمي، فمن كان منكم محسناً فليزدد إحساناً، ومن كان مسيئاً فلينزع عن إساءته، إني لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضي لم أكشف له قناعاً، ولم أهتك له ستراً، حتى يبدي لي صفحته، فإذا فعل لم أناظره، فاستأنفوا أموركم وأعينوا على أنفسكم، فرب مبتئس بقدومنا سيسر، ومسرور بقدومنا سيبتئس[4]. أيها الناس، إنا أصبحنا لكم ساسة، وعنكم ذادة[5]، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونذود عنكم بفيء[6] الله الذي خولنا، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا، ولكم علينا العدل فيما ولينا، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا[7] بمناصحتكم، واعلموا أني مهما قصرت ولو أتاني طارقاً بليل، وحابساً رزقاً ولا عطاءً عن إبانة[8]، ولا مُجمِّراً[9] لكم بعثاً، فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم، فإنها ساستكم المؤدبون لكم، وكهفكم الذي إليه تأوون، ومتى تصلحوا يصلحوا، ولا تشربوا قلوبكم بغضهم، فيشتد لذلك غيظكم، ويطول له حزنكم ولا تدركوا حاجتكم، مع أنه لو استجيب لكم كان شراً لكم، أسأل الله أن يعين كلاً على كل، وإذا رأيتموني أنفذ فيكم الأمر فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاي» فقام عبد الله بن الأهتم فقال: أشهد أيها الأمير أنك قد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب، فقال: كذبت، ذاك نبي الله داود عليه السلام [10]. قال الأحنف: قد قلت فأحسنت أيها الأمير، والثناء بعد البلاء، والحمد بعد العطاء، وإنا لن نُثني حتى نُبتلى، فقال زياد:

---

(1) دعوى الجاهلية : المفاخرة بالأنساب والكبر والتجبر.

(2) عند الجاحظ : دفناه فيه حياً : البيان والتبيين (2/ 230).

(3) الإحن : الأحقاد.

(4) تاريخ الطبري (6/ 136).

(5) ذادة : حماة ومدافعون.

(6) الفيء : الغنيمة.

(7) فيئنا : عطفنا وبرنا، لسان العرب (1/ 126).

(8) إبَّانة : حينه، القاموس المحيط (1515).

(9) تجمير الجيش : هو حبس الأمير للجيش في الثغر وعدم السماح بالعودة.

(10) تاريخ الطبري (6/ 137).

صدقت[1]. وهذه الخطبة تعتبر من الخطب المشهورة في التاريخ ومع الرغم من كثرتها وكثرة المصادر التي أوردتها إلا أنها لم تأت بإسناد صحيح يجعل القارىء يطمئن إلى صحة ما ورد فيها، لاسيما أنها تحتوي على مآخذ عديدة، وتناقضات واضحة تقلل من صحة نسبة جميع ما جاء فيها إلى زياد، وقد نبه إلى هذه المآخذ والتناقضات الدكتور[2] خالد الغيث حفظه الله، منها:

- **تحدثت الخطبة عن انتشار الفجور في البصرة وكثرة بيوت الدعارة فيها**، ويستفاد ذلك من قول زياد: . . من ترككم هذه المواخير المنصوبة، قوله: . . . حُرِّم عليّ الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماً وإحراقاً[3]. وهذا الكلام المنكر عن حال البصرة عند قدوم زياد، يرده حقيقة ما كانت عليه البصرة منذ تأسيسها في عهد عمر بن الخطاب ﷺ، حيث بنيت لتكون قاعدة تنطلق منها الجيوش الإسلامية لمواصلة الفتح ونشر الإسلام في ربوع البلاد المفتوحة، ومن أجل هذه الغاية استوطن البصرة أكثر من خمسين ومائة صحابي، حملوا على عواتقهم مهمة الدعوة إلى الله وتعليم الناس أمور دينهم، فأنَّى لهذه المنكرات أن تنبت وتنتشر في مجتمع عماده الصحابة والتابعون دون أن ينكروه ويلزموه؟ كذلك فإن وجود الخوارج في البصرة وما عرف عنهم من الاستعجال والاندفاع في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دليل آخر على انتفاء وجود هذه المنكرات في مجتمع البصرة وبالحجم الذي ورد في خطبة زياد[4].

- **ومن التناقضات الواردة في الخطبة**: ورد قول زياد: «وإياي ودعوى الجاهلية، فإني لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه»[5] مع أنه ذكر في موضع آخر من الخطبة نقيض ذلك وهو قوله: «وإني أقسم بالله لآخذن الولي بالولي، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والصحيح منكم بالسقيم»[6]. وورد في الخطبة قول زياد: «إياي ودلج الليل، فإني لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه»[7]. لكنه عاد في موضع آخر من الخطبة لينقض ما ذكره آنفاً فقال: «لست محتجباً عن طالب حاجة منكم ولو أتاني طارقاً بليل»[8]. وهذه التناقضات الواردة في الخطبة يستغرب صدورها من زياد مع ما عرف عنه من البلاغة والفصاحة، وهذا يقودنا إلى قضية أخرى وهي احتمال كون النص الذي بين أيدينا عن خطبة زياد عند مجيئه إلى البصرة عبارة عن أكثر من خطبة، تم دمجها في سياق واحد، ويؤيد ذلك ثناء عبد الله بن الأهتم والأحنف بن قيس على زياد بعد انتهاء الخطبة من أن الخطبة تستوجب النقد وليس الثناء، لما فيها من تقديم حكم الجاهلية على حكم الله[9]. وعن الشعبي، قال: ما سمعت متكلماً قد تكلم فأحسن إلا أحببت

(1) المصدر نفسه (6/ 137).
(2) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 244.
(3) تاريخ الطبري (6/ 135).
(4) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 244.
(5) تاريخ الطبري (6/ 135).
(6) المصدر نفسه (6/ 135).
(7) المصدر نفسه.
(8) المصدر نفسه (6/ 136).
(9) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 246.

أن يسكت خوفاً أن يسيء إلا زياداً، فإنه كان كلما أكثر كان أجود كلاماً[1]. وهذا الثناء من الشعبي على زياد يقوي الشك حول خطبة زياد البتراء التي سبق الحديث عنها في الرواية السابقة[2].

هـ ـ استعانة زياد بصحابة رسول الله: استعان زياد بعدةٍ من أصحاب النبي ﷺ، منهم عمران بن الحصين الخزاعي[3]، ولاه قضاء البصرة، والحكم بن عمرو الغفاري[4]، ولاه خراسان، وسمرة بن جندب، وأنس بن مالك، وعبد الرحمن بن سمرة، فاستعفاه عمران فأعفاه، واستقضى عبد الله بن فضالة الليثي[5] ثم أخاه عاصم بن فضالة[6]، ثم زرارة بن أوفى الحرشي[7]، وكانت أخته لبابة عند زياد[8].

و ـ من سياسة زياد في العراق: يعتبر زياد بن أبي سفيان عامل معاوية على البصرة والكوفة بعد عبد الله بن عامر والمغيرة بن شعبة، هو الذي قام بمعظم الإصلاحات الضرورية في ذلك الجناح الشرقي من الدولة الأموية، وكان هذا الرجل يتمتع بقدرة إدارية فائقة[9]. وقد استن زياد عدة قوانين وتنظيمات وقام بكثير من الإصلاحات في البصرة أولاً (45 - 50هـ) ثم في الكوفة بعد أن جُمعت المدينتان تحت إمرته في ولاية واحدة وذلك منذ سنة 50هـ، وحتى سنة53هـ. فبنى دار الرزق في البصرة[10]، وهي شبيهة بمخزن المؤن في أيامنا هذه، فكان الأهالي يتموّنون منها، وعين أشخاصاً يشرفون عليها منهم: عبد الله بن الحارث بن نوفل، وروّاد ابن أبي بكرة. كما عين الجَعْد بن قيس النّمري مشرفاً على السوق ومراقباً على أسعار المواد الغذائية فيه[11]. وكان يعطي قروضاً للتجار إذا ما ارتفعت الأسعار كي يحثهم على المحافظة على سعر السلعة أو بزيادة بسيطة. وإذا ما تحقق ذلك وتوفرت الحاجات: ارتجع ماله[12]. وترك

(1) المنتظم لابن الجوزي (5/ 212).
(2) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 247.
(3) مات بالبصرة عام سنة 52هـ، أخرج له الستة، التقريب (429).
(4) مات بمرو عام 50هـ، أخرج له البخاري والأربعة، ابن حجر، التقريب (175).
(5) ابن حجر، التقريب (317).
(6) الإصابة (3/ 574).
(7) توفي وهو يصلي سنة 93هـ، التقريب لابن حجر (215).
(8) أنساب الأشراف (4/ 370).
(9) خلافة معاوية بن أبي سفيان للعقيلي، ص: 86.
(10) أنساب الأشراف (4/ 314) خلافة معاوية، ص: 87.
(11) خلافة معاوية، ص: 87، نقلاً عن أنساب الأشراف (4/ 212، 217).
(12) أنساب الأشراف (4/ 237).

زياد الناس في البصرة أخماساً أما الكوفة فقد قسمهم إلى أرباع[1]، بدل الأسباع. واختار عريفاً لكل قسم يقوم بمهمة توزيع الأعطيات على أفراد عشيرته، كما أنه كان مسئولاً أمام زياد عما يحدث في ناحيته، فيقوم بإرسال التقارير بما حصل فيها أولاً بأول إلى زياد، واستطاع أن يضبط الأمور في المدينتين برجال من أهلها، وأصدر زياد أوامره بألّا يدخل أو يخرج أحد من الكوفة أو البصرة بعد صلاة العشاء، وأوقع القصاص بالسارق وقاطع الطريق فعمَّ الأمن والطمأنينة بحيث أن المرأة كانت تنام وباب بيتها مفتوحاً، وأن الشيء ليسقط على الأرض فيظل ملقى دون أن يحركه أحد[2].

ونظم العطاء من الديوان فحذف منه أسماء الذين توفوا ومن كان غائباً عن قطره ومن كان عابثاً بالأمن، فكان إذا جاء شعبان أخرج أعطية المقاتلة فملأوا بيوتهم من كل حُلْو وحامض واستقبلوا رمضان بذلك، وإذا كان ذو الحجة أخرج أعطية الذرية[3]، ويشير البلاذري إلى أنه كان لكل عيِّل جريبان ومائة درهم، ومعونة الفطر خمسين، ومعونة الأضحى خمسين[4]، واختار زياد حوالي خمسمائة رجل من أهل البصرة ليعملوا كحرس خاص له وكذلك حماية الأماكن الهامة، وأعطى لكل واحد منهم ما بين ثلاثمائة إلى خمسمائة درهم، وأسند قيادتهم إلى شيبان بن عبد الله السعدي، فكانوا لا يبرحون المسجد[5].

وبنى زياد مساجد عديدة، منها: مسجد بني عدي، ومسجد بني مجاشع، ومسجد الأساورة. وكان لا يدع أحداً يبني بقرب مسجد الجماعة مسجداً، فكان مسجد بني عدي أقربها منه[6]. ويذكر ابن الفقيه: إن زياداً بنى سبعة مساجد فلم يُنسب إليه شيء منها، وأن كل مسجد بالبصرة كانت رحبته مستديرة فإنه من بناء زياد[7]. وزاد زياد في مسجد البصرة زيادة كثيرة، وبناه بالآجر والجص، وسقفه بالساج، وبنى منارته بالحجارة[8].

وكان يهتم بنظافة المدينة ويعتبر الأفراد مسئولين عن نظافة بيوتهم ويعاقب من يهمل ذلك، فقد كان يأخذ صاحب كل دار بعد المطر إذا أضحت برفع ما بين يدي فنائه من الطين، فمن لم يفعل أمر ذلك الطين فألقي في مجلسه، وكان يأخذ الناس بتنظيف طرقهم من القذر والكناسات، ثم أنه اشترى عبيداً ووكلهم فكانوا يلمونه[9]. فهذه الرواية تشير إلى وجود

---

(1) تقسيم يتعلق بالقبائل.
(2) تاريخ الطبري نقلاً عن خلافة معاوية للعقيلي، ص: 88.
(3) أنساب الأشراف (4/ 219).
(4) خلافة معاوية، ص: 88 نقلاً عن أنساب الأشراف (4/ 221).
(5) المصدر نفسه، ص: 89، أنساب الأشراف (4/ 221).
(6) مختصر كتاب البلدان، ص: 191.
(7) الإدارة في العصر الأموي، ص: 160.
(8) فتوح البلدان، ص: 346 - 347، خلافة معاوية، ص: 89.
(9) أنساب الأشراف (4/ 206) الإدارة في العصر الأموي، ص: 214.

موظفين مهمتهم مراقبة النظافة من ناحية، كما تشير إلى أن زياداً تنبه إلى أن نظافة الطرق أمر يجب أن يتولاه أشخاص معينون فاشترى عبيداً وكل إليهم تنظيف الطرق من القذر والكناسات[1].

واهتم زياد بتقدم الزراعة وتنظيم طرق الري: فبنى السدود[2]، وحفر القنوات[3]، كما أنه كان يمنح المزارع قطعة من الأرض الزراعية، مساحتها 60 جريباً ثم يدعه عامين فإن عمّرها أصبحت له، وإلا استردها منه، وأعطاها آخرين ينتظرونها[4]، ولكي يسهل الاتصال بين ضفتي نهر الفرات، فقد أصلح زياد قنطرة الكوفة وأعاد بناءها باللَّبن والطوب المقوّى، بعد أن كانت من أخشاب القوارب المتهالكة. وأصبحت تعرف بعد ذلك بجسر الكوفة[5]. وأما عن كيفية تصرف زياد في موارد بيت مال الولاية فيشير البلاذري إلى: أن زياداً كان يجبي من كُوَر البصرة ستين ألف ألف، فيعطي المقاتلة من ذلك ستة وثلاثين ألف ألف، ويعطي الذرية ستة عشرة ألف ألف درهم، وينفق من نفقات السلطان ألفي ألف، ويجعل في بيت المال للبوائق والنوائب ألفي ألف درهم، ويحمل إلى معاوية أربع آلاف (ألف) درهم، وكان يجبي من الكوفة أربعين ألف ألف، ويحمل إلى معاوية ثُلثي الأربعة الآلاف ألف، لأن جباية الكوفة ثلثا جباية البصرة. كما أن عبيد الله زياد - والذي خلف أباه على ولاية العراق - حمل إلى معاوية ستة آلاف درهم فقال معاوية: اللهم ارض عن ابن أخي[6].

4 - ولاية سمرة بن جندب رضي الله عنه:

عن جعفر بن سليمان الضبعي، قال: أقر معاوية سمرة بعد زياد ستة أشهر، ثم عزله فكذبوا على سمرة وزعموا أنه قال: لعن الله معاوية، والله لو أطعت الله كما أطعت معاوية ما عذبني أبداً[7]. هذا الخبر المنسوب إلى سمرة بأنه شتم معاوية خبر مكذوب على هذه الصحابي الكريم، وفي ذلك يقول ابن كثير: وهذا لا يصح عنه[8]، كما أن معرفة ميول مصدر الخبر جعفر بن السليمان الضبعي، والذي قال عنه ابن حجر: صدوق زاهد لكنه يتشيع[9]، تبين أثر التشيع في تشويه التاريخ الإسلامي[10].

5 - ولاية عبد الله بن عمرو بن غيلان الثقفي:

قال الطبري وفي هذه السنة ـ 54هـ - كان عزل معاوية بن أبي سفيان لسمرة بن جندب عن البصرة، واستعمل عبد الله بن غيلان[11].

---

(1) الإدارة في العصر الأموي، ص: 214.
(2) خلافة معاوية للعقيلي، ص: 89.
(3) فتوح البلدان ص/ 356، 362، 363، 369.
(4) خلافة معاوية، ص: 90.
(5) فتوح البلدان، ص: 285 - 286.
(6) أنساب الأشراف (4/ 218 - 219).
(7) مرويات معاوية في تاريخ الطبري، ص: 261.
(8) البداية والنهاية نقلاً عن مرويات معاوية في تاريخ الطبري، ص: 262.
(9) تقريب التهذيب، ص: 140.
(10) مرويات خلافة معاوية، ص: 262.
(11) تاريخ الطبري (6/ 212).

6 - ولاية عبيد الله بن زياد خراسان ثم البصرة:

قال الطبري: وفي هذه السنة ولى معاوية عبدَ الله بن زياد خراسان[1]، وفي عام 55هـ عزل معاوية بن عمرو بن غيلان عن البصرة وولاها عبد الله بن زياد[2]وأوصى معاوية عبد الله بن زياد بهذه الوصية: إني قد عهدت إليك مثل عهدي إلى عمالي، ثم أوصيك وصية القرابة لخاصتك عندي، لا تبيعن كثيراً بقليل، وخذ لنفسك من نفسك، واكتف فيما بينك وبين عدوك بالوفاء تخفّ عليك المؤونة وعلينا منك، وافتح بابك للناس تكن في العلم منهم أنت وهم سواء، وإذا عزمت على أمر فأخرجه إلى الناس، ولا يكن لأحد فيه مطمع، ولا يرجعن عليك وأنت تستطيع، وإذا لقيت عدوك فغلبوك على ظهر الأرض فلا يغلبونك على بطنها، وإن احتاج أصحابك إلى أن تواسيهم بنفسك فآسيهم[3]. وفي رواية قال له: اتق الله ولا تؤثرن على تقوى الله شيء، فإن في تقواه عوضاً، وقِ عرضك من أن تندسه، وإذا أعطيت عهداً فوفّ به، ولا تبيعنّ كثيراً بقليل، ولا تخرجن منك أمراً حتى تُبرمه، فإذا خرج فلا يردن عليك، وإذا لقيت عدوك فكن أكثر من معك، وقاسمهم على كتاب الله، ولا تطمعن أحداً في غير حقه، ولا تؤيسنّ أحداً من حق له. ثم ودعه[4].

ثانياً: الكوفة: 41هـ:

1 - المغيرة بن شعبة رضي الله عنه :

الأمير أبو عيسى، ويقال أبو عبد الله، وقيل: أبو محمد. من كبار الصحابة أولي الشجاعة والمكيدة. شهد بيعة الرضوان، كان رجلاً طوالاً مهيباً، ذهبت عينه يوم اليرموك وقيل: يوم القادسية[5]. وكان يقول: أنا آخر الناس عهداً برسول الله ﷺ، لما دفن رسول الله ﷺ في القبر، فألقيت خاتمي، فقلت: يا أبا الحسن، خاتمي قال: انزل فخذه، قال: فمسحت يدي على الكفن ثم خرجت[6]. وله مواقف في الدهاء والمكر والكيد منهما، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، ، أن عمر استعمل المغيرة بن شعبة على البحرين، فكرهوه، فعزله عمر، فخافوا أن يردّه، فقال دهقانهم[7]: إن فعلتم ما آمركم لم يردَّه علينا. قالوا: مُرْنا. قال: تجمعون مائة ألف حتى أذهب بها إلى عمر، وأقول: إن المغيرة اختان هذا، فدفعه إليَّ. قال: فجمعوا له مائة ألف، وأتى عمر، فقال ذلك، فدعا المغيرة، فسأله، قال: كذب أصلحك الله، إنما كانت مائتي ألف، قال: ما حملك على هذا؟ قال: العيال والحاجة. فقال عمر للعِلْج: ما

(1) المصدر نفسه (6/ 212).
(2) المصدر نفسه (6/ 217).
(3) المصدر نفسه (6/ 213).
(4) المصدر نفسه (6/ 214).
(5) سير أعلام النبلاء (3/ 21).
(6) سير أعلام النبلاء (3/ 26).
(7) الدّهقان: القوي على التصرف، رئيس الإقليم.

تقول؟ قال: لا والله لأصَدُقَنَّك ما دفع إليَّ قليلاً ولا كثيراً، فقال عمر للمغيرة: ما أردت إلى هذا؟ قال: الخبيث كذب عليَّ، فأحببت أن أخزيه(1).

وعن الشعبي: سمعت قبيصة بن جابر يقول: صحبت المغيرة بن شعبة، فلو أن مدينة لها ثمانية أبواب، لا يخرج من باب إلا بمكر، لخرج من أبوابها كلها(2)، وقال الشعبي: .. والدهاة أربعة: معاوية وعمرو بن العاص، والمغيرة، وزياد(3). وكان المغيرة بن شعبة من أنصار التعدد فكان يقول: صاحب المرأة الواحدة يحيض معها ويمرض معها، وصاحب المرأتين بين نارين تشتعلان(4). فهو يدعو للزواج من ثلاث أو أربع.

وقد استعمل معاوية المغيرة على الكوفة عام 41هـ(5)، وقام بجهود عظيمة في قتال الخوارج، ووجد وقتاً كافياً قام فيه بتوسيع مسجد الكوفة فجعله يتسع لأربعين ألفاً من المصلين(6). وبقي في الولاية إلى عام 49هـ وقيل 50هـ، وهو الراجح، وعندما مات ضم معاوية الكوفة إلى زياد، فكان أول من جمع له الكوفة والبصرة(7).

2 - ولاية زياد بن أبيه على الكوفة:

كان زياد على البصرة وأعمالها إلى سنة خمسين، فمات المغيرة بن شعبة بالكوفة وهو أميرها، فكتب معاوية إلى زياد بعهده على الكوفة والبصرة، فكان أول من جمع له الكوفة والبصرة، فاستخلف على البصرة سمرة بن جندب، وشخص إلى الكوفة، فكان زياد يقيم ستة أشهر بالكوفة وستة أشهر بالبصرة(8). وقد تحدثنا عن سياسة زياد فيما سبق بالعراق، وقد وصفه الذهبي فقال فيه: .. كان من نُبلاء الرجال، رأياً، وعقلاً وحزماً ودهاءً وفطنة، وكان يضرب به المثل في النُّبل والسؤدد، وكان كاتبا بليغاً كتب للمغيرة، ولابن عباس وناب عنه بالبصرة(9). وقال الشعبي: ما رأيت أحداً أخطب من زياد(10). وقال فيه ابن حزم: لقد امتنع زياد وهو فِقَعَةُ القاع(11)، لا نسب له ولا سابقة، فما أطاقة معاوية إلا بالمداراة، ثم استرضاه وولاّه(12) وقال أبو الشعثاء: كان زياد أفتك من الحجَّاج لمن يخالف هواه،(13) وعندما استقر أمره بالعراق وتمكن منها، كتب زياد إلى معاوية: قد ضبطت لك العراق بشمالي، ويميني فارغة، فأشغلها بالحجاز... فلما بلغ ذلك أهل الحجاز أتى نفر منهم عبد الله بن عمر ابن

(1) سير أعلام النبلاء (3/ 26).
(2) المصدر نفسه (3/ 30).
(3) البداية والنهاية (11/ 22).
(4) سير أعلام النبلاء (3/ 31).
(5) تاريخ الطبري (6/ 82).
(6) خلافة معاوية للعقيلي، ص: 85.
(7) تاريخ الطبري (6/ 150).
(8) تاريخ الطبري (6 / 150).
(9) تاريخ الطبري (6 / 150).
(10) سير أعلام النبلاء (3 / 495).
(11) المصدر نفسه (3 / 496).
(12) المصدر نفسه (3/ 496).
(13) المصدر نفسه (3/ 496).

الخطاب، فذكروا ذلك له، فقال: ادعوا الله عليه فيكفيكموه، فاستقبل القبلة، واستقبلوها فدعوا ودعا، فخرجت طاعونة[1] على أصبعيه، فأرسل إلى شريح[2] ـ وكان قاضيه ـ فقال: حدث بي ما ترى، وقد أمرت بقطعها، فأشر علي، فقال له شريح: إني أخشى أن يكون الجراح على يدك، والألم على قلبك، وأن يكون الأجل قد دنا، فتلقى الله عز وجل أجذم[3] وقد قطعت يدك كراهية للقائه، أو أن يكون في الأجل تأخير، وقد قطعت يدك فتعيش أجذم وتعير ولدك، فتركها، وخرج شريح فسألوه، فأخبرهم بما أشار به، فلاموه وقالوا: هل أشرت عليه بقطعها، فقال: قال رسول الله ﷺ: «المستشار مؤتمن»[4]. وقد مات زياد سنة ثلاث وخمسين[5].

3 - ولاية عبد الله بن خالد بن أسيد:

عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العيص، ولي فارس لزياد[6]، ثم استخلفه زياد على الكوفة عند مماته، وهو الذي صلى على زياد.

4 - ولاية الضحاك بن قيس الفهري:

وفي سنة 55هـ عزل معاوية عبد الله بن خالد بن أسيد عن الكوفة، وولاها الضحاك بن قيس الفهري[7].

5 - ولاية عبد الرحمن بن عبد الله الثقفي: 58هـ:

وفي سنة 58هـ ولى معاوية الكوفة عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الله بن عثمان بن ربيعة الثقفي، وهو ابن أم الحكم أخت معاوية بن أبي سفيان، وعزل عنها الضحاك بن قيس[8].

هذا وقد قام معاوية رضي الله عنه بعزل عبد الرحمن ابن أم الحكم عن الكوفة بسبب إقدامه على قتل أحد أهل الذمة، ودليل ذلك ما أخرجه أحمد بن حنبل، بإسناد صحيح، قال: حدثني هارون ابن معروف قال: حدثنا سفيان، عن مطرف، قال: أخبرني ابن سعيد قال: . . ثم إن ابن الحكم عزل حين قتل ابن صلوبا[9].

---

(1) الطاعون: الوباء.
(2) شريح الكندي: مختلف في صحبته، ولي القضاء من عهد عمر حتى عصر عبد الملك، توفي سنة 78هـ.
(3) الأجذم: المقطوع اليد، أو الذاهب الأنامل.
(4) صحيح الأدب المفرد للألباني (113).
(5) تاريخ الطبري (6/ 206).
(6) نسب قريش للزبيري، ص: 187.
(7) تاريخ الطبري (6/ 218).
(8) المصدر نفسه (6/ 226).
(9) التاريخ الكبير للبخاري (6/ 533)، العلل ومعرفة الرجال (2/ 24، 25)، مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 227.

6 - ولاية النعمان بن بشير ﷺ : 59 - 60هـ:

وفي سنة 59هـ عزل عبد الرحمن ابن أم الحكم عن الكوفة، واستعمل عليها النعمان بن بشير الأنصاري[1].

فهؤلاء هم ولاة الكوفة في عهد معاوية ﷺ .

ثالثاً: المدينة النبوية:

تعتبر المدينة من أهم الولايات للنفوذ الروحي والديني على الدولة الأموية بسبب وجود الصحابة وأبنائهم من المهاجرين والأنصار، ولا تكاد تنعقد البيعة إن لم يبايع أهل المدينة، إذ فيها عدد من أهل الحل والعقد، ومن يطيعه الناس ويسيرون برأيهم[2]، وقد دخلت المدينة في سلطان معاوية ﷺ بعد عام الجماعة سنة 41هـ، وقد حرص معاوية على زيارتها منذ بيعته، فقدم المدينة وتلقته رجال من وجوه قريش فقالوا: الحمد لله الذي أعزّ نصرك وأعلى أمرك، فما رَدَّ عليهم جواباً حتى دخل المدينة، فقصد المسجد، وعلا المنبر، فحمد الله وأثنى عليه فقال: . . . ولقد رمت نفسي على عمل ابن أبي قحافة فلم أجدها تقوم بذلك ولا تقدر عليه، وأردتها على عمل ابن الخطاب، فكانت أشد نفوراً وأعظم هرباً من ذلك، وحاولتها على مثل سنيّات عثمان، فأبت علي، وأين مثل هؤلاء ومن يقدر على أعمالهم، هيهات أن يدرك فضلهم أحد ممن بعدهم. . غير أني سلكت بها طريقاً لي منفعة ولكم فيه مثل ذلك، ولكم فيه مؤاكلة حسنة ومشاربة جميلة، ما استقامت السيرة وحسنت الطاعة، فإن لم تجدوني خيركم، فأنا خير لكم، والله لا أحمل السيف على من لا سيف معه، ومهما تقدم مما قد علمتموه قد جعلته دُبر أذني، وإن لم تجدوني أقوم بحقكم كله، فارضوا مني ببعضه، وإياكم والفتنة، فلا تهموا بها، فإنها تفسد المعيشة وتكدر النعمة[3]، ونلاحظ في هذه الخطبة حرص معاوية ﷺ على أن يكسب ودهم ويحافظ على عهده لهم، ما حافظوا على بيعتهم له[4]. وقد هدأت المدينة بعد بيعة معاوية وأخلدت إلى السكينة، وانصرف أهلها إلى أعمالهم وانقطع أهل العلم إلى رواية ما حفظوه من حديث رسول الله ﷺ، وأغدق معاوية الأموال على سراة الناس لاستمالتهم وكان كرم هؤلاء يسع الكثير من أجل المدينة[5] وكان معاوية عند عهده لأهل المدينة وفياً بالسياسة التي رسمها في خطبته عند زيارة المدينة، وكان يقدم من الترغيب أكثر مما يعلن من

---

(1) تاريخ الطبري (6/ 223).
(2) التاريخ الإسلامي، العهد الأموي، محمود شاكر، ص: 90.
(3) البداية والنهاية (11/ 432).
(4) المدينة في العصر الأموي محمد شرّاب، ص: 70.
(5) المصدر نفسه، ص: 71.

الترهيب، وكان إكرامه لرجالات المدينة إكراماً يفوق كل وصف، وما قصده أحد في طلب إلا أعطاه. لقد كان يخص وجهاء القوم، ولكن هؤلاء كانوا موزعين لعطايا معاوية، كلما كثرت عطايا معاوية كثر إنفاقهم على أهل المدينة[1]، فقد روي أن معاوية قضى عن عائشة أم المؤمنين ثمانية عشر ألف دينار، وما كان عليها من الدَّين الذي كانت تعطيه الناس[2]، وبعث معاوية إلى أم المؤمنين عائشة بمائة ألف، ففرقتها من يومها، فلم يبق منها درهم، فقالت لها خادمتها: لو اشتريت لنا من ذلك بدرهم لحماً؟ فقالت: ألا ذكّرتني[3]،وأما ولاة المدينة فهم:

1 - مروان بن الحكم 42 - 49هـ:

في عام 42هـ ولى معاوية مروان بن الحكم المدينة، فاستقضى مروان عبد الله بن الحارث ابن نوفل[4].

2 - ولاية سعيد بن العاص رضي الله عنه 49 - 54هـ:

في سنة 49هـ عزل معاوية مروان بن الحكم عن المدينة في شهر ربيع الأول، وأمَّر فيها سعيد بن العاص على المدينة في شهر ربيع الآخر، وقيل: في شهر ربيع الأول[5].

3 - ولاية مروان بن الحكم الثانية: 54 - 57هـ:

في عام 54هـ عزل معاوية سعيد بن العاص عن المدينة، واستعمل عليها مروان بن الحكم[6].

4 - ولاية الوليد بن عتبة بن أبي سفيان:

استعمل معاوية على المدينة حين صرف عنها مروان، الوليد بن عتبة بن أبي سفيان[7]وكان ذلك عام 57هـ[8].

وفاة أبي هريرة رضي الله عنه بالمدينة ٥٨هـ، وقيل ٥٩هـ:

توفي أبو هريرة رضي الله عنه في عهد معاوية، وقد تعرّض للهجوم الشرس من قبل أعداء السنة النبوية بسبب خدمته لها، فرأيت من المناسب أن أترجم لأبي هريرة وأتعرض للشبهات المثارة حوله وبيان بطلانها وزيفها.

أ ـ التعريف به: هو عبد الرحمن بن صخر الدوسي اليماني، كان اسمه في الجاهلية عبد

---

(1) المدينة في العصر الأموي، ص: 73.
(2) سير أعلام النبلاء (3/ 154).
(3) تذكرة الحفاظ ترجمة 13، سير أعلام النبلاء (3/ 154).
(4) تاريخ الطبري (6/ 87).
(5) المصدر نفسه (6/ 148).
(6) المصدر نفسه (6/ 210).
(7) المصدر نفسه (6/ 225).
(8) المصدر نفسه.

شمس، فسماه رسول الله ﷺ: عبد الرحمن، واشتهر أبو هريرة بكنيته، حتى غلبت على اسمه فكاد ينسى، وسئل أبو هريرة: لم كنيت بذلك؟ قال: كنيت أبا هريرة لأني وجدت هرة فحملتها في كمي، فقيل لي: أبو هريرة، وكان يرعى غنم أهله في صغره، ويداعب هرته وكان يقول: لا تكنوني أبا هريرة، فإن النبي الله ﷺ كناني أبا هر، والذكر خير من الأنثى[1].

ب ـ إسلامه: هاجر أبو هريرة من اليمن إلى المدينة ليالي فتح خيبر، وكان ذلك سنة سبع من الهجرة، وكان قد أسلم على يد الطفيل بن عمرو في اليمن، ووصل المدينة وصلى الصبح خلف سباع بن عرفطة الذي كان قد استخلفه رسول الله ﷺ على المدينة أثناء غزوة خيبر[2]. وقد لازم أبو هريرة النبي ﷺ إلى آخر حياته، وقصر نفسه على خدمته، وتلقى العلم الشريف منه، فكان يدور معه ويدخل بيته، ويصاحبه في حجه وغزوه، ويرافقه في حله وترحاله، في ليله ونهاره،حتى حمل عنه العلم الغزير الطيب، فكانت صحبته أربع سنوات، وقد اتخذ الصُّفة مقاماً له، وخدم الرسول ﷺ على ملء بطنه، وجعله رسول الله ﷺ عريف أهل الصفة، فقد كان أعرف الناس بهم وبمراتبهم[3].

جـ ـ دعوته لأمه للإسلام: قال أبو هريرة ﷺ كنت أدعو أمي إلى الإسلام وهي مشركة، فدعوتها يوماً فأسمعتني في رسول الله ﷺ ما أكره، فأتيت إلى رسول الله ﷺ وأنا أبكي، قلت: يا رسول الله إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام فتأبى علي، فدعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره، فادع الله أن يهدي أم أبو هريرة، قال رسول الله ﷺ: «اللّهم اهد أم أبي هريرة»، فخرجت مستبشراً بدعوة رسول الله ﷺ، فلما جئت إلى الباب فإذا هو مجاف، فسمعت أمي خشف قدمي فقالت: مكانك يا أبا هريرة، وسمعت خضخضة الماء، قال: فاغتسلت ولبست درعها وعجلت عن خمارها ففتحت الباب ثم قالت: أبا هريرة أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ، فأتيته وأنا أبكي من الفرح، قال: قلت: يا رسول الله أبشر، قد استجاب الله دعوتك وهدى أم أبي هريرة، فحمد الله وأثنى عليه وقال خيراً. قلت: يا رسول الله ادع الله أن يحببني أنا وأمي إلى عباده المؤمنين ويحببهم إلينا، فقال رسول الله ﷺ: «اللّهم حبّب عُبيدك هذا ـ يعني أبا هريرة ـ وأمه إلى عبادك المؤمنين، وحبب إليهم المؤمنين». فما خلق مؤمن يسمع بي ولا يراني إلا أحبني[4].

د ـ عبادة أبي هريرة ﷺ وأسرته: كان أبو هريرة ﷺ ورعاً، ملتزماً سنة الرسول ﷺ،

---

(1) سير أعلام النبلاء (2/ 424).
(2) المصدر نفسه (2/ 425).
(3) حلية الأولياء (1/ 376) السنة قبل التدوين، محمد عجاج الخطيب، ص: 412.
(4) مسلم (رقم 2491)، بر الوالدين، أم حفص الشويحي، ص: 35.

يحذر الناس في الانغماس في ملذات الدنيا، وشهواتها، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، لا يفرق في ذلك بين غني ولا فقير، أو بين أمير وحقير، وأخباره في هذا الصدد كثيرة، وكان يخشى الله كثيراً في السر والعلن، ويذكر الناس به، ويحثهم على طاعته[1]، وكان عابداً، يصوم النهار ويقوم الليل، ويتناوب قيامه هو وزوجته، وابنته[2]، وكان يهتم بعمران بيته بعبادة الله تعالى، فعن أبي عثمان النهدي قال: تضيَّفت أبا هريرة سبعاً، فكان هو وامرأته وخادمه يعتقبون الليل أثلاثاً: يصلي هذا، ثم يوقظ هذا، ويصلي هذا ثم يوقظ هذا[3] فبيت أبي هريرة إشراقة مضيئة تبين لنا بيوت المسلمين في ذلك العهد، فهو بيت عامر بالصلاة طوال الليل، فأين تجد الشياطين لها مكاناً في هذا البيت؟ إنها تربية عالية على التقوى والعمل الصالح من الحافظ الكبير والعالم الرباني أبي هريرة ﷺ، واستجابة كريمة من امرأة طاهرة زكية وخادم صالح مطيع. إن أبناء الدنيا حينما يكلفون خدمهم، بعمل كبير، فإنما يكلفونهم بأعمال الدنيا، ويرون أنه لا مصلحة لهم بتكليفهم بعمل الآخرة، أما أبناء الآخرة فإنه من كمال سرورهم أن يروا خدمهم يجتهدون في أعمال الآخرة، لأنهم يكسبون بذلك أجراً على حسن توجيههم[4].

هـ ـ فقره وعفافه: كان أبو هريرة أحد أعلام الفقراء والمساكين، صبر على الفقر الشديد حتى أنه كان يلصق بطنه بالحصى من الجوع، يطوي نهاره وليله من غير أن يجد ما يقيم صلبه[5]، قال سعيد بن المسيب ﷺ: رأيت أبا هريرة يطوف بالسوق، ثم يأتي أهله فيقول: هل عندكم من شيء؟ فإن قالوا: لا قال: فإني صائم[6]، وكان قنوعاً راضياً بنعم الله، فإذا أصبح لديه خمس عشرة تمرة أفطر على خمس، وتسحر على خمس، وأبقى خمس لفطره[7]، وكان كثير الشكر لله، كثير الحمد والتسبيح والتكبيرعلى ما أتاه الله من فضل وخير[8].

و ـ حلمه وعفوه: كانت عند أبي هريرة زنجية قد غمتهم بعملها، فرفع يوماً السوط ثم قال: لولا القصاص يوم القيامة لأغشينك به، ولكن سأبيعك ممن يوفيني ثمنك أحوج ما أكون إليه، أذهبي فأنت حرة لله ﷻ[9]، وهكذا يوازن أبو هريرة ﷺ بين قدرته على تلك الخادمة وقدرة الله تعالى عليه، فيفضل اتقاء سخط الله ﷻ وعذابه على تنفيذ مقتضى سخطه هو، فيتورع عن عقوبة تلك الخادمة ويحسن إليها بدلاً من إساءتها بإعتاقها لوجه الله ﷻ، وبهذا

---

(1) سير أعلام النبلاء (2/ 438).
(2) البداية والنهاية (11/ 378).
(3) سير أعلام النبلاء (2/ 609).
(4) التاريخ الإسلامي (19/ 215) للحميدي.
(5) السنة قبل التدوين، ص: 413.
(6) حلية الأولياء (3/ 3381).
(7) البداية والنهاية (11/ 385).
(8) تاريخ الإسلام (2/ 335)، سير أعلام النبلاء (2/ 439، 440).
(9) البداية والنهاية (11/ 385).

يكون قد جمع بين عدد من الأعمال الصالحة، .. خشية الله تعالى، والعفو عن المسيء، والإحسان إليه، وهذا يبين لنا عمق تصور الصحابة رضي الله عنهم للحياة الآخرة واستحضارهم رقابة الله تعالى وسعيهم الحثيث لبلوغ رضاه[1].

ز ـ ولايته على البحرين في عهد عمر رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ قد أرسل أبا هريرة مع العلاء الحضرمي إلى البحرين، لينشر الإسلام، ويفقه المسلمين، ويعلمهم أمور دينهم، فحدث عن رسول الله ﷺ وأفتى الناس، وفي عهد عمر رضي الله عنه استعمله على البحرين فقدم بعشرة آلاف، فقال له عمر: استأثرت بهذه الأموال يا عدو الله وعدو كتابه؟ فقال أبو هريرة: لست بعدو الله وعدو كتابه، ولكني عدو من عاداهما، قال: فمن أين هي لك؟ قال: خيل نتجت، وغلة رقيق لي، وأعطية تتابعت عليّ. فنظروا فوجدوا كما قال[2]، وقد قاسمه عمر رضي الله عنه مع جملة من قاسمهم من العمال، وكان أبو هريرة يقول: اللَّهم اغفر لأمير المؤمنين[3]، وبعد ذلك دعاه عمر ليوليه، فأبى، فقال: تكره العمل وقد طلب العمل من كان خير منك، يوسف عليه السلام، فقال: يوسف نبي ابن نبي، وأنا أبو هريرة ابن أميمة وأخشى عملكم ثلاثاً واثنتين، فقال: فهل قلت خمساً، قال: لا. أخاف أن أقول بغير علم وأقضي بغير حلم، وأن يضرب ظهري، وينزع مالي، ويشتم عرضي[4].

ح ـ اعتزاله الفتن: كان أبو هريرة يوم حصار عثمان رضي الله عنه عنده في الدار مع بعض الصحابة وأبناءهم، الذين جاءوا ليدفعوا الغوغاء عنه، وقد حفظ ولد عثمان له يده واحترموه حتى أنه لما مات أبو هريرة كان يحملون سريره حتى بلغوا البقيع[5]، وقد اعتزل أبو هريرة رضي الله عنه الفتن بعد استشهاد عثمان رضي الله عنه [6].

ط ـ مرحه ومزاحه: كان أبو هريرة رضي الله عنه حسن المعشر، طيب النفس، صافي السريرة، كان يحب الفكاهة والمزاح ومع هذا كان يعطي كل شيء حقه، فقد نظر إلى الدنيا بعين الراحل عنها، فلم تدفعه الإمارة إلى الكبرياء، بل أظهرت تواضعه، وحسن خلقه، فربما استخلفه مروان على المدينة، فيركب حماراً قد شدَّ عليه بَرْذعه وفي رأسه خلبة من ليف، يسير فيلقى الرجل، فيقول: الطريق، قد جاء الأمير[7]. ويمر أبو هريرة في السوق، يحمل الحطب على

---

(1) التاريخ الإسلامي (17/ 23) للحميدي.

(2) البداية والنهاية (11/ 387).

(3) طبقات بن سعد (4/ 60)، السنة قبل التدوين، ص: 416.

(4) سير أعلام النبلاء (2/ 441)، السنة قبل التدوين، ص: 416.

(5) الكامل في التاريخ (2/ 523).

(6) السنة قبل التدوين، ص: 417.

(7) طبقات ابن سعد نقلاً عن السنة قبل التدوين، ص: 418.

ظهره ـ وهو يومئذ أمير لمروان ـ فيقول لثعلبة بن أبي مالك القرظي: أوسع الطريق للأمير يا ابن مالك، فيقول: يرحمك الله يكفي هذا!! فيقول أبو هريرة: أوسع الطريق للأمير والحزمة عليه[1]. وكان يحب إدخال السرور إلى نفوس الأطفال، فقد يراهم يلعبون بالليل لعبة الإعراب، فلا يشعرون به حتى يلقي نفسه بينهم ويضرب برجليه كأنه مجنون فيفزع الصبيان منه ويفرون[2] هاهنا وهاهنا يتضاحكون[3]. قال أبو رافع: وربما دعاني أبو هريرة إلى عشائه في الليل، فيقول: دع العُراق للأمير ـ يعني قطع اللحم ـ فانظروا فإذا ثريد بزيت[4].

ي ـ حياته العلمية: صحب أبو هريرة رسول الله ﷺ أربع سنوات، وسمع منه كثيراً، وشاهد دقائق السنة، ووعى تطبيق الشريعة، وكان همه طلب العلم وأمله التفقه في الدين[5]، وكان حفظ أبي هريرة الخارق من معجزات النبوة[6]، فعن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «ألا تسألني من الغنائم التي يسألني أصحابك؟» قلت: أسألك أن تعلمني مما علمك الله، فنزع نمرة كانت على ظهري، فبسطها بيني وبينه، حتى كأني أنظر إلى النمل يدب عليها، فحدَّثني حتى إذا استوعبت حديثه، قال: اجمعها فصُرْها إليك. فأصبحت لا أسقط حرفاً مما حدّثني[7]، وكان يقول ﷺ: إنكم تقولون: إنَّ أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله ﷺ، وتقولون: ما للمهاجرين والأنصار لا يُحدِّثون مثله وإن إخواني من المهاجرين يشغلهم الصَّفق في الأسواق، وكان إخواني من الأنصار يشغلهم عمل أموالهم، وكنت امرأ مسكيناً من مساكين الصفة، ألزم رسول الله ﷺ على ملء بطني فأحضر حين يغيبون، وأعي حين ينسون، وقد قال رسول الله ﷺ في حديث يحدثه يوماً: «إنَّه لن يبسط أحد ثوبه حتى أقضي جميع مقالتي، ثم يجمع إليه ثوبه، إلا وعى ما أقول». فبسطت نمرة عليَّ، حتى إذا قضى مقالته، جمعتها إلى صدري. فما نسيت من مقالة رسول الله ﷺ من تلك شيئاً[8]، وفي رواية: إنه حدثنا يوماً فقال: «من يبسط ثوبه حتى أقضي مقالتي، ثم قبضه إليه، لم ينس شيئاً سمع مني أبداً». ففعلت، فوالذي بعثه بالحق، ما نسيت شيئاً سمعته منه[9]. وعن أبي هريرة، قلت: يا رسول الله، من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: «لقد ظننت يا أبا هريرة لا يسألني عن هذا الحديث أحدٌ أوّل منك، لما رأيت من حرصك على الحديث: إن أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصاً من نفسه»[10]. وكان أبو هريرة حافظاً متقناً، ضابطاً لما

(1) البداية والنهاية (11/ 386).
(2) البداية والنهاية (11/ 388).
(3) البداية والنهاية (11/ 388) في الحاشية.
(4) البداية والنهاية (11/ 388).
(5) السنة قبل التدوين، ص: 420.
(6) سير أعلام النبلاء (2/ 594).
(7) سير أعلام النبلاء (2/ 594) رجاله ثقات.
(8) مسلم رقم 2492.
(9) سير أعلام النبلاء (2/ 595) مسلم رقم 2294.
(10) سير أعلام النبلاء (2/ 596) إسناده صحيح.

يروي، دقيقاً في أخباره، فقد اجتمعت فيه صفتان عظيمتان تتم إحداهما الأخرى، الأولى: سعة علمه وكثرة مروياته، والثانية: قوة ذاكرته وحسن ضبطه وهذا غاية ما يتمناه أولو العلم[1]، ويذكر لنا أبو الزعيزعة كاتب مروان ما يثبت إتقانه وحفظه فيقول: دعا مروان أبا هريرة فجعل يسأله، وأجلسني خلف السرير، وجعلت أكتب عنه، حتى إذا كان رأس الحول، دعاه، فأقعده من وراء الحجاب، فجعل يسأله عن ذلك الكتاب، فما زاد ولا نقص ولا قدم ولا أخر[2]. ولم يكن أبو هريرة راوية للحديث فقط، بل كان من رؤوس العلم في زمانه، في القرآن والسنة والاجتهاد، فإن صحبته وملازمته لرسول الله ﷺ أتاحت له أن يتفقه في الدين، ويشاهد السنة العملية، عظيمها ودقيقها، فتكونت عنده حصيلة كثيرة من الحديث الشريف، كل ذلك هيأ أبو هريرة لأن يفتي المسلمين في دينهم نيفاً وعشرين سنة والصحابة كثيرون آنذاك[3].

ك ـ أصح الطرق عن أبي هريرة في الحديث عن رسول الله: حكي عن ابن المديني أن من أصح الأسانيد إطلاقاً حماد بن يزيد عن أيوب عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة[4]، وأصح ما روي من الحديث عن أبي هريرة ما جاء عن:

- الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة.
- أبو الزناد عن الأعرج ـ عبد الرحمن بن هرمز ـ عن أبي هريرة.
- مالك عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة.
- سفيان بن عيينة عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة.
- معمر عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة.
- معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة[5].

* الرد على الشبه التي أثيرت حول أبي هريرة ﷺ:

كتب بعض أهل الأهواء قديماً في الطعن في أبي هريرة وتابعهم في هذا العصر بعض المستشرقين أمثال (جولد تسهير) و(شبرنجر) في الطعن في أبي هريرة ﷺ بالظلم والبهتان، وكتب عبد الحسين شرف الدين العاملي الشيعي كتاباً تحت عنوان (أبو هريرة) وافترى فيه على أبي هريرة افتراءات يندى لها جبين العلم وتخز ضمير العلماء، وتجرح الحق، ولا تلتقي معه، حتى انتهى إلى تكفير أبي هريرة[6]، وقد استقى من هذا الكتاب أبو رية صاحب

---

(1) السنة قبل التدوين، ص: 427.
(2) سير أعلام النبلاء (2/ 598).
(3) السنة قبل التدوين، ص: 428.
(4) السنة قبل التدوين، ص: 434.
(5) السنة قبل التدوين، ص: 435.
(6) السنة قبل التدوين، ص: 437.

كتاب «أضواء على السنة المحمدية»، فكان أشد على أبي هريرة من أستاذه وأكثر ضلالاً وزيفاً، وأهم هذه الشبهات التي ألصقت بأبي هريرة رضي الله عنه :

أ ـ عمر وأبو هريرة رضي الله عنهما : اتهم عبد الحسين شرف الدين وأبو رية[1] أبا هريرة بأنه سرق عشرة آلاف دينار حينما ولي البحرين لعمر، فعزله وضربه بالدرة حتى أدماه، لقد ذكرت جميع الروايات المعتمدة أن عمر رضي الله عنه قاسمه ماله، كما قاسم غيره من الولاة[2] ، وليس فيها أنه ضربه حتى أدماه، وكان أبو هريرة يقول: اللَّهم اغفر لأمير المؤمنين، فلم يحقد على عمر رضي الله عنه ، مع أنه يعلم أن ما قاسمه إياه إنما هو عطاياه وأسهمه وغلة رقيقة، ولو أن عمر شك في أمانة أبي هريرة بعض الشك لحاكمه وعاقبه العقوبة الشرعية، ولكنه عرف فيه الأمانة والإخلاص فعاد إليه بعد حين يطلبه للولاية فأبى أبو هريرة قبولها كما أسلفنا. هذا وجه الحق الذي أخفاه عبد الحسين وأبو رية، فعبد الحسين نقل رواية واحدة عن العقد الفريد لابن عبد ربه[3]، حيث وجد فيها ما يوافق هواه، واكتفى أبو رية بالنقل عن عبد الحسين من غير أن يشير إلى المصدر ومن غير بحث أو مقارنة وتمحيص[4]. وهذا يدل على حرصهم على التزوير والإخلال بالأمانة العلمية.

ب ـ هل تشيع أبو هريرة للأمويين؟ ووضع أحاديث في ذم علي وأبنائه؟ وقد اتهمه عبد الحسين بأنه دعاية الأمويين في سياستهم فتارة يفتئت الأحاديث في فضائلهم. . وتارة يلفق أحاديث في فضائل الخليفتين نزولاً على رغائب معاوية وفئته الباغية[5]وجمع أبو رية في هذا الموضوع كل شتائم كتب الشيعة في أبي هريرة، ونبش الأكاذيب والافتراءات على صحابة رسول الله، واعتمد الكتب التي لم يعرف مؤلفوها بالصدق ولا بالتمحيص في الرواية أو التي عرف مؤلفوها بالبغض القاتل لأبي هريرة، والعقيدة التي ندين بها أن أبا هريرة رضي الله عنه كان محباً لآل بيت رسول الله ﷺ، وروى في فضائل الحسن والحسين أكثر من حديث[6] ولم يناصب أهل البيت العداء قط، ومشهور عنه أنه تمسك بسنة رسول الله ﷺ، فكان يحب من أحبه رسول الله ﷺ، ومن العجيب أن يدعي إنسان نهل من العلم بعضه أن أبا هريرة يكره علياً وأهله رضي الله عنهم [7]، وقد كتب الأستاذ عبد المنعم صالح العزي كتابه القيم في الدفاع عن أبي

---

(1) أبو هريرة لعبد الحسين، ص: 14 – 15، أضواء السنة المحمدية، ص: 192.
(2) تاريخ الإسلام (2/ 338)، حلية الأولياء (1/ 380) البداية والنهاية (11/ 387).
(3) السنة قبل التدوين، ص: 438.
(4) المصدر نفسه، ص: 439.
(5) أبو هريرة لعبد الحسين، ص: 35.
(6) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ص: 353، 354.
(7) البرهان في تبرئة أبي هريرة من البهتان، ص: 127.

هريرة، وبين حبه لعلي وفاطمة ﷺ وبيّن بأنه يروي منقبة علي يوم خيبر، عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله قال يوم خيبر: «**لأعطين هذه الراية رجلاً يحب الله ورسوله يفتح الله على يديه**» ـ ثم روى إعطاءه إياها[1]، أفهذه رواية كاره لأمير المؤمنين علي ﷺ [2] وفي مناقب فاطمة ﷺ يروي أبو هريرة قول النبي ﷺ: «**إن فاطمة سيدة نساء أمتي**»[3]، وروى أبو هريرة أحاديث في حب الحسن بن علي وله معه وقائع وأخبار تدل على حب عظيم كان يكنه للحسن[4]. ويروي لنا أبو هريرة صورة لحبه للحسن ﷺ مع النبي ﷺ فيقول: لا أزال أحب هذا الرجل بعد ما رأيت رسول الله ﷺ، وهو يدخل أصابعه في لحية النبي ﷺ، والنبي يدخل لسانه في فمه، ثم قال: «**اللّهم إني أحبه فأحبه**»[5]. فلا غرابة بعد هذا الحب أن رأينا أبا هريرة يبكي يوم يموت الحسن ويدعو الناس إلى البكاء[6]، يقول من حضر ذاك اليوم: رأيت أبا هريرة قائماً على المسجد يوم مات الحسن يبكي وينادي بأعلى صوته: يا أيها الناس: مات اليوم حب رسول الله ﷺ فابكوا[7]، ولم يكن حب الحسين بن علي أقل ظهوراً عند أبي هريرة من حب الحسن، إذ ينقل لنا حادثة أخرى للنبي ﷺ فيقول: ما رأيت الحسين بن علي إلا فاضت عيني دموعاً، وذاك أن رسول الله ﷺ خرج يوماً فوجدني في المسجد، فأخذ بيدي واتكأ علي، فانطلقت معه حتى جاء سوق بني قينقاع، قال: وما كلمني فطاف ونظر، ثم رجع ورجعت معه فجلس في المسجد واحتبى، وقال لي: «**ادع لي لكاع**»، فأتى حسين يشتد حتى وقع في حجره ثم أدخل يده في لحية رسول الله ﷺ فجعل رسول الله ﷺ يفتح فم الحسين فيدخل فاه فيه ويقول: «**اللّهم إني أحبه فأحبه**»[8]. والقصة هذه رواها البخاري وفيها أن الحسن لا الحسين، لكن الحاكم أشار إلى أن كلا الروايتين محفوظة واردة، وذلك محتمل، لأن فيها ذكر الرجوع إلى المسجد[9]، ولقد أثبت عبد المنعم العزي في كتابه أقباس من مناقب أبي هريرة بالدلائل القطعية الكافية اعتداد أبناء علي ﷺ بحديث أبي هريرة، وروايتهم عنه، ورواية كبار فرسان علي وأمراء جنده، الذين قاتلوا معه في معارك الجمل وصفين والنهروان

---

(1) صحيح مسلم.
(2) الأدلة الباهرة على نفي البغضاء بين الصحابة والعترة الطاهرة، ص: 133.
(3) التاريخ الكبير للبخاري (1/ 232) بسند موصول.
(4) الأدلة الباهرة، ص: 134.
(5) المستدرك (3/ 169) بسند صحيح.
(6) الأدلة الباهرة، ص: 135.
(7) التهذيب (2/ 301).
(8) المستدرك (3/ 178).
(9) الأدلة الباهرة على نفي البغضاء بين الصحابة والعترة الطاهرة، ص: 135

عن أبي هريرة، ورواية جمهرة من التابعين عنه ممن لاقوا علياً رضي الله عنه ورووا عنه، ورواية عدد كبير آخر من جماهير الشيعة والكوفيين ومحبي ذرية علي من طبقة أتباع التابعين والطبقة التي تليهم لحديث أبي هريرة، واستعمالهم له، واستدلالهم به، وتدوينه في كتبهم[1].

إن الحقيقة العلمية التاريخية تقول لا يوجد أي دليل يعتمد عليه في تشيع أبي هريرة للأمويين، أو محاربته وعداوته لعلي وأبنائه، وإنما ظلم وافتراء واختلاق على الحقيقة، وإنما ما نسب إليه من أحاديث في مدح الأمويين، إنما هي ضعيفة وموضوعة عليه، وأهل الخبرة في هذا الشأن بينوا الكذابين والواضعين لها[2].

وأما دعوى كون الدولة الأموية وضعت أحاديث لتعمم بها رأياً من آرائها، فهذه دعوى لا وجود لها إلا في خيال الكذّابين، فما روى لنا التاريخ أن الحكومة الأموية وضعت أحاديث، ونحن نسأل من زعم ذلك: أين هي تلك الأحاديث التي وضعتها الحكومة؟ إن علماءنا اعتادوا ألا ينقلوا حديثاً إلا بسنده، وها هي أسانيد الأحاديث الصحيحة محفوظة في كتب السنة، ولا نجد حديثاً واحداً من آلافها الكثيرة في سنده عبد الملك أو يزيد أو الوليد أو أحد عمالهم كالحجاج وخالد القسري وأمثالهم، فأين ضاع ذلك في زوايا التاريخ لو كان له وجود؟ وإذا كانت الحكومة الأموية لم تضع بل دعت إلى الوضع، فما الدليل على ذلك[3]؟ وأما ما زعمه عبد الحسين وأبو رية بأن أبا هريرة كذب على رسول الله إرضاء للأمويين ونكاية بالعلويين[4]، فأبو هريرة من كل هذا براء، ولكنهما أوردا أخباراً ضعيفة وموضوعة لا أصل لها[5]، وكل ما كان في هذا الشأن وما جاءنا من هذه الأخبار الباطلة إنما كان عن طريق أهل الأهواء الداعين إلى أهوائهم، المتعصبين لمذاهبهم، فتجرؤوا على الحق، ولم يعرفوا للصحبة حرمتها، فتكلموا في خيار الصحابة واتهموا بعضهم بالضلال والفسق، وقذفوا بعضهم بالكفر، وافتروا على أبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم[6]. ولقد كشف أهل الحديث عن هؤلاء الكذبة، وكشف الله بهم أمر هذه الفرق وأماط اللثام عن وجوه المتسترين وراءها فكان أصحاب الحديث هم جنود الله عز وجل، بينوا حقيقة هؤلاء، وأظهروا نواياهم وميولهم، فما من حديث أو خبر يطعن في صحابي أو يشكك في عقيدة، أو يخالف مبادئ الدين الحنيف إلا بين جهابذة هذا الفن يد صانعه، وكشفوا عن علته، فادعاء هؤلاء مردود حتى يثبت زعمهم بحجة صحيحة مقبولة،

---

(1) أقباس من مناقب أبي هريرة، عبد المنعم العزي، ص: 127 إلى 149.
(2) البرهان في تبرئة أبي هريرة من البهتان، ص: 128.
(3) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ص: 203.
(4) أبو هريرة عبد الحسين، ص: 35، أضواء على السنة، ص: 190.
(5) السنة قبل التدوين، ص: 441.
(6) العواصم من القواصم، ص: 182 – 183، السنة قبل التدوين، ص: 443.

وكيف نتصور معاوية يحرض الصحابة على وضع الحديث كذباً وبهتاناً وزوراً، ليطعنوا في أمير المؤمنين علي ﷺ[1]، وقد شهد علماء الأمة من الصحابة والتابعين على عدالة معاوية، وقد بين مواقفه من أمير المؤمنين علي ﷺ، ولم يذكر في مصدر موثوق به ما يدل على أن علياً ﷺ كذّب أبا هريرة أو نهاه عن الحديث، ولكن بعض أعداء أبو هريرة يستشهدون برواية مكذوبة عن أبي جعفر الإسكافي، وهي أن علياً لما بلغه أبي هريرة قال: ألا إن أكذب الناس ـ أو قال أكذب الأحياء على رسول الله ـ أبو هريرة الدوسي[2]. فهذه رواية مردودة لا نقبلها عن الإسكافي، لأنه شيعي محترق، ومعتزلي ناصب أهل الحديث العداء[3]، وقد رد ابن قتيبة على جميع ما ألصقوه بالإمام علي طعناً في أبي هريرة[4].

جـ ـ كثرة حديثه: أخذ النظام المعتزلي على أبي هريرة كثرة حديثه وتابعه بعض المعتزلة قديماً ومنهم بشر المريسي، وأبو القاسم البلخي، وقد ردّ ابن قتيبة على النظام في كتابه (تأويل مختلف الحديث) ولقيت هذه الشبهة صدى في نفوس بعض المتأخرين كعبد الحسين شرف الدين الشيعي الذي سود صفحات كثيرة من كتابه (أبو هريرة)[5]، يشك في مروياته ويستكثرها، ويوهم القارىء أن ما رواه أبو هريرة مما رواه الصحابة الذين اشتغلوا بأمور الدولة وسياستها، ويثير هذه الشبهة نفسها أبو رية في كتابه أضواء على السنة المحمدية[6]، ويستشهد هؤلاء جميعاً بأخبار ضعيفة أو موضوعة أحياناً، وبتأويلات وموازنات باطلة أحياناً أخرى، وتلتقي أهواء هؤلاء بأهواء بعض المستشرقين أمثال «جولد تسيهر» الذي استكثر أيضاً مرويات أبي هريرة[7]، وخلاصة أقوالهم، أن أبا هريرة تأخر إسلامه، وروى عن رسول الله ﷺ (5374) حديثاً، وهي أكثر كثيراً مما رواه الخلفاء الأربعة وغيرهم من الصحابة الذين سبقوه إلى الإسلام[8]، ومن الخطأ الفاحش أن يقارن الخلفاء الراشدون وأبو هريرة في مجال الحفظ وكثرة الرواية لأسباب عديدة منها:

- صحيح أن الخلفاء الراشدين الأربعة ﷺ سبقوا أبا هريرة في صحبتهم وإسلامهم، ولم يرو عنهم مثل ما روي عنه، إلا أن هؤلاء اهتموا بأمور الدولة، وسياسة الحكم، وأنفذوا

(1) السنة قبل التدوين، ص: 444.
(2) شرح نهج البلاغة (1/ 468).
(3) السنة قبل التدوين، ص: 443.
(4) تأويل مختلف الحديث، ص: 27، 51 وما بعدها، السنة قبل التدوين، ص: 460.
(5) أبو هريرة، ص: 45 وما بعدها، السنة قبل التدوين، ص: 446.
(6) أضواء على السنة المحمدية، ص: 160 وما بعدها.
(7) دائر المعارف الإسلامية - مادة حديث، نقلاً عن السنة قبل التدوين، ص: 447.
(8) السنة قبل التدوين، ص: 447.

العلماء والقراء والقضاة إلى البلدان فأدوا الأمانة التي حملوها، كما أدى هؤلاء الأمانة في توجيه شئون الأمة، فكما لا نلوم خالد بن الوليد على قلة حديثه عن الرسول ﷺ لانشغاله بالفتوحات، لا نلوم أبا هريرة على كثرة حديثه لانشغاله بالعلم[1].

- **انصراف أبي هريرة إلى العلم والتعليم**، واحتياج الناس إليه لامتداد عمره، يجعل الموازنة بينه وبين غيره من الصحابة السابقين أو الخلفاء الراشدين غير صحيحة، بل هي خطأ كبير[2]، وكون أبي هريرة رضي الله عنه أكثر رواية من السيدة عائشة رضي الله عنها لأنها كانت تفتي الناس في دارها، وأما أبو هريرة، فقد اتخذ حلقة له في المسجد النبوي، كما كان أكثر احتكاكاً بالناس من السيدة أم المؤمنين عائشة بصفته رجلاً، كثير الغدو والرواح، وأضيف إلى هذا أن السيدة عائشة كان جل همها موجهاً نحو نساء المؤمنين، وكان يتعذر دخول كل إنسان عليها[3]. إن نظرة مجردة عن الهوى تدرك أن ما روي عن أبي هريرة من الأحاديث لا يثير العجب والدهشة، ولا يحتاج إلى هذا الشغب الذي اصطنعه أهل الأهواء وأعداء السنن، وإن ما رواه عن رسول الله ﷺ، سواء أسمعه منه أم من الصحابة لا يشك فيه لقصر صحبته، بل إن صحبته تحتمل أكثر من هذا، لأنها كانت في أعظم سنوات دولة الإسلام دعوة ونشاطاً، وتعليماً وتوجيهاً في عهد رسول الله ﷺ[4].

- **كثرة ملازمته للنبي ﷺ** فقد صحب النبي ﷺ أربع سنين، فعن أبي هريرة قال: إن الناس يقولون: أكثر أبو هريرة، ولولا آيتان في كتاب الله، ما حدثت حديثاً ثم يتلو: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ [البقرة: 159، 160]. إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق وإن إخواننا الأنصار كان يشغلهم العمل في أموالهم، وإن أبا هريرة كان يلزم رسول الله ﷺ بشبع بطنه ويحضر ما لا يحضرون ويحفظ ما لا يحفظون[5].

- **دعاء النبي ﷺ له في الحفظ**: فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله إني أسمع منك حديثاً كثيراً أنساه، قال: «**ابسط رداءك**». فبسطه، قال: فغرف بيديه ثم قال: «**ضمه**». فضممته فما نسيت شيئاً بعده[6].

- **كثرة تلامذته والناقلين عنه**: فكان عدد تلامذته قريباً من ثمانمائة[7].

---

(1) المصدر نفسه، ص: 450.
(2) المصدر نفسه، ص: 451.
(3) السنة قبل التدوين، ص: 451.
(4) المصدر نفسه، ص: 452.
(5) البخاري رقم (118) مسلم رقم (159).
(6) البخاري رقم (119) مسلم (رقم 160).
(7) حقبة من التاريخ، ص: 223، سير أعلام النبلاء (2 / 579).

- تأخر وفاته، فقد قيل 58هـ وقيل 59هـ. ثم إن هذه الأحاديث المنقولة عنه تنقسم إلى ما يلي:

● ما كان ضعيف السند لا يصح عن أبي هريرة.

● ما كان مكرراً.

● ما كان له أكثر من إسناد.

● ما رواه عن أكابر الصحابة كالعشرة وأمهات المؤمنين وغيرهم.

● ما كان موقوفاً عليه من كلامه[1]. وقد اتفق البخاري ومسلم على إخراج ثلاثمائة وستة وعشرين حديثاً، وانفرد البخاري بثلاثة وتسعين، وانفرد مسلم بثمانية وتسعين، ثم إن جُلَّ الأحاديث التي رواها أبو هريرة لم ينفرد بها عن رسول الله ﷺ بل شاركه في روايتها غيره من الصحابة[2]، وأما اعتراض الشيعة على مروياته، فإن جابر بن يزيد الجعفي روى عن محمد الباقر ﵀ سبعين ألف حديث وعن باقي الأئمة مائة وأربعين ألف حديث[3]، وروى أبان بن تغلب عن جعفر الصادق ﵀ ثلاثين ألف حديث[4]، وروى محمد بن مسلم عن الباقر ثلاثين ألف حديث، وعن الصادق ستة عشرة ألف حديث[5]. وهذا يبين تناقضهم.

وقد شهد لأبي هريرة الصحابة والتابعون وجهابذة العلم بقوة الحفظ وحضور الذاكرة[6]. فقد قال ابن عمر: يا أبا هريرة كنت ألزمنا لرسول الله ﷺ وأعلمنا بحديثه[7]، وقال الشافعي: أبو هريرة أحفظ من روى الحديث في دهره[8]. وقال الذهبي: . . سيد الحفاظ الأثبات[9]، وقال أيضاً: وأبو هريرة إليه المنتهى في حفظ ما سمعه من رسول الله ﷺ وأداته بحروفه[10].

وقد دافع الكثير من العلماء عن أبي هريرة وردوا الشبهات التي ألصقت به، ومن الكتب

(1) حقبة من التاريخ، ص: 223.
(2) المصدر نفسه.
(3) خاتمة وسائل الشيعة، ص: 151.
(4) رجال النجاشي، ص: 9.
(5) مشيخة الصدوق، ص: 6.
(6) موقف المدرسة العقلية من السيرة النبوية الأمين الصادق (2/ 74).
(7) سير أعلام النبلاء (2/ 603 - 604) رجاله ثقات إسناده صحيح.
(8) المصدر نفسه (2/ 599).
(9) المصدر نفسه (2/ 578).
(10) المصدر نفسه (2/ 619).

المعاصرة التي نسفت الأباطيل التي اتهم به أبو هريرة: العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب[1]، وموقف المدرسة العقلية من السنة النبوية[2].

د ـ بكاء أبي هريرة في مرض موته ووصية معاوية بورثته: لما حضر أبو هريرة الموت بكى فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: ما أبكي دنياكم هذه، ولكن أبكي على بعد سفري وقلّة زادي، وإني أصبحت في صعود مهبط على جنة ونار، لا أدري إلى أيُّهما يُؤخذ بي[3]. وجاء في رواية: وصلى عليه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان والي المدينة وفي القوم ابن عمر وأبو سعيد الخدري وخلق، وكانت وفاته في داره بالعقيق، فحمل إلى المدينة، فصُلِّيَ عليه ثم دفن بالبقيع ـ رحمه الله ورضي عنه ـ وكتب الوليد بن عتبة إلى معاوية بوفاة أبي هريرة، وكتب إليه معاوية أن انظر ورثته فأحسن إليهم، واصرف إليهم عشرة آلاف درهم، وأحسن جوارهم، واعمل إليهم معروفاً، فإنه كان ممن نصر عثمان، وكان معه في الدار[4].

ـ هل أراد معاوية أن ينقل منبر رسول الله من المدينة إلى الشام؟

ذكر الطبري في تاريخه في أحاديث عام 50هـ بأن معاوية أمر بمنبر رسول الله ﷺ، أن يحمل إلى الشام فحُرِّك فكسفت الشمس حتى رُئيت النجوم بادية يومئذ فأعظم الناس ذلك، فقال: لم أرد حمله، إنما خفت أن يكون قد أرِض[5]، فنظرت إليه، ثم كساه يومئذٍ[6]، وجاء في رواية أخرى: قال معاوية: إني رأيت أن منبر رسول الله وعصاه[7]، لا يتركان بالمدينة، وهم قتلة أمير المؤمنين عثمان وأعداؤه، فلما قدم طلب العصاه وهي عند سعد القرظ، فجاء أبو هريرة وجابر بن عبد الله، فقالا: يا أمير المؤمنين، نذكرك الله عزّ وجلّ أن تفعل هذا، فإن هذا لا يصح، تُخرج منبر رسول الله ﷺ من موضع وضعه، وتخرج عصاه من المدينة. فترك، ذلك معاوية، ولكن زاد في المنبر ستَّ درجات، واعتذر إلى الناس[8]، تحدثت الروايات السابقة عن القضايا التالية:

---

(1) العصرانيون، محمد حامد الناصر، ص: 115.

(2) موقف المدرسة العقلية (2/ 74) الأمين الصادق الأمين.

(3) البداية والنهاية (11/ 384).

(4) المصدر نفسه (11/ 389).

(5) أي : أصابته الأرضة وهي دويبة تأكل الخشب القاموس المحيط، ص: 820.

(6) تاريخ الطبري (6/ 155).

(7) كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخطب توكأ على عصا.

(8) البداية والنهاية (11/ 214) تاريخ الطبري (6/ 155).

1 - عزم معاوية ﷺ على نقل منبر رسول الله، وعصاه إلى الشام، فقد ذكره الزبير بن بكار[1]، واليعقوبي وابن الجوزي[2]، دون أن يشيروا إلى خبر العصا، أما ابن الأثير[3]، وابن كثير[4]، فقد أورد خبر المنبر والعصا، هذا وقال الدكتور خالد الغيث: ولم أقف على رواية صحيحة تؤكد مزاعم الواقدي هذا، فضلاً عن أن دين معاوية، وعدالته، وصحبته لرسول الله ﷺ تمنعه من حمل منبر رسول الله ﷺ من المدينة إلى الشام وهو يعلم قوله ﷺ: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة»[5]. هذا وقد أورد عبد الرزاق[6]، خبر قدوم معاوية ﷺ المدينة وزيادته درجات المنبر دون الإشارة إلى إرادة معاوية نقل المنبر إلى الشام، أو أخذ العصا، وزيادة معاوية ﷺ للمنبر وكسوته تعد من مناقب معاوية التي حاول بعض الأخباريين طمسها وتشويهها[7].

2 - خبر ربط كسوف الشمس بتحريك المنبر فقد ذكره عبد الرزاق والزبير بن بكار[8]، وابن الجوزي[9]، وابن الأثير[10]، وابن كثير[11]، بينما ذهب اليعقوبي[12] الشيعي إلى حدوث زلزلة عند تحريك المنبر، وهذا الخبر لم يرد بإسناد صحيح، هذا فضلاً عن أن كسوف الشمس على افتراض حدوثه، فإنه لم يكن نتيجة لتحريك المنبر ليس إلا، وقد حصل ما يشبه ذلك في عهد الرسول ﷺ، حيث أخرج البخاري من طريق المغيرة بن شعبة ﷺ قال: كسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ، يوم مات إبراهيم، فقال الناس: كسفت الشمس لموت إبراهيم، فقال رسول الله ﷺ: «إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد، ولا لحياته، فإذا رأيتم فصلوا، وادعوا الله»، وعن أبي بكرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد، ولكن الله تعالى يخوف بهما عباده»[13].

3 - اتهام معاوية ﷺ ببغض أهل المدينة (الأنصار) لكونهم قتلة عثمان بن عفان ﷺ، هذا الخبر أورده ابن الأثير[14]، وهو خبر ضعيف الإسناد[15]. وقد بينت موقف الصحابة من فتنة مقتل عثمان، وكيف أن كعب بن مالك الأنصاري حث الأنصار على نصرة عثمان ﷺ، وقال لهم: يا معشر الأنصار كونوا أنصار الله مرتين، فجاءت الأنصار عثمان، ووقفوا ببابه

---

(1) فتح الباري (2/ 463) مرويات خلافة معاوية، ص: 388.
(2) المنتظم (5/ 227).
(3) الكامل في التاريخ (2/ 482).
(4) البداية والنهاية (11/ 214).
(5) البخاري، صحيح البخاري مع الفتح (4/ 119).
(6) المصنف (3/ 183).
(7) مرويات خلافات معاوية في تاريخ الطبري، ص: 389.
(8) فتح الباري (2/ 464).
(9) المنتظم (5/ 228).
(10) الكامل (2/ 482).
(11) البداية والنهاية (11/ 214).
(12) البخاري: صحيح البخاري مع الفتح(2/ 612).
(13) البخاري، صحيح البخاري مع الفتح (2/ 612).
(14) الكامل (2/ 482).
(15) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 390.

ودخل زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه ، وقال له: هؤلاء الأنصار بالباب، إن شئت كنّا أنصار الله مرتين[1]. فرفض القتال، وقال: لا حاجة لي في ذلك، كفُّوا[2]. وأما زعمهم أن معاوية يبغض الأنصار رضي الله عنهم لكونهم قتلة عثمان رضي الله عنه ، فمردود بما ورد من حقيقة موقف الأنصار من عثمان رضي الله عنه ، كما أن تقريب معاوية للأنصار وتوليته إياهم في مناصب هامة وحساسة يرد هذه الفرية، ومن الشواهد على ذلك:

1 - توليته فضالة بن عبيد الأنصاري رضي الله عنه قضاء دمشق[3]، وتوليته إياه منصب أمير البحرية الإسلامية في مصر[4].

2 - تعيينه النعمان بن بشير الأنصاري رضي الله عنه أميراً على الكوفة[5].

3 - تعيينه مسلمة بن مخلد الأنصاري رضي الله عنه أميراً على مصر والمغرب معاً[6].

4 - تعيينه رويفع بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه أميراً على طرابلس[7].

رابعاً: مكة

1 - ولاية خالد بن العاص بن هشام رضي الله عنه :

ولى معاوية في سنة 42هـ . مكة خالد بن العاص بن هشام[8]، وبعد أن سمى الطبري من ولى مكة في سنة 42هـ وسنة 43هـ نجده بعد ذلك يسكت عن تسمية عمال مكة[9]، ويكتفي بعبارة: وكانت الولاة والعمال على الأمصار في هذه السنة من تقدم ذكره قبل[10]، أو عبارة نحوها، وقد تابعه كل من ابن الجوزي[11]، وابن الأثير[12].

---

(1) فتنة مقتل عثمان للغبان الملحق، ص: 200 إسناده حسن لغيره.
(2) مرويات خلافة معاوية، ص: 391 فتنة مقتل عثمان (1/ 162).
(3) الاستيعاب (3/ 1262)، الإصابة (5/ 371).
(4) رياض النفوس للمالكي (1/ 80).
(5) مرويات خلافة معاوية، ص: 391، نقلاً عن تاريخ الطبري.
(6) المصدر نفسه، ص: 392.
(7) الاستيعاب (2/ 504).
(8) تاريخ الطبري (6/ 87).
(9) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 278.
(10) مرويات خلافة معاوية، ص: 278 نقلاً عن تاريخ الطبري.
(11) المنتظم (5/ 193-206).
(12) الكامل في التاريخ نقلاً عن مرويات خلافة معاوية، ص: 278.

خامساً: ولاة الطائف:

لم يذكر الطبري أسماء ولاة الطائف، لكن وردت عنده رواية تفيد تولي بعض بني حرب الطائف، وفيما يلي نص هذه الرواية: وكان معاوية إذا أراد أن يولي رجلاً من بني حرب ولاه الطائف، فإن رأى منه خيراً وما يعجبه ولاه مكة معها، فإن أحسن الولاية وقام بما ولى قياماً حسناً جمع له معهما المدينة، فكان إذا ولى الطائف رجلاً قيل: هو أبي جاد[1]، فإذا ولاه مكة قيل: هو في القرآن، فإذا ولاه المدينة قيل: هو قد حذق[2]. أما بالنسبة لمن ولي الطائف من بني حرب فإن رواية الطبري تسكت عن تسميتهم، لكن ورد عند البلاذري ما يفيد تولية عنبسة ابن أبي سفيان بن حرب وعتبة بن أبي سفيان بن حرب على الطائف[3].

سادساً: مصر:

1 - ولاية عمرو بن العاص رضي الله عنه:

ولى معاوية عمرو بن العاص على مصر عام 41هـ[4]. وهذا من باب وضع الرجل المناسب في المكان المناسب، فعمرو فاتح مصر وواليها على عهد عمر وعثمان رضوان الله عليهم، وهو أقرب الناس لتولي هذه الولاية الهامة[5]، وقد تكاثرت الروايات الموضوعة والضعيفة في العلاقة بين عمرو ومعاوية رضي الله عنهما واشتمل على مغامز خفية ومعلنة على الرجلين، وتشير بعضها إلى أن معاوية قد أعطى ولاية مصر لعمرو بن العاص مكافأة له نظير وقوفه إلى جانبه أثناء الفتنة التي أعقبت استشهاد عثمان بن عفان رضي الله عنه، وهذا الأمر قد بينته في كتابي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

إن وقوف عمرو بن العاص مع معاوية في المطالبة بالتعجيل بتطبيق القصاص على قتلة عثمان لم يكن تضامناً من عمرو على شخص معاوية، بل كان نابعاً من اجتهاد عمرو الشخصي في هذه المسألة، حيث رأى رضي الله عنه الأخذ بالقَودَ من قتلة عثمان على الفور، فكان هذا الاجتهاد من عمرو بن العاص متطابقاً مع اجتهاد معاوية في القضية نفسها[6]. وقد كانت ولاية عمرو بن العاص على مصر ذات صلاحيات واسعة بسبب ما كان يتمتع به من مقدرة إدارية فائقة، وقابليات سياسية وعسكرية متميزة، فقد واصل فتوحات الشمال الأفريقي ونظم أمر العطاء والإعمار والبناء والزراعة والري بمصر[7] وقد بقي عمرو في ولاية مصر حتى وفاته عام43هـ.

---

(1) في أبي جاد: في أول الأمر.

(2) تاريخ الطبري، مرويات خلافات معاوية، ص: 279.

(3) أنساب الأشراف (4/ 39) مرويات خلافة معاوية، ص: 279.

(4) مرويات خلافة معاوية 281، 282.

(5) مرويات خلافة معاوية، ص: 282.

(6) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 282.

(7) مصر في العصر الأموي، عدنان أحمد الجنابي، ص: 50، 49.

● وصيته عند موته:

يروي ابن شماسة المهري وصية عمرو بن العاص لحظة احتضاره فيقول: حضرنا عمرو بن العاص وهو في سياقة الموت[1]، فبكى طويلاً وحول وجهه إلى الجدار، فجعل ابنه يقول: يا أبتاه أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا؟ أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا؟ قال فأقبل بوجهه فقال: إن أفضل ما نعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، إني كنت على أطباق ثلاث[2]: لقد رأيتني وما أحد أشد بغضاً لرسول الله ﷺ مني، ولا أحب إلي أن أكون قد استمكنت منه فقتلته، لو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار، فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك، فبسط يمينه، قال: فقبضت يدي، قال: «مالك يا عمرو؟» قال: قلت: أردت أن اشترط، قال: «تشترط بماذا؟» قلت: أن يغفر لي، قال: «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله[3]، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها؟ وأن الحج يهدم ما كان قبله؟» وما كان أحد أحب إلي من رسول الله ﷺ ولا أجل في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له، ولو سئلت أن أصفه، ما أطقت، لأني لم أكن أملأ عيني منه، ولو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة[4]. وجاء في رواية: ثم تلبست بعد ذلك بالسلطان وأشياء، فلا أدري عليّ أم لي، فإذا مت فلا تبكينَّ عليّ باكية، ولا تتبعني مادحاً ولا ناراً، وشُدُّوا عليّ إزاري فإني مخاصم، وشُنُّوا عليّ التراب شَنًّا فإن جنبي الأيمن ليس بأحق بالتراب من جنبي الأيسر، ولا تجعلُنَّ في قبري خشبة ولا حجراً، وإذا واريتموني فاقعدوا عندي قدر نحر جذور وتقطيعها، أستأنس بكم[5]. وقد روى مسلم هذا الحديث في صحيحه: كي أستأنس بكم لأنظر ماذا أراجع به رسل ربي عز وجل [6]، وفي رواية: أنه بعد هذا حوّل وجهه إلى الجدار وجعل يقول: اللهم أمرتنا فعصينا، ونهيتنا فما انتهينا، ولا يسعنا إلا عفوك. وفي رواية: أنه وضع يده على موضع الغُلِّ من عنقه، ورفع رأسه إلى السماء، وقال: اللهم لا قويٌّ فأنتصر، ولا بريء فأعتذر، ولا مستكبر بل مستغفر، لا إله إلا أنت، فلم يزل يُردّدها حتى مات رضي الله عنه [7].

2 - ولاية عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه :

كانت وفاة عمرو ليلة الفطر سنة ثلاث وأربعين، واستخلف ابنه عبد الله على صلاتها وخراجها[8] وبعد وصول خبر وفاة عمرو بن العاص إلى معاوية قام بتعيين أخيه عتبة على مصر

---

(1) في سياقة الموت : أي : حال حضوره.
(2) أي : على ثلاث أحوال.
(3) أي: يسقطه ويمحو أثره، وصايا وعظات قيلت آخر الحياة للحموي، ص: 70.
(4) مسلم (رقم 121).
(5) البداية والنهاية (11/ 161).
(6) مسلم (121).
(7) البداية والنهاية (11/ 161).
(8) ولاة مصر للكندي، ص: 57.

وذلك في شهر ذي القعدة من سنة ثلاث وأربعين[1]. أي أن ولاية عبد الله بن عمرو على مصر لم تزد على شهرين وهي الفترة التي استغرقها وصول خبر وفاة عمرو إلى معاوية، واتخاذه لقرار تعيين الوالي الجديد[2]. وقد وصف الذهبي عبد الله بن عمرو بقوله: الإمام الحبر العابد، صاحب رسول الله وابن صاحبه، أبو محمد وقيل: أبو عبد الرحمن... وليس أبوه أكبر منه إلا بإحدى عشرة سنة أو نحوها، وقد أسلم قبل أبيه فيما بلغنا ويقال: كان اسمه العاص، فلما أسلم، غيره النبي ﷺ بعبد الله[3]، وقد ورث عبد الله من أبيه قناطير مقنطرة من الذهب فكان من ملوك الصحابة[4].

3 - ولاية عتبة بن أبي سفيان:

ولد على عهد رسول الله ﷺ، ولاه عمر بن الخطاب ﷺ الطائف وصدقاتها، ثم ولاه معاوية مصر حين مات عمرو بن العاص، وكان فصيحاً خطيباً، يقال: إنه لم يكن في بني أمية أخطب منه. خطب أهل مصر يوماً وهو والٍ عليها فقال: يا أهل مصر خفّ على ألستكم مدح الحق ولا تأتونه، وذم الباطل وأنتم تفعلونه، كالحمار يحمل أسفاراً يثقلُه حملها، ولا ينفعه علمها وإني لا أداوي داءكم إلّا بالسيف، ولا أبلغ السيف ما كفاني السوط، وأبلغ السوط ما صلحتم بالدّرة، وأبطيء عن الأولى إن لم تسرعوا إلى الآخرة، فألزموا ما ألزمكم الله لنا تستوجبوا ما فرض الله لكم علينا. وهذا يوم ليس فيه عقاب، ولا بعده عتاب[5] وجاء في رواية: ... لنا عليكم السمع ولكم علينا العدل ناداه المصريون من حنيات المسجد: سمعاً، سمعاً، فناداهم: عدلاً عدلاً[6]، وقد قام عقبة ببناء دار الإمارة بعد أن خرج مرابطاً في الإسكندرية[7].

وكان عتبة قد اتخذ لأولاده مؤدباً، يعلمهم ويربيهم، فقد عهد لعبد الصمد بن عبد الأعلى ليكون مؤدباً لولده[8]، ووجه مؤدب أولاده بتتبع أساليب التشويق وتحبيب دراسة كتاب الله إلى نفوسهم فقال له: علمهم كتاب الله، ولا تكرههم عليه فيملوه، ولا تتركهم منه فيهجروه[9]، وجاء في رواية: ليكن أول ما تبدأ به من إصلاحك بني إصلاحك نفسك، فإن أعينهم معقودة

(1) المصدر نفسه، ص: 57.
(2) مرويات خلافة معاوية، ص: 286.
(3) سير أعلام النبلاء (3/ 80).
(4) المصدر نفسه (3/ 91).
(5) الاستيعاب رقم 1923.
(6) النجوم الزاهرة (1/ 124)، مصر في العصر الأموي 82.
(7) مصر في العصر الأموي، ص: 82، النجوم الزاهرة (1/ 34).
(8) مكانة المعلم في التراث العربي للزبيدي، ص: 106.
(9) البيان والتبيين للجاحظ (2/ 73).

بعينيك فالحسن عندهم ما استحسنت، والقبح عندهم ما استقبحت، علمهم كتاب الله ولا تكرههم عليه فيملوه ولا تتركهم منه فيهجروه، ثم روهم من الشعر أعفه، ومن الحديث أشرفه، ولا تخرجهم من علم إلى غيره حتى يحكموه فإن ازدحام الكلام في السمع مضلة للفهم، وعلمهم سير الحكماء وأخلاق الأدباء وجنبهم محادثة النساء، وتهددهم بي، وأدبهم دوني، وكن لهم كالطبيب الذي لا يعجل بالدواء حتى يعرف الداء، ولا تتكل على عذري، فإني قد اتكلت على كفايتك، وزد في تأديبهم أزدك في بري إن شاء الله[1]، يتضح من هذه الوصية حرص الولاة الأمويين على تعليم أبنائهم القرآن الكريم والحديث والشعر وغيرها إضافة إلى التأكيد على الجانب التربوي وتزويدهم بالآداب والأخلاق الحسنة، كما أنهم يمنحون المؤدبين صلاحيات واسعة، ويكرمونهم[2].

4 - ولاية عقبة بن عامر الجهني ﷺ: 45هـ ـ 47هـ

أغفل الطبري ذكر ولاية عقبة بن عامر الجهني على مصر، وتابعه ابن الجوزي، وابن الأثير وابن كثير، مع أن ولايته على مصر قد أثبتتها المصادر التاريخية المختصة بالديار المصرية[3]، وهي مقدمة على غيرها في هذا المقام[4]، كما أثبتها له ابن عبد البر[5]، وابن حجر[6]، وكان عالماً مقرئاً، فصيحاً فقيهاً فرضياً، شاعراً كبير الشأن، وكان من أحسن الناس صوتاً بالقرآن فقال له عمر بن الخطاب: اعرض عليّ فقرأ، فبكى عمر، وكانت له صحبة وبايع رسول الله على الهجرة وأقام معه وكان من أهل الصفة وكان من الرماة المذكورين، مات سنة 58هـ[7]

5 - ولاية مسلمة بن مُخلّد الأنصاري 47هـ -62هـ:

هو مسلمة بن مُخلّد الأنصاري الخزرجي، الأمير، نائب مصر لمَعاوية، يكنى أبا معن وقيل: أبو سعيد، وقيل: أبو معاوية، له صحبة ولا صحبة لأبيه[8]. قال مجاهد: صليت خلف مسلمة بن مُخلدّ، فقرأ سورة البقرة، فما ترك واواً ولا ألفاً[9]. قال الليث: عزل عقبة بن عامر عن مصر في سنة سبع وأربعين فوليها مسلمة حتى مات زمن يزيد[10]وقد توفي سنة 62هـ

(1) عيون الأخبار (2/ 5) (2/ 66). التبيان والتبيين (2/ 73، 74).
(2) التعليم في العصر الأموي، ص: 66 السبتي.
(3) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 287.
(4) مرويات خلافة معاوية، ص: 287 كولاة مصر، والنجوم الزاهرة.
(5) الاستيعاب، رقم الترجمة (1898).
(6) الإصابة (4/ 521).
(7) سير أعلام النبلاء (2/ 468).
(8) المصدر نفسه، (3/ 424).
(9) المصدر نفسه (3/ 425).
(10) المصدر نفسه (3/ 425).

في ذي القعدة بالإسكندرية[1]، وكانت له جهود في الفتوحات بالشمال الأفريقي يأتي ذكرها بإذن الله تعالى، وكان المغرب كله تابعاً له[2]. هذه هي أهم الولايات والولاة في عهد معاوية رضي الله عنه ، ويمكن تلخيص صلاحيات الولاة بالولايات على الإجمال، كتعيين الموظفين، وتشكيل مجالس شورى، إنشاء الجيوش وتجهيزها بالنسبة للولايات التي قريبة من حركة الفتح الإسلامي، كمصر والبصرة، والحفاظ على الأمن الداخلي، والإشراف على الجهاز القضائي بالولاية، والنفقات المالية، ومراقبة الأوضاع بالولاية وغير ذلك من الصلاحيات.



(1) المصدر نفسه (3/ 426).

(2) مصر في العصر الأموي، ص: 83.

الفصل الرابع

الفتوحات في عهد معاوية رضي الله عنه

نريد أن نسجل حركة الانسياح الإسلامي في الأرض، التي تمت في عهد بني أمية منذ عهد معاوية رضي الله عنه، لندحض كل وهم بأن الإسلام قد انتهى بعد عهد الخلفاء الراشدين، فحركة الفتح الإسلامي التي قامت في عهد الخلافة الراشدة وبني أمية ليست مجرد توسع في الأرض، ولا يجوز النظر إليها بهذا الاعتبار، إنما هي حركة أكبر حركة «هداية» للناس في التاريخ وأكبر حركة إخراج للناس من الظلمات إلى النور.

وقد يبدو هذا الكلام في حس المثقفين لأول وهلة مجرد تشابه مع دعوى كل «دولة عظمى» أنها نشرت الحضارة في الأرض، وأن حركتها التوسعية كانت من أجل نشر تلك الحضارة، فلننظر إذن في تاريخ «الإمبراطوريات» في القديم والحديث: الإمبراطورية الفرعونية، والإمبراطورية الأشورية، الإمبراطورية الفينيقية، والرومانية، والفارسية، والهندية، والصينية، والبريطانية، والفرنسية، والأمريكية، والروسية،... إلى آخر تلك الإمبراطوريات الجاهلية التي يعج بها تاريخ الأرض، كيف قامت أولاً؟ وما نشرت في الأرض؟، فأما قيامها على التسلط بالقوة، وقهر الآخرين وإذلالهم، وإخضاعهم لسيطرة الدولة الأم، وتحويلهم خدماً لتلك الدولة الأم، يمدونهم بالرجال المقاتلين، ويمدونهم بمختلف الخيرات، لتنتفش هي وتشبع وتتخم على حساب الجائعين المقهورين الأذلاء، فهذا أمر لا يحتمل المراء[1]، وأما الذي نشرته في الأرض فلا شك أنها نشرت بعض الخير، إلى جانبه كثيراً من الفساد، لأن حياتها هي ذاتها - وهي لا تهتدي بمنهج رباني - لا تشتمل إلا على بعض الخير والكثير من الفساد، وكل إناء ينضح بما فيه، وفاقد الشيء لا يعطيه، وأما الحضارة الغربية اليوم، ففظائع الاستعمار الذي صاحب تلك الحضارة من احتلال أراضي الشعوب ونهب خيراتها وإذلال أهلها خير شاهد على فسادها، كما أن آخر إفرازات هذه الحضارة الذي يسمى النظام العالمي الجديد، إن هو إلا نوع جديد من الطغيان تمارسه الدول القوية على الدول الضعيفة، ومن أبرز مآثره التخطيط للتحكم في الدول المنتجة للبترول لحساب الدول الغربية القوية المتحكمة، وذلك باستنزاف هذا البترول في مدة أقصر، وطرحه

(1) كيف نكتب التاريخ الإسلامي، ص: 118، 119.

في الأسواق بسعر أقل، لكي تزداد الدول الطاغية غنى ويزداد الفقراء فقراً وذلاً وضياعاً باسم «النظام العالمي الجديد». ومآثره كذلك إمداد إسرائيل بكل وسائل العدوان وحرمان الدول العربية من إمكانية صد العدوان.

وأما أصحاب الرسالات السماوية السابقة من اليهود والنصارى فماذا نشروا في الأرض؟ فأما اليهود فقد حولوا دينهم إلى عصبية خاصة ببني إسرائيل، لا يحبون نشره في الأرض لكي يبقى الإله خالصاً لهم لا يشاركهم فيه أحد من الناس، وأما النصارى فمنذ بولس وهم يسعون إلى نشر دينهم على نطاق واسع فأي شيء نشروه؟ لقد نشروا باديء ذي بدء ديناً وثنياً بدلاً من الدين الرباني الذي أنزله الله على عيسى ابن مريم، ديناً يعبد فيه عيسى وروح القدس جبريل عليه السلام مع الله، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: 72]. وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴿٧٣﴾﴾ [المائدة: 73]. وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: 79]. ونشروا ديناً يدعو إلى الرهبانية، وإهمال الحياة الدنيا واحتقار الجسد ودوافعه، فنشأ عنه تعطيل دفعة الحياة وإهمال عمارة الأرض، ثم نشأ عنه رد فعل أسوأ: انكباب على لذائذ الجسد وماديات الحياة[1]، قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: 27]، ونشأ مع ذلك الدين نظام كهنوتي يتمثل في الكنيسة ورجالها على رأسهم البابا يمارس ألواناً من الطغيان البشع في جميع نواحي الحياة، ويعادي الفكر ويحجر على العقل، ويضطهد العلماء ويمنعهم من البحث العلمي التجريبي أو النظري، فتأخرت الحياة في كل جانب، ثم حدث رد فعل أسوأ، تمثل في الإلحاد وإقامة الحياة على مبعدة من الدين، بل في عداء مع الدين، وهكذا تحولت رسالة السماء على يد الكنيسة إلى غير ما نزلت من أجله، ونشرت الفساد بدلاً من الإصلاح، سواء في الفترة التي كانت تمارس سلطانها على الناس، أو في الفترة انقلب فيها الناس على سلطانهم ورفضوا الخضوع للدين[2].

وفي مقابل ذلك كان الانسياح الإسلامي في الأرض فريداً في التاريخ، شيئاً غير التوسع «الإمبراطوري» الذي مارسته الجاهليات القديمة والحديثة، وغير الطغيان المفسد الذي مارسته النصرانية المحرفة وهي تتوسع في الأرض، في تلك الحركة الفريدة في التاريخ كان المسلمون ينشرون الهدى في مكان الضلال، والنور في مكان الظلام، والعبودية الصحيحة في مكان العبوديات الزائفة للحكام والكهنة والأوثان، ويحررون المستعبدين في الأرض،

---

(1) كيف نكتب التاريخ الإسلامي، ص: 119. (2) المصدر نفسه، ص: 120.

ويردون إليهم إنسانيتهم الضائعة، ويرفعونهم إلى المكان اللائق بالإنسان، وكانوا ينشرون قيماً من العدل والأخوة والتسامح والتكافل لا عهد للبشرية بها من قبل ولا رأتها من بعد في غير الإسلام، وينشرون حضارة حقيقية شاملة شامخة، لا يستأثرون بها لأنفسهم، بل يفتحون أبوابها لكل مسلم في الأرض، بل يستظل بظلها النصارى في الأندلس وشرق أوربا، واليهود في مختلف بلاد العالم الإسلامي، والوثنيون عباد البقر في الهند، وكل من أراد أن يتعلم أو يمارس الحياة دون عدوان[1].

لم ينهب المسلمون خيرات البلاد المفتوحة، ولم يستذلوها ليتمتعوا بالسلطان، ولم يحافظوا عليها متأخرة متدنية ليبرروا استمرار سيادتهم عليها واستعلاءهم على أهلها... إنما دعوهم أولاً إلى الخير وهو الإسلام ـ فإن استجابوا فهم إخوة في الدين. وإن أبوا طلبوا منهم جزية تدل على عدم مقاومتهم للخير المنزل من السماء أن يصل إلى قلوب الناس صافياً بلا غش، فإن أبوا هذا وذاك فعندئذ يقع القتال، لا لإكراه أحد على اعتناق الإسلام، إنما لإزالة مراكز القوى التي تمنع الحق أن يصل إلى الناس على حقيقته.. فإذا أزيلت مراكز الطغيان، وزال تأثيرها على النفوس، ترك الناس أحراراً في ظل الإسلام، يعتنقون ما يشاءون[2].

إن حركة الفتح الإسلامي: دوافعها وخصائصها، وآثارها الواقعة لهي فصل أساسي في كتابة التاريخ الإسلامي، لا بد أن يعالج باستفاضة لدحض مزاعم المستشرقين ومن يتتلمذ عليهم من بعض المؤرخين العرب وغيرهم.. وإن كنا نورده هنا من زاوية معينة: هي دلالتها على مدى عمق الوجود الإسلامي في نفوس الأمة التي تتحرك به، ولن تتحرك به أمة هذه الحركة الواسعة السريعة الفعالة المؤثرة وهي نفسها خاوية منه أو غير ممتلئة به حتى أعماقها[3].

وأول ما يسقط من دعاوى المغرضين في هذا الشأن ـ لفرط هشاشته ـ قول من قال إن الدوافع الاقتصادية هي التي دفعت حركة الفتح الإسلامي! إن الذي تحركه الدوافع الاقتصادية لا يخرج ليدعو الناس ـ أول ما يدعوهم ـ إلى الإسلام، فإن أسلموا ألقى سلاحه وعانقهم كما يعانق الأخ أخاه، وأخذ يعلمهم تعاليم الإسلام ليشاركوه في الخير الرباني الذي هداه الله إليه، فأصحاب هؤلاء الفرية يفترون الكذب على التاريخ[4]، وتسقط الدعاوى الأخرى تباعاً وتبقى حقيقة مهمة هي أن هذه الحركة لا يمكن أن تأخذ صورتها التي أخذتها بالفعل، إلا أن تكون صادرة عن أمة ممتلئة بهذا الدين حتى أعماقها، حريصة عليه، مؤمنة به، راغبة فيه، راغبة في نشره في آفاق الأرض، فالقوة وحدها لا تفسر ما حدث في هذه الحركة من العجائب، فكم استخدمت القوى الطاغية في الأرض قوتها للتوسع في الأرض، فلم تصنع ما صنعته الحركة الإسلامية.

---

(1) كيف نكتب التاريخ الإسلامي، ص: 120.

(2) المصدر نفسه، ص: 121.

(3) المصدر نفسه، ص: 121.

(4) المصدر نفسه، ص: 121.

إن السيف، يمكن أن يفتح الأرض، ولكنه لا يفتح القلوب، والذي حدث في حركة الفتح الإسلامي لم يكن مجرد التوسع في الأرض، إنما كان فتح القلوب لتعتنق الإسلام، وكان ـ في كثير من الأقطار - اتخاذ لغة الدين لغة رسمية، ونسيان الشعوب المفتوحة ما كانت تستعمله من قبل من اللغات، حتى الذين بقوا على دينهم بغير إكراه لو لم يكن الفاتحون مسلمين حقاً، بمعنى الإيمان بهذا، وممارسته في عالم الواقع والتمكن منه عقيدة وسلوكاً وحركة، ما حدثت هذه العجائب في الفتح الإسلامي.. وأمر آخر يتعلق بهذه القوة ذاتها إنها في غالب الأحيان لم تكن هي الأكبر عدداً وعدة وخبرة حربية...، إنما كان العدد والعدة والخبرة في الجانب الآخر، جانب الذين انهزموا أمام قوة المسلمين، فلو لم يكن هناك عنصر آخر غير مادي ـ في جانب الفاتحين - ما تمكنوا من التغلب على أعدائهم الذين يفوقونهم في فنون الحرب، كما يفوقونهم في العدد والعدة سواء، ذلك العنصر هو العقيدة الحية التي تملأ القلوب، وهذه هي الدلالة التي نركز عليها هنا في وجه الدعاوى التي تقول إن انحرافات بني أمية قضت على هذا الدين وهو بعد في المهد، وتلك نقطة ينبغي أن نقف عندها طويلاً حتى نقوّمها في نفوس الدارسين، ينبغي أن نلغي من حسهم ذلك الإيحاء الخبيث بأن الإسلام قد انتهى بعد الخلافة الراشدة ولم يعد له وجود، ويكون ذلك بعرض الواقع الإسلامي بأمانة كاملة ودقة كذلك.. وسيتبين لنا بالحساب - حساب مجموع الانحرافات ومجموع الاستقامات - أن الحصيلة المتبقية ضخمة جداً رغم وجود الانحراف. ويكون هذا بالتالي فرصة سانحة لتقدير عظمة هذا الدين وضخامته، وأصالة جذوره في التربة وتعمقها، بحيث تبقى هذه الحصيلة الضخمة وتبقى تلك الحيوية، التي تسعى لنشر الدين في الأرض بكل الإصرار والتدفق والحماسة التي قام بها المسلمون في العهد الأموي بالذات[1]. وأما ما حدث من الهبوط عن مستوى الذروة فقد حدث ولا شك على درجات متفاوتة في بعض أفراد المجتمع، أو قل إن شئت في كثير منهم، وهذا لا يعتبر في ذاته انحرافاً إنما هو الأمر المتوقع بعد غياب شخص الرسول ﷺ عن ذلك المجتمع، وبعد زوال أثر النشأة الجديدة من نفوس الناس، فنحن الآن لسنا في العهد الذي شهد التحول العظيم من الجاهلية إلى الإسلام، إنما العصر الذي يليه، ولكن فلنذكر جيداً تزكية رسول الله ﷺ لذلك الجيل من الناس: «خيركم قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»[2]. فنحن إذن ما زلنا مع القرون المفضلة، وليس بعد شهادة رسول الله، ﷺ شهادة بشر[3]، صحيح أننا الآن مع المستوى العادي للإسلام، ولكنا ذلك المستوى رفيع في ذاته، وإن لم يكن على مستوى الذروة التي وصل إليها الجيل الفريد، وأنه يحقق للناس من

---

(1) كيف نكتب التاريخ الإسلامي، ص: 122.
(2) البخاري.
(3) كيف نكتب التاريخ الإسلامي، ص: 123.

الخير حين يلتزمون به ما لا يحققه نظام آخر[1]، والحق أنه قد بقي في مجتمع بني أمية أفراد على المستوى الرائع، بل لم يخل جيل من أجيال المسلمين كلها ـ حتى في عصور الانحطاط ـ من نماذج متفرقة على ذلك المستوى الرفيع، إنما الملحوظة أن كثافة تلك النماذج في مجتمع الذروة كانت فذة بصورة غير عادية، ثم ظلت تخف تدريجياً مع مرور الزمان[2].

إن استئناف حركة الجهاد في عهد معاوية لم يكن بدعة على سياسته، فقد استمد كثيراً من الشهرة العريضة والمكانة العريضة من كفايته كوال على بلاد الشام وهي جبهة واسعة من جبهات الجهاد، ومن شهرته كمجاهد موفق في البر والبحر منذ عهد أبي بكر وعمر وعثمان ﷺ، وكان له فتوحاته الكبرى في الساحل الشمالي للشام، كما أن له الفضل ـ بعد الله ـ في تأسيس البحرية الإسلامية وهزيمة الروم في البحر وانتزاع السيادة منهم لأول مرة في تاريخ المسلمين[3]، فالجهاد في سبيل الله أصل في حياة المسلمين في عهد الدولة الأموية، ولم تكن الغنائم هي الدافع للقيادة الإسلامية الرئيسي نحو الفتح والجهاد، وإن وجد لدى بعض الأفراد، وهؤلاء لا يخلو منهم جيش حتى على عهد رسول الله ﷺ ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ [آل عمران: 152] وغيرها ولكن هذا بالطبع لا يمثل وجهة نظر المسلمين في فتوحاتهم، ولا يمثل القيادة الفكرية التي كان يتبناها الخليفة والقادة وينفذها الجند، كما أنه لا يمثل وجهة نظر الأمة ورأيها العام[4]، ومما يدل على ذلك مشاركة كبار الصحابة في ذلك الوقت فيها وحثهم المسلمين على الجهاد في سبيل الله، وحوادث الجهاد وجهود الأمويين على جبهات القتال توضح ذلك: فجبهة الروم مثلاً – وهي التي كانت مثار الشجاعة ومرتع البطولة – ما كانت تدر الربح الكثير بل كان بيت المال يئن منها، لأن حملاتها ما كانت تنتهي إلى تقدم[5]، خاصة إذا ذكرنا الحملات الثلاثة الكبرى التي توجهت إلى القسطنطينية وتكلفت نفقات باهظة[6].

لقد أعطى المجاهدون المسلمون في العهد الأموي صوراً رائعة للتضحية والبطولة والتجرد وإخلاص النية لله في جهادهم، سواء كانوا من القادة أو الأمراء أو من عامة الجند، أو من جماعات العلماء والزاهدين والربانيين الذين فهموا عبادة الجهاد، ومارسوا ذلك على نحو مثير للإعجاب ودافع إلى التأسي، وقد توزعت صور الإخلاص والتضحية هذه على جميع جبهات القتال، وفي جميع مراحل الجهاد، مما يدل دلالة واضحة على عمق التوجه الإسلامي للفتوحات في العهد الأموي، وينفي الغبش الذي يثيره المنحرفون عن بني أمية على

(1) المصدر نفسه، ص: 123.
(2) المصدر نفسه، ص: 123.
(3) الدولة الأموية، حمدي شاهين، ص: 239.
(4) الفتوحات بين دوافعها الإسلامية ودعاوى المستشرقين، ص: 78.
(5) الدولة الأموية، يوسف العشي، ص: 346.
(6) المصدر نفسه.

أنصع منجزاتهم وأحراها بالفخر والإعزاز، ومما لاشك فيه: إسلامية الفتوح في العهد الأموي[1]، وقد كانت الحصيلة النهائية والحصيلة التاريخية لحركة الفتوح لذلك العصر، امتداد عالم الإسلام إلى آفاق بعيدة وكسب ـ عبر امتداده هذا ـ الأرض والإنسان، كما أنه حمى وعزّز في الوقت نفسه منجزات الموجة الأولى في حركة الفتح التي قادها وخطط لها الخلفاء الراشدون، فالموجة الثانية لحركة الفتوح هي التي بدأت في عهد معاوية نفسه واستمرت فيما بعد لكي تبلغ أقصى اتساعها في عهد الوليد[2].

المبحث الأول

حركة الجهاد ضد الدولة البيزنطية

كان معاوية ﷺ يرى أن الخطر الأكبر من وجهة نظره: الدولة البيزنطية، وإن كانت قد خسرت أهم أقاليمها في الشرق ـ الشام ومصر ـ إلا أن جسم الدولة لا زال سليماً لم يمس، فعاصمتها باقية، وممتلكاتها في آسيا الصغرى وأوربا وشمال إفريقيا لا زالت شاسعة وإمكانياتها كبيرة، وقدرتها على المقاومة هائلة، وهي لم تكف بعد عن مناوأة المسلمين، وباختصار فهي العدو الرئيسي والخطر الأكبر الماثل أمام المسلمين، وكان معاوية رجل المرحلة وقادراً على فهم وتقدير هذا الخطر، وعلى مواجهته، أيضاً، فقد كان موجوداً بالشام منذ مطلع الفتوحات في عهد أبي بكر الصديق، وأصبح والياً عليها ولمدة عشرين سنة تقريباً، وهو يشكل مع مصر خط المواجهة الرئيسي مع الدولة البيزنطية، فطول إقامة معاوية ﷺ بالشام، أكسبته خبرة واسعة بأحوال البيزنطيين وسياستهم وأهدافهم مما أعانه على أن يعرف كيف يتعامل معهم، لكل ذلك فليس غريباً أن نرى معاوية يولي حدوده مع الدولة البيزنطية وعلاقاته معها جل اهتمامه ويرسم لنفسه نحوها سياسة واضحة ثابتة سار عليها هو وخلفاؤه من الأمويين إلى نهاية دولتهم، وقد كان من أهدافه الرئيسة الاستيلاء على عاصمتهم القسطنطينية[3].

أولاً: معاوية والقسطنطينية:

بعد أن استقر الأمر لمعاوية بن أبي سفيان سنة 41هـ خليفة للمسلمين باشر في تطوير الأسطول البحري ليكون قادراً على دك معاقل القسطنطينية عاصمة الروم ومبعث العدوان والخطر الدائم ضد المسلمين، فبعد أن قضى معاوية على حركات المردة أو الجراجمة الذين

---

(1) الدولة الأموية المفترى عليها، ص:

(2) في التأصيل الإسلامي للتاريخ، ص: 92، 93، عماد الدين خليل.

(3) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 241.

استخدمهم الروم وسيلة لرصد حركات الدولة الإسلامية ونقاط ضعفها وإبلاغ الروم عنها متخذين من مرتفعات طوروس وجبل اللكام مقراً لهم[1]، بدأ الخليفة نشاطه البحري بإرسال حملات بحرية استطلاعية منها حملة فضالة بن عبيد الأنصاري[2]، للوقوف على تحركات الروم وجلب المعلومات الدقيقة عنهم لمنعهم من استخدام جزر قبرص، وأرواد[3]، ورودس ذوات الخدمة التعبوية والعسكرية في عملياتهم ضد الأسطول الإسلامي، وقد باشر أعماله الاستطلاعية بإحدى الشواتي وهي شاتية بسر بن أبي أرطأة في البحر عام 43هـ[4] وأعقبها بشاتية مالك بن عبد الله بأرض الروم سنة 46هـ وصائفة عبد الله بن قيس الفزاري بحراً وحملة عقبة بن عامر الجهني بأهل مصر في البحر سنة 48هـ، وصائفة عبد الله كرز البجلي، وحملة عبد الله بن يزيد بن شجر الرهاوي، وشاتيته بأهل الشام في سنة 49هـ[5]، وكان نظام الشواتي والصوائف مستمراً. فقد وضع معاوية أمامه هدفاً واضحاً وهو محاولة الضغط على الدولة البيزنطية من خلال الضغط على عاصمتها القسطنطينية تمهيداً للاستيلاء عليها، ولعل معاوية رضي الله عنه كان يرمي إلى إسقاط الدولة البيزنطية ذاتها بالاستيلاء على عاصمتها، فهو يعلم أن هذه العاصمة العتيدة هي مركز أعصاب الدولة ومستقر الأموال والرجال، وفيها العقول المفكرة، فإذا سقطت في يده فإن هذا سيؤدي إلى شلل كامل في الدولة كلها، وأمامه تجربة المسلمين مع الفرس، فبعد سقوط المدائن عاصمتهم في أيديهم أصابهم الارتباك ولاحقهم الفشل، ولم تقم لهم قائمة وزالت دولتهم، فإذا استطاع إسقاط عاصمة البيزنطيين فسيكون ذلك نذيراً بإسقاط الدولة، ويستريح من خصم عنيد وعدو رئيسي، لذلك واصل ضغطه ومحاولاته لتحقيق هدفه، وليس من المبالغة القول إن الدولة البيزنطية ظلت على قيد الحياة مدة تقرب من ثمانية قرون، وهي مدينة ببقائها لعاصمتها القسطنطينية، فمناعة المدينة وصمودها أمام محاولات الأمويين المستمرة لفتحها، حال دون ذلك وبالتالي حال دون سقوط الدولة، والدليل على هذا أنه عندما استطاع السلطان العثماني محمد الفاتح فتح القسطنطينية والاستيلاء عليها في سنة 857هـ التاسع والعشرين من مايو سنة 1453م كان إيذاناً بسقوط الدولة البيزنطية وزوالها من الوجود[6].

---

(1) العلاقات العربية البيزنطية في العصر الأموي، ص: 51.
(2) المصدر نفسه، ص: 51 نقلاً عن الأمويين والبيزنطيين.
(3) أرواد : جزيرة قرب القسطنطينية، ياقوت الحموي، معجم البلدان (1/ 207).
(4) مواقف حاسمة، ص: 31، محمد عبد الله عنان.
(5) النجوم الزاهرة (1/ 134) العلاقات العربية البيزنطية في العصر الأموي، ص: 51.
(6) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 244.

ثانياً: التخطيط الاستراتيجي عند معاوية للاستيلاء على القسطنطينية:

حرص معاوية ﷺ أن يكون زمام المبادرة دائماً في يده، لأنها هي التي تمد جزر شرق البحر المتوسط بالقوات والعتاد وتشجع أهلها على شن الغارات على ساحل مصر والشام، وقد سار في تحقيق هذا الهدف في عدة اتجاهات:

1 - الاهتمام بدور صناعة السفن في مصر والشام، واختيار أمهر الصناع للعمل فيها والإغداق عليهم بالأجور والهبات حتى يبذلوا قصارى جهدهم بالعمل[1]، فقد أدرك معاوية ﷺ بحسه العسكري وفكره العبقري، أن معارك المسلمين مع الروم، ستعتمد أساساً على الأسطول البحري، وزاد هذا الإحساس عمقاً في قلب معاوية ونفسه تكتل الروم وإعدادهم أكثر من خمسمائة سفينة في معركة ذات الصواري لقهر الأسطول الإسلامي، ومع أن الروم باءوا بفشل ذريع في هذه المعركة، إلا أنهم لم يكفوا عن الإعداد ولم ينتهوا عن تجميع قواتهم لمواجهة قوة المسلمين في البحر، لقد كانوا يظنون أن قوة المسلمين البحرية يمكن القضاء عليها لأنها لا زالت في دور التكوين، ولكنهم فوجئوا بهزيمتهم المنكرة في ذات الصواري، فتوقعوا بعد ذلك أن تكون المعركة القادمة على أسوار العاصمة القسطنطينية فراحوا يستعدون لذلك[2]، وقد أدى التعاون بين مصر والشام في صناعات السفن إلى الوصول إلى نتائج ممتازة، ففي الشام كانت تتوفر أخشاب الصنوبر القوي والبلوط والعرعر التي تصلح لبناء السفن، وفي مصر كانت توجد الأخشاب التي تصلح لعمل الصواري، وضلوع جوانب السفن، وخشب الجميز واللبخ والدوم التي تصلح لصناعة المجاديف[3]، وكذلك استغل معاوية معدن الحديد الذي كان متوافراً في مصر والشام واليمن لعمل المسامير والمراسي والخطاطيف والفؤوس، كما كان يتوافر في مصر مادة القطران اللازمة لقلفطة السفن، ونبات الدقس الذي كانت تصنع منه الحبال، وباختصار فقد أدى التعاون المصري الشامي إلى ازدهار البحرية الإسلامية التي ازدادت أهميتها بعد أن أمر معاوية عامله على مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري ببناء دار لصناعة السفن في جزيرة الروضة عام 54هـ[4]. وذلك على أثر غارة شنها البيزنطيون على مصر[5].

2 - تقوية الثغور البحرية في مصر والشام، فقد آثر أن يحصن المدن الساحلية ويزودها بالقوات المجاهدة بما يجعلها قواعد تنقل منها الجنود بحراً إلى أي مكان يشاء، ووضع لهذه المدن نظاماً عرف بالرباط، وهو ما يقصد به الأماكن التي تتجمع بها الجند والركبان استعداداً للقيام بحملة على أرض العدو، واعتني بهذا النظام حتى أصبح جزءاً مرتبطاً أشد الارتباط

---

(1) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 245.
(2) الأمويون، محمد سيد الوكيل (1/ 154).
(3) تاريخ الدولة العربية، ص: 312.
(4) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 246.
(5) كتاب الولاة والقضاة للكندي، ص: 38.

بالجهاد، إذ اجتذب الرباط إليه كل الأتقياء المتحمسين العاملين على إعزاز الإسلام ونصرته[1]، وتدرج معاوية ﷺ في تدعيم هذا النظام على نحو ما اتبعه في كل أعماله التي اتسمت بالدقة والابتعاد عن الارتجال والاندفاع، فأعد الرباط لتكون حصوناً يتجمع فيها الجند للدفاع عن المناطق المعرضة لإغارات الأساطيل البيزنطية، ولتكون ملجأ يحتمي بها الأهالي في المناطق الساحلية بأن يأخذوا حذرهم إذا ما لاح خطر السفن البيزنطية في المياه الإقليمية، فكان الحصن في الرباط يضم حجرات للجند ومساكن لهم، ومخازن للأسلحة والمؤن، وبرج للمراقبة، ثم لم يلبث أن اتسع وازدادت أهميته حتى أصبح قاعدة للهجوم وشن الغارات[2]، وتعتبر سياسة منح الإقطاعات بالسواحل الخطوة الأخيرة في سلم السياسة البحرية الدفاعية التي رسمها معاوية قبل أن يستطيع ركوب البحر في عهد عثمان، إذ أتم بفضل هذه الامتيازات إعداد القواعد البحرية التي أخذ ينشىء فيها أساطيله، وكانت آية ازدهار المدن الساحلية نقل جماعات من أهالي بعلبك وحمص وأنطاكية عام 42هـ إلى صور وعكا وغيرهما من المدن بسواحل الأردن، كذلك أصلح معاوية ﷺ حصون هاتين المدينتين ولاسيما عكا التي خرج منها بأولى حملاته البحرية ضد قبرص، وبسط معاوية ﷺ اهتمامه إلى سائر المدن الساحلية[3].

3 - **الاستيلاء على الجزر الواقعة شرقي البحر المتوسط**، وقد بدأ ذلك بالاستيلاء على جزيرة قبرص ـ كما سبق ذكره ـ ثم استولى على جزيرة أخرى هامة وهي رودس وأمر ببناء حصن بها وبعث إليها جماعة من المسلمين يتلون الدفاع عنها، وجعلها رباطاً يدفعون منه عن الشام، وآثر معاوية أن يحيط المسلمين في رودس بالجو الإسلامي الديني ويعلي راية الإسلام بين أهاليها، فأرسل إليها فقيهاً يدعى مجاهد بن جبر يقرئ الناس القرآن[4] وأراد معاوية أن يتوج حملاته البحرية بغلق بحر إيجة وسد منافذه الرئيسية في وجه السفن البيزنطية، ومنعها من الوصول إلى بلاد المسلمين، وعمل على تحقيق ذلك في الاستيلاء على جزيرة «كريت» إذ تسيطر هذه الجزيرة تماماً على بحر إيجة، الذي يشبه طرفه الجنوبي فوهة قربة تمتد جزيرة «كريت» عبرها، بامتدادها البالغ 160 ميلاً، وتقسم الجزيرة هذه فتحة إلى مدخلين يتحكم في كل منهما، وأرسل معاوية جنده الذي استولى على رودس لفتح هذه الجزيرة الهامة ومنع الأساطيل البيزنطية من التسلل عبر الفتحات البحرية المتاخمة لها لمهاجمة الشام، على أن جنادة بن أمية الأزدي لم يستطع الاستيلاء على هذه الجزيرة لضخامتها، واكتفى بالإغارة عليها والبطش بالبيزنطيين وأساطيلهم بها، وهكذا وجه معاوية ﷺ أنظار المسلمين شطر البحر الأبيض المتوسط، وأوقفهم على أهمية جزره، فاستولى على ما استطاعت أساطيله أن تفتحه منها، وطرق باب غيرها ومهد الطريق لمن يأتي بعده من الخلفاء الأمويين، وكفل

---

(1) الأمويون والبيزنطيون، ص: 68.
(2) المصدر نفسه، ص: 69.
(3) المصدر نفسه، ص: 70.
(4) المصدر نفسه، ص: 81.

معاوية للمسلمين قوة بحرية نافست البيزنطيين أنفسهم سيادتهم القديمة على البحر الأبيض المتوسط، ثم أخذ يعبئها لأهم عمل في تاريخها، وهو ضرب عاصمة البيزنطيين أنفسهم والاستيلاء عليها، ولكن تريث معاوية في تحقيق الهدف الأخير حتى يمكن لنفسه من التفوق البحري على البيزنطية[1].

4 - كان من الضروري لكي تؤتي هذه الاستعدادات البحرية ثمارها وتحقق أهدافها أن يصاحبها تحصين أطراف الشام الشمالية، التي تشكل مناطق الحدود بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية، ضد غارات البيزنطيين من ناحية، ولتكون سنداً للقوات الزاحفة على القسطنطينية من ناحية ثانية، ذلك لأن المسلمين في فتوحاتهم الأولى في عهد الخلفاء الراشدين وصلوا إلى أطراف الشام الشمالية، ثم وقفت أمامهم سلسلة جبال طوروس تحول دون وصولهم إلى آسيا الصغرى البيزنطية، وكان البيزنطيون عند انسحابهم وتقهقرهم أمام المسلمين قد قاموا بتخريب المناطق الواقعة شمال حلب وإنطاكيا لئلا يستفيد منها المسلمون، كما خربوا معظم الحصون فيما بين الأسكندرونة وطورسوس[2]، فرأى معاوية ضرورة الاهتمام بهذه المناطق وتعميرها وتحصينها، فاهتم أولاً بمدينة أنطاكيا التي كانت معرضة دائماً للإغارات البيزنطية المفاجئة، واتبع في تعميرها السياسة التي سار عليها إزاء المدن الساحلية للشام، وأغرى الناس على الإقامة بأنطاكيا، بأن منحهم إقطاعات من الأرض، وقوى الرباط المخصص للدفاع عنهم، وأخذ معاوية يوالي تدريجياً تعمير المدن الواقعة بين الأسكندرونة وطرسوس أثناء غاراته على أراضي البيزنطيين، حتى أصبحت حدود الشام تتاخم مباشرة جبال طوروس ـ الحد الفاصل بين الشام وآسيا الصغرى ـ ولإحكام سيطرته على المعاقل الهامة الواقعة في مناطق التخوم الإسلامية البيزنطية، استولى على سميساط وملطية، كما جدد حصوناً أخرى مثل مرعش والحدث، ثم استولى على حصن زبطرة البيزنطي الهام وأعاد تحصينه[3]، ولكي تكون الحركة مستمرة وتكون مناطق الحدود ميداناً عملياً لتدريب جند المسلمين، وتعويدهم على الدروب والطرق والممرات الجبلية الوعرة، دأب معاوية على الغزو المستمر، وأصبح هذا النشاط العسكري يعرف بغزوات الصوائف والشواتي[4]، فلا تكاد تمر سنة وإلا ونجد ذكراً عند الطبري وغيره لغزو في البر أو البحر كأن يقول: وفيها شتى فلان بأرض الروم أو كانت صائفة فلان إلى أرض الروم[5]، وكانت هذه الغزوات تنطلق إلى بلاد الأعداء وتخرب تحصيناتهم

(1) الأمويون والبيزنطيون، ص: 82.

(2) فتوح البلدان، ص: 194 البلاذري، العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 247.

(3) الأمويون والبيزنطيون، ص: 110، نقلاً عن العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 247.

(4) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 248.

(5) تاريخ الطبري (6/ 225).

وتغنم وتعود، وكان تكرار هذه الغزوات يشكل ضغطاً على الدولة البيزنطية ويرهق أعصابها وينهك قواها[1]، وقد برز في هذه الحملات المستمرة عدد من كبار القادة المسلمين الذين تلقوا تدريباتهم في ميدانها وأتقنوا فن الحرب، ، مثل عبد الله بن كرز البجلي، ويزيد بن شجرة الرهاوي، ومالك بن هبيرة السكوني، وجنادة بن أمية الأزدي، وسفيان بن عوف، وفضالة بن عبيد[2]، ومالك بن عبد الله الخثعمي، الذين أطلقوا عليه مالك الصوائف لعلو كعبه في الميدان الحربي في آسيا الصغرى[3]، وهؤلاء القادة ابلوا بلاءً حسناً في الجهاد ضد البيزنطيين لإعلاء كلمة الله[4].

ثالثاً: الحصار الأول للقسطنطينية:

بعث معاوية رضي الله عنه سنتي 47 - 48هـ سرايا من قواته لتغيرعلى الأراضي البيزنطية لتمهد الطريق في سبيل الوصول إلى القسطنطينية، فتمكن مالك بن هبيرة السكوني من قضاء الشتاء في الأراضي البيزنطية[5]، ولقد شهدت سنة 49هـ/ 669م أول حصار إسلامي لمدينة القسطنطينية ذلك أن نجاح قوات المسلمين في توغلهم في الأراضي البيزنطية بالإضافة إلى الصراعات الداخلية التي واجهها الإمبراطور قُسطانز الثاني نتيجة تمرد اثنين من قادته هما سيليوس وميزيريوس[6]، كل ذلك ساعد معاوية رضي الله عنه على أن يبعث قواته في البر والبحر بقيادة كل من فضالة بن عبيد الليثي وسفيان بن عوف العامري، يساعدهم يزيد بن شجرة الرهاوي، تجاه القسطنطينية[7]، ووصل الأسطول الإسلامي إلى خلقيدونية ـ ضاحية من ضواحي القسطنطينية على البر الآسيوي ـ وحاصرها توطئة لاقتحامها في محاولة لاختراق المدينة من تلك الناحية، ولكن انتشار مرض الجدري وفتكه بكثير من جند المسلمين علاوة على حلول الشتاء القارص جعل ظروف الجيش المحاصر صعبة للغاية، فما كان من فضالة بن عبيد الليثي، قائد الجيش البري إلا أن استنجد بمعاوية طالباً منه أن يمده بقوات إضافية، فأرسل معاوية رضي الله عنه مدداً من الجيش يضم بين أفراده مجموعة من الصحابة، أمثال: عبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأبو أيوب خالد بن يزيد الأنصاري، رضي الله عنهم [8]، وكان القائد

(1) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 248.
(2) تاريخ الطبري، نقلاً عن العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 248.
(3) الأمويون والبيزنطيون، نقلاً عن العالم الإسلامي، ص: 248.
(4) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 248.
(5) تاريخ الطبري (6/ 145) خلافة معاوية للعقيلي، ص: 108.
(6) يشير إبراهيم العدوي إلى أن الإمبراطور قتل وجيء بابنه قسطنطين الرابع
(7) تاريخ الطبري (6/ 148).
(8) تاريخ الطبري (6/ 148).

العام لهذه الفرقة هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وعندما وصل يزيد بقواته إلى خلقيدونية انضم إلى الجيش المرابط هناك، وزحفوا جميعهم نحو القسطنطينية وعسكروا خلف أسوارها ضاربين عليها الحصار حوالي ستة أشهر «من الربيع إلى الصيف» وكان يتخلل هذا الحصار اشتباكات بين قوات القوتين، وأبلى يزيد في هذا الحصار بلاءً حسناً وأظهر من ضروب الشجاعة والنخوة والإقدام ما حمل المؤرخين على أن يلقبوه بـ«فتى العرب»[1]. وكادت القوات الإسلامية أن تحرز انتصاراً لولا أنهم واجهوا صعوبات جمة منها: الشتاء الغزير المطر والبرد القارس مما أدى إلى نقص الطعام والأغذية، وتفشي الأمراض بينهم، كما كان لمناعة أسوار القسطنطينية أثرها في تراجع المسلمين وإجبارهم مرة أخرى على العودة إلى بلاد الشام[2]، كما كانت النار التي فتحها المتحصنون بها على جيش المسلمين من أهم الأسباب التي عوقت قدرتهم على فتحها، فقد أحرقت النار كثيراً من سقى المسلمين[3]، ويعد غزو القسطنطينية من دلائل النبوة حيث أخبر به نبينا محمد ﷺ حيث قال: . . . **«أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم»**[4]، وقد اشترك في غزو القسطنطينية عدد من كبراء الصحابة رضوان الله عليهم، طلباً للمغفرة التي بشر بها رسول الله ﷺ[5].

رابعاً: وفاة أبي أيوب الأنصاري في حصار القسطنطينية:

هو خالد بن زيد بن كليب، أبو أيوب الأنصاري الخزرجي، شهد بدراً والعقبة والمشاهد كلها، وشهد مع علي رضي الله عنه قتال الخوارج، وفي داره كان نزول رسول الله ﷺ حين قدم المدينة مهاجراً من مكة، فأقام عنده شهراً حتى بنى المسجد ومساكنه حوله، ثم تحوَّل إليها[6]، وقد وفد أبو أيوب على عبد الله بن عباس لما كان والياً على البصرة في عهد علي، فبالغ في إكرامه، وقال: لأجزينَّك على إنزالك النبي ﷺ عندك، فوصله بكل ما في المنزل فبلغ ذلك أربعين ألفاً[7]، وجاء في رواية: لما أراد الانصراف خرج له عن كل شيء بها، وزاده تحفاً وخدماً كثيراً وأعطاه أربعين ألفاً وأربعين عبداً، إكراماً له لما كان أنزل رسول الله ﷺ في داره، وقد كان من أكبر الشرف له[8]. وهو القائل لزوجته أم أيوب حين قالت له: أما تسمع ما يقول

(1) الأمويون والبيزنطيون، ص: 164، خلافة معاوية، ص: 109.
(2) الكامل في التاريخ (6/ 480)، خلافة معاوية للعقيلي، ص: 110.
(3) الأمويون، محمد سيد الوكيل (1/ 59).
(4) البخاري، صحيح البخاري مع فتح الباري (6/ 120).
(5) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 320.
(6) البداية والنهاية (11/ 251).
(7) سير أعلام النبلاء (2/ 404).
(8) البداية والنهاية (11/ 252).

الناس في عائشة؟ ـ أي في حديث الإفك ـ فقال لها: أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ فقالت: لا والله. فقال: والله لهي خير منك، فأنزل الله[1] ﴿لَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: 12]. وقد آخى رسول الله ﷺ بين أبي أيوب ومصعب بن عمير[2] ﵄ صاحب الفتح السلمي الكبير بالمدينة المنورة. وكانت وفاته ببلاد الروم قريباً من سور قسطنطينية، وكان في جيش يزيد بن معاوية وإليه أوصى وهو الذي صلى عليه[3]. وقد جاء في رواية: أغزى أبو أيوب، فمرض، فقال: إذا متُّ فاحملوني، فإذا صافقتم العدوَّ، فارموني تحت أقدامكم. أما إني سأحدثكم بحديث سمعته من رسول الله ﷺ يقول: «من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة»[4]، ودفن أبو أيوب عند سور القسطنطينية، وقالت الروم لمن دفنه: يا معشر العرب قد كان لكم الليلة شأن. قالوا: مات رجل من أكابر أصحاب نبينا، والله لئن نُبش، لاضُرِبَ بناقوس في بلاد العرب[5]، وبعد مجيء الدولة العثمانية وفتح القسطنطينية أصبحت مكانة أبي أيوب الأنصاري عظيمة في الثقافة العثمانية، فقد درج السلاطين العثمانيون يوم يتربعون على الملك أن يقيموا حفلاً دينياً في مسجد أبي أيوب، حيث يتقلدون سيفاً للرمز إلى السلطة التي أفضت إليهم، وكان لأبي أيوب ﵁ عند الترك خواصهم وعوامهم رتبة ولي الله الذي تهوي إليه القلوب المؤمنة وينظرون إليه كونه مضيف رسول الله، فقد أكرمه وأعانه وقت العسرة كما أنه له مكانة مرموقة بين المجاهدين، واعتبروا ضيافته لرسول الله وجهاده في سبيل الله أعظم مناقبه وأظهر مآثره[6]. وقد ترك أبو أيوب ﵁ في وصيته بأن يدفن في أقصى نقطة من أرض العدو صورة رائعة تدل على تعلقه بالجهاد، فيكون بين صفوفهم حتى وهو في نعشه على أعناقهم، وأراد أن يتوغل في أرض العدو حياً وميتاً، وكأنما لم يكفه ما حقق في حياته فتمنى مزيداً عليه بعد مماته، وهذا ما لا غاية بعده في مفهوم المجاهد الحق بالمعنى الأصح الأدق[7]. ومن الغريب ما نراه في حياتنا من حرص بعض المسلمين إذا مات خارج بلده أن يوصي أهله بإرجاعه ودفنه في أرضه، والأرض أرض الله والبلاد بلاد الله. وقد مدحه شعراء الأتراك في أشعارهم، وهذا شيخ الإسلام أسعد أفندي يشير إشارة لامحة إلى موقعه بقوله:

شهد المشاهد جاهداً ومجاهداً ومكابداً بحروبه ما كابدا

(1) سيرة ابن هشام (2/ 302)، البداية والنهاية (11/ 252).
(2) سير أعلام النبلاء (2/ 405).
(3) البداية والنهاية (11/ 252).
(4) سير أعلام النبلاء (2/ 412) إسناده قوي.
(5) المصدر نفسه (2/ 412).
(6) الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري، حسين المصري، ص: 12.
(7) المصدر نفسه، ص: 68.

حتى أتى بصلابة ومهابة في آخر الغزوات هذا المشهدا
قد مات مبطوناً غريباً غازيا فغدا شهيداً قبل أن يستشهدا

كان أبو أيوب رضي الله عنه عندما خرج في غزوة القسطنطينية قد تقدمت به السن وأصبح شيخاً كبيراً وكان يقول: قال الله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: 41] لأجدني إلا خفيفاً أو ثقيلاً[1]، وكان أبو أيوب رضي الله عنه يعلم الناس الفهم الصحيح لآيات الله ومفاهيم الإسلام، فعن أبي عمران التجيبي قال: غزونا من المدينة نريد القسطنطينية، وعلى الجماعة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ـ يعني الجماعة الذين غزوا من المدينة ـ والروم ملصقو ظهورهم بحائط القسطنطينية، فحمل رجل على العدو فقال الناس: مه، مه، لا إله إلا الله، يلقي بيديه إلى التهلكة! فقال أبو أيوب: إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، لما نصر الله نبيه ﷺ وأظهر الإسلام قلنا: هلمَّ نقيم في أموالنا ونصلحها، فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: 195] فالإلقاء بالأيدي إلى التهلكة أن نقيم في أموالنا ونصلحها وندع الجهاد، قال أبو عمران: فلم يزل أبو أيوب يجاهد في سبيل الله حتى دفن بالقسطنطينية[2] فهذا الحديث يبين لنا خطورة الاشتغال بالأموال عن الجهاد في سبيل الله تعالى، وإن الهلاك الحقيقي هو هلاك الآخرة بسبب التهاون في واجبات الإسلام[3].

خامساً: الحصار الثاني للقسطنطينية:

استطاع معاوية رضي الله عنه أن يضيق الخناق على الدولة البيزنطية بالحملات المستمرة والاستيلاء على جزر رودس وأرواد اللتين سبقت الإشارة إليهما، وقد كان لجزيرة أرواد - والتي تسميها المصادر الأوربية كزيكوس - أهمية خاصة لقربها من القسطنطينية، حيث اتخذ منها الأسطول الإسلامي في حصاره الثاني للمدينة، أو حرب السنين السبع (54 - 60هـ) قاعدة لعملياته الحربية، وذلك أن معاوية أعد أسطولاً ضخماً، وأرسله ثانية لحصار القسطنطينية، وظل مرابطاً أمام أسوارها من سنة 54هـ إلى سنة 60هـ[4]، فكانت الأساطيل تنقل الجنود من هذه الجزيرة إلى البر لمحاصرة أسوار القسطنطينية على حين يكمل الأسطول الحصار، واستمر الحصار البري والبحري للقسطنطينية من شهر أبريل إلى سبتمبر، تتخلله مناوشات بين أساطيل المسلمين وجنود البيزنطيين من الصباح إلى المساء، على حين تتراشق القوات البرية الإسلامية مع الجند البيزنطي المرابط على أسوار القسطنطينية بالقذائف والسهام، استمر هذا الوضع

(1) سكب العبرات للموت والقبر والسكرات (1/ 175).
(2) سنن أبي أيوب رقم (2512)، سنن الترمذي رقم (2972).
(3) التاريخ الإسلامي (13/ 15).
(4) تاريخ الطبري (6/ 210 إلى 240).

طيلة سبع سنوات[1]، حتى أرهقت البيزنطيين، وأذاقتهم ألوان الضنك والخوف، وأنزلت بهم خسائر فادحة، وبالرغم من كل ذلك لم تستطع اقتحام المدينة أو التغلب على حراسها المدافعين عن أسوارها[2]، وكانت العوامل التي ساعدت القسطنطينية على الصمود عديدة منها:

1 - استعمال البيزنطيين في هذه المعارك ناراً سموها النار البحرية أو النار الأغريقية، وهو عبارة عن مركب كيمائي مكون من النفط والكبريت، القار، وكان هذا المركب يشعل بالنار وتقذف به المراكب فيشعل فيه النار، والعجيب أنه كان يزداد اشتعالاً إذا لامس الماء ومخترع هذا المركب الكيميائي الفتاك، الذي فتك بالعديد من سفن المسلمين وجنودهم هو مهندس سوري الأصل اسمه كالينكوس، كان في أوائل الأمر في خدمة المسلمين، ثم هرب إلى القسطنطينية، ووضع خبرته في خدمة البيزنطيين[3]. وكان هذا السلاح الجديد من أهم العوامل التي ساعدت البيزنطيين على الصمود والاستمرار في الدفاع عن العاصمة، وظل هذا السلاح سراً خفياً، لا يعرفه إلا المتخصصون في صناعته، وكان الأباطرة يمدون حلفاءهم بهذا السلاح دون أن يطلعوهم على سره،، ومرت أربعة قرون، وهو سلاح غامض لم يعرف كنهه سوى مخترعه، وفي القرن العاشر المسيحي، الرابع الهجري، عرف الباحثون سر هذه النار، وبينوا العناصر التي تكونت منها، والوسائل التي يمكن إخمادها بها، وتطور هذا السلاح حتى كان منه ما يشبه المفرقعات، وكانت تلقى على الأعداء بواسطة المجانيق، أو أنابيب نحاسية تقذف من السفن، وكان لها صوت مدو يصحبه دخان كثيف مسبوق بلهب خاطف، وشغل هذا الاختراع عقول العلماء المسلمين، فراحوا يبحثون ويفكرون، حتى عرفوا سره في مطلع القرن الحادي عشر المسيحي، الخامس الهجري، وأدخلوا عليه تعديلات جعلته أشد فتكاً، وأقوى أشراً من النار الأغريقية، واستخدم المسلمون هذا السلاح الفتاك في حروبهم مع الصليبيين بأرض الشام، وكان وقعه شديداً على الصليبيين، ونشر فيهم الرعب والفزع، ومن ذلك الحين عرفت هذه النار «بالنار[4] الإسلامية»، يقول الدكتور إبراهيم العدوي: لأن الأعداء عجزوا عن معرفة هذا السلاح الجديد الذي احتضنه المسلمون، وظل استخدام النار الإسلامية سائد حتى القرن الرابع عشر المسيحي، الثامن الهجري حيث دخلت عليها تطورات وتعديلات كثيرة، أدت أخيراً إلى صناعة البارود. ومن ثم تعتبر النار الإسلامية أساس هذا الانقلاب الخطير في أساليب الحرب التي عرفها العالم الحديث، وبرهن المسلمون على أنهم لا يقفون مكتوفي الأيدي أمام أي سلاح جديد يفاجئهم به الأعداء،

(1) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 351، 252.
(2) الأمويون والبيزنطيون، ص: 176، العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 252.
(3) الأمويون والبيزنطيون، ص: 176، العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 252.
(4) الأمويون (1/ 65) محمد سيد الوكيل.

وأنهم قادرون على استغلاله فيما بعد لما فيه صالحهم ونفعهم[1]. ونسأل الله تعالى أن يوفق المسلمين لإيجاد حل للتفوق العسكري الأمريكي والغربي عليهم.

2 - السلسلة الحديدية الضخمة، الحاجزة ما بين القرن الذهبي ميناء القسطنطينية وبين الشاطئ الآسيوي، حيث كان يتم إقفالها في حالات الحرب أو التهديد بالحصار[2].

3 - الموقع الجغرافي في الفريد الذي وصفه المؤرخ بينز بأنه «استقر على شبه الجزيرة البارز من أوروبة، والذي يكاد يلاقي الشاطئ الآسيوي وفي وسط الطريق بين الحدود الشمالية والشرقية في بقعة يحميها مدّ مرمرة العنيف من الهجمات البحرية.

4 - الأسوار الداخلية والخارجية الضخمة والمزوّدة بعدد كبير من أبراج المراقبة التي كان لها دور في كشف التحركات المعادية وإبطال عنصر المفاجأة فيها.

5 - ضعف التجربة الأموية في حرب الحصار للمدن المتداخلة مع مياه البحر، مثل القسطنطينية، حيث تطلب ذلك أسلحة متطورة بأساليب جديدة في القتال، لم تكن في متناول القوات الأموية حتى ذلك الحين[3].

6 - دبلوماسية الدولة البيزنطية والإسلامية: لقد تظاهرت عدة عوامل ساهمت في منع سقوط القسطنطينية منها، مناعة المدينة الطبيعية وقوة تحصيناتها، والنار الإغريقية، ورداءة الطقس وقسوته، والتيارات المائية الشديدة الانحدار الآتية من البحر الأسود لتحول دون استيلاء المسلمين على المدينة، رغم صبرهم وبسالتهم وتحملهم المشاق، وفي النهاية دعت الظروف الداخلية في كل من الدولتين إلى إنهاء الحصار، فدخلوا في مفاوضات انتهت بعقد صلح بينهما، عاد بمقتضاه الجيش الإسلامي والأسطول إلى الشام.. ففيما يتعلق بالدولة الأموية أدرك معاوية أن مدة الحصار قد طالت دون أن يتحقق الهدف، ولما كانت سنّه قد كبرت، وأحس بدنو أجله، رأى من المصلحة أن يعود هذا الجيش الكبير المرابط حول المدينة تحسباً لأي مشاكل قد تواجه ابنه وخليفته يزيد بعد موته، فيكون وجود هذا الجيش عنده ضرورياً لضبط الأمور داخلياً، كذلك كانت الدولة البيزنطية تواقة إلى إنهاء هذا الحصار عن عاصمتها، فقد أرهقها وأنهك قواها، ولذلك يقال: إنها أرسلت إلى دمشق رجلاً يدعى يوحنا من أشهر رجالها الدبلوماسيين، وأكثرهم ذكاء وفطنة، وحضر هذا الرجل جلسات كثيرة تضم خيرة أبناء البيت الأموي وأبدى فيها من الإجلال للدولة الإسلامية، ما أكسبه تقدير معاوية واحترامه، ونجحت مفاوضاته في عقد صلح بين الطرفين، وبعد إبرام المعاهدة أخذت

(1) الأمويون والبيزنطيون، ص: 178.
(2) من دولة عمر إلى دولة عبد الملك، ص: 167.
(3) المصدر نفسه، ص: 168.

القوات الإسلامية المرابطة براً وبحراً أمام القسطنطينية طريق العودة إلى الشام، وتركت عاصمة البيزنطيين تئن من جراحها المثخنة[1].

سادساً: العلاقات السلمية بين الدولتين:

رغم أن الطابع العام الذي ميز العلاقات بين الدولة الإسلامية والبيزنطية في عصر الخلافة الراشدة والعصر الأموي كان عسكرياً نتيجة لحركة الجهاد واستمرارها في العهد الأموي من حملات الصوائف والشواتي طوال السنة تقريباً، وكذلك الدور الجهادي الذي كانت تؤديه مدن الثغور، إلا أن هذا لا يعني أن الطابع السلمي المتمثل فيما جرى من مفاوضات ومداولات كان مفقوداً فقد اتخذت العلاقات السلمية بين الدولتين، الإسلامية والبيزنطية في العهد الأموي أشكالاً مختلفة منها المراسلات، وتبادل الخبرات، والمناظرات في المجالات الثقافية، وتبادل الأسرى والسفراء[2].

1 - المراسلات:

فقد تم مراسلة قيصر الروم من قبل معاوية في فترة الفتنة وتوصل معه إلى عقد صلح على أن يؤدي معاوية له مالاً وأن يأخذ كل طرف رهناً من الطرف الآخر[3]، وارتهن معاوية منهم رهناء فوضعهم ببعلبك، ثم إن الروم غدرت فلم يستحل معاوية والمسلمون قتل من في أيديهم من رهنهم، وخلوا سبيلهم وقالوا: وفاء بغدر خير من غدر بغدر[4]، والمهم أن مثل هذه الحوادث يجب أن تُقدَّر بقدرها فلا يجوز للدولة الإسلامية ـ في الأصل ـ أن تتهاون وتتكاسل عن الأخذ بأسباب القوة حتى تصل إلى مرحلة من الضعف تمكّن الأعداء منها أو يطمع فيها الطامعون، بل الأصل في دولة الإسلام أن تكون دولة قوية يهابها الأعداء، فإذا مرت بها فترة ضعف أو احتاجت إلى دفع ضرر عليها بمال أو نحوه فذلك يدخل من باب «الضرورات» وليس حكماً عاماً وما «أبيح للضرورة يُقدّر بقدرها» كما قرر الفقهاء[5]، فلا ينبغي عقد صلح دائم مع العدو بدفع المال إليه، بل يجب أن يكون الصلح والدفع لفترة ضعف المسلمين أو حالة الضرورة، مع العمل الجاد على رفع حالة الضعف وبناء قوة الأمة وقدراتها المطلوبة بكل جدية وعزم، فإذا زالت يجب على المسلمين أن يمتنعوا من عقد أي معاهدة فيها ذلة أو مفسدة لهم، والخلاصة: إنه يجوز للدولة الإسلامية عقد معاهدة اضطرارية تُقدّر بقدرها وتنتهي بانتهاء حالة

---

(1) الأمويون والبيزنطيون، ص: 175، العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 253.
(2) العلاقات العربية البيزنطية في العصر الأموي، ص: 122، 123.
(3) المصدر نفسه، ص: 123.
(4) فتوح البلدان، ص: 163 للبلاذري، العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية، ص: 239.
(5) الأشباه والنظائر، ابن نجيم، ص: 86.

الضرورة التي عُقدت من أجلها[1].

لم تقتصر المراسلات على الجانب العسكري فقط، ولكن رويت بعض المراسلات التي تتناول المناظرة في الجوانب العلمية والأمور العامة، فقد كتب قيصر الروم إلى معاوية: سلام عليك أما بعد: «فأنبئني بأحب كلمة إلى الله وثانية وثالثة ورابعة وخامسة، وعن أربعة أشياء فيهن روح ولم يرتكضن في رحم، وعن قبر يسير بصاحبه، ومكان في الأرض لن تصبه الشمس إلا مرة واحدة» وغير ذلك من الأسئلة، فكتب إليه معاوية: «أما أحب كلمة إلى الله: فلا إله إلا الله لا يقبل عملاً إلا بها، وهي المنجية، والثانية سبحان الله صلاة الخلق، والثالثة الحمد لله كلمة الشكر، والرابعة الله أكبر، فواتح الصلوات والركوع والسجود، والخامسة لا حول ولا قوة إلا بالله. والأربعة فيهن روح ولم يرتكضن في رحم: فآدم، وحواء وعصا موسى والكبش، والموضع الذي لم تصله شمس إلا مرة واحدة، فالبحر حين انفلق لموسى وبني إسرائيل، والقبر الذي سار بصاحبه، فبطن الحوت الذي كان فيه يونس»[2].

2 - تبادل الخبرات:

وهي مجال تبادل الخبرات حاول كل من العرب والروم الاستفادة من خبرات الطرف الثاني في مجالات الحياة كافة، معتمدين على الاقتباس تارة، والإبداع تارة أخرى، على أن ما أخذه المسلمين من الروم في هذا المجال لم يكن مجرد اقتباس، بل طور كثيراً بأن أضيف إليه أحياناً وشذب في أحيان أخرى، حتى أصبح يتماشى مع روح الدين الإسلامي، ويتمثل ذلك في معالم النهضة العمرانية المتمثلة في اهتمام الأمويين بالمساجد والتوسع في إقامتها[3]، وقد استخدم معاوية عدداً من الروم ممن كانوا في الإدارة البيزنطية في بلاد الشام قبل فتحها، كتّاباً في الأمور الإدارية، حيث عين سرجون بن منصور الرومي كاتباً له، كما استخدم ابن أثال النصراني طبيباً له[4]، وكان معاوية رضي الله عنه متسامحاً مع النصارى حتى شهد له بروكلمان بهذا التسامح: «واختلطوا بالمسيحية اختلاطاً بعيداً... وفي بلاط معاوية لعب سرجون بن منصور النصراني دور المستشار المالي المتنفذ وحفظ النصارى للخليفة معاوية هذا التسامح وأخلصوا له، وأعظموه إعظاماً، لاتزال تقع عليه في الروايات النصرانية، وحتى في كتب التاريخ الأسبانية»[5].

---

(1) العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية، ص: 240.

(2) عيون الأخبار (1/ 198، 199)، الحدود العربية - البيزنطية (2/ 387) العلاقات العربية - البيزنطية في العصر الأموي، ص: 126.

(3) التاريخ الإسلامي آفاقه السياسية وأبعاده الحضارية، ص: 132.

(4) العلاقات العربية البيزنطية في العصر الأموي، ص: 132.

(5) تاريخ الشعوب الإسلامية، نقلاً عن العلاقات العربية - البيزنطية، ص: 140.

3 - تأثر الدولة البيزنطية بالتسامح الإسلامي:

يذكر العدوي: إن انعكاس التسامح الديني مع النصارى ظهر تأثيره على الدولة البيزنطية، إذ من المعروف إنها كانت تضطهد رعاياها من أصحاب المذاهب الأخرى وتعاملهم معاملة قاسية وتعتبرهم هراطقة، وبظهور دولة الإسلام ودخول كثير من المسيحيين في التبعية لها، اتجهت الإمبراطورية البيزنطية إلى تجديد أساليبها وسياستها، وجعلت من نفسها صاحبة الحق في رعاية المسيحيين في بلاد الشام[1]، وكان معاوية ﵁ يجلس إلى جماعات المسيحيين من المذاهب المختلفة ويستمع إلى جدلهم الديني ومناقشاتهم المختلفة[2]، وبهذا ضربت الدولة الإسلامية الأموية مثلاً سامياً، يدل على عظمة الرسالة الإسلامية ومدى التسامح الديني تجاه رعاياها من غير المسلمين وابتعادها عن التعنت والتعصب الديني الذي يتهمهم به قسم من المستشرقين[3].

4 - آداب السفراء:

لم يكن نظام الموفدين والسفراء مقتصراً على العهد الأموي بل له امتداداته من عهد رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين، فكان السفير يختار وفق مواصفات خاصة تتمثل في قوة شخصيته ونباهته ورجاحة عقله، وكان السفير من كلتا الدولتين، يزود بخطاب يحمل تعريفاً بشخصية الرسول والغرض من رسالته وتخويله حق التحدث رسمياً باسم دولته[4]. ولم يكن الموفدون والسفراء مدار اهتمام الدولة الإسلامية الأموية فقط، بل اهتم الروم كذلك بسفرائهم أيضاً، فكانوا يختارونهم من رجال الدين الدهاة العارفين بأمور دينهم وأصحاب قدرة على النقاش والجدال، فصيحي اللسان، عارفين بالعربية إضافة إلى لغتهم الأصلية[5]، وكان الخلفاء والملوك يهتمون بالسفراء والمبعوثين، ويستقبلون في قصور الخلفاء وتسمع آراؤهم فيها، فحين سأل معاوية رسول البيزنطيين، بعد أن فرغ من بناء قصره المعروف بالخضراء، أبدى عليه ملاحظاته قائلاً: أما أعلاه فللعصافير، وأما أسفله فللفار، وعندما أدرك معاوية صحة انتقاد السفير وصواب رأيه جعله يعيد بناء قصره بالحجارة[6]، وأما البيزنطيون فكانوا يستقبلون السفراء العرب في كنيسة أيا صوفيا وقناطير المياه والأديرة حول القسطنطينية[7]،

---

(1) العلاقات العربية - البيزنطية في العصر الأموي، ص: 142.
(2) المصدر نفسه، ص: 142 نقلاً عن الأموين والبيزظين.
(3) المصدر نفسه، ص: 142.
(4) العلاقات العربية - البيزنطية في العصر الأموي، ص: 147.
(5) الأمويين والبيزنطيون، ص: 215 إلى 212.
(6) المصدر نفسه، ص: 220.
(7) المصدر نفسه، ص: 220.

وعند رجوع السفير كانت تقدم له الهدايا والمجوهرات الثمينة إكراماً له ولمن بعثه[1]، ويبدو أن الهدف من وراء ذلك عند كلتا الدولتين، هو إظهار صيغ الاحترام المتبادل والنيات الحسنة في إقامة الصلح وإنابة السلام، وكذلك إظهار كل دولة للأخرى مدى قوتها ورخائها، كي تكون محط أنظار السفير ومهابته من أجل وصف ما يشاهده إلى من بعثه عند رجوعه إليه[2]، ورغم ما أشير إليه من الصفات التي يجب توفرها في السفير إلا أنه يبقى محط أنظار الخليفة أو الملك وتراقب تصرفاته وحركاته خشية الوشاية والكيد وإشعال نار الحرب، وهذا ما حدث مع سفير معاوية إلى القسطنطينية الذي أرسل لعقد هدنة مع الروم وكان السفير مزوداً بتعليمات مشددة تقتضي ألا يخفف من شروط الهدنة مع البيزنطيين، ولكن لم يستطع هذا السفير تنفيذ وصية معاوية وتهاون في عقد الهدنة حتى جاءت في صالح البيزنطيين[3]، فلما عاد عزله من منصبه[4].

سابعاً: الجراجمة في عهد معاوية رضي الله عنه:

في أثناء الحروب والغارات بين المسلمين والبيزنطيين، في عهد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، كان هناك طرف ثالث يشارك في النزاع القائم بينهما، يطلقون على أنفسهم اسم «الجُرَاجِمة» نسبة إلى مدينة «الجُرَجُومة»[5]، وأصولهم غير معروفة، ويشير البلاذري إلى أنهم كانوا يدينون بالنصرانية وأنهم كانوا لذلك يتبعون «بطريق أنطاكية وواليها»[6]. وعندما فتح المسلمون بلاد الشام أرسل أبو عبيدة عامر بن الجراح حبيب بن مسلمة الفهري: فغزا الجرجومة فلم يقاتلها أهلها ولكنهم بادروا بطلب الأمان والصلح، فصالحوه على أن يكونوا أعواناً للمسلمين وعيوناً ومسالح في جبل اللكام، وأن لا يُؤخَذوا بالجزية، وأن يُنَفَّلوا أسلاب من يقتلون من عدوّ المسلمين إذا حضروا حرباً معهم في مغازيهم[7]. ولكن الجراجمة لم يلبثوا أن نقضوا اتفاقهم هذا، وصنعوا حاجزاً بين المسلمين والبيزنطيين واستطاعوا عرقلة سير الفتوحات الإسلامية في آسيا الصغرى، فكانوا متذبذبين مرّة مع المسلمين وأخرى مع الروم، وقد بقيت شوكة في ظهر الجيوش الإسلامية ليس في عهد معاوية لكن حتى عهد عبد الملك،

(1) العلاقات العربية - البيزنطية، ص: 148.
(2) المصدر نفسه، ص: 148.
(3) المصدر نفسه، ص: 149.
(4) المصدر نفسه، ص: 149.
(5) الجرجومة: مدينة على جبل اللكام بالثغر الشامي فيما بين بياس وبوقا قرب إنطاكية، معجم البلدان (2/ 123).
(6) فتوح البلدان للبلاذري، ص: 58.
(7) المصدر نفسه، ص: 58.

ثم ما لبثت أن تفرقت في بلاد الشام وآسيا الصغرى، فخفَّ خطرها[1]. وعلى أية حال، فلابد من القول بأن الإنشاءات والمجهودات التي قام بها معاوية ﷺ في سبيل الوصول إلى القسطنطينية وإن كانت لم تثمر خلال حياته إلا أنها لعبت دوراً أساسياً في حفز من جاؤوا بعده من الخلفاء لأن يكملوا المسيرة التي بدأها[2].

ثامناً: أبو مسلم الخولاني من الغزاة في أرض الروم:

وهذا مثال من عظماء الرجال في ذلك العصر الذين ساهموا في صياغة نموذج إسلامي في السلوك والتعامل مع الحكام والمشاركة الإيجابية في المجتمع وحركة الفتوحات.

قال عنه الذهبي: سيِّد التابعين وزاهد العصر واسمه عبد الله بن ثوب على الأصح[3]قدم المدينة وقد قبض النبي ﷺ، واستخلف أبو بكر[4]، وكانت له مواقف محمودة في صد الأسود العنسي الذي تنبَّأ باليمن، وثبت أبو مسلم على الإسلام فبعث إليه الأسود، فأتاه بنار عظيمة، ثم إنَّه ألقى أبا مسلم فيها، فلم تضُرَّه، فقيل للأسود: إن لم تَنْفِ هذا عنك أفسد عليك من اتَّبعك. فأمره بالرحيل، فقدم المدينة فأناخ راحلته ودخل المسجد يُصلِّي، فبصُر به عمر ﷺ، فقام إليه، فقال: ممَّن الرجل؟ قال: من اليمن. قال: ما فعل الذي حَرقَه الكذاب بالنار؟ قال: ذاك عبد الله بن ثوب. قال: نشدتك بالله، أنت هو؟ قال: اللهمَّ نعم، فاعتنقه عمر وبكى، ثم ذهب به حتى أجلسه فيما بينه وبين الصِّدِّيق. فقال: الحمد لله الذي لم يُمتني حتَّى أراني في أمة محمد من صنع به كما صنع بإبراهيم الخليل[5]. وهذا التابعي الكبير كان من أهل الشام في عهد معاوية وقد تأثر به خلق كثير بها وكان رحمه الله كثير العبادة، فعن أبي العاتكة: قال: علَّق أبو مسلم سوْطاً في المسجد[6]، فكان يقول: أنا أولى بالسَّوط من البهائم، فإذا فتر مَشَقَ[7]، ساقيه سوطاً أو سوطين. وروى أنه كان يقول: لو رأيت الجنة عياناً أو النَّار عياناً ما كان عندي مستزاد[8]، وعن شرحبيل، أن رجلين أتيا أبا مسلم، فلم يجداه في منزله، فأتيا المسجد، فوجداه يركع فانتظراه فأحصى إحداهما أنه ركع ثلاث مئة ركعة[9]، وكان أبو مسلم إذا استسقى سُقي[10]، وكان مستجاب الدعوة، فعن محمد بن زياد، عن أبي مسلم، أن امرأة خَبَّبت[11] عليه امرأته، فدعا عليها، فعميت، فأتته فأعرضت وتابت، فقال:

---

(1) خلافة معاوية للعقيلي، ص: 116.
(2) المصدر نفسه، ص: 116.
(3) سير أعلام النبلاء (4/ 8، 7).
(4) المصدر نفسه (4/ 8).
(5) المصدر نفسه (4/ 9).
(6) المصدر نفسه (4/ 9).
(7) مَشَقَ: ضربه بسرعة.
(8) سير أعلام النبلاء (4/ 9).
(9) المصدر نفسه (4/ 10).
(10) المصدر نفسه (4/ 10).
(11) خبَّب فلان على فلان صديقه، إذا أفسده عليه.

اللهُمَّ إن كانت صادقة، فاردُد بصرها، فأبصرت[1]وشارك رحمه الله بالجهاد في أرض الروم، وعن أبي مسلم الخولاني أنَّه كان إذا غزا أرض الروم، فمرُّوا بنهر فقال: أجيزوا بسم الله، ويمر بين أيديهم، فيمرون بالنهر الغَمْر، فربما لم يبلغ الدَّوابُّ إلا الرُّكب، فإذا جازوا قال: هل ذهب لكم شيء؟ فمن ذهب له شيء فأنا ضامن له، فألقى بعضهم مِخْلاته عمداً. فلما جاوزوا قال الرجل: مِخْلاتي وقعت، قال: اتَبعني فاتَّبعه، فإذا بها معلَّقةٌ بعود في النهر، قال: خذها[2]، وكان الولاة يتيمَّنون بأبي مسلم، ويؤَمِّرونه على المقدِّمات[3]، وقد توفي رحمه الله بأرض الروم، وكان شتا مع بُسر بن أبي أرطاة فأدركه أجله، فعاده بُسر في مرضه فقال له أبو مسلم: يا بُسر، اعقد لي على من مات في هذه الغزاة فإني أرجو أن آتي بهم يوم القيامة على لوائهم[4]، وعندما سمع معاوية رضي الله عنه بموته قال: إنما المصيبة كل المصيبة بموت أبي مسلم الخولاني وكريب بن سيف الأنصاري[5]، وكان رحمه الله من أهل الحكمة فقد روي عن أبي مسلم الخولاني في مجال الرِّضى التام بقضاء الله وقدره، قوله: لأن يولد لي مولود يحسن الله عز وجل نباته حتى إذا استوى على شبابه وكان أعجب ما يكون إليّ قبضه منّي أحب إليّ من أن يكون لي الدنيا وما فيها[6]. وهذا دليل على كمال توحيد أبي مسلم عبد الله بن ثوب الخولاني حيث جاوز مرحلة الصبر على أقدار الله المؤلمة إلى مرحلة الرضى بقضاء الله، فاعتبر المصيبة بفقد ولد قد أحسن الله نباته وكان على خير ما يتمناه المؤمن شباباً صلاحاً أحبّ إليه من الدنيا وما فيها[7]. هذه بعض الملامح العريضة على الجبهة الشامية المتعلقة بالجهاد في عهد معاوية رضي الله عنه.

المبحث الثاني

فتوحات الشمال الأفريقي في عهد معاوية رضي الله عنه

أولاً: حملة معاوية بن حديج رضي الله عنه:

معاوية بن حديج الكندي له صحبة ورواية قليلة عن النبي ﷺ فقد روي حديث رسول الله ﷺ: «إن كان في شيء شفاء فشربة عسل أو شرطة محجم، أو كية نار، وما أحب أن أكتوي»[8]، وكان رضي الله عنه ملكاً مطاعاً من أشراف كندة[9]، وكان من خيرة الأمراء، فعن عبد الرحمن بن شماسة قال: دخلت على عائشة، فقالت: ممن أنت؟ قلت: من أهل مصر،

---

(1) سير أعلام النبلاء (4/ 11).
(2) المصدر نفسه (4/ 11).
(3) المصدر نفسه (4/ 13).
(4) المصدر نفسه (4/ 13).
(5) المصدر نفسه (4/ 14).
(6) صفة الصفوة (4/ 213) حلية الأولياء (2/ 127).
(7) التاريخ الإسلامي (19/ 356).
(8) سير أعلام النبلاء (3/ 37) إسناده صحيح.
(9) المصدر نفسه (3/ 40).

قالت: كيف وجدتم ابن حُديج في غزاتكم هذه؟ قلت: خير أمير، ما يقف لرجل منا فرس ولا بعير إلا أبدل مكانه بعيراً، ولا غلاماً إلا أبدل مكانه غلاماً. قالت: إنه لا يمنعني قتله أخي أن أحدثكم ما سمعت من رسول الله ﷺ: «اللهم من ولي من أمر أُمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به، ومن شقّ عليهم فاشقق عليه»[1]، وبعد أن استتب الأمر لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، كانت جبهة شمال أفريقيا من أولى الجبهات التي وجه إليها اهتمامه، لأنها تتاخم حدود مصر الغربية من ناحية ومن ناحية أخرى فهي تخضع لنفوذ الدولة البيزنطية، العدو اللدود للمسلمين والتي صمم أمير المؤمنين معاوية على تضييق الخناق عليها، وعدم إعطائها فرصة لالتقاط أنفاسها، ففي الوقت الذي واصل فيه ضغطه عليها من الشرق، وزحفه على جزرها في البحر المتوسط تمهيداً للوصول إلى عاصمتها القسطنطينية ـ كما سبق ذكره ـ نراه قد قرر أن يطوقها من الجنوب، من شواطي شمال إفريقيا التي كانت تعتبرها من أملاكها، ففي أول سنة من حكمه 41 هـ أرسل معاوية بن حديج على رأس حملة إلى إفريقيا ثم أرسله ثانية سنة 45هـ على رأس حملة من عشرة آلاف مقاتل، فمضى حتى دخل إفريقيا وكان معه عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن الزبير، وعبد الملك بن مروان، ويحيى بن الحكم بن العاص، وغيرهم من أشراف قريش، فبعث ملك الروم إلى إفريقية بطريقاً يقال له: نقفورا في ثلاثين ألف مقاتل، فنزل الساحل، فأخرج إليه معاوية بن حديج عبد الله بن الزبير في خيل كثيفة، فسار حتى نزل على شرف عال ينظر منه إلى البحر بينه وبين مدينة سوسة[2]، اثنا عشر ميلاً، فلما بلغ ذلك نقفورا أقلع من في البحر منهزماً من غير قتال، ورجع ابن الزبير إلى معاوية بن حديج وهو بجبل القرن، ثم وجه ابن حديج عبد الملك بن مروان في ألف فارس إلى مدينة جلولاء[3] فحاصرها وقتل من أهلها عدداً كثيراً حتى فتحها عنوة، وأغزى معاوية بن حديج جيشاً في البحر إلى صقلية في مائتي مركب، فسبوا وغنموا وأقاموا شهراً، ثم انصرفوا إلى إفريقيا بغنائم كثيرة[4]، وبعد هذه الفتوح عاد معاوية بن حديج إلى مصر دون أن يترك قائداً أو عاملاً، ويفهم من هذا التصرف ومن سلوك معاوية بن حديج أثناء هذه الغزوة أن البربر أهل البلاد كانوا قد

---

(1) مسلم رقم (1828).

(2) سوسة مدينة صغيرة بنواحي إفريقيا، بينها وبين القيروان ستة وثلاثين ميلاً ويحيط بها البحر من ثلاث جهات من الشمال والجنوب والشرق، معجم البلدان (3/ 282).

(3) هنالك مدينتان تحملان هذا الاسم، إحداهما بفارس، بينها وبين خانقين سبعة فراسخ، وهي على طريق خراسان، وبها كانت الوقعة المشهورة بين المسلمين والفرس سنة 16هـ، وهذه التي بإفريقيا بينها وبين القيروان أربعة وعشرون ميلاً - ياقوت الحموي معجم البلدان (2/ 156).

(4) البيان المغرب لابن عذارى (1/ 17.16)، الشرف والتسامي بحركة الفتح الإسلامي، ص: 209، حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول، شكري فيصل، ص: 161.

أصبحوا حلفاء للمسلمين على الروم، وأن المسلمين كانوا يكتفون إلى ذلك الحين بإبعاد الخطر الرومي من هذه الناحية[1] وعندما استعاد معاوية بن حديج طرابلس الغرب ترك فيها رويفع بن ثابت الأنصاري والياً عليها سنة 46هـ، فغزا منها إفريقيا «تونس» ودخلها سنة 47هـ، وفتح جزيرة جربة التي كان يسكنها البربر[2]، وقد تحدثت المراجع عن كثرة السبايا في هذه الغزوة وقام رويفع بن ثابت الأنصاري بتذكير المسلمين في هذه بأحكام وطء السبايا، حيث قال: أما أني لا أقول لكم إلا ما سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم حنين: «**لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقي ماءه زرع غيره**[3]، **ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقع**[4] **على امرأة من السبي حتى يستبرئها**[5]، **ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيع مغنماً**[6] **حتى يُقسم**»[7]. وقد بقي في ولاية طرابلس الغرب ثم ولاه مسلمة بن مخلد ولاية مصر وبرقة، وبقي عليها أميراً ومات بها سنة 56هـ، وقبره معروف في الجبل الأخضر ببرقة في مدينة البيضاء، وهو آخر من توفي من الصحابة هناك، وروى عن النبي ﷺ ثمانية أحاديث، وكان فقيهاً من أصحاب الفتيا من الصحابة، وكان خطيباً مفوهاً[8].

ثانياً: عقبة بن نافع وفتح إفريقية:

هو عقبة بن نافع القرشي الفهري، نائب إفريقيا لمعاوية وليزيد، وهو الذي أنشأ القيروان وأسكنها الناس[9]، وكان ذا شجاعة، وحزم، وديانة، لم يصحّ له صحبة، شهد فتح مصر، واختطّ بها[10]، فقد أسند معاوية بن أبي سفيان قيادة حركة الفتح في إفريقية إلى هذا القائد الكبير الذي خلد التاريخ اسمه في ميدان الفتوحات، وكان عقبة قد شارك في غزو إفريقية منذ البداية مع عمرو بن العاص واكتسب في هذا الميدان خبرات واسعة، وكان عمرو بن العاص قد خلفه على برقة عند عودته إلى الفسطاط، فظل فيها يدعو الناس إلى الإسلام، وقد جاء

(1) تاريخ المغرب وحضارته، حسين مؤنس (1/ 85).
(2) صفحات من تاريخ ليبيا والشمال الإفريقي للصّلابيّ، ص: 332.
(3) زرع غيره: أي محل زرع لغيره، يعني إتيان الحبالى.
(4) يقع على امرأة: يجامعها.
(5) يستبرئها: بحيضة أو بشهر.
(6) مغنماً: أي شيئاً من الغنيمة.
(7) يُقسم: أي من الغانمين ويخرج منه الخمس.
(8) مدرسة الحديث في القيروان (1/ 486)، صفحات من تاريخ ليبيا والشمال الإفريقي، ص: 333.
(9) سير أعلام النبلاء (3/ 532).
(10) المصدر نفسه (3/ 533).

إسناد القيادة إلى عقبة بن نافع خطوة موفقة في طريق فتح شمال إفريقيا كله، ذلك أنه لطول إقامته في برقة وزويلة وما حولها، منذ فتحها أيام عمرو بن العاص، أدرك أنه لكي يستقر الأمر للمسلمين في إفريقية ويكف أهلها عن الارتداد، فلا بد من بناء قاعدة ثابتة للمسلمين ينطلقون منها في غزواتهم، ويعودون إليها ويأمنون فيها على أهلهم وأموالهم، فلما أسند إليه معاوية بن أبي سفيان قيادة الفتوحات في إفريقية، أرسل إليه عشرة آلاف فارس وانضم إليه من أسلم من البربر فكثر جمعه[1]، وسار في جموعه حتى نزل بمغمداش من سرت[2]، فبلغه أن أهل ودان[3] قد نقضوا عهدهم مع بسر بن أبي أرطأة الذي كان عقده معهم حين وجهه إليهم عمرو ابن العاص ومنعوا ما كانوا اتفقوا عليه من الجزية، فوجه إليهم عقبة قسماً من الجيش عليهم عمر بن علي القرشي وزهير بن قيس البلوي، وسار معهم بالقسم الآخر من الجيش واتجه إلى فزان[4]، فلما دنا منها دعاهم إلى الإسلام فأجابوا[5]، ثم واصل فتوحاته، فتح قصور كُوّار[6]، وخاور[7]، وغدامس[8]، وغيرها[9]، ومما يلاحظ أن عقبة تجنّب في مسيره المناطق الساحلية، فقصد المناطق الداخلية يفتحها بلداً بلداً، ويبدو أنه فعل ذلك ليأخذ البربر إلى جانبه ويقيم جبهة داخلية تحيط بالبيزنطيين على الساحل وتمدّه بالطاقات البشرية للاستقرار والإطاحة بالوجود البيزنطي[10].

ثالثاً: بناء مدينة القيروان:

في سنة 50هـ بدأت إفريقية الإسلامية عهداً جديداً مع عقبة بن نافع، المتمرس بشؤون إفريقية منذ حداثة سنّه، فقد لاحظ كثرة ارتداد البربر، ونقضهم العهود، وعلم أن السبيل الوحيد للمحافظة على إفريقية ونشر الإسلام بين أهلها هو إنشاء مدينة تكون محط رحال المسلمين، ومنها تنطلق جيوشهم، فأسس مدينة القيروان وبنى جامعها[11]، وقد مهد عقبة

(1) الكامل في التاريخ (2/ 483).
(2) سرت مدينة بين برقة وطرابلس، معجم البلدان (3/ 206).
(3) ودان جنوب إفريقية بينها وبين زويلة عشرة أيام من جهة إفريقية، معجم البلدان (5/ 365، 366).
(4) فزان : جنوب ليبيا ولاية واسعة كانت عاصمتها زويلة.
(5) فتوح مصر، ص: 132.
(6) إقليم ببلاد السودان الغربي جنوب فزان، معجم البلدان (4/ 486).
(7) خاور : مدينة جنوب فزان.
(8) غدامس : مدينة جنوب ليبيا قرب الحدود الجزائرية.
(9) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 296.
(10) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص: 280.
(11) مدرسة الحديث في القيروان (1/ 38).

قبل بناء المدينة لجنوده بقوله: إن إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام، فإذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون عزاً للإسلام إلى آخر الدهر، فاتفق الناس على ذلك وأن يكون أهلها مرابطين، وقالوا: نقرب من البحر ليتم لنا الجهاد والرباط، فقال عقبة: إني أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية بغتة فيملكها، ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يوجب فيه التقصير للصلاة، فهم مرابطون[1]، ولم يعجبه موضع القيروان الذي كان بناه معاوية بن حديج قبله، فسار والناس معه حتى أتى موضع القيروان اليوم[2]، وكان موضع غيضة لا يرام من السباع والأفاعي، فدعا عليها، فلم يبق فيها شيء، وهربوا حتى أن الوحوش لتحمل أولادها[3]، وعن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب قال: يا أهل الوادي! إنا حالون إن شاء الله، فاظعنوا، ثلاث مرات فما رأينا حجراً ولا شجراً إلا يخرج من تحته دابة حتى هبطنا بطن الوادي، ثم قال للناس: انزلوا بسم الله[4]، وكان عقبة بن نافع مجاب الدعوة[5]، وقد رأى قبيل من البربر كيف أن الدواب تحمل أولادها وتنتقل، فأسلموا ثم شرع الناس في قطع الأشجار وأمر عقبة ببناء المدينة فبنيت وبني المسجد الجامع، وبنى الناس مساجدهم ومساكنهم وتم أمرها سنة 55هـ، وسكنها الناس، وكان في أثناء عمارة المدينة يغزو ويرسل السرايا، فتغير وتنهب ودخل كثيراً من البربر الإسلام، واتسعت خطة المسلمين وقوي جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان وأمنوا واطمأنوا على المقام فثبت الإسلام فيها[6]، وتم تخطيط مدينة القيروان على النمط الإسلامي، فالمسجد الجامع ودار الإمارة توأمان، لا ينفصل أحدهما عن الآخر، فهما دائماً إلى جوار بعضهما، ويكونان دائماً في قلب المدينة التي يخطتها المسلمون ويرتكزان في وسطها[7]، وبينهما يبدأ الشارع الرئيسي للقيروان، الذي سيسمى باسم السماط الأعظم، ثم ترك عقبة فراغاً حول المسجد ودار الإمارة في هيئة دائرة واسعة، ثم قسمت الأرض خارج الدائرة إلى خطط القبائل، ليكون استمراراً للشارع الرئيسي في الاتجاهين إلى نهاية المدينة، وانجفل البربر من نواحي إفريقية إلى القيروان، وسكنوا حولها، وكان الكثير منهم دخل في

---

(1) البيان المغرب (1/ 19).

(2) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 270.

(3) سير أعلام النبلاء (3/ 533).

(4) رياض النفوس (1/ 9) معالم الإيمان (1/ 9)، سير أعلام النبلاء (3/ 533).

(5) سير أعلام النبلاء (3/ 533) وخروج الدواب بسبب دعاء عقبة وتأمين من معه رواية صحيحة الإسناد.

(6) الكامل في التاريخ (2/ 484).

(7) الأمويون، محمد سيد الوكيل (1/ 72).

الإسلام، وشرعوا في تعلم اللغة العربية والقرآن الكريم وأمور دينهم، وهكذا نشاهد فيما بين سنتي 50 و55هـ حركة قوية بدأت في تعريب الشمال الأفريقي[1].

1 - الخصائص المتوفرة في موضع القيروان:

كانت الدوافع السياسية والعسكرية والإدارية والدعوية دوافع قوية في قرار عقبة في اتخاذ موقع القيروان، فقد تميز موقع القيروان بالآتي:

أ ـ بأنه لا يفصله عن مركز القيادة العسكرية في الفسطاط أي بحر أو نهر، فهو يقع على الطريق البري الذي يربط بين الفسطاط (بمصر) وبين المغرب، ويبدو أن عقبة ﷺ أخذ بنظرية عمر بن الخطاب في بناء الأمصار والمعسكرات بألا يفصلها فاصل من نهر أو بحر أو جسر عن المدينة أو مركز القيادة، وأن تكون على طرف البر أو أقرب إلى البر والصحراء.

ب ـ موافقة الموضع لذهنية العرب ومتطلباتهم الضرورية. وتتجلى هذه الخصوصية من خلال قراءة توصية عقبة بن نافع في أن يكون الموضع قريباً من السبخة: فإن أكثر دوابكم الإبل تكون إبلكم على بابها في مراعيها[2]. . ، وكذلك في الكلمات التي عبر عنها أصحاب عقبة عندما استجمع رأيهم في الموضع المنتخب، إذ قالوا: نحن أصحاب إبل ولا حاجة لنا بمجاورة البحر[3].

جـ ـ بأنه يتمتع ببعض الإنتاجات والموارد الذاتية، فالمنطقة التي كان فيها موضع القيروان عبارة غيضة، كما أورد الجغرافيون، وكان مواجهاً لجبال أوراس، معقل قبائل البربر، إذن، فإنه كان في بقعة زراعية تتضمن بعض المحاصيل التي تكفل للمجاهدين المسلمين مورداً غذائياً مهماً[4].

د ـ صحيح أن المشكلة الرئيسية التي جابهتها القيروان بعد اتخاذها كانت متمثلة بالموارد المائية، كما هي الحال في مدينة البصرة، مع وجود فارق بين المصريين، فإن مياه البصرة كانت مع الأنهار غير أنها مالحة. أما مياه القيروان الصالحة للشرب فكانت تعتمد على مصدرين، الأول منهما الأمطار حيث كانت تخزن في صهاريج يطلق عليها اسم (المواجل)، وثانيها مياه وادي السراويل في قبلة المدينة، لكنه كان مالحاً. لذلك فإن بعض المؤرخين حدد مصدر مياه القيروان قائلاً: وشربهم من ماء المطر، إذا كان الشتاء ووقعت الأمطار والسيول دخل ماء المطر من الأودية إلى برك عظام يقال لها (المؤجل). . ولهم وادٍ يسمى وادي

---

(1) تاريخ المغرب وحضارته (1/ 89).

(2) الروض المعطار، ص: 486، دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية، د. عبد الجبار ناجي، ص: 252.

(3) الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى (1/ 78).

(4) القيروان، للحبيب الجنحاني، ص: 59.

السراويل في قبلة المدينة يأتي فيه ماء مالح.. يستعملونه فيما يحتاجونه[1]، ومع ذلك، فإن هذه المشكلة المعقدة يبدو أنها أخذت تتضاءل تدريجياً إلى حد ما[2].

2 - القيروان مركز الحضارة الإسلامية بالمغرب وعاصمتها العلمية:

لم تبدأ الحياة العلمية المركزة إلا بعد تأسيس القيروان سنة 50هـ، فسرعان ما أصبحت القيروان مركز الحضارة الإسلامية بالمغرب وعاصمته العلمية، منها انطلق الدعاة وإليها رحل طلاب العلم من الآفاق، ومما رشح القيروان في هذه المكانة ما يلي:

أ ـ إن إنشاء مدينة القيروان، يعني أن إفريقية أصبحت ولاية إسلامية جديدة وجزءاً لا يتجزأ من العالم الإسلامي الكبير، وبالتالي سيعيش المسلمون فيها حياتهم العادية، على رأسها التعليم وبث الثقافة الإسلامية، فإن القيروان مدينة رسالة وعلى أهلها تلقي مسئولية نشر الإسلام في المغرب، فكما كانت منطلق الجيوش الفاتحة، كانت كذلك منطلق الدعاة إلى الأنحاء لنشر الإسلام، وقد شعر الصحابة بهذه المكانة للقيروان منذ تأسيسها[3].

ب ـ لقد تم بناء الجامع وهو المدرسة الأولى في الإسلام، ولا شك أن الصحابة الذين كانوا في جيش عقبة قد جلسوا للتدريس فيه على النمط الموجود في مدن المشرق آنذاك، فقد كان مع عقبة أثناء تأسيس القيروان ثمانية عشر صحابياً[4]، وقد مكثوا فيها خمس سنوات كاملة كان عملهم فيها - ولا شك - نشر اللغة العربية، وتعليم القرآن والسنة في جامع القيروان، وذلك أثناء بناء مدينة القيروان، حيث لم تكن هناك غزوات كبيرة تتطلب غياباً طويلاً عن القيروان، أما في غزوة عقبة الثانية فقد كان معه خمسة وعشرون صحابياً[5]، وسائر جيشه من التابعين، وقد انتشرت رواية الحديث النبوي الشريف في هذه الفترة مما دعا عقبة أن يوصي أولاده من ورائهم جميع المسلمين بتحري حديث الثقات وعدم كتابة ما يشغلهم عن القرآن[6].

جـ ـ لقد استقطبت القيروان أعداداً هائلة من البربر المسلمين الذين جاءوا لتعلم الدين الجديد، قال ابن خلدون عند حديثه عن عقبة: فدخل إفريقية وانضاف إليه مسلمة البربر، فكبر جمعه ودخل أكثر البربر في الإسلام ورسخ الدين[7]، ولا شك أن الفاتحين قد خصصوا لهم

---

(1) القيروان للحبيب الجنحاني، ص: 59.
(2) دراسات في المدن العربية الإسلامية، ص: 252.
(3) مدرسة الحديث في القيروان (1/ 50).
(4) البيان المغرب (1/ 20).
(5) المصدر نفسه (1/ 23).
(6) شجرة النور (2/ 100) مدرسة الحديث في القيروان (1/ 51).
(7) تاريخ ابن خلدون (4/ 186).

من يقوم بهذه المهمة[1]. ومن القيروان انتشر الإسلام في سائر بلاد المغرب، فقد بنى عقبة بالمغربين الأقصى والأوسط عدة مساجد لنشر الإسلام بين البربر، كما ترك صاحبه شاكراً في بعض مدن المغرب الأوسط لتعليم البربر الإسلام[2]، ولما جاء أبو المهاجر دينار لولاية إفريقية تألف كُسيلة وقومه وأحسن إلى البربر، فدخلوا في دين الله أفواجاً ودعّم حسان بن النعمان ـ فيما بعد ـ جهود عقبة في نشر الإسلام بين البربر حيث خصّص ثلاثة عشر فقيهاً من التابعين لتعليم البربر العربية والفقه ومبادئ الإسلام[3]، وواصل موسى بن نُصير هذه المهمة حيث: أمر العرب أن يعلّموا البربر القرآن وأن يفقّهوهم في الدِّين[4]، وترك في المغرب الأقصى سبعة وعشرين فقيهاً لتعليم أهله[5].

د ـ كان كثير من أفراد الجيش قد صحبوا معهم زوجاتهم، ومنهم من اتخذ بإفريقية السراري وأمهات الأولاد، قال أبو العرب[6]: روى بعض المحدثين أن عبد الله بن عمر بن الخطاب لما غزا مع معاوية بن حديج كانت معه أم ولد له، فولدت له صبية من أم الولد وماتت، فدفنها في مقبرة قريش بباب سلم، فاتخذتها قريش مقبرة يدفنون فيها لمكان تلك الصبية[7]. ومن هنا كان لابد من الاهتمام بتعليم النشء المسلم مبادئ الإسلام واللغة العربية ولذلك فقد نشأت الكتاتيب بالقيروان في وقت مبكر جداً، فقد روي عن غياث بن شبيب أنه قال: كان سفيان بن وهب صاحب رسول الله ﷺ يمر بنا ونحن غلمة بالقيروان فيسلم علينا ونحن في الكُتّاب وعليه عمامة قد أرخاها من خلفه[8]، وكان سفيان بن وهب قد دخل القيروان مرتين: أولاهما سنة 60هـ أي بعد الانتهاء من تأسيس القيروان بخمس سنوات، والثانية سنة 78هـ[9].

هـ ـ إن الموقع الجغرافي لمدينة القيروان كان له دور كبير في إثراء الحياة العلمية وإنعاشها، فقد كانت في موقع متوسط بين الشرق والغرب يمرّ بها العلماء والطلبة من أهل المغرب والأندلس في ذهابهم إلى المشرق، فيسمعون من علمائها[10]، وكثير منهم يصبح أهلاً للعطاء

---

(1) مدرسة الحديث في القيروان (1/ 51).
(2) البيان المغرب (1/ 27) مدرسة الحديث في القيروان (1/ 51).
(3) مدرسة الحديث في القيروان (1/ 52).
(4) البيان المغرب (1/ 42).
(5) المصدر نفسه (1/ 42).
(6) الرياض (1/ 91) مدرسة الحديث في القيروان (1/ 52).
(7) مدرسة الحديث في القيروان (1/ 52).
(8) أسد الغابة، نقلاً عن مدرسة الحديث في القيروان (1/ 52).
(9) مدرسة الحديث في القيروان (1/ 53).
(10) المصدر نفسه.

عند عودته فيسمع منه أهلها، كما كان يدخلها من يقصد المغرب أو الأندلس من أهل المشرق[1].

و ـ لقد كانت التجارة في القيروان رابحة والسلع فيها نافقة، ولذلك أمّها كبار التجار من المشرق والمغرب وكثير منهم من المحدّثين والفقهاء، فكان ذلك عاملاً مهماً في ازدهار الحياة العلمية بالقيروان[2].

ز ـ وممّا أسهم في شراء الحياة العلمية كون القيروان آنذاك هي العاصمة السياسية، ذلك أنّه كلما جاء أمير جديد اصطحب معه مجموعة من العلماء والأدباء، كما أن كثيراً من المحدثين والفقهاء يفدون إلى العاصمة الإفريقية ضمن الجيوش القادمة من المشرق والتي استمر مجيئها إلى بعض منتصف القرن الثاني، هذا بالإضافة إلى من كان يقصد الأمراء للمدح والتسلية من أهل الشعر والأدب[3].

ح ـ كما أن القيروان اكتسبت نوعاً من الاحترام والتعظيم باعتبارها البلد الذي أسسه صحابة رسول الله ﷺ، وظهر بها على أيديهم كثير من الكرامات، واستقر بها بعضهم مدة من الزمن، وهي آخر ما دخله الصحابة من بلاد المغرب[4]، كل هذه الأمور هيأت القيروان لدور الريادة العلمية في إفريقية والمغرب حتى وصفها أبو إسحاق الجبنياني بقوله: القيروان رأس وما سواها جسد، وما قام برد الشبه والبدع إلا أهلها، ولا قاتل ولا قتل على إحياء السنة إلا أئمتها[5]، وقد لهج المؤلفون القدامى بفضل القيروان على سائر بلاد المغرب في المجال العلمي، من ذلك ما وصفها به ماقديشي بأنها: منبع الولاية والعلوم، فهي لأهل المغرب أصل كل خير، والبلاد كلها عيال عليها، فما من غصن من البلاد المغربية إلا منها علا، ولا فرع في جميع نواحيها إلا عليها ابتنى، كيف لا ومنها خرجت علوم المذهب وإلى أئمتها كل علم ينسب، ولا ينكر هذا خاص ولا عام، ولا يزاحمها في هذا الفضل أحد على طول الأمد والأيام[6]، وهكذا أصبحت القيروان دار العلم الإفريقية، وبرز فيها كبار المحدثين والفقهاء والقراء، ورحل إليها أهل المغرب والأندلس لطلب العلم، وقد نافح أهلها عن مذاهب السلف فصارت دار السنة والجماعة بالمغرب[7]، لقد قامت القيروان بدور كير في فتح شمال إفريقية كله والأندلس ونشر الإسلام في المغرب وأصبحت من أهم مراكز الحضارة الإسلامية[8].

---

(1) مدرسة الحديث في القيروان (1/ 53).
(2) المصدر نفسه.
(3) المصدر نفسه (1/ 54).
(4) المصدر نفسه (1/ 54).
(5) مناقب أبي إسحاق الجبنياني، ص: 60، 61.
(6) حسن البيان للشيخ محمد النيفر، ص: 189.
(7) مدرسة الحديث في القيروان (1/ 55).
(8) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 270.

رابعاً: عزل عقبة وتولي أبي المهاجر دينار سنة 55هـ:

بينما كان عقبة يواصل فتوحاته، وينظم مدينته الجديدة، إذ بوالي مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري يعزله ويولي مكانه مولاه أبا المهاجر بولاية إفريقية، وقد صرح هو نفسه بذلك حينما قالوا له: لو أقررت عقبة فإن له جزالة وفضلاً فقال: . . . إن أبا المهجر صبر علينا في غير ولاية، ولا كبير نيل فنحن نحب أن نكافئه[1]، ولما عزل عقبة ذهب إلى معاوية في دمشق معاتباً، وقال له: فتحت البلاد، وبنيت المنازل، ومسجد الجماعة ودانت لي، ثم أرسلت عبد الأنصار، فأساء عزلي. فاعتذر إليه معاوية، وقال له: عرفت مكان مسلمة بن مخلد من الإمام المظلوم، وتقديمه إياه، وقيامه بدمه وبذله مهجته[2]، ووعد معاوية عقبة برده إلى ولايته، ولكن الأمر تراخى - كما يقول ابن عذارى - حتى توفي معاوية وأفضى الأمر إلى يزيد، فرد عقبة والياً على إفريقية[3]. وهناك نقطة في هذا الموضوع، وهي الإساءة التي تعرض لها عقبة من أبي المهاجر أثناء عزله، فقد ذكرت المصادر أن أبا المهاجر أساء إلى عقبة إساءة بالغة، فقد سجنه وأوقره حديداً[4]، ولا ندري ما الذي حمل أبا المهاجر على هذا؟ قال الدكتور عبد الشافي محمد عبد اللطيف في كتابه القيم: ولا ندري ما الذي حمل أبا المهاجر على هذا؟ ويصعب علينا أن نقبل اتهام الدكتور حسين مؤنس لمسلمة بن مخلد بأنه هو الذي أوعز إلى أبي المهاجر أن يسيء إلى عقبة[5]. فهذا اتهام لا يستند إلى دليل، خصوصاً وأن ابن عبد الحكم يقول عن مسلمة حين ولي أبا المهاجر: وأوصاه حين ولاه أن يعزل عقبة بأن يحسن العزل، فخالفه أبو المهاجر، فأساء عزله وسجنه وأوقره حديداً، حتى أتاه كتاب من الخليفة بتخلية سبيله وإشخاصه إليه[6]. ثم يذكر أن مسلمة ركب إلى عقبة حين مر بمصر وترضاه وأقسم له بالله لقد خالفه ما صنع أبا المهاجر وقال له: ولقد أوصيته بك خاصة[7]، ولكن لماذا خالف أبو المهاجر وصية مولاه مسلمة وأساء إلى عقبة، مع أنه هو شخصياً كان يجل عقبة، ويعرف مقامه، وقد جزع عندما دعا عليه عقبة، وقال: هذا رجل لا يرد له دعاء؟ هذا هو السؤال الذي لا نملك عليه جواباً شافياً. . اللهم إلا الاستنتاج الذي أخذ به محمد علي دبوز، وهو أن أبا المهاجر ربما يكون قد اضطر اضطراراً إلى القبض على عقبة وسجنه، لأن عقبة خاشنه ولم

---

(1) فتوح مصر، ص: 134، البيان المغرب (1/ 22).
(2) فتوح مصر، ص: 134.
(3) البيان المغرب (1/ 22) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 271.
(4) فتوح مصر، ص: 133 - 134، البيان المغرب (1/ 22)
(5) فتح العرب للمغرب، ص: 151.
(6) فتوح مصر، ص: 133.134.
(7) فتوح مصر، ص: 134.

يرضخ للعزل بسهولة، لأنه كان يرى نفسه أحق بالولاية والقيادة من أبي المهاجر، ولعل أبا المهاجر قد خاف من خلاف يقع بين المسلمين لعدم رضوخ عقبة له فيستغله أعداؤهم الروم، فاضطر إلى سجنه حتى لا يحدث خلل بين المسلمين[1]. إن كان هذا الاستنتاج صحيحاً وهو على كل حال معقول، فقد يخفف من شدة اللوم الذي يوجهه إلى أبي المهاجر كل مسلم حريص على أن تسود روح الاحترام والإجلال بين القادة المسلمين مهما كانت خلافاتهم، وأن يحاول اللاحق منهم الاستفادة من جهود السابق وخبرته، بدلاً من الإساءة وتبادل الأحقاد، وأن يكون السابق منهم حريصاً كذلك على أن يعطي خبرته وتجاربه ونصائحه للاحق، حتى ينجح في مهمته، لأن هدفهم واحد وهو الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمته ونشر دينه[2].

خامساً: فتوحات أبي المهاجر دينار ٥٥ - ٦٢هـ:

على الرغم من الخطأ الكبير الذي ارتكبه أبو المهاجر في حق سلفه، المجاهد الكبير عقبة ابن نافع، إلا أن الإنصاف يقتضينا أن نقول أنه قام بدور عظيم في فتح المغرب وتمهيده لقبول الإسلام ديناً ونظام حياة، فقد كان أبو المهاجر يتمتع بقدر كبير من الكياسة والسياسة وحسن التصرف، وقد رأى ـ بثاقب نظره ـ أن سياسة الشدة التي كان يسير عليها عقبة بن نافع لا بد أن تغير، وعليه أن يصطنع بدلها سياسة كسب القلوب، فالبربر قوم أشداء يعتدون بكرامتهم وحريتهم، فسياسة اللين معهم قد تكون أجدى من سياسة الشدة، وقد نجح أبو المهاجر في سياسته تلك نجاحاً كبيراً، كما أن أبا المهاجر قد أدرك أن الذين يحركون البربر في شمال أفريقيا ضد المسلمين ويؤلبونهم عليهم، هم الروم[3]، الذين أخذوا يتحببون إلى البربر ولذلك انتهج سياسة تقوم على كشف حقيقة الروم وعلى إقناع البربر أن المسلمين ما جاءوا إلى هذه البلاد يستعمروهم ويستعبدونهم ويستغلوا بلادهم، كما يحاول الروم أن يفهموهم، وإنما جاءوا لهدايتهم ولخيرهم ودعوتهم إلى الإسلام الذي فيه سعادتهم ومساعدتهم على التحرر من ربقة الروم، الذين يستغلون بلادهم منذ قرون، وكان الروم رغم الهزائم التي حلت بهم في وسط إقليم إفريقية وجنوبه، لازالوا قوة في الشمال، ولازالت عاصمتهم قرطاجنة عذراء لم يقصدها أحد من الفاتحين الأولين، ثم إنهم لازالوا قوة في ساحل المغرب من بنزرت إلى طنجة، فكان على أبي المهاجر أن يضرب الروم ضربة قوية ليضعضع نفوذهم في تلك النواحي، ويكسر الحلف الذي عقدوه مع البربر، فسار إلى قرطاجنة ونازلها[4]، فاستغلقت وتحصنت بالأسوار العالية، فشدد أبو المهاجر الحصار عليها، فعلم الروم أنه لا قبل لهم

(1) تاريخ المغرب الكبير (2/ 32-33).
(2) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 274.
(3) تاريخ المغرب الكبير (2/ 33).
(4) النجوم الزاهرة (1/ 152).

بالجيش الإسلامي، وأن أبا المهاجر لا بد أن ينتصر عليهم، فيدخل العاصمة باقتداره وقوته، فطلبوا الصلح فصالحهم بإخلاء جزيرة شريك[1]، لتنزل فيها جنوده، وكان أبو المهاجر يهدف من احتلال جزيرة شريك، القريبة من قرطاجنة، أن يراقب الروم وتحركاتهم، وترك فيها حامية من الجيش جعل على رأسها قائده حنش الصنعاني ليصد الروم إذا حاولوا مهاجمة المسلمين أثناء غزوهم للبلاد[2].

رفع أبو المهاجر الحصار عن قرطاجنة بعد أن انتزع من الروم جزيرة شريك، ذلك الموقع الاستراتيجي الهام، وترك فيها حامية تؤمن ظهر المسلمين، وتراقب تحركات الروم، ثم اتجه بعد ذلك مسايراً الساحل ناحية الغرب، وقد خافه الروم والبربر جميعاً، فلم يتعرض له أحد، حتى وصل إلى مدينة ميلة[3]، على خمسين ميلاً من بجاية في جنوبها الشرقي[4] فوجدها مستعدة للقتال، وكان فيها طائفة من البربر والروم، تحصنوا بها، فنازلها أبو المهاجر واحتلها، وغنم ما فيها واستقر بها، وكانت ميلة تتوسط المغربين الأدنى والأوسط، فهي أحسن مكان يراقب منه أمور البربر والروم في هذه البقاع، فجعلها مقره، وأقام بها نحواً من سنتين وقد استثمر هذه المدة في الاتصال بالبربر، وإفهامهم حقيقة الإسلام، ودعوتهم إليه، وقد نجح في سياسته نجاحاً كبيراً فأقبل البربر على الإسلام، وآية ذلك أن المؤرخين لم يتحدثوا عن معارك وقعت له في هذه النواحي من المغرب، قسطنطينية الآن ونواحيها إلى بجاية[5]. لأن الروم كانوا يتقوون بالبربر، وهاهو أبو المهاجر قد نجح في اجتذاب البربر وفصلهم عن الروم، فسكنت تلك النواحي، سكون البحر بعد العاصفة[6]، وترامت الأخبار إلى أبي المهاجر أن جمعاً من الروم والبربر يستعد لحربه، فقرر المسير إليهم، وكانت زعامة المغربين الأوسط والأقصى لقبيلة أوربة[7]، وهي قسم كبير من أقسام البربر البرانس، وكان زعيم هذه القبيلة كسيلة بن لمزم، وكان كسيلة قوي الشخصية ذكي الفؤاد، غيوراً على وطنه، وكان البربر يجلونه ويحبونه، وكان نصرانياً متمسكاً بدينه، وكان لا يعرف حقيقة الإسلام والمسلمين، فاستطاع الروم أن يوحوا إليه ما أرادوا في الإسلام والمسلمين فرآهم عدواً لدينه ووطنه، ورأى أن أبا المهاجر في ميلة، فعلم أنه لا بد أن يسير لافتتاح المغرب الأوسط

---

(1) سميت شريك نسبة إلى شريك العبسي وهي تقع شرق قرطاجنة تاريخ المغرب الكبير (2/ 34).
(2) تاريخ المغرب الكبير (2/ 34)، العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 276.
(3) النجوم الزاهرة (1/ 152) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 277.
(4) بجاية على ساحل البحر بين تونس والمغرب معجم البلدان (1/ 339).
(5) تاريخ المغرب الكبير (2/ 35).
(6) المصدر نفسه (2/ 35) العالم الإسلامي في العصرالأموي، ص: 277.
(7) تاريخ ابن خلدون (6/ 146) تاريخ المغرب الكبير (2/ 38).

والأقصى، فذهب يدعو البربر لمكافحة المسلمين والاستعداد لحربهم وإجلائهم عن بلادهم، فتحمس البربر بثورة أميرهم كسيلة فلبسوا لأمة الحرب، واستعدوا للقراع، فتجمع لكسيلة جيش كثيف من البربر والروم[1].

1 - معركة تلمسان[2]:

بعد أن استكمل كسيلة عدته عسكر في تلمسان، وانتظر اللقاء المرتقب مع أبي المهاجر ولم يطل انتظاره، فقد وصل أبو المهاجر، وعسكر بجيشه حول تلمسان، فالتقى الجيشان ودارت معركة قاسية، أبلى فيها كل من الفريقين بلاءً كبيراً، وأدركوا خطورتها وأن لها ما بعدها، وكثر القتلى من الجيشين، ثم أنزل الله نصره على المسلمين، فهزموا جيش كسيلة فولى الأدبار.

2 - إسلام كسيلة:

أسر كسيلة في معركة تلمسان وحمل إلى أبي المهاجر فأحسن إليه وقربه وعامله معاملة الملوك[3]، وطمع في إسلامه، فحدثه عن الإسلام وعرفه حقيقته، وإنه دين التوحيد الخالص، والعدل والمساواة، والأخوة، وأنه لو أسلم فلن يخسر شيئاً، بل العكس سوف يكسب الكثير روحياً ومادياً، وكان كسيلة ذكياً طموحاً مخلصاً لقومه لا يريد لهم إلا الإصلاح، فآمن كسيلة، وأصبح من المسلمين وأغرم بالعربية فصار يتعلمها، وأصبح من المقربين من أبي المهاجر وشمّر كسيلة لمناصرة الإسلام والمسلمين ودعا قومه البربر للدين الحنيف، وكان البربر قد تفتحت قلوبهم للإسلام والمسلمين.

وعاد أبو المهاجر بعد أن اطمأن إلى أمور المغرب الأوسط وإلى إسلام البربر إلى مقره قريباً من القيروان، وأقام بقرية تسمى دكرور يراقب الأمور، ويرصد تحركات الروم ودسائسهم ويعمل على إزالة نفوذهم من الشمال الإفريقي، لكن لسوء الحظ لم يطل به المقام، فقد توفي مولاه مسلمة بن مخلد الأنصاري والي مصر سنة 62هـ وكان مسلمة سنداً قوياً لأبي المهاجر، فلما زال هذا السند أعاد يزيد بن معاوية 60 ، 64هـ عقبة بن نافع إلى إفريقية ثانية وعزل أبا المهاجر[4]، وفي تولية أبو المهاجر على إفريقية دليل على ثقة مسلمة بن مخلد الأنصاري فيه وحسن معاملة الموالي في الإسلام، وبيان أن الناس كلهم سواسية في الإيمان سواء أكانوا عرباً مسلمين أو أجناساً أخرى من غير العرب، ونستدل من هذا الاختيار على أن

---

(1) تاريخ المغرب الكبير (2/ 38).

(2) هما مدينتان أحدهما قديمة والأخرى جديدة اختطها المرابطون، فهي كالفسطاط والقاهرة من أرض مصر، معجم البلدان (2/ 44).

(3) تاريخ المغرب الكبير (2/ 38).

(4) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 279.

الموالي قد تمتعوا بمكانه مرموقة في العصر الأموي بعكس ما تصوره بعض الأقوال، وقيل أنا أبا المهاجر من موالي النوبة في مصر، وقيل بأنه يرجع إلى أصول بربرية[1].

سادساً: حملة عقبة بن نافع الثانية ٦٢ - ٦٣هـ:

وصل عقبة بن نافع إلى إفريقية ورتب أمورها وعامل أبا المهاجر معاملة قاسية، فقد أوثقه في وثاق شديد[2]، ومع هذا فقد كان أبو المهاجر مخلصاً وفياً شهماً غيوراً فلم يبخل بنصائحه لعقبة بالرغم ما حدث بينهما من الجفوة، ومن أبرز هذه النصائح إشارته على عقبة بإكرام زعيم البربر كسيلة، ومحاولة تأليفه ليبقى على الإسلام، ولكن عقبة أهان ذلك الزعيم، حيث أمره يوماً أن يسلخ شاة بين يديه، فدفعها كسيلة إلى غلمانه، فأراده عقبة على أن يتولاها بنفسه وانتهره، فقام كسيلة مغضباً وجعل كلما دس يده في الشاة مسح بلحيته، وبلغ ذلك أبا المهاجر فبعث إليه ينهاه ويقول: كان رسول الله ﷺ يتألف جبابرة العرب وأنت تعمد إلى رجل جبّار في قومه وبدار عزه حديث عهد بالشرك فتفسد قلبه؟ توثّق من الرجل فإني أخاف فتكه[3] فتهاون به عقبة، وسيأتي الحديث عن غدر كسيلة بالمسلمين وكيف اغتنم فرصة انفراد عقبة في بعض جيشه كما سيأتي بيانه، وكيف قال عقبة لأبي المهاجر: الحق بالقيروان وقم بأمر المسلمين وأنا أغتنم الشهادة، فقال أبو المهاجر: وأنا أغتنم الشهادة مثلك، فكسر كل واحد منهما غمد سيفه وكسر المسلمون أغماد سيوفهم وقاتلوا حتى قتلوا[4].

قد لاحظنا أن أبا المهاجر خاض معركة واحدة كبرى دوخ بها الروم والبربر، وخضع له البربر، ودخل بعض زعمائهم في الإسلام وأبرزهم كسيلة، ودخل كثير من قومه في الإسلام، ووفر أبو المهاجر بذلك جهوداً كبيرة لابد من بذلها في فتح بلاد المغرب لو بقي أولئك البربر على كفرهم، ولاشك أن عقبة حينما أهان ذلك الزعيم البربري لم يكن يعتقد بصحة إسلامه، إذ أن عقبة كان في غاية التواضع للمسلمين وكان اجتهاده يقضي بمحاولة إذلال ذلك الرجل حتى يتحطم طغيانه وتهون مكانته في نفوس قومه فلا يستطيع بعد ذلك أن يستنفرهم لحرب ضد المسلمين، ولكنه أخطأ في اجتهاده لأن قوم ذلك الرجل كانوا حديثي عهد بالإسلام، ومهما كان لظن عقبة فيه من احتمال في عدم الصدق في الولاء فإن كسبه وبقاءه في جيش المسلمين وتحت سلطتهم أولى بكثير من معاداته وإتاحة الفرصة له لضرب المسلمين من مكامن الخطر، وهو الذي صحبهم وحاز على شيء من ثقتهم[5]، ومن موقف عقبة المذكور تظهر لنا نتيجة مهمة

---

(1) خلافة معاوية للعقيلي، ص: 130، 131.

(2) فتوح مصر، ص: 134.

(3) قادة فتح المغرب (1/ 137 - 142) رياض النفوس (1/ 26).

(4) رياض النفوس (1/ 26 - 27) قادة فتح المغرب (1/ 137 - 142).

(5) التاريخ الإسلامي (13/ 254).

من نتائج العمل بسنن الإسلام التي من أهمها: العمل بالشورى وأخذ رأي أهل الحل والعقد خاصة في الأمور المهمة، وعلى أي حال فإن كلا القائدين كان مجتهداً في تصرفه ولا يظن بواحد منهما أنه كان يعمل لصالح نفسه أو لصالح عشيرته، وإنما كان رائدهما النظر في مصلحة الإسلام والمسلمين، ولكن كان اجتهاد أبي المهاجر أقرب إلى الصواب في هذه القضية[1].

1 - جهاده من القيروان إلى المحيط:

بعد اكتمال بناء القيروان عام خمسة وخمسين، عُزل عقبة بن نافع عن ولاية إفريقية، ثم أُعيد إليها عام اثنين وستين، قام برحلته الجهادية المشهورة التي قطع فيها ما يزيد على ألف ميل من القيروان في تونس إلى ساحل المحيط الأطلسي في المغرب، وقد استخلف على القيروان زهير بن قيس البلوي ودعا لها قائلاً: يا رب املأها علماً وفقهاً واملأها بالمطيعين لك، واجعلها عزاً لدينك وذلاً على من كفر بك.. وامنعها من جبابرة الأرض[2]، وخرج عقبة بأصحابه الذين قدم بهم من الشام وعددهم عشرة ألف إلى جانب عدد كبير انضم إليهم من القيروان، ودعا بأولاده قبل سفره وقال لهم: إني قد بعت نفسي من الله عز وجل فلا أزال أجاهد من كفر بالله ثم قال: يا بني أوصيكم بثلاث خصال فاحفظوها ولا تضيعوها: إياكم أن تملئوا صدوركم بالشعر وتتركوا القرآن، فإن القرآن دليل على الله عز وجل، وخذوا من كلام العرب ما يهتدي به اللبيب ويدلكم على مكارم الأخلاق، ثم انتهوا عما وراءه، وأوصيكم أن لا تُداينوا ولو لبستم العباء فإن الدّين ذُلٌ بالنهار وهم بالليل، فدعوه تسلم لكم أقداركم وأعراضكم وتبق لكم الحرمة في الناس ما بقيتم، ولا تقبلوا العلم من المغرورين المرخصين فيجهلوكم دين الله ويفرقوا بينكم وبين الله تعالى، ولا تأخذوا دينكم إلا من أهل الورع والاحتياط فهو أسلم لكم، ومن احتاط سلم ونجا فيمن نجا ـ ثم قال: عليكم سلام الله وأراكم لا ترونني بعد يومكم هذا ـ ثم قال: اللهم تقبّل نفسي في رضاك واجعل الجهاد رحمتي ودار كرامتي عندك[3]. وهكذا ما إن وطئت أقدام عقبة أرض القيروان حتى عزم على الخروج للجهاد غير هياب ولا متردد، ومما يدل على مبلغ حبه للجهاد وهيامه به قوله في وصيته لأولاده: إني قد بعت نفسي من الله عز وجل فلا أزال أجاهد من كفر بالله. فهو قد باع نفسه من الله عز وجل، واشتاق إلى الثمن العظيم الغالي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾

---

(1) المصدر نفسه (13/ 254).

(2) البيان المغرب (1/ 23)، الإسلام والتعريب في الشمال الإفريقي (1/ 126).

(3) البيان المغرب (1/ 23) صفحات من تاريخ ليبيا الإسلامي والشمال الإفريقي، ص: 248.

[التوبة: 111]. فجعل عمله الذي نذر حياته لأجله هو الجهاد، ونصب أمام عينيه الهدف السامي، وهو إعلاء كلمة الله في الأرض[1]، وفي وصيته المذكورة لأولاده فوائد جليلة، فقد أوصاهم بثلاث وصايا:

أ ـ الوصية الأولى: الاهتمام بانتقاء العلم واختيار أطيبه، وذلك بالاهتمام أولاً بالقرآن الكريم، حيث إنه الكتاب الذي يدل على الله عز وجل، وما أبلغه من وصف يهدي إلى بلوغ الهدف السامي الذي يسعى إليه كل مؤمن، وهو ابتغاء رضوان الله تعالى ونعيمه، ولا شك أن سنة رسول الله ﷺ مما يدخل في مقاصد القرآن الكريم لقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧﴾ [الحشر: 7]. ثم انتقاء الطيب من كلام العرب الذي يرشد إليه العقل السليم ويحث على مكارم الأخلاق.

ب ـ الوصية الثانية: البعد عن الاستدانة ولو دفع إليها الفقر لأن الدين ذل بالنهار حيث يدفع المستدين إلى بعض مواقف الذل أمام الدائن ومن لهم علاقة به، وهمٌّ بالليل حيث يخلو المستدين إلى نفسه فيتذكر حقوق الناس عليه.

جـ ـ الوصية الثالثة: التحري في تلقي العلم، وذلك باختيار العلماء الربانيين أهل الورع والتقوى، والبعد عن العلماء المغرورين أهل الدنيا والجاه، فإنهم يزيدون المتعلم جهلاً حيث يبعدونه عن حقيقة العلم وثمرته وهي تقوى الله عز وجل[2]. ونجد عقبة في نهاية وصيته لأولاده يسلّم عليهم سلام المودع، مما يدل على استماتته في سبيل الله تعالى، ثم يقول: اللهم تقبل نفسي في رضاك، واجعل الجهاد رحمتي ودار كرامتي عندك[3]. وبهذا الاهتمام الكبير نجح عقبة بن نافع رحمه الله في فتوحاته حيث جعل الجهاد قضيته الكبرى في هذه الحياة[4]. سار عقبة في جيش عظيم متجهاً إلى مدينة باغية[5]، حيث واجه مقاومة عنيفة من البيزنطيين الذين انهزموا أمامه ودخلوا مدينتهم وتحصنوا بها، فحاصرهم مدة ثم سار إلى تلمسان وهي من أعظم مدائنهم، فانضم إليها من حولها من الروم والبربر فخرجوا إليه في جيش ضخم والتحم القتال، وثبت الفريقان حتى ظن المسلمون أن في تلك المعركة فناءهم، ولكن منَّ عليهم بالصبر فكانوا في ذلك أشدَّ وأصبر من أعدائهم فهاجموا الروم هجوماً عنيفاً حتى ألجئوهم إلى حصونهم فقاتلوهم إلى أبوابها وأصابوا منهم غنائم كثيرة[6]، ثم استمر غرباً قاصداً بلاد

---

(1) التاريخ الإسلامي (13/ 257).
(2) صفحات من تاريخ ليبيا الإسلامي والشمال الإفريقي، ص: 259.
(3) البيان المغرب (1/ 23).
(4) التاريخ الإسلامي (13/ 258).
(5) مصر في العصر الأموي، ص: 123، الكامل في التاريخ (2/ 589).
(6) البيان المغرب (1/ 23-27) التاريخ الإسلامي (13/ 261).

الزاب، فسأل عن أعظم مدنها فقيل له «أَرَبَه» وهي دار ملكهم وكان حولها ثلاثمائة وستون قرية كلها عامرة، فامتنع بها من كان هناك من الروم وأهل المدينة وهرب بعضهم إلى الجبال، فاقتتل المسلمون مع أهل تلك المدينة فانهزم أهل تلك البلاد وقُتل كثير من فرسانهم ورحل عقبة إلى «تاهرت» فاستغاث الروم بالبربر فأجابوهم ونصروهم.

وقام عقبة بن نافع في الناس فخطب خطبةً فقال بعدما حمد الله وأثنى عليه: أيها الناس إن أشرافكم وخياركم الذين رضي الله تعالى عنهم وأنزل فيهم كتابه بايعوا رسول الله بيعة الرضوان على من كذب بالله إلى يوم القيامة، وهم أشرافكم والسابقون منكم إلى البيعة، باعوا أنفسهم من رب العالمين بجنته بيعة رابحة، وأنتم اليوم في دار غربة وإنما بايعتم رب العالمين، وقد نظر إليكم في مكانكم هذا، ولم تبلغوا هذه البلاد إلا طلباً لرضاه وإعزازاً لدينه، فأبشروا فكلما كثر العدو كان أخزى لهم وأذل إن شاء الله تعالى وربكم عز وجل لا يُسلمكم، فالقوهم بقلوب صادقة، فإن الله عز وجل جعلكم بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين، فقاتلوا عدوكم على بركة الله وعونه، والله لا يرد بأسه عن القوم المجرمين[1].

وهذه خطبة عظيمة تدل على أن عقبة بن نافع ﷺ قد اعتمد في حروبه على السلاح الأعظم الذي فيه سر انتصارات المسلمين الباهرة.. ألا وهو التوكل على الله تعالى، واستحضار عظمته وجلاله، ومعيته لأوليائه المؤمنين بالنصر والتأييد، فهو لا يبالي بجيوش الأعداء مهما كثرت، وإنما الذي يهتم به أن يتأكد جيداً من أن هذا السلاح المعنوي الفعال قد توفر في جيشه، وحينما يضمن ذلك فإنه يرحب باجتماع جيوش الأعداء ليكون ذلك أسرع في هلاكهم وتمزيق جمعهم على يد أولياء الله الصالحين، وما أعظم شبه عقبة بخالد بن الوليد ﷺ، الذي كان يُسَرُّ ويداخله شعور بالقوة والتعاظم ـ من غير غرور ولا استهانة ـ كلما تضخم جيش الأعداء وتعددت عناصره، وكأن عقبة قد تأسى به واتخذه له قدوة في القيادة والإقدام الذي لا يعرف التردد والسآمة، وهو في إقدامه واندفاعه يدرك أن جنود الإسلام الصادقين هم بأس الله تعالى المسلط على أعدائه الكفار، والله تعالى لا يُردّ بأسه عن القوم المجرمين.

إن شعوره الدائم بأن المجاهدين المسلمين هم سيف الله تعالى وبأسه الموجه ضد أعدائه يجعله عظيم الثقة بنصر الله تعالى وحسن الظن به[2]. هذا وقد التقى المسلمون بأعدائهم في مدينة «تاهرت» وقاتلوهم قتالاً شديداً، فاشتد الأمر على المسلمين لكثرة عدوهم، ولكنهم انتصروا أخيراً، وانهزم أعداؤهم من الروم والبربر، وقتل منهم عدد كبير، وغنم منهم المسلمون أموالهم وسلاحهم[3]، ثم توجه إلى جهات المغرب الأقصى فوصل إلى طنجة،

---

(1) البيان المغرب (1/ 23-27) قادة الفتح المغرب العربي (1/ 108-120).

(2) التاريخ الإسلامي (13/ 260).

(3) الكامل في التاريخ (2/ 590).

حيث قابل بطريقاً من الروم اسمه «جوليان» الذي: أهدى له هدية حسنة، ونزل على حكمه[1] ولما سأله عقبة عن بحر الأندلس قال عنه: لا إنه محفوظ لا يرام[2]، ثم سأله عن البربر والروم بقوله: دلني على رجال البربر والروم فقال: قد تركت الروم خلفك وليس أمامك إلا البربر وفرسانهم في عدد لا يعلمهم إلا الله تعالى وهم أنجاد البربر وفرسانهم، فقال عقبة: فأين موضعهم؟ قال: في السوس الأدنى، وهم قوم ليس لهم دين[3].. استفاد عقبة من هذه المعلومات واتجه إلى الجنوب الغربي، قاصداً بلاد السوس الأدنى حيث التقى بجموع بربر أطلس الوسطى، فهزمهم وطاردهم نحو صحراء وادي درعا، حيث بنى مسجداً في مدينة درعا ثم غادر صحاري مراكش باتجاه الشمال الغربي إلى منطقة «تافللت» من أجل أن يدور حول جبال أطلس العليا كي يدخل بلاد صنهاجة الذين أطاعوه دون قتال، وكذلك فعلت قبائل هكسورة في مدينة «اغمات»، بعدها اتجه عقبة نحو الغرب إلى مدينة تفيس[4]، حيث حاصر بها جموعاً من البيزنطيين والبربر، فلم ينفعهم تحصنهم، فدخل المدينة متصراً وبذلك أتم تحرير بلاد السوس الأقصى ودخل عاصمتها «إيجلي» التي بنى فيها مسجداً، ثم دعا القبائل فيها هناك إلى الإسلام فأجابته قبائل جزولة، وبعد ذلك سار إلى مدينة «ماسة» ومنها إلى رأس «إيفران» على البحر المحيط[5]، وبوصول عقبة بن نافع إلى ساحل المحيط الأطلسي يكون قد أنجز تحرير معظم بلاد المغرب، وتشير مصادرنا التاريخية أن عقبة لما وصل إلى المحيط الأطلسي قال: يا رب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك. ثم قال: اللهم أشهد أني قد بلغت الجهود، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بالله حتى لا يعبد أحد من دونك، ثم وقف ساعة ثم قال لأصحابه: ارفعوا أيديكم، ففعلوا، فقال: اللهم لم أخرج بطراً ولا أشراً وإنك لتعلم أنما نطلب السبب الذي طلبه عبدك ذو القرنين وهو أن تُعبد ولا يُشرك بك شيء، اللهم إنا معاندون لدين الكفر، ومدافعون عن دين الإسلام، فكن لنا ولا تكن علينا يا ذا الجلال والإكرام، ثم انصرف راجعاً[6].

وندرك من قوله المذكور مدى حبه للجهاد وشعوره بالمسئولية الكبرى التي حملها على عاتقه نحو تبليغ الإسلام وتقوية دولته والقضاء على دول الكفر التي حجبت نور الإسلام عن شعوبها، فهو يقف على البحر المحيط ويعلم آنذاك أنه نهاية المعمور من الأرض من ناحية المغرب، ثم نجده يُشهد الله تعالى على أنه قد بلغ المجهود الذي تحت مقدرته، وهذه الشهادة

---

(1) المصدر نفسه (2/ 590).
(2) المصدر نفسه (2/ 590) مصر في العصر الأموي، ص: 125.
(3) الكامل في التاريخ (2/ 590) مصر في العصر الأموي، ص: 125.
(4) مصر في العصر الأموي، ص: 126، البيان المغرب (1/ 26-27).
(5) الكامل في التاريخ (2/ 590).
(6) الكامل في التاريخ (2/ 590)، البيان المغرب (1/ 27.23). قادة الفتح المغرب العربي (1/ 108-120).

تشعرنا بمدى ارتباط عقبة بالله تعالى، وأنه لم يكن يسير خطوة إلا وهو يستلهم التوفيق منه جل وعلا ويطلب رضوانه، وهذا الكلام يدل على وضوح الهدف من الجهاد عند عقبة حيث بيّن أن الحد الذي يقف عنده الجهاد، أن يزول الشرك من الأرض، وأن لا يعبد إلا الله وحده، ومادام الشرك قائماً فإن الجهاد لا بد أن يكون موجوداً، فالجهاد إذن هو جهاد الدعوة إلى الله تعالى، وذلك بإزالة الطغيان البشري وإخضاع دول العالم لحكم الإسلام لكي يكون فهم الإسلام واعتناقه متيسراً لكل الناس[1]. ولم يقف عمل عقبة على الجهاد بل رافق ذلك بناء المساجد مثل مسجد درعة ومسجد ماسة بالسوس الأقصى[2]، كما كان يترك نفراً من أصحابه يعلمون الناس القرآن وشرائع الإسلام، ومن هؤلاء شاكر الذي بنى رباطاً ما بين بلدتي مراكش وموجادور ولا زال موقعه باقياً إلى اليوم وهو المعروف عند العامة بالمغرب الأقصى بسيدي شاكر[3]، ويظهر أن أغلبية بربر المغرب الأقصى أسلموا على يده طوعاً مثل صنهاجة وهسكورة وجزولة[4]، كما أخضع المصامدة، وحملهم على طاعة الإسلام[5]، وكي يأمن القبائل الكثيرة من الانتقاض عليه، كان عقبة يأخذ منها رهائن ويولي عليها رجلاً منها مثلما فعل مع مصمودة فقد ترك عليها أبا مدرك زرعة بن أبي مدرك، أحد رؤسائها، الذي شارك في فتح الأندلس فيما بعد[6]، ويلاحظ أن الوثنية كانت غالبة على بربر المغرب الأقصى مما يفسر كثرة السبايا والغنائم، وأصاب «عقبة» نساء لم يرى الناس مثلهن فقيل أن الجارية كانت تساوي بالمشرق ألف مثقال وأكثر[7]، وكان السبي أحد عوامل انتشار الإسلام بين البربر بحكم اختلاطهم بالبيئة العربية الإسلامية، ثم إن الاحتكاك والاختلاط المستمرين بين المقاتلة العرب والبربر أوجد صلات وروابط تجلت في الحلف والولاء في هذا الوقت المبكر[8]. يذكر السلاوي أن عقبة حين وصل إلى جبل درن: نهضت زناته وكانت خالصة للمسلمين منذ إسلام مغراوة[9] وهذا يشعر بأن بعض زناته ومغراوة كانتا قد أسلمتا منذ زمن وكانتا حليفتين للمسلمين فنهضتا للدفاع عن المسلمين[10].

---

(1) التاريخ الإسلامي (13/ 262).
(2) رياض النفوس (1/ 26)، الإسلام والتعريب (1/ 133).
(3) البيان المغرب (1/ 27).
(4) الإسلام والتعريب في الشمال الإفريقي (1/ 133).
(5) تاريخ ابن خلدون (6/ 108).
(6) فتوح مصر، ص: 207، الإسلام والتعريب (1/ 134).
(7) رياض النفوس (1/ 24).
(8) الإسلام والتعريب في الشمال الإفريقي (1/ 134).
(9) المصدر نفسه (1/ 135).
(10) المصدر نفسه (1/ 135).

2 - استشهاد عقبة بن نافع وأبو المهاجر رحمهما الله تعالى:

يبدو أن عقبة المجاهد المخلص، كان يحس إحساس المؤمن الصادق، أنه سيلقى ربه شهيداً في هذه الجولة، فعندما عزم على المسير من القيروان في بداية الغزو دعا أولاده وقال لهم: إني قد بعت نفسي من الله عز وجل . . . إلى أن قال: ولست أدري أتروني بعد يومي هذا أم لا، لأن أملي الموت في سبيل الله، وأوصاهم بما أحب، ثم قال: عليكم سلام الله. . اللهم تقبل نفسي في رضاك[1]. نعى عقبة نفسه إلى أولاده، فتقبل الله منه وحقق له أمله في الشهادة، فقد أعد له الروم والبربر كميناً عند تهوذة[2]، وأوقعوا به وقضوا عليه هو ومن معه من جنوده.

وترجع المصادر أمر الكارثة التي تعرض لها عقبة عند تهوذة إلى سبب رئيسي وهو سياسته نحو البربر بصفة عامة، وزعيمهم كسيلة بصفة خاصة، ذلك الزعيم صاحب النفوذ والمكانة في قومه، والذي كان أبو المهاجر قد تألفه وأحسن إليه، فأسلم وتبعه كثير من قومه، لكن عقبة أساء إلى هذا الرجل إساءة بالغة، فأدرك أبو المهاجر عاقبة الخطأ الذي وقع فيه عقبة ولم يكتم نصيحته عنه ـ رغم أنه كان في حكم المعتقل ـ ولكن عقبة لم يسمع منه، وكان أبو المهاجر من معاشرته للبربر وزعيمهم، قد عرف مدى اعتزازهم بكرامتهم وأدرك أنهم لن يقبلوا هذه الإهانة وهذا الإذلال الذي لحق بزعيمهم من عقبة فخاف غدرهم، فأشار على عقبة بالتخلص من كسيلة وقال له: عاجله قبل أن يستفحل أمره[3]، ولكن عقبة لم يصغ إلى هذه النصيحة أيضاً وليته احتاط للأمر، بل أقدم على عمل آخر في غاية الخطورة، حيث جعل معظم جيشه يسير أمامه بعد أن رجع من رحلته الطويلة من المغرب الأقصى قاصداً القيروان، ولما صار قريباً من القيروان أرسل غالب جيشه على أفواج إلى القيروان وبقي هو على رأس الفوج الأخير، ومعه ما يقرب من ثلاثمائة من الفرسان من الصحابة والتابعين، وكان من عادة عقبة أنه يكون في مقدمة الجيش عند الغزو ويكون في الساقة عند قفول الجيش، فهو بذلك يعرض نفسه لخطر مواجهة العدو دائماً، وإن هذه التضحية الكبيرة جعلته محبوباً لدى أفراد جيشه بحيث لا يعصون له أمراً ويتسابقون على التضحية اقتداء به، وهذه الصفة تعتبر من أهم عوامل نجاح القائد في أي عمل يتوجه إليه. ولما علم الروم بانفراد عقبة بهذا العدد القليل من جيشه انتهزوا هذه الفرصة لمحاولة القضاء عليه، وهم يدركون أن وجوده القوي يعتبر أهم العوامل في تماسك المسلمين وبقاء قوتهم، فتآمروا عليه مع كسيلة البربري، فجمعوا لعقبة وأصحابه جمعاً لا قِبَلَ لهم به[4] وإذا بكسيلة يحيط بجيش

---

(1) البيان المغرب (1/ 2423).

(2) تهوذة : اسم لقبيلة بربرية بناحية إفريقية لهم أرض تعرف بهم.

(3) الكامل في التاريخ (2/ 591).

(4) التاريخ الإسلامي (13/ 263).

عقبة في جمع عدته خمسون ألفاً[1]. وكان أبو المهاجر موثقاً في الحديد مع عقبة، فلمّا رأى الجموع تمثل بقول أبي محن الثقفي:

كفى حزناً أن تمرغ الخيل بالقنا وأترك مشدوداً عليّ وثاقيا
إذ قمتُ عنّاني الحديد وأُغلقت مصارع من دوني تصمّ المناديا

فلما سمع عقبة ذلك أطلقه، فقال له: الحق بالمسلمين وقم بأمرهم وأنا أغتنم الشهادة، فلم يفعل وقال: وأنا أيضاً أريد الشهادة[2]، وهكذا كان أبو المهاجر نموذجاً من تلك النماذج الفريدة من الرجال، الذين هانت عليهم الحياة الدنيا واستولى على قلوبهم حب الآخرة وكسب رضوان الله تعالى، ومن هذا المنطلق أقدم عقبة ومعه عدد قليل على معركة غير متكافئة، وكان بإمكان بعضهم الفرار ولكنهم ثبتوا ثبات الأبطال حتى استشهدوا جميعاً في بلاد «تهوذة» من أرض الزاب، ويَذكر المؤرخون أن قبور هؤلاء الشهداء معروفة في ذلك المكان وأن المسلمين يزورونها[3]. وهكذا تحقق أمل عقبة في أبو المهاجر ونالا الشهادة في سبيل الله بعدما قاموا بالواجب الذي عليهم، واستقبلوا الشهادة في سبيل الله بنفس راضية مطمئنة إلى حسن ثواب ربها، وقد استطاع عقبة أن يشق بجهاده للإسلام طريقه في هذا الجزء من العالم الذي سار فيه خلفاؤه من بعده، زهير بن قيس البلوي، وحسان بن النعمان الغساني، وموسى ابن نصير، فقد حقق أهدافه من التمهيد لنشر الإسلام والجهاد في سبيل الله[4]، ولقد كان استشهاد عقبة بن نافع ومن معه في عام ثلاثة وستين للهجرة وعمره آنذاك في حدود أربع وستين سنة، وبهذا ندرك مبلغ القوة التي كان يتمتع بها أسلافنا حيث قام بتلك الرحلة الشاقة وخاض المعارك الهائلة وقد جاوز الستين من عمره، وهكذا استشهد هذا القائد العظيم بعد جهاد دام أكثر من أربعين عاماً قضاها في فتوح شمال أفريقيا، ابتداء بمصر وانتهاء بالمغرب الأقصى[5].

3 - أثر معركة تهوذة على المسلمين 63هـ:

كانت معركة تهوذة مصيبة على المسلمين، فقد استشهد القائد المجاهد عقبة بن نافع وصحبه وكان لاستشهاده وقع أليم على المسلمين، وانتابتهم حالة من الهلع والفزع، فمع أن العدد الذي استشهد مع عقبة كان قليلاً ـ قيل حوالي ثلثمائة جندي ـ وأن معظم الجيش كان قد سار متقدماً ونجا من المعركة، وكان من الممكن أن يتماسك هذا الجيش ويقاوم، حتى يحتفظ

---

(1) البيان المغرب (1/ 25).
(2) الكامل في التاريخ (2/ 591).
(3) التاريخ الإسلامي (13/ 264)، البيان المغرب (1/ 28).
(4) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 284، 285.
(5) التاريخ الإسلامي (13/ 265).

بوجوده في القيروان، إلا أن الحالة النفسية للجنود لم تسمح بذلك، وقد حاول زهير بن قيس البلوي خليفة عقبة على القيروان أن ينفخ في الجنود روح المقاومة والتصدي لكسيلة عندما زحف على القيروان، وهتف قائلاً: يا معشر المسلمين إن أصحابكم قد دخلوا الجنة، وقد منّ الله عليهم بالشهادة، فاسلكوا سبيلهم، أو يفتح الله عليكم دون ذلك[1]، ولكن صيحة زهيره هذه لم تجد استجابة، بل لقيت معارضة وتثبيطاً، حيث تصدى له حنش الصنعاني وقال له: لا والله ما نقبل قولك ولا لك علينا ولاية، ولا عمل أفضل من النجاة بهذه العصابة من المسلمين إلى مشرقهم، ثم قال: يا معشر المسلمين، من أراد منكم القفول إلى مشرقه فليتبعني فاتبعه الناس، ولم يبق مع زهير إلا آهل بيته، فنهض في أثره، ولحق بقصره ببرقة وأقام بها مرابطاً إلى دولة عبد الملك بن مروان[2].

وأما كسيلة فاجتمع إليه جميع أهل إفريقية، وقصد القيروان، وبها أصحاب الأثقال والذراري من المسلمين، فطلبوا الأمان من كسيلة فأمنهم، ودخل القيروان، واستولى على إفريقية وأقام بها غير مدافع، إلى أن قوي أمر عبد الملك بن مروان[3]، ولئن أخرجت إفريقية من يد المسلمين فإنها لم تخرج عن الإسلام، فقد أسلمت قبائل من البربر وثبتت على إسلامها وكانت تعيش بالقيروان وكان كسيلة يحسب حسابها ويتفاداها لشدة بأسها فقد اعترف كسيلة بذلك حين اقترح على جيشه الخروج من القيروان واختيار موضع آخر لمواجهة جيش زهير الذي أمده به عبد الملك بن مروان، قال كسيلة: إني أردت أن أرحل إلى ممس فأنزلها، فإن هذه المدينة «يعني القيروان» فيها خلق عظيم من المسلمين ولهم علينا عهد، فلا نغدر بهم ونحن نخاف إذا التحم القتال أن يثبتوا علينا[4].

هذا وقد بقيت القيروان بيد كسيلة مدة تقارب خمس سنوات من عام 64هـ ـ 69هـ حتى خلصها زهير البلوي من قبضته بعد أن أمده عبد الملك بن مروان بجيش كبير يأتي الحديث عن زهير بإذن الله في عهد عبد الملك بن مروان.

وفي مقتل عقبة ﷺ درس بليغ وهو أهمية الحذر من العدو فقد أرسل جنوده وبقي في مجموعة قليلة من المقاتلين رغباً في الشهادة وهذا مطلب سامي وكبير إلا أن استشهاده كان له آثار سيئة على الفتوحات في شمال إفريقيا وضاعت القيروان من أيدي المسلمين لمدة خمس سنوات وتأخرت الدعوة الإسلامية، لذلك يجب على القادة أن يوازنوا بين مصالح الأمة الكبرى وحرصهم على الشهادة.

---

(1) البيان المغرب (1/ 31).

(2) المصدر نفسه (1/ 31)، النجوم الزاهرة (1/ 159).

(3) النجوم الزاهرة (1/ 160)، العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 286.

(4) رياض النفوس (1/ 30) الإسلام والتعريب في الشمال الإفريقي (1/ 136).

المبحث الثالث

فتوحات معاوية في الجناح الشرقي للدولة الأموية:

كان المسلمون حتى خلافة عثمان بن عفان ﷺ قد أتموا فتح البلاد التي تقع بين العراق ونهر جيحون، وتضم جرجان وطبرستان وخراسان وفارس وكرمان وسجستان، فلما قتل عثمان تعثرت حركة الفتح، وخرج أكثر أهل هذه البلاد عن الطاعة، حتى إذا جاء عهد معاوية ﷺ أخذت دولته تبذل جهوداً بالغة لإعادة البلاد المفتوحة إلى الطاعة ومد حركة الفتح[1].

أولاً: فتوحات خراسان[2] وسجستان وما وراء النهر:

لما استقامت الأمور لمعاوية بن أبي سفيان ولّى عبد الله بن عامر البصرة وحرب سجستان وخراسان[3]، ولقد جاء تعيين عبد الله بن عامر في هذا المنصب نظراً لخبرته السابقة في هذه المنطقة، وفي سنة 42هـ ـ 43هـ عين ابن عامر، عبد الرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس والياً على سجستان فأتاها وعلى شرطته عبّاد بن الحصين الحبطي ومعه من الأشراف عمر بن عبيد الله بن معمر التيمي، وعبد الله بن خازم السُّلمي، وقطري بن الفجاءة، والمهلب بن أبي صفرة الأزدي، ففتحوا في هذه الحملة مدينة زرنج[4] صلحاً ووافق مرزبانها على دفع ألفي ألف (مليوني) درهم، وألفي وصيف. ثم تقدموا نحو مدن خواش[5]، وبست[6]، وخُشَّك[7]، وغيرها من البلدان وتمكنوا من فتحها، كما تمكنوا من فتح مدينة كابل بعد أن ضربوا عليها حصاراً استمر لعدة أشهر[8]. وما لبث أن جعل معاوية ﷺ إقليم سجستان ولاية مستقلة وأمّر عليها عبد الرحمن بن سمرة كمكافأة له على تحقيقِهِ مثل تلك الفتوحات[9]. وظل عبد الرحمن والياً عليها حتى قدم زياد بن أبي سفيان البصرة معيناً عليها بدل عبد الله بن عامر، والذي عزله معاوية سنة 45هـ كما مر معنا، وعادت ولاية خراسان وسجستان مرة أخرى تحت

---

(1) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص: 219.
(2) خراسان: أي مطلع الشمس.
(3) تاريخ الطبري (6/ 133).
(4) زرنج: مدينة كبيرة هي قصبة سجستان معجم البلدان (3/ 138).
(5) خواش: مدينة بسجستان، معجم البلدان (2/ 398).
(6) معجم البلدان (1/ 414).
(7) خشك: بلدة من نواحي كابل، معجم البلدان (2/ 373).
(8) فتوح البلدان، ص: 395.
(9) المصدر نفسه، ص: 396.

إشراف والي البصرة. وعند وصول زياد البصرة سنة 45هـ قسم خراسان أربعة أقسام هي: مرو وعليها أُمَير أحمد اليشكري والذي كان أول من أسكن العرب في مرو[1] ونيسابور وعليها خُلَيد بن عبد الله الحنفي، مرو الرُّود والطالقان والفارياب وعليها قيس بن الهيثم السُّلمي، هَراة وباذغيس وبوشنج وقاديس: وعين عليها نافع بن خالد الطاحي الأزدي[2]، وفي سنة 47هـ عمل زياد على جعل السلطة المركزية في خراسان في مدينة مرو «القاعدة الأساسية فيها».

ثانياً: تعيين الحكم بن عمرو الغفاري:

وكان عفيفاً وله صحبة[3]، وفي سنة 47هـ غزا الحكم «طخارستان»[4]، فغنم غنائم كثيرة ثم سار إلى جبال الغور[5] وغزا أهلها الذين ارتدوا على الإسلام فأخذهم بالسيف عنوة وفتحها وأصاب منها مغانم كثيرة[6]، وكان المهلب بن أبي صفرة مع الحكم بخراسان، فغزا معه بعض جبال الترك وغزا معه جبل «الأشل»[7] من جبال الترك، إلا أن الترك أخذوا عليهم الشعاب والطرق واحتار الحكم بالأمر، فولى المهلب الحرب، فلم يزل المهلب يحتال حتى أسر عظيماً من عظماء الترك، فقال له: إما أن تخرجنا من هذا الضيق أو لأقتلنك، فقال له: أوقد النار حيال طريق من هذه الطرق، وسير الأثقال نحوه، فإنهم سيجتمعون فيه ويخلون ما سواه من الطرق، فبادرهم إلى طريق أخرى، فما يدركونكم حتى تخرجوا منه، وفعل ذلك المهلب، فسلم الناس بما معهم من الغنائم[8]، وقطع الحكم نهر جيحون وعبر إلى ما وراء النهر[9] في ولايته ولم يفتح وكان أول من شرب من مائه من المسلمين هو أحد موالي الحكم، فقد اغترف بترسه بماء النهر، فشرب وناول الحكم فشرب وتوضأ وصلى ركعتين، وكان الحكم أول من فعل ذلك[10]. وقد قال عبد الله بن المبارك لرجل من أهل «الصغانيات»: «من

---

(1) فتوح البلدان، ص: 408.
(2) تاريخ الطبري نقلاً عن خلافة معاوية للعقيلي، ص: 135.
(3) فتوح البلدان، ص: 409.
(4) طخارستان: ولاية واسعة كبيرة تشتمل على عدة بلاد.
(5) الغور: جبال وولاية بين هراة وغزة.
(6) الكامل في التاريخ (2/ 478).
(7) الأشل: جبل في ثغور خراسان.
(8) الكامل في التاريخ نقلاً عن قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، ص: 118.
(9) ما وراء النهر: جيحون بخراسان فما كان في شرقه، يقال له: ما وراء النهر وما كان غربه فهو خراسان، وولاية خوارزم، معجم البلدان (7/ 370).
(10) الكامل في التاريخ (2/ 478).

فتح بلادك؟» فقال الرجل: لا أدري!! فقال ابن مبارك: فتحها الحكم بن عمرو الغفاري[1]. وقد مات الحكم سنة50هـ[2]، فخلفه الصحابي الجليل غالب بن فضالة الليثي والذي واصل سياسة سلفه في إرسال حملات منظمة في فتح طخارستان، ولكنه رغم كل الجهود التي بذلها لم يحرز أي تقدم يذكر في ولايات طخارستان[3] لذلك عزله زياد وولى مكانه الربيع بن زياد الحارثي «50 ـ 53هـ[4]»، وقد استطاع الربيع بن زياد إبان فترة ولايته على خراسان أن يغزو بلخ فصالحه أهلها، ثم غزا قوهستان ففتحها عنوة ثم أن ابنه عبد الله، الذي خلفه لبضعة أشهر من عام 53هـ وخلفه خليد بن عبد الله الحنفي في إدارة الإقليم، وظل خليد في منصبه هذا حتى وصل عبيد الله بن زياد بن أبي سفيان عامل معاوية رضي الله عنه المعين على خراسان في سنة 54 - 55هـ وكان عبيد الله ابن 25 عاماً[5].

ثالثاً: عبيد الله بن زياد:

ما إن وصل عبيد الله إلى مرو حتى قاد حملة مكونة من 24 ألف رجل وقطعوا نهر جيحون على الإبل وفتحوا راميثين[6] ونسف[7] وبيكندة[8] فأرسلت «خاتون» ملكة «بخارى» إلى الترك تستمدهم فجاءهم منهم عدد كبير، فلقيهم المسلمون وهزموهم، وعند القتال انتصروا عليهم[9]، فبعثت خاتون تطلب الصلح والأمان وصالحها عبيد الله على ألف ألف درهم فلم يفتح بخارى وفتح بيكندة[10]، وكان قتال عبيد الله الترك من زحوف «خراسان» التي تذكر، وقد ظهر منه بأس شديد[11]، فقد ذكر شاهد عيان، فقال: ما رأيت أشجع بأساً من عبيد الله بن زياد، لقينا زحف الترك بـ«خراسان» ، فرأيته يقاتل فيحمل عليهم، فيطعن فيهم ويغيب عنا ثم يرفع رايته تقطر دماً ، وبقي عبيد الله بخراسان سنتين[12]، إذ ولاه معاوية البصرة سنة

(1) فتوح البلدان للبلاذري، ص: 400، قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، ص: 118.
(2) طبقات بن سعد (7/ 29).
(3) خلافة معاوية للعقيلي، ص: 136.
(4) فتوح البلدان، ص: 409، خلافة معاوية للعقيلي، ص: 136.
(5) تاريخ الطبري نقلاً عن خلافة معاوية، ص: 138.
(6) الكامل في التاريخ (2/ 506).
(7) المصدر نفسه (2/ 506).
(8) المصدر نفسه (2/ 506).
(9) تاريخ اليعقوبي (2/ 211) قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، ص: 125.
(10) فتوح البلدان، ص: 401، قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، ص: 125.
(11) الكامل في التاريخ نقلاً عن قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، ص: 125.
(12) الكامل في التاريخ (2/ 506).

55هـ[1]، فقدم معه البصرة بخلق من أهل بخارى[2] وهم ألفان كلهم جيد الرمي بالنشاب[3]، وتولى ابن زياد أرفع المناصب في أيام معاوية ويزيد ومروان وعبد الملك، وكان موضع ثقة بني أمية، وكان يعتمد في حكمه على القسوة القاسية لفرض سيطرته على الناس، وكان لا يبالي من أجل تدعيم سيطرته أن يرتكب كل أنواع الإجراءات الرادعة قتلاً وتعذيباً وحجزاً للممتلكات والأموال[4]، فقد كان ذا شخصية طاغية يحب الإمارة ويحب السيطرة ولقد أساء ابن زياد، فترك تصرفه الأهوج في قتل الحسين رضي الله عنه أثراً بالغاً في أيامه ولا نزال نعاني من نتائج قتله حتى اليوم[5]، وسيأتي بيان تفصيل ذلك بإذن الله عند الحديث عن مقتل الحسين رضي الله عنه . وفي سنة 55 هـ قدم أسلم بن زرعة الكلابي خراسان والياً عليها من قبل معاوية ابن أبي سفيان بدلاً من عبيد الله بن زياد والذي ندبه معاوية لولاية البصرة وظل أسلم في ولايته مدة تقارب السنة[6].

رابعاً: سعيد بن عثمان بن عفان: ٥٦هـ

تروى المصادر التاريخية أن سعيداً بن عثمان بن عفان قد اصطحب معه إلى خراسان حوالي أربعة آلاف رجل فيهم عدد من مشاهير رجالات القبائل العربية في البصرة والكوفة كما كان من ضمنهم حوالي خمسين عابثاً وقاطعاً للطريق من أمثال مالك بن الرِّيب المازني التميمي، وهؤلاء تابوا ورجعوا إلى رشدهم وفضلوا الجهاد في سبيل الله[7] ومالك بن الريب هو القائل:

ألم ترني بعت الضلالة بالهدى وأصبحت في جيش ابن عفان غازيا[8]

وقدم سعيد خراسان فقطع النهر إلى (سمرقند) وبلغ خاتون ملكة بخاري عبوره النهر، فحملت إليه الصلح الذي صالحت عليه عبيد الله بن زياد وأقبل أهل الصُّغد وكِش ونسف إلى سعيد في مائة ألف وعشرين ألفاً، فالتقوا ببخاري، وقد ندمت خاتون على أدائها الجزية، فنكثت العهد، ولكن قسماً من الحشود المجتمعة لقتال سعيد انصرفوا قبل مباشرة القتال، فأثّر انصرافهم في معنويات الآخرين واهتزّت معنوياتهم، فلما رأت خاتون ذلك، أعادت الصلح، فدخل سعيد مدينة بخاري فاتحاً[9]، وطلب سعيد من خاتون أن تبعث إليه بثمانين من أعيان

---

(1) الكامل في التاريخ (2/ 507).
(2) الكامل في التاريخ (2/ 506) الفتوح، ص: 401.
(3) الفتوح، ص: 401.
(4) قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، ص: 135.
(5) المصدر نفسه، ص: 137.
(6) خلافة معاوية للعقيلي، ص: 139.
(7) خلافة معاوية للعقيلي ص، 140.
(8) الشعر والشعراء لابن قتيبة (1/ 354).
(9) قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، ص: 82، تاريخ الطبري (6/ 224).

بلادها ممن كانوا على رأس الخارجين عليها، وممن تخشى غدرهم بها وتهديدهم لعرشها، وتخلّصت بذلك من أشدّ أعدائها خطراً على عرشها وحاضرها، ومستقبلها، وحين تمَّ الصلح بين خاتون وسعيد، زارت خاتون سعيداً بمقرِّه، فطلعت عليه في زينتها الملكية، وكانت نادرة الجمال على ما يقال، فادّعى أهل بخاري أن القائد المسلم أعجب بجمالها أيّما أعجاب، وجرى ذكر إعجاب سعيد بها في الأغاني الشعبية التي لا يزال أهل بخاري يردِّدونها ويتغنون بها حتى اليوم، ولكن هذا الإعجاب لا ذكر له في المصادر العربية الإسلامية المعتمدة، ومن الواضح أنه أقرب إلى خيال الأدباء والفنانين منه إلى حقائق المؤرخين. وغزا سعيد سمرقند، فأعانته خاتون بأهل بخاري، فنزل على باب سمرقند، وحلف ألّا يبرح أو يفتحها، وقاتل المسلمون أهل سمرقند ثلاثة أيام، وكان أشدّ قتالهم في اليوم الثالث حيث فُقئت عين سعيد، ولزم أهل سمرقند أن يفتح سعيد ذلك القصر عنوة ويقتل من فيه، فطلبوا الصلح، فصالحهم على سبعمائة ألف درهم، وعلى أن يعطوه رهناً من أبناء عظمائهم، وعلى أن يدخل المدينة ومن شاء ويخرج من الباب الآخر، فأعطوه خمسة وعشرين من أبناء ملوكهم، ويقال: إنهم أعطوه أربعين من أبناء ملوكهم، ويقال: ثمانين[1] وكان معه من الأمراء المهلب بن أبي صُفرة الأزدي وغيره، واستشهد معه يومئذ قثم بن العباس بن عبد المطلب، وكان يُشبَّه بالنبي ﷺ[2]، وكان أخوه عبد الله بن عباس دفن بالطائف وأخوه معبد استشهد بأفريقية، وعبيد الله بالمدينة وكلهم من أب واحد وأم واحدة قال تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: 34].

هذا وانصرف سعيد بن عثمان إلى (تِرْمِذ) ففتحها صلحاً[3] وقد كان سعيد شاعراً ومن شعره في معاوية قوله:

ذكرت أمير المؤمنين وفضله ... فقلت جزاه الله خيراً بما وصل
وقد سبقت مني إليه بوادر ... من القول فيه آفة العقل والزلل
فعاد أمير المؤمنين بفضله ... وقد كان فيه قبل عودته ميل
وقال: خراسان لك اليوم طعمه ... فجوزي أمير المؤمنين بما فعل
فلو كان عثمان الغداة مكانه ... لما نالني من ملكه فوق ما بذل[4]

وعزل معاوية سعيد عام 57هـ، فأخذ سعيد مالاً من خراج خُراسان، فوجّه معاوية من لقبه

(1) فتوح البلدان، ص: 401 - 402 قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، ص: 141.
(2) شذرات الذهب (1/ 61) قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، ص: 142.
(3) فتوح البلدان، ص: 402، قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، ص: 142.
(4) قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، ص: 144.

بـ«حلوان»[1] وأخذ المال منه ومضى سعيد بالرهن الذين أخذهم من أبناء عظماء (سمرقند) حتى ورد بهم المدينة النبوية، فدفع ثيابهم ومناطقهم إلى مواليه، وألبسهم جباب الصوف، وألزمهم السقي والعمل[2]، وألقاهم في أرض يعملون له فيها بالمساحي، فأغلقوا يوماً باب الحائط ووثبوا عليه فقتلوه ثم قتلوا أنفسهم[3]، فقال خالد بن عقبة بن أبي معيط الأموي[4]:

ألا إنّ خير الناس نفساً ووالداً   سعيد بن عثمان قتيل الأعاجم
فإن تكن الأيام أردت صروفها   سعيداً فهل حيٌّ من الناس سالم؟

وقال أيضاً يرثيه:

يا عين جودي بدمع منك تهتانا   وابكي سعيد بن عثمان بن عفانا

لم يفِ سعيد لأهل «سمرقند» بإعادة الرهن لهم، بل جاء بالغلمان معه إلى المدينة النبوية وجعل يستعملهم في النخيل والطين وهم أولاد الدهاقين وأرباب النِّعم، فلم يطيقوا ذلك العمل وسئموا عيشهم فوثبوا عليه في حائط له، وبذلك غدر بهم[5]، فكان هذا الغدر وبالاً عليه، إذ قدم حياته ثمناً لغدره[6]، لقد كان سعيد شهماً غيوراً يعتد بشخصيته، طموحاً، مُتْرَفاً، سخياً وكان من شخصيات قريش البارزة[7].

خامساً: فتح سلم بن زياد أخو عبيد الله بن زياد: ٥٧هـ

عزل معاوية بن أبي سفيان سعيد بن عثمان بن عفان سنة سبع وخمسين الهجرية، وأُضيفت إلى ولاية عبيد الله بن زياد في رواية[8]، وفي رواية أخرى، أن معاوية بن أبي سفيان ولّى خراسان عبد الرحمن بن زياد، وكان شريفاً، فلم يصنع شيئاً في مجال الفتح، وكان ذلك في سنة 59هـ[9] ومات معاوية وعلى خراسان عبد الرحمن بن زياد، ولما سار سلم إلى خراسان، كتب معه يزيد إلى أخيه عبيد الله بن زياد في العراق ينتخب له ستة ألف فارس، وقيل: ألفي فارس، وكان سلم ينتخب الوجوه، فخرج معه عمران بن الفضيل البُرجُميّ والمهلب بن أبي

(1) المصدر نفسه، ص: 143، 144.
(2) فتوح البلدان، ص: 402 - 403.
(3) المصدر نفسه، ص: 403، قادة الفتح الإسلامي، ص: 142.
(4) قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، ص: 143.
(5) قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، ص: 143.
(6) المصدر نفسه، ص: 143.
(7) الكامل في التاريخ (2/ 514).
(8) النجوم الزاهرة (1/ 149)، قادة الفتح الإسلامي، ص: 148.
(9) قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، ص: 148.

صفرة، وعبد الله بن خازم السُّلمي، وطلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعي وخلق كثير من رؤساء البصرة وأشرافهم، فأخذ سلم هؤلاء الفرسان معه من البصرة، وتجهز ثم سار إلى خراسان[1]، ويدأ سلم بغزو خوارزم، فصالحوه على أربعمائة درهم وحملوها إليه. وقطع سلم النهر (جيحون) ومعه امرأته أم محمد بنت عبد الله بن عثمان بن أبي العاص الثقفي، وكانت أوّل امرأة عربية عُبر بها النهر، فأتى (سمرقند) فصالحه أهلها[2]ووجد (خاتون) ملكة بخارى قد نقضت العهد، واستنجدت بجيرانها من الصُّغد، وأتراك الشمال، فجاء طرخون على جيش الصُّغد، كما جاء ملك الترك في عسكر كثيف، ولم تؤثر تلك الحشود الضخمة من القوات المعادية في معنويات المسلمين، فحاصروا بخارى دون أن يهجموا عليها، ليقفوا أولاً على تفاصيل قوات أعدائهم ومواضعها، وهي متربصة بهم في مواضع ليست بعيدة عن بخارى.

وأمر سلم المهلبَ بن أبي صفرة الأزدي أن يستطلع أحوال العدو فاقترح المهلب أن يكلف غيره بهذه المهمة، وحجته أنه معروف المكانة بين قومه والمسلمين وقد يفشي تغيبه عن معسكر المسلمين سرّ الواجب الذي أُلقي على عاتقه، وهذا الواجب ينبغي أن يبقى سرّاً مكتوماً حتى يتم إنجازه بسرية تامة وكتمان شديد وحذر بالغ، لأن إفشاءه يعرّض المسلمين لخطر جسيم ولكنّ سلم بن زياد أصرّ على إيفاء المهلب دون غيره في هذا الواجب الحيوي الذي قد يعجز غيره عن النهوض به كما ينبغي، وأرسل معه ابن عمه ورجلاً من كل لواء من ألوية المسلمين، واشترط المهلب على سلم ألا يبوح لأحد من الناس كائناً من كان بمهمته، ثم مضى إلى سبيله ليلاً مع جماعته الاستطلاعية، فكمن في موضع مستور، واستطلع قوات العدو دون أن يشعر العدو بموضعه المخفيّ المستور، ويبدو أن قوم المهلب والمسلمين افتقدوا المهلب في صلاة الفجر من تلك الليلة التي تسلل بها المهلب إلى موضع قريب من العدو، فما كان تغيب مثله أن يخفى على أحد وهو ليس مجهول المكان والمكانة يملأ الأعين قدراً وجلالاً، فألحّوا على سلم بالسؤال عن المهلب وألحفوا عليه، فلم يستطع أن يكتم أمره وأخبرهم أنه أرسله في مهمة استطلاعية ليلاً، وفشا الخبر بسرعة خاطفة في العسكر، فأسرع جمع من المسلمين بالركوب وتوجّهوا صوب موضع المهلب المستور، فكشفوا موضعه وموضع رجاله للعدو، وأبصرهم المهلب مقبلين نحوه يتسابقون بدون نظام ولا تنظيم فلامهم أشد اللوم على ما أقدموا عليه، لأنهم كشفوا موضع جماعته الاستطلاعية للعدو دون مسوّغ، فعرّضهم لخطر محدق أكيد، وأصبح موقف المهلب ومن معه من المسلمين في خطر داهم فبذل المهلب قصارى جهده لمعالجة موقفه الخطير وتدارك ما يمكن تداركه، وأحصى المهلب المسلمين الذين التحقوا به

(1) الكامل في التاريخ نقلا عن قادة الفتح الإسلامي، ص: 149.

(2) قادة الفتح الإسلامي، ص: 149، فتوح البلدان، ص: 149.

متطوّعين، فكانوا تسعمائة من الفرسان المجاهدين، فقال لهم: والله لتندمُن على ما فعلتم، وحدث ما توقعه المهلب، فما كاد ينظِّم المسلمين صفوفاً، حتى هاجمهم الترك وأبادوا منهم أربعمائة فارس مجاهد، ولاذ الباقون منهم على قيد الحياة بالفرار وأحيط بالمهلب ومن بقي معه من جماعته الاستطلاعية ذات العدد المحدود، ولكنه ثبت ثباتاً راسخاً لا يتزعزع عن موضعه، فالموت بالنسبة لأمثاله أهون عليهم من الفرار، وصاح المهلب بصوته الجهوريّ القوي مستغيثاً بالمسلمين، فسُمع صوته من معسكر المسلمين القريب، الذي كان على نصف فرسخ من موضعه المواجه للعدو، وبادر فوراً إلى نجدته من قومه الأزد، فشاغلوا الترك ريثما أقبل المسلمون خفافاً لنجدته على عجل بقيادة سَلْم، ونشب القتال بين الجانبين، فقاتل المسلمون الترك حين هزموهم هزيمة نكراء حيث هربوا من ساحة المعركة مخلِّفين أموالهم وأثقالهم، فغنمها المسلمون حتى أصاب كلّ فارس ألفين وأربعمائة درهم في رواية وعشرة آلاف درهم في رواية أخرى، وطارد المسلمون الترك المنهزمين، فلم ينج منهم إلا الشريد، وكان من بين القتلى (بندون) أو (بيدون) الصُغدي ملك الصُغد، وأعادت خاتون الصُلح من جديد مع سلْم، فاستعاد فتح بخارى[1]، وبعث سَلْم وهو بالصّغد جيشاً من المسلمين إلى «خُجَنْدة» وفيهم الشاعر أعشى همدان، فهزم المسلمون فقال الأعشى:

ليت خيلي يوم الخُجَنْدة لهم يهزم ... وغـودرت فـي الـمـكـرِّ سَـلِـيْـبَـا
تـحـضُـر الـطـيـرُ مـصـرعـي وتـروحـت ... إلـى الله فـي الـدمـاء خـضـيـبـا[2]

وكان عمّال خراسان قبل سَلْم يغزون، فإذا دخل الشّتاء رجعوا إلى «مزوا الشّاهجان»، فإذا انصرف المسلمون اجتمع ملوك خراسان بمدينة مما يلي خُوارِزم، فيتعاقدون أن لا يغزو بعضهم بعضاً، ويتشاورون في أمورهم. فلما قدم سَلْم غزا فشتا في تلك السنة، فألحّ عليه المهلّب بن أبي صفرة وسأله التوجه إلى تلك المدينة، فوجّهه في ستة آلاف، وقيل: أربعة آلاف، فحاصرهم، فطلبوا أن يصالحهم على أن يفدوا أنفسهم، فأجابهم إلى ذلك وصالحوه على نيِّف وعشرين ألف درهم، وكان في صلحهم أن يأخذ منهم عروضاً، فكان يأخذ الرأس والدّابة بنصف ثمنه، فبلغت قيمة ما أخذ منهم خمسين ألف ألف درهم[3]، وعاد سلم إلى (مَرْو) بعد جهاد هذه السنة الذي استمرّ ستي إحدى وستين الهجرية واثنتين وستين الهجرية، ويبدو أنه قطع النهر ثانية في سنة ثلاث وستين الهجرية[4]، لأنه علم بأنّ الصُغد قد جمعت له،

(1) تاريخ بخارى للنرشخي، ص: 65 - 67، نقلاً عن قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، ص: 152.
(2) فتوح البلدان، ص: 581، الكامل في التاريخ (2/ 584).
(3) الكامل في التاريخ (2/ 584).
(4) قادة الفتح الإسلامي، ص: 152.

فقاتلهم وقتل ملكهم[1]، ولكنه عاد مسرعاً إلى (مرو) ليعالج مشاكل المنطقة الداخلية، فقد أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم[2]، فقد مات يزيد بن معاوية سنة أربع ستين فبويع بعده معاوية ابن يزيد بن معاوية فلم يمكث إلا ثلاثة أشهر حتى هلك، وقيل: بل ملك أربعين يوماً ثمّ مات[3]، وقيل غير ذلك، ولما بلغ سلم موت يزيد بن معاوية كتم ذلك، ولكنّ الخبر انتشر بين الناس في خُراسان انتشار النار في الهشيم، فمثل هذا الخبر يستحيل كتمانه مدة طويلة، ولما علم سلم بانتشار خبر موت يزيد بين الناس، أظهر موت يزيد وابنه معاوية، ودعا الناس إلى البيعة على الرضى حتى يستقيم أمر الناس على خليفة، فبايعوه ثمّ نكثوا بعد شهرين، وكان سلم محسناً إليهم محبوباً فيهم، ولكن قسماً من القبائل العربية خلعوه عصبية وتعصباً وفتنة، فلم يجد أهل خُراسان أميراً قد حبهم مثل سَلْم بن زياد[4]، ولكن قائلهم قال: بئس ما ظنّ سَلْم، إن ظنَّ أنه يتأمر علينا في الجماعة والفتنة[5]، ووثب أهل خُراسان بعمالهم فأخرجوهم، وغلب كل قوم على ناحية، ووقعت الفتنة، ووقعت الحرب[6]، ونشب الاقتتال بين القبائل العربية ، وأصبحت خراسان مناطق في كل منطقة قائد وأمير، وتساقطت القتلى بين المسلمين بالسيوف، وتوقف الفتح وتوجه سَلْم إلى عبد الله بن الزبير في مكة المكرمة[7].

سادساً: فتوحات السند في عهد معاوية:

تمكن المسلمون في عهد معاوية ﷺ من بسط نفوذهم إلى ما وراء نهر السند، ففي سنة 44هـ غزا المهلب بن أبي صفرة ثغر السند فأتى بَنَّة[8]، ولاهور، وهما بين الملتان[9]، وكابل، وأما في مستهل سنة 45هـ، فقد أرسل والي البصرة عبد الله بن عامر: عبد الله بن سوّار العبيدي إلى ثغر السند على رأس حملة قوامها أربعة آلاف رجل، ولما وصل ابن سوّار إلى مدينة مكران، بقي هناك أربعة أشهر يعدّ نفسه وجنده للحملة المرتقبة. ثم تقدم وجماعته نحو بلاد القيقان[10]، وفتحها، وكانت هديته إلى معاوية ﷺ خيلاً قيقانية[11] سلّمها بنفسه إليه في

(1) فتوح البلدان، ص: 582.
(2) قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، ص: 152.
(3) الكامل في التاريخ (2/ 605).
(4) الكامل في التاريخ (2/ 622).
(5) فتوح البلدان، ص: 582.
(6) قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، ص: 153.
(7) فتوح البلدان، ص: 582، قادة الفتح الإسلامي، ص: 154.
(8) بَنَّة : مدينة بكابل، ياقوت : ومعجم البلدان (2/ 500).
(9) المُلتان : مدينة من نواحي الهند قرب غزنة : أهلها مسلمون.
(10) القيقان : بلاد قرب طبرستان معجم البلدان (4/ 423).
(11) فتوح البلدان، ص: 432.

الشام، فأصل البراذين القيقانية من نسل تلك الخيول[1]. وعلى أية حال، فلم يدم المقام لابن سوّار طويلاً في ثغر السند فقد قتلته جماعة من الترك هناك في سنة 47هـ[2]، وفي سنة 48هـ اختار زياد بن أبي سفيان سنان بن سلمة بن المُحَبَّق الهذلي ليكون والياً على الأقاليم المفتوحة من ثغر السند وما إن وصل سنان إلى هناك حتى تمكن من فتح مدينة مكران «عنوة» ومصَّرها وأقام بها وضبط البلاد[3]. ولكن سنان لم يمكث هناك سوى سنة أو سنتان ثم عزله زياد. وولى مكانه راشد بن عمرو الأزدي، فأتى مكران ثم تقدم في بلاد القيقان، فظفر، ثم اتجه نحو الميد، فقتل هناك[4]، وبعد ذلك تولَّى عباد بن زياد بن أبي سفيان أمر سجستان فقاد حملة توغل فيها في منطقة حوض نهر السند فنزل كِشْ، ثم سار إلى قُنْدُهار[5]: فقاتل أهلها فهزمهم، وفتحها بعد أن أصيب رجال من المسلمين[6]، وكان آخر الولاة الذين تولوا أمر الفتوحات في هذا الجزء هو المنذر بن الجارود العبدي أبو الأشعث، والذي وصل ثغر السند معيّناً عليه من قبل عبد الله بن زياد بن أبي سفيان والي البصرة سنة 62هـ، فقاد المنذر حملة ضد مدينة قُصدار[7]، وتمكن من فتحها[8].

المبحث الرابع

أهم الدروس والعبر والفوائد في فتوحات معاوية رضي الله عنه:

أولاً: أثر الآيات والأحاديث في نفوس المجاهدين:

كان للآيات والأحاديث التي تتحدث عن فضل الجهاد أثرها في نفوس المجاهدين، فقد بين المولى عز وجل أن حركات المجاهدين كلها يثاب عليها قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا

(1) تاريخ خليفة، ص: 207، خلافة معاوية بن أبي سفيان للعقيلي، ص: 142.
(2) تاريخ خليفة، ص: 207، خلافة معاوية بن أبي سفيان للعقيلي، ص: 142.
(3) فتوح البلدان، ص: 432.
(4) المصدر نفسه، ص: 432.
(5) معجم البلدان (4/ 402).
(6) فتوح البلدان، ص: 433.
(7) معجم البلدان (4/ 353).
(8) فتوح البلدان، ص: 433، خلافة معاوية للعقيلي، ص: 143.

يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [التوبة: 120، 121].

وقد تعلموا أن الجهاد أفضل من عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج فيه، قال تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [التوبة: 19-22].

واعتقدوا أن الجهاد فوز على كل حال، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [التوبة: 52]، وأن الشهيد لا تنقطع حياته بل هو حي، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [آل عمران: 169-171]، وكانوا يشعرون بسمو هدفهم الذي يقاتلون من أجله، قال تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء: 74-76]. وقد بين الرسول ﷺ للمسلمين فضل الجهاد فألهبت أحاديثه مشاعرهم وعواطفهم وفجرت طاقاتهم، ومن هذه الأحاديث ما ورد عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قيل: يا رسول الله، أي الناس أفضل؟ فقال رسول الله ﷺ: «مؤمن يجاهد بنفسه وماله»[1]، وقد بين رسول الله ﷺ درجات المجاهدين فقال: «إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة»[2].

وقد وضح ﷺ فضل الشهداء وكرامتهم فقال: «انتدب الله لمن خرج في سبيله لا يُخرجه إلا إيمان بي وتصديق برسلي أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة أو أدخله الجنة، ولولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سريّة ولوددت أني اقتل في سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل»[3] وقال ﷺ: «ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من

---

(1) البخاري رقم (2786).

(2) البخاري رقم (2790).

(3) مسلم (3/ 1497).

شيء إلا الشهيد يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة»[1]. وغير ذلك من الأحاديث.

وقد تأثر المسلمون الأوائل ومن سار على نهجهم بهذه الآيات والأحاديث، فكان كبار الصحابة رضي الله عنهم يغزون وقد تقدم بهم العمر فيشفق عليهم الناس وينصحونهم بالقعود عن الغزو، لأنهم معذورون فيجيبونهم أن سورة التوبة تأبى عليهم القعود ويخافون على أنفسهم من النفاق إذا ما تخلفوا عن الغزو[2]. كما كان للعلماء والفقهاء والزهاد دور كبير في تربية الناس على هذه الآيات والأحاديث، ومن هؤلاء العلماء كبار الصحابة كأبي أيوب الأنصاري، وابن عمر، وغيرهم ومن التابعين كأبي مسلم الخولاني، يرون أن الجهاد في سبيل الله ضرورة من ضرورات بقاء الأمة الإسلامية، فقاموا بهذه الفريضة في فتوحات بلاد الشام والشمال الأفريقي وخراسان وسجستان والسند، وترتب على قيامهم بهذه الفريضة ثمرات كثيرة منها: تأهيل الأمة الإسلامية لقيادة البشرية، القضاء على شوكة الكفار وإذلالهم وإنزال الرعب في قلوبهم، ظهور صدق الدعوة للناس الأمر الذي جعلهم يدخلون في دين الله أفواجاً فيزداد المسلمون بذلك عزاً والكفار ذُلاً، وتوحدت صفوف المسلمين ضد أعدائهم وأسعدوا الناس بنور الإسلام وعدله ورحمته[3].

ثالثاً: من سنن الله في فتوحات معاوية:

يلاحظ الباحث في دراسته للفتوحات في عهد معاوية بعض سنن الله في المجتمعات والشعوب والدول ومن هذه السنن:

1 - سنة الله في الاتحاد والاجتماع:

كانت الفتنة التي أدت إلى استشهاد عثمان رضي الله عنه أكبر معوق أصاب حركة الفتوحات بعد الردة أيام أبي بكر رضي الله عنه، حيث أدى استشهاد عثمان رضي الله عنه إلى توقف الجهاد، واتجاه سيوف المسلمين إلى بعضهم في فتنة كادت تعصف بالأمة الإسلامية لولا أن تداركتها رحمة الله ـ سبحانه وتعالى - بصلح الحسن بن علي مع معاوية رضي الله عنهما، وقد امتلأت المصادر بالنصوص التي تبين أثر الفتنة في انحسار حركة الجهاد[4]ومن هذه الآثار:

- عن الحسن بن علي رضي الله عنه أنه قال: قد رأيت أن أعمد إلى المدينة فأنزلها وأخلي بين معاوية وبين هذا الحديث، فقد طالت الفتنة، وسقطت فيها الدماء وقطعت فيها الأرحام وقطعت السبل، وعُطلت الفروج ـ يعني الثغور[5].

---

(1) البخاري رقم (2817).
(2) الجهاد في سبيل الله للقادري (1/ 145).
(3) الجهاد في سبيل الله (2/ 411 - 482).
(4) مرويات خلافة معاوية، ص: 310.
(5) الطبقات، تحقيق السُّلمي (1/ 331).

- ما أخرجه أبو زرعة الدمشقي بإسناده قال: لما قتل عثمان، واختلف الناس، لم تكن للناس غازية، ولا صائفة، حتى اجتمعت الأمة على معاوية[1].

- قول أبي بكر المالكي: فوقعت الفتنة.. واستشهد عثمان رضي الله عنه، وولي بعده علي رضي الله عنه، وبقيت إفريقية على حالها إلى ولاية معاوية رضي الله عنه[2]، ولكن بعد الصلح وما ترتب عليه من الاتحاد والاجتماع عادت حركة الفتوحات إلى ما كانت عليه، وأصبحت في عهد معاوية على ثلاث جبهات كما مر معنا. إن الاتحاد والاجتماع على كتاب الله وسنة رسوله مقصد من مقاصد الشريعة، وهذا المقصد من أهم أسباب التمكين لدين الله واستمرار حركة الفتوحات، فالأخذ بالأسباب نحو تأليف قلوب المسلمين، وتوحيد صفهم من أعظم الجهاد، لأن هذه الخطوة مهمة جداً في إعزاز المسلمين، وإقامة دولتهم، وتحكيم شرع ربهم[3]. فحركة الفتوحات بين الانطلاق والتوقف مرهون بتحقيق سنة الاتفاق والاتحاد والاجتماع ونبذ الفرقة والخلاف والشقاق، قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: 103].

2 - سنة الأخذ بالأسباب:

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنفال: 60] وقد قام معاوية رضي الله عنه بالعمل بهذه الآية وحث ولاته على العمل بها، ويظهر أخذ معاوية رضي الله عنه بسنة الأخذ بالأسباب في اهتمامه ببناء الأسطول البحري وتطويره، وتقوية الجيش، والقضاء على الفتن الداخلية، ودعم الثغور، وأماكن الرباط والتخطيط الاستراتيجي للدولة في سياستها الداخلية والخارجية، والتكتيك العسكري في نظام المعسكرات ونظام الرباط والثغور، والصوائف والشواتي، وبناء الحصون، ونظام التعبئة، وتوطين القبائل لنشر الإسلام وتثبيت الفتوحات والتصدي لحركات التمرد، فبعدما زال خطر الهجوم العسكري من الفرس قام بتوطين عشرات الألوف من الأسر العربية في الجناح الشرقي من الدولة خاصة خراسان، وقد نجحت هذه السياسة وآتت ثمارها في هذا الجناح[4].

3 - سنة التدافع:

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة: 251] وقد تحققت هذه السنة في حركة الفتوحات عموماً، وسنة التدافع من أهم سنن الله تعالى في كونه وخلقه، وهي من أهم السنن المتعلقة بالتمكين

(1) مرويات خلافة معاوية، ص: 310.
(2) رياض النفوس (1/ 27).
(3) خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن علي، ص: 359.
(4) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 119.

للأمة الإسلامية، وقد استوعب المسلمون الأوائل هذه السنة وعملوا بها وعلموا: أن الحق يحتاج إلى عزائم تنهض به، وسواعد تمضي به، وقلوب تحنو عليه وأعصاب ترتبط به. إنه يحتاج إلى جهد بشري، لأن هذه سنة الله في الحياة الدنيا وهي ماضية[1].

4 - سنة الابتلاء:

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: 214]. وقد وقع البلاء في حصار القسطنطينية وتعرض الكثير من المسلمين للقتل، وفي فتوحات الشمال الإفريقي، واستشهاد القادة كعقبة بن نافع وأبي المهاجر دينار، وغيرهم، فهذه سنة الله في العقائد والدعوات فلا بد من الأذى في الأموال والأنفس ولا بد من صبر، واعتزام[2].

5 - سنة الله في الظلم والظالمين:

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: 100-102]. وسنة الله مطردة في هلاك الأمم الظالمة، وقد مارست الدولة الفارسية الظلم على رعاياها وتمردت على منهج الله، فمضت فيها سنة الله وسلط الله عليها المسلمين فأزالوها من الوجود[3]، وكذلك نفوذ الدولة البيزنطية من الشام ومصر، وتزعزع وجودها في الشمال الإفريقي، وما جاء عهد الوليد بن عبد الملك حتى زال نفوذها من الشمال الإفريقي كلياً.

6 - سنة الله في المترفين:

قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: 16]. وجاء في تفسيرها: وإذا دنا وقت هلاكها أمرنا بالطاعة مترفيها، أي: متنعميها وجبّاريها وملوكها، ففسقوا فيها فحق عليها القول فأهلكها، وإنما خص الله المترفين بالذكر مع توجه الأمر بالطاعة إلى الجميع، لأنهم أئمة الفسق ورؤساء الضلال، وما وقع من سواهم إنما وقع باتباعهم وإغوائهم، فكان توجه الأمر إليهم آكد[4]، وقد مضت هذه السنة في زعماء الفرس وأئمتهم في بلاد فارس وزعماء الروم في الشام ومصر والشمال الأفريقي.

---

(1) لقاء المؤمنين، عدنان النحوي (2/ 117).

(2) فقه النصر والتمكين للصّلاّبيّ، ص: 456.

(3) السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد، ص: 119-121.

(4) تفسير الألوسي (15/ 42).

7 - سنة الله في الطغيان والطغاة:

قال تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: 14] والآية وعيد للعصاة مطلقاً، وقيل: وعيد للعصاة ووعيد لغيرهم[1]. وفي تفسير القرطبي: أي يرصد كل إنسان حتى يجازيه به[2]، وواضح من أقوال المفسرين في الآيات التي ذكرناها في الفقرة السابقة أن سنة الله في الطغاة إنزال العقاب بهم في الدنيا، فهي سنة ماضية لا تتخلف جرت على الطغاة السابقين وستجري على الحاضرين والقادمين فلن يفلت منهم أحد من عقاب الله[3]. وسنة الله في الطغاة وما ينزله الله بهم من عقاب في الدنيا، إنما يعتبر بها من يخشى الله جلّ جلاله ويخاف عقابه ويعلم أن سنة الله قانون ثابت لا يحابي أحداً، قال تعالى في بيان المعتبرين بسنته في الطغاة ـ بعد أن ذكر ما حلّ بفرعون من سوء عقاب ـ: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾﴾ [النازعات: 25-26]، فهؤلاء الطغاة من زعماء الفرس وزعماء الروم في مصر والشام مضت فيهم سنة الله.

8 - سنة التدرج

خضعت الفتوحات الإسلامية لسنة التدرج، ويعتبر الحصار الأول والثاني للقسطنطينية مرحلة مبكرة لفتح القسطنطينية على عهد السلطان العثماني محمد الفاتح، فالأعمال التي قام بها المسلمون ضد الدولة البيزنطية قبل محمد الفاتح ساهمت في عمل تراكمي توّج بفتح القسطنطينية في عهد العثمانيين.

9 - سنة الله في الذنوب والسيئات:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأنعام: 6].

وقد أهلك الله تعالى أمة الفرس بسبب ذنوبهم التي اقترفوها، وأزال ملك الروم من مصر والشام وليبيا بسببها، وفي هذه الآية حقيقة ثابتة وسنة مطردة: أن الذنوب والمعاصي تهلك أصحابها، وأن الله تعالى هو الذي يهلك المذنبين بذنوبهم[4]، وقد سلط الله أمة الإسلام على الفرس والروم عندما حققت شروط التمكين وعملت بسننه وأخذت بأسبابه وحققت أهدافه.

10 - سنة تغير النفوس:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴿١١﴾﴾ [الرعد: 11].

---

(1) السنن الإلهية، ص: 193.
(2) تفسير القرطبي نقلاً عن السنن الإلهية، ص: 193.
(3) السنن الإلهية، ص: 194.
(4) السنن الإلهية، ص: 210.

وقد قام الصحابة الكرام رضوان الله عليهم والتابعون بإحسان في فتوحات الشام ومصر والشمال الأفريقي وبلاد المشرق، بالعمل بهذه السنة الربانية مع الشعوب التي أرادت أن تدخل في دين الله. فشرعوا في تربية الناس على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فغرسوا في نفوسهم العقائد الصحيحة والأفكار السليمة والأخلاق الرفيعة.

رابعاً: التخطيط الاستراتيجي للفتوحات عند معاوية رضي الله عنه :

خضعت الفتوحات في عهد معاوية للتخطيط الدقيق والمحكم، فقد كانت سياسته في الفتوحات كالآتي:

1 - سياسته تجاه الروم:

فقد سلك الخطوات التالية:

أ ـ التركيز على عمليات الصوائف والشواتي، من أجل تحقيق عدة أهداف منها:

- استنزاف قوة الروم.
- انتزاع زمام المبادرة من الروم، وجعلهم في حالة دفاع مستمر[1].
- إرغام الروم على توزيع قواتهم بحيث لا يستطيعون القيام بهجمات حاسمة وقوية ضد الدولة الإسلامية[2].

ب ـ مهاجمة الروم في عقر دارهم ومحاصرة عاصمتهم، وما يترتب على ذلك من إضعاف معنوياتهم، وقذف الرعب في قلوبهم.

جـ ـ تقليص النفوذ البحري للروم عن طريق فتح الجزر الواقعة في بحر الشام[3]، وما يترتب على ذلك من حرمان سفن الروم من قواعدها البحرية الهامة.

2 - سياسته في جبهة الشمال الإفريقي:

أ ـ أولى معاوية رضي الله عنه جبهة المغرب اهتماماً خاصاً تمثل بارتباط هذه الجبهة به شخصياً، حيث كان معاوية رضي الله عنه المرجع المباشر لقادة هذه الجبهة إلى سنة 47هـ، وهي السنة التي ضُمت فيها جبهة المغرب إلى والي مصر[4].

ب ـ عمل معاوية رضي الله عنه على إقامة قاعدة جهادية متقدمة في قلب بلاد المغرب وقد قام عقبة ابن نافع ببناء القيروان لكي تكون عزاً للإسلام والمسلمين.

---

(1) فن الحرب الإسلامي، بسام العسلي (1/ 233).
(2) المصدر السابق (1/ 233).
(3) المصدر السابق (1/ 211).
(4) ولاة مصر، ص: 61، النجوم الزاهرة (1/ 175).

3 - سياسته في جبهة سجستان وخراسان وما وراء النهر:

أ ـ استعانة معاوية ﷺ بفاتح سجستان وخراسان أيام عثمان ﷺ، وهو عبد الله بن عامر ﷺ وتكليفه بإعادة فتحها مرة أخرى.

ب ـ العمل على تثبيت الحكم الإسلامي ونشر دعوة الإسلام في هذه المنطقة عن طريق إسكان خمسين ألف من العرب بعيالهم في خراسان[1].

خامساً: الشورى في إدارة حركة الفتوحات:

عند انتقال الخلافة إلى معاوية ﷺ كان مجلس الشورى لديه يتألف من كبار أعيان عصره وولاته ومعاونيه الذين يتصفون بالبلاغة والسياسة وحسن التدبير في أمور الإدارة العسكرية، وكان من هؤلاء عمرو بن العاص ﷺ الذي كان مشهوراً بالصفات السابقة، مما جعل الخليفة معاوية يعتمد عليه كالوزير المدبر لدولته والمشير ومنهم أيضاً زياد بن أبيه ولم تكن الوزارة في عهد بني أمية مقننة القواعد ولا مقررة القوانين، وكان ذوو الآراء من مستشاري الخليفة يقومون مقام الوزراء، وكان الواحد منهم يسمى كاتباً أو مشيراً[2]، إضافة إلى ذلك كان الخليفة معاوية يعتمد في إدارته العسكرية على مشورة قادة وأمراء القبائل وخصوصاً التي بالشام، فقد كان يقربهم ويدني مجلسهم ويستشيرهم، وسار قادة معاوية بن أبي سفيان سيرته بمبدأ المشورة في إدارتهم العسكرية للمعارك الحربية[3].

سادساً: مركزية القيادة والإمداد في إدارة معاوية:

عندما انتقلت الخلافة إلى بني أمية أصبحت دمشق مقر الخلافة ومركز القيادة العليا للإدارة العسكرية، فكان الخليفة بها هو الذي يقرر السياسة الحربية كما كان مسئولاً عن الحرب والسلم، فكان التنظيم الإداري العام للجيش أمراً من الأمور المركزية التي يشرف الخليفة مباشرة عليها[4]، وذلك بالرغم من وجود عمال الولايات والأقاليم الذين كان لهم مطلق السلطات والتي منها قيادة الجيوش بأنفسهم أو تعيين القادة المناسبين من قبلهم ووضع الخطط لهم وإمدادهم وتموينهم، ومن أمثلة هؤلاء زياد بن أبيه وابنه عبيد الله[5]، فمن مركزية القيادة لإدارة معاوية بن أبي سفيان ﷺ في تعيين القادة أنه كتب إلى واليه بالبصرة زياد بن أبيه يأمره

---

(1) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 364، 365.
(2) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (1/ 280).
(3) الفتوح، ابن أعثم (1/ 340)، الإدارة العسكرية (1/ 280).
(4) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (1/ 314).
(5) المصدر نفسه (1/ 314).

أن يوجه إلى خراسان رجلاً يقوم بأمرها فولى زياد الحكم بن عمرو الغفاري ﵁، وكتب له عهده على خراسان وولاّه حربها وخراجها، وسار إليها بمن يريد الجهاد في سبيل الله من المتطوعة من أهل البصرة، إضافة إلى الجند النظامي أصحاب الديوان، فوضع لهم الأرزاق، وأعطاهم وقوّاهم وسار لما أمر به[1]. ومن مركزية القيادة العليا في إدارة معاوية العسكرية تسيير الجيوش والإمدادات العسكرية لها، فنرى القائد علقمة بن يزيد الغطيفي كتب إليه قائلاً: إنك خلفتني بالإسكندرية وليس معي إلا اثنا عشر ألفاً ما يكاد بعضنا يرى بعض من القلة، فكتب إليه الخليفة معاوية: إني قد أمددتك بعبد الله بن مطيع في أربعة آلاف من أهل المدينة، وأمرت معن بن يزيد السلمي أن يكون بالرملة في أربعة آلاف مسكين بأعنة خيولهم متى يبلغهم عنك فزع يعبروا إليك[2].

سابعاً: الألوية والرايات:

حين انتقلت الخلافة إلى معاوية تعددت الألوية والرايات في إدارتهم العسكرية، كما تعددت ألوانها كاللون الأخضر والأحمر والأبيض بالرغم من اتخاذهم اللون الأبيض شعاراً ورمزاً لخلافتهم[3]، فمنذ عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان ﵁، لا نرى جيشاً يخرج ويسير نحو العدو إلا ويعقد لقائه لواء أو راية تكون لهم شعاراً ورمزاً يسيرون خلفها ويذودون عنها، فنرى الواحد يصرع تلو الآخر وكل همه بقاءها منصوبة[4]، وكان القادة من الشجاعة والإقدام ما جعلهم يكونون أكفاء لحمل هذه الراية مثل عقبة بن نافع والحكم بن عمرو الغفاري وفضالة ابن عبيد الله، وقد جعل والي العراق من قبل الخليفة معاوية زياد بن أبيه خروج القبائل على الرايات، ويبدو أن الغاية من ذلك معرفة مدى جدية كل منها في القتال والتزامها بالأوامر[5].

ثامناً: اهتمامه بالعيون والبريد:

كان اهتمام معاوية ﵁ بأمر المخابرات وجمع المعلومات على الأعداء قديماً منذ كان أميراً على بلاد الشام، وتطور جهاز المخابرات لما تولى الخلافة وزاد اهتمامه به، ففي عهده أسر رجل من المسلمين بالقسطنطينية وأهين ببلاطهم فاستغاث وا معاوياه: لقد أغفلت أمورنا وأضعتنا فوصل الخبر إليه عن طريق جواسيسه المتواجدين بأرض الروم فقام بفدائه وبأسر من أهانه، وجعل المسلم يقتص منه بمثل ما أهانه وأن لا يزيد، وهذا دليل على مدى دقة نظام

---

(1) الفتوح لابن أعثم (2/ 318).
(2) فتوح مصر، ص: 192، الخطط للمقريزي (1/ 268).
(3) تاريخ الطبري نقلاً عن الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (1/ 368).
(4) تاريخ الطبري نقلاً عن الإدارة العسكرية (1/ 368).
(5) تنظيمات الجيش للجنابي، ص: 227، الإدارة العسكرية (1/ 369).

المخابرات في إدارته[1]. ولقد ذكرت القصة فيما مضى بالتفصيل، كما قام الخليفة ﷺ بفرض رقابة دقيقة ومحكمة على أفراد الحاميات وأسرهم، وعين موظفاً في كل حامية ليتحرى عن الداخلين والخارجين حتى لا يتسلل عين للعدو إلى أرض المسلمين فيتعرّفوا على مواقع معسكراتهم ونقاط الضعف بها إن وجدت[2]. وفي إدارته أنشأ ديوان البريد وأعتنى به عناية فائقة وذلك لتسرع إليه أخبار البلاد من جميع أطرافها بما في ذلك أخبار الثغور، ولم يكن للبريد ديوان قبل ذلك[3]، وأما علاقة صاحب البريد بالإدارة العسكرية فقد كان عبارة عن عين الخليفة الباصرة وأذنه السامعة ينقل إليه أخبار عماله وقادته وسائر رجال دولته فكان له عيون يوافونه بكل جديد، كما كان البريد واسطة بين الولاة والخلفاء والقادة لنقل الأوامر العسكرية، وكان أصحاب البريد رقباء ومفتشين من قبل الدولة يرفعون التقارير عن أحوال الجند في مختلف حالات القتال وفي كل الظروف والأوقات، ويخبرونه بحال المال والعطاء وذلك أنه يوكل بمجلس عرض الأولياء وأعطياتهم من يراعيه ويطالع ما يجري فيه ويكتب بما يقف عليه من الحال في وقته، إضافة إلى ذلك كان من واجبات صاحب البريد مساعدة الإدارة العسكرية في التموين والإمداد وحفظ الطرق وصيانتها من الأعداء وانسلال الجواسيس في البر والبحر، وإليه كانت ترد كتب أصحاب الثغور وولاة الأطراف فيقوم بتوصيلها بوجه السرعة من اختصار للطرق واختيار المراكب لمعرفته بالطرق والمسالك إلى جميع النواحي وكان الخليفة يجد عنده ما يحتاج إليه من المعرفة عند إنفاذ جيش وغيره وقت الحاجة إلى ما هنالك من مهام قام البريد بتأديتها في الإدارة العسكرية[4]، على الجملة كان يقال للبريد جناح المسلمين لما كان يطير به من الأخبار[5].

تاسعاً: اهتمام معاوية بالحدود البرية للدولة:

حين انتقلت الخلافة إلى معاوية زاد الاهتمام والاعتناء بهذه التحصينات لحماية الحدود الإسلامية وبخاصة إذا علمنا أن المؤسس الأول للدولة الأموية معاوية ﷺ قد قام بتولي حملات الصوائف والشواتي بنفسه حين كان قائداً وواليًا للخليفتين عمر وعثمان ﷺ كما أسند إليه في خلافتيهما إنشاء وترميم بعض الحصون الدفاعية على الحدود الإسلامية كما سبق وأشرنا مما جعله ملماً بهذه الثغور والتحصينات، فاستكمل ما بدأه حين استقرت بيده

(1) نهاية الأرب (6/ 158) الإدارة العسكرية (1/ 405).
(2) الجندية للدقدوقي، ص: 177.
(3) خطط الشام، محمد كرد (5/ 19).
(4) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (1/ 406).
(5) ثمار القلوب للثعالبي، ص: 241، الإدارة العسكرية (1/ 407).

الخلافة، فقام ببناء وتحصين مرعش والحدث من ثغور الجزيرة وأسكنها الجند وكان يتعهدهما باستمرار[1]، واتخذ معاوية رضي الله عنه لتحصين المدن الساحلية سياسة التهجير أو النواقل بنقل قوم من فرس بعلبك وحمص وأنطاكية إلى سواحل الأردن وصور وعكا وغيرها، ونقل من الزط وأساورة البصرة والكوفة وفرس وبعلبك وحمص إلى ثغر أنطاكية[2]، وولى القائد عبد العزيز بن حاتم الباهلي أرمينية وأذربيجان فبنى مدينة دبيل[3]، وعمل عدة تحصينات دفاعية كما بنى مدينة النشوي[4] ورمم مدينة برذعة[5]، وجدد بناء البيلقان[6]، إلى ما هنالك من تحصينات دفاعية قام بإنشائها[7]، كما قلد الوالي زياد بن أبيه القائد الربيع بن زياد الحارثي[8]، ثغر خراسان وأرسل معه من المصرين «الكوفة ـ البصرة» زهاء خمسين ألفا من الجند بعيالاتهم وأسكنهم ما دون النهر لحماية حدود الدولة الإسلامية هنالك[9]، ويظهر لنا اهتمام زياد بأمر الثغور في قوله لحاجبه وليتك حجابتي وعزلتك عن أربع وذكر منها: ورسول صاحب ثغر فإنه إن أبطأ ساعة أفسد عمل سنة فأدخله علي وإن كنت في لحافي[10]، وسأل زياد جلساءه عن أنعم الناس عيشاً؟ فأجابوه قائلين أنت أيها الأمير فقال: فأين ما يرد علي من الثغور والخراج[11]. وهذا يبين مدى ما كان يلقاه زياد من عناء الثغور في إدارتها والإشراف على أمرها لحفظها وسدها ومما أثر عن زياد أيضاً قوله: أربعة أعمال لا يليها إلا المسن الذي عض على ناجذه. الثغر والصائفة والشرط والقضاء[12]، وكان عمرو بن العاص رضي الله عنه في إدارته لثغر مصر من قبل معاوية لا يحمل له من الخراج إلا الشيء اليسير وينفق جل الأموال على التحصينات وعطاء الجند المرابطين بالثغر[13]، واهتم معاوية بأمر الصوائف والشواتي حيث كانت تخرج في كل عام في وقتها المحدد لها لأداء مهمتها المنوطة بها وكان يختار لها

(1) الإدارة العسكرية (2/ 473).
(2) كان ذلك في عام 42هـ، فتوح البلدان (1/ 139).
(3) مدينة بأرمينية تتاخم أران كان ثغراً.
(4) النشوي: مدينة بأذربيجان، معجم البلدان (5/ 286).
(5) برذعة: في أقصى أذربيجان، معجم البلدان (1/ 379).
(6) يلقان: في أرمينية الكبرى قريبة من شروان، معجم البلدان (1/ 533).
(7) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (2/ 474).
(8) المصدر نفسه (2/ 474).
(9) كان ذلك سنة 51هـ الإدارة العسكرية (2/ 474).
(10) الأوائل للعسكري نقلاً عن الإدارة العسكرية (2/ 475).
(11) المحاسن والمساوئ، ص: 269.
(12) تاريخ اليعقوبي، الإدارة العسكرية (2/ 475).
(13) فتوح مصر، ص: 102.

كبار القواد والأمراء، وكانوا يتمنون إدارتها ويعدون ذلك شرفاً وفخراً لهم فمن ذلك قول الخليفة معاوية لابنه يزيد: يا بني إن أمير المؤمنين قد بسط أملك فاذكر حاجتك فطلب منه مطالب كان أولها قوله: يجعل أمير المؤمنين غزو الصائفة العام إليّ لأفتح أمري بتجهيز الجيوش في سبيل الله[1]، ومن أبرز الولاة والقادة الذين تولوا إدارة حملات الصوائف والشواتي في عهد معاوية لعدة مرات هم سفيان بن عوف الغامدي الأزدي، ومالك بن هبيرة السكوني[2]، وكان أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه قبل أن يعين القادة على هذه الحملات يجري لهم اختباراً لمعرفة مدى حصافة القائد الإدارية، ومن الذين كان يعتمد عليهم من قادته سفيان بن عوف الغامدي لخبرته الإدارية وقد توفي وهو بالصائفة يدير أعمالها وحين بلغ الخبر معاوية تأثر وكتب إلى أمصار وأجناد المسلمين ينعاه، وكان معاوية إذا رأى خللاً في الصوائف قال: واسفياناه ولا سفيان لي[3]، وكان معاوية رضي الله عنه لا يقصر في اتخاذ الإجراءات والتدابير اللازمة لحماية حدود وأراضي الدولة الإسلامية والدفاع عنها[4].

عاشراً: اهتمام معاوية بالأسطول والحدود البحرية:

عندما قامت الدولة الأموية استكمل معاوية رضي الله عنه ما بدأه في بناء القوة البحرية لحماية سواحل الدولة الإسلامية بإقامة المراكب للغزو إلى جانب ترتيب الحفظة في السواحل مما استولى عليه المسلمون من قواعد ومنشآت بحرية، وعندما خرجت الروم في عهده إلى السواحل الشامية أمر بجمع الصناع من النجارين فجمعوا ورتبهم في السواحل الشامية وجعل مقر دار صناعة السفن في جند الأردن بعكا وكما هو معلوم أن بلاد الشام غنية بالأخشاب التي تعتبر من أجزاء السفن الأساسية يومئذ[5]، كما أنشأ الخليفة معاوية أول دار صناعة للأساطيل لإنتاج السفن الحربية المختلفة بمصر سنة 54هـ في عهد واليها مسلمة بن مخلد الأنصاري، وكان مقرها بجزيرة الروضة لذا عرفت باسم صناعة الروضة[6]، وكان قادة بحرية الخليفة معاوية ذوي خبرة وفن ببناء السفن الحربية فقد كلف أحدهم بمهمة عسكرية نحو الروم وطلب منه قائلاً: أنشئ مركباً يكون له مجاديف في جوفه واستعمله للسفر إلى بلاد الروم[7]، أي

(1) أنباء نجباء الأبناء، ص: 106 لابن ظفر المالكي، الإدارة العسكرية (2/ 476).
(2) الإدارة العسكرية (2/ 477)، الإصابة (3/ 237).
(3) تهذيب تاريخ دمشق (6/ 185) الإدارة العسكرية (2/ 477).
(4) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (2/ 478).
(5) المصدر نفسه (2/ 478).
(6) حسن المحاضرة (2/ 378) للسيوطي، الإدارة العسكرية (2/ 543).
(7) نهاية الأرب (6/ 186).

بعمل فتحات جانبية للمجاديف[1]، وبلغت السفن الحربية في عهد معاوية رضي الله عنه نحواً من ألف وسبعمائة سفينة شراعية مشحونة بالرجال والسلاح وجميع العتاد، والمستلزمات القتالية البحرية[2]، وبذلك نجد أن معاوية رضي الله عنه قد أدرك بصائب رأيه أن سواحل الشام ومصر لا ينجيها من غزوات الروم إلا إيجاد هذا الأسطول الإسلامي الذي يحافظ على الحدود البحرية ويغزو سواحل الروم الحين بعد الحين حتى يرتدع العدو ويحسب لهم ألف حساب[3]، وأخذ الأسطول الإسلامي في عهد معاوية في فتح الجزر الواقعة بالبحر المتوسط الواحدة تلو الأخرى والتي منها جزيرة رودس[4]، بقيادة القائد جنادة بن أمية الزهراني الأزدي[5]، حيث فتحها ـ كما مر معنا ـ عنوة وكانت غيضة في البحر وهي من أخصب الجزائر بالمنطقة وأنزلها قوماً من المسلمين بأمر الإدارة العليا المركزية واتخذ بها حصناً وناطوراً يحذرهم ما في البحر ممن يريدهم بكيد، وكان المسلمون بها على جزر من الروم وكان الخليفة معاوية يعاقب بين الجند فيها ولم يجمرهم وأدر عليهم الأرزاق والعطاء وكان الجند المقيمون بها أشد شيء على الروم يعترضونهم في البحر ويأخذون سفنهم وقد خافهم العدو[6] واستمر في فتح الجزر وشحنها بالجند المرابطين وأصبحت قواعد بحرية لحماية سواحل الدولة الإسلامية[7]، وأخذت حملات الصوائف والشواتي البحرية تجوب البحر وتمخر في عبابه في عهد معاوية رضي الله عنه وتسير جنباً مع جنب مع شقيقتها الحملات البرية حيث كانت تخرج من مصر والشام لتحمي سواحل المنطقة البحرية، وتولى قيادتها كبار القادة المشهورين كالقائد يزيد بن شجرة الرهاوي وموسى بن نصير، وبسر بن أبي أرطأة العامري، وجنادة بن أمية الزهراني، وعقبة بن عامر وغيرهم من القادة، وسار خلفاء بني أمية من بعد الخليفة معاوية على سنته وأصبح الأسطول الإسلامي في نمو مطرد وأكثروا من إنشاء سفنه وتفننوا في إتقانه وجهزوه بالأدوات والمعدات الملاحية والقتالية، ورتبوا عليه الجند والقواد وزودوه بالتموين اللازم والأرزاق وظلت صوائفه وشواتيه تقلق الروم في كل عام وتهدد سواحلهم وحدودهم البحرية[8].

---

(1) الإدارة العسكرية (2، 544).
(2) خطط الشام (5/ 37) محمد كرد علي.
(3) الحدود الإسلامية لبيزنطة (1/ 237) فتحي عثمان.
(4) رودس : جزيرة ببلاد الروم مقابل الإسكندرية.
(5) الاستيعاب (1/ 243)، الأعلام للزركلي (2/ 140).
(6) النجوم الزاهرة (1/ 144) الإدارة العسكرية (2/ 545).
(7) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (2/ 545).
(8) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (2/ 546).

الحادي عشر: الاهتمام بديوان الجند والعطاء:

استمر ديوان الجند في أداء مهامه المناطة به وحدث به تطور بسبب كثرة الفتوحات واتساع رقعة الدولة الإسلامية فقد أصبح ديوان الجند مؤسسة كبيرة حظيت باهتمام الخلفاء وولاتهم ومر بعدة مراحل تطويرية خلال هذه الفترة، فعندما تولى معاوية ﷺ الخلافة تقاعس بعض الجند عن الحرب في بداية إدارته العسكرية إثر الفتن والصراعات الداخلية، فتمكن بحسن إدارته ودهائه بالإغلاق عليهم في العطاء حتى تمكن مرة أخرى من إلزامهم مرة أخرى بالجندية وتأليف القلوب[1]، وقرب إليه زعماء القبائل وقد بلغ عدد الجند النظامي الذين يستلمون العطاء في بداية العصر الأموي نحواً من ثمانين ألف جندي بالبصرة، وستين ألفاً بالكوفة وبمصر أربعون ألفاً وبالشام نحواً من ذلك، هذا سوى من في باقي الأقاليم الأخرى من جند كفارس وما وراء النهر وغيرهما من الأقاليم وأمصار الدولة الإسلامية[2]، كما كان بالكوفة من أبناء العجم زهاء عشرين ألف رجل فرض لهم وكانوا يسمون الحمراء[3]، وبالبصرة ألفا رجل من سبي بخاري كلهم جيد الرمي بالنشاب فقد ألحقهم الخليفة معاوية بالخدمة العسكرية وفرض لهم العطاء، وقد ولي كتابة الجند في إدارة الخليفة معاوية المركزية بدمشق عمرو بن سعيد بن العاص، هذا بالإضافة إلى دواوين الجند المحلية بالأقاليم الإسلامية المحلية الأخرى التي تتحمل مهام الإدارة العسكرية المحلية[4]، وظل دور أمر العرفاء والنقباء سائراً ومستمراً كما كان في السابق، وذلك لاعتماد الإدارة عليهم في الشئون العسكرية والمالية وبخاصة في توزيع العطاء على الجند، فقد كان الخليفة معاوية يدفع إلى العرفاء العطاء وكان لكل قبيلة عريف يأخذ أعطيتهم ويدفعها إليهم[5]، هذا مع ما يقومون به من التعرف على أحوال الجند وأخبارهم ورفع التقارير عنهم للإدارة العليا[6]، وقد طور زياد الهيكل التنظيمي العسكري للعرفاء، فجعل الناس في البصرة أخماساً وجعل على كل خمس رجلاً كما جعل في الكوفة أرباعاً على قيادة عشرة جنود في القتال، بل أصبحوا مسئولين عن النواحي الأمنية ومثيري الشغب والفتن والقلاقل داخل قبائلهم ومعسكراتهم، فكانوا حلقة الاتصال في الإدارة العسكرية بين القبائل العربية في الأمصار الإسلامية وبين السلطات الإدارية للدولة فيما يختص بتثبيت أسماء الجند في الدواوين وتوزيع العطاء عليهم واستدعائهم عند الحاجة، وقد حل

---

(1) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (2/ 643).

(2) فتوح البلدان، ص: 102، الإدارة العسكرية (2/ 644).

(3) الأخبار الطوال، ص: 228، نقلاً عن الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (2/ 644).

(4) التراتيب الإدارية (1/ 229)، الإدارة العسكرية (2/ 644).

(5) نسب قريش، ص: 154، الإدارة العسكرية (2/ 645).

(6) خطط الشام (5/ 7).

أولئك العرفاء في القوة والنفوذ محل رؤساء القبائل والعشائر وكان اختيارهم يتم من بين ذوي النفوذ ليستطيعوا أداء واجباتهم تجاه الإدارة العسكرية[1] ومثال على ذلك ما قام به زياد حيث خطب في أهل البصرة وهددهم بقطع العطاء إذا لم يكفوه الخوارج حيث قال: يا أهل البصرة والله لتكفني هؤلاء أو لأبدأنّ بكم والله لئن أفلت منهم رجل لا تأخذون العام من عطائكم درهماً، فثار الناس بهم فقتلوهم[2]. كما استخدمت الزيادة في العطاء للقادة والجند المتجاوبين والمنفذين للأوامر تشجيعاً وحث لهم على المضي قدماً في مهامهم ومناصبهم العسكرية المسئولين عنها[3]، كما فعل معاوية مع أشراف أهل الشام.

الثاني عشر: الأثر العلمي والاقتصادي الاجتماعي للفتوحات في عهد معاوية ﷺ:

ومن الظواهر العلمية التي زادت ازدهاراً في عهد معاوية طائفة القصاص، ، وقد كانوا ينتشرون بين الجند كالقراء يقصون عليهم أمجاد أسلافهم ويلقون عليهم الشعر الحماسي فتجيش له همم العسكر فيسارعون للقتال، وقد كان الخطباء والوعاظ يقومون بنفس المهمة كما يقوم بها القراء والقصاص والشعراء لينشروا في الجند روح الفداء ويرفعوا من روحهم المعنوية القتالية[4]، وسلك الخليفة معاوية في وصاياه وتوجيهاته العلمية للأمراء والقادة والجند على منوال من سبقه من الخلفاء الراشدين ﷺ فعندما عين عبيد الله بن زياد على ثغر خراسان كان من نماذج وصاياه قوله: اتق الله ولا تؤثرن على تقوى الله شيئاً[5]. . . وقد سبق الحديث عن وصيته لعبيد الله، ومن الآثار العلمية للحضارة الإسلامية في عهد معاوية أنه حينما فتح جزيرة رودس كان ممن اشترك في فتحها مجاهد بن جبر المقرئ، فكان مقيماً بها يقرئ الناس القرآن ويفقههم في الدين في المسجد الذي بني فيها أثناء الفتح، وهذا أنموذج ومثال من ألوف النماذج والأمثلة حيث أن هذا الأثر العلمي لا يقتصر على جزيرة رودس بل شمل كافة الأمصار والشعوب الإسلامية[6]. ومن الآثار الاقتصادية والاجتماعية للفتوحات أن والي مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري ﷺ وغيره من الولاة في عهد معاوية ﷺ كانوا يبعثون إليه بأموال الخراج بعد أن يستقطعوا منها ما ينفق على الأراضي الزراعية بمصر لاستصلاحها من الخلجان والقناطر والجسور، وحملوا القمح إلى الحجاز لتفريقه وتوزيعه

(1) تنظيمات الجيش، ص: 223، الإدارة العسكرية (2/ 646).
(2) تاريخ الطبري، نقلاً عن الإدارة العسكرية (2/ 646).
(3) المحاسن والمساوئ، ص: 464، الإدارة العسكرية (2/ 467).
(4) الفن الحربي، ص: 117، نقلاً عن الإدرة العسكرية (2/ 718).
(5) تاريخ الطبري (6/ 213).
(6) الإدارة العكسرية (2/ 719).

على سكان الحرمين الشريفين، كمعونة لهم[1]، وكان بالجزيرة مكان الروضة قبل أن تبنى بها دار صناعة السفن في عهد معاوية خمسمائة عامل مستعد لأي حريق يكون في البلاد أو هدم للإعانة في الكوارث وتقديم الخدمات الاجتماعية لأهل المنطقة[2]، ومن التكافل الاجتماعي في عهد معاوية مراعاته لأبناء الشهداء في إدارته ورعاية شئونهم والفرض لهم[3]، فقد كان يقول لجلسائه: يا هؤلاء، إنما سميتم أشرافاً لأنكم شرفتم على من دونكم بهذا المجلس، ارفعوا إلينا حوائج من لا يصل إلينا فيقوم الرجل فيقول: استشهد فلان، فيقول أفرضوا لولده[4]، وعندما أذن معاوية رضي الله عنه لعبد الله بن صفوان بن أمية بالدخول عليه والمثول بين يديه طلب من معاوية أن يفرض للمنقطعين من ديوان العطاء، كما ذكّره بأن لا يغفل عن قواعد قريش والبر إليهم، وأن يقدم لهم الخدمات الاقتصادية والاجتماعية التي تكفل لهم الحياة الرغدة[5]، ومن الآثار الحضارية للفتوحات في النواحي الاقتصادية والاجتماعية استمرارية معاوية في توطين الجند بالثغور وإقطاعهم القطائع والأراضي والمساكن بها وشقه للأنهار وجلبه للمياه. فقد أمر عسكره المقيم بجزيرة رودس بأن يزرعوا ويتخذوا بها أموالاً ومواشي يرعونها حولها[6].

الثالث عشر: كرامات للمجاهدين في عهد معاوية رضي الله عنه:

حدثت كرامات للمجاهدين في عهد معاوية رضي الله عنه منها ما كان لأبي مسلم الخولاني والتي مرّ ذكرها وما حدث لعقبة رحمهما الله، حينما نادى الوحوش والدواب وطلب منها الرحيل، فرحلت بإذن الله تعالى حيث قال: فارحلوا عنّا فإنّا نازلون ومن وجدناه بعد هذا قتلناه، فنظر الناس بعد ذلك إلى أمر مُعْجِب، هو أن السباع تخرج من الشَّعْراء[7] وهي تحمل أشبالها سمعاً وطاعة، والذئب يحمل جرْوَه، والحية تحمل أولادها. ونادى في الناس: كُفُّوا عنهم، حتى يرحلوا عنها، فخرج ما فيها من الوحوش والسباع والهوامّ والناس ينظرون إليها، حتى أوجعهم حرُّ الشمس، فلمَّا لم يروا منها شيئاً، دخلوا، فأمرهم أن يقطعوا الشجر، فأقام أهل أفريقية ـ بالقيروان ـ بعد ذلك أربعين عاماً لا يرون بها حيَّة، ولا عقرباً، ولا سَبُعاً: فاختط عقبة أولاً دار الإمارة، ثم أتى إلى موضع المسجد الأعظم فاختطَّه، ولم يُحدث فيه بناء. وكان

(1) فتوح مصر، ص: 102، حسن المحاضرة (1/ 151).
(2) حسن المحاضرة (2/ 378)، الإدارة العسكرية (2/ 773).
(3) مروج الذهب (3/ 39، 40) الإدارة العسكرية (2/ 774).
(4) مروج الذهب (3/ 39، 40) الإدارة العسكرية (2/ 774).
(5) نسب قريش، ص: 389، الإدارة العسكرية (2/ 774).
(6) الفتوح لابن أعثم (1/ 354) الإدارة العسكرية (2/ 775).
(7) أي من الشجر.

يصلي فيه وهو كذلك، فاختلف الناس عليه في القبلة وقالوا: إن جميع أهل المغرب يضعون قِبلتهم على قبلة هذا المسجد، فأجهد نفسك في تقويمها، فأقاموا أيّاماً ينظرون إلى مطالع الشتاء والصيف من النجوم ومشارق الشمس، فلمَّا رأى أمرهم قد اختلف بات مغموماً، فدعا الله عَزَّوَجَلَّ أن يُفرَج عنه، فأتاه آت في منامه فقال له: «إذا أصبحت فخذ اللواء في يدك، واجعله على عُنُقك. فإنك تسمع بين يديك تكبيراً لا يسمعه أحد من المسلمين غيرك، فانظر الموضع الذي ينقطع عنك فيه التكبير فهو قبلتك ومحرابك، وقد رضي الله لك أمر هذا العسكر وهذا المسجد وهذه المدينة، وسوف يعز الله بها دينه، ويذل بها من كفر به»، فاستيقظ من منامه وهو جزع، فتوضأ للصلاة، وأخذ يصلي وهو في المسجد ومعه أشراف الناس، فلما انفجر الصبح وصلى ركعتي الصبح بالمسلمين إذا بالتكبير بين يديه، فقال لمن حوله: أتسمعون ما أسمع؟ فقالوا: لا، فعلم أنَّ الأمر من عند الله، فأخذ اللواء فوضعه على عُنُقه، وأقبل يتبع التكبير حتى وصل إلى موضع المحراب فانقطع التكبير فركز لواءه وقال: هذا محرابكم. فاقتدى به سائر مساجد المدينة ثم أخذ الناس إليها المطايا من كل أُفق وعظم قدرها... وكان عقبة خير والٍ وخير أمير، مستجاب الدعوة[1].

وفي هذه القصة عبرة بليغة فيما حدث من عقبة حينما نادى تلك الوحوش والدواب فاستجابت له وغادرت ذلك المكان، وهذه كرامة من الله تعالى يكرم بها أولياءه لما يريد بهم نصر الإسلام ونشره في الأرض، حيث أسمع تلك الدواب كلام عقبة وأوقع في قلوبها الخوف منه، وقدَّر لها أن تسمع وتطيع كما لو كانت ذات عقل وإدراك وقد رأى ذلك قبيل كبير من البربر فأسلموا، كما ذكر ابن الأثير في روايته[2].

هذا وقد حمل بعض الباحثين هذا الخبر على أنه من الأساطير التي نسجها الرواة حول عقبة، وعللواهذا الخبر بأن تلك الدواب فزعت لما سمعت ضجيج الجيش الإسلامي فحملت أولادها وولَّت هاربة، وهذا التأويل من عجائب بعض الباحثين حيث يُغفلون تفكيرهم الصحيح عن أجل ردِّ ما لا يؤمن به العقل المجرد، كما أنهم يستغفلون المؤرخين الذين رووا هذه الحادثة وأمثالها على أنها من الأمور الخارقة للعادة، ويتهمونهم بالسذاجة لتحويلهم الوقائع المعتادة في حياة الناس إلى ما يشبه الأساطير، فإن التفكير الصحيح يرى أن التأويل الذي اعتمدوه لا ينسجم مع العقل السليم، لأن الوحوش والدواب البرية إذا تعرضت للفزع تأوي إلى حجورها الآمنة لتسخفي بها ولا تلجأ إلى الهرب حتى لا تتعرض للأذى مما فزعت منه، ثم إنه لو حصل خلاف الغالب من المعتاد فهربت تلك الدواب من أمر عادي وهو فزعها

---

(1) البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب (1/ 19 - 21) الكامل في التاريخ (2/ 484) فتوح مصر، ص: 133، والقصة صحيحة الإسناد.

(2) فتوح مصر، ص: 133، التاريخ الإسلامي (13/ 249).

من الجيش لم يكن هناك ما يدعو إلى عجب البربر وانبهارهم الذي حملهم على الدخول في الإسلام من أجل ذلك، ولم يكن في ذلك ما يحمل طائفة من المؤرخين على رواية هذه الحادثة الغريبة. وقد جاء في إحدى روايات ابن عبد الحكم عن الليث بن سعد قال: فحدثني زياد بن العجلان: إن أهل أفريقية أقاموا بعد ذلك أربعين سنة ولو التُمست حية أو عقرب بألف دينار ما وجدت[1]، وعبرة أخرى في تلك الرؤيا التي رآها عقبة بن نافع في أمر تحديد القبلة وما تلا ذلك من سماعه التكبير الذي لم يسمعه من حوله، وهذه كرامة أخرى لهذا الولي الصالح فرج الله تعالى بها عن المسلمين كربة كانوا يعانون منها من عدم مقدرتهم على تحديد القبلة بدقة، وهذا هو أحد المقاصد التي تظهر فيها الكرامات على أيدي أولياء الله الصالحين، وقد كان عقبة مستجاب الدعوة، فاستجاب الله تعالى دعاءه في تفريج همه وهموم المسلمين في هذا الأمر[2]. وأهل السنة والجماعة يثبتون الكرامات للصالحين: فأولياء الله المتقون هم المقتدون بمحمد ﷺ، فيفعلون ما أمر الله به وينتهون عما عنه زجر، ويقتدون به فيما بين لهم أن يتبعوه فيه، فيؤيدهم بملائكته وروح منه، ويقذف الله في قلوبهم من أنواره، ولهم الكرامات التي يكرم الله بها أولياءه المتقين، وخيار أولياءه كراماتهم لحاجة في الدين أو لحاجة بالمسلمين، كما كانت معجزات نبيهم ﷺ كذلك، وكرامات أولياء الله إنما حصلت ببركة اتباع رسول الله ﷺ [3]. ومما ينبغي أن يعرف أن الكرامات قد تكون بسبب حاجة الرجل، فإذا احتاج إليها الضعيف الإيمان أو المحتاج، أتاه منها ما يقوي إيمانه أو يسد حاجته، ويكون من هو أكمل ولاية منه مستغنياً عن ذلك، فلا يأتيه مثل ذلك لعلو درجته وغناه عنها، لا لنقص ولايته ولهذا كانت هذه الأمور في التابعين أكثر منها في الصحابة[4]. ومن عقيدة أهل السُّنة والجماعة الإيمان بكرامات الأولياء[5].

الرابع عشر: قسمة الحكم بن عمرو الغفاري للغنائم في غزو جبل الأسل بخراسان:

عن عبد الرحمٰن بن صبح، قال: كنت مع الحكم بن عمرو بخراسان، فكتب زياد إلى عمرو: إن أهل جبل الأشل سلاحهم اللبود[6]، وآنيتهم الذهب[7]، فغزاهم حتى تواسطوا،

---

(1) فتوح مصر، ص: 133، التاريخ الإسلامي (13/ 249).
(2) التاريخ الإسلامي (13/ 249).
(3) مجموع الفتاوى (11/ 274).
(4) المصدر نفسه (11/ 283).
(5) الانحرافات العقدية والعلمية (1/ 508).
(6) اللبود : هو الالتصاق بالأرض : أي يكمنون لعدوهم.
(7) وهذا دلالة على غناهم وثراهم.

فأخذوا بالشعاب والطرق، فأحدقوا به ، فعيَّ[1] بالأمر فولى المهلب الحرب، فلم يزل المهلب يحتال حتى أخذ عظيماً من عظمائهم، فقال له: اختر بين أن أقتلك، وبين أن تخرجنا من هذا المضيق، قال له: أوقد النار حيال الطريق لتسلكوه فإنهم يستجمعون لكم، ويعرون ما سواه من الطرق، فبادرهم إلى غيره فإنهم لا يدركونك حتى تخرج منه، ففعلوا ذلك، فنجا وغنموا غنيمة عظيمة[2]، وعن عبد الرحمٰن بن صبح قال: كتب إليه زياد: والله لئن بقيت لك لأقطعن منك طابقاً سحتاً[3]، وذلك أن زياداً كتب إليه لما ورد بالخبر عليه بما غنم: إن أمير المؤمنين كتب إلى أن اصطفى له صفراء وبيضاء[4]،والروائع[5]، فلا تحركن شيئاً حتى تخرج ذلك، فكتب إليه الحكم: أما بعد، فإن كتابك ورد، تذكر أن أمير المؤمنين كتب إلي أن أصطفي له كل صفراء وبيضاء والروائع، ولا تحركن شيئاً، فإن كتاب الله عز وجل قبل كتاب أمير المؤمنين، وإنه والله لو كانت السمٰوات والأرض رتقاً[6] على عبد اتقى الله عز وجل جعل الله سبحانه وتعالى له مخرجاً، وقال للناس: اغدوا على غنائمكم، فغدا الناس، وقد عزل الخمس، فقسم بينهم تلك الغنائم، قال: فقال الحكم: اللّهم إن كان لي عندك خير فاقبضني، فمات بخراسان بمرو[7]. إن خبر قسمة الحكم بن عمرو الغفاري رضي الله عنه الغنائم بين أفراد جيشه ذكره ابن عبد البر[8]، وابن الجوزي[9]، وابن الأثير[10]، وابن كثير[11]، وتتفق هذه المصادر حول طلب معاوية رضي الله عنه اصطفاء الذهب والفضة وعدم قسمتها بين الجيش ـ لكنها لم تورد هذا الخبر بأسانيد صحيحة ـ وزاد ابن كثير أن معاوية رضي الله عنه طلب أن يرسل الذهب والفضة إلى بيت المال[12]، وهنا يجدر التذكير بأن مصارف الغنيمة في الإسلام قد بينها الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ

(1) عيَّ، وعيي : عجز، القاموس المحيط 1697.
(2) الكامل في التاريخ (2/ 476).
(3) لأقطعن منك طابقاً سحتاً : أي لأستأصلن ما خبث من كسبك.
(4) الصفراء والبيضاء: هما الذهب والفضة.
(5) الروائع: المقصود بها في هذا المقام: ما أعجبك وسرك من الغنائم.
(6) الرتق: ضد الفتق، وهو الالتحام، لسان العرب (10/ 114).
(7) تاريخ الطبري (6/ 167).
(8) الاستيعاب (1/ 357).
(9) المنتظم (5/ 230).
(10) الكامل في التاريخ (2/ 476).
(11) البداية والنهاية (11/ 217).
(12) البداية والنهاية (11/ 217).

ٱلسَّبِيلِ ﴿٤١﴾ [الأنفال: 41]. وهذا يعني أن أربعة أخماس الغنيمة يقسم بين الجيش، ويبقى خمس الغنيمة فيقسم كما ورد في الآية السابقة وهذا الحكم لا يخفى على معاوية رضي الله عنه، كما أن دين معاوية وعدالته تمنعه من رد حكم الله سبحانه وتعالى[1]، وبالرجوع إلى رواية الطبري نلاحظ أن الحكم بن عمرو الغفاري رضي الله عنه لم يبادر إلى قسمة الغنائم بين الجيش على الفور ـ مع وضوح حكم الشرع في ذلك ـ بل دارت بينه وبين زياد مراسلات في شأن الغنائم، وهذا التأخير في قسمة الغنائم يقودنا إلى عدة احتمالات يمكن من خلالها إزالة الغموض الوارد في الرواية وهذه الاحتمالات هي:

1 - رغبة معاوية رضي الله عنه في أن يكون خمس الغنيمة ـ الذي يتولى إمام المسلمين قسمته ـ من الذهب والفضة.

2 - رغبة معاوية رضي الله عنه في حمل ما غنم المسلمون من ذهب وفضة قبل تخميسه وقسمته إلى الهند وبيعه هناك[2] بقيمة مرتفعة ثم يخمس ثمنه بعد ذلك، وفي ذلك خير للجميع[3].

3 - وجود نقص طارئ في بيت مال المسلمين، فأراد معاوية رضي الله عنه أن يقترض ما غنمه جيش الحكم رضي الله عنه إلى أجل معلوم، وتأخير قسمة الغنائم بين الجيش إلى وقت لاحق[4].

ومن الدروس المهمة ـ إن ثبتت الرواية ـ التزام الحكم بن عمرو الغفاري بمبدأ: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق وتمسكه بأداء الأمانة في قسمة الغنائم، ولم يغل منها شيئاً ووزعها على العسكر بعد أن عزل الخمس[5].

هذه أهم الدروس والعبر والفوائد من الفتوحات في عهد معاوية.

الخامس عشر: استشهاد صلة بن اشيم وابنه بسجستان عام ٦٢هـ:

صلة بن أشيم هو الزاهد، العابد، القدوة، أبو الصهباء العدويُّ البصري، زوج العالمة معاذة العدوية، وكان صلة له مواقف في المجتمع الإسلامي مؤثرة ومن هذه المواقف: عن ثابت قال: جاء رجل إلى صلة بنعي أخيه، فقال له: ادن فكل، فقد نُعي إليَّ أخي منذ حين، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: 30]، وكان صلة له كرامات منها: عن حمّاد بن جعفر بن زياد أنّ أباه أخبره، قال: خرجنا في غزاة إلى كابل، وفي الجيش صلة، فنزلوا

---

(1) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 351، 352، هذه الفقرة كلها من هذا الكتاب القيم.

(2) ذكر الدكتور خالد الغيث حفظه الله مبحث مهم في مسألة الغنائم والحكم بن عمرو الغفاري فنقلته منه. انظر: مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 352.

(3) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 352.

(4) مرويات خلافة معاوية، ص: 352.

(5) المصدر نفسه، ص: 352.

فقلت: لأرمُقَنَّ عمله، فصلّى ثم اضطجع، فالتمس غفلة الناس، ثم وثب، فدخل غَيْضَةً، فدخلتُ فتوضّأ وصلّى، ثم جاء أسد حتى دنا منه، فصعدت شجرة، أفتراه التفت إليه حتى سجد؟ فقلت: الآن يفترسه فلا شيء، فجلس ثم سلَّم فقال: يا سبع اطلب الرِّزق بمكان آخر، فولىّ وإن له زئيراً أقول: تصدّع منه الجبل، فلمّا كان الصبح جلس، فحمد الله بمحامد لم أسمع بمثلها، ثم قال: اللَّهم إني أسألك أن تُجيرني من النار، أو مثلي يَجتَرِئُ أن يسألك الجنَّة[1]. وعن العلاء بن هلال، أن رجلاً قال لصلة: يا أبا الصهباء رأيت أني أعطيت شهدة، وأعطيت شهدتين، فقال: تستشهد وأنا وابني، فلما كان يوم يزيد بن زياد، لقيتهم الترك بسجستان، فانهزموا. وقال صلة: يا بُنيَّ ارجع إلى أمك. قال: يا أبَة، تريد الخير لنفسك، وتأمرني بالرجوع! قال: فتقدَّمْ، فتقدَّم، فقاتل حتى أصيب، فرمى صلةُ عن جسده، وكان رامياً، حتى تفرَّقوا عنه، وأقبل حتى قام عليه، فدعا له، ثم قاتل حتى قُتل[2]. وعن حمّاد بن سلمة: أخبرنا ثابت أنّ صلة كان في الغزو، ومعه ابنه، فقال: أي بني، تقدم فقاتل حتى أحتسبك، فحمل، فقاتل، حتى قُتل، ثم تقدَّم صلة فقتل، فاجتمع النساء عند امرأته معاذة، فقالت: مرحباً إن كنتنّ جئتنَّ لتُهنِّئنني، وإن كنتنَّ جئتُنَّ لغير ذلك فارجعنَّ[3]. وكانت الملحمة التي استشهد فيها سنة 62هـ[4].

المبحث الخامس

ولاية العهد ووفاة معاوية ﷺ

أولاً: بداية التفكير ببيعة يزيد:

يُحمل كثير من الباحثين، المغيرة بن شعبة، المسئولية عن بيعة يزيد بن معاوية، وذلك باعتباره العقل المدبر، وصاحب الفكرة الأولى، حين عرض على معاوية بأن يتولى يزيد الخلافة من بعده، وتكفل بالدعوة ليزيد وتهيئة أهل الكوفة لتقبل خبر اختيار يزيد لولاية العهد وكل من اتهم المغيرة بن شعبة، كان حجته في ذلك تلك الرواية التي أوردتها بعض المصادر القديمة ومفادها: أن المغيرة بن شعبة ﷺ دخل على معاوية واستعفاه من ولاية الكوفة فأعفاه، وأراد معاوية أن يولي بدلاً منه سعيد بن العاص، فبلغ ذلك أحد الموالين للمغيرة، وتأثر المغيرة عند ذلك، وتمنى العودة للإمارة، فقام فدخل على يزيد وعرّض له بالبيعة، فأخبر

---

(1) سير أعلام النبلاء (3/ 499).
(2) سير أعلام النبلاء (3/ 500) رجالة ثقات.
(3) طبقات ابن سعد (7/ 137)، سير أعلام النبلاء (3/ 498).
(4) سير أعلام النبلاء (3/ 500).

يزيد والده بما قال له المغيرة، فاستدعى معاوية المغيرة بن شعبة وأمره بالرجوع والياً مرة أخرى على الكوفة وأن يعمل في بيعة يزيد[1]. وأسانيد هذه الرواية ضعيفة، فسند هذه الرواية لا يشجع على قبولها أو الاستئناس بها بأي حال من الأحوال، كما أن المغيرة ﷺ صحابي جليل تمّ التعريف به في موضعه من هذا الكتاب وقد توفي عام 50هـ[2] قبل ظهور فكرة ولاية العهد عند معاوية، حيث بدأت هذه الفكرة في الظهور في عهد زياد بن أبيه على العراق وقد صرّح الطبري بأن معاوية إنما دعا إلى بيعة يزيد سنة 56هـ[3]، فلماذا تأخر كل هذه السنين إذا كان المغيرة قد شرع في التمهيد لهذه الفكرة قبل موته[4].

ثانياً: الخطوات التي اتبعها معاوية لبيعة يزيد:

1 - المشاورات:

لم نعثر في المصادر التاريخية على تحديد دقيق لتلك الفترة التي بدأ فيها معاوية ﷺ يفكر تفكيراً جدياً في تولية ولده يزيد من بعده خليفة المسلمين. ولكنه بالتأكيد لم يفكر إلا بعد سنه الخمسين من الهجرة، وذلك بعد أن خلت الساحة من وجود الصحابة الكبار المبشرين بالجنة من أمثال سعد بن أبي وقاص، وسعيد بن يزيد بن عمرو، وبعد وفاة الحسن بن علي ﷺ جميعاً، وبعد أن عرف يزيد عند قيادته لجيش المسلمين الذي حاصر القسطنطينية، وبعدها أصبح معاوية يهيء الأمور لترشيح يزيد للخلافة، وكان من الطبيعي أن يستشير زياد بن أبيه بعدما أصبح أخاً له، وصار يقال له: زياد بن أبي سفيان، وولاه العراق، ولنسمع رواية الطبري لهذه الاستشارة، وماذا صنع زياد[5]، قال الطبري: لما أراد معاوية أن يبايع ليزيد، كتب إلى زياد يستشيره، فبعث زياد إلى عبيد بن كعب النميري، فقال إن لكل مستشير ثقة، ولكل سر مستودع وإن الناس قد أبدعت[6] بهم خصلتان: إذاعة السر، وإخراج النصيحة إلى غير أهلها وليس موضع السر إلا أحد رجلين: رجل آخره يرجو ثواباً ورجل ديناً له شرف في نفسه، وعقل يصون حسبه، وقد عجمتهما[7] منك، فأحمدت الذي قبلك. وقد دعوتك لأمر

(1) الإشراف في منازل الأشراف لابن أبي الدنيا، ص: 121 إسناد ضعيف، تاريخ الطبري (6/ 220) إسناده ضعيف جداً، تاريخ الذهبي حوادث (61 - 80هـ)، ص: 272 إسناده ضعيف جداً.

(2) تاريخ الطبري (6/ 150).

(3) تاريخ الطبري (6/ 219) انظر: مواقف المعارضة في خلافة يزيد بن معاوية، ص: 84 إلى 87.

(4) مواقف المعارضة في خلافة، ص: 87.

(5) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي (1/ 189).

(6) أي: أضربهم.

(7) أي: خبرتهما.

اتهمت عليه بطون الكتب[1]: إن أمير المؤمنين كتب إليّ يزعم أنه قد عزم على بيعة يزيد، وهو يتخوّف نفرة الناس ويرجو مطابقتهم، ويستشيرني. وعلاقة أمر الإسلام، وضمانه عظيم، ويزيد صاحب رَسْلة[2]، وتهاون، مع ما قد أولع به من الصيد، فالق أمير المؤمنين مؤدياً عني، فأخبره عن فعلات يزيد، فقال له: رويدك بالأمر فأقمن أن يتم لك ما تريد، ولا تعجل فإن دركاً في تأخير خير من تعجيل عاقبته الفَوْت. فقال عبيد له: أفلا غير هذا قال: ما هو؟ قال: لا تفسد على معاوية رأيه، ولا تمقِّت إليه ابنه، وألقى أنا يزيد سراً من معاوية فأخبره عنك أن أمير المؤمنين كتب إليك يستشيرك في بيعته، وأنك تخوَّفُ خلاف الناس لهنات ينقمونها عليه، وأنك ترى له ترك ما يُنقَمُ عليه، فيستحكم لأمير المؤمنين الحجة على الناس ويسهل لك ما تريد، فتكون قد نصحت يزيد وأرضيت أمير المؤمنين، فسلمت مما تخاف من علاقة أمر الأمة. فقال زياد: لقد رميت الأمر بحجره، أشخص على بركة الله، فإن أصبت فما لا ينكر، وإن يكن خطأ فغير مستغَشّ وأبعد بك إن شاء الله من الخطإ قال: أتقول بما ترى، ويقضي الله بغيب ما يعلم. فقدم على يزيد فذاكره ذلك. وكاتب زياد إلى معاوية يأمره[3]، بالتؤدة، وألا يعجل، فقبل ذلك معاوية وكفّ يزيد عن كثير مما كان يضع[4].

إن تحليل هذا النص يكشف لنا عن الحقائق التالية:

أ ـ إن بداية الفكرة كانت من معاوية وأنه كان يدرك أنه كان يقدم على أمر خطير، لا بل على حدث لم يسبق إليه، ولهذا اصطفى زياداً للاستشارة وزياد هو الذي قال عنه الأصمعي: الدهاة أربعة: معاوية للروية، وعمرو بن العاص للبديهة، والمغيرة بن شعبة للمعضلة، وزياد لكل صغيرة وكبيرة. وقد أشار عليه زياد بالتؤدة فقبل. ولهذا لم يُقدم معاوية على الأمر الخطير إلا بعد وفاة زياد[5]. قال الطبري: لما مات زياد، دعا معاوية بكتاب فقرأه على الناس باستخلاف يزيد، إن حدث به حدث الموت، فيزيد ولي عهد، فاستوثق[6] له الناس على البيعة ليزيد غير خمسة[7].

ب ـ إن معاوية لم يكن يريد حين الاستشارة الاكتفاء بالعهد، وإنما أراد الناس على مبايعة يزيد وهو حي، وهو حدث جديد أيضاً لم يعهد من قبل، لأن الناس لم يبايعوا عمر إلا بعد وفاة أبي بكر ﵁ .

---

(1) أي خائف من ذيوعه إذا هو كتبه.
(2) الرسة : الكسل.
(3) تاريخ الطبري (6/ 221). يأمره هنا : يشير إليه.
(4) تاريخ الطبري (6/ 221).
(5) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي (1/ 191).
(6) استوثق له الناس : اجتمعوا على رأيه.
(7) تاريخ الطبري (6/ 221).

جـ- إن زياداً قد أحس خطورة الأمر، فلم يشأ بادئ الأمر أن يكتب لمعاوية بنصيحته، بل أراد أن يحمّلها لرسول خاص وهو «عبيد الله بن كعب النميري» ليؤديها عنه إلى معاوية شفهياً وفي ذلك من الحيطة الشيء الكثير، لئلا يشيع خبر الكتاب، فيحدث ما لا يحمد. ولهذا قال لعبيد: ولهذا دعوتك لأمر اتهمت عليه بطون الصحف.

د- إن معاوية كان يتخوف نفرة الناس، فليس العهد لولد الخليفة والخليفة حي. . .بالأمر اليسير.

هـ- إن زياداً كان يخشى على الأمة من يزيد، ولذلك يقول: وعلاقة أمر الإسلام وضمانه عظيم، ويزيد صاحب رسلة وتهاون مع ما قد أولع به من الصيد. ولهذا أيضا نرى في جواب عبيد له أن سيلقى يزيد وينقل إليه: أن زياداً يرى ترك ما ينقم عليه وبذلك: يسلم ما تخاف من علاقة.

و- إن زياداً كتب أخيراً إلى معاوية، ولكن لينصحه بالتؤدة وألا يعجل فقبل ذلك معاوية[1].

وممن شاورهم معاوية ﷺ الأحنف بن قيس، فقد روي أن معاوية لما نصبّ ولده يزيد لولاية العهد، أقعده في قبة حمراء، فجعل الناس يسلمون على معاوية ثم يميلون إلى يزيد، حتى جاء رجل ففعل ذلك، ثم رجع إلى معاوية، فقال: يا أمير المؤمنين: اعلم أنك لو لم تول هذا أمور المسلمين لأضعتها، والأحنف بن قيس جالس. فقال له معاوية: ما بالك لا تقول يا أبا بحر؟ قال: أخاف الله إن كذبت، وأخافكم إن صدقت، فقال له معاوية: جزاك الله عن الطاعة خيراً، وأمر له بألوف فلما خرج لقيه ذلك الرجل بالباب، فقال: يا أبا بحر إني لأعلم أن شر من خلق الله سبحانه وتعالى هذا وابنه، ولكنهم قد استوثقوا من هذه الأموال بالأبواب والأقفال، فليس نطمع في استخراجها إلا بما سمعت، فقال له الأحنف: أمسك عليك، فإن ذا الوجهين خليق أن لا يكون عند الله وجيهاً[2].

2 - الحملات الإعلامية:

ومن التمهيدات الإعلامية الناجحة التي قدمها معاوية ﷺ لابنه توليته أميراً على الجيش الذي وجهه إلى غزو القسطنطينية وبعد أن رجع من الغزو ولاه إمارة الحج، ولكنه كان يتخوف نفرة الناس ويتهيب من بعض المعارضين[3]، ولذلك كان يواصل إعداد العدة للأمر، ويستشير ولاته ورجال دولته ويستعين بهم في تذليل العقبات وتهيئة الأجواء لأخذ البيعة ليزيد ومما يذكر

(1) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي (1/ 192).
(2) الشهب اللامعة في السياسة النافعة، ص: 458.
(3) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص: 104.

في هذا الجانب، أن الشاعر ربيعة بن عامر الدارمي المعروف بـ«مسكين الدارمي»، وكان مما يؤثره يزيد ويصله، أنشد في مجلس معاوية، وكان المجلس حافلاً ويحضره وجوه بني أمية فقال:

ألا ليت شعري ما يقول ابن عامر ... ومروان أم ماذا يقول سعيد

بني خلفاء الله مهلاً فإنما ... يبوئها الرحمن حيث يريد

إذا المنبر الغربي خلاّه ربُّه ... فإن أمير المؤمنين يزيد

فقال معاوية: ننظر فيما قلت يا مسكين ونستخير الله ولم يتكلم أحد من بني أمية إلا بالإقرار والموافقة[1].

3 - قبول أهل الشام لبيعة يزيد:

أدرك معاوية ﷺ حرص أهل الشام على بقاء الخلافة فيهم، فقد حسم أهل الشام أمرهم وأصبح خيارهم في ولاية العهد ليزيد ووجدوا فيه ضالتهم لاستمرار صدارتهم في الدولة الإسلامية ولم يكن أهل الشام يستغربون فكرة توريث الخلافة كما كان يستغربها أهل الحجاز، فقد عهدوها من قبل إبان حكم البيزنطيين لهم، بل إن بعض أهل العراق أيضا كانوا فيما يبدو مهيئين لتقبل فكرة توريث الخلافة ولكن من منظور خاص، حيث يرون أحقية أهل البيت بها واستمرارها فيهم وقد تأثروا في ذلك بنظام الحكم الساساني للفرس قبل الفتح الإسلامي لهذه البلاد[2]، إن أهل الشام استجابوا لرغبة معاوية في تولية يزيد ولياً لعهده من بعده وكان ذلك بعد رجوع يزيد من غزوة القسطنطينية، وقد أدى طرح هذه الفكرة إلى قبول وإجماع من أهل الشام بالموافقة على بيعة يزيد، ولم يكن هناك أي معارض[3]، وقد أسهم أهل الشام فيما بعد في أخذ البيعة ليزيد من الأمصار الأخرى مثل الحجاز[4].

4 - بيعة الوفود:

عقد معاوية ﷺ اجتماعاً موسعاً في دمشق بعد ما جاءت الوفود من الأقاليم وكانت هذه الوفود تضم مختلف رجالات القبائل العربية، فمثلاً من بلاد الشام: الضحاك بن قيس الفهري، ثور بن معن السلمي[5]، عبد الله بن عضاة الأشعري، عبد الله بن مسعدة الفزاري،

---

(1) الشعر والشعراء لابن قتيبة (1/ 455)، دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص: 104.

(2) مسند أحمد (2/ 325) الموسوعة الحديثية حسن لغيره.

(3) تاريخ خليفة، ص: 211، مواقف المعارضة في خلافة يزيد، ص: 89.

(4) تاريخ فلسطين، هاني أبو الرب، ص: 319، 320، البيان والتبيين (1/ 392).

(5) مختصر تاريخ دمشق (3/ 386).

عبد الرحمن بن عثمان الثقفي، حسان بن مالك بن بحدل الكلبي[1] وغيرهم، كما حضر عن أهل المدينة عمرو بن حزم الأنصاري ـ وذلك في وقت متأخر ـ وحضر عن أهل البصرة الأحنف بن قيس التميمي، ثم تكلم كل زعيم من هؤلاء الزعماء ورحبوا بالفكرة وأثنوا عليها وأكدوا أن هذه هي الطريقة الأصوب لحقن الدماء وحفاظ الألفة والجماعة[2]، فحصلت المبايعة ليزيد بولاية العهد على أن الشيء المؤكد أن عمرو بن حزم الأنصاري لم يحضر هذا الاجتماع وذلك لأحد أمرين:

الأمر الأول: هو أن أهل المدينة لم يوافقوا في الأصل على البيعة وعارضوها بشدة فلم يرسلوا في موعد الوفود أحد.

الأمر الثاني: هو أن معاوية قد رفض الالتقاء بعمرو بن حزم وما ذلك إلا لأنه بلغه معارضة أهل المدينة، وعرف أن عمرو بن حزم مندوب عن أولئك المعارضين، فخشي إن حضر الاجتماع سوف يشتت الآراء، ويحدث بلبلة من خلال معارضته ولهذا استجاب له أخيراً فالتقى به على انفراد وحصل بالفعل ما كان يظن معاوية ولكن معاوية تقبل الانتقاد وأجزل له العطاء[3]وكان ذلك بعدما عزل رأي ابن حزم عن الوفود.

5 - طلب البيعة من أهل المدينة:

مثلما أرسل معاوية ﷺ إلى الأقاليم يطلب منهم البيعة ليزيد أرسل إلى المدينة يطلب من أميرها أخذ البيعة ليزيد[4] فقام مروان بن الحكم أمير المدينة خطيباً فحض الناس على الطاعة وحذرهم الفتنة ودعاهم إلى بيعة يزيد، وقال مروان سنة أبي بكر الراشدة المهدية واستدل على ذلك بولاية العهد من أبي بكر لعمر، فرد عليه عبد الرحمن بن أبي بكر ﷺ [5]، ونفى أن تكون هناك مشابهة بين هذه البيعة وبيعة أبي بكر وقال: فقد ترك أبو بكر الأهل والعشيرة وعمد إلى رجل من بني عدي بن كعب إذ رأى أنه لذلك أهل فبايعه. ثم قال: هذه البيعة شبيهة ببيعة هرقل وكسرى ثم حدث بينه وبين مروان نزاع[6]، وجاء في رواية عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق ﷺ : يا معشر بني أمية اختاروا منها بين ثلاثة: بين سنة رسول الله أو سنة أبي بكر أو سنة عمر. . ألا وإنما أردتم أن تجعلوها قيصرية كلما مات قيصر كان قيصر[7]، فقال مروان:

---

(1) مواقف المعارضة في خلافة يزيد، ص: 89.
(2) مواقف المعارضة في خلافة يزيد، ص: 90.
(3) مجمع الزوائد (7/ 248، 249) صحيح الإسناد.
(4) العقد الفريد (4/ 370، 372) مواقف المعارضة، ص: 98.
(5) مواقف المعارضة، ص: 99، مجمع الفوائد (5/ 241) إسناده حسن.
(6) مجمع الفوائد (5/ 241) إسناده حسن.
(7) البخاري، رقم 4827.

خذوه، فدخل بيت عائشة، فلم يقدروا عليه[1]، فقال: إن هذا الذي أنزل الله فيه ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ ١٧﴾ [الأحقاف: 17] فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا من القرآن إلا أن الله أنزل عذري[2].

وقد سبق طلب مروان بن الحكم من أهل المدينة البيعة ليزيد تمهيد من معاوية رضي الله عنه حيث أرسل رسالة لم يذكر فيها يزيد وإنما جاء فيها: إني قد كبرت سني وخشيت الاختلاف على الأمة بعدي، وقد رأيت أن أتخير لهم من يقوم بالأمر بعدي، وكرهت أن أقطع أمراً دون مشورة من عندك فاعرض عليهم ذلك، وأعلمني بالذي يردون عليك. فقام مروان في الناس فأخبرهم بما أراد معاوية فقال الناس: أصاب معاوية ووفق وقد أحببنا أن يتخير لنا فلا يألو[3]،ولكن عندما ذكر في المرة التالية اسم يزيد، امتنع أهل المدينة في بداية الأمر وعبَّر عبد الرحمٰن بن أبي بكر عمّا في نفوسهم[4].

ومما سبق نلاحظ أن مروان بن الحكم لم يوفق في المهمة التي كلفه بها معاوية رضي الله عنه، وعند ذلك قرر معاوية المجيء بنفسه إلى الحجاز ومعرفة موقف الصحابة من هذه القضية المهمة، فجاء رضي الله عنه معتمراً في شهر رجب من سنة 56هـ[5]، فلما علم عبد الرحمٰن بن أبي بكر وابن عمر وابن الزبير بقدوم معاوية خرجوا من المدينة، واتجهوا من المدينة إلى مكة[6]، فلما قدم معاوية المدينة خطب الناس وحثهم على البيعة وبيّن أن يزيد هو أحق الناس بالخلافة[7]، ثم قال: قد بايعنا يزيد فبايعوه[8]، ويبدو أن معاوية قد ذكر أنه يخشى على ابن عمر وغيره من القتل إن مانعوا، ويقصد بخوفه عليهم من أهل الشام، الذين لا يمكن أن يتصوروا أن أحداً يخالف أمير المؤمنين في أمر اتفق عليه كثير من الناس، فقد ذكر أن معاوية قال: والله ليبايعنَّ ابن عمر أو لأقتلنّه، فلما بلغ الخبر عبد الله بن صفوان[9]، غضب وعزم على مقاتلة معاوية إن ثبت هذا. فلما سأل معاوية أنكر ذلك وقال: أنا أقتل ابن عمر؟! إني والله لا أقتله[10].

---

(1) البخاري، رقم (4827)، وفي البخاري رواية أخرى.

(2) المصدر نفسه، رقم (4827).

(3) المدينة في العصر الأموي، ص: 88، نقلاً عن الكامل في التاريخ.

(4) مواقف المعارضة، ص: 99.

(5) البداية والنهاية (11/ 305).

(6) التاريخ الصغير للبخاري (1/ 103) إسناده حسن.

(7) تاريخ خليفة، ص: 213، 214 إسناده حسن.

(8) الأباطيل والمناكير والصحاح والمشاهير (1/ 262) حسن مشهور.

(9) التقريب، ص: 308، قتل عام 73هـ بالكعبة مع ابن الزبير.

(10) الطبقات (4/ 83) بسند صحيح، تاريخ خليفة، ص: 214 - 215 بسند صحيح، مواقف المعارضة، ص: 101، 102.

أ ـ عبد الله بن عمر رضي الله عنه في مجلس معاوية رضي الله عنه : فلما قدم معاوية مكة، وقضى نسكه بعث إلى ابن عمر فقدم عليه فتشهد معاوية وقال: أما بعد يا ابن عمر فإنك قد كنت تحدثني أنك لا تحب أن تبيت ليلة سوداء وليس عليك أمير، وإني أحذرك أن تشق عصا المسلمين، وأن تسعى على فساد ذات بينهم، فرد ابن عمر على معاوية، وبين له كيف كانت طريقة بيعة الخلفاء الراشدين، وذكر له كيف أن لهم أبناء خير من يزيد، فلم يروا في أبنائهم ما يرى معاوية في يزيد ثم بين له أيضاً أنه لا يريد أن يشق عصا المسلمين وأنه موافق على ما تجتمع عليه أمة محمد ﷺ، فأثلج هذا القول صدر معاوية رضي الله عنه وقال: يرحمك الله[1]. فقد اشترط ابن عمر حدوث الإجماع على بيعة يزيد حتى يعطيه البيعة[2]، وكان معاوية رضي الله عنه قد أرسل بمائة ألف درهم لابن عمر، فلما دعا معاوية لبيعة يزيد قال: أترون هذا أراد، إن ديني إذاً عندي لرخيص[3]، وكان ابن عمر رضي الله عنه يرى أنه لا يجوز أن يؤخذ على البيعة الدراهم، لأنها من باب الرشوة، فإن كانت البيعة حقاً فلا يجوز له أن يأخذ على الحق أجراً وإن كانت باطلاً، فلا يجوز له أن يبذل البيعة لمن لا يستحقها من أجل المال[4]. موقف ابن عمر رضي الله عنه هو عدم الرضا بالأسلوب الوراثي للحكم أو أخذ البيعة عن طريق المال[5].

ب ـ عبد الرحمٰن بن أبي بكر في مجلس معاوية رضي الله عنه : وخرج ابن عمر ـ من مجلس معاوية ـ واستدعى عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فأخذ معاوية في الكلام، فقاطعه عبد الرحمٰن ورد عليه بلهجة شديدة، وذكر أنه يمانع بيعة يزيد، وطلب أن يكون الأمر شورى، وتوعد معاوية بالحرب[6]. ثم قام فقال معاوية: اللّهم اكفنيه بم شئت، وطلب منه أن يتمهل وأن لا يعلن رفضه أمام أهل الشام فيقتلوه، فإذا جاء العشي وبايع الناس ثم يكن بعد ذلك على ما عنده من رأي[7]. وكان الأولى لمعاوية رضي الله عنه أن يطلب من أهل الشام ألا يتعرضوا لمن خالفه.

جـ ـ عبد الله بن الزبير رضي الله عنه : ثم استدعى ابن الزبير واتهمه معاوية بأنه السبب في منع البيعة، وأنه وراء ما حدث من ابن عمر وابن أبي بكر، فردّ عليه ابن الزبير وطلب منه أن يتنحى عن الإمارة إن كان ملّها ثم طلب من معاوية أن يضع يزيد خليفة بدلاً منه فيبايعه. ثم استدل

---

(1) تاريخ خليفة، ص: 214، 215 بسند صحيح.
(2) الفقهاء والخلفاء د. سلطان خالد، ص: 58.
(3) الطبقات (4/ 182) بسند صحيح.
(4) موسوعة فقه ابن عمر، ص: 153 قلعجي.
(5) الفقهاء والخلفاء، ص: 59.
(6) تاريخ خليفة، ص: 213، 214 بسند صحيح، مواقف المعارضة، ص: 103.
(7) تاريخ خليفة، ص: 214، تاريخ أبي زرعة (1/ 229) بإسناد صحيح.

على عدم موافقته على المبايعة بما استنبطه من حديث الرسول ﷺ بأنه: «لا يجوز مبايعة اثنين في آن واحد»[1] ثم قال: وأنت يا معاوية أخبرتني أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كان في الأرض خليفتان فاقتلوا أحدهما»[2].

ج ـ الحسين بن علي رضي الله عنهما: ومن الملاحظ أن الرواية السابقة لم تذكر الحسين بن علي ضمن من استشارهم معاوية في بيعة يزيد، ولعل السبب يعود إلى أن معاوية أدرك العلاقة بين أهل العراق وبين الحسين وأنهم كانوا يكتبون له ويمنونه بالخلافة من بعد معاوية، ثم إن الحسين قد قابل معاوية بمكة فكلمه طويلاً كما يبدو في أمر الخلافة الأمر الذي أغضب يزيد فقال لأبيه: لا يزال رجل قد عرض لك، فأناخ بك، قال: دعه لعله يطلبها من غيري فلا يسوغه فيقتله[3].

ويتبين لنا من خلال الحوار الذي دار بين معاوية وعبد الله بن عمر، وعبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهم أنهم يمانعون البيعة لسببين:

أ ـ اعتراضهم على تولية يزيد للعلاقة بين الأب والابن وأن هذه لم تكن طريقة الخلفاء الراشدين.

ب ـ الاستدلال على بطلان هذه البيعة ورفضها لمخالفتها النص الصريح الذي ورد في الحديث النبوي والذي لا يجيز البيعة لشخصين في آن واحد. والملاحظ هنا هو أن المعارضين لم يذكروا قدحاً في يزيد وإلا كيف يمكن أن يتجاهلوا صفات يزيد التي اتهم بها فيما بعد، وخاصة في ذلك الموقف الذي يتطلب حشد أي دليل في مقابل الخصم[4]. والحقيقة أنه كان هناك شعور قوي بين بعض الناس خاصة بين أبناء المهاجرين هو كيف أن معاوية الذي أسلم في فتح مكة يتولى خلافة المسلمين، وهناك من هو أقدم إسلاماً وأحق منه[5]، وكان البعض معترضاً على تقديم يزيد خوفاً من القيصرية والهرقلية على حد تعبير عبد الرحمٰن بن أبي بكر. ولما رأى معاوية أوجه الانتقادات التي انتقد فيها أبناء الصحابة بيعة يزيد، ورأى أنها لا تمس يزيد شخصياً بل أنها وجهات نظر ارتأوها ورأى معاوية خلافها، فهؤلاء مدفعون بحرصهم على جعل منصب الخلافة لا تتطرق إليه العلاقات الأسرية والرغبات الشخصية، ومن ثم تكون قيمة الخليفة واختياره مبنية على علاقته بالخليفة الذي قبله[6]. قام

---

(1) تاريخ خليفة، ص: 214 بإسناد حسن، حلية الأولياء (1/ 330، 331).

(2) المعجم الكبير للطبراني (19/ 314) مجمع الزوائد (5/ 198) قال الهيثمي ورجاله ثقات.

(3) الطبقات، الطبقة الخامسة، ص: 357 إسناد حسن نقلاً عن مواقف المعارضة، ص: 106.

(4) مواقف المعارضة في خلافة يزيد، ص: 104.

(5) مصنف ابن أبي شيبة (111/ 90) بسند صحيح.

(6) مقدمة في تاريخ صدر الإسلام د. الدوري، ص: 64.

معاوية بعد اجتماعه مع ابن عمر وابن الزبير وابن أبي بكر، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن وجدنا أحاديث الناس ذات عوار، زعموا أن ابن عمر وابن الزبير وابن أبي بكر الصديق لم يبايعوا يزيد، قد سمعوا وأطاعوا وبايعوا له. فقال أهل الشام: لا والله لا نرضى حتى يبايعوا على رؤوس الناس وإلا ضربنا أعناقهم، فانتهرهم معاوية وقال: مه سبحان الله ما أسرع الناس إلى قريش بالسوء لا أسمع هذه المقالة من أحد بعد اليوم، ثم نزل. فقال الناس بايع ابن عمر وابن الزبير وابن أبي بكر ويقولون لا والله ما بايعنا، ويقول الناس: بلى لقد بايعتم، وارتحل معاوية ولحق بالشام[1]. وبهذه الرواية الصحيحة يتبين لنا كذب تلك الرواية التي تتهم معاوية ﷺ بأنه أقام على رأس كل رجل من الصحابة الأربعة وهم عبد الله بن عمر، عبد الله بن الزبير، عبد الرحمٰن بن أبي بكر، والحسين بن علي رضوان الله عليهم أقام على رأس كل واحد منهم رجلين، وأعطى الإشارة لكل حارس بقتل من يمانع البيعة، فبايع الناس وبايع ابن عمر، وابن الزبير، وابن أبي بكر تحت تهديد السلاح فبالإضافة على ضعف الرواية سنداً، فإن متنها لا يقل عن سندها من حيث الضعف ولا يقف أمام النقد الدقيق[2]، فمثلاً في بداية الرواية: أن معاوية لما كان قريباً من مكة قال لمرقال صاحب حرسه: لا تدع أحداً يسير معي إلا من حملته أنا فخرج يسير وحده حتى إذا كان وسط الأراك لقيه الحسين بن علي فوقف وقال: مرحباً وأهلاً بابن بنت رسول الله ﷺ، سيد شباب المسلمين ودعا بدابة لأبي عبد الله يركبها، ثم طلع عبد الرحمٰن بن أبي بكر، فقال: مرحباً وأهلاً بصاحب رسول الله ﷺ وابن الصديق وسيد المسلمين ودعا له بدابة فركبها، ثم طلع ابن الزبير فقال مرحباً وأهلاً بابن حواري رسول الله ﷺ وابن الصديق وابن عمة رسول الله ﷺ ثم دعا له بدابة فركبها ولم يعرض لهم شيء حتى قضى نسكه[3]. وأما ما يتعلق بباقي الرواية التي تذكر أن معاوية أوقف على رأس كل رجل حارسين وأمرهما بقتل من يحاول الاعتراض على البيعة، إذا بويع يزيد فهذا مستبعد لأمرين أحدهما: أليس من الغريب جداً على معاوية أن يستخدم العنف بهذه الصفة مع أبناء الصحابة، والصحابة أنفسهم ومن ثم يتسبب في توسيع الخلاف ويباعد الشق بينه وبين يزيد من جهة، وبين الصحابة وأبنائهم من جهة أخرى.

والأمر الآخر: عندما يقف الحراس على رؤوس الأربعة، ابن عمر، وابن الزبير، وابن أبي بكر والحسين، أليس هذا المنظر أمام الناس يجعل الشك عند الناس يتضاعف حول مكانة يزيد، ويعرف الناس أن أولئك الحراس الذين يقفون على رأس كل شخص إنما يتربصون به

---

(1) تاريخ خليفة بسند حسن، ص: 214.

(2) مواقف المعارضة في خلافة يزيد، ص: 106، تاريخ خليفة، ص: 215 بسند جويرية بن أسماء قال: سمعت أشياخ أهل المدينة يتحدثون، والرواية ضعيفة لا يمكن الاعتماد عليها.

(3) تاريخ خليفة، ص: 215، رواية ضعيفة لا يمكن الاعتماد عليها.

ويبغونه شراً، ثم يصبح لدى الناس اقتناعاً كاملاً بأن هذه البيعة بيعة إكراه وخديعة فيمانعوا[1].

ثالثاً: تاريخ ترشيح يزيد بن معاوية لولاية العهد:

اختلفت المصادر حول تاريخ ترشيح يزيد بن معاوية لولاية العهد على النحو التالي:

1 - ذكر خليفة بن خياط[2]، والذهبي[3]، أنه كان في سنة 51هـ.

2 - ذكر ابن عبد ربه[4]، أن ذلك كان في سنة 55هـ.

3 - ذكر الطبري[5]، وابن الجوزي[6]، وابن الأثير[7]، وابن كثير[8]، أن ذلك كان في سنة 56هـ.

هذا وبعد دراسة التواريخ السابقة اتضح عدم صحة ترشيح يزيد بن معاوية سنة 51هـ[9] للأسباب التالية:

أ ـ أن وفاة الحسن بن علي ﷺ كانت في السنة نفسها أي في سنة 51هـ واتخاذ قرار ترشيح يحتاج لوقت من طرف معاوية لكي يدرسه ويستشير فيه، كما أنه ليس من الحكمة إعلان قرار الترشيح بعد وفاة الحسن ﷺ مباشرة.

ب ـ قتل حجر بن عدي ﷺ في السنة نفسها، أي في سنة 51هـ، لذا فإنه أيضاً ليس من الحكمة إعلان ترشيح يزيد بن معاوية في هذه السنة، لأن الأنفس لم تكن مهيأة لمثل هذه القرارات الجريئة، التي يعتبر توقيت إعلانها على الناس من أهم عوامل نجاحها.

جـ ـ إن ترشيح يزيد بن معاوية لولاية العهد كان أثناء ولاية مروان بن الحكم على الحجاز[10]، وهي بلا شك الفترة الثانية من ولاية مروان بن الحكم والتي امتدت من سنة 54هـ ـ 57هـ وذلك أن الفترة الأولى من ولاية مروان بن الحكم كانت من سنة 42 - 49هـ.

بعد ذلك يتبقى تاريخان لإعلان ترشيح يزيد بن معاوية لولاية العهد وهما 55هـ وسنة 56هـ وهذان التاريخان يكمل أحدهما الآخر ـ كما سيتضح لاحقاً ـ ولكن يرد في هذا المقام سؤال حول السبب الذي جعل معاوية ﷺ يؤخر ترشيح ابنه يزيد ولياً للعهد على سنة 55هـ أو سنة

---

(1) مواقف المعارضة في خلافة يزيد، ص: 110.
(2) تاريخ خليفة، ص: 213.
(3) تاريخ الإسلام (عهد معاوية)، ص: 147.
(4) العقد الفريد (4/ 338).
(5) تاريخ الطبري (6/ 219).
(6) المنتظم (5/ 285).
(7) البداية والنهاية (11/ 305).
(8) الكامل في التاريخ (2/ 508).
(9) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 450.
(10) صحيح البخاري مع الفتح (8/ 439).

56هـ مع أن الحسن بن علي رضي الله عنه توفي سنة 51هـ، وجواب هذا السؤال يكمن في معرفة أهم حدث وقع في سنة 55هـ حيث توفي في هذه السنة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، آخر الستة الذين رضيهم ورشحهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه للخلافة من بعده[1].

رابعاً: وفاة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد:

حاول بعض الإخباريين أن يوجدوا علاقة بين وفاة عبد الرحمٰن بن خالد بن الوليد وبين بيعة يزيد بن معاوية فذكر البعض أن معاوية رضي الله عنه لما رأى مكانة عبد الرحمٰن بن خالد بن الوليد عند أهل الشام ـ بسبب مآثر عبد الرحمٰن بن خالد بن الوليد، ولغنائه عن المسلمين في أرض الروم وبأسه ـ خافه معاوية فأمر ابن أثال الطبيب النصراني فدس إليه السم[2]، في حين يرجح ابن الكلبي سبب القتل إلى أمر آخر وهو: أن معاوية لما أراد أن يولي الأمور رجلاً من بعده فماذا ترون؟ فقالوا: عليك بعبد الرحمٰن بن خالد، وكان فاضلاً فسكت معاوية وأضمرها في نفسه ثم إن عبد الرحمٰن اشتكى، فدعا معاوية طبيبه بن أثال وأمره بدس السم إلى عبد الرحمٰن[3]. فهذه الروايات بالإضافة إلى ضعف سندها يوجد اختلاف في متنها مع الواقع الملموس فمعاوية رضي الله عنه بيده عزل الأمراء أو توليتهم كما هو معروف، وليس بالصعوبة على معاوية أن يطلب من عبد الرحمٰن بن خالد أن يتنحى عن قيادة الصوائف على الثغر الرومي، ويهمل عبد الرحمٰن بن خالد ثم لا يكون له أي مكانة يُخشى منها وقد ورد أن معاوية عزله وولى بدلاً منه سفيان بن عوف الغامدي[4]على إحدى الصوائف[5]، وليس هذا يشكل صعوبة على معاوية، بل إن معاوية كان يعزل عن الإمارة من هو أعظم وأقوى من عبد الرحمٰن بن خالد ثم كيف يقوم معاوية بقتله وقد أورد الطبري ذكر غزوة البحر سنة 48هـ وكان قائد أهل مصر عقبة بن عامر الجهني، وعلى أهل المدينة المنذر بن زهير، وعلى جميعهم خالد بن عبد الرحمٰن بن خالد بن الوليد[6]، فكيف يرضى معاوية أن يكون ولده قائداً كبيراً من بعد أبيه هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كيف يرضى أن يقوم ولده بقيادة الجيش لمعاوية إن كان معاوية قاتل أبيه، وهل يمكن أن يخفى على ولده هذا الأمر وهو أقرب الناس إليه[7]؟ فهذه أكاذيب واضحة حاولت أن توجد علاقة بين موت عبد الرحمٰن بن خالد بن الوليد والبيعة ليزيد، ومثلها

---

(1) مرويات خلافة معاوية، ص: 452، سير أعلام النبلاء (1/ 123).
(2) تاريخ الطبري (6/ 143) رواية ضعيفة.
(3) كتاب الأمثال، ص: 192 للقاسم بن سلام، ضعيف الإسناد.
(4) تهذيب تاريخ دمشق (6/ 185).
(5) أنساب الأشراف (4/ 104) مواقف المعارضة في خلافة يزيد، ص: 92.
(6) تاريخ الطبري (6/ 147).
(7) مواقف المعارضة في خلافة يزيد، ص: 93.

مثل الأكاذيب التي حاولت أن تربط بين موت الحسن بن علي والبيعة ليزيد ـ كما مرّ ذكره.

إن خبر وفاة عبد الرحمٰن بن خالد بن الوليد بالسم أورده القاسم بن سلام، وابن حبيب البغدادي[1]، وذكر أن الدافع هو الخوف من منافسة عبد الرحمٰن ليزيد في ولاية العهد[2]، كذلك أورد الخبر البلاذري[3]، وأبو الفرج الأصفهاني[4]، وأبو هلال العسكري[5]، وخبر اتهام معاوية رضي الله عنه بحادثة سم عبد الرحمٰن بن خالد بن الوليد لم يرد بإسناد صحيح، بل هو من الأخبار المكذوبة على هذا الصحابي الكريم[6]وفي ذلك يقول ابن كثير: وقد ذكر ابن جرير وغيره، أن رجلاً يقال له: ابن أثال ـ وكان رئيس الذمة بأرض حمص ـ سقاه شربة فيها سم فمات، وزعم بعضهم أن ذلك عن أمر معاوية له في ذلك ولا يصح[7].

خامساً: أسباب ترشيح معاوية لابنه يزيد:

1 - الحفاظ على وحدة الأمة:

نظر معاوية رضي الله عنه إلى ابنه يزيد على أنه المرشح الذي سيحظى بتأييد أهل الشام الذين يمثلون العامل الأقوى في استقرار الدولة وقد أبرز معاوية رضي الله عنه السبب الذي دعاه لاختيار ابنه يزيد وذلك أثناء جمع التأييد له من كبار أبناء الصحابة أثناء رحلته الأخيرة للحج إذا كان الدافع لمعاوية رضي الله عنه عندما سارع في أخذ البيعة ليزيد هو خوفه من الاختلاف[8]، الذي قد يطرأ على الأمة بعد موته، وربما تنخرط في قتال جديد لا يعلم سعته ومداه إلا الله عز وجل [9]. كان معاوية يرهب أن يدع أمة محمد ﷺ كالضأن لا راعي لها[10]، ولذلك عمل على اختيار من يخلفه وكان الأولى بمعاوية رضي الله عنه أن يعين من أفاضل المجتمع الإسلامي رجالاً يجعلهم موضع شورى يختاروا من كان أهلاً للخلافة ويبتعد عن ترشيح ابنه يزيد، لأن اختيار يزيد لم يكن أماناً من الاختلاف والقتال وسفك الدماء ولقد وقع المحظور بعد وفاة معاوية، وسفكت

---

(1) المنمق في أخبار قريش، ص: 360.
(2) هذا تعليل فاسد، لأن ترشيح يزيد بن معاوية لولاية العهد ظهر في عام 56هـ بعد وفاة الحسن بن علي، وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد رضي الله عنهم.
(3) أنساب الأشراف (4/ 109).
(4) الأغاني (16/ 197).
(5) جمهرة الأمثال (2/ 385).
(6) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 384.
(7) البداية والنهاية (11/ 174).
(8) دراسات في النظم، ص: 41 . د. توفيق اليوزكي.
(9) مواقف المعارضة من خلافة يزيد، ص: 131.
(10) تاريخ الطبري (6/ 222).

الدماء ولم يزح اختيار معاوية يزيد ما تعلل به من المخاوف، ويبدو أنه وقع ما وقع بسبب شخصية يزيد، واتباع الوراثة بديلاً من الشورى في اختيار الخليفة ولأسباب أخرى وعلى كل حال فمعاوية ﵁ اجتهد ولم يكن مصيباً في تولية يزيد لولاية العهد، فقد كان بوسعه وقدراته السياسية الفائقة أن يطمئن في حياته على اجتماع كلمة المسلمين في أمر الخلافة من بعده باختيار واحد من قريش يشهد له الناس بحسن السيرة أكثر من يزيد ابنه ويجتمع عليه أعيان المجتمع الإسلامي في الشام والعراق وبلاد الحجاز وغيرها.

2 - قوة العصبية القبلية:

خاض معاوية ﵁ الحرب وتولى الخلافة بنصرة من أهل الشام، وكانوا من أشد الناس طاعة لمعاوية ﵁ ومحبة لبني أمية،ومن الدلائل على تلك الطاعة والمحبة هو أن معاوية ﵁ لما عرض خلافة يزيد بن معاوية على أهل الشام وافقوا موافقة جماعية ولم يتخلف منهم أحد، وبايعوا ليزيد بولاية العهد من بعد أبيه[1]، ومن الدلائل على قوة العصبية في بلاد الشام لبني أمية أن مروان بن الحكم تمكن من الانتصار بأهل الشام على عمال عبد الله ابن الزبير، ثم تبعه بعد ذلك ابنه عبد الملك بن مروان، حتى تمكن من الانتصار بأهل الشام على ابن الزبير وقتله73هـ ﵁ ، ومع ذلك لم نجد أهل الشام انقادوا لابن الزبير، بل إن أهل العراق غدروا بأخيه مصعب ابن الزبير ومالوا مع عبد الملك بن مروان فلماذا لم تجتمع الأمة على ابن الزبير وهو في ذلك الحين لا يشاركه أحد في فضائله ومكانته؟ بل نجد العكس نجد أن عبد الملك بن مروان الذي يعتبر في السن كأحد أبناء عبد الله بن الزبير، تمكن من تولي زعامة المسلمين[2]، فعصبية أهل الشام كانت سبباً مهماً في تولية يزيد وليست عصبية بني أميه فإن أسرة بني أمية لم تكن ذات تأثير كبير على الأحداث في مجيء معاوية ﵁ إلى منصب الخلافة وقد بنى ابن خلدون دفاعه عن صنيع معاوية في ولاية العهد أن المصلحة تقتضي ذلك حيث قال: والذي دعا معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون سواه أنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس، واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد حينئذٍ من بني أمية، إذ بنو أمية يومئذٍ لا يرضون سواهم، وهم عصابة قريش، وأهل الملة أجمع وأهل الغلب منهم، فآثره بذلك دون غيره ممن يظن أنه أولى بها، وعدل عن الفاضل إلى المفضول حريصاً على الاتفاق واجتماع الأهواء الذي شأنه أهم عند الشارع، وإن كان لا يظن بمعاوية غير هذا فعدالته وصحبته مانعة سوى ذلك، وحضور أكابر الصحابة لذلك وسكوتهم عنه دليل على انتفاء الريب فيه، فليسوا ممن يأخذهم في الحق هوادة، وليس معاوية ممن تأخذه العزة في قبول الحق،

(1) مواقف المعارضة في خلافة يزيد، ص: 131. (2) المصدر نفسه، ص: 132.

فإنهم كلهم من أجل ذلك[1]، وقال أيضاً: عهد معاوية إلى يزيد خوفاً من افتراق الكلمة، بما كانت بنو أمية لم يرضوا تسليم الأمر إلى من سواهم فلو قد عهد إلى غيره اختلفوا عليه[2]. أي إن قوة عصبية بني أمية وسطوتهم ونفورهم من الانقياد لغيرهم، جعلت معاوية رضي الله عنه يختار مرشحاً من بني أمية، فكان ابنه يزيد خوفاً منه على الأمة من الفرقة والاختلاف[3]، ومما لا شك فيه لو جاء معاوية برجل من ذوي الكفاءة من قريش غير ابنه يزيد واستفتى ذوي الرأي والنهي بشأنه، ثم وقف وراءه بثقله الكامل وتأييده الصريح، وطلب من أهل الحل والعقد في الأمة مبايعته بولاية العهد، فهل كان يعترض أحد؟ طبعاً لا، ذلك لأن أمير المؤمنين هو الداعي، ولأن المرشح لولاية العهد رجل أريد بترشيحه، ومبايعة مصلحة الأمة والدولة مجردة من كل شبهة أو عاطفة. ألا ترى معي أن ذلك كان ممكناً وأنه كان محققاً للغرض القائل بأن القصد من ولاية العهد هو سد أبواب الخلاف بين المسلمين، وتجنب الأمة أخطار التنازع والفتن من جديد؟ ولكن معاوية رضي الله عنه على كل حال اجتهد، فإن كان مصيباً فله أجران، وإن كان مخطئاً فله أجر[4].

3 - محبة معاوية لابنه وقناعته به:

قال ابن كثير: وقد كان معاوية لما صالح الحسن، عهد للحسن بالأمر من بعده، فلما مات الحسن قوي أمر يزيد عند معاوية ورأى أنه لذلك أهل، وذاك من شدة محبة الوالد لولده، ولما كان يتوسم فيه من النجابة الدنيوية، وسيما أولاد الملوك، ومعرفتهم بالحروب وترتيب الملك والقيام بأبهته، وكان ظن أن لا يقوم أحد من أبناء الصحابة في هذا المعنى[5]. وقال معاوية رضي الله عنه لعمرو بن حزم الأنصاري، الذي كان معارضاً للبيعة، فذكّر معاوية بالله، وطلب منه أن ينظر في عاقبة الأمور، فشكره معاوية وقال: إنك امرؤ ناصح. ثم أخذ معاوية يُبيّن له بصراحة أنه لم يبق إلا ابنه وأبنائهم وابنه أحق من أبنائهم[6]، وكانت ليزيد بعض الصفات التي شجعت معاوية على جعله ولياً للعهد، قال الذهبي في ترجمة يزيد: كان قوياً شجاعاً، ذا رأي وحزم، وفطنة وفصاحة[7]، وقال ابن كثير: وكان يزيد فيه خصال محمودة من الكرم،

(1) مقدمة ابن خلدون (1/ 262، 263).
(2) مقدمة ابن خلدون (1/ 257، 258).
(3) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 462.
(4) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 126.
(5) البداية والنهاية نقلاً عن مرويات خلافة معاوية، ص: 459 - 460.
(6) مجمع الفوائد (7/ 248، 249)، رجاله رجال صحيح الإصابة (4/ 621)، رجاله ثقات.
(7) سير أعلام النبلاء (4/ 37).

والحلم، والفصاحة، والشعر، والشجاعة، وحسن الرأي في الملك[1]، ربما كانت هذه الصفات دافعة لمعاوية وكافية له ليكون صالحاً للخلافة[2]، ولا شك أن الصحابة وأبنائهم أفضل من يزيد وأصلح ولكن مع ذلك فإن معاوية ربما رأى في ولده مقدرة لا تكن لغيره في قيادة الأمة، بسبب عيشته المتواصلة مع أبيه ومناصرة أهل الشام وولائهم الشديد له، ثم اطلاعه عن قرب على معطيات ومجريات السياسة في عصره، وقد أنس معاوية رضي الله عنه من ولده يزيد حرصاً على العدل وتأسياً بالخلفاء الراشدين، فقد كان يسأله عن الكيفية التي سيسير بها في الأمة فيرد عليه يزيد بقوله: كنت والله يا أبت عاملاً فيهم عمل عمر بن الخطاب[3]. وغير ذلك من الأسباب. فإذا تعين رجلان أحدهما أعظم أمانة، والآخر أعظم قوة، قدم أنفعهما لتلك الولاية، وأقلهما ضرراً فيها، فيقدم في إمارة الحرب، الرجل القوي الشجاع، وإن كان فيه فجور، على الرجل الضعيف، وإن كان أميناً[4]. فالواجب في كل ولاية الأصلح بحسبها، وسئل الأمام أحمد عن الرجلين يكونان أميرين في الغزو أحدهما قوي فاجر، والآخر صالح ضعيف مع أيهما يغزو، فقال: أما الفاجر القوي، فقوته للمسلمين، وفجوره على نفسه، وأما الصالح الضعيف، فصلاحه لنفسه وضعفه على المسلمين، يُغزى مع القوي الفاجر[5]. ومعظم المقصود من نصب الأئمة حياطة المسلمين، ودفع عدوهم، والأخذ على يد ظالمهم، وإنصاف مظلومهم، وتأمين سبلهم، وتفريق بيت مالهم فيهم، على ما أوجبه الشرع، فمن كان ناهضاً بهذه الأمور ونحوها فيه يحصل مقصود الإمامة، ويطيب عيشهم، ويأمنون فيه على أنفسهم وأموالهم وحرمهم وإن كان غيره أكثر علماً منه، أو أوسع عبادة، أو أعظم ورعاً فإنه إذا كان غير ناهض بالقيام بهذه الأمور، فلا يعود على المسلمين من علمه أو ورعه وعبادته فائدة، ولا ينفعهم كونه مريداً للصلاح وإجراء الأمور مجاريها الشرعية مع عجزه عن ذلك وعدم قدرته على إنفاذه[6]. فقد كان معاوية رضي الله عنه يرى بولاية المفضول مع وجود الفاضل. هذه أهم أسباب ترشيح معاوية رضي الله عنه لابنه.

سادساً: الانتقادات التي وجهت لمعاوية بشان البيعة ليزيد:

لقد حمّل كثير من المؤرخين السابقين والمعاصرين معاوية رضي الله عنه مسئولية البيعة الكاملة، وبالتالي حملوه جميع الأخطاء التي يقع فيها الحكام من زمان معاوية حتى عصرنا الحاضر، فمنهم من اتهمه بالخروج على نظام الشورى في الإسلام فكان أول محطم لنظام الإسلام[7].

---

(1) البداية والنهاية (11/ 646).
(2) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص: 204.
(3) الأشراف لابن أبي الدنيا، ص: 127، سنده ضعيف.
(4) السياسة الشرعية لابن تيمية، ص: 22.
(5) المصدر نفسه، ص: 22.
(6) العبرة مما جاء في الغزو والشهادة، ص: 35، صديق حسن خان.
(7) إسلام بلا مذهب، ص: 58، مصطفى الشكعة.

ومنهم من اتهم معاوية بأنه أقر النظام الذي يعتمد على السياسة أولاً وإلى الدين ثانياً[1]، والبعض شبه معاوية بالملوك الأقدمين من الفرس والروم[2]، والبعض يجعل معاوية بهذه البيعة هو رائد المدرسة «المكيافيلية» في السياسة القائمة على تسويغ الوسيلة من أجل الغاية[3]، والبعض حكم على معاوية بارتكابه كبيرة أضافها إلى كبائره السابقة[4]، والبعض اعتبر معاوية خارجاً على إجماع المسلمين بهذه البيعة[5]. ولمعرفة صحة هذه الاتهامات من عدمها يجدر بنا أن نعرف ماهية الشورى وكيفية تطبيقها، فالشورى دعامة من دعائم الحكم في الإسلام، وقاعدة صلبة من قواعده كما أن اختيار الحاكم في الإسلام وتولي أمر الأمة المسلمة لا تعطيه صفة مقدسة، أو سلطة مطلقة[6]، بل إنه مسئول عن كل عمل يقوم به وينفذ فيه ما ينفذ في شعبه، وأما طريقة الشورى فلم يحدد لها نظام خاصاً، فتطبيقها إذن متروك للظروف والمقتضيات الجارية[7]، فقد كان رسول الله ﷺ يستشير المسلمين فيما لم ينزل فيه وحي ويأخذ برأيهم فيما هم أعرف به من شئون دنياهم، وكذلك سار الخلفاء الراشدون في استشارة المسلمين وإليك استعراض موجز لكيفية انعقاد إمامة الخلفاء الراشدين:

1 - طريقة انعقاد بيعة أبي بكر رضي الله عنه :

قام أهل الحل والعقد في سقيفة بني ساعدة بيعة الصديق بيعة خاصة ثم رشحوه للناس في اليوم الثاني وبايعته الأمة في المسجد البيعة العامة[8]، وقد أفرز ما دار في سقيفة بني ساعدة مجموعة من المبادئ منها: أن قيادة الأمة لا يقام إلا بالاختيار، وأن البيعة هي أصل من أصول الاختيار وشرعية القيادة، وأن الخلافة لا يتولاها إلا الأصلب ديناً والأكفأ إدارة، فاختيار الخليفة يكون وفق مقومات إسلامية، وشخصية، وأخلاقية، وأن الخلافة لا تدخل ضمن مبدأ الوراثة النسبية أو القبلية، وإن إثارة «قريش» في سقيفة بني ساعدة باعتباره واقع يجب أخذه في الحسبان، ويجب اعتبار أي شيء مشابه ما لم يكن متعارضاً مع أصول الإسلام، وأن الحوار الذي دار في سقيفة بني ساعدة قام على قاعدة الأمن النفسي السائد بين المسلمين حيث لا هرج ولا مرج، ولا تكذيب ولا مؤامرات ولا نقض للاتفاق، ولكن تسليم

---

(1) نساء لهم في التاريخ الإسلامي نصيب، علي إبراهيم حسن، ص: 58.
(2) عائشة والسياسة، ص: 278، مواقف المعارضة في خلافة يزيد، ص: 141.
(3) ملامح التيارات السياسية، إبراهيم بيضون، ص: 147.
(4) الأعمال العربية الكاملة (6/ 36) أمين الريحاني.
(5) زعماء الإسلام، ص: 219، حسن إبراهيم حسن.
(6) مواقف المعارضة (ص: 142) النظرية الإسلامية للصعيدي، ص: 468.
(7) مواقف المعارضة، ص: 143.
(8) الخلافة والخلفاء الراشدون، ص: 66، 67.

للنصوص التي تحكمهم حيث المرجعية في الحوار إلى النصوص الشرعية[1].

أ ـ وأول ما قرره اجتماع يوم السقيفة هو أن (نظام الحكم ودستور الدولة) يقرر بالشورى الحرة، تطبيقاً لمبدأ الشورى الذي نص عليه القرآن الكريم، ولذلك كان هذا المبدأ محل إجماع، وسند هذا الإجماع هو النصوص القرآنية التي فرضت الشورى، أي أن هذا الإجماع كشف وأكد أول أصل شرعي لنظام الحكم في الإسلام وهو الشورى الملزمة، وهذا أول مبدأ دستوري تقرر بالإجماع بعد وفاة رسولنا ﷺ، ثم إن هذا الإجماع لم يكن إلا تأييداً وتطبيقاً لنصوص الكتاب والسنّة التي أوجبت الشورى.

ب ـ تقرر يوم السقيفة أيضاً أن اختيار رئيس الدولة أو الحكومة الإسلامية وتحديد سلطاته يجب أن يتم بالشورى، أي البيعة الحرة التي تمنحه تفويضاً ليتولى الولاية بالشروط والقيود التي يتضمنها عقد البيعة الاختيارية الحرة ـ الدستور في النظم المعاصرة ـ وكان هذا ثاني المبادئ الدستورية التي أقرها الإجماع، وكان قراراً إجماعياً كالقرار السابق.

جـ ـ تطبيقاً للمبدأين السابقين قرر اجتماع السقيفة اختيار أبي بكر ليكون الخليفة الأول للدولة الإسلامية[2]، ثم أن الترشيح لم يصبح نهائياً إلا بعد أن تمت له البيعة العامة، أي موافقة جمهور المسلمين في اليوم التالي بمسجد الرسول ﷺ، ثم قبوله لها بالشروط التي ذكرها في خطابه[3] المشهور الذي جاء فيه: أما بعد أيها الناس فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أرجع عليه حقه إن شاء الله والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمّهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله[4]. وقال عمر لأبي بكر يومئذ: اصعد المنبر، فلم يزل به حتى صعد المنبر فبايعه الناس عامة[5]، وتعتبر هذه الخطبة الرائعة من عيون الخطب الإسلامية على إيجازها وقد قرر الصديق فيها قواعد العدل والرحمة في التعامل بين الحاكم والمحكوم وركز على أن طاعة ولي الأمر مترتبة على طاعة الله ورسوله، ونص على الجهاد في سبيل الله لأهميته في إعزاز الأمة، وعلى اجتناب الفاحشة لأهمية ذلك في حماية المجتمع من الانهيار والفساد[6].

---

(1) دراسات في عهد النبوة للشجاع، ص: 256.
(2) فقه الشورى والاستشارة د. توفيق الشاوي، ص: 140.
(3) المصدر نفسه، ص: 142.
(4) البداية والنهاية (6/ 305، 306).
(5) البخاري، الأحكام – رقم (7219).
(6) التاريخ الإسلامي (9/ 28).

2 - طريقة انعقاد بيعة عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

لما اشتد المرض بالصديق رضي الله عنه جمع الناس إليه فقال: إنه قد نزل بي ما قد ترون ولا أظنني إلا ميت لما بي وقد أطلق الله إيمانكم من بيعتي، وحل عنكم عقدتي، ورد عليكم أمركم، فأمّروا عليكم من أحببتم فإنكم إن أمّرتم في حياة مني كان أجدر أن لا تختلفوا بعدي[1]، وقد قام أبي بكر رضي الله عنه بعدة إجراءات لتتم عملية اختيار الخليفة القادم.

أ ـ استشارة أبي بكر كبار الصحابة: تشاور الصحابة رضي الله عنهم وكل يحاول أن يدفع الأمر عن نفسه ويطلبه لأخيه إذ يرى فيه الصلاح والأهلية لذا رجعوا إليه، فقالوا: رأينا يا خليفة رسول الله رأيك، قال: فأمهلوني حتى أنظر لله ولدينه ولعباده، فدعا أبو بكر عبد الرحمٰن بن عوف فقال له: أخبرني عن عمر بن الخطاب فقال له: ما تسألني عن أمر إلا وأنت أعلم به مني، فقال أبو بكر: وإن فقال عبد الرحمٰن: هو والله أفضل من رأيك فيه، ثم دعا عثمان بن عفان فقال: أخبرني عن عمر بن الخطاب. فقال: أنت أخبرنا به. فقال: على ذلك يا أبا عبد الله، فقال عثمان: اللّهم علمي به أن سريرته خير من علانيته، وأنه ليس فينا مثله. فقال أبو بكر: يرحمك الله والله لو تركته ما عدتك. ثم دعا أسيد بن حضير فقال له مثل ذلك، فقال أسيد: اللّهم أعلمه الخيرة بعدك، يرضى الرضا، ويسخط للسخط، والذي يسر خير من الذي يعلن، ولن يلي هذا الأمر أحد أقوى عليه منه وكذلك استشار سعيد بن زيد وعدداً من الأنصار والمهاجرين، وكلهم تقريباً كانوا برأي واحد في عمر إلا طلحة بن عبيد الله خاف من شدته، فقد قال لأبي بكر: ما أنت قائل لربِّك إذا سألك استخلافك عمر علينا وقد ترى غلظته؟ فقال أبو بكر: أجلسوني أبالله تخوفوني؟ خاب من تزوّد من أمركم بظلم، أقول: اللّهم استخلفت عليهم خير أهلك[2]. وبين لمن نبهه إلى غلظة عمر وشدته فقال: ذلك لأنه يراني رقيقاً ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيراً مما عليه[3].

ب ـ نص العهد الذي كتبه أبو بكر لكي يقرأ على الناس: بسم الله الرحمٰن الرحيم، هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجاً منها، وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيها، حيث يؤمن الكافر، يوقن الفاجر ويصدق الكاذب، إني أستخلف عليكم بعدي عمر بن الخطاب فاستمعوا له وأطيعوا وإني لم آل الله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم خيراً، فإن عدل فذلك ظني به وعلمي به وعلمي فيه، وإن بدل فلكل امرئ ما اكتسب الخير أردت ولا أعلم الغيب ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء: 227].

---

(1) تاريخ الطبري (4/ 238)، التاريخ الإسلامي (9/ 258).

(2) الكامل لابن الأثير (2/ 79) التاريخ الإسلامي شاكر، ص: 101.

(3) الكامل لابن الأثير (2/ 79).

جـ ـ إبلاغ الناس بنفسه: إنه أراد إبلاغ الناس بلسانه واعياً مدركاً حتى لا يحصل أي لبس فأشرف أبو بكر على الناس وقال لهم: أترضون بما استخلف عليكم، فإني والله ما ألوت من جهد الرأي ولا وليت ذا قربة، وإني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا. فقالوا سمعنا وأطعنا(1).

د ـ التوجه بالدعاء لله: أنه توجه بالدعاء إلى الله يناجيه ويبثه كوامن نفسه، وهو يقول: اللّهم وليته بغير أمر نبيك، ولم أرد بذلك إلا إصلاحهم وخفت عليهم الفتنة، واجتهدت لهم رأيي، فولّيت عليهم خيرهم وأحرصهم على ما أرشدهم، وقد حضرني من أمرك ما حضر فاخلفني فيهم فهم عبادك(2).

هـ ـ تكليف عثمان بقراءة العهد على الناس: كلف أبو بكر رضي الله عنه عثمان بن عفان أن يتولى قراءة العهد على الناس وأخذ البيعة لعمر قبل موت أبي بكر بعد أن ختمه لمزيد من التوثيق والحرص على إمضاء الأمر، دون أي آثار سلبية، وقال عثمان للناس: أتبايعون لمن في هذا الكتاب؟ فقالوا: نعم. فأقروا بذلك جميعاً ورضوا به(3).

و ـ وصية الصديق لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما: اختلى الصديق بالفاروق وأوصاه بمجموعة من التوصيات لإخلاء ذمته من أي شيء، حتى يمضي إلى ربه خالياً من أي تبعة بعد أن بذل قصارى جهده واجتهاده(4)، وقد جاء في الوصية: اتق الله يا عمر، واعلم أن لله عملاً بالنهار لا يقبله بالليل، وعملاً بالليل لا يقبله بالنهار، وأنه لا يقبل نافلة حتى تؤدي فريضة، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في دار الدنيا وثقله عليهم، وحق لميزان يوضع فيه الحق غداً أن يكون ثقيلاً، وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل، وحقّ لميزان يوضع فيه الباطل غداً أن يكون خفيفاً، وإن الله تعالى ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئه، فإذا ذكرتهم قلت: إني أخاف أن لا ألحق بهم، وأن الله تعالى ذكر أهل النار، فذكرهم بأسوأ أعمالهم، ورد عليهم أحسنه، فإذا ذكرتهم، قلت: إني لأرجو أن لا أكون مع هؤلاء ليكون العبد راغباً راهباً، لا يتمنى على الله ولا يقنط من رحمة الله، فإن أنت حفظت وصيتي فلا يك غائب أبغض إليك من الموت وليس تعجزه(5).

ونلاحظ أن عمر رضي الله عنه وليّ الخلافة باتفاق أصحاب الحل والعقد وإرادتهم فهم الذين

(1) تاريخ الطبري (4/ 248).
(2) طبقات ابن سعد (3/ 199)، تاريخ المدينة (2/ 665 - 669).
(3) طبقات ابن سعد (3/ 200).
(4) أبو بكر الصديق، علي الطنطاوي، ص: 237.
(5) صفة الصفوة (1/ 264، 265).

فوضوا لأبي بكر انتخاب الخليفة، وجعلوه نائباً عنهم في ذلك، فشاور ثم عين الخليفة، ثم عرض هذا التعيين على الناس فأقروه وأمضوه، ووافقوا عليه، وأصحاب الحل والعقد في الأمة هم النواب « الطبيعيون » عن هذه الأمة، وإذن فلم يكن استخلاف عمر ﷺ إلا على أصح أساليب الشورية وأعدلها[1]. إن الخطوات التي سار عليها أبو بكر الصديق في اختيارخليفته من بعده لاتتجاوز الشورى بأي حال من الأحوال، وإن كانت الإجراءات المتبعة فيها غير الإجراءات المتبعة في تولية أبي بكر نفسه[2]. وهكذا تم عقد الخلافة لعمر ﷺ بالشورى والاتفاق، ولم يرد التاريخ أي خلاف وقع حول خلافته بعد ذلك، ولا أن أحداً نهض طوال عهده لينازعه الأمر، بل كان هناك إجماع على خلافته وعلى طاعته في أثناء حكمه، فكان الجميع وحدة واحدة[3].

3 - طريقة انعقاد بيعة عثمان ﷺ :

استطاع الفاروق ﷺ في اللحظات الأخيرة وهو على فراش الموت، رغم ما يعانيه من آلام جراحاته البالغة أن يبتكر طريقة جديدة لم يسبق إليها في اختيار الخليفة الجديد، وكانت دليلاً ملموساً، ومعلماً واضحاً على فقهه في سياسة الدولة الإسلامية، لقد مضى قبله الرسول ﷺ ولم يستخلف بعده أحداً بنص صريح، ولقد مضى أبو بكر الصديق واستخلف الفاروق بعد مشاورة كبار الصحابة، ولما طلب من الفاروق أن يستخلف وهو على فراش الموت، فكر في الأمر ملياً وقرر أن يسلك مسلكاً آخر يتناسب مع المقام، فرسول الله ﷺ ترك الناس وكلهم مقر بأفضلية أبي بكر وأسبقيته عليهم، فاحتمال الخلاف كان نادراً، وخصوصاً أن النبي ﷺ وجه الأمة قولاً وفعلاً إلى أن أبي بكر أولى بالأمر من بعده، والصّديق لما رشح عمر كان يعلم أن عند الصحابة أجمعين قناعة بأن عمر أقوى وأقدر وأفضل من يحمل المسئولية بعده،فاستخلفه بعد مشاورة كبار الصحابة ولم يخالف رأيه أحد منهم وحصل الإجماع على بيعة عمر[4]، وأما طريقة انتخاب الخليفة الجديد فتعتمد على جعل الشورى في عدد محصور، فقد حصر ستة من صحابة رسول الله كلهم بدريون وكلهم توفي رسول الله ﷺ وهو عليهم راضٍ، وكلهم يصلحون لتولي الأمر ولو أنهم يتفاوتون وحدد لهم طريقة الانتخاب ومدته وعدد الأصوات، وأمر مجموعة من جنود الله لمراقبة سير الانتخابات في المجلس ومنع الفوضى بحيث لا يسمحون لأحد يدخل أو يسمع ما يدور في مجلس أهل الحل والعقد[5]. وبهذا يكون أمير المؤمنون أرسى نظاماً صالحاً للشورى لم يسبقه إليه أحد ولا يشك أن أصل

---

(1) أبو بكر الصديق - علي الطنطاوي، ص: 237.
(2) دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص: 273.
(3) النظرية السياسية الإسلامية، ضياء الريس، ص: 181.
(4) أوليات الفاروق، ص: 122.
(5) أوليات الفاروق، ص: 122.

الشورى مقرر في القرآن والسنة القولية والفعلية، وقد عمل بها رسول الله ﷺ وأبو بكر ولم يكن عمر مبتدعاً بالنسبة للأصل، ولكن الذي عمله عمر هو تعيين الطريقة التي يختار بها الخليفة وحصر عدد معين جعلها فيهم وهذا لم يفعله الرسول ﷺ ولا الصديق ﷺ بل أول من فعل ذلك عمر ونعم ما فعل، فقد كانت أفضل الطرق المناسبة لحال الصحابة في ذلك الوقت[1].

وبهذا جعل أمير المؤمنين هيئة سياسية عليا وهم أهل الشورى وأناط بهم وحدهم اختيار الخليفة من بينهم، ومن المهم أن نشير إلى أن أحداً من أهل الشورى لم يعارض هذا القرار الذي اتخذه عمر، كما أن أحداً من الصحابة الآخرين لم يثر أي اعتراض عليه، ذلك ما تدل عليه النصوص التي بين أيدينا، فنحن لا نعلم: أن اقتراحاً آخر صدر عن أحد من الناس في ذلك، أو أن معارضة ثارت حول أمر عمر خلال السّاعات الأخيرة من حياته، أو بعد وفاته وإنما رضي الناس كافة هذه التدابير، ورأوا فيه مصلحة لجماعة المسلمين، وفي وسعنا أن نقول: إنَّ عمر قد أحدث هيئة سياسية عليا مهمَّتها انتخاب رئيس الدولة أو الخليفة، وهذا التنظيم الدستوري الجديد، الذي أبدعته عبقرية عمر لا يتعارض مع المبادئ الأساسية التي أقرها الإسلام ولاسيما فيما يتعلق بالشورى، لأن العبرة من حيث النتيجة العامة التي تجري في المسجد الجامع. وعلى هذا لا يتوجّه السؤال الذي قد يرد على بعض الأذهان، وهو: من أعطى عمر هذا الحق؟ ما هو مستند عمر في التدبير؟ ويكفي أن نعلم أن جماعة من المسلمين قد أقرت هذا التدبير، ورضيت به ولم يُسمع صوت اعتراض عليه حتى نتأكّد: أنَّ الاجماع ـ وهو مصدر من مصادر التشريع ـ قد انعقد على صحته ونفاذه[2]، ولا ننسى: أن عمر خليفة راشد، كما ينبغي أن نؤكّد أن أهل الشورى أعلى هيئة سياسية قد أقرّه نظام الحكم في الإسلام في العهد الراشدي، كما: أنَّ الهيئة التي سمّاها عمر، تمتَّعت بمزايا لم يتمتع بها غيرها من جماعة المسلمين، وهذه المزايا منحت لها من الله ويلغها الرسول، فلا يمكن عند المؤمنين أن يبلغ أحد من المسلمين مبلغ هؤلاء العشرة من التقوى، والأمانة[3].

ومن الأمور المهمة حرص الفاروق على إبعاد الإمارة عن أقاربه، مع أن فيهم من هو أهل لها، فهو يبعد قريبه سعيد بن زيد عن قائمة المرشحين للخلافة[4] وقد أوصى بأن يحضر عبد الله بن عمر مع أهل الشورى وأن ليس له من الأمر شيء، ولكن قال لهم: فإن رضي ثلاثة

---

(1) المصدر نفسه، ص: 127.

(2) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي (1/ 227/ 228).

(3) المصدر نفسه (1/ 229).

(4) الخلفاء الرّاشدون للخالدي، ص: 98.

رجال منهم، وثلاثة رجال منهم، فحكّموا عبد الله بن عمر، فأي الفريقين حكم له، فليختاروا رجل منهم، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر، فيكون مع الذين فيهم عبد الرحمٰن بن عوف، فوصف عبد الرحمٰن بن عوف بأنه مسدد رشيد، له من الله حافظ فاسمعوا له[1]، وقد أشرف على العملية الانتخابية عبد الرحمٰن بن عوف وشاور الناس في أمر علي وعثمان رضي الله عنهما وكان يشاور كل من يلقاه في المدينة من كبار الصحابة، وأشرافهم، ومن أمراء الأجناد ومن يأتي للمدينة وشملت مشاوراته النساء في خدورهنَّ، وقد أبدين رأيهنّ، كما شملت الصِّبيان، والعبيد في المدينة وكانت نتيجة مشاورات عبد الرحمٰن بن عوف: أن معظم المسلمين كانوا يشيرون بعثمان بن عفان، ومنهم من كان يشير بعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما . . . ثم بعد ذلك أعلن عبد الرحمٰن بعد صلاة الصبح من اليوم الأخير من شهر ذي الحجة 23 النتيجة التي وصل إليها، فبعد أن تشهد عبد الرحمٰن ثم قال: أما بعد: يا علي إني قد نظرت في أمر الناس فلم أرهم يعدلون بعثمان، فلا تجعل على نفسك سبيلاً ثم بايع عثمان على سنة الله ورسوله والخليفتين من بعده. فبايعه الناس: المهاجرون ، والأنصار، أمراء الأجناد والمسلمون[2]، وجاء في رواية صاحب التمهيد والبيان: أن علي بن أبي طالب أوّل من بايع عبد الرحمٰن بن عوف[3]، وقد اعتبر الذهبي ما قام به عبد الرحمٰن بن عوف من أفضل أعماله حيث قال: ومن أفضل أعمال عبد الرحمٰن عزله نفسه من الأمر وقت الشورى، واختياره للأمة من أشار به أهل الحلِّ والعقد، فنهض في ذلك أتمَّ نهوض على جمع الأمَّة على عثمان، ولو كان محابياً فيها لأخذها لنفسه، أو لولاها ابن عمّه وأقرب الجماعة إليه سعد بن أبي وقاص[4]، وبهذا تحققت صورة أخرى من صور الشورى في أحد الخلفاء الراشدين: وهي الاستخلاف عن طريق مجلس الشورى، ليعينوا أحدهم بعد أخذ المشورة العامّة، ثم البيعة العامّة[5].

4 - طريقة انعقاد بيعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

تمت بيعة علي رضي الله عنه بالخلافة بطريقة الاختيار وذلك بعد أن استشهد الخليفة الراشد عثمان ابن عفان رضي الله عنه على أيدي الخارجين المارقين الشذاذ الذين جاءوا من الآفاق ومن أمصار مختلفة وقبائل متباينة لا سابقة لهم، ولا أثر خير في الدين، فبعد أن قتلوه رضي الله عنه ظلماً وزوراً وعدواناً، يوم الجمعة لثماني عشرة ليلة مضت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين[6]، قام كل من بقي بالمدينة من أصحاب رسول الله بمبايعة علي رضي الله عنه بالخلافة وذلك لأنه لم يكن أحد أفضل منه على الإطلاق في ذلك الوقت، فلم يدع الإمامه لنفسه أحد بعد عثمان ولم يكن أبو

---

(1) تاريخ الطبري (5/ 325).
(2) البخاري، كتاب: الأحكام، رقم (7207).
(3) التمهيد والبيان، ص: 26.
(4) سير أعلام النبلاء (1/ 86).
(5) دراسة في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص: 278.
(6) الطبقات لابن سعد (3/ 31).

السبطين ﷺ حريصاً عليها، ولذلك لم يقبلها، إلا بعد إلحاح شديد ممن بقي من الصحابة بالمدينة وخوفاً من ازدياد الفتن وانتشارها ومع ذلك لم يسلم من نقد بعض الجهال إثر تلك الفتن كموقعة الجمل وصفين التي أوقد نارها وأنشبها الحاقدون على الإسلام كابن سبأ وأتباعه الذين استخفهم فأطاعوه لفسقهم ولزيغ قلوبهم عن الحق والهدى، وقد روي الكيفية التي تم بها اختيار علي ﷺ للخلافة بعض أهل العلم[1]، فقد روى أبو بكر الخلال بإسناده إلى محمد ابن الحنفية قال: كنت مع علي ﷺ وعثمان محصر قال: فأتاه رجل فقال: إن أمير المؤمنين مقتول الساعة قال: فقام علي ﷺ: قال محمد: فأخذت بوسطه تخوفاً عليه، فقال: خل لا أم لك قال: فأتى عليٌّ الدار وقد قتل الرجل ﷺ فأتى داره فدخلها وأغلق بابه، فأتاه الناس فضربوا عليه الباب فدخلوا عليه فقالوا: إن هذا قد قتل، ولا بد للناس من خليفة ولا نعلم أحداً أحق بها منك فقال لهم علي: لا تريدوني فإني لكم وزير خير مني لكم أمير، فقالوا: لا والله لا نعلم أحداً أحق بها منك، قال: فإن أبيتم علي فإن بيعتي لا تكون سراً، ولكن أخرج إلى المسجد، فبايعه الناس[2].

5 - طريقة انعقاد بيعة الحسن بن علي ﷺ:

كانت بيعة الحسن بن علي ﷺ في شهر رمضان من سنة 40هـ وذلك بعد استشهاد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ، وقد اختار الناس الحسن بعد والده ولم يعين أمير المؤمنين أحداً من بعده، فعن عبد الله بن سبع قال: سمعت علياً يقول: لتخضبن هذه من هذا[3]، فما ينتظر بي الأشقى[4] قالوا: يا أمير المؤمنين، فأخبرنا به نبير عترته[5]، قال: إذن تالله تقتلون بي غير قاتلي، قالوا: فاستخلف علينا قال: لا، ولكن أترككم إلى ماترككم إليه رسول الله ﷺ قالوا: فما تقول لربك إذا أتيته قال: أقول: اللّهم تركتني فيهم ما بدا لك، ثم قبضتني إليك وأنت فيهم، فإن شئت أصلحتهم، وإن شئت أفسدتهم وفي رواية: أقول اللّهم استخلفتني فيهم ما بدا لك، ثم قبضتني وتركتك فيهم. وبعد مقتل علي صلى عليه الحسن ابن علي وكبر عليه أربع تكبيرات، ودفن بالكوفة، وكان أول من بايعه قيس بن سعد بن عبادة الخزرجي، قال له: ابسط يدك أبايعك على كتاب الله ﷻ وسنة نبيه، وقتال المُحلِّين، فقال له الحسن ﷺ: على كتاب الله وسنة نبيه فإن ذلك يأتي من وراء كل شرط، فبايعه وسكت وبايعه الناس[6].

---

(1) عقيدة أهل السنة في الصحابة الكرام (2/ 677).
(2) كتاب السنة لأبي بكر الخلاّل، ص: 415.
(3) أي لتخضبن لحيته من دم رأسه.
(4) مجمع الزوائد (9/ 921) مسند أحمد (2/ 325) حسن لغيره.
(5) نبير عُترته: نهلك أقرباءه، لسان العرب(4/ 5)(4/ 538).
(6) تاريخ الطبري (6/ 73).

وقد اشترط الحسن بن علي على أهل العراق عندما أرادوا بيعته فقال لهم: إنكم سامعون مطيعون، تسالمون من سالمت، وتحاربون من حاربت[1]، وفي رواية قال لهم: والله لا أبايعكم إلا على ما أقول لكم قالوا: ما هو؟ قال تسالمون من سالمت وتحاربون من حاربت[2]، وفي رواية ابن سعد: إن الحسن بن علي بن أبي طالب بايع أهل العراق بعد علي على بيعتين، بايعهم على الإمرة، وبايعهم على أن يدخلوا فيما دخل فيه ويرضوا بما رضي به[3].

6 - طريقة انعقاد بيعة معاوية ﷺ :

تمت بيعة معاوية بتنازل الحسن بن علي ﷺ عن الخلافة وتهيأت له جميع أسبابها، فبويع أميراً للمؤمنين عام واحد وأربعين للهجرة وسمي هذا العام بعام الجماعة[4]، وقد بايع معاوية ﷺ كل الصحابة الأحياء وأجمعت الأمة عليه وعدوا خلافته شرعية ورضوا إمامته، ورأوا أنه خير من يلي أمر المسلمين ويقوم به خير قيام.

7 - المآخذ على فكرة ولاية العهد في عهد معاوية:

صحيح أن النظام الإسلامي للحكم لم ينص على طريقة معينة لاختيار ولي الأمر، ولكنه وضع الأساس التي لا تجوز الحيدة عنه، إلا في حالات الضرورة والاضطرار، وهو الشورى وليس للشورى أسلوب خاص، وطريقة واحدة، لا تتحقق إلا بها، ولكن تتحقق بأساليب شتى كما مرّ معنا في اختيار الأمة للخلفاء الراشدين، ولئن قصد معاوية ﷺ بإحداث ولاية العهد في نظام الحكم الإسلامي جمع كلمة المسلمين، وحقن دمائهم، فهو إن شاء الله تعالى مأجور على أنه كان قادراً على أن يجعل العهد بعده لغير ولده من كبار الصحابة الموجودين في تلك الفترة، وكان فيهم كفاءات لو أسند إليهم الأمر، فقد كان الحسين بن علي، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمٰن بن أبي بكر، وعبد الله بن عمر وغيرهم موجودين في هذا الوقت ولكن معاوية ﷺ عدل عن هؤلاء وقصد لولده ليكون خليفة بعده، وبذلك حصل التغير الحقيقي في نظام الحكم الإسلامي، فليس التغيير في إيجاد نظام ولاية العهد. . . ولكن التغيير في أن يكون ولي العهد ولد الخليفة أو أحد أقاربه، حتى أصبحت الحكومة ملكية بعد أن كانت خلافة راشدة[5]، وإذا كنا مأمورين باتباع سنة الرسول وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده، فإن التزام نظام الوراثة ليس من سنة النبي ولا من سنة خلفائه الراشدين، كما أن ترشيح يزيد لم يكن موفقاً لأسباب منها: إن المجتمع الإسلامي يومئذ كان فيه من هو أحق وأولى

---

(1) تاريخ الطبري (2/ 77).
(2) الطبقات، تحقيق د. محمد السلمي (1/ 286، 287).
(3) المصدر نفسه (1/ 316، 317).
(4) سير أعلام النبلاء (3/ 137) تاريخ خليفة 203.
(5) الأمويون بين الشرق والغرب للوكيل (1/ 180).

بالخلافة من يزيد في سابقته وعلمه وعمله ومكانه وصحبته، كعبد الله بن عمر وابن عباس وغيرهم، فأين الثرى من الثرية[1]؟ ومهما مبدأ توريث الحكم من الأب لابنه.

وعلى كل تقدير فهذا لا يقدح فيما عليه أهل السنة، فإنهم لا ينزهون معاوية ولا من هو أفضل منه من الذنوب، فضلاً عن تنزيههم عن الخطأ في الاجتهاد، بل يقولون إن للذنوب أسباب تدفع عقوبتها من التوبة والاستغفار والحسنات المحاية، والمصائب المكفرة، وغير ذلك وهذا أمر يعم الصحابة وغيرهم[2]، ومعاوية ﷺ من خيار الملوك الذين غلب عدلهم على ظلمهم وما هو ببريء من الهنات والله يعفو عنه[3]، والذي يجب أن نعتقده في معاوية أن قلوبنا لا تنضوي على غل لأحد من أصحاب محمد ﷺ بل نقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: 10] ونقول بأن معاوية اجتهد للأمة خوفاً عليها من الانقسام والفتن، ولا يمكن أن يحمل تبعات كل أخطاء الملوك والأمراء الذين جاؤوا من بعده، كما قرره عبد القادر عوده رحمه الله: حيث يقول: وأقام معاوية أمر الأمة الإسلامية على المحجات والظلم وإهدار الحقوق، وقضى على الشورى وعطل قول الله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: 38] وحوّل الحكم العادل النظيف إلى حكم قذر قائم على الأهواء والشهوات، ووجه الناس إلى النفاق والذلة والصغار، ولا شك فيه أن كل من جاؤوا بعده إلى عصرنا هذا قد عمل بسنته وتثبتوا ببدعته حاشا عمر بن عبد العزيز، فعلى معاوية وقد استن هذه السنة السيئة إثمها وإثم من عمل بها إلى يوم القيامة[4]. وإذا كان معاوية أو الخلفاء الأمويين قد حوّل الخلافة من الشورى إلى الملك، فإن حفيده معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، ثالث خلفاء الأمويين قد أعاد الخلافة من الملك العضوض إلى الشورى الكاملة.. وإنه لما يستوجبه الإنصاف أن تصاغ القضية على هذا النحو بدلاً من التركيز على الشق الأول الخاص بتوريث الخلافة فقط ولم تستطع الأمة التي أعطيت حقها في اختيار خليفتها أن تعود إلى شكل من أشكال الاختيار السابق في عصر الراشدين، وبرز بوضوح دور العصبية الإقليمية والقبلية وحسم في النهاية الصراع الدائر حول منصب الخلافة لمصلحة البيت الأموي واستطاعت الشام أن تحقق الحسم التاريخي بعمق الالتحام بين بنائها القبلي والوجود الأموي بها[5]، وسيأتي بإذن الله التفصيل عن حديثنا عن معاوية الثاني والحقيقة أن بيعة يزيد قد قبلها الكثير حتى الصحابة رضوان الله عليهم، فقد بايعه ستون من أصحاب محمد ﷺ فيهم ابن عمر[6]

---

(1) تاريخنا المفترى عليه للقرضاوي، ص: 250.
(2) منهاج السنة (4/ 385).
(3) سير أعلام النبلاء (3/ 156).
(4) الإسلام وأوضاعنا السياسية، ص: 159.
(5) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 293-294، 195.
(6) القيد الشريد، ورقة 17 نقلاً عن مواقف المعارضة، ص: 153.

خوفاً من الفتنة وحرصاً على وحدة الصف، فقد توفي عبد الرحمٰن بن أبي بكر بعيد خروج معاوية من المدينة ولم يبق من المعارضين إلا ثلاثة هم: ابن عمر وابن الزبير والحسين بن علي، أما ابن عمر فلما رأى الناس مجتمعة على يزيد بايعه وأرسل بيعته بعد وفاة معاوية ﷺ وقال: إن كان خيراً رضينا به وإن كان بلاءً صبرنا[1]، وانحصرت المعارضة في شخص ابن الزبير والحسين بن علي ﷺ، وقد حاول بعض الناس أن يلفقوا على معاوية ﷺ تحسره من بيعة يزيد فنقلوا عنه أنه قال: لولا هواي في يزيد لأبصرت رشدي[2]. والسند من طريق الواقدي وهو متروك[3]، ونسبوا إليه أيضاً أنه قال ليزيد: ما ألقى الله بشيء أعظم من نفسي من استخلافك[4]. والسند من الطريق الهيثم بن عدي وهو كذاب[5]، ولقد اعتمد محمد رشيد رضا ﷺ على هذه الرواية وتحامل على معاوية تحاملاً قاسياً[6]، ولقد تورط الكثير من الباحثين في الروايات الضعيفة والموضوعة فيما يتعلق بتاريخ صدر الإسلام وبنوا عليها تصورات وأفكاراً وأحكاماً تحتاج إلى إعادة نظر من جديد.

ومع ما وقع من انحراف في تغيير النموذج الأعلى لنظام الحكم الإسلامي، الذي تمثل فيه روح الإسلام كاملة وهو الخلافة واستبدال الملك العضوض به[7]، إلا أن الطابع الإسلامي هو الصفة الغالبة على مظهر الدولة، وتصرفات الحكام، فالصلاة تؤدي في أوقاتها، والزكاة تحصَّل من أربابها والصوم فريضة لا يُعارض في أدائها، وإقامة الحدود دون هوادة لم يقف شيء دون تنفيذها، والجهاد في سبيل الله فريضة ماضية بين رجالها، وبالجملة كانت تعاليم الإسلام مطبقة بحذافيرها[8].

سابعاً: الأيام الأخيرة في حياة معاوية:

1 - وصية معاوية ﷺ ليزيد:

لما حضر معاوية الموت وذلك سنة 60هـ وكان يزيد غائباً، دعا بالضحاك بن قيس الفهري ـ وكان صاحب شرطته ـ ومسلم بن عقبة المري، فأوصى إليهما فقال: بلغا يزيد وصيني، انظر أهل الحجاز فإنهم أصلك، فأكرم من قدم عليك منهم وتعهد من غاب، وانظر أهل العراق، فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل، فإن عزل عامل أحب إلي من أن تشهر عليك مائة ألف سيف، وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك فإن نابك شيء من عدوك فانتصر

(1) مصنف ابن أبي شيبة (11/ 100) بسند صحيح.
(2) أنساب الأشراف (4/ 28).
(3) مواقف المعارضة في خلافة يزيد، ص: 152.
(4) أنساب الأشراف (4/ 60).
(5) مواقف المعارضة، ص: 152.
(6) مواقف الصحابة في خلافة يزيد، ص: 152، الخلافة محمد رشيد، ص: 52.
(7) كيف نكتب التاريخ الإسلامي، ص: 112.
(8) الأمويون بين المشرق والمغرب (1/ 94، 95).

بهم، فإن أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم، فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم، وإني لست أخاف من قريش إلا ثلاثة حسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله ابن الزبير، فأما ابن عمر فرجل قد وقذه الدين، فليس ملتمساً قِبَلك، وأما الحسين بن علي فإنه رجل خفيف، وأرجو أن يكفيه الله بمن قتل أباه، وخذل أخاه، وإن له رحماً ماسّة، وحقاً عظيماً، وقرابة محمد ﷺ، ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه، فإن قدرت عليه فاصفح عنه، فإني لو أني صاحبه عفوت عنه، وأما ابن الزبير فإنه خَبٌّ ضَبٌّ، فإذا شخص لك فالبد له، إلا أن يلتمس منك صلحاً، فإن فعل فاقبل، واحقن دماء قومك ما استطعت[1].
تظهر في هذه الوصية كفاية معاوية ودهائه السياسي من خلال تشخيصه لأهمية الأمصار ومدى تأثيرها المستقبلي على أوضاع الدولة الأموية فذكر في وصيته ثلاث أقاليم فقط هي الحجاز والعراق والشام، ذلك أن الأوضاع السياسية خارج دائرة هذه الأقاليم، لم تكن تثير أي هموم جدية لدى معاوية[2].

أ ـ الحجاز: فالبنسبة للحجاز يوصي معاوية ابنه قائلاً: انظر أهل الحجاز فإنهم أصلك، فأكرم من قدم عليك منهم وتعهد من غاب[3]، ويأتي اهتمام معاوية بالحجاز فضلاً عن كونه محل أهله وعشيرته، فهو من الناحية السياسية كان ولوقت قريب مركز الثقل السياسي للدولة الإسلامية «مقر الخلافة» ومن الناحية الدينية لم يزل يحتل مركز الصدارة لاحتضانه جل ما تبقى من صحابة الرسول ﷺ، وبإمكانه تقويض حكم بني أمية فيما لو اجتمعت كلمته وأتيحت الفرصة له وهو بعد ذلك لايزال المكان الحقيقي للبيعة[4]، والأهم من ذلك كله فإنه يضم عدداً من الشخصيات المعارضة للحكم الأموي، أمثال الحسين بن علي رضي الله عنه، وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وابن عباس رضي الله عنهم جميعاً كما سنرى ذلك في الفقرات اللاحقة من الوصية، ولذلك نرى معاوية يحث يزيد على استخدام مختلف الوسائل لاستقطاب الحجاز بما في ذلك إغداق الأموال[5]، ولهذه الأسباب أيضاً وضع معاوية السلطة في هذا الإقليم تحت مراقبته المباشرة، حيث قام بتنفيذ سياسته في البيت الأموي، وقام بتشجيع مختلف النشاطات غير السياسية المناهضة له فيه[6]، واهتم بأهله اهتماماً خاصاً.

ب ـ العراق: أما الأقليم الثاني الذي يثير اهتمام معاوية فهو العراق، لذا يوصي ولي عهده أن يعامل أهل العراق معاملة خاصة فيقول: انظر أهل العراق فإن سألوك أن تعزل كل يوم

---

(1) تاريخ الطبري (6/ 241).
(2) الوصية السياسية في العصر العباسي، حقي إسماعيل، ص: 46.
(3) تاريخ الطبري (6/ 241).
(4) الوصية السياسية في العصر العباسي، ص: 46.
(5) المصدر نفسه، ص: 46.
(6) الوصية السياسية في العصر العباسي، ص: 46.

عاملاً فافعل، فإن عزل عامل أحب إليّ من أن يشهر عليك مائة ألف سيف[1]، ومن الجدير بالذكر أن شكاية أهل العراق من ولاتهم كان منذ عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

جـ ـ الشام: أما الإقليم الثالث هو الشام، فإن وصية معاوية به تأتي من باب رد الجميل لأهل الشام لدورهم الكبير في مساندته بالوصول إلى الحكم وتأييدهم المستمر لسياسته، لذا يوصي ابنه أن يجعلهم محل ثقته وعنايته وأن يذخرهم للمهمات الجسام في قوله: وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك فإن نابك شيء من عدوك فانتصر بهم فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم[2]. وتظهر الفقرة الأخيرة من هذا النص بعد نظر معاوية السياسي، فهو يسدي مخاوفه من اختلاط أهل الشام[3] ببقية سكان الأقاليم الأخرى، فتتبدل أخلاقهم نتيجة مكوثهم مدة طويلة ولربما استطاع المعارضون للحكم الأموي التأثير على جند الشام، على الرغم من التقاء مصالحهم مع مصالح البيت الأموي، فتسقط من يد الخلافة الأموية الورقة الرابحة التي طالما استخدمها معاوية وقطف ثمارها ولهذا يوصي معاوية ابنه بأن يسرع في إعادة جند الشام إلى بلادهم حال انتهاء مهمتهم[4]، ومن أهم ما في وصية معاوية خطته التي رسمها لولي عهده في مواجهة الأحداث المقبلة، وأوكل إليه تنفيذها بعد أن عجز هو من إقناع نفر من قريش بالبيعة ليزيد على الرغم من أن الروايات تذكر أن معاوية ذهب إلى الحجاز لهذا الغرض، والتقى بالشخصيات التي رفضت البيعة ليزيد كلاً على انفراد في محاولة للحصول منهم على وعود بالبيعة[5]، إلا أن هذه الجهود لم تثمر في تذليل المصاعب قبل ظهورها[6]، والوصية تظهر أن الحجاز، وتحديداً المدينة، هي أكثر البلدان معارضة لحكم بني أمية ولهذا يوصي معاوية ابنه أن يكون حذراً ودقيقاً في تعامله معها، وأن يكون حازماً شديداً حين يتطلب الأمر ذلك، ومرناً ليناً مع من لا يشكلون خطراً حقيقاً عليه، لما للحجاز من أهمية بالغة في تقرير وتثبيت الحكم[7].

وكان معاوية رضي الله عنه مصيباً في رأيه بعبد الله بن عمر من أنه رجل قد وقذه الدين، ولا خطر على يزيد منه، وذلك أن الوليد بن عتبة حين طلبه للبيعة قال: إذا بايعت الناس بايعت فتركوه لثقتهم بزهادته في الأمر وشغله بالعبادة[8]، وكان مصيباً في حدسه من أن أهل العراق لن يتركوا الحسين بن علي رضي الله عنه حتى يخرجوه، ويبدو أنه كان متأكداً من وقوع الاصطدام بينهما، لذلك طلب من يزيد أن يعفوَ عنه إذا تمكن منه، أما الخطر الحقيقي والذي يتطلب الحزم

(1) تاريخ الطبري (6/ 241).
(2) المصدر نفسه (6/ 241).
(3) الوصية السياسية في العصر العباسي، ص: 4.
(4) المصدر نفسه، ص: 48.
(5) الوصية السياسية في العصر العباسي، ص: 48.
(6) المصدر نفسه، ص: 48.
(7) المصدر نفسه، ص: 49.
(8) أنساب الأشراف (4/ 14).

والشدة فإنه يأتي من عبد الله بن الزبير الذي كان يتمتع على ما يبدو من تأييد واسع النطاق بين معظم المعارضين للحكم الأموي، ولأنه كان رجل سياسة وحرب من الطراز الأول، وعلى الجملة فإن وصية معاوية تعكس سياسته ودهاءه في تصريف الأمور، فنراه من خلال الوصية يتعامل مع الأحداث التي تتطلب الشدة حزماً، وفيما عدا ذلك فهو يستخدم خبرته وتجربته السياسية الطويلة في مواجهة الأحداث، وقد وصف معاوية نفسه مشيراً إلى هذه السياسة بقوله: إني لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني، ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت أبداً. فقيل له: وكيف ذلك؟ قال: كنت إذا مدوها أرخيتها وإذا أرخوها مددتها[1]، وكان على الدوام يوصي يزيد بهذه السياسة فيقول له: عليك بالحلم والاحتمال حتى تمكنك الفرصة، فإذا أمكنك فعليك بالصفح فإنه يدفع عنك معضلات الأمور، ويقيك مصارع المحذور[2]. وفي هذه الوصية يلخص معاوية ﷺ منهجه وخبرته في السياسة والإدارة لابنه يزيد في كلمات قليلة جامعة تنم عما يتمتع به هذا الصحابي الكريم من حنكة سياسية وبراعة إدارية[3].

2 - آخر خطبة لمعاوية ﷺ واشتداد مرضه ووفاته:

كانت آخر خطبة خطبها معاوية ﷺ قوله: أيُّها الناس إني من زرع وقد استحصد، وإني قد وليتكم ولن يليكم أحد بعدي إلا من هو شر مني، كما كان من وليكم قبلي خيراً مني، ويا يزيد إذا وفى أجلي فوَلِّ غسلي رجلاً لبيباً، فإن اللبيب من الله بمكان، فليُنعم الغسل وليجهر بالتكبير، ثم أعمد إلى منديل في الخزانة فيه ثوب من ثياب رسول الله ﷺ، وقُراضة من شعره وأظفاره فاستودع القراضة أنفي وفمي وأُذُنيَّ وعيْنيَّ، واجعل الثوب يلي جلدي دون أكفاني، ويا يزيد احفظ وصية الله في الوالدين، فإذا أدرجتموني في جريدتي، ووضعتموني في حفرتي فخلوا معاوية وأرحم الراحمين[4].

ولما احتضر معاوية جعل يقول:

لعمري لقد عُمِّرتُ في الدهر بُرهة ... ودانت لي الدنيا بوقع البواتر
وأعطيت حُمْرَ المال والحكم والنّهى ... وسِلْمَ قماقيم[5] الملوك الجبابر
فأضحى الذي قد كان مما يَسُرُّني ... كحلم مضى في المزمنات الغوابر
فيا ليتني لم أعن في الملك ساعة ... ولم أغْنَ في لذات عيشٍ نواضر

---

(1) نهاية الإرب (6/ 44) العقد الفريد (1/ 25).
(2) نهاية الإرب (1/ 256).
(3) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 95.
(4) البداية والنهاية (11/ 454).
(5) القماقم والقُماقِم من الرجال: السيد الكثير الخير الواسع الفضل، ويجمع قياساً على قماقيم.

وكـنـت كـذي طـمـريـن عـاش بـبُـلْـغـةٍ مـن الـعـيـش حـتـى زار ضـيـق الـمـقـابـر[1]

وقد أوصى معاوية بنصف ماله أن يرد إلى بيت المال كأنه أراد أن يُطيِّب له، لأن عمر بن الخطاب قاسم عمّاله[2]. وذكروا أنه في آخر عمره اشتد به البَرْدُ فكان إذا لبس أو تغطّى بشيء ثقيل يَغُمُّه، فاتُّخذ له ثوب من حواصل الطير[3]، ثم ثقل عليه بعد ذلك، فقال: تبًّا لك من دار ملكتك أربعين سنة، عشرين أميراً، وعشرين خليفة، ثم هذا حالي فيك، ومصيري منك، تباً للدنيا ومُحبِّيها[4]، ولما اشتد المرض وتحدث الناس أنه الموت قال لأهله: احشوا عيْنيّ إثمداً، وأوسعوا رأسي دُهناً. ففعلوا وبرّقوا[5] وجهه بالدهن، ثم مُهِّد له فجلس وقال: أسندوني. ثم قال: ائذنوا للناس فليُسلموا عليّ قياماً ولا يحبس أحد. فجعل الرجل يدخل فيُسلم قائماً فيراه متكحّلاً مُتدهِّناً، فيقول متقوّل الناس: هو لمّا به[6]، وهو أصح الناس، فلما خرَجوا من عنده[7] تمثل معاوية بقول أبي ذؤيب الهذلي الشاعر:

وتـجـلـدي لـلـشـامـتـيـن أريـهـم أنـي لـريـب الـدهـر لا أتـضـعـضـع
وإذا الـمـنـيـة أنـشـبـت أظـفـارهـا ألـفـيـت كـلَّ تـمـيـمـة لا تـنـفـع

وكان به النقابة[8]، فمات من يومه ذلك[9]، وكان يقول لما نزل به الموت: يا ليتني كنت رجلاً من قريش بذي طوى ولم ألِ من هذا الأمر شيئاً[10]، ومن الشعر الذي تمثل به أيضاً قول الشاعر:

إن تـنـاقـش يـكـن نـقـاشـك يـا ربِّ عـذابـاً لا طـوق لـي بـالـعـذاب
أو تـجـاوز تـجـاوز الـعـفـو فـاصـفـح عـن مـسـيءٍ ذنـوبـه كـالـتُّـراب[11]

وقال ﷺ وهو يُقَلبّ في مرضه، وقد صار كأنه سعفة محترقة: أي شيخ تقلّبون إن نجاه الله من النار غداً[12]؟، وقال الحسن البصري: دُخل على معاوية وهو بالموت، فبكى، فقيل: ما يبكيك؟

قال: ما أبكي على الموت أن حل بي، ولا على دنيا أخلفها ولكن هما قبضتان: قبضة في الجنة، وقبضة في النار، فلا أدري في أي القبضتين أنا[13]؟.

---

(1) البداية والنهاية (11/ 455).
(2) البداية والنهاية (11/ 455).
(3) الحواصل: جمع حوصلة، وحوصلة الطائر بمنزلة المعدة للإنسان.
(4) البداية والنهاية (11/ 455).
(5) برّقوا: لمّعوا.
(6) لما به: اقترب أجله.
(7) البداية والنهاية (11/ 456).
(8) النقابة: قرحة تخرج في الجنب وتهجم الجوف.
(9) البداية والنهاية (11/ 456).
(10) المصدر نفسه (11/ 456).
(11) البداية والنهاية (11/ 456).
(12) البداية والنهاية (11/ 457).
(13) كتاب المحتضرين، ص: 199، سكب العبرات (1/ 190).

وأغمي على معاوية رضي الله عنه في سكرات الموت ثم أفاق فقال لأهله: اتّقوا الله، فإن الله يَقي من اتَّقاه ولا يَقي من لا يتَّقي[1]. وجعل معاوية رضي الله عنه لما احتضر يضع خده على الأرض ثم يُقلِّب وجهه ويضع الخد الآخر ويبكي ويقول: اللّهم إنك قلت في كتابك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: 48] اللّهم اجعلني ممَّن تشاء أن تغفر له[2]. ومن دعائه في ذلك اليوم: اللّهم أقل العثرة، واعف عن الزلة وتجاوز بحلمك عن جهل من لم يَرْجُ غيرك فإنك واسع المغفرة ليس لذي خطيئة من خطيئته مهرب إلا إليك، ثم مات[3]. وجاء في رواية: اللّهم إني قد أحببت لقاءك فأحبب لقائي[4]. رحم الله معاوية رضي الله عنه.

3 - سنة وفاة معاوية ومن صلى عليه:

قال الطبري: في هذه السنة هلك معاوية بن أبي سفيان بدمشق، فاختلف في وقت وفاته بعد إجماع جميعهم على أن هلاكه كان في سنة ستين من الهجرة وفي شهر رجب[5]، وقال ابن حجر: مات معاوية في رجب سنة ستين على الصحيح[6] وصلى على معاوية الضحاك بن قيس الفهري، وكان يزيد غائباً حين مات معاوية[7]، فقد خرج الضحاك حتى صعد المنبر وأكفان معاوية على يديه تلوح، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن معاوية كان عود العرب[8]، وحدّ العرب[9]، قطع الله عز وجل به الفتنة وملَّكهُ على العباد، وفتح به البلاد. ألا إنه قد مات، فهذه أكفانه فنحن مدرجوه فيها، ومدخلوه قبره، ومُخَلُّون بينه وبين عمله، ثم هو البرزخ إلى يوم القيامة، فمن كان منكم يريد أن يشهده فليحضر عند الأولى[10]، وبعث البريد إلى يزيد بوجع معاوية وقد اختلف المؤرخون هل حاضر يزيد وفاة أبيه أم لا؟ والصحيح أن يزيد لم يدرك والده حياً وإنما جاء بعد موته[11]. ولما وصل يزيد الخبر قال:

جاء البريد بقرطاس يخب به ... فأوجس القلب من قرطاسه فزعا
قلنا: لك الويل ماذا في كتابكم؟ ... قالوا: الخليفة أمس مثبتاً وجعا
فمادت الأرض أو كادت تميد بنا ... كأن أغبر من أركانها انقطعا
من لا تزال نفسه توفي على شرف ... توشك مقاليد تلك النفس أن تقعا
لما انتهينا وباب الدار منصفق ... وصوت رملة[12] رِيعَ القلب فانصدعا[13]

---

(1) تاريخ الطبري (6/ 245).
(2) البداية والنهاية (11/ 457).
(3) المصدر نفسه (11/ 457).
(4) تاريخ ابن خلدون (3/ 21).
(5) تاريخ الطبري (6/ 241).
(6) الإصابة (6/ 155).
(7) تاريخ الطبري (6/ 245).
(8) العود: الرجل المسن، لسان العرب (3/ 321).
(9) حد كل شيء: منتهاه.
(10) أي عند صلاة الظهر كما ورد في بقية المصادر.
(11) تاريخ الطبري (6/ 246).
(12) رملة بنت معاوية بن أبي سفيان، زوجة عمرو بن عثمان بن عفان.
(13) تاريخ الطبري (6/ 246).

4 - عمر معاوية رضي الله عنه عند وفاته:

على القول الراجح: توفي معاوية وهو ابن ثمان وسبعين سنة[1]، بدليل قول ابن حجر: إن مولده كان قبل البعثة بخمس سنوات على الأشهر[2]، وكما هو معروف فإن بعثة الرسول ﷺ قبل الهجرة بثلاث عشرة سنة، وبذلك يكون مولد معاوية قبل الهجرة بثمان عشرة سنة، ولما كانت وفاته سنة ستين، فهذا يعني أن عمره عند وفاته كان ثمان وسبعين سنة[3].

5 - مدة خلافته:

تنازل الحسن بن علي لمعاوية بالنخيلة وتمت بيعته في شهر ربيع الأول من عام 41هـ ومات بدمشق سنة 60هـ يوم الخميس لثمان بقين من رجب، وكانت ولايته تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر وسبعة وعشرين يوماً[4].

6 - ما قيل فيه من رثاء:

قال أبو الورد العنبري يرثي معاوية رضي الله عنه:

ألا أنعي معاوية بن حرب … نعاه الحل للشهر الحرام
نعاه الناعجات[5] بكل فجٍّ … خواضع في الأزمّةِ كالسِّهام
فهاتيك النجوم وهنَّ خُرْسٌ … ينخن على معاوية الشآم

وقال أيمن بن خزيم يرثيه أيضاً:

رمى الحدثان نسوة آل حرب … بمقدار سمدن له سُمودا
فرَدَّ شعورهنَّ السُّود بيضاً … ورد وجوههن البيض سُودا
فإنك لو شهدت بكاء هند … ورملة إذ يُصَفِّقْن الخُدودا
بكيت بكاء مُعْوِلةٍ قريح[6] … أصاب الدهر واحدها الفريدا[7]

7 - ما قاله ابن عباس في موت معاوية رضي الله عنه:

قال عامر بن مسعود الجهني: مرّ بنا نعيُ معاوية ونحن في المسجد، فأتينا ابن عباس، فوجدناه جالساً وقد وضع خوانه[8]، وعنده نفر، ولم يوضع الطعام، فقلنا يابن عباس: أما علمت بهذا الخبر؟ فقال: وما هو؟ قلنا: هلك معاوية. فقال: ارفع خوانك ياغلام، وسكت

(1) تاريخ الطبري (6/ 243).
(2) الإصابة (6/ 151).
(3) تاريخ الطبري (6/ 243).
(4) المصدر نفسه (6/ 243).
(5) الناعجات: جمع ناعجة وهي المرأة حسنة اللون.
(6) المعولة: الرافعة صوتها بالبكاء، القريح: الجريح.
(7) البداية والنهاية (11/ 462).
(8) الخوان: ما يوضع عليه الطعام عند الأكل.

ساعة هاجماً[1]، ثم قال: جبل تزعزع ثم زال بجمعه في البحر[2]. قال القاضي أبو يعلى بعدما ذكر القصة: اللّهم أنت أوسع لمعاوية كنفاً، وأحسن من تجاوز عنه وعنّا[3].

8 - نقش خاتمه:

كان نقش خاتمه: لكل عمل ثواب[4]، وقيل: لا قوة إلا بالله[5].

9 - التبرك بآثار الرسول ﷺ:

عن عبد الأعلى بن ميمون، عن أبيه: أن معاوية قال في مرضه الذي مات فيه: إن رسول الله ﷺ كساني قميصاً فرفعته، وقلّم أظفاره يوماً، فأخذت قلامته فجعلتها في قارورة، فإذا مت فألبسوني ذلك القميص، وقطعّوا تلك القلامة، واسحقوها وذُرُّوها في عيني، وفي فيّ[6]، فعسى الله أن يرحمني ببركتها[7].

ويعتبر تبرك الصحابة رضوان الله عليهم بآثار النبي ﷺ الحسية المنفصلة عنه، من أنواع التبرك المشروع حيث فعله الصحابة رضوان الله عليهم أثناء حياته ﷺ وبعد مماته[8] كما فعله السلف الصالح رحمهم الله تعالى، ومن الأدلة على ذلك:

أ ـ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: جاء رسول الله ﷺ يعودني وأنا مريض لا أعقل، فتوضأ، وصب علي من وضوئه فعقلت[9].

ب ـ عن عثمان بن عبد الله بن وهب قال: أرسلني أهلي إلى أم سلمة بقدح من ماء.. فيها شعر من شعر النبي ﷺ، وكان إذا أصاب الإنسان عين أو شيء بعث إليها مخضبة[10]. قال ابن حجر: بعث إليها مخضبة ـ وهو من جملة الآنية ـ والمراد أنه كان من اشتكى أرسل إناء إلى أم سلمة فتجعل فيه تلك الشعرات وتغسلها فيه وتعيده فيشربه صاحب الإناء أو يغتسل بعده استشفاءً بها فتحصل له[11].

جـ ـ وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت في جبة رسول الله ﷺ: هذه كانت عند عائشة حتى قبضت فلما قبضت، قبضتها، وكان النبي ﷺ يلبسها فنحن نغسلها للمرضى يستشفى بها[12].

---

(1) هاجماً: الهاجم: الساكن المطرق.
(2) تنزيه خال المؤمنين معاوية بن أبي سفيان، ص: 113.
(3) المصدر نفسه، ص: 113.
(4) تاريخ القضاعي، ص: 326.
(5) المصدر نفسه، ص: 326.
(6) فيّ: الفم.
(7) تاريخ الطبري (6/ 245).
(8) مرويات معاوية في تاريخ الطبري، ص: 93.
(9) صحيح البخاري مع فتح الباري (1/ 360).
(10) صحيح البخاري مع فتح الباري (10/ 364).
(11) فتح الباري (10/ 365).
(12) صحيح مسلم بشرح النووي (14/ 43).

وقد فرّع العلماء على مسألة التبرك بآثار الرسول ﷺ مسألة التبرك بفضلات الصالحين وآثارهم، ففي حديث عروة بن مسعود وهو يصف أصحاب رسول الله ﷺ حوله، قال: فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده... وإذا توضّأ كادوا يقتتلون على وضوئه[1]، وقد علق الشاطبي على هذا الحديث، وأحاديث أخرى تماثله، فقال: فالظاهر في مثل هذا النّوع أن يكون مشروعاً في حق من ثبتت ولايته واتّباعه لسنة رسول الله ﷺ، وأن يتبرك بفضل وضوئه، ويُتدلّك بنخامته، ويُستشفى بآثاره كلّها، إلا أنّه عارضنا في ذلك أصل مقطوع به في متنه مشكل في تنزيله، وهو أن الصحابة ﷺ بعد موته ﷺ لم يقع من أحد منهم في شيء من ذلك بالنّسبة إلى مَنْ خَلَفه، إذ لم يترك النبي ﷺ بعد موته، أفضل من أبي بكر الصديق ﷺ، فهو خليفته، ولم يفعل به شيء من ذلك، ولا عمر ﷺ وهو كان أفضل الأمة بعده، ثمّ كذلك عثمان بن عفان، ثمّ علي، ثمّ سائر الصحابة الذين لا أحد أفضل منهم في الأمّة، ثمّ لم يثبت لواحد منهم من طريق صحيح معروف أن متبرّكاً تبرك به أحد تلك الوجوه أو نحوها، بل اقتصروا على الاقتداء بالأفعال، والأقوال، والسّير التي اتّبعوا فيها النبي ﷺ، فهو إذا إجماع منهم على ترك تلك الأشياء[2].



(1) زاد المعاد (3/ 290) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص: 488.

(2) غزوة الحديبية للحكمي، ص: 305.

الفصل الخامس

عهد يزيد بن معاوية بن أبي سفيان

المبحث الأول

اسمه ونسبه وكنيته ونشأته وحياته وتوليه الخلافة

أولاً: اسمه ونسبه وكنيته:

هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس القرشي، يكنى «أبو خالد»[1]، وجدته من جهة أبيه: هند بنت عتبة بن ربيعة، أسلمت يوم الفتح، وكانت من أعقل النساء، حازمة شاعرة ذات نفس وأنفة[2]، وأمه ميسون بنت بحدل الكلبية شاعرة من شاعرات العرب، وكانت امرأة لبيبة وأبوها من أشراف قبيلة كلب[3].

ثانياً: ولادته ونشأته:

كانت ولادة يزيد بن معاوية في خلافة عثمان رضي الله عنه[4] في سنة ست وعشرين[5]، وقيل أن ولادته وولادة عبد الملك بن مروان في سنة واحدة سنة ست وعشرين من الهجرة[6]، نشأت والدته في البادية حيث أن والدته طلقها أبوه فعاش مع أمه وأخواله وهم زعماء قبيلة كلب، فأثرت في طباعه تلك النشأة فتراه يتميز بالفصاحة والخطابة والكرم، والشجاعة[7]، واستمر متعلقاً بالبادية، حتى أنها أثرت في لباسه وعدم التكلف في حياته، فقد تلقوه أهل الشام بعد موت أبيه عائداً من أخواله ليس له عمامة ولا سيف فقال الناس: هذا الأعرابي الذي ولي أمر

---

(1) الاستيعاب (3/ 1416)، تاريخ خليفة، ص: 10.

(2) الطبقات (8/ 170)، التبيين في أنساب القرشيين، ص: 218.

(3) مواقف المعارضة، ص: 40، نسب قريش، ص: 127.

(4) تهذيب التهذيب (11/ 316 - 317).

(5) فوات الوفيات (4/ 328).

(6) تاريخ أبو زرعة (1/ 191) مواقف المعارضة، ص: 39.

(7) مواقف المعارضة، ص: 43، مآثر الأنافة (1/ 115 - 116).

هذه الأمة[1]، واهتم به والده وعين له مؤدباً ليعلمه وهو دغفل بن حنظلة السدوس الشيباني[2]، وجعل معاوية ابنه يحضر في مجالسه ويستفيد من سياسته وتدبيره للملك[3]، واستفاد يزيد من عبيد بن شرية الجهرمي الذي استقدمه معاوية من صنعاء اليمن، وكان عالماً بأيام العرب وأحاديثها وله كتاب الأمثال، وكتاب الملوك وأخبار الماضين[4]، وقد تأثر يزيد من هذا الشيخ الحكيم الذي حنكته التجارب والسنون، وقد توفي عبيد بن شرية سنة 70هـ[5]، وأصبح يزيد يتحدث عن الأنساب تحدث الخبير[6]، قال الذهبي في ترجمة عبد الصمد بن علي الهاشمي: وكان في تعدُّد النسب نظير يزيد الخليفة[7]، وقد توفر ليزيد ما لم يتوفر لغيره إضافة إلى أن أباه هو أحد الصحابة الأجلاء ﷺ وكاتب الوحي لرسول الله ﷺ وقد روي عن أبيه أحاديث منها: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»[8]، وقد ذكره أبو زرعة الدمشقي في الطبقة التي تلي الصحابة وقال: له أحاديث[9]، وقد كان معاوية رضي الله عنه يحاول دوماً أن يوجه يزيد نحو الاستفادة من مجالس الوفود التي تفد عليه، فقد ذكر ابن المبارك أن معاوية قال لبعض رجالات الوفود ما تعدون المروءة فيكم قالوا: العفاف في الدين، والإصلاح في المعيشة، فقال معاوية: اسمع يا يزيد[10]، فقد كان معاوية رضي الله عنه منذ أن استقر له الأمر في الشام شديد الاهتمام بتربية ولده، فأشركه منذ وقت مبكر في الصوائف وتحمل المسئوليات[11]، وكان معاوية دائم الاتصال بمؤدبي ولده، كي يتعرف على ما أحرزه ابنه من تقدم، كما كان يسأل ابنه عن أحواله مع المؤدبين، فتشير إحدى الروايات إلى أن معاوية سأله في أحد الأيام قائلاً: أيضربك معلمك يا يزيد قال: لا يا أمير المؤمنين قال: ولم؟ قال: لأنه استن بسنة أمير المؤمنين بالعدل[12]. وعلاوة على ذلك فإننا نجد روايات أخرى تشير إلى أن بعض المناظرات الثقافية كانت تقع بين معاوية وولده ، على الرغم من صغر سنه، مما يدل

(1) سير أعلام النبلاء (4/ 36 - 37).
(2) المعجم الكبير (4/ 226) مواقف المعارضة، ص: 43؟.
(3) مواقف المعارضة في خلافة يزيد، ص: 43.
(4) الحياة العلمية في الشام في القرن الأول والثاني، ص: 197، مواقف المعارضة في خلافة يزيد، ص: 45.
(5) إرشاد الأريب (12/ 70 - 78) مواقف المعارضة، ص: 44.
(6) أنساب الأشراف (4/ 295 - 296).
(7) سير أعلام النبلاء (9/ 130).
(8) صحيح مسلم (2/ 718) رقم (1037).
(9) البداية والنهاية (11/ 638).
(10) تاريخ دمشق نقلاً عن مواقف المعارضة، ص: 45.
(11) تاريخ الدولة العربية، سهيل زكار، ص: 45.
(12) أنباء نجباء الأبناء، ص: 69، يزيد بن معاوية حياته وعصره للعقيلي، ص: 12.

على مدى اهتمام أبيه به، فيروي ابن ظفر الصِّقلّي: أن معاوية بن أبي سفيان قال لابنه يزيد، وقد أتت عليه سبع سنين: يا بني في أي سورة أنت؟ فقال: في السورة التي تلي يا أمير المؤمنين. فقال: يا بني إن هذه السورة تليها سورتان وهي بينهما، ففي أيهما أنت؟ قال: في السورة التي في أولها: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: 2]. فتمثل معاوية بقول حذافة بن غانم العدوي حيث يقول:

ملوك وأبناء الملوك وسادة ... تفلّق عنهم بيضة الطائر الصّقر
متى تلقَ منهم ناشئاً في شبابه ... تجده على أعراق والده يجري
فهم يغفرون الذّنب ينقم مثله ... وهم تركوا رأي السّفاهة والهجر[1]

وكان معاوية يوجه ابنه ويرشده وينصحه ويدله على الصواب فقد رأى ابنه يضرب غلاماً له، فقال له: سوأة لك، أتضرب من لا يستطيع أن يمتنع عليك؟ والله لقد منعتني القدرة من ذوي الإحن، وإنَّ أحقَّ من عفا لمن قدر[2]. وقد ثبت في الصحيح: أن رسول الله ﷺ رأى أبا مسعود يضرب غلاماً له، فقال له: «اعلم أبا مسعود لله أقدر عليك منك عليه»[3]، وذات يوم غضب معاوية على ابنه يزيد فهجره، فقال له الأحنف بن قيس: يا أمير المؤمنين، أولادنا ثمار قلوبنا، وعماد ظهورنا ونحن لهم سماء ظليلة، وأرضي ذليلة إن غضبوا فأرضهم، وإن طلبوا فأعطهم ولا تكن عليهم ثقلاً فيملّوا حياتك ويتمنَّوا موتك، فقال معاوية: لله درُّك يا أبا بحر، يا غلام ائت يزيد فأقْرِئه مني السلام، وقل له: إن أمير المؤمنين قد أمر لك بمائة ألف. فقال يزيد: من عند أمير المؤمنين؟ فقال: الأحنف. فقال: لا جرم لأُقاسمنه، فبعث إلى الأحنف بخمسين ألف وخمسين ثوباً[4]، وكان يزيد حاضر البديهة، قال العتبي: وقدم زياد بأموال عظيمة، وبسفط مملوءة جواهر على معاوية، فسرُّ بذلك معاوية، فقام زياد فصعد المنبر، ثم افتخر بما يفعله بأرض العراق من تمهيد الممالك لمعاوية، فقام يزيد فقال: إن تفعل ذلك يا زياد فنحن نقلناك من ولاء ثقيف إلى قريش، ومن القلم إلى المنابر، ومن زياد بن عُبيد إلى حرب بن أمية. فقال له معاوية اجلس فداك أبي وأمي وكان معاوية يربي يزيد على القيام بالواجبات الاجتماعية مع أعيان المجتمع، فعندما وفد عبد الله بن عباس إلى معاوية، أمر ابنه يزيد أن يأتيه فيعزيه في الحسن بن علي، فلمّا دخل على ابن عباس رحّب به وأكرمه وجلس بين يديه، فأراد ابن عباس أن يرفع مجلسه، فأبى وقال: إنما أجلس مجلس المُعزِّي لا المُهَنِّي، ثم ذكر الحسن فقال: رحم الله أبا محمد أوسع الرحمة وأفسحها، وأعظم الله أجرك وأحسن

---

(1) أنباء نجباء الأبناء، ص: 13، يزيد بن معاوية للعقيلي، ص: 13.
(2) البداية والنهاية (11/ 640).
(3) مسلم، رقم (1659).
(4) البداية والنهاية (11/ 641).

عزاءك، وعوّضك من مُصابك ما خير لك ثواباً وخيرٌ عقبى. فلمّا نهض يزيد من عنده قال ابنُ عباس: إذا ذهب بنو حرب ذهب حلماء الناس. ثم أنشد متمثلاً:

مَغَاضٍ عن العوراءِ لا ينطقونها وأهلُ وِراثات الحلوم الأوائل[1]

وكان معاوية ﷺ يختبر ابنه بين الفينة والأخرى فذات يوم سأله: كيف تُراك فاعلاً إن وُلّيت؟ قال: يُمتعُ الله بك. قال: لتُخبرني قال: كنت والله يا أبة عاملاً فيهم عمل عمر بن الخطاب. فقال معاوية: سبحان الله، سبحان الله، والله يا بُنيّ لقد جهدت على سيرة عثمان فما أطقتها[2].

ثالثاً: زوجاته وأولاده:

تزوج يزيد أم هاشم بنت أبي سفيان بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس فأنجبت له:

1 - معاوية بن يزيد: ويكنى أبا عبد الرحمٰن كما يعرف باسم أبي ليلى وهو الذي يقول فيه الشاعر:

إني أرى فِتنة قد حان أوّلُها والملك بعد أبي ليلى لمن غلب[3]

2 - خالد بن يزيد: ويكنى أبا هاشم وقد انصرف إلى عمل الكيمياء.

3 - أبو سفيان بن يزيد.

وبعد وفاة يزيد تزوج أم هاشم مروان بن الحكم[4].

وتزوج أيضاً: يزيد أم كلثوم بنت عبد الله بن عامر، فأنجبت له عبد الله بن يزيد ويعرف بلقب «الأسوار»[5]. وكان من أرمى العرب وهو الذي يقول فيه الشاعر:

زعم الناسُ أن خيرَ قريش كلُّهم حين يُذكرُ الأسوار[6]

وكان له عدد من الأولاد من أمهات أولاد كثيرة ومن أبنائه هؤلاء: عبد الله الأصغر، وأبو بكر، وعمر، وعتبة، وعبد الرحمن، وحرب، والربيع، ومحمد[7]، ويبدو أن لمحمد هذا

(1) المصدر نفسه (11/ 642).
(2) المصدر نفسه (11/ 644).
(3) تاريخ الطبري (6/ 434).
(4) تاريخ الطبري (6/ 434)
(5) الأسوار، بالضم والكسر وهو الجيد الرمي بالسهام.
(6) تاريخ الطبري (6/ 434)، البداية والنهاية (11/ 661).
(7) تاريخ الطبري (6/ 434)، البداية والنهاية (11/ 661).

الأخير عقب لا يزال موجوداً حتى الآن في شبه جزيرة العرب في المنطقة المعروفة باسم عسير، إذ فرّ أحد أحفاده إلى هذه البقعة عند قيام الدولة العباسية وملاحقة الأمويين، واستطاع بعد مدة من تأسيس إمارة بسطت نفوذها على المنطقة واستمرت في أمرها حتى العصر الحديث، وكان منها آل عائض بن مرعي الذين كان لهم حكم المنطقة قبل سيطرة عبد العزيز آل سعود على أكثر الجزيرة[1].

رابعاً: أهم أعمال يزيد في عهد والده: غزو القسطنطينية:

تكمن أهمية هذه الغزوة بذكرها في الحديث الشريف، وفضيلتها وفضيلة أهلها المجاهدين، فقد ثبت في الصحيح من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول ﷺ إذا ذهب إلى قباء يدخل إلى أم حرام بنت ملحان فتطعمه ـ وكانت تحت عبادة بن الصامت ـ فدخل يوماً، فأطعمته، فنام رسول الله ﷺ، ثم استيقظ يضحك، قالت: فقلت، ما يضحكك يا رسول الله؟ فقال: **«ناس من أمتي عُرضوا عليّ غزاة في سبيل الله، يركبون ثبج هذا البحر ملوكاً على الأسرة»**، أو قال: مثل الملوك على الأسرة ـ قلت: ادع الله أن يجعلني منهم، فدعا ثم وضع رأسه فنام ثم استيقظ يضحك، فقلت: ما يضحكك يا رسول الله؟ فقال: **«ناس من أمتي عُرضوا عليّ غزاة في سبيل الله يركبون ثبج البحر ملوكاً على الأسرة»** ـ أو مثل الملوك على الأسرة ـ، فقلت: ادع الله أن يجعلني منهم قال: **«أنت من الأولين»**، فركبت البحر زمن معاوية، فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر، فهلكت[2]. وفي رواية: **«أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم»**[3].

قال ابن كثير في تعليقه على هذا الحديث: وقد كان ذلك في سنة سبع وعشرين مع معاوية حين استأذن عثمان في غزو قبرص، فأذن له فركب المسلمون في المركب حين دخلها وفتحها قسراً، وتوفيت أم حرام في هذه الغزوة في البحر وكانت مع معاوية فاختة بنت قرظة وأما الثانية فكانت في سنة اثنين وخمسين في أيام ملك معاوية، بعث ابنه يزيد ومعه الجنود إلى غزو القسطنطينية ومعه في الجيش جماعة من سادات الصحابة منهم أبو أيوب الأنصاري خالد بن زيد رضي الله عنه، فمات هناك وأوصى إلى يزيد بن معاوية، وأمره أن يدفنه تحت سنابك الخيل، وأن يوغل إلى أقصى ما يمكن أن تنتهي به إلى نحو جهة العدو، ففعل ذلك[4]، وفضيلة غزو القسطنطينية ليزيد، جعلت الذهبي مع شدة حمله على يزيد يقول: يزيد بن معاوية أبو خالد الأموي له هنات حسنة، وهي غزو القسطنطينية، وكان أمير ذلك الجيش وفيهم مثل أبي أيوب

---

(1) التاريخ الإسلامي، العهد الأموي، محمود (4/ 127).

(2) مسلم، الصحيح مع شرح النووي (13/ 58-59).

(3) فتح الباري (6/ 120).

(4) البداية والنهاية نقلاً عن مواقف المعارضة، ص: 62.

الأنصاري[1]، وما أجمل قول ابن تيمية: ويعلم أن الرجل الواحد تكون له حسنات وسيئات، فيحمد ويذم، ويثاب ويعاقب، ويحب من وجه ويبغض من وجه وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة، خلافاً للخوارج والمعتزلة ومن وافقهم[2]، ويبدو أن يزيد قد قام ببعض الحملات حتى وصل إلى خليج القسطنطينية ومعه زوجته أم كلثوم[3]، ويبدو أن معرفة يزيد بحرب الروم وإدراكه بخطرهم الداهم، وأخذه بنصيحة والده ﷺ، فكان آخر ما أوصى به معاوية أن قال: شد خناق الروم[4]، كل هذه الأمور جعلته بعد أن تولى الخلافة يسير على خطته في جهاد الروم، ولم تمنعه أحداث ابن الزبير وشيعة العراق من قتالهم[5]، وقد كانت وفاة يزيد فيما بعد متنفساً للروم، ليس فقط في وقف الهجمات الحربية عليهم من قبل المسلمين، بل بلغت بهم الجرأة إلى الإكثار من الغارات على بلاد الشام ومنطقة الثغور[6]،ولما عاد يزيد من غزوة القسطنطينية في نفس السنة حج بالناس[7]، وهذه الأعمال التي قام بها يزيد في غاية الأهمية في ذلك العصر، فكان يزيد يقود جيشاً من أعظم الجيوش في عصره، ويضم نخبة من الصحابة وأكابرهم وساداتهم وأبناءهم ويتجه هذا الجيش بقيادة يزيد إلى أهم جبهة في الدولة الإسلامية، وغير هذه الاعتبارات تدل على أن يزيد الذي يبلغ من العمر حين قيادة هذا الجيش ما بين (21 - 23) يملك روحاً قيادية وكفاءة حربية[8]، ولم يعترض أحد من الصحابة أو غيرهم على قيادة يزيد في تلك المرحلة، كما أن هذا التصرف من معاوية ﷺ في توليه يزيد هذا الجيش ـ والذي يضم أكابر الصحابة وأبنائهم وفقهائهم وسادات المسلمين فيه دلالة على أن معاوية ﷺ، يرى في ولده يزيد ملامح النجابة والكفاءة التي تؤهله لقيادة هذا الجيش[9].

خامساً: أهم صفات يزيد بن معاوية:

إن المصادر التاريخية والأدبية على حد سواء تزودنا بأخبار قليلة عن صفات يزيد المكتسبة والموروثة، إلا أنها تحدد لنا بعض الملامح من شخصية يزيد بن معاوية[10] فمنها:

1 - القوة والشجاعة:

قال عنه الذهبي: كان قوياً شجاعاً، ذا رأي وحزم وفطنة وفصاحة[11]، وكان يتمنى أن

---

(1) سير أعلام النبلاء (4/ 36).
(2) منهاج السنة (4/ 544).
(3) أنساب الأشراف (4/ 289).
(4) تاريخ خليفة، ص: 230.
(5) خطط الشام (1/ 112).
(6) فتوح البلدان للبلاذري، ص: 224، مواقف المعارضة، ص: 63.
(7) تاريخ خليفة، ص: 211، مواقف المعارضة، ص: 63.
(8) مواقف اللمعارضة، ص: 63.
(9) المصدر نفسه، ص: 64.
(10) المصدر نفسه، ص: 46.
(11) سير أعلام النبلاء (4/ 7).

يوليه أبوه في الغزو على الصائفة بالمسلمين. وكان يحرص على إقامة السباقات بين الخيل، ويجعل الجوائز، لرفع مستوى الفروسية عند المسلمين[1]، علاوة على تمكنه من قيادة الجيش الإسلامي الذي حاصر القسطنطينية وسيطرته على مجريات القتال[2]، وذكر صفوان بن عمرو أن المسلمين لما جاوزوا بالأسارى من الروم، ضرب أعناقهم يزيد بن معاوية والروم تنظر إليهم[3]، كما أن من حزمه ما حكاه العتبي بإسناد أن أبا أيوب الأنصاري مرض في غزوة القسطنطينية، فأتاه يزيد عائداً فقال: ما حاجتك يا أبا أيوب؟ قال: ادفني عند أسوار القسطنطينية. . . فلما مات أمر يزيد بتكفينه وحُمل على سريره، ثم أخرج الكتائب فجعل قيصر يرى سريراً والناس يقتتلون فأرسل إلى يزيد: من هذا الذي أرى؟ قال: صاحب نبينا وقد سألنا أن نقدمه في بلادك ونحن منفذون وصيته أو تلحق أرواحنا بالله. قال: العجب كيف من ينسب أبوك للدهاء ويرسلك فتأتي بصاحب نبيك، وتدفنه في بلادنا، فإن وليت أخرجناه إلى الكلاب، فقال يزيد: إني والله ما أردت إيداعه بلادكم حتى أودع كلامي آذانكم، فإنك كافر بالذي أكرمت هذا له، لئن بلغني أنه نبش من قبره أو مثل به، لا تركت بأرض العرب نصرانياً إلا قتلته، ولا كنيسة إلا هدمتها فبعث إليه قيصر: أبوك أعلم بك، فوحق المسيح لأحفظنه بيدي[4].

2 - الفصاحة والشعر:

ذكر الذهبي بأنه صاحب فصاحة[5]. ولما تكلم الخطباء عند معاوية قال: والله لأرمينهم بالخطيب الأشدق، قم يا يزيد تكلم[6]. وقد ذكر المدائني بإسناده أن رجلاً قال لسعيد بن المسيب: أخبرني عن خطباء قريش، قال: معاوية، وابنه يزيد، ومروان بن الحكم، وابنه عبد الملك، وسعيد بن العاص وابنه وما ابن الزبير بدونهم[7]، وأما شعره فقد كان شاعراً مجيداً[8]، جعل الناس يقولون بدء الشعر بملك، وختم بملك، إشارة إلى امرئ القيس وإلى يزيد[9]، ومن شعره ما كان ينشده هارون الرشيد ليزيد بن معاوية:

(1) الأقوال الكافية في الفصول الشافية في الخيل، ص: 312.
(2) مواقف المعارضة، ص: 47.
(3) تاريخ مدينة دمشق نقلاً عن مواقف المعارضة، ص: 47.
(4) الاستبصار نسب الصحابة من الأنصار، ص: 70، 71، للمقدسي.
(5) سير أعلام النبلاء (4/ 37).
(6) البيان والتبيين للجاحظ (1/ 122).
(7) أنساب الأشراف (4/ 289).
(8) مواقف المعارضة، ص: 49.
(9) الفخري في الآداب السلطانية، ص: 113، ابن طباطبا.

إنــهــا بــيــن عــامــر بــن لــؤيٍّ حــيــن تَــنْــمِــي وبــيــن عــبــد مــنــاف
ولــهــا فــي الــمُــطَــيَّــبِــيــن جــدودٌ ثــم نــالــت مــكــارم الأخــلافِ
بــنــتُ عــمِّ الــنــبــي أكــرمُ مــن يــمــشــي بــنــعــل عــلــى الــتُّــراب وحــافــي
لــن تــراهــا عــلــى الــتَّــبَــذُّل والــغــلــظــة إلا كــــــــدرة الأصـــــــداف[1]

3 - الكرم:

اشتهر عن يزيد الكرم، فكان يجزل العطاء لعبد الله بن جعفر بن أبي طالب[2]، وليس غريباً عنه وهو الذي يقول: حفظ النديم والجليس وإكرامهما من كرم الخليفة وقضاء حق النعمة[3]، ولقد حازت هذه الأعطيات على إعجاب عبد الله بن جعفر وقال له: فداك أبي وأمي فوالله ما قلتها لأحد قبلك[4]، وكان يقول: أتلوموني على حسن الرأي في يزيد[5]. ومن كرمه أيضاً: أن عبد الله بن حنظلة عندما قدم عليه من المدينة وبنيه أعطاه مائة ألف وأعطى كل واحد منهم عشرة آلاف سوى كسوتهم وحملانهم[6]. وقصته مع الأحنف في مقاسمته الجائزة التي أمر بها معاوية قد مرت معنا.

وأما صفاته الخَلْقية: فقد كان ضخم الجسم سميناً طويلاً، غليظ الأصابع كثيف الشعر جعده، أسمر البشرة في وجهه أثر الجدري، أحور العينين حسن اللحية خفيفها، وبالجملة كان جميلاً[7].

سادساً: بيعة يزيد:

كان يزيد غائباً حين حضر معاوية الموت، فلما حضر يزيد كان قد دفن، فقصد يزيد باب الصغير حيث دفن أبوه، وهناك صلى على أبيه ومن خلفه المسلمون، فكبر أربعاً[8]، ولما خرج من المقبرة أُتي بمراكب الخلافة فركب، ثم دخل البلد، وأمر فنودي في الناس إن الصلاة جامعة، ودخل الخضراء ـ وهو قصر بناه معاوية ـ فاغتسل ولبس ثياباً حسنة، ثم خرج فخطب الناس أول خطبة خطبها وهو أمير المؤمنين، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: أيها الناس، إن معاوية عبداً من عبيد الله، أنعم الله عليه، ثم قبضه إليه، وهو خير ممن بعده، ودون من قبله، ولا أزكيه على الله عَزَّوَجَلَّ فإنه أعلم به، إن عفا عنه فبرحمته، وإن عاقبه فبذنبه، وقد

---

(1) البداية والنهاية (11/ 655).
(2) المصدر نفسه (11/ 646).
(3) أنساب الأشراف (4/ 297).
(4) أنساب الأشراف (4/ 297) القيد الشريد، ابن طولون ورقة 3.
(5) البداية والنهاية (11/ 646).
(6) تاريخ خليفة، ص: 237، البداية والنهاية (11/ 53).
(7) سير أعلام النبلاء (4/ 37)، البداية والنهاية (11/ 638).
(8) البداية والنهاية (11/ 459).

وليت الأمر من بعده ولست آسى على طلب، ولا أعتذر من تفريط، وإذا أراد الله شيئاً كان. وقال لهم في خطبته هذه: إن معاوية كان يغزيكم في البحر، وإني لست حاملاً أحداً من المسلمين في البحر، وإن معاوية كان يشتيكم بأرض الروم، ولست مشتياً أحداً بأرض الروم، وإن معاويةكان يخرج لكم العطاء أثلاثاً، وأنا أجمعه لكم كله: فافترق الناس، وهم لا يفضلون عليه أحد[1].

وفي هذه الخطبة شرح يزيد سياسته في قيادة الأمة، ووضح خطته التي سيلتزمها أثناء خلافته، وهي سياسة استطاع أن يكسب بها قلوب أهل الشام. وقد أجمعت ـ غالبية ـ الأمة على بيعة يزيد أو بمعنى آخر جددت له البيعة بعد وفاة أبيه ولم يبايع إلا الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير ﷺ [2]. وسيكون لكل منهما مع يزيد شأن ـ كما سنرى بإذن الله تعالى ـ أما بقية الصحابة فقد بايعوا يزيد جمعاً للكلمة وحفظاً لوحدة الأمة وخوف الفتنة، مثل عبد الله ابن عباس، وعبد الله بن عمر، ومحمد ابن الحنفية[3]، أما أهل الشام والعراق وغيرها من الأقاليم فقد بايعوا وكانت المعارضة ليزيد في أهل الحجاز يتزعهما الحسين بن علي وابن الزبير، ومما قيل من الشعر في بيعة يزيد ما قاله عبد الله بن همَّام يعزِّيه في أبيه:

أصبر يزيد أعظم فقد فارقت ذا مقة[4]	واشكر حُباء الذي بالملك حاباكا
لا رُزءَ أعظم في الأقوام نعلمه	كما رُزِئت ولا عُقبى كعُقباكا
أصبحت راعى أهل الدِّين كلهم	فأنت ترعاهم والله يَرْعاك
وفي معاوية الباقي لنا خلف	إذا نعيت و لا نسمع بمنعاك

يعني معاوية بن يزيد[5].

تولى يزيد الأمر بعد أبيه في رجب سنة 60هـ ـ 680م فأقر عمال أبيه على ولاياتهم، فكان على المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، وأمير مكة عمرو بن سعيد بن العاص، وأمير الكوفة النعمان بن بشير وأمير البصرة عبد الله بن زياد[6]، وركز يزيد في أخذ البيعة من النفر الذين لم يبايعوه في حياة أبيه وكان أهمهم عنده الحسين بن علي، فكتب إلى أميرها الوليد بن عتبة كتاباً يخبره فيه بوفاة معاوية فقال: بسم الله الرحمٰن الرحيم، من يزيد أمير المؤمنين إلى الوليد بن

(1) البداية والنهاية (11/ 460).
(2) البداية والنهاية (11/ 467) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 130.
(3) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 130.
(4) المقة: المحبة: الحباء بكسر الحاء وضمها: العطاء بلا مَن ولا جزاء.
(5) الشعر والشعراء لابن قتية (2/ 652).
(6) البداية والنهاية (11/ 467).

عتبة أما بعد، فإن معاوية كان عبداً من عباد الله، أكرمه الله واستخلفه، وخوّله ومكّن له، فعاش بقدر، ومات بأجل، فرحمه الله، فقد عاش محموداً، ومات براً تقياً والسلام[1]. ونظراً لتساهل الوليد بن عتبة بن أبي سفيان في أخذ البيعة من الحسين وابن الزبير لأنه كان رجلاً يحب العافية[2]، وأنه كان رجلاً رفيقاً سرياً كريماً[3]، كما أنه كان يخشى عذاب الله وعقابه، فقد امتنع عن سجن الحسين أو قتله وقال: . . . والله ما أحب أن لي ما طلعت عليه الشمس وغربت عنه من مال الدنيا وملكها وإني قتلت حسيناً سبحان الله! أقتل حسيناً أن قال: لا أبايع؟ والله إني لا أظن أمرىءٍ يحاسب بدم الحسين لخفيف الميزان عند الله يوم القيامة. فقال مروان: فإذا كان هذا رأيك فقد أصبت فيما صنعت[4].

كان إصرار يزيد على طلب البيعة من الحسين وابن الزبير رضي الله عنهما هو الشرارة الأولى في الفتنة التي اندلعت بين المسلمين فقد شعر كل منهما بأنه مطلوب، وأنه إذا لم يبايع فسيكون ضحية طيش يزيد، وأن سيوف أعوان الخليفة الجديد أصبحت مسلولة عليهم، فعادا إلى البيت الحرام، ولجآ إلى مكة المكرمة يطلبان فيها الأمان، ويحتميان بحمى الله فيها، ولئن أصاب يزيد حين أبقى عمال أبيه على الولايات، ليضمن استقرار الأمور فيها، فقد خانته عبقريته في إصراره على طلب البيعة من الحسين وابن الزبير، حيث كان إصراره هذا موحياً بعدم تأمين الحياة لهما، وبأن بقاءهما في عهد يزيد محفوف بالمخاطر، وذلك أدى بهما إلى أن يبحثا عن الأمان، ولم يجداه إلا في تجييش أنصارهما، وحشدهم في مكان يصعب على يزيد وأعوانه أن يقتحموه وكان ذلك في مكة المكرمة، في جوار بيت الله الذي قال فيه: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: 97]. ولم يكن لهذا التجمع وذلك الحشد نتيجة سوى المواجهة التي أودت بحياة الآلاف من المسلمين، وكان على رأس هؤلاء جميعاً الحسين بن علي رضي الله عنهما حيث قتل في كربلاء ـ شهيداً ـ على يد فئة ظالمة من جيوش يزيد[5].

لقد كانت غلطة من يزيد، بدأ بها حياته، وظلت تلاحقه حتى مماته، ولم يستطع التخلص منها، وبدأت سلسلة الأخطاء تتوالى في حياة الخليفة، وكلما ادلهمت الأمور من حوله، عظمت الأخطاء، وتضخمت المشكلات، وكلما أراد حل مشكلة، عرض لها بمشكلة أخطر منها وأفظع، فمن الإصرار على عدم البيعة إلى تكوين جبهة معارضة تستعد للقتال، ومنها إلى معركة كربلاء، ثم تتمخض هذه المعركة عن قتل ابن بنت رسول الله ﷺ وتؤدي إلى غضب المسلمين، وإعلان ابن الزبير الخروج على الخليفة، وتستمر العداوة والبغضاء حتى تكون

---

(1) البداية والنهاية (11/ 467).
(2) الأخبار الطول، ص: 228، يزيد بن معاوية العقيلي، ص: 28.
(3) تاريخ خليفة، ص: 233، يزيد بن معاوية، ص: 28.
(4) تاريخ الطبري (6/ 259).
(5) الأمويون بين الشرق والغرب (1/ 198).

وقعة الحرة، وتتشوه صورة الخليفة في أعين المسلمين، ثم يتوفى بعد ذلك بقليل.. أين غاب حلم معاوية عن ولي عهده؟ أغلب الظن أن الذي ورط يزيد في هذه الأخطاء الشنيعة هو غياب المستشارين الحكماء عن مجلسه وحداثة سنه وقلة خبرته. كما أن يزيد كان يفقد حلم أبيه، وتنقصه قوة إرادته في الحلول السلمية، لقد كانت الكوارث الكبرى في عهد يزيد مقتل الحسين رضي الله عنه، ووقعة الحرّة بالمدينة وحصار مكة لابن الزبير، لقد وصم يزيد عهده بوصمة لن يمحوها ماء البحار، ولن تزيل مرارتها عذوبة الأنهار[1].

إن أهل السنة والجماعة يعتبرون بيعة يزيد صحيحة ولكنهم عابوا عليها أمرين:

1 - قالوا إن هذه بدعة جديدة وهي أنه جعل الخلافة في ولده فكأنها صارت وراثة بعد أن كانت شورى وتنصيص على غير القريب، فكيف قريب وابن مباشر، فمن هذا المنطق رُفض المبدأ بغض النظر عن الشخص فهم رفضوا مبدأ أن يكون الأمر وراثة.

2 - أنه كان هناك من هم أولى من يزيد بالخلافة كابن عمر وابن الزبير والحسين وغيرهم هذا من وجهة نظر أهل السنة[2].

أما من وجهة نظر الشيعة فإنهم يرون الإمامة والخلافة في علي وأبنائه فقط، فهم لا يعيبون بيعة يزيد بذاتها، وإنما يعيبون كل بيعة لا تكون لعليّ وأولاده، فهم يعيبون بيعة أبي بكر وعمر وعثمان ومعاوية كلها بغض النظر عن المبايع له، لأنهم يرون أنها نص لعليّ وأبنائه إلى أن تقوم الساعة[3]، وقد ناقشت معتقد الشيعة في الإمامة في كتابي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وبينت بطلانه.

المبحث الثاني

خروج الحسين بن علي رضي الله عنه

أولاً: اسمه ونسبه وشيء من فضائله:

هو أبو عبد الله الحسين بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم سبط رسول الله ﷺ، وريحانته ومحبوبه، ابن بنت رسول الله ﷺ، فاطمة رضي الله عنها، كان مولده سنة أربع للهجرة، ومات رضي الله عنه قتيلاً شهيداً، في يوم عاشوراء من شهر المحرم سنة إحدى وستين هجرية بكربلاء من أرض العراق فرضي الله عنه وأرضاه[4].

---

(1) الأمويون بين الشرق والغرب (1/ 199) بتصرف كبير.

(2) حقبة من التاريخ، ص: 124.

(3) حقبة من التاريخ، ص: 124.

(4) سير أعلام النبلاء (2/ 280) الإصابة (1/ 331 - 334).

وقد وردت في مناقبه وفضائله أحاديث كثيرة منها:

1 - ما رواه أحمد بإسناده إلى يعلى العامري رضي الله عنه أنه خرج مع رسول الله - يعني إلى طعام دعوا له - قال: فاستمثل رسول الله ﷺ أمام القوم، وحسين مع غلمان يلعب فأراد رسول الله ﷺ أن يأخذه فطفق الصبي يفر هنا مرة وهاهنا مرة، فجعل النبي ﷺ يضاحكه حتى أخذه قال: فوضع إحدى يديه تحت قفاه الأخرى تحت ذقنه ووضع فاه وقبله وقال: «حسين مني وأنا من حسين، اللهم أحب من أحب حسيناً، حسين سبط من الأسباط»[1].

2 - ما رواه البخاري بإسناده إلى ابن عمر رضي الله عنه: قد سأله رجل من العراق عن المحرم يقتل الذباب فقال رضي الله عنه: أهل العراق يسألون عن الذباب وقد قتلوا ابن ابنة رسول الله ﷺ وقال النبي ﷺ: «هما ريحانتاي من الدنيا»[2].

3 - وروى أحمد بإسناده إلى أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»[3].

وغير ذلك من الأحاديث، وفي النية إفراد كتاب مستقل عن أبي عبد الله الشهيد الحسين بن علي رضي الله عنهما بإذن الله تعالى.

ثانياً: الأسباب التي أدت إلى خروج الحسين والفتوى التي بنى عليها خروجه رضي الله عنه:

كان موقف الحسين من بيعة يزيد بن معاوية هو موقف المعارض، وشاركه في المعارضة عبد الله بن الزبير والسبب في ذلك: حرصهما على مبدأ الشورى وأن يتولى الأمة أصلحها. وتلك الممانعة الشديدة من قبل الحسين وابن الزبير، قد عبرت عن نفسها بشكل عملي فيما بعد فالحسين رضي الله عنه - كما مر معنا - كان معارضاً للصلح، والذي حمله على قبوله هو متابعة أخيه الحسن بن علي، ثم إن الحسين بن علي استمر على صلاته بأهل الكوفة وقد كان يعدهم بالمعارضة ولكن بعد وفاة معاوية، والدليل على ذلك أنه بمجرد وفاة معاوية سارع زعماء الكوفة بالكتابة إلى الحسين، وطلبوا منه المسير إليهم على وجه السرعة[4] ومن الأسباب التي أدت إلى خروج الحسين رضي الله عنه:

(1) فضائل الصحابة للإمام أحمد (2/ 772) إسناده حسن.
(2) البخاري رقم (3753).
(3) سنن الترمذي (5/ 656) حديث رقم (3768) صححه الألباني في الأحاديث الصحيحة (2/ 448).
(4) مواقف المعارضة، ص: 180.

1 - هو إرادة الله عز وجل :

وأن ما قدره سيكون وإن أجمع الناس كلهم على رده فسينفذه الله، لا راد لحكمه ولا لقضائه [1].

2 - قلب الحكم من الشورى إلى الملك الوراثي:

ومن الأسباب: ما كان من عدم التزام معاوية بشروط الحسن في الصلح والتي من ضمنها ما ذكره ابن حجر الهيثمي: . . بل يكون الأمر من بعده شورى بين المسلمين[2].

ورأى الحسين في محاولة معاوية توريث الحكم من بعده لابنه يزيد مخالفة واضحة لمنهج الإسلام في الحكم، ومع ذلك فإنه لم يهتم بالخروج على معاوية، نظراً لمبايعته له بالخلافة، فظل على عهده والتزامه[3]. ولكن بعد وفاة معاوية تغير الموقف، فالحسين لم يعد في عنقه بيعة توجب عليه السمع والطاعة، ويدل على ذلك محاولة والي المدينة الوليد بن عتبة أخذ البيعة من الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وخروجهما بعد ذلك إلى مكة دون أن يأخذ بيعتهما[4].

إن موقف الحسين وفتواه ضد الحكم الأموي مرت بمرحلتين:

الأولى: مرحلة عدم البيعة ليزيد، وذهابه إلى مكة، وهذه المرحلة أسس فيها الحسين موقفه السياسي من حكم يزيد، بناء على نظرته الشرعية لحكم بني أمية، فهو يرى عدم جواز البيعة ليزيد، وذلك لسببين: فعلى الصعيد الشخصي فإن يزيد لا يصلح خليفة للمسلمين نظراً لانعدام توفر شرط العدالة فيه[5]، كما أن الحسين أفضل وأحق منه بمنصب الخلافة، فهو أكثر منه علماً، وصلاحاً وكفاءة، وأكثر قبولاً لدى الناس من يزيد، أما الصعيد السياسي فلانعدام شرط الشورى، والاستئثار بالسلطة للحكم الأموي، والذي يخالف المنهج الإسلامي في الحكم. ولم يغب عن الحسين رضي الله عنه قول النبي ﷺ: **«من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»**[6]، ولكن فهمه لهذاالحديث أنه في حق من كان صالحاً للخلافة وأهلاً لها وكان عن شورى المسلمين[7]. وعدم مبايعة الحسين ليزيد كانت تعني عدم إعطاء الشرعية للحكم الأموي، وهو أمر كان الأمويين يحرصون عليه أشد الحرص، وقد كتب يزيد إلى واليه في المدينة بأخذ البيعة من الحسين وابن عمر وابن الزبير، وأن يأخذهم بالشدة حتى يبايعوا[8]،

---

(1) مواقف المعارضة، ص: 240.
(2) الصواعق المرسلة (2/ 299).
(3) أنساب الأشراف (3/ 152)، مواقف المعارضة، ص: 180.
(4) مواقف المعارضة، ص: 180.
(5) الفقهاء والخلفاء، سلطان حثيلين، ص: 21.
(6) مسلم رقم (1851).
(7) الفقهاء والخلفاء، ص: 22.
(8) تاريخ الطبري (6/ 259).

وفي نفس الوقت فإن عدم البيعة يسهل له حرية العمل السياسي واتخاذ القرار الذي يراه مناسباً لمقاومة الحكم الأموي.

المرحلة الثانية: وهي مرحلة العمل على مقاومة الحكم الأموي وطرح نفسه بديلاً للسلطة الأموية في دمشق، وهو ما يعبر عنها الفقهاء بالخروج على الإمام. وهنا لابد من الإشارة إلى أن الحسين قد مكث في مكة بضعة أشهر قبل خروجه إلى العراق، فقد قدم إلى مكة في الثالث من شعبان سنة 60هـ للهجرة، وخرج إلى العراق في الثامن من ذي الحجة من نفس السنة[1]. وفي هذه الفترة كان رضي الله عنه يراسل أهل العراق، وتقدم إليه الوفود، حتى رأى أنه لابد من مقاومة الظلم وإزالة المنكر وأن هذا أمر واجب عليه، وكانت شيعته بالعراق على اتصال به وتمت بينهم مراسلات[2]، وقد وصل الحسين بن علي إلى قناعة راسخة وبنى قراره السياسي على فتوى اقتنع بها في مقاومته للحكم الأموي، فهو يرى أن بني أمية لم يلتزموا حدود الله في الحكم، وخالفوا منهج رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين، وبنى الحسين رضي الله عنه فتواه بتسلسل منطقي شرعي، فاستبداد بني أمية، والشك في كفاءة وعدالة يزيد، توجب عدم البيعة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على علماء الأمة، ومن أكبر المنكر حكم بني أمية واستبدادهم، وبما أن الحسين ليس في عنقه بيعة، وهو أحد علماء الأمة وسادتها، فهو أحق الناس بتغيير هذا المنكر، وعلى ذلك فليس موقفه خروجاً على الإمام، بل هو تغيير المنكر، ومقاومة للباطل، وإعادة الحكم إلى مساره الإسلامي الصحيح[3]، ومما يدل على حرص الحسين رضي الله عنه على أن تكون فتواه وتحركاته السياسية في مقاومته للحكم الأموي متماشية مع تعاليم الإسلام وقواعده، امتناعه عن البقاء في مكة عندما عزم على مقاومة يزيد حتى لا تستحل حرمتها وتكون مسرحاً للقتال وسفك الدماء، فيقول لابن عباس: لأن أقتل بمكان كذا وكذا أحب إليّ من أن أقتل بمكة وتستحل بي[4].

ثالثاً: عزم الحسين على الخروج إلى الكوفة ونصائح الصحابة والتابعين ورأيهم في خروج الحسين إلى الكوفة:

1 - عزم الحسين على الخروج إلى الكوفة:

بعد توافد الرسائل من زعماء الكوفة على الحسين رضي الله عنه والتي تطلب منه المسارعة في القدوم إليهم، ولما كان العدد مشجعاً أراد أن يطلع على حقيقة الأمر، فبعث ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب ليستجلي له حقيقة الخبر، ثم يكتب إليه بواقع الحال، فإن كان ما يقولون

---

(1) تاريخ الطبري (6/ 304)، البداية والنهاية (11/ 494).

(2) تاريخ الطبري (6/ 273، 274).

(3) الفقهاء والخلفاء، ص: 23.

(4) تاريخ الطبري، نقلاً عن الفقهاء والخلفاء، ص: 25.

حقاً قدم عليهم[1]، خرج مسلم بن عقيل بصحبة عبد الرحمٰن بن عبد الله الأرحبي، وقيس بن مسهر الصيداوي، وعمارة بن عبيد السلولي، فلما وصل مسلم المدينة أخذ معه دليلين، وفي الطريق إلى الكوفة تاهوا في البرية ومات أحد الدليلين عطشاً، وكتب مسلم إلى الحسين يستعفيه، وذلك بسبب إحساسه النفسي لمدى الصعوبات التي تنتظره في الكوفة، ولكن الحسين رفض طلبه، وأمره بمواصلة المسير نحو الكوفة[2]، ولما وصل مسلم بن عقيل إلى الكوفة نزل عند المختار بن أبي عبيد[3] في أول قدومه، فلما جاء ابن زياد وتولى إمارة الكوفة، وأخذ يشدد على الناس، انتقل مسلم عند هانئ بن عروة وذلك خشية انكشاف أمره ثم لمكانة هانئ وأهميته كأحد أعيان الكوفة، ولما بدا الشك يساور ابن زياد من هانئ بن عروة خشي مسلم بن عقيل على نفسه، وانتقل أخيراً ولفترة قصيرة جداً عند مسلم بن عوسجة الأسدي أحد دعاة الشيعة[4]، ولما بلغ أهل الكوفة قدوم مسلم بن عقيل قدموا إليه فبايعه اثنا عشر ألف[5]، وتمت تلك المبايعة بصورة سرية مع تحرص شديد، ولما تأكد لمسلم بن عقيل رغبة أهل الكوفة في الحسين وقدومه إليهم كتب إلى الحسين.

أما بعد، فإن الرائد لا يكذب أهله، إن جميع أهل الكوفة معك فأقبل حين تنظر في كتابي[6].

وهنا تأكد للحسين صدق نوايا أهل الكوفة وأنه ليس عليهم إمام كما ذكروا من قبل[7]، فلا بد في هذه الحالة أن يفي لهم بما وعدهم به، حين كتب إلى أهل الكوفة:

وقد بعثت إليكم أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي، وأمرته أن يكتب إلي بحالكم وأمركم ورأيكم، فإذا كتب إلي أنه قد أجمع رأي ملئكم وذوي الفضل والحجى منكم على مثل ما قدمت به رسلكم وقرأته في كتبكم، أقدم عليكم إن شاء الله[8].

فلما وصل إلى الحسن بن علي كتاب مسلم بن عقيل والذي طلب منه القدوم إلى الكوفة وأن الأمر مهيأ لقدومه، تجهز الحسين بن علي وعزم على المضي إلى الكوفة بأهله وخاصته[9].

2 - مواقف الصحابة والتابعين من خروج الحسين:

أ ـ محمد ابن الحنفية: لما بلغ محمد ابن الحنفية عزم أخيه الحسين على الخروج إلى الكوفة قدم عليه وقال: يا أخي أنت أحب الناس إلي، وأعزهم علي، ولست أدخر النصيحة

---

(1) تاريخ الطبري (6/ 267).
(2) تاريخ الطبري (6/ 267).
(3) تاريخ الطبري (6/ 276).
(4) تاريخ الطبري (6/ 283، 284).
(5) تهذيب الكمال (2/ 301) مواقف المعارضة، ص: 232.
(6) أنساب الأشراف (3/ 167).
(7) تاريخ الطبري (6/ 272).
(8) المصدر نفسه (6/ 274).
(9) المصدر نفسه (6/ 305).

لأحد من الخلق أحق بها منك، تنح ببيعتك عن يزيد بن معاوية وعن الأمصار ما استطعت، ثم ابعث رسلك إلى الناس فادعهم إلى نفسك، فإن بايعوا لك حمدنا الله على ذلك، وإن أجمع الناس على غيرك لم ينقص الله بذلك دينك ولا عقلك، ويذهب به مروءتك ولا فضلك أني أخاف أن تدخل مصراً من هذه الأمصار وتأتي جماعة من الناس فيختلفون بينهم، فمنهم طائفة معك، وأخرى عليك فيقتتلون فتكون لأول الأسنة، فإذا خير هذه الأمة كلها نفساً، وأباً، وأماً، أضيعها دماً، وأذلها أهلاً، فقال الحسين: فإني ذاهب يا أخي، قال: فانزل مكة فإذا أطمأنت بك الدار فسبيل ذلك، وإن نبت بك لحقت بالرمال وشعف الجبال، وخرجت من بلد إلى بلد حتى تنتظر إلى ما يصير أمر الناس وتعرف عند ذلك الرأي فإنك أصوب ما تكون رأياً وأحزمه عملاً حين تستقبل الأمور استقبالاً، ولا تكون الأمور عليك أبداً أشكل منها حين تستدبرها استدباراً، قال: يا أخي قد نصحت فأشفقت وأرجو أن يكون رأيك سديداً[1]. وجاء في رواية: . . فإن الحسين حين عزم على الخروج بعث إلى بني عبد المطلب في المدينة يدعوهم للخروج معه، فقدم عليه من خف منهم، وتبعهم محمد ابن الحنفية فأدرك الحسين بمكة فأعلمه أن الخروج ليس له برأي يومه هذا، فأبى الحسين أن يقبل في نفسه على أخيه محمد وقال: ترغب بولدك عن موضع أصاب فيه؟ فقال محمد: وما حاجتي أن تصاب ويصابون معك، وإن كانت مصيبتك أعظم عندنا منهم[2].

ب ـ عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: ولما بلغ خبر عزمه على الخروج إلى ابن عمه عبد الله بن عباس أتاه وقال: يا ابن عم إنه قد أرجف الناس أنك سائر إلى العراق، فبيّن لي ما أنت صانع؟ قال: قد أجمعت المسير في أحد يومي هذين إن شاء الله تعالى، فقال له ابن عباس: أخبرني إن كان عدوك بعد ما قتلوا أميرهم ونفوا عدوهم وضبطوا بلادهم فسر إليهم، وإن كان أميرهم حي وهو مقيم عليهم، قاهر لهم وعماله تجبي بلادهم فإنهم إنما دعوك للفتنة والقتال، ولا آمن عليك أن يستفزوا عليك الناس ويقلبوا قلوبهم عليك، فيكون الذي دعوك أشد الناس عليك. فقال الحسين: إني أستخير الله وأنظر ما يكون. ولكن ابن عباس أدرك من كلام الحسين واستعداده أنه عازم على الخروج ولكنه يحاول إخفاء الأمر عنه لعلمه بعدم رضاه عن ذلك، لذا جاء ابن عباس إلى الحسين من الغد فقال: يا ابن عم إني أتصبر ولا أصبر، وإني أتخوف عليك في هذا الوجه الهلاك، أن أهل العراق قوم غدر فلا تغترن بهم، أقم في هذا البلد حتى ينفي أهل العراق عدوهم ثم اقدم عليهم، وإلا فسر إلى اليمن فإن به حصوناً وشعاباً، ولأبيك به شيعة، وكن عن الناس بمعزل، واكتب إليهم وبث دعاتك فيهم، فإني أرجو إذا فعلت ذلك أن يكون ما تحب. فقال الحسين: يا ابن عم! والله إني لأعلم أنك ناصح شفيق، ولكني قد أزمعت المسير. فقال له: فإن كنت ولا بد سائراً فلا تسر بأولادك ونسائك،

---

(1) أنساب الأشراف (4/ 15 - 16).

(2) الطبقات (1/ 451) تحقيق السُّلمي.

فوالله إني لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ونساؤه وولده ينظرون إليه، إلى أن قال: فوالله الذي لا إله إلا هو لو أعلم أنك إذا أخذت بشعرك وناصيتك حتى يجتمع علي وعليك الناس أطعتني وأقمت لفعلت ذلك[1]. وهكذا نجد أن محاولات ابن عباس لم تجد في إقناع الحسين على الرغم من أنه أظهر له ـ لما علم تصميمه على عدم رضاه بيزيد وضرورة العمل على تغييره ـ أنه لا يقف عند فكرة الحسين تماماً، ولكنه يوضح له عوامل فشل ما هو سائر لتحقيقه، ويطرح له البدائل التي ربما تكون أقرب لتحقيق ما يصبو إليه، وذلك بالانتظار حتى يقوم أهل العراق بالسيطرة التامة على إقليمهم ويحرروه من سلطان بني أمية وهو يدرك أنهم عاجزون عن ذلك، فبالتالي هم عاجزون عن حماية الحسين أو أن يذهب إلى اليمن ويعمل بما أرشده إليه، فإن عوامل النجاح فيه أكثر وعوامل الفشل فيه أقل من رحيله إلى العراق، ولعل ابن عباس قد لا يريد للحسين لا هذا ولا ذاك ولكن أراد تأخير الحسين عن اتخاذ تلك الخطوة السريعة بخروجه إلى العراق والتي لا ينفع معها تدارك الأمر، أما لو اقتنع برأي ابن عباس من الانتظار حتى يتهيأ له الأمر في العراق، أو يعدل عنه إلى اليمن وهذا سيأخذ وقتاً طويلاً لترتيب الأمور هناك، وبهذا أو ذاك فإنه يمكن أن يكون لعامل الوقت أثر في حل الوضع وإطفاء الفتنة[2]. ويفهم من كلام ابن عباس بأنه لا يخالف الحسين في خروجه على يزيد من الناحية الشرعية، ولكن كان يخالفه من الناحية الاستراتيجية فكان يرى ألا يخرج الحسين للعراق حتى يتأكد من قوة شيعته وأنصاره هناك، وأن الأمويين لم يعد لهم نفوذ، وإلا فإن اليمن بعيدة عن النفوذ الأموي وله فيها أنصار، وبها أماكن كثيرة للتخفي، حتى يتمكن من جمع القوى الكافية لمقاومة الأمويين[3].

ج ـ عبد الله بن عمر ﵄: فقد نصح الحسين ﵁ في أكثر من موقف، فحين بلغه خروج ابن الزبير والحسين إلى مكة رافضين بيعة يزيد لقيهما وقال: أذكركما الله إلا رجعتما فدخلتما في صالح ما يدخل فيه الناس وتنظران، فإن اجتمع عليه الناس لم تشذا، وإن افترق عليه كان الذي تريدان[4]، ولما قدم المدينة وبلغه خروج الحسين لأهل الكوفة لحقه ابن عمر على مسيرة ليلتين فقال: أين تريد؟ قال: العراق، ومعه طوامير وكتب، فقال: لا تأتهم قال: هذه كتبهم وبيعتهم. فقال: إن الله خير نبيه بين الدنيا والآخرة، فاختار الآخرة، وإنكم بضعة منه، لا يليها أحد منكم أبداً، وما صرفها الله عنكم إلا للذي هو خير لكم، فارجعوا فأبى، فاعتنقه ابن عمر، وقال: أستودعك الله من قتيل[5]. وكان ابن عمر يقول بعد ذلك: غلبنا الحسين بن علي بالخروج، ولعمري لقد رأى في أبيه وأخيه عبرة، ورأى من الفتنة وخذلان الناس لهم ما كان

---

(1) الكامل في التاريخ (2/ 546).
(2) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص: 475.
(3) الفقهاء والخلفاء، ص: 25.
(4) الطبقات الكبرى، تحقيق السلمي (1/ 444).
(5) سير أعلام النبلاء (3/ 292).

ينبغي له ألا يتحرك ما عاش وأن يدخل في صالح ما دخل فيه الناس، فإن الجماعة خير[1].

ج ـ عبد الله بن الزبير ﷺ: اتهمته بعض الروايات الضعيفة أنه أحد المتسببين في إقناع الحسين بالخروج إلى الكوفة وهو نفسه ثبت عنه بأنه قد أسدى النصائح للحسين، وحذره من مغبة مغادرة مكة والذهاب إلى الكوفة وقد نصح الحسين قائلاً: أين تذهب إلى قوم قتلوا أباك وطعنوا أخاك، فقال له الحسين: لئن أقتل بمكان كذا وكذا أحب إلي من أن تستحل بي ـ يعني مكة[2]. . .

وقد نظر بعض الصحابة إلى العمل الذي سيقدم عليه الحسين بأنه في حقيقته خروج على الإمام صاحب البيعة، كما نظروا إلى خروج الحسين وما يحمله خروجه على أنه نذر شر وبلاء على الأمة مهما كانت النتائج لأي من الطرفين[3] منهم:

د ـ أبو سعيد الخدري ﷺ: حيث قال: غلبني الحسين على الخروج وقد قلت له: اتق الله في نفسك والزم بيتك، ولا تخرج على إمامك[4].

هـ ـ وقال جابر بن عبد الله ﷺ: كلمت حسيناً فقلت له: اتق الله ولا تضرب الناس بعضهم ببعض، فوالله ما حمدتم ما صنعتم فعصاني[5] ولم تتوقف المحاولات الهادفة بين الحسين وبين خروجه إلى الكوفة فكتب إليه ابن جعفر:

و ـ عبد الله بن جعفر ﷺ: كتب إلى الحسين وأرسل كتابه مع ابنيه محمد وعون: أما بعد، فإني أسألك بالله لما انصرفت حين تنظر في كتابي، فإني مشفق عليك من الوجه التي توجهت له أن يكون فيه هلاكك واستئصال أهل بيتك[6]، ولكن الحسين رفض الرجوع وهنا ظن عبد الله بن جعفر أن سبب خروج الحسين هو خوفه من الوالي عمرو بن سعيد بن العاص، فذهب إلى عمرو بن سعيد بن العاص وطلب منه أن يكتب كتاباً إلى الحسين يؤمنه فيه ويعده بالخير، وكان رد عمرو بن سعيد أن قال لعبد الله بن جعفر: اكتب ما شئت وائت به أختمه[7]. فكتب ابن جعفر «بسم الله الرحمٰن الرحيم، من عمرو بن سعيد إلى الحسين بن علي، أما بعد، فإني أسأل الله أن يصرفك عما يوبقك، وأن يهديك لما يرشدك، بلغني أنك قد توجهت إلى العراق، وإني أعيذك بالله من الشقاق، فإني أخاف عليك فيه الهلاك، وقد بعثت إليك عبد الله ابن جعفر، ويحيى بن سعيد، فأقبل إليّ معهما، فإن لك عندي الأمان والبر والصلة وحسن الجوار لك، والله بذلك شهيد وكفيل، ومراع ووكيل، والسلام عليك[8]، ولكن الحسين ﷺ رفض هذا الرجاء أيضاً وواصل مسيره.

---

(1) مختصر تاريخ دمشق (7/ 138).
(2) مصنف ابن أبي شيبة (15/ 95) بسند حسن.
(3) مواقف المعارضة في خلافة يزيد، ص: 236.
(4) تهذيب الكمال (6/ 461)، الطبقات (1/ 445) تحقيق السلمي.
(5) الطبقات الكبرى (1/ 445) تحقيق السُلمي.
(6) تاريخ الطبري (6/ 311).
(7) المصدر نفسه (6/ 311).
(8) المصدر نفسه (6/ 312).

ز ـ أبو واقد الليثي ﷺ : فقد روي عنه أنّه قال: بلغني خروج الحسين، فأدركته بملل، فناشدته الله ألا يخرج، فإنّه يخرج في غير وجه خروج، إنما يقتل نفسه، فقال: لا أرجع[1].

د ـ عمرة بنت عبد الرحمٰن: فقد كتبت إليه تعظّم عليه ما يريد أن يصنع، وتأمره بالطاعة ولزوم الجماعة، وتخبره أنّه إنّما يساق إلى مصرعه[2].

ح ـ أبو بكر بن عبد الرحمٰن بن الحارث: يا ابن عَمِّ إن الرحم تظأرني[3] عليك وما أدري كيف أنا عندك في النصيحة لك؟ قال: يا أبا بكر ما أنت ممن يُستغشُّ ولا يُتَّهمُ، فقل. قال: قد رأيت ما صنع أهل العراق بأبيك وأخيك، وأنت تريد أن تسير إليهم وهم عبيد الدنيا، فيُقاتلك من قد وعدك أن ينصرك، ويخذلك من أنت أحب إليه ممن ينصره فأذكِّرك الله في نفسك. فقال: جزاك الله يا ابن عمٍّ خيراً، ومهما يقضى الله من أمر يكن. فقال أبو بكر: إنا لله، عند الله نحتسب أبا عبد الله[4].

ط ـ عبد الله بن مطيع فقد قال: إني فداك أبي وأمي! متعنا بنفسك، ولا تسر إلى العراق، فوالله لئن قتلك هؤلاء القوم ليتخذونا خولاً وعبيداً[5].

ي ـ سعيد بن المسيب: فقد نقل عنه الذهبي أنه قال: لو أن الحسين لم يخرج لكان خيراً له[6].

ك ـ عمرو بن سعيد بن العاص: فقد كتب إليه يقول: إني أسأل الله أن يلهمك رشدك وأن يصرفك عمّا يرديك، بلغني أنك قد اعتزمت على الشخوص إلى العراق، فإني أعيذك بالله من الشّقاق[7].

ل ـ الفرزدق: فقد لقيه بالصّفاح[8]، فسأله الحسين عمّا وراءه فقال: أنت أحب النّاس إلى النّاس، والقضاء في السماء، والسيوف مع بني أمية[9]. وفي خبر آخر قال أنّه قال: قلت له: يخذلونك، لا تذهب إليهم فلم يطعني[10].

هذه أقوال الصّحابة والتّابعين في موقفهم من خروج الحسين، وهذه فلسفتهم في هذه القضية الهامّة، فهم لم يبايعوا يزيد لأنّهم يرونه أفضل من غيره من الصّحابة والتّابعين، ولكنهم فعلوا ذلك درءاً لمفسدة التّفرق والاختلاف بين المسلمين، ودليل ذلك ما رواه خليفة بن خياط

(1) مختصر تاريخ دمشق (7/ 139).
(2) المصدر نفسه (7/ 140).
(3) تظأرني : تعطفني عليك.
(4) البداية والنهاية (11/ 504).
(5) مختصر تاريخ دمشق (7/ 139).
(6) سير أعلام النبلاء (3/ 296).
(7) تاريخ دمشق (14/ 209) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص: 212.
(8) موضع بين حنين وأنصاب الحرم، على يسرة الدّاخل إلى مكة من مشاش.
(9) مختصر تاريخ دمشق (7/ 144).
(10) تاريخ دمشق (14/ 214).

وابن سعد، عن داود بن عبد الله الأودي، عن حميد بن عبد الرحمٰن قال: دخلنا على رجل من أصحاب رسول الله ﷺ، حين استخلف يزيد بن معاوية، فقال: أتقولون أن يزيد ليس بخير أمة محمد، لا أفقه منها فقهاً، ولا أعظمها فيها شرفاً؟ قلنا: نعم. قال: وأنا أقول ذلك، ولكن ـ والله ـ لأن تجتمع أمة محمد أحب إليَّ من أن تفترق، أرأيتم باباً لو دخل فيه أمة محمد وسعهم، أكان يعجز عن رجل واحد لو دخل فيه؟ قلنا: لا. قال: أرأيتم لو أن أمّة محمد قال كل رجل منهم: لا أهريق دم أخي، ولا آخذ ماله، أكان هذا يسعهم؟ قلنا: نعم. قال: فذلك ما أقول لكم[1]، ومن الملاحظ إجماع كل من نصح الحسين ـ حتى من لم ير بأساً برفضه البيعة ـ على أن لا يخرج للعراق ولا يثق في أهل الكوفة، فقد كتب إليه المسور بن مخرمة ﷺ بأن لا يغتر بكتب أهل العراق، ونصحه بأن لا يبرح الحرم فإن كانت لهم حاجة فسيضربون إليه آباط الإبل حتى يوافوه فيخرج في قوة وعدة[2]. ومما يلفت الانتباه ـ زيادة على إجماع الناصحين للحسين على خيانة أهل الكوفة ووجوب عدم الثقة بوعودهم ـ كذلك يلفت الانتباه إجماعهم في توقعهم لمقتل الحسين كما يبدو ذلك من أسفهم عليه وكلمات التوديع له. وما ذلك إلا دليل على معرفة أولئك الناصحين من العلماء بالأوضاع، ووعيهم لما سبق من أحداث جرت إبان الفتنة بين علي ومعاوية عرفوا من خلالها الدوافع والأهواء التي تدفع ببعض الأقوام للاستفادة من إثارة الإحن ودوام الفتن[3].

رابعاً: موقف يزيد من أحداث الكوفة:

لما تأكد ليزيد تصميم الحسين على الاستجابة لدعوة أهل الكوفة، كتب لابن عباس ـ لأنه شيخ بني هاشم في عصره وعالم المسلمين ـ قائلاً: ونحسب أن رجالاً أتوه من المشرق فمنّوه الخلافة، فإنهم عندك منهم خبرة وتجربة، فإن كان فعل فقد قطع وشائج القرابة وأنت كبير أهل بيتك والمنظور إليه، فاكففه عن السعي في الفرقة[4] ثم كتب بهذه الأبيات إليه وإلى مكة والمدينة من قريش:

يا أيها الراكب الغادي لطيته ... على عُذَافِرةٍ في سيرها قحم

أبلغ قريشاً على نأي المزار بها ... بيني وبين حسين الله والرحم

إلى أن قال:

يا قومنا لا تشبوا الحرب إذ خمدت ... وأمسكوا بحبال السلم واعتصموا

---

(1) الطبقات (7/ 147)، تاريخ خليفة، ص: 164.

(2) مختصر تاريخ دمشق (7/ 140).

(3) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 481.

(4) تهذيب الكمال (6/ 419) مواقف المعارضة، ص: 243.

لا تركبوا البغي إن البغي مصرعه وإن شارب كأس البغي يتخم
فقد غرّت الحرب من كان قبلكم من القرون وقد بادت بها الأمم
فأنصفوا قومكم لا تهلكوا بذخاً قرب ذي بذخ زلت به القدم[1]

فكتب إليه ابن عباس: إني لأرجو أن لا يكون خروج الحسين لأمر تكرهه، ولست أدع النصيحة له في كل ما يجمع الله به الألفة وتطفي بها الثائرة[2].

وفي تلك الأثناء كانت الأحداث تتسارع، وذلك بعدما أخذ الشيعة يختلفون على مسلم بن عقيل ويبايعونه، وعندما أحس النعمان بن بشير الأنصاري والي الكوفة بخطورة الوضع قام فخطب في الناس وقال: اتقوا الله عباد الله ولا تسارعوا إلى الفتنة والفرقة فإن فيها يهلك الرجال، وتسفك الدماء وتغصب الأموال وقال: إني لم أقتل من لم يقاتلني ، ولا أثب على من لا يثب علي، لا أشاتمكم ولا أتحرش بكم، ولا آخذ بالقرف ولا الظنة والتهمة، ولكن إن أبديتم صفحتكم لي، ونكثتم بيعتكم، وخالفتم إمامكم، فوالله الذي لا إله غيره لأضربنكم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي ولو لم يكن لي منكم ناصر، أما إني أرجو أن يكون من يعرف الحق منكم أكثر ممن يرديه الباطل[3].

وأشارت سياسة النعمان بن بشير رضي الله عنه مع أنصار الحسين حفيظة الناصحين للأمويين، وأحد الموالين لهم في الكوفة وهو عبد الله بن مسلم بن سعيد الحضرمي، حليف بني أمية، فقام إلى النعمان بن بشير وبين له أن طريقته هذه إنما هي طريقة المستضعفين وأنه يجب عليه أن ينهج سياسة البطش والقوة حيال المتربصين بأمن الكوفة، ولكن رد النعمان بن بشير رضي الله عنه كان واضحاً بأنه يراقب الله في سياسته[4].

ولم تعجب يزيد سياسة النعمان فعزله من ولاية الكوفة وعين بدله عبيد الله بن زياد وكتب إليه: إن شيعتي من أهل الكوفة كتبوا إليّ يخبروني أن ابن عقيل بالكوفة يجمع الجموع ليشق عصا المسلمين، فسرّ حين تقرأ كتابي هذا حتى تأتي أهل الكوفة فتطلب ابن عقيل كطلب الخرزة، حتى تثقفه فتوثقه أو تقتله أو تنفيه والسلام[5]، وغادر ابن زياد البصرة بعد أن اتخذ عدة احتياطات خوفاً من حدوث اضطرابات وأناب عنه أخوه عثمان بن زياد على البصرة[6] ثم خرج من البصرة ومعه وجوه أهل البصرة أمثال مسلم بن عمرو الباهلي، وشريك بن الأعور الحارثي وحشمه وأهل بيته[7]. وأقبل ابن زياد إلى الكوفة ودخلها متلثماً والناس قد بلغهم

---

(1) البداية والنهاية (11/ 505).
(2) سير أعلام النبلاء (3/ 304) مواقف المعارضة، ص: 344.
(3) تاريخ الطبري (6/ 277).
(4) المصدر نفسه (6/ 277).
(5) المصدر نفسه (6/ 278).
(6) المصدر نفسه (6/ 279).
(7) المصدر نفسه.

إقبال الحسين إليهم، فهم ينظرون قدومه، فظنوا حين قدم عبيد الله أنه الحسين بن علي، فأخذ لا يمر على جماعة من الناس إلا سلموا عليه وقالوا: مرحباً بك يا ابن رسول الله، قدمت خير مقدم، فلما أكثروا عليه صاح فيهم مسلم بن عمرو وقال: تأخروا هذا الأمير عبيد الله بن زياد فلما نزل في القصر نودي: الصلاة جامعة فاجتمع الناس فخرج إليهم ثم خطبهم ووعد من أطاع منهم خيراً وتوعد من خالف وحاول الفتنة منهم شراً[1].

خامساً: عبيد الله بن زياد وخطواته للقضاء على مسلم بن عقيل وأنصاره:

1 - اختراق تنظيم مسلم بن عقيل:

حرص عبيد الله بن زياد على جمع المعلومات بواسطة جواسيسه على الفئات المعارضة واستطاع أن يخترق أتباع مسلم بن عقيل وقد كلّف أحد رجاله بهذه المهمة فأعطاه مبلغاً من المال وكان الرجل من أهل الشام يقال له معقلاً وكان مقدار المبلغ ثلاثة آلاف درهم وقال: خذ هذا المال، وانطلق فالتمس مسلم بن عقيل، وتأتّ له بغاية التأتي[2]، فانطلق الرجل حتى دخل المسجد الأعظم، ثم نظر إلى رجل يكثر الصلاة إلى سارية من سواري المسجد، فجلس الرجل حتى إذا انفتل[3] من صلاته، فدنا منه وجلس، فقال: جعلت فداك إني رجل من أهل الشام مولى لذي الكلاع، وقد أنعم الله علي بحب أهل بيت رسول الله ﷺ وحب من أحبهم، ومعي هذه الثلاثة الآلاف درهم، أحب إيصالها إلى رجل منهم، بلغني أنه قدم هذا المصر داعية للحسين بن علي، فهل تدلني عليه لأوصل هذا المال إليه؟ ليستعين به على بعض أموره ويضعه حيث أحب من شيعته قال له الرجل: وكيف قصدتني بالسؤال عن ذلك دون غيري ممن هو في المسجد قال: لأني رأيت عليك سيما[4] الخير فرجوت أن تكون ممن يتولى أهل بيت رسول الله ﷺ. قال له الرجل: ويحك قد وقعت عليّ بعينك، أنا رجل من إخوانك، واسمي مسلم بن عوسجة، وقد سُررت بك وساءني ما كان من حسي قبلك فإني رجل من شيعة أهل هذا البيت، خوفاً من هذا الطاغية ابن زياد، فأعطني ذمة الله وعهده أن تكتم هذا عن جميع الناس فأعطاه من ذلك ما أراد، واستطاع الشامي في نهاية المطاف الوصول إلى مسلم بن عقيل، فكان يغدو إلى مسلم بن عقيل فلا يحجب[5] عنه، فيكون نهاره كله عنده فيتعرّف جميع أخبارهم، فإذا أمسى وأظلم عليه الليل دخل على عبيد الله بن زياد، فأخبره بجميع قصصهم، وما قالوا وما فعلوا في ذلك، وأعلمه نزول مسلم بن عقيل في دار هاني بن عروة[6]. وهكذا استطاع ابن زياد أن يعرف أخبار مسلم بن عقيل وتحركاته[7].

---

(1) تاريخ الطبري (6/ 280).
(2) التأتي: التهيّؤ والتسهل.
(3) انفتل من الصلاة: لوى وجهه أي ختم صلاته.
(4) سيما الخير: سمته وعلامته.
(5) حجب عنه: منع من رؤيته.
(6) الأخبار الطوال، ص: 218، تاريخ الطبري (6/ 284).
(7) تاريخ الطبري (6/ 284).

2 - سجن هانيء بن عروة:

كان محمد بن الأشعث وأسماء بن خارجة يدخلون على ابن زياد مُسَلّمين، فقال لهما: ما فعل هانيء بن عروة؟ فقالا أيها الأمير، إنه عليل[1] منذ أيام فقال ابن زياد: وكيف. بلغني أنه يجلس على باب داره عامّة نهاره، فما يمنعه من إتياننا وما يجب عليه في حق التسليم؟ قالا: سنعلمه ذلك، ونخبره باستبطائك إياه فخرجا من عنده، وأقبلا حتى دخل على هانيء بن عُروة، فأخبراه بما قال لهما ابن زياد، وما قالا له، ثم قالا له: اقسمنا عليك إلاّ قمت معنا إليه الساعة لتَسُلُ سخيمة[2] قلبه. فدعا ببغلته فركبها ومضى معهما، حتى إذا دنا من قصر الإمارة خبُثت[3] نفسه فقال لهما: إن قلبي قد أوجس[4] من هذا الرجل خيفة. قالا: ولم تحدث نفسك بالخوف وأنت بريء الساحة؟

فمضى معهما حتى دخلوا على ابن زياد، فأنشأ ابن زياد يقول متمثلاً:

أريد حياته ويريد قتلي عَذِيرَك من خَلِيلِكَ من مراد

قال: هانيء وما ذاك أيها الأمير؟

قال ابن زياد: وما يكون أعظم من مجيئك بمسلم بن عقيل وإدخالك إياه منزلك، وجمعك له الرجال ليبايعوه؟ فقال هانيء: ما فعلت وما أعرف من هذا شيئاً فدعا ابن زياد بالشامي، وقال: يا غلام، ادع لي معقلاً. فدخل عليهم. فقال: ابن زياد لهانيء بن عروة: أتعرف هذا؟ فلما رآه علم أنه إنما كان عيناً عليهم. فقال هانيء: أصدُقُك والله أيها الأمير، وإني والله ما دعوت مسلم بن عقيل وما شعرت به، ثم قصّ عليه قصّته على وجهها. ثم قال: فأمّا الآن فأنا مخرجه من داري لينطلق حيث يشاء، وأعطيك عهد وثيقاً أن أرجع إليك. قال ابن زياد، لا والله لا تفارقني حتى تأتيني به. فقال هانيء: أو يجمل بي أن أسلم ضيفي وجاري للقتل والله لا أفعل ذلك أبداً. فاعترضه ابن زياد بالخيزرانة، فضرب وجهه، وهشم[5] أنفه، ، وكسر حاجبه، وأمر به فأدخل بيتاً[6]. فبلغ الخبر عمرو بن الحجاج الزبيدي أن هانئاً قد قتل، فأقبل في قبيلة مذجح، وأحاط بالقصر، ونادى بأنه لم يخلع الطاعة، وإنما أراد الاطمئنان إلى سلامة هانيء، فأمر ابن زياد القاضي شريح بأن يدخل على هانيء، وينظر إليه ويخبرهم أنه حي. ففعل[7]. فقال لهم سيدهم عمرو بن الحجّاج: أما إذا كان صاحبكم حياً فما يعجلكم الفتنة؟ انصرفوا فانصرف.

---

(1) عليل: مريض.

(2) سخيمة القلب: حقده الدفين.

(3) خبثت: صارت خبيثة، أي رديئة ماكرة.

(4) أوجس خيفة: أحس بالخوف، فزع.

(5) هشم أنفه: حطّمه.

(6) الأخبار الطوال، ص: 219، تاريخ الطبري (6/ 288).

(7) المصدر نفسه، ص: 219.

3 - استخدام ابن زياد للأشراف للقضاء على تمرد الكوفة:

لما بلغ مسلم بن عقيل خبر ضرب وجه هانيء بن عروة، أمر أن ينادي في أصحابه الذين بايعوه، واستخدم كلمة السر وهي: يا منصور أمت، فتنادى أهل الكوفة فاجتمعوا إليه وكان عدد الذين حصروا أربعة آلاف رجل[1]، فعقد مسلم لعبيد الله بن عمرو بن عزيز الكندي على ربع كنده وربيعة، وأمره أن يسير أمامه بالخيل، ثم عقد لمسلم بن عوسجة الأسدي على ربع مذجح وأسد وأمّره على الرجّالة، وعقد لأبي ثمامة الصائدي على ربع تميم وهمدان، وعقد لعباس بن جعدة الجدلي على ربع المدينة، ثم قدم نحو القصر، ولما بلغ ابن زياد إقباله تحرّز وتمنّع بالقصر[2]، وكان ابن زياد يملك قدراً كبيراً من الدهاء والمكر والخداع، حيث أنه بمجرد دخوله القصر جمع وجوه الكوفة واحتفظ بهم عنده حتى يكونوا وسيلة ضغط مهمة عنده ستثمر عن نتائج إيجابية جداً لصالح ابن زياد[3]. وتقدم مسلم بهذه الجموع، صوب قصر الإمارة التي يتحصن بها ابن زياد، وهنا طلب ابن زياد من أشراف الناس وزعماء الكوفة الذين معه أن يعظوا الناس ويخذلوهم ويخوفونهم بقرب أهل الشام وصار هؤلاء الأمراء والزعماء يثبطون الناس، ويذكرونهم بالسلامة والأمن، وأنهم إن لم ينصرفوا سيحرمون من العطاء، وسيساقون إلى الثغور وسينالهم العقاب الشديد[4]، ولم يكن التثبيط مقصوراً على الأمراء فقط، بل إن النساء كان لهن دوراً كبيراً في إضعاف عزيمة المناصرين لمسلم، إضافة إلى الآباء وكبار السن فقد كان لهم نفس الدور. وكانت المرأة تأتي ابنها وأخاها وتقول: انصرف، الناس يكفونك، ويجيء الرجل إلى ابنه وأخيه ويقول غداً يأتيك أهل الشام فما تصنع بالحرب والشر انصرف[5]. وأخذت هذه الحرب النفسية التي جوبه بها المؤيدون لمسلم بن عقيل من التهويل والتخويف تعمل عملها بين صفوف الناس، فبدأوا ينصرفون عن مسلم بن عقيل وأخذ العدد يتضاءل سريعاً حتى أنه لما قرب المساء لم يبقَ مع مسلم بن عقيل إلا عدداً بسيطاً يتراوح بين الثلاثمائة والخمسمائة رجل[6]، وكان غالبية الذين بقوا مع مسلم بن عقيل من مذجح فأمر ابن زياد عبيد الله بن كثير بن شهاب الحارثي أن يخرج فيمن أطاعه من مذجح ويسير بالكوفة ويخذل الناس عن ابن عقيل، ويخوفهم بالحرب وعقوبة السلطان[7]، ثم أمر ابن زياد محمد ابن الأشعث أن يخرج فيمن أطاعه من كندة وحضرموت ويرفع راية الأمان لمن يأته من الناس وقال مثل ذلك للقعقاع بن شور الذهلي، وشبث بن ربعي التميمي وحجار بن أبجر العجلي، وشمر بن ذي الجوشن العامري، وأبقى سائر وجوه الناس معه[8] وأمام هذه الإجراءات

---

(1) تاريخ الطبري (6/ 289).
(2) تاريخ الطبري (6/ 291).
(3) مواقف المعارضة، ص: 255.
(4) تاريخ الطبري (6/ 293).
(5) المصدر نفسه (6/ 293).
(6) المصدر نفسه.
(7) المصدر نفسه (6/ 291).
(8) المصدر نفسه.

السريعة من ابن زياد، وأمام الشد النفسي الذي نازع غالبية من انضموا إلى مسلم ابن عقيل أخذ هذا العدد يتضاءل حتى وصل إلى ستين رجلاً[1]، ثم حدثت معركة بين مسلم وأتباعه وبين ابن الأشعث، والقعقاع بن شور، وثبت بن ربعي عند الرحبة، ويبدو أن هذه المعركة لم تدم طويلاً عندما تنبه القعقاع بن شور إلى أن المقاتلين إنما يقاتلون لأجل النجاة، عند ذلك أمر بإفساح الطريق لهم، فهربوا نحو المسجد، ولما أمسى المساء تفرق الناس، وبقي مسلم بن عقيل وحيداً في طرقات الكوفة[2].

4 - القبض على مسلم بن عقيل وقتله:

أصبح مسلم بن عقيل وحيداً يتردد في طرق الكوفة، فأتى بيتاً فخرجت إليه امرأة، فقال: اسقني، فسقته، ثم دخلت، ومكثت ما شاء الله، ثم خرجت، فإذا به على الباب، فقالت: ياهذا، إن مجلسك مجلس ريبة، فقم، فقال: أنا مسلم بن عقيل، فهل عندك مأوىً؟ قالت: نعم فادخله، وكان ابنها مولى لمحمد بن الأشعث، فانطلق إلى مولاه فأعلمه، فبعث عبيد الله الشُّرَط إلى مسلم، فخرج وسل سيفه، وقاتل فأعطاه ابن الأشعث أماناً فسلّم نفسه[3]، وفي الطريق نحو ابن زياد بكى مسلم فقيل له: إن من يطلب مثل ما تطلب لا يبكي إذا نزل به مثل الذي نزل بك. قال: إني والله ما لنفسي أبكي ومالها من القتل أرثي وإن كنت لم أحب لها طرفة عين تلفاً، ولكني أبكي لأهلي المقبلين إلى الكوفة، أبكي حسيناً وآل الحسين. وأقبل مسلم على محمد بن الأشعث فقال: يا عبد الله، إني والله أراك ستعجز عن أماني، فهل عندك خير تستطيع أن تبعث رجلاً على لساني يبلغ حسيناً عني رسالة؟ فإني لا أراه إلا قد خرج إليكم اليوم أو غداً هو وأهل بيته، وإن ما تراه من جزعي لذلك، فتقول: إن ابن عقيل بعثني إليك وهو في أيدي القوم أسير لا يدري أيصبح أم يمسي حتى يقتل، وهو يقول لك: ارجع بأهلك ولا يغرنك أهل الكوفة، فإنهم أصحاب أبيك الذي كان يتمنى فراقهم بالموت أو القتل، إن أهل الكوفة قد كذبوك وكذبوني وليس لكاذب رأي. فقال محمد بن الأشعث: والله لأفعلن ولأعلمن ابن زياد أني قد أمنتك ودعا ابن الأشعث إياس بن العباس الطائي، وقال له: اذهب فَالقَ حسيناً فأبلغه هذا الكتاب، ثم أعطاه راحلة وتكفل له بالقيام بأهله وداره[4]، وأدخل محمد بن الأشعث مسلم بن عقيل على ابن زياد، وأخبره بما أعطاه من الأمان، فقال ابن زياد: ما بعثناك لتؤمنه ولم يقبل أمانه[5]، واستسقى مسلم وهو بباب القصر، فجاءه عمار بن عقبة بماء بارد، ولكنه لم يستطع أن يشرب لما كان يختلط به من دمه فتركه ودخل على ابن زياد

---

(1) مواقف المعارضة، ص: 257، الطبقات (5/ 374).
(2) تاريخ الطبري (6/ 293).
(3) سير أعلام النبلاء (3/ 308).
(4) البداية والنهاية (11/ 488)، تاريخ الطبري (6/ 297).
(5) تاريخ الطبري (6/ 298).

فقال له: إني قاتلك. قال: كذلك؟ قال: نعم. قال: فدعني أوصي إلى بعض قومي، قال: أوصي: فنظر مسلم في جلسائه وفيهم عمر بن سعد بن أبي وقاص، فقال: عمر، إن بيني وبينك قرابة، ولي إليك حاجة، وهي سر، فقم معي إلى ناحية القصر حتى أقولها لك، فأبى أن يقوم معه حتى أذن له ابن زياد، فقام فتنحى قريباً من ابن زياد، فقال له مسلم: إن علي ديناً في الكوفة سبعمائة درهم، فأقضها عني، واستوهب جثتي من ابن زياد فوارها، وابعث إلى الحسين، فإني كنت قد كتبت إليه أن الناس معه، ولا أراه إلا مقبلاً، فقام عمر، فعرض على ابن زياد ما قال له: فأجاز ذلك كله، وقال: أما حسين فإنه لم يردنا ولا نرده، وإن أرادنا لم نكف عنه ثم أمر ابن زياد بمسلم بن عقيل، فأصعد إلى أعلى القصر، وهو يكبر ويهلل ويسبح ويستغفر ويصلي على ملائكة الله ويقول: اللهمّ أحكم بيننا وبين قوم غرونا وخذلونا، ثم ضرب عنقه رجل يقال له: بكير بن حمران ثم ألقى رأسه إلى أسفل القصر، وأتبع رأسه بجسده[1].

5 - قتل هانيء بن عروة:

واتخذ ابن زياد إجراءً يدل على قسوته وجبروته وظلمه، فقد أمر بهانيء فأخرج إلى السوق وقتل وظل هانيء يصيح لقبيلته مذحج ولكن لم ينصره أحد، ثم صلب هانيء ومسلم في سوق أمام الناس[2]، ثم أمر بضرب أعناق اثنين من الذين كانوا يخططون لنصر مسلم بن عقيل وصلبهما في السوق أيضاً[3]. وكان في وسع ابن زياد أن يرسل مسلم بن عقيل وهانيء بن عروة إلى الخليفة بدمشق، وربما يسجنون أو يعفى عنهم فيما بعد بدلاً من أراقة الدماء وإيجاد الإحن والعداوات بين المسلمين. وقد برهن ابن زياد على بطش الدولة وعسفها وأنها لا تبالي إلا بالحفاظ على سلطانها مهما كلفها ذلك من سفك الدماء ويبدو أن مسلماً ـ رحمه الله ـ لم يكن بالسياسي المحنك الذي ينظر للمستقبل بحذر، ويزن الأمور بميزان الوقائع السابقة ويقيس الأحداث القائمة على نظيراتها الماضية لهذا غرّه تكاثر المبايعين، وبكاؤهم بين يديه ووعودهم الموثقة بنصرة الحسين فأسرع وكتب إلى الحسين يستقدمه، ويحثه على سرعة الحضور فقد تمهدت له البيعة والحضور[4]. فالعواطف وحدها لتكفي في قلب الأنظمة وإزالة الدول، فلا بد من القيادة الراشدة، والتنظيم المحكم، والتخطيط البعيد، وتوثيق الأفراد، والأعداد المعنوي والمادي معاً جنباً إلى جنب، ونستطيع أن نقول بأن ما اعتمد عليه مسلم بن عقيل وهانيء بن عروة من حسابات كانت خاطئة وغير صحيحة، فقد ظن مسلم بن عقيل إن العاطفة المحركة لكثير من العامة هي السبيل الوحيد للنصر ولم يأخذ في الاعتبار تأييد زعماء

---

(1) البداية والنهاية (11/ 490).
(2) المصدر نفسه (11/ 490)، تاريخ الطبري (6/ 302).
(3) تاريخ الطبري (6/ 302).
(4) الأمويون بين الشرق والغرب (1/ 205).

الكوفة أو الاتصال بهم، ولم يحاول مسلم بن عقيل أن ينظم تلك الجموع، وفق اختصاصات معينة تسيطر عليها منظمة سرية تستطيع أن تتحرك في الخفاء وبدون قيود، كما أنه أخفق في توظيف الإمكانات التي توفرت له، حيث أن العاطفة المسيطرة على المجتمع الكوفي كفيلة بأن تقلب الأمور لصالحه وذلك بعد إرادة الله، فيما لو استخدمت وأرشدت تلك العاطفة إرشاداً صحيحاً مميزاً، ونجد الطرف الآخر النصير وهو هانيء بن عروة والذي يعتبر من أبرز الناس الذين أيدوا مسلماً وناصروه اعتمد على قوة وكثرة قبيلته، وظن أنه بمنأى عن العقاب وذلك باعتباره زعيماً لمراد التي ذكر المؤرخون أنه كان يركب في أربعة آلاف دارع وثمانية آلاف راجل، وإذا انضاف لهذه القبيلة أحلافها من كندة بلغ العدد ثلاثين ألف دارع، سوى الرجالة[1]، ولكن حسابات هانيء بن عروة كانت خاسرة، فالناس قد ضعفت بينهم الروابط القديمة التي تعتبر فيها القبيلة محور الارتكاز، وزعيم القبيلة هو القائد المهيمن الذي ينصاع لأوامره الجميع بدون تردد وكان لتقسيمات الأرباع في ولاية زياد بن أبيه أثر في هذا الضعف، كما أن نظام العطاء ربط مصالح القبائل بالسلطة الأموية، لقد كانت الحسابات التي ارتكز عليها هانيء والتي اعتمد فيها على القبيلة قد أثبتت خسارتها[2]، وممّا قيل من الشعر في مقتل مسلم بن عقيل وهانيء بن عروة:

فإن كنتِ لا تدرين ما الموت فانظري ... إلى هانيء في السُّوقِ وابن عقيل
أصابهما أمر الإمام فأصبحا ... أحاديث من يسعى بكل سبيل
إلى بطل قد هَشَّم السيف وجهه ... وآخر يَهوِي من طمار[3] قتيل
ترى جسداً قد غيَّر الموت لونه ... ونضح دمٍ قد سال كلَّ مَسيلِ
فإن أنتم لم تثأروا بأخيكم ... فكونوا بغَيِا أرضيت بقليل[4]

سادساً: وصول خبر مقتل مسلم بن عقيل للحسين، وملاقاته طلائع جيش ابن زياد:

خرج الحسين رضي الله عنه من مكة يوم التروية الموافق لثمان من ذي الحجة سنة ستين، أدرك والي مكة عمرو بن سعيد بن العاص خطورة الموقف فأرسل وفداً إلى الحسين وعلى رأسهم أخوه يحيى بن سعيد بن العاص فحاولوا أن يثنوه عن عزمه ولكنه رفض فنادوه: يا حسين، ألا تتقي الله، تخرج عن جماعة المسلمين وتفرق بين هذه الأمة، فردَّ الحسين قول الله تعالى: ﴿لِّي

(1) مروج الذهب (3/ 6).
(2) مواقف المعارضة، ص: 259 إلى 261.
(3) البداية والنهاية (11/ 490، 491). طمار: المكان المرتفع.
(4) المصدر نفسه (11/ 491).

عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ [يونس: 41]. فخرج الحسين متوجهاً إلى العراق في أهل بيته وستين شيخاً من أهل الكوفة[1]. وكتب مروان بن الحكم إلى ابن زياد: أما بعد فإن الحسين بن علي قد توجه إليك، وهو الحسين بن فاطمة، وفاطمة بنت رسول الله ﷺ، وتالله ما أحد يسلمه الله أحب إلينا من الحسين، وإياك أن تهيج على نفسك ما لا يسده شيء ولا ينساه العامة، ولا يدع ذكره، والسلام عليك[2]، وكتب إليه عمرو بن سعيد ابن العاص ينهاه عن التعرض للحسين ويأمره بأن يكون حذراً في تعامله مع الحسين: قائلاً له: أما بعد فقد توجه إليك الحسين وفي مثلها تعتق أو تعود عبداً تسترق كما يسترق العبيد[3].
وفي الطريق إلى الكوفة قابل الحسين الفرزدق الشاعر المشهور بذات عرق[4]. فسأله الحسين بن علي عن تصوره لما يقوم به أهل الكوفة حياله، ثم أراد أن يعطي الفرزدق إيضاحاً أكثر وقال: هذه كتبهم معي، فرد عليه الفرزدق: يخذلونك فلا تذهب فإنك تأتي قوماً قلوبهم معك وأيديهم عليك[5]. وعندما علم يزيد بن معاوية بخروج الحسين من مكة واتجاهه للكوفة، كتب إلى ابن زياد يحذره ويقول: بلغني أن حسيناً قد سار إلى الكوفة وقد ابتلى به زمانك من بين الأزمان، وبلدك من بين البلاد وابتليت به من بين العمال وعندها تعتق أو تعود عبداً كما تعتبد العبيد[6].

1 - ابن زياد يتخذ التدابير الأمنية:

اتخذ ابن زياد بعض التدابير لكي يحول بين أهل الكوفة وبين الحسين، ويحكم سيطرته على الكوفة، فقام بجمع المقاتلة وفرق عليهم العطاء حتى يضمن ولاءهم[7]. ثم بعث الحصين بن تميم الطهوي صاحب شرطته حتى نزل بالقادسية، وقام بتنظيم الخيل ما بين القادسية إلى خفضان[8]، وما بين القادسية إلى القطقطان[9]، وإلى لعلع[10]. ثم أصدر أوامره إلى الحسين بن تيم بأن يقبض على كل من ينكره[11]، ثم أمر ابن زياد بأخذ كل من يجتاز بين

---

(1) تاريخ الطبري (6/ 309)، مواقف المعارضة، ص: 262.
(2) الطبقات (5/ 167)، تهذيب الكمال (6/ 422) مواقف المعارضة، ص: 263.
(3) تهذيب الكمال (6/ 422) مواقف المعارضة، ص: 263.
(4) ذات عرق على مرحلتين من مكة.
(5) البداية والنهاية (11/ 510).
(6) مجمع الزوائد (9/ 139)، المعجم الكبير (3/ 115).
(7) الطبقات (5/ 376) مواقف المعارضة، ص: 264.
(8) خفضان: لعلها خفان: موضع قرب الكوفة يسلكه الحاج أحياناً.
(9) القطقطان: موضع قرب الكوفة من جهة البرية بالقرب من القادسية.
(10) لعلع: منزل بين البصرة والكوفة بينها وبين البصرة عشرون ميلاً.
(11) أنساب الأشراف (3/ 166) الطبقات (5/ 376).

واقصة[1] إلى طريق الشام ، إلى طريق البصرة فلا يترك أحد يلج ولا يخرج[2]، وأراد ابن زياد من الإجراء الأخير قطع الاتصال بين أهل الكوفة وبين الحسين بن علي ومضى الحسين ابن علي في طريقه إلى الكوفة ولم يكن يعلم بتلك التغيرات التي حدثت في الكوفة بعد خروجه من مكة ولما بلغ الحاجز من بطن الرمة بعث قيس بن مسهر الصيداوي إلى الكوفة وكتب معه إليهم برسالة يخبرهم فيها بقدومه[3] ولكن الحصين بن تميم قبض على قيس بن مسهر مبعوث الحسين حين وصوله إلى القادسية[4]. ثم بعث به إلى ابن زياد فقتله مباشرة[5]. ثم بعث الحسين مبعوثاً إلى مسلم فوقع في يد الحصين بن تميم وبعث به إلى ابن زياد فقتله[6]، وكانت لتلك الإجراءات الصارمة التي اتخذها ابن زياد أثر كبير على نفوس أتباع الحسين، فهم يرون أن من كان له علاقة بالحسين فإن مصيره القتل وعلى أبشع صوره، فأصبح من يفكر في نصرة الحسين فإن عليه أن يتصور نهايته على ذلك النحو المؤلم[7]، وكان الحسين ﵁ يحس أن الأمور تسير سيراً غير طبيعي في الكوفة وخاصة عندما أخبره الأعراب أن أحداً لا يلج ولا يخرج من الكوفة مطلقاً[8]. واستمر التحذير من بعض رجال القبائل العربية الذين مرّ بهم، وبينوا له ذلك الخطر الذي يقدم عليه، ولكن الحسين كان يدلل على نجاح مهمته بالإشارة إلى ذلك العدد الهائل من أسماء المبايعين التي كانت بحوزته[9]، ولما بلغ الحسين زبالة[10]، وقيل شراف[11] جاءه خبر مقتل مسلم بن عقيل وهانيء بن عروة وعبد الله بن بقطر، إضافة إلى تخاذل أهل الكوفة عن نصرته[12]. وكان لهذا الخبر المفجع المؤلم وقعه الشديد على الحسين ﵁ ، فهؤلاء أقرب الناس إليه قد قتلوا والشيعة في الكوفة تخاذلوا في نصرته[13].

---

(1) واقصة : منزل بطريق مكة لبني شهاب من طيء وهو دون زبالة بمرحلتين.

(2) أنساب الأشراف (3/ 573) مواقف المعارضة، ص: 265.

(3) البداية والنهاية (11/ 512).

(4) تاريخ الطبري نقلاً عن مواقف المعارضة، ص: 266.

(5) الطبقات (5/ 376) أنساب الأشراف (3/ 167).

(6) أنساب الأشراف (3/ 168) مواقف المعارضة، ص: 266.

(7) مواقف المعارضة، ص: 266.

(8) أنساب الأشراف (3/ 168) مواقف المعارضة، ص: 266.

(9) الطبقات (5/ 371).

(10) زبالة : منزل معروف بطريق مكة من الكوفة.

(11) شراف : بين واقصة والقرعاء على ثمانية أميال من الإحساء.

(12) تاريخ الطبري (6/ 322).

(13) مواقف المعارضة، ص: 267.

2 - الحسين يعطي الإذن لأصحابه بالإنصراف:

لما بلغ الحسين مقتل ابن عمه مسلم بن عقيل وتخاذل الناس عنه أعلم الحسين من معه بذلك، وقال من أحب أن ينصرف فلينصرف فتفرق الناس عنه يميناً وشمالاً[1]، وقال له بعض من ثبتوا معه: ننشدك الله إلا ما رجعت من مكانك، فإنه ليس لك بالكوفة ناصر ولا شيعة، بل نتخوف أن يكونوا عليك. فوثب بنو عقيل إخوة مسلم ـ وقالوا: والله لا نبرح حتى ندرك ثأرنا أو نذوق كما ذاق مسلم[2].

3 - ملاقاة الحر بن يزيد التميمي ومعه طلائع جيش الكوفة:

انصرف الناس عن الحسين ـ رضي الله عنه ـ فلم يبق معه إلا الذين خرجوا معه من مكة، واستمر في سيره حتى بلغ شراف وهناك أمر فتيانه أن يستقوا ويكثروا، ثم سار حتى إذا كان منتصف النهار كبَّر رجل من أصحابه، فقال الحسين: الله أكبر لما كبّرت؟ قال الرجل رأيت النخل، فقال رجلان، إن هذا المكان ما رأينا به نخلة قط فقال الحسين: فما تريانه رأى؟ قالا: نراه رأى هوادي الخيل فقال الرجل وأنا والله أرى ذلك[3]... وبالفعل كانت طلائع خيل ابن زياد عليها الحر بن يزيد وكان عددها ألف فارس وقد أدرك الحر بن يزيد الحسين ومن معه قريباً من شراف. ولما طلب منه الحسين الرجوع منعه وذكر له أنه مأمور بملازمته حتى الكوفة وقام الحسين وأخرج خرجين مملوءة بالكتب التي تطلب منه القدوم إلى الكوفة، فأنكر الحر والذين معه أي علاقة لهم بهذه الكتب[4]، وهنا رفض الحسين الذهاب مع الحر إلى الكوفة وأصر على ذلك.، فاقترح عليه الحر أن يسلك طريقاً يجنبه الكوفة ولا يرجعه إلى المدينة، وذلك من أجل أن يكتب الحر إلى ابن زياد بأمره، وأن يكتب الحسين إلى يزيد بأمره[5]. وبالفعل تياسر الحسين عن طريق العذيب والقادسية واتجه شمالاً على طريق الشام[6]. وأخذ الحر يساير الحسين وينصحه بعدم المقاتلة ويذكّره بالله، وبيّن له أنه إذا قاتل فسوف يقتل[7]، وكان الحسين يصلي بالفريقين إذا حضرت الصلاة[8].

4 - ملاقاة عمر بن سعد بن أبي وقاص والمفاوضات:

ولما وصل الحسين إلى كربلاء أدركته خيل عمر بن سعد ومعه شمر بن ذي الجوشن، والحصين بن تميم[9]، وكان هذا الجيش الذي يقوده عمر بن سعد مكوناً من أربعة آلاف مقاتل

---

(1) تاريخ الطبري (6/ 323).
(2) المصدر نفسه (6/ 322).
(3) المصدر نفسه (6/ 325).
(4) المصدر نفسه (6/ 327).
(5) المصدر نفسه (6/ 328).
(6) المصدر نفسه (6/ 328).
(7) المصدر نفسه (6/ 329).
(8) المصدر نفسه.
(9) أنساب الأشراف (3/ 166).

وكان وجهة هذا الجيش في الأصل إلى الري لجهاد الديلم، فلما طلب منه ابن زياد أن يذهب لمقاتلة الحسين رفض عمر بن سعد في البداية هذا الطلب، ولكن ابن زياد هدده إن لم ينفذ أمره بالعزل وهدم داره وقتله، وأمام هذا الخيار رضي بالموافقة[1].

ولما وصل الحسين كربلاء أحاطت به الخيل، ويطلق على المنطقة كلها اسم الطف[2]. وبدأ الحسين بن علي بالتفاوض مع عمر بن سعد، وبيّن الحسين أنه لم يأت إلى الكوفة إلا بطلب من أهلها. وأبرز لعمر بن سعد الدليل على ذلك، واشار إلى حقيبتين كبيرتين تضمن أسماء المبايعين والداعين للحسين، وكتب عمر بن سعد لابن زياد بما سمعه من الحسين وقال: بسم الله الرحمٰن الرحيم أما بعد، فإني حيث نزلت بالحسين بعثت إليه رسولي، فسألته عما اقدمه وماذا يطلب، فقال: كتب إلي أهل هذه البلاد وأتتني رسلهم، فسألوني القدوم ففعلت، فأما إذا كرهوني، فبدا لهم غير ما أتتني به رسلهم فأنا منصرف عنهم. فلما قرئ على ابن زياد تمثل قول الشاعر:

الآن إذا علقت مخالبنا به ... يرجو النجاة ولاة حين مناص

ثم كتب ابن زياد لعمر بن سعد: بسم الله الرحمٰن الرحيم، أما بعد فقد بلغني كتابك، وفهمت ما ذكرت، فاعرض على الحسين أن يبايع ليزيد بن معاوية وجميع أصحابه فإذا فعل ذلك رأينا رأينا والسلام. ولما اطلع عمر بن سعد على جواب ابن زياد ساءه ما يحمله الجواب من تعنت وصلف، وعرف أن ابن زياد لا يريد السلامة[3]. رفض الحسين هذا العرض، ثم لما رأى جهامة الموقف وخطورته طلب من عمر بن سعد مقابلته[4]، وعرض على عمر بن سعد عرضاً آخر يتمثل في إجابته واحدة من ثلاث نقاط[5].

أ ـ أن يتركوه فيرجع من حيث أتى.

ب ـ وإما أن يتركوه ليذهب إلى الشام فيضع يده في يد يزيد بن معاوية.

جـ ـ وإما أن يسيّروه إلى أي ثغر من ثغور المسلمين فيكون واحداً منهم له ما لهم وعليه ما عليهم[6]. وقد أكد الحسين ﷺ موافقته للذهاب إلى يزيد[7]. وكتب عمر بن سعد إلى ابن

---

(1) تاريخ الطبري (6/ 335).
(2) الطف : ما أشرف من أرض العرب على ريف العراق وهي بناحية الكوفة.
(3) تاريخ الطبري (6/ 337).
(4) المحن لأبي العرب، ص: 154.
(5) المصدر نفسه، ص: 154.
(6) المصدر نفسه.
(7) أنساب الأشراف (3/ 173، 224) بإسناد صحيح، وتوبع عند الطبري بإسناد صحيح.

زياد بكتاب أظهر فيه أن هذا الموقف المتأزم قد حُلّ، وأن السلام قد أوشك، وما على ابن زياد إلا الموافقة[1]. وبالفعل فقد أوشك ابن زياد أن يوافق ويرسله إلى يزيد، لولا تدخل شمر ابن ذي الجوشن الذي كان جالساً في المجلس حين وصول الرسالة فقد اعترض على رأي ابن زياد في أن يرسله إلى يزيد، وبيّن لابن زياد أن الأمر الصائب هو أن يطلب من الحسين أن ينزل على حكمه ـ أي ابن زياد ـ حتى يكون هو صاحب الأمر المتحكم فيه[2]. فلما وصل الخبر إلى الحسين رضي الله عنه رفض الطلب وقال: لا والله لا أنزل على حكم عبيد الله بن زياد أبداً[3]، وقال لأصحابه الذين معه أنتم في حل من طاعتي، ولكنهم أصرّوا على مصاحبته والمقاتلة معه حتى الشهادة[4]، واتخذ ابن زياد إجراءً احترازياً حين خرج إلى النخيلة[5]، واستعمل على الكوفة عمرو بن حريث، وضبط الجسر، ولم يترك أحداً يجوزه، وخاصة أنه علم أن بعض الأشخاص من الكوفة بدأوا يتسللون من الكوفة إلى الحسين[6].

سابعاً: المعركة الفاصلة استشهاد الحسين رضي الله عنه ومن معه:

في صباح يوم الجمعة عام 61هـ نظم الحسين رضي الله عنه أصحابه وعزم على القتال وكان معه اثنان وثلاثون فارساً، وأربعون راجلاً، فجعل زهير بن القين في ميمنته وحبيب بن مظاهر في الميسرة، وأعطى رايته العباس بن علي، وجعل البيوت وراء ظهورهم، وأمر الحسن بحطب وقصب فجعله من وراء البيوت، وأشعل فيه النار مخافة أن يأتوهم من خلفهم[7]. وأما عمر بن سعد فقد نظم جيشه، وجعل على الميمنة عمرو بن الحجاج الزبيدي ـ بدلاً من الحر بن يزيد الذي انضم إلى الحسين. وجعل على الميسرة شمر بن ذي الجوشن ـ وعلى الخيل عزره بن قيس الأحمسي وعلى الرجال شبث بن ربعي الرياحي، وأعطى الراية ذويداً مولاه[8]. وبدأت المعركة سريعة وكانت مبارزة في بداية الأمر، وجوبه جيش عمر بن سعد بمقاومة شديدة من قبل أصحاب الحسين، حيث أن مقاتلتهم اتسمت بالفدائية فلم يعد لهم أمل في الحياة[9]، وكان الحسين رضي الله عنه في البداية لم يشترك في القتال، وكان أصحابه يدافعون عنه ولما قتل أصحابه لم يجرؤ أحد على قتله، وكان جيش عمر بن سعد يتدافعون ويخشى كل فرد أن يبوء بقتله وتمنوا أن يستسلم، ولكن الحسين رضي الله عنه لم يبد شيئاً من الليونة، بل كان رضي الله عنه يقاتلهم بشجاعة نادرة، عندئذ خشي شمر بن ذي الجوشن من انفلات زمام الأمور فصاح بالجند وأمرهم بقتله، فحملوا عليه، وضربه زرعة بن شريك التميمي ثم طعنه سنان بن أنس النخعي

(1) تاريخ الطبري (6/ 340).
(2) المصدر نفسه (6/ 340، 341).
(3) حقبة من التاريخ، ص: 132، تاريخ الطبري (6/ 342).
(4) تاريخ الطبري (6/ 346).
(5) النخيلة: تصغير نخلة – موضع قرب الكوفة.
(6) الطبقات (5/ 378).
(7) تاريخ الطبري (6/ 349).
(8) المصدر نفسه.
(9) المصدر نفسه (6/ 350).

واحتز رأسه[1]، ويقال أن الذي قتله عمرو بن بطار التغلبي، وزيد بن رقاده الحيني[2]، ويقال أن المتولي لإجهاز عليه شمر بن ذي الجوشن الضبي، وحمل رأسه إلى ابن زياد خولي بن يزيد الأصبحي[3]، وكان قتله رضي الله عنه في محرم في العاشر منه سنة إحدى وستين[4]. وقتل مع الحسين رضي الله عنه اثنان وسبعون رجلاً، وقتل من أصحاب عمر ثمان وثمانون رجلاً[5]، وبعد إنتهاء المعركة أمر عمر بن سعد بأن لا يدخل أحد على نساء الحسين وصبيانه، وأن لا يتعرض لهم أحد بسوء[6]، وأرسل عمر بن سعد برأس الحسين ونساءه ومن كان معه الصبيان إلى ابن زياد[7].

وكان الذين قتلوا مع الحسين رضي الله عنه من آل أبي طالب، فمن أولاد علي بن أبي طالب الحسين نفسه، وجعفر والعباس وأبو بكر ومحمد وعثمان، ومن أولاد الحسين: علي الأكبر غير عليّ زين العابدين لأنه كان عنده علي الأصغر وعلي الأكبر وعبد الله. ومن أبناء ابناء الحسن قتل عبد الله والقاسم وأبو بكر. ومن أولاد عقيل قتل جعفر وعبد الله وعبد الرحمٰن ومسلم بن عقيل قتل بالكوفة وعبد الله بن مسلم. ومن أولاد عبد الله بن جعفر: قتل عون ومحمد[8]، ثمانية عشر رجلاً كلهم من بيت رسول الله قد قتلوا في هذه المعركة غير المتكافئة، والعجيب في هذه أن ممن قتل بين يدي الحسين بن علي رضي الله عنهما أبو بكر بن علي وعثمان بن علي وأبو بكر بن الحسن ولا تجد لهم ذكراً عندما تسمع أشرطة الشيعة وتقرأ كتبهم التي ألفت في مقتل الحسين حتى لا يقال إن علي بن أبي طالب سمى أولاده بأسماء أبي بكر وعمر وعثمان، أو أن الحسن سمي على اسم أبي بكر وهذا أمر عجيب جداً منهم[9]. وعن أنس قال: ولما أُتي عبيد الله بن زياد برأس الحسين جعل ينكث بالقضيب ثناياه يقول: لقد كان ـ أحسبه جميلاً. فقلت والله لأسوءنّك إني رايت رسول الله ﷺ يلثم[10] حيث يقع قضيبك. قال: فانقبض[11]. وفي رواية البخاري عن أنس قال: أتى عبيد الله بن زياد برأس الحسين فجعله في طست، فجعل ينكث عليه وقال في حسنه شيئاً فقال أنس: إنه كان أشبههم برسول الله ﷺ، وكان مخضوباً بالوسمة[12]. ولما وصل نساء الحسين وصبيانه صنع بهما ابن زياد أن أمر لهم بمنزل في مكان معتزل فأجرى عليهم الرزق، وأمر لهن بالكسوة والنفقة[13]. وتذكر بعض

---

(1) تاريخ الطبري نقلاً عن مواقف المعارضة، ص: 276.

(2) المصدر نفسه نقلاً عن مواقف المعارضة، ص: 276.

(3) تاريخ الطبري (385).

(4) المصدر نفسه.

(5) الطبقات (5/ 386) إسناد جمعي، تاريخ الطبري (6/ 385).

(6) الطبقات (5/ 385) مواقف المعارضة، ص: 277.

(7) تاريخ الطبري نقلاً عن مواقف المعارضة، ص: 276.

(8) تاريخ خليفة بن خياط، ص: 234.

(9) حقبة من التاريخ، ص: 135، 136.

(10) مسند أبي يعلى رقم (3981)، يلثم: يقبل.

(11) مسند أبي يعلى رقم (3981).

(12) البخاري رقم (3748).

(13) أنساب الأشراف (3/ 226) إسناد صحيح.

الروايات التي لها ميول شيعية أن ابن زياد أمر بقتل كل من أنبت، ولعل مما يظهر كذب هذه الروايات حينما تذكر أن علي بن الحسين كشفوا عنه فوجوده قد أنبت، فأمر ابن زياد بقتله ولكن شفاعة أخته زينب وتعلقها به حالت دون قتله[1]، وليس صحيحاً كذلك أن ابن زياد قد أساء معاملة نساء الحسين بعد قتله، أو في ترحيله لهن إلى الشام، فالروايات التاريخية تخبرنا أن أحسن شيء صنعه ابن زياد أنه أمر لهن بمنزل في مكان معتزل، وأجرى عليهن رزقاً، وأمر لهن بنفقة وكسوة[2]، ويقول ابن تيمية في رده على بعض كذابي الشيعة: وأما ما ذكره من سبي نسائه والدوران بهن على البلدان وحملهن على الجمال بغير أقتاب، فهذا كذب، وباطل وماسبى المسلمون ـ ولله الحمد ـ هاشمية قط، ولا استحلت أمة محمد ﷺ هاشمية قط، ولكن أهل الهوى والجهل يكذبون كثيراً[3]. بل المرجح أن ابن زياد بعد أن ذهبت عنه نشوة النصر، أحس فداحة خطئه وكان ذلك الشعور هو المسيطر على بعض أفراد أسرته القريبين منه، فقد كانت أمه تقول له: ويلك ماذا صنعت، أو ماذا ركبت[4]. وكان أخوه عثمان بن زياد يقول: لوددت والله أنه ليس من بني زياد رجل إلا وفي أنفه خزامة إلى يوم القيامة، وأن حسيناً لم يقتل: فلا ينكر عليه عبيد الله قوله[5].

ثامناً: مواقف رائعة بجانب الحسين رضي الله عنه :

كانت هناك مواقف رائعة هزت مشاعرنا وقد سطر التاريخ هذه المواقف لأصحابها لكي يتبين للناس أن في كل زمان شخصيات تقف إلى جوار الرجال تقديراً لمقامهم، ورعاية لحرمتهم، وإظهاراً للحق في مقارنة الرجال إذا واجه بعضهم بعضاً، فهم يقدرون الرجال لمكانتهم الاجتماعية ويفضلونهم على غيرهم، لما يتصفون به من العلم والشجاعة والتقوى ولو كان غيرهم هم الحكام والأمراء، فلا الخوف من الحاكم ينسيهم قدر الرجال، ولا ظلم الحكام ينحرف بهم إلى النفاق والمجاملة، ولا المناصب التي يشغلونها تلهيهم عما يجب أن يكونوا عليه من الصراحة والشجاعة الأدبية[6] ومن هذه المواقف:

1 - موقف الوليد بن عتبة بن أبي سفيان رحمه الله :

فقد امتنع عن استخدام الشدة والقسوة مع الحسين والزامه بالقوة أو قتله وقال: . . . والله ما أحب أن لي ما طلعت عليه الشمس وغربت عنه من مال الدنيا وملكها وأني قتلت حسيناً

(1) أبو العرب، ص: 157، تاريخ الطبري (6/ 388).
(2) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 322.
(3) منهاج السنة (2/ 249).
(4) تاريخ الطبري، نقلاً عن الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 322.
(5) الكامل في التاريخ (2/ 582).
(6) الأمويون بين الشرق والغرب (1/ 249).

سبحان الله، أقتل حسيناً أن قال: لا أبايع والله إني لأظن أمراً يحاسب بدم حسين لخفيف الميزان عند الله يوم القيامة[1]. وهكذا يقف الوليد هذا الموقف الرائع، وهو أمير المدينة يومئذٍ، وهو يعلم تماماً أن ذلك الموقف سيؤدي لا محالة إلى عزله عن إمارة المدينة، بل قد يزيد على ذلك، فيؤدي إلى قتله وهلاكه، وهو مع هذا يفضل هلاك الدنيا وزوال الملك والسلطان، على أن يلقى الله بدم الحسين[2]. رضي الله عنه.:

2 - موقف النعمان بن بشير . رضي الله عنه.:

وكان أمير الكوفة فإنه بلغه خروج الحسين بن علي رضي الله عنهما ـ ووصول مسلم بن عقيل إلى الكوفة يأخذ البيعة للحسين، قام فخطب في الناس وحذرهم الخروج على الإمام وأرهبهم من السعي في الفتنة، وذكرهم بما يجره على العامة والخاصة من الخراب والدمار ومع ذلك كان ليناً مع الناس، وأخبرهم أنه لن يأخذ أحداً بظنه، ولن يقاتل أحداً لم يقاتله، ولكن شدد في نهاية الخطبة، وقال للناس: ولكنكم إن أبديتم صفحتكم لي، ونكثتم بيعتكم، وخالفتم إمامكم، فوالله الذي لا إله غيره، لأضربنكم بسيفي ما ثبت قائمه بيدي، ولو لم يكن لي منكم ناصر ومع هذا فقد عاب عليه محبو الأمويين هذا الموقف ووسموه بالضعف، وقالوا: إن هذا الذي أنت عليه فيما بينك وبين عدوك رأي المستضعفين فقال رضي الله عنه : أن أكون من المستضعفين في طاعة الله، أحب إلي من أن أكون من الأعزّين في معصية الله[3].

إن رضا الله ـ تبارك وتعالى ـ غاية يضحي المسلم في سبيلها بكل غاية، ويبذل في سبيل الحصول عليها كل غالٍ ونفيس فرضوان الله هو النعمة العظمى التي سيتجلى الله بها على عباده المؤمنين في الجنة[4]، يقول الحق عز وجل : ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 72].

3 - موقف الحر بن يزيد رحمه الله :

وهو أول من لقي الحسين في جيش الكوفة، وهو الذي حال بينه وبين الرجوع إلى المكان الذي أتى منه، ولكنه مع ذلك كان نبيلاً في معاملته للحسين . رضي الله عنه. فقد قال له: أنا لم أؤمر بقتالك، ولكني أمرت أن أخرج بك إلى الكوفة إن وجدتك، ولكني أقول لك: اختر مكاناً لا يؤدي بك إلى الكوفة ولا يعود بك إلى المدينة، ثم أكتب بعد ذلك إلى يزيد بن معاوية أو إلى ابن زياد إن شئت ولم يكد يصل الجيش وعلى رأسه عمر بن سعد بن أبي وقاص، وتواجه كلا الفريقين، وتأكد الحُرّ أن الحرب دائرة بينهما لا محالة، قال الحر لعمر بن سعد:

---

(1) تاريخ الطبري (6/ 259).
(2) الأمويون بين الشرق والغرب (1/ 249).
(3) تاريخ الطبري (6/ 277).
(4) الأمويون بين الشرق والغرب (1/ 250).

أصلحك الله! أمقاتل أنت هذا الرجل؟ قال عمر؟ إي والله قتالاً أيسره أن تسقط الرؤوس وتطيح الأيدي عندئذ ضرب الحر فرسه، وانطلق به نحو الحسين، وانضم إلى جماعته، ثم قال: يا أهل الكوفة، لأمكم الهَبل، أدعوتم الحسين إليكم حتى إذا أتاكم أسلمتموه، وزعمتم أنكم قاتلوا أنفسكم دونه، ثم عدوتم عليه لتقتلوه، ومنعتموه التوجه في بلاد الله العريضة الوسيعة التي لا يمنع فيها الكلب والخنزير وحلتم بينه وبين الماء الفرات الجاري الذي يشرب منه الكلب والخنزير، وقد صرعهم العطش؟ بئس ما خلفتم محمداً في ذريته، لأسقاكم الله يوم الظمأ الأكبر إن لم تتوبوا وتتراجعوا عما أنتم عليه من يومكم هذا في ساعتكم هذه واعتذر الحر عن موقفه الأول من الحسين وقبل الحسين عذره، فلما لامه بعض أصحابه عن الذهاب إلى الحسين قال: والله إني لأخير نفسي بين الجنة والنار، ووالله لا أختار على الجنة غيرها ولو قطعت وحرّقت[1].

إن الحر بن يزيد ـ رحمه الله ـ غير موقفه من الحسين ـ رضي الله عنه ـ بعد أن جنح الحسين إلى السلم، ورأى أن موقفه ضده ليس فيه إنصاف ولا عدل، إذ كيف يقاتل رجلاً يدعو إلى السلم، ويطلبه، ويمد يده إلى عدوه ليصالحه، إن الرجولة تقتضي أن يكون الموقف مع هذا المسالم موقف العون وشد الأزر، وإن العقل يحكم بأن الحق مع من يطلب السلم وينشده والحر يعلم أن الوقوف مع حسين والميل إليه ليس له معنى إلا الموت، ولكنه اختار الموت الذي يوصل إلى الجنة[2]، ومما قيل في الحر بن يزيد التميمي من شعر ما قاله جعفر بن عفان الطائي:

ولـم يـك فـيـهـم رجـل رشـيـد ... سـوى الـحـر الـتـمـيـمـي الـرشـيـد
فـواحـزنـاه إن بـنـي عـلـيّ ... وفـاطـم قـد أبـيـدوا بـالـحـديـد[3]

4 - موقف النّوار بنت مالك الحضرمية:

وهي امرأة خوليّ بن يزيد الذي بعثه عمر بن سعد برأس الحسين إلى عبيد الله بن زياد، فلما بلغ خولي الكوفة قصد القصر، فوجد بابه مغلقاً، فتوجه بالرأس الشريف إلى بيته، فوضعه هناك تحت إجانة ـ والإجانة إناء تغسل فيه الثياب ـ ثم دخل على زوجته، وآوى إلى فراشه فقالت له زوجته: ما الخبر؟ عندك؟

قال: جئتك بغنى الدهر، هذا رأس الحسين معك في الدار، فقالت: ويلك جاء الناس بالذهب والفضة، وجئت برأس ابن رسول الله ﷺ! لا والله لا يجمع رأسي ورأسك بيت[4] أبداً، هذه امرأة انتظرت زوجها طويلاً، ولكن زوجها جاءها بما عكر عليها صفوها، وكدر عليها حياتها، وأفسد عليها انتظارها الطويل، لقد كانت ترجو أن يعود إليها زوجها بأخبار

(1) تاريخ الطبري (6/ 355، 356).
(2) الأمويون للوكيل (1/ 252).
(3) كتاب المحن، ص: 157.
(4) تاريخ الطبري (6/ 385).

سارة تشرح صدرها، وتملأ عليها نفسها سروراً نعم إن عودة زوجها إليها سالماً هي أحسن خبر يحمله لها، ولكنه لم يعد إليها خالي الوفاض من الذهب والفضة اللذين يعود بهما المحاربون عادة فقط، ولو كان الأمر كذلك لسُرّت بعودته، وسلامته، ولكنه حمل إليها رأس الحسين ابن رسول الله ﷺ ثم إنها يبلغها الخبر بفرحة تدل على رضاه وسروره، أفتفرح هي بذلك؟ أنه لو جاءها بالخبر دون أن يكون مصحوباً بالرأس كان ذلك كفيلاً بزيادة حزنها وأسفها، فكيف وهو يحدثها بالخبر مقروناً برأس الحسين ـ رضي الله عنه ـ إن كل مؤمن يحزنه الخبر، ويهدّ نفسه سماعه، لهذا غادرت النوار فراش زوجها، وأقسمت ألا تجتمع معه في بيت أبداً[1].

تاسعاً: موقف يزيد من قتل الحسين ومن أبناء الحسين وذريته:

كتب عبيد الله بن زياد إلى يزيد بن معاوية يخبره بما حدث ويستشيره في شأن أبناء الحسين ونسائه فلما بلغ الخبر يزيد بن معاوية بكى وقال: كنت أرضى من طاعتكم ـ أي أهل العراق ـ بدون قتل الحسين، كذلك عاقبة البغي والعقوق لعن الله ابن مرجانة لقد وجده بعيد الرحم منه، أما والله لو أني صاحبه لعفوت عنه فرحم الله الحسين[2]، وفي رواية أنه قال: . . . أما والله لو كنت صاحبه، ثم لم أقدر على دفع القتل عنه إلا ببعض عمري لأحببت أن أدفعه عنه[3]، فجاء رد يزيد على ابن زياد يأمره بإرسال الأسارى إليه، وبادر ذكوان أبو خالد فأعطاهم عشرة آلاف درهم فتجهزوا بها[4]، ومن هنا يعلم أن ابن زياد لم يحمل آل الحسين بشكل مؤلم أو أنه حملهم مغللين، كما ورد في بعض الروايات[5]، وقد مر معنا كيف أن ابن زياد قد أمر للأسارى بمنزل منعزل وأجرى عليهم الرزق والنفقة وكساهم[6].

وتذكر رواية عوانة أن محفز بن ثعلبة هو الذي قدم بأبناء الحسين على يزيد[7]، ولما دخل أبناء الحسين على يزيد قالت: فاطمة بنت الحسين: يا يزيد: أبنات رسول الله ﷺ سبايا قال: بل حرائر كرام: أدخلي على بنات عمك تجديهن قد فعلن ما فعلت. قالت فاطمة: فدخلت إليهن فما وجدت فيهن سفيانية إلا ملتزمة تبكي[8]. وعندما دخل علي بن الحسين قال يزيد:

---

(1) الأمويون بين الشرق والغرب (1/ 253).
(2) أنساب الأشراف بسند حسن (3/ 219، 220) مواقف المعارضة، ص: 282).
(3) الأباطيل والمناكير (1/ 265) للجوزقاني بسند كل رجاله ثقات إلا أن فيه انقطاعاً بين الشعبي والمدائني.
(4) الطبقات (5/ 393) مواقف المعارضة، ص: 282.
(5) المحن، ص: 155، مواقف المعارضة، ص: 282.
(6) مواقف المعارضة، ص: 283.
(7) تاريخ الطبري (6/ 394).
(8) المصدر نفسه (6/ 395).

إن أباك قطع رحمي وظلمني فصنع الله به ما رأيت ـ وكان علي بن الحسين في معركة كربلاء لم يشترك بسبب المرض الذي كان ملازمه، وكان أثناء احتدام المعركة طريح الفراش فحمل إلى ابن زياد مع بقية الصبيان والنساء[1] ـ فرد علي بن الحسين على يزيد ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الحديد: 22]. ثم طلب يزيد من ابنه خالد أن يجبه، فلم يدر خالد ما يقول فقال يزيد: قل له ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى: 30].

وتحاول بعض الروايات ذات النزعات والميول الشيعية أن تصور أبناء الحسين وبناته وكأنهن في مزاد علني، جعل أحد أهل الشام يطلب من يزيد أن يعطيه إحدى بنات الحسين[2]. فهذا من الكذب البين الذي لم يدعمه سند صحيح، ثم أنها مغايرة لما ثبت من إكرام يزيد لآل الحسين، ثم إن يزيد لم يستعرض النساء ويجعلهن عرضة للجمهور من أراد فليختار ما يشاء[3]. وأرسل يزيد إلى كل امرأة من الهاشميات يسأل عن كل ما أخذ منهن، وكل امرأة تدعى شيئاً بالغاً ما بلغ إلا أضعفه لهن في العطية[4]، وكان يزيد لا يتغذى ولا يتعشى إلا دعا علي بن الحسين[5]. وذُكر إن رأس الحسين أرسل إلى يزيد فهذا لم يثبت، بل إن رأس الحسين بقي عند عبيد الله في الكوفة[6].

عاشراً: رجوع أهل الحسين وأبنائه إلى المدينة:

بعث يزيد إلى المدينة فقدم عليه ذوي السن من موالي بني هاشم ومن موالي بني علي[7]، وبعد أن وصل الموالي أمر يزيد بنساء الحسين وبناته أن يتجهزن، وأعطاهن كل ما طلبن حتى لم يدع لهم حاجة بالمدينة إلا أمر بها[8]، ثم أمر النعمان بن بشير أن يقوم بتجهيزهم[9]، وقبل أن يغادروا قال يزيد لعلي بن الحسين إن أحببت أن تقيم عندنا فصل رحمك وتعرف لك حقك فعلت[10]. ولكن علي بن الحسين اختار الرجوع إلى المدينة، وأكرم أبناء الحسين وخيّرهم

---

(1) الطبقات (5/ 211) مواقف المعارضة، ص: 278.
(2) تاريخ الطبري (6/ 392) رواية أبي مخنف.
(3) البدء والتاريخ (6/ 12) وقال المؤلف: أن للروافض في هذه القصة من الزيادات والتهاويل شيئاً غير قليل.
(4) الطبقات (5/ 397)، تاريخ الطبري (6/ 395).
(5) الطبقات (5/ 397).
(6) حقبة من التاريخ، ص: 141.
(7) الطبقات (5/ 397).
(8) المصدر السابق (5/ 397) تاريخ الطبري (6/ 393).
(9) تاريخ الطبري (6/ 392).
(10) المصدر نفسه (6/ 393) سير أعلام النبلاء (4/ 386).

بين المقام عنده والذهاب إلى المدينة فاختاروا الرجوع إلى المدينة[1]، وعند مغادرتهم دمشق كرّر يزيد الاعتذار من علي بن الحسين وقال: لعن الله ابن مرجانة، أما والله لو أني صاحبه ما سألني خصلة أبداً إلا أعطيتها إياه، ولدفعت عنه الحتف بكل ما استطعت ولو بهلاك بعض ولدي ولكن الله قضى ما رأيت، كاتبني بكل حاجة تكون لك[2].

وأمر يزيد بأن يرافق ذرية الحسين وفد من موالي بني سفيان[3]، وكان عددهم ثلاثين فارساً، وأمر المصاحبين لهم أن ينزلوا حيث شاءوا ومتى شاءوا وبعث معهم أيضاً محرز بن حريث الكلبي ورجل من بهرا، وكانا من أفاضل أهل الشام[4] وخرج آل الحسين من دمشق محفوفين بأسباب الاحترام والتقدير حتى وصلوا إلى المدينة[5]. قال ابن كثير في يزيد: وأكرم آل بيت الحسين ورد عليهم جميع ما فقد لهم وأضعفه، وردهم إلى المدينة في محامل وأبهة عظيمة، وقد ناح أهله على الحسين[6].

الحادي عشر: من المسئول عن قتل الحسين رضي الله عنه:

إن المسئول عن قتل الحسين أطراف متعددة منها:

1 - أهل الكوفة:

إن أهل الكوفة هم الذين كاتبوا الحسين بن علي وهو في المدينة ومنّوه بالخروج حتى خرج إليهم بالرغم من تحذيرات الصحابة له بعدم الخروج ولما عين ابن زياد أميراً على الكوفة تأخر الناس عن نصرة الحسين وعن تأييده بل وانخرطوا في الجيش الذي حاربه وقتله، ولذا عبّر الحافظ ابن حجر عن موقف أهل الكوفة من الحسين بقول: فخُذِل غالب الناس عنه فتأخروا رغبة ورهبة، ولما تقابل الحسين ومن معه مع جند الكوفة نادى الحسين زعماء أهل الكوفة قائلاً لهم: يا شبث بن ربعي، وياحجار بن أبجر، ويا قيس بن الأشعث، ويا يزيد بن الحارث، ألم تكتبوا إلي أنه قد أينعت الثمار، وأخضر الجناب، وطمت الجمام، وإنما تقدم على جند لك مجند، فأقبل. قالوا: لم نفعل، فقال سبحان الله بلى والله لقد فعلتم ثم قال: أيها الناس إذا كرهتموني فدعوني أنصرف عنكم إلى مأمني[7]. وبالنظر إلى أقوال الصحابة ـ

---

(1) منهاج السنة (4/ 559).

(2) تاريخ الطبري (6/ 393).

(3) الطبقات (5/ 397) مواقف المعارضة، ص: 286.

(4) الحجة في بيان المحجة (2/ 525 - 526) مواقف المعارضة، ص: 286.

(5) مواقف المعارضة في خلافة يزيد، ص: 286.

(6) البداية والنهاية نقلاً عن مواقف المعارضة، ص: 287.

(7) أنساب الأشراف (3/ 227) مواقف المعارضة، ص: 288.

رضوان الله عليهم ـ فإن الاتهام موجه إلى أهل العراق، وذلك في المسؤولية المتعلقة بقتل الحسين رضي الله عنه ، فهذه أم سلمة رضي الله عنها لما جاء نعي الحسين بن علي لعنت أهل العراق وقالت: قتلوه قتلهم الله عز وجل غروه ودلوه لعنهم الله[1]. وابن عمر رضي الله عنهما يقول لوفد من أهل العراق حينما سألوه عن دم البعوض في الإحرام فقال: عجباً لكم يا أهل العراق تقتلون ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وتسألون عن دم البعوض[2]. ويقول البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق: روافض الكوفة موصوفون بالغدر والبخل، وقد سار المثل بهم فيها، حتى قيل أبخل من كوفي، وأغدر من كوفي، والمشهور من غدرهم ثلاثة أمور هي:

أ ـ بعد مقتل علي رضي الله عنه ، بايعوا الحسن، وغدروا به في ساباط المدائن، فطعنه سنان الجعفي.

ب ـ كاتبوا الحسين رضي الله عنه ، ودعوه إلى الكوفة لينصروه على يزيد، فاغتر بهم، وخرج إليهم، فلما بلغ كربلاء غدروا به وصاروا مع عبيد الله يداً واحدة عليه. حتى قتل الحسين وأكثر عشيرته بكربلاء.

جـ ـ غدرهم بزيد بن علي بن الحسين، نكثوا بيعته، وأسلموه عند اشتداد القتال[3].

إن جزءاً كبيراً من المسؤولية يقع على أهل الكوفة، الذين جبنوا ونقضوا عهودهم.

2 - عبيد الله بن زياد:

استمد عبيد الله جبروته وبطشه بالمعارضين من موافقة الخليفة يزيد بن معاوية، فعندما أقدم على قتل مسلم بن عقيل النائب الأول عن الحسين بالكوفة، وداعيته هانيء بن عروة الزعيم لقبيلة مراد المشهورة، استحسن يزيد هذا الفعل ولم يعترض عليه بل إنه لم يخف إعجابه به وبطشه وعسفه، فقد قال في ردّه على رسالته: أما بعد فإنك لم تعد إن كنت كما أحببت، عملت عمل الحازم، وصلت صولت الشجاع الرابط الجأش، فقد أغنيت وكفيت، وصدقت ظني بك، ورأي فيك[4]. . فهذا التشيع دفع ابن زياد للشر أكثر خصوصاً وأن نفسه كانت ميالة للشر بطبيعتها، متطلعة إلى الغلو في مسيرتها، متعطشة إلى الدماء في سلطانها، وإلا فماذا كان عليه لو أنه نهر شمر وعنفه وردعه على قوله، واستمر في قبول خطة السلم التي عرضها الحسين رضي الله عنه . إن النفوس الدنية التي ارتفعت بعد انحطاط، وعزت بعد ذل، وتمكنت بعد حرمان، يعزّ عليها أن ترى الشرفاء الأمجاد، يتمتعون باحترام الناس وتقديرهم فتحاول أن تضع من مكانتهم، وتحط من منزلتهم إشباعاً لعقدة النقص التي تطاردهم في حياتهم، ولم يكن ابن زياد إلا واحداً من أصحاب هذه النفوس الدنية، فمن ابن زياد هذا ـ مهما كانت منزلته ـ

---

(1) فضائل الصحابة (2/ 782) بإسناد حسن.
(2) مسند أحمد رقم (5568) إسناده صحيح.
(3) الفرق بين الفرق، ص: 37.
(4) تاريخ الطبري نقلاً عن مواقف المعارضة ص: 293.

إذا قورن بالحسين بن علي. ﷺ ـ لهذا رفض الحسين أن يضع يده في يد ابن زياد، وقال لا أعطيهم بيدي إعطاء العبد الذليل، وقال عمر بن سعد لما وصله كتاب ابن زياد: لا يستسلم والله الحسين، إن نفساً أبية لبين جنبيه[1]، لقد كان عبيد الله بن زياد والياً ظالماً قبيح السريرة وهو الذي دخل عليه ـ عائذ بن عمرو المزني، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ، فقال لعبيد الله: أي بني: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن شر الرِّعاء الحُطمة فإياك أن تكون منهم، فقال له، اجلس فإنما أنت من نخالة أصحاب محمد ﷺ، فقال: هل كانت لهم نخالة[2]؟ إنما كانت النخالة بعدهم، وفي غيرهم[3].

لقد كان يتوجب على ابن زياد أن يلبي مطالب الحسين، وأن يتركه يذهب إلى يزيد، أو أي مكان آخر، خاصة أنه لن يدخل الكوفة[4]، وقد قال ابن الصلاح في فتاويه: والمحفوظ أن الأمر بقتاله المفضي إلى قتله إنما هو ابن زياد[5]، وقال يوسف العش: وينبغي لنا أن نقول أن المسؤول عن قتل الحسين هو أولاً شمر، وثانياً عبيد الله بن زياد[6]. والصحيح أن المسئولية الأولى والإثم الأكبر في هذه المذبحة تقع على عاتق ابن زياد لأنه مدبر هذا الأمر كله وهو الذي رفض عروض الحسين، والتاريخ يستنكر كل ما فعله، ويذمه أشد الذم، ويدمغه بالبغي والطغيان[7]. ويقول الذهبي في نهاية ترجمة عبيد الله: الشيعي لا يطيب عيشه حتى يلعن هذا ودونه، ونحن نبغضهم في الله، ونبرأ منهم ولا نلعنهم وأمرهم إلى الله[8].

3 - عمر بن سعد بن أبي وقاص قائد الجيش:

ومن المسئولين على قتل الحسين رضي الله عنه قائد جيشه عمر بن سعد بن أبي وقاص، وبئس الخلف للسلف أو الابن لأبيه ثم الجنود الذين نفذوا أوامرهم في غيرما رحمة وكان لهم مندوحة أن ينأوا عن ذلك، أو ينضموا إلى جانب الحسين، كما فعل الحر بن يزيد التميمي القائد الأول الذي أرسله ابن زياد، ثم رأى أن ابن زياد وصحبه اعتدوا وطغوا حين رفضوا عروض الحسين المنصفة، فتحول إلى معسكر الحسين وقاتل معه حتى قتل شهيداً[9].

إن عمر بن سعد لم يخرج ابتداءً لقتال الحسين، ولكنه كان خارجاً لقتال الديلم في أربعة آلاف مقاتل، فلما بلغ ابن زياد أمر حسين سيره إليه، وقال له: قاتل حسيناً فإذا انتهيت

---

(1) تاريخ الطبري (6/ 342).
(2) نخالة : ما بقي في المنخل مما ينخل.
(3) البخاري رقم (7150).
(4) مواقف المعارضة، ص: 297.
(5) القيد الشريد، ورقة 13، مواقف المعارضة، ص: 295.
(6) الدولة الأموية، ص: 172.
(7) عبد الملك بن مروان والدولة الأموية، ص: 105.
(8) المصدر نفسه.
(9) المصدر نفسه.

فانصرف إلى الديلم، وكان قد ولاه إمارة الرّيّ واستعفى عمر ابن زياد من قتال الحسين، ولكن ابن زياد هدده بخلعه عن إمارة الرّي فتراجع عمر، وقال له: حتى أنظر، وأخذ يستشير الناس، وكلهم نصحوه بعدم الخروج إلى الحسين، وقال له ابن أخته ـ حمزة بن المغيرة بن شعبة ـ: أنشدك الله يا خال أن تسير إلى الحسين فتأثم بربك، وتقطع رحمك فوالله لأن تخرج من دنياك ومالك وسلطان الأرض كلها لو كان لك، خير لك من تلقى الله بدم الحسين[1]. فقال عمر بن سعد: فإني أفعل إن شاء الله ويرغم نصح الناصحين، وترهيب المرهبين، إلا أن نفس ابن سعد كانت متعلقة بالدنيا وحب الإمارة ومشغولة بالمنصب وتقلد الإدارة. . والحق يقال: إنه اجتهد في محاولة إيجاد مخرج يبتعد منه عن قتال الحسين ومن معه، ولكنه لم يوفق في شيء.

إن النفوس المتطلعة إلى الدنيا، تنسى في سبيلها شهامة الرجال، ومروءة الكرام بل تنسى ما هو أعظم من ذلك موقفها بين يدي الله عز وجل، وأنها ستحاسب على كل عمل تعمله، بل تنسى بديهيات الأمور، حيث تنسى فناء الدنيا، وزوال المنصب، وضياع الجاه والسلطان، لقد كان عمر بن سعد في غنى عن أن يقرن اسمه بأسماء الخونة الغادرين، وأن يسجل في سجل المعتدين الآثمين، لو أنه ضحى بالمنصب، وقبل طاعة الله ورسوله، ولو أنه فعل ما فاته شيء مما كتب له من متاع الدنيا، ولكان عند الله من الأبرار الصالحين[2].

4 - يزيد بن معاوية:

وأما يزيد، فظاهر الأمر أنه كره قتل الحسين ـ رضي الله عنه ـ وحاول أن يمنعه من الخروج، فكتب إلى ابن عباس، يسأله أن يكف الحسين عن الخروج وحين وضعت الرأس الشريفة بين يديه وقال: لعن الله ابن مرجانة كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين، أما والله لو أني صاحبه لعفوت عنه[3]. وهذا البكاء على الحسين، وسب ابن مرجانة لا يرفع اللوم عن يزيد، ولا يخليه من تبعة قتل الحسين وأصحابه، ذلك لأنه كان قادراً على أن يوجه أوامر صريحة لابن زياد بعدم قتل الحسين رضي الله عنه، والتصرف معه بكل حكمة وتعقل، حفظاً لرحمه وقرابته من رسول الله ﷺ ومكانته في قلوب المسلمين[4].

إن تحمل يزيد لمسؤولية قتل الحسين ـ رضي الله عنه ـ قائمة كيف وقد قتل في خلافته وعلى أرض تسيطر عليها جيوشه، وقد كان أمير المؤمنين ـ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ يحمّل نفسه مسؤولية بغلة عثرة في العراق أو في الشام، لم يسو لها الطريق، فكيف إذا كان القتلة هم جند أمير

---

(1) تاريخ الطبري (6/ 335).
(2) الأمويون بين المشرق والمغرب (1/ 244).
(3) أنساب الأشراف (3/ 219، 220) سند حسن.
(4) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 478

المؤمنين[1]؟ إن مقتل الحسين رضي الله عنه سيظل وصمة عار ونقطة سوداء في عهد يزيد بن معاوية بن أبي سفيان.

الثاني عشر: أقوال الناس في يزيد وهل يجوز لعنه؟

افترق الناس في يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ثلاث فرق طرفان ووسط، فأحد الطرفين قالوا: إنه كان كافراً منافقاً، وأنه سعى في قتل سبط رسول الله ﷺ تشفياً من رسول الله ﷺ، وانتقاماً منه، وأخذاً بثأر جده عتبة وأخي جده شيبة، وخاله الوليد بن عتبة، وغيرهم ممن قتلهم أصحاب النبي ﷺ بيد علي بن أبي طالب وغيره يوم بدر، وقالوا: تلك أحقاد بدرية، وآثار جاهلية وأنشدوا عنه:

لما بدت تلك الحمول وأشرفت ... تلك الرؤوس على ربي جيروني
نعق الغراب، فقلت نح أولاً تنح ... فلقد قضيت من النبي ديوني

وقالوا: إنه تمثل بشعر ابن الزِّبعري الذي أنشده يوم أحد:

ليت أشياخي ببدر شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأسل
قد قتلنا الكثير من أشياخهم ... وعدلناه ببدر فاعتدل[2]

وأشياء من هذا النمط وهذا القول سهل على الرافضة الذين يكفرون أبا بكر، وعمر، وعثمان، فتكفير يزيد أسهل.

والطرف الثاني: يظنون أنه كان رجلاً صالحاً وإمام عدل، وأنه كان من الصحابة الذين ولدوا على عهد النبي ﷺ، وحمله على يديه وبرّك عليه، وربما فضله بعضهم على أبي بكر وعمر، وربما جعله بعضهم نبياً، ويقولون عن الشيخ عدي أو حسن المقتول ـ كذباً عليه ـ إن سبعين ولياً صرفت وجوههم عن القبلة لتوقفهم في يزيد، وهذا قول غالية العدوية.. ونحوهم من الضلال، فإن الشيخ عدياً كان من بني أمية وكان رجلاً صالحاً عابداً فاضلاً، ولم يحفظ عنه أنه دعاهم إلا إلى السنة التي يقولها غيره كالشيخ أبي الفرج المقدسي، فإن عقيدته موافقة لعقيدته، لكن زادوا في السنة أشياء كذب وضلال، من الأحاديث الموضوعة، والتشبيه الباطل، والغلو في الشيخ عدي وفي يزيد، والغلو في ذم الرافضة، بأنه لا تقبل لهم توبة وأشياء أخر. وكلا القولين ظاهر البطلان عند من له أدنى عقل وعلم بالأمور وسير المتقدمين، ولهذا لا ينسب إلى أحد من أهل العلم المعروفين بالسنة، ولا إلى ذي عقل من العقلاء الذين لهم رأي وخبرة[3].

---

(1) الأمويون بين المشرق والمغرب (1/ 245).
(2) الفتاوى (4/ 294).
(3) الفتاوى (4/ 295).

والقول الثالث: أنه كان ملكاً من ملوك المسلمين، له حسنات وسيئات، ولم يكن كافراً، ولكن جرى بسببه ما جرى من مصرع الحسين، وفعل ما فعل بأهل الحرة، ولم يكن صاحباً ولا من أولياء الله الصالحين، وهذا قول عامة أهل العقل والعلم والسنة والجماعة. ثم افترقوا ثلاث فرق: فرقة لعنته، وفرقة أحبته، وفرقة لا تسبه ولا تحبه، وهذا هو المنصوص عن الإمام أحمد وعليه المقتصدون من أصحابه وغيرهم من جميع المسلمين. قال صالح بن أحمد: قلت لأبي: إن قوماً يقولون: إنهم يحبون يزيد، فقال: يا بني، وهل يحب يزيد أحد يؤمن بالله واليوم الآخر؟ فقلت: يا ابت، فلماذا لا تلعنه؟ فقال: يا بني، ومتى رأيت أباك يلعن أحداً. وقال منها: سألت أحمد عن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان. فقال: هو الذي فعل بالمدينة ما فعل قلت: وما فعل؟ قال: قتل من أصحاب رسول الله ﷺ وفعل. قلت: وما فعل؟ قال: نهبها. قلت: فيذكر عنه الحديث؟ لا يذكر عنه حديث. وهكذا ذكر القاضي أبو يعلي وغيره[1]، وقال أبو محمد المقدسي لما سئل عن يزيد: فيما بلغني لا يُسَبّ ولا يُحَبّ وقال ابن تيمية: وبلغني ـ أيضاً ـ أن جدنا أبا عبد الله بن تيمية سئل عن يزيد. فقال: لا تنقص ولا تزيد. وهذا أعدل الأقوال فيه وفي أمثاله وأحسنها وأما ترك سبه ولعنته فبناء على أنه لم يثبت فسقه الذي يقتضي لعنه، أو بناء على أن الفاسق المعين لا يلعن بخصوصه، إما تحريماً، وإما تنزيهاً. فقد ثبت في صحيح البخاري عن عمر في قصة «حمار» الذي تكرر منه شرب الخمر وجلده لما لعنه بعض الصحابة قال النبي ﷺ: ولا تلعنه، فإنه يحب الله ورسوله[2]. وقال: لعنُ المؤمن كقتله[3] هذا مع أنه قد ثبت عن النبي ﷺ لعن عموماً شارب الخمر ونهى في الحديث الصحيح عن لعن هذا المعين وهذا كما أن نصوص الوعيد عامة في أكل أموال اليتامى، والزاني والسارق، فلا نشهد بها عامة على معين بأنه من أصحاب النار، لجواز تخلف المقتضَى عن المقتضِي لمعارض راجع: إما توبة، وإما حسنات ماهية، وإما مصائب مكفرة وإما شفاعة مقبولة وإما غير ذلك[4]. ومن اللاعنين من يرى أن ترك لعنته مثل ترك سائر المباحات من فضول القول، لا لكراهة في اللعنة، وأما ترك محبته، فلأن المحبة الخاصة إنما تكون للنبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وليس واحداً منهم، وقد قال النبي ﷺ: المرء مع من أحب[5]، ومن آمن بالله واليوم والآخر، لا يختار أن يكون مع يزيد ولا مع أمثاله من الملوك، الذين ليسوا بعادلين. ولترك المحبة مأخذان: أحدهما: أنه لم يصدر عنه من الأعمال الصالحة ما يوجب محبته، فبقى واحداً من الملوك المسلطين ومحبة أشخاص هذا النوع ليست مشروعة، وهذا المأخذ ومأخذ من لم يثبت عنده فسقة أعتقد تأويلاً. والثاني: أنه صدر عنه ما يقتضي ظلمه وفسقه في سيرته من أمر الحسين وأمر أهل الحرة[6].

---

(1) الفتاوى (4/ 295).
(2) البخاري رقم (6780).
(3) البخاري (6652).
(4) الفتاوى (4/ 296).
(5) البخاري رقم (6169).
(6) الفتاوى (4/ 296).

وأما الذين لعنوه من العلماء كأبي الفرج الجوزي، والكيا الهراسي[1] وغيرهما، فلما صدر عنه من الأفعال التي تبيح لعنته، ثم قد يقولون: هو فاسق، وكل فاسق يلعن، وقد يقولون بلعن صاحب المعصية وإن لم يحكم بفسقة،... وقد يلعن لخصوص ذنوبه الكبار، وإن كان لا يلعن سائر الفساق، كما لعن رسول الله ﷺ أنواعاً من أهل المعاصي، وأشخاصاً من العصاة وإن لم يلعن جميعهم فهذه ثلاثة مآخذ للعنته[2]

وأما الذين سوغوا محبته أو أحبوه، كالغزالي، والدستي فلهم مأخذان: أحدهما: أنه مسلم ولي أمر الأمة على عهد الصحابة وتابعه بقاياهم، وكانت فيه خصال محمودة وكان متأولاً فيما ينكر عليه من أمر الحرة وغيره، فيقولون: هو مجتهد مخطيء، ويقولون: إن أهل الحرة هم نقضوا بيعته أولاً وأنكر ذلك عليهم ابن عمر وغيره، وأما قتل الحسين فلم يأمر به ولم يرض به، بل ظهر منه التألم لقتله، وذم من قتله، ولم يحمل الرأس إليه، وإنما حمل إلى ابن زياد. والمأخذ الثاني: أنه قد ثبت في صحيح البخاري عن ابن عمر، إن رسول الله ﷺ قال: أول جيش يغزو القسطنطينية مغفور له[3]. وأول جيش غزاها كان أميره يزيد. والتحقيق أن هذين القولين يسوغ فيهما الاجتهاد، وكذلك محبة من يعمل حسنات وسيئات، بل لا يتنافى عندنا[4] أن يجتمع في الرجل الحمد والذم، والثواب والعقاب، كذلك لا يتنافى أن يصلى عليه ويدعى له وأن يلعن ويشتم أيضاً باعتبار وجهين. فإن أهل السنة متفقون على أن فساق أهل الملة ـ وإن دخلوا النار، أو استحقوا دخولها فإنهم ـ لا بد أن يدخلوا الجنة، فيجتمع فيهم الثواب والعقاب، ولكن الخوارج والمعتزلة تنكر ذلك، وترى أن من استحق الثواب لا يستحق العقاب ومن استحق العقاب لا يستحق الثواب[5]. وأما جواز الدعاء للرجل وعليه... فإن موتى المسلمين يُصلي عليهم، برهم وفاجرهم، وإن لعن الفاجر مع ذلك بعينه أو بنوعه، لكن الحال الأول أوسط وأعدل، وبذلك أجاب ابن تيمية رحمه الله مقدم المغول بولاي، لما قدموا دمشق في الفتنة الكبيرة وجرت بينهما وبين غيره مخطابات، فسأل ابن تيمية: ما تقولون في يزيد؟ فقال: لا نسبه ولا نحبه، فإنه لم يكن رجلاً صالحاً فنحبه ونحن لا نسب أحداً من المسلمين بعينه فقال أفلا تلعنونه؟ أما كان ظالماً؟ أما قتل الحسين؟ فقلت له: نحن إذا ذكر الظالمون ـ كالحجاج بن يوسف وأمثاله ـ نقول كما قال الله في القرآن: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ [هود: 18] ولا نحب أن نلعن أحد بعينه، وقد لعنه قوم من العلماء، وهذا مذهب يسوغ فيه الاجتهاد، لكن هذا القول أحب إلينا وأحسن وأما من قتل الحسين أو

---

(1) هو علي بن محمد الطبري الملقب بعماد الدين توفي 504هـ.
(2) الفتاوى (4/ 297).
(3) البخاري رقم (2924).
(4) الفتاوى (4/ 297).
(5) المصدر نفسه (4/ 297).

أعان على قتله، أو رضي بذلك، فعليه لعنة الله والملائكة والناس، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً. قال: فما تحبون أهل البيت؟ قلت محبتهم عندنا فرض واجب يؤجر عليه، فإنه قد ثبت عندنا في صحيح مسلم عن زيد بن أرقم قال: خطبنا رسول الله ﷺ بغدير يدعى خمّ، بين مكة والمدينة فقال: أيها الناس إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله. فذكر كتاب الله وحض عليه، ، ثم قال: وعترتي أهل بيتي[1] قال ابن تيمية لمقدم المغول: ونحن نقول في صلاتنا كل يوم: اللهم صلى على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم، إنك حميد مجيد، وبارك على محمد، وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد. قال مقدم المغول: فمن يبغض أهل البيت؟ قال: من أبغضهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، ولا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً. ثم قال ابن تيمية للوزير المغولي: لأي شيء قال عن يزيد وهذا تتريٌّ؟ قال: قد قالوا له: إن أهل دمشق نواصب، قال ابن تيمية بصوت عال: يكذب الذي قال هذا، ومن قال هذا، فعليه لعنة الله، والله ما في أهل دمشق نواصب، وما علمت فيهم ناصبيا ولو تنقص أحد علياً بدمشق لقام المسلمون[2] عليه وعلينا أن نعرف أن لعن يزيد لم يتشر إلا بعد أن قامت الدولة العباسية وأفسحت المجال للنيل من بني أمية[3]، وأما الحديث الذي ورد مرفوعاً: «لا يزال أمر أمتي قائماً، حتى يثلمه رجل من بني أمية يقال له: يزيد، فهو حديث غير صحيح، لأن فيه أكثر من علة[4]، فقد رواه أبو يعلي في مسنده من طريق صدقة السمين، عن هشام، عن مكحول عن أبي عبيدة مرفوعاً وفيه علتان.

أ ـ ضعف صدقة السمين، وهو أبو معاوية، صدقة بن عبد الله السمين، الدمشقي، ضعفه ابن معين والبخاري وأبو زرعة والنسائي، وقال أحمد ما كان من حديثه مرفوعاً فهو منكر، وما كان من حديثه مرسلاً عن مكحول فهو أسهل وهو ضعيف جداً وقال أيضاً: ليس يسوى شيئاً، أحاديثه مناكير وقال الدّارقطني: متروك[5]

ب ـ أن هناك انقطاعاً بين مكحول وأبي عبيدة لأنه لم يدركه[6].

وقد تحدث ابن كثير عن الأحاديث في ذم يزيد فقال: وقد أورد ابن عساكر أحاديث في ذمّ يزيد بن معاوية كلها موضوعة لا يصح منها شيء، وأجود ما ورد ما ذكرناه على ضعف أسانيده وانقطاع بعضه، والله أعلم[7]

---

(1) مسند أحمد (4/ 367).

(2) الفتاوى (4/ 297، 298).

(3) مواقف المعارضة، ص: 501.

(4) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص: 204، مسند أبو يعلى رقم 870.

(5) تهذيب التهذيب (4/ 381).

(6) أحداث وأحاديث، ص: 204.

(7) البداية والنهاية نقلاً عن أحداث وأحاديث، ص: 204.

الثالث عشر: التحذير من أساطير حول مقتل الحسين رضي الله عنه:

إن الشيعة بالغوا في نقل أخبار تلك الحادثة، وامتلأت كتب التاريخ بحوادث عجيبة قيل إنها وقعت إثر مقتل الحسين، من احمرار الأفق، وتدفق الدماء من تحت الحجارة، وبكاء الجنّ، إلى غير ذلك من الخيال الذي نسجته عقول الشيعة يومئذٍ، وما زالوا يردّدونه إلى اليوم تضخيماً لهذا الحادث على حساب غيره من الأحداث الأخرى[1]، وإن الذي يدرس أسانيد تلك الأخبار والرّوايات لا يرى إلا ضعفاً هالكاً، أو مجهولاً لا يعرف أصله أو مدلّساً يريد تعمية الأبصار عن الحقائق[2]، ومن أكاذيب مؤرخي الشيعة على سبيل المثال في هذه الموقعة أن السبايا حملن على نجائب الأبل عرايا حتى أن الإبل البخاتي[3] إنما نبتت لها الأسنمة من ذلك اليوم لتستر عوارتهن من قبلهن ودبرهن[4]. وقال ابن كثير: ولقد بالغ الشّيعة في يوم عاشوراء، فوضعوا أحاديث كثيرة وكذباً فاحشاً، من كون الشمس كسفت يومئذٍ حتى بدت النجوم، وما رفع يومئذٍ حجر إلا وجد تحته دم، وإن أرجاء السماء احمرّت، وأن الشمس كانت تطلع وشُعاعُها كأنه الدم وصارت السماء كأنها علقة، وأن الكواكب صار يضرب بعضها بعضاً، وأمطرت السماء دماً أحمر، وأن الحمرة لم تكن في السماء قبل يومئذٍ.. وأن رأس الحسين لما دخلوا به قصر الإمارة جعلت الحيطان تسيل دماً، وأن الأرض أظلمت ثلاثة أيام، ولم يُمسَّ زعفران ولا ورس مما كان معه يومئذٍ إلا احترق مسّه، ولم يرفع حجر من حجارة بيت المقدس إلا ظهر تحته دم عبيط. وأن الإبل التي غنموها من إبل الحسين حين طبخوها صار لحمها مثل العلقم. إلى غير ذلك من الأكاذيب والأحاديث الموضوعة التي لا يصح منها شيء[5].

● انتقام الله من قتلة الحسين: وأما ما رُوِيَ من الأمور والفتن التي أصابت من قتله فأكثرها صحيح فإنّه قَلَّ من نجا منهم في الدنيا إلا أُصيب بمرض، وأكثرهم أصابه الجنون، وللشيعة والرافضة في صفة مصرع الحسين رضي الله عنه، كذب كثير وأخبار طويلة، وفيما ذكرناه كفاية وفي بعض ما أوردنا نظر، ولولا أن ابن جرير وغيره من الحفاظ الأئمة ذكروه ما سُقته وأكثره من رواية أبي مخنف لوط ابن يحيى، وقد كان شيعياً وهو ضعيف الحديث عند الأئمة ولكنه أخباري حافظ عنده من هذه الأشياء ما ليس عند غيره، ولهذا يترامى عليه كثير من المصنّفين ممّن بعده والله أعلم[6]. ويقول ابن تيمية رحمه الله: وأما السؤال عن سَبْي أهل البيت وإراكابهم حتى نبت لها سنامان وهي البّخاتي ليستروا بذلك، فهذا من أقبح الكذب وأبينه وهو مما افتراه

---

(1) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص: 204.
(2) المصدر نفسه، ص: 213.
(3) البخت: الإبل الخراسانية.
(4) البداية والنهاية (11/ 564، 565).
(5) البداية والنهاية (11/ 576).
(6) المصدر نفسه (11/ 577).

الزنادقة والمنافقون، الذين مقصودهم الطعن في الإسلام وأهله، من أهل البيت وغيرهم، فإن من سمع مثل هذا وشهرته وما فيه من الكذب قد يظن أو يقول إن المنقول إلينا من معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء هو من الجنس، ثم إذا تبين أن الأمة سَبَّتْ أهل بيت نبيها، كان فيها من الطعن في خير أمة أخرجت للناس ما لا يعلمه إلا الله، إذ كل عاقل يعلم أن الإبل البَخَاتي كانت مخلوقة موجودة قبل أن يبعث الله النبي ﷺ، وقبل وجود أهل البيت، كوجود غيرها من الإبل والغنم، والبقر والخيل والبغال[1]، وللأسف الشديد، فقد شحنت المصادر التاريخية الإسلامية، مثل تاريخ الطبري، وتاريخ ابن عساكر وغيرهما بمثل هذه الأباطيل والأكاذيب، ممّا يتطلب تحقيقاً علمياً لهذين الكتابين خاصة، ولغيرهما من كتب التاريخ[2].

الرابع عشر: ما قيل من رثاء في الحسين رضي الله عنه:

قال سليمان بن قَتَّة التيمي:

وإن قتيل الطَّف من آل هاشم ... أذل رقاباً من قريش فذلَّت
مررت على أبيات آل محمد ... فألفيتها أمثالها حين حُلّت
وكانوا لنا غُنْماً فعادوا رَزِيّة ... لقد عظمت تلك الرزايا وجَلّت
فلا يبعد الله الديار وأهلها ... وإن أصبحت منهم برغمي تخلت
إذا افتقرت قيسٌ جبرنا فقيرَها ... وتقتلنا قيس إذا النَّعلُ زلّت
وعند غِنيٍّ قطرة من دمائنا ... سنجزيهم يوماً بها حيث حَلّت
ألم تر أن الأرض أضحت مريضة ... لفقد حسين والبلاد أقشعرت[3]

وقال أبو الأسود الدِّيْلي في قتل الحسين رضي الله عنه:

أقول وذاك من جزع ووجد ... أزال الله ملك بني زياد
وأبعدهم بما غدروا وخانوا ... كما بعدت ثمود وقوم عاد
همو خَشَمُوا الأنوف وكنا شُمّا ... لقتل ابن القُعَاسِ أخي مراد[4]
قتيل السوق يا لك من قتيل ... به نضح من أحمر كالجِساد
وأهل نبينا من قبل كانوا ... ذوي كرم دعائم للبلاد
حسين ذو الفضول وذو المعالي ... يزين الحاضرين وكُلٌّ باد
أصاب العِزَّ مَهْلِكُهُ فأضحى ... عميداً بعد مصرعه فؤادي[5]

---

(1) الفتاوى (4/ 306).
(2) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص: 213.
(3) الطبقات (1/ 512) تحقيق السُلمي.
(4) ابن القُعَاس: وصف لهانئ بن عروة يقال: رجل أقعس: ثابت عزيز منيع، لسان العرب (6/ 177).
(5) الطبقات تحقيق السُلمي (1/ 512).

وقال عبيد الله بن الحر أيضاً:

يا لكِ حسرة ما دمت حيا ... تردّد بين حلقي والتّراقي
حسيناً حين يطلب بذل نصري ... على أهل العداوة والشّقاق
ولو أني أواسيه بنفسي ... لنلت كرامة يوم التّلاق
مع ابن المصطفى نفسي فداه ... فولّى ثم ودّعَ بالفراق
غداة يقول لي بالقصر[1] قولا ... أتتركنا وتُزمع بالطّلاق؟
فلو فلق التّلهّفُ قلب حَيّ ... لهمَّ اليومَ قلبي بانطلاق
فقد فاز الأُولى نصروا حسيناً ... وخاب الآخرون أولو النفاق[2]

وقال شاعر الإسلام محمد أقبال:

وحسين في الأبرار والأحرار ... ما أزكى شمائله وما أنداها
فتعلموا ريّ اليقين من الحسين ... إذا الحسين وقد أجاب نداها
الأمهات يلدن للشمس الضياء ... وللجواهر حسنها وصفاها[3]

المبحث الرابع

أهم الدروس والعبر والفوائد:

أولاً: يوم عاشوراء: وهو اليوم العاشر من محرم الحرام، وقد ابتدع فيه بدع منكرة، وهلك فيه طائفتان بين إفراط وتفريط طائفة تجعله يوم فرح وسرور وأخرى يوم حزن ونياحة[4].

لقد غلت الشيعة في مقتل الحسين رضي الله عنه غلواً مفرطاً فجعلوا يوم استشهاده رضي الله عنه العاشر من محرم مأتماً وحزناً ونياحة يكررونه في كل عام إلى يومنا هذا ورتبوا على هذا الفعل الأجر والثواب، فهو جالب للمغفرة والرحمة، مكفرة للذنوب والخطايا في زعمهم[5]. فقد روى الطوسي في أماليه بسنده عن الرضا عليه السّلام أنه قال من ترك السعي في حوائجه يوم عاشوراء قضى الله له حوائج الدنيا والآخرة ومن كان يوم عاشوراء يوم مصيبته وحزنه وبكائه جعل الله عز وجل يوم القيامة، يوم فرحه وسروره وقرت بنا في الجنان عينه[6]، وبسنده أيضاً

(1) القصر: هو قصر بني مقاتل وهو المكان الذي التقى فيه مع الحسين.
(2) الطبقات (1/ 516).
(3) الدوحة النبوية، ص: 130.
(4) الأعياد وأثرها على المسلمين، سليمان السجمي، ص: 261.
(5) العقيدة في أهل البيت بين الإفراط والتفريط ص، 490.
(6) أمالي الطوسي، ص: 194، بحار الأنوار (44/ 284).

عن أبي عمارة الكوفي قال: سمعت جعفر بن محمد عليه السلام يقول: من دمعت عينه دمعة لدم سفك لنا أو حق لنا أنقصاه أو عرض انتهك لنا أو لأحد من شيعتنا بوأه الله تعالى بها في الجنة أحقاباً[1]. وروى البرقي بسنده عن جعفر الصادق أنه قال: من ذكر عنده الحسين فخرج من عينه دمع مثل جناح بعوضة غفر له ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر[2]. وقد بوب المجلسي باباً قال فيه: باب ثواب البكاء على مصيبته ومصائب سائر الأئمة وفيه أدب المأتم يوم عاشوراء، وساق فيه أكثر من ثمان وثلاثين رواية[3] منها ما رواه بسنده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كل الجزع والبكاء مكروه سوى الجزع والبكاء على الحسين عليه السلام[4]. بل زعموا أن السماء والأرض بكت لقتله فأمطرت السماء دماً وتراباً أحمر، كما بكت الملائكة والجن وسائر المخلوقات[5]، ولم يكتفوا بذلك حتى قالوا بتحريم يوم عاشوراء وأن من صامه فهو عدو للحسين وأهل بيته ﷺ أجمعين[6]، فقد روى الكليني بسنده عن جعفر بن عيسى قال: سألت الرضا عليه السلام عن صوم يوم عاشوراء وما يقول الناس فيه، فقال: عن صوم ابن مرجانة تسألني، ذلك يوم صامه الأدعياء من آل زياد لقتل الحسين عليه السلام وهو يوم يتشاءم به آل محمد ﷺ ويتشاءم به أهل الإسلام لا يصام ولا يتبرك به ويوم الاثنين يوم نحس قبض الله عز وجل فيه نبيه وما أصيب آل محمد إلا في يوم الاثنين فتشاءمنا به وتبرك به ابن مرجانة وتشاءم به آل محمد ﷺ، فمن صامهما أو تبرك بهما لقي الله تبارك وتعالى ممسوخ القلب وكان حشره مع الذين سنوا صومهما والتبرك بهما[7]. والأكاذيب في هذا الباب كثيرة.
وهذه المآتم تظهر علناً كلما قويت شوكة الشيعة أو ظهرت لهم دولة ففي دولة بني بويه الشيعية في سنة اثنين وخمسين وثلاثمائة ألزم معز الدولة ابن بابويه يوم عاشوراء أهل بغداد بالنواح على الحسين رضي الله عنه، وأمر بغلق الأسواق ومنع الطباخين من عمل الأطعمة، وخرجت نساء الشيعة منشرات الشعور مضحمات الوجوه يلطمن ويفتن الناس، وهذا أول ما نيح عليه[8]، كما اتخذت الدولة العبيدية الفاطمية على كثرة أعيادها ومناسباتها يوم عاشوراء يوم حزن ونياحة فكانت تتعطل فيه الأسواق ويخرج فيه المنشدون في الطرقات، وكان الخليفة يجلس في ذلك اليوم متلثماً يرى به الحزن كما كان القضاة، والدعاة، والأشراف، والأمراء يظهرون وهم ملثمون حفاة، فيأخذ الشعراء بالإنشاد ورثاء أهل البيت وسرد الروايات والقصص التي اختلقوها في مقتل الحسين رضي الله عنه [9]. ومن مظاهرهم في هذه الأيام خروج المواكب العزائية

---

(1) البحار (44/ 279) أمالي المفيد، ص: 112.
(2) المحاسن، ص: 36، البحار (44/ 289).
(3) البحار (44/ 278 - 296).
(4) المصدر نفسه (44/ 280).
(5) المصدر نفسه (44/ 285 - 286).
(6) العقيدة في أهل البيت، ص: 492.
(7) الكافي (4/ 146) الاستبصار (2/ 35) البحار (45/ 59).
(8) العبر للذهبي (2/ 89) البداية والنهاية (11/ 577).
(9) الخطط للمقريزي (1/ 431).

في الطرقات والشوارع مظهرين اللطم بالأيدي على الخدود والصدور، والضرب بالسلاسل والحديد على الأكتاف حتى تسيل الدماء[1] وقد وصف ابن كثير ما يفعل الشيعة من تعدي لحدود الكتاب والسنة في دولة بني بويه في حدود الأربعمائة وما حولها فقال: فكانت الدَّبادب[2] تضرب ببغداد ونحوها من البلاد في يوم عاشوراء ويُذَرُّ الرماد والتبن في الطرقات والأسواق وتعلق المسوح على الدكاكين ويظهر الناس الحزن والبكاء، وكثير منهم لا يشرب الماء ليلتذ موافقه للحسين، لأنه قتل عطشان ثم تخرج النساء حاسرات عن وجوههن ينحن ويلطمن وجوههن وصدورهن حافيات في الأسواق إلى غير ذلك من البدع الشنيعة والأهواء الفظيعة والهتائك المخترعة وإنما يريدون بهذا وأشباهه أن يُشنِّعوا على دولة بني أمية، لأنه قتل في أيامهم[3].

وقد جوّز علماء الشيعة ما يسمونه بالمواكب العزائية فقد أجاب محمد حسين الغروي النائيني عندما وجهت إليه أسئلة حول المواكب العزائية إذ قال:

1 - خروج المواكب العزائية في عشرة عاشوراء ونحوها إلى الطرقات والشوارع مما لا شبهة في جوازه ورجحانه وكونه من أظهر مصاديق ما يقوم به عزاء المظلوم وأيسر الوسائل لتبليغ الدعوة الحسينية إلى كل قريب وبعيد.

2 - لا إشكال في جواز اللطم بالأيدي على الخدود والصدور حد الاحمرار والإسوداد بل يقوي جواز الضرب بالسلاسل أيضاً على الأكتاف والظهور إلى الحد المذكور بل وإن تأذى كل من اللطم والضرب إلى خروج دم يسير على الأقوى، وأما إخراج الدم من الناحية بالسيوف والقامات فالأقوى جواز ما كان ضرره مأموناً.

3 - الظاهر عدم الإشكال في جواز التشبيهات والتمثيلات التي جرت عادة الشيعة الإمامية باتخاذها لإقامة العزاء والبكاء والإبكاء منذ قرون وإن تضمنت لبس الرجال ملابس النساء على الأقوى، فهذه الفتوى المعمول بها اليوم لدى الشيعة وعليها الإجماع وقد قرضها أكثر من اثني عشر من علمائهم[4]، وفي وصف هذه المظاهر يقول ناصر الدين شاه: وفي الهند وباكستان وإيران والعراق تكتسي هذه المآتم حللاً مركبة إذ يخرج الرجال في الطرقات وهم يسيرون وراء هودج قد يبالغون في ارتفاعه حتى يبلغ بضعة أمتار وهم عراة وفي أيديهم زناجير من حديد وفي رؤوسها شفرات صغيرة حادة يضربون بها صدورهم وظهورهم حتى تسيل الدماء منهم، وفي

---

(1) العقيدة في أهل البيت، ص: 494.
(2) الدبادب: جمع الدّبداب وهو الطبل.
(3) البداية والنهاية (11/ 577).
(4) مقتل الحسين وفتاوى العلماء الأعلام في تشجيع= الشعائر للشيخ مرتضى عياد، ص: 12 - 40، وممن قرضها وأقرّها: العقيدة في أهل البيت، ص: 495.

كثير من الأحيان يموت بعضهم، أما النساء فإنهن يجلسن في دورهن ينحن ويبكين ويلطمن صدورهن بأيديهن كل هذا تكريماً للحسين الذي قتل مظلوماً بزعمهم[1]، ويقول السيد محسن الأمين الحسيني العاملي معللاً إقامة المآتم، ونريد بإقامة المآتم البكاء لقتله (عليه السلام) بإخراج الدمع بصوت وبدونه والتعرض لما يسبب ذلك وإظهار شعار الحزن والتأسف والتألم لما صدر عليه، وتذكر مصابه ونظم الأشعار في رثائه، وتلاوتها واستماعها وتهييج النفوس بها للحزن والبكاء[2]. ولم يكتفوا بذلك يقول الخميني: إن البكاء على سيد الشهداء عليه السلام وإقامة المجالس الحسينية هي التي حفظت الإسلام منذ أربعة عشر قرناً[3]. فمتى كان البكاء دعوة ومتى كان العويل جهاداً فهذا معتقد الشيعة الإمامية في مقتل الحسين وفي يوم عاشوراء فهل هذا الفعل من الإسلام في شيء؟

إن الحسين رضي الله عنه بريء من تلك الأفعال المذكورة لأن الإسلام الذي جاء به جده عليه الصلاة والسلام لا يجوّز تلك الأفعال فقد قال ﷺ: **«ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدوى[4] الجاهلية»** وقال ﷺ: **«النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال[5] من قطران[6]، ودرع من جرب»**[7]، وقال ﷺ: **«أنا بريء من الصالقة والحالقة والشاقة»**[8]، كما أن ما يفعله الشيعة في الحسينيات والمآتم تحت مسمى الشعائر الحسينية مثل: اللطم والنياحة ولبس السواد، والتطبير وغيرها والتي أفتى علماؤهم وعظماؤهم بجوازها فإنها محرمة عل لسان الرسول ﷺ وعلى ألسنة أئمة أهل البيت الكرام في المصادر الشيعية القديمة والحديثة، واعترف بهذا التحريم شيوخ وأعلام المذهب الشيعي الإثني عشر[9]، فهذا محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي الملقب عند الشيعة بالصدوق قال: من ألفاظ رسول الله ﷺ التي لم يسبق إليها: النياحة من عمل الجاهلية[10]. ورواه محمد باقر

---

(1) العقائد الشيعية، ص: 135.
(2) إقناع اللائم على إقامة المآتم، ص: 2.
(3) عقيدة أهل السنة في أهل البيت، ص: 496، نقلاً عن كشف الأسرار.
(4) البخاري رقم (1294).
(5) السربال: القميص.
(6) القطران: هو النحاس المذاب شديدة الحرارة.
(7) مسلم رقم (934).
(8) الصالقة: التي تصيح، والحالقة: التي تحلق شعرها، والشاقة: التي تشق جيبها، مسلم، كتاب: الإيمان، رقم 167.
(9) من قتل الحسين، ص: 73.
(10) من لا يحضره الفقيه (4/ 271 - 272).

المجلسي بلفظ: النياحة عمل الجاهلية[1]، فالنوح الذي استمرت عليه الشيعة جيلاً بعد جيل بعد جيل من عمل الجاهلية كما أخبر به النبي ﷺ[2]. ومن هذه الروايات التي تنهى عما يقترفه الشيعة في الحسينيات ما قاله أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: وإياك والنواح على الميت ببلد يكون لك به سلطان[3]، وقوله: ثلاث من أعمال الجاهلية لا يزال فيها الناس حتى تقوم الساعة: الاستسقاء بالنجوم والطعن في الأنساب والنياحة على الموتى[4]، ومن الأدلة قول الإمام الباقر: أشد الجزع الصراخ بالويل والعويل ولطم الوجه والصدر وجز الشعر من النواصي، ومن أقام النواحة فقد ترك الصبر وأخذ في غير طريقه[5]، وقد أنكر ما يحدث من ضرب الرؤوس بالخناجر والسيوف وإسالة الدماء الشيخ حسن مغنية: والواقع أن ضرب الرؤوس بالخناجر والسيوف وإسالة الدماء ليست من الإسلام في شيء ولم يرد فيها نص صريح ولكنها عاطفة نبيلة تجيش في نفوس المؤمنين لما أريق من الدماء الزكية على مذابح فاجعة كربلاء[6]، ولا شك إن هذه الأمور من المنكرات والبدع الشنيعة[7]. إن الإسلام علمنا آداب المصائب ومقتل الحسين رضي الله عنه مصيبة عظيمة، فمن آداب الإسلام في المصائب.

1 - الصبر عليها:

وهذا أعظم آدابها، أن يصبر المؤمن على المصيبة التي تنزل به، ومن هذا الصبر حبس القلب عن التسخط، وحبس اللسان عن الشكوى وحبس الجوارح عمّا يغضب الله تعالى من لطم الخدود، وشق الجيوب وخمش الوجوه، ونتف الشعر والدعاء بدعوة الجاهلية وينبغي أن يكون هذا الصبر عند سماع الإنسان خبر المصيبة لأول مرة وذلك لقوله ﷺ: «**إنما الصبر عند الصدمة الأولى**»[8].

2 - احتساب المصيبة والصبر عليها:

فينبغي أن يلتمس الأجر من الله تعالى في هذا الصبر، فيصبر ابتغاء موعود الله من الأجر والثواب ويصبر لأن الله أمره بالصبر، فقال عز وجل: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: 17]، ويتذكر إن فقد عزيزاً لديه، قول النبي ﷺ: يقول الله تعالى: «**ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيَّه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة**»[9] وصفيُّه: أي حبيبه من ولد أو والد أو نحوه. وهكذا فإن الله تعالى وعد بالأجر العظيم على الصبر على المصائب، ولكن بشرط أن يكون الصبر ابتغاء وجه الله تعالى، كما قال عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟

---

(1) بحار الأنوار (82/ 103).
(2) من قتل الحسين، ص: 73.
(3) مستدرك الوسائل للنوري (1/ 44).
(4) بحار الأنوار (82/ 101).
(5) الكافي للكليني (3/ 222 - 223).
(6) آداب المنابر، ص: 182.
(7) من قتل الحسين، ص: 83.
(8) البخاري رقم (1283).
(9) البخاري رقم (4624).

ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴿٢٢﴾ [الرعد: 22]، فينبغي أن يكون الصبر لله تعالى، ولا صبر المغلوب. بل صبر الراضي بقضاء الله، المسلِّم به[1].

3 - الاسترجاع ودعاء المصيبة:

فيقول المرء عند نزول المصيبة: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي، وأخلف لي خير منها. فقد قال الله ﷻ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: 155-157]. وقال ﷺ: «ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون. اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيراً منها إلا أخلف الله له خيراً منها»[2]، قالت أم سلمة: فلما مات أبو سلمة قلت: أي المسلمين خير من أبي سلمة؟ أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ. ثم إني قلتها، فأخلف الله لي رسول الله[3].

ويقول كذلك: الله ربي لا شريك له: فإن ذلك يكشف عنه المصائب والبلاء بإذن الله، وقد قال ﷺ: «من أصابه هم أو غم، أو سقم، أو شدة فقال: الله ربي لا شريك له. كشف ذلك عنه»[4]، ويدعو كذلك بدعاء المكروب الذي ذكره النبي ﷺ حيث قال: دعوات المكروب: اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله لا إله إلا أنت[5]، ويقول كذلك كما كان النبي ﷺ يقول: فإنه ﷺ: كان إذا كربه أمر قال: «يا حي يا قيوم، برحمتك استغيث»[6].

4 - اجتناب كل ما يغضب الله:

وذلك من جنس الجهر بالسوء من القول، واللطم، وشق الجيوب، وحلق الشعور، والنياحة والشكوى إلى الناس والدعاء بالموت، والويل والثبور، وغير ذلك، فهذا كله يغضب الله تعالى، وينافي الصبر على المصائب والرضا بها[7].

5 - تهوين المصيبة على النفس بتذكرة وفاة النبي ﷺ:

فإن وفاته وانقطاع وحي السماء من أعظم المصائب التي نزلت بالأمة، وبكل مسلم، وإذا

(1) موسوعة الآداب الإسلامية، عبد العزيز فتحي (2/ 786).
(2) مسلم رقم (918).
(3) مسلم رقم (918).
(4) صحيح الجامع رقم (6040).
(5) سنن أبي داود رقم (5090)، صحيح الجامع رقم (3388).
(6) سنن الترمذي رقم (3524) صحيح الجامع.
(7) موسوعة الآداب الإسلامية (2/ 788).

تذكر المصاب بمصيبة ما تلك المصيبة العظيمة بوفاة النبي ﷺ، وهوّن ذلك عليه مصيبته التي نزلت به، فإن المصيبة العظيمة لا تهون إلا بالنظر إلى ما هو أعظم منها، وقد قال ﷺ: «**إذا أصاب أحدكم مصيبة فليذكر مصيبته بي فإنها من أعظم المصائب**»[1].

6 - مشاهدة النعمة في المصيبة:

فمن أدب المسلم مع المصيبة أن يشاهد فيها نعمة الله تعالى، ولئن كان قتل الحسين رضي الله عنه عظيماً وشرّاً كبيراً، فإنه بالنسبة له خير وإكرام يقول ابن تيمية رحمه الله فلما قتل الحسين بن علي رضي الله عنهما يوم عاشوراء قتلته الطائفة الظالمة الباغية وأكرم الله تعالى الحسين بالشهادة كما أكرم بها من أكرم من أهل بيته. أكرم بها حمزة وجعفراً وأباه علياً وغيرهم، وكانت شهادته مما رفع الله بها منزلته وأعلى درجته، فإنه هو وأخوه الحسن سيدا شباب أهل الجنة والمنازل العالية لا تنال إلا بالبلاء كما قال ﷺ لما سئل: أي الناس أشد بلاء؟ فقال: «**الأنبياء ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة خُفف عنه، ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة**»[2]. فكان الحسن والحسين قد سبق لهما من الله ـ تعالى ـ ما سبق من المنزلة العالية، ولم يكن حصل لهما من البلاء ما حصل لسلفهما الطيب، فإنهما وُلِدا في عز الإسلام، وتربيا في عز وكرامة، والمسلمون يعظمونهما، ويكرمونهما، ومات النبي ﷺ ولم يستكملا سن التميز، فكانت نعمة الله عليهما أن ابتلاهما بما يُلحقهما بأهل بيتهما، كما ابتلى من كان أفضل منهما فإن علي بن أبي طالب أفضل منهما، وقد قُتل شهيداً[3].

7 - تذكر القضاء السابق:

فإن المسلم متى ما أيقن إن هذه المصائب مكتوبة، ومقدرة، ومتى ما استحضر في ذهنه أن كل ما قدره الله فهو لابد كائن واقع لا محيد عنه، وأن لله تعالى حكمة في تقدير هذه المصائب، كلما تذكر هذه الأمور هانت عليه المصائب[4]، قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد: 22-23].

8 - رأي ابن تيمية وابن كثير في ما يحدثه الشيعة يوم عاشوراء:

أ ـ قال ابن تيمية: وصار الشيطان بسبب قتل الحسين رضي الله عنه يحدث للناس بدعتين بدعة

---

(1) البيهقي في شعب الإيمان رقم (10152)، صحيح الجامع (347).

(2) الترمذي رقم (2398) حسن صحيح.

(3) الفتاوى (25/ 162).

(4) موسوعة الآداب الإسلامية (2/ 790).

الحزن والنوح يوم عاشوراء من اللطم والصراخ والبكاء والعطش وإنشاد المراثي وما يفضي إلى ذلك من سب السلف الصالح ولعنهم وإدخال من لا ذنب له من ذوي الذنوب حتى يسب السابقون الأولون وتقرأ أخبار مصرعه التي كثير منها كذب وقصد من سنَّ ذلك فتح باب الفتنة والفرقة بين الأمة، فإن هذا ليس واجباً ولا مستحباً باتفاق المسلمين بل إحداث الجزع والنياحة للمصائب القديمة من أعظم ما حرم الله ورسوله[1]. والذي أمر الله به ورسوله ﷺ في المصيبة إذا كانت جديدة إنما هو الصبر والاحتساب والاسترجاع... وإذا كان الله قد أمر بالصبر والاحتساب والاسترجاع... وإذا كان الله قد أمر بالصبر والاحتساب عند حدثان العهد بالمصيبة، فكيف مع طول الزمان؟ فكان ما زينه الشيطان لأهل الضلال والغي من اتخاذ يوم عاشور مأتماً وما يصنعون فيه من الندب والنياحة، وإنشاد قصائد الحزن ورواية الأخبار التي فيها كذب كثير والصدق فيها ليس فيه إلا تجديد الحزن والتعصب، وإثارة الشحناء والحرب وإلقاء الفتن بين أهل الإسلام، والتوسل بذلك إلى سب السابقين الأولين، وكثرة الكذب والفتن في الدنيا[2].

ب ـ وأما ابن كثير فيقول: فكل مسلم ينبغي له أن يحزنه هذا الذي وقع من قتله رضي الله عنه، فإنه من سادات المسلمين وعُلماء الصحابة، وابن بنت رسول الله ﷺ التي هي أفضل بناته، وقد كان عابداً وشجاعاً وسخياً ولكن لا يحسن ما يفعله الشيعة من إظهار الجزع والحزن الذي لعل أكثره تصنع ورياء وقد كان أبوه أفضل منه وهم لا يتخذون مقتله مأتماً كيوم مقتل الحسين، فإن أباه قتل يوم الجمعة وهو خارج إلى صلاة الفجر في السابع عشر من رمضان سنة أربعين، وكذلك عثمان كان أفضل من علي عند أهل السنة والجماعة وقد قُتل وهو محصور في داره في أيام التشريق من شهر ذي الحجة سنة ست وثلاثين، وقد ذبح من الوريد إلى الوريد، ولم يتخذ الناس يوم مقتله مأتماً، وكذلك عمر بن الخطاب، وهو أفضل من عثمان وعلي، قُتل وهو قائم يُصليّ في المحراب صلاة الفجر وهو يقرأ القرآن، ولم يتخذ الناس يوم قتله مأتماً، وكذلك الصديق كان أفضل منه، ولم يتخذ الناس يوم وفاته مأتماً، ورسول الله ﷺ سيد ولد آدم في الدنيا والآخرة، وقد قبضه الله إليه كما مات الأنبياء قبله ولم يتخذ أحد يوم موته مأتماً يفعلون فيه ما يفعله هؤلاء الجهلة من الرافضة يوم مصرع الحسين، ولا ذكر أحد يوم موتهم وقبلهم شيء مما ادّعاه هؤلاء يوم مقتل الحسين من الأمور المتقدمة مثل كسوف الشمس والحمرة التي تطلع في السماء وغير ذلك وأحسن ما يقال عند ذكر هذه المصائب[3] وأمثالها ما رواه الحسين ابن علي عن جدّه ﷺ أنه قال: «ما من مسلم يصاب بمصيبة فيتذكرها وإن تقادم عهدها،

---

(1) منهاج السنة (4/ 554).

(2) الفتاوى (25/ 165، 166).

(3) البداية والنهاية (11/ 579).

فيُحدثُ بها استرجاعاً إلا أعطاه الله من الأجر مثل يوم أصيب بها»[1]. يقول ابن تيمية تعليقاً على هذا الحديث: هذا حديث رواه عن الحسين ابنته فاطمة التي شهدت مصرعه وقد علم أن المصيبة بالحسين تذكر مع تقادم العهد، فكان من محاسن الإسلام أن بلغ هو هذه السنة عن النبي ﷺ وهو أنه كلما ذكرت هذه المصيبة يسترجع لها، فيكون للإنسان من الأجر يوم أصيب بها المسلمون وأما من فعل مع تقادم العهد بها ما نهى عنه النبي ﷺ عند حدثان العهد بالمصيبة فعقوبته أشد مثل لطم الخدود وشق الجيوب، والدعاء بدعوى الجاهلية[2].

9 - من يتخذ عاشوراء عيداً:

هم من النواصب، والنواصب إحدى طوائف أهل البدع التي أصيبت في معتقدها بعدم التوفيق للاعتقاد الصحيح في الصحابة الكرام ، فقد زين لهم الشيطان عدم محبة أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وحملهم على التدين ببغضه وعداوته والقول فيه بما هو بريء منه، كما تعدى بغضهم إلى غيره من أهل البيت كابنه الحسين بن علي رضي الله عنهما وغيره فالنصب هو بغض علي رضي الله عنه والنيل منه والانحراف عنه، وسمي من كانت هذه صفته ناصبياً، فالنصب كالرفض لأن الرفض هو بغض أصحاب رسول الله ﷺ والنيل منهم بالشتم والسب وكلاهما ضلال وابتعاد عن منهج الله في وجوب حب أصحاب رسول الله ﷺ ومعرفة سابقتهم في الإسلام وجهادهم بأنفسهم وأموالهم مع رسول الله ﷺ[3]، فإذا كانت الشيعة اتخذت يوم عاشوراء مأتماً وحزناً اتخذته طائفة أخرى عيداً وموسماً للفرح والسرور وهم إما من النواصب المتعصبين على الحسين وأهل بيته رضي الله عنه، وإما من الجهال الذين قابلوا الفاسد بالفاسد والكذب بالكذب والشر بالشر والبدعة بالبدعة، فوضعوا الآثار في شعائر الفرح والسرور يوم عاشوراء كالاكتحال والاختضاب وتوسيع النفقات على العيال وطبخ الأطعمة الخارجة عن العادة ونحو ذلك مما يفعل في الأعياد والمواسم، فصار هؤلاء يتخذون يوم عاشوراء موسماً كمواسم الأعياد والأفراح مقابلة لأولئك وهي بدعة ثانية ومما ورد في ذلك من أحاديث موضوعة ومكذوبة ما يلي:

أ ـ حديث: «من وسع على عياله يوم عاشوراء وسع الله عليه سنته»[4].

ب ـ ابتداع صلاة مخصوصة في يومه وليلته: روي عن أبي هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «من صلى لله يوم عاشوراء ما بين الظهر والعصر أربعين ركعة يقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب

(1) سنن ابن ماجه رقم (1600) في إسناده ضعف، ضعيف سنن ابن ماجه رقم (349).
(2) الفتاوى (4/ 312).
(3) عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام (3/ 1193، 1194).
(4) الموضوعات لابن الجوزي (2/ 203).

مرة وآية الكرسي عشر مرات وقل هو الله أحد إحدى عشرة مرة والمعوذتين خمس مرات فإذا سلم استغفر سبعين مرة أعطاه الله في الفردوس قبة بيضاء»[1]، وغير ذلك من البدع التي أحدثت في ذلك اليوم والتي لا أصل لها في دين الله ﷻ [2]. وقد سئل ابن تيمية عما يفعله الناس في عاشوراء من الكحل والاغتسال والحناء والمصافحة وطبخ الحبوب وإظهار السرور وعزوا ذلك إلى الشارع فهل ورد عن النبي ﷺ في ذلك حديث صحيح أم لا؟ وإذا لم يرد حديث صحيح في شيء من ذلك فهل يكون فعل ذلك بدعة أم لا؟ فأجاب: الحمد لله رب العالمين لم يرد في شيء من ذلك حديث صحيح عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه ولا استحب ذلك أحد من أئمة المسلمين ولا الأئمة الأربعة ولا غيرهم، ولا روي أهل الكتب المعتمدة في ذلك شيئاً لا عن النبي ﷺ ولا عن الصحابة ولا عن التابعين لا صحيحاً ولا ضعيفاً. ولا في كتب الصحيح ولا في السنن ولا في المسانيد، ولا يعرف شيء من هذه الأحاديث على عهد القرون الفاضلة وإنما حصلت هذه البدع في يوم عاشوراء، لأن الكوفة كان فيها طائفتان طائفة رافضة يظهرون موالاة أهل البيت وهم في الباطن إما ملاحدة زنادقة وإما جهال وأصحاب هوى، وطائفة ناصبة تبغض علياً وأصحابه لما جرى من القتال في الفتنة ما جرى[3]. فوضعت الآثار في الاحتفال بعاشوراء لما ظهرت العصبية بين الناصبة والرافضة فإن هؤلاء اتخذوا يوم عاشوراء مأتماً، فوضع أولئك آثار تقتضي التوسع فيه واتخاذه عيداً وكلاهما باطل. فهؤلاء فيهم بدع وضلال وأولئك فيهم بدع وضلال[4]. فمن جعل يوم عاشوراء مأتماً وحزناً ونياحة، أو جعله يوم عيد وفرح وسرور فقد ابتدع في الدين وخالف سنة سيد المرسلين[5].

10 - هدي الرسول ﷺ في يوم عاشوراء:

يوم عاشوراء من الأيام الفاضلة التي حث النبي ﷺ على صيامها، فجاء في الحديث الصحيح عن أبي قتادة ﷺ أنه قال: **«ثلاث من كل شهر ورمضان إلى رمضان فهذا الدهر كله، وصيام عرفة أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله والتي بعده، وصيام عاشوراء أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله»**[6]، وعن ابن عباس ﷺ قال: ما رأيت النبي ﷺ يتحرى صيام يوم فضله على غيره إلا هذا اليوم يوم عاشوراء وهذا الشهر يعني شهر رمضان[7]، فالسُنة إذاً في اليوم هذا الصيام فحسب وقد صامه ﷺ وأخبر بفضل صيامه كما في الحديث السابق وأمر بقيامه، فقد جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة.

---

(1) الموضوعات (2/ 122 - 123).
(2) المدخل لابن الحاج (1/ 290 - 291) الأعياد، ص: 274.
(3) الفتاوى (25/ 161).
(4) اقتضاء الصراط المستقيم (2/ 622 - 623).
(5) الأعياد وأثرها على المسلمين، ص: 276.
(6) مسلم رقم (1162).
(7) البخاري رقم (2006).

أ ـ فعن ابن عمر ﷺ: أن أهل الجاهلية كانوا يصومون عاشوراء، وأن رسول الله ﷺ صامه والمسلمون قبل أن يفترض رمضان فلما افترض رمضان. قال: ﷺ: **«إن عاشوراء من أيام الله فمن شاء صامه ومن شاء تركه»**[1].

ب ـ وعن ابن عباس ﷺ: قال قدم النبي ﷺ المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: **«ما هذا؟»** قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجى الله بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى، قال: **«فأنا أحق بموسى منكم»** فصامه وأمر بصيامه. وعنه أيضاً قال: أمر رسول الله ﷺ: بصوم يوم عاشوراء العاشر[2].

جـ ـ وعن ابن عباس ﷺ أنه قال: حين صام رسول الله ﷺ يوم عاشوراء وأمر بصيامه قالوا: يا رسول الله يوم تعظمه اليهود والنصارى فقال رسول الله ﷺ: **«إذا كان العام المقبل إن شاء الله صمنا يوم التاسع»**. قال: فلم يأت العام المقبل حتى توفي رسول الله ﷺ. وفي رواية: **«لئن بقيت إلى قابل لأصومنّ التاسع»**[3]. وعنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: **«صوموا يوم عاشوراء وخالفوا فيه اليهود صوموا قبله يوماً وبعده يوماً»**[4].

ولقد ذكر العلماء أن صوم يوم عاشوراء على ثلاث مراتب:

أ ـ صوم التاسع والعاشر والحادي عشر لحديث: **«صوموا قبله يوماً وبعده يوماً»**.

ب ـ صوم التاسع والعاشر لحديث: **«إذا كان العام المقبل إن شاء الله صمنا التاسع»**.

جـ ـ إفراده بالصوم أي صوم يوم عاشوراء وحده، للأحاديث الدالة على تأكيد صومه[5].

فهذا هدي رسول الله ﷺ في يوم عاشوراء ومن هنا تتجلى وسطية أهل السنة والجماعة فلا إفراط ولا تفريط إنما هو تمسك بهدي الرسول ﷺ وامتثال لأمره رجاء لثواب الله تعالى.

ثانياً: التحقيق في مكان رأس الحسين ﷺ:

إن سبب الاختلاف في موضع رأس الحسين ﷺ عند عامة الناس إنما هو ناتج عن تلك المشاهد المنتشرة في ديار المسلمين والتي أقيمت في عصور التخلف الفكري والعقدي وكلها تدعي وجود رأس الحسين ثم إن الجهل بموضع رأس الحسين جعل كل طائفة تنتصر لرأيها في ادعاء وجود الرأس عندها وإذا أردنا التحقيق في مكان الرأس فإنه يلزمنا تتبع وجود الرأس منذ انتهاء معركة كربلاء[6]. لقد ثبت أن رأس الحسين حمل إلى ابن زياد فجعل الرأس في طست وأخذ يضربه بقضيب كان في يده، فقام إليه أنس بن مالك ﷺ وقال: لقد كان أشبههم

(1) مسلم رقم (1126).
(2) مسلم رقم (1134).
(3) مسلم رقم (1134).
(4) السنن الكبرى للبيهقي، كتاب: الصيام (4/ 287).
(5) زاد المعاد (2/ 76) فتح الباري (4/ 246).
(6) مواقف المعارضة، ص: 306.

برسول الله ﷺ[1]. ثم بعد ذلك تختلف الروايات والآراء اختلافاً بيناً بشأن رأس الحسين رضي الله عنه ولكن بعد دراسة الروايات التي ذكرت أن ابن زياد أرسل الرأس إلى يزيد بن معاوية وجدت أن الروايات على النحو التالي، هناك روايات ذكرت أن الرأس أرسل إلى يزيد ابن معاوية، وأخذ يزيد ينكث بالقضيب في فم الحسين، الأمر الذي حدا بأبي برزة الأسلمي رضي الله عنه على أن ينكر على يزيد فعلته، ولكن هذه الرواية التي ذكرت وصول الرأس وتعامل يزيد معه بهذا النحو ضعيفة[2]. وقد استدل ابن تيمية على ضعف هذه الرواية: بأن الذين حضروا نكته بالقضيب من الصحابة لم يكونوا بالشام، وإنما كانوا بالعراق[3]، ومما يدل على فساد متن هذه الرواية هو أن متنها مخالف لتلك الروايات الصحيحة، والتي بينت حسن معاملة يزيد لآل الحسين وتألمه وبكائه على قتل الحسين رضي الله عنه[4]، وقد قال ابن تيمية: ورأس الحسين إنما حمل إلى ابن زياد وهو الذي ضربه بالقضيب كما ثبت في الصحيح[5]، وأما ما حمله إلى عند يزيد فباطل، وإسناده[6] منقطع، وقد ذهب ابن كثير إلى ذهاب الرأس إلى يزيد فقد قال: وقد اختلف العلماء في رأس الحسين هل سيّره ابن زياد إلى الشام أم لا؟ على قولين الأظهر منها أنه سيّره إليه، ، فقد ورد في ذلك آثار كثيرة والله أعلم[7]، وهو ما ذهب إليه الذهبي[8].

وقد ذكر بأن رأس الحسين مقبور في ستة مدن وهي:

1 - دمشق:

ذكر البيهقي في المحاسن والمساوئ: أن يزيد أمر بغسل الرأس وجعله في حرير وضرب عليه خيمة ووكل به خمسين رجلاً[9]، وساق ابن عساكر بإسناده عن ريا حاضنة يزيد بن معاوية أن الرأس مكث في خزائن السلاح حتى ولي سليمان، فبعث فجيء به فبقي عظماً فطيبه وكفّنه، فلما وصلت المسودّة[10]، سألوا عن موضع الرأس ونبشوه فالله أعلم ما صنع به[11]، وراوية القصة «ريا» هذه ذكرها ابن عساكر ولم يذكر فيها جرحاً ولا تعديلاً، وتكون بذلك مجهولة[12]، وبذلك تكون رواية ساقطة لا يعتمد عليها بأي حال من الأحوال[13]، وقد أورد

(1) سنن الترمذي (5/ 659) حسن صحيح غريب.
(2) المجمع (9/ 195) فيه انقطاع.
(3) منهاج السنة (4/ 557).
(4) موقف المعارضة في خلافة يزيد، ص: 308.
(5) منهاج السنة (8/ 141).
(6) المصدر نفسه (8/ 142).
(7) البداية والنهاية (11/ 580).
(8) تاريخ الإسلام (61 - 81)، ص: 106.
(9) المحاسن والمساوئ، ص: 84 بدون إسناد.
(10) المسودّة: جنود العباسيين وهو الشعار الذي رفعه العباسيون.
(11) تاريخ ابن عساكر، تراجم النساء نقلاً عن مواقف المعارضة، ص: 311.
(12) مواقف المعارضة، ص: 313.
(13) المصدر نفسه، ص: 313.

الذهبي بإسناده عن أبي كريب قال: كنت فيمن توثب على الوليد بن يزيد بدمشق، فأخذت سفطاً وقلت فيه غنائي، فركبت فرسي، وخرجت من باب توما، قال: ففتحته، فإذا فيه رأس مكتوب عليها، هذا رأس الحسين بن علي، فحفرت فيه بسيفي فدفنته[1]؟. وهي رواية ضعيفة جداً[2]. ومن ناحية أخرى ما هي فائدة يزيد في احتفاظه برأس الحسين وجعله في خزائن سلاحه[3].

2 - كربلاء:

لم يقل أحد بأن الرأس في كربلاء إلا الشيعة الإمامية، فإنهم يقولون: بأن الرأس أعيد إلى كربلاء بعد أربعين يوماً من القتل، ودفن بجانب جسد الحسين رضي الله عنه[4] وهو يوم معروف عندهم يسمون فيه زيارة الأربعين، ويكفي أن هذا القول إنما تفرد به الشيعة الإمامية وهم ليس عندهم في ذلك أي دليل أنما أقاويل عارية من الحجة والبرهان وقد أنكر أبو نعيم الفضل بن دكين على من زعم أنه يعرف قبر الحسين رضي الله عنه[5]، وقد ذكر ابن جرير وغيره أن موضع قتله عفي أثره حتى لم يطلع أحد على تعيينه[6].

3 - الرقة:

لقد انفرد سبط ابن الجوزي بإيراد خبر يذكر أن الرأس قبر بالرقة وقال: إن الرأس بمسجد الرقة على الفرات وأنه جيء به بين يدي يزيد بن معاوية قال: لأبعثن إلى آل أبي معيط عن رأس عثمان وكانوا بالرقة، فدفنوه في بعض دورهم ثم دخلت تلك الدار بالمسجد الجامع، وهو إلى جانب سور هناك[7]. وهذا خبر مستبعد فالرواية ليست مسنده ثم إن الخبر فيه نكارة واضحة لمخالفته النصوص الصحيحة، والتي ثبت فيها حسن معاملة يزيد لأسرة الحسين وتحسّره وندمه على قتله[8]، ثم إن سبط ابن الجوزي هذا قال عنه الذهبي: ورأيت له مصنفاً يدل على تشيعه[9].

(1) السير (3/ 316) سمط النجوم العوالي (3/ 86).
(2) مواقف المعارضة، ص: 313.
(3) المصدر نفسه.
(4) المصدر نفسه، ص: 313، نور الأبصار، ص: 121.
(5) تاريخ بغداد (1/ 143 - 144) ترجمة الحسين 276.
(6) البداية والنهاية (11/ 580).
(7) شخصيات إسلامية (3/ 298) للعقاد، مواقف المعارضة، ص: 314.
(8) مواقف المعارضة، ص: 314.
(9) السير (23/ 297).

4 - عسقلان:

لقد أنكر جمع من المحققين الخبر القائل بأن رأس الحسين دفن في عسقلان قال القرطبي: وما ذكر أنه في عسقلان فشيء باطل[1]، وأنكر ابن تيمية وجود الرأس بعسقلان[2]، وتابعه على ذلك ابن كثير[3].

5 - القاهرة:

يبدو أن اللعبة التي قام بها العبيديون (الفاطميون) قد انطلت على الكثير من الناس، فبعد أن عزم الصليبيون الاستيلاء على عسقلان سنة تسع وأربعين وخمسمائة خرج الوزير الفاطمي صالح طلائع بن زريك خرج هو وعسكره حفاة إلى الصالحية، فتلقى الرأس ووضعه في كيس من الحرير الأخضر على كرسي من الأبنوس وفرش تحته المسك والعنبر والطيب، ودفن في المشهد الحسيني قريباً من خان الخليلي في القبر المعروف. وكان ذلك في يوم الأحد الثامن من جمادى الآخر سنة ثمان وأربعين وخمسمائة[4]، وقد ذكر الفارقي أن الخليفة الفاطمي نفسه قد خرج وحمل الرأس[5]، وذكر الشبلنجي أن الوزير الصالح طلائع افتدى الرأس من الإفرنج ونجح في ذلك بعد تغلبهم على عسقلان وافتداه بمال جزيل[6]، ولقد حاول بعض المؤرخين أن يؤكدوا على أن الرأس قد نقل فعلاً من عسقلان إلى مصر، وأن المشهد الحسيني في مصر إنما هو حقيقة مبني على رأس الحسين ﵁ [7] وقد أثبت أحد المتأخرين وهو حسين محمد يوسف بأن الرأس الموجود في المشهد الحسيني هو حقيقة رأس الحسين وخطأ من يقول بغير ذلك وكان الاستدلال الذي جاء به: هي تلك المنامات والكشوفات التي تجلت لبعض الصوفية والتي جاء في تلك المنامات أن الرأس هو في الحقيقة رأس الحسين ثم أورد تأييداً لهذا القول، باستحداث قاعدة قال فيها: أن الرأس يوجد في القاهرة وذلك بسبب الشك الذي تعارض مع اليقين، واليقين هم أصحاب الكشف[8]. وهذا الاستدلال لا يخضع إلى عقل أو منطق أو حجة علمية، أو برهان علمي، فضلاً عن قواعد المنهج الإسلامي في الاستدلال، إن الاستدلال على وجود رأس الحسين في القاهرة كان مبنياً على استناده بأن الرأس كان في عسقلان، وقد أثبتنا قبل قليل بطلان وجود الرأس بعسقلان، وبالتالي يكون الرأس الذي حمل إلى القاهرة، والمشهد المعروف اليوم والمقام عليه والمسمى بالمشهد الحسيني هو كذب، وليس له علاقة برأس الحسين ﵁ وإذا ثبت أن الرأس الذي كان مدفوناً

---

(1) التذكرة (2/ 295).
(2) تفسير سورة الإخلاص لابن تيمية، ص: 264.
(3) البداية والنهاية (11/ 582).
(4) المقريزي (1/ 427)، بدائع الزهور (1/ 227).
(5) تاريخ ميارقين، ص: 70.
(6) نور البصائر، ص: 121، مشاهد الصفا، ص: 316، مواقف المعارضة، ص: 316.
(7) مواقف المعارضة، ص: 317.
(8) الحسين سيد شباب أهل الجنة، ص: 149 - 153.

بعسقلان هو ليس في الحقيقة برأس الحسين، فإذاً من ادّعى أن رأس الحسين بعسقلان وإلى من يعود ذلك الرأس؟ يقول النويري: أن رجلاً رأى في منامه وهو بعسقلان أن رأس الحسين في مكان بها، عُيّن له في منامه، فنبش ذلك الموضع، وذلك في أيام المستنصر بالله العبيدي صاحب مصر، ووزارة بدر الجمالي، فابتنى له بدر الجمالي مشهداً بعسقلان[1]، وقام الأفضل بعد ذلك بإخراجه وعطّره ووضعه في مكان آخر من عسقلان وابتنى عليه مشهداً كبيراً[2]، ولعلك تعجب من إسراع العبيديين لإقامة المشهد على هذا الرأس، لمجرد رؤية رجل فقط؟ ولكن إذا عرفت تاريخ العبيديين فإن الأمر لا يستغرب لهذا الحد، فإحساسهم بأن الناس لا يصدقون نسبتهم إلى الحسين، جعلهم يلجؤون إلى تغطية هذا الجانب، باستحداث وجود رأس الحسين بعسقلان، ويظهروا من الاهتمام به وبناء المشهد عليه والإنفاق على ترميمه وتحسينه من الأموال الشيء الكثير حتى يصدقهم الناس، ويقولون: إنه لو لم يكن لهم نسب فيه لما اهتموا به إلى هذا الحد؟ ثم إن هناك بعداً سياسياً آخر باستحداث وادعاء وجود رأس الحسين بعسقلان دون غيرها من المناطق التي تقع تحت سيطرتهم وهو محاولة مجابهة الدويلات السنية التي قامت في بلاد الشام، ومن المعروف أن حكومة المنتصر بالله العبيدي قد صادفت قيام دولة السلاجقة السنية التي تمكن قائدها طغرلبك السلجوقي من دخول بغداد سنة سبع وأربعين وأربعمائة[3].

ومما يدل على أن استحداث وجود رأس الحسين بعسقلان ونقله إلى مصر ما هو إلا خطة عبيدية، هو أنه لم يرد بأن رأس الحسين وجد في عسقلان في أي كتاب قبل ولاية المنتصر الفاطمي. وهذا مما يعزز كذب العبيديين وتحقيق أغراض خاصة لهم بذلك[4] ، وقد ذكر ابن تيمية أن هذا الرأس المزعوم بأنه رأس الحسين ليس في الأصل سوى رأس راهب[5]. وقد نقل ابن دحية في كتابه «العلم المشهور» الإجماع على كذب وجود الرأس بعسقلان أو بمصر، ونقل الإجماع أيضاً على كذب المشهد الحسيني الموجود في القاهرة وذكر أنه من وضع العبيديين ولأنه لأغراض فاسدة وضعوا ذلك المشهد وقد أزال الله تلك الدولة وعاقبها بنقيض قصدها[6]. وقد أنكر وجود الرأس في مصر كل من: ابن دقيق العيد، وأبو محمد بن خلف الدمياطي، وأبو محمد بن القسطلاني، وأبو عبد الله القرطبي وغيرهم[7]. وقال ابن كثير: وادعت الطائفة المسماة بالفاطميين الذين ملكوا مصر قبل سنة أربعمائة إلى سنة ستين وخمسمائة أن رأس الحسين وصل إلى الديار المصرية ودفنوه بها وبنوا عليه المشهد المشهور

---

(1) نهاية الأرب (20/ 478).
(2) اتعاظ الحنفاء (3/ 22) للمقريزي.
(3) النجوم الزاهرة (5/ 57)
(4) مواقف المعارضة، ص: 319.
(5) رأس الحسين، ص: 187 نقلاً عن مواقف المعارضة، ص: 320.
(6) رأس الحسين، ص: 186 مواقف المعارضة، ص: 320.

بمصر، الذي يقال له تاج الحسين، بعد سنة خمسمائة، وقد نص غير واحد من أئمة أهل العلم على أنه لا أصل لذلك وإنما أرادوا أن يروجوا بذلك بطلان ما ادعوه من النسب الشريف، وهم في ذلك كذبة خونة، وقد نص على ذلك القاضي الباقلاني وغير واحد من أئمة العلماء في دولتهم، قلت: والناس أكثرهم يروّج عليهم مثل هذا، فإنهم جاءوا برأس فوضعوه في مكان هذا المسجد المذكور، وقالوا هذا رأس الحسين، فراج ذلك عليهم واعتقدوا ذلك والله أعلم[1].

6 - المدينة النبوية:

إن المدن التي مرّ ذكرها لم يثبت لدينا أدنى دليل على وجود الرأس بها، ولم يبق أمامنا سوى المدينة، فقد ذكر ابن سعد بإسناد جمعي: أن يزيد بعث بالرأس إلى عمرو بن سعيد والي المدينة، فكفنه ودفنه بالبقيع إلى حيث قبر أمه فاطمة بنت رسول الله ﷺ[2]، وقال ابن تيمية: ثم إن دفنه بالبقيع: هو الذي تشهد له عادة القوم فإنهم كانوا في الفتن، إذا قتل الرجل منهم ـ أولم يكن منهم ـ سلموا رأسه وبدنه إلى أهله كما فعل الحجاج بابن الزبير لما قتله وصلبه، ثم سلموه إلى أهله، وقد علم أن سعي الحجاج في قتل ابن الزبير، وأن ما كان بينهما من الحروب أعظم بكثير مما كان بين الحسين وبين خصومه[3]. كما أننا لا نجد انتقاداً واحداً انتقد فيه يزيد سواءً من آل البيت أو من الصحابة أو من التابعين فيما يتعلق بتعامله مع الرأس، فظني أن يزيد لو أنه تعامل مع الرأس كما تزعم بعض الروايات من الطوفان به بين المدن والتشهير برأسه، لتصرف الصحابة والتابعون تصرفاً آخر على أثر هذا الفعل، ولما رفض كبارهم الخروج عليه يوم الحرة ولرأيناهم ينضمون مع ابن الزبير المعارض الرئيسي ليزيد[4]، ويؤيد هذا الرأي قول الحافظ أبو يعلى الهمداني: إن الرأس قبر عند أمه فاطمة رضي الله عنها وهو أصح ما قيل في ذلك[5]، وهو ما ذهب إليه علماء النسب مثل الزبير بن بكار ومحمد بن الحسن المخزومي[6]، وذكر ابن أبي المعالي أسعد بن عمار في كتابه «الفاصل بين الصدق، والمَيْن في مقر رأس الحسين» أن جمعاً من العلماء الثقات كابن أبي الدنيا وأبي المؤيد الخوارزمي، وأبي الفرج ابن الجوزي قد أكدوا أن الرأس مقبور في البقيع بالمدينة[7]، وتابعهم على ذلك القرطبي[8]، وقال الزرقاني: قال ابن دحية ولا يصح غيره[9]، وابن تيمية يميل إلى أن الرأس

---

(1) رأس الحسين، ص: 186، 187.
(2) البداية والنهاية (11/ 582).
(3) الطبقات (5/ 238)، تاريخ الإسلام، ص: 20 حوادث (60 - 81هـ).
(4) رأس الحسين، ص: 183.
(5) مواقف المعارضة، ص: 323.
(6) التذكرة (2/ 295).
(7) التذكرة للقرطبي (2/ 295).
(8) الرد على المتعصب العنيد نقلاً عن مواقف المعارضة، ص: 323.
(9) التذكرة (2/ 295) مواقف المعارضة، ص: 324.
(10) مشاهد الصفا، ورقة 10، نقلاً عن مواقف المعارضة، ص: 324.

قد بعث به يزيد إلى واليه على المدينة عمر بن سعيد وطلب منه أن يقبره بجانب أمه فاطمة رضي الله عنها والذي جعل ابن تيمية يقول بذلك هو: أن الذي ذكر أن الرأس نقل إلى المدينة هم من العلماء والمؤرخين الذين يعتمد عليهم مثل الزبير بن بكار، صاحب كتاب الأنساب، ومحمد بن سعد كاتب الواقدي صاحب الطبقات ونحوهما من المعروفين بالعلم والثقة والاطلاع، وهم أعلم بهذا الباب وأصدق، فيما ينقلونه من المجاهيل والكذابين، وبعض أهل التاريخ، الذين لا يوثق بعلمهم، وقد يكون الرجل صادقاً، ولكن لا خبرة له بالأسانيد، حتى يميز بين المقبول والمردود، أو يكون سيئ الحفظ أو متهماً بالكذب أو بالتزوير في الرواية، كحال كثير من الأخباريين والمؤرخين[1].

وقال أبو عمر عبد الله بن محمد الحمادي: وهكذا اختلفوا في موقع رأس الحسين على ثلاثة أماكن وكل واحد منهم يريد أن يكون الرأس عنده حتى تكثر الزيارات فيكثر رمي الأموال على القبر ليتقاسمه السدنة، وحرّاس القبور وبهذا الاختلاف جعلوا للحسين ثلاثة رؤوس ومعلوم يقيناً أنه كان رضي الله عنه له رأس واحد[2]. ومن خلال البحث، فإنه يتضح أن جسد الحسين رضي الله عنه بكربلاء وأما رأسه بالبقيع في المدينة، والله أعلم.

ثالثاً: تقديس أضرحة الأئمة وزيارة قبر الحسين رضي الله عنه عند الشيعة:

بالغ الشيعة في تعظيم مراقد الأئمة ومنحوها من القداسة والشرف ما لم تحظ به الكعبة المشرفة والمدينة المنورة، فقد نسبوا زوراً وبهتاناً إلى علي بن الحسين أنه قال: اتخذ الله أرض كربلاء حرماً آمناً مباركاً قبل أن يخلق الله أرض الكعبة ويتخذها حرماً بأربعة وعشرين ألف عام وقدسها وبارك عليها، فما زالت ـ قبل خلق الله الخلق ـ مقدسة مباركة ولاتزال كذلك حتى يجعلها الله أفضل أرض الجنة وأفضل منزل ومسكن يسكن فيه أولياؤه في الجنة[3] ـ كما نسبوا إلى جعفر الصادق وهو بريء مما نسبوا إليه ـ: أن أرض الكعبة قالت: من مثلي وقد بُني بيت الله على ظهري يأتيني الناس من كل فج عميق وجعلت حرم الله وأمنه، فأوحى الله إليها: أن كفّي وقرّي ما فضل ما فضلت به فيما أعطيت أرض كربلاء إلا بمنزلة الإبرة غرست في البحر فحملت من ماء البحر، ولولا تربة كربلاء ما فضلتك ولولا ما تضمنه أرض كربلاء ما خلقتك ولا خلقت البيت الذي به افتخرت، فقري واستقري وكوني ذنباً متواضعاً ذليلاً مهيناً غير مستنكف ولا مستكبر لأرض كربلاء وإلا سخت بك وهويت بك في نار جهنم[4]. وهذه

(1) رأس الحسين، ص: 170.
(2) شرح الصدور ببيان بدع الجنائز والقبور، ص: 127.
(3) بحار الأنوار (101/ 107)، أصول مذهب الشيعة.
(4) كامل الزيارات، ص: (270) بحار الأنوار (101/ 109)، أصول مذهب الشيعة (2/ 464).

البقعة بالطبع لم تنل ما نالت إلا بكونها في معتقدهم مدفن الحسين ﷺ . وقد جرت على ألسنة الشعراء وأقلام الكتاب من بعد الواقعة وإلى يومنا هذا المقارنة بينها وبين الكعبة وتفننوا بمختلف أساليب النثر والنظم في إثبات فضلها وقداستها وشرفها واستطالة أرضها على جميع الأقطار بالفضل والشرف، وهذه الأرض المباركة لم تنل هذا الشرف العظيم في الإسلام إلا بالحسين ﷺ كما نص عليه الحديث: «وزادها في تواضعها وشكرها لله بالحسين عليه السلام وأصحابه»[1]، وبناء على غلوهم واعتقادهم في الأئمة ـ والتي قد مرّ بيان معتقدهم في ذلك في كتابي عن أمير المؤمنين علي ﷺ ـ ولأجل ربط الناس بأضرحتهم ومشاهدهم، وضعوا الفضائل الكبيرة والأجور الكثيرة لمن زار تلك المشاهد، ومع الكثرة الكاثرة من النصوص في هذا الجانب والتي تتفاوت فيها الأجور والمقارنة بين زيارة كربلاء والحج والعمرة لبيت الله الحرام، فإنني[2] سأقتصر على نصين فقط لاحتوائهما على معظم تلك النصوص وتصوير مدى الكذب والافتراء عند القوم واستخفافهم بعقول أتباعهم وجرأتهم على الله عز وجل فيما نسبوه إلى أبي عبد الله جعفر الصادق أنه قال: لو يعلم الناس ما في زيارة الحسين عليه السلام من الفضل لماتوا شوقاً وانقطعت أنفسهم عليه حسرات قلت: وما فيه؟ قال: من زاره تشوقاً إليه كتب الله له ألف حجة متقبلة وألف عمرة مبرورة، وأجر ألف شهيد من شهداء بدر، وأجر ألف صائم، وثواب ألف صدقة مقبولة وثواب ألف نسخة أريد بها وجه الله، ولم يزل محفوظاً سنته من كل آفة أهونها الشيطان، ووكل به ملك كريم يحفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وفوق رأسه وتحت قدمه، فإن مات من سنته حضرته ملائكة الرحمٰن يحضرون غسله وأكفانه والاستغفار له ويشيعونه إلى قبره بالاستغفار ويفسح له في قبره مد بصره ويؤمنه الله من ضغطة القبر ومن منكر ونكير يروعانه، ويفتح له باب إلى الجنة ويعطى كتابه بيمينه، ويعطى له يوم القيامة نور يضيء لنوره ما بين المشرق والمغرب، وينادي مناد هذا من زوار الحسين شوقاً إليه، فلا يبقى أحد يوم القيامة إلا تمنى يومئذ أنه كان من زوار الحسين عليه السلام [3].

وقد سوّغ هذه المبالغات أحد أئمتهم بذكر فضائلهم وما أعطوا من صفات فوق مستوى البشر فقال: إن هذا ليس بكثير على من جعله الله إماماً للمؤمنين، وله خلق السمٰوات والأرضين، وجعله صراطه وسبيله وعينه ودليله وبابه الذي يؤتى منه وجعله المتصل بينه وبين عباده من رسل وأنبياء وحجج وأولياء، هذا مع أن مقابرهم عليهم السلام فيها أيضاً إنفاق أموال ورجاء آمال وأشخاص أبدان وهجران أوطان وتحمل مشاق، وتجديد ميثاق، وشهود شعائر وحضور مشاعر[4].

(1) أصول مذهب الشيعة (2/ 464).

(2) تاريخ كربلاء، ص: 102، القبورية في اليمن، ص: 155.

(3) وسائل الشيعة (1/ 353) بواسطة أصول مذهب الشيعة (2/ 456). .

(4) قائل ذلك الفيض الكاشاني (2/ 254) القبورية في اليمن، ص: 156.

ومبالغة في تقديس تلك القبور جعلوا لها مناسك خاصة بها وهذه المناسك ليست خاصة بقبر الحسين فقط، بل إنها عامة بجميع مشاهد أئمتهم[1]، وقد قال آغا بزرك الطهراني أحد شيوخ الشيعة، أن ما صنفه شيوخهم في المزار، ومناسكه قد بلغ ستين كتاباً[2]، وإليك منسكاً من تلك المناسك التي يؤدونها عند المشاهد باختصار: قال الصادق عليه السلام: إذا أردت المسير إلى قبر الحسين عليه السلام فصُم يوم الأربعاء والخميس والجمعة، فإذا أردت الخروج فاجمع أهلك وولدك وادع بدعاء السفر، واغتسل قبل خروجك، وقل حين تغتسل كذا وكذا، فإذا خرجت فقل كذا وكذا، ولا تدّهن ولا تكتحل حتى تأتي الفرات، وأقِلْ من الكلام والمزاح، وأكثر من ذكر الله تعالى، وإياك والمزاح والخصومة، فإذا كنت راكباً أو ماشياً.. فإذا خفت شيئاً فقل.. فإذا أتيت الفرات فقل قبل أن تعبره... ثم اعبر الفرات.. ثم تفصيل إلى أن يقول: واصنع هذه المناسك:.. ثم ضع خدك على القبر «قبر الحسين بن علي» وقل:.. ثم تدور من خلف الحسين عليه السلام إلى عند رأسه وصلّ عند رأسه ركعتين.. ثم تنكب على القبر وتقول.. ثم تخرج من السقيفة وتقف بحذاء قبور الشهداء وتومئ إليهم أجمعين[3] إلى غير ذلك من تفاصيل لبعض ما يفعلون عند المشاهد من طواف بها واستقبال لها حال الصلاة وغير ذلك آثرت تركها اختصاراً[4]، وانظر بعضها في أصول مذهب الشيعة[5]، كما أن الشيعة تعتقد أن بناء الأضرحة والقباب على مراقد الأنبياء والأئمة ـ والشخصيات الإسلامية ـ من أفضل المقربات لله سبحانه وتعالى، وإليك الرد على كل من:

1 - قدسية كربلاء:

لا يوجد نص في كتاب الله ولا صح شيء عن رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين أو علماء الأمة في خير القرون يدل على قدسية كربلاء أو الفضائل المزعومة لها وغيرها كالنجف وما يسمى بالعتبات المقدسة، وأما الذي جاء في كتاب الله وسنة رسوله من قدسية وفضائل فهي: المسجد الحرام، والمشاعر المقدسة داخل المسجد الحرام وخارجه، كالكعبة، ومقام إبراهيم، بئر زمزم، الصفا والمروة، منى، رحاب عرفات، رحاب مزدلفة والمسجد النبوي وفضل الصلاة فيه، وفضل ما بين بيت الرسول ومنبره، وجواز شد الرحل إليه، وإلى المسجد الحرام والمسجد الأقصى، وفضائل المدينة، وفضائل مسجد قباء، ودعاء النبي ﷺ بالبركة للمدينة، وجود البركة في صاع أهل المدينة والبقاء بها، تحريم الرسول ﷺ المدينة وتحريم صيدها وشجرها، فضل وادي العقيق وبركته وفضائل المسجد الأقصى وبركاته، فضل الصلاة

(1) القبورية في اليمن، ص: 157.
(2) الذريعة إلى تصانيف الشيعة نقلاً عن أصول الشيعة (2/ 467).
(3) تاريخ كربلاء، ص: 129 - 131 القبورية في اليمن، ص: 158.
(4) القبورية في اليمن، ص: 158.
(5) أصول مذهب الشيعة (2/ 467 - 477).

فيه، جواز شد الرحال إليه، وجود البركة حوله، وأنه ثاني مسجد وضع في الأرض بعد المسجد الحرام، الإسراء بالرسول ﷺ، وجاءت الآيات والأحاديث في فضل سائر المساجد وبيوت الله عز وجل، فبين رسول الله ﷺ كون المساجد بيوت الله في الأرض، وفضل السعي إلى المساجد وملازمتها وفضل بنائها[1].. إلخ، أما ما نسب إلى رسول الله ﷺ في قدسية كربلاء وفضائلها فإنه لا يصح في ذلك، وهذا يجري حكمه على البلاد والمقابر والقبور والأضرحة مما يزعم الشيعة أو جهّال السنة.

2 - هدي الإسلام في زيارة القبور:

كما هو في سائر شرائع الإسلام أنها تكون في غاية من الاعتدال والسماحة، وصادرة عن حكمة بالغة تضمن لمن عمل بها على بصيرة الفوز، والنجاح، والسعادة، دون أن يتعرض بسببها لأي نوع من أنواع الضلال والشقاء في الدنيا والآخرة، كذلك كانت شرعية زيارة القبور في الإسلام حينما كان الناس حدثاء عهد بالكفر والشرك وعبادة غير الله نهاهم الرسول ﷺ عن الزيارة حتى يكون هناك برزخ فاصل بين العهدين: عهد الشرك وعهد التوحيد، وعهد الجاهلية، وعهد الإسلام، حتى يذهب ما في النفوس من الالتفات إلى الأرض وما عليها ممّا يقدِّسه الناس، وعهد السموّ الروحي والصفاء القلبي والذهني الذي لا يبقى معه التفات إلى غير الله عز وجل [2]، وفعلاً حينما حصل ذلك، خاطب النبي ﷺ أمته قائلاً: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها[3] فإنها تذكر الموت». وفي رواية: «فإن في زيارتها تذكرة»، وفي أخرى: «فإنها تذكر الآخرة»[4]، وفي ثالثة: «فزوروها ولتزدكم زيارتها خيراً»[5]، وفي رواية رابعة: «فإن فيها عبرة»[6]، ومن حديث أنس رضي الله عنه: ثم بدا لي أنها تُرقّ القلب وتُدمع العين وتُذكر الموت، والدار الآخرة، وتزهِّد في الدنيا، وينبغي أن يحرص الزائر أن تزيده زيارته للمقابر خيراً، وهذا كله فيما يخص الزائر[7]، وأما الأموات فإن لهم فيها نصيب أيضاً حيث كان ﷺ إذا زارهم دعا لهم وترحّم عليهم، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ - كلما كان ليلتها من رسول الله ﷺ - يخرج من آخر الليل إلى البقيع فيقول: «السلام عليكم دار قومٍ مؤمنين وأتاكم ما توعدون غداً مؤجَّلون وإنا إن شاء الله بكم للاحقون اللهم اغفر لأهل بقيعِ

---

(1) من قتل الحسين، ص: 113.
(2) القبورية في اليمن، ص: 73.
(3) مسلم، كتاب: الجنائز، شرح النووي على صحيح مسلم (7/ 46).
(4) المصدر نفسه (7/ 46).
(5) سنن الترمذي (3/ 361) صححه الألباني في صحيحه (1/ 307).
(6) مسند أحمد (17/ 249) حديث صحيح. مؤسسة الرسالة.
(7) القبورية في اليمن، ص: 74.

الغرقد»[1]. ففي هذه الأحاديث بيان أن من مقاصد الزيارة وعللها السلام على الأموات والدعاء والاستغفار لهم، قال الإمام الصنعاني ـ في سبل السلام ـ بعد ما شرح أحاديث الإذن بالزيارة: والكل دالّ على مشروعية زيارة القبور وبيان الحكمة فيها وأنها للاعتبار.. فإذا خلت من هذه لم تكن مرادة شرعاً[2]. فهذه هي زيارة القبور في هدي الإسلام كما علمهم إيّاها رسول الله ﷺ فمن أتى بها على هذا الوجه ولهذه الغاية ظفر بالأجر والفائدة المترتبة عليها، ومن زارها لغير ذلك فهي ردٌّ عليه. ثم إنها إما أن تكون بدعية وإما أن تكون شركية بحسب ما يحصل فيها من أعمال ويقارنها من اعتقاد وقصد ذلك هو هدي الإسلام في زيارة القبور، وتلك هي أهداف وغايات الزيارة واضحة ناصعة بعيدة عن كل ذريعة تؤدي إلى الشرك بأربابها والغلوّ في أصحابها، وقد جاءت بعض القيود التي تسد الثغرات الموصلة إلى ذلك[3].

القيد الأول: ألا تتخذ أعياداً، قال ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلوا عليّ، فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم»[4]. فليس من هدي الإسلام تعيين يوم معين من سنة أو شهر، أو أسبوع يخصص لزيارة القبور كما هو شأن[5] بعض الناس.

القيد الثاني: ألا تُشَدّ إليها الرحال، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجد الحرام ومسجد الأقصى ومسجدي»[6]. فهذا النهي عن شد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة مقصود به أن يشد رحله مسافراً إلى مكان بعينه لعبادة الله تعالى فيه[7]، ولم يثبت أن أحداً من الصحابة أو التابعين، أو علماء أتباع التابعين سافر إلى قبر، أو مشهد لمجرد الزيارة، ولم يصرح أحد منهم باستحباب ذلك العمل[8]، وقال العلامة صديق حسن خان في كتابه السراج الوهاج من كشف مطالب صحيح مسلم ابن الحجاج وبعد إيراد مختلف الأقوال ومناقشتها قال: وأما السفر لغير زيارة القبور كما تقدم نظائره، فقد ثبت بأدلة صحيحة، ووقع في عصره ﷺ وقرره النبي ﷺ فلا سبيل إلى المنع منه والنهي عنه، بخلاف السفر إلى زيارة القبور فإنه لم

---

(1) مسلم مع شرح النووي (7/ 40 - 41) كتاب: الجنائز.
(2) سبل السلام شرح بلوغ المرام (2/ 230 - 231).
(3) القبورية في اليمن، ص: 75.
(4) مسند أبي يعلى (1/ 361) رقم (469) صحيح بشواهده وطرقه حسنة.
(5) القبورية في اليمن، ص: 75.
(6) مسلم مع شرح النووي (9/ 104 - 106).
(7) القبورية في اليمن، ص: 76.
(8) المصدر نفسه، ص: 77.

يقع في زمنه ولم يقر أحداً من أصحابه، ولم يشر في حديث واحد إلى فعله واختياره ولم يشرعه لأحد من أمته لا قولاً ولا فعلاً[1].

3 - البناء على القبور واتخاذها مساجد:

نهى رسول الله ﷺ أمته عن البناء على القبور وتعظيمها بأي نوع من أنواع التعظيم، وأخبر ﷺ أنه لا يفعل ذلك إلا شرار الخلق عند الله تعالى، فعن جندب بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت بخمس يقول: . . . «ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد إني أنهاكم عن ذلك»[2]، وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: نهى رسول الله ﷺ أن يجصص القبر وأن يقعد عليه ويبنى عليه[3]. وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن من شرار الناس من تدركه الساعة وهم أحياء ومن يتخذ القبور مساجد»[4]. ففي هذه الأحاديث التي مرت النهي الصريح عن أي نوع من أنواع التعظيم للقبور ومن ذلك، النهي عن اتخاذها مساجد، والنهي عن مجرد البناء عليها، وعن تجصيصها، والكتابة عليها، وقد توجه النهي أول ما توجه إلى قبور الأنبياء والصالحين، لماذا؟ لأنها هي التي يخشى الغلو في أربابها عكس قبور سائر الناس، والفتنة لها أعظم من غيرها. وهذا هو الواقع المشاهد فإنه ما من مشهد إلا ويزعم أنه بني على ولي صالح، ذي مناقب وكرامات عظيمة يرجى نفعه ويخاف انتقامه، أو يزعم أنه على نبي من أنبياء الله كما ظهر ذلك تخميناً في أماكن كثيرة من بلاد الله، ولكثير من الأنبياء مع تصريح العلماء أنه لا يُعلم على التحقيق واليقين إلا قبر نبينا محمد ﷺ، وزاد بعضهم قبر الخليل عليه السلام في الموضع المشهور باسمه في فلسطين[5]. وقد قال النووي في تعليقه على حديث رسول الله السابق: قال العلماء: إنما نهى النبي ﷺ عن اتخاذ قبره مسجداً خوفاً من المبالغة في تعظيمه، والافتتان به، فربما أدى ذلك إلى الكفر كما جرى لكثير من الأمم الخالية ولما احتاجت الصحابة ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ والتابعون إلى الزيادة في مسجد رسول الله ﷺ حين كثر المسلمون وامتدت الزيادة إلى أن دخلت بيوت أمهات المؤمنين فيه ومنها حجرة عائشة رضي الله عنها، مدفن رسول الله ﷺ وصاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، بنوا على القبر حيطاناً مستديرة حوله لئلا يظهر في المسجد، فيصلي إليه العوام ويؤدي إلى المحذور، ثم بنوا جدارين من ركني القبر الشماليين وحرفوهما حتى التقيا حتى لا يتمكن أحد من استقبال القبر، ولهذا قال في الحديث. ولولا ذلك أبرز قبره غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً. والله أعلم بالصواب[6]، وقد أمر رسول الله ﷺ بتسوية القبور

---

(1) السراج الوهاج (5/ 116) القبورية في اليمن، ص: 77.
(2) شرح النووي على مسلم (5/ 13).
(3) شرح النووي (7/ 37).
(4) المصدر نفسه.
(5) الفتاوى (27/ 140).
(6) شرح النووي على مسلم (5/ 12، 13).

المشرفة مع قرن ذلك بطمس التماثيل، فعن أبي الهيّاج الأسدي رحمه الله قال: قال لي علي بن أبي طالب: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ ألا تدع تمثالاً إلا طمسته ولا قبراً مشرفاً إلا سوّيته[1]. فهذا أمير المؤمنين علي رضي الله عنه يبعث رئيس شرطته أبا الهياج الأسدي لطمس القبور كما بعثه رسول الله ﷺ أي أنه يطبق ما عرفه وفهمه من أمر رسول الله ﷺ بذلك[2]. وقد صرّح العلماء بخلوّ القرون المفضلة من وجود المشاهد قال ابن تيمية وهو يتكلم عن مشهد رأس الحسين رضي الله عنه: . . . دع خلافة بني العباس في أوائلها وفي حال استقامتها فإنهم حينئذ في قوتهم وعنفوانهم ولم يكن على عهد الصحابة والتابعين وتابعيهم من ذلك شيء في بلاد الإسلام لا في الحجاز ولا اليمن ولا الشام والعراق ولا مصر ولا خراسان ولا المغرب ولم يكن قد أحدث مشهد لا على قبر نبي ولا صاحب ولا من أهل البيت وصالح أصلاً، بل عامة هذه المشاهد محدثة بعد ذلك، وكان ظهورها وانتشارها حين ضعفت خلافة بني العباس وتفرقت الأمة وكثر فيهم الزنادقة والملبسون على المسلمين وفشت فيهم كلمة أهل البدع وذلك في دولة المقتدر في أواخر المائة الثالثة، فإنه إذ ذاك ظهرت القرامطة العبيدية القداحية بأرض المغرب ثم جاءوا بعد ذلك إلى أرض مصر وقريباً من ذلك ظهر بنو بويه في كثير منهم زندقة وبدع قوية، وفي دولتهم قويَ بنو القداح بأرض مصر، وفي دولتهم أظهر المشهد المنسوب إلى علي رضي الله عنه بناحية النجف، وإلا فقبل ذلك لم يكن أحد يقول إن قبر علي هناك وإنما دفن علي رضي الله عنه بقصر الإمارة بالكوفة، وإنما ذكروا أن بعضهم حكى عن الرشيد أنه جاء إلى بقعة هناك وجعل يعتذر إلى المدفون فيها، فقالوا إنه علي وإنه اعتذر إليه مما فعل بولده، فقالوا: هذا قبر علي، وقد قال قوم إنه قبر المغيرة بن شعبة[3]. . ويقول الذهبي في ترجمة عضد الدولة البويهي: وكان شيعياً جلداً أظهر بالنجف قبراً زعم أنه قبر الإمام علي وبنى عليه المشهد وأقام شعار الرفض ومأتم عاشوراء والاعتزال ثم قال: وبه ختم ترجمة عضد الدولة، قلت: فنحمد الله على العافية فلقد جرى على الإسلام في المائة الرابعة بلاء شديد بالدولة العبيدية بالمغرب، وبالدولة البويهية بالمشرق وبالأعراب القرامطة فالأمر لله تعالى[4]. وقال ابن كثير في حوادث سنة 347هـ: وقد امتلأت البلاد رفضاً وسباً للصحابة من بني بويه وبني حمدان والفاطميين، وكل ملوك البلاد مصراً وشاماً وعراقاً وخراسان وغير ذلك من البلاد كانوا رفضاً وكذلك الحجاز وغيره، وغالب بلاد المغرب، وكثر السب والتكفير منهم للصحابة[5]. ويؤيده كذلك ما ذكره السمهودي رحمه الله في كتابه وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، وهو يتحدث عن قبر فاطمة رضي الله عنها قال: وإنما أوجب عدم العلم بعين قبر فاطمة رضي الله عنها وغيرها من السلف كما كانوا

---

(1) شرح النووي على مسلم (7/ 36).
(2) القبورية في اليمن، ص: 54.
(3) الفتاوى (27/ 245).
(4) سير أعلام النبلاء (16/ 250 - 252).
(5) البداية والنهاية (11/ 233) نقلاً عن القبورية في اليمن، ص: 118.

عليه من عدم البناء على القبور وتجصيصها[1]. وقال الشافعي كَلَّلهُ: ولم أر قبور المهاجرين والأنصار مجصصة، قال الراوي عن طاووس: إن رسول الله ﷺ نهى أن تبنى القبور أو تجصص، قال الشافعي: وقد رأيت من الولاة من يهدم بمكة ما يبنى فيها فلم أرَ الفقهاء يعيبون ذلك[2].

إن الحقيقة التاريخية تقول أن القرون الثلاثة المفضلة مضت وليس هناك قبور معظمة ولا مشاهد أو قباب ولا غيرها من مظاهر القبورية، ولا شيء من طقوس ومراسيم العبادات القبورية، وما حاول فعله الشيعة من ذلك فقد جُوبه بردع قوي من خلفاء المسلمين وأمرائهم، كأبي جعفر المنصور العباسي، وهارون الرشيد[3].

رابعاً: خروج الحسين رضي الله عنه في الميزان الشرعي:

إن عدم التمعن في معارضة الحسين ليزيد، والتأمل في دراسة الروايات التاريخية الخاصة بهذه الحادثة، قد جعلت البعض يجنح إلى اعتبار الحسين خارجاً على الإمام، وأن ما أصابه كان جزاءً عادلاً وذلك وفق ما ثبت من نصوص نبوية تدين الخروج على الولاة، فقال ﷺ: «من أراد أن يفرق بين المسلمين وهم جميع فاضربوه بالسيف كائناً من كان»[4]. قال السيوطي: أي فاضربوه شريفاً أو وضيعاً على إفادة معنى العموم[5]. وقال النووي معلقاً على هذا الحديث: الأمر بقتال من خرج على الإمام أو أراد تفريق كلمة المسلمين ونحو ذلك وينهى عن ذلك فإن لم ينته قوتل، وإن لم يندفع شره إلا بالقتل قتل وكان دمه هدراً[6]، وفي الحديث وغيره من الأحاديث المشابهة له جاء تأكيد النبي ﷺ على أن الخارج على سلطان المسلمين يكون جزاؤه القتل، وذلك لأنه جاء ليفرق كلمة المسلمين، والتعلق المبدئي بهذه النصوص جعلت الكثير يظنون أنا أبا بكر ابن العربي يقول: إن الحسين قتل بسيف جده ﷺ[7]. وإن الجمود على هذه الأحاديث جعلت الكرامية مثلاً يقولون: إن الحسين رضي الله عنه باغ على يزيد، فيصدق بحقه من جزاء وقتل[8]. وأما البعض فقد ذهبوا إلى تجويز خروج الحسين رضي الله عنه واعتبر عمله هذا مشروعاً، وجعلوا المستند في ذلك إلى أفضلية الحسين وإلى عدم التكافؤ مع يزيد[9]، وأما البعض فقد جعل خروج الحسين خروجاً شرعياً بسبب ظهور المنكرات من يزيد[10]. ولكن إذا أتينا لتحليل مخرج الحسين رضي الله عنه ومقتله، نجد أن الأمر ليس كما ذهب إليه هؤلاء ولا هؤلاء،

---

(1) وفاء الوفاء، بأخبار دار المصطفى (3/ 906).
(2) الأم للشافعي نقلاً عن القبورية في اليمن، ص: 119.
(3) القبورية في اليمن، ص: 132، 133.
(4) شرح النووي على صحيح مسلم (12/ 241).
(5) عقد الزبرجد للسيوطي (1/ 264).
(6) شرح النووي على صحيح مسلم (12/ 241).
(7) العواصم من القواصم، ص: 244 - 245.
(8) نيل الأوطار (7/ 362).
(9) المصدر نفسه (7/ 362).
(10) الدرة فيما يجب اعتقاده، ص: 376، المقدمة (1/ 271).

فالحسين لم يبايع يزيد أصلاً، واعترض على فكرة التوريث دفاعاً عن الشورى ومبادئ الإسلام الداعمة لحق الأمة في اختيار من تريد وخرج معه إلى مكة عبد الله بن الزبير وذهبا لأجل جمع الأتباع وحث المسلمين على الوقوف في وجه الانحراف الذي أحدث في نظام الحكم وقلبه من الشورى إلى الوراثة، واستنهض الهمم لتصحيح هذا الخلل الذي استجد في عالم الإسلام وبدأت رحلة الحسين لجمع الأتباع والأنصار نحو التصحيح وإعادة نظام الشورى ومنهاج الخلافة الراشدة والمبادئ الكريمة، لا كما يزعم البعض من كونه خرج طمعاً في الحكم والسلطة لأنه ينبغي أن تكون فيه وفي ذريته. بتلك النظرة فيها بخس للحسين ومنهجه ولأهل البيت ومنهج القرآن وهدي جده عليه الصلاة والسلام[1].

إن القول بنظرية النص في علي وذريته قول باطل ولا توجد أية آثار ـ صحيحة لنظرية النص في قصة كربلاء ـ ولا في غيرها ـ وقد تحدث عن ذلك الأستاذ أحمد الكاتب في كتابه تطور الفكر السياسي الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه[2]، وقد ناقشت نظرية النص على ولاية علي وذريته وأدلة الشيعة في ذلك في كتابي عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه.

إن الحسين رضي الله عنه لم يبايع يزيد بن معاوية وشرع في إعداده العدة ولم يخرج عن تعاليم الإسلام التي تشترط الإعداد الجيد لإزاحة الحاكم الجائر حتى يغلب الظن على القدرة على ذلك، فهو قد أعد القوة كما تصورها حتى ظنها كافية لتحقيق غرضه، ولكن حساباته ـ بلا شك ـ كانت[3] خاطئة فالحسين لم يقم خطأ شرعي مخالف للنصوص، وخاصة إذا عرفنا أن جزءاً من الأحاديث جاءت مبينة لنوع الخروج، فعن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الصلاة المكتوبة إلى الصلاة التي بعدها كفارة لما بينهما، والجمعة إلى الجمعة، والشهر إلى الشهر ـ يعني رمضان ـ كفارة لما بينهما**» قال: ثم قال بعد ذلك: «**إلا من ثلاث**» قال: فعرفت أن ذلك الأمر حدث ـ «**إلا من الإشراك بالله، ونكث الصفقة، وترك السنة**»: قال: أما نكث الصفقة: أن تبايع رجلاً ثم تخالف إليه تقاتله بسيفك، وأما ترك السنة فالخروج من الجماعة[4].

والحسين رضي الله عنه ما خرج يريد القتال ولكن ظن أن الناس يطيعونه، فلما رأى انصرافهم عنه، طلب الرجوع إلى وطنه أو الذهاب إلى الثغر، أو إتيان يزيد[5]، ولقد تعنّت ابن زياد أمام مرونة الحسين وسهولته وكان من الواجب عليه أن يجيبه لأحد مطالبه، ولكن ابن زياد طلب أمراً عظيماً من الحسين، وهو أن ينزل على حكمه، وكان من الطبيعي أن يرفض الحسين هذا الطلب، وحُقّ للحسين أن يرفض ذلك، ذلك لأن النزول على حكم ابن زياد لا يعلم نهايته

---

(1) عمر والحسين، علاء الدين المدرس، ص: 52.
(2) تطور الفكر السياسي الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه، ص: 18.
(3) الدولة والمجتمع في العصر الأموي، ص: 165.
(4) مسند أحمد (12/ 98) إسناد صحيح.
(5) منهاج السنة (4/ 42).

إلا الله، ولربما كان حكمه فيه القتل، ثم إن هذا العرض إنما كان يعرضه رسول الله ﷺ على الكفار المحاربين أعداء الإسلام، والحسين رضي الله عنه ليس من هذا الصنف بل هو من أفاضل المسلمين وسيدهم[1]، ولهذا قال ابن تيمية: وطلبه أن يستأسر لهم، وهذا لم يكن واجباً عليه[2]. والحقيقة أن ابن زياد خالف الوجهة الشرعية والسياسية حين أقدم على قتل الحسين رضي الله عنه [3]. فالظالم هو ابن زياد وجيشه الذين قدموا على قتل الحسين رضي الله عنه بعد أن رفضوا ما عرض الحسين من الصلح. ثم إن نصح الصحابة للحسين يجب أن لا يفهم على أنهم يرونه خارجاً على الإمام كما ذهب لذلك يوسف العش[4]. بل إن الصحابة رضوان الله عليهم أدركوا خطورة أهل الكوفة على الحسين وعرفوا أن أهل الكوفة كذبة، وقد حملت تعابير نصائحهم هذه المفاهيم[5]. يقول ابن خلدون: فتبين بذلك غلط الحسين، إلا أنه في أمر دنيوي لا يضره الغلط فيه، وأما الحكم الشرعي فلم يغلط فيه، لأنه منوط بظنه، وكان ظنه القدرة على ذلك[6]. وأما الصحابة رضوان الله عليهم الذين كانوا بالحجاز ومصر والعراق والشام والذين لم يتابعوا الحسين رضوان الله عليه، فلم ينكروا عليه، ولا أثّموه، لأنه مجتهد، وهو أسوة للمجتهدين به[7]. قال ابن تيمية: وأحاديث النبي ﷺ التي يأمر فيها بقتل المفارق للجماعة لم تتناوله، فإنه رضي الله عنه لم يفارق الجماعة، ولم يقتل إلا وهو طالب للرجوع، إلى بلدة، أو إلى الثغر، أو إلى يزيد، داخلاً في الجماعة، معرضاً عن تفريق الأمة، ولو كان طالب ذلك أقل الناس لوجب إجابته إلى ذلك، فكيف لا تجب إجابة الحسين[8]، ولم يقاتل وهو طالب الولاية، بل قتل بعد أن عرض الانصراف بإحدى ثلاث... بل قتل وهو يدفع الأسر عن نفسه، فقتل مظلوماً[9].

خامساً: بعض الرؤى في قصة الحسين رضي الله عنه:

ومن هذه الرؤى المتعلقة بقصة مقتل الحسين رضي الله عنه، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: رأيت النبي ﷺ في المنام بنصف النهار أشعث أغبر معه قارورة فيها دم يلتقطه، قلت: يا رسول الله ما هذا؟ قال: «**دم الحسين وأصحابه لم أزل أتتبعه منذ اليوم**»، قال عمار راوي ذلك الحديث: فحفظنا ذلك فوجدناه قُتِل ذلك اليوم[10]، وهذا سنده صحيح عن ابن عباس[11]، وروى ابن سعد بأسانيده: قالوا: وأخذ الحسين طريق العُذيب[12] حتى

(1) مواقف المعارضة، ص: 329.
(2) منهاج السنة (4/ 550).
(3) مواقف المعارضة، ص: 329.
(4) الدولة الأموية، ص: 168.
(5) مواقف المعارضة، ص: 330.
(6) المقدمة (1/ 271).
(7) مقدمة ابن خلدون (1/ 271).
(8) منهاج السنة (4/ 556) بتصرف.
(9) المصدر نفسه (6/ 340) بتصرف.
(10) فضائل الصحابة رقم (1380) إسناده صحيح.
(11) حقبة من التاريخ، ص: 137.
(12) العُذيب: ماء بين القادسية والمغيثة.

نزل قصر أبي مقاتل[1]، فخفق خفقة، ثم استرجع، وقال: رأيت كأن فارساً يُسايرنا، ويقول: القوم يسيرون، والمنايا تَسري إليهم[2]، وقال بعض الناس أن الحسين رضي الله عنه بنى خروجه على يزيد على رؤية رآها لرسول الله ﷺ، وبأن رسول الله أمره بأمر وهو ماضٍ له[3]، وقد اعتمد على الرؤى قوم في أخذهم الأحكام ويقول الشاطبي: وأضعف هؤلاء احتجاجاً قوم استندوا في أخذ الأعمال إلى المقامات، وأقبلوا وأعرضوا بسببها فيقولون: رأينا فلاناً الرجل الصالح، فقال لنا: اتركوا كذا واعملوا كذا، ويتفق مثل هذا كثيراً للمترسمين برسم التصوف، وربما قال بعضهم: رأيت النبي ﷺ في النوم، فقال لي كذا وأمرني بكذا، فيعمل بها ويترك بها، معرضاً عن الحدود الموضوعة في الشريعة، وهو خطأ، لأن الرؤيا من غير الأنبياء لا يحكم بها شرعاً على حال إلّا أن تعرض على ما في أيدينا من الأحكام الشرعية فإن سوغتها عمل بمقتضاها، وإلّا وجب تركها والإعراض عنها، وإنما فائدتها البشارة أو النذارة خاصة، وأما استفادة الأحكام فلا[4]. وعليه فلا عصمة فيما يراه النائم، بل لا بد من عرضه على الشرع فإن وافقه فالحكم بما استقر، لأن الأحكام ليست موقوفة على ما يرى من المنامات، وإن خالف رد مهما كان حال الرائي أو المرئي، ويحكم على تلك الرؤيا بأنها حلم من الشيطان وأنها كاذبة وأضغاث أحلام[5]. ولكن يبقى أن يقال: ما فائدة الرؤيا الموافقة للشريعة، إذا كان الحكم بما استقر عليه الشرع[6]؟. فائدتها التنبيه والبشرى كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات». قالوا وما المبشرات؟ قال: «الرؤيا الصالحة»[7]، فإن الرجل الصالح قد يرى في النوم ما يؤنسه أو يزعجه فيكون ذلك دافعاً له إلى فعل مطلوب أن ترك محظور[8].

سادساً: إخبار الرسول ﷺ بمقتل الحسين رضي الله عنه:

عن أم سلمة قالت: كان جبريل عند النبي ﷺ والحسين معي فبكى الحسين فتركته فدخل على النبي ﷺ فدنى من النبي ﷺ فقال جبريل: أتحبه يا محمد؟ فقال: «نعم». قال: إن أمتك ستقتله وإن شئت أريتك من تربة الأرض التي يقتل بها فأراه إياها فإذا الأرض يقال لها

---

(1) كان بين عين التمر والشام، معجم البلدان (4/ 364).

(2) سير أعلام النبلاء (3/ 298).

(3) المصدر نفسه (3/ 297).

(4) الاعتصام (1/ 260) دراسة في الأهواء والفرق والبدع، ص: 301.

(5) منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد (2/ 687).

(6) المصدر نفسه (2/ 687).

(7) البخاري رقم (6990).

(8) منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد (2/ 687).

كربلاء[1]، وقد وقع الأمر كذلك بعد مضي سنين طويلة، وهذه معجزة من معجزاته ﷺ الدالة على نبوته وأنه رسول الله حقاً وصدقاً، فقد أخبر النبي ﷺ بذلك عن طريق الوحي[2].

سابعاً: انتقام الله من قتلة الحسين رضي الله عنه:

لقد انتقم الله للحسين الشهيد رضي الله عنه من قاتليه وعلى رأسهم عبيد الله بن زياد، ويزيد بن معاوية، وكل من شارك في قتله لم يَسلم، أما عبيد الله بن زياد فقد قتله إبراهيم بن الأشتر وحز رأسه وأرسل به إلى المختار بن أبي عبيد الله الثقفي، يقول ابن عبد البر: قتل الحسين رضي الله عنه. يوم الأحد لعشر مضين من المحرم يوم عاشوراء سنة إحدى وستين... وقضى الله عز وجل أن قتل عبيد الله بن زياد يوم عاشوراء سنة سبع وستين، قتله إبراهيم بن الأشتر في الحرب، وبعث برأسه إلى المختار، وبعث به المختار إلى ابن الزبير وبعث به ابن الزبير إلى علي بن الحسين[3]، وقد صحَّ من حديث عمار بن عمير قال: جيء برأس عبيد الله بن زياد وأصحابه فأتيناهم وهم يقولون: قد جاءت قد جاءت، فإذا حية تخلل الرؤوس حتى دخلت منخر عبيد الله فمكثت هُنيهة ثم خرجت وغابت. ثم قالوا: قد جاءت قد جاءت ففعلت ذلك مرتين أو ثلاثاً[4]. أما يزيد بن معاوية فقد مقته الناس وأبغضوه لمقتل الحسين وثار عليه غير واحد، وثار عليه أهل المدينة النبوية الشريفة، فارتكب جريمة أخرى هي موقعة الحرة بالمدينة فلم يمهله الله تعالى، وكانت دولته أقل من أربع سنين[5]، وجاء عن أبي رجاء العطاردي قال: لا تسبوا علياً ولا أحداً من أهل البيت، كان لنا دار من بلهجيم قال: ألم تروا إلى هذا الفاسق الحسين ابن علي قتله الله؟ فرماه الله بكوكبين في عينيه فطمس بصره[6]. قال ابن كثير: وأما ما روي من الأحاديث والفتن التي أصابت من قتله فأكثرها صحيح، فإنه قلّ من نجا من أولئك الذين قتلوه من آفة أوعاهة في الدنيا، فلم يخرج منها حتى أصيب بمرض وأكثرهم أصابه الجنون[7].

ثامناً: القوى المضادة للإسلام ومصيبة كربلاء:

نجحت القوى المضادة لدولة الإسلام في حدوث واقعة كربلاء ثم وجدوا فيها الفرصة السانحة لتمزيق الجماعة الإسلامية، وتفريق الكلمة بتحويل النزاع بين المسلمين، فقد كانت الكوفة مجمع شذاذ الناس وأشرارهم مع خيارهم فقد أتى إليها الصحابة، كما أتى النصارى واليهود، وأقبلت القبائل العربية، كما أقبل الموالي وانتشرت الزندقة والسحر وانتشرت الحلقات المتعارضة والمجامع المتنافرة، وشرع اليهود بالكوفة في نشر التلمود، والنصارى

(1) فضائل الصحابة رقم (1391) بسند حسن.
(2) سير الشهداء، ص: 244.
(3) الاستيعاب حاشية الإصابة (1/ 382).
(4) سير أعلام النبلاء (3/ 549).
(5) الدوحة النبوية، ص: 129.
(6) المعجم الكبير للطبراني (3/ 119) ورجاله رجال الصحيح.
(7) البداية والنهاية نقلاً عن الدوحة النبوية، ص: 129.

كانوا ينادون بتجسيد الألوهية، فأطلت رؤوس مجامعهم السرية مع المراكز المتطفلة الخفية واستغل دم الحسين واعتبروه ذا قيمة في التضحية تشبه دم المسيح عند النصارى، وتسلل إلى نفوس من أسلم من الفرس من هذا الطريق يستثيرونهم ضد الدولة بحجة أن الحسين كان قد تزوج جيهان شاه ابنة يزدجرد أم علي بن الحسين[1]، فارتفعوا بهذه الفاجعة عن مصائب البشر الاعتيادية فشبهوها بمصائب الأنبياء[2]، وتسللت من خلالها أفكار أهل الكتاب بسهولة.. واعتبروا أن الحسين لم يتألم لما أصاب أهله ونفسه من القتل والإيذاء بل أنه تألم لأن أمة جدّه المسئول عن هدايتها بصفته الإمام والحجة ضلت بحربها إياه[3]، وهذا يذكرنا بفكرة النصارى عن صلب المسيح وتعذيبه ـ فكان من السهل بذر هذه الفكرة من قبل أهل الكتاب في نفس من أسلم حديثاً، فأقبل الموالي على التشيع ورأوا في الحسين إنساناً روحانياً قدر له الله منذ الأزل أن يفتدي الإسلام بدمه ويحفظه بتضحية نفسه فقرن بدور المسيح المخلص[4]... وكان لمستشاري يزيد من النصارى مثل سرجون أثر في تلك الأحاديث الدامية وما ترتب عليها من نكبات ومصائب[5].

تاسعاً: استشهاد الحسين رضي الله عنه نقطة تحول في التاريخ الفكري والعقدي للتشيع:

يعتبر استشهاد الحسين رضي الله عنه نقطة تحول في التاريخ الفكري والعقدي للتشيع، إذ لم يقتصر أثر هذه الحادثة الأليمة على إذكاء التشيع في نفوس الشيعة وتوحيد صفوفهم بل ترجع أهمية هذه الحادثة إلى أن التشيع كان قبل مقتل الحسين مجرد رأي سياسي لم يصل إلى عقائد الشيعة، فلما قتل الحسين امتزج التشيع بدمائهم وتغلغل في أعماق قلوبهم، وأصبح عقيدة راسخة في نفوسهم[6] لقد نظر الشيعة إلى استشهاد الحسين على أنه أهم من استشهاد علي بن أبي طالب نفسه، لأن الحسين ابن بنت رسول الله ﷺ[7]، وقد اعتنق الفرس مبدأ التشيع وبذلك تمركزت العقيدة الشيعية حول الحسين وسلالته دون الحسن وذريته، وإلى اعتناق مبدأ حق الحسين بن علي الإلهي وذريته في الخلافة، وأن الإمامة بالنص لا بالاختيار[8]، بل اعتبر الشيعة سفك دم الحسين في سهل كربلاء ذا قيمة في التضحية تشبه سفك دم المسيح المزعومة

(1) فرق الشيعة، ص: 53، الطبقات (5/ 156).
(2) أثر أهل الكتاب في الفتن والحروب الأهلية، ص: 491، تاريخ الإمامية وأسلافهم من الشيعة، ص: 54.
(3) أثر أهل الكتاب في الفتن والحروب الأهلية، ص: 492.
(4) المصدر نفسه، ص: 494.
(5) المصدر نفسه، ص: 494.
(6) نظرية الإمامة، ص: 47، مواقف المعارضة، ص: 338.
(7) الخوارج والشيعة، ص: 188 فلهاوزن، مواقف المعارضة، ص: 339.
(8) الوثائق السياسية للجزيرة العربية، ص: 19، 20.

عند المسيحية[1]، ولم يقتصر التمايز الفكري والعقدي بين أهل السنة والشيعة بعد مقتل الحسين، بل إن الشيعة أنفسهم قد أثر فيهم مصرع الحسين، وانقسموا على أنفسهم، وافترقوا بعد مقتله إلى فرق[2]، ولكي يكون لمقتل الحسين أهمية خاصة عند الشيعة فقد أكدوا على أهمية يوم عاشوراء، وتفننوا في إظهار الحزن في ذلك اليوم كما ابتدعوا لفضائل ذلك اليوم من الأحاديث والآثار ما لا يقع عليه الحصر، وقد جعلوا البكاء على الحسين يوم عاشوراء يمسح الذنوب ويغفر ما تقدم منها، مما جعل الاحتفال بيوم عاشوراء واجباً دينياً يقوم به الحكام والمحكومين على السواء ويبالغون في إظهار عواطفهم المذهبية في هذا اليوم الحزين[3]، لقد أراد واضعو التشيع وعقائده التأكيد على يوم عاشوراء[4] ويكون التشيع عقيدة ملتهبة في نفوس أتباعها وكانت دولهم تهتم بهذا الأمر، كالدولة البويهية بالعراق والدولة العبيدية الفاطمية بمصر[5]، وقد تعرضت لعقائد الشيعة بنوع من التفصيل في كتابي عن أمير المؤمنين علي ﷺ.

عاشراً: من دعاء الحسين ﷺ:

دعا الحسين ﷺ بهذا الدعاء قبل المعركة: الله أنت ثقتي في كل كرب، ورجائي في كل شدة، وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقة وعدة، كم من همّ يضعف فيه الفؤاد، وتقل فيه الحيلة، ويخذل فيه الصديق ويشمت فيه العدو، أنزلته بك وشكوته إليك، رغبة مني إليك عمن سواك، ففرجته وكشفته، فأنت ولي كل نعمة، وصاحب كل حسنة، ومنتهى كل رغبة[6]. إن الحسين ﷺ يعلمنا حسن الدعاء والالتجاء إلى الله تعالى والثقة به والتوكل عليه والرغبة إليه فجدّه ﷺ، قال: «ليس شيء أكرم على الله من الدعاء»[7]، وقد تعلم الحسين ﷺ من تعاليم جدّه ﷺ، بأن الاستعانة لا تكون إلا بالله والشكوى لا تكون إلا إليه سبحانه، فلا يستعين المرء ولا يشكو إلا إلى الله وحده دون غيره من نبي أو إمام أو صالح.. ويعلمنا الحسين ﷺ أن الدعاء لا يصرف إلا لله وحده دون سواه، فهذا الحسين ﷺ لم يدعُ رسول الله ﷺ أو أباه علياً، وهو في هذا الموقف العصيب الذي يودع فيه الحياة، بل دعا الله وحده وتوسل إليه فقط وفي هذا يعلمنا الحسين ﷺ منهجاً يجب ألا نحيد عنه، وهو عند الدعاء

---

(1) مواقف المعارضة، ص: 339، التاريخ السياسي، عبد المنعم ماجد (2/ 77).

(2) فرق الشيعة، ص: 23 للنوبختي، مواقف المعارضة، ص: 339.

(3) إيران في ظل الإسلام، عبد المنعم حسنين، ص: 104، مواقف المعارضة، ص: 339.

(4) مواقف المعارضة، ص: 340.

(5) المصدر نفسه، ص: 340.

(6) تاريخ الطبري (6/ 350).

(7) سنن الترمذي رقم (3370)، حسنه الألباني في صحيح الجامع.

لحاجة المرء أو طلب رزق أو شفاء مريض أو غيرها عليه أن يدعو الله وحده ولا يشرك في دعائه أحداً كائناً من كان هذا المدعو[1]، فمن أحب الحسين ﷺ فعليه أن يدعو الله كما دعا الحسين ﷺ ، ولا يقول يا حسين أو يا علي، فإن دعاء المخلوقين انحراف عظيم عن كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وهدي العلماء الربانيين وعلى رأسهم أئمة أهل البيت الأطهار.

قال الشاعر:

وأفنية الملوك محجبات وباب الله مبذول الفِنَاءِ
فما أرجو سواه لكشف ضُرِّي ولا أفزعُ إلى غير الدُّعاء[2]

المبحث الخامس

وقعة الحرة: ٦٣هـ

إن ثورة أهل المدينة ومعارضتهم للحكم الأموي وخلافة يزيد بن معاوية ما هي إلا امتداد طبيعي لمعارضة ابن الزبير التي بدأها في مكة، ثم إن قرب فترة يزيد بن معاوية (60هـ) بالخلافة الراشدة جعل أبناء الصحابة أكثر شوقاً لإعادة الشورى وتمكينها بين الناس، وعندما قتل الحسين ﷺ بتلك الصورة الشنيعة ومعه أخوته وأبناء عمه على يد عبيد الله بن زياد أحس الكثير من أبناء الصحابة بحجم الاستبداد والتسلط الذي بدأت تمارسه الدولة الأمر الذي جعل الناس في الحجاز يتعاطفون مع ابن الزبير ﷺ ، ورفعه شعار الشورى، في الوقت الذي لم يحاكم يزيد عبيد الله بن زياد كأحد المسئولين المباشرين عن الجريمة النكراء التي لحقت بالحسين وأهله في كربلاء واعتبر الناس هذا التصرف محاباة لابن زياد من قبل ابن عمه يزيد ابن معاوية[3].

ومما لا شك فيه أن مقتل الحسين ومن معه بتلك الصورة قد أهاج الناس جميعاً، وولد لديهم شعوراً بالحزن والأسى العميق على فقدانه بتلك الطريقة البشعة[4].

أولاً: وفد المدينة يزور يزيد بدمشق:

أراد والي المدينة عثمان بن محمد بن أبي سفيان أن يثبت ولاء أهل المدينة ليزيد، فاختار منها وفداً وأرسلهم إلى دمشق، وهناك استقبلهم يزيد استقبالاً حسناً، فأكرم وفادتهم، وأحسن جوائزهم وأجزل عطاءهم وكان في وفد المدينة عبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصاري، وعبدالله

---

(1) الحسين بن علي بين الحقائق والأوهام، عبد الرحمن بن عبد الله جميعان، ص: 56.
(2) الأخلاق، ص: 38.
(3) مواقف المعارضة، ص: 361.
(4) المصدر نفسه، ص: 362.

ابن أبي عمرو بن حفص المغيرة الحضرمي، والمنذر بن الزبير، ورجال كثير من أشراف أهل المدينة، وبعد أن أخذوا جوائزهم انصرفوا إلى المدينة، وهناك عابوا يزيد وشتموه، وأظهروا العداء له، وخلعوه[1]، وأخرج أهل المدينة عامل يزيد عثمان بن محمد من المدينة كما أخرجوا مروان ابن الحكم وسائر بني أمية وبلغ الأمر يزيد، وعلم بما كان من أهل المدينة من خلعه، والميل إلى ابن الزبير فأعد جيشاً لغزو المدينة أسند قيادته لمسلم بن عقبة المري[2].

ثانياً: موقف علماء أهل المدينة المعارضين للخروج:

1 - عبد الله بن عمر رضي الله عنه :

اعترض بعض علماء المدينة عن خلع يزيد والخروج عليه ولم يؤيدوا من قام بالخروج، وقاموا بنصح إخوانهم واعتزلوا الفتنة وكان أغلب هذا الرأي من أهل العلم والفقه في الدين وفي مقدمة هؤلاء العالم الجليل الإمام القدوة عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد اشتهر عنه إنكاره على الذين رفضوا البيعة ليزيد وسعوا في خلعه[3]، فعندما أراد عبد الله بن مطيع الفرار من المدينة تهرباً من البيعة ليزيد وسمع ذلك عبد الله بن عمر خرج إليه حتى جاءه فقال له: أين تريد يا ابن عم؟ فقال: لا أعطيهم طاعة أبداً. فقال له: أين تريد يا ابن عم؟ لا تفعل فإني أشهد أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات ولا بيعة عليه مات ميتة جاهلية»[4]، وعندما خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية جمع ابن عمر حشمه وولده فقال إني سمعت النبي ﷺ يقول: «ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة»، وإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيعة الله ورسوله وإني لا أعلم غدر أعظم من أن يبايع رجل على بيع الله ورسوله ثم ينصب له القتال، وإني لا أعلم أحداً منكم خلعه ولا تابع في هذا الأمر إلا كانت الفيصل بيني وبينه[5]. فقد عارض ابن عمر من خرج من أهل المدينة لسببين:

الأول: نقضهم البيعة، وهو يرى أنهم أعطوا البيعة عن رضى واختيار، ولم يفعلوا مثل الحسين رضي الله عنه، حيث كان موقفه واضحاً منذ البداية، ولم يعط البيعة، وذلك عند ابن عمر خيانة وغدر، ويتضح ذلك في قوله لعبد الله بن مطيع: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة ولا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة

(1) البداية والنهاية (11/ 624، 625).
(2) تاريخ خليفة، ص: 237، أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 504.
(3) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص: 506.
(4) مسلم، كتاب: الإمارة (3/ 1478) سير أعلام النبلاء (3/ 323).
(5) مسلم (3/ 1478) كتاب: الإمارة.

جاهلية»[1]. وأوجب على أهله الوفاء بالبيعة مذكراً لهم بقول رسول الله ﷺ: «ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة». وإنا قد بايعنا هذا الرجل، ولا أعلم غدراً أعظم من أن يبايع رجل على بيعة الله ورسوله، ثم ينصب له القتال[2].

الثاني: هو تعظيم حرمة دماء المسلمين وحرمة الاقتتال بينهم وتزداد هذه الحرمة في الأماكن المقدسة كمكة والمدينة، ولقد استدل ابن حجر بموقف ابن عمر السابق والأحاديث التي استشهد بها على وجوب طاعة الإمام الذي انعقدت له البيعة، والمنع من الخروج عليه، ولو جار في حكمه، وأنه لا ينخلع بالفسق[3]. والواقع أن موقف ابن عمر لا يدل على جواز بيعة رئيس الدولة الفاسق الظالم، ولا على تحريم خلعه بسبب فسقه وظلمه، وإنما يدل على تحريم الغدر بكل أشكاله، وفي جميع مواضعه، بما فيها غدر الأمة برئيس الدولة الذي اختارته وبايعته[4]، وكأن لسان حال ابن عمر يقول: إذا كنتم تعلمون من يزيد الفسق والظلم فلماذا بايعتموه في أول الأمر وجعلتموني أبايعه؟ لأن ابن عمر لم يبايع حتى بايع أهل المدينة جميعهم، أما وقد بايعتموه فيلزمكم الوفاء بالبيعة، وكان ابن عمر يشك في أقوالهم عن فسق يزيد، ولم يكن وحده في هذا الشك، بل كان محمد ابن الحنفية ينكر عليهم اتهام يزيد بترك الصلوات وشرب الخمر[5]، ولعل ذلك هو ورع ابن عمر في أن يتهم أحداً في دينه ما لم يبلغ عنده ذلك الأمر مرحلة اليقين ومع ذلك فإنه مع بقائه بيعة يزيد، اعتزل القتال ولم يشارك أياً من الطرفين[6] فهذا موقف شيخ الصحابة في عصره، وأروع الناس وأزهدهم وأفقههم في دين الله، وقد شهد له النبي ﷺ بالصلاح والتقوى[7]. وقالت عنه عائشة ما رأيت ألزم للأمر الأول من عبد الله بن عمر[8]، وقال عنه سعيد بن المسيب: لو شهدت على أحد أنه من أهل الجنة لشهدت على ابن عمر[9]، وقال عنه علي بن الحسين إن ابن عمر أزهد القوم وأصوب القوم[10]، وقال عنه مالك: أقام ابن عمر بعد النبي ﷺ ستين سنة يفتي الناس في الموسم، وكان من أئمة الدين[11].

2 - محمد بن علي بن أبي طالب (ابن الحنفية):

فإنه لم ير خروج أهل المدينة على يزيد ولم يستجب لدعوتهم إياه بالخروج معهم بل

---

(1) البخاري، كتاب: الفتن، باب 21.
(2) الفقهاء والخلفاء، ص: 60.
(3) فتح الباري (13/ 60).
(4) الفقهاء والخلفاء، ص: 60.
(5) المصدر نفسه، ص: 60.
(6) المصدر نفسه، ص: 61.
(7) مسلم (4/ 1927) رقم 2478.
(8) المستدرك للحاكم (3/ 559).
(9) المستدرك (3/ 559) فضائل الصحابة (2/ 895) رقم 1703.
(10) المستدرك (3/ 160).
(11) طبقات الفقهاء للشيرازي، ص: 50 مواقف المعارضة، ص: 457.

جادلهم في نفي التهم التي أشاعوها عن يزيد، ولما رجع وفد أهل المدينة من يزيد مشى عبد الله بن مطيع وأصحابه إلى محمد ابن الحنفية، فأرادوه على خلع يزيد فأبى عليهم، فقال ابن مطيع: إن يزيد يشرب الخمر، ويترك الصلاة، ويتعدى حكم الكتاب. فقال لهم: ما رأيت منه ما تذكرون، وقد حضرته وأقمت عنده فرأيته مواظباً على الصلاة، متحرياً للخير، يسأل عن الفقه، ملازماً للسنة، قالوا: فإن ذلك كان منه تصنعاً لك. فقال: وما الذي خاف مني أو رجا حتى يظهر لي الخشوع؟ فأطلعكم على ما تذكرون من شرب الخمر؟ فلئن كان أطلعكم على ذلك إنكم لشركاؤه، وإن لم يكن أطلعكم فما يحل لكم أن تشهدوا بما لم تعلموا. قالوا: إنه عندنا لحق، وإن لم يكن رأيناه فقال لهم: أبى الله ذلك على أهل الشهادة فقال: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [الزخرف: 86] ولست من أمركم في شيء[1]. قالوا: فلعلك تكره أن يتولى الأمر غيرك فنحن نوليك أمرنا. قال: ما أستحل القتال على ما تريدون عليه تابعاً ولا متبوعاً. قالوا: فقد قاتلت مع أبيك، قال: جيئوني بمثل أبي أقاتل على ما قاتل عليه، فقالوا: فمر ابنيك أبا القاسم والقاسم بالقتال معنا قال: لو أمرتهما قاتلت. قالوا: فقم معنا مقاماً تحض الناس فيه على القتال، قال: سبحان الله آمر الناس بما لا أفعله ولا أرضاه إذا ما نصحت لله في عباده. قالوا: إذا نكرهك. قال: إذا آمر الناس بتقوى الله ولا يرضون المخلوق بسخط الخالق. ولما رأى محمد ابن الحنفية الأمور تسير في الاتجاه الذي لا يريده، وبدا يظهر له سوء عاقبة تصرفات المخالفين له من أهل المدينة حينما ترامى إلى الأسماع قدوم جيش أهل الشام إلى المدينة، لذلك قرر ترك المدينة وتوجه إلى مكة[2]، وسار أهل بيت النبوة على هذا المنوال ولزموا الطاعة، ولم يخرجوا مع أهل المدينة ضد يزيد، فعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب لم يخرج مع أهل المدينة ولزم الطاعة ليزيد[3]، وهو الذي قال فيه الزهري: كان أفضل أهل بيته وأحسنهم طاعة، وقال عنه: لم أدرك من آل البيت أفضل من علي بن الحسين[4]، وكذلك ابن عباس رضي الله عنه وهو فقيه الأمة وحبرها وعالمها لم ينقل عنه تأييد لأهل المدينة كما أنه لم يذكر عنه أنه نزع بيعة يزيد بن معاوية، فهؤلاء أفضل آل بيت النبوة في زمانهم ومع ذلك لم يخرجوا مع أهل المدينة ومسوغات الخروج على يزيد عندهم هي أكثر من غيرهم[5].

---

(1) البداية والنهاية (11/ 654) وذكر الدكتور عبد العزيز دخان أن السند صحيح لأنه من طريق صخر بن جويرية وهو من الثقات عن نافع، أحداث وأحاديث، ص: 203.

(2) البداية والنهاية (11/ 654).

(3) مواقف المعارضة، ص: 458.

(4) تاريخ ابن عساكر (12/ 35) مواقف المعارضة، ص: 458.

(5) مواقف المعارضة، ص: 458.

3 - النعمان بن بشير الأنصاري رضي الله عنه :

وممن عاب على أهل المدينة خروجهم وعارضه الصحابي الجليل النعمان بن بشير الأنصاري وقد كان إبان خروج أهل المدينة في الشام، فاستغل يزيد فرصة وجوده فبعثه إلى أهل المدينة لعله يفلح في صدهم عن الخروج ويعيدهم إلى الطاعة ولزوم الجماعة، فاستجاب النعمان لذلك وقدم المدينة فجمع عامة الناس، وأمرهم بالطاعة ولزوم الجماعة، وخوفهم الفتنة وقال لهم: إنه لا طاقة لكم بأهل الشام فقال له عبد الله بن مطيع: ما يحملك يا نعمان على تفريق جماعتنا، وفساد ما أصلح الله من أمرنا، فقال النعمان: أما والله لكأني بك لو قد نزلت تلك التي تدعو إليها، وقامت الرجال على الركب تضرب مفارق القوم وجباههم بالسيوف، ودارت رحى الموت بين الفريقين قد هربت على بغلتك تضرب جبينها إلى مكة، وقد خلفت هؤلاء المساكين[1] يقتلون في سككهم ومساجدهم وعلى أبواب دورهم فعصاه الناس، فانصرف، وكان والله كما قال[2].

4 - عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه :

فقد كان بالشام عندما عزم يزيد أن يبعث جيشاً إلى المدينة، فحاول عبد الله بن جعفر أن يتدخل في الأمر ليجنب أهل المدينة شر القتال، فكلم يزيد وطلب منه الرفق بأهل المدينة ورفقه عليهم، وقال: إنما تقتل بهم نفسك وقد تجاوب معه يزيد حين قال: فإني أبعث أول جيش وآمرهم أن يمروا بالمدينة إلى ابن الزبير، فإنه قد نصب لنا الحرب ويجعلونها طريقاً ولا يقاتلهم فإن أقر أهل المدينة بالسمع والطاعة تركهم، وقد وجد عبد الله بن جعفر مدخلاً لكف القتال والأذى عن أهل المدينة، فكتب على الفور إلى زعماء أهل المدينة يخبرهم بذلك ويقول: استقبلوا ما سلف واغنموا السلامة والأمن، ولا تعرضوا لجنده ودعوهم يمضون عنكم[3] وكان ردهم عليه: لا يدخلها علينا أبداً[4].

5 - سعيد بن المسيب رحمه الله :

فإنه قد اعتزل فتنة خروج أهل المدينة ولم يدخل فيما دخلوا فيه، ولم يكن يحضر لهم أمراً من أمورهم إلا الجمعة والعيد، وقد لزم المسجد نهاره ولا يبرحه إلى الليل والناس في قتالهم أيام الحرة[5].

---

(1) المساكين: يعني الأنصار.

(2) تاريخ الطبري، نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 513.

(3) الطبقات (5/ 145).

(4) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 514.

(5) الطبقات (5/ 132)، سير أعلام النبلاء (4/ 228، 229).

ومن كل ما سبق ندرك أن أهل المدينة انقسموا تجاه البيعة ليزيد والدخول في طاعته إلى قسمين: القسم الأول منهم تزعمه عدد من دفعه الحماس والغيرة على الدين إلى خلع يزيد ولقد اشترك بعض الفقهاء في موقعة الحرة، وانضم إلى أهل المدينة وخلع يزيد، وقاتل الجيش الأموي، ومن أبرزهم محمد بن عمرو بن حزم[1]، وهذا يعطي لحركة أهل المدينة خصوصية الارتكاز على المرجعية الشرعية للفقهاء في مقاومة حكم يزيد بن معاوية ولقد اعتمدت ثورة أهل المدينة على فتوى هؤلاء العلماء ومن قبلهم الحسين بن علي في وجوب مقاومة المنكر ويتضح ذلك في خطاب عبد الله بن حنظلة حين قال: يا قوم اتقوا الله وحده لا شريك له، فوالله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نرمى بحجارة من السماء[2]، وقد شارك في ثورة أهل المدينة عدد من صغار الصحابة هم: عبد الله بن زيد وعبد الرحمٰن بن أزهر وعبد الله ابن حنظلة[3]، إلا أن معظم الصحابة ممن عاش إلى وقعة الحرة لم يشتركوا فيها، وحاولوا إقناع الثائرين بعدم خلع يزيد والخروج على حكمه[4].

ومع أن الأسس الشرعية، التي قامت عليها حركة أهل المدينة وفتاويهم في الخروج على يزيد هي نفس الأسس التي بنى عليها الحسين موقفه، وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على علماء الأمة وقادتها، وأن بني أمية قد تجاوزوا في حكمهم حدود الشريعة، سواء على الصعيد السياسي وطريقة الحكم كالانفراد بالسلطة وغياب الشورى، والاستبداد. أو على الصعيد الشخصي، كانعدام الكفاءة والعدالة في شخص يزيد، إلا أن هناك اختلافاً كبيراً من الناحية الشرعية في الأصل الذي بنى عليه الحسين فتواه ومن ثم اتخذ قراره في مقاومة يزيد، فالحسين لم يعط البيعة ليزيد منذ البداية، وعلى ذلك فإنه كان يرى أنه يحق له ـ من هذا المنطق ـ حرية التصرف في مقاومة الحكم الأموي، بينما نجد أن أهل المدينة قد أعطوا البيعة ليزيد، ومن بعد ذلك رأوا أنهم يجوز لهم نقض البيعة وخلع يزيد نظراً لعدم كفاءته وصلاحه للحكم فأضافوا بذلك بعداً جديداً إلى فتوى الحسين، وهي أنه يجوز خلع الحاكم المسلم الذي يعتقد بفساده وفسوقه وهو أمر خالفهم فيه بقية الصحابة أي القسم الثاني من أهل المدينة ولعل ذلك هو السبب الرئيس الذي جعل فقهاء المدينة من الصحابة يندّدون بقوة بخروج أهل المدينة. فهم يرون أن نقض البيعة لا يجوز، وأن فسوق الحاكم لا يوجب عليه الخروج[5]، يضاف إلى ذلك خوف كثير من فقهاء ومفتي الصحابة ممن حضر موقعة الحرة على أهل المدينة من القتل والخوف على انتهاك قدسية مدينة رسول

---

(1) الطبقات الكبرى (5/ 69 - 70).

(2) المصدر السابق (6/ 66).

(3) قيم المجتمع (2/ 47) للعمري، الفقهاء والخلفاء، ص: 31.

(4) الفقهاء والخلفاء، ص: 31، سلطان حثلين.

(5) الفقهاء والخلفاء، ص: 32.

الله ﷺ، وقد وقع ذلك بالفعل[1]، ومع ذلك فإن جميع الصحابة وفقهاء المسلمين لم يرضوا عن تصرف يزيد وقتله أهل الحرة واستباحته المدينة[2] بل إن ابن تيمية يعتبر هذا التصرف من كبائر الذنوب التي اقترفها يزيد[3].

ثالثاً: معركة الحرّة:

اشتد الأمر على يزيد حين علم بأن بني أمية في المدينة محاصرون في دار مروان بن الحكم، فأراد أن يخلصهم من هذا الحصار قبل أن يقتلوا أو يحل بهم مكروه ـ وكانوا ألف رجل ـ فعز عليه أن يقتل هؤلاء، وفي سلطانه دون أن يقدم لهم عوناً فأمر بتجهيز جيش ليذهب إلى المدينة، فيخلص بني أمية، ويرد هؤلاء المتمردين إلى الطاعة وطلب عمرو بن سعيد ليقود الجيش فأبى، وأرسل إلى عبيد الله بن زياد ليرد أهل المدينة إلى الأهل الطاعة ثم يغزو ابن الزبير، فقال: لا أجمعهما للفاسق أبداً، أقتل ابن بنت رسول الله ﷺ وأغزو البيت[4] ثم استقر الرأي على إرسال مسلم بن عقبة المرّي[5].

1 - وصية يزيد لمسلم:

اجتمع الجيش، وهمّ مسلم بن عقبة أن ينطلق بهم إلى المدينة فقال له يزيد: ادع القوم ثلاثاً، فإن رجعوا إلى الطاعة، فاقبل وكف عنهم، وإلا فاستعن بالله وقاتلهم، وإذا ظهرت عليهم فأبح المدينة ثلاثاً، ثم اكفف عن الناس، وانظر إلى علي بن الحسين فاكفف عنه، واستوصي به خيراً، وادن مجلسه فإنه لم يدخل في شيء مما دخلوا فيه وأمر مسلماً إذا فرغ من المدينة أن يذهب لحصار ابن الزبير، وقال له إن حدث بك أمر فعلى الناس حصين بن نمير السكوني[6].

2 - مسلم يستعرض الجيش:

ركب مسلم بن عقبة فرسه واستعرض جيشه الذي سيحارب به أهل المدينة، فجعل على أهل دمشق عبد الله بن مسعدة الفزاري، وعلى أهل حمص حصين بن نمير السكوني، وعلى أهل الأردن حبيس بن دلجة القيني، وعلى أهل فلسطين روح بن زنباع الجذامي، وشريك الكناني، وعلى أهل قنسرين طريف بن الحسحاس الهلالي، وعليهم جميعاً مسلم بن الوليد بن

---

(1) تاريخ خليفة، ص: 238، 239، الفقهاء والخلفاء، ص: 32.
(2) حركة النفس الزكية، ص: 30، الفقهاء والخلفاء، ص: 30.
(3) الفتاوى نقلاً عن الفقهاء والخلفاء، ص: 32.
(4) تاريخ الطبري (6/ 417).
(5) تاريخ الطبري (6/ 416).
(6) البداية والنهاية (11/ 617).

عقبة المرّيّ الغطفاني[1]، وسار مسلم إلى المدينة فوجد بني أمية وقد أخرجوا منها، وساروا في اتجاه الشام، فاستوقفهم وسألهم عن الوضع في المدينة، فلم ينطقوا بجواب، وكان أهل المدينة، قد أطلقوا حصارهم بعد أن أخذوا عليهم العهود والمواثيق ألّا يدلوا على عورة ولا يعاونوا عدواً، وطلب مسلم منهم أن يدلوه على ما ورائهم فلم يستجيبوا، فغضب مسلم منهم غضباً شديداً، فلم يبرد غضبه إلا عبد الملك بن مروان الذي دلّه على الخطة التي يجب اتباعها في حرب المدينة، فأشار إليه بأن يأتيها من جهتها الشرقية، ويلحق في الجنوب منها، يواجه أهل المدينة، في مكان يسمى الحرَّة، وتأتي الشمس أمام جيش الشام فتلمع خوذهم وسلاحهم فيرهبون عدوهم، ويكون لهم السيطرة من الوجهة الحربية[2].

3 - بدء المعركة:

وفي يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من شهر ذي الحجة 63هـ وقعت المعركة المشؤومة، فوجه مسلم خيله نحو أهل المدينة والتقى الجيشان، وحمل عبد الله بن حنظلة الغسيل على خيل الشام، فانكشفت الخيل، وانهزموا حتى انتهوا إلى مسلم، فنهض مسلم بمن معه وقاتلوا قتالاً شديداً، وانكشف أهل المدينة من كل جانب وجاء الفضل بن عباس بن ربيعة إلى ابن الغسيل فقاتل معه، وطلب منه أن يجمع الفرسان ليقاتلوا معه وكان قد عزم على الوصول إلى مسلم بن عقبة ليقتله، فأمر ابن الغسيل أن يجتمع الفرسان حول الفضل، وحمل الفضل بهم على أهل الشام فانفرجوا وجثث الرجال أمامه على الركب، ومضى نحو راية مسلم فقتل صاحبها وهو يظنه مسلماً[3]، وكان الذي قتله الفضل غلاماً لمسلم اسمه رومي وأخذ مسلم الراية ونادى في جيشه يحضهم على القتال وأمر أحد قادته أن ينضحوا ابن الغسيل بالنبل ونادى مسلم: يا أهل الشام، أهذا هو قتال قوم يريدون أن يدفعوا به عن دينهم، وأن يُعزّوا به نصر إمامهم، قبح الله قتالكم منذ اليوم، ما أوجعه لقلبي، وأغيظه لنفسي، أما والله ما جزاؤكم عليه إلا أن تُحرموا العطاء، وأن تجمروا[4] في أقاصي الثغور، شدوا مع هذه الراية، ومشى برايته، وشدت الرجال أمام الراية، وصرع الفضل ابن عباس بن ربيعة وما بينه وبين أطناب مسلم إلا عشر أذرع، وقتل معه زيد بن عبد الرحمن بن عوف وإبراهيم بن نعيم العدوي في رجال من أهل المدينة كثير[5]، ثم أن خيل مسلم ورجاله أقبلت نحو عبد الله بن حنظلة الغسيل ورجاله حتى دنوا منه، وركب مسلم بن عقبة فرساً له، فأخذ يسير في أهل الشام ويحرضهم ويقول: يا أهل الشام إنكم لستم بأفضل العرب في أحسابها وأنسابها، ولا أكثرها عدداً، ولا أوسعها بلداً،

---

(1) البداية والنهاية (11/ 616).

(2) الدولة الأموية د. العش، ص: 176، الخلافة الأموية للهاشمي، ص: 85.

(3) تاريخ الطبري (6/ 422).

(4) تجمروا : تحبسوا.

(5) تاريخ الطبري (6/ 423).

ولم يخصكم الله بالذي خصكم به من النصر عل عدوكم وحسن المنزلة عند أئمتكم إلا بطاعتكم واستقامتكم وإن هؤلاء القوم وأشباههم من العرب غيَّروا فغير الله بهم، فتموا على أحسن ما كنتم عليه من الطاعة يتمم الله لكم أحسن ما ينيلكم من النصر والظفر[1]. وأمر مسلم أجدر رماته أن يصوب رميه نحو ابن الغسيل فقال ابن الغسيل: علام تستهدنون لهم؟ من أراد التعجل فليلزم هذه الراية، فقام إليه كل مستميت، فقال: الغدوُّ إلى ربكم. فوالله إني لأرجو أن تكونوا عن ساعة قريري عين، فنهض القوم واقتتلوا أشد قتال رئي في ذلك الزمان، وأخذ ابن الغسيل يقدم بنيه أمامه واحداً بعد واحد حتى قتلوا بين يديه وقتل هو وقتل معه أخوه[2].

4 - نهاية المعركة:

انتهت المعركة لصالح جيش الشام، وهزم أهل المدينة هزيمة ماحقة، قتل فيها خلق كثير من القادة ووجوه الناس ولم يخف مروان أسفه على ابن حنظلة ومحمد بن عمرو بن حزم، وإبراهيم بن نعيم بن النحام، وغيرهم، بل كان يثني عليهم ويذكرهم بأحسن صفاتهم التي اشتهروا بها[3]، وكان القتل ذريعاً في المدنيين وقد شبهتهم الرواية بنعام الشرد، وأهل الشام يقتلونهم في كل وجه[4]،وقد قتل في هذه المعركة، عدد من الصحابة رضوان الله عليهم ويشهد لذلك ما ذكره سعيد بن المسيب حينما قال: وقعت الفتنة الأولى يعني مقتل عثمان ـ فلم تبق من أصحاب بدر أحداً، ثم وقعت الفتنة الثانية ـ يعني الحرَّة ـ فلم تبق من أصحاب الحديبية أحداً، ثم وقعت الثالثة فلم ترتفع وللناس طبَّاخ[5]، ولقد أورد خليفة في تاريخه قوائم بأسماء قتلى الحرَّة ثم قال: فجميع من أصيب من قريش والأنصار ثلاثمائة رجل وستة رجال[6]، وقد تابعه على ذلك أبو العرب[7]، والأتابكي[8]، وهناك رواية مسندة عن الإمام مالك قال فيها: إن قتلى الحرَّة سبعمائة رجل من حملة القرآن وقال الراوي: وحسبت أنّه قال: وكان معهم ثلاثة أو أربعة من أصحاب رسول الله ﷺ[9]، ورواية مالك أقرب إلى الصحة من الذي ذكر خليفة[10].

---

(1) تاريخ الطبري (6/ 423).
(2) المصدر نفسه (6/ 424).
(3) الطبقات (5/ 68، 71) المحن، ص: 179.
(4) المصدر نفسه (5/ 68).
(5) المراد لم تبق في الناس من الصحابة أحداً فتح الباري (7/ 375).
(6) تاريخ خليفة، ص: 250 مواقف المعارضة، ص: 422.
(7) المحن، ص: 187 - 200.
(8) النجوم الزاهرة (1/ 160).
(9) المحن، ص: 200 بإسناد صحيح،مواقف المعارضة، ص: 423.
(10) مواقف المعارضة، ص: 423.

5 - المبالغات التي أوردها البعض في تقدير نسبة القتلى من المدنيين:

ومن الغريب تلك المبالغات التي أوردها البعض في تقدير نسبة القتلى من المدنيين فمثلاً هناك رواية الواقدي والتي أخذ بها غالب المتقدمين والمتأخرين قال الواقدي عن عبد الله بن جعفر قال: سألت الزهري: كم بلغ القتلى يوم الحرَّة؟ قال: أما من قريش والأنصار ومهاجرة العرب ووجوه الناس فسبعمائة، وسائر ذلك عشرة آلاف، وأصيب بها نساء وصبيان بالقتل[1] والسند عن الواقدي وهو متروك، ثم إنه عورض بسند أصح منه، وهي رواية مالك، فتعتبر رواية الواقدي رواية منكرة لا يعتمد عليها في تقدير عدد القتلى[2]، ولقد أنكر ابن تيمية صحة ما ذكر الواقدي، واستبعد أن يصل العدد إلى هذا الحد[3].

6 - نهب المدينة:

لقد اشتهر أن مسلم بن عقبة المري، أمر بانتهاب المدينة، فمكثوا ثلاثة أيام من شهر ذي الحجة ينتهبون المدينة حتى رأوا هلال محرم، فأمر الناس فكفوا، وذلك لأن معركة كانت لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وستين للهجرة وتعتبر رواية نافع مولى ابن عمر هي أصح رواية نصت على حدوث الانتهاب فقد قال: . . وظفر ـ مسلم بن عقبة ـ بأهل المدينة وقتلوا وانتهبت المدينة ثلاثاً[4]. وقد وردت لفظة الاستباحة عند السلف لتعني النهب، كما ورد على لسان عبد الله بن يزيد بن الشخير حين قال: ولما استيحت المدينة ـ يعني الحرة ـ دخل أبو سعيد الخدري غاراً[5]، ومن هنا يعلم أن الاستباحة والنهب جاءت بمعنى واحد حيث جاءت هاتان اللفظتان في غالب المصادر المتقدمة[6]، وقرار انتهاب المدينة الذي اتخذه هو يزيد بن معاوية، وقد حمله الإمام أحمد مسؤولية انتهاب المدينة، فعند ما سأله مهنا بن يحيى الشامي السلمي عن يزيد قال: هو الذي فعل بالمدينة ما فعل. قلت: وما فعل؟ قال: نهبها[7]. وقال ابن تيمية: فبعث إليهم ـ أي أهل المدينة ـ جيشاً وأمره إذا لم يطيعوه بعد ثلاث أن يدخلها بالسيف ويبيحها ثلاثاً[8] وذهب إلى ذلك ابن حجر[9] ولا يشك أن انعدام الأمن والخوف في

---

(1) المحن، ص: 184، وفاء الوفاء (1/ 132) مروج الذهب (3/ 79) مواقف المعارضة، ص: 424.

(2) مواقف المعارضة، ص: 424,1

(3) مناهج السنة (4/ 775).

(4) الطبقات الكبرى (5/ 38) بإسناد حسن.

(5) الطبقات الكبرى نقلاً عن مواقف المعارضة، ص: 427.

(6) الطبقات(5/ 225)، مجمع الزوائد(7/ 249.

(7) السنة للخلال، ص: 520، طبقات الحنابلة (1/ 347).

(8) الوصية الكبرى، ص: 452.

(9) تهذيب التهذيب (11/ 316).

المدينة قد أدّى بالبعض إلى الهروب من المدينة والالتجاء إلى الجبال المجاورة، كما حدث لأبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، فقد هرب من المدينة ودخل غاراً والسيف في عنقه ودخل عليه شامي فأمره بالخروج، فقال: لا أخرج وإن تدخل قتلتك، فدخل عليه فوضع أبو سعيد السيف وقال: بؤ بإثمي وإثمك قال: أنت أبو سعيد الخدري قال نعم: قال: فاستغفر لي فخرج[1]. وقد ذكر الواقدي أنّ أهل الشام نتفوا لحيته انتقاماً منه ولكن هذا لم يرد من طريق صحيحة[2]. ولكن الشيء الذي يجب التنبه إليه هو أن النهب لم يمثل كل أهل المدينة، فلم نسمع أن ابن عمر قد انتهبت داره أو علي بن الحسين، أو غيره من الذين لم يقفوا بجانب المعارضين وإنما كان الانتهاب في الأماكن التي يدور فيها القتال وتعرف للمعارضة للحكم الأموي[3].

لقد أخطأ يزيد خطأً فاحشاً في قوله لمسلم بن عقبة أن يبيح المدينة ثلاثة أيام وهذا خطأ كبير، فإنه وقع في هذه الثلاثة أيام من المفاسد العظيمة في المدينة النبوية ما لا يُحَدُّ ولا يُوصَفُ، مما لا يعلمه إلا الله عز وجل وقد أراد بإرسال مسلم بن عقبة توطيد سلطانه وملكه ودوام أيامه، فعاقبه الله بنقيض قصده فقصمه الله قاصم الجبابرة وأخذه أخذ عزيز مقتدر[4]، قال رسول الله ﷺ: «لا يكيد أهل المدينة أحد إلا انماع كما ينماع الملح في الماء»[5] ومن الأحاديث التي تدل على شناعة جريمة إخافة أهل المدينة وتبين سوء عاقبة فاعلها[6]قوله ﷺ: «من أخاف أهل المدينة أخافه الله عز وجل ، وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً»[7].

7 - ما قيل حول انتهاك الأعراض:

لم نجد في كتب السنة أو في تلك الكتب التي ألفت في الفتن[8]وكذلك لم نجد في المصدرين التاريخيين المهمين عن هذه الفترة وهما (الطبري والبلاذري) أي إشارة لوقوع شيء من ذلك، وهما قد اعتمد على روايات الإخبار بين المشهورين مثل عوانة بن الحكم وأبي مخنف الشيعي وغيرهما[9]، وأول من أشار إلى انتهاك الأعراض، المدائني المتوفي سنة

(1) تاريخ خليفة، ص: 239 إسناد صحيح.
(2) مجمع الفوائد (7/ 250) مواقف المعارضة، ص: 431.
(3) مواقف المعارضة، ص: 431.
(4) البداية والنهاية (11/ 627).
(5) البخاري رقم (1877).
(6) من تصلي عليهم الملائكة ومن تلعنهم، ص: 68.
(7) مسند أحمد (27/ 94) إسناده صحيح، مؤسسة الرسالة.
(8) انظر الفتن لنعيم بن حماد، والفتن لأبي عمرو الداني.
(9) مواقف المعارضة، ص: 431، 432.

225هـ حيث قال المدائني عن أبي قرة عن هشام بن حسان قال: وَلَدت بعد الحرة ألف امرأة من غير زوج، ويعتبر ابن الجوزي هو أول من أورد هذا الخبر في تاريخه[1]، وفي رسالته الخاصة التي ألفها في الطعن على يزيد بن معاوية وإظهار مثالبه[2]، وقد نقلها عن ابن الجوزي السمهودي مؤرخ المدينة المتوفي في القرن العاشر الهجري[3]، ويبدو أن الطبري، والبلاذري وخليفة بن خياط وغيرهم، لم يقتنعوا بصحة هذا الخبر ، فإنهم قد أعرضوا عنه ولم يدخلوه في كتبهم ولا يوجد خبر صحيح الإسناد في حادثة الاغتصاب المزعومة وقد ورد في دلائل النبوة للبيهقي من طريق يعقوب بن سفيان قال: حدثنا يوسف بن موسى حدثنا جرير بن المغيرة قال: أنهب مسرف بن عقبة المدينة ثلاثة أيام، فزعم المغيرة أنه افتض فيها ألف عذراء[4]، ومن الجدير بالذكر أن كل من أورد خبر انتهاك أعراض أهل المدينة في معركة الحرَّة قد اعتمد على رواية يعقوب أو رواية المدائني فقط[5]، وكلاهما لا تصح ولا تثبت وقد ذكر العصامي فرية لم يسبق إليها حيث قال: وافتض فيها ألف عذراء وإن مفتضها فعل ذلك أمام الوجه الشريف، والتمس ما يمسح به الدم فلم يجد ففتح مصحفاً قريباً منه ثم أخذ من أوراقه ورقة فمسح بها، نعوذ بالله ما هذا إلا صريح الكفر وأنتنه[6]، وقد أطلق العنان بعض الكتّاب لرغباتهم وأهوائهم ولم يستندوا إلى أي دليل والروايات المتعلقة بالاغتصاب لا يمكن الاعتماد عليها[7]، ثم إن القرائن المصاحبة لمعركة الحرّة تنفي وجود أي نوع من الاغتصاب، وقد رأينا أن الروايات الحسنة التي ذكرت انتهاب المدينة وأثبتناها في موضعها، لم يرد فيها ذكر لانتهاك الأعراض[8].

إن انتهاك أعراض نساء المدينة لا أساس لها من الصحة، وأنها روايات جاءت متأخرة، وبدافع حزبي بغيض، يتخذ من الكره والتعصب ضد التاريخ الأموي دافعاً له وتهدف إلى إظهار جيش الشام، الذي يمثل الجيش الأموي جيشاً بربرياً لا يستند لأسس دينية أو عقائدية أو أخلاقية، وهذا الاتهام لا يقصد به اتهام الجيش الأموي فقط، بل إنَّ الخطورة التي يحملها هذا الاتهام تتعدى إلى ما هو أعظم من مجرد اتهام الجيش الأموي، إلى اتهام الجيش

(1) المنتظم (6/ 15).
(2) رسالة في جواز لعن يزيد نقلاً عن مواقف المعارضة، ص: 433.
(3) وفاء الوفاء (1/ 134).
(4) دلائل النبوة (6/ 475) مواقف المعارضة، ص: 434.
(5) مواقف المعارضة، ص: 437.
(6) سمط النجوم العوالي (3/ 92) مواقف المعارضة، ص: 438.
(7) مواقف المعارضة، ص: 439.
(8) المصدر نفسه.

الإسلامي الذي فتح أصقاعاً شاسعة في تلك الفترة[1]، وقد ذهب بعض الباحثين المعاصرين إلى إنكار ذلك مثل د. نبيه عاقل[2]، ود. العرينان[3]. ود. العقيلي[4]، وكذلك فلها وزن[5]، وقام الشيباني بدراسة عميقة حول الموضوع وأثبت بطلان هذه الأكاذيب[6].

8 - أخذ البيعة من أهل المدينة ليزيد بن معاوية:

تعتبر الكيفية التي تمّ بها أخذ البيعة من المدنيين من أكبر الأمور التي انتقد فيها يزيد بن معاوية، فقد وردت الروايات لتبين أن مسلم بن عقبة أخذ البيعة من أهل المدينة على أنّهم عبيد ليزيد بن معاوية، يتصرف في دمائهم وأموالهم كيفما يشاء، فهناك رواية مجملة تفيد بأن مسلم ابن عقبة أخذ البيعة من أهل المدينة على أنّهم عبيد ليزيد بن معاوية، وذلك بعد انتهاء معركة الحرّة وتضيف الرواية: على أن البيعة تضمنت الحرية الكاملة ليزيد بن معاوية للتصرف في دمائهم وأموالهم وأهلهم[7]، وتضيف إحدى الروايات صيغة أخرى لأخذ البيعة من أهل المدينة، فتذكر الرواية: أنهم بايعوا كعبيد ليزيد في طاعة الله ومعصيته. وهذه الروايات أسانيدها ضعيفة جداً، ثم إن متونها يكتنفها الغموض، فليس هناك تفصيل وبيان عمن بايع على هذه الصفة، وهل كل المدنيين بايعوا هذه البيعة بمن فيهم ابن عمر وعلي بن الحسين وأبي سعيد الخدري وسعيد بن المسيب، وغيرهم من الذين لم يشتركوا في محاربة أهل الشام؟ والذي يبدو من خلال مجمل الروايات أنه فور انتهاء معركة الحرّة دعا مسلم بن عقبة الناس للبيعة، كما يبدو أن البيعة أخذت من جميع الناس[8]، وحتى أن علي بن الحسين قد أتي به إلى مسلم بن عقبة فأكرمه مسلم، وذلك بسبب وصية يزيد لمسلم بوجوب حسن معاملة الحسين بن علي مما يدل عل أن أهل المدينة ـ الخارج على طاعة يزيد والمقر بطاعة يزيد كلهم قد دعوا إلى مسلم بن عقبة[9]، ولقد وردت روايات أخرى تفصل وتبين هذه البيعة، وتجعل هذه البيعة لفئة مخصوصة، وكان الدافع لذلك هو غضب مسلم بن عقبة على هذه الفئة ومحاولته

---

(1) مواقف المعارضة، ص: 439 إلى 446.
(2) تاريخ خلافة بني أمية، ص: 12.
(3) إباحة المدينة وحريق الكعبة.
(4) خلافة يزيد بن معاوية للعقيلي، ص: 69.
(5) تاريخ الدولة العربية، ص: 154 - 155 فلهاوزن.
(6) مواقف المعارضة، ص: 432 إلى 444.
(7) تاريخ خليفة، ص: 239 بإسناد صحيح حتى جويرية بن أسماء، أنساب الأشراف (4/ 335).
(8) تاريخ ابن عساكر ترجمة معقل بن سنان نقلاً عن مواقف المعارضة، ص: 445.
(9) طبقات ابن سعد (5/ 125) سير أعلام النبلاء (3/ 320 - 321).

الخلاص إلى قتلهم بتلك البيعة[1]، يقول الدكتور يوسف العش: وبعد انتهاء معركة الحرّة أحضر مسلم مدبري الفتن واستعرضهم، وطلب إليهم أن يبايعوه على أنّهم خول ليزيد، ويحكم في أهلهم ودمائهم وأموالهم ما يشاء، فلم يقبلوا بأن يبايعوا هذه البيعة فقتلهم، وكان يريد أن يقضي على فتنتهم بالصغار، والحط من منزلتهم والتحقير من شأنهم، بحيث يعتبرون عبيداً، هم وما يملكون[2]. وهذا انحراف عظيم عن شرع الله تعالى، ودليل على عسف الدولة وظلمها وجبروتها وقسوتها وتجاوزها الحدود المعقولة والمنقولة بسبب غضبها وحنقها على أهل المدينة.

9 - وفاة مسلم بن عقبة: 64هـ:

نفذ مسلم وصية يزيد بحذافيرها، فلم يفاجئ أهل المدينة بالقتال، ولكنه أنذرهم وحذرهم، ولما مضت الثلاث، حاول إقناعهم وألحّ عليهم أن يقبلوا السلام، وأن يكفوا عن القتال، ولكنهم سبوه وشتموه وردوا عليه أمانه، ويا ليت مسلماً تروى واستمر في حصار المدينة المحرمة، ولكن غلبه حبه لسفك الدماء، فدخل المعركة وأنزل بأهل المدينة روعاً عظيماً، وأعمل فيهم السيوف وقتل خيارهم، وشتتوا شملهم ولم ينج منهم إلا أسير أو هارب إلى مكة لينضم إلى ابن الزبير وقد أسرف مسلم في قتل المسلمين حتى بعد انتهاء المعركة فقتل رجالاً خرجوا من المعركة سالمين، ولم يكن له ليقتلهم وقد انتهت المعركة، واستسلمت المدينة، ولكن غلب عليه طبعه، وجرى في عروقه دم الشر الذي فطر عليه، فكان يقتل الرجل لمجرد أن يقول إنه يبايع على كتاب الله وسنه رسوله، أو يبايع على سنة أبو بكر وعمر، وبالطبع لم يكن هذا أبداً مبرراً لسفك دماء وإزهاق أرواح[3]، ولكنه الظلم والعسف والتجبر والطغيان.

وفي أوّل المحرم من عام 64هـ بعد فراغ مسلم من حرب المدينة سار إلى مكة قاصداً قتال ابن الزبير، ولما بلغ ثنيّة هرْش[4]، بعث إلى رؤوس الأجناد فجمعهم فقال: إنّ أمير المؤمنين عهد إليّ إن حدث بي حدث الموت أن أستخلف عليكم حصين بن نمير السَّكوني ووالله لو كان الأمر لي ما فعلت. ثم دعا به فقال: انظر يا بن بردعة الحمار فاحفظ ما أوصيك به. ثم أمره إذا وصل مكة أن يناجز ابن الزبير قبل ثلاث، ثم قال: اللّهم إني لم أعمل عملاً قط بعد شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله أحب إليّ من قتلي أهل المدينة ولا أرجى عندي في الآخرة، وإن دخلت النار بعد ذلك إني لشقيٌّ. ثم مات قبحه الله ودفن بالمُشلل[5]. انظر

---

(1) مواقف المعارضة، ص: 446.
(2) الدولة الأموية، ص: 176.
(3) الأمويون بين الشرق والغرب (1/ 283).
(4) هرْش: مكان مرتفع من طريق مكة: قريبة من الجحفة.
(5) بين مكة والمدينة، البداية والنهاية (11/ 263).

إلى شدة جهله وحماقته وكيف كان يعتقد أنه يتقرب بقتل هؤلاء إلى الله، وأنه يزداد بقتلهم قربى منه ـ سبحانه ـ والناظر في دعائه يستشعر الأسباب التي جعلت مسلماً يدير المعركة بشراسة، ويسرف في دماء المسلمين من غير وازع ولا رادع فقد كان مسلم يعتقد أن قتل أهل المدينة قربى إلى الله، فأسرف في القتلى وكان يؤمن بأن قتلهم هو السبيل إلى الجنة، فأمعن في سفك الدماء ولو أن الأحمق الجاهل الذي كان حريصاً أشد الحرص على طاعة أمير المؤمنين ولم يحرص قط على طاعة الله، وكان يكره معصية أمير المؤمنين عند الموت، بقدر ما كان يكره طاعة الله في عباده، لو أنه فقه أن زوال الدنيا عند الله أهون من سفك دم امرىء مسلم، ولو أنه علم أن ما فعله أهل المدينة لا يبيح دماءهم ولا تستباح أموالهم لو أنه علم ذلك لكان يكفيه من إدارة المعركة القدر الذي يخضع الناس ليزيد[1].

10 ـ كيف استقبل يزيد خبر موقعة الحرّة؟

ولما بلغ يزيد خبر أهل المدينة وما وقع بهم قال: واقوْماه ثم دعا الضّحَّاك بن قيس الفهري فقال له: ترى ما لقي أهل المدينة، فما الرأي الذي يجبرهم؟ قال الطعام والأعطية فأمر بحمل الطعام إليهم وأفاض عليهم أعطيته. وهذا خلاف ما ذكره كذبة ـ الشيعة ـ عنه من أنه شمت بهم وشقى بقتلهم[2]، وأنه أنشد من شعر ابن الزِّبَعْرَي:

ليت أشياخي ببدر شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأسَلْ
حين حَكَّت بقُباء بَرْكها ... واستحر القتل في عبد الأشَلْ
وقد قتلنا الضّعف من أشرافهم ... وعَدَلْنا ميل بدر فاعتدل

وقد زاد بعض ـ كذبة الشيعة فيها ـ:

لعبت هاشم بالملك فلا ... مَلَكٌ جاء ولا وحي نزل[3]

قال ابن كثير: فهذا إن قاله يزيد بن معاوية فلعنة الله عليه ولعنة اللاّعنين، وإن لم يكن قاله فلعنة الله على من وضعه عليه ليُشنِّع عليه به وعلى ملوك المسلمين[4]، وقال ابن تيمية على أبيات الشعر: ويعلم بطلانه كل عاقل[5]، لقد وقع يزيد في خطأ مروّع، لا تهون منه الاعتذارات والمواساة، وهو الأمر باستباحة المدينة للمحاربين ثلاثة أيام ينهبون ويسرقون، مما أدى إلى فساد خطير وشر مستطير، وفتح على يزيد باباً أدى إلى تشويه سمعته، وبغض المسلمين في خلافته، وبخاصة أن المسلمين لم ينسوا بعد مقتل الحسين بن علي رضي الله عنه. حيث لم تجف دماؤه على ثرى كربلاء[6].

(1) الأمويون بين الشرق والغرب (1/ 285).
(2) البداية والنهاية (11/ 655).
(3) المصدر نفسه (11/ 631).
(4) المصدر نفسه (11/ 631).
(5) منهاج السنة (4/ 550).
(6) الأمويون بين الشرق والغرب (1/ 283).

رابعاً: أهم الدروس والعبر والفوائد:

1 - دواعي فشل أهل المدينة:

لقد كان محكوماً على حركة المدينة بالفشل، لأنهم لم يوحّدوا صفوفهم ولم يكن لهم قائد واحد، لأن تعدد القوّاد في المعركة من دواعي الهزيمة وهذا ما تنبأ به عبد الله بن عباس عندما سأل عن حالهم: فقيل استعملوا عبد الله بن مطيع على قريش، وعبد الله بن حنظلة على الأنصار. فقال ابن عباس: أميران؟ هلك القوم[1]، ولو حصل الانتصار، فدواعي اشتعال الفتنة موجودة ممن يكون الخليفة؟ هل يتولاها رجل من قريش أو من الأنصار؟ فهم لم يعلنوا أنهم تبع لابن الزبير[2]، ومن دواعي الفشل: قلت ما تحت أيديهم من الأرزاق ولو استمر الحصار مدة طويلة لهلك الناس من الجوع، لأن ما بها من الميرة لا يكفيها لسد حاجتها أياماً وجل طعامها يأتيها من التجارة، أو من بساتين خارج حدود المدينة، فكيف يغادر هؤلاء في حرب ليس عندهم مؤونة لها، يقفون أمام جند الشام المدعمين بالسلاح والمال؟ ومن دواعي فشلهم: عدم بروز هدف يريدون تحقيقه بعد خلع يزيد والنصر: وإذا كان هدفهم خلع يزيد: هل كانوا يريدون أن تكون إمارة مستقلة؟ وهذا غير ممكن. وإذا كان هدفهم تولية ابن الزبير، لماذا لم يرفعوا راية واحدة باسم ابن الزبير ، ولماذا لم يطلبوا المدد منه؟ ولو ضم ابن الزبير جنده إلى جند المدينة، لتكونت قوة تستطيع أن تقف أمام جيش مسلم بن عقبة، ولكنهم عندما وزعوا قواتهم وعددوا معاركهم استطاع الأمويون أن ينتصروا عليهم وهم متفرقون[3].

2 - موقف زعامة المدينة المنورة:

لم تكن زعامة المدينة المنورة راضية عن هذه الثورة، فهناك أسرتان كبيرتان من المهاجرين عارضتا أهل المدينة، وهما آل الخطاب، وآل هاشم وعلى رأس آل الخطاب، شيخ الصحابة في زمانه وفقيههم عبد الله بن عمر، ومن آل هاشم عبد الله بن العباس وعلي بن الحسين ومحمد ابن الحنيفة[4].

3 - رأي ابن تيمية:

.. وقلّ من خرج على إمام ذي سلطان إلا وكان ما تولد على فعله من الشرّ أعظم مما تولد من الخير، كالذين خرجوا على يزيد بالمدينة فإنهم هزموا وهزم أصحابهم، فلا أقاموا دنيا، ولا أبقوا ديناً، والله تعالى لا يأمر بأمر لا يحصل فيه صلاح الدين ولا صلاح الدنيا.. وكان

---

(1) العقد الفريد(4/ 388)، المدينة في العصر الأموي، ص: 134.

(2) المدينة في العصر الأموي، ص: 134.

(3) المصدر نفسه، ص: 135.

(4) المصدر نفسه، ص: 135.

أفاضل المسلمين ينهون عن الخروج والقتال في الفتنة، كما كان عبد الله بن عمر، وسعيد بن المسيب وعلي بن الحسين، وغيرهم، ينهون عام الحرّة عن الخروج على يزيد[1].

4 - عناية المؤرخين بمعركة الحرّة:

لم تجد معركة الحرّة من المؤرخين، كما لاقى غيرهما من الحوادث التي حصلت أيام يزيد ابن معاوية، ولم يفرد المؤرخون المحدثون عنها أبحاثاً، كما أفردوا عن الحركات الأخرى، ولو قارنّا بينها وبين حركة الحسين لوجدنا فرقاً كبيراً في النتائج، فمجموع ما قتل في معركة الحرّة أضعاف ما قتل مع الحسين، وقتل في معركة الحرّة رجال مشاهير لهم منزلة صحبة وجهاد من هؤلاء عبد الله بن زيد حاكي وضوء رسول الله ﷺ[2]، ومعقل بن سنان[3]وفيه يقول الشاعر:

وأصبحت الأنصار تبكي سراتها وأشجع تبكي معقل بن سنان

وعبد الله بن حنظلة الغسيل مع ثمانية من بنيه، وهؤلاء الرجال مكانتهم في الإسلام عالية ومصيبة المسلمين فيهم عظيمة وهي مصيبة تضاف إلى مصيبة المسلمين في الحسين رضي الله على مكانته وفضله وسيادته عند المسلمين وهذا ما يجعل معركة الحرّة فاجعة كبيره كما هي معركة كربلاء.

المبحث السادس

حركة عبد الله بن الزبير في عهد يزيد

كان ابن الزبير رضي الله عنه قد عقد العزم على عدم البيعة ليزيد واختار الذهاب والاستقرار بمكة.

أولاً: أسباب اختيار ابن الزبير لمكة:

اجتمعت عدة أسباب جعلت مكة أنسب مكان يمكن أن يتجه إليه ابن الزبير ـ في نظره ـ ومن أهمها ما يلي:

1 - أنها المكان الوحيد الذي يمكن اللجوء إليه في هذه الفترة وذلك لأن الأقاليم الأخرى ليست مناسبة، فالعراق ـ بمصريه الكوفة والبصرة ـ لا يمكن ضمان ولاء أهلها لأي زعيم معارضة ضد بني أمية، وما فعلوه مع الحسين خير دليل على ذلك، وكان ابن الزبير يعي ذلك

(1) منهاج السنة (2/ 241).

(2) عبد الله بن زيد بن عاصم بن كعب الأنصاري، صحابي شهد بدراً، وله ثمانية وأربعون حديثاً، الإصابة رقم (4688).

(3) معقل بن سنان، صحابي من القادة الشجعان، كانت معه راية قومه يوم حنين وفتح مكة.

تماماً حينما نصح الحسين بعدم الذهاب إلى العراق(1): أين تذهب إلى قوم قتلوا أباك وطعنوا أخاك؟ أما مصر واليمن فقد كانتا بعيدتين عن مسرح الأحداث، ولم يكن لابن الزبير في هذين الإقليمين أنصار ومؤيدون يمكن أن يعتمد عليهم وأما الشام فكما هو معروف كان معقل الأمويين.

2 - إن مكة ـ لوجود بيت الله فيها ـ كانت بلداً حراماً ولا يجوز سفك الدماء بها، وهذا يكفل لمن يعتصم بها حماية من القتل إلا إذا ارتكب حداً يوجب ذلك، وعلى أقل تقدير فوجود هذا الحكم الخاص بمكة يجعل التفكير باستخدام القوة هو آخر حل يُلجأ إليه.

3 - وكما أن مكة بلد له مكانته وقدسيته في نفوس المسلمين فإن من يتعرض له بالإيذاء سيواجه معارضة من قبل العديد من المسلمين الذين سيهبون للدفاع عن بيت الله الحرام بغض النظر عمن يعتصم به، وقد أفاد ابن الزبير من هذه النقطة كثيراً.

4 - أنه يجتمع بمكة في موسم الحج كل عام الألوف من المسلمين من مختلف الأقاليم، ويمكن من خلال هذا الموسم التأثير على الرأي العام وتوجيهه وهو ما لا يمكن توفره في أي إقليم.

5 - أن مكة بدأت منذ هجرة النبي ﷺ والصحابة إلى المدينة تفقد دورها السياسي وبالتالي فإن قبضة الأمويين عليها لم تكن قوية بعكس وضع المدينة.

6 - وأخيراً فإن معارضة ابن الزبير مرتبطة بأهل المدينة الذين يقفون معه الموقف نفسه ضد بني أمية، وبالتالي كان من المناسب أن يكون ابن الزبير قريباً من المدينة ليضمن استمرار تأييد أهلها له ولكي يتمكن من الاتصال المستمر بهم(2).

ثانياً: أسباب خروج ابن الزبير ومن معه:

كان مقصد ابن الزبير رضي الله عنه ومن معه ومن بينهم بعض الصحابة والتابعين كالمسور بن مخرمة، وعبد الله بن صفوان، ومصعب بن عبد الرحمٰن بن عوف، وغيرهم من فضلاء عصرهم هو تغيير الواقع بالسيف لما رأوا تحول الخلافة إلى وراثة ملك، ولما أشيع حول يزيد من إشاعات أعطت صورة سيئة للخليفة الأموي في دمشق والذي ينبغي أن يفهم أن ابن الزبير قام لله وليس كما يقول البعض، مثل محمد ماهر حمادة عندما قال: وعلى الرغم من أن حركة ابن الزبير لم تكن سوى مزيج عجيب، من عدد من العناصر، يحركها طموح شخصي، وصراع قلبي، التقتا في نفس ابن الزبير، وشخصيته(3). لقد كان رضي الله عنه يهدف من وراء المعارضة أن

---

(1) نسب قريش، ص: 239 للزبيري.

(2) عبد الله بن الزبير والأمويون، ص: 70، 71، عبد الله بن عثمان.

(3) الوثائق السياسية للجزيرة العربية، ص: 18.

تعود الأمة إلى حياة الشورى ويتولى الأمة حينئذ أفضلها وكان يخشى من تحول الخلافة إلى ملك، وكان يرى ﷺ أنه باستعماله للسيف وتغييره للمنكر بالقوة يتقرب إلى الله ويضع حداً لانتقال الخلافة إلى ملك ووراثة ولهذا لم يدع لنفسه حتى توفي يزيد بن معاوية[1]. وكان ابن الزبير يخطب ويقول: والله لا أريد إلا الإصلاح وإقامة الحق، ولا التمس جمع مالاً ولا ادخاره[2] وكان يقول: اللهم إني قد أحببت لقاءك فأحبب لقائي، وجاهدت فيك عدوك فأثبني ثواب المجاهدين[3]. وقال عبد الله بن صفوان بن أمية لابن الزبير: إني والله ما قاتلت معك إلا عن ديني[4]، والروايات في هذا المجال كثيرة جداً وهي تدل على النظرة الحقيقية لمعارضة ابن الزبير وكذلك أهل المدينة حيث اعتبروها جهاداً في سبيل الله[5]، إن الحسين بن علي وابن الزبير وأهل الحرَّة ﷺ كان خروجهم من أجل الشورى لأسباب مشروعة منها:

1 - دفاعاً عن حقهم الذي جعل الله لهم ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: 38].

2 - أن هذا الاغتصاب منكر وظلم تجب إزالته.

3 - تمسكاً بالسنة وهدي الخلفاء الراشدين في باب الخلافة[6].

وساعد في تحقيق أهداف ابن الزبير والتفاف الناس من حوله عدة أمور منها: ردة الفعل الذي أحدثته معركة كربلاء، سوء سيرة يزيد، سرعة يزيد في عزل ولاة الحجاز مركز الثقل السياسي كما كان زمن الرسول والخلفاء الراشدين[7].

ثالثاً: الجهود السلمية التي بذلها يزيد لاحتواء ابن الزبير:

كان ابن الزبير يدرك الخطورة التي ستلحق بالحسين إذا خرج إلى الكوفة، ولذا ناشده عدم الذهاب إلى الكوفة قائلاً: أين تذهب إلى قوم قتلوا أباك وطعنوا أخاك[8]. وكان ابن الزبير يدرك أن الحسين إذا أصيب في العراق، فإن النتائج ستنعكس عليه وسيكون المنفرد في الساحة، وبالتالي يسهل القضاء عليه وقد حرص ابن الزبير على إشعار الحسين بمكانته وأن وجوده في مكة يحظى بالتأييد من أهلها وبالأخص من ابن الزبير نفسه، ولذا فقد بادره بفكرة جريئة فقال للحسين: إن شئت أن تقيم أقمت فوليت هذا فآزرناك وساعدناك ونصحنا لك، وبايعناك[9]، ويبدو أن ابن الزبير رغب أن تكون القيادة العامة بيد الحسين نظراً لمكانته

(1) الطبقات (5/ 147).
(2) أنساب الأشراف (1/ 315)
(3) تاريخ ابن عساكر نقلاً عن عبد الله بن الزبير والأمويون، ص: 67.
(4) أخبار مكة للفاكهي (2/ 364).
(5) عبد الله بن الزبير والأمويون، ص: 67.
(6) انظر: الحرية والطوفان، ص: 124، 125.
(7) عبد الله بن الزبير د. شحادة الناطور، ص: 96 إلى 98.
(8) مصنف ابن أبي شيبة (15/ 95) بسند حسن.
(9) أنساب الأشراف (4/ 13)، مواقف المعارضة، ص: 518.

ووجاهته، واحترام المسلمين له. ويكون بيده التخطيط لمجابهة يزيد بن معاوية، وبالأخص أنه يملك رصيداً كبيراً من المشاركات الحربية الناجحة في عمليات الجهاد الإسلامي، وكان يرغب في جعل ركيزة الانطلاق في المعارضة هي بلاد الحجاز، وذلك نظراً لصدق أهلها، ووجود العباد والصالحين والعلماء من الصحابة وكبار التابعين بها، ثم وجود الحرمين ومكانتهما، فإذا تمت لهما السيطرة على بلاد الحجاز، فإن قضيتهما ستكسب بعداً كبيراً في الأقاليم الإسلامية، فالناس تؤم الحرمين للعمرة والحج والزيارة، وبالتأكيد سينقلون أخبار المعارضين ومكانتهما، مما سيؤدي إلى تعاطف وتأييد وأنصار تلك الأقاليم، ولما خرج الحسين رضي الله عنه إلى الكوفة وقتل يوم عاشوراء من سنة إحدى وستين بكربلاء كان لذلك وقع كبير على ابن الزبير، فالذي يخشاه ابن الزبير وهو انفراد الأمويين به قد حدث، ثم إن الرجل الذي كان يضفي مكانة ومنزلة على المعارضة قد قتل ومع ذلك لم يحدث تحرك من الناس ضد الأمويين بسبب قتل الحسين رضي الله عنه [1]، ولعل انفراده بالمعارضة ضد يزيد هي التي جعلت ابن خلدون يقول: ولم يبق في المخالفة لهذا العهد ـ الذي اتفق عليه الجمهور ـ إلا ابن الزبير، وندور المخالف معروف[2]، وقد أحس ابن الزبير بخطورة موقفه، ولكنه حاول أن يستفيد من دوافع الكره والمقت التي تعتلج في نفوس الناس ضد الأمويين بسبب قتل الحسين[3].

1 - أول هجوم مباشر وصريح من ابن الزبير على يزيد:

عندما سمع ابن الزبير مقتل الحسين رضي الله عنه قام خطيباً في مكة وترحم على الحسين وذم قاتليه وقال: أما والله لقد قتلوه وقد كان طويلاً قيامه، وكثيراً في النهار صيامه، أحق بما هم فيه منهم، وأولى بما هم فيه منهم، وأولى به في الدين والفضل، أما والله ما كان يبدّل بالقرآن الغناء ولا البكاء من خشية الله الحداء، ولا بالصيام شراب الحرام، ولا بالمجالس في حلق الذكر ـ الركض في طلب الصيد ـ يعرّض بيزيد ـ فسوف يلقون غياً[4]. ونظراً للمشاعر العاطفية التي أثرت على أهل الحجاز عموماً بسبب قتل الحسين رضي الله عنه فقد أبدى البعض استعداده لبيعة ابن الزبير[5]، ولاحظ ابن الزبير مشاعر السخط التي عمّت أهل الحجاز بسبب قتل الحسين رضي الله عنه، فأخذ يدعو إلى الشورى وينال من يزيد ويشتمه[6]، ويذكر شربه للخمر ويثبط الناس عنه، وأخذ الناس يجتمعون إليه فيقوم فيهم، فيذكر مساوئ بني أمية ويطنب في ذلك[7].

2 - مساعي يزيد السلمية:

لم يحاول يزيد في بداية الأمر أن يعمل عملاً من شأنه أن يعقّد النزاع مع ابن الزبير، ولهذا

---

(1) مواقف المعارضة، ص: 519.
(2) مقدمة ابن خلدون (1/ 265).
(3) مواقف المعارضة، ص: 520.
(4) المصدر نفسه، ص: 520.
(5) أنساب الأشراف (4/ 304).
(6) المصدر السابق (4/ 304).
(7) أخبار مكة (1/ 201) بسند كل رجاله ثقات.

فلقد أرسل إليه رسالة يذكّره فيها بفضائله ومآثره في الإسلام، ويحذره في الفتنة والسعي فيها، وكان مما قال له: أذكرك الله في نفسك فإنك ذو سن من قريش وقد مضى لك سلف صالح، وقدم صدق من اجتهاد وعبادة، فأربب صالح ما مضى ولا تبطل ما قدمت من حسن، وأدخل فيما دخل فيه الناس، ولا تردهم في فتنة، ولا تحل ما حرم الله، فأبى أن يبايع[1].

3 - غضب يزيد على ابن الزبير:

لم يستجب ابن الزبير لدعوة يزيد السلمية ورفض بيعته وأقسم يزيد على أنه لا يقبل بيعة ابن الزبير حتى يأتي إليه مغلولاً[2]، ولقد حاول معاوية بن يزيد أن يثني والده عن هذا القسم، وذلك لمعرفته بابن الزبير، وأنه سيرفض القدوم على يزيد وهو في الغل، وكان معاوية بن يزيد صالحاً تقياً ورعاً يجنح للسلم ويخشى من سفك دماء المسلمين، وساند معاوية في رأيه عبد الله بن جعفر، ولكن يزيد أصر على رأيه، وحتى يخفف يزيد من صعوبة الموقف على ابن الزبير، فقد بعث بعشرة من أشراف أهل الشام، وأعطاهم جامعة من فضة، وبرنس خز[3] وفي رواية أخرى: أن يزيد بعث لابن الزبير بسلسلة من فضة وقيد من ذهب، وجامعة من فضة[4].
وعند وصول أعضاء الوفد إلى مكة تكلم ابن عضاة الأشعري، وقال: يا أبا بكر: قد كان من أثرك في أمر أمير الخليفة المظلوم ـ يعني عثمان بن عفان ـ ونصرتك إياه يوم الدار ما لا يجهل، وقد غضب أمير المؤمنين بما كان من إبائك مما قدم عليك فيه النعمان بن بشير، وحلف أن تأتيه في جامعة خفيفة لتحل يمينه، فالبس عليها برنساً فلا ترى، ثم أنت الأثير عند أمير المؤمنين الذي لا يخالف في ولاية ولا مال[5].

4 - ابن الزبير يفكر ويستشير في عرض يزيد:

استأذن ابن الزبير الوفد بضعة أيام يفكر ويستشير، فعرض الأمر على والدته أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما فقالت: يا بني عش كريماً ومت كريماً ولا تمكن بني أمية من نفسك، فتلعب بك، فالموت أحسن من هذا[6].

وكان مروان بن الحكم قد بعث ابنه عبد العزيز وقال له: قل لابن الزبير إن أبي أرسلني عناية بأمرك وحفظاً لحرمتك، فابرر يمين أمير المؤمنين ،فإنما يجعل عليك جامعة من فضة أو

(1) أنساب الأشراف (4/ 303 - 304).
(2) أنساب الأشراف (4/ 304) أخبار مكة (2/ 351) إسناده حسن.
(3) تاريخ خليفة، ص: 251 إسناده حسن، مواقف المعارضة، ص: 521.
(4) الآحاد والمثاني (1/ 416) بسند صحيح لابن أبي عاصم.
(5) أنساب الأشراف (4/ 308) مواقف المعارضة، ص: 523.
(6) أخبار مكة (1/ 201) بسند كل رجاله ثقات.

ذهب وتكسى عليه برنساً فلا تبدو إلا أن يسمع صوتها، فكتب ابن الزبير إلى مروان يشكره[1] وجاء رد ابن الزبير على الوفد بالمنع[2].

5 - تهديد الوفد لابن الزبير ورده عليهم:

بعدما أجاب ابن الزبير على الوفد بالمنع قال لابن عضاة: إنما أنا بمنزلة حمام من حمام مكة أفكنت قاتلاً حماماً من حمام مكة؟ قال: نعم، وما حرمة حمام مكة: يا غلام ائتني بقوسي وأسهمي فأتاه بقوسه وأسهمه، فأخذ سهماً فوضعه في كبد القوس ثمّ سدده نحو حمامة من حمام المسجد وقال: يا حمامة، أيشرب يزيد الخمر، قولي: نعم. فوالله: لئن فعلت لأرمينك. يا حمامة أتخلعين يزيد بن معاوية وتفارقين أمة محمد ﷺ؟ وتقيمين في الحرم حتى يستحل بك؟ والله لئن فعلت لأرمينك. فقال ابن الزبير: ويحك أو يتكلم الطائر؟ قال: لا، ولكنك يا ابن الزبير تتكلم، أقسم بالله لتبايعن طائعاً أو مكرهاً أو لتعرفن راية الأشعريين في هذه البطحاء، ولئن أمرنا بقتالك ثم دخلت الكعبة لنهدمنها أو لنحرقنها عليك أو كما قال. فقال ابن الزبير: أو تحل الحرم البيت، قال: إنما يحله من ألحد فيه[3]. ثم قال ابن الزبير: إنه ليست في عنقي بيعة ليزيد. فقال ابن عضاة: يا معشر قريش قد سمعتم ما قال، وقد بايعتم وهو يأمركم بالرجوع عن البيعة[4]، وأخذ ابن الزبير يبسط لسانه في تنقص يزيد وقال: لقد بلغني أنه يصبح سكران ويمسي كذلك ثم قال: يا ابن عضاة، والله ما أصبحت أرهب الناس ولا البأس، وإني لعلى بينة من ربي، فإن أقتل فهو خير لي، وإن أمت حتف أنفي فللّه يعلم إرادتي وكراهتي لأن يعمل في أرضه بالمعاصي، وأجاب الباقين بنحو جوابه[5]. ثم قال ابن الزبير: اللهم إني عائذ ببيتك[6]، ولقب نفسه عائذ الله[7]، وكان يسمى العائذ[8].

رابعاً: الجهود الحربية ضد ابن الزبير:

1 - حملة عمرو بن الزبير:

رأى يزيد أنه لابد من القيام بعمل عسكري، يكون الهدف منه القبض أو القضاء على ابن الزبير أو حمله على الامتثال لقسم يزيد ووضع الأغلال في عنقه ولما حج عمرو بن سعيد بن العاص والي المدينة في تلك السنة والمرجح سنة إحدى وستين ـ حج ابن الزبير معه، فلم يصل بصلاة عمرو، ولا أفاض بإفاضته[9]، وهذا العمل من ابن الزبير يعني المفارقة الواضحة

(1) نسب قريش، ص: 449، مواقف المعارضة، ص: 524.
(2) مواقف المعارضة، ص: 524.
(3) أنساب الأشراف (4/ 309).
(4) عيون الأخبار (1/ 196).
(5) أنساب الأشراف (4/ 309).
(6) مواقف المعارضة، ص: 525 نقلا عن ابن عساكر.
(7) الإصابة (4/ 49) سند صحيح.
(8) تاريخ الطبري نقلاً عن مواقف المعارضة، ص: 525.
(9) أنساب الأشراف (4/ 307).

لسلطة الدولة، وعدم الاعتراف بها، وخصوصاً أن إقامة الحج تمثل الدليل الأقوى على شرعية الدولة وقوة سلطانها، مثله مثل إقامته الجهاد في سبيل الله[1]، ثم منع ابن الزبير الحارث بن خالد المخزومي من أن يصلي بأهل مكة وكان الحارث بن خالد المخزومي نائب لعمرو بن سعيد على أهل مكة[2]، وكان ابن الزبير يتصرف وكأنه مستقل عن الدولة، وكان لا يقطع أمراً دون المسور بن مخرمة[3]، ومصعب بن عبد الرحمٰن بن عوف، وجبير بن شيبة، وعبد الله بن صفوان بن أمية، وكان يريهم أن الأمر شورى فيما بينهم، وكان يلي بهم الصلوات، والجمع ويحج بهم[4]، فكتب يزيد إلى عمرو بن سعيد بن العاص واليه على المدينة أن يوجه له جُنداً، فعين عمرو بن سعيد بن العاص على قيادة هذه الحملة عمرو بن الزبير بن العوام أخو عبد الله بن الزبير، وكان عمرو بن الزبير قد ولي شرطة المدينة لعمرو بن سعيد، وكان شديد العداوة لأخيه عبد الله وقام بضرب كل من كان يتعاطف مع ابن الزبير، وكان ممن ضرب المنذر بن الزبير، وابنه محمد بن المنذر وعبد الرحمٰن بن الأسود بن عبد يغوث[5]، وعثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام[6]، وخبيب بن عبد الله بن الزبير[7]، وفر منه عبد الرحمٰن بن عثمان، وعبد الرحمٰن بن عمرو بن سهيل وغيرهم إلى مكة فالتجأوا إلى ابن الزبير[8]، وكان تعيين عمرو بن الزبير على قيادة الجيش المتجه لمحاربة ابن الزبير جاء بناءً على طلب من عمرو بن الزبير نفسه[9]، واتجه جيش عمرو بن الزبير إلى مكة وكان قوامه ألف رجل، وجعل على مقدمته أنيس بن عمرو الأسلمي في سبعمائة من الجند[10]، فسار عمرو بن أنيس الأسلمي حتى نزل بذي طوى، وسار عمرو بن الزبير حتى نزل بالأبطح[11]، وأرسل عمرو بن الزبير إلى أخيه (عبد الله) يطلب منه الامتثال ليمين يزيد بن معاوية وحذره من القتال في البلد الحرام[12] وكان عمرو بن الزبير يخرج من معسكره فيصلي بالناس خلال المفاوضات مع أخيه عبد الله. وكان عبد الله يسير معه ويلين له، ويقول: إني سامع مطيع وأنت عامل يزيد، وأنا أصلي خلفك، وما عندي خلاف، فأما أن تجعل في عنقي جامعة، ثم أقاد إلى الشام، فإني نظرت في ذلك، فرأيت أنه لا يحل لي أن أحله بنفسي فراجع صاحبك واكتب إليه ولكن عمرو بن الزبير اعتذر من الكتابة ليزيد، وذلك لأنه جاء في مهمة محددة مطلوب منه تنفيذها.

---

(1) مواقف المعارضة، ص: 526.
(2) تاريخ ابن عساكر ترجمة ابن الزبير (30/ 200).
(3) التقريب 533.
(4) تاريخ ابن عساكر (30/ 2000) مواقف المعارضة، ص: 527.
(5) نسب قريش، ص: 214، 215.
(6) نسب قريش، ص: 233.
(7) نسب قريش، ص: 239، 240.
(8) الطبقات (5/ 185).
(9) أنساب الأشراف (4/ 312) مواقف المعارضة، ص: 528.
(10) تاريخ الطبري نقلاً عن مواقف المعارضة، ص: 528.
(11) الأبطح: ما حاز السيل إلى الحناطين يميناً من البيت.
(12) تاريخ الإسلام (حوادث 61 - 80)، ص: 199.

وكان عبد الله بن الزبير قد أرسل عبد الله بن صفوان الجمحي ومعه بعض الجند، وأخذوا أسفل مكة، وأحاطوا بأنيس بن عمرو الأسلمي، ولم يشعر بهم أنيس إلا وقد أحاطوا به، فقتل أنيس وانهزم أصحابه، وفي الوقت الذي قتل فيه وانهزم جيش أنيس بن عمرو الأسلمي، كان مصعب بن عبد الرحمٰن بن عوف، يقود طائفة أخرى من الجند نحو عمرو بن الزبير، الذي كان معسكراً في الأبطح، فانهزم عمرو بن الزبير، ودخل دار رجل يقال له علقمة، فجاءه أخوه عبيدة بن الزبير فأجاره، فأخذه إلى عبد الله، وذكر له أنه أجاره، فقال عبد الله، أما حقي فنعم، وأما حق الناس فلأقتص منه لمن أذاه في المدينة[1]، وأقام عبد الله عمرو بن الزبير ليقتص الناس منه، فكل من ادعى على عمرو بأنه فعل به كذا وكذا وكذا قال له عبد الله بن الزبير افعل به مثلما فعل بك وتذكر المصادر أن عمرو بن الزبير تعرض لتعذيب شديد من جراء ذلك ومات تحت الضرب[2]، لقد أثبت ابن الزبير ﷺ أنه يملك ذكاء ودهاء بارزين، الأمر الذي مكّنه من تحويل القضية لصالحه، بعدما كانت في يد يزيد بن معاوية، وكان ابن الزبير في بداية معارضته يعتمد على أن البيعة التي تمت ليزيد بن معاوية لم تكن بموافقة الناس، ولا بد من مشاركة الناس وكان يدعو إلى الشورى ولم تحقق معارضة ابن الزبير أي نجاح يذكر، فخلال ستين أو أكثر من معارضته ليزيد لم يحدث أي تغير بشأن هيمنة الدولة على الحجاز، فضلاً عن غيره من الأقطار ولكن ابن الزبير كان يهدف من التحرش بالأمويين إلى إيقاع يزيد في مأزق المواجهة، لقد ارتكب يزيد خطأ فادحاً عندما أقسم يزيد أن يأتيه ابن الزبير إلى دمشق في جامعة، فكيف يعقل من صحابي جليل تجاوز الستين من عمره أن يرضخ لطلب يزيد بن معاوية، ولقد استطاع ابن الزبير أن يظهر يزيد أمام أهل الحجاز بأنه شخص متسلط ليس أهلاً لولاية المسلمين، وجعلت هذه الحادثة من ابن الزبير ـ في نظر الكثير من المتمردين في موقفهم من ابن الزبير، على أنه طالب حق يواجه خليفة يحمل الظلم في أحكامه والتعسف في قراراته والذي مكّن ابن الزبير وأكسبه الكثير من التعاطف هو موقف أمير المدينة ـ عمرو بن سعيد ـ فكان هذا الأمير ـ كما تذكر الروايات ـ شديداً على أهل المدينة معرضاً على نصحهم متكبراً عليهم[3]. ثم ذلك الخطأ الكبير الذي وقع فيه عمرو بن الزبير، الذي تصنعه الروايات أيضاً بأنه: عظيم الكبر شديد العجب، ظلوماً قد أساء السيرة وعسف الناس وأخذ من عرفه بمولاة عبد الله والميل إليه، فضربهم بالسياط ويقال: عمرو لا يكلم من يكلمه يندم[4]، ومن الأخطاء التي وقع فيها يزيد بن معاوية، وعمرو بن سعيد بن العاص والي المدينة، واستطاع

(1) الطبقات (5/ 185) أنساب الأشراف (4/ 312).

(2) أنساب الأشراف (4/ 316) تاريخ الإسلام حوادث 61.

(3) الموفقيات، ص: 152 للزبير بن بكار نقلاً عن مواقف المعارضة، ص: 531.

(4) أنساب الأشراف (4/ 311) مواقف المعارضة، ص: 531.

ابن الزبير أن يوظفها لصالحه غزو مكة بجيش، فمكة لها حرمتها وخصوصيتها في الجاهلية ثم جاء الإسلام فزادها مكانة وقداسة على مكانتها تلك التي كانت في الجاهلية، وقام عمرو بن سعيد يتحدى مشاعر المسلمين في المدينة حين رقى المنبر في أول يوم من ولايته على المدينة، فقال عن ابن الزبير: تعوذ بمكة، فوالله لنغزونه، ثم والله لئن دخل الكعبة لنحرقنها عليه، على رغم أنف من رغم[1]. ولما جهّز الحملة التي سيوجهها لابن الزبير في مكة، نصحه بعض الصحابة وحذّروه وذكّروه بحرمة الكعبة وبحديث رسول الله ﷺ في بيان حرمتها ولكنه رفض السماع لنصحهم[2]، وكان مروان بن الحكم وهو الأمير المحنك والسياسي الداهية قد حذّر عمرو بن سعيد من غزو البيت وقال له: لا تغزو مكة، واتق الله ولا تحل حرمة البيت، وخلوا ابن الزبير فقد كبر، هذا له بضع وستون سنة، وهو رجل لجوج، والله لئن لم تقتلوه ليموتن، فقال له عمرو: والله لنقاتلنّه، ولنغزونّه في جوف الكعبة على رغم أنف من رغم، فقال مروان: والله إن ذلك يسوؤني[3]. وكان عبد الله بن الزبير قد اختار لقباً مؤثراً حين أطلق على نفسه «العائذ بالله» فأصبح المساس بحرمة مكة أمر لا يوافق عليه الصحابة والتابعون وكان لا بد من الدفاع عن مكة، في وجه جيش يريد استحلال حرمتها وحتى الذي لا يستطيع أن يدافع عن مكة فسوف يكون متعاطفاً مع ابن الزبير بصفته يدافع عن بيت الله[4]، وتدافع الناس نحو ابن الزبير من نواحي الطائف يعاونونه ويدافعون عن الحرم[5]، وهذه القضايا المعنوية والحسية كان لها الأثر البالغ في تعاظم مكانة ابن الزبير لدى أهل الحجاز الأمر الذي جعله يحقق نصراً ساحقاً وسهلاً على جيش عمرو بن الزبير[6].

2 - حملة الحصين بن نمير وحصار ابن الزبير وحريق الكعبة:

هلك مسلم بن عقبة النميري في طريقه لابن الزبير وتولى القيادة من بعده الحصين بن نمير السكوني ووصل إلى مكة قبل انقضاء شهر محرم بأربع ليالي. وعسكر الحصين بن نمير بالحجون[7] إلى بئر ميمون[8]، وبذلك فقد عمل الحصين بن نمير على نشر جيشه على مسافة واسعة والذي دفعه إلى ذلك طبيعة الحرب التي ستدور في مكة وقام ابن الزبير يحث الناس على قتال جيش أهل الشام وانضم المنهزمون من معركة الحرّة إلى ابن الزبير، وقدم على ابن الزبير أيضاً نجدة بن عامر الحنفي في ناس من الخوارج، وذلك لمنع البيت من أهل الشام[9]،

---

(1) تاريخ خليفة، ص: 233.
(2) أنساب الأشراف (4/ 312) مواقف المعارضة، ص: 532.
(3) أنساب الأشراف (4/ 313).
(4) مواقف المعارضة، ص: 532.
(5) أنساب الأشراف (4/ 313).
(6) مواقف المعارضة، ص: 533.
(7) الحجون: الجبل المشرف بينه وبين الحرم ميل ونصف.
(8) بئر ميمون: حفرها ميمون بن الحضرمي.
(9) أنساب الأشراف (4/ 338) مواقف المعارضة، ص: 545.

وكان عدد المقاتلين الذين اشتركوا مع ابن الزبير أقل بكثير من المقاتلين الذين اشتركوا في معركة الحرّة، ولم تكن القوات متكافئة وتحول الوضع لصالح الحصين بن نمير، بعد أن مني ابن الزبير بفقد خيرة أصحابه، مثل أخواه المنذر وأبو بكر ابنا الزبير، ومصعب بن عبد الرحمن، وحذافة بن عبد الرحمٰن بن العوام، وعمرو بن عروة بن الزبير[1]، وبعد ثلاثة أيام من ربيع الأول سنة 64هـ قام الحصين بن نمير بنصب المنجنيق على جبل أبي قبيس[2]، وجبل قعيقعان[3] وفقد ابن الزبير أهم مستشاريه ومناصريه، وهو المسور بن مخرمة بعد أن أصابه بعض أحجار المنجنيق، وانكشفت مواقع ابن الزبير أمام الحصين بن نمير، ولم يبق مأمن لابن الزبير من أحجار المنجنيق سوى الحجر[4]، وحوصر ابن الزبير حصاراً شديداً ولم يعد يملك إلا المسجد الحرام فقط بعد أن فقد مواقعه المتقدمة في الأبطح[5]، وفي أثناء احتدام المعارك بين ابن الزبير والحصين بن نمير احترقت الكعبة وهذه مصيبة أضيفت إلى مصائب المسلمين التي نتجت عن استحلال القتال في البلد الحرام الذي حرم الله ورسوله ﷺ القتال فيه[6]، وكان يزيد بن معاوية قد مات في متصف شهر ربيع الأول[7]، ولم يعلم أحد بموته نظراً لبعد المسافة بين مكة ودمشق، وقد جاء الخبر بموت يزيد إلى مكة لهلال شهر ربيع الآخر سنة أربع وستين[8].

ولم تكن الكعبة مقصودة في ذاتها بالإحراق والدليل على ذلك ما أحدثه حريق الكعبة من ذهول وخوف من الله في كلا الطائفتين[9] جيش الحصين بن نمير، وجيش ابن الزبير، فقد نادى رجل من أهل الشام بعد أن احترقت الكعبة وقال: هلك الفريقان والذي نفس محمد بيده[10]، وأما أصحاب ابن الزبير، فقد خرجوا كلهم في جنازة امرأة ماتت في صبيحة ليلة الحريق خوفاً من أن ينزل العذاب بهم، وأصبح ابن الزبير ساجداً ويقول: اللهم إني لم أتعمد ما جرى فلا تهلك عبادك بذنبي، وهذه ناصيتي بين يديك[11]. وأهل الشام بالرغم من جهل

(1) جمهرة نسب قريش، ص: 362.
(2) جبل أبي قبيس : وهو أحد أخشبي مكة وهو جبل مطل على الصفا.
(3) قعيقعان : جبل بمكة.
(4) المحن لأبي العرب، ص: 203.
(5) تاريخ خليفة، ص: 251 بإسناد صحيح حتى ابن جريج.
(6) مواقف المعارضة، ص: 548.
(7) أنساب الأشراف (4/ 344)، تعجيل المنفعة، ص: 453.
(8) مواقف المعارضة، ص: 48، أخبار مكة (1/ 197).
(9) أخبار مكة (1/ 203).
(10) تاريخ خليفة، ص: 252 بإسناد صحيح.
(11) مواقف المعارضة، ص: 552، الأغاني (3/ 227).

بعضهم بابن الزبير ومكانته[1]، إلا أنه من المستحيل أن يجهل أحد منهم مكانة الكعبة وأهميتها، كيف وهم يتجهون إليها في صلاتهم عندما كانوا يحاصرون ابن الزبير، فمن المستحيل أن يعمد أحدهم إلى حرق الكعبة، أو كان ذلك يدور في تفكير الحصين بن نمير، وقد وردت تصريحات لبعض أقارب ابن الزبير وبعض السلف والعلماء المتحققين بأنهم لم ينسبوا إلى أحد من الطائفتين قصد حريق الكعبة، فهذا هشام بن عروة يقول: . . فقاتلوا ابن الزبير واحترقت الكعبة أيام ذلك الحصار[2]، وقال ابن عبد البر: وفي هذا الحصار احترقت الكعبة[3]، وقال ابن حجر: ثم سارت الجيوش إلى مكة لقتال ابن الزبير، فحاصروه بمكة وأحرقت الكعبة[4]. ولا شك أن أحداً من أهل الشام لم يقصد إهانة الكعبة، بل كل المسلمين معظمين لها، وإنما كان مقصودهم حصار ابن الزبير، والضرب بالمنجنيق كان لابن الزبير لا للكعبة، ويزيد لم يهدم الكعبة، ولم يقصد إحراقها لا هو ولا نوابه باتفاق المسلمين[5]. وهكذا كانت أحد نتائج تلك الحرب التي دارت بين ابن الزبير والحصين بن نمير إحراق البيت الحرام[6]. ولما وصل الحصين خبر موت الخليفة بعث إلى ابن الزبير فقال: موعد ما بيننا الليلة الأبطح، وكان يريد أن يجتمع به ويفاوضه في الخلافة فالتقيا وتحادثا طويلاً واشتد بينهما الجدل وكان فيما قال الحصين لابن الزبير وهو يدعوه للخلافة: إن يك هذا الرجل قد هلك فأنت أحق الناس بهذا الأمر، هلم فلنبايعك ثم اخرج معي إلى الشام، فإن هذا الجند الذي معي هم وجوه أهل الشام وفرسانهم، فوالله لا يختلف عليك اثنان، وتؤمن الناس، وتهدر هذه الدماء التي كانت بيننا وبينك، والتي كانت بيننا وبين أهل هذه الحرة. فقال عبد الله: أنا أهدر تلك الدماء؟ أما والله لا أرضى أن أقتل كل رجل منهم عشرة منكم، وكان الحصين يكلمه سراً، وهو يجهر جهراً ويقول: لا والله لا أفعل. فقال له الحصين: قبح الله من يعدك بعد هذه داهياً قط أو أديباً، قد كنت أظن لك رأياً، ألا أراني أكلمك سراً وتكلمني جهراً وأدعوك للخلافة وتعدني للقتل والهلكة[7]، بعد أن افترقا، أدرك عبد الله خطأه في موقفه مع الحصين عندما عرض عليه الخلافة ومرافقته إلى بلاد الشام، وأراد أن يصحح هذا الموقف وكان الحصين يستعد للعودة بجنده إلى دمشق، فأرسل إليه يقول: أما أن أسير إلى الشام فليس فاعلاً وأكره الخروج من مكة، ولكن بايعوا لي هناك فإني مؤمنكم وعادل فيكم، فرد الحصين بقوله: أرأيت إن لم تقدم بنفسك، ووجدت هناك أناساً كثيراً من أهل هذا البيت يطلبونها

---

(1) مواقف المعارضة، ص: 552، حلية الأولياء (1/ 336).

(2) الإصابة (4/ 94) عن الزبير بن بكار بسند صحيح.

(3) الاستيعاب (3/ 243).

(4) تعجيل المنفعة، ص: 453 مواقف المعارضة، ص: 553.

(5) منهاج السنة (4/ 477) مواقف المعارضة، ص: 553.

(6) مواقف المعارضة، ص: 554.

(7) تاريخ الطبري (6/ 436).

ويجيبهم الناس، فما أنا صانع[1]؟ وذكر البلاذري: أن عبد الله بن الزبير طلب من الحصين مهلة لاستشارة أصحابه عندما عرض عليه الحصين الأمر، ولكن أصحابه رفضوا الخروج إلى الشام[2]. ويصعب على المرء أن ينفذ إلى أعماق ابن الزبير ويعرف ما كان يدور في خلده والأسباب التي دفعته لرفض عرض الحصين ولكن هناك مؤشرات عديدة تؤخذ بعين الاعتبار من الواقع السياسي في بلاد الحجاز[3]، منها:

أ ـ لم تكن للحصين صفة رسمية عندما عرض الخلافة على ابن الزبير، ولم يكن يمثل الأمويين كلهم، رغم أنه قال: إن الجند الذين معه هم وجوه أهل الشام وفرسانهم. فكيف يثق ابن الزبير بقائد حملة كان يقاتله قبل أيام ويريد أن يفتك به، وقد ظهرت المناقضة عند الحصين بقوله بعد ذلك: أرأيت إن لم تقدم بنفسك ووجدت هناك أناساً كثيراً من أهل هذا البيت يطلبونها ويجيبهم الناس[4].

ب ـ إن الذي عرض عليه الخلافة هو أحد قادة معركة الحرّة، وكان حول ابن الزبير عدد من أهل المدينة الذين هربوا من وحشية تلك المعركة، لذلك كان ابن الزبير يرد على الحصين بصوت جهوري، يسمعه من حوله من أنصاره ليدفع الشك عن نفوسهم، ويطمئنهم على موقفه من الحصين، فقال: إنه لا يرضى قتل عشرة من جيش الحصين بكل واحد من أهل المدينة[5].

جـ ـ عدم وجود أنصار ـ حتى الآن ـ له في بلاد الشام يمكن أن يعتمد عليهم وينصرونه كما هو الحال في بلاد الحجاز، فأهل الشام كانوا يدينون بالولاء والمحبة والتقدير للأمويين.

د ـ عدم وجود جيش منظم حقيقي كالجيش الأموي عند ابن الزبير، وكل ما نستطيع أن نسمي المدافعين عن ابن الزبير عن مكة، بأنهم من المقاتلين الذين يجتمعون وقت الشدة ويتفرقون عند زوالها، وهل هناك شدة أكبر من غزو الكعبة؟ وأعتقد لو كان لابن الزبير جيش منظم حقيقي ومدرب مسلح بحيث يستطيع هذا الجيش نصرة ابن الزبير لتوجه مع حصين بن نمير، لتم له النجاح[6].

المبحث السابع

وفاة يزيد بن معاوية وخلافة معاوية بن يزيد

أولاً: وفاة يزيد بن معاوية:

في عام 64هـ هلك يزيد بن معاوية وكانت وفاته بقرية من قرى حمص يقال لها حوّارين من

---

(1) تاريخ الطبري (6/ 436).
(2) أنساب الأشراف (4/ 57، 58)، عبد الله بن الزبير للناطور، ص: 107.
(3) عبد الله بن الزبير ماجد لحام، ص: 115.
(4) تاريخ الطبري (6/ 436).
(5) عبد الله بن الزبير، ماجد لحام، ص: 116.
(6) عبد الله بن الزبير، د. شحادة الناطور، ص: 109، 110.

أرض الشام، لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة 64هـ وهو ابن 38سنة في قول بعضهم، وعن هشام بن الوليد المخزومي، أن الزهري كتب لجده أسنان الخلفاء، فكان فيما كتب من ذلك: ومات يزيد بن معاوية وهو ابن تسع وثلاثين، وكانت ولايته ثلاث سنين وستة أشهر في قول بعضهم، ويقال: ثمانية أشهر[1]، وعن أبي معشر أنه قال: توفي يزيد بن معاوية يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول، وكانت خلافته ثلاث سنين وثمانية أشهر إلا ثمان ليالٍ، وصلى على يزيد ابنه معاوية بن يزيد[2]، وقيل وكانت خلافته ثلاث سنين وتسعة أشهر إلا أياماً[3]، وكان نقش خاتمه: ربنا الله[4].

ثانياً: خلافة معاوية بن يزيد:

معاوية بن يزيد: هو ثالث الخلفاء الأمويين، وكنيته أبو يزيد أو عبد الرحمن، أبوه يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وأمه أم هاشم بنت أبي هاشم ابن عتبة بن ربيعة[5]، ويسمى معاوية الأصغر[6]. ولد سنة 44هـ ونشأ في بيت الخلافة، بويع له بالخلافة بعد موت أبيه، في رابع عشر ربيع الأول سنة أربع وستين هجرية، وكان ﷺ أبيض شديد البياض، كثير الشعر، كبير العينين، جعد الشعر، أقنى الأنف، مدور الرأس، جميل الوجه، كثير شعر الوجه، دقيقه، حسن الجسم، وكان رجلاً صالحاً ناسكاً[7].

1 - مدة حكمه:

يختلف المؤرخون كثيراً في المدة التي حكمها معاوية بن يزيد، ويتراوح الخلاف بين عشرين يوماً وثلاثة أشهر، ويبدو أن مدة ثلاثة الأشهر هي الأرجح، ويرجع بعض المؤرخين مدة الأربعين يوماً[8] وكان مريضاً مدة ولايته، ولهذا لم يؤثر له عمل ما مدة خلافته، حتى الصلاة، فإن الضحاك بن قيس هو الذي كان يصلي بالناس، ويسيّر الأمور، وظل الضحاك يصلي بالناس حتى بعد وفاة معاوية، حتى استقر الأمر لمروان بالشام[9].

2 - تنازله عن الخلافة وتركه للأمر شورى:

ولما أحس معاوية بن يزيد بالموت نادي في الناس الصلاة جامعة، وخطب فيهم، وكان مما قال: أيها الناس إني قد وليت أمركم وأنا ضعيف عنه، فإن أحببتم تركتها لرجل قوي، كما تركها الصديق لعمر، وإن شئتم تركتها شورى في ستة كما تركها عمر بن الخطاب، وليس فيكم

---

(1) تاريخ الطبري (6/ 433).
(2) المصدر نفسه (6/ 433).
(3) تاريخ القضاعي، ص: 329.
(4) المصدر نفسه، ص: 332.
(5) تاريخ الطبري (6/ 434).
(6) الأمويون بين الشرق والغرب (1/ 286).
(7) البداية والنهاية (11/ 663).
(8) المصدر نفسه (11/ 662).
(9) المصدر نفسه (11/ 663).

من هو صالح لذلك وقد تركت أمركم، فولوا عليكم من يصلح لكم، ثم نزل ودخل منزله، فلم يخرج حتى مات رحمه الله تعالى[1]، قد أراد معاوية بن يزيد أن يقول لهم: أنه لم يجد مثل عمر، ولا مثل أهل الشورى، فترك لهم أمرهم يولون من يشاءون وقد جاء ذلك صريحاً في رواية أخرى للخطبة عند ابن الأثير قال فيها: أما بعد فإني ضعفت عن أمركم فابتغيت مثل عمر ابن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجده، فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم أجدهم، فأنتم أولى بأمركم، فاختاروا له من أحببتم، ثم دخل منزله وتغيب حتى مات[2]. واعتبر هذا الموقف منه دليلاً على عدم رضاه عن تحويل الخلافة من الشورى إلى الوراثة[3]، فقد رفض أن يعهد لأحد من أهل بيته حينما قالوا له اعهد إلى أحد من أهل بيتك، فقال: والله ما ذقت حلاوة خلافتكم، فكيف أتقلد وزرها، وتتعجلون أنتم حلاوتها، وأتعجل مرارتها، اللهم أني بريء منها، مُتخلٍّ عنها[4]، وجاء في رواية: قيل له ألا توصي؟ فقال: لا أتزوّد مرارتها واترك حلاوتها لبني أمية[5]، وتعتبر حادثة تنازل معاوية بن يزيد عن الخلافة حادثة نادرة في التاريخ الإنساني لقد عرفت استقالات، فيها إكراه مادي أو معنوي. أما أن ملكاً استقال، لأن في أمته من هو خير منه، فهذا ما لم نقع عليه وأية محاسبة للنفس أرفع من هذه[6]؟

وإذا كان معاوية بن أبي سفيان أول الخلفاء الأمويين قد حول الخلافة من الشورى إلى الملك، فإن حفيده معاوية الثاني، ثالث خلفاء الأمويين أيضاً، قد أعاد الخلافة من الملك العضوض إلى الشورى الكاملة، وإنه لمما يستوجب الإنصاف أن تصاغ القضية على هذا النحو بدلاً من التركيز على الشق الأول الخاص بتوريث الخلافة فقط[7].

3 - كم كان عمره لما مات؟ ومن صلى عليه؟

مات معاوية بن يزيد عن إحدى وعشرين سنة وقيل: ثلاث وعشرين سنة وثمانية عشر يوماً. وقيل: تسع عشرة سنة. وقيل عشرين سنة. وقيل ثلاث وعشرين سنة. وقيل إنما عاش ثماني عشرة سنة وقيل: خمس عشرة سنة. فالله أعلم. وصلى عليه أخوه خالد؟ وقيل عثمان بن عنبسة. وقيل: الوليد بن عُتبة. وهذا هو الصحيح، فإنه أوصى إليه بذلك وشهد دفنه مروان بن الحكم[8]، فلما فُرغ منه قال مروان: أتدرون من دفنتم؟ قالوا: نعم، معاوية بن يزيد. فقال مروان: هو أبو ليلى الذي قال فيه أَزْنَمُ الفزاري:

إني أرى فتنة تغلي مراجلها ... والملك بعد أبي ليلى لمن غلبا[9]

---

(1) البداية والنهاية (11/ 663، 664).
(2) الكامل في التاريخ (2/ 605).
(3) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 137.
(4) مروج الذهب (3/ 82).
(5) البداية والنهاية (11/ 663).
(6) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ (1/ 116).
(7) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 293.
(8) البداية والنهاية (11/ 663، 662).
(9) المصدر نفسه (11/ 664).

4 - أزمة خطيرة بعد وفاة معاوية بن يزيد:

كان معاوية بن يزيد قد أحدث أزمة خطيرة، فقد كان أخوه خالد بن يزيد صبياً صغيراً. وكان أمر ابن الزبير قد استفحل وبايع له الناس من أنحاء الدولة، فرأى فريق من جند الشام على رأسهم الضحاك بن قيس أمير دمشق أن يبايعوا لابن الزبير، وحتى مروان بن الحكم كبير بني أمية فكر في الذهاب إلى ابن الزبير ليبايعه ويأخذ منه الأمان ولكن سائر الجند والقادة بزعامة حسان بن مالك زعيم القبائل اليمنية ـ الذين كانوا أقوى المؤيدين لبني أمية وهم أخوال يزيد رفضوا أن يخرج الأمر عن بني أمية وأن يبايعوا لابن الزبير، فحدث خلاف شديد ولبث الشام ستة أشهر بدون إمام، وأخيراً اتفق القوم على أن يعقدوا مؤتمراً للشورى، يبحثون فيه عمن يصلح للخلافة ويصلوا في ذلك إلى قرار[1]. ويعتبر معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان آخر خلفاء الفرع السفياني، وانتقلت الخلافة بعده إلى الفرع الثاني من بني أمية بالمروانيين، وأولهم مروان بن الحكم، ولا يُعد عند كثير من المحققين والمؤرخين خليفة، حيث يعتبرونه باغياً خرج على أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير، وكذلك ولده عبد الملك لا يعتبر خليفة إلا بعد موت ابن الزبير، واجتماع المسلمين عليه[2]، وبوفاة معاوية بن يزيد انتهت الدولة السفيانية وظهرت الدولة الزبيرية ولكنها لم تستمر، فقد استطاع بنو مروان القضاء عليها وسيأتي التفصيل في الصفحات القادمة بإذن الله تعالى.



(1) النظريات السياسية الإسلامية، محمد ضياء الريس، ص: 202.

(2) الأمويون بين الشرق والغرب، ص: 290.

الفصل السادس
عهد أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير رضي الله عنه

المبحث الأول
اسمه ونسبه وكنيته ونشأته وبيعته

أولاً: اسمه ونسبه وكنيته:

هو عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرة، أمير المؤمنين، أبو بكر، وأبو خبيب، القرشي الأسدي المكي، ثم المدني، أحد الأعلام، ولد حواري رسول الله وابن عمته[1].

ثانياً: مولده ومبايعته لرسول الله ﷺ:

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: أنها حملت بعبد الله بن الزبير في مكة، قالت: فخرجت وأنا مُتِمٌّ فأتيت المدينة، فنزلت قباء، فولدت بقباء، ثم أتيت به رسول الله ﷺ، فوضعته في حجره، ثم دعا بتمرة، فمضغها ثم تفل في فيه، فكان أول شيء دخل جوفه ريق رسول الله ﷺ ثم حنكه بالتمرة، ثم دعا له، فبرّك عليه، وكان أول مولود ولد في الإسلام، ففرحوا به فرحاً شديداً لأنهم قيل لهم: إن اليهود قد سحرتكم، فلا يولد لكم[2]. وسماه عبد الله، ثم جاء بعد وهو ابن سبع، أو ابن ثمان سنين، يبايع النبي ﷺ، أمره الزبير رضي الله عنه بذلك، فتبسم النبي ﷺ حين رآه مقبلاً، وبايعه. وكان أول من ولد في الإسلام في المدينة بعد مقدم رسول الله ﷺ، وكانت اليهود تقول: قد أخذناهم، فلا يولد لهم بالمدينة ولد ذكر، فكبّر أصحاب رسول الله ﷺ حين ولد عبد الله[3]، وقد طاف به الصديق رضي الله عنه بالمدينة بعد ولادته ليشتهر أمر ميلاده على خلاف ما زعمت اليهود[4] وهذا أسلوب إعلامي عملي للقضاء على شائعات اليهود التي روجوا لها بالمدينة وكان ابن الزبير ملازماً للدخول على رسول الله ﷺ لكونه من آله، فكان يتردد إلى بيت خالته عائشة[5] زوج الرسول ﷺ.

---

(1) سير أعلام النبلاء (3/ 363).

(2) البخاري رقم (5469)، اليهود في السنة المطهرة (1/ 265).

(3) الحاكم (3/ 548).

(4) البداية والنهاية (11/ 188).

(5) سير أعلام النبلاء (3/ 364، 365).

ثالثاً: الزبير بن العوام والد عبد الله ﷺ:

هو أبو عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب القرشي الأسدي[1]، ويجتمع مع النبي ﷺ في قصي وهو حواري رسول الله ﷺ وابن عمته، وأمه صفية بنت عبد المطلب، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة وأحد أصحاب الشورى[2]، أسلم وهو حدث وله ستة عشر سنة[3]، ولم يتخلف عن غزوة غزاها رسول الله ﷺ [4]، وقد تعرض بعد إسلامه للتعذيب، فقد روي أن عم الزبير، كان يعلق الزبير في حصير ويدخن عليه بالنار وهو يقول: ارجع إلى الكفر، فيقول الزبير: لا أكفر أبداً[5]، وقال في حقه رسول الله ﷺ: «**لكل نبي حواري، وحواري الزبير**»[6]. أي خاصتي من أصحابي وناصري ومنه الحواريون أصحاب عيسى ﷺ أي خلصاؤه وأنصاره فالحواري هو الناصر المخلص، فالحديث اشتمل على هذه المنقبة العظيمة التي تميز بها الزبير ﷺ، ولذلك سمع عبد الله بن عمر ﷺ رجلاً يقول: أنا ابن الحواري فقال: إن كنت من ولد الزبير، وإلا فلا[7]، وكان الزبير بن العوام في عهد رسول الله ﷺ رجل المهمات الصعبة وكان في عهد الراشدين من أعمدة الدولة وشارك في فتوحاتها الكبيرة[8] وقد عرض عليه عمر بن الخطاب ولاية مصر في عهده فقال الزبير: لا حاجة لي فيها، ولكني أخرج مجاهداً وللمسلمين معاوناً، فإن وجدت عمرو بن العاص فتحها (مصر) لم أعرض لعمله، وقصدت إلى بعض السواحل فرابطتُ به، وإن وجدته في جهاد كنت معه[9]، وقد تحدثت عن سيرته في كتابي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فمن أراد المزيد فليرجع إليه مشكوراً[10].

رابعاً: أسماء بنت الصديق والدة ابن الزبير ﷺ جميعاً:

هي أسماء بنت عبد الله بن أبي قحافة بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تميم

---

(1) الإصابة (1/ 526. 528).
(2) الطبقات (3/ 100).
(3) سير أعلام النبلاء (1/ 41).
(4) سير السلف (1/ 226).
(5) الطبراني في الكبير (1/ 122).
(6) مسلم رقم (2414).
(7) مصنف ابن أبي شيبة رقم (12219)، صحيح.
(8) سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ص: 541.
(9) فتوح البلدان، ص: 299، نظام الحكم للقاسمي (1/ 544).
(10) سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ص: 535 إلى 550.

ابن مرة[1]، وكانت من أوائل المسلمات حيث أسلمت وأختها عائشة وهي يومئذٍ صغيرة[2]. ولها مواقف مشهودة، وآثار محمودة في تاريخنا الإسلامي المجيد ومن هذه المواقف:

1 - في الهجرة النبوية:

قالت السيدة عائشة في حديث طويل منه: فبينما نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر، عند الظهيرة، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله متقنعاً[3] في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر إلى أن قالت: . . فجهزناهما أحث الجهاز (من الحثّ وهو الإسراع) وضعنا لهم سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر ﷺ قطعة من نطاقها، فربطت به على فم الجراب، فبذلك سميت بذات النطاقين[4]. فقد أسهمت السيدة أسماء ﷺ في تموين الرسول ﷺ وصاحبه في الغار بالماء والغذاء، وكيف تحملت الأذى في سبيل الله، فقد حدثتنا عن ذلك فقالت:لما خرج رسول الله ﷺ، وأبو بكر ﷺ أتانا نفر من قريش، فيهم أبو جهل بن هشام، فوقفوا على باب أبي بكر، فخرجت إليهم، فقالوا: أين أبوك يا بنت أبي بكر؟ قالت: قلت: لا أدري والله أين أبي قالت: فرفع أبو جهل يده - وكان فاحشاً - فلطم خدّي لطمة، طرح منها قرطي، قالت: ثم انصرفوا[5]، فهذا درس من أسماء والدة عبد الله بن الزبير ﷺ، تعلّمه لنساء المسلمين جيلاً بعد جيل، كيف تخفي أسرار المسلمين عن الأعداء، وكيف تقف صامدة شامخة أمام قوى البغي والظلم، وأما درسها الثاني البليغ، فعندما دخل عليها جدها أبو قحافة، وقد ذهب بصره، فقال: والله إني لا أراه قد فجعكم بماله ونفسه. قالت: كلا يا أبت ضع يديك على هذا المال، قالت: ووضع يده عليه فقال: لا بأس، إذا كان ترك لكم هذا، فقد أحسن. وفي هذا بلاغ لكم، قالت: ولا والله ما ترك لنا شيئاً ولكني أردت أن أسكت الشيخ بذلك[6]، وبهذه الفطنة، والحكمة، سترت أسماء أباها، وسكنت قلب جدها الضرير، من غير أن تكذب، فإن أباها قد ترك لهم حقاً هذه الأحجار التي كومتها، لتطمئن لها نفس الشيخ! إلا أنه قد ترك لهم معها إيماناً بالله لا تزلزله الجبال، ولا تحركه العواصف الهوج، ولا يتأثر بقلة أو كثرة في المال، وورثهم يقيناً، وثقة بلا حدٍ لها، وغرس فيهم همة تتعلق بمعال الأمور ولا تلتفت إلى سفاسفها[7]، فضرب بهم

---

(1) الطبقات الكبرى (3/ 119).

(2) السيرة النبوية (1/ 271) عبد الله بن الزبير للناطور، ص: 17.

(3) متقنعاً : مغطياً رأسه.

(4) البخاري رقم (3905) السيرة النبوية للصّلاّبيّ (1/ 463).

(5) تاريخ الطبري (2/ 379 - 380) السيرة النبوية لابن هشام (2/ 131 - 132)1,

(6) السيرة النبوية لابن هشام (2/ 102)، إسناده صحيح.

(7) السفساف : الرديء الحقير من كل شيء والجمع سفاسف.

للبيت المسلم مثالاً عز أن يتكرر وقل أن يوجد نظيره، لقد ضربت أسماء رضي الله عنها بهذه المواقف لنساء وبنات المسلمين مثلاً هن في أمس الحاجة إلى الاقتداء به والنسج على منواله[1].

2 - صلة أسماء لأمها المشركة:

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت: قدمت أمي وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ فاستفتيت رسول الله ﷺ، قلت: إن أمي قدمت وهي راغبة، أفأصل أمي؟ قال: نعم، صلي أمك[2]، قال ابن حجر: وفي قولها وهي راغبة أقوال، والذي عليه الجمهور من هذه الأقوال أنها قدمت طالبة من بر ابنتها لها، خائفة من ردها إياها خائبة. وفي هذا الحديث من الفوائد ما ذكره الخطابي: إن الرحم الكافرة توصل بالمال ونحوه كما توصل المسلمة[3]. وقد قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩﴾ [الممتحنة: 8-9]. وهذه الآيتان رخصة في الذين لم ينصبوا الحرب للمسلمين، وجواز برهم، وإن كانت الموالاة منقطعة[4].

3 - شجاعتها وجهادها في اليرموك مع زوجها:

وأما شجاعتها وجراءتها وجهادها في سبيل الله فأمر يفوق الخيال: فمن ذلك خروجها مع الجيش يوم اليرموك، فلقد شهدت اليرموك مع زوجها الزبير وابنها عبد الله[5]، ومن شجاعتها استعدادُها التام لمواجهة اللصوص الذين كثروا في يوم من الأيام بالمدينة، عن فاطمة بنت المنذر أن أسماء بنت أبي بكر اتخذت خنجراً زمن سعيد بن العاص - أي في زمن إمارته المدينة وكانوا قد كثروا في المدينة، فكانت تجعله تحت رأسها[6].

4 - علاقتها بالقرآن الكريم:

كانت رضي الله عنها قد تربت على كتاب الله وهدي النبي ﷺ وإليك هذه الصورة المشرقة من حياتها مع القرآن الكريم فذات يوم دخل عليها ابنها وهي تُصلي فسمعها تقرأ هذه الآية ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧﴾ [الطور: 27]. فبكت واستعاذت. . . فقام وهي تستعيذ. فلما

(1) الهجرة النبوية المباركة، ص: 128.
(2) البخاري رقم (2620).
(3) فتح الباري (5/ 277).
(4) شرح منظومة الآداب (1/ 297)، بر الوالدين أم حفص عبير بنت محمد، ص: 36.
(5) طبقات ابن سعد (8/ 253) أسماء بنت أبي بكر للصّباغ، ص: 33.
(6) طبقات ابن سعد (8/ 253) أسماء بنت أبي بكر، ص: 33.

طال عليه أتى السوق وقضى منه حاجته.. ثم رجع فوجدها ما تزال في بكائها تستعيذ[1].
وكانت إذا أصيبت بالصُّدَاع تضع يدها على رأسها وهي تقول: بذنبي وما يغفر الله أكثر[2].
وهذا فهم عميق لقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ۝٣٠﴾ [الشورى: 30] وقد أفرد الدكتور محمد بن لطفي الصبّاغ رساله قيمة في حياة السيدة أسماء رضي الله عنها، وسيأتي الحديث عن بعض الدروس والعبر في حصار الحجاج لابنها عبد الله بمكة بإذن الله.

خامساً: أولاد ابن الزبير وزوجاته:

كان له من الولد خُبيبُ وحمزة وعباد وثابت وأمهم تماضر بنت منظور الفزاري، وهاشم وقيس وعروة - قتل مع أبيه - والزبير، وأمهم أم هاشم بنت حلة بن منظور وعامر وموسى وأمّ حكيم وفاطمة وفاختة، وأمهم جثيمة بنت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وبكر ورقية وأمهم عائشة بنت عثمان بن عفان، وعبد الله ومصعب من أم ولد[3].

سادساً: ابن الزبير في عهد أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاوية رضي الله عنهم:

1 - في اليرموك:

لا نجد في كتب السيرة أي خبر عن اشتراك عبد الله بن الزبير في الحروب والغزوات رغم حضوره مع والده غزوة الأحزاب وفتح مكة، فقد كان في مقتبل العمر ولم يتجاوز عمره عند وفاة الرسول ﷺ إحدى عشر سنة. وكان الرسول ﷺ لا يجيز أحداً من الغلمان لم يبلغ الخامسة عشر وأول ما يرد من أخبار تتعلق بخروجه مع الجيوش، ومرافقته لوالده في تحرير بلاد الشام وحضوره معركة اليرموك إذ يقول عبد الله: كنت مع أبي عام اليرموك، فلما تعبأ المسلمون للقتال، لبس الزبير لأمته ثم جلس على فرسه ثم قال لموليين له: أحبسا عبد الله بن الزبير معكما في الرحل، فإنه غلام صغير[4]. وبعد انتهاء القتال شارك عبد الله في علاج الجرحى بعد انهزام المشركين[5] وإن لم يشارك في القتال لصغر سنه فإنه ألف القتال والعراك وصليل السيوف منذ نشأته مما زاد في شجاعته وخبرته العسكرية[6].

---

(1) الحلية (2/ 55) أسماء بنت أبي بكر، ص: 9.
(2) الحلية (2/ 55) أسماء بنت أبي بكر، ص: 33.
(3) البداية والنهاية (11/ 213).
(4) تاريخ الطبري نقلاً عن عبد الله بن الزبير، ماجد لحام، ص: 41.
(5) تاريخ ابن عساكر نقلاً عن عبد الله بن الزبير، ص: 41.
(6) عبد الله بن الزبير، ص: 41.

2 - ابن الزبير مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ :

مرّ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ وابن الزبير يلعب مع الصبيان، ففروا ووقف ابن الزبير فقال له عمر: مالك لم تفر معهم، فقال لم أجرم فأخافك، ولم تكن الطريق ضيقة فأوسع لك[1]، وتروى المصادر حادثة أخرى تبين شجاعته منذ صباه الباكر، فقد ذكرت المصادر التاريخية إنه كان ذات يوم يلعب مع الصبيان وهو صبي، فمر بهم رجل فصاح عليهم ففروا، ومشى ابن الزبير القهقرى وقال: يا صبيان اجعلوني أميركم وشدّوا بنا عليه ففعلوا[2].

3 - كتابة المصاحف في عهد عثمان:

عن أنس: أن عثمان أمر زيداً، وابن الزبير، وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث ابن هشام، فنسخوا المصاحف، وقال: إذا اختلفتم أنتم وزيد في شيء، فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم[3]، ومن أراد التفصيل في جمع سيدنا عثمان ﷺ للمصاحف فليراجع كتابي عن عثمان بن عفان ﷺ .

4 - جهاده في شمال أفريقيا في عهد عثمان ﷺ :

انقطع خبر المسلمين في إفريقية عن عثمان بن عفان ﷺ فسيّر إليهم عبد الله بن الزبير في جماعة ليأتيهم بأخبارهم، فسار مجداً ووصل إليهم، وأقام معهم، ولمّا وصل، كثر الصّياح، والتكبير في المسلمين، فسأل جرجير عن الخبر، فقيل: قد أتاهم عسكر، ففتّ ذلك في عضده، ورأى عبد الله بن الزبير قتال المسلمين كلّ يوم من بكرة إلى الظّهر فإذا أُذّن بالظهر عاد كل فريق إلى خيامه، وشهد القتال من الغد فلم ير ابن سعد معهم فسأل عنه فقيل: إنه سمع منادي جرجير يقول: من قتل عبد الله بن سعد، فله مئة ألف دينار، وأزوِّجه ابنتي وهو يخاف فحضر عنده، وقال له: تأمر منادياً ينادي: من أتاني برأس جرجير، نفّلته مئة ألف، وزوجّته ابنته واستعملته على بلاده ففعل ذلك فصار جرجير يخاف أشدّ الخوف من عبد الله[4]. ثمّ إن عبد الله ابن الزبير قال لعبد الله بن سعد: إنّ أمرنا يطول مع هؤلاء وهم في أمداد متصلة وبلاد هي لهم ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم، وقد رأيت أن نترك غداً جماعة صالحة من أبطال المسلمين في خيامهم متأهّبين، ونقاتل نحن الرُّوم في باطن العسكر إلى أن يضجروا ويملُّوا فإذا رجعوا إلى خيامهم ورجع المسلمون، ركب من كان في الخيام من المسلمين، ولم يشهدوا القتال، وهم مستريحون ونقصدهم على غرّة فلعلّ الله أن ينصرنا عليهم، فأحضر جماعة من أعيان الصّحابة، واستشارهم، فوافقوه على ذلك، فلمَّا كان الغد، فعل عبد الله ما اتفقوا عليه وأقام جميع شُجعان المسلمين في خيامهم، وخيولهم عندهم مُسَرَّجة مضى

---

(1) الكامل في التاريخ (2/ 75).
(2) المصدر نفسه (2/ 75).
(3) سير أعلام النبلاء (3/ 370).
(4) التاريخ الإسلامي (12/ 388).

الباقون، فقاتلوا الرّوم بالانصراف على العادة فلم يمكنهم ابن الزُّبير، وألح عليهم بالقتال، حتى أتعبهم، ثم عاد عنهم، والمسلمون، فكل الطائفتين ألقى سلاحه، ووقع تعباً فعند ذلك أخذ عبد الله بن الزبير من كان مستريحاً من شجعان المسلمين وقصد الرّوم فلم يشعروا بهم حتى خالطهم، وحملوا حملة رجل واحد وكبَّروا فلم يتمكن الرّوم من لبس سلاحهم حتى غشيهم المسلمون وقتل جرجير قتله ابن الزبير، وانهزم الرّوم، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأخذت ابنة الملك جرجير سبية، ونزل عبد الله بن سعد المدينة، وحاصرها حتى فتحها، ورأى فيها من الأموال ما لم يكن في غيرها، فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار، وسهم الرَّاجل ألف دينار، ولما فتح مدينة سبيطلة، بثَّ جيوشه في البلاد فبلغت قفصة، فسبوا، وغنموا وسيَّر عسكراً إلى حصن الأجم، وقد احتمى به أهل تلك البلاد، فحصره، وفتحه بالأمان، فصالحه أهل إفريقية - ونفّل عبد الله بن الزبير ابنة الملك، وأرسله ابن سعد إلى عثمان بالبشارة بفتح إفريقية[1]. قال ابن كثير: فكان هذا أول موقف اشتهر فيه أمر عبد الله بن الزبير رضي الله عنه وعن أبيه، وأصحابهما أجمعين[2]، وكان الشاعر أبو ذؤيب الهذلي قد خرج مع ابن الزبير في مغزى نحو المغرب - في عهد عثمان - فمات فدلاّه عبد الله بن الزبير في حفرته وقد قال الشاعر أبو ذؤيب في تلك الغزاة في عبد الله بن الزبير:

وصاحبِ صدق كسيد[3] الضَّرَاءِ[4] ينهض في الغزو نهضاً نجيحا[5]
وشيكِ الفصول بطيءِ القفول إلا مشاحاً به أو مُشِيحا[6]

5 - دفاعه عن عثمان يوم الدار:

كان ابن الزبير من الذين كانوا مع عثمان بن عفان يوم حصر من قبل الغوغاء، وكان يلح على عثمان أن يسمح له بقتال الغوغاء ولكن عثمان كان يرفض ذلك[7]، ولما أمر عثمان من في الدار بالخروج أصر ابن الزبير ومروان بن الحكم على البقاء معه والدفاع عنه[8]، وقد أصيب ابن الزبير أثناء الحصار بإصابات بالغة كادت تودي بحياته، فقد روى المدائني أن كنانة

---

(1) الكامل في التاريخ (2/ 236، 237).
(2) البداية والنهاية (7/ 158).
(3) السيد: الذئب.
(4) الضراء: ما واراك من الشجر.
(5) نجيحاً: سريعاً.
(6) الشعر والشعراء لابن قتيبة (2/ 653) وشيك الفصول: أي سريع الغزو.
(7) الطبقات (3/ 70) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 41.
(8) تاريخ خليفة، ص: 174.

- مولى صفية بنت حيي - أخرج أربعة محمولين وكان ابن الزبير منهم[1]، وكان ابن الزبير يخطب بمكة ويقول في خطبته: فجرحت بضعة عشر جرحاً وإني لأضع يدي اليوم على تلك الجراحات التي جرحت مع عثمان، فأرجو أن تكون خير أعمالي[2]، وفي هذا وضوح موقف ابن الزبير من عثمان وأنه يراه إمام حق ورشد وأن المعتدين عليه مجرمون وأن قتالهم من أفضل الأعمال عند الله ومنها نستفيد أن الدفاع عن أولياء الصالحين بأي وسيلة شرعية من الذب عن أعراضهم وشدّ أزرهم من الأعمال الصالحة. ومما يدل على أهمية الدور الذي كان يقوم به ابن الزبير في الذود عن عثمان ما ذكرته الروايات من أن عثمان أمّر ابن الزبير يوم الدار وقال: من كانت لي عليه طاعة فليطع عبد الله بن الزبير[3]. وفي رواية: أنه أمره أن يصلي بأهل داره فترة الحصار، وكان ابن الزبير يصلي بهم في صحن الدار[4].

6 - في معركة الجمل:

كان ابن الزبير يوم الجمل على الرجّالة وجُرح يومئذ تسع عشرة جراحة، وقد تبارز يومئذٍ هو ومالك بن الحارث بن الأشتر، فاتَّحدا فصرع الأشتر ابن الزبير فلم يتمكن الأشتر من القيام عنه، بل احتضنه ابن الزبير وجعل ينادي ويقول: اقتلوني ومالكاً واقتلوا مالكاً معي[5].

فأرسلها مثلاً. ثم تفرَّقا ولم يقدر عليه الأشتر وقد قيل: إنه جرح يومئذ بضعاً وأربعين جراحة ولم يوجد إلا بين القتلى وبه رمق، وقد أعطت عائشة لم بشَّرها أنه لمن يقتل عشرة آلاف درهم وسجدت لله شكراً وقد كانت تحبه حباً شديداً، لأنَّه ابن أختها، وكان عزيزاً عليها وقد رُوِيَ عن عُروة أنّه قال: لم تكن عائشة تحب أحداً بعد رسول الله ﷺ وأبي بكر مثل حُبِّها عبد الله بن الزبير وقال عروة: وما رأيت أبي وعائشة يدعوان لأحد من الخلق مثل دعائهما لابن الزبير[6].

7 - جهاده أيام معاوية ﷺ:

تولى أمر إفريقية معاوية بن حديج، فكان عبد الله بن الزبير ساعده الأيمن بالفتح والجهاد وقد سار معاوية بن حديج في جيش قوامه عشرة آلاف مقاتل، وفتح بنزرت - سنة أحد وأربعين - كما دخل «القيروان» سنة خمس وأربعين، وبث السرايا في البلاد، وبعث إلى «سوسة» عبد الله

(1) أنساب الأشراف (1/ 564) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 42.
(2) الطبقات نقلاً عن عبد الله بن الزبير للخراشي.
(3) الطبقات (3/ 70).
(4) عبد الله بن الزبير للخراشي، 42، نقلاً عن الطبقات.
(5) البداية والنهاية (11/ 196).
(6) المصدر نفسه (11/ 197).

ابن الزبير ففتحها[1]. وكان عبد الله بن الزبير كذلك في جيش يزيد بن معاوية الذي سار نحو القسطنطينية، وكان في ذلك الجيش عدد من الصحابة أيضاً منهم: أبو أيوب الأنصاري، والحسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وابن عباس[2].

سابعاً: وصف ابن الزبير وأهم صفاته:

كان آدم[3]نحيفاً ليس بالطويل، وكان بين عينيه أثر السجود، كثير العبادة مجتهداً شهماً فصيحاً، صوّاماً قوّاماً، شديد البأس ذا أنفة، له نفس شريفة وهمّة عالية، وكان خفيف اللحية ليس في وجهه من الشعر إلا قليلاً، وكانت له جُمة وكان له لحية صفراء[4]، وكان عالماً عابداً مهيباً وقوراً، كثير الصيام والصّلاة شديد الخشوع قويَّ السياسية[5]، وكان لأبيه الزبير وأمه أسماء وخالته عائشة وجده أبي بكر، وجدته صفية عمة رسول الله ﷺ أكبر الأثر على شخصيته من جميع النواحي وهذا ما نلمسه من صفات ابن الزبير التي أهمها:

1 - فقهه وعلمه:

كان عبد الله بن الزبير رضي الله عنه أحد العبادلة الأربعة الذين تفقهوا في أمور الدين في المدينة المنورة وهم عبد الله بن الزبير وابن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم ، ولابن الزبير في الصحيحين أحاديث اتفقا له على حديث واحد وانفرد البخاري بستة أحاديث، ومسلم بحديثين[6]، حدث عن رسول الله وهو صغير وكذلك حدث عن أبيه الزبير وعن جده أبي بكر وعمر وعثمان وخالته أم المؤمنين عائشة وغيرهم رضي الله عنهم وروى عنه مشاهير التابعين منهم أخوة عروة، وطاووس بن كيسان وعمرو بن دينار، وابن أبي مليكة، وثابت البناني، وغيرهم كثير[7]، وقد كان رضي الله عنه فقيهاً وقد قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لما مات العبادلة عبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمرو بن العاص صار الفقه في جميع البلدان إلى الموالي[8]، وعرف ابن الزبير بأنه واسع المعرفة بالقرآن والسنة، وكان رضي الله عنه من العلماء المجتهدين، عالماً عابداً ولا غرور في ذلك إذ كان كثير الدخول على

---

(1) البيان المغرب (1/ 16 - 17) عبد الله بن الزبير، محمود شاكر، ص: 43.
(2) تاريخ الطبري (6/ 148) عبد الله بن الزبير محمود شاكر، ص: 43.
(3) آدم : أسمر.
(4) البداية والنهاية (11/ 193).
(5) البداية والنهاية (11/ 204).
(6) سير أعلام النبلاء (3/ 363).
(7) المصدر نفسه (3/ 363)، عبد الله بن الزبير محمد عبد الرضا هادي، ص: 9.
(8) معجم البلدان نقلاً عن عبد الله بن الزبير، الناطور، ص: 31.

خالته عائشة، أم المؤمنين، رضي الله عنها، وهي العالمة الفقهية وكانت تحدثه وهو من أحب الناس إليها بعد رسول الله ﷺ، وبعد أبيها أبي بكر الصديق رضي الله عنه وعنها، وكانت مدة خلافة عبد الله بن الزبير تسع سنوات وقد حج خلالها ثمان مرات، وفي السنة الأخيرة كان محاصراً فلم يستطع الحج. خطب ابن الزبير مرة الحُجّاج فقال: يا معشر الحجاج سلوني فعلينا كان التنزيل ونحن حضرنا التأويل، فقال رجل من أهل العراق: انحلّ جرابي فدخلت فيه فأرة فقتلتها، وأنا محرم، فقال: اقتلوا الفويسقة، فقال: أخبرنا بالشفع والوتر والليالي العشر، فقال: العشر: الثمان وعرفة والنحر، والشفع من تعجّل في يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه، والوتر: هو هذا اليوم ـ يعني عرفة ـ، ولم يكن أحد أعلم بالمناسك من ابن الزبير في عهده[1]. وقال عنه ابن عباس رضي الله عنه: كان قارئاً لكتاب الله متبعاً لسنة رسول الله ﷺ، قانتاً لله صائماً في الهواجر من مخافة الله ابن حواري رسول الله وأمه بنت الصديق، وخالته عائشة حبيبة حبيب الله زوجة رسول الله ﷺ، فلا يجهل حقه إلا من أعمى الله بصيرته[2]. وكتب في فقهه رسالة علمية للطالب محمد عبد الرضا هادي بالعراق.

2 - عبادته وتقواه:

تواترت الروايات التي تصور لنا حرص ابن الزبير على العبادة من صلاة وصيام وغيرها، حتى أنها أصبحت معالم شخصيته[3]، قال عنه مجاهد: لم يكن أحد يطيق ما يطيقه ابن الزبير من العبادة رضي الله عنه [4] وقال: جاء سيل مرة فطبق أبنية الكعبة فجعل ابن الزبير يطوف سباحة[5]، وكان ابن الزبير رضي الله عنه كثير العبادة إذا قام إلى الصلاة انقطع عن الدنيا ونسي مشاغلها وما فيها من حلو ومر وخرج من كل شيء إليها، فقد روي أن ابن الزبير كان يوماً يصلي فسقطت حية من السقف فطوقت بطن ابنه هاشم فصرخ النسوة وانزعج أهل المنزل واجتمعوا على قتل تلك الحية، فقتلوها وسلم الولد، فعلوا هذا كله وابن الزبير في الصلاة لم يلتفت ولا درى بما جرى حتى سلّم[6]. وقال عنه ثابت البناني: كنت أمر بابن الزبير وهو خلف المقام يصلي كأنّه خشبة منصوبة لا تتحرك[7]، وقال يزيد بن إبراهيم عن عمرو بن دينار، قال: كان ابن الزبير يصلي في الحجر والمنجنيق يصيب ثوبه، فما يلتفت يعني: لما حاصروه[8]، وعن ابن أبي مليكة: قال لي عمر بن عبد العزيز إن في قلبك من ابن الزبير: قلت: لو رأيته ما رأيت مناجياً ولا مصلياً

---

(1) تهذيب تاريخ ابن عساكر نقلاً عن عبد الله بن الزبير، محمد شاكر، ص: 202.

(2) سير أعلام النبلاء (3/ 367)، البداية والنهاية (11/ 191).

(3) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 32.

(4) البداية والنهاية (11/ 3-19).

(5) البداية والنهاية (11/ 3-19).

(6) البداية والنهاية (11/ 1-19).

(7) سير أعلام النبلاء (3/ 369).

(8) المصدر نفسه (3/ 369).

مثله[1]، وعن ابن أبي مليكة قال: كان ابن الزبير يواصل سبعة أيام، ويصبح في اليوم السابع وهو أليَثُنا[2]. وعلق الذهبي على ذلك فقال: لعله ما بلغه النهي عن الوصال ونبيك ﷺ بالمؤمنين رؤوف رحيم، وكل من واصل، وبالغ في تجويع نفسه، انحرف مزاجه وضاق خلقه، فاتباع السنة أولى، ولقد كان ابن الزبير مع مُلكه صِنفاً في العبادة[3].

3 - جرأته وشجاعته:

كان عبد الله بن الزبير فارس قريش في زمانه، وكان يشتد بالسيف وقد ناهز السبعين كأنه فتى في ربيع العمر، قال عنه عثمان بن طلحة: كان ابن الزبير لا ينازع في ثلاثة لا شجاعة ولا عبادة ولا بلاغة[4]، وعن هشام بن عروة قال: كان أول ما أفصح به عمي عبد الله بن الزبير وهو صغير السيف، فكان لا يضعه من فيه، فكان أبوه إذا سمع ذلك منه يقول: أما والله ليكونن لك منه يوم ويوم وأيام[5]، وكان مشهود له بالشجاعة منذ كان صغيراً، وقد مرّت شجاعته في اليرموك وفي حصار القسطنطينية وفي فتح إفريقية، وفي دفاعه عن عثمان يوم الدار وفي قتاله في الجمل وسيأتي الحديث عن شجاعته أكثر بإذن الله في حصار الحجاج له بمكة وكان يقول: والله إني لا أبالي إذا وجدت ثلاث مئة يصبرون صبري لو أجلب عليَّ أهل الأرض[6]، وكان يضرب بشجاعته المثل[7]، وكان ابن الزبير متأثراً بشجاعة أبيه وإقدامه وشجاعة جده الصديق، وأمه وأخواله وعلى رأسهم عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق.

4 - فصاحته وخطابته:

كان ابن الزبير رضي الله عنه لا ينازع وكان من خطباء قريش المعدودين وكان إذا خطب يشبه بجده أبي بكر الصديق رضي الله عنه في حركاته وإشاراته ونبرات صوته وكان صيتاً إذا خطب ويروي أن المسلمين عندما انتصروا على البربر فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وغنموا أموالاً وغنائم كثيرة جداً فبعث ابن أبي سرح بالبشارة مع ابن الزبير إلى عثمان فقص على عثمان الخبر وكيف جرى، فقال له عثمان: إن استطعت أن تؤدي هذا للناس فوق المنبر، قال: نعم فصعد ابن الزبير فوق المنبر فخطب وذكر لهم كيفية ما جرى، قال عبد الله: فالتفت فإذا أبي الزبير في جملة من حضر، فلما تبينت وجهه كاد يرتع عليّ في الكلام من هيبته في قلبي، فزبرني بعينه وأشار إلي

---

(1) سير أعلام النبلاء (3/ 368).
(2) المصدر نفسه (3/ 368).
(3) المصدر نفسه (3/ 368).
(4) المصدر نفسه (3/ 370)
(5) عبد الله بن الزبير فقيهاً، ص: 14 البداية والنهاية (11/ 208).
(6) سير أعلام النبلاء (3/ 376).
(7) المصدر نفسه (3/ 377).

ليحظنني، فمضيت في الخطبة كما كنت، فلما نزلت قال: والله لكأني أسمع خطبة أبي بكر الصديق حين سمعت خطبتك يا بني[1]، وعن محمد بن عبد الله الثقفي قال: شهدت ابن الزبير بالموسم خرج علينا قبل التروية بيوم وهو محرم فلبى بأحسن تلبية سمعتها قط ثم حمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإنكم جئتم من آفاق شتى وفوداً إلى الله عز وجل فحق على الله أن يكرم وفده فمن كان منكم يطلب ما عند الله فإن طالب ما عند الله لا يخيب فاصدقوا قولكم بفعل فإن ملاك القول الفعل والنية النية، القلوب القلوب، الله الله في أيامكم هذه فإنها أيام تغفر فيها الذنوب، جئتم من آفاق شتى في غير تجارة ولا طلب مال ولا دنيا ترجون هاهنا، ثم لبى ولبى الناس، فما رأيت باكياً أكثر من يومئذٍ[2]، وقال سعيد بن المسيب خطباء قريش في الإسلام: معاوية وابنه وسعيد وابنه وعبد الله بن الزبير[3]، ومن خطبه المشهورة، خطبته في أهل مكة بعد مقتل الحسين رضي الله عنه، وخطبته في الخوارج حين ناظرهم وخطبته بعد مقتل أخيه مصعب في العراق[4]، ومن مواعظه المشهورة ما كتبه لوهب بن كيسان حيث قال: كتب إليّ عبد الله بن الزبير بموعظة: أما بعد فإن لأهل التقوى علامات يُعرفون بها، ويعرفونها من أنفسهم، صدق الحديث، وأداء الأمانة، وكظم الغيظ، وصبر على البلاء ورضي بالقضاء، وشكر للنعماء، وذلّ لحكم القرآن، وإنما الأيام كالسوق ما نفق فيها حمل إليها، إن نفق الحق عنده حمل إليه وجاءه أهله وإن نفق الباطل حمل إليه وجاءه أهله[5]. ولا شك: أن صفة الخطابة والقدرة على الإقناع من أهم الأمور التي يجب أن يتحلى بها أي زعيم، وقد أفاد ابن الزبير من ذلك كثيراً وكانت فصاحته وقدرته الخطابية عاملاً من عوامل نشر أفكاره والقيم التي آمن بها في حياته.

5 - عبد الله بن الزبير رضي الله عنه وجوده:

كان عبد الله بن الزبير كريماً يعطي حقوق الرعية كاملة، ويزيد إلى من يستحق، ولا يدفع إلا بطرق مشروعة، ولكن اتهمه بعضهم بالبخل إذ لم يكن مبذراً يعطي عن يمين وعن شمال من لا يستحق، ولم يكن مسرفاً فلا يدفع إلا قدر الحاجة، ولا يُقدّم للمدّاحين والمتزلّفين، وهم عادة أصحاب ألسنة حادة ومنها تخرج الشائعات الهادفة، غير أن ابن الزبير لم يكن يُبالي بما يُقال، ما دام أنه على الجادة[6]، وقد انساق كثير من الباحثين وراء روايات الخصوم واتهموا ابن الزبير بالبخل وهذا الوصف فيه تجني على حقيقة ابن الزبير، وللأسف أن أصحاب الدراسات الحديثة لم يلتفتوا إلى الروايات الأخرى التي تنفي صفة البخل عن ابن الزبير[7]، والذي يظهر

---

(1) البداية والنهاية (11/ 194).
(2) المصدر نفسه (11/ 218).
(3) تاريخ ابن عساكر نقلاً عن عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 34.
(4) الكامل في التاريخ (3/ 58).
(5) البداية والنهاية (11/ 219).
(6) عبد الله بن الزبير، محمود شاكر، ص: 02.
(7) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 36.

أن صفة البخل التي وصف بها ابن الزبير كانت بسبب سياسته المالية المتشددة، ذلك أن ابن الزبير كان يتأسى بالخلفاء الراشدين وينظر إلى ما بيده من مال أنه ليس ملكاً له وإنما هو للمسلمين ومن ثمّ لا ينفقه إلا في وجوهه الشرعية[1] فالذين عاشوا في ذلك العصر ورأوا سياسة ابن الزبير المتشددة وقارنوها بسياسة الأمويين في الإنفاق لكسب الأنصار والمؤيدين والشعراء اتهم بعضهم ابن الزبير بالبخل وهذه الآثار تدل على كرم وجود ابن الزبير رضي الله عنه حرصه على أموال المسلمين:

أ - شهادة السيدة عائشة في كرم ابن الزبير: قالت عائشة بنت طلحة خرجت مع أم المؤمنين عائشة وهي خالة عائشة بنت طلحة، فبينما نحن كذلك إذا براجز يقول:

أنشد من كان يعيد الهمّ
يدلني اليوم على ابن أمّ
له أب في باذخ أشمّ
وأمه كالبدر ليل تمّ
مقابل الخال كريم العمّ
جرّعه أكوسه بسمّ

قالت: فلما سمعت أم المؤمنين الأبيات دعت به، فقالت له من وراء حجابها: يا عبد الله سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«الدّال على الخير كفاعله»**. فحاجتك رجل بين يديك، فسَل عن عبد الله بن الزبير، فإنه شرطك، فخرج الرجل حتى أدرك عبد الله بن الزبير فحمله على راحلة وصنع إليه معروفاً[2].

ب - شهادة معاوية بن أبي سفيان في ابن الزبير رضي الله عنه: سمع معاوية رضي الله عنه رجلاً وهو يقول:

ابن رقاش ماجد سَمَيْدع
يأتي فيعطي عن يدٍ أو يمنع

فقال: ذاك عبد الله بن الزبير[3].

ج - نابغة بني جعدة وابن الزبير: عن عبد الله بن عروة قال: أقحمت السنة نابغة بني جعْدة فدخل على عبد الله بن الزبير المسجد الحرام فأنشده:

حكيت لنا الصديق لما وليتنا ... وعثمان والفاروق فارتاح مُعْدِمُ
وسوّيت بين الناس في الحق فاستووا ... فعاد صباحاً حَالك اللون مظلم

---

(1) عبد الله بن الزبير، ص: 37.
(2) تاريخ دمشق الكبير (30/ 147).
(3) المصدر نفسه (30/ 147).

أتاك أبو ليلى يجوب به الدُّجى دُجى الليل جوّاب الفلاة عَثمثمُ
لتجبر منه جانباً دعدعتْ به صُروف الليالي والزمان المُصَمّم

فقال ابن الزبير: هوّن عليك أبا ليلى فإن الشعر أهون وسائلك عندنا، أمّا صفوة مالنا فلآل الزبير وأمّا عفوته فإن بني أسد تشغلها عنك، وتيماً، ولكن لك في مال الله حقان: حق برؤيتك رسول الله ﷺ، وحق لشركتك أهل الإسلام في فيئهم، ثم أخذ بيده فدخل به دار النَّعَم، فأعطاه قلائص سبعاً وجملاً رحيلاً، وأوقر له الركاب براً وتمراً وثياباً فجعل النابغة يستعجل ويأكل الحب صِرْفاً، فقال ابن الزبير: ويح أبي ليلى، لقد بلغ الجهد[1]. فهذا الخبر ينفي ما روى عن بخل ابن الزبير ففرق بين البخل والحفاظ على مال المسلمين، فقد بدا واضحاً من كلام عبد الله بن الزبير تبريره حق النابغة الجعدي فيما منحه إياه دون أي اعتبار لما مدحه به من شعر[2].

د - عبد الله بن عروة ابن أخ ابن الزبير: جاء في رواية للزبير بن بكار أن عبد الله بن الزبير زوّج ابنته أم حكيم - من ابن أخيه عبد الله بن عروة فأرسل عروة إلى أخيه عبد الله عشرين ألف درهم فردها عبد الله قائلاً: لو أردت المال لوجدته عند غيرك[3].

ر - حمزة بن عبد الله بن الزبير في سجن أبيه: قدم حمزة بن عبد الله بن الزبير على أبيه بعد أن عزل من العراق فلما سأله أبوه عن المال أخبره بأنه وزعه على قومه فوصلهم به فقال له ابن الزبير: مال ليس لك ولا لأبيك ثم[4]سجنه وهكذا يتضح حرص ابن الزبير على مال العام، وإنفاقه وكرمه الذي لا تجاوز فيه لشرع الله في الإنفاق.

ثامناً: بيعة ابن الزبير بالخلافة:

بعد موت يزيد بن معاوية لم يكن هناك من خليفة وإذا كان يزيد قد أوصى لابنه معاوية فإن هذا لا يكفي للبيعة، إذ لا بيعة دون شورى، إضافة إلى أن الذين قد بايعوا معاوية بن يزيد لا يزيدون على دمشق وما حولها وأعيان بني كلب. هذا مع أن معاوية بن يزيد لم يعش طويلاً وترك الأمر شورى ولم يستخلف أحدا، ولم يوصي إلى أحد، وكان عبد الله بن الزبير رضي الله عنه قد بويع له في الحجاز، وفي العراق وما يتبعه إلى أقصى مشارق ديار الإسلام، وفي مصر وما يتبعها إلى أقصى بلاد المغرب، وبايعت الشام أيضاً إلا بعض جهات منها، ففي دمشق بايع الضحاك بن قيس الفهري لابن الزبير، وفي حمص بايع النعمان بن بشير، وفي قنسرين زفر بن الحارث الكلابي، وفي فلسطين بايع ناتل بن قيس، وأخرج منها روح بن زنباع الجذامي، ولم

---

(1) تاريخ دمشق (30/ 146).
(2) موقف الشعر من الحركة الزبيرية، ص: 47.
(3) جمهرة نسب قريش، ص: 265.
(4) جمهرة نسب قريش، ص: 40.

يكن رافضاً بيعة ابن الزبير في الشام إلا منطقة البلقاء وفيها حسان بن مالك بن بحدل الكلبي[1]، وهكذا تمّت البيعة لعبد الله بن الزبير في ديار الإسلام وأصبح الخليفة الشرعي[2]وعين ابن الزبير نوّابه على الأقاليم، وتكاد تجمع المصادر على أن جميع الأمصار قد أطبقت على بيعة ابن الزبير خليفة المسلمين، ولذلك صرّح العديد من العلماء والمؤرخين بأن بيعة ابن الزبير بيعة شرعية، وأنه أولى بها من مروان بن الحكم[3]، فيروي ابن عبد البر عن مالك أنه قال: إن ابن الزبير كان أفضل من مروان وكان أولى بالأمر منه، ومن ابنه عبد الملك[4]. ويقول ابن كثير: ثم هو - أي ابن الزبير - الإمام بعد موت معاوية بن يزيد لا محالة وهو أرشد من مروان بن الحكم حيث نازعه بعد أن اجتمعت الكلمة عليه وقامت البيعة له في الآفاق وانتظم له الأمر[5]، ويؤكد كل من ابن حزم[6]والسيوطي[7] شرعية ابن الزبير ويعتبران مروان بن الحكم وابنه عبد الملك باغيين عليه خارجين على خلافته كما يؤكد الذهبي شرعية ابن الزبير ويعتبره أمير المؤمنين[8]

1 - بيعة ابن الزبير بالحجاز:

كان من الطبيعي أن يكون الحجاز أول المناطق خضوعاً وولاءً لبيعة ابن الزبير لكونه مركز المعارضة ضد بني أمية وقد سارع أهل الحجاز إلى مبايعة ابن الزبير، ويروي ابن سعد أن من الأوائل الذين سارعوا إلى مبايعة ابن الزبير عبد الله بن مطيع العدوي، وعبد الله بن رضوان بن أمية الجمحي والحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة، وعبيد بن عمير، وعبيد الله بن علي بن أبي طالب، وعبد الله بن جعفر[9]، وكان هناك بعض العناصر الذين امتنعوا عن بيعة ابن الزبير وعلى رأسهم ثلاث شخصيات لها مكانتها وتأثيرها لاسيما في الحجاز وهم عبد الله بن عمر ابن الخطاب، وابن عباس، ومحمد ابن الحنفية، وتكاد تجمع المصادر أن أياً من هؤلاء لم يبايع ابن الزبير طيلة حياته[10].

---

(1) سير أعلام النبلاء (3/ 373) عبد الله بن الزبير، محمود شاكر، ص: 66.
(2) عبد الله بن الزبير، محمود شاكر 68.
(3) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 117.
(4) الاستيعاب (3/ 910).
(5) البداية والنهاية نقلاً عن عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 117.
(6) المحلى (11/ 98) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 117.
(7) تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص: 212 ابن الزبير للخراشي 118.
(8) سير أعلام النبلاء (3/ 363).
(9) أنساب الأشراف (1/ 352)، عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 119.
(10) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 119.

أ - موقف ابن عمر من بيعة ابن الزبير: بايع ابن عمر يزيد بالخلافة، والتزم ببيعته، وحاول إقناع ابن الزبير بذلك، ونهاه عن إثارة الفتنة والخروج على خلافة يزيد[1]، وبعد وفاة معاوية ابن يزيد بويع ابن الزبير بالخلافة، وطلب من ابن عمر أن يبايع له فرفض ابن عمر البيعة معللاً ذلك بقوله: لا أعطي صفقة يميني في فرقة ولا أمنعها في جماعة[2]. ولم يحاول ابن الزبير إجبار ابن عمر على البيعة، كما أن المصادر لم تشر إلى أي صدام أو مواجهة وقعت بين الاثنين[3]، وكان لامتناع ابن عمر على بيعة ابن الزبير تأثير سلبي، فقد كان ابن عمر يتمتع بمكانة عالية وبالأخص في الحجاز وكان تأثيره على الناس، فامتناعه عن البيعة يجعل البعض يقتدي به ويتخذ نفس الموقف، ومما يزيد من تأثيره السلبي على حركة ابن الزبير أن ابن عمر كان يجبر من له طاعة عليهم أن يتخذوا الموقف نفسه الذي يتخذه ومع كل ذلك فلم يكن ابن عمر يشكل خطراً حقيقياً على ابن الزبير فهو لم يكن ذا طموح للخلافة، كما أنه لا يملك أتباعاً يستطيع أن يواجه بهم ابن الزبير كما هو الحال عند محمد ابن الحنفية[4].

ب - ابن عباس وبيعة ابن الزبير: كان ابن عباس يختلف عن ابن عمر في مواقفه إزاء الفتن التي جرت في عصره، حيث خاض فيها وشهد مع علي صراعه ضد خصومه في موقعتي الجمل وصفين، ولما جاء الأمويون للحكم واستخلف معاوية يزيد بادر ابن عباس إلى بيعته، والتزم بها ولم يعرف أنه أيّد ابن الزبير الذي رفض البيعة، وفي نفس الوقت لم يعلن عداءه لابن الزبير، وبدأت العلاقة بين الاثنين تدخل طوراً جديداً بعد وفاة يزيد بن معاوية حيث بويع ابن الزبير بالخلافة سنة 64هـ وعندما طلب ابن الزبير من محمد ابن الحنفية وابن عباس المبايعة قالا: حتى تجتمع لك البلاد ويتسق لك الناس[5]، ووعداه بعدم إظهار الخلاف له[6]. لم يحاول ابن الزبير في بداية الأمر إجبارهما على البيعة، وبدأت العلاقة بين ابن الزبير وابن عباس في تحسن تلمس ذلك في العديد من الروايات التي تدلل على شعور ابن عباس تجاه ابن الزبير والمتمثل في تأييده لبعض مواقفه[7]، أو في الثناء المباشر عليه[8]، ويروي عبد الرزاق في مصنفه أن ابن عباس كان قاضياً لابن الزبير بمكة، إلا أن العلاقة بينهما تعكرت، وقد

---

(1) مصنف ابن أبي شيبة (15/ 84).
(2) أنساب الأشراف (1/ 352)، عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 120.
(3) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 121.
(4) المصدر نفسه، ص: 122.
(5) الطبقات (5/ 100).
(6) البداية والنهاية نقلاً عن عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 125.
(7) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 125 الفتح الرباني للبنا (3/ 167).
(8) تاريخ ابن عساكر نقلاً عن عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 125.

وردت عدة روايات تدل على مظاهر تردي العلاقة بين الاثنين وإن كانت في مجموعها لا تخرج عن نطاق المناقشات الحادة[1]. ونظراً لتوافق ابن عباس مع محمد ابن الحنفية في رفض بيعة ابن الزبير وتنامي خطر الأخير فقد انتهى الأمر بخروج ابن عباس إلى الطائف وبقي هناك إلى أن توفي[2]. وكان ابن عباس يثني على ابن الزبير، فعندما ذكر عنده قال ابن عباس: قارىء لكتاب الله، عفيف في الإسلام، أبوه الزبير، وأمه أسماء وجده أبو بكر، وعمّته خديجة، وخالته عائشة وجدّته صفية[3].

جـ- ابن الحنفية وبيعة ابن الزبير: كان المبدأ الذي صرح به ابن الحنفية بعد وفاة يزيد أن لا يبايع أحداً إلا في حالة اجتماع الناس عليه[4]، لم يحاول ابن الزبير في بداية الأمر إكراه ابن الحنفية على البيعة ولم يستمر ابن الزبير في سياسته اللينة مع ابن الحنفية، فبعد أن علا شأن ابن الزبير وجاءته بيعة الأمصار، وكادت الأمة أن تجتمع عليه، أحس أن الوقت قد حان لأن يبايع ابن الحنفية بناء على وعده فعاود الكرّة مرّة أخرى ودعاه إلى البيعة سنة 65هـ ولكن ابن الحنفية أبى أن يبايع فلجأ ابن الزبير إلى حبسه في الشعب[5]، ويبدو أن ابن الزبير تخوّف من دعوة المختار بن أبي عبيد الثقفي بالكوفة، فقد كان المختار من أشد المدافعين عن ابن الزبير أيام حوصر في مكة سنة 64هـ من قبل جيش الحصين بن نمير السكوني، وكان المختار بالإضافة إلى شجاعته وجرأته يتمتع بمكر ودهاء كبيرين ويحمل بين جنبيه طموحات عالية للزعامة[6]، لم يجد المختار عند ابن الزبير ما يحقق طموحاته، فأخذ يبحث عن مكان آخر يمكن أن يحقق فيه ما تصبو نفسه إليه، فترك مكة بعد ستة أشهر من نهاية الحصار الأول ووصل العراق في رمضان 64هـ واستطاع عن طريق ادعائه نصرة آل البيت ورفع شعار الأخذ بثأر الحسين أن يجتمع حوله الأنصار والمؤيدون والناقمون على حكم بني أمية، واستطاع أن يستولي على الكوفة[7]، وكان المختار على علم بما جرى بين ابن الزبير وابن الحنفية في أمر البيعة، وأراد أن يستغل هذا الموقف لصالحه وادعى أنه موفد من محمد ابن الحنفية للأخذ بثأر آل البيت، والواقع أن ابن الحنفية تبرأ من المختار وأنكر أن يكون قد أرسله إلى العراق[8]، ودعت

---

(1) الفتح الرباني للساعاتي (12/ 98) أخبار مكة (2/ 72).

(2) سير أعلام النبلاء (3/ 358).

(3) سير أعلام النبلاء (3/ 367).

(4) مصنف ابن أبي شيبة (15/ 73)، عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 127.

(5) تاريخ خليفة، ص: 262.

(6) تاريخ الطبري نقلاً عن عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 129.

(7) تاريخ خليفة، ص: 263.

(8) الطبقات (5/ 98).

الشيعة بالكوفة إلى ابن الحنفية، فخاف ابن الزبير أن تفتح بذلك جبهة جديدة عليه مما يزيد الأمر خطورة وتعقيداً[1]، وأرسل المختار جيشاً في عام 66هـ إلى مكة في موسم الحج واستطاع أن يخلص ابن الحنفية من سجنه، ومنع ابن الحنفية الجيش من قتال ابن الزبير لكونه لا يستحل القتال في الحرم[2]، والواقع إن ابن الحنفية أصبح يشكل خطراً على ابن الزبير بعد وصول نجدة العراق وتروي المصادر أنه كان لابن الحنفية لواء في الحج ينافس فيه لواء ابن الزبير[3]، أما بالنسبة لابن الزبير فقد أحس أن مصدر قوة ابن الحنفية يكمن في مساندة المختار ابن أبي عبيد له، ولذلك فكر في القضاء عليه، فأرسل أخاه مصعباً والياً على البصرة، وأمره أن يقاتل المختار وفعلاً استطاع مصعب بن الزبير أن يقضي على المختار في الرابع عشر من رمضان سنة 67هـ[4] أدى مقتل المختار إلى تضعضع موقف ابن الحنفية بمكة، ويروي ابن سعد أن ابن الزبير أرسل إلى ابن الحنفية أخاه عروة يطلب منه أن يبايع وهدده بالحرب إن هو أصر على رفض البيعة[5]. ولاحت لابن الحنفية في هذه الأثناء فرصة رأى فيها مخرجاً من ضغوط ابن الزبير تمثلت في دعوة عبد الملك بن مروان له بأن يقدم إلى الشام، فاغتنم ابن الحنفية هذه الفرصة وتوجه إلى الشام هو وأتباعه، واختاروا المقام بأيلة[6]، وهذه البلدة وإن كانت من بلاد الشام منطقة نفوذ عبد الملك بن مروان إلا أنها في أطرافها نحو الحجاز وأصبح تقريباً في منطقة بعيدة عن الاثنين معاً، ولكن اتضح أن نوايا عبد الملك لم تكن تختلف عن نوايا ابن الزبير، فعرض عليه البيعة مقابل أموال وأعطيات سخية أو الخروج من بلاد الشام، وآثر ابن الحنفية الخروج على البيعة حيث اشترط ذلك على ابن الزبير من قبل. وأراد ابن الحنفية العودة إلى مكة ولكن ابن الزبير منعه من دخولها فتوجه بمن معه إلى الطائف وقيل المدينة وبقي بها إلى أن قتل ابن الزبير سنة 72هـ[7].

2 - بيعة ابن الزبير في العراق:

أدت وفاة يزيد بن معاوية إلى اضطراب الوضع في العراق ونشوب النزاع بين قبائله المختلفة حول السلطة، وهرب عبيد الله بن زياد إلى الشام، وخرج الخوارج قبل هروبه من السجن وبدأوا بإشاعة الفوضى والفساد، وبعد فتن وقتال اتفقت القبائل بالبصرة على أن يتولى

(1) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 130.
(2) أنساب الأشراف نقلاً عن عبد الله بن الزبير، ص: 131.
(3) الطبقات (5/ 3) تاريخ خليفة، ص: 263.
(4) تاريخ خليفة، ص: 264، عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 131.
(5) الطبقات (5/ 106).
(6) أيلة : مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام.
(7) الطبقات (5/ 107، 108).

عبد الله بن الحارث بن نوفل بن عبد المطلب الأمر[1]، ثم شرع ابن الزبير في تعيين نوابه بعد بيعة أهل البصرة له إلى أن استقر على ولايتها أخوه مصعب وعين أهل الكوفة عامر بن مسعود ابن خلف القرشي[2] وكتبوا بذلك إلى ابن الزبير فأقره. وهذا التصرف يعد في حقيقته إقرار أهل الكوفة بخلافة ابن الزبير[3]، وتعامل أهل البصرة وأهل الكوفة مع ابن الزبير، كخليفة للمسلمين[4]، وقد ساعدت عوامل عديدة على نشر بيعة ابن الزبير بالعراق، من أهمها، الفراغ السياسي في السلطة، بعد وفاة يزيد بن معاوية، وهروب عبيد الله بن زياد إلى الشام، كما أن التنافس القبلي على السلطة، واشتداد شوكة الخوارج وتهديدهم للأمن ساهم في حث أهل العراق على توحيد كلمتهم والانضواء تحت لواء ابن الزبير[5].

3 - بيعة ابن الزبير في الشام:

بعد وفاة معاوية بن يزيد وفي مناخ الشام المشوب بالفوضى والاضطراب وجدت بيعة ابن الزبير منفذاً لها في بلاد الشام، لاسيما وأن أخبار صمود ابن الزبير أمام جيش الحصين بن نمير في الحصار الأول، وبيعة أهل الحجاز له، قد تنامت إلى بلاد الشام، ويصور لنا البلاذري موقف أهل الشام من بيعة ابن الزبير في تلك الظروف فيقول: فلما مات معاوية بن يزيد - مال أكثر الناس إلى ابن الزبير وقالوا: هو رجل كامل السن، وقد نصر أمير المؤمنين عثمان بن عفان، وهو ابن حواري رسول الله ﷺ، وأمه بنت أبي بكر بن أبي قحافة وله فضل في نفسه ليس لغيره، وتكاد تجمع المصادر على بيعة جميع أقاليم أهل الشام ما عدا الأردن، فقد بايع زفر بن الحارث الكلابي[6] بقنسرين، وبايع النعمان بن بشير الأنصاري[7]، بحمص، واستطاع نائل بن قيس الجذامي[8] أن يسيطر على فلسطين ويدعو فيها لابن الزبير، ودعا الضحاك بن قيس الفهري لابن الزبير في دمشق[9]، وعين ابن الزبير الضحاك بن قيس والياً على الشام[10]، وهذه هي أهم الأقاليم التي بايعت ابن الزبير.

---

(1) تاريخ خليفة، ص: 258، عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 135.
(2) أنساب الأشراف (1/ 400) عبد الله بن الزبير، ص: 134.
(3) عبد الله بن الزبير، ص: 134.
(4) تاريخ الطبري نقلاً عن عبد الله بن الزبير، ص: 136.
(5) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 136.
(6) الأعلام للزركلي (3/ 45).
(7) الأعلام للزركلي (8/ 36).
(8) المصدر نفسه (7/ 343).
(9) الطبقات (5/ 38) الإعلام (2/ 244).
(10) أنساب الأشراف (5/ 132) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 141.

4 - موقف الخوارج من بيعة ابن الزبير:

تحالف الخوارج مع ابن الزبير في الدفاع عن مكة حتى وفاة يزيد، فلما زال الخطر، دخل عليه قادتهم فأرادوا معرفة رأيه في عثمان بن عفان ﷺ، فأجابهم فيه بما يسوءهم وذكر لهم ما كان متصفاً به من الإيمان والتصديق، والعدل والإحسان والسِّيرة الحسنة والرُّجوع إلى الحق إذا تبين له، فعند ذلك نفروا منه وفارقوه وقصدوا بلاد العراق وخراسان، فتفرقوا فيها بأبدانهم وأديانهم ومذاهبهم ومسالكهم المختلفة المنتشرة التي لا تنضبط ولا تنحصر، لأنها مفرّعة على الجهل وقوة النُّفوس والاعتقاد الفاسد، ومع هذا استحوذوا على كثير من البُلدان[1]، وتصدّى لقتالهم الفارس الهمام، البطل الكبير المهلب بن أبي صفرة، فقد كتب ابن الزبير له بأن يتولى حربهم فاستجاب لذلك، وكان على رأس الخوارج الأزارقة نافع بن الأزرق واستطاع المهلب أن يهزمهم وقتل أميرهم نافع بن الأزرق وانهزمت الخوارج نحو فارس[2]، وتسربت شائعات إلى أهل البصرة بأن المهلب قتل، فاضطرب المصر وهمّ أميرهم الحارث بن أبي ربيعة أن يهرب، وأقبل البشير إلى أهل البصرة بسلامة المهلّب، فاستبشروا بذلك واطمأنّوا وأقام أميرها بعد أن همّ بالهرب، وبلغ عبد الله بن الزبير ما كان من عزم عامله بالبصرة من الهرب، فعزله وولى أخاه مصعباً، فسار مصعب حتى قدمها وتولّى أمر جميع العراقين وفارس والأهواز، ومما قيل من الأشعار في قتال المهلب للخوارج الأزارقه:

إنّ ربًّا أنجى المهلَّب ذا الطول ... لأهلٌ أن تحمدوه كثيراً
لايزال المهلّب بن أبي صفرة ... ما عاش بالعراق أميراً[3]

وقال رجل من الخوارج في قتل نافع بن الأزرق:

إن مات غير مداهن في دينه ... ومتى يمر بذكر نار يصعق
والموت أمر لا محالة واقع ... من لا يصبحه نهاراً يطرق
فلئن منينا بالمهلب إنّهُ ... لأخو الحروب وليث أهل المشرق[4]

المبحث الثاني

خروج مروان بن الحكم على ابن الزبير

أولاً: اسمه ونسبه وحياته قبل خروجه على ابن الزبير:

هو مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، الملك أبو عبد

(1) البداية والنهاية (11/ 667، 668).
(2) الأخبار الطوال، ص: 249، 250.
(3) المصدر نفسه، ص: 251.
(4) المصدر نفسه، ص: 251.

الملك القرشي الأموي[1]، يكنى أبا القاسم وأبا الحكم، ولد بمكة وهو أصغر من ابن الزبير بأربعة أشهر، روى عن عمر وعثمان وعلي وزيد وروى عنه سهل بن سعد، وسعيد بن المسيب، وعلي بن الحسين، وعروة، وأبو بكر بن عبد الرحمٰن، وعبيد الله بن عمر، ومجاهد ابن جبر، وابنه عبد الملك. وكان كاتب ابن عمه عثمان ودافع عن عثمان يوم الدار، وسأل عنه علي بن أبي طالب يوم الجمل وقال: يعطفني عليه رحم ماسة، وهو مع ذلك سيد من شباب قريش[2]، وكان يتتبع قضاء عمر[3]، وتولى ولاية المدينة في عهد معاوية وكان الحسن والحسين يصليان خلف مروان ولا يعيدان[4]، وكان إذا وقعت معضلة - أثناء ولايته على المدينة - جمع من عنده من الصحابة فاستشارهم فيها، وهو الذي جمع الصيعان فأخذ بأعدلها، فنسب إليه فقيل صاع مروان[5]، وكان ذا شهامة وشجاعة ومكر ودهاء[6]، وقد ذكرت شيئاً من سيرته في كتابي عن عثمان بن عفان ﷺ وكان شديد الحب لبني أمية، متحمساً لبيعة يزيد بن معاوية ولما توفي يزيد خرج مروان وبنو أمية من المدينة إلى الشام بصحبة الجيش الأموي الراجع من حصار مكة الأول وكان خروج بني أمية برغبتهم[7]، ولم يبايع مروان ابن الزبير والتف زعماء القبائل وبنو أمية الموجودين بالشام حوله وبايعوه، وكان يحمل بين جنبيه طموحات للزعامة وكانت هذه الطموحات مع رغبته في بقاء الخلافة في البيت الأموي هو الدافع لخروجه على ابن الزبير، وخير دليل على ذلك إقدامه على مبايعة ابنيه من بعده عبد الملك، وعبد العزيز - بولاية العهد[8]، وهناك روايات تذكر أن مروان بن الحكم كان قد عزم على مبايعة ابن الزبير لولا أن تدخل عبيد الله بن زياد وغيره في آخر لحظة وثنوه عن عزمه وأقنعوه أن يدعو لنفسه[9]، والواقع وإن كنا لا نستبعد أن يكون مروان قد فكر في ذلك الأمر لاسيما بعد انتشار بيعة ابن الزبير في معظم الأقاليم مع تفرق كلمة بني أمية في بلاد الشام، وضعف موقفهم إلا أننا لا نعتبر ذلك مناقضاً لما ذهبنا إليه، لأن العبرة ليست فيما عزم عليه مروان بن الحكم، وإنما في الموقف الذي اتخذه وهو رفض بيعته لابن الزبير ومحاربته[10] والخروج عليه، ولقد سار مروان في محاربته لابن الزبير على الخطوات التالية:

1 - القضاء على أنصار ابن الزبير بالشام، وأهم الأحداث بالشام كان مؤتمر الجابية ومعركة مرج راهط.

---

(1) سير أعلام النبلاء (3/ 476).
(2) المصدر نفسه (3/ 477).
(3) المصدر نفسه (3/ 477).
(4) المصدر نفسه (3/ 478).
(5) البداية والنهاية، نقلاً عن العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 140.
(6) سير أعلام النبلاء (3/ 477).
(7) عبد الله بن الزبير للخراسي، ص: 146.
(8) الطبقات (5/ 226)، عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 151.
(9) الطبقات (5/ 40) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 152.
(10) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 152.

2 - إعادة مصر إلى الأمويين.
3 - محاولة إعادة العراق والحجاز.
4 - تولية العهد لعبد الملك وعبد العزيز.

ثانياً: القضاء على أنصار ابن الزبير بالشام وأهمية مؤتمر الجابية ومعركة مرج راهط:

بدأ مروان بن الحكم - بعد أن تزعم المعارضة الأموية - بتوحيد صفوفه والدخول في صراع ضد ابن الزبير، ولم يبدأ مروان بمواجهة ابن الزبير في الحجاز وإنما لجأ إلى انتزاع الأقاليم البعيدة وذلك ليحسر نفوذه أولاً ومن ثم يتيسر له القضاء عليه[1]، وجاء مروان بن الحكم إلى الحكم بعد عقد مؤتمر الجابية لأهل الشام، ولأهمية مؤتمر الجابية إليك تفصيل ما جرى فيه:

1 - مؤتمر الجابية:

ظلت الأردن موطن الكلبيين على ولائها للأسرة الأموية، وكان بعض زعماء الشام حريصاً على الاحتفاظ بالخلافة في الشام دون غيرها، ومثال ذلك الحصين بن نمير الذي عرض على ابن الزبير مبايعته بشرط الانتقال للشام، ويبدو أن تمسك بعض زعماء أهل الشام باستمرار دمشق مركزاً للخلافة لم يكن أمراً عاطفياً غير مبرر، بل كان يستند إلى قناعة أكيدة، أثبتت الأيام صدقها، بمقدرة أهل الشام على تحقيق الحسم التاريخي، وبعمق الالتحام بين بنائها القبلي اليماني، والوجود الأموي بها، رغم ما تعرضت له الوحدة القبلية لأبناء الشام من هزات عنيفة وتشقق مريع، حيث أفرزت الأحداث السياسية السريعة آنذاك صراعاً عنيفاً بين القبائل القيسية واليمانية ظل يرسل انعكاساته على الحياة السياسية بعد ذلك، فقد بايع القيسيون في شمال الشام ابن الزبير المرشح الوحيد الظاهر القوة والقبول في هذه المرحلة، وازدادت قوة القيسيين بانضمام الضحاك بن قيس الفهري إليهم، وهو الرجل الذي أمضى تاريخه كله في الشام وفي خدمة معاوية وابنه يزيد، والذي كان يُشرف آنذاك على شئون دمشق منذ وفاة معاوية الثاني، بينما تشبث الكلبيون رغم الضعف الظاهري لمواقفهم في ظل هذه البيعة الجماعية لابن الزبير حتى من إخوانهم الشماليين والمصاهرة بينهم وبين الأمويين منذ تزوج معاوية منهم[2] وتربى فيهم يزيد[3].. ولكن الكلبيين فيما عدا ذلك يختلفون فبينما يهوى بعضهم البيعة لخالد بن يزيد بن معاوية، وهو غلام صغير السن، يستنكف بعضهم من البيعة لغلام، في الوقت الذي يدعو فيه الآخرون إلى شيخ قريش عبد الله بن الزبير - ويفضل هذا

---

(1) عبد الله بن الزبير، ص: 152.
(2) تاريخ الطبري (6/ 246).
(3) المصدر نفسه (6/ 246).

الفريق البيعة لمروان بن الحكم، وبعد محاولات لرأب الصدع بين القيسية واليمنية اتفق الطرفان على الالتقاء في الجابية[1] للتشاور والاتفاق، فسار الكلبيون والأمويون إلى هناك، على حين غلب بعض أنصار ابن الزبير الضحاك بن قيس على رأيه فأطاعهم ومال نحو مرج راهط[2].

أ - الممارسة الشورية في مؤتمر الجابية: في الجابية عقد الكلبيون مؤتمرهم وتشاوروا في أمر البيعة والخلافة، وكان مؤتمر الجابية مؤتمراً تاريخياً يمكن أن يوصف باللغة السياسية بأنه كان مؤتمراً دستورياً، وقد حضره أصحاب الشوكة والقوة والرأي من أهل الشام وتمت الدعوة إليه بالرضا من عناصر أهل الشام المؤثرة في القرار المصيري ونستطيع أن نلاحظ صورة لهذه التجربة الشورية النادرة حين نتصور أن أسماء المرشحين الآخرين للخلافة غير بني أمية قد عرضت للبحث، ولكن رجحت كفة مروان لعوامل كما يصور ذلك روح بن زنباع الجذامي أحد زعماء الشام. حيث قال: أيها الناس إنكم تذكرون عبد الله بن عمر بن الخطاب وصحبته من رسول الله، وقدمه في الإسلام، وهو كما تذكرون، ولكن ابن عمر رجل ضعيف، وليس بصاحب أمة محمد الضعيف، وأما ما يذكر الناس من عبد الله بن الزبير ويدعون إليه من أمره، فهو والله كما يذكرون، إنه لابن الزبير، ، حواري رسول الله وابن أسماء ابنة أبي بكر الصديق، ذات الناطقين، وهو بعد كما تذكرون في قدمه وفضله، ولكن ابن الزبير منافق قد خلع خليفتين، يزيد وابنه معاوية بن يزيد، وسفك الدماء وشق عصا المسلمين، وليس بصاحب أمر أمة محمد منافق، وأما مروان بن الحكم فوالله ما كان في الإسلام صدع قط إلا كان مروان بن الحكم ممن يشعب ذلك الصدع، وهو الذي قاتل عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان يوم الدار، وهو الذي قاتل علي بن أبي طالب يوم الجمل، وإنا نرى للناس أن يبايعوا الكبير، ويستشبّوا الصغير، يعني بالكبير مروان بن الحكم وبالصغير خالد بن يزيد بن معاوية، فاجتمع رأي الناس على البيعة لمروان ومن بعده لخالد بن يزيد، ثم لعمرو بن سعيد بن العاص بعد خالد[3]، فكانت تلك المعادلة هي التي جمعت بين مختلف الآراء وأرضت جميع الاتجاهات[4]، وقد دارت نقشات كثيرة، وكان العديد من زعماء القبائل وقادة بني أمية قد حضروا. ومن هؤلاء الزعماء: حسان بن مالك بن بحدل الكلبي والحصين بن نمير السكوني، وروح بن زنباع الجذامي[5]، ومالك بن هبيرة السكوني، وعبد الله بن مسعدة الفزاري، وعبد الله بن عضاة

---

(1) الجابية : بلدة من أعمال دمشق من ناحية الجولان، الحموي (33/ 33).

(2) تاريخ الطبري نقلاً عن الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 266.

(3) تاريخ الطبري (6/ 472).

(4) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 296.

(5) تاريخ الطبري (6/ 472).

الأشعري، وغيرهم من الشخصيات المؤثرة[1] والمعارضة لابن الزبير، وقد قلبت آراء عديدة وكثيرة حتى استقر الرأي على مروان[2]، ولم يمتنع مروان عن تقديم امتيازات لقبائل كلب وكندة لكي يستميلهم، وكانت له اتفاقات سرية وخاصة مع بعض الزعماء مما كان له الأثر الكبير في كسب المؤيدين له، فمروان خطط واستطاع بشتى الطرق الوصول إلى الحكم في بلاد الشام رغم الظروف الصعبة آنذاك[3].

ب - أهم قرارات مؤتمر الجابية: كانت أهم قرارات مؤتمر الجابية، عدم مبايعة ابن الزبير، استبعاد خالد بن يزيد من الخلافة لأنه غلام والعرب لا تحب مبايعة الأطفال من ناحية، ومن الناحية الأخرى هم الآن في أزمة وهم أحوج إلى الرجل المجرب الخبير علّه يقودهم إلى النصر وينقذهم من وضعهم المتدهور، مبايعة مروان بن الحكم وهو الشيخ المحنك، أن يتولى الخلافة بعد مروان على هذا الشرط شفوياً، الاستعداد لمجابهة وقتال المخالفين، اتباع ابن الزبير في الشام بادي الأمر[4]

جـ - زعامة مروان لمعارضي أهل الشام قامت على الشورى: قامت زعامة مروان لمعارضي ابن الزبير على أساس الشورى، إذ انتخب بالاختيار الحر من الذين شهدوا المؤتمر وهم أهل الحل والعقد والشوكة والقوة في الشام، وبويع بإجماع الحاضرين، فكانت طريقة توليته شورية دستورية اتخذتها المعارضة لتقوية صفها، وبذلك صار في العالم الإسلامي إذ ذاك خليفتان عبد الله بن الزبير الخليفة الشرعي والمنتخب من قبل الأغلبية الساحقة للأمة، والزعيم المعارض لابن الزبير والمنتخب من أهل الشوكة والقوة في عاصمة الخلافة ولما كان لابد من توحيد الدولة الإسلامية فقد كان على أحدهما أن يتغلب على الآخر ويتم التوحيد ويجمع كلمة الأمة، فكانت الحروب والمعارك الطاحنة فيما بعد حتى استقر الأمر لعبد الملك بن مروان بعد مقتل الخليفة الشرعي عبد الله بن الزبير رضي الله عنه، ويبدو أن أهل الشام الذين عارضوا ابن الزبير واجتمعوا بالجابية قد ذهبوا إلى أن بيعة أهل الشوكة والقوة من عاصمة الخلافة ملزم لبقية الأقطار والأمصار كلها وعلى الآخرين أن يسلموا لمن بايعوه لئلا ينتشر الأمر باختلاف الآراء وتباين الأهواء[5]، وقد نسب ابن حزم هذا الرأي لأهل الشام قائلاً: كانوا قد ادعوا ذلك لأنفسهم حتى حملهم ذلك على بيعة مروان وابنه عبد الملك واستحلوا بذلك دماء أهل الإسلام[6].

---

(1) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 147.
(2) تاريخ الطبري (6/ 471، 472).
(3) الدور السياسي لأهل اليمن في الشام، إسماعيل الجبوري، ص: 46، 47.
(4) عبد الله بن الزبير للناطور، ص: 132.
(5) الأحكام السلطانية للماوردي، ص: 6.
(6) الفصل في الملل والنحل (4/ 168).

والصحيح بالنسبة لعهد ابن الزبير هو الأخذ بمبدأ الأكثرية أو الأغلبية، وإن كان حجية إقرار بيعة أهل عاصمة الخلافة أخذ به في بيعة الصديق والفاروق وذي النورين والحسن بن علي، إلا أن الأمور قد تغيرت كثيراً، فالأخذ بمبدأ الأكثرية للترجيح في تنازع قد قرره الإمام الغزالي حيث قال: يتم الترجيح بينهم بتقديم من انعقدت له البيعة من الأكثر والمخالف للأكثر باغ يجب رده إلى الانقياد إلى الحق[1]. وذلك هو الرأي الذي نؤيده، لأن حسم النزاع بترجيح أكثرهم حوزاً لرضا المسلمين هو ما يقضي به مبدأ حق الأمة الإسلامية في اختيار الخليفة[2]، فضلاً عن الأدلة الشرعية المؤكدة لترجيح رأي الأكثرية أو الأغلبية نذكر منها: إن الرسول ﷺ قد أخذ بما انعقد عليه رأي أغلبية المسلمين وإن بدا مخالفاً لرأيه، وذلك حيث علم بتحريك قوات المشركين في اتجاه المدينة لحربهم، فاستشار المسلمين فرأى فريق منهم وكان أكثرهم الخروج إليهم، وفريق آخر رأى ما رآه الرسول نفسه وهو أن يظلوا بالمدينة، فلما رأى الرسول أن رأي الأغلبية مع الخروج أخذ برأيهم ووافق على الخروج للمشركين في أحد[3]، وغير ذلك من الأدلة، وقد أخذ مشروع الدستور الإسلامي الذي أعده مجمع البحوث الإسلامية والأزهر بفكرة الإلزام برأي الأغلبية حيث نصت المادة (46) منه على أن تكون البيعة بالأغلبية المطلوبة لأصوات المشتركين في البيعة[4].

2 - معركة مرج راهط:

تمخَّض مؤتمر الجابية عن انتقال الخلافة الأموية من البيت السفياني إلى البيت المرواني، وانعقدت البيعة لمروان وحل مؤتمر الجابية، مشكلة الخلافة بين بني أمية - وكانت هذه خطوة حاسمة، ولكن لم يكن تثبيت هذا الأمر سهلاً فلا زالت تعترضه صعوبات كبيرة، فالضحاك بن قيس، زعيم القيسيين المناصر لابن الزبير قد ذهب إلى مرج راهط وانضم إليه النعمان بن بشير الأنصاري والي حمص وزفر بن الحارث الكلابي، أمير قنسرين، وكان واضحاً أنهم يستعدون لمواجهة الأمويين فكان على مروان أن يثبت أنه أهل للمسئولية وحمل أعباء الخلافة، والدفاع عنها وقد حقق أنصار مروان أول نجاح لهم بالاستيلاء على دمشق وطرد عامل الضحاك عنها، وكان أول فتح على بني أمية على حد تعبير ابن الأثير[5] ولم يضيع مروان وقتاً، فقد عبأ أنصاره من قبائل اليمن في الشام. كلب وغسان والسكاسك والسكون، وجعل على ميمنته، عمرو بن

---

(1) الفصل في الملل والنحل (4/ 168).
(2) نظام الحكم في الإسلام، د. أحمد عبد الله، ص: 131.
(3) المصدر نفسه، ص: 131.
(4) نحو دستور إسلامي، محمد سيد أحمد، ص: 173، نظام الحكم في الإسلام، د. أحمد عبد الله، ص: 132.
(5) الكامل لابن الأثير (2/ 618).

سعيد، وعلى ميسرته عبيد الله بن زياد، واتجه إلى مرج راهط، فدارت المعركة الشهيرة التي حسمت الموقف في الشام لبني أمية ومروان حيث هزم القيسيون، أنصار ابن الزبير، وقتل الضحاك بن قيس، وعدد كبير من أشراف قيس في الشام، واستمرت المعركة حوالي عشرين يوماً، وكانت في نهاية سنة 64 هـ، وقيل في المحرم سنة 65 هـ[1].

أ - نتائج مرج راهط: - أعادت هذه المعركة الملك لبني أمية بعد أن كان مهدداً بالزوال، وحوّلت السلطة من الفرع السفياني إلى الفرع المرواني.

- تخلص الأمويين من الضحاك بن قيس الذي كان يعتبر معارضاً قوياً للأمويين، وتابعاً مخلصاً لابن الزبير.

- سقطت قنسرين في يد الأمويين وهرب واليها زفر بن الحارث فتوجه إلى قرقيسيا وكان عليها عياض الحرثي حسب قول ابن الأثير.

- سقطت فلسطين وهرب ناتل بن قيس الجذامي إلى ابن الزبير.

- سقطت حمص وقتل واليها النعمان بن بشير[2].

- اندلع الصراع بين اليمنية والقيسية ودخلت العصبية القبلية مسرح السياسة العليا للدولة وإذا كان يوم مرج راهط قد انتصر فيه الكلبيين فقد كان نصراً مؤقتاً، وكان الصراع بين العصبتين القيسية واليمنية من أسباب انهيار الدولة الأموية[3].

ب - أسباب هزيمة القيسيين: لم يرم ابن الزبير بثقله في تلك المعركة وكان عليه أن يجيش الجيوش ويمد أتباعه بالرجال والأموال والسلاح ليقضي على المعارضين بالشام عندما كانت المعارضة لم توحد صفوفها بعد.

- اعتماد مروان على رجال دهاة خبراء في الحرب من أمثال حصين بن نمير وعمرو بن سعيد.

- عدم اشتراك أتباع ابن الزبير في الشام كلهم، فقد شارك ولاة الشام التابعين لابن الزبير بأعداد من الجنود فقط.

- ترك الضحاك مدينة دمشق بدون قوة تستطيع المحافظة عليها رغم أهميتها، وهذا سهل للأمويين الاستيلاء عليها وعلى ما فيها من أموال مكنت الأمويين من الاستفادة من هذا الخطأ[4].

---

(1) تاريخ الطبري (6/ 473)، العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 143.

(2) الكامل لابن الأثير (2/ 618) ابن الزبير للناطور، ص: 137.

(3) تاريخ خلافة بني أمية، نبيه عاقل، ص: 130.

(4) عبد الله بن الزبير للناطور، ص: 138.

جـ - بكاء مروان بن الحكم في مرج راهط: وروي أن مروان بن الحكم لما جيء برأس الضحاك إليه ساءه ذلك وقال: الآن حين كبرت سني ودق عظمي، وصرت في مثل ظمء الحمار[1]، أقبلت بالكتائب أضرب بعضها ببعض[2] وروي أنه بكى على نفسه يوم مرج راهط[3]: أبعد ما كبرت وضعفت صرت إلى أن أقتل بالسيوف على الملك[4] وفي رواية عن مالك قال: قال مروان: قرأت كتاب الله منذ أربعين سنة، ثم أصبحت فيما أنا فيه من إهراق الدماء، وهذا الشأن[5]. إن ندم مروان في مثل هذا الموقف وبعد أن تحقق له، وتأكدت له طرق الحكم، وتمهدت له سبل الوصول إلى غايته لدليل قاطع على ما كان يجيش به قلب مروان من عامل الخير، لقد كان هذا النصر جديراً أن ينسيه كل منغصات الحياة، وكان فوزه بالخلافة حقيقاً بأن ينفي عنه كل ما يسبب له الندم، ويعكر له الصفو، فما بال مروان يندم وهو في هذه الظروف التي تزيل الهم عن النفس وتبعد الندم[6]، لطالبي الملك والزعامة والسلطان وأغلب الظن أنه تورط في طلبه للخلافة، ودفعه إلى هذا المستنقع الآسن أناس لهم مصالح دنيوية لا تخفى، فشعر بوخز الضمير وخاف على نفسه من سوء الخاتمة بعد أن ولغت يده في دماء المسلمين من أجل الحطام الزائل.

ثالثاً: ضم مصر إلى الدولة الأموية ومحاولة إعادة العراق والحجاز:

مكّن انتظار مروان في معركة مرج راهط لدولته في الشام فبسط نفوذه عليها، وكانت خطواته التالية المسير إلى مصر لاستردادها من عامل ابن الزبير، وكانت هذه خطوة تدل على ذكاء مروان، فلمصر أهميتها الكبيرة واستيلاؤه عليها يدعم موقفه في مواجهة ابن الزبير، ولم يكن استيلاؤه عليها صعباً، فمعظم المصريين هواهم مع بني أمية، وبيعتهم لابن الزبير لم تكن خالصة وإنما كانت بيعة ضرورة[7]، ودعا مروان شيعة بني أمية بمصر سراً[8]وهذا ما يفسر سهولة استيلاء مروان على مصر فقد سار إليها بجيشه، ومعه عمرو بن سعيد، وخالد بن يزيد ابن معاوية وحسان بن مالك ومالك بن هبيرة وابنه عبد العزيز [9]، ودارت بين مروان وابن جحدم عدة معارك انتصر فيها مروان وهرب ابن جحدم، ثم جاء إلى مروان طالباً العفو على أن يخرج إلى مكة، فعفا عنه، وكان نجاح مروان في استرداد مصر من جمادى الآخرة سنة 65هـ[10]، وأقام في مصر شهرين لترتيب الأوضاع والاطمئنان عليها، ولما عزم على العودة

---

(1) تاريخ الطبري (6/ 474).
(2) المصدر نفسه (6/ 474).
(3) البداية والنهاية (11/ 676).
(4) المصدر نفسه (11/ 676).
(5) سير أعلام النبلاء (3/ 479).
(6) الأمويون محمد الوكيل (1/ 307).
(7) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 144.
(8) الولاة والقضاء للكندي، ص: 41 - 42.
(9) المصدر نفسه، ص: 42.
(10) المصدر نفسه، ص: 41، العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 144.

إلى الشام عين ابنه عبد العزيز والياً عليها، وأوصاه وصية تدل على حنكة سياسية، وخبرة واسعة، وكان عبد العزيز قد توجس وأخذته وحشة من بقائه في مصر فقال لأبيه: يا أمير المؤمنين كيف المقام ببلد ليس به أحد من بني أبي؟ فقال له: يا بني عمهم بإحسانك يكونوا كلهم بني أبيك واجعل وجهك طلقاً تصف لك مودتهم، وأوقع إلى كل رئيس منهم أنه خاصتك دون غيره، يكن لك عيناً على غيره، وينقاد قومه إليك وقد جعلت معك أخاك بشراً مؤنساً، وجعلت موسى بن نصير وزيراً ومشيراً وما عليك يا بني أن تكون أميراً بأقصى الأرض، أليس أحسن من إغلاق بابك وخمولك في منزلك[1]؟ بعد رجوع مروان بن الحكم قافلاً من مصر أقدم على تجهيز حملتين ضد ابن الزبير في محاولة منه لإعادة العراق والحجاز، فكانت الحملة ضد العراق بقيادة عبيد الله بن زياد وكانت مهمتها الأولى هي محاصرة زفر بن الحارث الكلابي والتخلص منه ثم التقدم نحو العراق، حيث مصعب بن الزبير ولكن هذه الحملة لم تحقق شيئاً من أهدافها في عهد مروان إذ سارع إليه الأجل وتوفى وهي في طريقها لمحاصرة زفر بن الحارث في قرقيسيا وعند مجيء عبد الملك أقر هذه الحملة التي سوف نعرض للحديث عنها فيما بعد، أما ما يتعلق بالحجاز فقد جهز مروان جيشاً من فلسطين يقدر بستة آلاف وأربعمائة فارس بقيادة حبيش بن دلجة القيني، وكان في الجيش الحجاج بن يوسف ووالده، اتجه هذا الجيش نحو الحجاز ولما وصل إلى وادي القرى هرب عامل ابن الزبير على المدينة[2]، واستمرت الحملة إلى عهد عبد الملك بن مروان[3].

رابعاً: تولية العهد لعبد الملك ووفاة مروان بن الحكم:

ختم مروان بن الحكم أعماله بعقد البيعة لولديه عبد الملك بن مروان وعبد العزيز بن مروان مجسداً لمبدأ التوريث، وكان ذلك قبل وفاته بأقل من شهرين[4]، وبعد نجاحه بإعادة مصر إلى الحكم الأموي، بدأ مروان بالتخطيط لاستبعاد خالد بن يزيد وعمرو بن سعيد الأشدق من ولاية العهد الذي قرر في مؤتمر الجابية، فتزوج أم خالد بن يزيد وعمل للحصول على موافقة حسان بن مالك بن بحدل الكلبي بتولية العهد لولديه وإبعاد خالد بن يزيد وعمرو بن سعيد الأشدق فوافقه حسان على ذلك، وقد كان عمرو بن سعيد الأشدق هو الذي كان يطالب بولاية العهد بعد مروان وأعلن ذلك بعد رجوعه من قتال مصعب بن الزبير عندما حاول إعادة ناتل بن قيس الجذامي إلى فلسطين[5]، مما دعا مروان بن الحكم إلى أن يعهد لابنيه عبد الملك وعبد

(1) الولاة والقضاة، ص: 47.
(2) أنساب الأشراف (5/ 50 - 151) الدور السياسي لأهل اليمن، ص: 57.
(3) الدور السياسي لأهل اليمن، ص: 57، عبد الملك للريس، ص: 60.
(4) عبد الملك بن مروان، ص: 60 نقلاً عن تاريخ خليفة.
(5) أنساب الأشراف (5/ 149).

العزيز وذلك سنة 65هـ مستعيناً بحسان بن مالك بن بحدل بعد أن أخبره بما يردده عمرو بن سعيد بن الأشدق بأن الأخير هو ولي العهد فقال حسان: أنا أكفيك عمرو. لهذا جمع الناس وخطبهم فبايع الجميع لعبد الملك ثم لعبد العزيز ولم يتخلف أحد[1]، ويعتبر بعض المؤرخين أن من أهم أعمال مروان بن الحكم تولية ولديه ولاية العهد لولديه، وذلك لحفظ الخلافة في البيت المرواني من جهة ولوضع حداً للتنافس على الخلافة بين بني أمية من جهة ثانية، ولتفادي المشاكل التي ربما تحدث بشأن الخلافة، كما حدثت بعد موت معاوية الثاني[2]، والملاحظ أن مروان بن الحكم نقض بعض مقررات مؤتمر الجابية المتعلقة بولاية العهد ولم يلتزم بعهوده وكان راغباً في حصر الخلافة في أبنائه، فآثر إسقاط وعوده ونقضها على المحافظة على طموحاته ورغباته وأوجد معادلة فيها مطامع ومصالح مشتركة مع المعارضين له مما جعلهم يستجيبون لدعوته إلى تولية أبنائه ولاية العهد من بعده، فقد عمل على التحرش بخالد بن يزيد وتعمّد إهانته أمام الآخرين، بغية تحجيمه وإعطاء صورة للناس بعدم صلاحيته للخلافة ثم خطا الخطوة التالية فأخذ البيعة لولديه عبد الملك وعبد العزيز في بداية سنة 65هـ[3]، لقد استطاع مروان بدهائه ومكره وجهوده المتوالية الخروج بأزمة الحكم الأموي من حالة الضياع إلى مركز الصدارة والقيادة، وهذا لم يكن حدثاً عادياً محدود التأثير، وإنما هو عودة جديدة للحكم بعد تثبيته في الشام ومصر من جهة، وتجريد السفيانيين من الخلافة وتحويلها إلى المروانيين من جهة ثانية، ولم يكن ثمة ما يحول دون استمرار التقدم عند ابنه عبد الملك لنزع الخلافة من الخليفة الشرعي عبد الله بن الزبير ثم يتفرغ للقيام بالعديد من الإصلاحات التي جعلته المؤسس والمجدد الحقيقي لمؤسسات الدولة الأموية، وتعميق الحكم العضوض بها مع وجود بعض الحسنات التي لا تنكر للملك الأموي الجديد.

توفي مروان بن الحكم بدمشق لثلاث خلون من شهر رمضان سنة 65هـ وهو ابن ثلاث وستين سنة، وصلى عليه ابنه عبد الملك وكانت مدة حكمه تسعة أشهر وثمانية عشر يوماً ودفن بين باب الجابية وباب الصغير[4]، وكان آخر ما تكلم به مروان: وجبت الجنة لمن خاف النار. وكان نقش خاتمه: العزة لله وفي رواية: آمنت بالله العزيز الرحيم[5]، وقد اختلف في سبب وفاته إذ وردت ثلاث روايات فيها الأولى - ترى أنه توفي بالطاعون[6]؟، وتذهب

(1) الأنساب للبلاذري (5/ 150) الدور السياسي لأهل اليمن، ص: 58.
(2) الدور السياسي لأهل اليمن في الشام، ص: 58.
(3) البداية والنهاية (11/ 715).
(4) المصدر نفسه (11/ 714).
(5) المصدر نفسه (11/ 713).
(6) مروج الذهب (3/ 89) الدور السياسي لأهل اليمن في الشام، ص: 59.

الأخرى إلى أن زوجته أم خالد بن يزيد سقته سماً فمات أو وضعت وسادته على رأسه حتى مات[1]، وثالثة ترى أنه توفي وفاة طبيعية[2]، إن تناقض الروايات تدل على أن الحقيقة غير معروفة، وأما الرواية التي تتهم زوجته بالقتل تبدو كأنها أسطورة مختلقة ردّدتها الألسن، إما حباً في الثرثرة وإما طعناً في الأسرة الأموية وهذه الرواية غير مقبولة للأسباب الآتية:

1 - أنه لم يعرف عن نساء العرب مثل هذا الفعل فضلاً عن كونها سيدة حرة شريفة تلتقي وإياه في عبد شمس.

2 - مكانة مروان بن الحكم من قومه وتوليته الخلافة يجعل من الصعوبة بمكان الإقدام على مثل هذا الفعل له وذلك للنتائج المترتبة عليه فيما بعد.

3 - لم يظهر أي أثر لهذا الاغتيال في الأسرة الأموية وخاصة بين خالد بن يزيد وعبد الملك بن مروان، مما يدل على أن هذه الرواية غير صحيحة أما الرواية التي تشير إلى موته الطبيعي وإصابته بالطاعون فأنها محتملة لأنه كان قد تجاوز الستين من العمر[3]، فضلاً عن الجهد الذي بذله في أواخر أيامه مما جعل التعويل على موته الطبيعي[4].

المبحث الثالث

عبد الملك بن مروان وصراعه مع ابن الزبير

أولاً اسمه ونسبه وكنيته وشيء من حياته:

1 - اسمه ونسبه وكنيته:

هو عبد الملك بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، أبو الوليد الأموي وأمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية[5].

2 - مولده ووصفه:

كان مولده ومولد يزيد بن معاوية في سنة ستٌ وعشرين، وقد كان عبد الملك قبل الخلافة من العباد الزهاد الفقهاء، الملازمين للمسجد، التالين للقرآن، وكان ربعة من الرجال أقرب إلى القصر، وكانت أسنانه مشبكة بالذهب، وكان أفوه مفتوح الفم، فربَّما غفل فينفتح فمه فيدخل فيه الذباب، فلهذا كان يقال له: أبو الذِّبان وكان أبيض ربعة ليس بالنحيف ولا البادن،

---

(1) مروج الذهب (3/ 89) الدور السياسي لأهل اليمن في الشام، ص: 60.
(2) الطبقات (5/ 226).
(3) الأخبار الطوال، ص: 286.
(4) الدور السياسي لأهل اليمن في الشام، ص: 60.
(5) البداية والنهاية (11/ 377).

مقرون الحاجبين، أشهل[1] كبير العينين، دقيق الأنف، مشرق الوجه، أبيض الرأس واللحية حسن الوجه لم يخضب ويقال: إنه خضب بعد ذلك[2].

3 - طلبه للعلم وعبادته قبل الإمارة وثناء الناس عليه:

قال نافع: لقد رأيت المدينة ما فيها شاب أشدُّ تشميراً، ولا أفقه ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك بن مروان[3]. وقال الأعمش عن أبي الزناد: كان فقهاء المدينة أربعة، سعيد بن المسيِّب، وعروة، وقبيصة بن ذؤيب، وعبد الملك قبل أن يدخل الإمارة[4]، وعن ابن عمر أنه قال: ولد الناس أبناء وولد مروان أباً - يعني عبد الملك[5] - ويقصد ابن عمر أن عبد الملك كان يفوق سنه، ويعلو فوق أقرانه[6]، وعن يحيى بن سعيد قال: أول من صلّى ما بين الظهر والعصر عبد الملك بن مروان وفتيان معه. فقال سعيد بن المسيب: ليست العبادة بكثرة الصلاة والصيام، إنما العبادة التفكر في أمر الله، والورع عن محارم الله[7]. وقد صدق رحمه الله. وقال الشعبي: ما جالست أحداً إلا وجدت لي الفضل عليه إلا عبد الملك بن مروان، فإنّني ما ذاكرته حديثاً إلا زادني فيه، ولا شعراً إلا زادني فيه[8].

4 - تعظيمه لاسم الله تعالى:

روى البيهقي: أن عبد الملك وقع منه فلس في بئر قذرة، فاكترى عليه بثلاثة عشر ديناراً حتى أخرجه منها، فقيل له في ذلك، فقال: إنه كان عليه اسم الله عز وجل[9].

5 - التسبيح والتكبير في الأسفار:

روى ابن أبي الدنيا، أن عبد الملك كان يقول لمن يسايره في سفره إذا رفعت له شجرة سبِّحوا بنا حتى نأتي تلك الشجرة، وكبِّروا بنا حتى نأتي تلك الحجر، ونحو ذلك[10].

6 - هل يصح هجره للقرآن الكريم؟

قيل: إنه لمّا وضع المصحف من حجره قال: هذا آخر العهد منك[11]. وهذه رواية ضعفها ابن كثير ورواها بصيغة التمريض قيل[12]، كما أن عبد الملك قال لمؤدِّب أولاده وهو إسماعيل بن عبيد الله ابن أبي المهاجر:. علمهم الصدق كما تعلمهم القرآن[13].

---

(1) أشهل: أي يشوب سواد عينه زرقة.
(2) البداية والنهاية (11/ 379).
(3) المصدر نفسه (11/ 379).
(4) المصدر نفسه (11/ 379).
(5) المصدر نفسه (11/ 379).
(6) الخلافة الأموية للهاشمي، ص: 116.
(7) المصدر نفسه (11/ 380) البداية والنهاية (11/ 380).
(8) المصدر نفسه (11/ 380)
(9) المصدر نفسه (11/ 385).
(10) المصدر نفسه (11/ 385).
(11) المصدر نفسه (11/ 381).
(12) المصدر نفسه (11/ 381).
(13) المصدر نفسه (11/ 388).

7 - ما آدب هذا الفتى وأحسن مروءته:

روى ابن سعد ما يدل على أن عبد الملك كان محبوباً مرغوباً من عمومته كبار بني أمية، فذكر أنه: كان معاوية بن أبي سفيان جالساً يوماً ومعه عمرو بن العاص رضي الله عنهما، فمر بهما عبد الملك بن مروان فقال معاوية: ما آدب هذا الفتى وأحسن مروءته فقال عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين، إن هذا الفتى أخذ بخصال أربع وترك خصالاً ثلاثاً: أخذ بحسن الحديث إذا حدّث، وحسن الاستماع إذا حُدِّث وبحسن البشر إذا لقي، وخفة المؤونة إذا خولف، وترك من القول ما يعتذر عنه، وترك مخالطة اللئام من الناس وترك ممازحة من لا يوثق بعقله ولا مروءته[1].

8 - وصيته لمؤدب أولاده:

قال عبد الملك لمؤدِّب أولاده - وهو إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر. علمهم الصِّدق كما تعلمهم القرآن، وجنبهم السِّفِلَةَ فإنهم أسوأ الناس رِعة[2]، وأقلهم أدباً، وجنِّبهن الحشم، فإنَّهم بهم مفسدة، وأحفِ شعورهم تغلظ رقابهم، وأطعمهم اللحم يقْوَوا وعلمهم الشعر يمجُدُوا وينجُدُوا ومُرْهم أن يستاكوا عَرْضاً ويمصوا الماء مصًّا ولا يُعبُّوا عبًّا، وإذا احتجت أن تتناولهم بأدب فليكن ذلك في سرٍّ لا يعلم بهم أحد من الحاشية فيهونوا عليهم[3].

9 - موقفه من ابن الزبير قبل الإمارة وبعدها:

فقد كان له من ابن الزبير موقفان متناقضان: أما الأول: فكان قبل أن يتولى الخلافة يستعيذ بالله أن يبعث خليفة إلى مكة جيشاً ليقتل ابن الزبير ومن معه، وكان يرى في ذلك إثماً كبيراً[4]، قال يحيى الغساني: لما نزل مسلم بن عقبة المدينة، دخلت مسجد رسول الله ﷺ فجلست إلى جنب عبد الملك فقال لي عبد الملك: أمن هذا الجيش أنت؟ فقلت: نعم قال: ثكلتك أمك!! أتدري إلى من تسير؟ إلى أول مولود ولد في الإسلام (بعد الهجرة) وإلى ابن حواري رسول الله ﷺ، وإلى ابن ذات النطاقين، وإلى من حنكه رسول الله ﷺ، أما والله لو جئته نهاراً لوجدته صائماً، ولئن جئته ليلاً لوجدته قائماً، فلو أن أهل الأرض أطبقوا على قتله لأكبَّهم الله جميعاً في النار[5]. وأما موقفه الثاني: فكان بعد الخلافة ويأتي عكس الأول تماماً، عندما جهز عبد الملك جيشاً يقوده الحجاج بن يوسف الثقفي، وبعث به إلى مكة حيث كان يتحصن ابن الزبير بالكعبة، وظل محاصراً مكة حتى قُتل عبد الله ابن الزبير[6].

---

(1) الطبقات لابن سعد (5/ 224).
(2) البداية والنهاية (11/ 389) الرعة: قلة الورع.
(3) المصدر نفسه (11/ 389).
(4) الخلافة الأموية للهاشمي، ص: 116.
(5) تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص: 217.
(6) المصدر نفسه.

ثانياً: حياته السياسية قبل الإمارة:

كان أول حادث سياسي أثر في حياته عندما كان عمره عشر سنوات، فقد شهد مقتل عثمان رضي الله عنه ، وكان لهذا الحادث أثر في سياسته لما تولى الإمارة فقد خطب في إحدى خطبه: أيها الناس أنا نحتمل لكم كل اللغوبة ما لم يكن رأيه أو وثوب على منبر[1]. وأول منصب إداري تولاه في الدولة في عهد معاوية بن أبي سفيان، فقد كان عاملاً على هجر[2] ثم تولى ديوان المدينة بعد وفاة زيد بن ثابت[3]، وشارك في الجهاد فقد خرج على رأس حملة إلى أرض الروم ويشتي هناك في سنة 42هـ[4]،كما يذكر أنه غزا إفريقية مع معاوية بن حديج وكلفه بفتح جلولا في بلاد الشمال الإفريقي وفي عهد يزيد كان يقول على ابن الزبير ما على الأرض اليوم خيراً منه[5]، كما أن علاقته بمصعب بن الزبير كانت حسنة، وأما عن دوره السياسي في عهد مروان بن الحكم، فقد تولى فلسطين وكان يبعث نائباً عنه روح بن زنباع[6] ، ويمكن أن يكون ذلك ليبقى في دمشق قريباً من إدارة الدولة لمساعدة والده هناك لاسيما أن الفترة التي تولى فيها والده الحكم كانت الدولة محاطة فيها بالأعداء من الداخل والخارج، وتولى إمرة دمشق عند ذهاب والده لفتح مصر[7]، وهذه المهمة تدل على كفايته الإدارية وحزمه[8].

ثالثاً: العلماء الذين كانوا مع عبد الملك:

بايع بعض العلماء لعبد الملك بن مروان بالشام وكانوا قلة لا يعدون شيئاً أمام العلماء الذين بايعوا ابن الزبير أو الذين اعتزلوا حتى تجتمع الأمة على خليفة، وانحصر وجود هؤلاء في إقليم الشام، وقد ذكر من هؤلاء العالم الجليل قبيصة بن ذؤيب رحمه الله فكان من المبايعين لعبد الملك وأحد المقربين إليه[9]، ومنهم يزيد بن الأسود الجرشي رحمه الله فورد أنه كان مع عبد الملك في خروجه لقتال مصعب بن الزبير وروي عنه أنه حين رأى الجيشين قد التقيا قال: اللهم أحجز بين هذين الجبلين وول الأمر أحبهما إليك[10].

---

(1) الدور السياسي لأهل اليمن في الشام، ص: 64.
(2) المعارف لابن قتيبة، ص: 355، الدور السياسي لأهل اليمن في الشام، ص: 64.
(3) الطبقات (5/ 225).
(4) تاريخ خليفة (1/ 69).
(5) الطبقات (5/ 226).
(6) أنساب الأشراف (5/ 127).
(7) الكامل في التاريخ نقلاً عن الدور السياسي لأهل اليمن، ص: 65.
(8) الدور السياسي لأهل اليمن، ص: 65.
(9) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص: 542.
(10) سير أعلام النبلاء (4/ 137).

رابعاً: حركة التوابين ومعركة عين الوردة ٦٥هـ:

عندما عمّ الاضطراب أنحاء البلاد بعد موت يزيد وفرار عبيد الله بن زياد، شرع أنصار الحسين يتصلون ببعضهم البعض بهدف وضع خطة للثأر لدمه، إذ بعد استشهاده هزتهم الفاجعة وندموا على تقاعسهم عن نصرته، والدفاع عنه، معترفين بخطيئتهم بحماسة شديدة، لذلك لم يجدوا وسيلة يكفرون بها عن هذا التقصير ويتوبون إلى الله بها من هذا الذنب الكبير سوى الثأر للحسين[1]، وأخذ الشيعة يعقدون الاجتماعات برئاسة سليمان بن صرد الخزاعي لدراسة الموقف، وأسلوب العمل الذي سيتبعونه وغلب على هذه الاجتماعات موضوع التوبة والغفران، وثم شرعوا في تجييش الناس، وخرج التوابون من معسكرهم في النخيلة في شهر ربيع الأول 65هـ وهو الموعد الذي حددوه لخروجهم وكانت المحطة الأولى في مسيرتهم الانتقامية في كربلاء حيث بلغوا قبر الحسين فاسترحموا عليه وبكوا وتابوا عن خذلانهم له، وبعد يوم وليلة من البكاء كان الحماس قد أخذ منهم حق العمق، فقرروا السير إلى الشام لقتال عبيد الله بن زياد باعتباره الرجل الذي أصدر الأمر بقتل الحسين، لأنهم وجدوا أنه الطريق الأجدى لتحقيق الانتقام[2]، ومرّ جيش التوابين ببلدة هيت على الفرات ثم صعد مع النهر إلى أن وصل إلى قرقيسياء[3]. وكانت هذه المدينة هي أبعد المناطق في هذا الاتجاه التي اعترفت ولو اسمياً ببيعة ابن الزبير[4]، واستقبل أمير قرقيسياء زفر بن الحارث الكلابي، جيش التوابين بحماسة خاصة وأنه قد جمعت الفريقين مصلحة مشتركة هي مقاتلة الأمويين واقترح زفر عليهم توحيد صفوفهم مع أنصار ابن الزبير، إلا أنهم اعتذروا عن قبول اقتراحه كما رفضوا نصيحته بالعدول عن قرارهم الانتحاري، واكتفوا بالتزود بما يحتاجون إليه من المدينة ثم مضوا إلى مصيرهم[5]، والتقى التوابون بالجيش الأموي في عين الوردة من أرض الجزيرة إلى الشمال الغربي من صفين في عام 65هـ وخاضوا ضده معركة ضارية غير متكافئة بفعل قلة عددهم بالمقارنة مع عدد أفراد الجيش الأموي، أسفرت عن تدميرهم ومقتل زعمائهم باستثناء رفاعة ابن شداد الذي تراجع بالبقية القليلة منهم إلى الكوفة[6]وقد علق الذهبي على سليمان بن صرد زعيم جيش التوابين بقوله: كان ديناً عابداً، خرج في جيش تابوا إلى الله من خذلانهم الحسين

---

(1) الكامل في التاريخ (2/ 635).

(2) تاريخ الطبري نقلاً عن تاريخ الدولة الأموية طقوش، ص: 71.

(3) الكامل في التاريخ (2/ 638).

(4) تاريخ الطبري نقلاً عن تاريخ الدولة الأموية، طقوش، ص: 71.

(5) تاريخ الدولة الأموية طقوش، ص: 72، الكامل في التاريخ (2/ 639).

(6) تاريخ الطبري، نقلاً عن تاريخ الدولة الأموية، ص: 72.

الشهيد، وساروا للطلب بدمه، وسُمُّوا جيش التوابين[1]. وعلق ابن كثير على جيش التوابين بقوله: لو كان هذا العزم والاجتماع قبل وصول الحسين إلى تلك المنزلة لكان أنفع له وأنصر من اجتماعهم لنصرته بعد أربع سنين[2]، وكان عمر سليمان بن صرد رضي الله عنه يوم قتل ثلاثاً وتسعين سنة[3].

والحق أن الإنسان يقف مبهوراً أمام شجاعة التوابين وجرأتهم فقد كان عددهم لا يتجاوز أربعة الآف رجل، وخاضوا هذه المعركة بإيمان صادق، وعقيدة راسخة، وشجاعة نادرة، وصبر فائق، مع عشرين ألف جندي على أقل تقدير من أهل الشام، وأنزلوا بهم خسائر فادحة في الأرواح، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة حتى خاضوا في الدماء، ولولا كثرة جيش الشام، حتى استطاعوا أن يلتفوا حولهم، ويضربوا عليهم طوقاً، وأحاطوا بهم من كل جانب، ثم رموهم بالنُّبل لما استطاعوا الانتصار عليهم[4]، ولكنا إزاء هذا الإعجاب بشجاعتهم، وإخلاصهم وتفانيهم في القتال، لا نملك إلا أن نتساءل، أين كانت هذه الشجاعة يوم تركوا الحسين رضي الله عنه. يواجه الموت هو وأهل بيته، دون أن يتحرك منهم أحد[5]؟ **وأما أهم أسباب فشل التوابين فهي:**

1 - قلة عددهم إذا قورنوا بجيش الشام، فكان عدد التوابين أربعة الآف مقاتل بينما كان جيش خصمهم الذين اشتبكوا معهم عشرين ألفاً عدا من كان ينتظر مع عبيد الله بن زياد على سبيل الاحتياط.

2 - ضعف التوابين من الناحية العسكرية، فلا نستطيع أن نقارن أي واحد من قادة التوابين بقدرة ابن زياد أو حصين بن نمير من حيث الخبرة والقدرة العسكرية، وهذا يتفق مع وصف المختار الثقفي لسلمان بن صرد: إن سليمان رجل لا علم له بالحرب وسياسة الرجال[6].

3 - تخاذل التوابين عن الاشتراك، فعندما أحصى ابن صرد من بايعوا وجدهم ستة عشر ألفاً عدا أهل المدائن والبصرة الذين لم يتم تنسيقهم مع الآخرين مع أن المشركين في القتال هم أربعة الآف.

4 - عدم اشتراك المختار الثقفي في القتال وليت الأمر كذلك ولكنه كان يثبط الناس عن سليمان بن صُرد[7].

---

(1) سير أعلام النبلاء (3/ 395).
(2) البداية والنهاية (11/ 697).
(3) البداية والنهاية (11/ 703).
(4) الأمويون للوكيل (1/ 315).
(5) المصدر نفسه (1/ 315).
(6) أنساب الأشراف (5/ 207).
(7) سير أعلام النبلاء (3/ 540) عبد الله ابن الزبير للناطور، ص: 148.

خامساً: حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي:

هو المختار بن أبي عبيد الثقفي الكذَّاب، كان والده الأمير أبو عبيد بن مسعود بن عمرو بن عمير بن عوف بن عقدة الثقفي، أسلم في حياة النبي ﷺ ولم نعلم له صحبة استعمله عمر بن الخطاب على جيشٍ، فغزا العراق، وإليه تنسب وقعة جسر أبي عبيد، ونشأ المختار، فكان من كبراء ثقيف، وذوي الرأي، والفصاحة، والشجاعة والدّهاء وقلة الدين[1]، وقد قال النبي ﷺ: «**يكون في ثقيف كذاب ومبير**»[2]، فكان الكذاب هذا، ادَّعى أنَّ الوحي يأتيه، وأنه يعلم الغيب، وكان المبير الحجاج، قبّحهما الله[3]، ظهر المختار بن أبي عبيد الثقفي على مسرح الأحداث بعد موت يزيد بن معاوية سنة 64هـ، وهو من الشخصيات التي حفل بها العصر الأموي، والتي كانت تسعى لها عن دور، وتسعى إلى السلطان بأي ثمن، فتقلب من العداء الشديد لآل البيت إلى ادعاء حبهم والمطالبة بثأر الحسين[4]. فقد مر بنا في كتابي عن الحسن بن علي بن أبي طالب بأنه أشار على عمه سعد بن مسعود الثقفي بالقبض على الحسن ابن علي وتسليمه إلى معاوية، لينال بذلك الحظوة عنده[5]، ثم حاول الاتصال بعبد الله بن الزبير والانضمام إليه، وشرط عليه شروطاً، منها أن يكون أول داخل عليه وألا يقضي الأمور دونه، وإذا ظهر استعان به على أفضل أعماله[6]، وباختصار أراد أن تكون له كلمة في دولته، ولكنه لم يجد تجاوباً من ابن الزبير، فانصرف عنه إلى الكوفة[7]، حيث كان الأمر فيها مضطرباً فأراد أن يصطاد في المياه العكرة، ولم يجد فيها ورقة رابحة سوى الادعاء بالمطالبة بدم الحسين وآل البيت وادعى أن لديه تفويضاً بذلك من محمد بن علي بن أبي طالب، الملقب بابن الحنفية، ولكنه لم يكن صادقاً في ذلك، بل قرر أن يركب تيار الشيعة ليصل إلى هدفه وهو الحكم والسلطان. وقد عبر هو نفسه عن ذلك في حواره مع رجال من رجاله الذين أخلصوا له، وكانوا يظنونه صادقاً في دعوته للثأر لآل البيت، وهو السائب بن مالك الأشعري. فقد قال له المختار عندما ضيق عليه وصعب الخناق واقتربت نهايته: ماذا ترى؟ فقال له السائب: الرأي لك؟ قال: أنا أرى أم الله يرى؟ قال: الله يرى قال: ويحك أحمق أنت! إنما أنا رجل

---

(1) سير أعلام النبلاء (3/ 539).
(2) مسلم رقم (2545).
(3) سير أعلام النبلاء (3/ 539).
(4) البداية والنهاية (11/ 66).
(5) تاريخ الطبري نقلاً عن العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 482.
(6) الكامل في التاريخ، نقلاً عن العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 482.
(7) البداية والنهاية (11/ 66).

من العرب رأيت ابن الزبير انتزى على الحجاز، ورأيت نجدة انتزى على اليمامة ومروان على الشام، فلم أكن دون أحد من رجال العرب، فأخذت هذه البلاد، فكنت كأحدهم إلا أني قد طلبت وبالغت في ذلك إلى يومي هذا، فقاتل على حسبك إن لم تكن لك نية فقال السائب: إنا لله وإنا إليه راجعون[1]. قال السائب ذلك لما تبين له أن المختار صنع كل ما صنع من أجل السلطان وحده، ولذلك يصف الذهبي المختار بالكذب وقلة الدين[2]، ظهر المختار في الكوفة في الوقت الذي كان فيه سليمان بن صرد الخزاعي زعيم التوابين يستعد للذهاب إلى الشام، لقتال عبيد الله بن زياد، فحاول تثبيط الناس عنه، وقد نجحت دعايته وتجمع حوله نحو ألفين من الشيعة وبقيت غالبيتهم مع سليمان بن صرد، وكانت نتيجة معركة عين الوردة من مصلحة المختار، فقد جاءته مصدقة لتوقعاته كما أنه انفرد بزعامة الشيعة ولجأ إليه الفارون من المعركة، فقويت حركته وكثر أتباعه، ثم ازداد مركزه قوة بانضمام إبراهيم بن الأشتر النخعي إليه، وهو من زعماء الكوفة فثار على عبد الله بن مطيع العدوي، أمير الكوفة من قبل عبد الله بن الزبير فأخرجه منها وأحكم سيطرته عليها.

. قضاء المختار على قتلة الحسين:

ولكي يثبت دعواه في صحة دعوته في المطالبة بدم الحسين، فقد تتبع قتلته فقتل معظمهم في الكوفة[3]، ثم أعد جيشاً جعل على قيادته إبراهيم الأشتر، وأرسله إلى قتال عبيد الله، فالتقى به عند نهر الخازر بالقرب من الموصل وحلت الهزيمة بجيش ابن زياد، الذي خرّ صريعاً في ميدان المعركة سنة 67هـ[4].

وقد قال ابن مفرّغ حين قتل ابن زياد:

إن المنايا إذا ما زُرن طاغية ... هتّكن أستار حُجّاب وأبواب
أقول بُعداً وسحقاً عند مصرعه ... لابن الخبيثة وابنِ الكوْدن الكابي[5]
لا أنت زُوحِمت عن مُلك فتمنعهُ ... ولا متَتَّ إلى قوم بأسباب[6]

وقد شرع المختار في تتبع قتلة الحسين ومن شهد الوقعة بكربلاء من ناحية ابن زياد، فقتل منهم خلقاً كثيراً، وظفر برؤوس كبار منهم، كعمر بن سعد بن أبي وقاص أمير الجيش الذين قتلوا الحسين، وشمر بن ذي الجوشن أمير الألف الذين وَلُوا قتل الحسين، وسنان بن أبي

(1) تاريخ الطبري (6/ 677).
(2) سير أعلام النبلاء (3/ 539).
(3) العراق في العصر الأموي، ثابت الرواي، ص: 250 - 251.
(4) الكامل في التاريخ (2/ 7).
(5) الكودن: البرذون الهجين أو البغل: الكابي: المنكب على وجهه.
(6) الكامل في التاريخ (2/ 9).

أنس، وخوليّ بن يزيد الأصبحيّ، وخلقاً غير هؤلاء[1]. وكان مقتل عبيد الله بن زياد في يوم عاشوراء سنة سبع وستين، ثم بعث إبراهيم بن الأشتر برأس بن زياد إلى المختار[2]، وتعاظم نفوذ المختار بعد انتصار جيشه على جيش ابن زياد، وسيطر على شمال العراق والجزيرة وجعل يولي العمال من قبله على الولايات[3]، ويجبي الخراج، وانضم إليه عدد كبير من الموالي لبغضهم لبني أمية من ناحية[4]، ولأنه أغدق عليهم الأموال من ناحية ثانية[5]. وبدا كما لو أنه أقام دولة خاصة به في العراق بين دولتي ابن الزبير في الحجاز، وعبد الملك بن مروان في الشام[6].

1 - أسباب نجاح حركة المختار في مرحلتها الأولى:

نجحت حركة المختار في بداية الأمر للأسباب الآتية:

أ - الأرضية الملائمة، حيث العواطف ثائرة والنفوس مشحونة في وقت كانت حركة التوابين تلقى مصيرها الذي اختارت، عبر عملية استشهادية في نظر التوابين كان لها صداها المأساوي في الكوفة، ومن ناحية أخرى، فإن ابن الزبير لم يدعم وجوده بالكوفة بالجيوش وإغداق الأموال والتلطف للأعيان والأشراف والزعماء، وكانت وجهة نظره معتمدة على ترك تطاحن الأمويين مع أتباع المختار وما يترتب على ذلك من استنزاف لهما، بكون ابن الزبير هو المستفيد من نتائج ذلك التطاحن[7].

ب - تودد المختار لبني هاشم، فكان يرسل الهدايا لهم، وعمل على كسبهم[8].

جـ - الشخصية القيادية البارزة التي تمتع بها المختار في الوقت الذي غابت فيه عن الكوفة الزعامة السياسية المحورية، القادرة على توحيد اتجاهات الحركة الشيعية واستيعاب التطورات المتلاحقة، ولا نهمل المكر والدهاء والمرونة، والقدرة على استثمار الأحداث من مقتل الحسين، وحجر بن عدي، والتوابين وتوظيف ذلك، كما امتازت شخصية المختار بقدرتها على المناورة[9].

د - البرنامج العملي الذي تقدم به، كان المدخل الاستقطابي لشريحة عريضة في المجتمع

---

(1) البداية والنهاية (11/ 66).
(2) تاريخ الطبري نقلاً عن العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 484.
(3) تاريخ الطبري نقلاً عن العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 484.
(4) الدولة الأموية في المشرق للنجار، ص: 143.
(5) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 484.
(6) المصدر نفسه، ص: 484.
(7) من دولة عمر إلى دولة عبد الملك، ص: 204، 205.
(8) عبد الله بن الزبير للناطور، ص: 158.
(9) من دولة عمر إلى دولة عبد الملك، ص: 205.

كانت مضطهدة ومسحوقة وهي شريحة الموالي التي وجدت في حركته المتنفس لتحقيق أهدافها في المساواة وتحسين أوضاعها الاجتماعية[1].

هـ - سوء اختيار ابن الزبير لعماله في الكوفة، ويبدو أنهم لم يكونوا على قدر المرحلة ولذلك انفلتت الأمور من أيديهم في الكوفة[2].

2 - نهاية المختار على يد مصعب بن الزبير:

كان من المتوقع أن تكون نهاية المختار على يد عبد الملك الذي وتره بقتل ابن زياد أبرز أعوانه ولكن عبد الملك كان من الدهاء بحيث أدرك أن ابن الزبير وإن كان قد أسعده ظهور المختار في البداية وقهره لجيش عبد الملك[3]، إلا أنه لن يسمح لنفوذه أن يتسع ويهدد دولته، وأنه لا بد أن يتحرك للقضاء عليه، فآثر الانتظار وترك ابن الزبير يواجه المختار، لأن نتيجة المواجهة ستكون في صالحه، فسوف يقضي أحدهما على صاحبه، ومن يبقى تكون قوته، قد ضعفت فيسهل له القضاء عليه، وقد حدث ما توقعه عبد الملك، فإن المختار لم يكتف بانتصاره على جيش عبد الملك وبسط نفوذه على شمال العراق والجزيرة، بل أخذ يعد نفسه للسير إلى البصرة لانتزاعها من مصعب بن الزبير الذي أصبح والياً عليها من قبل أخيه عبد الله بعد أن بايعه أهلها، وهنا أصبح الصدام محتوماً بين المختار وآل الزبير[4]، فسار مصعب بن الزبير بنفسه إلى قتال المختار في جيش هائل فحاصره بالكوفة وضيق عليه ومازال حتى أمكن الله منه، فقتله واحتزَّ رأسه، وأمر بصلب كفِّه على باب المسجد، وبعث مصعب برأس المختار مع رجلٍ من الشُّرَط على البريد إلى أخيه عبد الله بن الزبير، فوصل مكة بعدَ العشاءِ فوجد عبد الله يتنفَّل، فما زال يصلِّي حتى أسحر ولم يلتفت إلى البريد الذي جاء بالرأس فقال: ألقه على باب المسجد، فألقاه ثم جاء فقال: جائزتي يا أمير المؤمنين. فقال: جائزتك الرأس الذي جئت به تأخذه معك إلى العراق. ثم زالت دولة المختار كأن لم تكن، وكذلك سائر الدول، وفرح المسلمون بزوالها وذلك لأنَّ الرجل لم يكن في نفسه صادقاً، بل كان كاذباً، وكاهناً، وكان يزعم أن الوحي ينزل عليه على يد جبريل يأتي إليه[5]، وعن رفاعة بن شدّاد قال: كنت أقوم على رأس المختار، فلمّا عرفت كذبه هممت أن أسُلَّ سيفي فأضرب عنقه، فذكرت حديثاً حدّثناه عمرو بن الحمق قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من أمَّن رجلاً على نفسه فقتله، أعطي لواء غدر يوم القيامة**»[6]، وقد قيل لابن عمر: إن المختار يزعم أن الوحي يأتيه. فقال: صدق، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ [الأنعام: 121]. وعن

---

(1) من دولة عمر إلى دولة عبد الملك، ص: 205.
(2) عبد الله بن الزبير للناطور، ص: 205.
(3) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 484.
(4) المصدر نفسه، ص: 485 البداية والنهاية (11/ 67).
(5) البداية والنهاية (11/ 68).
(6) سنن ابن ماجه رقم (2688) حديث صحيح.

عكرمة قال: قدمت على المختار، فأكرمني وأنزلني حتى كان يتعهد مبيتي بالليل، قال: فقال لي: اخرج فحدِّث الناس. قال: فخرجت فجاء رجل فقال: ما تقول في الوحي؟ فقلت: الوحي وحيان، قال الله تعالى: ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [يوسف: 3] وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: 112] قال: فهمُّوا بي أن يأخذوني، فقلت: ما لكم وذاك، إنِّي مفتيكم وضيفكم، فتركوني، وإنما أراد عكرمة، أن يعرِّض بالمختار وكذبه في ادّعائه أن الوحيّ ينزل عليه[1] قال ابن كثير: وذكر العلماء أن الكذَّاب هو المختار بن أبي عبيد، وكان يظهر التشيع ويبطن الكهانة ويسرُّ إلى أخصّائه أنّه يوحى إليه. ولكن ما أدري هل كان يدّعي النبوة أم لا؟، وكان قد وضِع له كرسي يُعَظَّمُ ويُحَفُّ بالرجال ويُسَترُ بالحرير، ويحمل على البغال، وكان يُضاهي به تابوت بني إسرائيل المذكور في القرآن، ولا شك أنَّه كان ضَالًا مضالًا، أراح الله المسلمين منه بعدما انتقم به من قوم آخرين من الظالمين[2]، قال تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأنعام: 129]، وتسليط الظالم على الظالم سنة من سنن الله في حركة المجتمعات واضحة المعالم في دراسة تاريخ الإنسانية.

3 - أسباب فشل حركة المختار:

أ - نفور أشراف العرب في الكوفة وما يمثلون من حول وقوة وقتالهم له، ثم توجه من سلم إلى مصعب بن الزبير في البصرة واشتراكهم معه في القتال ضد المختار.

ب - إصابته بالغرور بحيث أنه طرد عمر بن علي بن أبي طالب لأنه لم يحظر له كتاباً من ابن الحنفية حيث قال له: انطلق حيث شئت فلا خير لك عندي[3]، فتركه وذهب إلى مصعب ليعود معه ليقاتله.

جـ - تجهيز مصعب جيشاً كبيراً وانضمام المهلب بن أبي صفرة واشتراكه معه في القتال. بينما لم يشترك قائد المختار إبراهيم بن الأشتر ولذلك لم يكن القتال متعادلاً

د - اكتشاف كذب المختار، فقد قال الشعبي بأن ابن الحنفية لم يرسل مع المختار كتاباً لابن الأشتر[4]، ولم تخف الرسالة عليه فقد شك فيها لولا من شهد مع المختار، وقد عرف أشراف العرب ذلك وقالوا: هذا كذاب[5].

---

(1) البداية والنهاية (11/ 69).
(2) المصدر نفسه (11/ 71).
(3) تاريخ الدولة الإسلامية ابن الطقطقي، ص: 121، عبد الله بن الزبير للناطور، ص: 159.
(4) تاريخ الطبري نقلاً عن عبد الله بن الزبير للناطور، ص: 159.
(5) إمبراطورية العرب، ص: 156، غلوب نقلاً عن ابن الزبير للناطور، ص: 159.

هـ - تخلي ابن الحنفية عن المختار، فقد قام على باب الكعبة وقال: أنه كان كذاباً يكذب على الله ورسوله[1]، بل أكثر من ذلك فقد روى الطبري أن ابن الحنفية كتب إلى شيعته: فاخرجوا إلى المجالس والمساجد فاذكروا الله علانية وسراً ولا تتخذوا من دون المؤمنين بطانة، فإن خشيتم على أنفسكم فاحذروا على دينكم الكذابين[2].

و - ابتداع المختار لأمر غريب في الإسلام ألا وهو الكرسي، فقد جاء بكرسي ثم قال لأصحابه: إنه لم يكن في الأمم الخالية أمراً إلا وهو كائن في هذه الأمة مثله، وإنه كان في بني إسرائيل التابوت فيه بقية مما ترك آل موسى وآل هارون، وإن هذا فينا مثل التابوت، اكشفوا عنه، فكشفوا عنه أثوابه، وقامت السبئية فرفعوا أيديهم فكبّروا ثلاثاً[3].

ز - حاجة ابن الزبير الماسة إلى العراق فهي مصدر المال والرجال الوحيد بعد ضياع الشام ومصر، وبقاء المختار في العراق يهدد مكانته وتقطع عليه الوصول إلى بلاد فارس التي لاتزال على طاعته[4].

4 - الفرقة الكيسانية وعلاقتها بالمختار:

أما كيسان المنسوبة إليه[5] مختلف فيه، لكن الذي لا خلاف عليه أن المختار ابن أبي عبيد الثقفي تزعم الفرقة سنة 66هـ بالكوفة وكانت الفرقة الكيسانية من الشيعة الغلاة، وكان المختار الثقفي أول من أكد فكرة المهدية في شخص محمد ابن الحنفية حيث أطلق عليه لقب المهدي، كما استخدم فكرة (البداء) وقد اشتهرت هذه المقولة قبيل قتل المختار 67هـ وكان المختار - أيضاً - يقول بالبداء الذي هو من أصول الرافضة الأولى، فإن المختار كان قد تكهن بنصر أصحابه، فلما انهزموا زعم أن الله بدا له[6]، وبهذه الفكرة الشيطانية مكنته من تغيير آرائه من حين لآخر - هذا فضلاً عن إظهار نفسه بمظهر النبي وإقراره لفكرة الكرسي الذي ادعى أنه يعود للإمام علي رضي الله عنه إلى غير ذلك من الآراء المبتدعة[7]، وقد تطورت معتقدات الكيسانية ودخلوا في النفق الشيطاني المظلم، وكانوا يقولون بإمامة ابن علي المعروف بابن الحنفية،

---

(1) الطبقات الكبرى (5/ 158).

(2) تاريخ الطبري نقلاً عن عبد الله بن الزبير للناطور، ص: 159.

(3) المصدر نفسه.

(4) عبد الله بن الزبير للناطور، ص: 159.

(5) أهو كيسان مولى علي بن أبي طالب الذي قتل يوم صفين؟ أم كيسان تلميذ محمد ابن الحنفية؟ أم كيسان رئيس حرس المختار بن عبيد الثقفي؟ أم هو المختار نفسه لأنه كان يسمى كيسان ويكنى أبا عمرة وأبا إسحاق؟ (الملل والنحل 1/ 133).

(6) الفَرق بين الفِرق، ص: 55، 56، دراسات في الأهواء والفرق، ص: 248.

(7) نشأة الحركات السياسية والدينية في الإسلام، د. فاروق فوزي، ص: 101.

لأنه دفع إليه الراية بالبصرة[1]. وقالوا بالتناسخ ويزعمون أن الإمامة جرت في علي ثم في الحسن ثم في الحسين ثم في محمد ابن الحنفية، ومعنى ذلك أن روح الله صارت في النبي ﷺ، وروح النبي ﷺ صارت في علي، وروح الحسين صارت في محمد ابن الحنفية، وروح ابن الحنفية صارت في ابنه أبي هاشم[2]. ويعتقدون في ابن الحنفية اعتقاد فوق حده ودرجته، من: إحاطته بالعلوم كلها، واقتباسه من (السيدين) الأسرار بجملتها من علم التأويل والباطن وعلم الآفاق والأنفس[3]. والحق أن ابن الحنفية لم يقر الغلو الذي قيل فيه، ولم يعترف بأنه المهدي المنتظر، وروى ابن سعد حديثاً رفعه إلى أبي العريان المجاشعي قال: فبلغ محمداً أنهم يقولون: إن عندهم شيئاً أي من العلم. قال: فقام فينا وقال: إنا والله ما ورثنا من رسول الله ﷺ إلا ما بين هذين اللوحتين. ثم قال: اللّهم خلا وهذه الصحيفة في ذؤابة سيفي فسألت: وما كان في الصحيفة؟ قال: من أحدث حدثاً أو آوى محدثاً[4]. وقال محمد للرجل الذي قابله وسأله عن أشياء سرية نميت إلى الرجل عن محمد: أما بعد فإياكم وهذه الأحاديث فإنها عيب عليكم، وعليكم بكتاب الله، فإنه به هُدِي أولكم وبه يُهدي آخركم[5].. ويظهر أن المختار هو الذي روّج فكرة مهدية محمد لأسباب سياسية أي أنه أراد يحكم باسمه دون إشراكه بالسلطة الفعلية. وعندما هم ابن الحنفية أن يقدم إلى الكوفة، وبلغ ذلك المختار فثقل عليه قدومه فقال: إن في المهدي علامة، يقدم بلدكم هذه فيضربه رجل في السوق بالسيف لم تضره.. فبلغ ذلك ابن الحنفية فأقام[6].

وقال كثير بن عزّة في ابن الحنفية:

ألا إن الأئمةً من قريش ... ولاة الحقُّ أربعة سواء

عليٌّ والثلاثة من بنيه ... هم الأسباط ليس بهم خفاء

فسبط سبط إيمان وبرٌّ ... وسبط غيَّبته كربلاء

وسبط لا تراه العين حتى ... يقود الخيل يقدمها لواء

تغيب - لا يُرى عنهم زمانا ... برضوى عنده عسل وماء[7].

سادساً: حركة عمرو بن سعيد بن العاص (الأشدق) ومقتله:

نصت مقررات مؤتمر الجابية كما أشرنا على أن تكون الخلافة لعمرو بن سعيد الأشدق بعد مروان بن الحكم وخالد بن يزيد بن معاوية، وتجاوز مروان عمراً وبايع لابنيه عبد الملك،

(1) المقالات والفرق، ص: 26، الشيعة العربية والزيدية، ص: 258.
(2) الملل والنحل (1/ 131).
(3) المصدر نفسه (1/ 131).
(4) الشيعة العربية والزيدية، ص: 259.
(5) الطبقات (5/ 70).
(6) سير أعلام النبلاء (4/ 118).
(7) المصدر نفسه (4/ 112).

وعبد العزيز، الأمر الذي أثار نقمة عمرو، بعكس خالد بن يزيد الذي انصرف إلى العلم لاسيما الكيمياء[1]، وفي أول سنة 69 هـ خرج عبد الملك بجنوده يريد قرقيسيا، ليحاصر فيها زفر بن الحارث، واستخلف على دمشق عمرو بن سعيد بن أبي العاص ولم يكد عبد الملك يخرج بجيشه من دمشق، حتى تحصن بها عمرو بن سعيد، وأخذ ما في بيت المال من الأموال، ، وتذكر رواية أخرى أن عمرو بن سعيد كان مع عبد الملك حين خرج إلى قرقيسيا ولكنه استغل فرصة الليل، وانخذل هو وجماعة معه من الجيش، ورجعوا إلى دمشق ففر والي دمشق من قبل عبد الملك عبد الرحمٰن بن أم الحكم الثقفي، ودخلها عمرو بن سعيد واستحوذ على ما فيها من الخزائن[2] وبعث عمرو إلى عبد الرحمٰن بن أم الحكم فلم يجده، فأمر بهدم بيته واجتمع الناس وصعد عمرو المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، إنه لم يقم أحد من قريش قبلي على هذا المنبر إلا زعم أن له جنة وناراً، يدخل الجنة من أطاعه، والنار من عصاه، ، وإني أخبركم أن الجنة والنار بيد الله، وأنه ليس إليَّ من ذلك شيء غير أن لكم عليّ حسن المواساة والعطية[3]، وأصبح عبد الملك فسأل عن عمرو بن سعيد فلم يجده، فكرّ راجعاً إلى دمشق، فوجد عمراً وقد تحصن بها، ودارت بينهما معركة استمرت ستة عشر يوماً[4]، ويبدو أن عبد الملك قد رأى موقف عمرو قوياً حيث كان متحصناً بقلعة رومية منيعة، فعرض الصلح فتصالحا على ترك القتال[5].

1 - شروط عمرو بن سعيد بن العاص:

كانت شروطه كالآتي: على أن لعمرو بن سعيد الخلافة بعد عبد الملك[6]، وأن يكون له عامل مع كل عامل لعبد الملك وأن يستشيره في كل صغيرة وكبيرة[7] ويوليه الديوان وبيت المال[8]، وتبرز كتب التاريخ أسباباً عديدة دعت عبد الملك بالقبول بهذه الشروط منها:

أ - انقسام قبيلة كلب ذات القوة والتأثير السياسي في الأحداث آنذاك بين عبد الملك وعمرو الأشدق مما جعل كسب المعركة بالقوة يؤدي إلى خسائر فادحة لكلا الطرفين، ولم يكن لصالح كلب التي فرضت الصلح[9].

ب - سيطرة عمرو الأشدق على مدينة دمشق التي تعد العاصمة آنذاك وفيها بيت المال وديوان الجند اللذان يعدان عصب الحياة وكسب المؤيدين آنذاك.

---

(1) تاريخ خلافة بني أمية، نيه عاقل، ص: 152.
(2) البداية والنهاية (11/ 114).
(3) المصدر نفسه (11/ 115).
(4) المصدر نفسه (11/ 115).
(5) الأمويون للوكيل (1/ 369).
(6) الدور السياسي لأهل اليمن في الشام، ص: 85.
(7) تاريخ خليفة نقلاً عن الدور السياسي لأهل اليمن، ص: 85.
(8) أنساب الأشراف (4/ 139).
(9) نهاية الأرض (21/ 102)، الدور السياسي لأهل اليمن، ص: 86.

جـ - وقوف أكثر القبائل اليمانية الأخرى على الحياة وعدم تدخلها في الصراع مما يجعل القرار الفعلي للصلح بيد قبيلة كلب ذاتها[1].

د - قوة عمرو الأشدق في الشام وخاصة في دمشق فقد أيدته دمشق فضلاً عن زعيم بجيلة عبد الله بن كريز القسري الذي كان مع شرطته[2].

هـ - ويمكن أن يكون قبول الاتفاقية من قبل عبد الملك لحل النزاع سلمياً ثم القيام بقتل عمرو الأشدق بعد اتفاقه مع بعض زعماء الشام وبني أمية[3].

2 - غدر عبد الملك بابن عمه عمرو بن سعيد:

وبعد عقد الصلح ودخول عبد الملك دمشق بأربعة أيام، أرسل إلى عمرو أن ائتني. . فلما كان بعد الظهر لبس عمرو درعاً بين ثيابه، وتقلد سيفه فلما نهض عثر في البساط، فقالت امرأته وبعض من كان حاضراً عنده: إنا لا نرى أن تذهب إليه، فلم يعبأ بكلامهم، ومضى في مائة من عبيده، وكان عبد الملك قد أمر بني مروان بالحضور عنده، وأمر حاجبه أن يدخل ابن سعيد ويغلق الباب دون من معه. . ثم غُلقت الأبواب واقترب عمرو من عبد الملك، فرحب به وأجلسه معه على السّرير، ثم جعل يحدثه طويلاً. ثم إن عبد الملك قال: يا غلام، خذ السيف عنه، فقال عمرو: إنا لله يا أمير المؤمنين فقال له عبد الملك: أو تطمع أن تتحدّث معي متقلّداً سيفك؟ فأخذ الغلام السيف عنه، ثم تحدّثا ساعة، ثم قال له عبد الملك: يا أبا أمية. قال: لبيك يا أمير المؤمنين قال: إنك حيث خلعتني آليت بيميني إن ملأتُ عيني منك وأنا مالك لك أن أجمعك في جامعة. فقال بنو مروان: ثم تطلقه يا أمير المؤمنين؟ قال: ثم أطلقه، وما عسيت أن أفعل بأبي أميّة؟ فقال بنو مروان: أبرَّ قسم أمير المؤمنين فقال عمرو: فأبرَّ قسمك يا أمير المؤمنين. فأخرج عبد الملك من تحت فراشه جامعة فطرحها إليه، ثم قال: يا غلام، قم فاجمعه فيها. فقام الغلام فجمعه فيها، فقال عمرو: أُذكِّرُك الله يا أمير المؤمنين أن تُخرجني فيها على رؤوس الناس فقال عبد الملك: أمكراً يا أبا أمية عند الموت؟ لاها اللهِ إذا ما كنّا لنخرجك في جامعة على رؤوس الناس ولمّا نخرجها منك إلا صعدا[4]. ثم اجتذبه اجتذابة أصاب فمه السرير فكسر ثنيّته، فقال عمرو: أُذكِّرُك الله يا أمير المؤمنين أن يدعوك كسر عظمي إلى ما هو أعظم من ذلك. فقال عبد الملك: والله لو أعلم أنّك إذا بقيت تفي لي وتصلح قريش لأطلقتك ولكن ما اجتمع رجلان قطّ في بلد على ما نحن عليه إلا أخرج أحدهما صاحبه[5]،

---

(1) الدور السياسي لأهل اليمن، ص: 87.

(2) المصدر نفسه.

(3) الكامل في التاريخ نقلاً عن الدور السياسي لأهل اليمن، ص: 87.

(4) الصعد: المشقة. وعذاب صعد: شديد.

(5) البداية والنهاية (11/ 117).

وجاء في رواية: أن عبد الملك كلّف أخاه عبد العزيز بقتله. وخرج لصلاة العصر ولما رجع من صلاته وجد أخاه لم يقتله فلامه وسبّه وسبّ أمه - ولم تكن أم عبد العزيز أم عبد الملك - فقال: إنه ناشدني الله والرحم وكان ابن عمة عبد الملك بن مروان، ثم إن عبد الملك قال: يا غلام ائتني بالحربة، فأتاه بها فهزها وضربه بها فلم تغن شيئاً، ثم ثنى فلم تغن شيئاً، فضرب بيده إلى عضد عمرو فوجد مس الدرع فضحك وقال: ودارعٌ أيضاً، إن كنت لمُعِدّا، يا غلام ائتني بالصمّصامة، فأتاه بسيفه ثم أمر بعمرو فصُرع فجلس على صدره فذبحه وهو يقول:

يا عمرو إن لا تدع شتمي ومنقصتي أضربك حيث تقول الهامة اسقوني

وانتفض عبد الملك بعد ما ذبحه كما تنتفض القصبة برعدة شديدة جداً بحيث إنهم ما رفعوه عن صدره إلا محمولاً فوضعوه على سريره وهو يقول: ما رأيت مثل هذا قط قتلة، صاحب دنيا ولا طالب آخرة. ودفع الرأس إلى عبد الرحمن بن أمّ الحكم، فخرج به للناس فألقاه بين أظهرهم وخرج عبد العزيز بن مروان ومعه البدرُ[1]من الأموال تحمل، فألقيت بين الناس فجعلوا يختطفونها، ويقال: إنها استرجعت بعد ذلك إلى بيت المال، ويقال: إن الذي ولي قتل عمرو بن سعيد مولى عبد الملك أبو الزُّعيزعة بعد ما خرج عبد الملك من الصلاة[2]. وهكذا تخلص عبد الملك من منافس قوي له ولم يبالي بنقض العهود، وسفك الدماء فالطريق نحو الملك جعله يتخلص من ابن عمته عمرو بن سعيد، ومن أحب الأصدقاء إليه مصعب بن الزبير، ومن أفضل أهل الأرض في زمانه على حد تعبيره عبد الله بن الزبير.

سابعاً: مصالحة عبد الملك للروم والتضييق على الجراجمة:

نظراً للاضطرابات الداخلية في دولة عبد الملك اضطر عبد الملك إلى مصالحة الروم على أن يدفع لهم 365 ألف قطعة ذهبية، 360 عبداً و330 جواداً أصيلاً سنوياً وأن تقسم الدولة البيزنطية والدولة الأموية خراج قبرص وأرمينيا[3]، وارتهن منهم رهائن وضعهم في بعلبك[4]في مقابل ذلك يسحب ملك الروم الجراجمة إلى وسط الإمبراطورية البيزنطية[5]، ولم يمتنع عبد الملك عن مصالحة الجراجمة في جبل اللكام ووافق على أن يدفع لهم ألف دينار كل جمعة[6]، ولكن سرعان ما سنحت الفرصة لعبد الملك للتخلص من الجراجمة فبعد

(1) البدر: جمع بدرة: وهي كيس فيه مقدار من المال يتعامل ويقدم في العطايا.
(2) البداية والنهاية (11/ 119).
(3) الدولة البيزنطية، ص: 158، الدور السياسي لأهل اليمن، ص: 90.
(4) فتوح البلدان (1/ 190).
(5) المصدر نفسه (1/ 190)، الدور السياسي لأهل اليمن، ص: 90.
(6) أنساب الأشراف (5/ 300299)، الدور السياسي، ص: 90.

أن عقد الصلح معهم أرسل أحد قادته الثقات سحيم بن المهاجر إلى القائد البيزنطي والذي كان على رأس الجراجمة ونجح في كسب ثقته، ثم كاده بقوات دبرها لهذا الشأن فقتل القائد البيزنطي وهرب أصحابه وأمّن الباقين فرجع العبيد إلى أسيادهم والأنباط إلى قراهم[1]، كما أن الاتفاقية مع الدولة البيزنطية لم تدم طويلاً، لأن الروم نقضوا العهد كما أن عبد الملك استطاع القضاء على ابن الزبير وتوحيد الدولة تحت زعامته مما جعله يفكر بالرد على تحديات البيزنطيين المتكررة فعين أخاه محمد بن مروان سنة 73 هـ[2]، فشرع في غزوهم سنة 74 هـ[3].

ثامناً: زفر بن الحارث الكلابي:

ظل القيسيون الموتورون في مرج راهط على ولائهم لابن الزبير، وكان أحد كبار زعمائهم - زفر بن الحارث الكلابي - قد فر إلى قرقيسيا، وتحصن بها وثابت إليه قيس وأصبح تجمعه هناك مركزاً لشن الغارات على كلب في المناطق المجاورة له، مما كان يسبب إحراجاً بالغاً لعبد الملك الذي كان يطمح إلى استعادة بقية بلدان العالم الإسلامي تحت سيادته وسلطانه وكان في هذه الفترة يوجه كل جهوده لاستعادة العراق من سيطرة مصعب بن الزبير وكان لابد لعبد الملك إذا أراد أن يضم إليه العراق، وينهي سيطرة الزبيريين عليه، من أن ينهي اعتصام زفر بن الحارث في قرقيسيا، فسار إليه في جيشه الذي كان جهزه لحرب مصعب بن الزبير ويبدأ بزفر أولاً فحاصره ولكن رجال زفر أبدوا بطولة عجيبة وانتزعوا إعجاب عبد الملك الذي قال: لا يبعد الله رجال مضر، والله إن قتلهم لذل، وإن تركهم لحسرة[4]، ولجأ عبد الملك إلى المسالمة وكتب إلى زفر يدعوه إلى طاعته ويرغبه فيها ويهدده إن لم يقبل ذلك، وبعد جهود ومفاوضة أرسل إليه زفر يجيبه إلى طلبه، ويشترط عليه أن يبقى له الخيار في أن يظل مخلصاً لابن الزبير أو ينضم إلى عبد الملك، ورغم ذلك فقد وافق على شرطه، وأعطاه الأمان وابنه وقائده الهذيل بن زفر، وجميع أتباعهما، ولم يأخذ بمال أو دم أهدره، بل أعطى عبد الملك الزعيم القيسي مبلغاً من المال يوزعه بين أتباعه، ثم اختتم ذلك العمل بأن زوج ابنه مسلمة بن عبد الملك بالرباب بنت زفر بن الحارث، كما أمر زفر ابنه الهذيل أن ينضم إلى جيش عبد الملك المتجه إلى حرب مصعب بن الزبير، إذ لم يكن على ولده ما عليه هو من بيعة ابن الزبير[5]، وحرص عبد الملك إلى تحقيق التوازن بين القبائل اليمانية والقيسية وجعل في أصحابه زفر بن الحارث الكلابي وابنيه الهذيل وكوثراً وعبد الله بن مسعدة الفزاري وغيرهم من زعماء قيس، كما كان في أصحابه حسان بن مالك الكلبي، وروح بن زنباع الجذامي ورجاء

---

(1) أنساب الأشراف (5/ 301).
(2) الكامل لابن الأثير نقلاً عن الدور السياسي، ص: 92.
(3) الكامل في التاريخ (3/ 84).
(4) المصدر نفسه (3/ 61).
(5) المصدر نفسه (3/ 62).

ابن حيوة الكندي وغيرهم من زعماء اليمانية، وكما عدل بين الفريقين في مجلسه عدل بينهم في وظائفه فكان يختار ولاته على الأمصار من القيسية غالباً بينما يختار موظفي بلاطه من اليمانية وهكذا[1].

تاسعاً: ضم العراق والقضاء على مصعب بن الزبير:

بعد أن استعاد ابن الزبير نفوذه على العراق أصبحت المواجهة محتومة بينه وبين عبد الملك، الذي قرر أن يقود المعركة بنفسه بعد أن شاور خاصته في ذلك، فمنهم من أشار عليه أن يقيم في الشام، ويرسل واحداً من أهله ليقود الجيش، ومنهم من أشار عليه بأن يسير بنفسه، فمال هو على هذا الرأي. وقال: إنه لا يقوم بهذا الأمر إلا قرشي له رأي، ولعلي أبعث من له شجاعة ولا رأي له، وإني بصير بالحرب، شجاع بالسيف إن احتجت إليه، ومصعب شجاع من بيت شجاعة ولكنه لا علم له بالحرب.. ومعه من يخالفه، ومعي من ينصح لي[2]. عزم عبد الملك إذن على السير إلى العراق لانتزاعه من ابن الزبير وكان ذلك في سنة 71 هـ أي بعد أربع سنين من القضاء على المختار ولعله أخر الصدام مع ابن الزبير إلى هذا الوقت متعمداً، فهو لم يشأ أن يسير إلى العراق إلا بعد أن يوطد دعائم حكمه في الشام، فقضى هذه السنين في تحقيق هذا الهدف فقد حل مشاكله مع زفر بن الحارث الكلابي الذي كان معتصماً في قرقيسيا[3]، مهدداً بذلك إقليم الجزيرة كله، وقد عالج عبد الملك مشكلة زفر بالحكمة والسياسة، واصطلح معه، وأنهى بذلك مسألة قرقيسياء التي استمرت حوالي سبع سنين كالشوكة في جنب دولته، وأحكم سيطرته على إقليم الجزيرة[4]، ثم تخلص من منافسه الخطير، وهو عمرو بن سعيد الأشدق[5] ولما أراد الخروج للعراق ودّع زوجته عاتكة بنت يزيد بن معاوية، فبكت وبكى جواريها لبكائها فقال: قاتل الله كثير عزة لكأنه يشاهدنا حين قال:

إذا ما أراد الغزو لم يثن همّهُ ... حَصانٌ عليها عِقدُ دُرٍ يزينها
نهته فلما لم تر النّهي عاقه ... بكت وبكى ممّا عناها قطينها[6]

وسارع عبد الملك إلى العراق بجيشه وجعل على مقدمته أخاه محمد بن مروان ونزل

---

(1) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 386.
(2) الكامل في التاريخ (3/ 51).
(3) الكامل في التاريخ (3/ 59).
(4) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 501، نقلاً عن الكامل في التاريخ.
(5) البداية والنهاية (11/ 119).
(6) الكامل في التاريخ (3/ 51)، قطينها : خدمها.

بمسكن وكان مصعب قد علم بمسيره، ونزل بمسكن مقدمته إبراهيم بن الأشتر، ونزل باجميرا[1]، وأخذ عبد الملك يكاتب زعماء أهل العراق من جيش مصعب يعدهم ويمنيهم، وكان إبراهيم بن الأشتر قائد جيوش المختار الثقفي قد انضم إلى مصعب بعد مقتل المختار، قد كتب إليه عبد الملك أيضاً، فأخذ الكتاب مختوماً ودفعه إلى مصعب، فقال له: ما فيه فقال له: ما قرأته فقرأه مصعب فإذا هو يدعوه إلى نفسه، ويجعل له ولاية العراق، فقال لمصعب: إنه والله ما كان من أحد آيس منه مني، ولقد كتب إلى أصحابك كلهم بمثل الذي كتب إلي، فأطعني فيهم فاضرب أعناقهم قال: إذا لا تنصحنا عشائرهم، قال: فأوقرهم حديداً، وابعث بهم إلى أبيض كسرى فاحبسهم هناك، ووكل بهم على عشائرهم، فقال: يا أبا النعمان إني لفي شغل عن ذلك، يرحم الله أبا بحر - الأحنف بن قيس - إنه كان ليحذرني غدر أهل العراق، كأنه ينظر إلى ما نحن فيه[2]. وهذا ليس غريباً على أهل العراق، فلهم في الغدر وتغيير المواقف سجل حافل. بل لقد صرح عبد الملك بأن كتبهم كانت تأتيه يدعونه إليهم قبل أن يكتب هو إليهم[3]. ولم يكن هذا خافياً في معسكر مصعب، فعندما استدعى المهلب بن أبي صفرة - وكان من رجاله في ذلك الوقت - يستشيره، قال له: اعلم أن أهل العراق قد كتبوا عبد الملك وكاتبهم، فلا تبعدني عنك. فقال له مصعب: إن أهل البصرة قد أبوا أن يسيروا حتى أجعلك على قتال الخوارج، وهم قد بلغوا سوق الأهواز، وأنا أكره إذا سار عبد الملك إليّ أن لا أسير إليه، فاكفني هذا الثغر[4]. في الوقت الذي كان عبد الملك يكاتب فيه زعماء أهل العراق من قواد مصعب والذين قبلوا التخلي عنه والانضمام إليه[5]. كان حريصاً على ألا يقاتل مصعباً، للمودة والصداقة القديمة التي كانت بينهما فأرسل إليه رجلاً من كلب، وقال له: أقرئ ابن أختك السلام - وكانت أم مصعب كلبية - وقل له يدع دعاءه إلى أخيه، وادع دعائي إلى نفسي، ويجعل الأمر شورى فقال له مصعب: قل له السيف بيننا[6].

ثم حاول عبد الملك محاولة أخرى: فأرسل إليه أخاه محمد ليقول له: إن ابن عمك يعطيك الأمان، فقال مصعب إن مثلي لا ينصرف عن مثل هذا الموقف إلا غالباً أو مغلوباً[7]. ثم دارت المعركة فبدأت خيانات أهل العراق تظهر فقد أمد مصعب إبراهيم بن الأشتر بعتاب ابن ورقاء، وهو من الذين كانوا كاتبوا عبد الملك، فاستاء إبراهيم من ذلك وقال: قد قلت له لا تمدني بعتاب وضربائه، إنا لله وإنا إليه راجعون، فانهزم عتاب بالناس. فلما انهزم صبر ابن الأشتر فقتل[8]، فكان مقتله خسارة كبرى لمصعب، لأنه فوق شجاعته، كان مخلصاً له غاية

(1) تاريخ الطبري (7/ 43).
(2) الكامل في التاريخ (3/ 52).
(3) المصدر نفسه (3/ 52).
(4) المصدر نفسه (3/ 51).
(5) تاريخ الطبري (7/ 44).
(6) الكامل في التاريخ (3/ 52).
(7) تاريخ الطبري (7/ 45).
(8) الكامل في التاريخ (3/ 53).

الإخلاص، ولذلك لما اشتد القتال على مصعب وتحرج موقفه صاح قائلاً: يا إبراهيم ولا إبراهيم لي يوم[1]، تخلى أهل العراق عن مصعب وخذلوه، حتى لم يبق معه سوى سبعة رجال[2] ولكنه ظل يقاتل في شجاعة وبسالة، حتى أثخنته الجراح، وأخيراً قتله زياد بن ظبيان. وكان مقتله في المكان الذي دارت فيه المعركة على قصر دجيل عند دير الجاثليق[3] في جمادى الآخرة سنة72هـ. فلما بلغ عبد الملك مقتله قال: واروه فقد والله كانت الحرمة بيننا قديمة ولكن هذا الملك عقيم[4]، وبمقتل مصعب انتهت المعركة، فدخل عبد الملك الكوفة، وبايعه أهلها، وعادت العراق إلى حظيرة الدولة الأموية. وعين عبد الملك أخاه بشراً والياً عليها، وقبل أن يغادرها أعد جيشاً للقضاء على ابن الزبير بمكة.

1 - أسباب هزيمة مصعب بن الزبير:

هناك أسباب كثيرة ساهمت في هزيمة مصعب بن الزبير منها:

أ - عدم اشتراك المهلب بن أبي صفرة، ومن معه من الجنود، وهو المقاتل العنيد والخبير في شؤون الحرب، وإصرار مصعب بن الزبير على بقائه في قتال الخوارج بناء على رغبة أهل البصرة، علماً بأن المهلب قال: لا تبعدن عنك[5]، ولو لم يبعد مصعب المهلب لتمّ الاستفادة من جيشه ومن قدرة وخبرة هذا القائد.

ب - خيانة قادة الفضائل من الجيش الزبيري من العراقيين بناء على الأماني التي مناهم إياها عبد الملك، وعدم قدرة مصعب على ثنيهم بعد اكتشاف خيانتهم.

جـ - عدم إغراق أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير الأموال، والأعطيات على أعيان وأشراف أهل العراق لما جاءوا إلى مكة مع مصعب.

د - غضب بعض الشيعة لمقتل المختار، فلقد رأوا في المختار بأنه هو الذي انتقم من قتلة الحسين، بحيث لم يترك أحداً، ولهذا عبّر زائدة بن قدامة عندما طعن مصعب وقال: يالثارات المختار[6].

هـ - قلة الخبرة العسكرية لدى مصعب على الرغم من شجاعته وإقدامه وبطولته التي اعترف بها خصمه.

و - أنهاك جيش الزبيريين فقد خاضوا معارك عدة في العراق بينما كان جيش الأمويين مرتاحاً، فلما رأوا جنود خصمهم تواكلوا وشملهم الرعب[7].

---

(1) تاريخ الطبري (7/ 45).
(2) الكامل في التاريخ (3/ 54، 53).
(3) تاريخ الطبري (7/ 44).
(4) المصدر نفسه (7/ 47).
(5) الكامل في التاريخ (3/ 51).
(6) المصدر نفسه (3/ 54).
(7) تجديد الدولة الأموية للناطور، ص: 80.

ز - عدم مد الخليفة «عبد الله بن الزبير» لأخيه بالقوات والجند، وكان الأجدر به أن يمده بكل ما يستطيع، لأن ضياع العراق من يديه يعني فقدان الموارد المالية وبداية الانهيار السياسي[1].

2 - أثر مقتل مصعب على ابن الزبير وخطبته:

ولما بلغ عبد الله بن الزبير قتل أخيه مصعب، قام فخطب في الناس، فقال: الحمد لله الذي له الخلق والأمر، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، ألا أنه لن يُذلل الله من كان الحق معه، وإن كان فرداً، ولم يعز من كان وليه الشيطان وحزبه وإن كان معه الأنام طُرّاً ألا وإنه قد أتانا من العراق خبر أحزننا وأفرحنا، أتانا قتل مصعب ﷺ فأما الذي أفرحنا فعلمنا أنه قتله له شهادة، وأما الذي أحزننا فإن لفراق الحميم لوعة يجدها حميمه عند المصيبة، ثم يرعوي بعدها ذوي الرأي إلى جميل الصبر، وكريم العزاء ولئن أصبتم بمصعب لقد أصبت بالزبير قبله، وما أنا من عثمان بخلو مصيبة، وما مصعب إلا عبد من عبيد الله وعون من أعواني، إلا إن أهل العراق أهل الغدر والنفاق، أسلموه وباعوه بأقل الثمن، فإن يقتل فإنا والله ما نموت على مضاجعنا كما تموت بنو العاص، والله ما قتل منهم رجل في زحف في الجاهلية ولا الإسلام وما نموت إلا قعصاً[2] بالرماح وموتاً تحت ظلال السيوف. ألا إنما الدنيا عارية من الملك الأعلى الذي لا يزول سلطانه، ولا يبيد ملكه، فإن تقبل لا آخذها أخذ الأشِر البَطر، وإن تدبر لا أبك عليها بكاء الحَرِقَ المَهين. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم[3].

3 - رأي عبد الملك في مصعب بن الزبير:

لما وضع رأس مصعب بين يدي عبد الملك، بكى وقال: ما كنت أقدر أن أصبر عليه ساعة واحدة من حبي له، حتى دخل السيف بيننا، ولكن الملك عقيم[4]. لقد نسى عبد الملك كل ما كان بينه وبين مصعب ولم يذكر إلا الكرسي وسلطة الحكم، حتى إذا ما تم له الأمر، وخلص له الحكم، أخذ يتحدث عن ما كان بينهما من المودة والخُلة، وراح يذكر محاسنه في مجالسه، وهو يعلم أن ذلك لن يضر ملكه شيئاً[5]. روى ابن كثير أن عبد الملك قال يوماً لجلسائه من أشجع العرب قالوا: شبيب، قطرٌ بن الفجاءة فلان، فلان. فقال عبد الملك: إن أشجع العرب لرجل جمع بين سكينة بنت الحسين، وعائشة بنت طلحة، وأمة الحميد بنت عبد الله بن عامر بن كُريز وأمّه رباب بنت أنيف الكلبي، سيد ضاحية العرب، وولي العراقين

(1) تجديد الدولة الأموية، ص: 80.
(2) القعص: الموت السريع.
(3) تاريخ الطبري (7/ 53).
(4) تاريخ الطبري (7/ 47).
(5) الأمويون (1/ 380).

خمس سنين فأصاب ألف ألف، وألف ألف، وألف ألف، وأعطى الأمان فأبى ومشى بسيفه حتى مات ذلك مصعب بن الزبير، لا من قطع الجسور مرة هاهنا ومرّة هاهنا[1]. إن مدح مصعب الآن لا يضر عبد الملك شيئاً، فقد مضى إلى ربه، وترك له الدنيا بزخارفها، فهو الآن، وبعد أن لم يعد مصعب يشكل خطراً على ملك عبد الملك، فلا بأس بأن يذكر محاسنه، ولا بأس بأن يؤبنه ولهذا لما جيء برأس مصعب إلى عبد الملك قال: واروه فقد والله كانت الحرمة بيننا قديمة، ولكن هذا الملك عقيم، وأمر به وابنه عيسى فدفنا[2].

4 - ما قيل من رثاء في مصعب بن الزبير:

اشتهر عبيد الله بن قيس الرقيات بالدفاع عن الحركة الزبيرية وكان شاعرها الأول ومما قاله في رثاء مصعب بن الزبير:

نَعَتِ السحائِبُ والغمام بأسرها ... جسداً بمسكِنَ عاري الأوصال

تُمسي عوائده السِّباع وداره ... بمنازل أطلالهن بَوَالي

رحل الرِّفاق وغادروه ثاوياً ... للرِّيح بين صَباً وبين شمالِ[3]

5 - سكينة بنت الحسين زوجة مصعب بن الزبير:

كتب مصعب إلى زوجته سكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب بعد خروجه من الكوفة بليال:

وكان عزيزاً أن أبيت وبيننا ... حجاب فقد أصبحت مني على عشر

وأبكاهما للعين والله فاعلمي ... إذا ازددت مثليها فصرت على شهر

وأبكي لقلبي منهما أنني ... أخاف بأن لا نلتقي آخر الدهر

وقيل دخل مصعب على سكينة يوم قتل، فنزع ثيابه ولبس غلالة، وتوشح بثوب، وأخذ سيفه، فعلمت سكينه أنه لا يريد أن يرجع، فصاحت: واحزناه عليك يا مصعب، فالتفت إليها وقد كانت تخفي ما في قلبها عنه، فقال: أوكل هذا لي في قلبك؟ قالت: وما أخفي أكثر، فقال: لو كنت أعلم هذا كانت لي ولك حال، ثم خرج فلم يرجع، ولما قتل مصعب خرجت سكينة تطلبه في القتلى فعرفته بشامة في خده، فأكبت عليه وقالت: يرحمك الله، نعم والله خليل المسلمة كنت أدرك والله ما قال عنترة:

وحليل غانية تركت مجندلاً ... بالقاع لم يعهد ولم يتكلم

فهتكت بالرمح الطويل إهابه ... ليس الكريم على القنا بمحرم[4]

---

(1) البداية والنهاية (11/ 152).

(2) تاريخ الطبري، الأمويون للوكيل (1/ 381).

(3) البداية والنهاية (11/ 156).

(4) المنتظم لابن الجوزي (6/ 114، 115).

وقالت سكينة في رثاء مصعب:

فإن تقتلوه تقتلوا الماجد الذي يرى الموت إلا بالسيوف حراماً
وقبلك ما خاض الحسين منية إلى القوم حتى أوردوه حماما[1]

المبحث الرابع

نهاية أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير ﷺ:

أولاً: محاولات الأمويين إخضاع الحجاز قبل حصار ابن الزبير الأخير:

كانت المناوشات مستمرة بين ابن الزبير وعبد الملك بن مروان على الجبهة الحجازية ومن أهم الحملات التي شنها الطرفين.

1 - حملة حبيش بن دلجة القيني:

تكاد تجمع الروايات أن مروان بن الحكم هو الذي أرسل هذه الحملة إلى الحجاز وذلك بعد مقدمه من مصر[2]. والذي يظهر أن هذه الحملة أرسلت في أواخر عهد مروان بن الحكم حيث توفي مروان قبل أن تكمل مهمتها، الأمر الذي حدا ببعض المؤرخين أن يذكروا أن عبد الملك بن مروان هو الذي أرسل هذه الحملة[3]، وكان عدد أفراد هذه الحملة يتراوح ما بين 6400 إلى 7000 رجل[4]، واستطاع ابن الزبير أن يتغلب على هذا الجيش، فقد أرسل الحارث بن أبي ربيعة وكان والياً على البصرة جيشاً بقيادة الحنتف بن السجف التميمي لمواجهة جيش حبيش بن دلجة ومن جهته أرسل ابن الزبير جيشاً آخر بقيادة عباس بن سهل بن سعد الأنصاري ليلتقي بجيش الحنتف ويتحدان للقضاء على جيش حبيش وهذا ما تمّ فعلاً[5]، بالربذة[6].

2 - حملة نائل بن قيس الجذامي:

أرسل ابن الزبير نائلاً بحملة بعد وفاة الحنتف بن السجف بوادي القرى وأمره أن يعبر إلى نواحي الشام وأن يكون مسلحة بها[7]، وفي رواية أخرى تذكر أن ابن الزبير بعث نائلاً بعد وفاة مروان، وأمره أن يأتي فلسطين[8]، وعلى أية حال فكلا الروايتين تتفقان على أن عبد

---

(1) موقف الشعر من الحركة الزبيرية، ص: 60.
(2) تاريخ الطبري، نقلاً عن عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 181.
(3) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 181.
(4) المصدر نفسه، ص: 181.
(5) تاريخ الطبري (6/ 553).
(6) أنساب الأشراف (5/ 151 - 153).
(7) المصدر نفسه (5/ 158).
(8) المصدر نفسه (5/ 159).

الملك بن مروان استطاع أن يقضي على نائل بن قيس (بأجنادين) [1]، وقد قتل نائل وأصحابه بفلسطين 66هـ.

3 - حملة عروة بن أنيف:

بعث عبد الملك عروة بن أنيف في ستة آلاف إلى المدينة وأمرهم أن لا ينزلوا على أحد، ولا يدخلوا المدينة إلا لحاجة ضرورية أو يعسكروا «بالعرصة» [2] وسار عروة بن أنيف وعسكر بالعرصة، وتشير الرواية إلى أن الحارث بن حاطب - عامل ابن الزبير على المدينة - هرب منها، وكان عروة يدخلها ويصلي الجمعة بالناس ثم يعود إلى معسكره، ومكث عروة على هذا الوضع شهراً، ولم يبعث إليه ابن الزبير أحداً، ولم يحدث أي مواجهة بين جيش عروة وابن الزبير، عندها أمر عبد الملك هذا الجيش بالعودة إلى الشام فرجع[3].

4 - حملة عبد الملك بن الحارث بن الحكم:

أرسل عبد الملك بن مروان هذه الحملة وقوامها أربعة آلاف إلى المدينة وكانت مهمتها الحفاظ على المنطقة ما بين الشام والمدينة. عسكر عبد الملك بن الحارث بوادي القرى ومن هناك أرسل فرقة قوامها خمسمائة رجل بقيادة أبي القمقام إلى سليمان بن خالد - عامل ابن الزبير على خيبر وفدك - للقضاء عليه وقد حاول سليمان الهرب منهم لكنهم أدركوه وقتلوه[4] ولم يستطع ابن الزبير عمل شيء حيال ذلك سوى عزله الحارث بن حطاب وتولية جابر بن الأسود مكانه، وأرسل جابر بن الأسود من جهته حملة بقيادة أبي بكر بن أبي قيس إلى أبي القمقام بخيبر، واستطاع أبو بكر أن يلحق بخصمه الهزيمة[5].

5 - حملة طارق بن عمرو:

كانت هذه الحملة هي آخر حملة وجهها عبد الملك بن مروان تجاه الحجاز وكان الهدف منها أن يسيطر فيما بين «أيلة» و«وادي القرى» ويكون مدداً لمن يحتاج إليه من عمال عبد الملك بن مروان، وفي الوقت نفسه تكون سداً أمام تحركات ابن الزبير وطلب ابن الزبير من واليه على البصرة إرسال قوات لحماية المدينة، فأرسل إليه ألفي رجل بقيادة ابن رواس واستطاعت تلك القوات حماية المدينة ولكن ما لبث ابن الزبير أن أمر ابن رواس بالمسير إلى

---

(1) أجنادين : من نواحي فلسطين، ياقوت، معجم البلدان (1/ 103).

(2) العرصة : وهما عرصتان بنواحي المدينة بالعقيق.

(3) الطبقات نقلاً عن عبد الله ابن الزبير للخراشي، ص: 185.

(4) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 185 نقلاً عن الطبقات.

(5) المصدر نفسه، ص: 186، نقلاً عن الطبقات.

طارق بن عمرو وكانت نتيجة الصدام انتصار طارق بن عمرو وعاد طارق بن عمرو إلى أم القرى ملتزماً بالمهمة التي أوكلها له عبد الملك[1].

ثانياً: الحصار الثاني وسقوط خلافة ابن الزبير:

كان انتصار عبد الملك بن مروان على مصعب بن الزبير في معركة دير الجاثليق إيذاناً بانتهاء دولة عبد الله بن الزبير فقد استقرت له الأمور في جميع الأمصار الإسلامية، وانحصرت دولة ابن الزبير في الحجاز، ولم يكن في استطاعته الصمود، لافتقاره إلى المال والرجال، كما أن مقتل أخيه مصعب قد فت في عضده وأصابه الإحباط، ولكنه لم يلق رايته وظل يقاوم حتى النهاية لم يضيع عبد الملك بن مروان وقتاً بعد انتصاره على مصعب، وقرر أن يقضي نهائياً على دولة ابن الزبير[2] ووقع الخيار لقيادة الجيش للقضاء على ابن الزبير على الحجاج ابن يوسف وتوجه بجيشه إلى الحجاز، واستقر بالطائف وبدأ يرسل بعض الفرق العسكرية إلى مكة، وكان ابن الزبير يرسل إليه بمثلها فيقتتلون وتعود كل فرقة إلى معسكرها[3]، وأمر عبد الملك طارق بن عمرو الذي كان مرابطاً بوادي القرى أن ينضم إلى جيش الحجاج، فتوجه طارق إليه وكان معه خمسة آلاف رجل[4].

1 - الحصار الاقتصادي:

وفي محاولة لإنهاك ابن الزبير قام الحجاج بفرض حصار اقتصادي على مكة ويروي ابن حزم أن عبد الملك بن مروان كان يساهم في فرض هذا الحصار فقد أوكل إلى خالد بن ربيعة بمهمة قطع الميرة عن ابن الزبير وأهل مكة[5]، وقد أثر هذا الحصار على ابن الزبير وأصابت الناس مجاعة شديدة حتى إن ابن الزبير اضطر إلى ذبح فرسه ليطعم أصحابه[6]، وفي الوقت نفسه: كانت العير تحمل إلى أهل الشام من عند عبد الملك السويق، والكعك والدقيق[7]، وقد ترتب على تردي الأحوال داخل مكة، أن بدأ التخاذل يدب بين أنصار ابن الزبير، وبدأوا يسحبون واحداً تلو الآخر، ومما شجع على تخاذل هؤلاء إعطاء الحجاج الأمان لكل من كف عن القتال وانسحب من جيش ابن الزبير[8].

---

(1) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 187.
(2) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 503.
(3) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 189.
(4) المصدر نفسه، ص: 189 نقلاً عن الطبقات لابن سعد.
(5) جمهرة أنساب العرب، ص: 244.
(6) أنساب الأشراف (5/ 361) عبد الله بن الزبير الخراشي، ص: 190.
(7) أنساب الأشراف (5/ 360).
(8) المصدر نفسه (5/ 366)، عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 190.

2 - نصب المنجنيق على جبال مكة:

أراد الحجاج بن يوسف الثقفي أن ينهي أمر ابن الزبير فكتب إلى عبد الملك بن مروان يطلب منه الإذن بقتاله ومناجزته فأجابه عبد الملك بقوله: افعل ما ترى[1]. وهذه الإجابة تحمل في مضمونها الموافقة على طلب الحجاج المتحفز لقتال ابن الزبير وتوجه الحجاج بن يوسف بجميع جيشه إلى مكة ونصب المنجنيق على جبالها وبدأ يضرب ابن الزبير داخل الحرم ضرباً متواصلاً وفي الوقت نفسه كان بقية جيشه يقاتلون البقية الباقية مع ابن الزبير[2]، وتوسط بعض أعيان مكة وعلى رأسهم ابن عمر لدى الحجاج طالبين إليه أن يكف عن استعمال المنجنيق فأجابهم: والله إني لكاره لما ترون ولكن ماذا أصنع ولقد لجأ هذا إلى البيت؟ وكانت وفود الحج قد جاءت إلى مكة من كافة الأقطار الإسلامية وقد منعهم من الطواف حول البيت ما يتعرض له الطائفون من خطر المنجنيق، ولما كان في ذلك تعطيل لركن من أركان الحج فقد تدخل في الأمر ابن عمر فكتب إلى الحجاج يقول له: اتق الله فإنك في شهر حرام وبلد حرام وقد قدمت وفود الله من أقطار الأرض ليؤدوا فريضة الله ويزدادوا خيراً[3]، فأرسل الحجاج إلى طارق بن عمرو بأن يكف عن استعماله حتى ينتهي الناس من الحج، وقال لهم: والله إني لكاره لما ترون، ولكن ابن الزبير لجأ إلى البيت[4]، وأياً ما كان فقد كف عن استعمال المنجنيق حتى انتهى الناس من الطواف[5]، وبعدما انتهى موسم الحج نادى الحجاج في الناس بالانصراف إلى البلاد وأن القتال سيستأنف ضد ابن الزبير[6]، ويروي البلاذري أن العديد ممن كانوا مع ابن الزبير حاولوا إقناعه بقبول أمان الحجاج بن يوسف، فلم يستجب ابن الزبير لمحاولاتهم وأصر على القتال وقد سطرت الروايات مواقف بطولية رائعة لابن الزبير رضي الله عنه في مواجهة كتائب الحجاج ولم يمنعه كبر وخذلان من حوله، من الثبات على مبدئه الذي قاتل من أجله[7].

3 - أسماء بنت الصديق ترسم لابنها طريق الأحرار:

بعد انتهاء موسم الحج نادى الحجاج في الناس أن يعودوا إلى بلادهم لأنه سيعود إلى

---

(1) أنساب الأشراف (5/ 358).
(2) المصدر نفسه (5/ 358).
(3) المصدر نفسه (5/ 376) الحجاج بن يوسف المفترى عليه، ص: 53.
(4) المنتقى في أخبار أم القرى، ص: 26، الحجاج المفترى عليه، ص: 53.
(5) الحجاج بن يوسف المفترى عليه، ص: 54.
(6) أنساب الأشراف (5/ 376) الحجاج بن يوسف المفترى عليه، ص: 54.
(7) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 191.

ضرب البيت بالحجارة[1]، وبالفعل بدأ يضرب الكعبة، وشدد على ابن الزبير، وتحرج موقفه وانفض عنه معظم أصحابه، ومنهم ابناه حمزة وخبيب، اللذان ذهبا إلى الحجاج وأخذا منه الأمان لنفسيهما[2]. فلما رأى ذلك دخل على أمه فقال لها: يا أمه خذلني الناس حتى ولدي وأهلي، فلم يبق معي إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة، والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا، فما رأيك؟ فقالت: أنت والله يا بني اعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامضى له، فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان بني أمية، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت، أهلكت نفسك، وأهلكت من قتل معك، وإن قلت كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين، وكم خلودك في الدنيا، القتل أحسن. فدنا ابن الزبير فقبل رأسها وقال: هذا والله رأيي، والذي قمت به داعياً إلى يومي هذا ما ركنت إلى الدنيا، ولا أحببت الحياة فيها، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله أن تستحل حرمه، ولكني أحببت أن أعلم رأيك، فزدتني بصيرة مع بصيرتي فانظري يا أمه فإني مقتول من يومي هذا، فلا يشتد حزنك وسلمي الأمر لله، فإن ابنك لم يتعمد منكر، ولا عملاً بفاحشة، ولم يجر في حكم الله، ولم يغدر في أمان، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد، ولم يبلغني ظلم عن عمالي فرضيت به بل أنكرته، ولم يكن شيء آثر عندي من رضا ربي، اللّهم إني لا أقول هذا تزكية مني لنفسي، أنت أعلم بي، ولكن أقوله تعزية لأمي لتسلو عني، فقالت أمه: إني لأرجو من الله أن يكون عزائي فيك حسناً إن تقدمتني، وإن تقدمتك ففي نفسي، اخرج حتى أنظر إلى ما يصير أمرك. قال: جزاك الله يا أمه خيراً، فلا تدعي الدعاء لي قبل وبعد. فقالت: لا أدعه أبداً، فمن قتل على باطل فقد قتلت على حق ثم قالت: اللّهم ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل، وذلك النحيب والظمأ في هواجر المدينة ومكة، وبره بأبيه وبي، اللّهمّ قد سلمته لأمرك فيه، ورضيت بما قضيت فأثبني في عبد الله ثواب الصابرين الشاكرين[3]، فتناول يديها ليقبّلها فقالت: هذا وداع فلا تبعد. فقال لها: جئت مودعاً لأنّي أرى هذا آخر أيامي من الدنيا قالت: امض على بصيرتك وادن مني حتى أودّعك. فدنا منها فعانقها وقبّلها فوقعت يدها على الدرع فقالت: ما هذا صنيع من يريد ما تريد. فقال: ما لبسته إلّا لأشدّ منك. قالت: فإنّه لا يشدّ مني، فنزعها ثمّ أدرج كميه، وشد أسفل قميصه، وجبة خز تحت القميص فأدخل أسفلها في المنطقة، وأمه تقول: البس ثيابك مشمّرة ثم انصرف ابن الزبير وهو قول:

إنــي إذا أعــرف يــومــي أصــبــر   وإنــمــا يــعــرف يــومــه الــحُــرّ

---

(1) الكامل في التاريخ (3/ 69).

(2) المصدر نفسه (3/ 70).

(3) تاريخ الطبري (7/ 76).

فسمعت والدته قوله فقالت: تصبر والله إن شاء الله، أبوك أبو بكر والزبير، وأمك صفية بنت عبد المطلب[1].

4 - استشهاد ابن الزبير رضي الله عنه :

إن الثبات على المبدأ - وإن كان يعارض مصالح الشخص، ويعرضها للخطر - يعتبر من أنبل الصفات، وقد تأصلت هذه الصفة في ابن الزبير، فما وهن وما ضعف وما استكان في سبيل المبادئ التي نادى من أجلها ففي آخر يوم من حياته صلّى ركعتي الفجر ثم تقدم وأقام المؤذن فصلى بأصحابه فقرأ: ﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ﴾ [القلم: 1] حرفاً حرفاً، ثم سلم فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم خطب خطبة بليغة جاء فيها: . . . فلا يرعكم وقع السيوف فإني لم أحضر موطناً قط إلا ارتثثت فيه من القتل وما أجد من أدواء جراحها أشد مما أجد من ألم وقعها. صونوا سيوفكم كما تصونون وجوهكم، لا أعلم امرأً كسر سيفه، واستبقى نفسه، فإن الرجل إذا ذهب سلاحه فهو كالمرأة أعزل غضوا أبصاركم عن البارقة، ويشغل كل امرئ قرنه، ولا يلهينكم السؤال عني، ولا تقولن: أين عبد الله بن الزبير؟ ألا من كان سائلاً عني فإني في الرعيل الأول.

أبى لابن سلمى أنه غير خالد ... ملاقي المنايا أي صرف تيمّما
فلستُ بمبتاع الحياة بسُبَّة ... ولا مُرتَقٍ من خشية الموت سُلَّما

احملوا على بركة الله. ثم حمل عليهم حتى بلغ بهم الحجون، فرُمي بآجُرَّة فأصابته في وجهه فأرعش لها، ودمي وجهه، فلما وجد سخونة الدم يسيل على وجهه ولحيته قال:

فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ... ولكن على أقدامنا تقطر الدما[2]

وقاتلهم قتالاً شديداً، فتعاونوا عليه فقتلوه يوم الثلاثاء من جمادى الآخرة وله ثلاث وسبعون سنة[3]، وتولى قتله رجل من مراد، وحمل رأسه إلى الحجاج وسار الحجّاج وطارق ابن عمرو حتى وقفا عليه، فقال طارق: ما ولدت النساء أذكر من هذا. فقال الحجّاج: أتمدح مخالف أمير المؤمنين؟ قال: نعم هو أعذر لنا، ولولا هذا لما كان لنا عذر، إنّا محاصروه منذ سبعة أشهر وهو في غير جند ولا حصن ولا مَنَعة فينتصف منّا بل يفضل علينا. فبلغ كلامهما عبد الملك فصوّب طارقاً[4]، ولما صلب ابن الزبير ظهرت منه رائحة المسك[5]، وقد ذكر أن ابن الزبير في يوم استشهاده قال: ما أراني اليوم إلا مقتولاً، لقد رأيت في ليلتي كأنَّ السماء فرجت لي، فدخلتها، فقد والله مللت الحياة وما فيها[6].

---

(1) تاريخ الطبري (7/ 79).
(2) المصدر نفسه (7/ 77).
(3) الكامل في التاريخ (3/ 73).
(4) المصدر نفسه (3/ 73).
(5) المصدر نفسه (3/ 74).
(6) سير أعلام النبلاء (3/ 378).

5 - أسماء رضي الله عنها تقيم الحجة على الحجّاج:

لما قتل عبد الله خرجت إليه أمُّه حتى وقفت عليه، وهي على دابة، فأقبل الحجّاج في أصحابه فسأل عنها فأخبر بها، فأقبل حتى وقف عليها فقال: كيف رأيت نصر الله الحق وأظهره؟ قالت: ربما أُديل الباطل على الحق، وإنك بين فرثها والجيّة. فقال إنّ ابنك ألحد في هذا البيت، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الحج: 25] وقد أذاقه الله ذلك العذاب الأليم، قطع السبل قالت: كذبت، كان أوّل مولود ولد في الإسلام بالمدينة، وسُرّ به رسول الله ﷺ، وحنّكه بيده وكبّر المسلمون يومئذ حتى ارتجت المدينة فرحاً به، وقد فرِحتَ أنت وأصحابك بمقتله، فمن كان فرح يومئذٍ خير منك ومن أصحابك، وكان مع ذلك برًّا بالوالدين صوّاماً قوّاماً بكتاب الله معظماً لحُرُم الله، يُبْغِضُ أن يُعصى الله عز وجل[1]، وقد دافعت عن ابنها دفاعاً مجيداً، فانكسر الحجّاج وانصرف، فبلغ ذلك عبد الملك، فكتب إليه يلومه في مخاطبته أسماء وقال: ما لك ولابنة الرجل الصالح[2].

6 - ابن عمر وثناؤه على ابن الزبير بعد استشهاده:

مرّ عبد الله بن عمر على ابن الزبير بعد صلبه فقال: السلام عليك أبا خبيب، السلام عليك أبا خُبيب، السلام عليك أبا خبيب، أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا، أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا، أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا، أما والله إن كنت ما علمت صوّاماً قوّاماً وصولاً للرحم، أما والله لأمّة أنت شرُّها لأمة خير، ثم نفذ عبد الله بن عمر فبلغ الحجّاج وقوف ابن عمر عليه وقوله، فأرسل إليه فأنزله عن جذِعة[3].

7 - بيعة ابن عمر لعبد الملك:

لما أجمع الناس على البيعة لعبد الملك بن مروان كتب إليه ابن عمر: أما بعد: فإني قد بايعت لعبد الملك أمير المؤمنين بالسمع والطاعة على سنة الله وسنة رسوله فيما استطعت، وإن بنيّ قد أقرّوا بذلك[4]، وجاء في رواية أن ابن عمر كتب إلى عبد الملك بن مروان فبدأ باسمه، فكتب إليه: أما بعد: فالله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه... إلخ». وقد بلغني أن المسلمين اجتمعوا على البيعة لك، وقد دخلت فيما دخل فيه المسلمون والسلام[5]، وحاول بعض بطانة الخليفة أن يوغروا صدره على ابن عمر لأنه بدأ باسمه قبل اسم الخليفة، فقال عبد الملك: إن هذا من أبي عبد الرحمٰن كثير[6]؟. وكان مما كتب به عبد

(1) البداية والنهاية (11/ 209).
(2) المصدر نفسه (11/ 209).
(3) المصدر نفسه (11/ 210)
(4) الطبقات (4/ 152).
(5) المصدر نفسه (4/ 152)
(6) عبد الله بن عمر، محيي الدين مستو، ص: 108 الطبقات (4/ 152).

الملك إلى الحجّاج بن يوسف ألا يخالف عبد الله بن عمر في الحج[1] لما يعرفه من فضله وفقهه[2].

8 - ابن عمر رضي الله عنه والحجاج:

بقي الحجّاج بن يوسف الثقفي والياً على مكة بعد مقتل ابن الزبير وكان عبد الله بن عمر يترك المدينة ويأتي مكة حاجاً أومعتمراً، ويرى أو يسمع من أفعال الحجاج وأقواله المخالفة للشرع فيأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر يرد عليه بكل جرأة وشجاعة[3] وبعدما قتل الحجاج عبد الله بن الزبير وتمت له السيطرة على مكة خطب الناس، وكان مما قال: إن ابن الزبير حرف كتاب الله وفي رواية غير كتاب الله، فقام ابن عمر وقال: كذبت كذبت كذبت، ما يستطيع ذلك، ولا أنت معه[4]، وخطب الحجاج الناس يوم الجمعة، فأطال حتى كاد يذهب وقت الصلاة، فقام ابن عمر فقال: أيها الناس قوموا إلى صلاتكم فقام الناس، فنزل الحجاج فصلى، فلما انصرف قال لابن عمر: ما حملك على ذلك؟ قال: فقال: إنما نجيء للصلاة فصلِّ الصلاة لوقتها، ثم بقبق[5] بعد ذلك ما شئت من بقبقة[6]، كما أنكر ابن عمر على الحجّاج تهاونه في إشاعة حمل السلاح في مكة وتركه لرجال جيشه يضايقون به المسلمين ويعرضون حياتهم بذلك للخطر، ففي الصحيح عن سعيد بن جبير قال: كنت مع ابن عمر حين أصابه سنان الرمح في أخمص قدمه فلزقت قدمه بالركاب فنزلت فنزعتها وذلك بمنى فبلغ الحجّاج فجعل يعوده فقال الحجّاج: لو نعلم من أصابك فقال ابن عمر: أنت أصبتني، قال: وكيف؟ قال: حملت السلاح في يوم لم يكن يحمل فيه، وأدخلت السلاح الحرم ولم يكن السلاح يدخل الحرم. وفي رواية عن إسحاق بن سعيد عن أبيه قال: دخل الحجّاج على ابن عمر وأنا عنده فقال: كيف هو؟ فقال: صالح. فقال: من أصابك؟ قال: أصابني من أمر بحمل السلاح في يوم لا يحل فيه حمله - يعني الحجّاج[7] - ولما خرج الحجّاج قال ابن عمر: ما آسى على شيء من هذه الدنيا إلا على ثلاث وذكر منها: ألا أكون قاتلت هذه الفئة الباغية التي حلت بنا[8]، يقول الذهبي في تعليقه: يعني بالفئة الباغية الحجّاج[9] وأنا أزيد: ومن أرسله.

---

(1) نسب قريش، ص: 108.

(2) عبد الله بن عمر، محيي الدين مستو، ص: 108.

(3) المصدر نفسه، ص: 108.

(4) الطبقات الكبرى (4/ 184) سير أعلام النبلاء (3/ 230).

(5) بق الرجل: كثر كلامه.

(6) الطبقات (4/ 186، 185) سير أعلام النبلاء (3/ 230).

(7) سير أعلام النبلاء (3/ 232).

(8) الطبقات (4/ 185).

(9) سير أعلام النبلاء (3/ 232).

9 - منهج ابن عمر في الفتن:

لم يكن ابن عمر بمنأى عن الأحداث السياسية من حوله، بل كانت له نظراته وتحليلاته لتلك الأحداث، وتميز ابن عمر بمواقفه في الفتن تميزاً واضحاً فقد عايش عدداً من الفتن التي ابتليت بها الأمة الإسلامية آنذاك، وقد كشفت تلك الفتن عن حكمة بالغة ونظرة ثاقبة للأحداث مما جعلته بحق مدرسة مليئة بالدروس المفيدة والآداب الجمة التي اهتدى بها كثير من الناس في عصره، وأصبحت بعده معلماً يقتدي به من بعده[1]، كما قال سفيان الثوري رحمه الله: يقتدى بعمر في الجماعة وبابنه في الفرقة[2]، ومن أبرز ما يميز منهج ابن عمر في التعامل مع الفتن ما يلي:

أ - تجنب القتال والحرص على حقن دماء المسلمين: وقد وردت عدة روايات توضح موقف ابن عمر رضي الله عنهما من ذلك القتال الدائر في الفتنة الأولى والثانية فعن القاسم بن عبد الرحمن قال: قالوا لابن عمر في الفتنة الأولى: ألا تخرج فتقاتل؟ فقال: قد قاتلت والأنصاب بين الركن والباب حتى نفاها الله عز وجل من أرض العرب، فأنا أكره أن أقاتل من يقول لا إله إلا الله. قالوا: والله ما رأيك ذلك، ولكنك أردت أن يفني أصحاب رسول الله ﷺ بعضهم بعضاً، حتى إذا لم يبق غيرك قيل: بايعوا لعبد الله بن عمر بإمارة المؤمنين. قال: والله ما ذلك في، ولكن إذا قلتم حي على الفلاح أجبتكم وإذا افترقتم لم أجامعكم، وإذا اجتمعتم لم أفارقكم[3]، وجاءه رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا: إن الناس قد صنعوا ما ترى، وأنت ابن عمر وصاحب رسول الله ﷺ فما يمنعك أن تخرج؟ فقال: يمنعني أن الله حرم دم أخي قائلاً: ألم يقل الله ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: 193] فقال: قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله، فلما رأى أنه لا يوافقه فيما يرد قال فما قولك في علي وعثمان قال ابن عمر: ما قولي في علي وعثمان أما عثمان فكان الله قد عفا عنه فكرهتم أن تعفوا عنه وأما علي، فابن عم رسول الله ﷺ وختنه وأشار بيده، وهذا بيته حيث ترون[4]. ولم يكتف ابن عمر رضي الله عنه بالحرص على كف نفسه وتجنيبها إراقة دماء المسلمين، بل سلك بعض السبل التي تؤدي إلى تجنب المسلمين إراقة الدماء فيما بينهم، من ذلك محاولته الجادة - خلال الخلاف بين ابن الزبير وعبد الملك بن مروان - لإنهاء القتال بينهما حقناً لدماء المسلمين[5]. فروى المدائني: أن عبد الله بن عمر كتب إلى عبد الملك بن مروان يأمره بتقوى الله وأن يكف نفسه، فكتب إليه عبد

---

(1) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص: 325.

(2) عبد الله بن عمر، محيي الدين مستو، ص: 212.

(3) حلية الأولياء (1/ 294).

(4) هناك رواية: وهذه بنته أو بنتيه ولعل ذلك تصحيف..

(5) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 328.

الملك أنه سيخرج نفسه ويجعل الأمر شورى، فلما كتب ابن عمر إلى ابن الزبير بذلك لم يلتفت إليه[1].

ب - الحث على السمع والطاعة للإمام القائم ونهيه عن إثارة الفتنة وتفريق الكلمة: قال ابن عمر ﷺ : جاءني رجل في خلافة عثمان فإذا هو يأمرني أن أعتب على عثمان، فلما قضى كلامه قلت له: إنا كنا نقول ورسول الله ﷺ حي: أفضل أمة محمد بعده: أبو بكر وعمر ثم عثمان، وإنا والله ما نعلم عثمان قتل نفساً بغير حق، وجاء من الكبائر شيئاً، ولكنه هذا المال، إن أعطاكموه رضيتم وإن أعطاه قرابته سخطتم. إنما تريدون أن تكونوا كفارس والروم، لا يتركون أميراً إلا قتلوه، ففاضت عيناه بأربع من الدمع ثم قال: اللهم لا تُرْد ذلك[2]، وروى سالم بن عبد الله بن عمر أن أباه قال: لقد عتبوا على عثمان أشياء لو فعلها عمر ما عتبوا عليه[3]. فانظر إلى أي مدى كان حرص عبد الله بن عمر ﷺ في الدفاع عن عثمان والذب عن عرضه والتصدي لما يثيره أهل الفتنة ضد عثمان بن عفان ﷺ لما كان يعلم من خطورة مثل هذا المنحى وما يؤدي إليه النيل من الخليفة والطغاة فيه من فساد، وفرقة، لذا فإن عثمان منحه ثقته فكان يستشيره إبان محنته مع الغوغاء، فحين دخل عليه ابن عمر قال له عثمان: انظر ما يقول هؤلاء يقولون: اخلع نفسك أو نقتلك. قال له ابن عمر: أمخلد أنت في الدنيا؟ قال: لا. قال: هل يزيدون على أن يقتلونك؟ قال: لا قال: هل يملكون لك جنة أو ناراً؟ قال: لا. قال: فلا تخلع قميص الله عليك فتكون سنة، كلما كره قوم خليفتهم خلعوه أو قتلوه[4]. وهذا الرأي من ابن عمر ينم عن بعد نظره وتقديره لعواقب الأمور، وقد أدى استعداده لحمل السلاح للدفاع عن أمير المؤمنين عثمان والتصدي للغوغاء المحاصرين لعثمان في داره، فقد ذكر ابن سعد عن نافع أن ابن عمر لبس الدرع يوم الدار مرتين. ولما قتل عثمان رأى ابن عمر أن الأمة وقعت في محنة، وأن قتل الخليفة بهذه الصورة معصية شؤمها على الأمة خطيرة، لذا لما عرض عليه الغوغاء الخلافة بعد مقتل عثمان قال: إن لهذا الأمر انتقاماً والله لا أعترض له فالتمسوا غيري[5]، وكان ابن عمر ﷺ كثيراً ما يركز في نصائحه للعامة على لزوم الجماعة والإعراض عن دماء المسلمين وأموالهم. فكتب له رجل: اكتب إلي بالعلم كله، فكتب إليه: إن العلم كثير، ولكن إن استطعت أن تلقى الله خفيف الظهر من دماء الناس خميص البطن من أموالهم، كافاً لسانك عن أعراضهم لازماً لأمر جماعتهم فافعل، والسلام[6].

---

(1) أنساب الأشراف (5/ 195).

(2) المعجم الكبير للطبراني (12/ 285) ابن عمر محيي الدين مستو ص: 82.

(3) العواصم من القواصم، ص: 104، 105 ابن عمر محيي الدين مستو، ص: 831

(4) العواصم من القواصم، ص: 130.

(5) تاريخ الطبري، أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 332.

(6) تاريخ دمشق نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 3341

جـ - استجابته لكل من دعاه إلى خير وتعاونه مع أطراف الخلاف فيما يخدم المصلحة: ورد أنه كان لا يأتي أميراً - في زمان الفتنة إلا صلى خلفه وأدى إليه زكاة ماله[1] وقيل له: أتصلي مع هؤلاء ومع هؤلاء وبعضهم يقتل بعضنا؟ فقال: من قال: حي على الصلاة أجبته، ومن قال: حي على الفلاح أجبته، ومن قال: حي على أخيك المسلم وأخذ ماله قلت: لا[2]، وكان ابن عمر يتبوأ مكانة رفيعة في الأمة لصحبته لرسول الله وعلمه وعبادته وزهده وكان عبد الله بن محيريز رحمه الله يراه أماناً في الأرض حيث قال: والله إن كنت أعد بقاء ابن عمر أماناً لأهل الأرض[3].

د - إن ابن عمر رضي الله عنه لم يدعُ إلى وجوب الخضوع المطلق للسلطان، أو جواز البيعة القهرية، أو أن في حياته ما يدل على عدم اهتمامه بأمور المسلمين السياسية أو عدم المشاركة فيها، بل على العكس، فهو كان دائماً أحد الأطراف الرئيسية في المعادلة السياسية في العهد الأموي، وكان أسلوبه هو الحوار واللجوء إلى الشورى، والابتعاد عن الاقتتال، وعندما بدأت الانشقاقات تظهر بين المسلمين اختار أن يكون محايداً وأن يعتزل الاقتتال، لا أن يعتزل الحياة السياسية، وكانت محايدته واعتزاله كنوع من التأمل والتفكر والاطلاع على مواقف الفئات المختلفة والبعد عن المشاركة في سفك دماء بسبب التصارع على السلطة، مع العمل على تهيئة الظروف، والمناخ السياسي الملائم يجمع شمل الأمة. فموقف ابن عمر المحايد كان في البداية بسبب صعوبة تكوين رأي قاطع، فضلاً عن خشية الوقوع في الفتن[4]، وكان يقول: كففت يدي عن القتال فلم أندم والمقاتل على الحق أفضل[5]، وهناك دلائل وحقائق تاريخية تثبت أن ابن عمر، عندما رأى ما يقوم به الحجّاج من مظالم عظيمة في الحرم المكي، وسفك الدماء به، والتعدي على حرمته غيّر رأيه في اعتزال الفتنة، بل وندم على أنه لم يقاتل في جيش علي بن أبي طالب ضد معاوية، الذي كان في نظره خارجاً عن شرعية علي وباغياً عليه، فقد روي حبيب بن ثابت أن ابن عمر عندما حضرته الوفاة قال: ما أجد في نفسي شيئاً إلا أن لم أقاتل الفئة الباغية مع علي[6]، وقد مرّ معنا قول ابن عمر: ما آسى على شيء من هذه الدنيا إلا على ثلاث، ظمأ الهواجر.، ومكابدة الليل، وأني لم أقاتل الفئة الباغية التي نزلت بنا[7]، قال الذهبي: يعني الحجّاج[8]، وقد جاءت في كتب التاريخ أن ابن عمر كان يرى عبد الله بن الزبير أيضاً يندرج تحت مسمى الفئة الباغية وأنه ندم على عدم قتاله لخروجه على بني أمية وبغيه عليهم ونكثه لعهدهم[9]، وهذه الرواية يؤخذ عليها عدة أمور:

(1) الطبقات الكبرى (4/ 149).
(2) المصدر نفسه (4/ 170).
(3) تهذيب التهذيب (5/ 331) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 337.
(4) مع المسلمين حلمي مصطفى، ص: 54.
(5) الطبقات (4/ 164).
(6) سير أعلام النبلاء (3/ 232).
(7) المصدر نفسه (3/ 232).
(8) المصدر نفسه (3/ 232).
(9) المصدر نفسه (3/ 229).

- أن عبد الله بن عمر لو كان يعتقد بأحقية بني أمية بالخلافة من ابن الزبير في وقت الفتنة لبايعهم، ولكنه لم يفعل، فكيف يندم على عدم قتاله معهم، وهو لم يبايعهم - في الأصل.

- أن أقوال عبد الله بن عمر الأخرى، التي تؤكد أن الفئة الباغية هي بنو أمية ورجالاتهم وخاصة الحجّاج، كانت آخر أقواله، وهي ما يعتمد عليها، وأسانيدها صحيحة[1].

إن مواقف ابن عمر السابقة تدحض وتبين ضعف الرأي الذي جعل ابن عمر رائداً لمدرسة الخضوع السياسي للسلطان، وخاصة أن ابن عمر هو الذي روى عن رسول الله ﷺ الحديث: على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب أو كره إلا أن يؤمر في معصية فلا سمع ولا طاعة[2]، والحديث يدل على عدم طاعة الحاكم إذا أمر بمعصية أو خرج عن حكم الله، ولا يمكن لابن عمر أن يخالف حديثاً رواه، وعلى ذلك فإن نظرة ابن عمر تقوم على أن الطاعة للخليفة الشرعي، الذي بويع بالإجماع أو اتفاق الأغلبية، واجبة ما لم يؤمر بمعصية، فإن ظلم أو جار فلا طاعة له، بل يجب مناصحته، فإن لم تُجْدِ المناصحة يجب عندئذ اللجوء إلى المعارضة الصريحة، ولكنه كان يكره اللجوء إلى العنف والاقتتال، لما في ذلك من سفك الدماء وإضعاف لوحدة الجماعة[3].

10 - منهج أهل الحق في ابن الزبير:

قال النووي في شرح مسلم: مذهب أهل الحق أن ابن الزبير كان مظلوماً، وأن الحجّاج ورفقته خارجون عليه. ودخل الحجّاج على أمّه بعد قتله فقال: كيف رأيتني صنعت بابنكِ؟ فقالت: أفسدت عليه دنياه وأفسد عليك آخرتك، وقد أخبرنا رسول الله ﷺ، **«أن في ثقيف مُبِيراً وكذّاباً، فأمّا الكذّاب فرأيناه** - يعني المختار - **وأما المبير**[4]**، فلا أخا لك إلا إياه»**[5].

11 - هدم الكعبة وبنائها في عهد ابن الزبير:

في سنة 64هـ هدم ابن الزبير الكعبة وكانت قد مال حيطانها[6]، وتهدمت، وتشعّثت من حجر المنجنيق الذي كان يرمي به الحصين بن نمير وأصحابه[7]، ولما أراد ابن الزبير هدم البيت شاور الناس في هدمها، فأشار عليه جابر بن عبد الله وعبيد بن عمير بذلك وقال ابن عباس: أخشى أن يأتي بعدك من يهدمها، فلا تزال تهدم حتى يتهاون الناس بحرمتها ولكن أرى أن تصلح ما وهي منها، وتدع بيتاً أسلم الناس عليه، وأحجاراً بُعِث رسول الله ﷺ عليها.

---

(1) الفقهاء والخلفاء، سلطان بن حثلين، ص: 66.
(2) مسلم رقم (1839).
(3) الفقهاء والخلفاء، ص: 66.
(4) المبير: المُهْلِكُ.
(5) مسلم رقم (2545).
(6) تاريخ الطبري (6/ 520).
(7) شذرات الذهب (1/ 308).

فقال ابن الزبير: لو احترق بيت أحدكم ما رَضِي حتى يُجَدِّده، فكيف ببيت ربكم[1]؟، ثم إن ابن الزبير استخار الله ثلاثة أيام[2].

ثم عزم في اليوم الرابع على ذلك فرقت الناس وخرج بعضهم هارباً إلى الطائف وإلى عرفات ومنى وطلع ابن الزبير بنفسه واتخذ معه عبداً حبشياً دقيق السّاقين رجاء أن يكون ذا السُّويقتين الحبشي الذي يهدم الكعبة[3]، فبدأ ينقض الرُّكن إلى الأساس فلمّا وصلوا إلى الأساس وجدوا أصلاً بالحجر مشبكاً كأصابع اليدين، فدعا ابن الزبير خمسين رجلاً وأشهدهم على ذلك، ثم بنى البيت وأدخل الحجر فيه[4]، وجعل للكعبة بابين موضوعين بالأرض، باب يدخل منه، وباب يُخرج منه، ووضع الحجر الأسود بيده وشدَّه بفضة، لأنه كان قد تصدّع، وجعل طول الكعبة سبعة وعشرين ذراعاً، وكان طولها سبعة عشر ذراعاً فاستقصروه، وزاد في وسع الكعبة عشرة أذرع ولطخ جدرانها بالمسك، وسترها بالدِّيباج، ثم اعتمر من مساجد عائشة[5]، وطاف بالبيت، وصلّى وسعى وأزال ما كان حول البيت وفي المسجد من الحجارة والقمامة، وما كان حولها من الدماء وكانت الكعبة قد وهت من أعلاها إلى أسفلها من حجارة المنجنيق واسوَدَّ الركن، وانصدع الحجر الأسود من النار التي كانت حول الكعبة، وكان سبب تجديد ابن الزبير لها ما ثبت في الصحيحين وغيرهما من المسانيد والسُّنن من طرق، عن عائشة أم المؤمنين، أن رسول الله ﷺ قال: **«لولا حدثان قومك بكفر لنقضت الكعبة ولأدخلت فيها الحجر، فإن قومك قصَّرت بهم النَّفقةُ ولجعلت لها باباً شرقياً وباباً غربياً يدخل الناس من أحدهما ويخرجون من الآخر، ولألصقت بابها بالأرض، فإن قومَك رفعوا بابها ليدخلوا من شاءُوا ويمنعوا من شاءُوا»**[6]، فبناها ابن الزبير على ذلك كما أخبرته به خالته عائشة أم المؤمنين عن رسول الله ﷺ، فجزاه الله خيراً، ثم لما غلبه الحجّاج بن يوسف في سنة 73هـ وقتله وصلبه هدم الحائط الشمالي وأخرج الحجر كما كان أولاً، وأدخل الحجارة التي هدمها إلى جوف الكعبة فرضَّها فيها، فارتفع البابُ، وسدَّ الغربيَّ وتلك آثاره إلى الآن، وذلك بأمر عبد الملك بن مروان له في ذلك، ولم يكن بلغه الحديث، فلمّا بلغه الحديث بعد ذلك قال: وددنا أنّا تركناه، وما تولى من ذلك[7].

ثالثاً: أسباب سقوط خلافة ابن الزبير:

من خلال الدراسة تظهر للباحث أسباب عديدة في أسباب سقوط خلافة ابن الزبير وانتصار الأمويين ومن أهم هذه الأسباب:

---

(1) البداية والنهاية (11/ 691).
(2) المصدر نفسه (11/ 691).
(3) شذرات الذهب (1/ 309).
(4) البداية والنهاية (11/ 692).
(5) مساجد عائشة المقصود بها: التنعيم.
(6) البخاري رقم (1583، 4484).
(7) البداية والنهاية (11/ 693).

1 - اتخاذ ابن الزبير الحجاز مقراً لخلافته:

يجمع عدد من الباحثين على أن بقاء ابن الزبير في مكة كان من أهم أسباب إخفاقه[1]، ولئن كان لتوجه ابن الزبير إلى مكة في بداية الأمر له مبرراته[2]، إلا أن إصراره على البقاء فيها واتخاذها عاصمة لخلافته لم يكن في مصلحته وذلك لأن مكة بصفة خاصة والحجاز بصفة عامة لم يعد مكاناً صالحاً ليكون مركزاً لدولة كبيرة مترامية الأطراف، فمكة بعد هجرة النبي ﷺ وأصحابه منها، فقدت دورها السياسي الذي قامت به المدينة إلى عهد عثمان بن عفان، ولما نشبت الفتنة وانتقل علي بن أبي طالب إلى الكوفة، واتخذها عاصمة له، ثم اتخذ معاوية بن أبي سفيان دمشق عاصمة له، بعد أن آلت إليه الخلافة ولم يعد للحجاز - خاصة المدينة ومكة - دورهما السياسي السابق، ويمكن أن نجمل أثر بقاء ابن الزبير في مكة على حركته في النقاط التالية[3]:

أ - الموقع: فمكة - كما هو معروف - من حيث الموقع بعيدة عن الشام والعراق وهما الإقليمان اللذان شهدا أهم مراحل الصراع بين ابن الزبير وبني أمية، فهذا البعد لم يتح لابن الزبير الاطلاع ومتابعة ما يحدث من صراع بين الموالين وخصومه، لاسيما مع ضعف إمكانات الاتصال، وبالتالي فإن ذلك لا يتيح لابن الزبير اتخاذ القرارات المناسبة إزاء ما يجري على الساحة بعكس خصومه الأمويين الذين كانوا يعيشون الأحداث مباشرة، ومن جانب آخر فإن مكة تقع في واد محصور بين عدة جبال شاهقة وهي أشبه ما تكون بالمصيدة لمن يعتصم بها حينما تحاصرها الجيوش من كل الجوانب، ويقطعون عنها الإمدادات، وكادت حركة ابن الزبير تخمد منذ وقت مبكر حينما حاصر الحصين بن نمير ابن الزبير داخل مكة سنة 64هـ لولا أن الله أنقذه بوفاة يزيد بن معاوية وانسحاب جيش الحصين إلى الشام.

ب - الناحية الاقتصادية: تعتمد مكة - بشكل خاص - والحجاز بشكل عام في موارده الاقتصادية على ما يأتيه من خارجها وخاصة من الشام ومصر، وانقطاع هذه الموارد يتسبب في إحداث مجاعة ترهق المقيمين فيه، وقد أفاد بنو أمية من هذا العامل إفادة كبيرة في صراعهم مع ابن الزبير، فبعد سقوط مصر والشام في أيدي الأمويين انقطعت الإمدادات التي تصل إلى المدينة[4]، وبطبيعة الحال فإن مكة سينالها ما نال المدينة، كما لجأ الأمويون إلى هذا السلاح أيام الحصار الأول والثاني[5].

---

(1) مثل، الناطور، والقبلان والخراشي وغيرهم.
(2) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 193.
(3) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 193,1
(4) فتوح البلدان، ص: 218 للبلاذري، عبد الله بن الزبير، ص: 194.
(5) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 194.

جـ - الموارد البشرية: تبع قيام حركة الفتوح الإسلامية هجرة العديد من القبائل إلى الأقاليم المفتوحة وتركزت معظم هذه القبائل في العراق والشام ومصر[1]، وقد ترتب على ذلك اختلال معادلة التوزيع السكاني لترجيح كفة هذين الإقليمين على الحجاز الذي عانى من نقص الكوادر البشرية، وهذا النقص في الواقع لم يتح لابن الزبير تكوين جيش قوي يكون مستعداً في أية لحظة لمهاجمة الخصم، أو على أقل تقدير لصد هجومه، ولذلك نجد أن ابن الزبير إزاء هذا الوضع يلجأ دائماً إلى طلب الإمدادات من العراق وهو بذلك يربط تحركاته بما يكون عليه الوضع في هذا الإقليم من حيث استقراره، واستعداد واليه لإرسال المدد، وهذا مما يفوت على ابن الزبير الكثير من الفرص[2].

2 - سياسة ابن الزبير الإدارية والمالية:

لئن وفق ابن الزبير في تعيين بعض ولاته إلا أن هذا التوفيق لم يكن حليفه في جميع الأحوال، ويبدو أن بقاء ابن الزبير في الحجاز وعدم خروجه إلى الأقاليم الإسلامية لم يتح التعرف على أهل هذه الأقاليم وطبائعهم واتجاهاتهم، وتكوين تصور عام عنهم يعينه على اختيار الولاة المناسبين، ولعل أبرز مثال على اضطراب سياسة ابن الزبير في هذا المجال هو العراق - بمصريه الكوفة والبصرة - ذلك الإقليم الذي كان يعج بالتيارات المختلفة - العقدية والقبلية - والذي يحتاج إلى نوعية خاصة من الولاة تحسن التعامل مع أهله، فلو نظرنا إلى ولاة ابن الزبير على إقليمي العراق وسيرتهم لوجدنا ما يدلل على ذلك، ومن ولاته على الكوفة عبد الله بن مطيع العدوي الذي لم يستطع أن يواجه المختار بن أبي عبيد الثقفي، وهرب من أمامه وخلى بينه وبين الكوفة[3]، وبشكل عام لم يستطع ولاة ابن الزبير ضبط هذا الإقليم الحيوي والاستفادة من طاقات أهله في حرب الأمويين، فقد كان فيه الرجال والأموال، بل على العكس من ذلك فقد كان هذا الإقليم سبباً مباشراً في سقوط خلافة ابن الزبير، وذلك حينما تواطأ أهله مع الأمويين ضد مصعب بن الزبير، أما فيما يتعلق بصلة ابن الزبير بولاته، فيلاحظ أن ابن الزبير كان يخلي بينه وبين واليه والإقليم الذي حكمه ويكل إدارته والقيام بشؤونه حتى في القتال ضد الخصوم، ولم يكن ابن الزبير يتدخل في ذلك، فالصلة بين ابن الزبير وبعض ولاته تكاد تكون مقطوعة مما ترتب عليه سقوط بعض الأقاليم في يد الأمويين، في الوقت الذي كان ابن الزبير يقيم في مكة، ولعل ما حدث لقرقيسياء يدل على ذلك فقد كان زفر بن الحارث الكلابي والياً على هذا الإقليم وكان يقاتل عبد الملك بن مروان عدة سنوات،

---

(1) هجرة القبائل العربية إلى البلاد المفتوحة للعلي، ص: 23، 57.

(2) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 195.

(3) الطبقات (5/ 148).

وأعاق تقدمه إلى العراق، ولما طال عليه الأمد ولم يقدم له ابن الزبير أي عون اضطر في النهاية إلى التسليم لعبد الملك بن مروان بعد أن أقنعه ابنه الهذيل بن زفر بأن عبد الملك بن مروان خيراً له من ابن الزبير[1]، وأما عن سياسة ابن الزبير الاقتصادية: فبالإضافة إلى قلة موارد ابن الزبير الاقتصادية، يلاحظ أنه كان متأثراً في نظرته لما بين يديه من المال بأسلافه من الخلفاء الراشدين وخاصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأراد أن يسلك مسلكهم في طريقة الإنفاق، فأصبح ينظر إلى هذا المال أنه مال الله، وهو حق المسلمين، ولا يجوز أن يصرف إلا في أوجهه الشرعية، وتشدد في ذلك، وهذه السياسة لم ترق للكثيرين في ذلك العصر لأن الناس - كما يقول د. العش - لم يكونوا قادرين على فهم هذه السياسة وقبولها[2]، فلم يسخر ابن الزبير هذا المال في توطيد حكمه، وتقوية صفه وكسب الأنصار من الأعيان والمؤيدين واستمالتهم لمشروعه الشوري، وبطبيعة الحال لقد خسر ابن الزبير الكثير من المناصرين، خصوصاً إذا عرفنا بأن الأمويين كانوا يغدقون الأموال على الشعراء والأعيان والزعماء لكسبهم.

3 - عدم استيعابه لزعماء العراق:

كثير من زعماء القبائل يمكن للحكام أن يستوعبوهم بالأموال والعطايا، فسلاح المال خطير يجذب القلوب ويؤثر في النفوس، فقد روي أن أخاه مصعباً ذهب إليه بعد مقتل المختار بزعماء أهل العراق وقال له: يا أمير المؤمنين، قد جئتك بزعماء أهل العراق وأشرافهم كل مطاع في قومه، وهم الذين سارعوا إلى بيعتك، وقاموا بإحياء دعوتك، ونابذوا أهل معصيتك، وسعوا في قطع عدوك، فأعطهم من هذا المال: فقال له: . . . جئتني بعبيد أهل العراق وتأمرني أن أعطيهم مال الله، لا أفعل وأيم الله لوددت أن أصرفهم كما تصرف الدنانير بالدراهم، عشرة من هؤلاء برجل من أهل الشام[3]، وجاء في رواية: فقال له أبو حاضر الأسيدي - وكان قاضي الجماعة بالبصرة -: إن لنا ولكم مثلاً مضى يا أمير المؤمنين وهو ما قال الأعشى:

عُلِّقْتُها عرضاً وعُلِّقَت رجلاً غيري وعُلِّقَ أخرى غيرها الرَّجل

عُلِّقناك يا أمير المؤمنين وعُلِّقت أهل الشام، وعُلِّق أهل الشام إلى مروان، فما عسينا أن نصنع؟ قال الشعبي: فما سمعت جواباً أحسن منه[4]، ثم بعد ذلك خلعوا ابن الزبير وكتبوا إلى عبد الملك بن مروان أن أقبل إلينا[5].

---

(1) أنساب الأشراف (5/ 305).

(2) الدولة الأموية، ص: 207.

(3) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 506.

(4) البداية والنهاية (11/ 146، 147).

(5) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 506.

4 - عدم بيعة زعماء بني هاشم له ومعارضاتهم لدولته:

فقد امتنع عن بيعته عبد الله بن عباس، ومحمد بن علي بن أبي طالب - ابن الحنفية - وغيرهم. ولم يعاملهم بالرفق واللين، بل اشتد عليهم في بعض الأحيان[1].

5 - إسراف أخيه مصعب في الدماء بعد القضاء على المختار:

فقد جاء مصعب إلى ابن عمر فسلم عليه فقال: من أنت؟ قال: أنا ابن أخيك مصعب بن الزبير. قال: صاحب العراق؟ قال: نعم. قال لابن عمر: أسألك عن قوم خالفوا وخلعوا الطاعة وقاتلوا حتى إذا غلبوا دخلوا قصراً وتحصنوا فيه وسألوا الأمان على دمائهم فأعطوا، ثم قتلوا بعد ذلك، قال: . . يا مصعب لو أن امرأً أتى ماشية الزبير فذبح منها خمسة آلاف شاة في غداة أكنت تعده مسرفاً؟ فسكت مصعب. فقال: أجبني، قال: نعم، إني لأعد رجلاً يذبح خمسة آلاف شاة في يوم مسرفاً. قال: أفتراه إسرافاً في البهائم؟ لا تعبد الله وما تدري ما الله، وقتلت من وحد الله؟ أما كان فيهم مستكره يراجع به التوبة أو جاهل ترجى رجعته[2]؟ فهذا القتل الكثير في أهل العراق أوغر عليه صدور عشائرهم وليس ببعيد أن يكون موقفهم منه في معركة دير الجاثليق له علاقة بهذه الأحداث، فالذي قتل مصعباً هو زياد بن ظبيان، فلما ذهب إلى عبد الملك أمر له بألف دينار فرفض ابن ظبيان أن يأخذ شيئاً وقال لعبد الملك: لم أقتله على طاعتك فإنما قتلته عل قتل أخي النابئ[3]، وقيل اشترك في قتله زائدة بن قدامة الثقفي وقال حين قتله: يا لثارات المختار[4].

6 - تهاون ابن الزبير في أمر الأمويين:

كان الأولى أن يعمل ابن الزبير على منع الأمويين من الخروج من المدينة إلى الشام وبخاصة مروان بن الحكم وابنه عبد الملك، ولو فعل ابن الزبير ذلك لما وجد الأمويون من يلم شعثهم، ويعيد السلطة ثانية، فلم يفكر مروان بن عبد الملك في الخلافة إلا بعد ما خرج من المدينة ووصل الشام، ولم يبذل الجهد المطلوب في دعم مناصريه في الشام، كخروجه على جيش كبير لضبط الأمور بها والقضاء على فتنة الأمويين عند ظهورها.

7 - إهماله الدعاية والإعلان:

وأقصد بذلك عدم اهتمامه بالشعراء وإغداق الهدايا عليهم، صحيح أن دعوة عبد الله بن الزبير أيدها مجموعة من الشعراء كعبيد الله بن قيس الرقيات[5]، الذي قال:

---

(1) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 505، مروج الذهب (3/ 85، 86).

(2) مصنف ابن أبي شيبة (15/ 85).

(3) الكامل في التاريخ (3/ 54).

(4) المصدر نفسه.

(5) ديوان عبيد الله بن قيس، تحقيق محمد يوسف، ص: 117.

أنت ابن معتلج البطاح كُدَيِّها فكَدَائِها
فالبيت ذي الأركان فالمستن من بطحائها

إلى أن قال:

ولدت أغرَّ مباركاً كالبدر وسط سمائها
في ليلة لا نحس فيه سحريها وعشائها
إن البلاد سوى بلادك ضاق عرض فضائها
فاجمع بني إلى بنيك فأنت خير رعائها
نشهدك منا مشهداً ضنكاً على أعدائها
نحن الفوارس من قريش يوم جد لقائها[1]

إلا أن المعركة الإعلامية انتصر فيها الأمويون انتصاراً كبير على ابن الزبير، فقد كانوا يعطون الشعراء ويشترون الناس بالأموال، فهذه أعشى ربيعة من الشعراء الأمويين يقول:

آل الزبير من الخلافة كالتي عجل النتاج بحملها فأحالها
أو كالضعاف من الحمولة حُملت ما لا تطيق فضيعت أحمالها
قوموا إليهم لا تناموا عنهم كم للغواة أطلتم إمهالها
إن الخلافة فيكم لا فيهم ما زلتم أركانها وثمالها
أمسوا على المعروف قفلا مغلقاً فانهض بيمينك فافتتح أقفالها[2]

وسيأتي الحديث عن اهتمام عبد الملك بالشعر والشعراء في الصفحات القادمة بإذن الله تعالى.

8 - استخدام الشدة والقوة مع أخيه عمرو بن الزبير:

إن الطريقة التي اتبعها ابن الزبير في القضاء على أخيه عمرو بن الزبير بعد ما وقع في الأسر جعلت الناس ينظرون إليه على أنه رجل تنقصه العاطفة والشفقة، وكان لذلك مرده السيء على تعاطف الناس مع قضيته، فعمرو بن الزبير كان يضرب الناس في المدينة بناء على تهم موجهة إليهم بشأن تعاطفهم وتعاملهم مع ابن الزبير وكان معيناً من قبل الدولة وكانت قراراته يتخذها بطبيعة عمله، وإن كان فيها شيء من التجني والخطأ والظلم، وبالتأكيد كان الكثير من الناس يتمنون أن يقوم ابن الزبير نفسه بحبسه، أو أن يطلب من كل الذين يدّعون على عمرو بن الزبير بأنه ظلمهم أن يسامحوه ويصفحوا عنه، ويغفروا له خطأه[3]، لقد اعتبر البعض أن ابن الزبير

---

(1) موقف الشعر من الحركة الزبيرية، ص: 26.
(2) المصدر نفسه، ص: 87.
(3) مواقف المعارضة في خلافة يزيد، ص: 535.

ما هو إلا طالب سلطة ودولة وإلا لما تعامل مع أخيه بتلك القسوة[1]، واستغل تلك الحادثة الشعراء الخصوم فقد قال الضحاك بن فيروز الديلمي ساخراً من ادّعاء عبد الله بن الزبير الزهد والصلاح:

تخبرنا أن سوف تكفيك قبضة ... وبطنك شبرٌ أو أقلُّ من الشبر
وأنت إذا ما نلت شيئاً قضمته ... كما قضمت نار الغضا حطب السدر
فلو كنت تجزي أو تبيت بنعمة ... قريباً لردتك العطوف على عمرو[2]

وقال عبد الله بن الزبير الأسدي مؤلّباً على ابن الزبير داعياً عليه:

تحدث من لاقيت أنك عائذ ... وصرّعت قتلى بين زمزم والركن
قتلتم أخاكم بالسياط سفاهة ... فيالك للرأي المُشَلَّلِ والأفن[3]

إلى أن قال:

قطعت من الأرحام ما كان واشجاً ... على الشَّيب وابتعت المخافة بالأمن[4]

9 - تفوق خصوم ابن الزبير:

ليس بمستغرب أن يتفوق بنو أميه على ابن الزبير، الذي لم تتح له الفرصة لأن يتولى إقليماً من الأقاليم ليكتسب الخبرة، في حين أن بني أمية تهيأت لهم العديد من الفرص خاصة بعد أن آلت الخلافة إليهم في عهد معاوية بن أبي سفيان، وفي الجانب العسكري، نلمس تفوق بني أمية على ابن الزبير من حيث التكتيك الحربي، وقيادة الجيوش. ولعل من أبرز ما يلاحظ في ذلك أن مروان بن الحكم قد خرج بنفسه على جيش كبير لضم مصر، ثم باشر ابنه عبد الملك حرب العراق بنفسه وهذا أتاح لهما التعرف على ما يدور في ساحة القتال عن كثب، كما أنه يعطي المقاتلين دفعة معنوية كبيرة، وفي المقابل نجد ابن الزبير يعتمد على قواده أو ولاة الأقاليم في حروبه ولم يغادر مكة قط، وقد انتقد عبد الملك بن مروان هذه السياسة فقال: إن عبد الله بن الزبير لو كان خليفة كما يزعم لأبدى صفحته، وآسى أنصاره بنفسه، ولم يغرز ذنبه في الحرم[5]، ويلاحظ أيضاً أن بني أمية منذ صراعهم مع ابن الزبير كانوا دائماً في موضع المهاجم بعكس ابن الزبير الذي ظل في موقف الدفاع[6].

(1) مواقف المعارضة، ص: 535.
(2) الحزب الزبيري في أدب العصر الأموي، ثريا ملحس، ص: 225.
(3) المصدر نفسه، د. ثريا ملحس، ص: 228 الأفن: ضعف الرأي.
(4) المصدر نفسه، ص: 228.
(5) الطبقات (5/ 232).
(6) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص: 199.

10 - الظروف التي نشأت فيها حركة ابن الزبير:

إن من الإنصاف أن تذكر أن الظروف السيئة التي وجدت فيها حركة ابن الزبير ساهمت إلى حد كبير في سقوط خلافته، تمثلت هذه الظروف بظهور التيارات والاتجاهات المذهبية، والقبلية، وانعدام الاستقرار السياسي الذي هو من أهم الشروط لقيام حكم مستقر، لقد أشغل الخوارج ابن الزبير كثيراً، كما أن حركة المختار أخذت من جهده ووقته ورجاله، فهذه الحركات ذات المنطلقات العقائدية أشغلت ابن الزبير كثيراً عن التفكير في تنظيم دولته، كما استنزفت الكثير من طاقاته المادية والبشرية[1].

11 - رابعاً: رثاء عبد الله بن الزبير: رثى ابن الزبير بقصائد كثيرة مبكية حزينة حفظها لنا التاريخ، ولم تهملها الليالي، ولم تفصلها عنّا حواجز الزّمن، ولا أسوار القرون ومما قيل في رثائه ما قاله عبد الله بن أبي مسروح:

لقد أدركت كتائب أهل حمص ... لعبد الله طرفاً غير وعل

شجاع الحرب إذ شدّت وقوداً ... وللحادين خيرُ محلّ رحل

ومن ذا يكره الأبطال منه ... إذا اعتنشوا طريقاً غير سهل

فمال الشامتين بنا أصيبوا ... وقلُّوا من سراتهم لمثلِ[2]

وقال قيس بن الهيثم السلمي:

فقدنا مصعباً وأخاه لمّا ... نَفَتْ سماؤهما المحُولا

وكنا لا يرام لنا حريم ... تُسحّبُ في مجالسنا الذيولا

إذا أمن الجناب وإن فزعنا ... ركبنا الخيل واجتنبنا الشُّليلا

ونرمي بالعدواة من رمانا ... ونوطئهم بها وطأ ثقيلاً

فيا لهفي ولهف أبي وأمي ... لقد أصبحت بعدهما ذليلا

ويا لهفاً على ما فات مني ... ألا أصبحت في القتلى قتيلا

ولم أصبح لأهل الشام نَضباً ... يذكرني ابن مروان الذُّحولا

فلا رفداً يعدّ ولا غناء ... ولا إذْناً ولا حبساً جميلا

ولكن بين ذلك بين بين ... لقد ضلّ ابن مروان السبيلا[3]



(1) عبد الله بن الزبير، للخراشي، ، ص: 199.

(2) تاريخ ابن عساكر (30/ 193).

(3) تاريخ دمشق لابن عساكر (30/ 193، 194).

الفصل السابع

عهد أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان دون الفتوحات

اجتمعت الأمة بعد مقتل عبد الله بن الزبير على عبد الملك بن مروان وأصبح الخليفة الشرعي، وهو أول خليفة ينتزع الخلافة بقوة السيف والقتال، مما أثر على الفقه السياسي بعد ذلك أكبر الأثر، فإذا كان معاوية قد أصبح خليفة بعد الصلح مع الحسن بن علي واجتماع الأمة عليه طواعية عام الجماعة، وإذا كان ابنه يزيد قد بويع من الأمصار في حياة أبيه ثم بعد وفاته، وإذا كان ابن الزبير قد بويع بعد وفاة يزيد وهو بمكة من عامة الأمصار عن رضا واختيار، فإن عبد الملك أول خليفة انتزع الخلافة انتزاعاً وبايعه كثير من الناس، بعد أن قتل عبد الله بن الزبير ليبدأ عصر الخليفة المتغلب وهو ما لم يكن للأمة به عهد من قبل، لقد أجمع الصحابة ﷺ على أن الإمامة إنما تكون بعقد البيعة بعد الشورى والرضا من الأمة، كما أجازوا الاستخلاف بشرط الشورى ورضا الأمة بمن اختاره الإمام، وعقد الأمة البيعة له بعد وفاة من اختاره دون إكراه، كما أجمعوا على أنه لا يسوغ فيها التوارث ولا الأخذ لها بالقوة والقهر، وأن ذلك من الظلم المحرم شرعاً[1]. قال ابن حزم: لا خلاف بين أحد من أهل الإسلام أنه لا يجوز التوارث فيها[2]، غير أن الأمر الواقع بدأ يفرض نفسه، وصار بعض الفقهاء - بحكم الضرورة - يتأولون النصوص لإضفاء الشرعية على توريثها وأخذها بالقوة لتصبح هاتان الصورتان بعد مرور الزمن هما الأصل الذي يمارس على أرض الواقع، وما عداهما نظريات لا حظ لها من التطبيق العملي[3]، إلا في حالات نادرة.

وأصبحت سنة هرقل وقيصر بديلاً عن سنة أبي بكر وعمر؟[4].

وقد أجاز كثير من الفقهاء طريق الاستيلاء بالقوة من باب الضرورة مع إجماعهم على حرمتها مراعاة لمصالح الأمة وحفاظاً على وحدتها وأصبح الواقع يفرض مفاهيمه على الفقه والفقهاء، وصارت الضرورة والمصلحة العامة تقتضي تسويغ مثل هذه الطرق.

إن الاستبداد والاستيلاء على حق الأمة بالقوة - وإن كان يحقق مصلحة آنية - إلا أنه يفضي إلى ضعف الأمة مستقبلاً وتدمير قوتها وتمزيق وحدتها، كما هو شأن الاستبداد في

---

(1) الحرية أو الطوفان، ص: 119.
(2) الفصل (4/ 167).
(3) الحرية أو الطوفان، ص: 119.
(4) المصدر نفسه، ص: 119.

جميع الأعصار والأمصار وأن ما يخشى من افتراق المسلمين بالشورى خير من وحدتهم بالاستبداد على المدى البعيد[1]، وإن الاستمرارية في ممارسة الشورى مع ما يعتريها من عوائق ومصاعب تثري الأمة في الفقه السياسي وتقطع بها مسافات كبيرة في هذا المجال ولهذا تعثر الفقه السياسي في مسيرته التاريخية ولم ينطلق الانطلاقة المطلوبة منه بسبب النظام الوراثي والاستبدادي.

إن عبد الملك بن مروان شق طريقه نحو الملك بسفك الدماء وقتل الأبرياء والخروج على الخليفة الشرعي عبد الله بن الزبير، فلم يراعِ حرمته كصحابي جليل، ولم يلتمس عذراً لابن عمه عمرو بن الأشدق، ويحرص على الوفاء لعهده، ولم يحترم الزمالة والصداقة مع مصعب ابن الزبير، ، ولا ننكر بأن عبد الملك بن مروان كان من عقلاء الرجال ودهاتهم، ومن أكثرهم حزماً وشجاعة وإقداماً[2]، وقد أثبت عبد الملك كفاءة عالية في إدارة الدولة وسياستها وكان غير هياب يمضي إلى هدفه بعزيمة ثابتة، ولا يعرف اليأس إلى نفسه سبيلاً، ولا يتردد عن قيادة المعارك بنفسه، ولقد استطاع بعد جهود جبارة أن يعيد الوحدة ويجمع شمل الأمة الإسلامية وأن يصفي خصومه الواحد بعد الآخر، بالصبر والجلد والمثابرة، وعمل على توطيد دعائم دولته ونجح في ذلك نجاحاً فائقاً، ولم تكن تأخذه هوادة أو رحمة بكل من يحاول أن يعكر صفو الدولة أو يخرج عليها، وقد استحق عبد الملك عن جدارة لقب المؤسس الثاني للدولة الأموية، بعد معاوية مؤسسها الأول[3]، وقد عمل على توطيد الأمن في البلاد وتفرغ للخوارج وقمع الثورات، ومن أشهر الحركات التي خرجت في عهده، حركة الأزارقة والصفرية وابن الأشعث واستطاع أن ينتصر عليها جميعاً، إن عبد الملك بن مروان أصبح أمير المؤمنين بعد مقتل ابن الزبير وبيعة المسلمين له ومذهب عامة أهل السنة والجماعة، إن الإمامة يصح أن تنعقد لمن غلب الناس، وقعد بالقوة في موضع الحكم[4]، إلا أنه يجب أن يفهم أن هذه حال ضرورة والضرورات تبيح المحظورات، فهذه حال إلجاء واضطرار كأكل الميتة ولحم الخنزير، وقبولها لأنها خير من الفوضى التي تعم الناس. وعلى هذا فإنه يجب ألا توطن الأمة نفسها على دوام هذا الوضع، بل يجب عليها أن تعمل على تغيير الإمامة الناقصة بإمامة كاملة مستوفاة الشروط المطلوبة في الإمام الحق بالوسائل التي لا يكون فيها فتنة بين الناس، ويجب السعي دائماً لأن يكون الإمام آتياً عن الطريق الصحيح وهو طريق أهل الحل والعقد، ومع إن إمامة المتغلب تنعقد نظراً إلى حال الضرورة كما قلنا، إلا أن الغالبية العظمى من علماء

---

(1) الحرية أو الطوفان، ص: 123.

(2) سير أعلام النبلاء (4/ 249).

(3) العالم الإسلامي في العصر الأموي.

(4) الأحكام السلطانية لأبي يعلى، ص: 7، 8، رياسة الدولة، ص: 304.

المسلمين لم يجيزوا أن يكون القهر طريقاً لانعقاد إمامة الكافر للمسلمين[1]، وإذ حال القهر يمكن أن يتسامح فيها في بعض شروط الإمامة كالعلم أو العدالة أو البلوغ، إلا أن شرط الإسلام لا يمكن أبداً إسقاطه عن الإمام، وعلى هذا، فلو تغلب كافر على هذا المنصب فلا يجوز شرعاً - كما يرى ذلك الجمهور - السكوت على هذا الوضع ويجب خلع هذا المتغلب بقوة السلاح[2]لأن الله سبحانه يقول: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ [النساء: 141].

المبحث الأول

القضاء على حركة الخوارج

ظل الخوارج فرقة واحدة يتبنون أفكاراً ومبادئ واحدة بصفة عامة إلى ما بعد وفاة يزيد حين بدأوا ينشقون على أنفسهم، وكلما اختلف أحدهم مع رفاقه في الرأي، انشق عنهم مكوناً له فرقة خاصة، حتى وصل عدد فرقهم إلى أكثر من ثلاثين فرقة[3]، ومن أشهر فرق الخوارج التي قاتلها عبد الملك: الأزارقة والصفرية.

أولاً: الأزارقة:

هم أتباع نافع بن الأزرق ، الذين يعدون أشد فرق الخوارج تطرفاً في الأفكار والمبادئ وجنوحاً إلى العنف، وكان زعيم هذه الفرقة هو أول من أحدث الخلاف بين الخوارج لتطرفه، فقد برئ من القاعدين، الذين لا يخرجون معه للقتال، كما قال بكفر من لم يهاجر إليه[4]. فضلاً عن إباحته أموال ودماء مخالفيه، وتكفيره لمرتكب الكبيرة وحكمه بخلوده في النار[5]، ومن أهم ما تميزت به هذه الفرقة:

- الانفصال الكامل عن المجتمع المسلم، حيث زعم نافع وأتباعه أن دار مخالفيهم دار كفر.

- إيمانهم بمبدأ الاستعراض فكانوا يتعرضون للناس بالقتل والنهب، فقد أباحوا لأنفسهم قتل الرجال والنساء والصبيان «من المسلمين».

---

(1) حاشية نور الدين الشبراملسي على شرح الرملي (7/ 392).
(2) رياسة الدولة في الفقه الإسلامي، ص: 305.
(3) مقالات الإسلاميين للأشعري (1/ 157) رياسة الدولة في الفقه الإسلامي، ص: 305.
(4) مقالات الإسلاميين (1/ 157).
(5) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 456.

- أنهم كفروا القعدة. ونافع أول من أظهر البراءة من القعدة عن القتال، وإن كانوا موافقين له على دينه، وكفر من لم يهاجر إليه، فهذه من أهم البدع التي فارق بها الأزارقة بقية الخوارج[1].

فارق الأزارقه بقيادة نافع بن الأزرق عبد الله بن الزبير عندما تبين لهم أنه لم يكن على رأيهم فيما يذهبون إليه، وقد انبث أفراد هذه الفرقة الخارجة في مناطق البصرة والأهواز وما وراءها من بلاد فارس وكرمان في أيام عبد الله بن الزبير وصاروا يحاربون المسلمين جهاراً[2]، وجاءت تولية المهلب على حرب الأزارقة بناء على اختيار أهل البصرة له واقتران ذلك بموافقة عبد الله بن الزبير[3]، إلا أن المهلب لم يخرج لقتالهم إلا بعد أن اشترط على أهل البصرة جملة شروط أجابوه إليها، فخوّل الحق باختيار من يشاء من المقاتلة، وأن تكون له إمرة وخراج كل بلد يقع في حوزته[4]، وانتخب المهلب اثني عشر ألف رجل من أخماس البصرة، ولم يكن في بيت المال سوى مئتي ألف درهم عجزت عن عطاء الجند وعن تجهيزاتهم، فبعث المهلب إلى التجار وقال لهم: إن تجارتكم منذ حول قد كُسرت بانقطاع موارد الأهواز وفارس عنكم، فهلمّ فبايعوني واخرجوا معي أوفيكم إن شاء الله حقوقكم، فأخذ منهم من المال ما يصلح به عسكره، واتخذ لأصحابه ما يلزم من التجهيزات، فلما انتصر المهلب على الخوارج، قام بجباية الخراج من الكور حتى قضى للتجار ما أخذ منهم[5].

استمر المهلب يقاوم الخوارج ما يقرب من عامين، ثم استدعاه مصعب بن الزبير الذي أصبح والي البصرة من قبل أخيه عبد الله ليشترك معه في حرب المختار الثقفي سنة 67هـ، وبعد هزيمة المختار عيَّن مصعب المهلب والياً على الموصل والجزيرة وأذربيجان وأرمينية[6]، ولكن أحداً لم يستطع أن يقوم مقام المهلب في مقاومة الخوارج مما اضطر مصعباً أن يستدعيه من الموصل ليتولى قتالهم من جديد[7]، وبينما المهلب يقاوم الخوارج في الأهواز تمكن عبد الملك بن مروان من سيطرة الدولة الأموية على العراق، بعد مقتل مصعب بن الزبير سنة 72هـ[8]، وولي أخاه بشر بن مروان على العراق وأمره بإبقاء المهلب على حرب الخوارج ومساعدته، فعمل بشر بما أمره به عبد الملك وبرهن المهلب على إخلاصه في حرب الخوارج

---

(1) الخوارج: دراسة ونقد لمذهبهم، ناصر السعوي، ص: 76.
(2) آل المهلب بن أبي صفرة ودورهم في التاريخ، ص: 37.
(3) تاريخ الطبري، نقلاً عن آل المهلب بن أبي صفرة، ص: 37.
(4) الكامل في التاريخ نقلاً عن آل المهلب بن أبي صفرة، ص: 37.
(5) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص: 383.
(6) تاريخ الطبري نقلاً عن العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 462.
(7) المصدر نفسه. (8) المصدر نفسه.

الأزارقة مهما كانت السلطة التي تصدر إليه الأوامر[1]، فكما قاتلهم تحت لواء آل الزبير استمر يقتالهم تحت لواء عبد الملك، ولما أسندت ولاية العراق إلى الحجّاج بن يوسف الثقفي سنة 75هـ جدّ في مساعدة المهلب وحشد له العراقيين وشد أزره، فاشتد في مقاومتهم حتى تمكن من القضاء على خطرهم، وقد أتاح له الخوارج أنفسهم فرصة كسر شوكتهم عندما انقسموا على أنفسهم قسمين، قسم تزعمه رجل اسمه عبد ربه وقد قضى عليه المهلب نهائياً[2]، وأما قطري بن الفجاءة ومجموعته فقد رحلوا إلى طبرستان، ولكن المهلب تمكن من القضاء عليهم سنة 77هـ بمساعدة جيش أرسله إليه الحجّاج بقيادة سفيان بن الأبرد الكلبي[3]، وهكذا قضى المهلب على خطر من أكبر الأخطار التي هددت الدولة الأموية في عهد عبدالملك بن مروان، وهم الخوارج الأزارقة الذين كان مسرح عملياتهم العراق وبلاد فارس وكرمان والأهواز، واستمرت حركتهم ثلاثة عشر عاماً 65 - 78هـ[4].

1 - وصف المهلب بن أبي صفرة الأزدي وشيء من أقواله:

وصف المهلب بأنه كان نزر الكلام وجيزه، يفضل فعله على لسانه[5]، متلطفاً في إجاباته[6]، كاتماً للسر[7]، حليماً في موضع الحلم، شديداً في موضع الشدة، وإن كان الحلم أغلب عليه، فيروى أن رجلاً شتمه فلم يرد عليه: فقيل له: لم حلمت عنه؟ قال: لم أعرف مساويه وكرهت أن أبهته بما ليس فيه[8]، واتصف المهلب بصبره وأناته في أعماله وحروبه وكان يقول: أناة في عواقبها فوت خير من عجلة في عواقبها درك[9]، وعندما كان الحجّاج يستعجله بمناجزة الأزارقة الخوارج، أجابه بقوله: إن البلاء كل البلاء أن يكون الرأي لمن يملكه دون من يبصره[10]، ومما اشتهر به المهلب في حروبه هو إعداده للبيات وأحكامه الأمور[11]، أي أنه كان يباغت أعداءه بشن الهجوم عليهم ليلاً فيحرز انتصارات مؤزرة، واشتهر المهلب بكرمه وسخائه، ومن أقواله لأبنائه في هذا الباب: ما رأيت أحداً بين يدي قط إلا أحببت أن أرى ثيابي عليه، واعلموا يا بني أن ثيابكم على غيركم أحسن منها عليكم[12]، وكان يحرص على شراء ود الناس وله قول مأثور في ذلك: عجبت لمن يشتري المماليك بماله ولا يشتري

---

(1) العراق في العصر الأموي، ص: 233، 234.
(2) تاريخ الطبري (7/ 83 إلى 89).
(3) المصدر نفسه نقلاً عن العالم الإسلامي، ص: 264.
(4) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 464.
(5) الأخبار الطوال، ص: 281.
(6) المصون في الأداب، ص: 187.
(7) المحاسن والأضداد، ص: 14، آل المهلب، ص: 22.
(8) الكامل في اللغة والأدب (2/ 314) آل المهلب، ص: 22.
(9) المحاسن والمساوئ (2/ 91).
(10) العقد الفريد (1/ 87).
(11) البيان والتبيين (1/ 253).
(12) قلائد العقيان في محاسن الأعيان، ص: 198.

الأحرار بمعروفه[1]، وقيل له: بم ظفرت؟ قال: بطاعة الحزم، ومعصية الهوى[2].

2 - من أساليب المهلب في قتال الخوارج:

كانت سياسة المهلب تقوم على النفس الطويل في محاربة الخوارج وكان ينتظر تفجيرهم من الداخل، حتى يهون عليه أمرهم ويسهل القضاء عليهم، فقد كتب إلى الحجّاج: إني انتظر منهم ثلاث خصال: موت صاحبهم قطري بن الفجاءة، أو فرقة وتشتيتاً، أو جوعاً قاتلاً[3]، ولم تخطئ تقديرات المهلب للخوارج إذ سرعان ما دبّ الشقاق في صفوف الأزارقة، فما كان من المهلب إلا أن انتهز الفرصة فصعّد الخلاف في صفوفهم، فعمد إلى حيلة ناجحة، فقد عرف بين الخوارج رجلاً يصنع السهام المسمومة، فأرسل المهلب أحد أصحابه، بكتاب أمره أن يلقيه بين عساكر قطري سراً كتب فيه: أما بعد، فإن نصالك وصلت وقد أنفذت إليك ألف درهم. فلما استوضح من الصانع أنكر فقام قطري بن الفجاءة بقتله، فخالفه بذلك عبد ربه الكبير ووقع خلاف جديد[4]. وتعميقاً للخلاف في صفوف الخوارج جنّد المهلب رجلاً نصرانياً وأمره أن يسجد لقطري بن الفجاءة فلما شاهده الخوارج أنكروا ذلك عليه وقتلوا النصراني واتهموا زعيمهم بتأليه نفسه[5]. وأخذ الخوارج يقتتلون فيما بينهم، بينما المهلب ينتظر النتائج النهائية التي تسفر عنها هذه التصفيات ليتفرغ لها، مما جعله لا يمتثل لأمر الحجّاج عندما طالبه بمقاتلتهم، بل كتب له: إني لست أرى أن أقاتلهم ما دام يقتل بعضهم بعضاً، فإن تمّوا على ذلك فهو الذي تريد وفيه هلاكهم، وإن اجتمعوا لم يجتمعوا إلا وقد رمق بعضهم بعضاً، فأناهضهم حينئذٍ، وهم أهون ما كانوا وأضعفهم شوكة إن شاء الله تعالى[6]، فكف عنه الحجّاج، وتركهم المهلب يقتتلون شهراً لا يحركهم[7]، ثم سار إليهم المهلب وتهيأت له الخوارج بقيادة عبد ربه الكبير ثم تلا ذلك قتل شديد تمكن المهلب في نهايته من طردهم من جيرفت، ثم لاحقهم حتى هزمهم هزيمة منكرة، وقتل زعيمهم عبد ربه ولم ينج منهم إلا عدد قليل[8]، ولعل نجاح المهلب يعود إلى أسلوبه الحربي، الذي يعتمد على المطاولة ويتجنب العجلة، بجانب قيادته الحكيمة وشجاعته وخبرته العسكرية ومكره في الحروب[9]. قال الشاعر:

قد يدرك المرء بالتدبير ما عجزت عنه الكمأة ولم يحمل على بطل

---

(1) آل المهلب بن أبي صفرة، ص: 24.
(2) سرح العيون لابن نباته، ص: 113.
(3) الفتوح (7/ 14).
(4) الكامل في الأدب (3/ 1139 - 1140).
(5) الكامل في التاريخ (3/ 128).
(6) المصدر نفسه (3/ 129).
(7) الأخبار الطوال، ص: 276.
(8) الكامل في التاريخ (3/ 129)
(9) تجديد الدولة الأموية، ص: 95.

ونتيجة انتصاراته ضد الخوارج فقد رأى فيه الخليفة عبد الملك بأنه قادر على إيجاد التوازن بين الأطراف القبلية المتنازعة فولّاه على خراسان، فمكث فيها خمس سنوات إلى أن توفي عام 82هـ[1].

3 - قطري بن الفجاءة التميمي:

خرج زمن مصعب بن الزبير، فبقي عشرين سنة يقاتل ويسلم عليه بالخلافة[2] - عند الخوارج الأزارقة - وهزم الجيوش، واستفحل بلاؤه، جهز إليه الحجّاج جيشاً بعد جيش فيكسرهم، وغلب على بلاد فارس، وله وقائع مشهودة، وشجاعة لم يسمع بمثلها وشعر فصيح سائر[3]، فله:

أقول لها وقد طارت شعاعاً	من الأبطال ويحك لن تراعي
فإنك لو سألت بقاء يوم	على الأجل الذي لك لم تطاعي
فصبراً في مجال الموت صبراً	فما نيل الخلود بمستطاعِ
ولا ثوب الحياة بثوب عزٍّ	فيطوى عن أخي الخنع اليراع
سبيل الموت غاية كل حيٍّ	وداعية لأهل الأرض داعي
ومن لم يُعتبط يهرم ويسأم	وتُسلمه المنون إلى انقطاع
وما للمرء خيرٌ في حياة	إذا ما عُدَّ من سقط المتاع[4]

وقد أرسل الحجّاج لحربه سفيان بن الأبرد الكلبي فانتصر عليه وقتله، وقيل عثر به الفرس، فانكسرت فخذه بطبرستان، فظفروا به وحُمل رأسه سنة تسع وسبعين إلى الحجّاج، وكان خطيباً بليغاً كبير المحلّ من أفراد زمانه[5].

ثانياً: الخوارج الصفرية:

الخوارج الصفرية هم أحد فرق الخوارج الرئيسية وفي تعيين نسبتهم أقوالاً عدة، فقيل إنهم أتباع زياد بن الأصفر، وقيل: ابن عبد الله بن صفار، وقيل: عبد الله بن قبيصة، وأطلق عليهم ذلك اللقب لأن العبادة أنهكتهم فاصفرت وجوههم فنسبوا إلى تلك الصفرة[6]، وأي كان ذلك السبب فقد بدأت خطورة أمرهم من الصالحية أو أتباع صالح بن مسرح التميمي، ذلك الرجل الذي كان موطنه بين نصيبين ومساروين وهو مؤسس فرقة الخوارج الصالحية وسمت هذا

---

(1) الكامل في التاريخ (3/ 152).
(2) شذرات الذهب (1/ 325).
(3) سير أعلام النبلاء (4/ 152).
(4) المصدر نفسه (4/ 152).
(5) المصدر نفسه (4/ 152).
(6) الخوارج، ناصر عبد الله، ص: 81، الحجاج بن يوسف، جمال محمود، ص: 81.

الرجل الصمت والهدوء، وعدم التعجل لذا ظل يعلم الناس في هدوء وسكينة عشرين سنة[1]، وكان من أهم أتباعه وأنصاره، ذلك الرجل المقدام الذي دوّخ جيوش الحجّاج في مواقع عدة، وهو شبيب بن يزيد الشيباني، والذي كان يسكن في الجانب الأيمن من الفرات في صحراء الكوفة، ويدأ أمر الخوارج يعلو ولاسيما بعد محاولة شبيب اغتيال عبد الملك بن مروان في موسم الحج لولا وصول الخبر إلى عبد الملك فأخذ حذره وانقضى الموسم بسلام. ويدأ الحجاج في التضييق على صالح وأتباعه، فنزلوا جميعاً وبعثوا إلى إخوانهم واستعدوا للخروج على دولة الخلافة، وكان الرجل من الخوارج كأنه جيش بمفرده بعدته وعتاده، وكانت وقعات الخوارج مع جيوش الحجّاج كثيرة العدد، وقد بدأت هذه الفرقة بالخروج على دولة الخلافة وهم مائة وعشرون[2]. وكانت بداية هذه الثورة من الموصل في شمال العراق وكانت ثورة خطيرة جداً، فقد تمكن قائدها شبيب بن يزيد من هزيمة العديد من جيوش الحجّاج الجرارة وهي في عدد قليل، وتمكن من دخول الكوفة[3]، بعد أن قتل خمسة قوّاد أرسلهم الحجّاج لحربه واحداً بعد واحد، وكانت زوجته غزالة عديمة النظير في الشجاعة[4]، وكانت نذرت أن تصلي في جامع الكوفة ركعتين تقرأ فيهما بالبقرة وآل عمران[5]، ووفت بنذرها[6]، وعيّر عمران بن حطان شاعر الخوارج الحجّاج فقال:

أسد عليّ وفي الحروب نعامة ... فتخاء تنفُرُ من صفير الصافر
هلّا كررت على غزالة في الوغى ... بل كان قلبك في جناحي طائر
قرعت غزالة قلبه بفوارس ... تركت مناظره كأمس الغابر[7]

وقد قتل شبيب عدداً من أشراف الكوفة ولكنه لم يتمكن من البقاء فيها فخرج منها، ثم عاد إليها ثانية وضرب عليها الحصار بعد أن هزم جيشاً للحجاج عدته ألوفاً، وقتل قائده عتاب بن ورقاء وهو في ستمائة رجل[8]، ولما يئس الحجّاج من أهل الكوفة لتقاعسهم عن القتال وهالته هزائمهم المتكررة وهم في أعداد كبيرة أمام شبيب وهو في أعداد قليلة، أرسل إلى عبد الملك ابن مروان يطلب مدداً من أهل الشام واضطر الحجاج أن يقود الجيش بنفسه، واستطاع هزيمة شبيب لأول مرة، فلاذ بالأهواز، فأرسل الحجّاج خلفه جيشاً التقى به هناك، ولم تكن النتيجة حاسمة لأي من الفريقين، غير أن شبيب غرق بينما كان يعبر أحد الأنهار فلما سقط قال: ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: 42] وانغمس في الماء، ثم ارتفع وقال: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ

(1) تاريخ الطبري (7/ 104 - 112).
(2) تاريخ الطبري (7/ 108).
(3) سير أعلام النبلاء (4/ 146).
(4) المصدر نفسه (4/ 145، 146).
(5) الكامل في التاريخ (3/ 121).
(6) شذرات الذهب (1/ 316).
(7) سير أعلام النبلاء (4/ 147) تاريخ ابن عساكر (46/ 338).
(8) العراق في العصر الأموي، للراوي، ص: 238.

ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ [الأنعام: 96] وغرق[1]، وبهذا تخلص منه الحجّاج بعد أن كبد الدولة كثيراً من الأموال والأرواح[2]، ولولا الله ثم تدخل عبد الملك لكان من الممكن أن تتغير الأوضاع السياسية في العراق والمناطق الشرقية، فقد استطاع أن يسوي المتكلة ووضع لها الحل المناسب من تجهيز الجيوش وإرسالها، وتولية القيادة المحنكين ليواجهوا شبيباً[3]. ومن اللطائف التي تذكر: حضر عتبان الحروري عند عبد الملك بن مروان فقال: أنت القائل:

فإن يك منكم كان مروان وابنه ... وعمرو ومنكم هاشم وحبيب

فمنّا حُصينُ والبطينُ وقعنبٌ ... ومنا أميرُ المؤمنين شبيب

فقال: إنما قلت: ومنا أميرَ المؤمنين شبيبُ. على النداء فأعجبه وأطلقه[4]. وهذا الجواب في نهاية الحسن، فإنه إذا كان «أمير» مرفوعاً كان مبتدأ فيكون شبيب أمير المؤمنين، وإذا كان منصوباً فقد حذف منه حرف النداء ومعناه يا أمير المؤمنين منا شبيب، فلا يكون شبيب أمير المؤمنين، بل يكون منهم[5].

1 - من شعراء الخوارج عمران بن حطان:

هو عمران بن حطّان ابن ظبيان، السدوسي البصري، من أعيان العُلماء، لكنّه من رؤوس الخوارج، حدّث عن عائشة وأبي موسى الأشعريّ وابن عباس، قال أبو داود: ليس في أهل الأهواء أصحُ حديثاً من الخوارج ثم ذكر عمران بن حطان، وأبا حسَّان الأعرج[6]، وقد تميزت حياته أول الأمر بأنه فقيه ومحدث على منهج أهل السنة، ثم تزوج قريبة له - كانت على مذهب الخوارج - يريد أن يصرفها عن مذهبها، لكنها استمالته إلى مذهبها، كان ذلك وقد كبرت سنه وطال عمره، فضعف عن الحرب، وقنع بالدعاية إلى مذهبه بلسانه، ولم يستطع أن يشارك في الحرب بسيفه ورضي القَعدة من الصفرية منه بهذا البياني وطارده الحجّاج، ففر من العراق إلى الشام وجعل يتنقل من مدينة إلى مدينة في استخفاء وتمويه وتغيير للأسماء، ونزل على روح بن زنباع الجذامي وأنس إلى كرمه وأخلاقه وادّعى أنه أزديّ، فاستضافه روح سنة كاملة كان فيها معجباً بتقوى ضيفه الأزدي وعلمه وأدبه، وكان روح لا يسمع شعراً نادراً أو حديثاً غريباً عند عبد الملك ثم يقصه على صاحبه، أو يسأله عنه، إلا وجده عليماً به، وزائداً عليه وذات يوم حدّث روح عبد الملك بن مروان بمزايا ضيفه الأزدي فقال عبد الملك: إنه عمران ابن حطّان فأحضره[7]، وكان عبد الملك بن مروان قد أهدر دمه لما بلغ شعره عبد الملك

---

(1) الكامل في التاريخ (3/ 123).
(2) انظر: تاريخ الطبري (104 إلى 112).
(3) تجديد الدولة الأموية في عهد الخليفة عبد الملك، ص: 106.
(4) سير أعلام النبلاء (4/ 106).
(5) سير أعلام النبلاء (4/ 456).
(6) المصدر نفسه (4/ 214).
(7) أدب السياسة في العصر الأموي، ص: 526، سير أعلام النبلاء (4/ 216).

في علي ﷺ وأدركته حمية لقرابته من علي ﷺ ووضع عليه العيون، وشعر عمران في علي قوله:

يا ضربة من تقيٍّ ما أراد بها ... إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا
إنِّي لأذكره حيناً فأحسبه ... أو في البرية عند الله ميزانا
أكرم بقوم بطون الطير قبرهم ... لم يخلطوا دينهم بغياً وعدوانا[1]

وعندما علم عمران بطلب عبد الملك له هرب إلى الجزيرة ثم لحق بعمان فأكرموه[2] وقال شعراً في روح بن زنباع لما فارقه حيث قال:

يا روح كم من كريم قد نزلت به ... قد ظنّ ظنّك من لخم وغسان
حتى إذا خفته زايلت منزله ... من بعد ما قيل: عمران بن حطان
قد كنت ضيفَكَ حولاً ما تُروّعُني ... فيه طوارق من إنس ولا جان
حتى أردْتَ بي العظمى فأوحشني ... ما يوحش الناس من خوف ابن مروان
لو كنت مستغفراً يوماً لطاغية ... كنت المقدَّم في سرٍّ وإعلان
لكن أبت لي آيات مُفصَّلةٌ ... عقد الولاية في «طه» و«عمران» [3]

فهو في ثنائه على ابن زنباع لم يبح لنفسه أن يستغفر له، لأنه ليس في رأيه ممن يستحقون المغفرة، فهو طاغية وكافر، على طريقة أكثر الخوارج في تكفير مخالفيهم[4]، وكان من فحول الشعراء وقد شهد له بذلك الفرزدق، فقد وقف عمران بن حطان ذات يوم على الفرزدق وهو ينشد الناس فقال له:

أيها السائل ليُعطي ... إن لله ما بأيدي العباد
فسل الله ما طلبت إليهم ... وارج فضل المقسّم العواد
لا تقل للئيم ما ليس فيه ... وتسمّي البخيل باسم الجواد[5]

وجاء في رواية أن الفرزدق قال: الحمد لله الذي شغل عنا هذا ببدعته ولولا ذلك للقينا منه[6] عنتاً، ومن شعر عمران في الزهد في الدنيا والتزود للآخرة، فعن قتادة قال: لقيني عمران ابن حطان، فقال: يا أعمى، احفظ عني هذه الأبيات:

حتى متى تُسقى النُّفوس بكأسها ... ريب المنون وأنت لاه ترتع
أفقد رضيت بأن تُعللَّ بالمُنى ... وإلى المنيَّة كلَّ يوم تُدْفَعُ
أحلامُ نوم أو كظل زائلٍ ... إن اللبيب بمثلها لا يُخْدَعُ

(1) سير أعلام النبلاء (4/ 215).
(2) المصدر نفسه (4/ 216).
(3) المصدر نفسه (4/ 215).
(4) أدب السياسية في العصر الأموي، ص: 530.
(5) تاريخ دمشق (46/ 336).
(6) المصدر نفسه (46/ 336).

فتزوّدنَّ ليوم فقرك دائماً واجمع لنفسك لا لغيرك تجمع[1]

ومن شعره في الموت ورثاء مرداس قوله:

إن كنت كارهة للموت فارتحلي ثم اطلبي أهل أرضٍ لا يموتون
فلست واجدة أرضاً بها بشر إلاّ يروحون أفواجاً ويغدون
إلى القبور فما تنفك أربعة بذي سرير إلى لحد يمشونا
يا حمز قد مات مرداسَ وأخوته وقبل موتهم مات النبيونا[2]

وقد شهد له النقّاد في الشعر بأن شعره كان يتسم بانتقاء مفرداته في غير توعر وإغراب، وبجزالة عباراته في نسق لا تعقيد فيه ولا التواء ولا اعتساف بتقديم وتأخير وكان يبتعد عن الخيال وما يجره من تهويل وتضخيم[3]، ومما يذكر في سيرة عمران بن حطان أن الحجّاج ظل يطارده ويطلبه طويلاً حتى ظفر به فقال للحرس: اضرب عنق ابن الفاعلة فقال عمران بئس ما أدبك به أهلك يا حجّاج، أبعد الموت منزلة أمانعك عليها على ما كان منك أن ألقاك بمثل ما لقيتني به؟ فقال الحجّاج: صدق أطلقوا عنه، فلما انطلق إلى الخوارج قالوا له: ارجع إلى قتال الحجاج فوالله ما هو أطلقك الله الذي أطلقك، فقال هيهات: غلَّ يداً مطلقها واستقر رقبة معتقها، ثم قال:

أأقاتل الحجّاج عن سلطانه بيد تقر بأنها مولاته
ماذا أقول إذا وقفت حياله في الصف واحتجت له فعلاته
وتحدث الأقوام أن صنيعه غرست لدى فحنظلت نخلاته
تالله لو جئت الأمير بآلة وجوارحي وسلاحي آلاته[4]

هذا وقد توفي عمران بن حطان سنة 84هـ[5]

2 - أسباب فشل ثورات الخوارج في عهد عبد الملك:

فشلت ثورات الخوارج في تحقيق الهدف الذي كانت تسعى إليه لأسباب منها:

أ - أن الخوارج كانوا يخرجون في أعداد قليلة وفي أوقات متباعدة مما سهل على ولاة الدولة الأموية القضاء عليهم.

ب - طغيان مذهب التشيع على أهل الكوفة ومناقضة ذلك المذهب لمبدأ الخوارج وكره أهل الكوفة والشيعة عامة للخوارج لخروجهم على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وتكفيرهم إياه فساعد هؤلاء ولاة الدولة في غالب الأحيان على قتال الخوارج.

---

(1) تاريخ دمشق (46/ 339).
(2) المصدر نفسه (46/ 340).
(3) أدب السياسة في العصر الأموي، ص: 528، 529.
(4) الحجّاج بن يوسف الثقفي المفترى عليه، ص: 375.
(5) سير أعلام النبلاء (4/ 216).

جـ - موقف أهل البصرة واندفاعهم إلى مقاومة الخوارج والقضاء عليهم ليحافظوا على تجارتهم واستمرارها.

د - تفرق الخوارج إلى فرق متعددة مما أدى إلى إضعافهم وتفتيت وحدتهم، فسهل على ولاة الدولة القضاء عليهم.

هـ - الأعمال التخريبية التي كانوا يحدثونها من قتل النساء والأطفال وقتل مخالفيهم وإحراق القرى وكسر الخراج وقطع طرق التجارة مما أدى إلى كرههم من جانب الناس عامة، فاندفعوا إلى مساعدة ولاة الدولة في القضاء عليهم. هذه هي أهم الأسباب التي جعلت الخوارج يفشلون في التخلص من الحكم الأموي، وتطبيق أفكارهم ومعتقداتهم التي يؤمنون بها[1].

المبحث الثاني

ثورة عبد الرحمن بن الأشعث

هذه واحدة من الثورات العديدة التي قام بها أهل العراق ضد الدولة الأموية، ولم يكن نشوبها على أساس مذهبي كما هو الحال بالنسبة لثورات الخوارج والشيعة، بل دفع إليها الكراهية المتبادلة بين قائدها وبين والي العراق الحجّاج بن يوسف وقائد هذه الثورة هو عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي[2]، وقد بدأت هذه الثورة العارمة من إقليم سجستان، ذلك الإقليم الذي أتعب الأمويين وكان كثير الانتقاض والتمرد عليهم[3]، فلما كانت ولاية الحجّاج بن يوسف على العراق (75 هـ - 95 هـ) صبر على مضض على تجاوزات رتبيل ملك سجستان ضد الدولة واستغلاله الظروف الصعبة التي كانت تمر بها، ومنعه الجزية، فلما انتهت مشاكل العراق الخطيرة وكسرت شوكة الخوارج سنة 78 هـ. قرر أن يؤدب رتبيل[4]، فأرسل الحجّاج إليه جيشاً بقيادة عبيد الله بن أبي بكرة سنة 79 هـ، وأمره الحجّاج أن يتوغل في بلاد رتبيل وأن يدك حصونهم وقلاعهم، ففعل ما أمره به الحجّاج، وتمكن من هزيمة رتبيل واجتياح بلاده وغنم غنائم كثيرة، ولكن رتبيل أخذ في التقهقر فأطمع المسلمين في اللحاق به حتى وصلوا قريباً من مدينته العظمى، عند ذاك بدأ الترك يغلقون على المسلمين الطرق والشعاب وحصروهم وقتل عامة جيش المسلمين[5].

---

(1) العراق في العصر الأموي، ثابت الرواي، ص: 243، 244.

(2) سير أعلام النبلاء (4/ 183).

(3) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 507.

(4) تاريخ الطبري (7/ 218).

(5) تاريخ الطبري (7/ 219) تاريخ خليفة، ص: 277.

أولاً: اعداد وإرسال جيش الطواويس إلى سجستان بقيادة عبد الرحمن بن الأشعث:

أراد الحجّاج تأديب رتبيل وعقابه، فاستأذن عبد الملك بن مروان في أن يبعث جيشاً كبيراً بلغ عدده أربعين ألف مقاتل من أهل الكوفة وأهل البصرة وأنفق عليه ألفي ألف (مليونين) سوى أعطيات المقاتلين، وبالغ في تجهيزه بالخيول الروائع والسلاح الكامل[1]، وبلغ من فخامة الجيش أن سماه الناس جيش الطواويس[2]، وأسند قيادته إلى عبد الرحمٰن بن الأشعث. والحجّاج بإسناده قيادة هذا الجيش الكبير عدة وعدداً لابن الأشعث وهو يعلم موقفه منه، يهيئ للثورة عليه وعلى الدولة الأموية، وقد نبه الحجّاج إلى هذاالخطأ الفادح، حيث قال له عم ابن الأشعث إسماعيل بن الأشعث: لا تبعثه فإني أخاف خلافه، والله ما جاز جسر الفرات قط فرأى لوال من الولاة عليه طاعة وسلطان[3]، ولكن يبدو أن الحجّاج قد خانه ذكاؤه هذه المرة، أو كان مفرطاً في ثقته بنفسه، فلم يسمع نصيحة إسماعيل ورد مستخفاً بعبد الرحمٰن، فقال: هولي أهيب وفي أرغب من أن يخالف أمري، أو يخرج عن طاعتي[4]، ومضى عبد الرحمٰن بهذا الجيش العظيم إلى سجستان لتأديب رتبيل، وكان ذلك في سنة 80هـ، فلما بلغته الأخبار، كتب إلى عبد الرحمٰن يعتذر إليه مما حل بالمسلمين في بلاده ويطلب منه الصلح ولكن عبد الرحمٰن لم يقبل[5]، وأخذ يتوغل في بلاده، وهنا حاول رتبيل أن يكرر مع عبد الرحمٰن ما صنعه مع عبيد الله بن أبي بكرة، فأخذ يخلي البلاد والحصون أمامه ليوقعه في شركه، ولكن ابن الأشعث فطن إلى ذلك، وكان كما يقول الطبري: لكلما حوى بلداً بعث إليه عاملاً وبعث معه أعواناً، ووضع البرد فيما بين كل بلد وبلد، وجعل الأرصاد على العقاب والشعاب ووضع المسالح بكل مكان مخوف، حتى إذا جاز من أرضه أرضاً عظيمة، وملأ يديه من البقر والغنم والغنائم العظيمة، حبس الناس عن الدخول في أرض رتبيل، وقال: نكتفي بما أصبناه العام في بلادهم، حتى نجبيها ونعرفها ويجترئ المسلمون على طرقها، ثم نتعاطى في العام المقبل ما وراءها، ثم لم نزل ننتقصهم في كل طائفة من أرضهم حتى نقاتلهم آخر ذلك على كنوزهم وذراريهم ، وفي أقصى بلادهم وممتنع حصونهم، ثم لا نزايل بلادهم حتى يهلكهم الله[6]. وهذه خطة سديدة وعملية، وتدل على ذكاء وحنكة وتجربة وقد كتب إلى الحجّاج بما حققه من فتوحات وبخطته التي اعتزم تنفيذها[7]، ولكن الحجّاج - ودون أن يستشير أحداً من أهل الحرب - رفض هذا الرأي واستهجنه وكتب إلى ابن

---

(1) تاريخ الطبري (7/ 224).
(2) تاريخ الطبري، نقلاً عن العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 508.
(3) تاريخ الطبري (7/ 224).
(4) تاريخ الطبري (7/ 224).
(5) المصدر نفسه (7/ 225).
(6) المصدر نفسه (7/ 225).
(7) المصدر نفسه (7/ 225).

الأشعث ثلاثة كتب على التوالي سفه فيها رأي ابن الأشعث وهدده فيها بالعزل إن لم يفعل ما يأمره به ورماه فيها ببعض الأوصاف المقذعة[1].

ثانياً: تمرد عبد الرحمن بن الأشعث بجيشه على الحجّاج:

وبرفض الحجّاج رأي ابن الأشعث، وبأسلوبه القاسي، وتعامله السيء، أذكى نار الفتنة وعجَّل بأسباب الثورة عليه، وقد أعماه فرط ثقته بنفسه واحتقاره لغيره عما ستؤدي إليه تلك التصرفات الهوجاء من عواقب خطيرة، وأثارت مكاتبات الحجّاج حفيظة عبد الرحمٰن بن الأشعث وحركت ما في نفسه من كره للحجّاج فجمع الناس وخطبهم مبيناً لهم نصحه لهم ومعرضاً برأي الحجّاج، وطلب منهم الرأي، فثار إليه الناس فقالوا: بل نأبى على عدو الله ولا نسمع له ولا نطيع[2]، وانفتح الباب لكل من أراد أن يتكلم، فتكلم عامر بن واثلة الكناني وكان شاعراً خطيباً فكان مما قال: فإن الحجاج والله ما يرى بكم إلا ما رأى القائل الأول إذ قال لأخيه: احمل عبدك على الفرس، فإن هلك هلك، وإن نجا فلك. وبعد كلامه دعا الناس إلى خلع الحجّاج ومبايعة عبد الرحمٰن بن الأشعث، فبايعهم ابن الأشعث على خلع الحجّاج والقتال معه حتى ينفي الله الحجّاج من العراق، ولم يذكر خلع عبد الملك[3]، ومن هنا بدأت ثورة ابن الأشعث وهذه الثورة وإن لم تكن لها جذور بعيدة وإن لم تسبقها خطوات إعداد كبيرة إلا أنها كانت من أخطر الثورات التي قامت على الدولة الأموية أو أخطرها، حيث هددت كيان الخلافة بالزوال واضطرت الخليفة إلى مساومة أصحابها بما لم يساوم به غيرهم من أصحاب الثورات السابقة[4]، وانحدر ابن الأشعث بجيشه وانضم إليه خلق كبير في طريقه إلى العراق قاصداً الحجّاج، فلما جاء الخبر الحجّاج أصيب بالهلع والذعر، فكتب إلى عبد الملك يخبره بالأمر ويطلب منه المدد، فتوالت الكتب بينه وبين عبد الملك يخبره بالأمر ويطلب منه المدد وتوالى إرسال الجيوش من عبد الملك في كل يوم إلى الحجّاج[5].

1 - موقف المهلب بن أبي صفرة من الأحداث:

كان المهلب بن أبي صفرة قد نهى ابن الأشعث عن فعلته قائلاً: إنك وضعت رجلك يا ابن محمد في غرز طويل الغي على أمة محمد ﷺ، الله الله فانظر لنفسك لا تهلكها، ودماء المسلمين فلا تسفكها والجماعة فلا تفرقها، والبيعة فلا تنكثها. فإن قلت: أخاف الناس على نفسي فالله أحق أن تخافه عليها من الناس، فلا تعرضها لله في سفك دم، ولا استحلال محرم.

---

(1) تاريخ الطبري (7/ 231)
(2) المصدر نفسه (7/ 232).
(3) المصدر نفسه (7/ 233).
(4) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص: 547.
(5) المصدر نفسه، ص: 547.

وكتب المهلب كذلك إلى الحجّاج بما يجب عليه أن يفعله في مواجهة ابن الأشعث حيث قال: فإن أهل العراق قد أقبلوا إليك مثل السيل المنحدر من علٍ، وليس شيء يرده حتى ينتهي إلى قراره، وإن لأهل العراق شرة في أول مخرجهم، وصبابة إلى أبنائهم ونسائهم، فليس شيء يردهم حتى يسقطوا إلى أهليهم، ويشموا أولادهم، ثم وافقهم عندها، فإن الله ناصرك عليهم إن شاء الله[1]. ولكن لم يعر ابن الأشعث نصح المهلب أدنى اهتمام، فتقدم نحو العراق، وفي وسط الطريق أقدم ابن الأشعث ومن معه على خطوة خطيرة وهي خلع الخليفة عبد الملك بن مروان والسعي إلى تنحيته[2]، كما أن الحجّاج نظر إلى نصح المهلب من منظوره المتشكك فيمن حوله فعده غشاً من المهلب، فقد قال عندما قرأ كتابه: فعل الله به وفعل، والله ما لي نظر، ولكن لابن عمه نصح[3].

2 - معركة الزاوية[4]:

قرر الحجاج مواجهة ابن الأشعث، ومن معه قبل دخولهم العراق، فأرسل الكتائب تلو الكتائب ولكن لم تستطع إيقاف زحف ابن الأشعث فهزمها، وتقدم حتى دخل البصرة بعد أن خرج منها الحجّاج فاراً بنفسه ومن معه من أهل الشام، ونزل بالزاوية، عند ذلك أيقن الحجّاج بصدق المهلب في نصحه له فقال: لله أبوه، أي صاحب حرب هو! أشار علينا بالرأي فلم نقبل[5]، وانضم إلى ابن الأشعث جموع كثيرة من أهل البصرة، والتقى ابن الأشعث بالحجّاج في الزاوية وتتالت الهزائم بجيش الحجّاج، إلا أنه سنحت فرصة لفرقة من فرق الحجّاج حيث تمكنت من إلحاق الهزيمة بإحدى فرق ابن الأشعث، فاستغل الحجّاج الفرصة وكثف الهجوم على خصمه، فاضطر ابن الأشعث إلى التراجع وسار نحو الكوفة تاركاً البصرة، فبايعه أهل الكوفة ولحق به أهل البصرة، وانضم إليه أهل المسالح والثغور[6]، وبلغ عدد من معه مائة ألف ممن يأخذ العطاء ومعهم مثلهم من مواليهم[7]، وقد دفعت الموالي أسباباً كثيرة للاشتراك في ثورة ابن الأشعث.

أ - السياسة المالية التي تبعها الحجّاج نحوهم وإجبارهم على دفع الجزية بعد إسلامهم.

---

(1) تاريخ الطبري (7/ 235).
(2) المصدر نفسه (7/ 234).
(3) المصدر نفسه (7/ 235).
(4) الزاوية : لفظ يطلق على عدة أماكن والمراد به هنا موضع قرب البصرة، معجم البلدان (3/ 128).
(5) تاريخ الطبري (7/ 237).
(6) تاريخ الإسلام للذهبي، ص: 9.
(7) تاريخ الطبري، نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 549.

ب - حرمانهم من الأعطيات والأرزاق عند اشتراكهم في الفتوح.

جـ - حرمانهم من المساواة وشعورهم بالظلم من ممارسة بعض ولاة الدولة الأموية[1]، وغير ذلك من الأسباب. اغتم عبد الملك لما حدث ولما وصله الخبر نزل عن سريره وبعث إلى خالد بن يزيد بن معاوية، ودعاه فأقرأه الكتاب، ورأى ما به من الجزع فقال: يا أمير المؤمنين، إن كان هذا الحدث من قبل سجستان، فلا تخفه، وإن كان من قبل خراسان تخوفته، وخرج عبد الملك إلى الناس فقام فيهم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن أهل العراق طال عليهم عمري فاستعجلوا قدري، اللهم سلط عليهم سيوف أهل الشام حتى يبلغوا رضاك، فإذا بلغوا رضاك لم يجاوزوا إلى سخطك. ثم نزل[2].

3 - استعداد عبد الملك أن يضحي بالحجّاج ومعركة دير الجماجم:

لما رأى أهل الشام وبنو أمية قوة ابن الأشعث أشاروا على عبد الملك بعزل الحجّاج وقالوا: إن كان إنما يرضي أهل العراق أن تنزع عنهم الحجّاج فانزعه عنهم، تخلص لك طاعتهم، فإن عزله - أيسر من حربهم، فبعث عبد الملك ابنه عبد الله وأخاه محمد بن مروان بالجيش إلى العراق وأمرهما أن يعرضا على أهل العراق نزع الحجّاج عنهم، وأن يجري عليهم العطاء، وأن ينزل ابن الأشعث أي بلد شاء من العراق ويكون والياً، فإن قبلوا ذلك نزعنا عنهم الحجّاج ويكون محمد بن مروان مكانه على العراق، وإن أبوا فالحجّاج أمير الجميع وولي القتال[3]، ولم يكن أمر أشق على الحجّاج ولا أغيظ له ولا أوجع لقلبه من هذا الأمر، وكان من الطبيعي أن يستاء الحجّاج من هذا، وعزّ عليه أن يضحي به عبد الملك بن مروان، بعد كل ما قدمه له من خدمات[4]، وكتب إليه يذكره بما حدث من أهل العراق مع عثمان بن عفان رضي الله عنه، قال له: يا أمير المؤمنين، والله لئن أعطيت أهل العراق نزعي لا يلبثون إلا قليلاً حتى يخالفونك ويسيروا إليك، ولا يزيدهم ذلك إلا جرأة عليك، ألم ترى وتسمع بوثوب أهل العراق مع الأشتر على عثمان بن عفان، فلما سألهم ما يريدون قالوا: نزع سعيد ابن العاص، فلما نزعه لم تتم لهم السنة حتى ساروا إليه فقتلوه: إن الحديد بالحديد يفلح خار الله لك فيما رأيت والسلام عليك[5]. غير أن عبد الملك كان مقتنعاً بالفكرة، وأن مصلحة الدولة عنده فوق كل اعتبار ورأى في ذلك منع الحرب[6]. ولكن من حسن حظ الحجّاج أنه لما عرضت الفكرة على أهل العراق رفضوها بقوة، مع أن ابن الأشعث قبلها، وحثهم على

---

(1) العراق في العصر الأموي، ثابت الراوي، ص: 245.
(2) تاريخ الطبري (7/ 236).
(3) المصدر نفسه (7/ 245).
(4) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 515.
(5) تاريخ الطبري (7/ 245).
(6) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 515.

قبولها، لكنهم لم يوافقوه، بل جددوا خلع عبد الملك، وظنوا الفرصة قد واتتهم للتخلص من الحكم الأموي[1]، وكان الأولى بابن الأشعث أن لا ينساق لما تطلبه الجماهير، فقد ضاعت فرصة كبيرة في التخلص من الحجّاج وكان يمكنهم رفع سقف المطالب والضغط على عبد الملك حتى يستجيب لرفع المظالم، وإقامة العدل، والتقيد بالكتاب والسنة وإن انحرف عن شروطهم أمكنهم بعد ذلك عزله، ولكن يبدو أن الحس السياسي لدى زعماء ثورة ابن الأشعث كان غائباً، كما أن مبايعة أهل العراق لابن الأشعث جاءت في لحظات عاطفية ثورية ولم تكن نتيجة لمعرفة تامة به، وهل يستحق عن جدارة أن يكون أميرهم[2]؟. رفض ابن الأشعث تنازل عبد الملك في خلع الحجّاج وغيرها فعندها سلم محمد بن مروان وعبد الله بن عبد الملك قيادة الجيوش الأموية للحجّاج وقالا: شأنك بعسكرك وجندك فاعمل برأيك فإنّا قد أمرنا أن نسمع ونطيع لك[3].

وبدأ الفريقان يستعدان للقتال، فاشتبكا في أشهر وقائعهم - التي زادت عن ثمانين موقعة - في دير الجماجم[4] والتي استمرت مائة يوم حتى حلت الهزيمة بابن الأشعث في الرابع من جمادى الآخرة سنة 83 هـ[5]، ثم دارت معركة أخرى بعدها في مسكن في شعبان من نفس السنة، فهزم ابن الأشعث أيضاً، ثم ولى هارباً إلى سجستان[6]، حيث كان تصالح مع رتبيل على أن يسقط عنه الخراج إن ظفر، وإن هزم يأوي إليه ويحميه[7]، ولكن الحجّاج هدد رتبيل إن لم يسلم إليه ابن الأشعث ليغزون بلاده بألف ألف مقاتل[8]، فرضخ للتهديد وعزم على تسليمه إليه، فلما أحسَ ابن الأشعث بغدر رتبيل ألقى بنفسه من فوق القصر الذي كان فيه، فمات فأخذ رأسه وأرسلها إلى الحجّاج وكان ذلك سنة 85هـ[9]، وهكذا انتهت حياة ابن الأشعث الذي قاد أخطر ثورة ضد عبد الملك بن مروان، أريقت فيها دماء عشرات الألوف من المسلمين وهي ثورة دفعت إليها الأحقاد الشخصية المتأصلة في نفس ابن الأشعث والحجّاج كل منهما للآخر من ناحية، وبغض أهل العراق للحكم الأموي من ناحية ثانية[10]، ومظالم الحجّاج العظيمة التي دفعت بجمهور كبير من العلماء للانضمام للثورة والتخلص من الطاغية الحجّاج.

---

(1) تاريخ الطبري (7/ 246)
(2) حركة النفس الزكية، ص: 38.
(3) تاريخ الطبري (7/ 246).
(4) تقع دير الجماجم على سبعة فراسخ من الكوفة من طريق البصرة.
(5) تاريخ الطبري (7/ 254).
(6) المصدر نفسه (7/ 287).
(7) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 551، سير أعلام النبلاء (4/ 184).
(8) تاريخ الطبري (7/ 287).
(9) المصدر نفسه (7/ 289).
(10) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 516.

ثالثاً: موقف العلماء من ثورة ابن الأشعث:

يختلف موقف العلماء من حركة ابن الأشعث اختلافاً كثيراً عن موقفهم تجاه الحركات الأخرى ضد الدولة الأموية، إذ شارك جمهور غفير من العلماء في حركة ابن الأشعث هذه، سواء بتحريض الناس على المشاركة فيها أو بمشاركتهم المباشرة في القتال مع ابن الأشعث ضد الحجّاج، وقد استفاضت المصادر المتقدمة في ذكر تأييد العلماء ومشاركتهم في هذه الحركة، كما اجتمعت على كثرة عدد العلماء المشاركين ولكن على اختلاف بينهم في تقدير هذا العدد، فيذكر خليفة بن خياط، أن عددهم بلغ خمسمائة عالم، وعد منهم خمسة وعشرين عالماً[1]، ولعل من أسباب كثرة تلك الأعداد المذكورة إدخال غير العلماء فيها من أهل العبادة والصلاح وإن لم يشتهر عنهم العلم، حيث تردد إطلاق اسم القراء على هؤلاء المشاركين، ولعله يشمل العلماء وأهل الصلاح، والزهادة والمشهورين بكثرة التعبد[2].

1 - من أشهر العلماء المشاركين في حركة ابن الأشعث:

وبتتبع كثير من المصادر أمكن حصر العديد من أسماء العلماء المشاركين في تلك الحركة منهم:

أ - أنس بن مالك رضي الله عنه: العالم الجليل والصحابي الكريم، فقد كان ممن يؤلب على الحجّاج ويدعو إلى الانضمام إلى ابن الأشعث، ولكنه لم يشارك مشاركة فعالة في القتال لكبر سنه[3].

ب - ومنهم أبو الشعثاء سليم بن أسود المحاربي، فقد شارك مع ابن الأشعث، وقيل قتل يوم الزاوية[4].

ج - وعبد الرحمٰن بن أبي ليلى، كان من كبار المشاركين في تلك الحركة المحرضين على القتال فيها، وتوفي بوقعة الجماجم حيث اقتحم به فرسه الفرات فغرق رحمه الله[5].

د - الإمام الشعبي: ولكن في مشاركته شيء من الإكراه إذ لم يكن في بداية الأمر على قناعة بالمشاركة، حيث روي عنه أنه قال: فلم أزل عنده - أي الحجّاج - بأحسن منزلة حتى كان شأن ابن الأشعث، فأتاني أهل الكوفة، فقالوا: يا أبا عمرو، إنك زعيم القراء، فلم يزالوا حتى خرجت معهم[6].

---

(1) تاريخ خليفة، ص: 286، 287.
(2) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص: 552.
(3) أنس بن مالك، طهماز، ص: 160 - 161.
(4) سير أعلام النبلاء (4/ 179)1,
(5) سير أعلام النبلاء (4/ 264، 267) الطبقات (6/ 113).
(6) سير أعلام النبلاء (4/ 327، 336) الطبقات (6/ 265).

هـ - سعيد بن جبير: ممن شارك مع ابن الأشعث وكان يحرض على القتال، ونجا من القتل وتوارى عن الحجّاج مدة، ولكن تمكن منه عندما قبض عليه والي مكة وأرسله إليه فقتله الحجّاج سنة أربع وتسعين[1]. وغير ذلك من العلماء، وهذا يدل على أن حركة ابن الأشعث لقيت من الدعم والمشاركة من العلماء ما لم تلقه أي حركة قامت ضد الدولة الأموية.

وقد كان لمشاركة العلماء في هذه الحركة - بهذا الحجم - أثر كبير على الحركة، فقد كانت مشاركتهم وراء انضمام كثير من الناس لتلك الحركة، ولا سيما أن بعض الفقهاء والقراء كانوا يسعون لإقناع أكبر عدد للانضمام إلى القتال خاصة من فئة العلماء[2]، كما كان للعلماء المشاركين أثر كبير في ميدان القتال، فكانت لهم كتيبة خاصة بهم تسمى كتيبة القراء[3]، وكان بعض العلماء يبعثون الحماس في أتباع ابن الأشعث بما يلقونه من خطب وما يصدرونه من نداءات أثناء القتال كان لها أثر في غرس الثقة في النفوس والثبات في مواطن اللقاء[4]، وقد لقي الحجّاج وجيشه عنتاً ومشقة من كتيبة القراء، فقد كان أصحابها يحملون حملة صادقة على جيش الحجّاج فما يعمد بها، ويضربون الكتائب حتى يفرقونها[5]، لذا عبأ الحجّاج لهذه الكتيبة ثلاث كتائب توقف زحفها والتقليل من خطرها عليه[6].

2 - أسباب مشاركة العلماء في ثورة ابن الأشعث:

انضم إلى حركة ابن الأشعث فئات وطوائف شتى، كل فئة مدفوعة بدافع تسعى لتحقيقه من خلال المشاركة في هذه الحركة، فهناك دوافع إقليمية، ودوافع عرقية، وأخرى اجتماعية، ولم يكن شيء من هذه حرّك العلماء للمشاركة في هذه الفتنة، وإنما انطلقوا من دوافع دينية وشرعية بحسب ما وصل إليه اجتهادهم، وقد كان القاسم المشترك لكل هذه الدوافع شخصية الحجّاج[7] الظالمة، المتعسفة، الجائرة، والمتعطشة لسفك الدماء، ولذلك كان العلماء ينقمون على الحجّاج تعديه لبعض حدود الإسلام وانتهاكه لبعض حرماته، وكانوا ينقمون عليه سوء معاملته وسوء نظرته للعلماء.

أ - تعدي الحجّاج لبعض حدود الدين وانتهاكه لحرماته: كان الحجّاج يملك جرأة عجيبة تعدى بها إلى غير مواضعها مما أدى إلى إحداث شرخ كبير في جانب من حياته المتعددة

---

(1) سير أعلام النبلاء (4/ 327، 336).
(2) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص: 557.
(3) تاريخ الطبري، نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 558.
(4) الكامل في التاريخ (2/ 154)، تاريخ الطبري (7/ 255، 254).
(5) الكامل في التاريخ (4/ 150).
(6) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 558، الكامل في التاريخ (3/ 154).
(7) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 562.

الجوانب، فأسهم بذلك في تشويه صورته وصورة الحكم الأموي، وقد حرص بعض المولعين بشخصية الحجّاج إخفاء هذا الجانب المشوه من حياته، والدراسة الواعية المنصفة تأبى هذا المنهج، وما من شك في أنه ورد الكثير من المبالغات عن انتهاكات الحجاج لحرمات الدين وكثير منها لا يصح ودخل الدس من أعداء الحجّاج وبني أمية في صياغة كثير من هذه المبالغات، لذا فقد استبعدت[1] النقل والاعتماد في هذا الأمر على الكتب التي اشتهر عن أصحابها التهاون في إيراد الروايات دون تمحيص ولاسيما كتب الأدب، كالعقد الفريد لابن عبد ربه، والأغاني للأصفهاني، أو كتب الفرق المغالية في عداوتها لبني أمية كالشيعة، وحاولت[2] النقل والاعتماد على كتب السنة المشهورة بحفظ الأحاديث النبوية الشريفة وما يخدمها من روايات، وكذلك على الكتب المعتبرة التي اشتهر عن أصحابها التحري والدقة كالذهبي في سيره وتاريخه[3].

ويأتي في مقدمة تجاوزات الحجّاج الشرعية إسرافه في القتل وأمره به بأدنى شبهة حيث كان الحجّاج يرى وجوب الطاعة العمياء من الرعية له، وأن مخالفة أمره - في أي شأن كان صغر أم كبر - تبرر له القتل، فقد روى أبو داود بسند صحيح عن عاصم قال: سمعت الحجّاج يقول: اتقوا الله ما استطعتم ليس فيها مثنوية، واسمعوا وأطيعوا ليس فيها مثنوية لأمير المؤمنين عبد الملك، والله لو أمرت الناس أن يخرجوا من باب من أبواب المسجد فخرجوا من باب آخر لحلت لي دماؤهم وأموالهم، والله لو أخذت ربيعة بمضر لكان ذلك لي من الله حلالاً[4]، وقال ابن كثير معلقاً على بعض تجاوزات الحجّاج مما يبين سبب استهانته بالقتل: . . فإن الحجّاج كان عثمانياً أموياً، يميل إليهم ميلاً عظيماً، ويرى خلافهم كفر، ويستحل بذلك الدماء ولا تأخذه في ذلك لومة لائم، وقال في موضع آخر: أعظم ما نقم عليه وصح من أفعاله سفك الدماء وكفى به عقوبة عند الله عَزَّوَجَلَّ [5]، بسبب هذا المعتقد الذي استقر في نفس الحجّاج استهان بالقتل واشتهر إسرافه فيه لمخالفي أوامره صغرت أم كبرت، ومع ما ورد من مبالغات في الإحصاءات التي ذكرت عدد قتلى الحجّاج، فما من شك في تعديه الحدود المشروعة في القتل، ويؤيد ذلك ما صح عن المصطفى ﷺ بروايات متعددة تصف الحجّاج بأنه مبير، فعن أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت للحجّاج بعد قتله لابنها عبد الله ابن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أما إن رسول الله ﷺ حدثنا أن في ثقيف كذاباً ومبيراً، فأما الكذاب فرأيناه وأما المبير فلا أخالك إلا إياه[6]، وقد أنكر العلماء على الحجّاج هذا الإسراف في القتل، فروي عن الإمام عبد الرحمٰن بن أبي أنعم أنه قال للحجّاج: لا تسرف في القتل إنه كان

---

(1) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 565.
(2) المصدر نفسه، ص: 565.
(3) المصدر نفسه، ص: 565.
(4) سنن أبي داود (4/ 210) صحيح الإسناد.
(5) البداية والنهاية (12/ 507 إلى 554).
(6) مسلم، كتاب: فضائل الصحابة (4/ 1971).

منصوراً، فقال الحجّاج: والله لقد هممت أن أروي الأرض من دمك. فقال: إن من في بطنها أكثر ممن في ظهرها[1]، وكان جواب سعيد بن جبير للحجّاج عندما سأله عن رأيه فيه فقال: نعم، ظهر منك جور في حد الله وجرأة على معاصيه بقتلك أولياء الله[2].

- **ومن التجاوزات التي كان العلماء ينكرونها على الحجّاج تأخيره للصلاة عن وقتها،** وتأخير الصلاة عن وقتها ليس خاصاً بالحجّاج بل كانت عادة عند بعض خلفاء بني أمية وسار ولاتهم على نهجهم، ولكن الذي يؤخذ على الحجّاج مع تأخيره الصلاة عدم قبوله تنبيه أحد من العلماء أو إبداء النصح منهم له في ذلك، وهذا مأخذ آخر أخذه العلماء على الحجّاج وهو عدم قبوله لقيامهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[3]، ومن ذلك أن الحجّاج أنكر يوماً أن يكون الحسين بن علي رضي الله عنه من ذرية رسول الله ﷺ لأنه ابن ابنته، فقال له العالم الجليل يحيى بن يعمر: كذبت. فقال الحجّاج: لتأتيني على ما قلت ببينة من كتاب الله أو لأضربن عنقك فقال: قال الله ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ إلى قوله ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ [الأنعام: 84-85]. فعيسى من ذرية إبراهيم، وهو إنما ينسب إلى أمه مريم، والحسين ابن بنت رسول الله ﷺ، فقال الحجاج: صدقت، فما حملك على تكذيبي في مجلسي؟ قال: ما أخذ الله على الأنبياء ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: 187] فنفاه إلى خراسان[4].

- **ومن تجاوزات الحجّاج الشرعية تطاوله على أصحاب رسول الله ﷺ** وسوء تعامله مع العلماء، ومرّ معنا معاملته القبيحة لابن عمر، وابن الزبير والسيدة أسماء بنت الصديق رضي الله عنهم جميعاً، فمن ذلك تطاوله على عبد الله بن مسعود وهو متوفى رضي الله عنه فقد قال: والله لو أدركت عبد هذيل لضربت عنقه[5] وفي أخرى أنه قال: ابن مسعود رأس المنافقين، لو أدركته لأسقيت الأرض من دمه[6]، وقد علق الذهبي على أقوال الحجّاج في عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بقوله: قاتل الله الحجّاج ما أجرأه على الله، كيف يقول هذا في العبد الصالح عبد الله بن مسعود[7]، ومن تطاول على أصحاب رسول الله ﷺ وسوء أدبه معهم ما حدث منه لكل من أنس بن مالك - خادم رسول الله ﷺ - وجابر بن عبد الله وسهل بن سعد الساعدي رضي الله عنهم، فقد ورد أنه ختم على كل واحد منهم بختمه المشهور «عتيق الحجّاج» أنس وسهل في عنقيهما وجابر في يده[8]،

---

(1) سير أعلام النبلاء (5/ 63) المعرفة والتاريخ للنسوي (2/ 574).
(2) صفة الصفوة (3/ 45).
(3) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص: 569.
(4) سير أعلام النبلاء (4/ 442).
(5) المستدرك على الصحيحين (3/ 641) تهذيب تاريخ دمشق (4/ 72).
(6) تهذيب تاريخ دمشق (4/ 72).
(7) تهذيب الكمال (12/ 188) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 575.
(8) تهذيب الكمال (12/ 188) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 575.

أما فعله ذلك بأنس فلأنه بايع ابن الزبير وتولى له البصرة، ولأنه كان يحرص على المشاركة مع ابن الأشعث، لذا ناله ما ناله من أذى الحجّاج، ولم ينقذه من إهانة الحجّاج إلا تدخل الخليفة عبد الملك حيث كتب كتاباً وبخ فيه الحجّاج على فعله بأنس وأمره بعدم التعرض له[1]، وأما سهل فقد ورد أن الحجّاج أرسل إليه يقول: ما منعك من نصر أمير المؤمنين عثمان؟ قال: قد فعلت. قال: كذبت ثم أمر به فختم في عنقه[2]. وهذه عقدة عند الحجّاج حيث كان متعصباً للأمويين أكثر من تعصبهم لأنفسهم، ففي الحين الذي نجد معاوية وعبد الملك توددوا لكثير من الرجال الذين وقفوا ضدهم مع علي أو مع ابن الزبير وعفوا عما سلف منهم واستلوا بذلك ضغائن نفوسهم، نجد الحجاج يخالف هذا المنهج السديد فيصر على محاسبة الرجال على ما سالف منهم أيام الفتن، فأوغر صدور الكثير عليه وعلى بني أمية بهذا المسلك[3]، وأذكر مثال يوضح الفرق بين نظرة عبد الملك ونظرة الحجّاج للرجال وطريقة التعامل معهم، فقد كان محمد ابن الحنفية ممن امتنع عن مبايعة عبد الملك أو ابن الزبير حتى يجتمع المسلمين على واحد منهما، فلما تم قتل عبد الله بن الزبير بعث الحجّاج على الفور لابن الحنفية يسأله البيعة ويقول: قد قتل عدو الله، فقال ابن الحنفية: إذا بايع الناس بايعت. قال: والله لأقتلنك. ومع أن ابن الحنفية بايع لعبد الملك لما رأى اجتماع كلمة المسلمين عليه، إلا أن الحجّاج استمر في مضايقة ابن الحنيفة، فلما قدم على عبد الملك أكرمه عبد الملك وقضى كل حوائجه، ثم اشتكى إليه سوء معاملة الحجّاج له وكان حاضراً عند عبد الملك فقال: إن هذا - يعني الحجّاج - قد آذاني واستخف بحقي ولو كانت خمسة دراهم أرسل إلي فيها. فقال عبد الملك: لا إمرة لك عليه، وطلب منه أن يستل سخيمة ابن الحنيفة ويترضاه[4].

ب - سوء معاملة الحجّاج ونظرته للعلماء: وقد كان لتجاوزات الحجّاج وسوء تعامله مع أهل العلم والفضل في مكة والمدينة أثر في عزله عن الحجاز بعدما كثرت الشكوى منه عند عبد الملك، فلما تولى العراق استمر في سوء تعامله فوجد كثير من العلماء المضايقة والشدة منه، فضرب بعض العلماء في ولايته وسجن بعضهم ونفي بعض آخر، وقد يظن بعض الكتاب أن هذا الضرب والسجن بل والقتل للعلماء إنما حدث بعد فتنة ابن الأشعث فحسب فيكون تعامل الحجّاج هذا جاء ردة فعل على مشاركة العلماء في هذه الحركة، ولكن الأمر على غير هذا الظن، فقد حدثت بعض تلك المضايقات والمعاملة السيئة قبل حركة ابن الأشعث،

---

(1) المستدرك على الصحيحين (3/ 664) أثر العلماء، ص: 576.

(2) تهذيب الكمال (12/ 188).

(3) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص: 577.

(4) مختصر تاريخ دمشق (9/ 148) لابن منظور.

فمعاملته لابن عمر وجابر ﷺ كانت قبل ذلك حيث توفيا قبل حركة ابن الأشعث[1]، وقد تعدت مضايقة الحجّاج للعلماء للذين لم يشاركوا في هذه الحركة، ومن عهد عنهم النهي عن الخروج على الولاة ولا يرون استخدام السيف لتغيير المنكر، ومن هؤلاء الحسن البصري فقد اشتهر عنه النهي عن حمل السيف ومقاومة ظلم الولاة به، وعندما أكره على المشاركة في القتال تخلص وهرب من الصف، ومع ذلك فقد كان الحجّاج يطلبه وحاول قتله مراراً ولكن الله يعصمه منه[2]، حتى اضطر الحسن أن يختفي عن الحجّاج في منزل بعض أصحابه وهو أبو خليفة الحجّاج بن عتاب[3]، فكان أصحابه وطلابه يغشونه لمدارسته العلم والتلقي عنه في مكان تواريه[4]، ومن الذين لم يشاركوا في فتنة ابن الأشعث: إبراهيم النخعي، ومع ذلك فقد عاش مدة مختف عن الحجّاج والحجّاج يطلبه حتى كان لا يصلي جماعة مدة اختفائه مخافة من الحجّاج[5]، وكذلك شأن الإمام مجاهد بن جبر، فإنه كان ممن يطارده الخوف من ظلم الحجّاج حتى اضطر إلى التواري عنه[6].

ومن هذا العرض السابق يتضح مدى ما وصلت إليه تجاوزات الحجّاج الشرعية وطبيعة علاقته مع العلماء وعلاقة العلماء به، والجدير بالذكر أنه لم تصل علاقة العلماء بأي والٍ من ولاة الدولة الأموية في سوئها كما وصلت إليه علاقتهم مع الحجّاج، بل كانت علاقتهم مع ولاة الدولة في عمومها حسنة يعينونهم على الحق، ويجاهدون معهم ويأمرونهم بالمعروف ويبدون لهم النصح فيسمع منهم في كثير من الأحيان[7]، ومن كل ما سبق يتضح أنه كان للحجّاج الأثر الكبير في مشاركة العلماء في حركة ابن الأشعث، بل وفي قيام تلك الحركة من وجهين. الأول: أنه بأسلوب الشدة والقسوة أضرم نيران الحقد والكراهية في قلوب مختلف الفئات من الناس في العراق - بما فيهم العلماء - عليه وعلى بني أمية، والوجه الآخر: أنه كان سبباً مباشراً لإعطاء ابن الأشعث الفرصة في القيام بتلك الثورة، حيث جنده بكل ما يملك من جنود وسلاح ومال وهو يعلم ما بينهما من كره متبادل، وقد حذر من ذلك بأسلوبه المتعنت في التعامل مع ابن الأشعث وجنوده في رسائله التي تفوح بالحمق حيث ملأها بالشتائم لابن الأشعث، ولم يراع مصلحة الجنود كما لم يشعرهم بأهميتهم لديه، بل العكس في ذلك كأنما أراد بتصرفه معهم التخلص من حياتهم، وهذا يمثل ما وصل إليه غرور الحجّاج بنفسه[8].

---

(1) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 578، 579.
(2) تاريخ الإسلام للذهبي، نقلاً عن أثر العلماء، ص: 580.
(3) كتاب المتوارين للأزدي، ص: 45.
(4) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 581.
(5) سير أعلام النبلاء (4/ 521) أثر العلماء، ص: 581.
(6) المتوارين للأزدي، ص: 53.
(7) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 583.
(8) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 586.

3 - معارضة بعض العلماء لثورة ابن الأشعث:

كان هناك عدد من العلماء عارضوها أو اعتزلوها ولم يروا المشاركة فيها، ومن أبرز هؤلاء: أبو الشعثاء جابر بن زيد الأزدي[1]، فهو من الذين لم يشاركوا في هذه الثورة، وأبو قلابة الجرمي فلم يشارك وكان يعتب على غيره ممن شارك[2]، ومنهم إبراهيم النخعي، فلم يشارك وكان يعيب على سعيد بن جبير مشاركته فيها[3]، وقد قيل له: أين كنت يوم الزاوية؟ قال: في بيتي. قالوا: فأين كنت يوم الجماجم؟ قال: في بيتي. قالوا: فإن علقمة شهد صفين مع علي، فقال: بخ بخ من لنا مثل علي بن أبي طالب ورجاله[4]، وممن لم يشارك في حركة ابن الأشعث أيوب السختياني، فروي عنه أنه يقول في العلماء الذين خرجوا مع ابن الأشعث: لا أعلم أحداً منهم قتل إلا رغب له عن مصرعه، أو نجا إلا ندم على ما كان منه[5]، ومنهم طلق بن حبيب، فكان معتزلاً الفتنة وكان يقول: اتقوها بالتقوى[6]، ومنهم مطرف بن عبد الله الشخير فقد امتنع عن المشاركة في هذه الفتنة، وحين جاءه ناس يدعونه للمشاركة امتنع، فلما أكثروا عليه قال: أرأيتم هذا الذي تدعوني إليه، هل يزيد على أن يكون جهاداً في سبيل الله؟ قالوا: لا. قال: فإني لا أخاطر بين هلكة أقع فيها وبين فضل أصيبه[7]، ومنهم مجاهد بن جبر فإنه لم يشارك وحين دعي للمشاركة قال لمن دعاه: عده باباً من أبواب الخير تخلفت عنه[8]، ومنهم خيثمة بن عبد الرحمٰن الجعفي ومحمد بن سيرين، فقد ورد ذكرهما مع الذين لم يشاركوا في فتنة ابن الأشعث[9].

4 - موقف الحسن البصري من ثورة ابن الأشعث:

يعد الحسن البصري واحداً من أولئك العلماء الذين اعتزلوا القرب من الولاة والأمراء وابتعدوا عن المناصب ورغبوا عن وجاهتها، فقد كان ينهى العلماء عن طرق أبواب الأمراء والتزلف لهم، لأن في ذلك إهانة للعلم وحطًا من قدر العلماء ومكانتهم[10]، وبقي الحسن معتزلاً القرب من الولاة بعيداً عن تولي مناصبهم حتى توفي رحمه الله. إلا أن ذلك لم يكن سبباً في انزوائه عما يجري في عصره من أحداث سياسية، بل كان علماً بارزاً يهتدي كثير من الناس بتوجيهاته المفيدة وآرائه السديدة، لاسيما في أوقات الفتن وفترات الخلاف، لذا قال فيه

---

(1) سير أعلام النبلاء (4/ 482).
(2) المصدر نفسه (4/ 513).
(3) الطبقات(6/ 266) أثر العلماء، ص: 559.
(4) سير أعلام النبلاء (4/ 526).
(5) سير أعلام النبلاء (4/ 513).
(6) سير أعلام النبلاء (4/ 601) الحلية (3/ 64).
(7) المعرفة والتاريخ للنسوي (1/ 711) أثر العلماء، ص: 560.
(8) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 561.
(9) المصدر نفسه، ص: 561.
(10) المصدر نفسه، ص: 338.

الثقات: كان والله الحسن من رؤوس العلماء في الفتن والدماء والفروج[1]، وكان ينحى في نصحه للعامة إلى جمع الكلمة وتوحيد الصف وينهى عن الإثارة والفرقة، ويدعو إلى السمع والطاعة للولاة، وكان يرى وجوب الموازنة بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ووحدة الجماعة، ولقد عاصر الحسن البصري معظم فترات الحكم الأموي، وتأثر بالواقع السياسي في هذه الفترة، فأصبح يمثل مدرسة سياسية في عصره، فهو يرى أن حكم بني أمية فيه ظلم وجور، ولكنهم في نفس الوقت يملكون القوة العسكرية، وموازين القوى في صالحهم، كما أن الفئة الراغبة في التغيير والشكاية من الظلم، ينقصها التنظيم والإعداد والقوة والصبر، ويرى أن الذين يحملون راية الخروج على حكم بني أمية إما مخلص لدينه ولكنه لا يصلح للحكم ولا يقدر على إحداث التغيير، وإما رجال يستخدمون الدين والدعوة للتغيير لأغراض دنيوية، منها حبهم للسلطة والحكم، فليسوا بأحسن حال من الأمويين[2]، وعلى ذلك أصبح موقفه من الحكم الأموي يقوم على أمور منها:

أ - عدم الخروج على حكم بني أمية لما في ذلك: من سفك الدماء، وتقويض لقوة المسلمين، وازدياد الجور والظلم[3]، فقد دخل عليه رجل فقال: يا أبا سعيد إني أريد أن أسألك عن الولاة، فقال الحسن: سل عما بدا لك. فقال: ما تقول في أئمتنا هؤلاء؟ فسكت الحسن ملياً ثم قال: وما عسى أن أقول فيهم وهم يلونا من أمورنا خمساً: الجمعة والجماعة، والفيء والثغور، والحدود، والله ما يستقيم الدين إلا بهم، وإن جاروا وإن ظلموا، والله ما يصلح الله بهم أكثر مما يفسدون، والله إن طاعتهم لغبطة، وإن فرقتهم لكفر، فقال الرجل: يا أبا سعيد والله إني لذو مال كثير، وما يسرني أن يكون لي أمثاله وإني لم أسمع منك الذي سمعت فجزاك الله عن الدين وأهله خيراً، وحين سئل عن الحجّاج قال: يتلو كتاب الله ويعظ وعظ الأبرار ويطعم الطعام ويؤثر الصدق ويبطش بطش الجبارين. قالوا: فما ترى في القيام عليه؟ فقال: اتقوا الله، وتوبوا إليه يكفيكم جوره[4]. وكان إذا قيل له: ألا تخرج فتغير قال: إن الله إنما يغير بالتوبة ولا يغير بالسيف[5]. وكان يرى أن جور الحكام بسبب ما يحدثه الناس من ذنوب ومعاصي، وإن من أهم أسباب دفع الجور والظلم هو الرجوع إلى الله، وكان يحث الناس على تجنب الفتن والبعد عن أسباب إشعالها، وحين بلغ السخط على الحجّاج أوجه وثار عليه الناس مع ابن الأشعث وكان جملتهم عدد من العلماء، لزم الحسن موقفه من الفتن

(1) سير أعلام النبلاء (4/ 575) وفيه زيادة لفظة: الفروج والمقصود بها الثغور.

(2) موسوعة فقه الحسن البصري، قلعجي (1/ 11).

(3) الفقهاء والخلفاء، ص: 78، 79.

(4) آداب الشيخ الحسن البصري لابن الجوزي، ص: 120، 121.

(5) الطبقات الكبرى (7/ 172).

فلم يخرج مع من خرج بل كان يكره ذلك وينهى الناس عنه، وكان أخوه سعيد ممن يرى الخروج على الحجّاج ويدعو له، فعن حماد بن زيد بن أبي التياح قال: شهدت الحسن وسعيد ابن أبي الحسن[1] حين أقبل ابن الأشعث، فكان الحسن ينهى عن الخروج على الحجّاج ويأمر بالكف وكان سعيد بن أبي الحسن يحضض، فقال سعيد فيما يقول: ما ظنك بأهل الشام إذا لقيناهم غداً؟ فقلنا: والله ما خلعنا أمير المؤمنين ولا نريد خلعه ولكنا نقمنا عليه استعمال الحجّاج فاعزله عنا، فلما فرغ سعيد من كلامه تكلم الحسن فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أيها الناس إنه والله ما سلط الله عليكم الحجّاج إلا عقوبة، فلا تعارضوا عقوبة الله بالسيف ولكن عليكم السكينة والتضرع، وأما ما ذكرت من ظني بأهل الشام فإن ظني بهم أن لو جاؤوا فألقمهم الحجّاج دنياه لم يحملهم على أمر إلا ركبوه، هذا ظني بهم[2]، وقدم عليه جماعة من العلماء يناقشونه في الخروج مع ابن الأشعث على الحجّاج، ويحاولون إقناعه بالخروج، ولكنه رفض الخروج وقال: أرى أن لا تقاتلوه فإنها إن تكن عقوبة من الله فما أنتم برادي عقوبة الله بأسيافكم، ولكنهم لم يسمعوا كلامه ولم يأخذوا برأيه فخرجوا مع ابن الأشعث فقتلوا جميعاً[3]، وعندما أفتى رجلاً بعدم جواز الخروج على الحجّاج قال له الرجل: لقد كنت أعرفك سيئ القول في الحجّاج غير راضٍ عن سيرته، فقال الحسن: وأيم الله إني اليوم لأسوأ فيه رأياً، وأكثر عتباً، وأشد ذماً ولكن لتعلم - عفاك الله - أن جور الملوك نقمة من نقم الله تعالى، ونقم الله لا تلاقى بالسيوف، وإنما تتقى وتستدفع بالدعاء والتوبة والإنابة والإقلاع عن الذنوب[4]، ولما توفي الحجّاج وجاء خبر وفاته الحسن سجد وقال: اللهم عقيرك وأنت قتلته فاقطع عنا سنته وأرحنا من سنته وأعماله الخبيثة[5]، وكان يوضح للناس حقيقة ما يعيشه بعض الولاة من تقلبه في عيش الفتنة بزخرف الحياة الفانية حتى لا يغتر بهم الناس فكان يقول: هؤلاء - يعني الملوك - وإن رقصت بهم الهماليج[6]، ووطئ الناس أعقابهم فإن ذل المعصية في قلوبهم، إلا أن الحق ألزمنا طاعتهم، ومنعنا الخروج عليهم، وأمرنا أن نستدفع بالتوبة والدعاء مضرتهم، فمن أراد به خيراً لزم ذلك وعمل به، ولم يخالفه[7]، وكان ينهى العامة عن القتال وحمل السلاح حين تقبل الفتن، فعن سلم بن أبي الذيال قال: سأل رجل الحسن وهو يسمع وأناس من أهل الشام فقال: يا أبا سعيد ما تقول في الفتن مثل يزيد بن المهلب وابن الأشعث؟ فقال: لا تكن مع هؤلاء ولا مع هؤلاء، فقال رجل من أهل الشام: ولا مع أمير المؤمنين يا أبا سعيد؟ فغضب ثم قال بيده فخطر بها، ثم قال: ولا مع أمير المؤمنين يا أبا

---

(1) هو أخو الحسن البصري.
(2) الطبقات الكبرى (7/ 164).
(3) المصدر نفسه (7/ 164).
(4) آداب الحسن البصري لابن الجوزي، ص: 118.
(5) حلية الأولياء (2/ 159).
(6) الهماليج: من البراذين. الكلمة فارسية معربة.
(7) آداب الحسن البصري، ص: 121.

سعيد، نعم ولا مع أمير المؤمنين[1]، فكان يرى أنه يجب على المسلم الاعتزال وعدم المشاركة في سفك دماء المسلمين، فلا يقاتل في صفوف الخارجين على السلطة، ولا مع جيش الخليفة، إذا كان ظالماً[2].

ب - وبالرغم من قوله بعدم الخروج على حكم بني أمية، إلا أنه كان يرى وجوب الإنكار عليهم لظلمهم، واستئثارهم بالأموال، وتوليتهم الولاة الظلمة، كأمثال الحجّاج، وكان شديد الانتقاد للحكم الأموي وخاصة سياسات الحجّاج في العراق، وكان يواجه الحجّاج بانتقاداته غير خائف من بطشه[3]، وعن ميمون بن مهران قال: بعث الحجّاج إلى الحسن وقد همّ به، فلما قام بين يديه قال: يا حجّاج، كم بينك وبين آدم من أب؟ قال: كثير قال: فأين هم؟ قال: ماتوا. قال: فنكس الحجاج رأسه وخرج الحسن وقال أيوب السختياني: إن الحجّاج أراد قتل الحسن مراراً فعصمه الله منه[4]، وكان يحذر العلماء من مخالطة السلاطين والحكام لكي لا يوهموا المسلمين برضاهم عن حكمهم، ولكي يشعروا الحكام بعدم رضاهم عن سياساتهم الجائرة، وكان يرى أن في مخالطة العالم والمفتي للحاكم إذلالاً لمكانته العلمية والاجتماعية، وكان يقول لبعض الفقهاء ممن كانوا يخالطون الأمراء: والله لو أنكم زهدتم فيما عندهم لرغبوا فيما عندكم وهابوكم، ولكنكم رغبتم فيما عندهم فزهدوا فيكم[5]، ومع حرصه الشديد على عدم مخالطة الأمراء والحكام إلا أنه تولى القضاء في البصرة في عهد عمر ابن عبد العزيز[6]، نظراً لعدل وحسن سيرة عمر بن عبد العزيز[7]. إن منهج الحسن في التعامل مع الحكام منهج وسط معتدل، فهو مع نهيه عن الخروج على الولاة وكرهه للمواجهة معهم لما يترتب على ذلك من مفاسد عظيمة من سفك الدماء، وتفريق الأمة، وتعطيل الجهاد.. إلخ. إلا أن ذلك لا يفهم منه تبريره لإخفاء الولاة أو عدم إنكارها، بل كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

5 - أسباب فشل ثورة ابن الأشعث:

أ - عدم تمكن العلماء من السيطرة على مسار تلك الحركة: وذلك حين تطور الأمر وخلع الثائرون الخليفة عبد الملك بن مروان، فلم يتمكن العلماء من إقناع الناس بالحفاظ على الهدف الذي قامت الثورة لأجله وهو خلع الحجّاج، بل ربما جر بعض العلماء إلى القناعة بهذا المسار الجديد ، وتأكد فشل العلماء في عدم محافظتهم على الهدف الرئيس للحركة

(1) الطبقات (7/ 164).
(2) الفقهاء والخلفاء، ص: 79.
(3) موسوعة فقه الحسن البصري (1/ 13).
(4) البداية والنهاية (12/ 543، 544).
(5) سير أعلام النبلاء (4/ 586).
(6) الفقهاء والخلفاء، ص: 80، سير أعلام النبلاء (4/ 582).
(7) الفقهاء والخلفاء، ص: 80.

وذلك حينما عرض عبد الملك على الثائرين عزل الحجّاج، ولكن الزهو والعجب بما تحقق من انتصارات أدى إلى رفض ذلك العرض من الخليفة ولم يتمكن العلماء من إقناع الثائرين بقبوله، وبهذا الرفض.

ب - تحكم أصحاب الدوافع الإقليمية والمذهبية في مسارها: استطاع أصحاب الدوافع الإقليمية والميول المذهبية أن يسيروا بالحركة نحو التخلص من بني أمية.

ج - عدم امتلاك الثورة لرؤية كاملة: فقد أصبح العلماء يسيرون في طريق غير واضح المعالم، سوى تحقيق الانتصار على جيوش الأمويين، ولكن ماذا بعد؟ هل بالإمكان تغيير الخليفة بالانتصار على جيوش الأمويين في العراق، وهل يستسلم الشام بهذه السهولة، أو تقر الأقطار الإسلامية ذلك؟ وهل يكون ابن الأشعث هو الخليفة للمسلمين في حالة القضاء على عبد الملك، لقد دخلت الثورة في طريق شائك معقد بمجرد رفضها عرض الخليفة بعزل الحجّاج، واضطربت أهدافها مما أدى إلى وأدها وفشلها وانتصار جيوش الخليفة عليها[1].

د - ذكاء الخليفة عبد الملك ودعمه المستمر بالجيوش للحجّاج: فقد مال للصفح والمسالمة والمسامحة ولبى طلب أهل العراق في عزل الحجّاج من أجل حقن الدماء وتوفير الجهود والحفاظ على الجبهة الداخلية الواحدة المتراصة، وكان عرضه على ابن الأشعث في عزل الحجّاج كسب سياسي له حيث تبلبل صف ثورة ابن الأشعث واختلفت الآراء، وكان عبد الملك في نفس الوقت قد أعد جيشين من أهل الشام، وسلم القيادة لأقرب الناس إليه إلى أخيه وولده وأمرهما بالتقيد بأوامر والي العراق[2]، إن عدد العساكر المقاتلة والقادة وتزويدهم بكل ما يحتاجون ثم تكليفهم بالمفاوضة مع ابن الأشعث، منحت الثقة لابنه وأخيه، وهزت قرارة نفوس العراقيين، وهذا من رباطة جأش الخليفة، فكأنما قد قدّم جرعة كبيرة من الحرب النفسية، الأمر الذي أدخل الرهبة في نفس المفاوض الأول حتى مالت نفس ابن الأشعث للرضوخ لولا أصحابه، كما أكسبت الثقة للجنود الشاميين فكانوا يقاتلون ببسالة، ومن هنا يظهر دور الخليفة في كبح الحجّاج حيناً، وفي إعداد الجيش حيناً آخر، فلولاه لما كان بالإمكان القضاء على هذه الانتفاضة وبهذا القدر من الجهد، ويعود ذلك إلى السياسة المتجددة، القائمة على أصول من الفهم الكامل لخطط الخليفة البعيدة المدى، فقد كان رجل دولة من الطراز الأول يملك خطة مستقبلية لدولة قادرة على وضع أهدافها التكتيكية والاستراتيجية من أجل بناء دولة القوة والمنعة[3] على أسس راسخة من الملك العضوض،

---

(1) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 587.

(2) تجديد الدولة الأموية في عهد الخليفة عبد الملك، ص: 132.

(3) تجديد الدولة الأموية، ص: 133.

هـ - القيادة لم تكن بيد العلماء وإنما بيد الأشعث.

و - عدم وجود تنظيم قوي يتحكم في توجيه الثوار وفق الأهداف المرسومة من القادة.

ز - شخصية ابن الأشعث وطبيعة جيشه:

لم تكن شخصية ابن الأشعث تملك الصفات القيادية من بعد نظر، وثاقب فكر، وتقدير للأمور، وثبات في المواقف، فقد وقع في شباك رتبيل وباعه للحجّاج مقابل مصالحه وتحالف مع الكفّار ضد المسلمين، ولم يستطع أن يقود جيشه كما يريد بل انقاد لعواطف ومشاعر الجنود فأودت به إلى حتفه، كما أن جيشه لم يكن ينقصه عدد أو عدة، ولكن حماسهم خفّ بسبب طول انتظارهم، ولم تكن لهم طاعة قوية لرؤسائهم، بعكس أهل الشام الذين كانوا جنداً نظاميين بكل ما لهذه الكلمة من معاني[1]، وهذه أبيات من الشعر تصوّر حزنهم واعترافهم بأنهم لم يصبروا ويدافعوا حق المدافعة عن دنياهم التي أضاعوها بتفريطهم:

أيا لهفاً ويا حزناً جميعاً ... ويا حر الفؤاد لما لقينا

تركنا الدين والدنيا جميعاً ... وأسلمنا الحلائل والبنينا

فما كنا أناساً أهل دين ... فنصبر في البلاء إذا ابتلينا

وما كنا أناساً أهل دنيا ... فنمنعها ولو لم نرجُ دينا

تركنا دورنا لطغام عَكٍ ... وأنباط القرى والأشعَرينا[2]

6 - من نتائج فشل ثورة ابن الأشعث:

أ - ازدياد تسلط الحجّاج: ترتب على فشل نتائج ثورة ابن الأشعث نتائج خطيرة وسيئة، فقد زاد انتصار الحجّاج في النهاية على الثوار من تسلطه وتجبره، واشتد أكثر في تضييقه على العلماء فقتل من قتل منهم وسجن من سجن منهم وهرب من وجهه من استطاع[3].

ب - ندم الكثير من العلماء: وندم الكثير من العلماء المشاركين في ثورة ابن الأشعث، فهذا طلحة بن مصرف يقول: شهدت الجماجم، فما رميت، ولا طعنت، ولا ضربت، ولوددت أن هذه سقطت هنا ولم أكن شهدتها[4]، وعن محمد بن طلحة قال: رآني زبيد اليامي مع العلاء بن عبد الكريم ونحن نضحك فقال: لو شهدت الجماجم ما ضحكت ولوددت أن يدي - أو قال يميني - قطعت من العضد وأني لم أكن شهدت[5]، كما ندم عقبة بن عبد الغافر على مشاركته في القتال كذلك، وغيرهم من العلماء.

جـ - انتصار رأي العلماء القائلين بعدم الخروج: علت منزلة العلماء الذين اعتزلوا تلك

---

(1) تاريخ خلافة بني أمية، ص: 177.

(2) تاريخ الطبري (7/ 266).

(3) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 588.

(4) سير أعلام النبلاء (5/ 192).

(5) تاريخ خليفة، ص: 287.

الفتنة ولم يشاركوا فيها، فعن ابن عون قال: كان مسلم بن يسار أرفع عند أهل البصرة من الحسن حتى خف مع ابن الأشعث وكف الحسن، فلم يزل أبو سعيد - يعني الحسن - في علو منها[1]، وقد أسهمت حركة ابن الأشعث - بنهايتها بتلك الصور - في إقناع كثير ممن كان يرى استخدام القوة وحمل السيف لتغيير الجور والظلم الواقع من الولاة بعدم جدواها، ولذلك قال ابن تيمية عقب الحديث عن ما حدث من فتن وقعت باجتهاد من بعض أهل العلم والصلاح، كخروج الحسين بن علي ﵁، وفتنة خروج أهل المدينة ووقعة الحرّة وفتنة ابن الأشعث قال: ولهذا استقر مذهب أهل السنة على ترك القتال في الفتنة للأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ وصاروا يذكرون هذا في عقائدهم، ويأمرون بالصبر على جور الأئمة وترك قتالهم[2]، وقال ابن حجر في ترجمة أحد هؤلاء الذين كانوا يرون السّيف: كان يرى الخروج بالسّيف على أئمة الجور، وهذا مذهب للسَّلف قديم، لكن استقر الأمر على ترك ذلك لما رأوه أفضى إلى أشدّ منه، ففي وقعة الحرّة ووقعة ابن الأشعث - يعني: دير الجماجم - وغيرها عظة لمن تدبر[3].

س - **ظهور بدعة الإرجاء:** أو نوع منه وهو ما يسمى(إرجاء الفقهاء نسبة إلى بعض الفقهاء الذين يقولون بأن الإيمان قول بلا عمل، وأنه لا يزيد ولا ينقص، فالإيمان عندهم واحد يستوي فيه كل من اعتقده بقلبه وقال بلسانه، حيث يخرجون الأعمال - التي يتفاضل فيها المؤمنون - عن الإيمان، فيستوي عندهم إيمان الصادقين الأولين كأبي بكر وعمر، وإيمان أفجر الناس كالحجّاج، وأبي مسلم الخراساني وغيرهما[4]، والذي دعا إلى الربط بين ظهور ذلك النوع من الإرجاء وحركة ابن الأشعث يشير إليه كثير من الذين كتبوا عن تاريخ الفرق حيث اشتهر عندهم قول قتادة: إنما أحدث الإرجاء بعد هزيمة ابن الأشعث[5]، وذكروا أن الكوفة كانت موطن الإرجاء الأول ثم انتشر منها إلى سائر الأقطار[6] ويقول الدكتور ناصر العقل: أول ما ظهرت بدعة الإرجاء بعد فتنة ابن الأشعث سنة (83) [7]، وهو إرجاء العمل عن الإيمان ويسمى «إرجاء الفقهاء»، وأول من قال به هو: ذر بن عبد الله المرهبي الهمداني، (مات قبل المائة)[8] ثم ظهور القول بأن الإيمان قول، وأول من قال ذلك حماد بن أبي سليمان[9] (ت 120هـ) واستقر إرجاء الفقهاء على ثلاثة أسس كلها مخالفة لقول السلف وهي:

---

(1) الطبقات الكبرى (7/ 165).
(2) منهاج السنة (4/ 529، 530)، الإمامة العظمة، ص: 512.
(3) تهذيب التهذيب (2/ 250).
(4) الفتاوى (7/ 195).
(5) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية (2/ 889).
(6) الفتاوى (7/ 311)، القدرية والمرجئة، للعقل، ص: 86، 116.
(7) السنة لعبد الله بن حنبل (1/ 309).
(8) السنة، لعبد الله (1/ 329).
(9) الفتاوى (7/ 297، 311).

- زعمهم أن العمل لا يدخل في مسمى الإيمان، وأن الإيمان هو التصديق.
- زعمهم أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص.
- زعمهم أنه لا يجوز الاستثناء في الإيمان[1].

ويقال أن ذراً بن عبد الله المرهبي - وكان ممن شارك في فتنة ابن الأشعث - فبعد الهزيمة أصيب بردة فعل جعلته يتحول من تكفير الحجّاج وقتاله إلى اتجاه معاكس وهو الإرجاء الذي يسوي فيه أصحابه بين إيمان الحجّاج وإيمان غيره ولو كان من أعبد الناس وأتقاهم لله[2]. ويقول طاووس بن كيسان - منتقداً ذراً المرهبي ومن سلك مسلكه من الفقهاء: عجبت لإخواننا من أهل العراق يسمون الحجّاج مؤمناً. قال الذهبي معلقاً على قول الطاووس: قلت: يشير إلى المرجئة منهم، الذين يقولون: هو مؤمن كامل الإيمان مع عسفه وسفكه الدماء وسبه الصحابة[3]، وهكذا دأب الفتن فإنها غالباً ما تفرز بعدها بعض التوجهات المنحرفة أو المواقف المتضاربة تجاه أمر معين، حيث لا يسلم من ذلك إلا من عصمه الله بنور الإيمان ورسوخ العلم جعلنا الله منهم[4].

7 - ممن عفا الحجاج عنهم الشعبي وأسيرين:

أمر الحجّاج بعد انتهاء دير الجماجم مناديه أن يقول: من لحق بقتيبة بن مسلم بالري فهو آمن، فكان الشعبي من الذين توجهوا إلى الري فذكره الحجّاج يوماً وسأل عنه فعلم بلحوقه بالري، فكتب إلى قتيبة بن مسلم يأمره بإرسال الشعبي إليه فأرسله إليه فلما قدم على الحجّاج لقيه يزيد بن أبي مسلم - حاجب الحجّاج - وكان صديقاً للشعبي - فقال للشعبي: أشر علي. فقال يزيد: اعتذر ما استطعت، وقال الشعبي: وأشار بمثل ذلك إخواني ونصحائي، فلما دخلت على الحجّاج رأيت غير ما ذكروا لي، فسلمت عليه بالإمرة وقلت: أيها الأمير إن الناس قد أمروني أن أعتذر بغير ما يعلم الله أنه الحق، وأيم الله لا أقول في هذا المقام إلا الحق، قد والله مردنا عليك وحرّضنا وجهدنا فما كنّا بالأقوياء الفجرة ولا بالأتقياء البررة، ولقد نصرك الله علينا وأظفرك بنا، فإن سطوت فبذنوبنا وما جرّت إليه أيدينا، وإن عفوت عنا فبحلمك، وبعد فالحجة لك علينا[5]. فقال الحجاج: أنت والله أحبّ إليّ قولاً ممن يدخل علينا يقطر سيفه من دمائنا ثم يقول: ما فعلت ولا شهدت، وقد أمنت يا شعبي، كيف وجدت الناس بعدَنا؟ فقلت: أصلح اللهُ الأمير، اكتحلت بعدك السحر، واستوعرت الخباب، واستحلست الخوف وفقدت صالح الإخوان، ولم أجد من الأمير خلفاً. قال: انصرف يا

---

(1) دراسات في الأهواء والفرق والبدع، ص: 248.
(2) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 592.
(3) سير أعلام النبلاء (5/ 44).
(4) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 593.
(5) الكامل في التاريخ (3/ 165).

شعبي فانصرفت[1]، ولم يقتصر العفو على الشعبي لأنه فقيه أهل العراق فقد عفا عن أشخاص من عامة الناس لصدقهم فيروي أنه أتى بأسيرين، فأمر بقتلهما فقال أحدهما: إن لي عندك يداً، قال: ما هي قال: ذكر ابن الأشعث يوماً أمك بسوء فنهيته فقال الحجّاج: ومن يعلم ذلك؟ قال: هذا الأسير الآخر فسأله الحجّاج فصدقه فقال له الحجّاج: لم لم تفعل كما فعل؟ قال: ينفعني الصدق عندك؟ قال: نعم، قال: منعني البغض لك ولقومك. فقال الحجّاج: خلوا عن هذا لفعله وعن هذا لصدقه[2].

8 - توحيد الدولة والقضاء على الثورات الداخلية:

استطاع عبد الملك أن يقضي على كل الحركات الداخلية وقد ذكرت أهم هذه الثورات، كثورة الأزارقة، والصفرية، وابن الأشعث، وهناك حركات أخرى ذكرتها كتب التاريخ كحركة مطرف بن المغيرة بن شعبة، وعبد الله بن الجارود، وحركة الأزد في عمان، وفي نهاية المطاف تغلب عبد الملك عليها واحدة تلو الأخرى ووضع الأساليب المناسبة لتحقيق الأهداف المخططة لذلك، وقد أثبتت الأحداث قدرة الخليفة عبد الملك بن مروان على معرفة الأحداث معرفة جيدة، ثم السيطرة على هذه الأحداث والقدرة على احتوائها، باستئصال خصومه حيناً، والتسامح معهم حيناً آخر، ضمن خطة سياسية ومنهج قائم على أهداف واضحة، أدت إلى النتائج المتوخاة، وهي إعادة الوحدة السياسية مرّة أخرى، مما أدى إلى إيجاد علاقات جديدة مع الدولة البيزنطية، والقيام بفتوحات جديدة في الشرق والغرب ثم القيام بالعديد من الإصلاحات الجديدة، منحت سياسته الداخلية والخارجية قدرة على التخطيط الشامل الذي يؤدي إلى تحقيق الأهداف المنشودة[3].

المبحث الثالث

النظام الإداري في عهد عبد الملك

اهتم عبد الملك بن مروان اهتماماً خاصاً بإدارة شؤون الدولة وسار على نهج معاوية في تطوير المؤسسات والاهتمام بالإصلاحات، وقد قام بتطوير الجهاز الإداري وتنشيطه، وقام بتعريب الإدارة والنقد وهو ما يعرف بحركة التعريب، كما استعان بنخبة من أمهر رجال عصره في الإدارة والسياسة، فقد كرّس عبد الملك كل وقته وجهده لتوطيد أركان الدولة وتنظيمها والسهر على سلامتها، حتى تركها قوية غنية مرهوبة الجانب مرعية السلطان[4]، وقد أعاد عبد

(1) الكامل في التاريخ (3/ 166).
(2) عيون الأخبار (1/ 98)، الحجاج بن يوسف المفترى عليه، ص: 292.
(3) تجديد الدولة الأموية 134.
(4) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص: 153.

الملك تنظيم الحكم الأموي على أسس جديدة واستفاد من سياسة معاوية ومن الأنظمة التي وضعها، ولكنّ نزعته للتفرد بالسلطان والحكم جعلته يخالف معاوية رضي الله عنه في كثير من الأمور، فمعاوية كان يُشعر جلساءه وقواده وولاته على الأقطار أن لهم الحرية في النقد والقول والرأي، أما عبد الملك فلا يشعرهم بشيء من ذلك، فهم بين يديه ليسيروا على هواه وليقدم إليهم الأوامر فينفذوها، فما كان يسمح لجلسائه بأن يجترئوا من سلطانه شيئاً، وقد نظم دولته على هذا الأساس من التمسك بالسلطان والسيادة والانفراد ونظم وسائل الحكم تنظيماً جعله السيد المتفرد في دولته، ويبدو أن نظرته للنظام شملت النواحي الآتية:

- دواوين الدولة، فهي الأسلاك التي تدير دفة الحكم والأمة.
- الولاة، فهم الذين ينفذون سياسة الدولة ويضبطون الملك.
- البريد فهو الذي يوصل بين أطراف الدولة[1].

وتلك النظرة تشير إلى مبدأ في السيطرة، فالأمور المذكورة إنما هي أسلاك وخيوط في يده يحرك بها أجزاء خلافته وآلاتها ويستخدمها لسلطانه[2]، وإليك أهم معالم التطوير الإداري في عهد عبد الملك:

أولاً: الدواوين:

1 - ديوان الرسائل:

وقد تطور هذا الديوان كثيراً في عهد عبد الملك وازدادت أهميته بشكل واضح ولا سيما أثناء ولاية الحجاج للعراق، نظراً للمستجدات السياسية والعسكرية ووجود المتمردين والخارجين على الدولة، مما استوجب متابعة أخبارهم، فكان الخليفة عبد الملك يكتب للحجاج بشأنهم، مما كان باعثاً مهماً لازدهار ديوان الرسائل والكتابة، فكانت هذه الرسائل تصدر من الديوان بشكل مستمر إلى من يهمه الأمر لمعالجة أوضاع تلك الاضطرابات[3]، حيث أن الخليفة عبد الملك كان غالباً ما يلجأ إلى المكاتبات السياسية في محاولة منه أن يفت في عضد قادة الحركات - فقد راسل - وقبل اجتماع الأمة عليه - مصعب بن الزبير، وابن الأشتر[4]، كما كان يرسل التوجيهات الإدارية والعسكرية إلى ولاته وقادته، وكان من الطبيعي أن تزداد مراسلات الحجاج إلى ولاته وقادته ومراسلاتهم إليه كالمهلب بن أبي صفرة مثلاً[5]،

---

(1) الدولة الأموية، يوسف العش، ص: 229.
(2) الدولة الأموية، ص: 229.
(3) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 137.
(4) تاريخ الطبري نقلاً عن الإصلاحات المالية، ص: 137.
(5) الأخبار الطوال، ص: 277، 280 نهاية الأرب (7/ 246، 247).

ويلاحظ كثرة التواقيع[1]، في مراسلات الخليفة عبد الملك مع الحجاج بن يوسف الثقفي والتي تؤكد أهمية ديوان الرسائل وتطوره، وتوضح في جانب منها طبيعة سياسة الخليفة الإدارية، فوقع مثلاً في كتاب أرسله إلى الحجاج: جنبني دماء بني عبد المطلب فليس فيها شفاء من الطلب[2]، وجاء في كتاب للحجاج: ارفق بهم فإنه لا يكون مع الرفق ما تكره ومع الخرق ما تحب[3]، ونظراً لأهمية الرسائل فإن الخليفة عبد الملك بن مروان، وكذلك الحجاج لم يستخدما في هذا الديوان إلا من هو موضع ثقة وأمانة وإخلاص كما اختير الكتاب الحاذقون الذين يجمعون بين الخبرة الإدارية وفي كتابة الرسائل وإجادة أسلوب المخاطبة، ومن أشهر من استخدمهم الخليفة عبد الملك، قبيصة بن ذؤيب، وبلغ من علو مكانته أنه كان يطلع على الكتب الواردة إلى الخليفة قبل أن يعرضها على الخليفة نفسه[4]. ومن كتابه المشهورين روح بن زنباع الجذامي، وكان روح هذا على جانب كبير من العلم والأمانة إذ كان يقول فيه عبد الملك: ما أعطي أحد ما أعطي أبو زرعة - وكانت كنيته - أعطي فقه الحجاز، ودهاء أهل العراق، وطاعة أهل الشام[5]، والحق أن عبد الملك سلسل الأمور في أعمال الدولة تسلسلاً دقيقاً ووضع في ديوان الرسائل موظفين عارفين، وعلى رأسهم مستشاره الخاص، يستشيره في الرسائل التي يرسلها إلى الأقطار والتي ترد منها[6].

2 - ديوان العطاء:

أدرك الخليفة عبد الملك بن مروان أهمية العطاء وبدأ العطاء في عهده يرتبط بشكل واضح بالنواحي العسكرية والسياسية، ففي سنة 69 هـ، خرج عبد الملك لقتال مصعب بن الزبير، فتخلف بعض من أهل الشام عن الخروج معه، فأخذ خمس أموالهم من عطاء سنة 70 هـ على الرغم من حبه العميق لهم[7]، كما كان عبد الملك يضطر أحياناً وتحت ضغط الظروف إلى زيادة العطاء أو إدخال أناس آخرين في الديوان، كما فعل حين تمرد الجراجمة في لبنان، إذ أعلن قائده سحيم بن المهاجر على لسان الخليفة: من أتانا من العبيد فهو حر ويثبت في الديوان، فانفض إليه خلق كثير[8]، كما استخدم سلاح زيادة العطاء أيضاً ضد عبد الله بن الزبير، حينما نادى الحجاج جنده قائلاً: يا أهل الشام قاتلوا على أعطيات عبد الملك[9]،

---

(1) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 137.
(2) العقد الفريد (4/ 207).
(3) خاص الخاص للثعالبي، ص: 87.
(4) أنساب الأشراف للبلاذري (5/ 356).
(5) البيان والتبيين (2/ 77) الإصلاحات المالية، ص: 138.
(6) الدولة الأموية، يوسف العشي، ص: 230.
(7) سراج الملوك للطرطوش، ص: 118.
(8) الكامل في التاريخ نقلاً عن الإصلاحات المالية والإدارية، ص: 131.
(9) الإصلاحات المالية والإدارية، ص: 131.

وقد حدث تطور مهم لديوان الجند في عهد عبد الملك في العراق خاصة وذلك حينما بدأ الجند يتقاعسون عن الخروج لقتال الخوارج، فعين عبد الملك الحجاج على العراق، وأمره أن يعيد تنظيم ديوان الجند، وتنظيم العطاء فيه على أساس المقدرة والكفاءة، فأعاد الحجاج تنظيم ذلك على أسس دقيقة[1]، ثم أمر بإعطاء الناس عطاءهم والتوجه لجبهات القتال، وتوعد المتخلفين منهم بالموت[2]، كما لم يقبل إعفاء جندي من الخروج للقتال مقابل تركه عطاءه[3]، وقد استخدم الخليفة عبد الملك العطاء وسيلة للقضاء على الفتنة، فقد كتب يوماً إلى الحجاج، أن يصف له الفتنة فوصفها له: فكتب إليه عبد الملك: فإن أردت أن يستقيم لك من قبلك فخذهم بالجماعة وأعطهم عطاء الفرقة[4]، وكان الحجاج يصرف العطاء بأكمله لجنده في أوقات الأزمات السياسية أو الاستعداد للقتال، كما فعل حينما أعطى الناس أعطياتهم كاملة عند تجهيز جيش الطواويس لقتال رتبيل[5]، ومن ناحية أخرى، فإن الخليفة عبد الملك بن مروان كان يكرم من أسدى خدمة عسكرية للدولة أو أظهر بطولة وشجاعة في جبهات القتال، فقد كرّم موسى بن نصير حينما حرر إفريقية سنة 83هـ[6]، كما كرّم الحجاج المهلب بن أبي صفرة وأصحابه لجهودهم في القضاء على الخوارج الأزارقة، إذ: أحسن عطاياهم وزاد في أعطياتهم ثم قال: هؤلاء أصحاب الفعال وأحق بالأموال هؤلاء حماة الثغور وغيظ الأعداء[7]، وأما إدارة هذا الديوان، فكان من أشهر من تولاه للخليفة عبد الملك ابن مروان هو سرجون بن منصور الذي تولى ديواني الجند والخراج في دمشق[8]، ثم عزله الخليفة وعين بدله: سليمان بن سعد الخشني[9].

3 - ديوان الخراج:

كما ذكرنا قبل قليل، أن سرجون بن منصور كان قد تولى إدارة ديوان الخراج والجند على عهد الخليفة عبد الملك[10]، ثم عزله وعين بدله: سليمان بن سعد الخشني[11]، وكان يساعد

---

(1) العراق في عهد الحجاج، طه عبد الواحد، ص: 126، 127.
(2) تاريخ الطبري نقلاً عن الإصلاحات المالية، ص: 132.
(3) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 132.
(4) مروج الذهب (3/ 126).
(5) تاريخ الطبري نقلاً عن الإصلاحات المالية، ص: 132.
(6) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 132.
(7) تاريخ الطبري نقلاً عن الإصلاحات المالية، ص: 133.
(8) الوزراء للجهشياري، ص: 40.
(9) الوزراء للجهشياري، ص: 45 نقلاً عن الإصلاحات المالية، ص: 133.
(10) الوزراء للجهشياري، ص: 45 نقلاً عن الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 134.
(11) التنبيه للمسعود، ص: 273، الإصلاحات المالية، ص: 134.

صاحب الخراج عدد غير قليل من الكتّاب والموظفين، إذ كان بديوان خراج مصر حوالي أربعة وأربعين موظفاً[1]، ويبدو أن متولي الخراج كان يحصل على أموال طائلة من عمله، مثل «أثيناس» متولي الخراج في مصر على عهد عبد الملك، حيث كان واسع السلطات عظيم النفوذ[2]، وكان أشهر من تولى ديوان خراج العراق هو (زادان فروخ) [3] ثم صالح بن عبد الرحمن[4].

4 - ديوان الخاتم:

في عصر الخليفة عبد الملك بن مروان تطور ديوان الخاتم فأصبح إدارة منظمة، كما نشأت في هذه الفترة دار للمحفوظات الحكومية في دمشق[5]، ومن المحتمل إن هذا الديوان لم يقتصر على العاصمة دمشق، بل ربما وجد في باقي الولايات خصوصاً بعد التنظيم الإداري الواسع الذي قام به الخليفة عبد الملك بن مروان، وكذلك لكثرة المراسلات مع الولايات المختلفة وأهميتها السياسية ولا سيما مع العراق، وكان الخليفة عبد الملك لا يولي هذا الديوان إلا أوثق الناس عنده[6].

5 - ديوان الطراز:

يراد بالطراز في الأصل التطريز، ثم أصبح يدل على ملابس الخليفة أو الأمير ورجال حاشيته، لا سيما إذا كان فيها شيء من التطريز وعليه أشرطة من الكتابة، ثم اتسع مدلول الطراز، فأصبح يطلق على المصنع والمكان، الذي تصنع فيه مثل هذه المنسوجات[7]، وفي العصر الأموي ارتفع المستوى المعاشي، فزادت عناية الناس بمظاهر الترف والأبهة، لذلك أنشأ الأمويون عدداً من المصانع عرفت بدور الطراز[8]، وقد اهتم الخليفة عبد الملك بن مروان بالطراز، فنظمت صناعته بشكل واسع وأصبح أساساً لما حدث من نهضة في صناعة النسيج وبخاصة زمن الخليفة سليمان بن عبد الملك[9].

6 - ديوان البريد:

عندما تولى الخلافة عبد الملك طوّر الأجهزة التي تساعده على جمع المعلومات ولذلك اعتنى بشكل كبير بالبريد بوصفه وسيلة مهمة من وسائل ضبط دولته وانتظام أمورها، فطوّره ونظمه وأرسى قواعده[10]، فلم يعد وسيلة لنقل الأخبار والرسائل بين العاصمة والولايات

---

(1) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 135.
(2) المصدر نفسه، ص: 135.
(3) المصدر نفسه، ص: 135.
(4) المصدر نفسه، ص: 135 نقلاً عن الكامل في التاريخ.
(5) الإدارة العربية، ص: 69 للحسيني.
(6) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 41.
(7) المصدر نفسه، ص: 156.
(8) المدخل، ناجي معروف، ص: 115.
(9) النسيج الإسلامي، ص: 25 سعاد ماهر.
(10) الأوائل للعسكري، ص: 191.

وبطريقة تبادل الخيل وحسب، بل أصبح وسيلة مهمة في العمليات العسكرية، ونقل الأشخاص المهمين والمواد المختلفة، باستخدام الرحلات السريعة والمنظمة، كما أصبح عيناً للخليفة في نقل أخبار الإقليم والعمال وشكاوي الناس من عمالهم وموظفي الدولة هناك، ومن أجل تسهيل عمل البريد وانتظامه وسرعته، قام الخليفة عبد الملك بن مروان بتنظيم طرق البريد، وتحديدها وتثبيتها، فقام ببناء الأميال في الطرقات[1]، كعلامات دلالة للطرق وتحديد مسافاتها، ومما يؤكد ذلك، ما وصل إلينا من نقوش معاصرة للخليفة عبد الملك، كشفت بالقرب من بيت المقدس تشير إلى أوامره بعمل هذه الأميال[2]، فقد بذل الخليفة عبد الملك عناية فائقة في تنظيم الطرق وصيانتها، فأصبحت تخترق الدولة طرق عديدة أقيمت على طولها محطات للبريد[3]، وقد أفاد الخليفة عبد الملك فائدة كبيرة من البريد خصوصاً في الجوانب العسكرية، سواء كان ذلك بإرسال الجند، والإمدادات والأوامر إلى قادة جنده، أو في نقل أخبار المعارك والتحركات العسكرية إليه[4].

وإدراكاً من الخليفة عبد الملك لأهمية البريد وكسباً للوقت فقد جعل على هذا الديوان أخص خاصته وهو قبيصة بن ذؤيب: وأمر بألا يحجب أي ساعة جاء من ليل أو نهار[5]، وتأكيداً لذلك فقد منع عبد الملك حاجبه أن يحجب صاحب البريد، قائلاً له: وليتك ما خلف بابي إلا أربعة. . . والبريد متى جاء من ليل أو نهار فلا يحجب، وربما أفسد على القوم تدبير سنتهم[6] حبسهم البريد ساعة[7]، ونتيجة ذلك أن انتظم البريد وأصبح الخليفة يطلع بشكل يومي على تفاصيل الأحداث[8]، وقد استخدم البريد في عصر عبد الملك أيضاً في حمل الأشخاص ومن مختلف المستويات كالولاة والكتاب والشعراء وغيرهم، كما حمل كتب التأييد والرضا عن الخليفة من الأشخاص المهمين[9]، وكان الحجّاج هو أيضاً دائم الصلة بقواده في جبهات القتال، ويتسمع أخبارهم بواسطة البريد، فكانت كتب الحجّاج ترد على محمد بن القاسم الثقفي، وكتب محمد ترد عليه بصفة ما قبله واستطلاع رأيه فيما يعمل به في كل ثلاث أيام[10]، ووصول الكتب بهذه السرعة يدل على التنظيم الرائع للبريد[11].

ومن وسائل الاتصال والمخابرة الجديدة التي استخدمها الحجّاج في الأحوال العسكرية خاصة لإيصال الأخبار بين واسط وقزوين بسرعة: هو بناء المناظر والمنائر التي توضع على

---

(1) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 145.
(2) المصدر نفسه، ص: 145.
(3) تاريخ القدس للعارف، ص: 52.
(4) الإصلاحات المالية، ص: 146.
(5) الطبقات (5/ 176)، (5/ 234).
(6) سنتهم: طريقتهم.
(7) الأوائل، ص: 191، الإصلاحات المالية، ص: 147.
(8) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 147.
(9) الأخبار الطوال، ص: 324، الإصلاحات المالية، ص: 148.
(10) فتوح البلدان للبلاذري، ص: 424.
(11) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 148.

المرتفعات العالية حيث تنقل الإشارات بواسطتها عن طريق إشعال النار أو الدخان، فيصل الخبر بسرعة عن طريق انتقاله من منظرة لأخرى وقد وضح ياقوت الحموي ذلك بقوله: . . وكان إذا دخن أهل قزوين دخنت المناظر إن كان نهاراً، وإن كان ليلاً أشعلوا نيراناً وتجرد الخيل إليه، وكانت المناظر متصلة بين قزوين وواسط[1]، ويبدو أن ما كان ينفقه عبد الملك على إدارة البريد لم يكن قليلاً لاسيما أنه قد بذل جهوداً كبيرة لتطويره وتنظيمه[2]، ويمكن القول بأن الخليفة عبد الملك بن مروان هو أول من عمل ديوان البريد مؤسسة إدارية منظمة مستقلة، وهذا لا يعني عدم وجود البريد المنتظم في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان، إلا أنه لم يكن ديواناً متكاملاً مستقلاً، خصوصاً أن مصادرنا التاريخية لا تذكر البريد بوصفه ديواناً إلا في عهد عبد الملك بن مروان[3]، فالبريد في نظر عبد الملك عصب الدولة الحساس ولذلك أقام له المحطات وفتح له المسالك ونظم مواعيده[4].

ثانياً: تعريب الدواوين وأسبابه والنتائج التي ترتبت عليه:

جاءت عملية تعريب الدواوين ضمن الخطة المرسومة لسياسة الدولة الإصلاحية التي بدأها الخليفة عبد الملك بن مروان وأكملها الخلفاء الذين جاءوا من بعده، والتي تضمنت نقل الدواوين من اللغات الأجنبية: الفارسية، واليونانية، والقبطية إلى اللغة العربية لإزالة النفوذ الأجنبي من مؤسسات الدولة الإدارية والمالية، وعملية التعريب التي ابتدأها عبد الملك تعتبر من الأحداث العظيمة والجليلة التي قام بها عبد الملك وفق خطة شاملة، **وكان لتعريب المؤسسات الإدارية (الدواوين) أسباب كثيرة منها:**

1 - إن دخول شعوب وأقوام مختلفة اللغات والديانات إلى الإسلام يعني حاجة هؤلاء الماسة إلى التفقه بالدين وقراءة القرآن الكريم، مما شدد الصراع بين اللغة العربية واللغات الأخرى، ومن ثم إلى شيوع اللحن، لذلك اعتنى عبد الملك وواليه الحجّاج بن يوسف بضبط قراءة القرآن، عن طريق تمييز الحروف المتشابهة بوضع النقط عليها[5] لذلك كان التعريب ضرورة ملحة، وكان الحرص على سلامة اللغة العربية من العوامل المهمة التي أدت إلى تعريب الدواوين في عصر الخليفة عبد الملك بن مروان[6].

2 - كان الخليفة عبد الملك يهدف وراء التعريب إلى تحقيق وحدة الدولة وتماسكها، إذ أن اختلاف لغات الدواوين يكرّس اختلاف النظم المالية والإدارية، ويعيق عملية تنظيم وتوحيد إدارة الدولة، كما أن تعريب الدواوين يعني إنهاء التأثيرات الشعوبية والعنصرية مما يؤكد سيادة الدولة سياسياً على البلاد المفتوحة.

---

(1) معجم البلدان (5/ 350).
(2) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 149.
(3) المصدر نفسه، ص: 149.
(4) الدولة الأموية، العشي، ص: 236.
(5) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 169.
(6) المصدر نفسه، ص: 169.

3 - إن استعمال اللغات الأجنبية في الدواوين يعني بقاء هذه اللغات حية وكأنها رسمية، فيتعلمها الناس لحاجة الدولة إليها لكونها طريقاً لتولي الوظائف الكبيرة، وينتج عن ذلك استمرار منافسة هذه اللغات اللغة العربية مما يضعف من شأنها، ويضعف كيان الدولة الأموية، ولذلك كان التعريب جزءاً من سياسة عبد الملك بن مروان الهادفة إلى إعادة تنظيم جهاز الدولة الإداري وتحقيق شخصية الدولة واستقلالها عن النفوذ الأجنبي[1].

4 - كان للعوامل الاقتصادية أثراً مهماً في تعريب الدواوين، فقد كان متولي هذه الدواوين يحصلون على أموال طائلة من عملهم هذا، لذلك كان تعريب دواوين الخراج خطوة أولى باتجاه إعادة تنظيم طريقة جباية الضرائب في الأقاليم، وبذلك يمكن ضبط أعمال تلك الدواوين والإشراف بدقة عليها، فيمنع الغش والتزوير، أي أن تعريب الدواوين هو جزء من خطة الإصلاح المالي الذي كانت الدولة بحاجة شديدة إليه إذ ذاك[2]، ولاسيما في العراق أهم أقاليم الدولة الأموية اقتصادياً، حيث حاول الحجّاج بن يوسف الثقفي معالجة الأوضاع الاقتصادية وذلك بالسيطرة على الشؤون الإدارية عن طريق السيطرة على سجلات الدواوين المالية[3]، هذه هي أهم الأسباب التي دعت عبد الملك إلى أن يعرّب الدواوين.

★ نتائج تعريب الدواوين:

حققت حركة تعريب الدواوين على يد الخليفة عبد الملك بن مروان نتائج ذات آثار عظيمة في جميع الميادين السياسية والإدارية والثقافية واللغوية ما زالت نتائجها شاخصة للعيان حتى اليوم، ويمكن تحديد نتائج حركة التعريب بما يأتي:

1 - تحقيق سيادة لغة القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وتعزيز مكانتها، وانتصارها على اللغات الأجنبية في الدولة، كالفارسية واليونانية، والقبطية، إذ أصبحت لغة الدين الإسلامي لغة السياسة والدين والعلم، وأصبحت مادة التفاهم اليومي في كل أنحاء الدولة، فانتشرت الثقافة العربية التي طغت على الثقافات الأخرى، وتفاعلت معها وأذابتها وحلت محلها، إذ اعتبر التعريب من الأحداث الكبيرة والإنجازات الضخمة في المجال الثقافي والسياسي، وقد تمّ وفق خطة مدروسة.

2 - ظهور فئة مهمة من الكتاب العرب أو الموالي حلّوا محل الكتّاب الفرس والروم في إدارة الدواوين، إذ كان لصالح بن عبد الرحمن مهمة كبيرة في ذلك، حيث يقول عبد الحميد ابن يحيى المعروف بعبد الحميد الكاتب للخليفة مروان بن محمد: لله در صالح ما أعظم منّته

(1) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية 168.
(2) المصدر نفسه.
(3) المصدر نفسه.

على الكتّاب[1]، وبذلك كان عامّة كتاب العراق تلامذة صالح، ومن هؤلاء: قحذم بن أبي سليم وشيبة بن أيمن، والمغيرة وسعيد ابنا عطية ومروان بن إياس[2].

3 - ظهور حركة الترجمة من اللغات الأجنبية إلى العربية حيث كانت حركة تعريب الدواوين أول عملية ترجمة منظمة أدت إلى نقل الكثير من المصطلحات الأجنبية، وظهر من اهتم بالترجمة، مثل خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان المتوفى 85هـ فهو أول من أمر بنقل بعض كتب الكيمياء والطب من اليونانية إلى العربية[3].

5 - كان تعريب الدواوين سبيلاً إلى تعريب الأقاليم والجاليات غير العربية، فكان هذا من أكبر العوامل في انتشار اللغة العربية[4]، كما أن أجزاء كثيرة من العالم الإسلامي ما زالت إلى وقتنا الحاضر عربية ثمرة لجهود عبد الملك[5]، فاللغة العربية هي الأداة التي جعلت مجتمع العرب يتسع رويداً رويداً حتى صارت حدوده تمتد من الخليج العربي شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً[6].

6 - تمكنت الدولة من تحقيق الإشراف التام على النواحي المالية والإدارية وضبط أعمال الدواوين وسجلات الضرائب أي أسهم ذلك في نجاح الدولة بخطه الإصلاحي.

7 - اتجه الموالي لتعلم اللغة العربية لكونها الطريق التي تؤدي إلى الوظائف والمناصب العالية، كما أدى من جهة أخرى إلى إشاعة اللحن في اللغة، مما دعا الحجّاج إلى معالجة ذلك، ثم اندفع الموالي للتخلص من اللحن والخطأ وتعلم النحو ودراسته، فحدثت نهضة لغوية واسعة، وهذا يفسر لنا ظهور علماء كبار من الموالي في العصر الأموي ثم العصر العباسي.

8 - إيجاد نظام إداري موحد وشامل، وللدلالة على حسن هذا النظام أن اتخذه العباسيون، فقد كانت الإدارة عندهم تطوراً للإدارة عند الأمويين[7]، هذه هي أهم نتائج حركة التعريب التي قام بها عبد الملك بن مروان.

ثالثاً: إدارة الأقاليم في عهد الخليفة عبد الملك:

عندما تولى الخلافة عبد الملك بن مروان (73 - 86هـ) قام بتنظيم دواوين الدولة ومؤسساتها، كما قام بتنظيم إدارة الأقاليم وأعاد النظر في تقسيمها وترتيبها، آخذاً بنظرة تغير

---

(1) الفهرست لابن النديم، ص: 303.

(2) الوزراء والكتاب للجهشياري، ص: 39.

(3) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية 179.

(4) عبد الملك بن مروان للريس، ص: 286.

(5) التاريخ السياسي (2/ 162) عبد المنعم ماجد.

(6) الحضارة الإسلامية، ص: 15، عبد المنعم ماجد.

(7) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 180.

الحياة وتطورها بمختلف أوجهها، وكانت الدولة الأموية مقسمة إلى عدة أقاليم، ويرأس كل إقليم أمير، يكون تعيينه وعزله من الخليفة، ويملك هذا الأمير سلطات واسعة في إدارة إقليمه، فهو الذي يعين العمال على الولايات والمدن التابعة لإقليمه، كما يعين الموظفين أيضاً، وهو المسؤول عن تنظيم الجند، وتجهيز الحملات العسكرية، وغالباً ما يقودها بنفسه أو ينيب عنه قائداً لذلك، وكان له الإشراف على سك النقود أيضاً، وكان بجانب الأمير[1] موظف له أهمية كبيرة هو صاحب الخراج، فالوالي يدير الشؤون السياسية للولاية، وعامل الخراج يتولى إدارة الشؤون المالية، ويكون صاحب الخراج بمثابة الرقيب على الوالي، ويعين صاحب الخراج هذا من الخليفة، وقد تحصل مواجهة تصادم بين الوالي وصاحب الخراج، وكذلك كان يساعد الأمير في عمله عدد من الموظفين منهم القاضي، وصاحب الشرطة، ورئيس الحرس، والكاتب والحاجب[2]، وقد بلغت الدولة الإسلامية في العهد الأموي أقصى اتساعها وكانت مقسمة إدارياً في عهد عبد الملك إلى أقاليم كبرى هي:

1 - بلاد الشام العاصمة للدولة:

وكانت بلاد الشام في عصر الخليفة عبد الملك بن مروان قد استقرت إدارياً إلى خمسة أجناد وهي: جند دمشق، وحاضرتها دمشق، وجند حمص وحاضرتها حمص، ومن مدنها تدمر، وجند قنسرين، وحاضرتها قنسرين، ومن مدنها حلب ومرعش، وجند فلسطين، وحاضرتها اللد، ومن مدنها تبوك، وجند الأردن، وحاضرتها طبرية، ومن مدنها عكا[3]، وكان لنظام الأجناد هذه أهمية إدارية وعسكرية كبيرة، إذ كان من أهم أسباب قوة الدولة الأموية، فقد كان الجند مستعدون دوماً للقضاء على أعداء الدولة في الداخل، والخارج[4]، ولم يعين عبد الملك والياً خاصاً على بلاد الشام، لأنها كانت تحت إشرافه المباشر، إلا أنه عين على الأجناد ولاة خاصين بها، وكان جند دمشق يقع تحت إدارة عبد الملك مباشرة بوصفها حاضرة الدولة الأموية[5].

---

(1) كان حكام الأقاليم يسمون في أول الأمر: عمالاً ثم استعملت فيما بعد كلمة والي، ثم أطلقت عليهم كذلك كلمة أمير، وتطور هذا اللفظ على هذا النحو: عامل فوالي، فأمير، يدل على أن سلطة هؤلاء الحكام بدأت محدودة ثم أخذت تتسع حتى أصبحت سلطاتهم عظيمة، فالعامل لم يكن مطلق السلطة، والوالي كان نفوذه واسعاً، والأمير كان نفوذه أوسع.

(2) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 184.

(3) المسالك والممالك، ص: 43، معجم البلدان (2/ 170).

(4) الوليد بن عبد الملك للكاشف، ص: 50، 51.

(5) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 186.

2 - إدارة الحجاز وأواسط الجزيرة العربية واليمن:

أ - الحجاز: في سنة 73هـ، حدث تطور إداري مهم، إذ جمع الخليفة عبد الملك أعمال الحجاز واليمن للحجّاج بن يوسف الثقفي[1]، فكان الحجّاج يستخلف على المدينة إذا أتى مكة عبد الله بن قيس بن مخرمة الذي ولاه قضاء المدينة، وقد أدرك عبد الملك أهمية الحجاز المعنوية والمؤثرة فانتهج لذلك سياسة حكيمة، فقد أحسن إلى الناس واستجاب لطلبهم في عزل الحجّاج عن الحجاز، أدت بالتالي هذه السياسة إلى نجاحه في الحصول على بيعة كبار أهله، وفي سنة 75هـ نقل عبد الملك بن مروان الحجّاج من الحجاز وولاه العراق[2]، ثم ولى الخليفة عبد الملك بعد ذلك على المدينة عمه يحيى بن الحكم بن أبي العاص ثم عين أبان بن عثمان سنة 76هـ، وفي عام 82هـ عزل الخليفة أبان بن عثمان عن ولايته المدينة وقبل سنة 83هـ وولى مكانه هاشم بن إسماعيل المخزومي[3]، فبقي في منصبه حتى وفاة الخليفة عبد الملك[4]، ومن الجدير بالملاحظة أن الولاة الذين عينهم الخليفة عبد الملك بن مروان على المدينة إما من أفراد الأسرة الأموية، أو ممن لهم صلة عائلية بالأسرة مثل هشام بن إسماعيل المخزومي، ويبدو أن هذا الاختيار كان الهدف منه ضمان الولاء والإخلاص التامين للخليفة، لاسيما أن المدينة كانت من مراكز المعارضة القوية للأمويين[5].

ب - مكة: بعد مقتل ابن الزبير ولى الخليفة ابنه مسلمة بن عبد الملك والياً عليها، وفي السنة نفسها جمع عبد الملك الحجاز وأعماله واليمن للحجّاج حتى سنة 75هـ، ثم ولى مكانه الحارث بن خالد المخزومي[6]، ولا بد من القول أنه تعاقب على مكة ولاة تختلف المصادر في تسميتهم وسني حكمهم، وربما يرجع ذلك إلى كثرة عددهم من جهة، وإلى قصر فترة ولاية بعضهم من جهة أخرى[7]، وكان عبد الملك يعتني بتعمير الكعبة والمحافظة على سلامتها وكان يبعث إليها بالهدايا والديباج كل سنة[8].

ج - أواسط الجزيرة العربية: كانت أهم مناطقها اليمامة، وكانت اليمامة منذ سنة 65 هـ مقراً لنجدة الحنفي زعيم فرقة النجدات الخارجية[9]، والذي بدأ تحركاته العسكرية منطلقاً من اليمامة حتى تمكن من تأسيس دولة النجدات في اليمامة والبحرين، وقد حاول عبد الملك

---

(1) أخبار مكة (2/ 174) الإصلاحات المالية، ص: 199.
(2) تاريخ، الطبري نقلاً عن الإصلاحات المالية، ص: 202.
(3) الطبقات (5/ 152).
(4) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 204.
(5) المصدر نفسه، ص: 204.
(6) أخبار مكة (2/ 171).
(7) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 207.
(8) الأوائل، ص: 204.
(9) الملل والنحل للشهرستاني (1/ 193) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 208.

استخدام الأساليب الدبلوماسية مع نجدة، إذ وعده أن يوليه على اليمامة مقابل الدخول في طاعته[1]، فكان هذا أحد أسباب انشقاق النجدات بعد ذلك، إلا أن اليمامة ظلت خارج سيطرة الدولة الأموية حتى تمكن الخليفة عبد الملك من القضاء على دولة النجدات في اليمامة والبحرين سنة 73هـ[2]، فولى عبد الملك يزيد بن هبيرة المحاربي ثم عزله وولى مكانه إبراهيم ابن عربي وبقي الأخير إلى أن مات عبد الملك[3].

د - اليمن: وفي عهد عبد الملك بن مروان أصبح لليمن وال واحد بعد أن كانت مقسمة إلى عدة عمال في الحقب السابقة[4]، ومن أشهر ولاة عبد الملك على اليمن: محمد بن يوسف الثقفي وهو أخو الحجّاج بن يوسف، وظل محمد على ولاية اليمن إلى ما بعد وفاة الخليفة عبد الملك بن مروان[5]، ومحمد بن يوسف لم يحسن السيرة مع أهل اليمن كما أنه زاد ضريبة الخراج على الأراضي الزراعية[6].

3 - إدارة العراق والمشرق الإسلامي:

أ - العراق: وجه الخليفة كل اهتمامه نحو العراق واستطاع أن ينتزع الحكم من مصعب بن الزبير، سنة 72هـ وبايعه أهل الكوفة، وأحسن إلى زعمائها وولى عليها أخاه بشر بن مروان وأمره باللين لأهل الطاعة والشدة على أهل المعصية[7]، وفرق العمال على المدن، أما البصرة فقد ولّى عليها خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد[8] الذي فشل في قتال الخوارج في البحرين والعراق، فعزله عبد الملك، وجمع العراق لبشر بن مروان فقدم البصرة سنة 74هـ، واستخلف على الكوفة عمرو بن حريث المخزومي، فأقام بشر بالبصرة شهراً ثم مات[9]، ثم أسند عبد الملك ولاية العراق إلى الحجّاج إلى أن مات الخليفة عبد الملك[10].

ب - الولايات التابعة للعراق في شرق الجزيرة العربية: كانت الأجزاء الشرقية من شبه الجزيرة العربية، والمطلة على بحر الخليج، تابعة إدارياً في العصر الأموي إلى أمير العراق،

(1) الكامل في التاريخ نقلاً عن الإصلاحات المالية، ص: 208.
(2) تاريخ الطبري نقلاً عن الإصلاحات المالية، ص: 208.
(3) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 208.
(4) المصدر نفسه ص، 209.
(5) تاريخ اليمن، ص: 17، ابن عبد المجيد اليماني.
(6) فتوح البلدان للبلاذري، ص: 84.
(7) أنساب الأشراف (5/ 354) الإصلاحات المالية، ص: 211.
(8) تاريخ الطبري نقلاً عن الإصلاحات المالية، ص: 211.
(9) الفتوح لابن أعثم نقلاً عن الإصلاحات المالية، ص: 212.
(10) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 213.

وهو الذي يعين عليها ولاة، يتولون إدارتها، وأهم هذه الأقاليم هي: البحرين، وعمان، وتشمل البحرين الإقليم الممتد على ساحل الخليج العربي، بين البصرة وعمان فهو يشمل ما نعده اليوم: الكويت والإحساء وقطر وجزر البحرين الحالية المعروفة قديماً باسم «أوال» [1]، ودولة الإمارات العربية المتحدة[2].

جـ - خراسان والمشرق الإسلامي: بعد أن تمكن عبد الملك من قتل مصعب وضم العراق عام 72هـ، بدأ يخطط لاسترجاع خراسان ونجح في ذلك،وفي عام 78هـ ضم عبد الملك ولاية خراسان، وسجستان وكل المشرق الإسلامي إلى ولاية العراق للحجّاج بن يوسف، فولى الحجّاج على خراسان «المهلب بن أبي صفرة» سنة 79هـ[3]، ويبدو أن نجاح الدولة في القضاء على كل منافسيها في الداخل، وجه الاهتمام بجهاد العدو في الثغور، فكانت خراسان بحاجة إلى رجل عسكري قوي كالمهلب يمكن أن يحقق أهداف حركة الجهاد هناك، ومما يؤكد ذلك بقاء المهلب في ولايته حتى وفاته، كما يمكن اعتبار هذا التعيين بمثابة تكريم لجهوده في القضاء على الخوارج الأزارقة. وفي ولاية المهلب هذه نشطت حركة الفتوحات وسيأتي الحديث عنها عند كلامنا عن الفتوحات في عهد عبد الملك، وعين الحجّاج على سجستان عبيد الله بن أبي بكرة وذلك سنة 78هـ[4]، وكتب عبد الملك إلى الحجّاج: لا تستعمل عبيد الله بن أبي بكرة على الخراج والجباية فإنه أريحي[5]، وهذا يعني أن الحجّاج أصبح هو الذي يعين الولاة على الأقاليم التابعة لولايته كخراسان وسجستان في الغالب، وهي جزء من سياسة عبد الملك في الاتجاه نحو اللامركزية الإدارية[6].

4 - إدارة الجزيرة الفراتية وأرمينيا وأذربيجان:

تقع الجزيرة الفراتية بين نهري دجلة والفرات، وتشمل على ديار ربيعة وديار مضر، وديار بكر، وتمتد على نهر الفرات من شمال ملقية بمسيرة يومين شمالاً إلى الأنبار جنوباً، وعلى دجلة من تكريت جنوباً إلى شمال جزيرة ابن عمر شمالاً[7]، وتقع أرمينيا وأذربيجان إلى الشرق والشمال الشرقي للجزيرة الفراتية[8]، وكانت الموصل في عهد عبد الملك جزءاً من

(1) البحرين في صدر الإسلام، ص: 221.
(2) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 221.
(3) تاريخ اليعقوبي (3/ 17) الإصلاحات المالية، ص: 227.
(4) تاريخ الطبري نقلاً عن الإصلاحات المالية، ص: 230.
(5) أنساب الأشراف (1/ 499، 505).
(6) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 230.
(7) المسالك والممالك، ص: 52، صورة الأرض لابن حوقل (1/ 208).
(8) بلدان الخلافة الشرقية، ص: 114.

ولاية الجزيرة الفراتية[1]، وقد أدرك عبد الملك أهمية الجزيرة هذه فعمل جاهداً على تنظيمها لتقف بمواجهة الخزر والبيزنطيين أعداء الدولة، فشجع على استيطان العرب هناك وأقطعهم الأراضي[2]، أمر بنقل بعض القبائل القيسية إلى هناك[3]، كما نقل بعضاً من قبائل الأزد وربيعة من البصرة إلى الموصل وحديثة[4]، كما نظم الإدارة فيها، حيث فصلها عن قنسرين وجعلها - فضلاً عن أرمينيا وأذربيجان - إقليماً إدارياً مستقلاً[5]، ولأهميتها فقد عين على إدارتها أخاه محمد بن مروان سنة 73هـ والذي يعتبر من أقدر الولاة الأمويين، وأوكل عليها مهمة مقاتلة الأعداء من البيزنطيين والخزر، والقيام بفتح المناطق المحادة للجزيرة[6]، وكانت هذه الولايات: الجزيرة، وأرمينيا، وأذربيجان، فضلاً عن الموصل غالباً ما تجمع تحت إمرة أمير واحد، ولاسيما في عهد عبد الملك بن مروان، ويبدو أن محمد بن مروان هو الذي كان يعين الولاة على أرمينيا[7]، أما الموصل فإن الخليفة عبد الملك بن مروان هو الذي كان يعين ولاتها في الغالب[8].

5 - إدارة مصر:

كان والي عبد الملك على مصر أخوه عبد العزيز، وقد أوصى عبد الملك أخاه حين ولاه مصر بوصية تنم عن عقلية كبيرة حيث بيّن له الأسس الناجحة لإدارة ولايته وكيفية اختيار موظفيه، قائلاً له: ابسط بشرك وألف كنفك وآثر الرفق في الأمور فإنه أبلغ بك، وانظر حاجبك، فليكن من خير أهلك.. وإذا خرجت إلى مجلسك فابدأ بالسلام.. وإذا انتهى إليك مشكل فاستظهر عليه بالمشاورة فإنها تفتح مغاليق الأمور، وإذا سخطت على أحد فأخر عقوبته[9]، ولم تقتصر مسؤولية عبد العزيز الإدارية على مصر فقط بل امتدت إلى إفريقية أيضاً، فهو المسؤول عن إدارة إفريقية، فقد كان يعين عليها الولاة ويعزلهم في بعض الأحيان، كما فعل حين عزل حسان بن النعمان سنة 78هـ وولى مكانه موسى بن نصير[10]، فأقرّ عبد

---

(1) فتوح البلدان للبلاذري، ص: 327.

(2) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 233.

(3) المصدر نفسه، ص: 233.

(4) الروض المعطار، ص: 190، تاريخ اليعقوبي (3/ 17).

(5) معجم البلدان (1/ 103).

(6) الكامل في التاريخ نقلاً عن الإصلاحات المالية، ص: 234.

(7) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 334.

(8) فتوح البلدان، ص: 328، الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 234.

(9) الفخري في الآداب، ص: 126.

(10) ولاة مصر، ص: 74، الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 239.

الملك هذا التعيين، وقد توفي عبد العزيز عام 86هـ ودامت ولايته على مصر أكثر من عشرين عاماً[1].

6 - إدارة إفريقية:

كانت أوضاع افريقية الإدارية والسياسية قبل تولي عبد الملك الخلافة مضطربة، نتيجة عدم استقرار الأحوال السياسية في الحجاز والعراق خاصة، فارتد عن الإسلام قسم من البربر في أفريقية[2]، كما تمكن كسيلة ومن معه من البربر والروم من دخول القيروان، فسيطر كسيلة على شمال أفريقية[3]، واستطاع عبد الملك أن يبسط نفوذ الدولة الأموية على شمال أفريقيا بعد أن تخلص من الصراعات الداخلية ومن أشهر ولاة أفريقية في عهد عبد الملك: حسان بن النعمان الغساني، وموسى بن نصير، وسيأتي الحديث عنهم بإذن الله تعالى في الفتوحات في عهد عبد الملك.

رابعاً: الخطوط العامة لسياسة الخليفة عبد الملك في إدارة شؤون الدولة:

1 - المشاورة:

كان يعتمد على المشاورة في إنجاز مهمات الدولة، وبخاصة في الأمور المهمة، فهو القائل: المشاورة تفتح مغاليق الأمور[4]، فقد استشار أصحابه في المسير إلى مصعب بن الزبير في العراق[5]، كما قبل مشورة روح بن زنباع: بتولية الشعبي قضاء البصرة، حينما استشار الخليفة أصحابه بذلك[6]، وكان من أكبر مستشاريه: ربيعة الجرشي، وروح بن زنباع[7]، وعلى الرغم من ذلك لم يكن يأخذ بكل استشارة، فكان يشاور يحيى بن الحكم، ثم يخالفه، ويقول: من أراد صواب الرأي فليخالف يحيى بن الحكم فيما يشير به عليه[8].

2 - اعتماده على أهل الشام:

كان الخليفة عبد الملك يعتمد على أهل الشام، لأنهم أخلصوا له، فكان يخاطبهم: يا أهل الشام إنما أنا لكم كالظليم الرامح على فراخه يتقي عنهم القذر ويباعد عنهم الحجر، ويكفهم

(1) الخطط للمقريزي (1/ 302).
(2) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (1/ 75).
(3) تاريخ أفريقية والمغرب، ص: 46 الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 242.
(4) الفخري في الآداب، ص: 126.
(5) أنساب الأشراف (5/ 335).
(6) العقد الفريد (1/ 20).
(7) إدارة بلاد الشام في العهدين الراشدي والأموي، ص: 94.
(8) أنساب الأشراف (5/ 335).

من المطر، ويحميهم من الضباب، ويحرسهم من الذئاب، يا أهل الشام أنتم الجبة والرداء وأنتم العدة والجداء[1]، ولا غرابة في ذلك فملك بني أمية قام على أكتاف قبائل الشام وجنودها.

3 - الشخص المناسب في المكان المناسب:

وقد حرص على تحقيق هذا المبدأ، وكان يوكل المهمات لأصحابها، ففي رسالة جوابية أرسلها الخليفة عبد الملك إلى خالد بن عبد الله أمير البصرة، سنة 72هـ قال له فيها: .. فقبح الله رأيك حين تبعث أخاك أعرابياً من أهل مكة على القتال، وتدع المهلب إلى جنبك يجبي الخراج، وهو الميمون النقيبة الحسن السياسية البصير بالحرب المقاسي لها، ابنها وابن أبنائها... فإذا أنت لقيت عدوك فلا تعمل برأي حتى تحضره المهلب وتستشيره فيه[2]، كما كان يحسن معاملة قادته وحاشيته ويكرمهم ويمن عليهم، ويواسيهم، ويزورهم إذا مرضوا[3].

4 - متابعة أخبار العمال والولاة:

فقد كان يقظاً وحريصاً على نزاهة عماله، واستقامة أخلاقهم وبعدهم عن الشبهات، فعندما بلغه أن عاملاً من عماله قبل هدية فاستدعاه إليه ثم سأله: أقبلت هدية منذ وليت؟ قال: يا أمير المؤمنين بلادك عامرة، وخراجك موفور، ورعيتك على أفضل حال، قال: أجب فيما سألتك عنه، أقبلت هدية منذ وليتك؟ قال: نعم، قال: إن كنت قبلت ولم تعوض إنك للئيم ولئن كنت أنلت مهديها من غير مالك، أو استكفيته ما لم يكن مثله مستكفاه، إنك لخائن جائر، وما أتيت أمر لا تخلو فيه من دناءة أو خيانة أو جهل مصطنع، وأمر بصرفه عن عمله[4].

5 - تقديم الأقرباء في المناصب وحفظ التوازن القبلي:

كان الخليفة عبد الملك في اختياره لعماله قد حبذ أقرباءه من أفراد البيت الأموي بالدرجة الأولى، واستعملهم في المناصب المختلفة، إلا أنه كان يراقبهم مراقبة دقيقة، ويعزل من أظهر عجزاً أو أخفق في عمله، كما أنه استخدم ولاته على الأقاليم في الأغلب من قبائل عرب الشمال« مضر» بينما اختار موظفي إدارته إلى حد كبير من قبائل عرب الجنوب« اليمن» ويبدو أن هذه كانت إحدى الوسائل التي اتبعها الخليفة لحفظ التوازن القبلي[5].

---

(1) سراج الملوك، ص: 118، الإصلاحات المالية، ص: 195، ومعنى الظليم الرامح: كذكر النعام الذي يدافع عن فراخه.

(2) تاريخ الطبري نقلاً عن الإصلاحات المالية، ص: 195.

(3) الإصلاحات المالية والترتيبات الإدارية، ص: 195.

(4) مروج الذهب (3/ 125).

(5) الإصلاحات المالية والترتيبات الإدارية، ص: 196.

6 - تسامحه مع أهل الكتاب:

كان عهد عبد الملك عصر تسامح مع أهل الذمة، فلم يحاول الخليفة عبد الملك الاستيلاء على كنيسة يوحنا عندما رفض أهل الذمة تسليمها إليه[1]، كما أنه سمح لهم بممارسة طقوسهم الدينية بحرية، وبناء الكنائس والأديرة، فقد شيّد أثيناس - كاتب ديوان خراج مصر على عهد عبد العزيز - كنيسة» أم الإله» في الرها، كما شيّد في مصر أيضاً كنيستين وديراً، فضلاً عن شغلهم مناصب عالية في إدارة الدولة[2]، إذ كان الخليفة يثق بهم[3].

7 - التحقيق مع العمال المشتبه فيهم ومقاسمة أموالهم:

وقد قام عبد الملك بمقاسمة بعض عماله وقد أراد التشبه بالخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في هذا الشأن، فقد جعل الضحاك بن عبد الرحمن الأشعري بمثابة المسئول عن مراقبة ومتابعة القضايا المالية في الأقاليم، فقد أرسله إلى الجزيرة الفراتية لدراسة وإصلاح الضرائب هناك[4]، كما قاسم» أثيناس» كاتب خراج مصر أمواله[5]، وبذلك اتبع نظاماً دقيقاً للاستخراج أو التكثيف، حيث كان يحقق مع الجباة وعمال الخراج - المشكوك في أمرهم - عند اعتزالهم عملهم ويستنطقون حتى يعترفوا بما ارتكبوا من مخالفات، وكان التحقيق مع هؤلاء يتم في أماكن خاصة تسمى» دار الاستخراج[6]».

8 - الإحسان لمن ندم وبايع من أصحاب ابن الأشعث:

وبعد انتهاء تمرد ابن الأشعث كتب الخليفة إلى الحجّاج، في أخذ البيعة له من الناس قائلاً: أن ادع الناس إلى البيعة، فمن أقرّ بذنبه وندم على فعله فخله سبيله[7]، وعند ذلك أمر عبد الملك الحجّاج بإعطاء الناس عطاءهم فكتب إليه الحجّاج: أنهم نكثوا العهد ونقضوا البيعة وفارقوا الجماعة، وطعنوا على الأئمة، فكتب إليه عبد الملك: إنما تجب طاعتنا عليهم بأن نعطيهم حقوقهم[8]. وحين حاول الحجّاج أن يأخذ فضول» فروق العملة» أموال السواد، كتب الخليفة إليه يمنعه من ذلك قائلاً له: لا تكن على درهمك المأخوذ أحرص منك على درهمك المتروك وأبق لحوماً يعقدون بها شحوماً[9].

---

(1) فتوح البلدان، ص: 131 للبلاذري.
(2) الدعوة إلى الإسلام، ، ص: 85 أرنولد.
(3) تاريخ القدس، عارف، ص: 52.
(4) عبد الملك القائد للعسلي، ص: 122، الإصلاحات المالية، ص: 198.
(5) الوزراء للجهشياري، ص: 34، 35.
(6) النظم الإسلامية، ص: 196، حسن إبراهيم.
(7) المصدر نفسه.
(8) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 219.
(9) واسط في العصر الأموي، ص: 79.

9 - احترام وتقدير الشخصيات البارزة في المجتمع:

أدرك الخليفة عبد الملك أهمية توثيق العلاقة واحترامها مع الشخصيات البارزة في المجتمع، فقد حرص على كسبها وتأييدها، فحين بايع محمد بن الحنفية لعبد الملك أعطاه الخليفة ميثاقاً، وكتب إليه: إنك عندنا محمود... فلك العهد والميثاق وذمة الله ورسوله أن لا تهاج ولا أحد من أصحابك بشيء تكرهه، كما قضى حوائجه[1]، وكتب عبد الملك للحجّاج: لا تعرض لمحمد ولا لأحد من أصحابه[2]. فلم يعترض الحجّاج لأحد من آل أبي طالب خلال ولايته، كما عزز عبد الملك الصلات مع آل العباس، فكان يكرم علي بن عبد الله بن العباس، ويعرف له حقه ويستوصي به خيراً، وكانت كتبه ترد إلى الحجّاج يأمره فيها أن لا يسيء إلى عروة بن الزبير[3]. وبذلك نجح عبد الملك في الاحتفاظ بصلات حسنة بين الأمويين وبني هاشم - علويين وعباسيين - فلم يقتل أحد من العلويين في عهده، فكانت هذه ثمرة حسن سياسته وبعد نظره[4].

10 - تحجيم الولاة إذا أرادوا تجاوز الخطوط الحمراء:

كان عبد الملك لا يسمح لولاته مجاوزة الخطوط الحمراء، فعندما أساء الحجّاج لأنس بن مالك كان رد عبد الملك على الحجّاج قاسياً، وقصة ذلك: دخل أنس بن مالك على الحجّاج ابن يوسف، فلمّا وقف بين يديه، سلّم عليه فقال له: إيهٍ إيهٍ يا أُنيس يوم لك مع عليٍّ، ويوم لك مع ابن الزبير، ويوم لك مع ابن الأشعث، والله لأستأصِلنَّك كما تستأصل الشأفة[5]، ولأدمغنك كما تُدمغ الصمغة. فقال أنس: إيَّاي يعني الأمير أصلحه الله؟ قال: إياك، سك الله سمعك. قال أنس: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، والله لولا الصبية الصغار ما باليت أيَّ قتلة قُتلتُ ولا أيَّ ميتة مِتُّ. ثم خرج من عند الحجّاج، فكتب إلى عبد الملك بن مروان يخبره بما قال الحجّاج، فلمّا قرأ عبد الملك كتاب أنس استشاط غضباً وصَفَّقَ عجباً، وتعاظم ذلك من الحجّاج، وكان كتاب أنس إلى عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين: من أنس بن مالك أما بعد: فإن الحجّاج قال لي هُجراً[6]، وأسمعني نُكراً ولم أكن لذلك أهلاً، فخذ لي على يديه، فإني أمُتُّ بخدمتي رسول الله، وصحبتي إياه، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته[7]، فقرأ عبد الملك الكتاب وهو يبكي ويلغ به الغضب ما شاء الله، ثم كتب إلى الحجّاج بكتاب غليظ[8]، فبعث عبد الملك إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر - وكان مصادقاً للحجّاج - فقال له:

---

(1) الطبقات (5/ 111، 112).
(2) العقد الفريد (4/ 400) الإصلاحات المالية، ص: 200
(3) أخبار العباس وولده، ص: 131، 154.
(4) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 201.
(5) الشأفة: قرحة تخرج من أسفل القدم فتقطع أو تكوى.
(6) هجراً: يعني فحشاً.
(7) البداية والنهاية (12/ 540).
(8) البداية والنهاية (11/ 386).

دونك كتابيَّ هذين فخذهما، واركب البريد إلى العراق وابدأ بأنس بن مالك صاحب رسول الله ﷺ، فادفع كتابي إليه وأبلغه مني السلام، وقال له: يا أبا حمزة قد كتبت إلى الحجّاج الملعون كتاباً، إذا قرأه كان أطوع لك من أمتك، وكان كتاب عبد الملك إلى أنس بن مالك: بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الملك بن مروان إلى أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ، أما بعد، فقد قرأت كتابَك وفهمت ما ذكرت من شكايتك الحجاج، وما سلطته عليك ولا أمرته بالإساءة إليك، فإن عاد لمثلها واكتب إليَّ بذلك أُنزل به عقوبتي، وتَحْسُن لك معونتي والسلام. فلما قرأ أنس كتابه وأُخبر برسالته قال: جزى الله أمير المؤمنين عنّي خيراً، وعافاه وكفاه واكفأه بالجنة، فهذا كان ظني به والرجاء منه[1]، كتاب عبد الملك إلى الحجّاج وكان فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين إلى الحجّاج بن يوسف، أما بعد: فإنَّك عبد طمَتْ[2] بك الأمور فسموت فيها، وعدوت طوَرك، وجاوزت قدرَك، وركبت داهية إدّاً وأردت أن تَبُورني[3]، فإن سوَّغتكها مضيت قُدماً، وإن لم أُسوغها رجعت القهقرى، فلعنك الله عبداً أخفش العينين، منقوص الجاعرتين[4]، أنسيت مكاسب آبائك بالطائف، وحفرهم الآبار ونقلهم الصخور على ظهورهم في المناهل؟ يا ابن المستفرمة بعجم الزبيب والله لأغمزنك غمز الليث الثعلب، والصقر الأرنب، وثبت على رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بين أظهرنا، فلم تقبل له إحسانه، ولم تجاوز له إساءته جُرأة منك على الربِّ عَزَّ وَجَلَّ واستخفافاً منك بالعهد، والله لو أنَّ اليهود والنصارى رأت رجلاً خدم عُزير ابن عزرَا، وعيسى بن مريم لعظمته وشرَّفته وأكرمته، فكيف وهذا أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ ثماني سنين، يطلعه على سرِّه ويشاوره في أمره، ثم هو مع هذا بقية بقايا أصحابه، فإذا قرأت كتابي هذا فكن أطوع له من خُفة ونعله وإلا أتاك مني سهم مثكِلٌ[5]، بحتف قاضٍ، ولكل نبإٍ مستقر وسوف تعلمون[6]، ولما علم الحجّاج بأن عبد الملك غاضب عليه استوى جالساً مرعوباً، ولما قرأ الكتاب اعتذر لأنس ولم يزل مكرماً له حتى مات[7]، وكتب الحجّاج خطاباً يعتذر فيه عما حدث منه في حق أنس[8].

11 - محاربته للمداهنة والنفاق بين الناس:

لم يكن عبد الملك يسمح لأحد أن يداهنه، أو ينافقه، أو يضيع وقته فيما لا يفيد، فقد طلب رجلاً من عبد الملك أن يخلو به فأمر من عنده بالانصراف، فلما أراد الرجل أن يتكلم

(1) البداية والنهاية (12/ 540).
(2) طمَت : ارتفعت وسمت.
(3) تبورني : تختبرني.
(4) الجاعرتين : حرفا الوركين المشرفين على الفخذين.
(5) البداية والنهاية (11/ 542).
(6) المصدر نفسه (12/ 542).
(7) العقد الفريد (3/ 13) الحجاج المفترى عليه، ص: 168.
(8) العقد الفريد (3/ 13/ 14).

بادره عبد الملك قائلاً: احذر في كلامك ثلاثاً، إياك أن تخدعني، فأنا أعلم بنفسي منك، أو تكذبني فإنه لا رأي لكذوب أو تسعى إليّ بأحد من الرعية، فإنهم إلى عدلي وعفوي أقرب منهم إلى جوري وظلمي[1].

12 - مفهوم السياسة عند عبد الملك:

أدرك الخليفة عبد الملك معنى السياسة بشكل دقيق واستوعب دروسها، كما أدرك السبل العملية لسياسة الناس، ومن مختلف منازلهم، فحين سأله الوليد وقال: يا أبت ما السياسة؟ قال: هيبة الخاصة مع صدق مودتها واقتياد قلوب العامة بالإنصاف واحتمال هفوات الصنائع[2].

13 - سيرة أبي بكر وعمر ورعيتهما:

قال عبد الملك: أنصفونا يا معشر الرعية، تريدون منا سيرة أبي بكر وعمر ولا تسيرون فينا ولا في أنفسكم بسيرة رعية أبي بكر وعمر؟ نسأل الله أن يعين كلاً على كل، إني رأيت سيرة السلطان تدور مع الناس، فلا بد للوالي أن يسير في كل زمان بما يصلحه. . . وهذا الكلام لا يسلم له به على إطلاقه، لأن السلطان المطلوب منه أن يسير مع القرآن الكريم وهدي النبي ﷺ وسيرة الخلفاء الراشدين ويعمل على نشر سير الصالحين ويقتدي بهم لا أن ينهى عن ذكر عمر ويقول: . . فإنه مرارة للأمراء، مفسدة للرعية[3]. والحقيقة تقول أن الأمراء في العهد الأموي الكثير منهم لا يستطيع أن يقتفي أثر عمر ولا أن يسير بسيرته، فيحز ذلك في نفوسهم، ويترك الحسرة والمرارة في قلوبهم، وأما الرعية فإنهم يسرعون إلى المقارنة بين ما هم فيه، وبين ما كان عليه الناس في عهد عمر، وما كانوا يتمتعون به من العدل والمساواة، والحرية والتمتع بكل حقوق الإنسان، فيدفعهم ذلك إلى التمرد على أمرائهم، والسخط على أوضاعهم، وعدم الرضا بما هم فيه[4]، وأمثال عبد الملك يريد الأمور أن تستقر على منهاج الملك العضوض، وأما منهاج الخلافة الراشدة فيضيق عليه الخناق، وفي الحقيقة، إن سوء حال الحكم في مجتمع ما كان ذلك لنقص في الراعي والرعية معاً[5]، كما أن العودة إلى صفاء الحياة في عصر الخلفاء الراشدين ليس أمر مستحيلاً، ولكن لا يأتي به الحاكم وحده وإن صلحت نيته، وعظمت عزيمته، بل لا بد من تحقيق ذلك القدر من التوافق بين الراعي والرعية، حيث يتعاون الجميع على تحقيق ذلك المجتمع الطيب وطريق ذلك طويل وشاق، ويحتاج ربما إلى أجيال من الدعاة والحكام الذين يبذلون جهدهم لتربية الرعية على معاني الإيمان ويعطون في ذلك القدوة والمثل، ويستفرغون في ذلك وذاك وقتهم وجهدهم[6].

---

(1) البداية والنهاية (12/ 387).
(2) عيون الأخبار (1/ 9) الإصلاحات المالية، ص: 196.
(3) الطبقات الكبرى (5/ 233).
(4) الأمويون بين الشرق والغرب (1/ 329).
(5) مجموع الفتاوى (35/ 20).
(6) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 277.

هذه هي أهم الخطوط العامة لسياسة عبد الملك في إدارة شؤون الدولة.

خامساً: من اهم ولاة عبد الملك: الحجّاج بن يوسف الثقفي:

هو الحجّاج بن يوسف بن الحكم الثقفي، أبو محمد، سمع من ابن عباس وروى عن أنس وسمُرة بن جندب، وعبد الملك بن مروان، وأبي بردة بن أبي موسى، وروى عنه أنس بن مالك وثابت البناني، وحميد الطويل، ومالك بن دينار، وقتيبة بن مسلم[1].

1 - بداية ظهوره:

كان الحجّاج وأبوه يعلمان الغلمان بالطائف ثم قدم دمشق، فكان عند روح بن زنباع وزير عبد الملك فشكا عبد الملك إلى روح أنَّ الجيش لا ينزلون لنزله، ولا يرحلون لرحيله، فقال روح: عندي رجلٌ تولّيه ذلك فولى عبد الملك الحجّاج أمر الجيش، فكان لا يتأخر أحد في النزول والرحيل، حتى اجتاز إلى فسطاط روح بن زنباع وهم يأكلون، فضربهم وطوّف بهم، وأحرق الفسطاط، فشكا روح ذلك إلى عبد الملك فقال للحجّاج: لم صنعت هذا؟ فقال: لم أفعله إنما فعلته أنت، فإنَّ يدي يدُك وسوطي سوطك، وما ضرّك إذا أعطيت روحاً فسطاطين بدل فسطاطه وبدل الغلام غلامين، ولا تكسُرني في الذي ولّيتني؟ ففعل ذلك وتقدم الحجّاج عنده[2].

2 - رأي الذهبي فيه:

كان ظلوماً، جباراً خبيثاً سفّاكاً للدماء وكان ذا شجاعة وإقدام ومكر ودهاء، وفصاحة وبلاغة، وتعظيم للقرآن... إلى أن قال: فنسبه ولا نحبه، بل نبغضه في الله، فإن ذلك من أوثق عرى الإيمان، وله حسنات مغمورة في بحر ذنوبه، وأمره إلى الله، وله توحيد في الجُملة، ونظراء من ظلمة الجبابرة والأمراء[3].

3 - رأي ابن كثير فيه:

وكانت فيه شهامة عظيمة وفي سيفه رهق[4]، وكان يغضب غضب الملوك، وكان - فيما يزعم - يتشبه بزياد بن أبيه، وكان زياد يتشبّه بعمر بن الخطاب فيما يزعم أيضاً ولا سواء ولا قريب[5]، وقال: وبالجملة فقد كان الحجّاج نقمة على أهل العراق بما سلف من الذنوب والخروج على الأئمة وخذلانهم لهم وعصيانهم ومخالفتهم، والافتيات عليهم[6]، وقال:.. وكان جباراً عنيداً مقداماً على سفك الدماء بأدنى شبهة. وقد رُوِي عنه ألفاظ بشعة شنيعة

---

(1) البداية والنهاية (12/ 507).
(2) المصدر نفسه (12/ 509).
(3) سير أعلام النبلاء (4/ 343).
(4) البداية والنهاية (12/ 510) الرهق: الهلاك والظلم.
(5) المصدر نفسه (12/ 510).
(6) المصدر نفسه (12/ 536).

ظاهرها الكفر، فإن كان قد تاب منها وأقلع عنها، وإلا فهو باقٍ في عهدتها، ولكن يخشى أنَّها رويت عنه بنوع من زيادة عليه، فإن الشيعة كان يبغضونه جداً لوجوه، وربَّما حرّفوا عليه بعض الكلم، وزادوا فيما يحكونه عنه بشاعات وشناعات وقد روينا عنه أنه كان يتدين بترك المسكر، وكان يكثر تلاوة القرآن ويتجنب المحارم، ولم يُشتهر عنه شيء من التلطخ بالفروج، وإن كان متسرعاً في سفك الدماء، فالله تعالى أعلم بالصواب وحقائق الأمور وسرائرها وخفيَّات الصدور وضمائرها[1].

فلا نكفر الحجّاج، ولا نمدحه، ولا نسبه ونبغضه في الله بسبب تعديه على بعض حدود الله وأحكامه، وأمره إلى الله.

4 - من خطب ومواعظ الحجّاج:

قال الشعبي: سمعت الحجّاج تكلم بكلام ما سبقه إليه أحد، يقول: أما بعد، فإن الله تعالى كتب على الدنيا الفناء وعلى الآخرة البقاء، فلا فناء لما كتب عليه البقاء، ولا بقاء لما كتب عليه الفناء. فلا يَغُرنكم شاهد الدنيا عن غائب الآخرة، واقهروا طول الأمل بقصر الأجل[2]، وعن أبي عبد الله الثقفي عن عمّه، قال: سمعت الحسن البصريَّ يقول: وقذتني كلمة سمعتها من الحجّاج، سمعته يقول على هذه الأعواد: إن امرأ ذهب ساعة من عمره في غير ما خلق له لحريٌّ أن تطول عليها حسرته إلى يوم القيامة[3].

5 - صدق الله وكذب الشاعر:

جاء رجل إلى الحجّاج فقال إن أخي خرج مع ابن الأشعث، فضُرب على اسمي في الديوان، ومُنعتُ العطاء، وقد هُدِمت داري.

فقال الحجّاج: أما سمعت قول الشاعر:

جانيك من يَجْني عليك وقد تُعدي الصِّحاح مبارك الجُرْب
ولَربَّ مأخوذٍ بذنب قَريبه ونجا المقارف صاحب الذنب

فقال الرجل: أيها الأمير، إني سمعت الله يقول غير هذا وقول الله أصدق من هذا. قال: وما قال؟ قال ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [يوسف: 78-79]. قال: يا غلام أعِد اسمه في الديوان، وابْن داره، وأعطاه عطاءه، ومُرْ منادياً ينادي: صدق الله وكذب الشاعر[4]، فهذه القصة تدل بوضوح على أن للشريعة الإسلامية سلطانها وهيبتها، حتى

---

(1) البداية والنهاية (12/ 522).
(2) المصدر نفسه (12/ 536).
(3) المصدر نفسه (12/ 522).
(4) المصدر نفسه (12/ 523).

على طغاة الحكام، وهذه خصيصة فريدة تتميز بها الشريعة الربانية عن الأنظمة والقوانين الوضيعة، كما تدلنا على أن أطغى الطغاة في العصور الأولى لم يكن ليجرؤ على رفض شريعة الله أو تحدي نصوصها، ولو كان هو الحجّاج بن يوسف، المشهور بالقسوة والجبروت[1].

6 - الحجّاج مع أعرابي:

حجّ الحجّاج مرّة، فمر بين مكة والمدينة، فأُتي بغذائه فقال لحاجبه: انظر من يأكل معي، فذهب، فإذا أعرابي نائم فضربه برجله وقال: أجب الأمير. فقام، فلمّا دخل الحجّاج قال له: اغسل يديك ثم تغدَّ معي. فقال: إنَّه دعاني من خير منك، فأجبته. قال ومن هو؟ قال: الله دعاني إلى الصوم، فأجبته. قال: في هذا الحرِّ الشديد؟ قال نعم، صمت ليوم هو أشدُّ حرًّا منه قال: فأفطر وصُم ليوم غد، قال: إن ضمنت لي البقاء إلى غد. قال: ليس ذلك إليَّ. قال: فكيف تسألني عاجلاً بأجل لا تقدر عليه؟ قال: إن طعامنا طعام طيب.. قال: لم تُطيِّبه أنت ولا الطباخ، إنّما طيَّبته العافية[2].

7 - زواج الحجّاج من بنت عبد الله بن جعفر بن أبي طالب:

قال الشافعي: لمّا تزوج الحجّاج بنت عبد الله بن جعفر قال خالد بن يزيد بن معاوية لعبد الملك بن مروان: أتُمكنه من ذلك؟ فقال: وما بأس بذلك؟ قال: أشدُّ البأس والله. قال: وكيف؟ قال: والله يا أمير المؤمنين لقد ذهب ما في صدري على آل الزبير منذ تزوجت رملة بنت الزبير. قال: فكأنه كان نائماً فأيقظه، فكتب إلى الحجّاج يعزم عليه في طلاقها فطلقَّها[3]، وجاء في رواية: يا أمير المؤمنين إنما خفت أن يميل الحجّاج إليهم فيسعى لمحل سلطانه فإنه لم يكن بين أهل بيتين من شحناء ما كان بيننا وبين آل الزبير، فلما تزوجت برملة بنت الزبير انقلب ذلك البغض محبة حتى إني ما أحب أكثر منهم[4]، حتى قلت:

تجول خلاخيل النساء ولا أرى ... خلخالاً يجول ولا قُلْبا
فلا تكثروا فيها الملام فإنني ... تخيرتها منهم زبيرية قلبا
أحب بني العوام من أجل حُبِّها ... ومن أجلها أحببت أخوالها كلبا[5]

وكان الحجّاج يحترم أهل البيت ويكرمهم وما زواجه ببنت عبد الله بن جعفر إلا مظهر من ذلك ليتقرب منهم ويصلهم، وعلى الرغم من أنه طلقها فما زال واصلاً لعبد الله حتى مات، فكان يرسل له في كل شهر عيراً تحمل كسوة وتحفاً وميرة وكل ما يحتاج إليه[6]، وقد تجلى

(1) تاريخنا المفترى عليه للقرضاوي، ص: 22.
(2) البداية والنهاية (12/ 518).
(3) المصدر نفسه (12/ 517).
(4) الحجّاج بن يوسف المفترى عليه، ص: 137.
(5) وفيات الأعيان (2/ 224، 225).
(6) المستطرف من كل فن مستظرف (2/ 321).

ذلك في أنه قال مرة: ليقم كل رجل منك يذكر بلاءه لنعطيه فقام رجل فقال: أنا قاتل الحسين. فقال: كيف قتلته؟؟ قال: دسرته بالرمح دسراً، وهبرته بالسيف هبراً. فقال: أما والله لا يجتمع الحسين وقاتله في الجنة، وحرمه من العطاء[1]، وما يذكر في كتب التاريخ من كون الحجّاج نصب العداء لأهل البيت غير صحيح، وخصوصاً إذا عرفنا معاملة عبد الملك لأهل البيت وحرصه على عدم مساسهم من قريب أو بعيد ما لم يتقربوا من كرسي الخلافة ويعملوا على الوصول إليه.

8 - الحجّاج والشعراء:

وكان الحجّاج يقرب الشعراء ويستمع لشعرهم وكثيراً ما كان ينقد الشعر بملكة الأديب كما يحفظ الكثير من جيد الشعر ويقتبس منه في خطبه بما يناسب المقام، ومن الشعراء الذين أحسن لهم الحجّاج جرير بن عطية، فقد أطنب في مدح الحجّاج وأنشده قصيدة من عيون الشعر منها:

من سَدَّ مُطَّلَع النفاق عليهم ... أم من يصول كصولة الحجّاج؟
أم من يغار على النساء حفيظة ... إذ لا يثقن بغيرة الأزواج
إن ابن يوسف فاعلموا وتيقنوا ... ماضي البصيرة واضح المنهاج[2]

ومدحه بقصيدة أخرى من غرر الشعر جاء فيها:

ترى نصر الإمام عليك حقا ... إذا لبسوا بدينهم ارتيابا
عفاريت العراق شفيت منهم ... فأمسوا خاضعين لك الرقابا
وقالوا لن يجامعنا أمير ... أقام الحد واتبع الكتابا[3]

وصار جرير يقول في الحجّاج قصائد من عيون الشعر وطال بقاؤه في بلاطه فخشي الحجّاج أن يكون في ذلك سبيل لدسيسة يتقرب بها بعض الناس لأمير المؤمنين، فرأى أن يرسله لدمشق ليمدح عبد الملك وأجزل له العطاء[4]، ومن الشعراء الذين مدحوا الحجّاج: ليلى الأخيلية، والفرزدق والأخطل وغيرهم.

9 - رؤية رآها الحجّاج:

رأى أن عينيه قُلعتا: وكان تحته هند بنت المُهلَّب، وهند بنت أسماء بن خارجة فطلَّقهما

---

(1) تاريخ الإسلام للذهبي، سرح العيون لابن نباته، ص: 108، الحجّاج بن يوسف المفترى عليه، ص: 399.
(2) ديوان جرير، ص: 90، 91.
(3) الكامل في الأدب نقلاً عن الحجّاج بن يوسف المفترى عليه، ص: 365.
(4) الحجّاج بن يوسف المفترى عليه، ص: 368.

ليتأوّل رؤياه بهما، فمات ابنه محمد وجاءه نعيُ أخيه محمد من اليمن، فقال: هذا والله تأويل رؤياي: محمد ومحمد في يوم واحد، إنا لله وإنا إليه راجعون ثم قال من: يقول شعراً فيُسلني به فقال الفرزدق:

إن الرَّزيَّة لارزيَّة بعدها ... فقدان مثل محمد ومحمد
مَلِكان قد خلت المنابر منهما ... أخذ الحمام عليهما بالمرصد[1]

10 - مقتل سعيد بن جبير:

في عام 95هـ قتل الحجّاج سعيد بن جبير المقرئ المفسّر المحدث الفقيه، أحد الأعلام وله نحو من خمسين سنة أكثر روايته عن ابن عبّاس، وحدّث في حياته بإذنه، وكان لا يكتب الفتاوى مع ابن عبّاس، فلمّا عَمِيَ ابن عباس كتب، وروي أنه قرأ القرآن في ركعة في البيت الحرام، وكان يؤمّ الناس في شهر رمضان، فيقرأ ليلة بقراءة ابن مسعود، وليلة بقراءة زيد بن ثابت، وأخرى بقراءة غيرهما وهكذا أبداً، وقيل: كان أعلم التابعين بالطّلاق سعيد بن جبير، وبالحج عطاء، وبالحلال والحرام طاووس، وبالتفسير مجاهد، وأجمعهم لذلك سعيد بن جبير، وقتله الحجّاج وما على وجه الأرض أحد إلّا وهو مفتقر إلى علمه[2]، وقال الحسن يوم قتله: اللهمّ أعِنْ على فاسق ثقيف، والله لو أنّ أهل الأرض اشتركوا في قتله لأكبهم الله في النار[3]، وعندما أمر الحجّاج بقتل سعيد قال سعيد: اللهم لا تحل له دمي ولا تُمهله من بعدي[4]، وأصيب الحجاج بفزع عظيم وجعل يقول: مالي ولك يا سعيد بن جبير، وكان في جملة مرضه كلما نام رآه آخذاً بمجامع ثوبه يقول: يا عدو الله فيم قتلتني، فيستيقظ مذعوراً ويقول: مالي ولابن جبير[5].

11 - مرض الحجاج وموته:

أ - خطبته قبل موته: لما مرض الحجّاج أرجف الناس بموته فقال في خطبته: إنَّ طائفة من أهل الشقاق والنفاق نزغ الشيطان بينهم، فقالوا: مات الحجّاج، ومات الحجّاج، فمه، وهل يرجو الحجّاج الخير إلا بعد الموت؟ والله ما يُسرُّني أن لا أموت وأنَّ لي الدنيا وما فيها وما رأيت الله رضي التخليد إلا لأهون خلقه عليه إبليس، قال الله له ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝١٥﴾ [الأعراف: 15]. فأنظره إلى يوم الدين، ولقد دعا الله العبد الصالح فقال: ﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٣٥﴾ [صٓ: 35]. فأعطاه الله ذلك إلا البقاء، فما عسى أن يكون أيُّها الرجل، وكلُّكم ذلك الرجل، كأنّي والله بكل حيٍّ منكم ميتاً، وبكل رطبٍ يابساً، ثم نُقِلَ في

(1) شذرات الذهب (1/ 382).
(2) المصدر نفسه (1/ 383).
(3) المصدر نفسه.
(4) المصدر نفسه (1/ 386).
(5) المصدر نفسه.

ثياب أكفانه إلى ثلاثة أذرع طولاً في ذراع عرضاً، فأكلت الأرض لحمه، ومصّت صديده، وانصرف الحبيب من ولده يَقسِمُ الحبيب من ماله، إن الذين يعقلون يعقلون ما أقول[1].

ب - الآلام الشديدة التي تعرض لها الحجّاج في مرضه: كان موت الحجّاج بالأكلة[2] في بطنه، سوّغه الطبيب لحماً في خيط فخرج مملوءاً دوداً، وسُلط عليه أيضاً البرد فكان يوقد النّار تحته وتأجّجُ حتى تحرق ثيابه وهو لا يُحِسُّ بها، فشكا ما يجده إلى الحسن البصري - كما جاء في بعض الروايات - فقال له: ألم أكن نهيتُك أن تتعرّض للصالحين، فلججت، فقال له: يا حسن، لا أسألك أن تسأل الله أن يفرج عني ولكني أسألك أن تسأله أن يعجل قبض روحي ولا يطيل عذابي، فبكى الحسن بكاءً شديداً، وأقام الحجّاج على هذه العلة خمسة عشر يوماً فلما أخبر الحَسَنُ بموته سجد شكراً، وقال: اللهمَّ كما أمتّه أمِتْ سنّته[3]، وعن الأصمعي، قال: لما حضرت الحجّاج الوفاة أنشأ يقول:

يا ربِّ قد حلف الأعداء واجتهدوا ... بأنني رجل من ساكني النار
أيحلفون على عمياء ويحهم ... ما علمهم بعظيم العفو غفار[4]

وقال عند موته: اللهم اغفر لي، فإن الناس يزعمون أنك لا تفعل[5]، وعن عمر بن عبد العزيز أنّه قال: ما حسدتُ الحجّاج عدو الله على شيء حسدي إياه على حبّه للقرآن وإعطائه أهله، وقوله له حين حضرته الوفاة: اللهم اغفر لي فإنَّ الناس يزعمون أنك لا تفعل[6]، ولما قيل للحسن البصري: إن الحجّاج قال عند الموت كذا وكذا. قال: أقالها؟ قالوا: نعم. قال: عسى[7]، وقد فرح أهل العراق بموت الحجّاج، وسمي يوم موته عرس العراق[8].

ج - عمره لما مات وما تركه من مال: قال العماد في سنة 95هـ: فيها أراح الله العباد والبلاد بموت الحجاج بن يوسف الثقفي في ليلة مباركة على الأمة، ليلة سبع وعشرين رمضان، وله ثلاث وقيل أربع أو خمس وخمسون سنة أو دونها[9]، وزعموا أنَّ الحجّاج مات ولم يترك إلا ثلاثمائة درهم ومصحفاً وسيفاً وسرْجاً ورحلاً ومائة درع موقوفة[10].

د - ما رؤي له بعد موته: وقال الأصمعي عن أبيه قال: رأيت الحجّاج في المنام فقلت ما فعل الله بك؟ فقال: قتلني بكل قتلة قتلت بها إنساناً.

---

(1) البداية والنهاية (12/ 594).
(2) الأكلة: داء يقع في العضو فيأتكل منه.
(3) شذرات الذهب (1/ 381).
(4) البداية والنهاية (12/ 550).
(5) المصدر نفسه (12/ 550).
(6) المصدر نفسه (12/ 550).
(7) المصدر نفسه (12/ 550).
(8) المنتظم (7/ 4).
(9) شذرات الذهب (1/ 377).
(10) البداية والنهاية (12/ 552).

وكان الحسن لا يجلس مجلساً إلا ذكر فيه الحجّاج فدعا عليه، قال: فرآه في منامه فقال له: أنت الحجّاج قال: ما فعل الله بك؟ قال: قتلت بكل قتيل قتلته ثم عُزلت مع الموحِّدين. قال: فأمسك الحسن بعد ذلك عن شتمه[1].

هـ - حزن الوليد بن عبد الملك عليه: لما مات الحجّاج تفجع عليه الوليد وجلس للعزاء فيه محزوناً عليه ومازال مهموماً حتى دخل عليه الفرزدق - الشاعر - فرثى الحجّاج رثاءً أرضى الوليد وأقر عينه فقد قال:

لبيك على الإسلام من كان باكيا ... على الدين من مستوحش الليل خائف

وأرملة لما أتاها نعيه ... فجادت له بالواكفات الزوارف

إلى أن قال:

فما ذرفت عيناي بعد محمد ... على مثله إلا نفوس الخلايف[2]

وتتابع الناس في دخولهم على الوليد يعزونه في الحجّاج ويثنون عليه خيراً، وقد وجد الوليد على عمر بن عبد العزيز لأنه لم يقل في الحجّاج شيئاً وألجأه إلى الكلام فقال: وهل كان الحجّاج إلا رجلاً من أهل البيت فنحن نُعزى فيه ولا نُعَزّي[3]، وقال الوليد: لأشفعن في الحجّاج عند الله[4]، ووفاء لذكرى الحجّاج أقرّ الوليد العمال الذين استخلفهم[5].

و - أقوال العلماء في موت الحجّاج: عن معمر، ، عن ابن طاووس، عن أبيه أنه أخبر بموت الحجّاج مراراً، فلما تحقّق وفاته قال: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: 45].

- ولما أخبر إبراهيم النخعي بموت الحجّاج بكى من الفرح[6]، ولما بشر الحسن بموت الحجّاج سجد شكراً لله وقال: اللهم أمّتّه، فأذهب عنا سنته[7]، وخرّ عمر بن عبد العزيز ساجداً حينما بلغه النبأ[8].

---

(1) البداية والنهاية (12/ 554).
(2) العقد الفريد (3/ 19) ديوان الفرزدق، ص: 212.
(3) مناقب عمر بن عبد العزيز، ص: 24.
(4) المحاسن والأضداد، ص: 126، النجوم الزاهرة (1/ 218).
(5) تاريخ الطبري، نقلاً عن الحجّاج المفترى عليه، ص: 150.
(6) المصدر نفسه (12/ 551).
(7) المصدر نفسه (12/ 551).
(8) العقد الفريد (3/ 18).

المبحث الرابع

النظام المالي في عهد عبد الملك

أولاً: مصادر دخل الدولة:

كانت من أهم مصادر دخل الدولة: الزكاة، والخراج، والجزية وخمس الغنائم والعشور والصوائف وقد تعرضت بعض هذه المصادر للانحراف عن الشريعة من قبل القائمين عليها وعلى سبيل المثال:

1 - الجزية:

صالح رسول الله ﷺ أهل نجران على ما يعادل 80000 درهماً سنوياً، ولما تولى عثمان بن عفان شكوا إليه قلة عددهم وتفرقهم في البلاد فخفضها عنهم إلى 72000 درهماً، فلما تولى معاوية بن أبي سفيان، شكوا إليه نفس الشكوى فخفضها عنهم إلى 64000 درهماً، فلما تولى الحجّاج بن يوسف على العراق اتهمهم بمعاونة خصوم الدولة السياسيين فرفعها إلى 720000 درهماً[1]، ويمكن القول بأن رفع نظام الجزية في العصر الأموي شهد بصفة عامة انحرافات في طريقة الجباية والتي منها ما قيل أن المهلب بن أبي صفرة، حينما صالح أهل خوارزم على ما يزيد على عشرين مليون درهماً، كان يأخذ بدل النقد سلعاً عينية لعدم توفر السيولة النقدية لدى أهلها، لكنه أجحف في ذلك حيث كان يأخذ الشيء بنصف قيمته، فبلغ ما أخذه منهم خمسين مليون درهماً[2]، كما شهد انحرافات أخرى متمثلة في استمرار فرض الجزية على من أسلم، وقد برز هذا الأمر بصفة خاصة في ولاية الحجّاج[3]، ومع ذلك يمكن القول بأن التأثير الاقتصادي لهذا الانحراف كان محدوداً، وذلك لأن قرار الحجّاج في العراق قوبل بثورة أوقفت تطبيقه[4]، وأيضاً كان الانحراف الذي وقع في خراسان محدوداً، وعولج سريعاً بمجيء عمر بن عبد العزيز، ولكن للأسف لم يكتب لهذا الإصلاح الاستمرار حيث انتهى مفعوله بانتهاء عهد عمر بن عبد العزيز[5].

2 - الخراج:

تدنى الخراج كثيراً في عهد الحجّاج حتى وصل طبقاً لبعض الروايات إلى 18 مليون درهماً

---

(1) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 69.

(2) البداية والنهاية نقلاً عن التطور الاقتصادي، ص: 70.

(3) تاريخ الطبري نقلاً عن التطور الاقتصادي، ص: 70.

(4) الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية للريس، ص: 219.

(5) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 71.

وقيل أنه وصل إلى 25 مليون عند موت الحجّاج[1]، بعد ما كان في عهد معاوية قد بلغ 135 مليون درهماً[2]. وقام عبد الملك بمسح أرض الشام والجزيرة ويبدو أنه استقل ما كان يجبى من خراجهما، وكان معياره في التقدير هو مدى القرب والبعد من الأسواق، وكانت مسيرة اليوم واليومين فأكثر هي غاية البعد عنها، وما نقص عن اليوم فهو من القرب، وبناء على ذلك كان الخراج المفروض على الأرض القريبة يزيد عن المفروض على الأرض البعيدة[3]، وقد أحدث هذا المسح زيادة في حصيلة الخراج[4]، ويبدو أن عبد الملك أراد أن يعوض ما حدث من نقص في خراج العراق بسبب الثورات.

3 - الصوافي:

ويمجيء عبد الملك أقطع جميع الصوافي للأشراف حتى لم يبق منها شيئاً، إلا أن هؤلاء الملاكين الكبار لم يتوقفوا عن المطالبة بمزيد من القطائع وأمام إلحاحهم المستمر، قام الخليفة بالتصرف ببعض الأراضي الخراجية التي توفي أصحابها ولم يكن لهم ورثة فأقطعهم جميع هذه الأراضي، وجعل لأصحابها حق ملكيتها التامة، بما في ذلك توريثها على أن يدفعوا عن هذه الأراضي ضريبة العشر، ورفع ضريبة الخراج عن هذه الأراضي وقد اعتبر الخليفة أن تصرفه هذا عملاً مشروعاً شبيهاً بإخراجه من بيت المال الجوائز الخاصة[5]. أي أن الخليفة قد برّر موقفه معتبراً أن ما قام به وكأنه نوع من المكافأة التي يحق للخليفة أن يأمر بها، بحيث أن ذلك يقع ضمن صلاحياته التي تتيح له أن يقدم المساعدات والمكافآت التي يراها مناسبة من بيت المال. ولكن هذا الموقف، الذي لم تكن تدعمه أية سوابق إسلامية في العهد الراشدي فقط بل هو يخالف صراحة ما قرّره المسلمون بشأن أراضي الصوافي والأراضي الخراجية حيث اعتبر فيئاً للمسلمين ووقفاً لهم فلا يحق لأحد التصرف فيها بأي شكل من الأشكال، إن كان بالبيع أو بالشراء أو بمنحها قطائع، حتى وإن كان أصحابها أي العاملين على هذه الأرض قد توفوا وليس لهم وارث، ولهذا فلا يصحّ ولا يجوز أن تعتبر هذه الأراضي متساوية مع الجوائز الخاصة[6]، هذه بعض الانحرافات التي حدثت في مصادر الدولة وكان لها الأثر البالغ على النظام المالي.

---

(1) التطور الاقتصادي، ص: 74.
(2) الأحكام السلطانية للماوردي، ص: 175.
(3) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 76.
(4) المصدر نفسه، ص: 76.
(5) تاريخ بلاد الشام الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 117.
(6) المصدر نفسه، ص: 118.

ثانياً: النفقات العامة:

1 - النفقات العسكرية:

في عهد عبد الملك زادت عطاءات الجنود العرب حتى بلغ حدها الأدنى 1200 درهماً. وحدها الأوسط 1600 درهماً وحدها الأعلى 1800 درهماً[1]، في ولاية العراق، والغريب أن هذا لا يتلائم مع الحالة الاقتصادية في عهد الحجّاج والتي انخفضت فيها إيرادات المال بشكل كبير، لكن يفسر ذلك كثرة من خرج على الحجّاج من جنده، وكان يلقي عطاء من خرج عليه ويزيد في عطاء الباقين[2].

2 - نفقات الصناعات الحربية:

كان اهتمام الدولة الأموية منصباً على تطوير سلاح البحرية وسيأتي الحديث عن ذلك في الصناعات بإذن الله.

3 - النفقات الإدارية:

كان الحد الأقصى لرواتب الكتّاب طوال العصر الأموي وطرفاً من العباسي حتى عهد المأمون هو 3600 درهماً سنوياً، وكان حدها الأدنى 720 درهماً سنوياً[3]، وكان كتاب ديوان رسائل الحجّاج مرتبة ثلاثمائة درهم شهرياً، وقد كان يوزعها فيجعل لامرأته خمسين درهماً وينفق على شراء اللحم خمسة وأربعين درهماً، وما تبقى ينفقه على الدقيق وإن فضل شيء تصدق به، وقد عاده الحجّاج من علة، فوجد بين يديه كانوناً من طين ومنارة من خشب فقال له: ما أرى رزقك يكفيك. قال: إن كانت ثلاثمائة لا تكفيني فثلاثون ألفاً لا تكفيني[4]، ويمكن اعتبار متوسط الدخل الفردي المناسب في العصر الأموي هو ما بين مائتين وخمسين إلى ثلاثمائة درهم شهرياً[5]، ويدخل من ضمن النفقات الإدارية، مرتبات الولاة والقضاة وموظفي الدولة عموماً، فقد كانت الدولة تتكفل بمرتباتهم.

ثالثاً: تطور القطاع الزراعي:

كان تطور القطاع الزراعي للدولة الأموية في الجانب الغربي وذلك بسبب عوامل عديدة منها:

1 - الاستقرار السياسي لتلك المنطقة خلال معظم العصر الأموي.

2 - الاستقرار النقدي الذي كانت تتمتع به المنطقة حتى قبل سك النقود الإسلامية، ذلك أنها ورثت الدنانير البيزنطية، والتي ظلت عملة مستقرة لم تتعرض لما تعرضت له الدراهم الفارسية من غش.

---

(1) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 100.
(2) المصدر نفسه، ص: 100.
(3) المصدر نفسه، ص: 107.
(4) المصدر نفسه، ص: 108.
(5) المصدر نفسه، ص: 108.

3 - أن المنطقة الغربية من الدولة الأموية لم تعان مما كانت تعاني منه المنطقة الشرقية من تركز في الثروة، ووجود عدد كبير نسبياً من أفراد المجتمع دخولهم منخفضة نسبياً، ويعود ذلك إلى أن مادة الجيش الأموي السياسية كانت من جند الشام، وقد تميز أهل هذه المنطقة في العطاء[1]، مما جعل الدورة الاقتصادية في المنطقة الغربية تدور بسرعة أكبر وبالتالي ينشط القطاع الزراعي فيها بشكل أكبر وينمو بشكل أسرع، بينما كان معظم سكان المنطقة الشرقية هم من أصحاب الدخول المنخفضة «الموالي».

4 - استبدال الضرائب العينية في كل من الجزيرة والشام بضرائب نقدية خلال المسح الذي تمّ في عهد عبد الملك[2]، وهذا أثر في العطاء، فزاد الطلب النقدي لساكني المدن على السلع الزراعية، ومنتجات الريف، وأحدث نوعاً من الاستقرار وأحدث زيادة في دخول المزارعين مكنتهم من تحقيق تنمية زراعية[3].

وقد ظهرت دلائل التطور الزراعي بالمنطقة الغربية كثمرة لتلك العوامل وغيرها وكان من أبرز تلك العوامل:

1 - زيادة حصيلة خراج منطقتي الجزيرة والشام نتيجة المسح الذي تم لهما في عهد عبد الملك بن مروان.

2 - تطور نظام الري من خلال توزيع المياه بين الأنهار الفرعية[4]، مما أدى إلى زيادة إنتاجية الأراضي الزراعية، فهذه بعض الدلائل التي تشير إلى التطور الزراعي بالمنطقة الغربية من الدولة الأموية.

* التدهور الزراعي في القسم الشرقي من الدولة الأموية:

كان الطابع العام لقطاع الزراعة في هذا القسم السير نحو التدهور، ولعل من أبرز الأسباب التي أدت إلى تدهور القطاع الزراعي في المنطقة الشرقية من الدولة الأموية ما يلي:

1 - الاضطراب السياسي، وفقدان الأمن بالمنطقة، فانعكس ذلك على مستوى الإنتاجية الزراعية.

2 - تركز الثروة في يد قلة من سكان المنطقة، حيث كانت معظم التركيبة السكانية من الموالي، مما ترتب عليه ضعف حركة النقود داخل المنطقة، فضعفت حركة تبادل السلع، أي حدوث كساد اقتصادي بالمنطقة[5].

---

(1) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 192.
(2) المصدر نفسه، ص: 193.
(3) المصدر نفسه، ص: 193.
(4) المصدر نفسه، ص: 193.
(5) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 196.

3 - قرار بيع الأراضي الخراجية وجعل ثمنها في بيت المال، جاء ذلك لمواجهة النقص في إيرادات الدولة[1]. فأدى إلى توفير السيولة النقدية اللازمة للدولة على المدى القصير، لكنه على المدى الطويل كانت له آثار عكسية على إيرادات بيت المال فقد تحولت هذه الأراضي الخراجية إلى أراضي عشرية، وبينما لا تقل ضريبة الخراج عن (25%) وقد تصل إلى (50%) من حصيلة الإنتاج الزراعي سنوياً، أصبح الحد الأقصى بما تدره لبيت المال هو (10%) سنوياً، وقد أدى انخفاض إيرادات الدولة على هذا النحو إلى إضعاف مقدرة الدولة في المدى الطويل على تمويل المشاريع العامة، والتي كان غالبها يدعم قطاع الزراعة، إلى جانب ذلك كان لهذا القرار أثر مباشر على الإنتاجية الزراعية، فقد كان البائعون هم أصحاب الأرض الأصليين الذين عرفوا كيف يتعاملون معها، وأسلوب زراعتها، واكتسبوا الخبرة الزراعية من طول مكثهم فيها، بينما كان المشترون من العرب وهم ذوو خبرة قليلة بالزراعة، خاصة إذا ما قورنت بالنسبة لخبرة المزارعين الأصليين.

4 - إخضاع المشاريع الزراعية للضغوط السياسية، فقد أدت محاربة الدولة لخصومها السياسيين إلى تخريب أو تحجيم مشاريعهم الزراعية، فانعكس ذلك بنتائج سلبية على اقتصاد الدولة ككل، ومن صور ذلك ما حدث في عهد الحجّاج من أن بثوق انبثقت على الأرض المحياة من أرض البطائح فلم يعمل الحجّاج - بوصفه والي المنطقة - على سد تلك البثوق مضارة لأهلها - لاتهامهم بمساعدة ابن الأشعث في الخروج عليه - فغرقت أراضيهم الزراعية وتحولت إلى موات[2].

5 - حدوث مواجهة عسكرية بين المزارعين المهاجرين من الأرياف إلى المدن من الموالي والدولة الأموية، وذلك حينما حاول والي العراق إعادتهم إلى أراضيهم بالقوة وإعادة فرض الجزية عليهم، وقد وافق ذلك خروج ابن الأشعث على الدولة الأموية، فانضموا تحت لوائه[3].

ونتيجة لتلك الأسباب وغيرها فقد بدت علامات تدهور القطاع الزراعي العام في المنطقة الشرقية من الدولة الأموية، وكان أبرز تلك العلامات ما يلي:

1 - تدهور غلة الخراج، حيث أخذت في التناقص المستمر[4].

2 - هجرة الفلاحين للأراضي الزراعية والاتجاه نحو المدن، وذلك لزيادة حجم ضريبة الخراج - بالضرائب الإضافية - وعنف الجباية، فتركوا أراضيهم وهاجروا إلى المدن[5].

---

(1) الخراج والنظم المالية، ص: 203، 204.
(2) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 198.
(3) المصدر نفسه.
(4) المصدر نفسه، ص: 199.
(5) تطور ملكية الأراضي في منطقة السواد حتى نهاية العصر الأموي، ص: 195.

3 - حالة القلق التي انتابت المزارعين الذين بقوا في أراضيهم مما دفعهم لتسجيل أراضيهم لأسماء الأمراء والأشراف - وهو ما يعرف بالإلجاء - طلباً للحماية، ومن أمثلة ذلك إلجاء كثير من المزارعين أراضيهم بمسلمة بن عبد الملك للتعزز به[1].

4 - حدوث نقص كبير في الإنتاج الحيواني، وبالذات حيوانات الحرث، مما دفع والي العراق إلى إصدار أمر يقضي بمنع ذبح الأبقار[2] في أحد خطوات علاج الأزمة، كما قام بتوريد كمية من الجواميس من إقليم السند لسد العجز الحاصل في دواب التنمية الزراعية[3].

ومع ذلك فقد كانت خلال هذه الفترة مجموعة من الإجراءات والمشاريع التي خففت من حدة التدهور الزراعي بالمنطقة خلال عهد عبد الملك وكان من أبرزها ما يلي:

1 - عملية نقل الأيدي العامة الزراعية من منطقة إلى منطقة أخرى، بهدف إحداث تنمية زراعية من الجهة المنقول إليها، ومن أمثلة:

أ - نقل الحجّاج بن يوسف عدداً من مزارعي بلاد السند بأهليهم وجواميسهم وإسكانهم في أرض موات، فأحيوها[4].

ب - نقل رؤوس الأموال إلى مناطق فقيرة لتنميتها، ومثال ذلك إسكان قتيبة بن مسلم لمجموعة من العرب في سمرقند[5]، ومعلوم أن العرب كانوا من أعلى الناس ثروة في العصر الأموي[6].

رابعاً: تطور التجارة:

مر تطور التجارة الداخلية في عهد عبد الملك بمرحلة ضعف بسبب عوامل أثرت على حجم التجارة الداخلية، كان من أبرزها ما يلي:

1 - كثرة الفتن والقلاقل الداخلية التي عصفت بمعظم أركان الدولة الأموية، ومن المعلوم بداهة أن الاستقرار السياسي والأمن الداخلي هي من أولويات ازدهار التجارة الداخلية ونموها، ومع افتقادهما في الدولة الأموية بشكل كبير تعثرت التجارة الداخلية.

2 - نقص السيولة النقدية.

3 - صعوبة دفع الأثمان للصفقات التجارية، وعلى جهة الخصوص الكبيرة منها.

4 - ارتفاع نسبة الضرائب على التجارة حيث روي أنها وصلت[7] إلى 33%.

---

(1) الخراج والنظم المالية للريس، ص: 260.
(2) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 199.
(3) فتوح البلدان، ص: 368 للبلاذري.
(4) الخراج والنظم المالية للدولة الأموية، ص: 215.
(5) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 200.
(6) المصدر نفسه، ص: 200.
(7) المصدر نفسه، ص: 216.

ومع بداية 77 هـ نمت التجارة الداخلية وازدهرت، وكان وراء ذلك العديد من الأسباب من أبرزها:

1 - زيادة السيولة النقدية الداخلية، وذلك بإصدار العملة الإسلامية الجديدة الموحدة، والتي تطورت من حيث الدقة والانضباط والعيار حتى أصبحت محل ثقة المتعاملين في الأسواق وأصبحت تلقى قبولاً عاماً مما سهل عملية المبادلات بشكل كبير، وحل عدد النقود محل وزنها وبذلك كانت عملية الإصدار النقدي نقطة تحول في تطور التجارة الداخلية بشكل خاص، سواءً من حيث الزيادة في حجمها أو الاتساع في أرجائها.

2 - حدوث هدوء واستقرار نسبي داخل الدولة الأموية بعد القضاء على الثورات الداخلية.

3 - تمت في هذه المرحلة بعض الإصلاحات التي كان من شأنها تيسير الصفقات التجارية، ومن الأمثلة على ذلك ما يلي:

أ - توحيد وحدة الكيل والميزان من قبل الحجّاج بإقليم العراق[1].

ب - تنظيم الأسواق مما يسهل ويخدم الحركة التجارية[2].

ج - وجود خدمات لراحة التجار، كالفنادق والحمامات داخل الأسواق[3].

وأما التجارة الخارجية في عهد عبد الملك، فقد كانت متعلقة بالدولة البيزنطية ودول المشرق الأقصى.

1 - العلاقة مع الدولة البيزنطية:

وقد مرّت العلاقة التجارية بمرحلتين:

* مرحلة نمو وقوة وازدهار:

وقد نشأ هذا النمو والقوة والازدهار نتيجة عدة عوامل لعل من أهمها:

أ ـ كثرة الاضطرابات والحروب في المنطقة الشرقية من الدولة الأموية، مما خفض من حجم المبادلات التجارية بينها وبين دول المشرق ولو بشكل جزئي، وبالتالي زيادة حجم المبادلات التجارية مع دولة بيزنطية بالغرب.

ب - الاستقرار الأمني في المناطق الغربية مع الدولة الأموية، دفع بكثير من رؤوس الأموال للهجرة من مناطق التوتر في الشرق إلى إقليم الشام، بحثاً عن فرص استثمارية آمنة.

ج - الاعتماد الكلي لكل من الدولتين على الأخرى في مجال هام وحيوي بالنسبة لها،

---

(1) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 217.
(2) المصدر نفسه، ص: 217.
(3) المصدر نفسه.

فكما كانت الدولة البيزنطية تعتمد كلياً على أوراق البردي، كانت الدولة الأموية تعتمد كلياً في حجم النقد الذهبي داخلها على ما يردها من الدولة البيزنطية[1].

*** - مرحلة تدهور المبادلات التجارية بين البلدان:**

وقد شهدت هذه المرحلة انخفاضاً كبيراً في المبادلات التجارية بين الدولتين ويعود ذلك إلى عدة عوامل من أبرزها ما يلي:

أ - تدهور العلاقات السياسية بين الدولتين بشكل كبير.

ب - حدوث هدوء نسبي في الأقاليم الشرقية بعد قضاء على الثورات الداخلية، مما أدى إلى رفع معدلات التبادل التجاري مع دول الشرق الأقصى.

ج - دخول معظم دول المشرق تحت مظلة الدولة الإسلامية فتهيأ لها نوعاً من الاكتفاء الذاتي لتلك الدولة، لا سيما بعد دخول بلاد الهند والسند.

د - تزايد اعتماد الدولة الأموية في تجارتها مع دول الشرق الأقصى على التجارة البحرية عن طريق الخليج العربي، لا سيما بعد تطور صناعة السفن بها[2]، بشكل أصبحت معه قادرة على الخوض في المحيطات، مما جعل معظم تجارة الدولة الأموية مع دول الشرق الأقصى تتم بواسطة الطرق البحرية[3]، فنتيجة لتلك العوامل وغيرها تدهورت التجارة بين البلدين.

2 - العلاقات التجارية مع دول المشرق الأقصى:

كانت تعتمد التجارة بين الدولة الأموية ودول المشرق على نوعين من الخطوط، وهما خطوط التجارة البرية وخطوط التجارة البحرية.

أ - التجارة عن طريق الخطوط البرية: دخلت كثير من دول المشرق تحت مظلة الدولة الإسلامية لا سيما بلاد الهند، والسند، والتي كانت تحتل صادراتها نسبة كبيرة من واردات الدولة الأموية، ومعنى ذلك تحول جزء من التجارة الخارجية مع الشرق إلى تجارة داخلية بين أرجاء الدولة الإسلامية[4].

ب - التجارة عن طريق الخطوط البحرية: اهتمت الدولة بالتجارة البحرية وأكدت على عنصر الأمن للطرق التجارية، ومن صور ذلك إرسالها جيش للقضاء على قراصنة كانوا يقطعون الطريق على تلك الخطوط البحرية فقضى عليهم[5]، واهتم الحجاج بتحصين المدن

(1) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 208.
(2) المصدر نفسه، 209.
(3) المصدر نفسه، ص: 209.
(4) المصدر نفسه، ص: 211.
(5) المصدر نفسه، ص: 212.

التجارية[1]، كما طور صناعة السفن التجارية وأصبحت وسائل النقل البحري والرحلات التجارية أكثر أمناً وسرعة وأعلى كفاءة مما شجع على رواج التجارة[2].

خامساً: الحرف والصناعات: من أشهر الصناعات في عهد عبد الملك:

1 - صناعة المنسوجات:

وقد تطورت صناعة النسيج في الدولة الأموية كثيراً وأصبحت لها مصانع خاصة بها سميت دور الطراز، وكان دورها إنتاج الملابس الخاصة بموظفي الدولة الكبار، كالأمراء والولاة، وقد تحدثت عن ذلك في كلامنا عن ديوان الطراز.

2 - التشييد وصناعة مستلزمات البناء:

شهدت الدولة الأموية اهتماماً بالعمران، وتشييد المساكن، وزخرفتها، ومن أبرز ذلك المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وقد أدى الإقبال على تزيين البيوت والتأنق فيها إلى ظهور صناعات تلبي تلك الرغبات، فظهرت على سبيل المثال صناعة قطع الرخام وزخرفته، وكذا استخدام الزخارف الحيبسة لتزيين المباني[3].

3 - الصناعات الحربية:

توسعت هذه الصناعة في عهد عبد الملك بن مروان وفتح داراً بتونس لصناعة السفن الحربية وكانت نواة تلك الدار ألف عامل متخصص في صناعة السفن، ثم نقلهم من دار الصناعة - المنطقة الصناعية - بمصر، وقد تم وضع التنظيم اللازم وطريقة إمداد تلك الدار بالأخشاب من الغابات الإفريقية الداخلية، واختيار جماعات من البربر من سكان تلك المناطق للقيام بتلك المهمة، حيث هم أخبر الناس بمناطق وجود الأخشاب الجيدة الملائمة لتلك الصناعة[4]، وفي إرسال دار الصناعة بمصر لألف عامل ليكونوا نواة التصنيع بتونس ما يدل على مدى تطور تلك الصناعة بمصر وكبر حجمها. وفي تطور لاحق لصناعة السفن الحربية بتونس، قام والي تونس بتوسيع دار الصناعة بها، فشق قناة بين الميناء وبين المدينة بطول اثني عشر ميلاً[5]، وشكلت هذه القناة ما يماثل اليوم أحواض بناء السفن أو الأحواض الجافة[6]

(1) الحجاج بن يوسف وجه حضاري في تاريخ الإسلام، ص: 59.
(2) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 213.
(3) تاريخ الموصل (1/ 223).
(4) تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، ص: 115، 116.
(5) الإدارة في العصر الأموي، ص: 222.
(6) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 240.

وأصبحت مناطق دور صناعة السفن الحربية مناطق جذب سكاني[1]، ولم تكن السفن الحربية تختلف كثيراً عن السفن التجارية، وقد تطورت صناعة السفن التجارية في ولاية الحجّاج بصفة عامة[2]، وكان من أشهر أماكن صناعتها: البحرين ومدينةواسط بالعراق[3].

4 - صناعة البردي في مصر:

كان لهذه الصناعة أهميتها الخاصة، ذلك لأن البردي كان يستخدم قبل ظهور صناعة الورق آنذاك في المكاتبات وأعمال الدولة، وكانت الدولة تشرف على الإنتاج إشرافاً مباشراً لأهمية تلك الصناعة، وكانت صادرات البردي تدر أرباحاً طيبة، وما ذكر عنها من تطور أنها استبدلت العبارات البيزنطية التي كانت تطبع على البردي المخصص للتصدير بعبارات دينية إسلامية، وكان ذلك في عهد عبد الملك[4].

5 - صناعات وحرف أخرى:

ومن أهمها: حرفة الحدادة والصناعات الخشبية، صناعة الحلي والمجوهرات[5].

سادساً: إحداث دور ضرب العملة وتعريب النقد:

كانت عوامل عديدة تتجمع في الأفق كلها تشير إلى وجوب حدوث تطور كبير في نظام العملة المتعارف عليه في العالم الإسلامي بعد أن اتسعت رقعته ذلك الاتساع الكبير، واستقرت أحواله الداخلية بعد مضي فترة من خلافة عبد الملك بن مروان، فقد كان العالم الإسلامي يتعامل حتى ذلك الوقت بالعملة المالية لفارس والروم من دراهم، ودنانير، وهذه العملات المالية قد تناقصت كمياتها المتداولة بشكل يثير القلق بعد انهيار الإمبراطورية الفارسية واضطراب الأحوال في إمبراطورية الروم، فلم يعد حجم هذه العملات المتوافر يكفي لتغطية النشاط التجاري والاقتصادي والحاجة المالية للدولة الإسلامية الواسعة والنشيطة[6].

وقد قام عبد الملك بتعريب النقد تعريباً نهائياً وأحدث دور الضرب التي تضرب فيها الدنانير، وجعلها بإشراف الخلافة، ويودّ المؤرخون أن يشعرونا بأنه فعل ذلك لأنه تخاصم مع ملك الروم فيقولون: إن الروم كانوا يأخذون من البلاد العربية صحائف البَرْدي، وأمر عبد الملك أن يكتب على رأس صحائف البردي «شهد الله أن لا إله إلا هو»، فغضب لذلك ملك الروم، وكان محتاجاً إلى البردي، فهدد بأن يطبع على الدنانير عبارات القذف بحق الرسول ﷺ، إن استمرت تلك العبارة على صحف البردي، فاعتمد عبد الملك أن يضرب

---

(1) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 240.
(2) المصدر نفسه، ص: 242.
(3) المصدر نفسه، ص: 242.
(4) المصدر نفسه، ص: 243.
(5) المصدر نفسه، ص: 244.
(6) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 428.

السكة في بلاده ويستغني عن الدنانير التي تأتيه من بلاد الروم[1]. على أن الأمر يبدو أوسع من هذا، فقد كان في بلاد المسلمين نقود فارسية ونقود حميرية قديمة، وغيرها، وقد حاول الخلفاء من قبله ضرب النقود، بل يرجع إلى عمر بن الخطاب أنه ضرب الدراهم، لكنه استبقى عليها العبارات الفارسية، وأضاف بعض العبارات العربية فيها كقول «جائز»، واستمر ضرب النقود في عهد عثمان ومعاوية وابن الزبير، فكان من الطبيعي أن يستأنف عبد الملك عمله، وهو ما فعل. على أن عبد الملك يمتاز بأنه وضع لذلك مخططاً واضحاً، فليست القضية قضية إنشاء مصنع للنقود، ونقل السكة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية فحسب، بل يدخل في هذا الأمر وزن النقود وشكلها[2].

وقد تحدث المؤرخون عن أسباب دينية وسياسية واقتصادية قد لعبت دوراً أساسياً في بناء موقف الخليفة، تتلخص هذه الأسباب على الشكل التالي:

1 - كان الخليفة حريصاً على صبغ الدولة الأموية بصبغة إسلامية، ولذا فإن الإصلاح النقدي يندرج ضمن خطة شاملة لتعريب مؤسسات الدولة[3].

2 - حرص الخليفة على إنهاء التبعية الاقتصادية للدولة البيزنطية التي كانت تسيطر دنانيرها الذهبية على الجانب النقدي من اقتصاديات الدولة[4].

3 - توقف حجم السيولة النقدية للدولة الأموية على ما يرد عليها من الدولة البيزنطية، مما يعرضها لأزمات اقتصادية حادة، خاصة في حالات انقطاع هذه السيولة بسبب ممارسة ضغوط اقتصادية، أو نشوب معارك حربية أو نحوها.

4 - سيطرت الدولة على مصادر عرض النقود، وضمان تخليصها من الغش وكسب ثقة الناس في النقود المتداولة.

5 - حاجة الدولة الفعلية إلى عملة داخلية موحدة ومنضبطة حتى تستوفي بها حقوقها لدى الأفراد، وتسهل لها القيام بوظائفها الاقتصادية[5].

6 - إن إصدار النقود يعبر عن السيادة الكاملة للدولة الإسلامية ويحررها من النفوذ الأجنبي[6]، فقد أراد عبد الملك بن مروان أن يقيم سلطانه على أساس اقتصادي مستقل عن بيزنطة وعدم الارتباط بنقدها، كما أن إصدار أول دينار إسلامي يرتبط بحالة الصراع مع البيزنطيين حيث استطاع الخليفة أن يوجه ضربة اقتصادية موجعة للدولة البيزنطية.

---

(1) حياة الحيوان للدميري (1/ 91 - 94).

(2) الدولة الأموية، يوسف العشي، ص: 234.

(3) تاريخ بلاد الشام الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 320.

(4) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص: 145.

(5) المصدر نفسه.

(6) تاريخ بلاد الشام الاقتصادي، ص: 321.

7 - يعتبر سك النقود الإسلامية وتوحيدها في الدولة اتجاهاً نحو الدولة المركزية وضبط جهازها المالي[1].

8 - ومن المعلوم الأكثر أهمية التي جعلت الخليفة يقدم على إصدار النقود الإسلامية، توفر كميات كبيرة من الذهب والفضة لدى المسلمين في البلاد المفتوحة، فاستند على قاعدة هذا المخزون الكبير من المعادن في إصدار النقد الإسلامي الجديد[2].

أهم خصائص النقود الإسلامية في عهد عبد الملك:

1 - أنه ألغى العبارات والإشارات التي تشير إلى العقيدة المسيحية المحرفة واستبدلها بعبارات تدل على عقيدة التوحيد الإسلامية.

2 - إنها موافقة في أوزانها النسبية لنصاب زكاة النقدين ومقدارها.

3 - أنه حدد وزن الدينار باثنين وعشرين قيراطاً إلا حبة[3]، وجعل الدرهم خمسة عشر قيراطاً أو ستة دوانق[4].

4 - أنه حدد بناء على الوزن السابق سعر الصرف بين الدرهم والدينار، فكانت كل عشرة دراهم تساوي سبعة دنانير[5].

5 - تحددت تواريخ إصدار النقود الأموية بالتاريخ الهجري المتسلسل، أي وفق المتعارف عليه، بينما افتقرت النقود الساسانية والبيزنطية إلى التواريخ التقويمية، إذ اعتمدت تواريخها على بداية حكم كل ملك[6].

محاربة تزييف العملة:

تشدد عبد الملك وخلفاءه من بعده وولاتهم في تعقب أية محاولة لغش النقود وتزييفها ومعاقبة من يثبت عليه ذلك، فقد روي أنه أخذ رجلاً يضرب على غير سكة المسلمين فأراد قطع يده، ثم ترك ذلك وعاقبه، فاستحسن ذلك شيوخ المدينة[7].

سابعاً: العمارة والبناء في عهد عبد الملك:

اقتضت أهداف دولة عبد الملك بإنشاء مدينة واسط، وتونس.

1 - بناء واسط:

اختطها الحجّاج بن يوسف الثقفي في أرض كسكر[8]، وهي تتوسط عدة مدن، فهي تبعد

---

(1) تاريخ بلاد الشام الاقتصادي، ص: 322.
(2) المصدر نفسه، ص: 322.
(3) التطور الاقتصادي في العهد الأموي، ص: 146.
(4) المصدر نفسه.
(5) المصدر نفسه.
(6) المصدر نفسه.
(7) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 441.
(8) تجديد الدولة الأموية، ص: 195.

عن الكوفة أربعين فرسخاً، وكذلك عن المدائن والأهواز والبصرة وهي إحدى مدن العراق الكبرى قبل بناء بغداد[1]، وقد بدأ الحجّاج في بنائها عام 83هـ وانتهى منها سنة 86هـ[2]، وكان شروعه في البناء بعد موافقة عبد الملك، وقد أنفق على بنائها خراج العراق كله لخمس سنوات[3]، كانت رؤية تخطيطها تتضح فيها الملامح الأساسية للتخطيط للمدينة الإسلامية، فاشتملت المدينة على المسجد - الجامع - ودار الإمارة في الوسط، وتضمينها الأسواق اللازمة لحياة مدينة مستقرة، وفيها كذلك الملامح الجديدة ما يعكس ملامح النظام الأموي الجديد، ولعبت واسط دوراً سياسياً مهماً، فكانت المناظر المتصلة بينها وبين قزوين وكان إذا دخن أهل قزوين دخنت المناظر إن كان نهاراً وإن كان ليلاً أشعلوا نيراناً، فتجرد الخيل إليهم، فكانت قزوين ثغراً[4]، فمنها كانت تتحرك الجيوش، وفيها ضربت النقود[5]، وازدهرت واسط من الناحية الاقتصادية فكثرت فيها المحلات التجارية، وتقدمت فيها الزراعة، وكانت عاصمة العراق في عهد الحجّاج.

2 - بناء تونس:

اختط هذه المدينة القائد حسان بن النعمان الغساني عام 82هـ، لتكون قاعدة عسكرية بحرية، ولتحول دون تكرار البيزنطيين الهجوم على قرطاجة عام 78هـ[6]، بنى حسان بن النعمان مدينة تونس على أنقاض قرية قديمة عرفت باسم ترشيش القديمة[7]، وإنما سميت تونس في أيام الإسلام لوجود صومعة الراهب، وكانت سرايا المسلمين تنزل بإزاء صومعته، وتأنس لصوت الراهب، فيقولون: هذه الصومعة تؤنس، فلزمها هذا الاسم فسميت باسم تونس[8]، واختط حسان تونس غربي البحر المتوسط بنحو عشرة أميال[9]، فقام بحفر قناة تصل المدينة بالبحر لتكون ميناء بحرياً ومركزاً للأسطول الإسلامي بعد أن أنشأ فيها صناعة المراكب[10]، بخبراء في هذه الصناعة زوده بها والي مصر عبد العزيز بن مروان بناء على

(1) فتوح البلدان، ص: 407، تجديد الدولة الأموية، ص: 195.
(2) فتوح البلدان، ص: 407، تجديد الدولة الأموية، ص: 195.
(3) تاريخ واسط، بحشل، ص: 38، 39، تجديد الدولة الأموية، ص: 197.
(4) معجم البلدان (5/ 350).
(5) المصدر نفسه (5/ 350).
(6) رياض النفوس للمالكي نقلاً عن تجديد الدولة الأموية، ص: 200.
(7) معجم البلدان (2/ 601).
(8) الروض المعطار، ص: 144 نقلاً عن تجديد الدولة الأموية، ص: 200.
(9) تقويم البلدان نقلاً عن تجديد الدولة، ص: 200.
(10) دائرة المعارف الإسلامية (6/ 32).

توجيه الخليفة عبد الملك[1]، وقد بنيت مدينة تونس طبقاً لأهداف سياسية استراتيجية، وأهداف اقتصادية اجتماعية، تبناها الخليفة عبد الملك، أما الأهداف السياسية البعيدة المدى، فيتضح ذلك بوضع حد لاعتداءات الروم والمتمثلة بإغارتهم على الساحل الإفريقي، والسبيل الأمثل هو إيجاد قاعدة بحرية، وصناعة بحرية قادرة على إنشاء أسطول مهمته صد العدوان الرومي بادي الأمر، ثم الانتقال من مرحلة التصدي إلى الغزو والفتح فيما بعد، وقد تمثل تطبيق هذه المرحلة من قبل الخليفة عبد الملك فقام بالإيعاز لشقيقه والي مصر: عبد العزيز بن مروان، لإرسال ألفي قبطي من مهرة الصناع لإقامة صناعة مراكب بحرية، وقام هؤلاء بالمهمة الموكلة إليهم خير قيام، **وأما الهدف الثاني:** فيتمثل بإيجاد حياة اجتماعية بإيجاد المؤسسات القادرة على خدمة الأفراد، فأقام في المدينة المسجد الجامع ودار الإمارة وثكنات للجند للمرابطة وأخذ يقوم بتدوين الدواوين[2]، تنظيم الخراج والعناية بالدعوة الإسلامية بين البربر، فقام بإرسال الفقهاء ليعلموهم اللغة العربية والدين الإسلامي[3]، وسارت المدينة لتكون معسكراً حربياً في البداية، ومركز استيطان وإدارة لدعم الفتوحات وأخيراً مركزاً حضارياً ومركز إشعاع فكري وعلمي وثقافي[4]. وهكذا رسخ الخليفة عبد الملك بن مروان إقدام الدولة الأموية بتأسيس مدينة تونس، وقطع دابر الغارات البيزنطية بإيجاد مدينة إسلامية مرتبطة بالأهداف العليا للدولة[5].

3 - بناء مسجد قبة الصخرة:

بنى هذا المسجد الخليفة عبد الملك بن مروان وسماه الأوربيون خطأ مسجد عمر، وقد رصد الخليفة لإعماره أموالاً طائلة[6]، قال ابن كثير: ولما أراد عبد الملك عمارة بيت المقدس وجه إليه بالأموال والعمال ووكل بالعمل رجاء بن حيوة ويزيد بن سلام مولاه، وجمع الصناع من أطراف البلاد وأرسلهم إلى بيت المقدس، وأرسل إليه بالأموال الجزيلة الكثيرة، وأمر رجاء بن حيوة ويزيد أن يفرغا الأموال إفراغاً ولا يتوقفا فيه، فبثوا النفقات وأكثروا، فبنوا القبة فجاءت في أحسن البناء، وفرشاها بالرخام الملون وحفاها بأنواع الستور، وأقاما لها سدنة وخداماً بأنواع الطيب والمسك والعنبر وماء الورد والزعفران، يعملون منه غالية ويبخرون القبة والمسجد من الليل، وجعلا فيها من قناديل الذهب والفضة والسلاسل الذهبية والفضية شيئاً كثيراً، وفرشاها بأنواع البسط الملونة، وكانوا إذا أطلقوا البخور شمَّ من مسافة بعيدة، وقد عملوا فيها من الإشارات والعلامات المكذوبة شيئاً كثيراً

(1) تجديد الدولة الأموية، ص: 200.
(2) البيان المغرب (1/ 38).
(3) المصدر نفسه (1/ 38).
(4) تجديد الدولة الأموية، ص: 203.
(5) المصدر نفسه.
(6) المصدر نفسه، ص: 206.

مما في الآخرة، فصوروا فيه صورة الصراط وباب الجنة وقدم رسول الله ﷺ ووادي جهنم وكذلك في أبوابه ومواضع منه، فاغتر الناس بذلك إلى زماننا... وبالجملة فإن صخرة بيت المقدس لما فرغ من بنائها لم يكن لها نظير على وجه الأرض بهجة ومنظراً، وقد كان فيها من الفصوص والجواهر والفسيفساء وغير ذلك شيء كثير وأنواع باهرة، ولما فرغ رجاء بن حيوة ويزيد بن سلام من عمارتها على أكمل الوجوه، فضل من المال الذي أنفقاه على ذلك ستمائة ألف مثقال، وقيل ثلاثمائة ألف مثقال، فكتبا إلى عبد الملك يخبرانه بذلك، فكتب إليهما قد وهبته لكما، فكتبا إليه إنا لو استطعنا لزدنا في عمارة هذا المسجد من حلي نسائنا، فكتب إليهما: إذا أبيتما أن تقبلاه فأفرغاه على القبة والأبواب، فما كان أحد يستطيع أن يتأمل القبة مما عليها من الذهب القديم والحديث[1].

وهناك عدة أسئلة تطرح نفسها: ما سبب بناء هذا المسجد وبهذا الإتقان والإبداع؟ ولماذا تزامن مع حركة ابن الزبير في الحجاز؟، إن أول المؤرخين الذين حاولوا إيجاد التسويغ لبناء مسجد قبة الصخرة المشرفة هو اليعقوبي (ت 284) وقد ربط ذلك بالحكم والخلافة حينئذ، وأوجد صيغة مشتركة في التعامل بين السلطة الأموية والمجتمع، لأن معظم العالم الإسلامي كان قد بايع عبد الله بن الزبير بالخلافة (64 - 73هـ) ما عدا إقليم الأردن[2]، فقد قال في كتابه: ومنع عبد الملك أهل الشام من الحج، وذلك لأن ابن الزبير كان يأخذهم إذا حجوا بالبيعة، فلما رأى عبد الملك ذلك منعهم من الخروج إلى مكة فضج الناس وقالوا: تمنعنا من حج بيت الله الحرام، وهو فرض علينا، فقال: هذا ابن شهاب الزهري يحدثكم أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تشد الرحال إلا إلى ثلاث مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي ومسجد بيت المقدس**». وهو يقوم لكم مقام المسجد الحرام، وهذه الصخرة التي يروى أن رسول الله ﷺ وضع قدمه لما صعد إلى السماء[3]. واليعقوبي راوي الأثر السابق مؤرخ شيعي إمامي كان يعمل في كتابة الدواوين في الدولة العباسية حتى لقب بالكاتب العباسي، وقد عرض اليعقوبي تاريخ الدولة الإسلامية من وجهة نظر الشيعة الإمامية، فهو لا يعترف بالخلافة إلا لعلي بن أبي طالب وأبنائه حسب تسلسل الأئمة عند الشيعة، ويسمي علي بالوصي، وعندما أرخ لخلافة أبي بكر وعمر وعثمان لم يضف إليهم لقب الخلافة إنما تولى الأمر فلان، ثم لم يترك واحداً منهم دون أن يطعن فيه، وكذلك كبار الصحابة، وقد ذكر عن عائشة رضي الله عنها أخباراً سيئة وكذلك عن خالد بن الوليد[4]، وعمرو بن العاص[5]، ومعاوية بن أبي سفيان[6]، وعرض خبر السقيفة خبراً مشيناً[7]، ادعى فيه أنه قد

---

(1) البداية والنهاية (12/ 40، 41).
(2) تجديد الدولة الأموية، ص: 212.
(3) تاريخ اليعقوبي (2/ 361).
(4) المصدر نفسه (2/ 131).
(5) المصدر نفسه (2/ 222).
(6) المصدر نفسه (2/ 232، 238).
(7) المصدر نفسه (2/ 123، 126).

حصلت مؤامرة على سلب الخلافة من علي بن أبي طالب الذي هو الوصي في نظره، وطريقته في سياق الاتهامات - الباطلة - هي طريقة قومه من أهل التشيع وهي إما اختلاق الخبر بالكلية[1]، أو التزيد في الخبر[2]، والإضافة عليه أو عرضه في غير صياغه ومحله حتى يتحرف معناه، ومن الملاحظ أنه عندما ذكر الخلفاء الأمويين وصفهم بالملوك، وعندما ذكر خلفاء بني العباس وصفهم بالخلفاء، كما وصف دولتهم في كتابه «البلدان» باسم الدولة المباركة[3]، مما يعكس نفاقه وتستره وراء شعار التقية، وهذا الكتاب يمثل الانحراف والتشويه الحاصل في كتابة التاريخ الإسلامي، وهو مرجع لكثير من المستشرقين والمستغربين الذين طعنوا في التاريخ الإسلامي وسيرة رجاله، مع أنه لا قيمة له من الناحية العلمية إذ يغلب على القسم الأول القصص والأساطير والخرافات، والقسم الثاني كتب من زاوية نظر حزبية، كما أنه يفتقد من الناحية المنهجية لأبسط قواعد التوثيق العلمي[4].

هذا هو اليعقوبي الذي اعتمده المؤرخون المتأخرون في روايته قصة بناء مسجد قبة الصخرة أو مسجد بيت المقدس على حد تعبيره، وعلينا أن نتحفظ من رواية اليعقوبي الآنفة الذكر ونعتبرها خارجة عن الإطار المقبول لأنه لا يعقل رجل بمستوى عبد الملك في دهائه ومكره وعقله وفقهه يضع نفسه موضع شبهة الكفر، فيصد الناس عن الحج إلى بيت الله الحرام[5]، هذا من ناحية العقل والمنطق،وأما من ناحية السند فقد بينا ولم نسمع أن أحداً من خصوم الأمويين أوردوا ذلك في مطاعنهم على عبد الملك - سوى الشيعة -. كما أن الإمام الزهري لم يلتق بعبد الملك إلا بعد مقتل ابن الزبير، فقد نقل الذهبي عن الليث بن سعد أنه قال: قدِم ابن شهاب على عبد الملك سنة اثنين وثمانين[6]. وقد نص على أن ابن الزبير قتل سنة 72هـ[7]، وبعد مقتله استوثقت الممالك لعبد الملك[8]، فليس هو في حاجة لمن يضع له أحاديث لصرف الناس عن الحج، والزهري لم يكن عند مقتل ابن الزبير ذائع الصيت عند الأمة الإسلامية بحيث تتقبل منه حديثاً موضوعاً يلغي به فريضة الحج الثابتة بالقرآن والأحاديث الصحيحة وذلك لصغر سنه، فإنه قد ولد بعد الخمسين من الهجرة[9]، وصداقته بعبد الملك وتردده عليه لا يقدح في أمانته ودينه.

وأما حديث شد الرحال فهو صحيح رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن الأربعة وغيرهم من العلماء، قال عنه ابن تيمية: وهو حديث مستفيض، متلقى بالقبول، أجمع أهل

(1) منهج كتابة التاريخ الإسلامي، ص: 431.
(2) المصدر نفسه، ص: 431.
(3) كتاب البلدان لليعقوبي، ص: 432.
(4) منهج كتابة التاريخ الإسلامي، ص: 432.
(5) تجديد الدولة الأموية، ص: 214.
(6) موقف المدرسة العقلية من السنة النبوية، ص: 136.
(7) سير أعلام النبلاء (4/ 247).
(8) المصدر نفسه (4/ 247).
(9) السنة ومكانتها في التشريع، ص: 218.

العلم على صحته وتلقيه بالقبول والتصديق[1]، ولم ينفرد الزهري ﷺ برواية هذا الحديث حتى يتهم بوضعه، والحديث ليس فيه فضل قبة الصخرة وليس فيه الدعوة إلى الحج إليها والطواف حولها بدلاً عن الكعبة كما يدعي بعض المزورين، وغاية ما فيه فضل الصلاة في بيت المقدس وزيارته[2]، وأما الصخرة فقد ذكر ابن القيم أن كل حديث فيها فهو كذب مفترى[3]، وقد قام الدكتور حارث بن سليمان الضاري بنسف هذه الشبهة في كتابه القيم «الإمام الزهري وأثره في السنة»[4] في ثلاثة عشر صفحة وأتى بحجج دامغة قوية لمن يبحث عن الحقيقة العلمية، وسيأتي الحديث عن الإمام الزهري في عهد هشام بن عبد الملك بإذن الله تعالى.

المبحث الخامس

النظام القضائي والشرطة

أولاً: القضاء:

كان القضاء على عهد عبد الملك استمراراً لما كان عليه زمن من سبقه من الخلفاء، فضلاً عن إسهاماته الرائدة بتنظيم جوانب متعددة منه، فهو أول من أفرد للمظالم[5] يوماً، كما أوجب أن تقرأ عهود القضاة، أي أوامر تعيينهم، في المسجد الجامع أولاً، ثم يتوجهون إلى دار الأمير حيث يُتلى أمامه عهد توليه القاضي[6]، وكان الخليفة عبد الملك يختار من القضاة من يتصف بالتقوى والنزاهة فقد ولى على القضاء بلال بن أبي الدرداء[7].

1 - أشهر قضاة عبد الملك:

وكان من أشهر قضاة عبد الملك: أبا أدريس الخولاني وذلك سنة 74هـ وكانت له المظالم أيضاً حتى أعفاه عبد الملك بطلب منه[8]، ثم ولى عامر الأشعري[9]، ثم عبد الله بن عامر اليحصبي[10]، وعبد الله بن قيس ثم سليمان المحاربي، ومعظم هؤلاء القضاة من الفقهاء ومن رواة الحديث[11].

2 - رزق القاضي:

ولما قدم عبد الملك بن مروان النخيلة سنة 72 هـ قال: ما فعل شريح العراقي؟ قيل: حي

---

(1) الفتاوى (27/ 5، 6).
(2) السنة ومكانتها في التشريع، ص: 219.
(3) المنار المنيف، ص: 87.
(4) الإمام الزهري وأثره في السنة، ص: 457 - 470.
(5) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 188.
(6) لإسلام والحضارة الإسلامية، كرد علي، ص: 161.
(7) أخبار القضاة (3/ 202).
(8) المصدر نفسه (3/ 202)، الإصلاحات، ص: 189.
(9) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 189.
(10) أخبار القضاة (3/ 203).
(11) إدارة بلاد الشام، ص: 132، 133.

قال: عليَّ به. فجاءه فقال: ما منعك من القضاء؟ فقال: ما كنت أقضي بين اثنين في فتنة[1]. قال: وفقك الله عد إلى قضائك، فقد أمرنا لك بعشرة آلاف درهم، وثلاثمائة جريب، فأخذها بالفلوجة وقضى إلى سنة ثمان وسبعين[2].

3 - مراقبة القضاة:

كان عبد الملك يراقب قضاته ويتابع أخبارهم، فقد أخبر أن زوجة قاضيه الحارث الأشعري، كلمت زوجها في رجل يقضي له بقضية، وأن الرجل أهدى إلى زوجة القاضي هدية، فقال عبد الملك:

إذا رشوة من باب بيت تقحمت ... لتسكن فيه والأمانة فيه
سعت هرباً منه وولت كأنها ... حليم تولى عن جوار سفيه[3]

4 - عدم التدخل في أحكامهم وأعمالهم:

فقد كان موقف عبد الملك من القضاء والقضاة مبني على الاحترام وعدم التدخل في عملهم وأحكامهم[4].

5 - احترامه لقضاء عبد الله بن الزبير رضي الله عنه:

أرسل أبان بن عثمان عامل عبد الملك على المدينة رسالة يسأله عن موقفه من أقضية وأحكام عبد الله بن الزبير، قائلاً له: إن عبد الله بن الزبير قضى بين الناس بأقضية، فما يرى أمير المؤمنين. أمضيها أم أردها؟ فكتب عبد الملك إلى أبان بن عثمان: إنا والله ما عبنا على ابن الزبير أقضيته، ولكن عبنا عليه ما تناول من الأمر، فإذا أتاك كتابي هذا، فأنفذ أقضيته، فإن ترداد الأقضية عندنا يتعسر[5]، وهذه الرسالة تبين لنا جانباً مهماً من سياسة عبد الملك الحازمة، وحكمته في عدم التدخل في المؤسسة القضائية، إذ سد باباً على الحكام والولاة كاد فتحه أن يعرض أحكام القضاة إلى النقص المستمر[6].

6 - تحديد مهور النساء:

قام عبد الملك بتحديد المهور وجعلها (400) أربعمائة دينار، حداً أعلى، وهو أول من

---

(1) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي (2/ 211).
(2) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ (2/ 211).
(3) أخبار وكيع (1/ 56) الإصلاحات المالية، ص: 190.
(4) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 190.
(5) أخبار القضاة (1/ 130).
(6) الإصلاحات المالية، ص: 191.

فعل ذلك اقتداء بما فعله رسول الله ﷺ عندما خطب أم حبيبة بنت أبي سفيان[1]، وربما قام عبد الملك بذلك منعاً للمغالات في المهور، وتشجيعاً للزواج والإنجاب[2].

7 - ديوان المظالم:

كان الخليفة عبد الملك أول من أفرد يوماً للنظر في المظالم، حيث جلس في يوم محدد يتصفح فيه قصص المتظلمين من غير مباشرة للنظر فيها، فكان إذا وقف منها على مشكل، أو احتاج فيها إلى حكم منفذ رده إلى قاضيه[3] أبي إدريس الخولاني فنفذ فيه أحكامه، وقد قام للجلوس بنفسه حتى يرتدع الناس، فكان أبو إدريس هو المباشر وعبد الملك الآمر[4]، وكان عبد الملك حين يجلس للمظالم يستعد لها، فكان يلبس جبة ورداء[5]، كما ويقام على رأسه بالسيوف[6]، ويأمر شخصاً من هؤلاء القائمين على رأسه لإنشاد شعر لسعيد بن عُريض وهو:

إنـــا إذا مـــا دواعـــي الـــهـــوى	وأنـصـت الـسـامـع لـلـقـائـل
واصـطـرع الـقـوم بـألـبـابـهـم	نـقـضـي بـحـكـم عـادل فـاصـل
لا نـجـعـل الـبـاطـل حـقـاً ولا	نـلـفـظ دون الـحـق بـالـبـاطـل
نـخـاف أن تـسـفـه أحـلامـنـا	فـنـخـمـل الـدهـر مـع الـخـامـل[7]

ثم يجتهد عبد الملك في الحق بين الخصمين[8]. وهذا يعني أن جلوس الخليفة عبد الملك للمظالم كان جلوساً منظماً ومتكاملاً، ولا بد أن جلسات الخليفة هذه كان يحضرها كتاب يدونون هذه الجلسات وأحكامها، كما أن تحديد الخليفة عبد الملك يوماً معيناً من كل أسبوع للنظر في المظالم، وتعيين قاضٍ لذلك وتعيين من يقوم على رأسه بالسيوف وهم من الحماة والأعوان، وارتداء الخليفة ملابس معينة، وانعقاد هذه الجلسات في مكان محدد، كل هذا يعني وجود الأسس لديوان مستقل، لكل ذلك يمكننا أن نقول بأن الخليفة عبد الملك ربما كان أول من أسس ديوان النظر في المظالم في الدولة[9].

ثانياً: الشرطة:

ومن الأجهزة المهمة التي كان لها أثر فاعل في إدارة بلاد الشام، جهاز الشرطة، وعلى رأسه صاحب الشرطة، ولابد أن الخليفة عبد الملك كان لا يختار لهذا المنصب إلا من

---

(1) الطبقات (8/ 99) الإصلاحات المالية، ص: 190.
(2) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص: 190.
(3) الإصلاحات المالية والتراتيب الإدارية، ص: 151.
(4) نهاية الأرب (6/ 269).
(5) الإصلاحات المالية والتراتيب الإدارية، ص: 152
(6) الإسلام والحضارة العربية، كردعلي، ص: 167.
(7) الإصلاحات المالية والتراتيب الإدارية، ص: 152.
(8) البداية والنهاية (12/ 385).
(9) الإصلاحات المالية، ص: 153.

توفرت فيه شروط صعبة التوفر[1]، وعين الخليفة عبد الملك بن مروان على شرطته: عبد الله بن هاني الأودي[2]، ثم استبدل به يزيد بن كبشة السكسكي ثم عزل الكثير من هذا المنصب وآخرهم في عهد عبد الملك: كعب بن حامد العبسي[3]، ولم تكن مهمة الشرطة في عهد عبد الملك هي الجناة واللصوص فحسب، بل مارست الشرطة عملاً مهماً، ألا وهو عملية تنظيم وضبط نزول جيوش الخلافة ورحيلها أثناء الحملات العسكرية، فقد قلد الخليفة الحجّاج بن يوسف الثقفي هذه المهمة، فنجح فيها في عدة مناسبات وتمكن من ضبط جيش الخليفة وتأدية مهمته على أحسن وجه[4]، وكانت الشرطة موجودة في كافة أقاليم الدولة وتابعة لولاتها. واتخذ الخليفة عبد الملك بن مروان حرساً خاصاً به[5]، ويرأس هؤلاء الحرس رئيس، يعين ويعزل من الخليفة، وهو المسئول عن أفراد حرسه أمام الخليفة. ويبدو أن أعدادهم لم تكن قليلة، وكانت مهمة الحرس الأساسية هي حماية الخليفة، والمحافظة على سلامته، في حله وترحاله، وتنفيذ أوامره، ومن الجدير بالذكر أن جميع رؤساء حرس عبد الملك كانوا من الموالي وبخاصة من موالي الخليفة نفسه، ويبدو أن ذلك راجع إلى طبيعة أعمال هؤلاء المرتبطة دوماً بالخليفة، والتي تستوجب أن يكونوا موضع ثقة الخليفة للاطمئنان على سلامته وكان الخليفة ينتقل في مدن بلاد الشام، ونظم إقامته على هذا الأساس، فلم يكن يقيم بدمشق طوال العام، بل كان يشتو بالصَنبرة من الأردن، وإذا انتهى الشتاء نزل الجابية، وفرّق الأرزاق على أصحابه، فإذا مضت أيام من آذار دخل دمشق، حتى إذا اشتد الحر أتى بعلبك فقام بها حتى تهيج رياح الشتاء فيرجع إلى دمشق، فإذا اشتد البرد خرج إلى الصنبرة[6]، وهذه التنقلات كانت تخضع لنظام حراسة مشدد، ومن أراد التفصيل فليراجع كتاب الشرطة في العصر الأموي، للدكتور أرسن موسى رشيد.

المبحث السادس

العلماء والشعراء في عهد عبد الملك

أولاً: العلماء:

اختلف موقف العلماء من عبد الملك، فهناك من خرج عليه، كعبد الرحمن بن أبي ليلى، وسعيد بن جبير، وهناك من ابتعد عنه والتزم بالبيعة كالحسن البصري وغيره، وهناك من كان قريباً منه ناصحاً له كقبيصة بن أبي ذؤيب، وقد اخترت مجموعة من العلماء لمن كانت لهم قربة

(1) عيون الأخبار (1/ 16).
(2) الإصلاحات المالية، ص: 191.
(3) المصدر نفسه، ص: 192.
(4) المصدر نفسه، ص: 192.
(5) المصدر نفسه، ص: 193.
(6) الإصلاحات المالية، ص: 194.

ومنزلة من عبد الملك، أو نصحوه أو ذكّروه ولم يكن عبد الملك بعيداً عن أجواء العلماء وطلاب العلم، فقد كان في المدينة في مقتل شبابه مشمراً في طلب العلم وعرف عنه أنه كان يلزم المسجد ولا يكاد يبرحه حتى سمي حمامة المسجد لعبادته، وطول انقطاعه للدراسة مقبلاً على طلب العلم مجلاً لشيوخه، ولما كان متوقد الذكاء، شديد الفطنة، قوي الذاكرة، فقد وعى كل ما سمع منهم، وأتقنه لمجالسته لهم[1]، وهذا أكسبه قدرة بحيث صار حجة في المعارف الدينية كقراءة القرآن التي كان يطيل في تلاوتها بالمدينة[2]، كما كان يحضر دراسته بدمشق[3]، وعرف بروايته للحديث وإن كان مقلاً[4]، على الرغم أنه كان ثقة فيما رواه[5]، وروايته مثبتة في الصحيحين البخاري ومسلم[6]، وكان فقيهاً من الفقهاء، ومن أهل العلم بالمغازي والسير[7] وأخبارها، وله علم واسع بأحاديث العرب وآثارهم في الجاهلية والإسلام، كثير المحاورة لرواة وسادة القبائل ونسابه، له معرفة دقيقة بأنساب العرب وبخاصة أنساب قريش[8] ولذلك كان عارفاً بنفسية العلماء قادراً على التعامل معهم، ومن أشهر العلماء الذين احتك بهم أو كانت له مواقف وعظ أو تذكيراً له هم:

1 - قبيصة بن ذؤيب:

نشأ قبيصة في المدينة وكان في عداد علمائها، ولكنه انتقل إلى الشام بجانب عبد الملك وأصبح من خاصته واختاره عبد الملك لعلاقته القديمة به في المدينة، ولما يتمتع به قبيصة من روح مرنة تراعي الأحوال، وتقدر المواقف، وتوازن بين المصالح، وصاحب هذه الروح هو القادر على الصبر والقرب من الخلفاء والسلاطين وهو من يرغب الخلفاء في تقريبه عادة، ومن المواقف التي ظهرت فيها هذه الروح عند قبيصة ما ذكره ابن سعد في طبقاته، حيث ذكر أن الصحابي الجليل جابر بن عبد الله رضي الله عنه دخل على عبد الملك وقربه فقال جابر: يا أمير المؤمنين إن المدينة حيث ترى، وهي طيبة سماها النبي عليه الصلاة والسلام، فأهلها محصورون، فإن رأى أمير المؤمنين أن يصل أرحامهم ويعرف حقهم فعل، قال: فكره ذلك عبد الملك وأعرض عنه، وجعل جابر يلح عليه حتى أومأ قبيصة إلى ابنه - وهو قائده وكان

---

(1) أنساب الأشراف نقلاً عن تجديد الدولة الأموية، ص: 290.
(2) تهذيب التهذيب (6/ 422) شذرات الذهب (1/ 97).
(3) البداية والنهاية نقلاً عن تجديد الدولة الأموية، ص: 290.
(4) الطبقات (5/ 226) تهذيب التهذيب (6/ 422).
(5) تهذيب التهذيب (6/ 423).
(6) المصدر نفسه (6/ 423).
(7) تجديد الدولة الأموية، ص: 291.
(8) المصدر نفسه، ص: 291.

جابر قد ذهب بصره - أن أسكته، قال: فجعل ابنه يسكته، قال جابر: ويحك؟ ما تصنع بي؟ قال: اسكت، فسكت جابر، فلما خرج أخذ قبيصة بيده فقال: يا أبا عبد الله إن هؤلاء القوم صاروا ملوكاً. فقال جابر: أبلى الله بلاءً حسناً فإنه لا عذر لك وصاحبك يسمع منك. قال: يسمع ولا يسمع وما وافقه سمع، وقد أمر لك أمير المؤمنين بخمسة ألف درهم، فاستعن بها على زمانك، فقبضها جابر[1]. فمن هذا الموقف يتضح كيف أدرك قبيصة عدم رضا الخليفة عن فتح هذا الموضوع معه من قبل جابر، وكيف أنهى الموضوع حتى لا يتطور إلى ما لا تحمد عقباه للطرفين، فأشار على ابن جابر بإيقاف والده عن الكلام ثم يطيب خاطر جابر بأخذه بيده، والاعتذار إليه بألا يستغرب هذا التصرف من عبد الملك، فلا يتعامل معه على أنه عبد الملك العالم، وإنما على أنه عبد الملك الذي صار ملكاً ينظر إلى الأمور من نافذة الملك ومصالحه، ثم هو يعتذر لنفسه عندما وجه جابر اللوم له بأنه ليس له عذر في عدم المطالبة بحقوق أهل المدينة ما دام له هذه المكانة عند عبد الملك، لأن الأمر ليس كما يتصور جابر وغيره بأنه قادر على تحقيق كل ما يريده من عبد الملك بل الواقع أنه يُسمع ولا يسمع، وفي هذا دليل على مراعاة قبيصة للأحوال والأشخاص[2].

أ - مكانته من عبد الملك: جمع قبيصة عدداً من المهام في عهد عبد الملك، وتعددت مسميات مهامه عند عبد الملك، فيذكر ابن سعد[3]، وابن عساكر، وابن عبد الهادي: إن قبيصة كان على الخاتم والبريد، وأما الذهبي، فقد ذكر هذه المهام السابقة وأضاف أخرى حيث ذكر أنه كان كاتباً لعبد الملك، ووصفه بأنه الوزير[4]. وكان يدخل على عبد الملك طروقاً[5]، وأن عبد الملك تقدم إلى حاجبه فقال: لا يحجب قبيصة أي ساعة جاء من الليل أو نهار إذا كنت خالياً أو كان عندي رجل واحد، أو كنت عند النساء أدخل المجلس ثم أعلمت مكانه. وكانت تأتيه الأخبار قبل عبد الملك فيقرأ الكتب قبله ثم يأتي بها منشورة إلى عبد الملك فيقرأها إعظاماً لقبيصة[6]، فقبيصة بهذا كان وزيراً لعبد الملك ومستشاراً له وساعده الأيمن في إدارة الدولة وتصريف شئونها، وكان ملازماً له في سفره وإقامته[7].

ب - موقف قبيصة من محاولة عبد الملك خلع أخيه عبد العزيز: كان مروان بن الحكم قد عقد ولاية العهد لابنيه عبد الملك ومن بعده عبد العزيز[8]، وبعد وفاة مروان تمت البيعة بالخلافة لعبد الملك بولاية العهد لأخيه عبد العزيز بن مروان من قبل المؤيدين لبني أمية، ثم

---

(1) الطبقات (5/ 231).
(2) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص: 124.
(3) الطبقات الكبرى (5/ 234).
(4) المصدر نفسه (5/ 234).
(5) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 125.
(6) الطبقات الكبرى (5/ 234).
(7) المصدر نفسه (5/ 230).
(8) تاريخ خليفة، ص: 261.

تأكدت تلك البيعة من الأمة بعد مقتل ابن الزبير ونهاية سلطانه، ولكن عبد الملك بعدما استقرت له الأمور، وتذوق حلاوة الملك في دنياه ورغب في استمرار الذكر له بعد الوفاة لاسيما وقد رأى أن كل من ابنيه الوليد وسليمان قد بلغ من الرشد مبلغه، وتحركت فيه عاطفة الأبوة تجاههما، وأحب أن يصرف ولاية العهد من بعده لهما دون أخيه عبد العزيز، وكان قد عزم على ذلك إلا أن قبيصة بن ذؤيب نهاه عن ذلك، فقد أورد ابن سعد هذا الخبر: قالوا: كان عبد الملك بن مروان قد همّ أن يخلع أخاه عبد العزيز بن مروان ويعقد لابنيه الوليد وسليمان بعده بالخلافة، فنهاه قبيصة بن ذؤيب وقال: لا تفعل هذا فإنك تبعث عليك صوتاً نعار[1]، ولعل الموت يأتيه فتستريح منه، فكف عبد الملك عن ذلك ونفسه تنازعه أن يخلعه فدخل عليه ليلة روح بن زنباع الجذامي وكان يبيت عند عبد الملك، وكان أحلى الناس كلاماً عند عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين لو خلعته ما انتطحت فيه عنزان، قال: ترى ذلك يا أبا زرعة؟ قال: أي والله وأنا أول من يجيبك إلى ذلك، فقال: نصبح إن شاء الله، فبينما هو على ذلك، وقد نام عبد الملك بن مروان وروح بن زنباع إلى جنبه إذ دخل عليهما قبيصة بن ذؤيب.. فقال: آجرك الله يا أمير المؤمنين في أخيك. فقال: فهل توفي؟ قال: نعم. فاسترجع عبد الملك بن مروان ثم أقبل على روح فقال: : أبا زرعة كفانا الله ما كنا نريد وما أجمعنا عليه[2].
ومن خلال هذا الموقف لقبيصة يمكن أن نستشف منهجه في التعامل مع عبد الملك كمشير ووزير، ويتمثل ذلك المنهج في صدقه في النصيحة ومراعاة المصلحة العامة للأمة والدولة، فهو لم يجامل عبد الملك بموافقته له فيما يوده ويهواه، بل دفعه إخلاصه لله وتقديره لمصلحة الأمة بعامة والبيت الأموي بخاصة أن يقول رأيه بصراحة وإن كان يعلم أنه يخالف ما في نفس عبد الملك ويضاد رغباته وعواطفه تجاه بنيه[3].

ج - موقفه من محنة الإمام الجليل سعيد بن المسيب: بعد وفاة عبد العزيز بن مروان عقد عبد الملك البيعة من بعده لابنيه الوليد وسليمان، وبعث إلى البلدان لأخذ البيعة لهما، ففي المدينة دعا واليها هشام بن إسماعيل المخزومي الناس إلى البيعة فبايعوا إلا سعيد بن المسيب فإنه أبى وقال: انظر، فضربه هشام وطاف به ثم سجنه وبعث إلى عبد الملك يخبره بما فعل[4]. وكانت الرسائل تصل إلى قبيصة بن ذؤيب ويقرؤها قبل عبد الملك، فلما وصل كتاب هشام واطلع على ما فيه كان له موقف من تصرف هشام مع سعيد بن المسيب يصور لنا ابن سعد هذا الموقف: . . . دخل قبيصة بن ذؤيب على عبد الملك بن مروان بكتاب هشام بن

(1) النعار : العاصي والخرّاج السعّاء في الفتن.
(2) الطبقات الكبرى (5/ 233، 234).
(3) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 136.
(4) سير أعلام الذهبي (4/ 230)، الطبقات (5/ 126).

إسماعيل يذكر أنه ضرب سعيداً وطاف به قال قبيصة: يا أمير المؤمنين يقتات عليك هشام بمثل هذا؟ يضرب ابن المسيب ويطوف به؟ والله لا يكون سعيد أبداً أمحل وألج[1] منه حين يضرب، سعيد لو لم يبايع ما كان يكون منه؟ ما سعيد مما يخاف فتقه ولا غوائله على الإسلام وأهله، وإنه لمن أهل الجماعة والسنة. وقال قبيصة: اكتب إليه يا أمير المؤمنين في ذلك. فقال عبد الملك: اكتب أنت إليه عني تخبره برأيي فيه ومخالفتي من ضرب هشام إياه. فكتب قبيصة إلى سعيد بذلك. فقال سعيد حين قرأ الكتاب: الله بيني وبين من ظلمني[2]، وكتب إلى والي المدينة كتاباً باسم عبد الملك: سعيد كان والله أحوج إلى أن تصل رحمه من أن تضربه، وإنا لنعلم ما عند سعيد شقاق ولا خلاف[3]. ويتضح من هذا أثر قبيصة الكبير في صياغة موقف عبد الملك وقراره في مثل هذه القضايا المهمة والخطيرة، كما يظهر أثره الفعال في إطفاء الفتن وحسن معالجته لها معالجة تنم عن بعد نظره ومعرفته بعواقب الأمور منطق إرضاء الله أولاً ثم الحرص على مصلحة الأمة والدولة ثانية[4].

د - محاولته إصلاح بطانة عبد الملك: كانت له محاولات تستهدف إصلاح بطانة عبد الملك وذلك بتقريب العلماء له وجعلهم ضمن جلسائه ليكثر بذلك سوادهم عنده ويكون تأثيرهم أقوى وأنفع، ومن ذلك محاولته تقريب الإمام الزهري إلى عبد الملك فتشير بعض الروايات التي ذكرت صلة الزهري بعبد الملك أن الزهري خرج من المدينة لما اشتد به ضيق ذات اليد وساءت أحوال أهله وليس له مورد فرحل إلى الشام، وذكرت بعض الروايات أنه اتصل بقبيصة وجالسه مدة قبل اتصاله بعبد الملك[5]، وقد أكرم قبيصة الزهري وقال له: ائتني في المنزل فلحق به الزهري فلما بلغ منزله كساه ومنحه بغلة ومائة دينار وغلاماً[6]، وعمل على تعريف عبد الملك بمكانة الزهري العلمية حتى أصبح من أصحابه وفرض له العطاء وتوطدت العلاقة بين الزهري وعبد الملك، وتكرر الدخول على عبد الملك بانتظام شأنه شأن أصحابه وجلسائه، ولكن حرص الزهري على العودة إلى المدينة لمواصلة طلب العلم وتولي مؤونة أهله وذويه جعله يرحل وينقطع عن عبد الملك فكانت صلته هذه على يد قبيصة بداية اتصال الزهري بخلفاء بني أمية بعد عبد الملك[7]وقد قال ابن سعد في أثر قبيصة لتقريب الزهري لبني أمية بقوله: وهو الذي أدخل الزهري على عبد الملك بن مروان ففرض له ووصله وصار من أصحابه[8]. وكان هذا من قبيصة حرصاً على مصلحة الزهري، كما كان همه إصلاح بطانة عبد

(1) المَحْل: المكر والكيد، وماحله مماحلة ومحلاً: قاومه حتى تبين أيهما أشد، واللجاجة: الخصومة.
(2) الطبقات (5/ 126، 127).
(3) المصدر نفسه (5/ 126) أثر العلماء، ص: 140.
(4) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 141.
(5) سير أعلام النبلاء (5/ 329).
(6) المصدر نفسه (5/ 329).
(7) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 143.
(8) الطبقات (7/ 447).

الملك وتكثير سواد أهل العلم والصلاح في بلاطه مما سيكونه له أثر في توجيه سياسة الدولة نحو الأصلح بالتأثير على عبد الملك من قبل جلسائه وبطانته[1].

وقال الذهبي عن قبيصة: الإمام الكبير، الفقيه، أبو سعيد الخزاعي، وعن الشعبي قال: كان قبيصة أعلم الناس بقضاء زيد بن ثابت، وعن ابن شهاب، قال: كان قبيصة بن ذؤيب من علماء هذه الأمة. وعن مكحول قال: ما رأيت أحداً أعلم من قبيصة. وقد توفي سنة 86 هـ وقيل: 87 هـ وقيل: سنة88 هـ[2].

2 - عطاء بن أبي رباح ونصيحته لعبد الملك:

دخل عطاء بن أبي رباح على عبد الملك وهو جالس على السرير وحوله الأشراف وذلك بمكة في وقت حجه في خلافته، فلما بَصُر به عبد الملك قام إليه فسلم عليه وأجلسه معه على السرير وقعد بين يديه وقال: يا أبا محمد، حاجتك؟ قال: يا أمير المؤمنين اتق الله في أولاد المهاجرين والأنصار، فإنك بهم جلست هذا المجلس، واتق الله في أهل الثغور فإنهم حصن المسلمين، وتفقد أمور المسلمين فإنك وحدك المسئول عنهم، واتق فيمن على بابك فلا تغفل عنهم ولا تغلق دونهم بابك. فقال له: أفعل، ثم نهض، وقام فقبض عليه عبد الملك وقال: يا أبا محمد إنما سألتنا حوائج غيرك، وقد قضيناها فما حاجتك؟ فقال: مالي إلى مخلوق حاجة، ثم خرج، فقال عبد الملك: هذا وأبيك الشرف، هذا وأبيك السؤدد[3]. وكان بنو أمية في عهدهم يأمرون منادياً يصيح في الحج: لا يُفتي الناس إلا عطاء بن رباح، فإن لم يكن عطاء، فعبد الله بن أبي نجيح[4]، وقد فاق عطاء أهل مكة في الفتوى[5]وكان المسجد فراش عطاء عشرين سنة، وكان من أحسن الناس صلاة[6]، وكان معاشه صلة الإخوان ونيل السلطان[7]، ومن أقوال عطاء: إن من قبلكم كانوا يعدون فضول الكلام ما عدا كتاب الله، أو أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو أن تنطق في معيشتك التي لابد لك منها، أتنكرون أن عليكم حافظين كرام كاتبين، عن اليمين وعن الشمال قعيد، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد، أما يستحي أحدكم لو نشرت صحيفته التي أملى صدر نهاره وليس فيها شيء من أمر آخرته[8]، وعن عطاء: إن الرجل ليحدثني بالحديث، فأُنصتُ له كأني لم أسمعه، وقد سمعته قبل أن يولد[9]. وعطاء هذا الذي كان مرجع الأمة في موسم الحج كان أسود أعرج، أفطس،

---

(1) أثر العلماء، ص: 143.
(2) سير أعلام النبلاء (4/ 238، 282).
(3) المصدر نفسه (5/ 84، 85).
(4) المصدر نفسه (5/ 82).
(5) المصدر نفسه (5/ 82).
(6) المصدر نفسه (5/ 84).
(7) المصدر نفسه (5/ 84).
(8) المصدر نفسه (5/ 86).
(9) المصدر نفسه (5/ 86).

أعور ثم أعمى، من الموالي، فهذا الذي تجمعت فيه كل العاهات الجسدية جعلته الحضارة الإسلامية رأس الفتوى في أقدس بقعة عند المسلمين في مكة، فضلاً عن كونه من أشهر علماء الحجاز الذين يستقطبون طلبة العلم من مختلف أرجاء المعمورة(1).

3 - يزيد بن الأصم وإجابته لعبد الملك:

سأل عبد الملك يزيد بن الأصم عن معنى قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: 83] فأجاب بكل صراحة بقوله: التجبر في الأرض، والأخذ بغير الحق - أي من العلو والفساد في الأرض - فنكس عبد الملك برأسه، وجعل ينكث في الأرض، وكان إطراق عبد الملك وتنكيسه لرأسه حياء من يزيد لإدراكه أنه المعني لذلك بالتوجيه(2).

ثانياً: عبد الملك والشعر والشعراء:

كان عبد الملك بن مروان راوياً للشعر ناقداً له، كثير الاستشهاد به في كثير من المناسبات يكثر من الأسئلة والمحاورة منه في مجلسه، فضلاً عن اهتمامه بمعانيه، كما كان يعلم خطورته في التأثير الإعلامي في كسب الأنصار والهجوم على خصومه، ولذلك اهتم بالشعراء اهتماماً كبيراً ووظفهم لمدحه ودولته وبني أمية ولم يبخل عليهم بالعطاء، ولذلك كان كبار شعراء عصره من الأمويين مثل الأخطل، والفرزدق، وجرير، وغيرهم، كما أنه عمل على كسب خصومه حتى أنهم مدحوه بعد أن هجموا عليه بقصائد قوية في سبه وذمه مثل: عبيد الله الرقيات، وإليك شيء من شعر شعراء الدولة الأموية:

1 - الأخطل:

هو غياث بن غوث التغلبي النصراني شاعر زمانه وقد قيل للفرزدق: من أشعر الناس؟ قال: كفاك بي إذا افتخرت، وبجرير إذا هجا، وبابن النصرانية إذا امتدح(3)، وكان عبد الملك بن مروان يجزل عطاء الأخطل، ويفضله في الشعر على غيره(4)، فقد كان شاعر الدولة الرسمي الذي أكثر من مدح خلفائها، والدعاية لها، والترويج لسادتها نحو ربع قرن(5)، ومن مدحه في بني أمية:

تمت جدودهم والله فضلهم ... وجد قوم سواهم خامل نكد
وأنتم أهل بيت لا يوازنهم ... بيت إذا عدت الأحساب والعدد(6)

---

(1) رعاية الفئات الخاصة، ص: 9.
(2) تاريخ دمشق نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية، ص: 275.
(3) سير أعلام النبلاء (4/ 589).
(4) المصدر نفسه (4/ 589).
(5) أدب السياسة في العصر الأموي، ص: 492.
(6) ديوان الأخطل، ص: 174.

ومن شعره المتميز في بني أمية قوله:

حُشُدٌ على الحق عيّافو الخنا أُنُفٌ ... إذا ألمَّتْ بهم مكروهةٌ صبروا
شُمْسُ العداوةِ حتى يُستَقاد لهُمْ ... وأعظمُ الناسِ أحلاماً إذا قَدَروا[1]

وكان كثير المديح لعبد الملك والتنويه بصلاح السياسة في عهده كقوله:

إلى إمام تغدينا فواضله ... أظفره الله فليهنأ له الظفر
الخائض الغمر والميمون طائره ... خليفة الله يستقسى به المطر
والمستمر به أمر الجميع فما ... يغتره بعد توكيد له غرر
نفسي فداء أمير المؤمنين إذا ... أبدى النواجز يوماً عارم ذكر[2]

وعرف الأخطل بأنه يعاود شعره بالتنقيح والصقل، حتى لقد قالوا إنه كان ينظم القصيدة تسعين بيتاً ثم يضرب عن ستين ويبقي ثلاثين، وهذا هو السبب في جودة تعبيره، وندرة سقطه وهو بهذا يشبه المنقحين القدماء، مثل زهير والحطيئة وأضرابهما مما سماهم الأصمعي عبيد الشعر[3]. ومن أحسن ما قال من الشعر قوله:

والناس همهم الحياة ولا أرى ... طول الحياة يزيد غير خبال
وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ... ذخراً يكون كصالح الأعمال[4]

2 - الفرزدق:

هو همام بن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال بن مجاشع[5]، وكان ممن مدح بني أمية وقال في عبد الملك بن مروان:

فالأرض لله ولأها خليفته ... وصاحب الله فيها غير مغلوب
بعد الفساد الذي قد كان قام به ... كذاب مكة من مكر وتخريب
راموا الخلافة في غدر فأخطأهم ... منها صدور وفازوا بالعراقيب
والناس في فتنة عمياء قد تركت ... أشرافهم بين مقتول ومحروب
دعوْا ليستخلف الرحمن خيرهم ... والله يسمع دعوى كل مكروب
فأصبح الله ولّى الأمر خيرهم ... بعد اختلاف وصدع غير مشعوب
تراث عثمان كانوا الأولياء به ... سربال ملك عليهم غير مسلوب[6]

(1) الشعر والشعراء لابن قتيبة (1/ 495).
(2) عارم ذكر: نكبة شديدة وأذى مهلك، أدب السياسة، ص: 500.
(3) أدب السياسة في العصر الأموي، ص: 501.
(4) سير أعلام النبلاء (4/ 590).
(5) الشعر والشعراء (1/ 471).
(6) أدب السياسة في العصر الأموي، ص: 149، الديوان (1/ 25).

وكان للفرزدق أخٌ شاعر وهو هميم وهو القائل:

لعمر أبيك فلا تكذبن ... لقد ذهب الخير إلا قليلا
وقد فتن الناس في دينهم ... وخلّى ابن عفان شراً طويلا[1]

3 - جرير:

هو جرير بن عطية بن الخطفي التميمي البصري مدح خلفاء بني أمية، وشعره مدون[2]، وقد مدح عبد الملك ووصفه بأنه ركن الدين، والحفيظ على أحكام الشرع، ولولاه ما اجتمع المسلمون في صلواتهم في المساجد في الجمع، ثم يصفه بأنه أمين الله، والمبارك الذي يهدي به الله عباده، ويقول إن أوامره ميمونة مطاعة وإن الله فضل بني أمية على غيرهم من أهل البدع، يريد الأحزاب المعادية لبني أمية[3]، حيث قال:

لولا الخليفة والقرآن يقرأه ... ما قام للناس أحكام ولا جمع
أنت الأمين أمين الله لا سرف ... فيما وليت ولا هيابة ورع[4]
أنت المبارك يهدي الله شيعته ... إذا تفرقت الأهواء والشيع
فكل امرئ على يمن أمرت به ... فينا مطاع ومهما قلت يستمع
يا آل مروان إن الله فضلكم ... فضلاً عظيماً على من دينه البدع[5]

ومدح عبد الملك بقصيدة جاء فيها:

سأشكر إن رددت علي ريشي ... وأنبتّ القوادم من جناحي
ألستم خير من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطون راح

فقال عبد الملك: من مدحنا فليمدحنا بمثل هذا أو ليسكت، ووهبه مائة ناقة، فسأله الرعاء، فوهبه ثمانية أعبد، ورأى صحاف ذهب بين يديه فقال: يا أمير المؤمنين والمحلب[6]، وأشار إليها، فنحاها إليه بالقضيب وقال: خذها لأنفعتك[7]. وكان في جرير على هجائه للناس عفة ودين، وحسن خلق، ورقة طبع، اتفق علماء الأدب وأئمة نقد الشعر على أنه لم يوجد في الشعراء الذين نشأوا في ملك بني أمية أبلغ من جرير والفرزدق والأخطل وإنما اختلفوا في أيهم أشعر[8]. وإن لجرير في كل باب من الشعر أبياتاً سائرة، هي الغاية التي يضرب بها المثل:

---

(1) الشعر والشعراء (1/ 472).
(2) سير أعلام النبلاء (4/ 591).
(3) أدب السياسة في العصر الأموي، ص: 147، 148.
(4) سرف: متجاوز الحد. ورع: جبان.
(5) ديوان جرير، ص: 355.
(6) المحلب: الإناء.
(7) شذرات الذهب (2/ 57).
(8) جواهر الأدب (2/ 151).

أ - فيقال إن أغزل شعر قاله العرب هو قوله:

إن العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحيينا قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهنَّ أضعف خلق الله إنسانا

ب - أفخر بيت قوله:

إذا غضبت عليك بنو تميم رأيت الناس كلهم غضابا

جـ - أهجى بيت مع التصون عن الفحش قوله:

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعب بلغت ولا كلابا

د - أصدق بيت قوله:

إني لأرجو منك خيراً عاجلاً والنفس مولعة بحب العاجل

هـ - أشد بيت تهكماً قوله:

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً أبشر بطول سلامة يا مربع[1]

ومن جيد شعره قوله من قصيدة يرثي به امرأته:

لولا الحياء لهاجني استعبار ولزرت قبرك والحبيب يزار
ولقد نظرت وما تمتُّع نظرة في اللحد حيث تمكن الإحفار
ولَّهتِ قلبي إذ علتني كبرة وذوو التمائم من بنيك صغار
لا يلبث القرناء أن يتفرقوا ليل يكرُّ عليهم ونهار[2]
صلى الملائكة الذين تخيَّروا والطيِّبون عليكِ والأبرار
فلقد أراكِ كسيت أحسن منظر ومع الجمال سكينة ووقار
كانت إذا هجر الحبيبُ فرَاشَها خُزِنَ الحديث وعَفَّتِ الأسرار[3]

وكان قد افتخر على الأخطل في قصيدة وبين أن عبد الملك ابن عمه ولو شاء ساق إليه قبيلة الأخطل حيث قال:

إن الذي حرم المكارم تغلبا جعل النبوة والخلافة فينا
هل تملكون من المشاعر مشعرا أو تشهدون مع الأذان أذينا؟
مضر أبي وأبو الملوك فهل لكم يا خُرزَ تغلب من أب كأبينا
هذا ابن عمي في دمشق خليفة لو شئت ساقكم إليَّ قطينا[4]

---

(1) جواهر الأدب (2/ 152).
(2) المصدر نفسه (2/ 152).
(3) الشعر والشعراء (1/ 491).
(4) القطين: العبيد والإماء في هذا الموضوع.

قال الذهبي عن جرير: كان عفيفاً منيباً، توفي 110هـ بعد الفرزدق بشهر[1].

4 - الراعي:

من كبار الشعراء، هو أبو جندل، عبيد بن حصين النُّميري، وإنما لقب بالراعي لكثرة ما يصف الإبل في شعره، وقد امتدح عبد الملك[2]، وانضم إلى الفرزدق على جرير فقال فيه جرير قصيدته المشهورة التي صارت وبالاً على بني نمير:

أَقِلِّيَ اللوم عاذل والعتابا وقولي إن أصبت لقد أصابا

وفيها يقول له:

فغض الطرف إنك من نُمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

وأهم ما بقي للراعي لاميته التي مدح بها عبد الملك بن مروان ويشكو له العريف أو الجابي، ويرجو التخفيف عن قومه، ويتبرأ من الخوارج النجدية والزبيريين ويعد نفسه بذلك مخلصاً للأمويين[3]، ويبدو الراعي كان أموياً لأجل قومه ورغبة في عبد الملك أن يرفع عن قومه ظلم الجباة، ومن شعر الراعي لعبد الملك:

إنّي حلفت على يمين برَّة لا أكذب اليوم الخليفة قيلا
ما إن أتيت نُجيدة بن عويمر أبغي الهدى فيزيدني تضليلا[4]

إلى أن قال في رواية أخرى:

أخليفة الرحمن إنا معشر حُنفاء نسجد بكرة وأصيلا
عُربٌ نرى لله في أموالنا حق الزكاة منزلاً تنزيلا
إن السُّعاة عصوك يوم أمرتهم وأتوا دواهي لو علمت وغُولا[5]
أخذوا العريف فقطعوا حيزومه بالأصبحية قائماً مغلولا[6]
إن الذين أمرتهم أن يعدلوا لم يفعلوا مما أمرت فتيلا
فادفع مظالم عيَّلَت أبناءنا عنا وأنقِذْ شِلْونا المأكولا[7]

(1) سير أعلام النبلاء (4/ 591).
(2) المصدر نفسه (4/ 598).
(3) تاريخ الشعر السياسي، ص: 371.
(4) طبقات فحول الشعراء (2/ 508).
(5) الغول : الهلكة والداهية.
(6) العريف : شيخ القبيلة، حيزومه: وسطه، الأصبحية : جمع أصبحي وهو السوط نسبة إلى ذي أصبح وهو ملك يمني.
(7) عيلت : أجاعت. شلو : عضو، أدب السياسة في العصر الأموي، ص: 172.

هؤلاء من أشهر شعراء عهد عبد الملك، وكان يهتم بهم ويسمع لهم ويجزل لهم في العطاء وكسبهم في صفه، وأصبحوا من أبرز المدافعين عن الخليفة ودولته، وكان لا يتورع عن دفع الأموال للشعراء ما داموا يمدحون ويبجلون خلفاء بني أمية.



الفهرس

المبحث الثالث: معاوية بن أبي سفيان في عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه

الفصل الثاني: بيعة معاوية وأهم صفاته ونظام حكمه

الفصل الرابع: الفتوحات في عهد معاوية رضي الله عنه

الفصل الخامس: عهد يزيد بن معاوية بن أبي سفيان

الفصل السادس: عهد أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير رضي الله عنه

الفصل السابع: عهد أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان دون الفتوحات





دار المعرفة
للطباعة والنشر
هاتف : 834301 ـ 834332 ـ 01 858830
فاكس : 835614 01 ص.ب: 7876 / 11 بيروت ـ لبنان
البريد الالكتروني : e-mail: info@marefah.com
www.marefah.com